اقرأ

فتحي رضوان

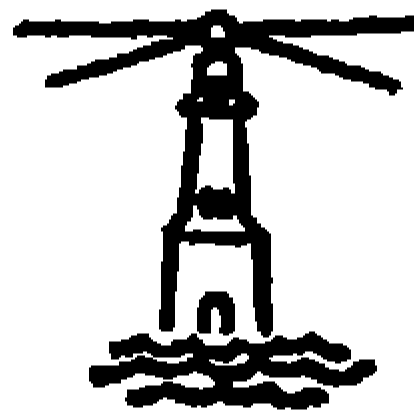
الإسلام والإنسان المعاصر





تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر



فتحي رضوان

الإسلام والإنسان المعاصر

اقرأ ٤٠٦

دار المعارف بمصر

(اقرأ ٤٠٦)

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

مقدمة

الإسلام

إنسانى :

الأصل أن كل الشرائع إنسانية ، فما يضع مشرع قانوناً ، إلا وغايته أن يوفر للجماعة التى وضع لها هذا القانون ، الأمن والقوة والسعادة : فإن لم ينص القانون على ما يوفر هذه الغايات الكبرى . فالأمر لا يخرج عن حالين : إما أن يكون ذلك عن قصور واضع الشرع ، وعجزه عن تبين ما يحقق للناس السلام والرفاهية ، وإما كرهه لذلك ، ولكنه يضمره ويخفيه ، ويدعى معه أنه يسعى لما يسعد الناس . ويجهد فى فتح سبيل القوة والمنعة لهم ، وقد يجد من يروج له دعواه ، ثم يجد من يصدقها ، ومع مر الأيام ، تسوق له الظروف من يسبغ عليه — جهلا أو غرضاً — صفة المشرع الحكيم ، والحاكم الرفيق .

فالمشرعون جميعاً يبتغون أمن الناس ودعتهم حقاً ، أو ادعاء ، ولكن ليس فى واضعى القوانين ، من يقول إننى وضعت القوانين لأعذب عباد الله وأنزل عليهم لعنات الجوع والضعف ، وأنزع من قلوبهم الطمأنينة والسكينة .

فالشرائع كلها ، إنسانية حقاً ، أو منتسبة إلى الإنسانية ادعاء .

فإذا كان ذلك صحيحاً ، فما معنى قولنا إن الإسلام ، أو شرعه هو شرع إنسانى . إذ ما دام يتساوى مع غيره من الشرائع فى الصفة فليس ثمة مقتض للتنويه بها والوقوف عندها ..

على أن الأمر لا يزال محتاجاً لكلمات فى هذا المعنى .

فالإسلام هو الشريعة التى استأثر بها وبأحكامها الاهتمام بالإنسان، والاحتفال بشئونه ، ورعاية كل ما يتصل به : مبدئه ونفسه وروحه ، وعقله وعقيدته وفكرته ، وعمله ، وبدايته ، ونهايته ، وثوابه وعقابه ، وتفرده ، ووحدته ، واندماجه وجماعته ، وأبنائه وزوجته ، وأمواله وثروته ، وناره ، وجنته ، وضعفه وقوته ، وفضائله ورذائله ، ودعاويه ، وأباطيله ، والأمل فيه ، واليأس منه ، وأمور أخرى لا تعد ولا تحصى ، تتصل بالإنسان قبل أن يخلق آدم ، حتى آخر الزمان ، هى مصدر كل ، أحكام القرآن ، بل كل الإسلام ، بكتابه وسنته ، وإجماعه وأقيسته ، ووسائله كلها فى التشريع والتقنين .. ولست تجد فى الأديان ، منزلة وغير منزلة ، ولا فى الكتب ، إلهية أو بشرية ، أو فى المذاهب فلسفية أو دينية أو فى المناهج قديمة أو حديثة ، من جعل الإنسان أساساً ومصدراً ثم جعله وسيلة وغاية ، ثم جعله مجالا للبحث ، ثم جعله رائداً يبحث ، وينقب ، وينظر فى نفسه ، وفى الآفاق ، وفيما حوله ، وفيما سبقه ، كما فعل القرآن الذى يصفه الرسول فيقول : هو نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم » .

وليس هذا سوى بيان لما يشمل القرآن .

وليس الاحتفال بالإنسان لمجرد تحرى أموره ، والإحاطة بشئونه ، لا ، فغير الإسلام : تحرى وأحاط أو سعى لذلك ، أما القرآن فغايته من الشمول والتعمق ، الحرص غاية الحرص ، على كرامة الإنسان أولا وقبل كل شىء : كرامته طفلا وصبياً وشاباً ، وشيخاً وهرماً . كرامته ذكراً، وأنثى ، عبداً وحراً ، حياً وميتاً ، كرامته مؤمناً بالله ، مطيعاً لأحكامه وكافراً مجدفاً ، بل ثائراً متمرداً على حكومة المسلمين ، فالكافر والمتمرد ، ينالان جزاءهما بلا تمثيل بهما ، ولا حقد عليهما .

« إياكم والمثلة » هى طاقة صغيرة من الطاقات التى نطل منها على الشرائع الإسلامية ، فالرسول ينهى أتباعه عن أن يمثلوا بأعدائهم الذين

قتلوهم فى القتال ، فجثة الإنسان بعد موته كالإنسان نفسه فى حياته ، جديرة بالتكريم والإجلال .

وما دام الإنسان كريماً على القرآن وعلى الإسلام ، فالتشريع يجعله قبلة المشرع وهدفه ، فلا يضحى به حتى لنشر العقيدة ، ولو كانت عقيدة الإسلام ، ولا لصالح الدولة ولو كانت دولة المسلمين ، ولا لاستقرار الأسرة ولو كانت من فئة المؤمنين ، ولا لحماية الثروة ولو كانت ثروة أتباع محمد رسول الله .

بعض الشرائع يهمها أن يكون الإنسان قوياً، وغنياً ، وصحيح البدن ، وسليم العقل . وترى أن سبيل ذلك هو إقامة دولة كبيرة، عزيزة الجانب ولذلك فهى تقدم الدولة ، واعتبارات أمنها ،ومقتضيات قوتها ، على الإنسان وكرامته ، فتجعل من حق الدولة أن تمنعه عن الكلام ، وأن تقيد حركته ، وأن تجعل دوره فى الدنيا طاعة الدولة ، والإعجاب بها ، والفناء فيها وفى تأليهها وعبادتها .

وبعضها يرى أن النظام الاقتصادى فى المجتمع ، هو سبيل سعادة أفراده ، ولذلك فهى تضع فى خدمة هذا النظام الاقتصادى كل الإنسان : جهده العضلى ، وطاقته النفسية ، وقدرته العقلية ، وحركاته . فإذا كان تقدم هذا النظام لا يستقر إلا على أطلال وأنقاض الإنسان ، وإحالته رقيقاً ، كان الرق مشروعاً ، وكان ما يشبه الرق من أنظمة جائزاً . وإذا كانت الأسرة ، نواة المجتمع ، وسلطة الأب ، هى ضمان تماسك هذه الأسرة كان من حق الآباء أن يتصرفوا فى أولادهم تصرف المتاع ، فيقتلوهم إن شاءوا ، ويبيعوهم إن أرادوا ، ويقيدوا حريتهم إن استحسنوا .

وإذا كان النظام الاجتماعى بطبقاته، يستلزم لاستتباب الأمر له ،أن تكون الطبقة الكبيرة فيه ، هى المستأثرة بكل ما يؤدى إلى القوة من مال ، وكهانة ، وعلم، وحكم . وضع النظام بحيث لا يرث المال إلا الذكور

المحاربون ، وبحيث يجوز قتل البنات أو وأدهن وبحيث يكون الدين احتكاراً لهذه الطبقة والوجاهة الاجتماعية ، حقاً خالصاً لها .

وكم من أنظمة قانونية وشرائع ، مخلصة غاية الإخلاص ، لما تؤمن به ، وتعمل له من إنشاء مجتمع قوى ، سعيد ، قادر على مواجهة الخطر ، ومنافسة الأعداء ، ولكنها لا تحسب للإنسان وكرامته حساباً كبيراً ، بل قد ترى فى هذا الحساب وهناً فى الطبع ، أو ضعفاً فى النظام ، أو خبلا سياسياً ، يلقى بالمجتمع الذى يصاب به ، لقمة سائغة بين فكى الأنظمة المعادية .

ولذلك كان من حق الإسلام أن يباهى المؤمنون به ، بصفته الإنسانية ، وأن يقولوا إن هذه ليست صفة من صفاته ، بل إنها جوهره وأساسه ، منها تتفرع كل الخصائص والصفات ، وتصدر كل المزايا والفضائل .

فالإسلام لا يقدم على الإنسان شيئاً ، حتى العقيدة ، فنشر الإسلام نفسه ، ودعوة الناس إليه ، والعمل على غلبة هذا الدين ، لكى يكون الدين كله لله ، لا يسمح من أجله بإهدار كرامة الإنسان ، أو إرهابه أو إهدار دمه، فسبيل الإسلام إلى كل شىء ، حتى الضرب على أيدى الجناة والسارقين ، والكفرة والمشركين ، وقطاع الطرق ، وهاتكى العرض ، يتم فى حدود ، لا يجوز تجاوزها ، وهذه الحدود هى مراعاة كرامة الإنسان لأنها تعلو على السلطان ، وعلى المال ، وعلى المزايا الاجتماعية ، وعلى الأنظمة الطبقية ، وعلى العقيدة ومقتضيات الدفاع عنها ، أو قل إن هذه الكرامة قد اندمجت فى العقيدة ، فأصبحتا شيئاً واحداً ، فلم تعد تعرف ، أتكون العقيدة هى كرامة الإنسان ، أم تكون كرامة الإنسان هى العقيدة .

خلاقى :

قلنا إن جوهر التشريع الإسلامى ، هو رعاية الإنسان ، وكرامته بالإكبار من قدره ، وتحاشى المساس به ، أو الإساءة إليه ، أياً كان جنسه ودينه ولونه ، وبلده وسنه ، وحظه من العلم والمال والسلطة والنفوذ ؟ فما دام هذا هو جوهر الشرع الإسلامى وأساسه ، فكيف يتيسر له أن يقيم نظامه القانونى ، وأن يضع القواعد العامة الملزمة للناس ، وأن يحملهم على طاعتها والانقياد لها ، والتسليم بوجوب احترامها .

إن القوة وحدها ، تتعارض مع هذا الجوهر ، والنظام القائم على عمد من التقاليد ، والمخاوف الموروثة ، والأوهام المتسلطة على العقول والقلوب ، إهدار للآدمية ، وتدمير لأحسن ما فى الإنسان : حريته ، واطمئنانه ، وفرحه المنبعث من أعماق وجدانه ، وحبه للحياة وللناس ، واستبشاره بالمستقبل وباليوم الجديد .

فلم يبق للشرع الإسلامى ، إلا الأخلاق ، أو الضمير ، والارتقاء به إلى مستوى القانون والسلطان وجعله داعياً رفيقاً ، لطيف الصوت مأنوس النبرة ، حلو الإشارة ، عذب العبارة ، يقترب ، ويتواضع ، ويتساءل ، ولا يكاد يجيب . لا يأمر أبداً ، ولا ينهى أبداً ، ولا يهجم ولا يغضب أبداً .

ثم هو بعد ذلك المرشد الهادى ، يمسك باليد ، ولا يدع الإنسان يشعر بوحدته ، ووحشته ، وضعفه أمام الكون ، وعزلته عن الناس وحيرته بين ما يتمناه ، وما يقدر عليه ، فإذا ثبتت قدم الإنسان ، وزال عنه تردده ، وعرف طريقه بين المسالك الوعرة ، — وأدرك أن الصوت اللطيف الذى لم يكن يأمر وينهى ، هو صوته هو ، خرج منه إليه وجاء به إلى ذاته ، وأنه بعد طول الأناة والصبر ، وبعد التدرج والتطور ، يملك أن يؤاخذ وأن يشتد .

هذه الطاقة الوجدانية الداخلية هي أقوى ما في الإنسان ، وهي التي صنعت المبادئ وصاغت العقائد ، وحركت الجيوش ، وأقامت الدول ، وألهمت القلوب وأرهفت العقول ، ومنحت الألسن وقودها ، والأقلام مدادها .

والإسلام عرف أن تفجير هذه الطاقة ، وتوجيهها ، هو المجال الذي يجب أن يعمل فيه ، إن أراد أن يلتزم جوهره ، وأن يقيم بناءه على أساسه .

وقد لازم هذا المنهج الأخلاقي ، الإسلام منذ بدايته ، فلما أوحي إلى رسول الله في غار حراء وهو يتعبد في الجبل ، بعيداً عن الناس ، وذهب إلى زوجته خديجة بنت خويلد وهو يرتجف ، هدأت روعه وقالت له : « أبشر يابن العم وأثبت ، فوالذي نفس خديجة بيده ، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ، ووالله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق » .

إنها شهادة بحسن أخلاق محمد وقوتها ، فلم تشهد له آنذاك بشيء من حدة العقل ، أو شدة البأس ، أو رفعة القدر ، بل شهدت له بأنه على خلق عظيم ، وهو نفس ما شهد له به القرآن ، بعد أن درجت الدعوة في مدارجها ، وخرجت من غار حراء ، لتسمع قريشاً بأمرها ، وأهل مكة جميعاً ، وما حولها من قرى . . فقد شهد له القرآن الكريم : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

ولما نزل القرآن يدعو محمداً إلى عرض عقيدته على ذويه قائلا : « وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون » . أطاع الرسول أمر السماء ، وذهب إلى عشيرته ، فماذا قال لهم ، لييسر عليهم قبول دعوته ، قال :

« أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم

أكنتم تصدقونى ، قالوا نعم ، أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذباً قط » .

فحجة محمد الأولى، بين يدى الرسالة الجديدة ، هو أنه رجل صادق لا يكذب ولا يتهمه أحد .

ولما اشتد عنف قريش بالدعوة الجديدة ، وضيقوا عليها الخناق ، أمر الرسول بهجرة أتباعه إلى الحبشة ، أرسلت قريش من ورائهم وفداً ، ليثير عليهم نجاشى الحبشة . . دعا النجاشى الوفدين ليسمع حجة كل منهما ، فماذا كانت حجة رئيس وفد المسلمين عقيل بن أبى طالب قال :

« كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، حتى بعث الله إلينا منا من نعرف فيه صدقه وأمانته ، وعفافه ، فدعانا : إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة ، والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والبغاء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة فصدقناه وآمنابه » .

فالمسلمون آمنوا بمحمد ، واطمأنوا لدعوته لأنهم يعرفون صدقه وأمانته وعفافه ، هذا هو رأسمال الرسول الجديد ، إلام دعاهم ؟ إلى فضائل متراصة متماسكة ، ليس فيها كلها شىء يتصل بعرض الدنيا ، ولا نظام الحكم ، ولا قواعد السلطان ، ولا شئون المال من بيع وشراء ، أو تجارة وإجارة ، منهجه خلقى بحت ، من بدايته إلى نهايته ، ومن رأسه إلى قدمه .

لذلك كان مفهوماً، أن يلخص رسول الله دعوته، بقوله: « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وكان مفهوماً كذلك أن يتحدث عن نفسه، فى إحدى المرات القليلة التى تحدث فيها عنها فقال « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

فليس لدى محمد نظام قانونى يدعو إليه ، ولا بناء مجتمع جديد، يغرى الناس على الدخول فيه ، فلهذا أوان آخر ، يأتى بعد طول التريث والأناة ؛ وإنما الخطوات الأولى التى هيأت الأساس والقاعدة التى يقوم عليها الصرح كله هى أخلاق ، وأخلاق فحسب .

ولم يكن هذا المنهج الغاية التى ستسكت عندها الدعوة ، وتقنع بها ، بل إن فى جعبة الدعوة شيئاً كثيراً : فى جعبتها : عقيدة كاملة ، وشريعة ذات أصول وفروع ، تنظم مالم تنظمه غيرها من الدعوات السابقة ، ولا الدعوات اللاحقة ، ولكن الأخلاق عند الإسلام ، هى وحدها التى : تجعل القانون سلطاناً ، وتجعل العقيدة إيماناً ، وهى التى تخلق الرجال الذين يقودون الأمم وينشئون الدول .

وهذا النهج الأخلاقى النابع من أن الإنسان وكرامته ، هما محور البناء التشريعى كله لا يكون من الصرح الشامخ القاعدة فقط ، بل هو روح تسرى فى كل لبنة من لبنات الصرح ، فالعقيدة أخلاقية بحتة ، والشريعة أخلاقية بحتة ، والعمل المبنى عليها أخلاقى ، فالصلة بين الله والناس ، والصلة بين الإنسان والإنسان ، والصلة بين الإنسان والكون صلات أخلاقية ، تلمح فيها دائماً آخر الأمر الاحترام المتبادل ، والصدق والوضوح والاستقامة ، والرحمة آخر الأمر . حسبنا أن نقول هنا ، إنه إذا رفض الإسلام عقيدة ما ، كعقيدة الفداء والخلاص ، التى تؤمن بها المسيحية ، بعد تطور طارئ عليها ، فليس أساس الرفض فلسفياً ، وإنما أساسه أخلاقى ، إذ أن الإسلام يؤمن بأن الناس لا يحاسبون بالجملة ، ولا ينالون المغفرة بالجملة ، فلا يعاقبون على فعل أبيهم ولا ينالون العفو مقدماً وإلى آخر العمر ، لعمل لا يد لهم فيه .

عالمى :

لم تعرف الدنيا ، تشريعاً عالمياً ، غير الإسلام قط . لم تعرفه فى الماضى ، ولم تعرفه حتى اليوم . فقد كانت اليهودية ديناً خاصاً لبنى إسرائيل وكان رب بنى إسرائيل . ربهم وحدهم ، يعدهم بالنصر على غيرهم ، ويطلب منهم وحدهم أموراً ، وهم لا يفكرون فى أن ينشروا رعايته على غيرهم ، ولا أن يدخلوا فى دينهم سواهم : دين قبلى ، محدود ، لرب شديد الغيرة من أى إله سواه ، شديد الغضب . قاس ، يبيح لأتباعه أن يقتلوا من عداهم من الناس ، وأن يسرقوهم ، ولا يدعوهم إلى رحمة ، ولا إلى حسن مودة .

وقد كانت المسيحية ، إصلاحاً لليهودية فقد كان السيد المسيح عليه السلام ، يقول . « جئت لأكمل الناموس لا لأنقضه » . ولو أن موعظة الجبل كانت غاية ما تطمح إليه الإنسانية ، سمواً . ورحمة ، وإخاء إنسانياً ، وكانت فى جوهرها : خلاصة الفكر . وأساس الحياة الإنسانية التى تليق بالإنسانية ، بيد أن المسيحية على سموها ، وعلى شمول مبادئها الإنسانية كافة ، قد خلت من بيان لعلاقات الأمم بعضها ببعض ، كما خلت من أحكام وقواعد ، يمكن الاستدلال منها إذا كانت إقليمية أو عالمية ، ولكن لأن دعوة المسيح الخلقية كانت إنسانية ، فقد استطاع أنصاره وحواريوه أن ينتشروا فى الأرض : وأن يقيموا فيها ديناً عالمياً .

أما الإسلام ، فلأنه اتخذ من الإنسان هدفه ، وغايته ، ووسيلته وأداته ، فقد كان عالمياً ، بطبيعته ، فمنذ اللحظة الأولى والقرآن يوجه الخطاب إلى الناس أجمعين ، وأداة الخطاب . « يأيها الناس » تملأ القرآن ، وتتخلل آياته ، وقد بلغ عدد مرات استعمال هذا الخطاب فى القرآن نحو ثمان وعشرين مرة ، كما ورد فيه « لفظ الناس » مائتين

وتسعاً وأربعين مرة ، ولفظ . « الإنسان » إحدى وستين مرة .

وقد كان رب المسلمين ، وإلههم ، منذ اللحظة الأولى للدعوة هو « رب العالمين » و« رب المشارق والمغارب » ، و« رب السموات والأرض» ، وقد كان الناس كلهم خلقه، وكانوا سواسية كالأخوة أمام والد كبير رحيم، لا يميز بينهم ولا يفرق: أسودهم كأبيضهم ، فقيرهم كغنيهم ، وضعيفهم كقويهم، بل أشرارهم كأبرارهم ، كلهم يستحقون رحمته ، ويتنظرون مغفرته ، وقد خلقهم ، وعرف عجزهم ، وفتح لهم أبواب التوبة من جديد والتكفير عن الذنوب ونسيان الماضى .

ولم تكن فكرة الألوهية نقية وخالصة ، ومجردة أكثر منها نقاء وتجرداً فى الإسلام : دعا الناس جميعاً ، ومن جميع الأديان فى كل الأقطار ، أن يؤمنوا بها ، وأن يتبذلوا سواها ، تبذاً لا تردد فيه ، ولا مهانة . وفى العصور الأولى ، كان الإنسان ، هو الذى يخلق الآلهة ، يصنعها بيده ، ثم يخلع عليها من أوهامه ، ومخاوفه ، ما يحيطها بهالة ، تصبح بعدها آلهة متحكمة ، ويأتى الكهان ، والعابثون بالعقول ، والمستغلون لفقر الناس وجهلهم، وتطلعهم إلى حال أحسن ، وخوفهم من الإله الجبار المنتقم، فيتخذون من هذه الآلهة نفسها وسائل لابتزاز المال ، والإثراء الفاحش ، والسلطة التى لا تقاوم .

ولم يكن إله العبرانية ، ورب الإسرائيليين ، بأفضل من هذا الإله ، فقد كان إله محلياً ، قبلياً ، لا يعرف إلا قبائل العبرانيين ، يعقد معهم الصفقات ، ويعدهم بالفتوح والانتصارات ويطلب منهم لقاء ذلك ، ألا يكون لهم إله غيره ، وأن يطيعوه[1] .

لنقرأ ذلك كله فى التوراة ، فى الإصحاح الثالث من سفر الخروج ،

(١) ورد هذا البحث تفصيلا فى الفصل الأول من كتاب « مع الإنسان فى الحرب والسلام » المؤلف .

يتحدث الرب إلى موسى فيقول له : « فإذا سمعوا لقولك تدخل أنت وشيوخ بنى إسرائيل إلى ملك مصر ، وتقول له : الرب إله العبرانيين التقانا » وجاء فى الإصحاح الخامس :

« وبعد ذلك دخل موسى وهرون وقالا لفرعون هكذا يقول الرب إله إسرائيل « أطلق شعبى ليعبدوا فى البرية » . فقال فرعون : من هو الرب حتى أسمع لقوله ، فأطلق إسرائيل ، لا أعرف الرب ، وإسرائيل لا أطلقه فقالا له : إله العبرانيين قد التقانا » .

وهذا الإله ، يذكر الإسرائيليين بما فعله فى سبيلهم إذا أخرجهم من مصر ، وحررهم من ربقة فرعون ، ويطالبهم بالثمن :

« أنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين ، وأنقذكم من عبوديتكم وأخلصكم بذراع ممدودة ، وبأحكام عظيمة ، وأتخذكم لى شعباً ، وأكون لكم إلهاً » .

قارن هذا برواية هذه الواقعة نفسها ، كما جاء فى القرآن ، فى سورة الزخرف مثلا : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إنى رسول رب العالمين » .

ويا ليت إله العبرانيين ، الخاص ، كما وصفوه فى التوراة التى بين أيديهم الآن — الذى لا يعرف سواهم من بنى الإنسان والذى يحرم على بنى إسرائيل أن يعرفوا سواه — كان إلها حسن الخلق ، أميناً ، يأمر بالخير ، وينهى عن الشر ، بل إنه الله زين الجريمة ، وأغرى أتباعه بها فيقول فى الإصحاح الثالث من سفر الخروج :

« فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين ، بل تطلب كل امرأة من جارتها ، ومن نزيلة بيتها أمتعة فضية وذهباً ، وثياباً تضعونها على بنيكم وبناتكم ، فتسلبون المصريين » .

وهو يوحى — جرياً على سنته من اتباع الشر — بأسلوب خال

من كل رحمة فى الحرب ، فيقول كما جاء فى سفر التثنية :

« حين تقرب من مدينة لكى تحاربها ، استدعها إلى الصلح ، فإذا فتحت لك فكل الشعب الموجود فيها ، يكون لك للتسخير . ويستعبد لك ، وإن لم تسألك ، وعملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، — وأما النساء والأطفال ، والبهائم ، وكل ما فى المدينة وكل غنيمتها فتضمها إلى نفسك — ، وتأكل كل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك » .

كما جاء فى سفر يشوع الإصحاح السادس عن فتح مدينة أريحا ، على يد اليهود بقيادة خليفة موسى عليه السلام :

« وأحرقوا المدينة بالنار مع كل مابها إنما الفضة والذهب وآنية النحاس ، والحديد ، اجعلوها فى خزانة بيت الرب » .

ويا ليت هذا الرب — الذى توهموه أيضاً — كما نصت ، التوارة التى بين أيديهم الآن ، كان مع ممالأته الشديدة للإسرائيليين وتحريضهم على ارتكاب جرائم السرقة ، والنهب ، والحرق ، مع الحرص على الذهب والفضة ، مبصراً قادراً على أن يعرف طريقه إلى هذه الجرائم وحده كما يقول «ديورانت» ، فهو يعلن عن عجزه ، ويطلب من أتباعه أن يضعوا علامة على بيوتهم ، حتى إذا أطلق لشهوة القتل والتخريب العنان ، لم يشملهم غضبه ، فقد طلب منهم أن يرشوا بيوتهم بدم الكباش المضحاة لكيلا يهلك أبناؤهم من غير علم منه مع من يهلكهم من أبناء المصريين. بل إنه يقر بأنه غير معصوم من الخطأ ، وأن أكبر خطاياه ، خلقه للإنسان .

ونحن لم نطل الاستشهاد بما جاء فى التوراة من إصحاحات ، دالة على ضيق أفق الفكرة الإلهية عند العبرانيين والتزام ربهم ، نطاقاً صغيراً محدوداً لا يتجاوزه ، إلا لندرك فى ضوء المقارنة ، كيف اتسع نطاق فكرة الدين عند الإسلام ، فشملت العالم كله ، بل الكون كله ، ثم البشرية بأسرها . فالإنسان منذ كان إلى آخر يوم له على

هذه الأرض ، يدرسه القرآن ، ويتأمل فيه ، ويستخرج من هذا التأمل القواعد الخلقية والتشريعية ، والعلمية ، والضوابط المستمرة . الثابتة . وهو إذ يدرس هذا كله . لا يدرسه بروح الغاضب : أو الباحث عن المصلحة الذاتية المباشرة ، بل إنه يبحثه بروح الود والمحبة ، فقلب المسلم وعقله يتسعان مودة وحبًا ، للإنسان ، والحيوان والجماد ، ويحيط هؤلاء جميعاً بإطار واحد فى تناسق جميل ، وأداء مشترك : « يسبح لله مافى السموات ومافى الأرض » .

ولم تكن هذه العالمية سمة خلقية ، أعنى لم تكن دعوة وعظية ، الغاية منها أن يكون الناس أكثر تآلفاً وتعاطفاً ، وأن يدركون أنهم ينتسبون إلى أمة واحدة : « كان الناس أمة واحدة » ، بل إن هذا الأساس الخلقى هو مجرد أساس لتبنى عليه القواعد الشرعية . والمناهج السياسية .

فى الشرع لا فرق بين أبيض وأسود ، ولا بين عربى وعجمى ، ولا بين ذكر وأنثى ، ولا بين حر وعبد : ولا بين مسلم وذمى ، وفى المناهج السياسية ، دعى العالم كله ممثلا فى أمرائه وقادته أن يدخلوا إلى الإسلام ، ودعى جميع المسلمين ليقفوا أمام قانون واحد ، سوى بينهم فى جميع الحقوق المدنية ، وفى حقوق التقاضى ، والملكية والعبادة ، والحرمات الإنسانية جميعاً .

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

« يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ويقول الرسول فى حجة الوداع ، أى فى آخر ما صدر عنه ، قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى ، وكأنه يؤكد جوهر الدين قبل أن يغادر عالمنا هذا :

« إن ربكم ، واحد ، وأن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب . . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى ،

ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض ، فضل ألا بالتقوى » .

وقد كان محمد رسول الله ، هو الرسول الوحيد الذى وجه الدعوة إلى دينه ، خارج وطنه ، إلى الملوك والأمراء ، تطبيقاً لما جاء فى القرآن ، وهو يخاطبه : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » وفى سورة الأعراف : « قل يأيها الناس إنى رسول الله اليكم جميعاً » .

وجه الرسول كتب الدعوة إلى الإسلام ، إلى هرقل عظيم الروم ، وإلى نجاشى الحبشة ، وكسرى ملك الفرس ، والمقوقس حاكم مصر ، من قبل القسطنطينية ، والحارث الغسانى ملك الحيرة ، والحارث الحميرى ملك اليمن ، وقال لكل منهم فى كتبه :

« إنى أدعوك بدعاية الإسلام . .

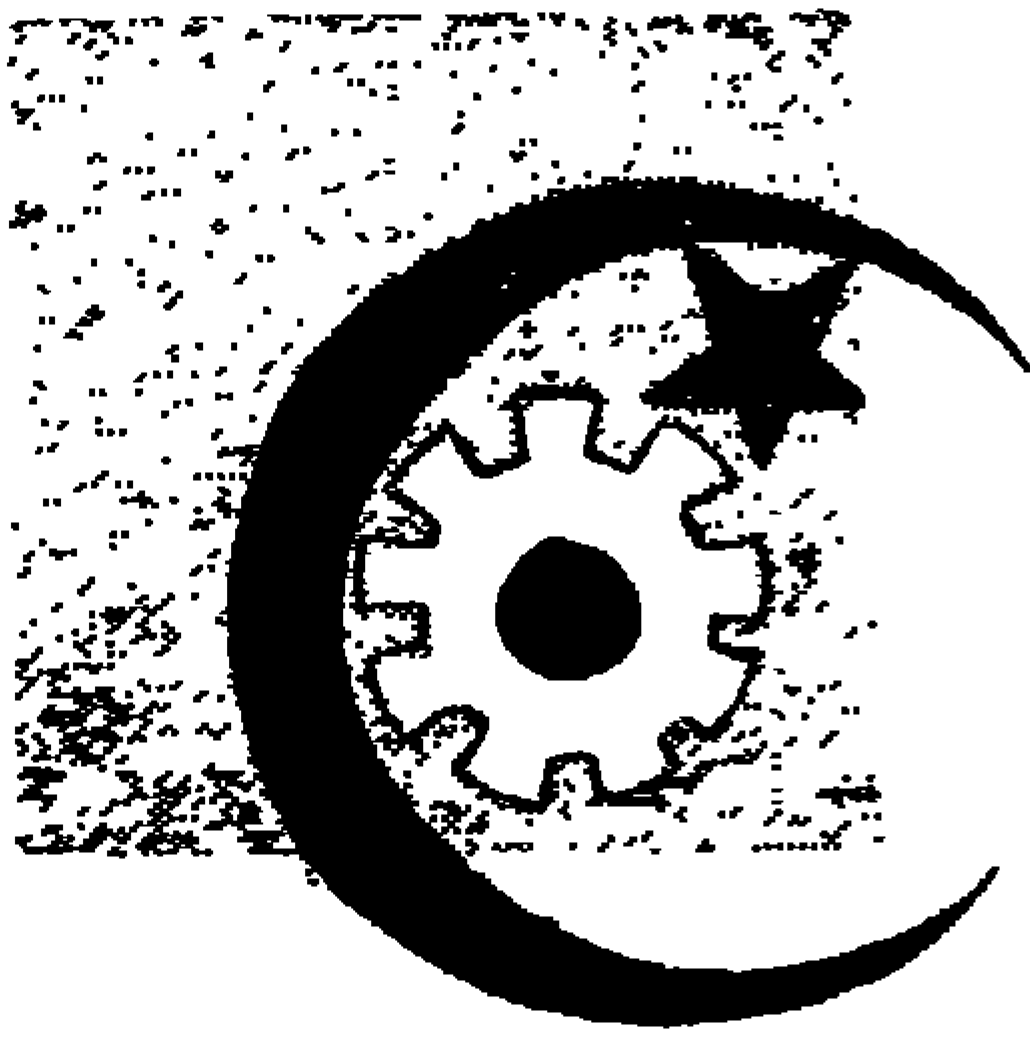
يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم إلا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . . . .. فإن تولوا فقالوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وأخيراً كانت وسيلة الإسلام إلى الدعوة هى القرآن ، وما انطوى عليه من مبادئ وعقائد ، ونظم وقواعد ، وأفكار وحكم ، ومنهج للحياة وأسلوب للتفكير ، ودستور للأخلاق ، وهو أمر ثابت باق ، قرأه وسمعه المعاصرون للرسول ، كما قرأه الذين جاءوا بعده جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، فأصبح من الممكن ان تكون الدعوة عن طريقة عالمية .

ولقد توج الإسلام بناءه القائم على أساس من الروح العالمية ، بعبادة « الحج » التى هى فى واقع الأمر ، مهرجان عالمى ، لم يدع إلى مثله دين قبل الإسلام ، ولا بعده . فى أيام معدودات من كل سنة ، يجتمع الوف الألوف ، من أنحاء العالم بأسره ، من كل لون وجنس وطبقة ولغة ولهجة ، متجردين من ثيابهم إلا أقل القليل ، عراة الرءوس ،

أشبه شيء بحفاة الأقدام ، يتراصون متلاصقين ، ويكبرون ، في صوت واحد ، لفظة الإسلام ، مرات ومرات . .

فعالمية الإسلام ، مستمدة من كل ما يتصل به من عبادة وفكرة ، ودعوة ووسيلة .



الإيمان

ورد لفظ (الإيمان) فى القرآن الكريم، وما اشتق منه من أفعال وصفات ، فى نحو أربعمائة موضع ، ولم يرد لفظ آخر بهذا العدد سوى لفظ الجلالة الذى جاء فى الذكر الحكيم فى قرابة ألفين وخمسمائة موضع.

وهذا أمر تفرضه البداهة ، فالإسلام عقيدة ، وحينما نزل القرآن الكريم بها على قلب الرسول الأمين كانت دعوة جديدة . وما من دعوة جديدة، إلا وهى نسخ لعقيدة قائمة وإزالة لنظام سائد ، وتغيير لأوضاع مستقرة ، ولقد جبل الناس على التشبث بما يعرفون ولو كان باليا « إنا ، وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مهتدون » ويكرهون الجديد ولو كان خيراً لهم « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير » فالذين يخرجون على المجتمع الذى ينتمون إليه ، لابد أن يكونوا أفذاذا يمتازون عن سائر قومهم ، بإدراك سليم ، وإرادة قوية ، وبصيرة نافذة وشجاعة ، ملهمة ، هؤلاء هم المؤمنون . هؤلاء هم الذين خاطبهم الإسلام، ودعاهم إلى شريعته ، وأسلمهم رايته ، وأئتمنهم على دعوته ، وهؤلاء هم رواد كل فكر جديد ، وطلائع كل ثورة نافعة ، والسابقون إلى كل جديد هادم لإنقاض الأفكار الخربة ، وحملة لواء كل تغيير مزيل لخرائب العقائد العفنة.

ولو لم يكن القرآن داعياً إلى إيمان ، لما قبل أحد دعوته ، ولا أخذت

أمة بعقيدته ، ولا احتمل إنسان أذى فى سبيله . ولا دارت حرب لتأييده.

ولو لم ينجح القرآن فى اصطناع طراز من المؤمنين ، وارتفع به إيمانهم إلى الذروة بذلا وابتكاراً ، وإبداعاً ، لكان عقيدة قلة لا يؤبه بها ولا يلتفت إليها .

فالدين والعقيدة يوزن كل منهما بقدر ما يحركان من إيمان المؤمنين ، وبقدر عظمة اهؤلاء المؤمنين وسمو نفوسهم.

لذلك حق علينا أن نعرف الإيمان فى الإسلام وماذا يكون . والإيمان فى مطلق الدعوات ، وكيف يعمل .

عن عمرو بن عتبة ، سئل رسول الله : يارسول الله ، ما الإسلام قال : أن تسلم قلبك وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك ، قال فأى الإسلام أفضل . قال : الإيمان ، قال . وما الإيمان : قال أن تؤمن بالله ، وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت . قال فأى الإيمان أفضل؟ قال الهجرة؟ قال وما الهجرة؟ قال أن تهجر السوء قال : فأى الهجرة أفضل قال : الجهاد ، قال : وما الجهاد؟ قال أن تقاتل الكفار إذا لقيتهم ، قال : فأى الجهاد أفضل ؟ قال من عقر جواده وأهريق دمه .

فالإيمان فى الإسلام موضوعه الله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر: « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » .

والإيمان باتفاق هو التصديق الكامل والإذعان النفسى والتسليم ، القلبى لكل ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام.

ولكن هذا التعريف يحتاج إلى تفصيل .

فالإيمان فى حقيقة الأمر ، هو حالة نفسية وعقلية معاً ، يصبح معها الإنسان أشبه بالإناء الذى امتلأ إلى حافته ، أو حالة الغليان للسوائل ، أو حالة الاشتعال للأجسام . فليس . الإيمان هو التصديق الكامل ولا الاعتقاد الذى لا تشوبه شائبة تضعفه ، والذى لا يلابسه شرط ، أو

يقترن بأجل . فهذا التعريف ينطبق على المرحلة السابقة على الإيمان والمؤدية إليه وهى مرحلة الإقناع العقلى . ولكن للإيمان عناصر أخرى غير الاقتناع العقلى إذ لابد أن ينضم إليه انفعال الوجدان وامتلاء النفس حتى تصبح جميع قوى الإنسان العقلية والعاطفية الواعية وغيرالواعية ، متجهة اتجاهاً واحداً نحو موضوع الإيمان ، لا تملك الأنصراف عنه أو الانشغال بشيء معه فهى أقرب ما تكون إلى حالة هيام العشاق ، أو هى على حد قول قائل : إن الإيمان هو جنون العقلاء . وعندما يصل الإنسان إلى هذه الدرجة تتضاعف قواه عشرة أضعاف ، وقد نص القرآن على ذلك ، إذ قال الله تعالى فى سورة الأنفال : « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا » فسر غلبة المؤمنين ، إيمانهم .

وتضاعف قوة الإنسان بعد إيمانه ، يمكن تفسيره ماديًّا وعلميًّا ففى جسم الإنسان غدة يكثر إفرازها فى حالات الخطر والغضب ، ومن شأن هذه المادة أن تزيد عضلات الجسم صلابة وتقوى احتماله ، وتقلل شعوره بالألم ، وتكسو وجهه بسمات تخيف العدو ، فى حين تصم أذنيه هو عن سماع تحذير الأصدقاء . ومثل هذا التغير يحدث فى الحيوان الصغير والكبير على السواء ، فالهرة التى تحس بالخطر ، يحدق بها تتحول إلى نمر مفترس ، والدجاجة التى ترى الثعبان يقترب من فراخها تصبح نسراً كاسراً ولاتزال تهاجم عدوها ، وتدميه ، على الرغم من قوته وضعفها ، حتى تقتله إن لم يفر نجاة بنفسه .

هذه القوة غير العادية التى يمنحها للكائن الحى الغضب أو التصدى لحالة الخطر ، هى القوى التى يمنحها الإيمان للمؤمنين ، إذ يجعلهم فى حالة غضب مستمر على كل ما ، ومن ينافى عقيدتهم ، أو يقف فى سبيلها . إلا أن الإيمان يمنح المؤمنين قوة من طبيعة أخرى . هى القوة التى يبعثها الحب المشتعل للمحبين فيزيد من اتقاد وجدانهم ، ومن لطف

إحساسهم ، ومن فنائهم فيمن يحبونه ، فيصبح كل ما يأتى بسببه جميلا ومحبوباً . ولو كان عند غيرهم مؤلماً أو قاسياً ، فالتضحية من أجل إسعاده سعادة لهم ، وتحقيقاً لوجودهم ، ويبلغ بهم الاستهتار فى الحب ، والانقطاع له ، والفرح به ، بحيث لايطيقون أن يسمعوا فى ذلك لوماً : « يجاهدون فى سبيل الله ، ولايخافون لَوْمة لائم » .

وفى القرآن الكريم إشارات إلى مراحل تكون الاقتناع ثم تكامله ، ثم نشوء الإيمان وظهور آثاره ، وعلى مواقف الناس المتباينة من الصدوف عن الدعوة إلى الإيمان ، والتردد فى قبولها ، والرفض البات لها .

والمثل الواضح ، لفترة تكون الاقتناع ، والتهيؤ لتحمل تبعات الإيمان ، واردة فيما دار بين موسى عليه السلام وربه قال الله تعالى :

« وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين. قوم فرعون ألا يتقون. قال رب إنى أخاف أن يكذبون ، ويضيق صدرى ولاينطلق لسانى . فأرسل إلى هارون ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون ، قال : كلا . فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون » .

ولكن لايزال موسى فى حاجة إلى تثبيت من ربه ، ففى سورة (طه) قال الله تعالى :

« اذهب إلى فرعون إنه طغى . قال رب إشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، وأحلل عقدة من لسانى ، يفقهوا قولى ، . جعل لى وزيراً من أهلى . هارون أخى أشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى ، كى نسبحك كثيراً ، ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً : قال قد أوتيت سؤلك يا موسى » .

وفى موضع آخر ، من سورة طه بقية لهذا الحوار.

« قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أوأن يطغى ، قال : لاتخافا إننى معكما أسمع وأرى » .

وفى الوسع أن يرى الإنسان ، قارئ هذه الآيات البينات ، كيف

يحسب الإنسان ، ودعوة الإيمان فى أعلى مراتبها . يفرض عليه . كل حساب للأمور التى يفرض العقل ، تقديرها ، والنظر فى عواقبها . فإذا حمل الرسالة . انطلق لا يلوى على شىء، واستحال الصعب أمامه سهلا ، والبعيد قريباً ، أو آمن أنه سيذلل العقبات، وسييسر ما يبلو من المستحيلات .

وفى القرآن الكريم مثل آخر ، لمرحلة ما قبل اكتمال التهيؤ لتلبية دعوة الإيمان :

« وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحى الموتى ، قال أولم تؤمن . قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبى » والقلب هنا من العقل. الذى لايزال فى حاجة إلى ما يقنعه . لتكون الجوارح كلها ، فى خدمة العقيدة الجديدة ، وفى خدمة النهوض بالرسالة القائمة على هذه العقيدة .

وفى القرآن أمثلة للمؤمنين الذين لايخيفهم الفزع ولايفت فى عضدهم التهديد بالموت . ولا بما هو فى مثل الموت ، قذفاً للرعب فى القلوب، ومن هذه الأمثلة إيمان المصريين من سحرة فرعون ، قال الله تعالى عنهم :

« قال آمنتم له قبل أن آذن لكم . إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم . وأرجلكم من خلاف . ولأصلبنكم فى جذوع النخل، ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى . قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا ، فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا » .

وفى سورة (يوسف) تهدد (يوسف) امرأة العزيز التى هو فى بيتها ، بالسجن، وبما يصحب السجن من حرمان وهوان، إن لم يلب ما تدعوه إليه ، وتحسنه له من معصية ، قال الله تعالى :

« ولقد راودته عن نفسه فاستعصم. ولئن لم يفعل ، ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين ، قال : رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه » .

ثم حدثنا القرآن عن طوائف من الناس ، تباينت مواقفهم من الإيمان

والدعوة إليه . كما تباينت مواقفهم فى نطاق الإيمان ذاته :

فعن طائفة الذين لبوا دعوة الإيمان ، وأدوا ضرائبه . وتكاليفه قال الله تعالى :

« ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولاتخزنا يوم القيامة إنك لاتخلف الميعاد ، فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى . بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا وقُتِلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله » .

وعن طائفة الذين يحكمون على الإيمان بظاهر أعماله . قال القرآن الحكيم :

« قالت الأعراب آمنّا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » الحجرات .

أما الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر فقال عنهم التنزيل :

« ومن الناس من يقول آمنا ، بالله وباليوم الآخر . وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم ، وما يشعرون » البقرة .

ومن هؤلاء من يتخذ من دعوة الإيمان تجارة وسياسة . فيقول عنهم الذكر .

« وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا . وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم » البقرة .

ومن الناس من يرجو الإيمان ، ولكن لايقوى على قطع صلته بالكفر وأهله ، فيبقى حيران :

« قل أندعوا من دون الله ما لاينفعنا ولا يضرنا ، ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى » الأنعام « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » النساء .

ومن الناس ، من يحسب الإيمان ، ضماناً للكسب والجاه والعافية فى الدنيا ، وأنه لا يتقاضى المؤمنين ، جهداً وبذلا ، فقال عنهم الله تعالى :

« ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خيرٌ اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه » الحج .

فالإيمان فى واقع الأمر — كما كررنا — هو دعوة مستمرة ومتصلة لمواجهة الأخطار ، والصمود لها :

« وكأى من نبي قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا » .

فى آية واحدة تتابعت ألفاظ الوهن ، والضعف والاستكانة ، لينفيها الله عن المؤمنين، ثم تمضى حياة المؤمنين امتحاناً مستمراً، وكأنهم الجنود فى الجيش، لاينقطع تدريبهم، حتى فى وقت السلم، وبغير هذا الامتحان يمكن أن يخلد المؤمن إلى الراحة ، ويستدرجه لين العيش ، فيحسب أن الخطر على عقيدته قد زال ، وأن فى وسعه أن يلقى السلاح ، وعن هذه الامتحانات المستمرة يقول الله تعالى :

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه ، متى نصر الله ، ألا إن نصر الله قريب » البقرة .

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » آل عمران .

ويحدثنا القرآن عن مواقف امتحن الله فيها قلوب المؤمنين وفيهم رسول الله :

« إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا » . الأحزاب .

« ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » .

وقد يقوم فى وهم البعض منا ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو إمام المؤمنين وهاديهم ونبى الله وصفيه ، قد خلت حياته من شدائد المحن ، التى يعرفها غيره من المؤمنين ، ممن لم يشرفه الله برسالاته ، ولم يؤيدهم ، بوحيه ، ولكن القرآن الكريم ، يورد لنا تعريضاً وتصريحاً ، فى الآيات ، ما يؤكد لنا أن الإيمان ، ولو كان إيمان الرسل ، هو امتحان من الله تعالى لرسله وعباده ، وأول إشارة إلى هذا فى سورة الضحى ، عند انقطاع الوحى : « ما ودعك ربك وما قلى » .

ثم هذه الآيات :

« لعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » الكهف .

« فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك » هود .

« من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة ، فليمدد بسبب إلى السماء ، ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ » الحج .

« وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء ، فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » الأنعام .

ولعل هذا يؤدى بنا — مادمنا قد تحدثنا عن إيمان إمام المؤمنين ، صلى الله عليه وسلم — أن نقف أمام الآية الثانية والخمسين من سورة الشورى :

« وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان »

فقد اختلف المفسرون على ما يقول — القرطبى — فيما يريده الله عز وجل بهذه الآية ، فظاهرها — كما يقول القشيرى — يدل على أن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ما كان متصفاً بالإيمان قبل الوحى ، فى حين أن أكثر

العلماء على الرأى القائل بأن الله ما بعث نبيًّا إلا كان مؤمنًا قبل البعثة ، أما القاضى أبو الفضل عياض ، فيرى أن الصواب هو كون الأنبياء معصومين قبل النبوة من الجهل بالله و بصفاته والتشكك فى شيء من ذلك . وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا ونشأتهم على التوحيد والإيمان بل على إشراق أنوار المعارف ، وفسر هؤلاء قول الله تعالى عن يحيى : « وآتيناه الحكم صبيًّا » . أن الله أعطاه العلم بكتاب الله فى حال صباه . بل قالوا إنه صدق بعيسى . وهو فى بطن أمه، فكانت أم يحيى تقول لمريم أم المسيح (وهما بنات خالة) إنى أجد ما فى بطنى يسجد لمن فى بطنك تحية له . ثم قال القاضى عياض ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحداً نبئ واصطفى بما عرف بكفر و إشراك ،قبل ذلك . و إن قريشاً قد رمت نبينا عليه السلام بكل ما افترته ، وعير كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها وما اختلقته ، ولم تجد فى شيء من ذلك تعييراً لواحد منهم برفضه آلهتهم وتقريعه بذمه بترك ما كان قد وافقهم عليه (بالتعبد لهذه الآلهة) .

ثم انتقل القرطبى بعد ذلك إلى تفسير الآية : ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، فقال الثعالبى الإيمان هنا شرائع الإيمان ومعالمه ، وقال القشيرى تفاصيل هذا الشرع أى كنت غافلا عن هذه التفاصيل ، ويجوز إطلاق لفظ الإيمان على تفاصيل الشرع ، وقال أبو العالية : ما كنت تدرى قبل الوحى أن تقرأ القرآن ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان . وقال بكر القاضى : ولا الإيمان الذى هو الفرائض والأحكام ، وقال بن خزيمة : عنى بالإيمان « الصلاة » لقوله تعالى : « وما كان الله ليضيع إيمانكم »أى صلاتكم إلى بيت المقدس بعد تحويل القبلة إلى الكعبة- وقال أبو الفضل ما كنت تدرى ما الكتاب ولا أهل الإيمان . وهو من باب حذف المضاف ، وقال على بن عيسى إنه يعنى أن الرسول لم يكن يعلم شيئاً (عن الإيمان) حتى البلوغ .

والثابت من القرآن أن رسول الله قال عن نفسه «سبحان ربي هل كنتُ إلا بشراً رسولاً» فهو قبل الرسالة وبعدها ، واحد من البشر ، يأكل الطعام ويمشي فى الأسواق ، وقال عن نفسه كذلك إنه يتزوج النساء ، ويقوم وينام ، ويصوم ويفطر ، ولكل نبوة إرهاصات ، بل لكل عظمة بشرية مقدماتها ، فكبار المفكرين ، والقادة ، دع عنك الأنبياء والرسل : يتميزون منذ صباهم وأحياناً منذ طفولتهم بمخايل النجابة ، والصدق والصراحة والنأى عن الدنيا وحب المكارم ، والتفوق على الأقران ، ولاشك أن هذا كله كان ظاهراً غاية الظهور فى خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفاته ، وقد استطاع بلا شبهة قبل البعثة ، أن يرى ما فى عبادة الأوثان من سخف تنفر منه الطبيعة السليمة ، ولا شك فى أنه كان يفكر فى أصول العبادة ، وفى النظام السليم الذى يجب أن يسير عليه الناس : ولكن كل هذا شيء والإيمان بمعناه القرآني والإسلامى ، شيء آخر ، فأوانه لم يحن إلا عند نزول الوحى ، واتصاله بقلب الرسول الأمين . ولو قلنا إن محمداً بن عبد الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم قبل البعثة الإيمان على الوجه الذى بينه له فى كتابه الكريم ، لعكسنا قصد الآية ، وذهبنا إلى عكس الغاية منها ، لأن الغاية منها أن القرآن وحى من عند الله ، وهو من صنعه ونظمه لأن الرسول الذى أعلنه للناس ، لم يكن يعرف ما نزل فيه ، قبل نزوله . ولا يتصور أن يكون فى مقدور من يجهل نظاماً محكماً ، كالنظام الذى دعا إليه القرآن ، أن يمنح القدرة فجأة ، فيصنعه ويعرضه على الناس بلا عون من الله وتأييد .

وفى الآيات القرآنية عن الإيمان والدعوة إليه . ثلاث حقائق تدعو إلى التأمل والتدبر :

أولاً — لايبين القرآن ما آمن به المؤمنون فى خطابه الموجه «يأيها الذين آمنوا» كما لم يبين الصالحات التى قاموا بها فى وصفهم «وعملوا الصالحات».

ثانياً — يرد فى القرآن آيات تدل على أن إيمان المؤمنين يزيد وينقص

فكيف يزيد الإيمان ، وهو حالة الاقتناع الكامل ، والإذعان التام ، والتصديق الذى لا يعلوه تصديق ، وفى المسألة الأولى يقول الأستاذ محمد رشيد رضا : قال تعالى : وبشر الذين آمنوا ، ولم يذكر بماذا آمنوا لأن متعلق الإيمان كان معروفاً عند المخاطبين ، وهو الله وصفاته التى ورد بها النقل الصريح وأثبتها العقل الصحيح ، والوحى ومن جاء به ، والبعث والجزاء ، فهذه الأصول التى كان يدعو إليها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن صدقهم فيها كان مؤمناً ويصدق بما يتبع ذلك من التفصيل ، هذا وإن إطلاق الإيمان وذكر المؤمنين وما أعد لهم من غير وصلة بذكر متعلقاته معهود فى القرآن لأن المتعلق معلوم للسامعين كما قلنا ، وهو بالنسبة لمن لم يؤمنوا ما دعاهم إليه النبى صلى الله عليه وسلم إجمالا من الأصول . أما المؤمنون فقد عرفوه مفصلا تفصيلا » .

« ثم وصف المؤمنين الذين يستحقون البشارة بقوله (وعملوا الصالحات) وأطلق فى هذا أيضاً كما أطلق فى كثير من الآيات لأن العمل الصالح معروف عند الناس بالإجمال ، وذلك كاف فى الترغيب وجعله تابعاً للإيمان متصلا به ، ولازماً من لوازمه ، وبين الأعمال الصالحة بالتفصيل فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) .. إلخ ، وكالآيات فى أول سورة (المؤمنون) وآخرها وآخر سورة الفرقان ، وأول سورة المعارج ، وغير ذلك كأن الله تعالى يقول : إن العمل الصالح معروف عند الناس لأنه أودع فى نفوسهم ما يميزون به بين الخير والشر ، ولكن بعضهم يضل بانحراف يطرأ على نفسه فيخرجها عن الاعتدال الفطرى ثم يضل بضلاله آخرين ، فتكون التقاليد والعادات الناشئة عن هذا الضلال هى الميزان عند الضالين فى معرفة الصلاح والفساد ، والخير والشر ، لا أصل الهداية الفطرية . ولذلك قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . يعنى أن الإنسان لو ترك ونفسه لاهتدى إلى الحق ما دام بعيداً عن العادات والتقاليد .

وما يقوله الأستاذ رشيد رضا ، صحيح فى جملته ، ويمكن أن نضيف إليه ، أن من يقرأ القرآن ويعتبر نفسه مخاطباً بآياته سيعرف حتماً الإيمان الذى يدعو إليه هذا الكتاب الكريم ، وأركان هذه الدعوة ، بل تفاصيلها ، كما سيعلم من هم المؤمنون الذى يعنيهم بالنداء الموجه بعبارة « ياأيها الذين آمنوا » ، وبذلك تنتفى كل شبهة ويزول كل لبس ، وهذا ما اقتضى عدم تعريف المؤمنين وعدم تحديد الأعمال الصالحة ، التى يقومون بها . لأنها واردة كذلك فى القرآن ، وقد طالبتهم آياته التى يتلونها أو يسمعونها ليل نهار . بأدائها . وحذرتهم من إهمال النهوض وحببت لهم الإسراع بالقيام بها ومداومة ذلك ، ووعدتهم لقاء الطاعة ، حسن الثواب . ولكن هذا لا يمنع أن القرآن ، قد عنى إلى توجيه الخطاب إلى المؤمنين بما نزل فيه من أحكام ومبادئ ، وأوامر ونواه ، وأمر المؤمنين بكل دعوة خير أخرى غير الإسلام ، تأتى بها الأيام بعده ، وقد لاتكون داخلة فى مضمونه العام وإن كانت لا تتعارض معه ، ولاتعطل أحكامه ، وليس حتماً أن تكون هذه الدعوة دعوة دينية بل قد تكون دعوة اجتماعية أو فكرية ، مما تنشأ دواعيه بعد عهد نزول القرآن ، وجهاد الرسول وصحابته كتحرير الأوطان ، أو تحرير الطبقات المضطهدة ، أو الوقوف فى وجه حركات الأستغلال ، والمذاهب التى تفقد المجتمعات الإنسانية بسببها وحدتها وأمنها ، وحوافز تقدمها ، وإن كانت هذه الحركات يحتويها ، المفهوم العام للإسلام ، لأنه يدعو إلى إقامة العدل ، وتحريم الظلم ، وإكرام الإنسان كإنسان ، ومنع إساءة معاملته ، أو حرمانه من حقوقه ، أو تحقيره . والمؤمنون مهما كان موضوع إيمانهم ، قوم صالحون فى المجتمع الذى ينتمون إليه ، بدلالة أن ما يحركهم ويوجه نشاطهم هو إيمان بفكرة عامة لا بمصلحة ذاتية ، فإذا اقترن إيمانهم هذا بعمل صالح ، أى بعمل يراه المجتمع صالحاً ، كانوا أخياراً بلا شبهة ، إذ لم يحدث أن توافقت جماعة على اعتبار عمل ضار ، عملا صالحاً ، إلا فى النادر الذى

لا يحسب حسابه، فالناس كلما اجتمعوا ، غلبت عليهم خير صفاتهم وسادتهم أحسن بواعثهم :

أما اقتران الإيمان فى القرآن بالعمل الصالح ، فهو اقتران الشيء بما يتبعه بالضرورة لا اقتران الفعل بشرط أو ركن وجوده أو انعقاده كما يقول القانونيون ، بمعنى أن الإيمان يمكن تصوره ، كما قائماً بذاته ، مستقلا عن العمل الصالح الذى سيترتب عليه ، أو يدعو إليه. فالإيمان يوجد أولا فى النفس ، ولا يقترن عند ميلاده بعمل ، صالحاً كان أو فاسداً، والإنسان يؤمن أولا ، وقد يمضى وقت قبل أن تقوم دواعى العمل ، وتتهيأ ظروفه ، وإذا تصورنا مؤمناً ، قد فقد القدرة على الحركة والنطق ، فقد تصورنا حالة الإيمان المجردة غير المقترنة بالعمل . والقرآن نفسه ، فرق بين المؤمنين القادرين على الجهاد ، والمؤمنين العاجزين عنه، فميز الذين جاهدوا منهم على المؤمنين (غير أولى الضرر) ، إذ أن العاجزين ، لا يسألون عن عجزهم المكتوب عليهم بغير تقصير منهم ، بل إنه أحسن الشهادة فى حق الذين يطلبون أن يجاهدوا فلم يجد الرسول ما يحملهم عليه ، عادوا إلى بيوتهم وعيونهم تفيض من الدمع إذ حرموا شرف الجهاد .

ولكن القرآن قرن الجهاد بالعمل الصالح لأسباب منها .

أولاً — أن غاية الإيمان هى العمل الصالح فلا يدعى الناس للإيمان بالإسلام مثلا ، لمجرد إقناعهم بأنه دين صالح أو بأنه خير الأديان ، ثم يبقى كل شىء على حاله ، بل المقصود من هذه الدعوة أن يغيروا ، حياتهم ، ويضعوا حداً للسيىء من عاداتهم ، وأن يستبدلوا بالقديم البالى من تقاليدهم ونظراتهم إلى غيرهم من الناس وعلاقاتهم ، بالجديد من هذه التقاليد والنظرات التى ينصح بها الدين الإسلامى. وهذا كله لا يتم إلا بأعمال ، بل بجهاد متصل مضن ، ومن هنا كان ترادف الإيمان ، والعمل الصالح ، تنبيها إلى هذا العمل ، واستحثاثاً للهمم للقيام به .

وإقناعاً للناس بأن هذا الإيمان الجديد ، سيتيح لهم عملا سينفعهم . وسيحقق لهم خيراً .

ثانياً – أن الإيمان ، بطبيعته ، لا يدع مؤمناً فى حالة سكون مطلقاً . فما يكاد المؤمن يكتمل إيمانه . حتى يرى نفسه مدفوعاً إلى عمل . ولو أراد أن يهدأ أو يؤجل سعيه أو يقلل من نشاطه لما استطاع . وقد يلقى المؤمن من هذا السعى الدائب ، عناء ويشقى به شقاء كبيراً ، فيعقد العزم على أن يخفف من حركته . ولكن ما يكاد يطلع عليه نهار اليوم التالى حتى يرى نفسه وقد نسى كل شىء ، و بدأ يومه أكثر نشاطاً .

ثالثاً – أن الإيمان هو حركة باطنية لا يراها الناس . ولا سبيل إلى تبينها ، ولا تبين نصيب صاحبها من الصدق ، ولو صدقنا كل من يدعى بأنه مؤمن ، لفتحنا الباب لكل مدع ، أما العمل الصالح . فهو الذى يميز الصادقين من الأدعياء والكاذبين ، وإذا كان الله تعالى عرف خبيئة نفس الأعراب الذين قالوا إنهم آمنوا ، فقال لهم إنهم أسلموا ولما يدخل الإيمان فى قلوبهم ، فليس للبشر من المعايير الإلهية شىء ، إلا العمل الصالح الذى لا يكاد يخطئه أصحاب الفطرة السليمة .

قلت إن الإيمان ، هو مرتبة تعلو كمال التصديق ، والاقتناع ، لأن التصديق والاقناع عمليتان عقليتان ، والإيمان فوق كونه ثمرة تدبر وتفكير. فإن الانفعال يدخل فى تكوينه فيكون ، للعاطفة والشعور ، دور فى تكوينه. فهو حالة تجيش لها النفس ، وتجمع لها كل القوى العاقلة والمدركة ، والشاعرة عند الإنسان ، تعلو به على التقديرات المادية ، وعلى قيود الواقع الملموس وتمنحه قوة تعينه على تحمل الحرمان ، والثبات أمام المصاعب والمصائب : (ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس . والثمرات ، وبشر الصابرين) . فهى حالة لا زيادة فيها لمستزيد . لأن النقص الذى يشوبها يهبط بها إلى حالة أخرى قريبة من الإيمان ولكنها ليست هو . ولكن القرآن الكريم ورد فى كثير من آياته مثل ،

(فزادهم إيماناً) ولكى يزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، فكيف نفسر ذلك ؟

يقول القرطبى : وقد اختلف العلماء فى زيادة الإيمان ونقصانه على ، أقوال ، والعقيدة فى هذا على أن نفس الإيمان الذى هو تاج واحد ، وتصديق واحد بشيء ما ، إنما هو معنى فرد لايدخل معه زيادة إذا حصل ، ولا يبقى منه شىء إذ زال فلم يبق إلا أن تكون الزيادة والنقصان فى متعلقاته دون ذاته ، فذهب جمع من العلماء إلى أنه يزيد وينقص من حيث الأعمال الصادرة عنه . لا سيما أن كثيراً من العلماء يوقعون اسم الإيمان على الطاعات ، لقوله صلى الله عليه وسلم (الإيمان بضع وسبعون باباً ، فأعلاها قوله : لا إله إلا الله ، وأدناه إماطة الأذى عن الطريق) وزاد مسلم « والحياء شعبة من الإيمان » . وفى حديث على رضى الله عنه : إن الإيمان ليبدو لمظة بيضاء فى القلب ، كلما ازداد الإيمان ، ازدادت اللمظة . واللمظة مثل النكتة أو النقطة ونحوها من البياض . وفى كلام على رضى الله عنه ، حجة على من أنكر أن يكون الإيمان يزيد وينقص ألا تراه يقول : كلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة حتى يبيض القلب كله» .

« ومنهم من قال : إن الإيمان عرضى ، وهو لا يثبت زمانين ، فهو للنبى صلى الله عليه وسلم ، متعاقب ، فيزيد باعتبار توالى أمثاله على قلب المؤمن ، وباعتبار دوام حضوره ، وينقص بتوالى الغفلات على قلب المؤمن .

« وذهب قوم من العلماء إلى أن زيادة الإيمان ونقصه إنما هو من طريق الأدلة فتزيد الأدلة عند واحد فيقال فى ذلك إنها زيادة فى الإيمان ، وبهذا المعنى — على أحد الأقوال — فضل الأنبياء على الخلق ، فإنهم علموه من وجوه كثيرة أكثر من الوجوه التى علمها الخلق بها ، وذهب قوم إلى أن الزيادة فى الإيمان إنما هى بنزول الفرائض والأخبار

فى مدة النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى المعرفة بها بعد الجهل غابر الدهر » .

انتهى كلام القرطبى بشىء من التصرف.

ويقول السيد رشيد رضا : قالوا إن التصديق لا يعتد به ، ويكون إيماناً صحيحاً إلا إذا وصل إلى درجة اليقين ، فإذا نزل عن مرتبة اليقين كان ظنًّا أو شكًّا ، وليس الظن إيماناً يعتد به ، والشك كفر صريح . هذا وإن لليقين مراتب ، يعلو بعضها بعضاً ، وحصرها بعضهم فى ثلاث : ثلاث : علم اليقين ، وحق اليقين ، وعين اليقين ، فالارتقاء من درجة إلى أخرى زيادة . ويروى عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنه قال : لو كشف الغطاء ما ازددت إلا يقيناً . وهذا القول بنى على أن اليقين يقبل الزيادة فى نفسه . ثم إن فائدة الإيمان إنما تكون بإذعان النفس الذى يحرك فيها الخوف والرجاء وغيرهما من وجدانات الدين التى يترتب عليها ترك المنكر المنهى عنه وفعل المعروف المأمور به ، ولولا ذلك لم يكن للدين فائدة من إصلاح حال البشر ، وهل يقول عاقل إن الإذعان والخوف والرجاء من الأمور التى لا تقبل الزيادة والنقصان ؟ أما أنه لو كان إذعان جميع المؤمنين فى درجة واحدة لتساووا فى الأعمال . ولكنهم يتفاوتون فيها تفاوتاً عظيماً كما هو ثابت بالمشاهدة : فثبت أنهم متفاوتون فى منشئها من النفس وهو الإذعان الذى يقوى ويضعف بالتبع للإيمان . وهذا عين قبول الزيادة والنقصان .

« ونحن هنا نفهم معنى إدخال السلف الصالح فى الأعمال مفهوم الإيمان فى كل اعتقاد أثر فى النفس يتبعه عمل من الأعمال فهى سلسلة مؤلفة من ثلاث حلقات يحرك بعضها بعضاً . والإمام الغزالى ، يعبر عنها بالعلم والحال والعمل ، فيقول : إن العلم بأن كذا يرضى الله تعالى أو كذا يسخطه مثلا يحدث فى النفس حالا يترتب عليها فعل ما يرضيه ويقتضى مثوبته ، وترك ما يسخطه ويقتضى عقوبته . ويقول : إن ترتب

بعضها على بعض واجب ، وعبارته إن العالم يوجب الحال والحال يوجب العلم » .

« وأما زيادة الإيمان بزيادة متعلقاته وهى المسائل التى يؤمن بها المؤمن التى يعبر عنها بشعب الإيمان، فهى ظاهرة لا تحتاج فى بيانها إلى شرح طويل فإن هذه المسائل لا يمكن أن تتلقى إلا بالتدريج ، فكلما تلقى المؤمن شيئاً منها ازداد إيماناً » .

وأقول إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وإنما يوجد وينعدم ، واليقين، وعين اليقين وحق اليقين التى يقول عنها السيد رشيد رضا ، كلها درجات وتطورات سابقة على الإيمان متصلة به ومؤدية إليه ، ولكنها ليست الإيمان ذاته . لأن الإيمان — كما قلنا — حركة عقلية وشعورية ووجدانية ، تتضافر فيها القوى الواعية . وغير الواعية : من ملكات الإنسان العقلية والعاطفية : واليقين والتثبت حركة عقلية بحتة . ورب إنسان يوقن بأن التماس العلاج عند الطبيب ضرورة عاجلة ، وتفع حال لا ريب فيه، ومع ذلك لا يجد فى نفسه القدرة على تقرير طلب هذا العلاج ، والسعى إليه ، والخروج من الجمود إلى الحركة . وألوف من الناس يمارسون رذائل يعرفون هم قبل غيرهم . وبال عاقبتها . وسوء مغبتها وأنها توردهم موارد التهلكة ، ومع ذلك يواصلون ممارستها مغلوبين على أمرهم ، وقد يعزم الواحد منهم فى الليل على أن ينفض عن نفسه عار هذه الرذيلة ، فإذا أصبح الصباح نسى ما قال ، واستأنف حياته على العهد بها . ولكن انظر إلى هؤلاء ، وقد شملتهم حركة عامة ، وإيمان شامل ، ضمتهم فى غمارها مع غيرهم من أبناء قومهم . صالحين وطالحين ، فإنك لتراهم ، وقد خلقوا خلقاً جديداً : صلابة عزم ، ونفاذ إرادة، واهتداء بالحق ، ودعاة وهداة إليه، ولعلك واجد خير مثل ، أو أوضح برهان على ما نقول ، فيما تركه الإسلام من أثر على أبطال الإسلام والأوائل الصناديد من أمثال عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص الذين نفروا

من دعوة ابن عمومتهم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، وحاربوا دينه ، واضطهدوا أنصاره . ثم آمنوا ، فأشرقت نفوسهم ، والتمعت مواهبهم وكبرت شخصياتهم ، وأغلب الظن أنهم لو لم يدخل الإيمان قلوبهم ، أى لم يتح لهم الإسلام فرص العظمة الحقيقية ، لراحوا أفراداً ، كسائر أعضاء قبيلة قريش وبطونها وأفخاذها ، يشاركون فى الصغير التافه من معارك العرب الداخلية ، والضئيل الحقير ، من شواغلهم وخلافاتهم .

والوقائع أن الإيمان أشبه شىء بالكهرباء ، فالمصباح لا يضىء بفعلها إلا بعد أن تصل الأسلاك فى اللمبة إلى درجة الاشتعال ، كذلك الإيمان ، فإيمان الجاهل كإيمان العالم ، وإيمان الغنى كإيمان الفقير من حيث الطبيعة والأثر ، ولكن الاختلاف واقع فى اختلاف وظيفة كل من هؤلاء فى المجتمع ، ومواهبه الشخصية ، فإيمان العسكرى يدفعه إلى القتال ، وإيمان الفقيه يدفعه إلى البحث. وإيمان الشاعر والخطيب يدفع إلى القول والمنافحة بالحجة والبيان. ولكنهم جميعاً ، يؤثرون على أنفسهم ، ويبذلون أقصى الجهد ، ويسفكون الدم ، ويطيعون القائد منهم ، ولو كان عبداً حبشياً . الإيمان أيضاً كالكهرباء ، تسلط على المصباح الصغير فيضيئه ، ثم على المصباح الكبير فتضيئه ، وعلى الآلة الصغيرة فتديرها وعلى الآلة الضخمة فتديرها ، وهى فى جميع الأحوال هى هى لا تتغير ، وإنما تتغير المظاهر التى تبدو بها ، والأشكال التى تظهر فيها . وهى لا تزيد إذ تسطع فى الثريا ، ولا تنقص حينما تظهر فى الجهاز الصغير . إنها الذى يزيد وينقص طاقة الجهاز على استيعابها ، والانتفاع بها . أو لعل الإيمان هو الماء . يملأ الإناء حتى حوافه ، ولا يمكن إلا أن يكون ملء الإناء تماماً ، ولكن الإناء هو الذى يتغير ، فيكبر ويصغر ، ويطول ويقصر ، ويتسع ويضيق ، ويصبح يوماً أبيض اللون ، شفافه وآخر ، أسود اللون داكنه ، والماء هو الماء ، بشرط واحد ، هو أن يمتلىء الإناء به ، حتى لا ينقص عن سعة الإناء قطرة واحدة ، فلا

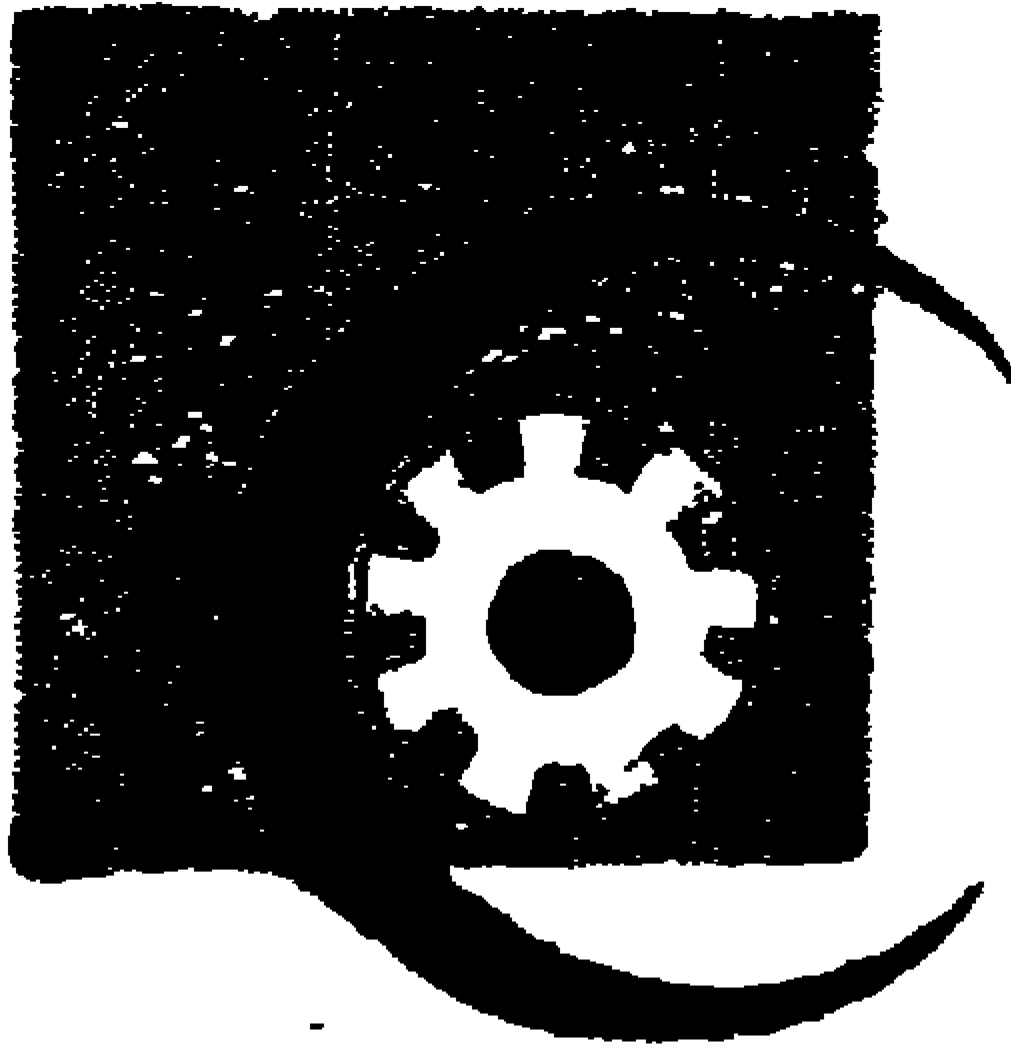
يتسع لسائل آخر ، ولا لأى شىء سوى الماء الذى شغله كله .

وما دمنا قد مر بنا أن الإيمان من الأجسام والأشخاص كالماء فى الأوانى ، فيمكن أن نتصور أن سعة الإناء يمكن أن تزيد . وبذلك تزيد كمية الماء التى يستوعبها هذا الإناء ، فالإنسان يمكن أن تنمو شخصيته ، وتزداد طاقاته ، وتعلو ملكاته ، فيصبح بإيمانه أكثر نفعاً ، ويصبح إيمانه أكثر سطوعاً ، ولعل لنا فيما ورد فى سورة الفتح ، ما يعين على زيادة قصور كون الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، فقد قال الله تعالى : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » . فالتغيير هنا لم يطرأ على الإيمان ، وإنما طرأ أولا على نفوس المؤمنين ، فقد كانوا فى حالة من الضيق والشك فى النصر ، والاضطراب فأصابهم من ذلك ، ما يشبه التقلص الذى تتضيق وتلتوى له الأجسام ، فإذا ما سكنت النفس ، زادت استيعاباً لهذه الطاقة التى لا تعلوها طاقة فى الدفع والإثارة ، والخلق والإبداع ، والتحدى والصمود ، وهى الطاقة التى غيرت الأمم ، وألهمت القادة والهداة ، والتى كانت عدة المؤمنين أتباع الرسل والنبيين ، والتى بها تتفاوت الشعوب ، كما يتفاوت الأفراد .

وبعض الناس ، يخفى عليه أن الإيمان بالله ، هو أغلى صور الإيمان ، ولكنه ليس الصورة الوحيدة له ، فالعلماء والمصلحون ، والفلاسفة والمفكرون ، والمكتشفون والمخترعون ، أولئك ، فى حاجة إلى الإيمان ، بل إنهم وأعمالهم ، ثمرة الإيمان . لولاه لما خطوا حرفاً ، ولا غيروا فرداً . ولا أضافوا جديداً ، ولا واجهوا خطراً . فالذين يحسبون الإيمان ، مرادفاً للخزعبلات والأوهام ، وتسلط الدجاجلة والمشعوذين ، هم من الجهل فى قمته ، فالإيمان عدو الجهل ، وعدو الظلم ، وعدو التخلف . وعدو الفوضى ، وعدو أكاذيب المتجرين بضعف الناس ، والمنتفعين بفقرهم وتفرقهم . فالإيمان هو النور الذى صاحب خطى الإنسان من الغابة والكهف إلى المدينة والجامعة ، ومن

النقش على الرمل ، إلى النقش على الصخر ، إلى الكتابة بالقلم ، ومن الذبالة التى تتراقص فى مهب الهواء ، إلى المصباح الكهربائى الساطع الباهر ، الذى لا تطفيه الرياح .

فالإيمان بقدر ما هو مبعث القوة ، ومصدر الطاقة ، هو مصدر العلم ، ومبعث النور .



الجهاد

الجهاد سنة الحياة ، فليس فى وسع الإنسان، أن يرفض الجهاد إلا إذا كان قد رفض الحياة نفسها ، فيصبح فى عداد الأموات ، وإن كان يروح ويغدو ، ويأكل ويشرب ، ولكنها حياة كالعدم إذ لابد أن يسأم فيها الخسف ، وأن يركبه الأقوياء بالمذلة والهوان ، ثم لا يلبث حتى يحرم من لقمة العيش ، وما يستر العورة .

ولعل أكثر الناس لا يعلمون أن جسد الواحد منهم ، ميدان معركة دائمة مستمرة لا تنتهى إلا بانتهاء حياته ذاتها : فالجسم الحى فى الإنسان البالغ مجتمع يتكون من أكثر من مليون بليون خلية ، وكل واحدة منها ، تقوم بعملها — من أجل صالح المجموع — تحت حراسة مشددة تنظمها وزارة الدفاع فى الجسم الحى ، فإذا تعرضت خلية واحدة للغزو أعلنت حالة الطوارئ ، وتدفقت الجيوش بكل حساب .

ولعل أكثر الناس لا يعلمون أيضاً « أن الكائن الحى بمثابة حصن منيع ، يقوم ويتصارع ، ويصد العدوان من خلال استحكامات رائعة فى جسمه ، فإذا انهارت تهدم الحصن أمام ضربات معاول الجراثيم »[1] .

---

(١) الدكتور عبد المحسن صالح .

وما يجرى فى الجسد الواحد ، هو صورة لما يجرى فى العالم الكبير ، فالحياة هى صراع مستمر بين الأحياء ، ولولا هذا الصراع ، لما تقدمت الحياة ، ولما ارتقى الأحياء ، ولقد نص القرآن الكريم على ذلك القانون العام إذ قال تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » . فمن هذا الدفع ، يبقى الصالح النافع ، ويختفى الضعيف. « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

فكما يفسد الطعام ويتعفن، إن لم تحسن صيانته ، وكما تزحف الحشائش على الحقل ، إن لم تتقن حمايته ، كذلك تتعفن الأفراد والشعوب ، فتلتف حول مصادر حياتهم حشائش وأعشاب الفساد ، إذا لم يسهر الفرد ، والجماعة ، على رد العوادى ، من الداخل والخارج . فى صورة الفساد والتحلل ، أو الغزو والغصب .

فالجهاد ليس تفضلا من الأحياء، ولا رخصة لهم أن ينتفعوا بها أو ينزلوا عنها ، بل إنه ركن الزاوية فى بناء وجودهم ، والضمان الأول لبقائهم . ومن ثم كان الجهاد فى الإسلام فرض كفاية ، إن استطاع أن ينهض به عن الجماعة ، نفر منها ، فإن لم يستطع هؤلاء ، كان الجهاد فرض عين ، يلزم كل فرد ، أن يسارع إليه ، وإلا عم الله بغضبه الجميع ، فشملهم منه عذاب فى الدنيا ، وخزى فى الآخرة .

ولما كان الإسلام قد جاء ليدعو الإنسان إلى عقيدة صالحة ، فقد كان حتما أن ينشأ على أساس هذه العقيدة ، بلا إمهال ولا تراخ ، مجتمع قوى صالح . ذلك لأن العقائد الصالحة لا تدع للناس الذين آمنوا بها فرصة الاسترخاء والتواكل ، لأنها ما تكاد تدب فى صدورهم ، حتى تحملهم على العمل حملا ، فلا يطيب لهم نوم ، ولا يهنأ لهم عيش ، حتى يروا هذه العقيدة سائدة ، فإذا ما اتسع نطاقها ، وأظلت أناساً بظلها بدت فى الحال فيهم فضائل الصالحين ، فتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر ، وتبدت للناس شجاعتهم وصدقهم ، وأمانتهم وجدهم ،

وحسن تعاونهم ، وثباتهم فى المحن ، وحبهم للعلم ، وكرههم للذل ، فتنجم عن ذلك كله أمة أو دولة ، منيعة ورفيعة معاً ، يفيض نورها على الآخرين فينجذبون إليها ، ويسيرون خلفها ، وتصبح للناس إماماً . وما يزال أبناؤها يبحثون فى كل ناحية من نواحى حياتهم ، عن عيوب بها ، أو ثقوب فى ثوبها ، أو صدوع فى بنائها ، فيرتقون كل فتق ، ويرأبون كل صدع ، لا تغفل لهم عين ، ولا تفتر لهم عزيمة ، فإن تراخوا وأهملوا وسائل الوقاية أولا ، ثم أسباب العلاج ثانياً ، أخذهم الله بعقابه ، فضعفوا واضمحلوا ، فيطمع فيهم الطامعون ، فيصبحون فى أفواههم لقمة سائغة وبين براثنهم فريسة مهلة ، وحلت محلهم أمة أقوى منهم على الحياة ، وأعظم صبراً على شدائدها « إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما ويستبدل قوماً غيركم » التوبة « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » محمد .

ومن هنا صاحب الجهاد ، الإسلام منذ كان دعوة لم يعلنها نبيها ورسولها ، فقد خاطبه الله تعالى : « قم فأنذر وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر » .

وبهذه الكلمات القصار وضع القرآن دستور الجهاد لرسوله ، الذى تولى ، بسطه للناس ، وبيانه للمسلمين ، بقوله وعمله وتقديراته ، وكل لحظة من حياته .

فالإسلام بدأ بقيام الرسول ، فى ظل عقيدة وحدانية الله ، التى يمثلها لفظ « الله أكبر » ، ولفظ « قم » يوحى إلى السامع الشعور بانتصاب القامة ، وهو مظهر التلبية مع الانتباه والقوة والعزم . والإنذار هو إعلان الدعوة ، وبيان مخاطر إهمالها ، والعمل بغير مقتضاها . أما تطهير الثوب فهو كناية عن النظافة المادية ، وهجر الرجز ، هى علامة على النظافة الروحية . والعزم والانتباه ، والتلبية والطاعة هى جميعاً جوهر الجهاد ، وعدته ، فلن تجد إنساناً — مهما صغرت مكانته ، أو قلت تبعته ،

اجتمع له مضاء الإرادة وصدق التصميم ، مع طهارة الجسد والنفس ، إلا بلغ الذروة بين إخوانه ، وكان وجوده معهم ، حماية لهم من الذل ، وفساد الأمر ودعوة متجددة للجهاد . فالناس لا تغلبها الرذائل ، ولا تفشو بينها الفواحش إلا لغياب قائد ذى عزم ، عف اليد واللسان ، طاهر النفس والذيل . وفرد واحد مؤمن بعقيدة بريئة من آفات الطمع فى الدنيا ، والخوف من زوالها ، قادر على أن يحول الألوف إلى مثل قبضة واحدة ، تضرب فى صرح الفساد والظلم ، فيتناثر شظايا . كل شظية فى ناحية .

ولما كان الإسلام هو دين الإنسانية القوية المتآخية ، فقد دار كله من ألفه إلى يائه حول الجهاد ، وكانت العبادات فيه ، من صلاة وزكاة وحج وصوم ، تهيئة للجهاد ، وإعداداً للمجاهدين ، وكانت قواعده وأحكامه ، وأصوله وفروعه ، وقرآنه وسنته ، وعقيدته وشريعته تقنينا للجهاد ، وحثا عليه ، ودفعاً إليه ، فلا إسلام ولا دين ، بغير الجهاد ، بشعبه المختلفة ودروبه المتعددة : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع ، وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً » .

ولقد تولى القرآن الكريم ثم سنة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بيان أحكام الجهاد ، ثم بيان مواقف الناس ، إقبالا وتلبية ، وصداً ونفوراً ، وصدقاً وثباتاً ، ورياء وتردداً . ثم بين نتائج الأخذ به والجرى على سننه ، وعواقب الإهمال له ، والخروج عليه .

أما آيات الجهاد ، فمنها :

أولاً — ما يدعو دعوة مطلقة إليه ، ومن ذلك :

— « اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله » .

(المائدة)

— « انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » .

(التوبة)

— « وجاهدوا فى الله حق جهاده » . (الحج)

ثانياً — ومنها دعوة إلى رسول الله :

— « يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين »

(التحريم)

— « يأيها النبي حرض المؤمنين على القتال » .

(الأنفال)

ثالثاً — ومنها تقرير أن الجهاد من صفات المؤمنين :

— « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً » .

(الأنفال)

— « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم » .

(الحجرات)

— « يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله » .

(المائدة)

رابعاً — ومنها ما يقرر أن الجهاد يعود نفعه على المجاهد نفسه :

— « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين » .

(العنكبوت)

خامساً — أن أجر الجهاد عند الله عظيم :

« والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله » .

(البقرة)

« الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله » .

(التوبة)

سادساً — إن المؤمن المجاهد ، أعظم درجة من المؤمن الذى لم يجاهد :
« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى . وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً » .

(النساء)

سابعاً — أن الله يمتحن عباده حتى يعرف المجاهدين من غيرهم :
— « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين » .

(محمد)

— « أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » .

(التوبة)

وإلى جانب هذه الآيات ، آيات تقرر مبادئ هى أس الجهاد وفى كل زمان ومكان ، وربما فى ظل أية عقيدة . حتى ولو كانت غير عقيدة الإسلام .

الآية الأولى :

— « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

الآية الثانية :

— « إن الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم . قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً » .

الآيتان الثالثة والرابعة ، وهما متكاملتان :

- « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » .
- « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

أما الآية الأولى : فهى بيت القصيد فى دستور الجهاد ، إذ لا يثنى عزم المجاهدين إلا أمر من ثلاثة : عاطفة قربى أو صلة مودة ، أو حرص على الولد والزوج ؛ أو مصلحة مادية من تجارة أو مال ، أو إيثار للراحة والعافية . فإذا روض الإنسان نفسه ليتحرر من هذا الضعف بأنواعه فجعل الجهاد أسمى مقاماً من المال والبنين ، أى من المصالح والعواطف فإنه لا يلبث حتى يصبح قوة لا ترد ، فإنه ما إن يبدأ فى تذوق لذة الجهاد ويستمتع بخوض المعارك حتى تتحصن نفسه ضد الآفات النفسية . وهذا الصبر والمثابرة . وكلما مر المجاهد فى تجارب الجهاد الحلوة والمرة ، أفاد منها . ففى الهزيمة يتعلم كيف لا يستسلم لليأس ، وفى حال النصر يتعلم كيف لا يستخفه الفرح ، وتصبح حياته حلقات من الدروس النافعة . والتجارب البانية ؛ التى تزيد نفسه اتساعاً ، وإيمانه ثباتاً وخلقه رصانة .

أما الآية الثانية : فهى مذهب فى الجهاد يتميز به الإسلام ؛ وإن كان قوامه فهما صادقاً للنفس الإنسانية ، فما أكثر الذين يحسبون الضعف عذراً ، ولا يدرون أنه الذنب ، ثم يقبلون على أساس التسليم بالضعيف ظلم الظالمين لهم ، وعسفهم وافتياتهم وجورهم عليهم ، ويقنعون من دنياهم ، بالدعاء على الظالم سراً ، ونقد سوء عمله همساً ، وتأييده علناً ، والتقرب إليه جهراً ، فقد أدرك الإسلام أن هؤلاء الضعفاء لا يقتصر ضررهم على أنفسهم ، وإنما يشيعون بمثلهم السيىء ، الضعف فيمن حولهم ، فكما أن الشجاعة تعدى ، فالضعف يعدى) ورب كلمة واحدة من خائف منخوب القلب ، تبعث فى نفس مجتمع هادىء مستقر ، الفزع ، وتلقى به فى أحضان الفوضى والاضطراب ، فدعاة الهزيمة فى كل مجتمع ، هم ألد أعدائها ، وإن كانوا من صميم أبنائها ، ولو برئوا من نقيصة

التواطؤ مع الأعداء ، أو التعاون معهم . ومن هنا جاء الإسلام مسوياً فى الجزاء والعقاب ، بين المظلوم الخانع ، والظالم الباغى . والحق أنه لا ظالم متجبر بغير مظلوم مستخذ. والضعفاء جديرون بأن يتحرروا من ضعفهم لو أضاءت نفوسهم الحقائق الروحية التى أشعل الإسلام جذوتها فى مثل آياته : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » « وما تسبق من أمة أجلها ، وما يستأخرون ». ولو استمدوا زاداً من هذه الحقائق التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، لزال عنهم خوفهم ، ولا نتفضوا مقاتلين لا يرهبهم سيف ، ولا يثنى عزمهم سجن ، ولا تزلزل عقيدتهم مشنقة ولا نطع .

ولقد امتلأ تاريخ المسلمين بالأمثلة على الانتفاع من هذه المبادىء والاهتداء بها ، فهاك خالد بن الوليد، يموت على فراشه حتف أنفه، بين نسائه وأولاده ، وهو الذى قاد الجيوش ، وخاض المعارك . وتناثرت حوله الجماجم ، ومست بدنه مراراً شفرات السيوف ، فلما حضره الموت قال : لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وليس فى جسمى موضع بغير طعنة وهاأنذا أموت على فراشى كالبعير ، لا نامت أعين الجبناء ، وقد استخلص أبو بكر معنى هذه الكلمات وأشباهها ، وهو أمام من أئمة الجهاد ، عرف من شدائده وأهواله ، ما لم يشهده سوى صاحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قال كلمة أحاطها الخلود بإطار منه : « احرصوا على الموت ، توهب لكم الحياة » فكانت خلاصة حياة المجاهدين كلهم فى بقاع الأرض ، وحقب الزمان .

وقد توج القرآن الكريم ، هذه المبادىء بهذا العقد الذى يعرضه الله تعالى على المجاهدين ، يشترى فيه منهم حياتهم وما يملكون ، على أن يهبهم الجنة ، والجنة عند غير المسلمين أو غير المؤمنين ، هى خلود الاسم ، ورفعة المكانة ، وراحة البال ، والقدوة التى لا تبلى . فبدل أن

يموت الإنسان على فراشه ، كما تموت الكلاب أو الذئاب ، يموت من أجل غاية كريمة ، تتشرف به أمته وأسرته ، والجنس الإنساني كله ، ويذهب في التاريخ ، مثلا ، يعلم الناس كيف يرفضون الذل ، وكيف ينعمون بالعزة ، ورفعة المكانة .

وقد جاءت الآية الأخيرة ، إكمالا لسابقتها ، وإن كانت كاملة فيقول الله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » فبهذه الآية ومثيلاتها ، يزيح الإسلام آخر حاجز فى وجه النفس المؤمنة يفصل بينها وبين الجهاد . فالخوف من الموت غريزة من غرائز النفس ، ثبتها الله تعالى فيها ، إبقاء على الفرد ، ليبقى الجنس ، ومع أن الفرد يرى أن الموت آت لا مفر منه ، وأنه لا يفرق بين غنى أو فقير أو قوى وضعيف ، ولا بين مقاتل ومسالم ، أو طفل وشيخ ولكن سلطان الغريزة غالب ، لم يعالج هذا السلطان ، بما يضعف أثره ويقلل من قيمة ، حتى يصبح الناس قادرين على مقاومة الظلم ، ورد عادية الفساد وحماية الوطن والعرض . ولذلك جاء الإسلام ، مؤكداً للمجاهدين ، بأن موتهم ، لا يعد نهاية لحياتهم ، وأن الشهادة فى سبيل الله ، بداية حياة أعظم وأسمى فى جوار الله . . وقد آمن المجاهدون المسلمون بهذه الآيات ، إيماناً ، كاملا لا تشوبه ريبة ، فسقط سلطان الموت الرهيب عن نفوسهم ، وأصبحت المعارك عندهم ، لوناً من الرياضة الروحية ، يستمتعون بخوضها حقاً ، ويهنأون بالموت فى حلباتها صدقاً ، ويتنافسون على طلب الشهادة ، كأنما يتنافسون على عرض من أعراض الدنيا نفيس وغال . ومن ثم امتلأت صفحات تاريخهم ببطولات ، لم يكن ممكناً أن تقع لولا هذا الإيمان .

إن الجهاد ، هو ثمرة الإيمان الأولى ، لذلك كانت رعاية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لإيمان صحابته ، وأتباعه ، فى المقام الأول عنده ، تولى تربيتهم حينما كان الإسلام مطارداً ، بالقول وبالفعل ، وقبل كل

شيء بالمثل يضربه ، وبالقدوة يقدمها . فقد كان لا يؤثر نفسه على المسلمين بأى شيء مهما صغر ، يقوم بنصيبه فى العمل مهما ضؤل ، أو مهما صعب ، ولا يخص نفسه بطعام لا يجدونه ، ولا بثوب لا يحصلون على مثله ، بل إنه كان عليه الصلاة والسلام ، أقسى المسلمين على نفسه حرماناً ، وتجويعاً ، وسهراً وتأديباً ، فتأسى به كبار الصحابة ، فذهبوا فى إنكار الذات ، وحب المشقة ، والصبر على الشدائد ، مثلا غير مسبوق فى تاريخ الحركات الدينية والسياسية معاً ، لا يدانيهم فى بذلهم وصبرهم ، وحسن بلائهم حتى ولا الذين فرضوا على أنفسهم الرهبنة ، فالرهبان يلزمون البيع والصوامع ، وأصحاب الرسول فى ميادين القتال ، يبذلون الروح والدم ، وينهضون بأعباء الدنيا. وقد ذهبت حجرة الرسول مثلا للتقشف والزهد ، فقد كانت مبنية من الجريد والطين ، وأكسية من الشعر ، تشد هذا الجريد بعضها إلى بعض . أما ارتفاع هذه الحجرة فقد كان يقول حسن البصرى : لقد رأيت حجرات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنا غلام مراهق ، كنت أمد يدى فألمس السقف » .

ولم يكن تقشف الرسول ، لكونه نبيا يحمل مالا يحمله سواه من البشر ، فقد كان من أنبياء الله ملوكا كداود وسليمان وكان منهم وزراء كيوسف بن يعقوب ، وكان هؤلاء لا يعيشون عيشة الزهاد . لأن مقتضيات الحكم والملك تفرض عليهم أن يعيشوا كما يعيش الملوك والوزراء، ولكن محمداً رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، كان يعد أمة المسلمين ، لتنشر رسالة . ولتحمل إلى الناس ديناً ، وهو ما لم يكلف به لا داود ولا سليمان ولا يوسف عليهم السلام ، فمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان إماماً للمسلمين ، وقائداً لجماعتهم ، وهادياً لهديهم ، وكان يعلم أن أمته لن تنهض بعبء الرسالة ، إلا إذا تهيأت لفريضة الجهاد ، كأحسن ما يكون التهيؤ ، لكى تبقى نفوسها ساهرة يقظة ، لا تغفل عن فعل الشهوات بها ، وعبث النفس الإنسانية ، والنفس أمارة بالسوء. وقد نجحت

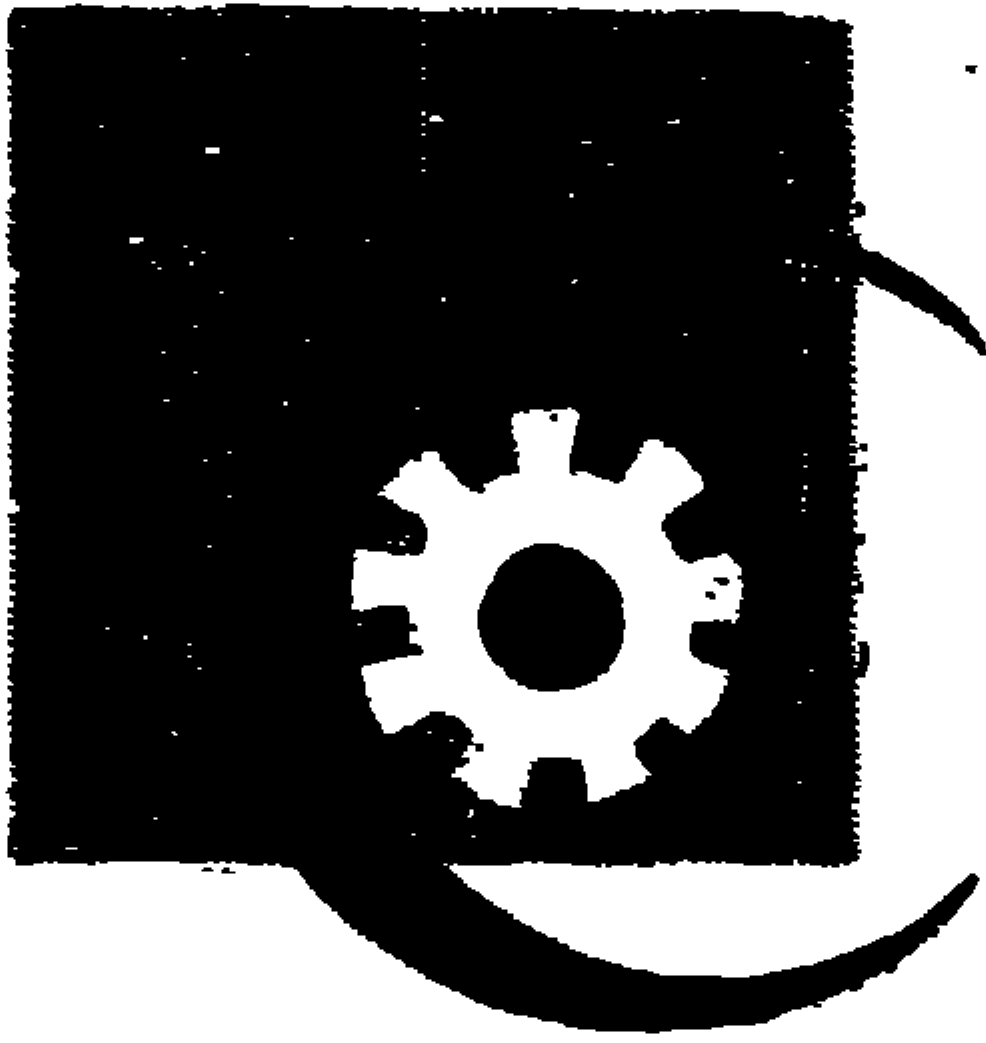
القدوة التي ضربها الرسول فحولت رجالا أصحاء أقوياء كعمر بن الخطاب ، وعلى بن أبي طالب ، رضى الله عنهما ، إلى رواد في الصبر والجوع ، واحتمال الأذى ، ولو تركوا على سجيتهم وعاشوا عيشة أمثالهم من علية القوم في العيش ، لأكلوا أفخر الطعام ، ولبسوا الخز والديباج ، وقد حاكاهم ، من يليهم في الحركة المحمدية — كل على قدر استطاعته ثم اقتدى بهؤلاء وهؤلاء ألوف بعد ألوف من المسلمين ، فنشأ من ذلك مجتمع سلم ، يضبط نفسه ، بل يلجمها ويحملها على القناعة بالقليل والازورار عن الزخرف ، وكراهية الإسراف والبذخ ، ولذا كانت تلبية الدعوة إلى الجهاد عليهم سهلة ، ولهم محببة ، وبهذه الروح استطاع المسلمون الأوائل : أولا — أن يتلقوا الدعوة من الرسول ، وأن يفهموها ، ثم يؤمنون بها . ثم ثانياً — أن يقفوا إلى جوار الرسول ينافحون عن هذه الدعوة ، ويصدون معه حملات الشرك ، ويتحملون أذى المشركين ، وعسفهم صابرين ، ثم ينازلون الكفر في الموقعة بعد الموقعة ثم ثالثاً — ينقلبون من الدفاع عن العقيدة إلى الهجوم على خصومها فيقوضون سلطان قريش ، بكل جاهها ومالها وسيادتها على النفوس والعقول ، ثم رابعاً — ينطلقون من حدود جزيرة العرب ليحملوا راية الإسلام ، ويرفعوا كلمته ، ويخوضوا أقسى المعارك ، وأعظمها في تاريخ العقائد والأديان ، فيثلون عرش الأكاسرة ، ويزيلون ملك الأباطرة : الفرس والرومان ، وقتئذاك ، دولتا الحرب والسياسة ، وفيهم دهاقين الفنين ، وأساطين الميدانين .

فالجهاد ، كما رأيت هو عقيدة ، ثم قدوة ، ثم تدريب ورياضة ومثابرة ومرابطة « يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا » .

وإذا كان داعي الجهاد ، قد دعا المصريين والعرب ، منذ مطلع القرن العشرين ، أو حتى قبل ذلك ليدفعوا عن حماهم المنهوب ، فقد زاد داعي الجهاد هذه الأيام إلحاحاً ، ليردوا عن ديارهم ، عدواً لم ير تاريخ الحروب ودسائس السياسة ، عدواً في مثل حقارته وسوء طويته ،

وعدم تورعه عن استعمال أسوأ الأسلحة ، وشر الوسائل ، للوصول إلى غرضه . .

فقد وجب علينا أن نسارع إلى النظر فى كل ما يجرى فى حياتنا ، وأن نستلهم ما قرره ماضينا وتاريخنا ودينينا ، وأن نعلم أنه لا نجاة لنا ، إلا بأن نرهف فضيلة الجهاد فى نفوسنا ، وأن نوقد شعلتها ، فنطهر حياتنا من كل صنوف الضعف والوهن ، وننقى نفوسنا من كل آفات الطمع فى الدنيا ، والتكالب عليها ، وحب المال الحرام منها ، والتنافس على الظهور ، وكراهية الخير لغيرنا ، وكراهية أن يتم الخير على غير أيدينا وأن نروض أنفسنا قليلا قليلا ، ولكن بغير إهمال ، ولا تراخ ، على تذوق الجهاد ، والفرح بنفائسه الروحية ، مدركين أن البطولات الكبيرة ، ليست إلا جماع أعمال صغيرة تساند بعضها بعضاً ، فإذا المتردد مقداماً ، وإذا الخائف مندفعاً ، وإذا من ترك سلاحه ، يبحث عنه ، ويجلو عنه الصدأ ، ويشهره فى ضوء الشمس ، مردداً نشيد الانتصار . . « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .



المعجزات

لما كان القرآن هو كتاب الإسلام ، وكان الإسلام هو دين العقل ، فقد جاء فى هذا الكتاب الكريم ، فى شأن المعجزات التى أيد بها الله تعالى رسله وأنبياءه ، حكم واضح جلى ، قوامه ، أن هذه المعجزات ، لم تحول جماعة ولا أمة ، من الشرك إلى التوحيد ، ولم تنقل قوماً من المكابرة والعناد ، إلى الإقرار بالحق والتسليم به ، إنما الذى هدى الشعوب والأقوام إلى دين الحق ، وأنقذهم من الضلالة والجهالة ، بالنور والرشاد ، هو إيمان طائفة قليلة ، التفت حول الرسول ، وأيدته ثم احتملت فى سبيل عقيدتها الأذى والهوان : « وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين » .

هذه الفئة القليلة المؤمنة هى التى قال عنها الله تعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » . وهذه القلة الصابرة ، المهتدية الهادية هى نفسها التى يعنيها جل جلاله بقوله : « قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » .

وهذه الكثرة التى تشبه رغاء الإبل ، وزبد البحر ، والتى كانت جديرة أن تخيف المؤمنين الأوائل ، عند الوهلة الأولى ، لولا تثبيت الله لهم ، هى التى

يقول الله العزيز بمثل قوله تعالى : « وإن كثيراً من الناس لفاسقون » . « وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون » . « ولكن أكثر الناس لا يشكرون » . « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . « ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » .

ومذهب القرآن الكريم ، فى المعجزات ، ودورها فى رسالات الرسل ، ودعوات السماء ، هو أسمى المذاهب على الإطلاق ، فى التربية الروحية والسياسية معاً ، وطريقته هى أعظم الطرائق طرًّا ، فى التنشئة العقلية والنفسية على السواء . فما دامت الرسالات السماوية قد جاءت لتعلم الناس طريق الاهتداء إلى سر أسرار هذا الكون ، وإلى مفتاح العلوم المادية والأدبية فيه ، بالاهتداء إلى قانون قوانينه ، ألا وهو وحدة خالقه ، وثبات الأنظمة الحاكمة له ، والضابطة لحركات الأجسام والنفوس فيه . وإن لهذه الأكوان هدفاً سامياً تتجه إليه فى تطورها الدائب وتطور الأحياء فيها : « خلق السموات والأرض بالحق » . « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » « ربنا ما خلقت هذا باطلا » .

ولكن الاهتداء إلى هذه الحقيقة الكبرى ، التى تقى الإنسان من الوقوع فى براثن الأوهام ، وفى شباك المتجرين بتلك الأوهام ، والمخوفين الناس بأشباحها ، والمكبلين لعقول البشر بأغلالها ، ليس سهلا ، فللإنسان من ضعفه « وخلق الإنسان ضعيفاً » ومن ركونه إلى ما ورثه عن آبائه وأجداده « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول » ، « قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » ومن استكباره عن قبول الهداية على يد بشر : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ، إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا » للإنسان من هذا كله موانع تصرفه عن الإيمان ، وعن تعرف الحقيقة ، وعن الإنسلاخ عن عادات أهله ، وموروث أجداده ، من استثقال الحركة والميل إلى الجمود ، ومن ترك الأثرة إلى الإيثار ، ومن ترك الشح إلى البذل ، لا بد له من قوارع تهزه من أعماقه ، وتعكر

عليه صفو جموده ، وتدعوه إلى التأمل والتفكير ، فكانت دعوات الرسل ، وكانت معجزاتهم وسيلة من وسائلهم . ولكن لم تكن هذه المعجزات قط كل الرسالة السماوية ، ولا كانت وسيلتها الوحيدة ولا جوهرها . فجوهر الرسالة السماوية ، هو إيقاظ أعظم ما فى الإنسان : عقله وقلبه .

وإذا نظرت فى القرآن ، وجمعت الآيات التى وردت فى شأن المعجزات ، لبدا لك من أيسر السبل ، وبأقل الجهد ، أن من الممكن تصنيفها ورد كل مجموعة منها إلى مبدأ . فالمجموعة الأولى تبين حكمة الله تعالى فى إرسال الآيات إلا تخويفاً .

والفقهاء المفسرون ، متفقون على ما يقوله القرطبي من أن (العبر والمعجزات التى جعلها الله على أيدى الرسل من دلائل الإنذار تخويفاً للمكذبين) وإذا كان لبعضهم تزيد فى هذا المعنى ، فهو فى حدود جوهره ، إذ منهم من يقول إنها تخويف من المعاصى ، فى حين يقول الإمام أحمد بن حنبل إنها تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ، ثم إلى تكهل ومشيب ليقيم الإنسان أحواله ، فيخاف عاقبة أمره . فليست معجزة الرسل ، وسيلة إلهية ، لبث الإيمان فى قلوب الناس كافة . وإلا لو كانت الحكمة منها ذلك ، لا ستغنى عنها الله تعالى فقد قال : « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة » . فتحويل الناس من الكفر إلى الإيمان بأمره ، هو هين عليه ، ولكن الله يريد لعباده أن يؤمنوا بتدبر منهم ، ومجاهدة ، ومكابدة ، إذ بهذه المجاهدة والمكابدة ، تعلو نفوسهم ، وتسمو عقولهم ، ويصبح هذا الكون المسخر لهم ، طوع أمرهم بفضل العلم الذى واتاهم عن طريق النظر فى الآفاق وفى أنفسهم .

من أجل هذا ، قال الله تعالى : « وما منعنا أن نرسل الآيات إلا أن كذب بها الأولون » . ففى مرحلة من مراحل تطور الإنسان وتقدمه ، أرسل الله الرسل ومعهم المعجزات تؤيدهم : يبعثون الموتى ، ويبرءون الأكمه والأبرص . ويشقون البحر ، ويأتون طائفة من خوارق الأمور ،

فعجز عنها من يتعاطى فن السحر ، ويتقنه ويصل فيه إلى الغاية التى تبهر العقول ، وتشد النفوس . ثم تدرج الإنسان فى طريق العلم ، واتسعت أمامه سبل المعرفة ، فخاطب الله تعالى عقله ودعاه إلى النظر فيما يعرضه الرسل على هذا العقل الإنسانى من البراهين والأدلة ، والحجج وسمى البرهان العقلى « سلطاناً » وراح هؤلاء الرسل ، وكتب الله المنزلة ، يعرضون حقائق يساند بعضها بعضاً ، مستمدة من نفس الإنسان ، ومما حوله ، ومن ماضيه القريب ، وحاضره الراهن ، إلى جانب حقائق عن أحوال الأمم المندثرة ، يعرفها من أطلال وخرائب يمر بها ، ومن أقاصيص وحكايات تناقلها العرب جيلا بعد جيل .

ولهذا حينما ألح أهل مكة وسادات قريش فى أن يأتيهم رسول الله بالمعجزات ، رد عليهم القرآن الكريم « قل إنما الآيات عند الله » . « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » . « وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً » « إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » .

وكان كفار مكة قد قالوا لرسول الله ما أثبته القرآن فى سورة الإسراء : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه » . فكان رد رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر ربه : « سبحان ربى ، هل كنت إلا بشراً رسولا » .

ففى عهد البشر الرسول وصل العقل الإنسانى إلى تمام نضجه ، فتصبح معجزته الكبرى تبعاً لذلك ، حجة مودعة فى كتاب يقرؤه الناس ، وتعيه عقولهم ، ويتدارسونه ، ويتناقشون فيه ، فيجدون فيه أساليب الفكر المحرر من الخرافة والوهم ، والمستقل عن السلطان ، والخارج من ربقة المحاكاة والتقليد .

ومن هنا نجد الطائفة الثابتة من الآيات القرآنية ، وقد تلاقت عند تقرير أن التجربة أثبتت أن الآيات لم تنفع فى كسر مكابرة المكابرين ، فقد سدوا آذانهم عن سماع صوت الدليل وأغلقوا عقولهم عن رؤية البرهان الذى يملأ عليهم دنياهم ، ويتجلى لهم أينما أداروا أبصارهم : « ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ». « وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » . « وإن يروا كل آية لا يؤمنون بها » « وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » « وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » .

وإذا كان القرآن الكريم قد جلى هذا المبدأ العام ، أو هذه الحقيقة الكلية ، التى تكشف عن موقف الإنسان ، فى كل زمان ومكان من المعجزات : تدهشه ، وتثير عجبه ، وأحياناً تثير خوفه وجزعه ، ولكن ما تكاد تختفى من أمام ناظريه ، حتى يخف أثرها فى نفسه ، ثم يعود إلى عناده ومكابرته ، وإنكاره لمعناها ، وهزئه من دلالتها ، وقد أورد القرآن الكريم الأمثلة على ذلك . فموسى عليه السلام أرسل بآيات كثيرة قال عنها تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » ، ثم قال فى سورة النمل :

« وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين ، فلما جاءتهم آياتنا مبصرة ، قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا » وفى سورة القصص : « فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات ، قالوا ما هذا إلا سحر مفترى » . ونتيجة كل هذا ماورد فى الآية الثالثة والثمانين من سورة يونس : « فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ، على خوف من فرعون » فنعود ثانية أو نعود أخيراً إلى القلة المؤمنة التى يقوم صرح إيمان الجماعة ، على إيمانها هى ، وجهادها ، وتنتشر الدعوة ، بفضل سعيها وثباتها ، مستمدة من كتاب الله ، النور الذى تشق بفضله طريقها ، والزاد الذى يخفف عنها شقاءها وعناءها .

وقد أوتى — بعد موسى — المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام آيات لا تدع مكابراً على عناده، ولكنها لم تلق من الكافرين، والمعاندين، إلا ما لقيت معجزات موسى فقد قال الله تعالى فى سورة المائدة : « إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك، وعلى والدتك، إذ أيدتك بروح القدس، تكلم الناس فى المهد وكهلا، وإذ علمتك الكتاب والحكمة، والتوراة والإنجيل، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخُ فيها فتكون طيراً بإذنى وتبرئُ الأكمه والأبرص بإذنى، وإذ تخرج الموتى بإذنى، وإذ كففت بنى إسرائيل عنك، إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين ».

أما حواريو المسيح الذين يؤمنون به، فهم بدورهم لم تكفهم هذه الآيات البينات التى رأوها رأى العين وآمنوا بها فطلبوا من عيسى عليه السلام ما جاء فى الآية التالية مباشرة للآية السابقة : « إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء، قال : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ».

وقد استشكل بعض المفسرين على وصف هؤلاء الحواريين بالمؤمنين، لأنهم سألوا نبيهم شيئاً، لا يدل على تمام الإيمان، لأنهم يجربون ربهم، ولأنهم قالوا: «هل يستطيع ربك» وهو سؤال فيه شك فى قدرة الله، ويقول الزمخشرى فى [الكشاف] : إن الحواريين ادعوا الإيمان وأشهدوا على أنفسهم أنهم مسلمون مخلصون، فى الوقت الذى قالوا فيه ما ينافى ذلك وهو قولهم . . «هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء» ثم يقول الزمخشرى، إن الله تعالى ما وصفهم بالإيمان والإسلام وإنما حكى قولهم حكاية ووصله بما يدل على كذبهم منه وهو سؤالهم هذا وجوابه عليه السلام إذ أمرهم بتقوى الله إن كانوا مؤمنين حقاً، وإصرار على السؤال بعد ذلك ».

ويرد قول الزمخشرى السيد رشيد رضا، فيقول : ووجه رد هذا القول

أنه لو كان هو المراد من الآية لقيل : إذ قالوا يا عيسى ابن مريم «ولم يقل « إذ قال الحواريون» ، ولما صح أن تكون دعوى الإيمان من الحواريين نعمة من الله على [عيسى] وهى كاذبة .. ويرد قوله تسميتهم بالحواريين ما فى سورتى آل عمران والصف من إجابتهم إلى نصره .

وقد ختم السيد رشيد رضا هذا المبحث ، بما هو أشد اتصالا بموضوعنا فقد قال :

« فأمثال هذه الوقائع [نحو طلب مائدة من السماء ونزولها] التى يعهدها الناس فى كل زمان ومكان ، أن منها ما هو جبلة أو صناعة تتلقى بالتعليم والتمرين ، هى التى حملت بعض الناس على الشك والارتياب ، فى آيات الأنبياء ، وبعضهم على تسميتها سحراً مبيناً ، وبعضهم على التثبت منها ، للتفرقة بين الحق والباطل ، وهو ما طلبه الحواريون لأجل تحقيق العلم اليقينى الذى تطمئن به قلوبهم ، وتقوم به حجتهم على غيرهم ولهذه الحكمة ، جعل الله تعالى الآية الكبرى لرسالة خاتم رسله صلى الله عليه وسلم ، عملية حتى لا يبقى مجال لارتياب أحد من طلاب الحق المخلصين لهم وهى إتيان رجل أمى عاش بين الأميين إلى سن الكهولة بكتاب فيه أعلى العلوم الإلهية والأدبية والاجتماعية والشرعية... » .

على أن المفسرين اختلفوا هل نزلت المائدة التى طلبها الحواريون أم لم تنزل ، فقال الحافظ بن كثير : قال قائلون إنها لم تنزل ، فروى ليث ابن أبى سليم عن مجاهد فى قوله [أنزل علينا مائدة من السماء] قال : هو مثل ضربه الله ، ولم ينزل شىء . وروى جرير عن مجاهد قال : مائدة عليها طعام ، وعنه قال : أبوها أى رفضوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا فأبوا أن تنزل عليهم ، وقال أيضاً ، عن الحسن أنه قال فى المائدة : إنها لم تنزل ، وحدثنا بشر عن قتادة ، قال كان الحسن يقول لما قيل لهم [فمن يكفر بعد ، منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين] قالوا لا حاجة لنا فيها فلم تنزل . ويقول رشيد رضا رحمه الله ، وهذه أسانيد

صحيحة إلى مجاهد والحسن، وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى ، وليس هو فى كتابهم .

* * *

على أن جملة ما نخلص به من كل ما سلف ،أن معجزات الأنبياء فى مختلف العهود ، وعلى يد جميع الأنبياء، لم تقنع مكابراً ، ولم تحرج جاحداً ،حين يتيقن هؤلاء فى أنفسهم صدق المعجزة وبلاغة دلالتها ، فإن لسانه يجحدها ، لأنه لا يتناول أمر الدعوة إلى الدين ، تناول العاقل المفكر ، بل ينظر إلى الأمر كله ، من ناحية مصالحه العاجلة ، من مكانة سيزيلها الدين الجديد أو ينتقص منها ، أو تسليم لبشر يراه هو أقل منه ، وأضأل شأناً ، وما يشبه ذلك من شهوات الدنيا الفانية : وجحدوها واستيقنتها أنفسهم .

وقد رأينا ماذا حدث من بنى إسرائيل، بعد النعمة التى ذكرهم بها الله بقوله : « وإذ أنجيناكم من آل فرعون » « وإذ فرقنا بكم البحر ، فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون ، وأنتم تنظرون » فقد حدث منكم بعد هذه النعم الجزيلة ، والمعجزات الصادعة ما أشار إليه الكتاب العزيز : « وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون» .

فإن هذه المعجزات التى عادت عليهم أنفسهم بالخير مباشرة ، إذ حررتهم من ربقة الأسر ، وأعفتهم من محنة الذل ، وأخرجتهم من كل ذلك سالمين ، فى حين هلك عدوهم شر هلكة فقد ابتلعه اليم وهم ينظرون ، ورأوا ذلك رأى العين ، لم يروه لهم أحد ، وعدوهم هو هو ، ملك ، لا حدود لسلطانه ، له ملك مصر ، وتجرى من تحته الأنهار ، وقد كانوا له عابدين ، ولسلطانه مذعنين ، ومن عذابه مشفقين ، وقد عرفوا أن هذا كله ، خوارق لا يعهدها الناس ، ولا تفهمها العقول ، فلم يقنعوا ، بمقابلة هذا كله بالسكوت عن شكره ، بل فعلوا أقبح ما نهاهم عنه نبيهم موسى عليه السلام ، وهو العودة إلى الشرك ، وعبادة العجل ،

الذى كانوا يعبدونه فى مصر ، حيث سامهم فرعون وبطانته الخسف : قتل رجالهم ، واستحيا نساءهم ، كأنهم جبلوا على حب الذل ، والرضاء بالعبودية ، وكراهية الحرية ، والنفور من الكرامة ، وقد كانت ذكرى خروجهم من مصر ، وعبورهم البحر ، وشقهم الماء ، كفيلة بأن تخلق منهم أمة أخرى ، وأن تقطع صلاتهم ووشائجهم بكل ما عرفوه فى ظل الحكم الفرعونى .

وما فعله قوم عيسى ابن مريم عليه السلام ، هو شبيه بما فعله قوم موسى ، بل أقبح وأنكى ، فإنهم رأوا الآيات المعجزة التى أرسل بها ، من إحياء للموتى ، وإبراء للزمنى ، فضلا عن دعوته للحب ، وإيثاره للرفق ، فلم يزدهم هذا كله إلا جحوداً وكفراناً ، وقسوة وعناداً ، وانتهى بهم كل فسوقهم وكفرانهم ، إلى الائتمار بعيسى عليه السلام والسعى فى قتله وتعذيبه ، وما زالوا برؤسائهم ، وما زال رؤساؤهم وأحبارهم ، بالحاكم الرومانى بيلاطس ، حتى أسلموه للجلادين ، وما هدأت نفوسهم إلا حينما ظنوا أنهم صلبوه وقتلوه ، « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » .

* * *

فلما جاءت دعوة الإسلام ، اتخذ القرآن منهجاً جديداً لهداية الناس ، ذلك هو تذكيرهم بآيات المعجزة التى تصابحهم وتماسيهم . والتى لا تنفك تعرض نفسها عليهم ، فى كل لفتة تصدر عنهم ، وعند كل حركة تبدر منهم ، وهى على إلف الناس لها ، واعتيادهم إياها لو وجدت من يفكر فيها ، ويستظهر معانيها ، لألفاها ، فى مثل إحياء الموتى ، شدهاً للعقل ، وإدهاشاً للنفس ، دلالة على قدرة الخالق ، وإعلاناً لعجائب أكوانه .

فحسب الإنسان أن يسأل مما خلق ، ليواجه معجزة كبرى : « فلينظر الإنسان مم خلق ؟ » فإنه يخلق من ماء مهين ، فلا يلبث هذا الماء ، أن يصبح جنيناً ، فإذا هذا الجنين الضئيل وزناً ، أن يصبح كائناً تام الأعضاء ، فيبلغ وزنه أضعاف أضعاف ما كان ، فى حين تكبر

قدراته ، وتعظم طاقاته . فيصبح ناطقاً لا يكف عن الجدال ، مفكراً يحلق بفكره فى أجواء الفضاء . وفى أعماق الماء ، فإذا قورن هذا السيد الآمر الناهى ، المفكر المدبر . بهذه البداية الضئيلة المهينة ما صدق أحد أن هذا من تلك ، وأن هذه البداية أفضت إلى تلك النهاية . فإذا التفت الإنسان إلى الأرض الهامدة الخامدة ، وقد خلت من الحياة ، فإذا نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . رأى معجزة أخرى لا تقل جلالا ولا روعة .

لذلك أخذ القرآن يعرض هذه الآيات البينات على عقل الإنسان ووجدانه ، على صورة من التكرار والإلحاح . ليحرك هذا العقل ، وليلهم هذا الوجدان ، ليرى هذه المعجزات الباقيات فيزداد . إيماناً بربه ، ويزداد هو نمواً وعلواً ، ويزداد فكره اتساعاً ، وشعوره ارتفاعاً .

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة . فخلقنا العلقة مضغة . فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً . ثم أنشأناه خلقاً آخر . فتبارك الله أحسن الخالقين » .

« وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون ، فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ، ومنها تأكلون » ، « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء ، اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » . « فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبتنا فيها حباً ، وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلا وحدائق غلباً . وفاكهة وأباً » ثم كرر القرآن الكريم هذا المقطع ، وكأنه يوقظ نواماً . أو يبعث به أمواتاً : « إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » « إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون » « إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون » « إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون » .

فهل كان موقف الكفار والمشركين من معجزة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونعنى بها القرآن الكريم ، مباينـاً لموقف المشركين والمعاندين من آيات ومعجزات كل نبى أرسله الله تعالى ؛ لقوم ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور .

لقد قال الله تعالى عن القرآن « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعـاً متصدعـاً » . والعرب أنفسهم لم ينكروا أنه نظم لم يعهدوا شيئـاً مثله من قبل ، فلا هو شعر ولا نثر ، ولا هو رجز ، ولا هو سجع ، ثم هو بعد ذلك ؛ عظيم الأثر فى نفس السامع ، حلو الوقع فى سمعه ، وقد أقر بهذا كله ؛ فى كلمة جامعة واحد من أكبر ساداتهم . كان من أعظمهم تذوقـاً للكلام الجميل ، وحفظـاً له وقدرة عليه ، وهو الوليد بن المغيرة ، فعن ابن عباس ، أخرجه الحاكم وصححه البيهقى : أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى فقرأ عليه القرآن . فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا مالا ليعطوكه . فإنك أتيت محمداً لتصيب ما عنده . قال : قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا : قال ، فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له . قال : وماذا ؟ قال : فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى : لا برجزه ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه هذا الذى يقول شيئـاً من هذا . والله إن لقوله الذى يقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ، ولا يعلى عليه ؛ وأنه ليحطم ما تحته قال : والله ما يرضى قومك حتى تقول فيه . قال : فدعنى ، فلما فكر قال : إن هذا سحر يؤثر .

فالقرآن لم يلق من الكفار . إلا ما لقيت كل معجزة أخرى ، من معجزات الرسل ، فقد انصرفوا عنه ، وحجبوا أسماعهم عن الإنصات إليه ، وقالوا فيه كل ما وسعهم أن يقولوه من قبيح القول وهجره

« قال الذين لا يرجون لقاءنا ، ائت بقرآن غير هذا أو بدله » ، يونس « وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن » . سبأ « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ، لعلكم تغلبون » . « فصلت » ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » الأنعام.

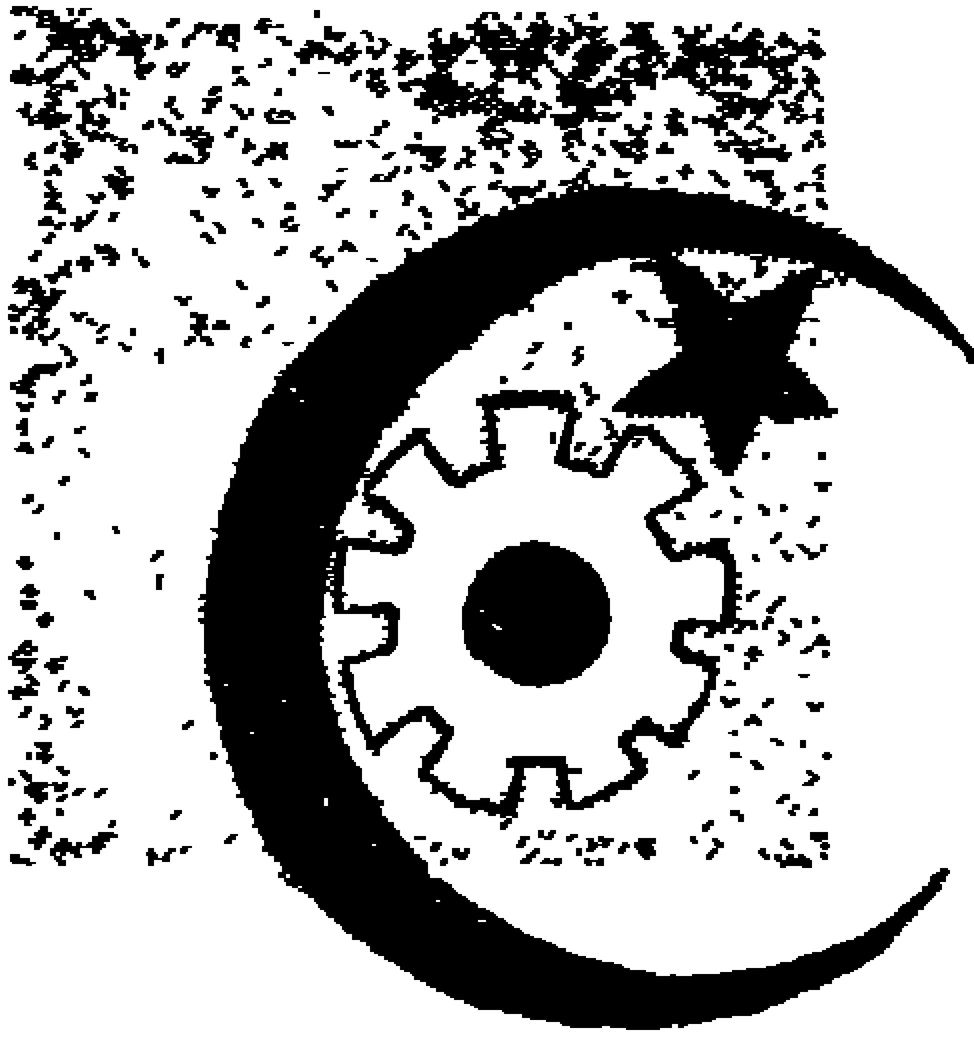
وانتهى رأى أكثرهم إلى أن القرآن هو أساطير « فيقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين » الأنعام « قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين » « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين » النحل « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا» .

وأكدوا هذا بدعواهم أن أعجمياً كان يمليه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرد القرآن الكريم : لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى» النحل .

فالقرآن ، أياً كان الأمر ، عند الكفار شيء مفترى : «افترى على الله كذباً أم به جنة » . « أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله » يونس « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » . «بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراه بل هو شاعر » . ثم قالوا إن آذانهم لا تطيق سماعه ولا تفقه منه شيئاً « وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ».

ولكن لولا هذا القرآن الذى فر منه ، الكفار ، وسخروا به ، وبصاحبه ما لبث أن أخذ عليهم الدنيا من أقطارها ، ذلك لأن الذين آمنوا به ، وبالنبى الذى أنزل عليه ، فعزروه ووقروه استمدوا منه قوة ، لم يعهدها بشر ، وثبتهم فى وجه شدائد لم يحتملها أحد ، وشق بهم مسالك لم تطأها قدم ، وتخطى بهم مهالك لم تخطر على قلب ، وألهمهم بأفكار لم تطرأ على فكر ، ومنحهم ثباتاً لم ينعم به شعب . ولولا هذا القرآن ، لما كان

هذا الدين ولما كانت هذه الأمة العجيبة التى خرجت من الفقر المجدب، والجهل المطبق ، والفرقة المهلكة إلى سيادة العقل ، والروح ، وصدارة السياسة والحرب ، وإلى سلطان العقيدة والشريعة . وهذا هو الموطن الأسمى الذى تظهر فيه معجزات الله . وهو المجال الذى تتحقق منه آياته ، بعد أن يصل اقتناع العقل إلى غايته ، فيحرك قوى النفس البشرية الأخرى . من عاطفة متقدة ، ووجدان مشرق ، ونفس مضيئة .



إياك نعبد

هذه هى الآية الرابعة ، بعد البسملة ، فى فاتحة الكتاب . وموضوعها عبادة الله ، على النهج الذى رسمه القرآن ودعا إليه الإسلام . فكيف يعبد المسلمون ربهم ، وما هى صلتهم به سبحانه وتعالى . وصورته عز وجل فى قلوبهم وعقولهم .

وسنعرض ما جاء فى بعض كتب التفسير . قال القرطبى : رجع من الغيبة أى عدل عن الحديث عن الغائب إلى الحديث مع المخاطب — وذلك على التلوين ، أى على سبيل تلوين الكلام . ثم قال و (نعبد) معناه نطيع ، والعبادة الطاعة والتذلل ، وطريق معبد إذا كان مذللاً للسالكين . ونطق المكلف به ، إقرار بالربوبية ، وتحقيق لعبادة الله ، إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك (وإياك نستعين) أى نطلب العون والتأييد والتوفيق . وعن أبى حفص الفرغانى : من أقر بـ (إياك نعبد وإياك نستعين) فقد برئ من الجبرية والقدرية .

وإن قيل : لم قدم المفعول على الفعل ؟ قيل قدم اهتماماً ، وشأن العرب تقديم الأهم . يذكر أن أعرابياً سب آخر فأعرض المسبوب عنه . فقال الساب : إياك أعنى ، فقال له الآخر : وعنك أعرض ، مقدماً الأهم . وأيضاً لئلا يتقدم ذكر العبد والعبادة على المعبود ، فلا يجوز نعبدك

ونستعينك . ولا نعبد إياك ، ونستعين إياك ، فيقدم الفعل على كناية المفعول . وإنما يتبع لفظ القرآن.

وانتقل إلى آية : اهدنا الصراط المستقيم فقال :

اهدنا دعاء ورغبة من المربوب إلى الرب . والمعنى دلنا على الصراط المستقيم . وأرشدنا إليه . وأرنا طريق هدايتك الموصلة إلى أنسك وقربك. قال بعض العلماء : فجعل الله عز وجل . عظم الدعاء –جملته– موضوعاً فى هذه السورة . نصفها فيه مجمع الثناء . ونصفها فيه مجمع الحاجات . وجعل هذا الدعاء الذى فى السورة أفضل من الذى يدعو به الداعى ، لأن هذا الكلام قد تكلم به رب العالمين : فأنت تدعو بدعاء هو كلامه الذى تكلم به . وفى الحديث . «ليس شىء أكرم على الله من الدعاء » وقيل المعنى أرشدنا باستعمال السنن فى أداء فرائضك . وقال الفضيل بن عياض الصراط المستقيم طريق الحج . وهذا خاص والعموم أولى. وقال محمد: ابن الحنفية فى قوله عز وجل « اهدنا الصراط المستقيم »هو دين الله الذى لا يقبل من العباد غيره . وقال عاصم الأحول عن أبى العالية : الصراط المستقيم . رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه من بعده .

وأصل الصراط فى كلام العرب (الطريق) ، وحكى النقاش : الصراط الطريق بلغة الروم.

وقال النسفى : لما ذكر الحقيق بالحمد والثناء (أى الله تعالى) وأجرى عليه تلك الصفات العظام (أى الرحمن الرحيم) تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن ، حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة فى المهمات ، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات . فقيل إياك يا من هذه صفاته نعبد ونستعين . لا غيرك . فقدمت العبادة على الاستعانة ، لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة أقرب إلى الإجابة . وأطلقت الاستعانة لتتناول مستعاناً فيه . ويجوز أن يراد الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادات ، ويكون قولنا اهدنا بياناً للمطلوب من المعونة ، وتقديم المفعول بقصد الاختصاص والمعنى نخصك

بالعبادة وهى أقصى غاية الخضوع والتذلل . ونخصك بطلب المعونة » .

ثم قال : عدل عن الغيبة (فى قوله الحمد لله) إلى التكلم (فى قول إياك نعبد) والعرب يستكثرون منه ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل فى القبول وأحسن تطرية (لدى القارئ) وأحسن تطرية لنشاطه ، وأملا بتلذاذ إصغائه .

أما الأستاذ رشيد رضا فيقول :

ما هى العبادة ؟ يقولون هى الطاعة مع غاية الخضوع . وما كل عبارة تمثل المعنى تمام التمثيل وتجليه للأفهام واضحاً لا يقبل التأويل . فكثيراً ما يفسرون الشيء ببعض لوازمه . ويعرفون الحقيقة برسومها ، بل يكتفون أحياناً بالتعريف اللفظي ويبينون الكلمة بما يقرب من معناها ، ومن ذلك هذه العبارة التى شرحوا بها معنى العبادة : فإن فيها إجمالا وتساهلا . وإننا إذا تتبعنا أى القرآن وأساليب اللغة واستعمال العرب ل (عبد) وما يماثلها ويقاربها فى المعنى — كخضع وخنع وأطاع وذل .. نجد أنه لا شيء من هذه الألفاظ . يضاهى (عبد) ويحل محلها . ويقع موقعها ولذلك قالوا : إن لفظ العباد . مأخوذ من العبادة . فتكثر إضافته إلى الله تعالى . ولفظ العبيد تكثر إضافته إلى غير الله تعالى لأنه مأخوذ من العبودية بمعنى الرق ، وفرق بين العبادة والعبودية بذلك المعنى ، ومن هنا ، قال بعض العلماء : إن العبادة لا تكون فى اللغة إلا لله تعالى ، ولكن استعمال القرآن يخالفه .

يغلو العاشق فى تعظيم معشوقه . والخضوع له غلواً كبيراً حتى يفنى هواه . فى هواه ، وتذوب إرادته فى إرادته ، ومع ذلك لا يسمى خضوعه هذا عبادة بالحقيقة . ويبالغ كثير من الناس فى تعظيم الرؤساء والملوك والأمراء . فترى من خضوعهم لهم وتحريهم مرضاتهم ما لا تراه من المتحنثين القانتين دع سائر العابدين ، ولم يكن العرب يسمون شيئاً من هذا الخضوع عبادة فما هى العبادة إذن ؟

تدل الأساليب الصحيحة ، والاستعمال العربى الصراح ، على أن العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية ، ناشىء عن استشعار القلب عظمة للمعبود ، لا يعرف منشأها ، واعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيتها . وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ، ولكنها فوق إدراكه ، فمن ينتهى إلى أقصى الذل لملك من الملوك لا يقال إنه عبده ، ما دام سبب الذل والخضوع معروفاً وهو الخوف من ظلمه المعهود ، أو الرجاء بكرمه المحدود إلا بالنسبة إلى الذين يعتقدون أن الملك قوة غيبية سماوية أفيضت على الملوك من الملأ الأعلى ، واختارتهم للاستعلاء على سائر أهل الدنيا ، لأنهم أطيب الناس عنصراً ، وأكرمهم جوهراً ، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد إلى الكفر والإلحاد ، فاتخذوا الملوك آلهة وأرباباً » .

والاستعانة فى طلب المعونة . وهى إزالة العجز والمساعدة على إتمام العمل الذى يعجز المستعين عن الاستقلال به بنفسه .

وجاء فى التفسير الوسيط :

« من أول السورة إلى هنا : كان الأسلوب للغيبة ، ثم تغير هنا إلى الخطاب حتى آخر السورة . وفوق ما يفيده تغير الأسلوب من التنبيه إلى موضوع الكلام ، فإن فيه إشارة لطيفة إلى ترقى الحامد كلما أثنى على ربه ، وأخلص فى مناجاته . فينتقل من مقام الغيبة إلى مقام الحضور »

« هذا وتقديم ضمير المفعول إياك فى كل من الجملتين للاهتمام مع إفادة القصر . كأنه قيل : إياك يا الله وحدك نعبد ، وإياك يا الله دون سواك نستعين ، وفى ذلك إقرار له تعالى بالألوهية والوحدانية . وقدمت جملة (إياك نعبد) على جملة إياك نستعين ، لأن المقصود الأول هو العبادة . ولما كان فعل الطاعة وتوفير الدواعى إلى فعلها لا يتأتى إلا بمعونة الله وتوفيقه ، فلهذا يطلب العبد الاستعانة بالله عقب تخصيصه بالعبادة إذ أن العبد لا حول له ولا قوة إلا بالله .

« ثم إن العبادة للمعبود هى الطاعة الخالصة له ، المبنية على حبه ، المؤداة على وجه يشعر بمنتهى الخضوع له . ولكون العبادة — بهذا المعنى — فلا تكون إلا لله وحده . وهى أخص من الطاعة التى تتحقق فى مطلق الامتثال ، فكل عبادة طاعة ، وليس كل طاعة عبادة .

وفى الآية سؤال وهو أن مقام العبودية يقتضى التواضع والذلة لله تعالى ، فكان الظاهر أن يقول العبد : إياك أعبد و إياك أستعين .

والجواب : أن النون فى (نعبد) و (نستعين) ليست للمتكلم المعظم نفسه ، ولكنها للمتكلم ومعه غيره من المؤمنين ، فكلهم يعبد الله و يستعين به وحده ، فهذا إقرار من المصلى ، وشهادة منه بأن هذا هو شأن المؤمنين مع ربهم ، وفى ذلك إدراج لعبادته واستعانته ، ضمن عبادتهم و استعانتهم » .

يجب أن نعرف بعد هذا ، أولا ، أن المسلمين عبدوا ربهم ، كما لم يعبده سبحانه وتعالى ، أحد من قبل . ذلك أن فكرة الألوهية ، عند المسلمين ، بلغت أعلى مراتبها من النقاء . بعد أن مرت فى مراحل من الوثنية عديدة . بدأت أول الأمر بعبادة الوثن مباشرة ، ثم بعبادة الوثن المجسد ، ممزوجة بأفكار تجردت عن المادية شيئاً فشيئاً ، ودارت حول الخير العام ، والدعوة إلى التزام مسالك خلقى يتدرج نحو العلو شيئاً فشيئاً .

وقد بدأ الإنسان ، يؤمن بإله ، يقيه شر الرياح والرعود ، أو يجلب له المطر ، أو يحفظ له زرعه ، أو قطعان ماشيته ، أو يحمى له أطفاله من المرض والموت . وقد كان هذا الإله ، محدود النفوذ لا يتجاوز القبيلة ، بل إن القبيلة الواحدة كانت تؤمن بعدة آلهة . لكل بطن أو فخذ من القبيلة إله خاص به ، قد يكون بينه و بين إله القبيلة شبه فى المظهر العام . ولقد حد من نفوذ هذه الآلهة ، أن الغرض منها كان تحقيق أغراض القبيلة أو أجزاء من القبيلة تتصل بالحياة اليومية ، من توفير الطعام ، وتكثير الماشية ، ورى الأرض ، وصيد الأسماك أو الطيور أو الحيوانات . وكان تنافس القبائل على موارد الرزق هذه شديداً ، وكانت المعارك تقع بسببه ،

فكان من الصعب أن يكون لهذه القبائل المتنافسة : إله واحد يظلها جميعاً ويحقق لها مصالحها كلها : فقد كانت مصالح متعارضة لا سبيل إلى التوفيق بينها ولكن كتب الفوز والغلبة لبعض القبائل الكبيرة على ما عداها. ففرضت على القبائل المغلوبة آلهتها وعبادتها ، وطقوس دينها : ولم يلبث هذا النصر أن اتبع بنصر آخر حتى دان الإقليم كله لسلطان قبيلة واحدة . ولإله هذه القبيلة وعقيدتها ومراسم دينها وعرف الإله الواحد للمنطقة ، ثم اتسع سلطان هذه القبيلة بعد أن استحالت إلى دولة ، فانتقلت ثقافتها : ومنها فلسفتها الدينية وآلهتها إلى الدول المغلوبة ، فعرف الناس لأول مرة ، وبسبب سياسى وعسكرى بحت . الإله الذى يظل بظله شعوباً اختلفت عاداتها وثقافاتها . وجنسها ولغاتها . ولكن النعرات الإقليمية حالت دون استتاب الأمر للملك المنتصر ، فى الأقاليم التى لا ينتمى إليها بجنسه ولغته . فرأى احترازاً واتقاء للآثار السيئة الناجمة عن العصبيات الإقليمية أن يرفع نفسه إلى مرتبة الإله فلا يعود منتسباً إلى إقليم ولا إلى جنس . وقد حدث شىء من هذا عندما انتصر الوجه القبلى على الوجه البحرى فى مصر . فأصبح ملك مصر . إلهاً حتى لا يتقاد شعور الوجه البحرى بخضوعه لملك من الوجه القبلى . وفى أكثر الحالات كان الإله ، لا يفرض سلطاته على قلوب وعقول أتباعه : إلا بمراسم تقذف الخوف فى قلوب رعاياه أنفسهم . وتحملهم على تقديم القرابين البشرية له وفى بعض الأحيان كانت هذه القرابين البشرية أطفالا صغاراً يسيل دمهم على المذبح . وفى البعض الآخر كان اله لا يهدأ غضبه إلا إذا نذرت الغوانى الحسان أنفسهن له . فيعشن فى المعبد : لخدمة الكاهن الأكبر ، ولأعوان الكاهن ، ثم إذا تقدم بهن السن قليلا « رحن يمارسن البغاء فى المعبد وما حوله من الأبنية على أن يؤدى لخزانة الإله ، الرسوم التى تدفع لممارسته هذه الرذيلة . وكان الإله ، يعد اتباعه بالنصر إذا ما دفعوا له الضرائب ، وقدموا الإتاوات ، ولا يغير فى الأمر أن تكون حروبهم لسحق

الأعداء الذين لم يفعلوا شيئاً يستحقون معه السحق والبطش بهم إلا أنهم لايؤمنون بدين الإله ، وأن أرضهم غنية . وأنهم بلاد أرقى من بلاد الإله فى سلم الحضارة والمعرفة . وإذا ضعف نفوذ الملك قليلا هبط من مرتبة الإله إلى مرتبة ابن الإله ثم إلى مرتبة مختار الإله ، ثم الحاكم باسمه فإذا ضعف كثيراً تولى الكاهن الأعظم الملك . وساد الإرهاب الدينى فى البلاد .

وقد بقى من كل هذه الآثار حتى فى الديانات السماوية . حينما نسخ أهلوها الكتب المنزلة ، وحرفوها ، وحينما علا شأن الكهان والأحبار . فأصبحوا هم سادة البلاد فى ميادين الحرب والسياسة . والفكر والثقافة ، والمال والاقتصاد ، فاستأثروا بالعلم ، وحالوا بين الشعب وبين قراءة الكتب المقدسة وفهم ما فيها . وملأوا القلوب خوفاً منهم . بمحاكمهم المحوطة بالغموض والظلام . وأحكامهم الرهيبة التى تتسم بالقسوة والعنف .

فإله العبرانيين يعدهم بأن يأخذوا أراضى الغير . ويحرضهم على سرقة الشعوب ، وسلب مواشيها . وأسر رجالها وشبابها أو قتلهم والتمثيل بهم ، واستحياء النساء . والأحبار . والرهبان . يستغلون مسوحهم . فيحرمون على أتباعهم قراءة الكتاب المقدس . ويقيمون المحاكم لمطاردة خصومهم وأحرار الفكر . والعلماء ، ثم يثيرون العامة ، ليعلنوا حروباً يزعمون أنها مقدسة ، وهى حروب سلب ونهب . وهتك للأعراض ، لم تتحرج من الهجوم على ممتلكات دول مسيحية . وتقتيل أبنائها . وتدمير كنائسها وسلب نفائسها فى طريقها إلى بيت المقدس، ثم إدارة حروب للابادة . ونحن ندع لبانديت نهرو يصف هذه الحروب فى كتابه (لمحات من تاريخ البشرية) :

« لقد طغى الحماس على كثير من الأوربيين فتركوا أوطانهم وممتلكاتهم وساروا إلى الشرق معتقدين أنهم ماضون إلى هدف نبيل ، بعد أن أقنعهم البابا بأن ذهابهم هذا يكتب لهم الغفران ، ويمحو الخطايا

والذنوب ، غير أن هناك سبباً آخر للحملات الصليبية ، وهى أن بابا (روما) أراد إخضاع القسطنطينية لأن كنيستها كانت أرثوذكسية ومستقلة عن كنيسة روما ، ولا تعترف بالبابا بل تدعوه محدث نعمة .

« ولقد ولد هذا الموقف حقد البابا على القسطنطينية وصمم على إخضاعها ، ووضعها تحت نفوذه ، ولم يجد البابا ما يتذرع به خيراً من إقامة حرب صليبية والادعاء بمقاتلة الكفار . وهذا المثل هو أحد الأمثلة على دهاء السياسيين وأساليبهم المعوجة . عليك أن تتذكر هذا التنافس بين روما والقسطنطينية لأنه برز فى مناسبات عديدة إبان الحروب الصليبية» .

ثم قال :

يشهد التاريخ أن كثيراً من رجالات الحملات الصليبية قد ارتكبوا أبشع الجرائم وأشنعها . وشغلوا بإجرامهم حتى إنهم لم يصلوا إلى بيت المقدس . وقد انشغل البعض بقتل اليهود فى طريقهم أو ذبح إخوانهم المسيحيين . وقد أثار نقمة المسيحيين فى البلدان التى كانوا يمرون بها مما جعل هؤلاء يهبون لقتل الصليبيين الغزاة وطردهم ، وأخيراً وصل الصليبيون إلى القدس بقيادة جودفرى النورماندى بعد سبعين سنة من الاحتلال فاستولى على المدينة وأقام فيها مذبحة استمرت أسبوعاً ، وقد وصف هذه المذبحة شاهد عيان فرنسي بقوله : وصل الدم إلى رواق المسجد : وإلى الركب ، وإلى سروج الخيل » .

فلما جاء الإسلام ، يدعو الناس : إلى الإيمان بإله واحد ، لا شريك له ، ولم يتخذ له صاحباً ولا ولد . كانت دعوته وصولا بفكرة الألوهية ، إلى أقصى مراتبها وأصفاها ، وأنقاها من شوائب الوثنية القديمة والوثنية التى تسللت إلى عقائد وأسلوب تفكير بعض أهل الكتاب ، ومن رواسب الفكر البدائى ، فعلا الله سبحانه وتعالى فى عقيدة الإسلام عن الزمان والمكان ، وعن عصبية الجنس واللون ، وعن التحيز لأمة أو لجماعة أو لطائفة ، وتنزه عن الشكل والمادة ، فهو رب العالمين ، ورب السموات

والأرض ، وما بينهما ، ورب المسلمين واليهود والمسيحيين ، والصابئين ، بل هو رب المشركين والكفار ، والأبرار والفجار ، هو رب الصالحين والأبرار ، والقديسين والشهداء ، والمتقين والعلماء ، هو رب كل شيء ، ما نعرفه وما لا نعرفه ، وما نراه وما لا نراه ، ثم هو عز وعلا ليس كمثله شيء يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار منح الناس السمع والأبصار والأفئدة ، ثم لا تحيط به العقول ، ولا الأفهام .

فأصبحت العبادة ، فى ظل القرآن وبفضل الإسلام ، شيئاً يختلف طبيعة وأسلوباً ، وغاية ومنهجاً ، عن العبادة قبله .

فعبادة المسلمين لربهم ، وإن كانت طاعة كاملة له ، فإنها طاعة لا تقوم على إشعار العابد المؤمن بضعفه . بل تشعره بقوته بالله « لا قوة إلا بالله » . .

فالإيمان بالله يبعث فى قلوب المؤمنين ، شعوراً بالطمأنينة ، والطمأنينة تملؤهم قوة ، وتزيدهم إيماناً « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » ، « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً » .

ولأن الدين ، طمأنينة وثقة وسكينة ، وليس فزعاً وخوفاً ، وخضوعاً مبعثه الرهبة واتقاء غضب الله وبطشه بعباده ، كانت الرحمة عنوان هذا الدين ، فلله تعالى ، من بين أسمائه الحسنى العديدة ، هو الرحمن الرحيم ، فى أول سورة من سور القرآن وفى مفتتح كل سورة من سوره الأربعة عشر ومائة سورة . ونبى هذا الدين يخاطبه تعالى بقوله : « يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » .

وقد وصف الله عز وعلا ، ذاته بأنه (القاهر فوق عباده) فى سورة واحدة ، فى حين أن اسم الرحمن جاء فى القرآن سبعاً وخمسين مرة ، واسم الرحيم جاء مائة مرة ومرة . كذلك وصف رسول الله صلى الله عليه

وسلم بالبشير النذير أربعة عشر مرة ولم يوصف بالنذير البشير إلا مرتين . وتمتلئ سور القرآن الكريم ، بالبشريات تزف إلى المؤمنين والمحسنين والمخبتين والمتقين والصابرين .

ولما كان الإسلام قد جاء لينسخ العبادات القائمة على القهر والخوف ، وعلى جعل الإيمان بالدين أو الله ، نوعاً من العبودية الشبيه بالرق ، لا بالفقه بالإله ، والاطمئنان له . واستمداد القوة منه ، فقد جعل الإسلام من خصائص المؤمنين ، والنعم التى أنعم الله بها عليهم ، هى تحررهم من آفتين من أكبر آفات النفس الإنسانية وهما آفة الحزن ، وآفة الخوف .

« من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، « فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، « ياعبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون » ، « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

ولذلك جاء بعد « إياك نعبد » مباشرة « إياك نستعين » ذلك ليثبت ى الذهن ، والقلب معاً ، أن عبادة المسلمين لربهم ، مؤداها المباشر ، ظفرهم بقوة تعينهم ، وتنفى عنهم الضعف ، بل تمنحهم القوة ، إذ تفتح م سبيلا ، ينجون منه من الغضب ، ويظفرون بمكانة المنعم عليهم .

والحق أنه ليس ثمة سبيل لمعالجة النفس الإنسانية ، وحمايتها من كل أمراضها ، وبعث القوة فيها ، إلا شعورها بأنها فى هذا الكون الفسيح ، مشمولة برعاية قوة ، هى قوة أقوى الأقوياء ، وقوة باعث الحياة ، وخالق الموت ، وصانع الكون الذى نعرفه ، أو نعرف بعضه ، بل الأكوان الأخرى ، التى لا علم لنا بها والتى نجاهد فى أن نلم بشىء فيما يجرى فيها ، أو يصدر عنها .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد ارتضى لنا أسلوباً للتوجه إليه ، هو أسلوب المتكلم « إياك نعبد ، وإياك نستعين » ، فأغلب الظن ، أن

حكمته قضت بفرض هذا الأسلوب الذى يشعر الإنسان بأنه يخاطب من يستمع . ويستعين بمن يمنح العون . ويثبت الذين آمنوا . ويحميهم ، ويهديهم خير السبل . وقد قال عن ذاته ، عز وعلا ، على لسان نبيه المرسل ، فى كتابه المنزل « وإذا سألك عبادى عنى . فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » . فهذا القرب الذى تعبر عنه عبارتا « إياك نعبد . وإياك نستعين » هو الغاية من تقديم الضمير . أى المفعول على الفعل . لأن الإسلام يقوم على إحداث هذه الصلة الحميمة بين العبد والرب ، وتأكيدها .

ولقد توالت الآيات . لتؤكد هذه الصلة . ولتبعث فيها الحياة ، وتجدد فيها القوة . فالله سبحانه وتعالى « يشرك المؤمنين فى عزته » إذ يقول سبحانه وتعالى : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » المنافقون .

بل إنه يسلك شهادته سبحانه وتعالى لذاته بأنه لا إله إلا هو . وشهادة الملائكة ، وأصحاب العلم من البشر فى سياق واحد إذ يقول عز وعلا : شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط »

ولعمرى إنه ليس ثمة تكريم للانسان ، أعلى من هذا التكريم ، وليس ثمة تعبير عن هذا التكريم ، أبلغ من هاتين الآيتين الكريمتين وبذلك سقطت جميع الحواجز الضعيفة ، التى حققها أحبار وكهان الأديان الوثنية ورهبان وكهان الأديان السماوية التى حرفت كتبها ، وشوهت أحكامها لأغراض الدنيا ، وإن بقيت أصولها نقية وكريمة وسامية .

ولذلك لم يكن عجيباً ، بعد كل هذه الأصول التى أرساها الإسلام ، أن يعقد الله تعالى مع عباده المؤمنين العقود ، أو أن يدعوهم إلى التعاقد والتعاهد معه « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له » (البقرة والحديد والمزمل والمائدة والتغابن).

إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة (التوبة) .

مر بنا أن العبادة فى الإسلام، هى غاية الطاعة والإذعان لله ، وقد أضاف بعض المفسرين ، لفظ التذلل له تعالى . وقلنا إن الإسلام والقرآن بريئان من كل شيء يؤدى إلى إشعار الإنسان بضعفه ، أو خنوعه ، وإن كان الإنسان ضعيفاً حقاً ، أمام خالقه ، فإن هذا الخالق العظيم ، أنزل كتابه ، وأرسل رسوله ، ليشعر عباده بأنهم أقوياء به ، وأن عبادتهم ، وانقيادهم له ، يؤنسهم فى هذا الكون الرحيب الرهيب ، ويشعرهم بأن لهم سنداً ، يرد عنهم العوادى ، ويطمئنهم عند حلول المخاوف ، ويسرى عنهم ، ويقربهم ، ويجدد أملهم ، عند حلول النوازل .

ولكن هل صحيح أن العبادة ، هى مجرد الطاعة الكاملة ، أم أن هناك عنصراً يسبق الطاعة ، ويؤدى إليها ، وبغيره تصبح هذه الطاعة ، لوناً من انقياد أفراد القطيع ، لا يفكرون ، ولا يدرون من أمرهم شيئاً ، ولا يعرفون فيم السير ، ولأى غرض يتحركون .

إن العبادة : هى أولا ، وقبل كل شىء ، التعرف على الله سبحانه وتعالى . ولما كان الله ، لا يبدو لنا ، جل وعلا ، ولا نملك النظر إليه ، ولا التحدث معه ، وإنما نرى آثاره البديعة فى صنع هذا الكون ، والأكوان التى نعرف وجودها ، استنتاجاً وبالبرهان العقلى ، دون أن نراها بحواسنا القاصرة .

والتأمل والتدبر والتفكير وأعمال القلوب ، والأفئدة ، والجوارح ، هى واجب المسلم الأول ، ليظفر بقبس من نور ، يلمح فى ضوئه ما يستطيع عقله أن يحصله من عظمة الله ، ودقة صنعه ، وثبات قوانينه ، وإحكام سنته . وقد بدأ القرآن ، يصف للمسلمين فى قصار السور الله سبحانه وتعالى ، ويدعونا إلى التأمل فى صنائعه وآثاره . فهو ينتقل بالإنسان من أن الله هو : « ملك الناس إله الناس » إلى أنه أحد . « لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » إلى أنه هو الذى « أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » . ثم عرض على المسلمين العديد من ظواهر الطبيعة التى يمرون بها ،

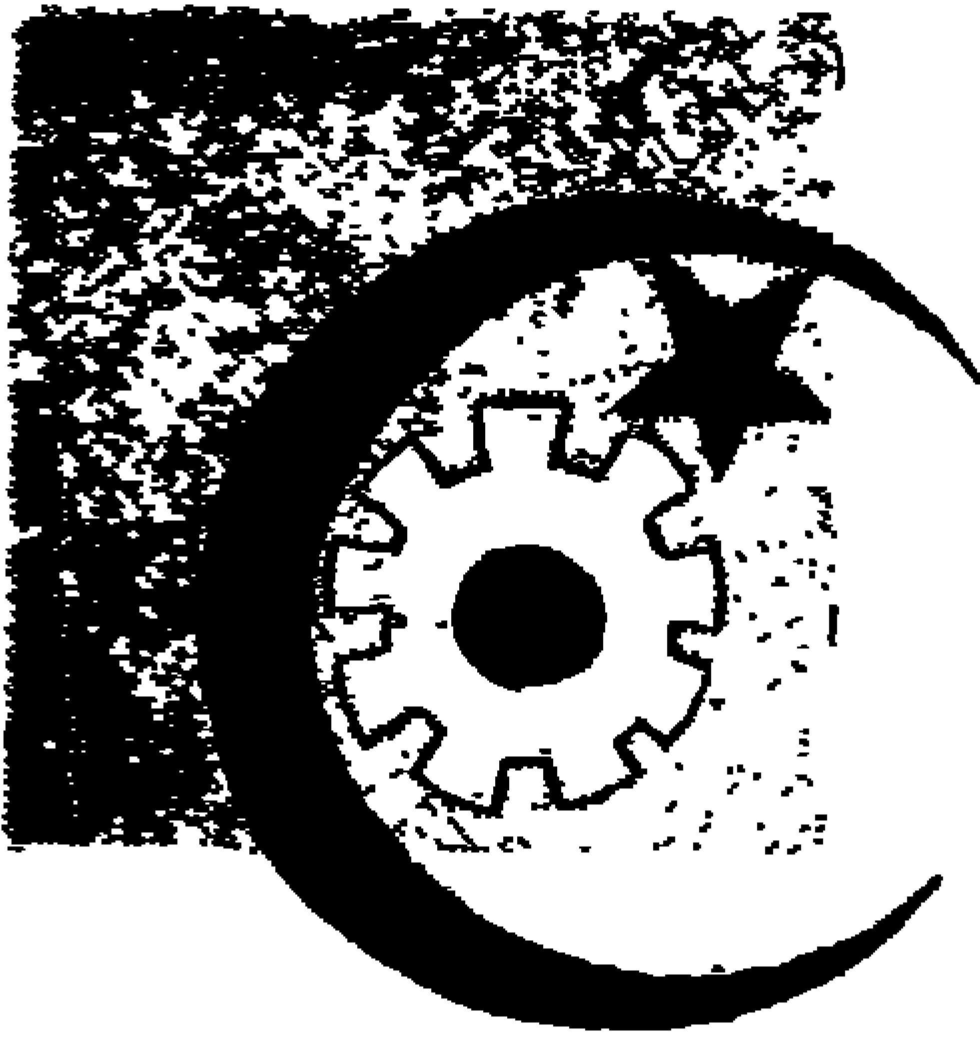
وقد لا يفكرون فيها فأقسم لهم بـ « والضحى والليل إذا سجى » و « والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى » « والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها » ثم بـ « والفجر » و بـ « والليل إذا يسر » ثم دعاهم إلى التأمل فى خلق الإنسان « ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين » ثم إلى التأمل فى محيطهم « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت » . واستمر القرآن يقرع ذهن البدوى الذى كان قليل الحظ من العلم ، وإلى القرشى . الذى كان قليل الحظ من التأمل والتفكير ، لأن الله واتاه بالمال والمكانة والسيادة ، واستمر يعرض على عقولهم وقلوبهم صوراً تأخذ بمجامع القلب ، عن البحار وظلماتها ، والسماء وبروقها ورعودها ، والنبات إذ ينبت ، والزهر إذ يينع ، والأمطار إذ تنهمر ، وعيون الماء إذ تنبثق . وهكذا وهكذا . حتى عرف الإنسان هذا التصور والتفكر ، فتنبهت نفسه النائمة . وتحرك عقله الساكن ، وجاشت عاطفته الخامدة ، وأصبح أهلا لعقيدة عظيمة لعقيدة أن لا إله إلا الله ، وأدرك العربى ، فى صحراء الجزيرة وفيافيها . الضارب فى مجاهل بواديها ونواحيها ، أنه شىء يعتد به ، وأنه قادر أن يكون سيد هذه الأرض ، لو أدرك ماذا يعنى القرآن بقوله إن الله سخر له البحار والأنهار ، والسموات والأرض ، والفلك التى تجرى بأمره والسحاب المتنقل فى الأجواء والنجوم التى ازدانت بها القبة الزرقاء .

وانتقل القرآن بالإنسان بعد ذلك إلى طور آخر ، كان من أكبر أطوار الحضارة الإنسانية ، هو إقناع الإنسان بأن الكون الذى يعيش فيه مسخر له فعلا لا قولا . سمع الإنسان فى القرآن : « وسخر لكم الفلك ، لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار » . (إبراهيم) وسمع أيضاً : « وسخر لكم الليل والنهار ، والشمس والقمر » (النحل) » وهو الذى سخر البحر لتأكلوا

منه لحماً طرياً «(النحل)» ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض (الحج).

فبعد الدعوة إلى التأمل والتدبر «أفلا يتدبرون . أفلا يعقلون ، أفلا يبصرون» أصبح الإنسان مستعدا لأن يدرك معنى أن هذه الأفلاك . والكائنات ، مسخرة له . لأن القرآن علمه ، أن لله فى هذا الكون سنة أى نظاماً ، أو قانوناً . وأنه قانون ثابت «ولن تجد لسنة الله تبديلا» فأخذ يبحث عن هذه السنن ، فلما بدأ يبحث ، كانت هذه البداية ، هى طليعة البحث العلمى الحديث . القائم على تجميع مفردات المعلومات ، واستنباط القواعد الكلية منها ؛ وقد تتلمذت مدارس البحث فى أوربا ، على العرب فى جنوب أوربا وفى الأندلس ، فكانت النهضة الحديثة .

فعبادة المسلمين لربهم : طاعة قائمة على المعرفة والإعجاب بما فى هذا الكون من بدائع الصنع ، ومن أحكام القوانين : التى تتبدى فى الكائنات الكبيرة كالشمس والسماء والبحار والمحيطات ، وفى الكائنات الصغيرة كالنمل والنحل . والنبتة تشق سطح الأرض . وقطرة الماء . تقف على كأس الزهرة : فتحييها وتزينها وتزيدها جمالا .



الإسراء

جاء فى الآية الأولى من سورة الإسراء ، قوله تعالى :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » .

ولم ترد إشارة إلى موضوع هذه الآية ، مع صريح نص كلمة الإسراء ، فى موضع آخر من القرآن الكريم ، ولعل القرآن الكريم ، لم يحتو على آية ، أحدثت ما أحدثته هذه الآية ، فى صفوف المسلمين . فالثابت أن أول من سمع من المسلمين بنبأ ما جاء فى هذه الآية ، من إسراء رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس ، وصلاته ببيت المقدس . وعودته إلى حيث كان يقضى ليلته ، هى هند بنت أبى طالب ابنة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان يبيت عندها ، وكان أول ما تبادر إليها هو الإشفاق من تكذيب المسلمين والمشركين معاً لهذا الحديث ، وما يجره هذا التكذيب على ابن عمها ، من المتاعب والآلام ، التى كان قد امتحن بالكثير القاسى منها ، قبل تلك الليلة وقبل هذا الحديث ، فقد قالت له . يا نبى الله ، لا تحدث بهذا الناس ، فيكذبوك ويؤذوك . فقال : والله لأحدثهموه » والثابت أيضاً أن قريشاً حينما سمعت بهذا الحديث ، سرها إذ رأت فيه فرصة ، تشكك فيها فى صدق محمد ، التى لم تكف قط منذ

بعث بدينه ، أن تتهمه بالكذب . بعد أن كانت لا تعرف قبل هذا الدين أحداً فى مثل أمانته وصدقه ،وكان هذا الحديث يعينها إلى جانب التشكيك فى صدق نبى المسلمين ، التشكيك فى سلامة عقله ، وقد كانت تصر على نسبة الجنون إليه كذلك ، وقد أثبت القرآن الكريم ، كل ما أرجف به المشركون ، فعن تكذيبه قال « وقال الكافرون هذا ساحر كذاب » وعن رميه بالجنون قال : « ويقولون إننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون » .

وقد صدق حدس هند بنت أبى طالب ، فقد كانت تؤمن بابن عمها ، وبصدقه ، وتخاف عليه عدوان الكفار ، وقد هداها قلبها الصادق والصافى معاً ، إلى ما تحقق فعلا فقد أسرعت قريش إلى أبى بكر صاحب الرسول الأمين الذى لم يهز إيمانه ، ولم ينقص حسن وفائه له ، ما رآه من إجماع قريش على تكذيبه له : واجترائهم عليه ، وتعذيبهم لمن شايعه . . أسرعوا إلى أبى بكر فى شماتة ظاهرة ، وحملوا إليه نبأ ما يقوله صاحبه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم : ليروا كيف يسقط فى يده ، إذ يبدو له ، بما لا يدع مجالا للشك ، أن هذا التأييد الذى لا يعرف ضعفاً ولا تردداً ، وهذا التصديق الذى لا يأتيه الريب من يمين أو يسار ، هو تطوع مسرف ، وقد صدق ما خمنوا ، إذ ما كاد يسمع قولهم ، حتى قام فى يقينه ، أنه افتراء جديد ، فوق ما افتروا عليه من قبل فقال من فوره « بل أنتم تكذبون عليه » فوقع هذا الكلام من نفوسهم أحسن وقع . فقد كان شهادة من أحب الناس إلى محمد ومن أعظم الناس اطمئناناً إليه[1] ، وتصديقاً بدعوته ، بأن محمداً يروى ما لا يصدق ، ويقول ما لا يصح .

ولكن الرجل المؤمن الصادق ، ما كاد يسمع منهم ، ومن أفراد ، لا يظن فى حديثهم الهزل ولا الخفة ، أن ما نقلوه إليه ، هو قول حبيبه وصفيه ، ونبى الإسلام ، ورسول الله ، حتى قال من فوره ، أبلغ ما حفظته كتب تاريخ العقائد والدعوات : لئن كان قال ما ذكرتم لقد صدق ، وخيب هذا الرد الحاسم والعاجل ، أملهم ، ولكنهم ألحوا عليه ، وهم

كالهازئين : أتصدقه على ما قال : « وهم يعنون أتصدق هذا الكلام الذى يشبه تخليط المدخول فى عقولهم ، أو المجانين لصريح دعوة الإسلام ، من أنه بشر ، وأنه لا يصدر عنه ، ولا يحق له ، إلا ما يصدر عن سائر البشر ، فهو يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق ، وأنه ميت غير مخلد ، وأنه لا يعرف الغيب ، فأضاف إلى رده الأول الحاسم البسيط ، رده الثانى المكمل له ، والشبيه به ، وبقائله : إنى لأصدقه على أبعد من ذلك ، أصدقه على خبر السماء » .

وهذه المقدمة الجليلة لهذا النبأ الفريد فى حياة الدعوة المحمدية ، وتاريخ الحركة الإسلامية ، جديرة بأن تنال من حفاوة ، المؤرخ المسلم ، والمفكر المسلم ، مثلما نالت ، وقائع هذا الحدث ، من انتقال رسول الله من مكة إلى القدس أكان بروحه أم بجسده ، أم بالروح والجسد معاً ، ومتى وقع ذلك ، وماذا رأى عليه السلام بعد أن عرج به جبريل إلى السموات ، حتى بلغ سدرة المنتهى ، ثم مضى إلى أبعد من ذلك ، تكريماً من ربه ، وتأييداً له من خالقه ، فى وجه عناد شرس ، يرفض العقيدة ، ولا يلين للحجة الناصعة ، ولا يجنح لحكم العقل .

إن شك بعض المسلمين ، فى حديث الإسراء ، وارتداد فريق منهم وإن بدأ ظاهرة ، تدعو إلى حزن المسلمين وأسفهم ، إلا أنها آخر الأمر ، دليل على أن دعوة الإسلام ، أثمرت ثمرتها . فقد قام الإسلام منذ تسامع الناس بأمر دعوة محمد ، على أن محمداً هو بشر رسول ، وأنه لا يملك لإقناع العرب ، بصدق دعوته ، وبسلامة دينه ، إلا أمران أولهما : إعلانه الواضح البين ، أنه مرسل من السماء ، وأنه نبى الله ، وأن ما يقوله ، هو كلام الله ، وأن ما يدعوهم إليه ، ويحثهم على الاهتداء به ، هو دين خالق الخلق .

أما الأمر الثانى فهو أن مسند دعوته هو الحجة والبرهان ، وهو التأمل والتدبر ، والتفكر والتعقل ، والنظر فى آيات الله فى السماء والأرض

وفيما يجرى فى حياة الأحياء . وما جرى لآبائهم ، وأجدادهم . ما يؤدى كله ، إلى أن الدعوة التى يدعوهم إليها ، هى دعوة حق ، وأن شريعتها ، هى رحمة بهم . وصلاح لهم ، وتقويم لأمرهم .

وقد استقر هذا فى يقينهم ، وثبت فى إيمانهم ، وقامت عليه عقيدتهم. فلما جاء حديث الإسراء ، بدا لبعضهم ، أن فيه خروجاً عن هذا الأصل الأصيل . وتناقضاً مع بشرية رسولهم ، وعن القواعد المقررة ، فى طريقة الوحى للرسل ، وأسلوبه تبليغهم أوامر الله ، ونواهيه .

حفظ المسلمون آيات من القرآن الكريم ، إحداها فى ذات السورة التى استفتحت بآية الإسراء ، ترد على إلحاح المشركين فى طلب المعجزات المثبتة لصحة دعواه من أنه رسول الله . بأن هذه الآيات لا تنفع فى إقناع كافر . ولا فى هداية مكابر . وأن الذين قبلهم جاءتهم الآيات المعجزة ، والدلائل الصادعة ، فلم تزدهم إلا عناداً وإصراراً على شركهم .

قال الله تعالى : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » . « وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذى من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون». وفى السورة نفسها « ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك » وفى الأنعام « وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه ، قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون » ومنها « وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته » وفى سورة الإسراء ، الآية التسعون فيها بيان مبين لموقفى المشركين ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى الأصح ، رأى القرآن فى موقفهم هذا من طلب الآيات المعجزة وتعليق إيمانهم عليها ، قال الله تعالى : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى

السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا » .

ولكن هؤلاء الذين هزهم حديث الإسراء ، ونبؤه ، وما لبث أكثرهم ، أن ثابوا إلى إيمانهم القديم ، وعادوا إلى صفوف المسلمين ، صافية نفوسهم ، قوية عقيدتهم ، فقد ظهرت لهم حقيقة كبرى ، هو أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد الإسراء ، هو هو محمد بن عبد الله ، قبل الإسراء ، الرسول البشر ، لا يكلمه الله تعالى إلا وحياً ، فلم يزعم لنفسه صلة مباشرة بالسماء ، ولم تتغير طبيعته ، كواحد من بنى آدم ، اصطفاه الله لرسالته ، فهو يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق ، وهو ميت كما أن سائر الناس ميتون ، وهو كما قال عنه القرآن الكريم لا يعرف ماذا يفعل به ، ولا يعلم الغيب ، «ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير» الأعراف « وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم » الأحقاف .

والمسلمون الذين كذبوا حديث الإسراء ، ورأوا فيه نبوا عن منهج الرسالة التى تلقوها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يكن سبب تكذيبهم ، أنهم استكثروا على الله سبحانه وتعالى أن ينقل عبده من مكة إلى القدس ، وإن بلغت هذه المسافة ١٢٣٠ كيلو متراً ، فهم تعلموا من القرآن الذى استمروا يسمعونه ويحفظونه كله أو بعضه ويتدارسون آياته ، ويتناقشون فى معانيها ، أكثر من عشر سنوات ، إذ وقع حديث الإسراء قبل الهجرة بأقل من عامين أن تناقلوا آيات الله فى الكون وهذه الآيات ، تفيض بدلائل قدرته سبحانه وتعالى التى تعلو عن كل قدرة البشر أجمعين ، فهو خالقهم ، وخالق السموات والأرض ، وما بينهما ، وخالق ما لا تراه الأعين ، وما لا تدركه الأفهام . وحسبهم ما جاء فى سورة النحل ، وهى مكية ، من لفت الأذهان وتنبيه العقول ، إلى صور قدرة الخالق الأعظم ، جل وعلا مثل « خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ، خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، والأنعام خلقها لكم فيها دفء

ومنافع ومنها تأكلون » « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون» .

ولكن الذين لا يستطيعون أن يتصوروا أن يكون فى الإمكان أن ينتقل محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى القدس فى ليلة واحدة : فهؤلاء هم المشركون الذين : وإن عرفوا اسم الله ، فقد أشركوا معه فى إدارة هذا الكون آلهتهم التى ورثوا عن أجدادهم الإيمان والتشفع بها عند الله، وهم لم يتعلموا منهج الإسلام فى التأمل فى الكون . وفى استظهار قدرة الله فى مخلوقاته ، وفى آيات هذا الكون فى آفاقه وفى أنفسهم ، ولذلك قالوا ، وهم يسخرون من حديث الرسول : هذا والله الأمر البين . والله إن العير تطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أيذهب محمد ذلك فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة » . وتطرد أى تتابع سيرها من غير انقطاع ، أو قالوا : أنضرب لها أكباد الإبل شهراً وتدعى أنك أتيتها فى ليلة ؟ » .

هؤلاء هم الذين يحتاجون أن نقول لهم إن رسول الله لم يقطع المسافة بين مكة والقدس فى ليلة واحدة ، وحده ، وإنما الذى نقله إليها ربه ، وأنتم لو تدبرتم خلق السموات والأرض، ولفكرتم فى أطوار الإنسان منذ يبدأ أطواره من تراب إلى ماء مهين إلى نطفة ، لعرفتم أن صانع هذا كله ومبدعه يكون من أهون الهين عليه أن ينقل فى لحظة لا فى ليلة ، لا فرداً واحداً ، بل أفراداً ، بل أمة بأسرها ، من أقصى الأرض إلى أقصى الأرض لو شاء هذا ، وانصرفت إليه إرادته سبحانه ، ونحتاج أن نقول مثل هذا القول لأهل هذه الأيام ، لأنهم ينظرون إلى الإسراء باعتباره عملا من أعمال الرسول ، لا مظهراً من مظاهر الإرادة الإلهية ، لأنهم ينكرون أصلا هذه الإرادة الإلهية ، ومنهم من يعتبر كل ما ينسب إلى هذه الإرادة ، لوناً من اللغو ، لا يصدر إلا عن ذهن مضطرب ، أو عقل

قاصر تجوز عليه أحاديث المعجزات ، لا يعرفون منها إلا نوعاً واحداً هو معجزات الإنسان أى معجزات العلم الحديث الذى ابتدع الطائرة والصاروخ وصعد إلى القمر ، وغاص فى أعماق المحيطات .

أما مشكلة الإنسان القديم قبل أن يهتدى بنور الدين . هو استكثاره على إنسان مثله أن يكون على صلة بالسماء ، أو أن تختاره السماء ، ليبلغ عنها ، وينقل ، وصاياها ، وهدايتها ، لذلك قالوا : « أبشر يهدوننا ؟» (التغابن) كما قالوا « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ» . وفى سورة إبراهيم « قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا » . « ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم » . «وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا » .

لذلك اطمأنت قلوب المسلمين وعقولهم معاً ، حينما أعلن لهم نبى الإسلام سبحان ربى «هل كنت إلا بشراً رسولا» (الإسراء) . وحينما أمره ربه «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد» . وازدادقلوبهم وعقولهم اطمئناناً إلى قول الله تعالى : «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب » . فمحمد بن عبد الله ، بشر ، ولا يزعم لنفسه أكثر مما لغيره من الناس من حق ، إلا بما يوحى إليه ، وهو مطيع لهذا الوحى ، خاضع له ، مذعن لحكمه ، لا يتميز بشىء إلا بكونه جديراً بأداء هذه الرسالة ، وهى ابتلاء وامتحان ، ومشقة وشدة ، لا تمنحه راحة ، ولا تغدق عليه ، من رغد العيش ولينه ، قليلا أو كثيراً . وقد رأوه يحمل نفسه ، من الحرمان ، ما لا طاقة لهم به ، ولا صبر لهم عليه . ثم جاء حديث الإسراء ، فلم تتهيأ عقولهم ، لحسن استقباله ، فكان منهم ما كان من الخروج من عهدة الإسلام ، لفترة لم تطل فى الأغلب الأعم .

ولكن هل لنا أن نستنتج أن المسلمين الذين ارتدوا ، ساورهم الظن بأن إسراء الرسول إلى القدس ، ثم تعريجه إلى السموات مع جبريل حتى

سدرة المنتهى ، ثم المضى وحده إلى ما بعدها ، هو نسخ لبشرية الرسول ، وأن الرسول ، الذى تتفتح له أبواب السموات ، فيصعد إليها ، ويهبط منها سيحل محل محمد بن عبد الله الذى ألفوا أن يعيش معهم كواحد منهم ، وأن يحمل مثلهم متاعب الحياة الإنسانية فيأبى أن يجعلوا له عرشاً يقيه من أذى الناس ، كما اقترح عليه عمه العباس ، فيأبى إلا أن يبقى معهم : يجاذبونه رداءه ، وينالهُ غبارهم ، حتى يكون الله فيريحه منهم ، أو كما قال . إلا أن الضجة التى صاحبت حديث الإسراء ، قد هدأت ، فتأمل المسلمون وغير المسلمين ، حياة الرسول ، فإذا هو هو ، لم يتغير من حياته شىء ، ولم تتغير علاقاته بأصحابه وأعدائه ، فهو وفى للأولين ، موطأ الأكناف ، سهل ، يؤثر الرفق فى كل شىء ، ويحبه فى كل شىء ؛ أما أعداؤه ، فهو لا يغفل عما يبثون من شر ، شديد عليهم إذا بدأ منهم : الأذى أو الشروع فيه ، ولكنه مع ذلك لا يغدر ولا يفحش ولا يمثل . إذن رحلة السماء زادت بشريته صفاء ، ولكنها لم تمحها ، وزادته تحملا لمتاعب الرسالة ، وصبراً على أعبائها ، ولكن لم تجعله إلهاً ، أو قريباً من إله ، بل هو يكره من أصحابه أن يبالغوا فى تعظيمه ، كما يفعل الأعاجم مع سادتهم ، وإن كان موضع الحب الذى لا يعدله حب ، وموضع التقدير والتبجيل الذى لا يشبهه تقدير وتبجيل .

لقد كانت رحلة — على ما روته الأحاديث — على ثلاثة مراحل ، الأولى من مكة إلى القدس ، والثانية من القدس إلى السموات حتى سدرة المنتهى مع جبريل ، ثم فيما بعد سدرة المنتهى وحده ، ولكن فى هذه المراحل جميعاً كان محمد بشراً خالصاً لم تتغير طبيعته ، كان بشراً حينما أسرى به من مكة إلى بيت المقدس ، وكان بشراً حينما اجتاز السموات السبع ، وكان بشراً حينما مضى وحده دون أن يشاركه جبريل فى صعوده ، ولا يغير فى الأمر أن يقول جبريل لرسول الله عليه السلام : لو تقدمت أنا لاحترقت وأنت لو تقدمت لاخترقت .

فهذا هو التكريم الذى أراد أن يسبغه رب محمد، على محمد البشر الرسول. وإذا كان محمد رسول الله يملك أن يرتفع إلى ما لا يستطيع ملك، فذلك ليس إلا النتيجة الحتمية لتكريم الله سبحانه وتعالى ، لآدم . فقد فضله على الملائكة ، وميزه منذ البداية عنهم . علمه الأسماء كلها . وهم لم يعرفوا شيئاً منها ، أمرهم أن يسجدوا له ، فسجدوا . هذا الإيثار . يكمله ويؤكده أن يكون جبريل قادراً على الصعود إلى موضع فى السماء ؛ وأن يكون الإنسان الرسول ، قادراً على أن يمضى فى صعوده إلى ما هو أعلى وأسمى ، وأن يرى ويسمع . من ربه ، ما لا يقوى الملاك على رؤيته وسماعه ، فإذا انسلخ عن طبيعة البشرية ، وفى أى مرحلة من مراحل تعريجه إلى السماء ، فقد التكريم معناه .

لقد صعد محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فى عروجه إلى أعلى المقامات ، إنساناً وعاد إلى مكانه فى فراشه البسيط المتواضع فى دار ابنة عمه ، أم هانئ ، إنساناً . وتحدث إلى أصحابه عما رأى ؛ كما يتحدث الإنسان عن أمور باهرة رآها . وتجارب فذة خاضها ، لا يدل بما رآه على الناس ، ولكن ليزيدهم إيماناً بالدين الذى يدعوهم إليه ؛ وبالمثل التى يستحث خطاهم ، نحوها .

ولست أنسى خطبة ألقاها محمد إقبال الشاعر الباكستانى المسلم ، فى جمعية الشبان المسلمين سنة ١٩٣٢ أو نحوها ، فقال إن المعراج ، فى الإسلام ، دلالته إقامة الصلة بين الأرض والسماء ، فمحمد الإنسان ، أ فمحمد الإنسان، يستطيع أن يذهب فى مراقى التسامى والنقاء والقدرة الروحية إلى أعلى الغايات ، وهو بهذا يمثل الناس جميعاً ، ويقول لهم إنى ، لست سوى المثل الذى يحتذى ، والأسوة التى تحاكى . وليس حتماً أن تصلوا إلى مثل ما وصلت إليه ، ولكن باب الصعود ، مفتوح ، والسماء ليست بعيدة عن الأرض ، ولكنها تبدو كذلك للضعفاء ، الذين ، تعوزهم الثقة بالنفس ، والثقة بالعقيدة التى أقاموا حياتهم عليها .

على أن من معانى المعراج ، بعد الإسراء التى لا بد أن يهلل لها العقل الإنسانى ، وأن تطيب لها النفس الإنسانية ، ذلك المهرجان الروحى ، الذى عقد فى السماء والذى ضم جميع الأنبياء يصلون خلف خاتمهم ، إعلاناً لوحدة الإنسانية ولوحدة العقيدة القائمة على توحيد الإله ، وتنزيهه عن كل شريك ، وعن الزمان والمكان ، وعن الجنس واللون ، وعن التصور الإنسانى له ، وانقطاع الشبه بينه وبين أى شىء . مما يعرفه الإنسان « ليس كمثله شىء » . هذا المهرجان لا تقع فى تاريخ الإنسانية والعقائد كلها ، صورة تدانيه فى سموه ، وارتفاعه فوق العصبيات والأحقاد . والأغراض الإنسانية ، والأوهام القومية ، وادعاءات الأمم وأكاذيب الشعوب ، ويزيد من جمال هذا المهرجان ، أنه ضم أنبياء اليهود ، هؤلاء الذين لم يكفوا فيما بعد عن تكذيب الرسول ، وتسفيه رأيه ، وإثارة قبائل العرب ضده . وأتهامه بأقبح ما ينعت به الرجل دع عنك الرسول ، والذين لم يملوا من عقد المحالفات للقضاء عليه ، وإثارة الفتن من حوله .

والمعنى الثالث ، هو اختفاء فوارق الزمان والمكان . عندما وصل الرسول عليه السلام ، إلى أعلى مراتب السمو ، فقد اجتمع فى مكان واحد ، أنبياء ينتمى كل منهم إلى عصر ، وإلى وطن ، أى ينتمى كل منهم إلى مكان ، وإلى زمان ، فى هذا المعنى قال المرحوم محمد حسين هيكل :

« هذا الروح القوى — روح رسول الله صلى الله عليه وسلم — قد اجتمعت فيه فى ساعة الإسراء والمعراج وحدة هذا الوجود ، بالغة غاية كمالها ، لم يقف أمام ذهن محمد وروحه فى تلك الساعة حجاب من الزمان أو المكان أو غيرهما من الحجب التى تجعل حكمنا نحن فى الحياة نسبياً محدوداً بحدود قوانا المحسة والمدبرة العاقلة . تداعت فى هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرته واجتمع الكون كله فى روحه ، فوعاه منذ أزله إلى أبده ، وصوره فى تطور وحدته إلى الكمال عن طريق الخير ، والفضل

والجمال والحق فى مغالبتها وتغلبها على الشر والنقص والقبح والباطل بفضل من الله ومغفرة » .

وهذا هو الذى خلص به المسلمون . من الإسراء والمعراج ، بعد أن اختلفوا فيما إذا كانا قد وقعا بالروح أو بالجسد ، وفيما رواه الرواة من حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، من وقائعهما ، وفى نصيب الوضاع من هذه الروايات ، فالإسراء والمعراج ، معلمان روحيان من معا التاريخ الإسلامى، فى جانبه الروحى البحت، فلم يكونا خطوة سياسية كالهجرة ، ولا خطوة سياسية عسكرية كواقعة بدر ، وإنما كانا حركة فى عالم الروح ، ولحسابها ، ليس فيهما من السياسة أو الحرب ، قليل أو كثير .

ولما كنت لا أريد أن أكرر هنا ، وقائع الإسراء والمعراج ، لأنها معروفة وذائعة ، فإنى أكتفى بنقل ما ترجمه المرحوم الأستاذ محمد حسين هيكل صاحب كتاب محمد ، عن (أميل درمنجيم) ، وهو يصف تأثره بهذه الوقائع ، كما اجتمعت عنده من أكثر من رواية ، منها ما صح ومنها ما شابته موضوعات الوضاعين قال :

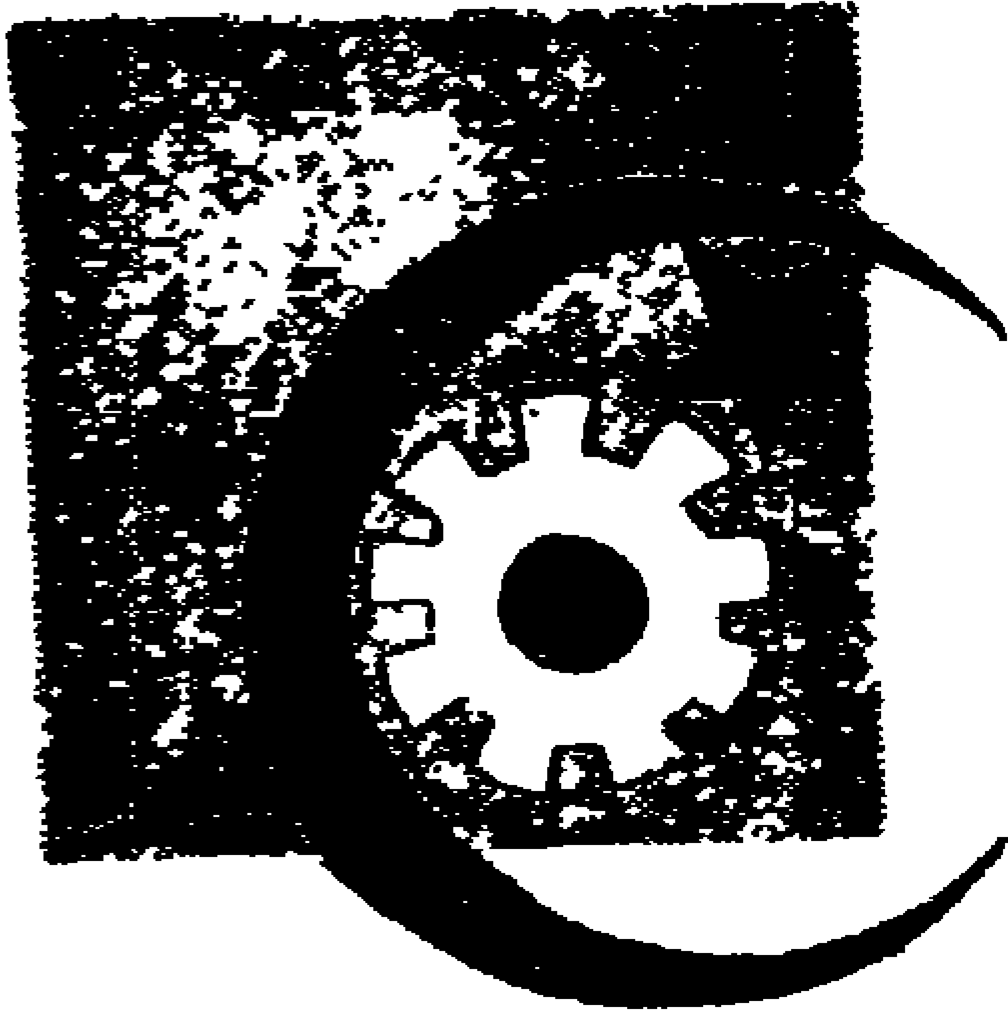
« فى منتصف ليلة بلغ السكون فيها غاية جلاله ، وصمتت فيها طيور الليل ، وسكنت الضوارى ، وانقطع خرير الغدران ، وصفير الرياح ، استيقظ محمد على صوت يصيح به : أيها النائم قم . وقام فإذا أمامه الملك جبريل ، وضاء الجبين أبيض الوجه ، كبياض الثلج ، مرسلا شعره الأشقر ، واقفاً فى ثيابه المزركشة بالدر والذهب ، ومن حوله أجنحة من كل الألوان ترعشها وفى يده دابة عجيبة هى البراق ، لها أجنحة كأجنحة النسر ، انحنت أمام الرسول فاعتلاها ، وانطلقت به انطلاق السهم ، فوق جبال مكة ورمال الصحراء متجهة صوب الشمال . وصحبه الملك فى هذه الرحلة ، ثم وقف به عند جبل سيناء حيث كلم الله موسى ، ثم وقف به مرة أخرى فى بيت لحم ، حيث ولد عيسى ، وانطلق بعد ذلك فى الهواء فى حين حاولت أصوات خفية أن تستوقف النبى الذى رأى

فى إخلاصه لرسالته ، أن ليس لغير الله أن يستوقف دابته حيث شاء . وبلغ بيت المقدس . فقيد محمد دابته ؛ وصلى على أطلال هيكل سليمان ومعه إبراهيم وموسى وعيسى ؛ ثم أتى بالمعراج فارتكز على صخرة يعقوب . وعليه صعد محمد سراعاً إلى السموات. وكانت السماء الأولى فضية خالصة . علقت عليها النجوم بسلاسل من ذهب ؛ وقد قام على كل منها ملك يحرسها حتى لا تعرج الشياطين إلى علو عليها ، أو يستمع الجن منها إلى أسرار السماء . فى هذه السماء ألقى محمد التحية على آدم . وفيها كانت صور الخلق جميعاً . تسبح بحمد ربها ، والتقى محمد فى السموات الست الأخرى بنوح وهارون وموسى ، وإبراهيم وداود وسليمان وإدريس . ويحيي وعيسى . ورأى فيها ملك الموت عزرائيل بلغ من ضخامته أن كان ما بين عينيه مسيرة سبعين ألف يوم ، ومن سلطانه أنه كان تحت إمرته مائة ألف فرقة ، وكان يسجل فى كتاب ضخم أسماء من يولدون ومن يموتون . ورأى ملك الدمع يتلو خطايا الناس ؛ وملك النقمة ذا الوجه النحاسي المتصرف فى عنصر النار والجالس على عرش من لهب . وقد رأى كذلك ملكاً ضخماً نصفه من نار ، ونصفه من ثلج وحوله من الملائكة فرقة لا تفتر عن ذكر الله قائلة : اللهم قد جمعت بين الثلج والنار وجمعت كل عبادك فى طاعة سنتك . وكان فى السماء السابعة مقر أهل العدل ملك أكبر من الأرض كلها له سبعون ألف رأس ، وفى كل رأس سبعون ألف فم ، وفى كل فم سبعون ألف لسان ؛ يتكلم كل لسان سبعين ألف لغة ، من كل لغة سبعين ألف لهجة ، وكلها تسبح بحمد الله وتقدس له .

« ويبدأ يتأمل هذا الخلق الغريب ؛ إذا به ارتفع إلى قمة سدرة المنتهى ، وتقدم إلى يمين العرش وتظل ملايين الملايين من الأرواح الملائكية وبعد أن تخطى فى أقل من لمح البصر بحاراً شاسعة ومناطق ضياء يعشى ، وظلمة قاتمة ، وملايين الحجب من ظلمات ونار ، وماء وهواء ، وفصل يفصل بين كل واحد منهما وما بعده مسيرة خمسمائة عام ، تخطي حجب

الجمال والكمال ، والسر والجلال والوحدة ، قامت وراءها سبعون ألف فرقة من الملائكة سجداً لا يتحركون ولا يؤذن لهم فينطقون ، ثم أحس بنفسه يرتفع إلى جنب المولى جل شأنه فأخذه الدهش ، إذ الأرض والسماء مجتمعتان لا يكاد يراهما ، وكأنهما ابتلعهما الفناء ، فلم ير منهما إلا حجم سمسمة فى مزرعة واسعة . وكذلك يجب أن يكون فى حضرة ملك العالم .

« ثم كان فى حضرة العرش . وكان به قاب قوسين أو أدنى ، يشهد الله بعين بصيرته ، ويرى أشياء يعجز اللسان عن التعبير عنها وتفوق كل ما يحيط به فهم الإنسان . ومد العلى العظيم يداً على صدر محمد والأخرى على كتفه ، فأحس النبى كأنه أثاج إلى فقاره ، ثم بسكينة راضية ففناء فى الله مستطاب » .



فرعون مصر

لأهل مصر أن يدلوا على غيرهم من إخوانهم فى الإسلام : بأن الله ذكر بلدهم فى القرآن الكريم . فى حين لم يذكر بلداً آخر ، لا فى الشرق ولا فى الغرب حتى ولابلداً مما عرف العرب ، واتصلوا به وأختلفوا إليه . كاليمن والشام ، التى كانت قوافل العرب وفى مقدمتهم قريش تروح إليها ، وتغدو منها ، فى الصيف مرة، وفى الشتاء مرة ، فقد اكتفى القرآن الكريم، بالإشارة إلى هاتين الرحلتين السنويتين دون الإفصاح عن اسم البلدين اللذين تتجه إليه الرحلتان « لإيلاف قريش ،إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » . بل إن مكة ، مسقط رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومرتع صباه وشبابه . التى شهدت نزول الوحى ، وبدء البعث . لم تظفر من آيات القرآن بغير آية واحدة « إن وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة » وقد جاء ذكرها مرة أخرى باسم « بكة » : « أن أول بيت وضع للناس الذى ببكة » أما المدينة . مقر الدعوة بعد الهجرة . وعاصمة المجتمع الإسلامى ، التى شهدت وقائع « نصر الله والفتح » ورأت غزوات الرسول وسراياه ، تخرج فى كل اتجاه ، حاملة راية الدين ، منذرة ومبشرة ، تتعقب فلول الشرك ، وتضيق الخناق على الكفر : . المدينة هذه أشارة إليها الذكر الحكيم

مرتين اثنتين فقط . مرة فى الآية الحادية بعد المائة فى سورة التوبة « وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق » وفى الآية العشرين بعد المائة من السورة ذاتها «ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله » .

أما ما عدا ذلك من الدول والبلدان ، والأقطار والأمم – بعد ذكر الروم مرة واحدة فى سورة الروم – فلا يذكر من أسمائها شيء ، كما لا يذكر شيء عن مواقعها ، ولا خصائصها جنساً أو لوناً أو لغة أو عدداً ، فقد خلا القرآن الكريم من كل ذلك ، واقتصرت آياته على أقوام هود وصالح ونوح ولوط ، وهم عاد وثمود وقوم تبع والمؤتفكات ، وهى قبائل بادت ، وزالت آثارها ، وهى لاتكاد تكون أمة ولاشعباً . وقد ذكر القرآن موقعاً واحداً هو مدين ، دون أن يقرنه بوصف ولا بيان يدل على كنه وصفه أهو قرية أو مدينة ، أو قبيلة ، فأسلوب القرآن الكريم مضطرد على منهج واحد ثابت ، يجهل معه أسماء الأماكن ومواضعها – كما قلت – وحكمة الذكر الحكيم فى هذا المنهج قائمة على ألا يصرف البيان الوارد فى السورة أو الآية ، عن الغاية من الحكاية أو القصة القرآنية . فقد يحاول قارئ القرآن أو سامعه أن يستظهر حقائق الحكاية من حيث اسم من دارت عليه هذه الحكاية وأسماء من شاركوا فى وقائعها ، وصفاتهم ، وقد يختلف المسلمون فى هذه الفروع الثانوية ، وينسون الكليات الأساسية وقد حدث شيء من هذا ، بسبب التفاصيل الذى أوردها بعض المفسرين ، بغير سند أحياناً كثيرة – فقد ألفت البحوث ، واشتد الجدل بين علماء المسلمين فى العصور المتأخرة ، فى هذه التوافه التى لا تمت إلى جوهر البيان القرآنى ، ولاتعظ أحداً ، ولاتجلو غامضاً ، ولاتصلح فاسداً . والأمثلة على منهج القرآن ، فى إغفال هذا العرض لاتحصى فالقرية فى الآية الثانية والستين بعد المائة فى سورة الأعراف يشار إليها بقوله تعالى « واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر » والمدينة التى يأتى ذكرها فى سورة يس يقول عنها تبارك

وتعالى « وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى » والمكان الذى عقد الخضر العزم أن يبلغه في سفره يذكر القرآن فى سورة الكهف بأنه مجمع البحرين. ولا زيادة « وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين » وإذا تحدث القرآن عن قرى فسد أهلها واستحقت العذاب قال عنها « وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا » وإذا جاء ذكر (ذى القرنين) . فلا ينسب إلى عهد ، وإلى قوم . ولا إلى موطن . ولا يقترن اسمه بشىء يخصصه بصفة من صفات البشر . مع أنه ذكر فى التنزيل الكريم رداً على سؤال السائلين فأجاب سؤالهم بقوله « إنا مكنا له فى الأرض . وآتيناه من كل شىء سبباً » ثم إذا تحدث عن نشاطه وتجواله شرقاً وغرباً قال « حتى إذا بلغ مغرب الشمس » أين ؟ لا جواب ثم « حتى إذا بلغ مطلع الشمس » أين ؟ لا جواب .

وإذا كنت قد أطلت فى بيان منهج القرآن فى إيراد أسماء الأماكن والأشخاص . غفلا من بيان الصفات والمواقع . فليس القصد هو توضيح هذا المنهج فى ذاته ، بل لبيان مقدار تكريم مصر . إذ ذكر اسمها فى القرآن الكريم خمس مرات . وفى أربعة مواضع . فهذا الاستثناء ، هو هو أبلغ ما ظفر به موقع فى الأرض . أو موطن للناس . أو بلد فى الدنيا .

وكان أول موضع ذكر فيه اسم (مصر) . الآية السابعة والثمانين من سورة يونس : « وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً » وقد ترى أنه إذا سقط اسم مصر من الآية ، لما نقص من معناها فى الظاهر شىء . ولكن مصر . عند القرآن ، جديرة بالذكر وقد كشفت السنة عن سبب هذه الحفاوة . فقد كانت قبلة الأنبياء . وموطنهم . جاء إليها إبراهيم من أقصى الشرق . وحمل معه جاريته هاجر . التى ولدت إسماعيل ، الذى ولد محمد بن عبد الله ، رسول الإسلام وخاتم النبيين . ثم جاء من بعد إبراهيم حفيده يعقوب بن إسحق . فيوسف بن يعقوب وإخوته الأسباط ، ثم ولد فيها موسى ، واحتمى بها عيسى ، وأخيراً أصهر

إلى أهلها ، محمد صلى الله عليه وسلم .

والموضع الثانى هو الآية الحادية والعشرون من سورة يوسف« وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه » وهنا أيضاً يبدو لنا ، إن الآية كان يمكن أن تأتى ، بغير بيان لموطن من اشترى يوسف . كذلك الأمر فى الآية التاسعة والتسعين من سورة يوسف« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » ، ولا يفوتنك ما جاء على لسان يوسف فى الآية التى تليها مباشرة ، إذ قال وهو يتحدث عن فضل ربه عليه وعلى أبويه « وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن . وجاء بكم من البدو » فالقارئ ينتظر وقد ذكر اسم مصر فى الآية السابقة ، أن يذكر اسم الموضع الذى جاء منه أبوا يوسف وإخوته ، ولكن الآية الكريمة جرت على سنة القرآن . بالقول « وجاء بكم من البدو » أى من البادية ، وبوادى الله كثيرة فى أرض الله الواسعة .

وفى سورة الزخرف ، الآية الحادية والخمسون ، يباهى فرعون بملكه العظيم فى مصر « ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر : وهذه الأنهار تجرى من تحتى » وحين ذكر أن غير فرعون ، ممن ملكوا الأقطار ، وعلوا فى الأرض ، تحدثوا عما ظفروا به مما جاء فى الآية السادسة والسبعين من سورة القصص عن قارون « إن قارون كان من قوم موسى . فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة » .

وآخر ما ذكر فيه اسم مصر، الآية الحادية والستون من سورة البقرة ، الخطاب الذى وجهه موسى إلى قومه حينما طلبوا أن يغير لهم طعامهم من المن والسلوى ، بدعوى أنهم لن يصبروا على طعام واحد ، وأن يخرج لهم ، من الأرض ، ماتخرج من بقل وقثاء وفول وعدس وبصل ، فقد قال لهم « اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم » وهذه الآية ، وإن دل ظاهر معناها ، على أن العودة إلى مصر ، نوع من العقاب لبنى إسرائيل ، الذين بطروا

معيشتهم ، وكفروا بأنعم الله عليهم ، إلا أنها تبين مدى حب الناس ، لمصر وطعامها ؛ حتى لو نالهم الخسف فيها . وران عليهم العذاب من حكامها وأصحاب السلطان عليها .

ويقدرما شرف المصريون بذكرموطنهم العظيم . فى التنزيل الكريم ، دون غيره من أسماء الأقطار والبلدان طرًّا؛ فقد ثقل عليهم أن يكون ملك من ملوكهم القدامى . فى عصر من عصورها الغابرة . مثلاً للكافرين الذين استحقوا لعنة الله ولعنة المرسلين والناس أجمعين وقد ذكر ملكهم هذا فى ستة وثلاثين موضعاً من القرآن ، فى أربع عشرة سورة .

ولكن المصريين أولى أن يسرى عنهم ، أن يكون فرعون المذكور فى القرآن واحداً من مئات من ملوك مصر ، فى ذلك العهد الغابر ، الذين حكموها . فعمروها . وأقاموا فيها من آيات الحضارة ، وآثارها ، ومن دور العلم والمعرفة ومعاهدها وقصورها . ما عم خيره خلق الله إلى اليوم . وإذا كان فرعون قد ذكر مقروناً اسمه بما يستحق من اللعن لكفره وتألهه ، واستعلائه على الناس : فقد علمنا القرآن ألا تزر وازرة وزر أخرى ، فلا يكون الغضب على واحد من فراعين مصر ، أن يكون كل حكامها على شاكلته ؛ وأن ينسحب عليهم جميعاً حكم واحد منهم ، فضلاً عن أن ينسحب هذا الحكم على مصر وأهلها وشعبها . وقد حالت آيات الكتاب الكريم نفسه ، أن يتصور متصور أن الغضب على فرعون ، غضب على مصر ، فقد وصف الله تعالى مصر هذه ، فى سورة الدخان ، بعد أن أنزل عقابه بفرعون فقال ، وهو أصدق القائلين : « كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم » وهذا الوصف ذاته هو وصف الجنة بعينها فى سورة الدخان كذلك « إن المتقين فى مقام أمين ، فى جنات وعيون » .

على أننا لا ننسى أن من ذوى قرابة رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم : من آذى الرسول وكان عليه حرباً ، ومن بلغ فى الشرك والكفر

والجحود ، ما استحق أن يلعن بما لم يلعن به كافر أومشرك ، فلم يغض ذلك كله من دور سائر العرب، ممن حملوا بعد ذلك راية الإسلام ونشروا نوره ، ورفعوا كلمته .

والذى يستوقف نظر الإنسان ، أن القرآن الكريم بقدرما لعن فرعون ، زكى مصر ، والمصريين ، وأحسن فيهم الشهادة ، وهى شهادة تبدو فى بعض آيات الكتاب ناطقة ، وتبدو فى البعض الآخر ، فى تضاعيف ألفاظها ، وثنايا معانيها .

فأول ما يطالعنا به كتاب الله العزيز ، عن فرعون موسى ، ما اقترحته امرأة فرعون نفسه ، على زوجها ملك مصر وسيدها ، أن يبقى على حياة الطفل الذى دفعه التيار محمولا فى التابوت الذى أودعته فيه أم موسى ، قال الله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى . إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين» فالتقطه آل فرعون» « وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك ، لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أونتخذه ولداً » وقد استجاب فرعون لهذا الاقتراح الخير . وقد كان جديراً أن يرفضه فقد أزعجته رؤيا ، فسرها له المفسرون على وجه أخافه من كل ذكر يولد لبنى إسرائيل فى مصر ، وإذا عللنا استجابته لهذا الاقتراح الخير ، هو حبه لزوجته ، وتأثره بما تطيب له نفسها وكان ذلك شهادة حسنة لأهل مصر الذين يكبرون من شأن الحياة الزوجية ويعلون من قدر المرأة ، أما إذا عللناها ، بالإشفاق على الطفل ، والأمل فى أن يتخذه ولداً ، كانت الشهادة أسمى دلالة ، وهى شهادة لتقاليد المصريين وما طبعوا عليه من سماحة الخلق ، والحدب على الأطفال .

وفى سورة (القصص) لمحة أخرى من لمحات الإنسانية ، تبدد ظلام بيت فرعون الذى علا فى الأرض . قال الله تعالى فى قصة موسى ، بعد أن وضعته أمه فى التابوت الذى ألقت به فى النيل ، عملا بوحى الله « وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ، وحرمنا عليه المراضع

من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق» فمن هذه الآية : نعلم أن موسى الطفل . كره أن ترضعه امرأة غير أمه ، وأن يطعم بغير لبنها : فلما عرضت أخت موسى : لأصحاب الأمر فى بيت فرعون وقصره الملكى . أن تدلهم على أهل بيت يكفلونه ، وهم له ناصحون . قبلت هذه الفكرة فى التو . من فرعون وزوجته معاً ، ولا يستغرب هذا القبول من زوجة فرعون : فقد كانت امرأة مؤمنة وضرب الله بها وبمريم أم عيسى المسيح المثل للمؤمنين ولكن وجه الاستغراب أن يقبل فرعون الذى علا فى الأرض . واستبد بالناس . ما قبلته زوجته ، ولا تفسير لهذا القبول . إلا أن التقاليد السائدة بين أبناء شعبه . غلبته لأنها القانون الذى يعلو على كل قانون . على أنه يمكننا أن نتساءل : كيف استطاعت أخت موسى . وهى فتاة فقيرة . تنتمى إلى أقلية مضطهدة ، أن تنفذ من أسوار قصر فرعون ، وأن تتسلل من بين حراسه ، حتى تصل إلى القصر نفسه ثم حتى يبلغ صوتها الضعيف أذن فرعون العالى . ولك أن تعجب ، كيف أصبح هذا الطفل الذى التقط من الماء . والذى لا يعلم أحد أباً له ولا أماً ، شغلا شاغلا للقصر الملكى . وهل يمكن أن يحدث هذا كله : فى شعب . لم يصل إلى أقصى الغاية فى الرفق واللطف الإنسانى . وفى سورة الشعراء ، آيات تقص ما جرى بين فرعون . وموسى كليم الله ، فترى فى هذه الآيات . ما يستوقف النظر حقاً ، فقد قال فرعون لموسى : « ألم نربك فينا وليداً ، ولبثت فينا من عمرك سنين . وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين » . وأقر موسى عليه السلام فى الحال بما أراد فرعون أن يذكره به : قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين ، ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكماً ، وجعلنى من المرسلين » .

وإذا كان فرعون قد اصطنع هذا الأسلوب الرقيق فى مخاطبة موسى ، عليه السلام ، لأن موسى كان من فرعون بمثابة الابن ، وأنه على حد ما

ذهب إليه بعض مفسرى القرآن الكريم . كان لايقوى على فراقه ، فى رحلة من رحلاته ، فكان يصطحبه فيها ، ويدنيه من مجلسه فإن موسى كان قد شب ، وأصبح زعيم طائفة يكرهها فرعون ، وقد جاء يطلب باسمها مطالب نسميها الآن مطالب سياسية : فقد اختفى الابن ، الذى نشأ فى أحضان فرعون طفلا . وحل محله رجل مكتمل الرجولة يؤدى رسالة عظيمة الخطر ، تتناول نظام الحكم الفرعونى من أساسه . فهذه الرقة فى الخطاب ، كانت غايتها أن تخفف من حدة موسى فى الدعوة ، وأن تستثير فى نفسه عواطف البنوة ، وتذكره بأفضال فرعون عليه ، وبأنه واقع تحت طائلة القانون وأن فرعون مع ذلك يفسح له صدر العذر ، ولا يأخذه بما يقضى به النظام . وإذا كان الله تعالى قد أوحى لموسى ، أن يذهب وأخوه هارون إلى فرعون ، وأن يدعواه إلى الإيمان برب العالمين . فقد نصحهما أن يقولا له (قولا لينا) لسببين أولهما أن الدعوةالربانية ؛ وسبيلها « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة» وثانيهما أن موسى لم يكن غريباً عن فرعون وبيته وأهله ، وأن القانون الإلهى ، يقضى على الأبناء ، يحسنوا إلى الأباء : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً »

ولا شك أن فرعون ، قد كبر عليه ؛ أن يقف منه موسى موقف الهادى والمرشد ، فقد أبى الناس جميعاً ، مهما صغرت مراتبهم ، وقلت حظوظهم فى الدنيا ، أن يتقبلوا الهداية من بشر مثلهم « أبشر يهدوننا ، فكيف يكون حال سلطان يعبده أهله من دون الله ، وهو يتلقى الهداية ، على يد رجل ، من طائفة من المستضعفين ، وقد نشأ فى ظله . ونمى فى بيته كواحد من أهله . لذلك كان طبيعياً أن يقول فرعون وملأه أى جماعته : « أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون».

ولذلك انتقل فرعون فى حواره مع موسى عليه السلام إلى السؤال الذى لم يكن ثمة مفر من الوصول إليه ، وهو (ومارب العالمين) الذى جاء موسى

مبشراً به ، وداعياً إلى الله ، فأجاب موسى : « رب السموات والأرض وما بينهما» فكان طبيعياً من فرعون أن «قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم » نعم «إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون» وخلص إلى النتيجة الحتمية « لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين » .

ولا شك أن هذا التهديد ، دون ما كان يهدد به فرعون ، رجلا آخر غير موسى عليه السلام ، وأنه لكلام دون ما قاله موسى بكثير . فإن ما جاء به موسى عليه السلام هو الثورة بعينها على فرعون ونظامه ، ودينه ، وهو نهاية سلطانه ، وجزاء هذا التمرد السافر ، لايكون إلا التمثيل بمن أجترأ عليه . ثم قتله شر قتلة . ولكن فرعون اكتفى بالتهديد (بالسجن) وسنرى بماذا هدد فرعون السحرة الذين آمنوا برب موسى ، وسيبدو الفارق واضحاً ، بين هذا التهديد وما يجرى فى مثل هذه هذه المواقف إذ ذكرنا ما كان من قوم إبراهيم « فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه » وقد ألقوا بإبراهيم فعلاً فى النار . وإن كان فرعون قد قال فى موضع آخر « ذرونى أقتل موسى » إلا أنه فى الحالتين لم ينفذ تهديده ، فلا هو قتله ، ولا هو سجنه . واستمر موسى عليه السلام يدعو إلى دينه . ويجمع قومه ، ويدعوهم للخروج من مصر كما استمر فى جداله مع فرعون فقد قال له : « أو لو جئتك بشىء مبين » فقبل فى التو هذا العرض وقال « فأت به إن كنت من الصادقين » ولعل فرعون حسب أن موسى سيأتيه بحجة لايجد لها رداً ، ويذكر القرآن تلك الحجة بقوله « فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين » « ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين » ولم يفطن فرعون إلى دلالات هذه المعجزات الربانية ، وأخذها على ظاهرها المادى ، وقاسها بمقاييس البشر فكان قوله « للملأ حوله ، إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره » ثم أضاف « فماذا تأمرون » وهذه شهادة من كتاب الله لشعب مصر ، فحتى فرعون الذى كان مثلا من أمثلة الكفر والشرك ، لم يستطع أن يخرج عن تقاليد المصريين ، فى الإعلاء من شأن الشورى ،

ولما كان الأمر قد بدا لأصحاب مشورة فرعون ، سباقاً بين سحرة ، فقد « قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار عليم » فنفذ فرعون ما أشار به أصحابه وجمع السحرة . فكان ما كان من غلبة نبى الله موسى ، بفضل الله ، على السحرة أجمعين .

ولقد قص علينا القرآن الكريم ، من حياة موسى عليه السلام ، ما يكشف جانباً آخر من جوانب رفعة الحياة العامة فى مصر ، فى ذلك العهد السحيق ، ففى سورة (القصص) عن موسى أنه « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتلان : هذا من شيعته . وهذا من عدوه . فأستغاثه الذى من شيعته ، على الذى من عدوه فوكزه موسى ، فقضى عليه . قال هذا من عمل الشيطان ، إنه عدو مضل مبين » « فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب » « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى . قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين . فخرج منها خائفاً يترقب ، قال رب نجنى من القوم الظالمين » .

فالمفهوم من هاتين الآيتين الكريمتين أن موسى نشأ فى بيت فرعون مصر ، بوصفه ابناً من أبناء الأقلية الصغيرة المضطهدة التى تتكون من الإسرائيليين ، ومع ذلك فقد شملته رعاية أهل البيت الملكى . فلم يشمله حدب الملكة زوجة فرعون وحدها ، بل عطف الملك نفسه ، وبطانته وحاشيته ، إذ لم يكن فى الوسع أن يترعرع حراً ، واثقاً من نفسه فى القصر والمدينة كلها . والملك يضيق به أو يضيق عليه والدليل على أن موسى كان يعيش فى القصر والعاصمة إسرائيلياً نص الآية الكريمة « فوجد فيها رجلين يقتلان ، هذا من شيعته وهذا من عدوه . فاستغاثه الذى من شيعته » فالذى من شيعته هو إسرائيلى بطبيعة الحال ، ولو لم تكن إسرائيلية أو يهودية موسى عليه السلام ، معروفة وذائعة ومعلنة يصعب على رجل من عامة أهل المدينة يقتتل ويتشاجر فى الطريق أن يعرف هويته ، ويطلب منه النجدة فى صراعه مع مصرى .

ولقد بلغ من عظمة مكانة موسى عليه السلام فى بيت الملك وعند أهله واستظلاله برعايته، واصطناعه لحجة المصريين وزيهم، وإحاطته بعلمهم وثقافتهم، ووقوفه على دينهم وطقوسهم، وأخذه ورده على أخبارهم وكهانهم. أن تصور عالم إسرائيلى شهير هو (سيجموند فرويد) صاحب نظرية العقل الباطن والتحليل النفسى، أن موسى عليه السلام، لم يكن يهودياً قط، وأنه كان مصرياً، بل كان أميراً من أمراء المصريين، وأنه تزعم ثورة بنى إسرائيل على فرعون مصر. لكرهه ظلم فرعون لبنى إسرائيل، واضطهاده إياهم. ويقول فرويد فى كتابه «موسى والتوحيد» إن الدليل على مصرية (موسى) اسمه، فمقطع «موسى» معناه الطفل أو الابن وإن هذا المقطع ذاته يتكرر فى العديد من أسماء ملوك مصر مثل (أح — مس) وتحوت— مس ورع — موسى رعمسيس أورمسيس.

ويمضى فرويد فى عرض نظريته فيقول: إن الإسرائيلية لم تكن عقيدة دينية فى تلك الفترة فترة الخروج من مصر. فهداهم موسى إلى عقيدة (أتون) لاعقيدة آمون. ولذلك فالخروج أى خروج اليهود من مصر، وقع فى عهد ما بعد الملك إخناتون، لا فى عهد منفتاح، وهو الشائع فى كتب المفسرين والمؤرخين.

ولسنا — بطبيعة الحال — فى صدد عرض نظرية فرويد، ولسنا — على سبيل القطع — من مؤيديها ولا المعتنقين بصحتها، وإنما نحن نشير إليها، كدليل على مدى انتفاع موسى عليه السلام. قبل النبوة والرسالة، بتقاليد المجتمع المصرى. وعلمه وأسسه الفكرية، ومدى انخراطه واندماجه فى هذا المجتمع. وهو المدى الذى أوهم عالماً يهودياً كبيراً بأنه من المصريين وأنه بشر بعقيدة إخناتون.

ولست تجد دليلا، على تسامح المصريين الفكرى، مثل دليل نشأة موسى عليه السلام فى بيت فرعون حراً قوياً، على أن هذا الدليل نفسه ينطوى على معنى آخر لايقل عنه جلالا ولاسمواً، ذلك هو أن نسبة

(موسى) إلى قصر الملك ، وترعرعه فى قصره، أشبه شى، بابن الملك والملكة لم يحل دون أن يتعقبه القانون من جهة ، وأن يتعقبه خصومه من جهة أخرى . والأمران متكاملان فإن تعقب القانون معناه أن الملك وبطانته لا يملكان أن يحميا قاتلا ، ولو كان مشمولا برعاية الملك نفسه ، كما أن خوف هذا الابن أو المتبنى من القانون وهروبه من وجه العدالة ، كشف رائع عن سمو هذا القانون ، ونفاذ كلمته ، وطول باعه ، وشدة بأسه .

أما أن يبلغ الخوف من موسى عليه السلام إلى حد أن يفر على وجهه ، تاركاً وطنه ، وأمه وأباه ، ومتجاوزاً الحدود حتى يصل إلى أرض (مدين) فمعناه أن أصحاب الدم الذى سفكه ، يستطيعون أن يضعوا اليد عليه ؛ وأن ينالوه بسوء ، إما بقصاص الحاكم العام وإما بيد الانتقام الشخصى . وكل ذلك شهادة لاتعلوها شهادة لمجتمع العدالة التى كان المصريون يقدسونها ، ويطلقون اسمها (معات) على العدل ، وحب الخير ، وقد كان الملوك والأمراء يؤكدون فى نقوش قبورهم ، وما خلفوه من آثار مكتوبة ، أنهم احترموا كلمتها ، ونزلوا على مقتضى حكمها .

وفى سورة غافر ، شهادة أخرى لمصر ، فى ذلك العهد القديم ، الموغل فى القدم ، فقد جاء فيها قول الله تعالى :

« وقال رجل مؤمن من آل فرعون ، يكتم إيمانه ، أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذباً فعليه كذبه . وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب » ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ، قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ، وقال الذى آمن ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب » ولا يستطيع إنسان قرأ تاريخ الملوك ، وعرف أسلوب الطغاة فى الضيق بنصح الناصحين ، والبطش بمن يعصى لهم هوى ، أو يناقش من ورائهم أو أمامهم أمراً ، لن يملك نفسه من الإعجاب بنظام المصريين

حتى قبل أن تأتيهم هداية السماء . هذا النظام الذى يستطيع معه رجل من آل فرعون : أن يوجه هذا النصح الصريح ، — المقرون باللوم القاسى ، والتوبيخ الرادع — إلى الملك الإله : دون أن يخشى عاقبة هذا النصح ، ولو كان فرعون أصابه بسوء لذكر القرآن الكريم ذلك ، فإن ذلك ختام القصة : لايغفله القرآن . وغايته من إيرادها : تعليم الناس : الإيمان بواجب النصح للحكام : والأخذ على أيديهم . إذ يتجاوزون حدودهم ، ويتورطون فى الخطأ .

ولقد روى لنا القرآن الكريم . قصة مؤمنين آخرين ، من المصريين : تحدوا إرادة فرعون وخرجوا على حكمه : وأعنى بها قصة السحرة الذين دعاهم فرعون للدخول مع نبى الله موسى عليه السلام فى مسابقة . وكيف لم يحفلوا بما هددهم به فرعون من عذاب مبين :

قال الله تعالى فى سورة طه موجها الخطاب إلى موسى عليه السلام :

« وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى . فألقى السحرة سُجَّداً ، قالوا آمنا برب هارون وموسى قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ، قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا ، فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا » .

إن هؤلاء السحرة هم ممثلو الشعب المصرى الحقيقيون ، فهم من عامة الشعب ، يفكرون لأنفسهم : دون قيد على تفكيرهم من مصلحة كبرى يتحرونها ، فقد جمعهم أعوان فرعون من كل حدب وفج ، وقد كانوا يحصلون على قوت يومهم ، مما يحصلونه عليه من قروش أبناء الشعب ، فى القرى وأحياء المدن ، فليسوا خداماً للسلطان ، ولا يطمعون منه فى شىء ، ولقد أنطقهم اقتناعهم ، فور اللحظة بما ينطق به كل إنسان خلصت نفسه من دواعى الخوف أو الطمع ، واعتصم بفطرته ، واستمع إلى وحى عقله .

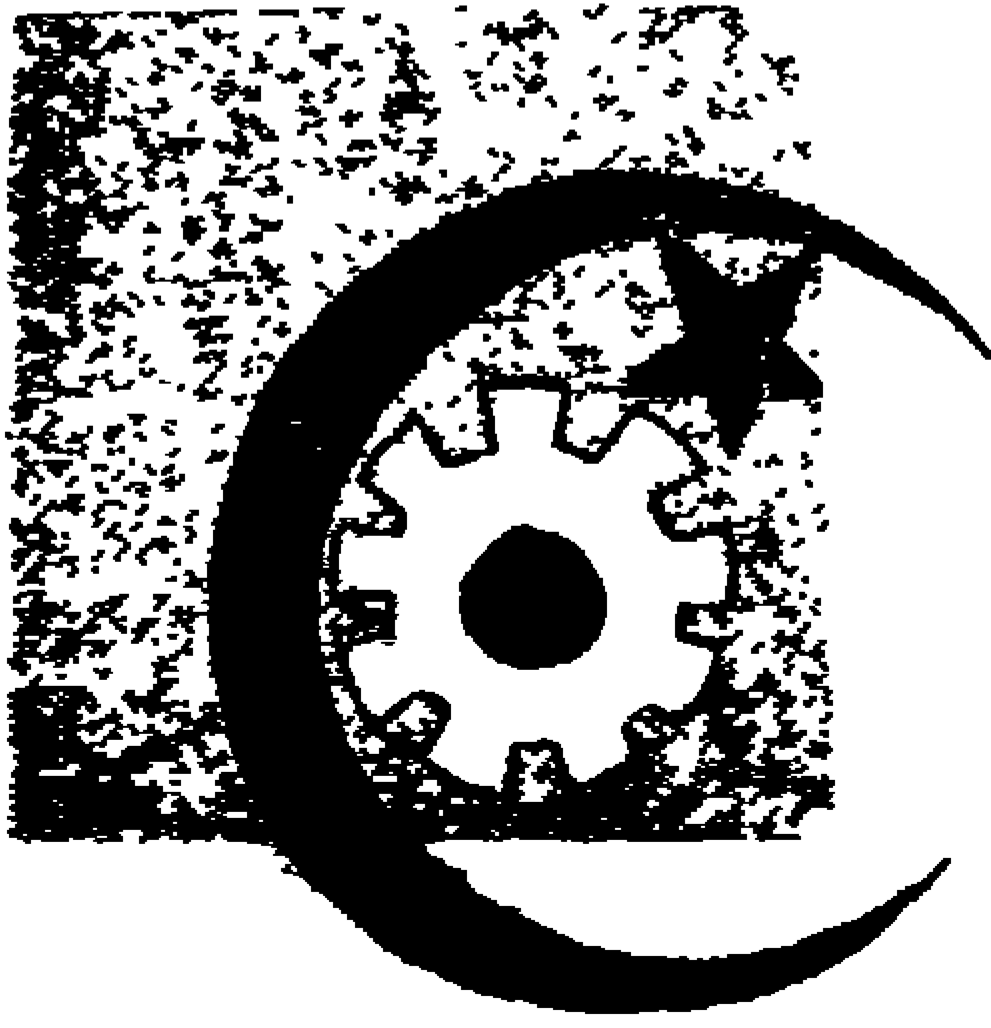
ولقد ضمت هذه الآيات ، من دلائل سلامة فطرتهم الكثير ، فقد أدركوا أموراً ، فى فترة قصيرة من الزمن ، يحتاج الكثيرون إلى وقت طويل لإدراك مداولها ، فقد شعروا بأن غلبة موسى عليهم ، وهم أساتذة السحر الذين يعرفون أسراره وأنواعه ، ليس مردها مهارة فى السحر ، وإنما قوة أعلى من براعة اليد ، وحذق الصنعة ، فعرفوا أن هذه القدرة غير البشرية ، هى بينات أى دلائل ، وأن هذه الدلائل قاطعة بحيث لا يمكن تجاهلها ، فإذا كانت أقنعتهم ، فمن الخطل وسوء الرأى ، أن يترددوا فى الذهاب إلى آخر الشوط ، بما توحى به هذه البينات ، فإذا كان فرعون قد هددهم بالموت والعذاب ، والصلب ، فهو تهديد صادر ممن هو أضعف بكثير من صاحب هذه القوة الخارقة ، التى تعلو القوة البشرية وتتجاوزها . ولست تجد شيئاً أجمل ولا أسمى من قول هؤلاء السحرة على الفور « فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا » فالسحرة المصريون قارنوا بين الماديات الزائلة ، والمثل الأعلى ، فانحازوا إلى المثل الأعلى ، وكانوا بذلك خير من يمثل شعباً ،عاش حياته على مدى العصور والحقب يتعلق بالمثل الأعلى ، ويفنى فيه ، ويدفع بالمهج والأرواح دفاعاً عنه .

وما نخلص إليه من الحديث عن فرعون مصر فى القرآن أن القرآن الكريم ، كرم ، وكرم أهلها ، وكرم تقاليدها ، وإذا كان قد لعن فرعون مصر فقد رفع قدر زوجته .

آخر الأمر ، قد يقول قائل ،ما هذه الحماسة فى الدفاع عن المصريين فى ظل القرآن ونصوصه ، والقرآن لا يعرف الشعوبية ، وأشهد الله أن هذا الذى قلته عن مصر ، ليس من الشعوبية فى شىء ، فالقرآن يدعونا إلى التحدث بنعمة الله « أما بنعمة ربك فحدث » ومن نعمة الله علينا أن نذكر وطننا بما لم يذكر به وطناً آخر ، فى كتابه المنزل على نبيه المرسل ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، قد فرق رسول الله عليه الصلاة والسلام ، بين عصبية جاهلية ، يكره بها الإنسان غير قومه ، وأخرى ،

يحب بها قومه ، يدفع عنهم ، ويحسن إليهم ، وينصح لهم ، ولا يبغض سواهم .

حمانا الله من عصبية الجاهلية ، ووقانا شرها ، وجعلنا ، من يحبون الناس جميعاً متأسين بقول الله تعالى «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجلعناكم شعوباً وقبائل ، لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » :



إسرائيليات

من آفات بعض كتب التفسير الكبرى ، وعاهاتها التى أرقت المسلمين ، وأقضت مضاجعهم ، ماتواضع علماء التفسير على تسميته « بالإسرائيليات » .

« والإسرائيليات » جمع إسرائيلية ، نسبة إلى إسرائيل ، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام ، والمقصود بإسرائيل فى هذه النسبة الاصطلاحية ، بنو إسرائيل لا جذهم يعقوب وحده .

وتطلق الإسرائيليات على تفسير بعض ما جاء فى القرآن الكريم ، بأقوال عدد من أهل الكتاب الذين اعتنقوا الإسلام فى عهده الأول كوهب ابن منبه ، وكعب الأحبار ، وتميم الدارى وعبد الله بن سلام ، ينقلها عنهم بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتختلط بما يقوله هؤلاء الصحابة الأخيار الصادقون ، فلا تعرف هذا من ذاك ، ثم أتى جيل ، ظهر فيه رواة ، لا يتحرجون من الكذب على الله ورسوله ، فاتخذوا من روايات أهل الكتاب ممن دخلوا فى الإسلام صادقين أو مرائين سبيلا للكيد للمسلمين ولدينهم ، بنسبة ما لا يصدقه عقل ، ولا يسيغه ذوق ، ولا يجيزه دين ، إلى أصحاب رسول الله ، وإلى التابعين ، وقد تبلغ بهم

الجرأة : فينسبون هذا الكذب الصراح ، وذلك الإفك المفضوح ، والهراء الساقط إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه ، وهذه الروايات المفتراة . كلها : جزء من الإسرائيليات .

فهناك ضرب آخر من الإسرائيليات . يسمى بالموضوعات ، والموضوعات أحاديث مفتراة على الرسول عليه الصلاة والسلام : لا تدور حول أنباء أنبياء اليهود وقصصهم الواردة فى القرآن . وإنما تشرح جوانب أخرى : من القرآن الكريم . عن الكونيات ، وأصل الإنسان ، وبدء الخليقة ، ومظاهر الطبيعة الموصوفة فى الذكر الحكيم من رعد وبرق : ومطر . وسحاب . أو أنباء الأمم البائدة وحكاياتها كعاد وثمود ، وقصورهم ودورهم . وحالاتها ومظاهر عظمتها ، وصور بذخها ، كذلك غيرها من قصص القرآن كقصة أهل الكهف وذى القرنين ويأجوج ومأجوج ، فأما أعداء الإسلام الذين تزيوا بزيه ، وتنكروا بأسماء المسلمين ، اتخذوا من هذه الإشارات القرآنية مجالا ، ليصوغوا هراء تندى له الوجوه ، ونسبوه إلى الرسول وأصحابه ، وذكروا فيه من التفصيلات وتزيدوا فى بيانها وسودوا به صفحات من كتب التفسير ، لا يقرؤها قارئ ، حتى يقع فى يقينه أن المسلمين أمة من المعتوهين ، يصدقون ما لا يصدق ، ويسيغون ما لا يقبل ، ويجعلون فى شرح كتابهم الأسمى ، ما خلت منه كتب الزنادقة والملاحدة ، وأنم لم تصب من الحضارة والمدنية ، ما أصابت أمة العرب الإسلامية ، أقامت من دور العلم ، ونشرت من منافع المعرفة ، مالم تفعل عشر معشاره أمة أخرى .

ويدخل فى نطاق هذه السموم العقلية ، ما رواه مسحيون دخلوا الإسلام فى شرح ما جاء فى القرآن الكريم ، عن المسيح عيسى ابن مريم ، وعن أمه ، وذوى قرابته كزكريا ويحيى ونقله عنهم رواة الحديث ، أو رواة التفسير المنقول ، أى المنقول عن أهل الصدر الأول .

فالإسرائيليات ليست وقفاً على المنقول عن الإسرائيليين سواء من

أسلم منهم أو من لم يسلم ، أو ما نقل عن كتبهم ؛ مما وقع فى يد المسلمين فترة وضع كتب التفسير الأولى أو جمع وتدوين أحاديث لرسول الله . ولا سيما ما كان منها متصلا بتفسير القرآن الكريم . ولقد أحسن علماء التفسير الأوائل ، ومن جاء بعدهم ، حتى سموهذه الموضوعات جميعاً : بالإسرائيليات ؛ فقد قال الله تعالى . وهو أصدق القائلين « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود » وقد كاد اليهود لمحمد صلى الله عليه وسلم ، منذ الأيام الأولى لهجرته من مكة إلى المدينة فقد عاهدوه وواعدوه ثم نقضوا عهودهم ومواثيقهم ، وحرضوا عليه القبائل ، وألبوا عليه الناس : سافرين ومستترين ، وجادلوا فأكثروا جداله ، وأرجفوا بالإشاعات ، والأكاذيب ، وشككوا فى صدقه، وفى علمه، فلما هزمهم الله بيد محمد والذين معه ، ورد كيدهم فى نحرهم ، بقوا يطوون صدورهم على أشد الكره للإسلام ونبيه ودينه وعلمه وحضارته وأدبه وفكره وفقهه، لا لأنه . أجلاهم عن أرض العرب ، وأنزلهم من صياصيهم ، بل لأنه الدين الذى امتاز به المؤمنون بوحدة فى الفكر والعقيدة وفى الأسلوب والعلم لم يتمتع بها دين ولا مذهب دنيوى آخر، فقد اختفت من صفوف المسلمين ، الفرق التى مزقت غيره من الأديان والمذاهب ، وكادت تنعدم الفوارق بين السنى والشيعى ، ولم يعد للفرق الكبرى من معتزلة وخوارج ، ومرجئة ورافضة ، من أثر فى حياة المسلمين العقلية أو التعبدية ، إلا ما يشبه الذكريات التى يحفظها التاريخ ، بياناً لمراحل مرت وانفضت ، ووحدة المسلمين ، كانت فى بداية عهدهم بالمدينة ، أعظم وضوحاً ، وأكثر تماسكاً ، وكان هذا أمراً يطير له صواب اليهود الذين لا يهدأون إذ لم يجدوا منفذاً إلى فتنة يثيرونها ، أو حرب يؤججونها « كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فساداً » .

وإطلاق الجزء على الكل من أساليب اللغات كلها ، وفى مقدمتها اللغة العربية ومن أمثلة ذلك « يجعلون أصابعهم فى آذانهم » فإطلاق

الإسرائيليات على كل ما هو افتراء على الإسلام أيا كان مصدره منهج سليم جاء فى دائرة المعارف الإسلامية تحت لفظ (تفسير) تعليق بقلم الأستاذ أمين الخولى عليه رحمة الله قال فيه :

وهكذا نجد غير قليل من النقد التفصيلى لرواة التفسير النقلى — أى التفسير المنقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته وتابعيهم ومن يروى عنهم — كما نجد النقد الإجمالى لهذه المرويات ، فالإمام أحمد ابن حنبل له الكلمة المعروفة : ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازى (أى ليس لها إسناد) . ويقول ابن تيمية بعد ذكر وضع الحديث والأدلة القاطعة على كذبه « وفى التفسير من هذه الموضوعات قطعة كبيرة » كما يقول : « والموضوعات فى كتب التفسير كثيرة » وهكذا لم يعتمد النقل التفسيرى على أساس من الثقة وطيد ، كما سمعت من النقاد منذ الدهر الأول ، فإذا تساءل النقاد المحدثون عن قيمة الأحاديث الواردة فى هذه الكتب ، ولم يصلوا بعد إلى رأى يعززها كما يقول (كارادى فو) فإن هؤلاء النقاد المحدثين لم يجيئوا بجديد فى هذا على ما ترى . إذ أن الاتهام قديم » .

« وقد كان من وراء ذلك أن تأثرت تلك المنقولات بكل ما فى البيئة الإسلامية من متناقل القصص الدينى محمولا إليها من مختلف الأنحاء ، وقد كان اليهود فى ماضيهم الطويل قد شرقوا راحلين من مصر ، ومعهم آثار حياتهم فيها ما معهم ، ثم أبعدوا مشرقين إلى بابل فى أسرهم ، ثم عادوا إلى موطنهم فقد حملوا من أقصى المشرق فى بابل ، والمغرب فى مصر ، ما حملوا ، وجاء البيئة العربية الإسلامية ، من كل هذا مزيج ما جاء ، إلى جانب ما بعثت إليها الديانات الأخرى التى دخلت تلك الجزيرة ، وألقت إلى أهلها ما ألقت من خبر أو قصص دينى ، وكل أولئك تردد على آذان قارئى القرآن ومتفهميه ، قبلما خرجوا إلى ما حول جزيرتهم شرقاً وغرباً فاتحين ، ثم ملأ آذانهم حين خالطوا أصحاب تلك البلاد التى

نزلوها وعاشوا بها ، وإن كان الذى اشتهر من ذلك هو اليهودى ، لكثرة أهله ، وظهور أمرهم فدعيت تلك التزايدات التى اتصلت بمرويات التفسير النقلى بالإسرائيليات » .

فالأستاذ الخولى قد سبق إلى مانقوله الآن من أن الإسرائيليات فقط ليست المروى من مسلمى أهل الكتاب من اليهود ، ولا هى مقصورة على ما روى من ذلك ، خاصاً بأخبار أنبياء بنى إسرائيل فى القرآن ، بل تشمل كل ما روى منقولا عن أهل الصدر الأول ــ بحق أو بباطل ــ مما يحتوى على أخبار وقصص وأمور تذكر أرقاماً وأعداداً وأبعاداً كما تورد صوراً لفظية للأماكن والمنازل ، والأشخاص والرجال ، وأحوال المدن البائدة ، والجيوش المحاربة وقوة القادة وسطوتهم الخارقة ؛ وغنى الملوك وقصورهم الباذخة وما احتوت عليه من الأبهاء المبالغ فى اتساعها وتراميها ، والأعمدة التى لم يشهد أحد شيئاً فى مثل ضخامتها وارتفاعها وكثرتها وبريقها ، والحدائق والبساتين ، التى تضوعت برائحة فواكه ورياحين غريبة الجسم والشكل مما يرتاح له خيال العامة ، ويطيب سماعه لطالبى التسلية والتسرية تخفيفاً لأثر الموعظة ، وفراراً من أسر الواقع .

وقد أورد بعد ذلك الأستاذ أمين الخولى عن ابن خلدون فى صدد هذه المرويات :

وابن خلدون فى مقدمته يذكر من أسباب الاستكثار من هذه المرويات اعتبارات اجتماعية ودينية ، أغرت المسلمين بهذا الأخذ والنقل الذى اتسعت له كتب التفسير المروى ، فاشتملت على الغث والثمين ، والمقبول والمردود ، فيعد ابن خلدون من الاعتبارات الإجتماعية غلبة البداوة والأمية على العرب ، وتشوقهم لمعرفة ما تتشوق إليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات وبدء الخليقة ، وأسرار الوجود ، وهم إنما يسألون فى ذلك أهل الكتاب ، قبلهم ثم يذكر من الاعتبارات الدينية التى سوغت عنده هذا التلقى الكثير لتلك المرويات فى تساهل وعدم تحر للصحة ، أن هذه

المنقولات ليست مما يرجع إلى الأحكام فتتحرى فيها الصحة التى يجب العمل بها ؛ فتساهل المفسرون فى مثل ذلك ، وملئوا كتبهم بمنقولات عن أهل التوراة الذين كانوا بين العرب ، وكانوا بداة مثلهم لايعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ولاتعلق لها بالأحكام الشرعية التى يحتاط لها :

ثم يقول الأستاذ أمين الخولى :

« وسواء كانت هذه كل ما هيأ لذلك من الأسباب أو كان وراءها أسباب أخرى فى حياة الرواية ، وحياة العقيدة ، وضرورة تأثرها بما حولها فقد اتسعت على كل حال تقول التفسير لمثل هذه المرويات التى يبين البحث أنها اشتملت مزيجاً متنوعاً من مخلفات الأديان المختلفة التى ترامت إلى علم العرب » .

ومما تقدم ترى أن ظاهرة تقبل المسلمين هذه المرويات ، وعدم رفضها ، وكثرتها ، شغلت الذين تأملوا فى تاريخ العقيدة الإسلامية فى عهودها الأولى . والتمسوا لها الأسباب والعلل ، وهى فى حقيقة الأمر ، جديرة بهذا الاهتمام . ونضيف نحن ، أن العرب الأقحاح لم يكن لهم يد فى نشوء هذه الظاهرة المؤسفة ، وفى استفحالها ، وسنبين ذلك بعد قليل .

ولكن قد يحسن أن أورد لك نماذج مما جاء فى كتب التفسير الجليلة فى هذه الأباطيل الموضوعة والأحاديث المصنوعة ، لنتعرف معاً مصدرها العقلى .

فى سورة المائدة الآية الثانية والعشرون ونصها : قالوا ياموسى إن فيها قوماً جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون » . والغاية من هذه الآية ، بيان أن بنى إسرائيل عصوا نبيهم ، وأنهم أبوا أن ينفذوا أمره ، خوفاً من أن يحل بهم الموت ، أو يصيبهم الضر ، على يد أقوام جبارين كانوا فى مدينة (اريحاء) وذلك لنقص إيمانهم بالله ، ولايحتاج المسلم ليفهم هذه الآية ولينتفع بها ، إلا أن

يعرف منها هذا المعنى ، وإن ابتغى شيئاً وراء ذلك ، فلا يجب أن يزيد عن السؤال عن اسم المدينة ، وعمن يكون هؤلاء الجبارون ، وحتى هذا القدر الأخير فيه تزيد ، ولكنه تزيد تقره طبيعة الفضول الإنسانى ، وحبه للاستزادة من العلم بالواقعة التى هو بصددها ، ولكن بعض المفسرين لم يقنعوا بالوقوف عند هذا الحد المقبول والسائغ ، شغلتهم صفة هؤلاء الجبارين ، وراحوا يضفون عليهم من الأوصاف ومن تحديد خصائصهم طولا وعرضاً ، وحدود قدراتهم وجبروتهم ، وليتهم قالوا فى هذا كلاماً يصح فى العقل ، أو ليتهم استخرجوا هذا الكلام بدليل أو بسند ، بل راحوا يؤلفون من الخيال ، شيئاً تعجب من وروده على عقل من قرأ القرآن، وتأدب بأدبه ، أورد الجلال السيوطى فى الدر المنثور مانقله عن أبى الحكم عن أبى حمزة : استظل سبعون رجلا من قوم موسى فى خف رجل من العماليق وأخرج البيهقى عن يزيد بن أسلم قال : بلغنى أنه رؤيت ضبعة وأولادها رابضة فى فجاج عين رجل من العماليق ، وما رواه ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : أمر موسى أن يدخل مدينة فيأتوه بخبر القوم ، فدخلوا المدينة فرأوا أمراً عظيما من هيبتهم وجسمهم وعظمهم ، فدخلوا بستاناً لبعضهم ، فجاء صاحب الحائط أى البستانى ليجنى الثمار ، فنظر إلى آثارهم فتبعهم ، فكلما أصاب واحداً منهم أخذه فجعله فى كمه مع الفاكهة ، وذهب إلى ملكهم فنثرهم بين يديه فقال الملك لهم : قد رأيتم شأننا وأمرنا ، اذهبوا وأخبروا صاحبكم » ومعنى هذا الكلام أن العملاق كان يضع الرجال فى كمه حتى أصبح فى كمه الواحد عدد من الرجال ، ثم نثرهم كما تنثر حبات الرمان .

- وقال ابن جرير عن مجاهد : إن عنقود عنب هؤلاء العماليق لا يحمله إلا خمسة أنفس ، بينهم فى خشبة ، ويدخل فى شطر الرمانة إذا نزع حبها

خمسة أنفس أو أربعة[١] .

ومن نماذج هذه الإسرائيليات أيضاً ، قصة عوج بن عنق فقد رووا أن عوج بن عنق كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وأنه كان يمسك الحوت فيشويه فى عين الشمس ، وأن طوفان نوح لم يصل إلى ركبتيه وأنه امتنع عن ركوب السفينة مع نوح ، وأن موسى كان طوله عشرة أذرع ، وعصاه عشرة أذرع ،ووثب فى الهواء عشرة أذرع ، فأصاب كعب عوج فقتله فكان جسراً « لأهل النيل[٢] » .

كما روى ابن جرير الطبرى عن عوج هذا ما نصه: فلقيهم رجل من الجبارين يقال له عوج : فأخذ الاثنى عشر نقيباً (الذين يمثلون أسباط بنى إسرائيل) فجعلهم فى حجزته أى فى رباط سرواله ، فانطلق بهم إلى امرأته ، فقال : انظرى إلى هؤلاء القوم الذين يزعمون أنهم يريدون أن يقاتلونا فطرحهم بين يديها ، فقال : ألا أطحنهم برجلى . فقالت امرأته : بل خل عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا ففعل ذلك[٣] .

وروى ابن جرير أيضاً عن وهب بن منبه وهو يشرح لفظ (طوبى) فى الآية التاسعة والعشرين من سورة الرعد : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب »[٤] .

«إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى : يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعها ، زهرتها رياط وورقها برود ، وقضبانها عنبر ، وبطحاؤها ياقوت ، وترابها كافور ، ووحلها مسك يخرج من أصلها أنهار الخمر ، واللبن والعسل وهى مجلس لأهل الجنة ، فبينما هم فى محلهم إذ أتتهم ملائكة من ربهم يقودون نجباً (إبلا) مزمومة بسلاسل من ذهب وجوهها كالمصابيح حسنا ، وبرها كخز المرعزى من لينه عليها رحال (سروج) ألواحها من ياقوت ، ودفوفها من ذهب وثيابها من سندس ، وإستبرق . . إلخ » .

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) الموضوعات فى كتب التفسير للأستاذ محمد محمد أبو شهبة .

والذى يستوقف النظر حقًّا أن هذه المبالغات التى يأبى كل عقل ، هى وما ورد فى القصص العربية الخيالية من نسج واحد ، فكان هذه فى كتب التفسير وتلك فى القصص شىء واحد ، توزع على مؤلفات المفسرين وحكايات المتخيلين ، ويزيد عجبك حينما ترى أن هذا المنهج من ذكر المستحيلات والخوارق قد أخذ سبيله إلى كتب هى إلى العلم التقريرى المادى أقرب ، ككتب التاريخ ، وتقويم البلدان الذى تواضعنا على تسميته الآن بعلم الجغرافيا . مما يقطع بأن ظاهرة الكلف والغرام ، بحكاية هذه الغرائب ، مردها عقلية واحدة ، هى التى سعت إلى سماعها ، وإثباتها ، فى كل موطن استطاعت الوصول إليه . وسأنقل إليك فيما يلى نماذج مما ورد فى القصص العربى . وفى كتب الرحلات وعجائب البلدان لترى أن كاتبها جميعاً على اختلاف العصور ، وتباين الأوطان ، قد غمس قلبه فى حبر واحد ، وأجراه على ورق واحد .

جاء فى الليلة السادسة والعشرين من ليالى ألف ليلة على لسان السندباد البحرى .

قمت وتمشيت فى الجزيرة يميناً وشمالا ، وأنا لا أستطيع الجلوس فى محل واحد ، ثم دققت النظر فلاح لى فى الجزيرة شبح أبيض عظيم الخلقة فنزلت من فوق الشجرة وقصدته ولم أزل سائراً إلى أن وصلت إليه ، وإذا به قبة كبيرة بيضاء شاهقة العلو كبيرة الدائرة فدنوت منها ، ودرت حولها فلم أجد لها باباً ، ولم أقدر على تسلقها لشدة نعومتها ، فعلمت مكان وقوفى ، ودرت حول القبة أقيس دائرها فإذا هو خمسون خطوة وافية ، وبقيت أفكر فى حيلة لدخولها حتى قرب زوال النهار ، وغروب الشمس ، ثم أظلم الجو فجأة ، واحتجبت الشمس وكان ذلك فى زمن الصيف ، فتعجبت وتأملت ما حولى ، فرأيت طائراً عظيم الخلقة ، كبير الجثة ، عريض الأجنحة طائراً فى الجو وهو الذى حجب عنى الشمس ، ولما زاد عجبى من ذلك الطائر تذكرت حكاية أخبرنى بها قديماً أهل السياحة والمسافرون وهى أن فى بعض

الجزائر طائراً عظيم الخلقة يقال له الرخ يزق أطفاله بالأفيال «أى يغذى الأطفال بالأفيال» فتحققت أن القبة التى رأيتها هى بيضة من بيض الرخ» .

فإذا انتقلنا إلى كتب هى بالعلم أشبه ، ومن تقرير الحقائق أقرب ، (كآثار البلاد) (وعجائب المخلوقات) للقزوينى ، و (معجم البلدان) لياقوت الحموى و (مختصر البلدان) لابن الفقيه (ومروج الذهب) للمسعودى و (نزهة المشتاق) للإدريسى ، و (خريدة العجائب) لابن الوردى و (مختصر العجائب) لابن وصيف شاه . فإننا واجدون فيها مثل هذه المبالغات بنفس الأسلوب ، وأحياناً بنفس الألفاظ .

جاء فى كتاب عجائب الهند، على لسان أبى الحسن محمد بن عمر السيرافى أنه رأى بعمان فى سنة ثلثمائة سمكة وقعت ببعض سواحل عمان فصيدت فشحنت إلى البلد ، فركب أحمد بن هلال الأمير والعسكر معه ، وحضر الناس للنظر إليها ، وكان الفارس يدخل من فكها و يخرج من الجانب الآخر وهو راكب »

« وحدثنى بعض العراقيين أنه رأى باليمن عند بعض إخوانه رأس سمكة قد ذهب لحمه ، وبقى عظمه صحيحاً ، فدخل الرجل من إحدى حدقتيها وخرج من الجانب الآخر ، وهو قائم من غير أن ينحنى » .

وحدث أبو محمد الحسن بن عمر بما يلى أيضاً فى كتب القصص الخيالية :

« حدث أن مركباً خرج من بلاد الهند إلى بعض النواحى فذهب من يد صاحبه بقوة الريح ، فاضطر الربان إلى الرسو بجوار جزيرة صغيرة لا ماء فيها ولا شجر ، وخرجوا إلى البر واشتغلوا بإصلاح المركب ، ثم حملوا من خشبات المركب وبعض خوص وقماش وأوقدوه ، فتحركت الجزيرة بهم ، فأسرعوا وألقوا بأنفسهم إلى الماء ورأوا الجزيرة تغوص تحت سمعهم وبصرهم . . وكانت سلحفاة نائمة على وجه الماء أحست بحر النار فهربت »

فما سر ظاهرة هذه المبالغات ، التى أوردنا صوراً منها ، فى ثلاثة

مواطن : كتب التفسير وكتب العلم وكتب القصص الخيالية ؟

للرد على هذا السؤال يجب أن نستحضر فى الذهن ما قاله ابن خلدون : إن القرآن أنزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه »

وما قاله « ابن قتيبة فى رسالة (المسائل والأجوبة) إن العرب لا تستوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن ، من الغريب والمتشابه ، بل إن بعضها يفضل فى ذلك على بعض ، وما قاله الشيخ الأستاذ محمد محمد أبو شهبة إن المسلمين الأوائل فهموا الكثير من آياته بمقتضى فطرتهم اللغوية وعلم الشريعة رأوا ألا حاجة لنقل كل ما يتعلق بتفسير القرآن عن رسول الله ظناً منهم أن من يأتى بعدهم فهو مثلهم أو يدانيهم » .

وهذه النصوص على اختلاف حدود مدلولها من التعميم والإطلاق ، إلى التحديد والتدقيق ، تدل على أن العربى المسلم الأول ، الذى شهد البعثة ، ووقائعها ، ورأى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وسمعه ، يقرأ القرآن بلسانه ، ويشرحه ، ويجيب على أسئلة السائلين ، وسمع الصحابة يجيبون الناس على ما غمض عليهم ، كما رآهم يتبادلون الرأى ، ويتناقشون . وكان هو على الفطرة العربية ، لا يخالط إلا عرباً ، ولا يسمع إلا عرباً ، ولا شغل يشغله عن الدين وتلقى أحكامه والتفقه فيه ، والعمل به ، والدعوة إليه ، والدفاع عنه ، من مذاهب تفرقت بالناس ، ومصالح توزعتهم ، وأوطان باعدت بينهم ، وأقوام خالطوهم ، بلهجات ورطانات ومذاهب وعقائد ، وأساليب عيش ، وطرائق حياة ، أنقصت من صفاء فطرتهم ، وقللت من سهولة لفظ القرآن. كان العربى المسلم فى العهد الأول ، يجد حاجته من القرآن ، بأقرب سبيل ، فهو يعلم أنه كتاب هداية ، وأن ما فيه من أحكام وأمثال ، ومن قصص وأصول ، غايتها أن تعدل عن الشرك إلى التوحيد الصافى النقى ، ومن غموض فكرة الإله ، إلى وضوح ، أشبه شىء بالشمس فى رائعة النهار . فلا يهمه قط أن يعرف صفة كلب أهل الكهف ولا اسمه أهو قطمير أم غير ذلك ،

ولا يشغله من إرم ذات العماد، مما بنيت ولا كيف بنيت، ولا متى هدمت ولا عدد حجراتها وأبهائها ، ولا مادة بنائها ومما أخذت ، ولم يكن يشوقهم أن يسمعوا شيئاً عن مداخلها ومخارجها ،ولا يهمهم أو يطرفهم أن يقال لهم إنها صنعت من أحجار صيغت من ذهب وفضة مثلا ، فكل هذه أمور سكت عنها القرآن ، وسكت عنه لحكمة ، تتفق مع حكمته وغايته وأسلوبه ومنهجه ، ذلك لأن هذه التفاصيل إن ملأت كتاب الله ، صرفت الأذهان ، والقلوب معاً ، عن حكمة التوحيد ، وعن التهيؤ لفضائل الإسلام وأخلاقه. ولتنافس بعض المسلمين فى حفظ هذه الأرقام والأعداد، وكان القرآن نزل ليعلمهم إياها ، ويفاضل بينهم بقدر حفظهم لها : لا انتفاعهم بها ، وهو أمر ، تنزه عنه كتاب الله العظيم .

ومن هنا نستطيع أن نعرف لماذا ضرب عمر رضى الله عنه امرأ بدرته حينما سأل عن معنى « أبًّا » وقال له : وماذا عليك ألا تعرف ماذا تكون أبًّا . يعنى ماذا عليك ألا تعرف معنى هذا اللفظ إذا عرفت معنى الآية التى ورد فيها هذا اللفظ ، وهى الآية التى يقول فيها الله تعالى : (فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبًّا ، ثم شققنا الأرض شقًّا، فأنبتنا فيها حبًّا ، وعنباً وقضباً ، وزيتوناً ، ونخلا، وحدائق غلباً ، وفاكهة وأبًّا متاعاً لكم ولأنعامكم) فالعربى حينما يسمع هذه الآية ، يعرف فى الحال ، ومن أقرب السبل، أن الله تعالى يعدد لعباده آياته وأفضاله عليهم ، ليزدادوا إيماناً به ، وليزدادوا بعداً عن الشرك، وإدراكاً لفساده وبطلانه . وهذا وحده يكفى فى فهم القرآن والانتفاع به . ومعرفة لفظ واحد فى هذه الآية ، وعدم معرفتها لا يقدم ولا يؤخر.

ولقد نزل القرآن أول ما نزل على العرب وهم أهل بداوة ، وكانت مدنهم الكبرى كمكة ويثرب والطائف ، كالقرى ، وكانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون ، ولذلك كانوا آية فى البساطة ، والبعد عن التكلف والتصنع ،

وجاء دين الإسلام به خصائصهم : البساطة ، والوضوح ، والتيسير ، والاحتفال بالاعتبارات الواقعية والعملية .

ولقد صدق الله العظيم إذ وصف الإسلام بأنه دين الفطرة فى قوله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها) وشرح رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الفطرة بقوله : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء » .

ويعنى عليه الصلاة والسلام ، أن الإنسان يولد سليماً خالياً من العيوب والآفات النفسية ، مستعداً لتلقى الحقائق . والتصديق بها والعمل بمقتضاها ثم يتناوله المجتمع فيلقنه مبادئ ومذاهب ، منها الصالح ، ومنها الفاسد ، وبقدر حظه من هذه المبادئ الصالحة يصلح ، وبقدر نصيبه من المبادئ الفاسدة يفسد . والبهيمة التى هى دون الإنسان استعداداً للتلقى والترقى ، تلد ما تلد ، سليما مستكملا لأعضائه ، ولقدراته . وكما وصف القرآن الكريم ، الإسلام بأنه دين الفطرة ، فقد وصف رسول الله هذا الدين بأنه من غير المتكلفين : (قل ما أسالكم عليه من أجروما أنا من المتكلفين) .

وقد كان تفسير القرآن حقيقاً أن يبقى على بساطة الدين وسماحته الأولى ووضوحه الأصيل ، ولكن الذى حدث أن الناس دخلت فى دين الله أفواجاً وكان أكثر المسلمين من غير العرب ، وكان بالتالى أكثر المفسرين من هذه الشعوب التى دخلت إلى الإسلام ، وهى شعوب لها قدم راسخ فى الحضارة ، وهى حضارات ، تختلف منشأ وطبيعة ، عن بساطة الإسلام واستناده إلى الفطرة ، وبعده عن التكلف ، وخلوه عن التعقيد . لم يعرف هؤلاء المفسرون الكبار ، على رجاحة عقولهم ، وقوة طبعهم ، وواسع علمهم بالقرآن وبالعربية ، وغزير مادتهم ، وتنوع معارفهم ، حملوا معهم من حيث لايدركون ولا يشعرون ، خصائص أقوامهم العقلية ، وتأثروا بحضارة بلادهم وبنى وطنهم ، ونشأوا فى بيئات ليس لها نقاوة البيئة البدوية

العربية بيئة الأوائل السابقين من صحابة رسول الله ، الذى قام هذا الدين على جهادهم وإليك البيان :

ولد أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى واضع تفسير جامع البيان فى تفسير القرآن فى سنة ٢٢٤ هـ فى بلدة (آمل) بطبرستان وتوفى سنة ٣١٠ .

وولد أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابورى صاحب الكشف والبيان فى بلدة (نيسابور) وتوفى سنة ٤٢٧ .

وولد أبو محمد الحسين بن مسعود البغوى فى بغ أو نعو وهى بلدة بين مرو وهرات وتوفى سنة ٥١٠ .

وولد محمود بن عمر بن محمد الزمخشرى ببلدة زمخشر بنواحى خوارزم. وهو صاحب الكشاف عن حقائق التنزيل — وكان ميلاده سنة ٤٧٦هـ ووفاته سنة ٥٣٨ .

وولد فخر الدين محمد بن ضياء الدين عمر الرازى فى الرى عاصمة العراق العجمى وتنقل بين الرى وخراسان وبخارى وكان استقراره بخوارزم ثم استوطن هرات الأفغانية — وكان ميلاده سنة ٥٨٣ وكانت وفاته سنة ٦٠٦ .

وولد ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد بن على البيضاوى فى شيراز بجنوب إيران وتوفى سنة ٦٨٠ هـ .

وولد أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى فى بلدة نسف وهى من بلاد ماوراء النهر، وتوفى سنة ٧١٠ ،وهو صاحب التفسير المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل.

كما ولد عبد الرحمن بن أبى بكر محمد السيوطى صاحب الدر المنثور فى التفسير بالمأثور بسيوط فى صعيد مصر سنة ٨٤٩ وتوفى سنة ٩١١ هـ.

وأنت ترى من هذا البيان أن أكابر المفسرين وعظماءهم فى الأغلب الأعم كانوا من غير العرب ومن كان منهم عربياً حقاً كابن كثير القرشى ، أو محمود بن عبد الله الألوسى العراقى البغدادى ، فقد نجا تفسيره من

الإسرائيليات بل كان حرباً عليها . أما المنحدرون من أصلاب غير عربية ، أو الناشئون فى غير بيئة عربية غلبت عليهم دماؤهم ، أو خصائص الأمم التى نشأوا بين ظهرانيها ، والتى رضعوا لبان ثقافتها .

لقد خلا تاريخ الأدب والفكر العربى ، قبل البعثة الإسلامية وبعدها ، من القصص والأساطير ، وكانت العقيدة ركن الزاوية فى صرح هذا الأدب ، وكان الشعر ديوان العرب ، ومستودع ثقافتهم ، والسبيل لإذاعة مفاخرهم وتسجيل أيامهم وقد بدأت بدعة القص فى آخر عهد عمر رضى الله عنه ، وكان القصاص يجلسون فى المسجد . وصار القص حرفة ، فمنعهم الخليفة من ذلك .

أما القصص الخيالى العربى ، وفى مقدمته كتاب ألف ليلة وليلة ، فالثابت أن أصله فارسى والراجح أن أصله كتاب « هزارا فسانه » ومعناه « ألف خرافة » وقد ذهب إلى ذلك الرأى المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ وكان فى هذا مؤيداً لما قاله محمد بن إسحق المعروف بابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ هـ فى كتابه الفهرست ، وقد أيدت هذين الرأيين بحوث المستشرقين الحديثة كبحوث ، « سلفستر دى ساس » وملر[1] .

وأرجح أن القصص الطويلة التى وضعها العرب كقصة بكر وتغلب ، وقصة شيبان مع كسرى أنوشروان ، متأخرة ، وأنها لم تكن جاهلية ، ولا من إنتاج صدر الإسلام أو عهد الخلفاء الراشدين ، وهى بلاشك ثمرة اختلاط العرب بعد عصر الفتوح العظمى .

وكانت الخطبة ، الوسيلة الأدبية الثقافية عند عرب الجهالة وعرب صدر الإسلام بعد القصيدة ، وفى عهد الأمويين والعباسيين بدأ دور كتابة الرسائل وظهر كتاب عظماء كعبد الحميد ثم ابن المقفع وغيرهما . وقد كان تجميع السنة ، وشرح القرآن بها بداية التأليف ، وقد أعانت على تنشيط التأليف ، والاهتمام بالنثر بعد الشعر ، نشوء الأحزاب السياسية منذ مقتل

---

(١) مقدمة طبعة دار الهلال أغسطس ١٩٥٥ للمرحوم طاهر الطناحى.

عثمان رضى الله عنه، فلما اشتد ساعد تلك الأحزاب وتعددت أسماؤهم وأهدافها ووسائلها، تبنت الفرق والمذاهب ، لتفلسف مناهج هذه الأحزاب السياسية ، وتقيم لها سنداً من القرآن والسنة، وتخلق لها فقهاً ، فقامت الحاجة إلى الاستعانة بالفلسفات الأجنبية من يونانية وفارسية وهندية ، وتوثقت العلاقة بين المفكرين الإسلاميين والمدارس المنبثة فى الشرق العربى فى عواصم الرأى ، والكنائس والأديرة . تأثر المسلمون بكل هذا واندس فى صفوفهم خلال هذه الحركة النشيطة الواسعة عشرات ومئات ممن تزيوا بزى الإسلام ، ومن لهجوا لهجته ، وأتقنوا فقهه ، وأحسنوا تدريب الألسنة على منطقه ومصطلحاته ، فانفتح باب واسع للوضاع يؤلفون الحديث وينسبونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لألف غاية وغاية ، وتسربت الإسرائيليات وكثرت وتضخمت ، وتهيأت لسماعها وقبولها وتصديقها ، أذهان وأسماع بعدت عن عهد الفطرة ، وكل هذا غريب عن الإسلام ، ومجاف لطبيعته ، فقد نهت السنة عن المراء ، ودعى كتاب الله إلى الوحدة : « وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

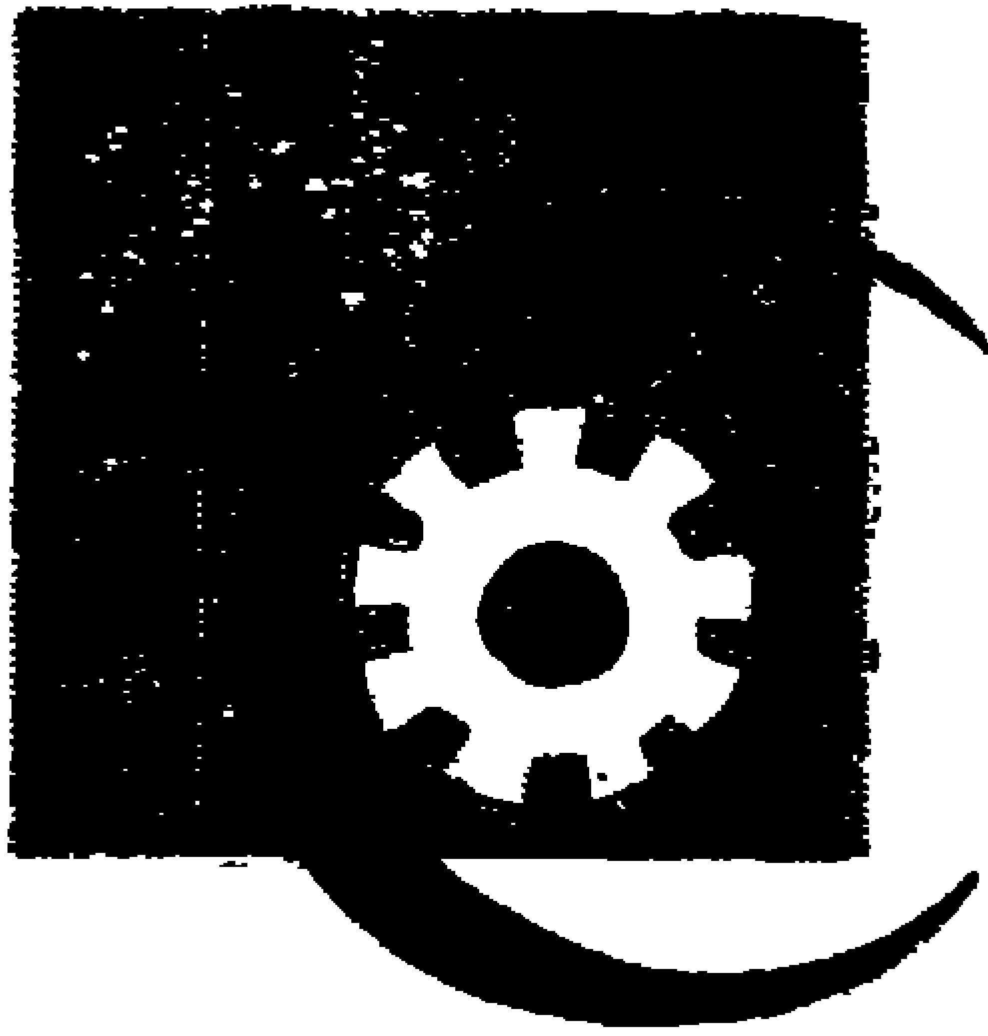
فالقصة والأسطورة ، أسلوبان من أساليب الأدب . لم يعرفهما قبل البعثة المحمدية ولم يشجعهما أدب القرآن ، القائم على التجربة المطلقة فقصصه وأحاديثه وأنباؤه القرآن كلها لا تحفل بالزمان ولا المكان، ولا توضح معالم للشخصية الفردية فى القصة، فلا تذكر الاسم ولا تورد وصفاً لأن الأشخاص ، يمثلون معانى ، وأن القصة كلها ، هى عرض لفكرة ، وبيان لحكمة ودعوة إلى منهج . ولذلك كانت الأسماء فى القرآن جميعاً قليلة غاية القلة ، وهى تتكرر وتتردد بذاتها ، ويجرى نفس المنهج على الأماكن والمدن، فأسلوب القرآن يقول : (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى) فالمدينة يرمز إليها بهذا اللفظ ، والشخص يرمز إليه بلفظ الرجل ، وقد خلا القرآن من أسماء صحابة رسول الله جميعاً رضى الله عنهم ، ولم

يذكر اسمه عليه الصلاة والسلام إلا أربع مرات فى كتاب يضم أكثر من ستة آلاف آية فى مائة وأربعة عشرة سورة .

ولما نشأ الفن التشكيلى الإسلامى ، تأثر بهذا التجريد ، فكان أول مدرسة من مدارس الرسم والحفر التجريدى ، يتخذ وحدته من الحرف أو الزهرة ، وينشئ أشكالا وزخارف ، بلغت القمة ، قوة تعبير ، وصدق أداء .

ولهذا كله كان مستحيلا أن يشرح القرآن الكريم وهذه هى روحه ، وأسلوبه ، وطريقته بهذه القصص المسرفة فى بيان التفاصيل ، ولا تقنع بوصف الرجل أو المرأة أو المكان أو الجيش أو المدينة ، بل لاتزال تصف القامة والهامة ، والزى والملبس ، وعدد الأبهاء ، وصفة القاعات ، وطول الأشجار ، ولون الأزهار ، وهولغو ، لايحقق للإسلام ولا للقرآن ، غرضاً ولا يقوم خلقاً ، ولا يدعو إلى فضيلة ، ولايثبت عقيدة . ولقد طاب لأعداء الإسلام من كل لون ومذهب ، ونحلة وجنس أن يحشوا كتب المسلمين بهذا الهراء ، ثم يعيبون به الإسلام ، ويدللون من وجوده ، على خصائص العقل الإسلامى أو العربى أوكلاهما . والمسلمون والعرب أبرياء من كل هذا .

على أن الذى يدعو إلى الاغتباط حقًّا أن أكثركتب المفسرين المحدثين ولا سيما فى القرنين الأخيرين ، وعلى وجه أخص القرن الحالى منهما ، قد ضربت صفحاً عن هذه الإسرائيليات والموضوعات ولم تأخذ بها ، وإن ذكرتها قرنت ذكرها ، بعدم التصديق بها ، والتنبيه إلى ما فيها من ضعف فى الإسناد ، أونبو عن الثابت فى القرآن والسنة . وهذا توفيق من الله ، يدعو إلى الشكر والحمد ، ولا نجد صعوبة فى النصح فيما يجب أن يتبع عند تعاد طبع الموسوعات الكبرى فى التفسير ، وفيها خير لا ينكر ، وعلم لا يجحد ، وسبق إلى بيان الأصول ، لاينسى ، فكل ما ورد فيها من إسرائيليات يوضع بصورة تلفت النظر إليه ، مع تعليق واضح وصريح وقوى . مبيناً الرأى الصحيح فيها ، بعد اتفاق العلماء على قول شامل فى شأنها .



إنا فتحنا لك

لم يخاطب الله تعالى محمد بن عبدالله ، عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم ، بمثل ماخاطبه به فى سورة وهي ــ الفتح ــ والسورة الثامنة والأربعون ــ على كثرة ما غزا المسلمون ، وعلى كثرة ما عقد لهم بما خاضوه ، من مواقع من نصر . على أنهم فى يوم الواقعة ، التى نزلت فيها سورة الفتح ، لم يستل الرسول عليه السلام ، ولا أحد من صحابته ، ولا أحد من غير المسلمين الذين كانوا معه ، سيفاً ، ولم يضربوا عنقاً ، بل إنهم لم يدخلوا مكة التى قصدوها يومذاك وعادوا من حيث أتوا ؛ وأكثر المسلمين ، يحس أنهم هزموا فى غير قتال ، و باءوا بخيبة عن غير ضعف ولا وهن .

فما هى حكاية ذلك اليوم ؟

نبأ الرسول ، المسلمين ذات صباح ، وهم مجتمعون فى المسجد ، برؤياه الصادقة عليه السلام ، من أن المسلمين ، سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين ، لا يخافون ؛ وتسامع المسلمون بهذا النبأ فى المدينة ، وكان قد انقضى على المهاجرين منهم ست سنوات بعيدين عن مكة ، موطنهم ، ومسقط رءوسهم ، ومرتع شبابهم ، ففرحوا لهذه البشرى ، أعظم الفرح . ولكن الرسول عليه السلام لم يحدثهم عن سبيل دخولهم إلى مكة ، ولا موعده غير أنه لم ينقض طويل وقت حتى

حل شهر ذى القعدة ، فأذن الرسول صلى الله عليه وسلم فى الناس بالحج ، ولم يقنع بدعوة أصحابه من مهاجرين ، وأنصار ، ليأخذوا أهبتهم، لهذا الحج ، بل بعث وفوداً . إلى قبائل غير المسلمين ليحجوا معه إلى بيت الله ، وكان حريصاً على أن يلبى دعوته ، أكبر عدد من غير المسلمين ، كان عليه الصلاة والسلام ، قد عقد عزمه على أن يحج إلى بيت تهفو إليه قلوب المسلمين ، كما تهفو إليه قلوب العرب أجمعين ليكون سفره إلى مكة، بعد غزواته فى أرض بنى النضير وبنى المصطلق وخضده لشوكة اليهود ، وإجلائهم عن بيوتهم ، رحلة سلام ، تظهر لكل العرب ، سواء كانوا فى المدينة أو فى مكة أو فيما حولهما ، أو كانوا فى أعطاف الجزيرة أو أطرافها ، أن الإسلام دين سلام ، وأنه وإن اضطر إلى امتشاق السيف . وضرب الأعناق ، واقتحام الحصون ، وفرض الحصار على المدن والقلاع ، إلا أن غايته تبقى دائماً ، السلام ، يسعى إليه داعياً كما يسعى إليه محارباً .

ومن هنا كانت رحلة العام السادس للهجرة ، رحلة سلام من أولها إلى آخرها ، فلم تكن قط غزوة حرب ، ولاسفرة سياسية . ولم يقصد بها أن يخيف كفار قريش وساده مكة ،ولا أن يقيس قوتهم إلى قوته ، أو أن يناور سياسياً .

لم يخطر ببال رسول الله صلى الله عليه وسلم شىء من هذا ، فالحكم على نتائج رحلته فى ذلك العام ، لا يصح إلا فى ضوء هذا العزم الصريح ، المعلن والمؤكد : عزمه على أداء فريضة الحج ، فى عدد غير قليل من مسلمى المدينة . ومن لبى معهم دعوة الرسول إلى الحج ، فإذا كان شهر ذى القعدة ، خرج الرسول صلى الله عليه وسلم فى يومه الأول ، ومعه ألف وأربعمائة حاج . وساق أمام ركب الحج ، سبعين بدنة ، أى سبعين ناقة ، يضحى بها عند البيت الحرام . . فلما بلغ الركب ، مكاناً يدعى (ذا الحليفة) يقع على بعد ١٠ كيلومترات من المدينة أو يزيد قليلا عقص

الناس الرؤوس ، ولبوا بالعمرة — لم يحمل واحد من هؤلاء جميعاً سيفاً إلا ما يحمله المسافرون ، من سيوف مغمدة فى قرابها ، لاتقاء عوادى الطريق ، وهى سيوف ، لقلتها ، ولتجرد المسافرين ، مما عداها من عدة الحرب ، وأدواتها لا تخيف مدينة كبيرة كمكة — هى من قرى الحجاز « أم القرى » وترامى نبأ هذا الركب إلى أهل مكة ، فقام فى وهمهم ، فى الحال ، أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان غازياً فاتحاً ، ولا يغير فى الأمر ، أن يكون قد عقص رأسه ، وأحرم ، ولا أن يكون أصحابه القادمون معه ، قد أغمدوا سيوفهم فى الأغماد ، ولم يحملوا سواها من أسلحة القتال ، فقد يكون هذا كله ، خدعة متقنة من محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى عرفوه مقاتلا واسع الحيلة ، يفاجىء العرب فى كل قتال معهم ، بالجديد من أساليب الحرب فكم أتاهم من مواقع لا يحسبون أن الشر يأتيهم منها ، وكم طالعهم بالغريب من فنون القتال ، وليس العهد بالخندق ببعيد ، الذى رد الأحزاب على أعقابها ، مهزومة ، وكانت تحسب أن القضاء على المسلمين فى المدينة قد بات وشيكاً .

ولكن إصدار القرار من جانب قريش ، فى ذلك اليوم ، لم يكن هيناً ، فقد كان هناك احتمال قوى ، فى أن المسلمين ، وعلى رأسهم نبيهم الكريم ، ومن جاء معهم من العرب ، صادقو النية فى أداء فريضة يقدسها العرب جميعاً ، فإن بدءوهم بالحرب ، أو ردوهم بالعنف ، وأقفلوا فى وجههم باب مكة ، وصدوهم عن البيت الحرام لم ينج زعماء قريش من سوء القالة بين العرب ، وبدا محمد صلى الله عليه وسلم والمسلمون أوضح حجة ، وأسلم طريقة ، وبدا خصومهم متجنين تجنياً لا يقبل عذراً ولا ينفع فيه دفاع .

ولما كانت قريش قد رجحت كفة الشر ، فقد عقدت لخالد الوليد ، وعكرمة بن أبى جهل لواء قيادة جيش ، وتقدم هذا الجيش حتى بلغ موقعاً خارج مكة ، اسمه (ذو طوى) .

ولكن هذا كله لم يثن عزم الرسول صلى الله عليه وسلم عن أن يواصل سفره إلى البيت الحرام ، فقد كانت رحلته رحلة سلام ، والسلام كالحرب ، كلاهما فى حاجة إلى العزم الثابت ، والجأش الرابط . ليصل إلى غايته ، بل إن السلام فى حاجة إلى تحمل أذى ، وضبط نفس أكثر مما تحتاج الحرب . فالحرب بطبيعتها تدعو إلى تجمع القوى ، والاستهانة بالخطر . لما تثيره فى نفوس المقاتلين ، من الرغبة فى النصر ، وما يبعثه العدوان من الحماسة فى الأخذ بالثأر . ولقى الرسول صلى الله عليه وسلم فى مسيرته رجلا من بنى كعب ، يدعى « بشر بن سفيان الكعبى » أنبأه بأن أهل مكة قد لبسوا جلود النمور ، استعداداً للقتال ، وأن خالد بن الوليد قدم إلى موقع اسمه (كراع الغميم) على رأس مائتى فارس .

هنا قال الرسول : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ، ولو واصل الرسول صلى الله عليه وسلم مسيرته إلى مكة ، لما انتظر خالد بن الوليد حتى يتبين صدق نية الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى القدوم من أجل الحج ، وربما طاش سهم حميت له الدماء فى العروق فوقع القتال ، وضاع على رسول الله عليه السلام ، غرضه من هذه الرحلة ، التى خلت من كل خاطرة من خواطر الحرب ، والتى بعدت عن كل مصلحة من مصالح الدنيا . وأجاب رجل دعوة الرسول ، فخرج بالمسلمين وأصحابهم إلى طريق وعرة المسالك ، مضنية الشعاب ، حتى انتهت إلى سهل فى آخر الوادى ، فانعطفوا إلى اليمين ، حتى بلغوا ما يسمى (ثنية المرار) حيث انضووا إلى موقع اسمه (الحديبية) يقع فى أسفل مكة ولعل أحداً قبل هذا اليوم ، لم يسمع بهذا الاسم ، ولم يعرف عنه شيئاً ، فقد كان موقعاً مجدباً لا ماء فيه . ولذلك قال له بعض أصحابه يا رسول الله ، ليس بهذا الوادى ماء ، فأخرج عليه الصلاة والسلام سهماً من كنانته أعطاه إلى « ناجية بن جندب الأسلمى » وكان قائد البدن ، أى سائق الإبل التى كانت تسبق الركب ، والتى

نذرت للتضحية ، فغرز السهم فى قليب — أى بئر جاف . فجاش بالماء : فشرب الجيش كله ، بعد طول نصب ومشقة عطش . وهناك قال الرسول : « ما تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة رحم إلا أعطيتهم إياها » .

وقد كان لقريش مندوحة عن التشكك فى نوايا الرسول صلى الله عليه وسلم : فإن الموقع الذى نزل به مع أصحابه موقع الوصول إليه دون تحمل مشقة ، ليس بعدها مشقة ، وهو موقع لا ماء فيه ، ولا ينزل به جيش يعتزم الحرب : وهو فى سهل يجعله تحت رحمة فرسان مكة وسهامهم ونبالهم ، ولكن الذى مال بقريش إلى التوجس والاحتياط . أنها لم تكن لتقبل أن يدخل محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، مكة ، ولو لم تكن لديه ولديهم نية غزو أو قتال : ذلك أن يدخل المسلمون مكة ، ويؤدوا الفريضة فى الموعد الذى يختارونه وبغير علم سابق ولا رضا من قريش يسقط هيبة قريش ، ويعلن للعرب جميعا . أن المسلمين باتوا من القوة بحيث يستطيعون أن يدخلوا مكة ، حينما ينوون وأن قريشاً لا قبل لها بردهم . فدخول المسلمين مكة مسالمين ، أو دخولهم غازين أمران أحلاهما مر . وانتهى زعماء قريش ، بعد طول المداولة ، إلى أن توفد رجلا يتبين لها ، أولا . قوة محمد عليه الصلاة والسلام ، وحقيقة نيته ثانياً ، وإمكان رده عن إنفاذ هذه النية ، هذا العام ثالثا . لو كانت نيته قد انعقدت على الحج مسالماً ، ظاهراً وباطناً .

وكان أول رسل قريش ، هو « بديل بن ورقاء » ومعه رجال من قبيلة خزاعة ، فسأل الرسول ، عما جاء به إلى مكة ، ولم يلبث بديل ومن معه من الرجال أن تبينوا أن الرسول ، لا يضمر شراً ، ولا ينوى حرباً فعادوا إلى أهلهم ، يفضون إليهم بما رأوا ولعل الرجل قد تأثر بسماحة الرسول ، ولطف حديثه ، فلم يقنع بأن يؤكد لقريش بأن محمداً لا يعزم قتالا ، بل نصح لهم بأن يخلوا بينه وبين البيت الحرام ، ليحسم الشر من

قريب ولتتصرف قريش إلى أعما لها كالعهد بها ، ولم يكن بالأمر الهين على قريش التي عاشت تسعة عشر عاماً تقاتل محمداً ، وتنسب إليه أقبح الصفات ، وأسوأ النوايا ، وتحرض عليه العرب ، وتجيش له الجيوش ، وتحاول أن تقتحم عليه داره فى المدينة ، كان شاقاً على قريش هذه أن تسلك معه مسلك المسالمة لأول نصيحة تأتيها من رجل من رجالها . لتفتح له أبواب المدينة العتيقة ، يدخل إليها ، ومعه البدن ، ومعه رجال من قبائل لم تدخل فى الإسلام ، فيكون للإسلام من وراء ذلك ، كسب أدبى ، دون كسب المعارك . إذ أن أول معانى هذا الدخول السلمى ، هو أن قريشاً ، رضيت أن تخاطبه مخاطبة الند ، كما أن هذا الدخول إعلان لكل العرب ، أن محمداً يتوسل باللين والمسالمة إلى غاياته . وأنه ليس رجل حرب ، وأنه لا يستأثر برحلة الحج وحده ، بل هو يدعو العرب من غير المسلمين ، ليشاركوه فى هذه الرحلة ، وأنهم لبوا دعوته ، وارتضوا صحبته وهذه كلها معالم سلم ، تعلى من شأن محمد ، ومن شأن المسلمين ، ومن شأن الإسلام . ومن هنا كان رفضهم الحازم ، لنصيحة رسولهم « بديل » . ورأت قريش أن توفد رسولا آخر ، توسمت فيه الصلابة . والميل إلى القتال ، هو « الحليس » سيد الأحابيش ، وهم حى من العرب اشتهر بالرماية ، وذهب «الحليس» . وقد اتعظ بما كان من سلفه فى السفارة ، وبهذا كان أميل إلى التشدد ، وافتراض الشر فى المسلمين ، وهكذا وهو فى طريقه ، رأى البدن التى ساقها المسلمون فى مقدمة ركبهم ليضحوا بها ، وفاء بما فرضه الله عليهم وقياماً بمناسك الحج ، فتأثر بمرآها ، وكانت هذه الإبل قد تآكلت أوبارها ، من وعثاء الطريق ، ومن قلة ما أكلت وما شربت فى واد ظاهر الجدب والفقر . وعاد من حيث أتى ولم يخاطب محمداً صلى الله عليه وسلم ، ولا أحداً بين أصحابه ، ودعا قريشاً بمثل ما دعاهم سلفه ، دعاهم إلى التخلية بين محمد صلى الله عليه وسلم والكعبة ، فوقع كلامه من نفوسهم أسوأ موقع ، فقد ظنوا أنهم باختيارهم

رجل حرب ، لا يخشى شأناً من شئون السياسة ، ولا يستجيب للفظ الرقيق ، ولا للمظهر اللين ، قد تجنبوا أن يسمعوا نصيحة كنصيحة «البديل» ، تدعو إلى الجنوح إلى السلام ، فما كادوا يسمعون كلامه ، حتى ثاروا فى وجهه وقالوا له : اجلس ، فإنما أنت أعرابى لا علم لك » يعنى أنك رجل غفلة : لا تعرف أمور الدنيا ، وتخدع بظاهرها ، وغضب الرجل ، فما عرض على قريش سفارته ، وإنما هم الذين اختاروه ، وقد نصحهم بما رأى وأخلص لهم النصح ، فسبوه ، وعابوه ، فكاد يحل حلفاً كان يربطه بقريش ، لولا أنهم استرضوه ، وأحسنوا له الاعتذار .

وبدا لهم أن خير من يسفر بينهم وبين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، هو حكيم من حكمائهم ، عرف بنفاذ البصيرة ، ورصانة الحكم ، فوقع اختيارهم على « عروة بن مسعود الثقفى » وقد بدت حكمة عروة ، لأول وهلة ، فقد اتعظ بما أصاب سلفيه « بديلا » و« الحليس » ، واعتذر عن النهوض بتبعات السفارة ، ولكنهم ألحوا ، وأطالوا الإلحاح فقبل ، وقد حسب أن الله منحه من حلاوة الكلام ، وحسن المدخل إلى النفوس ما يعينه على إقناع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعودة من حيث أتى فقال للرسول عليه الصلاة والسلام : إن مكة بيضته ، وإنه وإن يفضضها على أهله المقيمين بها ، بمن جمع من أوشاب الناس ثم انصرف هؤلاء الأوشاب عنه كان العار الخالد لقريش عاراً لا يرضاه محمد . وإن اتصلت الحرب بينه وبينها ما اتصلت .

وصاح أبو بكر غضباً ، لما قاله عروة من انفضاض الناس من حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانصرافهم عنه . فكان ما ظنه عروة أسلوباً مقنعاً حسن الواقع فى النفس ، أسلوباً منكراً تعزف عنه المشاعر ، ويغضب له الحر الوفى ولعل ، عروة كان مثلا : للقديم الذى كانت تمثله قريش ، والذى جاء الإسلام ليزيله ، فقد كان معتداً بمكانته بين قومه ، وعلو كعبه ، وكان لا ينظر إلى رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، إلا أنه زعيم جماعة من أو شاب العرب ، ليس فيهم كبير من كبراء العرب مثله ، أو مثل أبى سفيان أو الوليد بن المغيرة . فجرؤ على أن يمد يده إلى لحية الرسول وهو يحدثه . استخفافاً أو تلطفاً كما تشاء الأمر الذى لم يكن ليجرؤ على إتيان مثله مع زعيم قبيلة يحترمه ويوقره .

ورسول الله . صلى الله عليه وسلم على طول صبره ، وسعة صدره وجميل أناته وحلمه ، لا يسكت على الإهانة ، ولكنه يومذاك ، سكت ولم يصد يد عروة ، بما تستحقه من الغلظة والعنف ، فقد كان معتزماً أن تحس قريش ، بكل وسيلة ، وعن كل سبيل ، أن سفرته إلى مكة ، ذلك العام ، كانت سفرة سلام ودين وتعبد ، وأن الكفار ، لن ينجحوا فى إثارة غضبه ، ولا إفساد غرضه ، ولكن كان من وراء الرسول شاب هو المغيرة ابن شعبه ، وكان يحمل عصاه ؛ فكلما مد عروة يده إلى لحية الرسول ؛ ضربه المغيرة عليها ، وقد يخفى عليك ما انطوى عليه هذا الموقف من معنى . إذا لم تكن تعلم أنه كان لعروة فى عنق « المغيرة » أياد لا تنسى فقد دفع عنه قبل الإسلام الدية ثلاث عشرة مرة عن قتلى صرعهم المغيرة . ولكن الإسلام يجب ما سبقه ، وقد دعانا القرآن فى غير موضع منه . ألا نتخذ من الذين كفروا من دون المؤمنين أولياء ، بل إنه خاطب المؤمنين بقوله تعالى : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله ، فتربصوا ، حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين) .

وقد أحس عروة ، بغضبة أبى بكر ، وبعصا المغيرة ، فى نفسه وبدنه معاً ، فكبر مقام الرسول ، ومقام المسلمين فى عينه فعرف سوء تقديره ؛ إذ علمهم من أو شاب الناس ، وأنهم موشكون على الانفضاض من حوله ، فعاد إلى قريش ، لا لينصحهم بالتخلية بين محمد وأصحابه وبين البيت

الحرام ؛ بل قال لهم : يا معشر قريش إنى جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وإنى والله ما رأيت ملكاً فى قوم قط ، مثل محمد فى أصحابه ، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه ، وإنهم لن يسلموه لشىء أبداً ، فروا رأيكم ، أى فقرروا قراركم .

لقد نجحت إذن رحلة الحج ، رحلة السلام ، رحلة التعبد الخالص لله . وأتت أكلها ؛ فقريش التى كانت تود الحرب ، لأهون سبب ، والتى كانت تتذرع إليه بأوهى الذرائع ، لم تستطع أن تمتشق حساماً ، ولا أن تجرح صدر الرسول صلى الله عليه وسلم ، بشىء من حماقاتها وسوء ظنها . فقد وفى الرسول ، للغرض الذى جاء من أجله ، والتزمه ، ولم يحد عنه قيد أنملة . فأربك ذلك قريشاً كما رأينا ، والرسل الثلاثة الذين أوفدتهم إلى معسكر المسلمين ، بيّن الدلالة ، على مدى ما وقعت فيه قريش من حيرة . بعثت رجلا من رجالها . ورجل حرب من حلفائها ، وزعيماً من زعمائها ، وكان كل منهم يمثل طرازاً من الرجال ، فعادوا جميعاً برأى واحد ، وكان كل منهم يضيف إلى صورة محمد وأصحابه ، جانباً ، يزيد هذه الصورة إشراقاً وسمواً . فهذا رجل يقول إن الرسول عليه الصلاة والسلام لا ينوى حرباً ، وهذا حليف يحسن الحرب ، يتأثر بمنظر الأضاحى تسبق الموكب ، وتعلن نية الحج ، فيقفل راجعاً من حيث أتى ، وذاك رجل حكمة وتجربة ، وزعيم صاحب مكانة وسطوة ، يزن الأمور بخير الموازين ، يقول كلاماً بليغاً ، جمع فأوعى . إذن على قريش أن تنزل راغمة على ما أراده الرسول . جاء لغير حرب ولا قتال ، فلتعامله معاملة الحاج الراغب فى أداء الفريضة ، وإن كرهت أن تعلن أن محمداً عليه الصلاة والسلام عرض نفسه للأذى وللخطر ، وعرض أصحابه للهلاك ، ليؤدى فرض ربه : لهذا ولغيره خاطب الله سبحانه وتعالى الرسول ، فى هذا الموضع وحده بقوله تعالى : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) .

ولم يقنع رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا ، وهذا ليس بالقليل . فقد أوفد صلى الله عليه وسلم ، رسولا من عنده ، يبلغهم ، رسلهم ، مؤملا في أن يكون في بعث رسول عن المسلمين ، بيانا أبلغ عما بلغهم نيته وجنوحه للسلم فأخذت قريش الرجل ، وعقرت جمله ، وهمت به تقتله ، لولا الأحابيش الذين يترعمهم الحليس ، فقد خلوا سبيله . بل إن القرطبي ، يذكر في شرح سورة الفتح عن أنس : أن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على النبي صلى الله عليه وسلم من جبل التنعيم ، متسلحين يريدون أخذ المسلمين عن غرة فأخذوهم سلما فاستحيوهم — أي لم يقتلوهم — وقال عبد الله بن فضل المزني : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم بالحديبية فبينما نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح فثاروا في وجوهنا ، فقال رسول الله : « هل جئتم في عهد أحد ، أي جعل لكم أحد أمانا » فقالوا لا . فخلى سبيلهم .

وعلى الرغم مما أصاب رسول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . فقد أراد أن يوفد رجلا من كبار صحابته ، فدعا إليه عمر بن الخطاب ليقوم بالسفارة بين المسلمين وقريش ، فاعتذر إذ لم يكن في مكة أحد من قبيلته ، قبيلة بني عدى ، وقريش لا تنسى لعمر غلظته عليها ، وعداوته لها ، واقترح أن يحل محله عثمان بن عفان ، ومضى عثمان بن عفان ، غير هياب ، على سوء ما بدا من قريش ، ومن تلمسها لأسباب القتال ، وعلى طول ما أظهره المسلمون من الصبر والحلم ، وطالت المفاوضات بين عثمان رضي الله عنه ، وبين قريش ، وبلغت المسلمين إشاعة مؤداها ، أن قريشا أصابت عثمان رضي الله عنه بأذى ، هنا فاض كأس الغضب عند المسلمين ، وأحس رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قريشا بنقضها حرمة شهر ذي القعدة . والبيت الحرام معا ، قد أعلنت أنها رفضت كل ما توسل به من إعلان حرصه على السلام ، والتزامه به ووفائه له ، فقال : « لا نبرح حتى نناجز القوم » ودعا أصحابه إلى وقفة تحت

شجرة فى هذا الوادى ، فبايعوه على الموت ، أو على ألا يفروا ، أو على الأمرين معاً . وفى هذه الواقعة ، وما جرى فيها من مبايعة تحت الشجرة نزلت الآية الثامنة عشرة من سورة الفتح (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) ، فلما أتم المسلمون البيعة ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم بيده اليمنى على يده اليسرى ، رمزاً على مبايعة عثمان بن عفان الغائب ، عن بيعة الرضوان لسفارته لدى قريش . وسرى عن المسلمين الذين كانوا يتحرقون شوقاً للقتال ، والاستشهاد فى سبيل الله ، بعد أن أطال الرسول صبره على المسلمين ، وكشف لهم عن نيته وقصده ، بكل أسلوب ووسيلة . ولكن عثمان بن عفان لم يلبث حتى عاد إلى معسكر المسلمين ، بعد أن كان الظن فى قتله ، سبباً فى وقوع بيعة الرضوان ، لتكون معلماً من معالم تاريخ الدعوة الإسلامية : معلما دالا على قوة الترابط بين المسلمين ، وحرصهم على أن يكون للغائب منهم ، مثلما للحاضر من الفضل ، والاعتبار . وأعلن عثمان للرسول صلى الله عليه وسلم أن قريشاً ، أيقنت أن المسلمين جاءوا حاجين ، وأنهم لا يطوون الصدور على الغدر ، ولا يبغون من رحلتهم إلا القيام بالفريضة ، وأرسلت قريش رسولها ليفاوض النبى عليه الصلاة والسلام ، ويعقد معه عهداً على ألا يكون فى هذا العهد ، أن يدخل هو ومن معه مكة ذلك العام ، حتى لا يقول العرب إن المسلمين دخلوها عنوة ، إذ علم كل من فى الجزيرة أن قريشاً صدت محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ولبست من أجل قتالهم جلد النمور ، وعقدت لواء الجيش لخالد بن الوليد ولعكرمة ، فإن أجازت بعد ذلك مرور المسلمين إلى البيت الحرام ، فإنها الهزيمة بعد المفاوضة .

وجلس الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، يملى على ابن عمه على بن أبى طالب شروط الصلح فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل بن عمرو مندوب قريش : أمسك ، فما ندرى ، بسم الله الرحمن الرحيم ، ولكن اكتب

ما نعرف : باسمك اللهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب من محمد رسول الله . فقال سهيل : أمسك . لو علمنا أنك رسوله لا تبعناك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اكتب من محمد بن عبد الله فاشترطوا على النبي صلى الله عليه وسلم : أن من جاء منكم لم نرده عليكم ، ومن جاء منا رددتموه علينا ، فقال المسلمون : يا رسول الله أنكتب هذا ؟ قال : « نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم ، فسيجعل الله له مخرجا ».

وروى البراء بن عازب ، كما يقول القرطبي كتب على رضى الله عنه الصلح بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين يوم الحديبية فكتب هذا ما كاتب عليه محمد رسول الله ، فقالوا (أى المشركون) لا تكتب رسوالله ، فلو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك . فقال النبى صلى الله عليه وسلم لعلى : « امحه » فقال على فما أنا بالذى أمحاه (أى امحوه) فمحاه النبي صلى الله عليه وسلم بيده » .

هنالك بلغ الضيق بالمسلمين ، أقصى الغاية، وهنا كان عمر بن الخطاب هو أسرع الناس إلى المعارضة حين يرى ما لايرضى المسلمين أو ما غم عليهم ، وأعلاهم صوتاً فى هذه المواطن ، فقد أتى رضى اللهعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : ألسنا على حق وهم على باطل . قال : بلى ! قال عمر : أليس قتلانا فى الجنة ، وقتلاهم فى النار ، قال بلى : قال ففيم نعطى الدنية فى ديننا ونرجع ، ولما يحكم الله بيننا وبينهم فقال : « يا بن الخطاب إنى رسول الله ، ولن يضيعنى الله أبداً » ، قال فانطلق عمر ، فلم يصبر متغيظاً ، فأتى أبا بكر فأعاد عليه ، ما قاله للرسول فقال له — فى رواية — إنه رسول الله ولن يضيعه أبداً ، وفى رواية ثانية قال لعمر : ياعمر الزم غرزك — أى الزم حدك ، ولا تتجاوزه ، فإنى أشهد أنه رسول الله ، فعاجله عمر بقوله : وأنا أشهد أنه رسول الله .

وكأن الله أراد أن يمتحن المسلمين والرسول معهم ، فى هذا الموقف ، امتحاناً عسيراً ، إذ ما كاد الصلح يمضى حتى جاء إلى معسكر المسلمين فى الحديبية ، أبو جندل بن سهيل بن عمرو ، أى ابن سفير قريش ومندوبها فى المفاوضة مع الرسول ، فضربه أبوه على وجهه وأخذ بتلابيبه وجعل يجره ليرده إلى قريش ، والولد يصيح : يا معشر المسلمين ، أرد إلى المشركين يفتنوننى فى دينى !

ولك أن تتصور كيف كانت هذه الصيحة شديدة الوقع على نفوس المسلمين ، وكيف كان ضبطهم لنفسهم ، شاقاً عسيراً ، كلفهم ، يومذاك فوق ما يطيقون ، وجعلهم أكثر عجزا عن تبين الحكمة من عقد هذا الصلح ، ومن الرضاء بهذا الموقف ، بغير قتال ، وبغير هزيمة ، ولكن الرسول بقى والسكينة تملأ نفسه ، وإن كان يحس أعظم الإحساس ، بما يخالج نفوس أصحابه من القلق والاضطراب وعدم الرضا ، ثم قام فحلق شعره ، حلقه له خراش بن أمية بن أبى العيص الخزاعى . وأمر رسول الله من معه أن ينحروا ذبائحهم ، ويتحللوا من قيود الحج ، فلبى أمره مسلمون فحلقوا ، ثم لبى وراءهم آخرون ترددوا ، فى إجابة الأمر ، ألما من شروط الصلح ، وكرهاً للعودة إلى المدينة دون حج ، مما قد يغرى أعداء المسلمين ، واليهود على رأسهم ، بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحاب محمد رضى الله عنهم . ولكنهم تحللوا من الحج ، ونحروا ، اشترك كل سبعة من المسلمين فى ناقة واحدة .

وبقى المسلمون فى اضطرابهم ، ومن آيات هذا الاضطراب ما رواه موسى بن عقبة : قال رجل عند منصرفهم من الحديبية . ما هذا بفتح ، لقد صدونا عن البيت فقال النبى صلى الله عليه وسلم بل هو أعظم الفتوح ، لقد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ، ويسألوكم القضية ، ويرغبوا إليكم فى الأمان ، وقد رأوا منكم ما كرهوا ، وقال مجمع بن جارية : شهدنا الحديبية ، مع النبى صلى الله عليه وسلم ،

فلما انصرفنا عنها إذ الناس يهزون الأباعر (أى يهرعون) فقال بعض الناس لبعض : ما بال الناس : قالوا : أوحى الله إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : فخرجنا نوجف (أى مسرعين) فوجدنا النبى صلى الله عليه وسلم عند كراع الغميم (موقع بين مكة والمدينة) ؛ فلما اجتمع الناس قرأ النبى صلى الله عليه وسلم « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » ، فقال عمر بن الخطاب : أو فتح هو يا رسول الله . قال : « نعم ! والذى نفسى بيده إنه لفتح » .

ويقول الزهرى : لقد كان الحديبية أعظم الفتوح ، وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم ، جاء إليها فى ألف وأربعمائة ، فلما وقع الصلح مشى الناس بعضهم فى بعض أى اختلط المسلمون بالمشركين ؛ وعلموا وسمعوا عن الله ، فما أراد أحد الإسلام إلا تمكن منه ، فما مضت تلك السنتان إلا والمسلمون قد جاءوا فى عشرة آلاف . وقال الزهرى مرة أخرى : ما فتح الله فى الإسلام فتحاً كان أعظم من صلح الحديبية ، لأنه إنما كان القتال فلا تلتقى الناس ، فلما كانت الهدنة . وضعت الحرب أوزارها ، وأمن الناس بعضهم بعضاً ، فالتقوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة . فلم يعلم أحد يعقل شيئاً بالإسلام إلا دخل فيه . فقد دخل فى تينك السنتين فى الإسلام ، مثل ما كان فى الإسلام قبل ذلك وأكثر . يدلك على ذلك أنهم كانوا سنة ست يوم الحديبية ألفا وأربعمائة ، وكانوا بعد الحديبية سنة ثمان فى عشرة آلاف .

أنزل الله تعالى ، على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، فى موقع بين مكة والمدينة . فى العام السادس للهجرة ، وبعد صلح الحديبية الذى عاد منه المسلمون بلا حج ولا غزو ولا قتال قوله تعالى : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً) .

وأكثر المفسرين على أن هذا الفتح المبين ، هو صلح الحديبية وإن كان بعضهم يقول : إن الفتح المقصود فى هذه الآية هو فتح مكة الذى تم للمسلمين فى عامهم الثامن للهجرة ، وآخرون يقولون بل هو فتح خيبر معقل اليهود الأخير ، الذى تم بعده إجلاؤهم عن أرض الحجاز ، وأرض العرب فى الجزيرة قاطبة .

ولكن الصحيح ، هو أنه صلح الحديبية ، فقد نزل القرآن على أثر هذا الصلح ، ورداً لمن قال من المسلمين إنه ليس فتحاً ، وبعد أن اضطرب المسلمون وتلكأوا فى تلبية أمر الرسول بالتحلل من الحج ، ونحر الذبائح .

وصلح الحديبية ، هو معلم من أعظم معالم تاريخ العقيدة الإسلامية ، ويوم من أكبر أيام تاريخ المسلمين ، ومعانيه كثيرة وجليلة ، والحديث فيها ذو سعة . ويزيد من خطر هذا اليوم على مر الحقب أنه يتيح لبعض المسلمين من ضعاف النفوس ، كلما قارفوا فى حق بلادهم تفريطاً ، أو بدا لهم أن يدعوا إلى المنهج السهل ، فى الذود عن حياض الدين أو العقيدة ، حجة يشهرونها ، وهم يقولون ألم يفعل الرسول كذا وكذا فى يوم الحديبية ، وقبل أن يخاطب بغير صفته ، وأن يمحوا من صحيفة العهد « بسم الرحمن الرحيم » ، ويستبدل به مصطلح المشركين « باسمك اللهم » ولم يقبل أن يرد إلى الكفار ، من لجأ منهم إلى المسلمين ، وألا يرد المشركون من هرب منهم بدينه إلى المسلمين . وهذه كلها أوهام لا تقوم على قدم فصلح الحديبية كان حقاً أعظم الفتوح الإسلامية ، وإليك البيان ، وبالله التوفيق .

على من يريد أن يزن نتائج صلح الحديبية ، وأن يعرف هل كان المسلمون من أصحاب الرسول ، محقين ، فيما ساورهم من حزن وضيق ، عندما قفلوا إلى بيوتهم فى المدينة ، دون أن يدخلوا مكة ، ويطوفوا حول الكعبة ، ويؤدوا الفريضة — عليه أن يحضر أولا ، أن

الرسول عليه السلام ، منذ اللحظة الأولى ، كما قررنا ، كان متوياً أن يحج ، وأنه أحرم بالحج ، عند (ذى الحليفة) ، وأنه دعا غير المسلمين من القبائل المجاورة للمدينة ، أن يشتركوا مع المسلمين فى سفرة الحج . فالنبي عليه السلام ، لم يعتزم وقتذاك ، أن يقوم بغزوة حرب ، ولا بسفرة سياسة ، فهو لم ينو قتال قريش ، وكما لم ينو أن يناور قريشاً ويداورها : ليحقق غرضاً من أغراض الدنيا وغاية من غايات السياسة . فانتقاله إلى مكة ، كان عبادة محضة . وإذا كان الله ، قد علم المسلمين بعد ذلك ، أن من فرض على نفسه الحج ، عليه أن يعلم أن الحج ليس فيه رفث ولا فسوق ولا جدال ، وإذا كان الله قد اختار محمداً ليعلم العرب أولا ، ويعلم معهم العالم كافة . فواجبه أن يضرب المثل الأعلى : فى احترام آداب الحج ، وأخلاقه ، فنجاح هذه الرحلة الفريدة ، فى فى تاريخ العقائد والأديان ، وفى تاريخ حركات البعث الروحى : والنهضات السياسية معاً ، يقاس بمقدار البعد فيها ، عن العنف والتزام القائمين بها ، سعة الصدر ، الحلم ، وطول الأناة ، ومقابلة الأذى بالصفح ، واللجاجة فى الخصوم ، واللدد فى العداوة ، بالمغفرة والسماحة. ولقد تم ذلك كله على أحسن وجه ، وأجمل صورة . تحرش المشركون بالمسلمين ، وقتلوا منهم ، وقد مر بناشىء من هذا نضيف إلى ما رواه قتادة قال : ذكر لنا أن رجلا من أصحاب رسول الله يقال له زنيم ، الثنية من الحديبية ، أى اصعد إلى المنحنى من الحديبية ، فرماه المشركون بسهم فقتلوه ، فبعث النبى صلى الله عليه وسلم إلى من قتلوه يقول : هل لكم على ذمة ؟ يعنى بينى وبينكم عهد يحميكم من العقاب ، قالوا : لا فأرسلهم ، أى أطلق سراحهم .

وقال ابن الأكوع : كانوا فى أمر الصلح ، إذ أقبل أبو سفيان . فإذا الوادى يسير بالرجال والسلاح : قال : فجئت بستة من المشركين أسوقهم متسلحين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، فأتيت بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عمر فى الطريق : قال يا رسول الله

نأتى قوماً حرباً وليس معنا سلاح ولا كراع ، وأطلق الرسول سراح هؤلاء كذلك . فالمسلمون ، ألفوا ألا يخرجوا من عاصمتهم المدينة إلا مسلحين : مستعدين للقاء الأعداء أحسن الاستعداد ، سلاحاً ، وعدة وتدريباً وخطة ، ولم يكن ينالهم أذى من المشركين إلا ردوه . فكان غريباً عندهم ، أن يقتل منهم قتيل ، ويخرج عليهم الفرسان ، ويضبط المتسللون ؛ فلا يؤسرون ، ولا يقتلون ، وإنما ترد لهم حريتهم .

كل ذلك : يتفق مع خلق الحاج ، وأسلوب المتعبد ويؤكد أن المسلمين ، ينظرون إلى منسك الحج ، كوسيلة لتوحيد البشر ، ونزع الأحقاد من نفوسهم ، وتأكيد إنسانيتهم ، وتلقينهم دروساً فى التسامح وضبط النفس .

على أن ما يتبادر إلى الذهن ، فى الوهلة الأولى ، من أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، نزل للمشركين عن الكثير ، فليس صحيحاً على الإطلاق : الحقيقة أن رسول الله علم المشركين ، والمسلمين درساً فى ضبط النفس . والسماحة والصبر ، فقد صبر على شكوكهم فى نواياه ، كما صبر على لجاجتهم ومطاولتهم ومحاورتهم فيما سبق المفاوضة وخلال كتابة العهد ، كما احتمل فظاظة مندوبهم عروة بن مسعود ، وقلة كياسة سهيل بن عمرو ، ولكنه لم يعطهم شيئاً . وقد كان على أبواب مدينتهم ، وهم أبعد ما يكونون عن أرض المسلمين فلم يعطهم شبراً من أرض ، ولا عقالا لبعير ، ولم يجاملهم فى صغيرة أو كبيرة على حساب الإسلام . بل فاوضهم بوصفه قائد المسلمين ورئيسهم وعلى أن للمسلمين دينهم وللمشركين دينهم .

أما أن رسول الله ، عليه السلام ، قد قبل أن يمحو عبارة هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، واستبدل بها ما «هذا صالح عليه محمد بن عبد الله» كما قبل أن يمحو بسم الله الرحمن الرحيم ، ليكتب مكانها باسمك اللهم ، فقد كان ذلك داخلا فيما اعتزمه عليه السلام ، من أخذ المشركين

بالرفق ، ليتيح للمسلمين حج البيت وأداء الفريضة ، وليس فى النزول على ما طلبه المشركون ، تفريطاً فى شيء ، فهؤلاء المشركون لم يكونوا قد اعترفوا بمحمد رسولا من عند الله ، ولا اعترفوا بإلهه ورب المسلمين ومن السخف تصور أن مجرد وصول المسلمين فى ألف وأربعمائة منهم ، وليس معهم سلاح مشهر ، ولا عدة حرب كاملة ، كان كافياً ، ليحول مشركى بلا قريش من الكفر بمحمد وربه إلى مؤمنين به وبالله سبحانه وتعالى .
فإذا أصر رسول الله على أن يكتب فى صك المعاهدة ، اسمه كرسول الله ، فكان الأجدر به أن يوفر على نفسه مشقة الانتقال من المدينة إلى مكة ، ومشقة الطريق المضنى إلى الحديبية والبقاء هناك أياماً ، وهو موقع قليل الماء ، لا تتوافر فيه راحة ، تحت خطر الانقضاض من جيش مكة فى كل لحظة بالليل والنهار . أما الشرط الثانى الذى يلزم المسلمين برد من يفر من المشركين إليهم ، على ألا يردوا هم من يفر من المسلمين إلى المشركين ، فليس فيه أية خسارة ، بل إنه متفق مع خطة الملاينة والتسامح ، مع أهل مكة ، فأما الذين يفرون من معسكر المسلمين ، فأولئك مرتدون ، قد طهر الله صفوف المسلمين منهم . وليس فى الإسلام ، إكراه ، أما المسلم الذى يخلص إلى المسلمين . ويترك مكة ومن فيها ، فلا خوف عليه فى مكة ، لأن إيمانه سيعصمه من فتنتهم ، وسيجعل الله له مخرجاً ، بل إن وجوده بينهم ، وقد تعزز الإسلام بالمعاهدة ، وبتفاوض المشركين مع رسول الله ، وبما قبلوه من أن يسمحوا للمسلمين بأن يحجوا فى العام التالى ، وأصبح قادراً على أن يجادل خصوم الإسلام ويدعوهم إليه ، وقد صدق حدس رسول الله ، فما كادت المعاهدة توقع حتى فر من معسكر قريش أبو بصير ، إلى المدينة بغير إذن مولاه ، فطالبت مكة برده إليها ، عملا بنصوص المعاهدة ، فأعاده رسول الله عليه السلام إليها فى حراسة رجل من قبيلة بنى عامر ، على الرغم من استعطاف أبى بصير للرسول أن يبقيه

فى المدينة بين إخوانه المسلمين ، ولكن الرسول ، قال له : « يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء ما قد علمت ، ولا يصح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، فانطلق إلى قومك » فانطلق أبو بصير ، ومعه حارسه ، فلما بعدا عن المدينة وطلب أبو بصير من حارسه أن يريه سيفه ، فلما أعطاه الرجل السيف استله أبو بصير ، وعلا به الرجل وقتله ، وعاذ إلى المدينة ، وأبى رسول الله أن يأويه : مضى الرجل إلى موقع على البحر الأحمر ، فى طريق قريش إلى الشام وانضم إليه عدد من المسلمين الباقين فى مكة ، فمازالوا يتصدون لقوافل قريش ، يقطعون عليها هذا الطريق حتّى ضجت قريش وطلبت من رسول الله أن يأوى أبا بصير إليه فى المدينة ومن معه ، وفعل الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يكد العام يستدير ، حتّى نادى الرسول فى الناس : كى يتجهزوا للخروج إلى عمرة القضاء ، بعد أن منعوا منها ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه ألفان من المسلمين ، وأمامهم ستون ناقة ، تسير أمام ناقة الرسول القصواء ، ولما عرفت للقريش بمقدم الرسول وأصحابه ، جلت عن مكة ، كما تنص شروط المعاهدة ، وصعدت فى التلال المجاورة وأقامت فى خيام ، ثلاثة أيام ، والمسلمون تدوى أصواتهم « لبيك ! لبيك » حتّى إذ وصلوا إلى المسجد الحرام ، أخرج الرسول عضده اليمنى من ردائه ، وقال : « اللهم ارحم امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة » فراع الكفار أن المسلمين أقوياء يهرولون مع الرسول إذا هرول ، ويبطئون إذا أبطأ فى نظام أخاذ ، واتساق بديع ، فمحت هذه الصورة من نفوسهم كل ما سمعوه ، من أن المسلمين فى المدينة يعانون من الجوع ، ونقص فى الأرزاق ، وهمّ « عبد الله بن رواحة » أن يقذف فى وجه قريش ، بصيحة الحرب ، فمنعه عمر ، وقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : مهلاً يا بن رواحة ! وقل لا إله إلا الله ، وحده ، نصر عبده ، وأعز

جنده ، وخذل الأحزاب وحده .

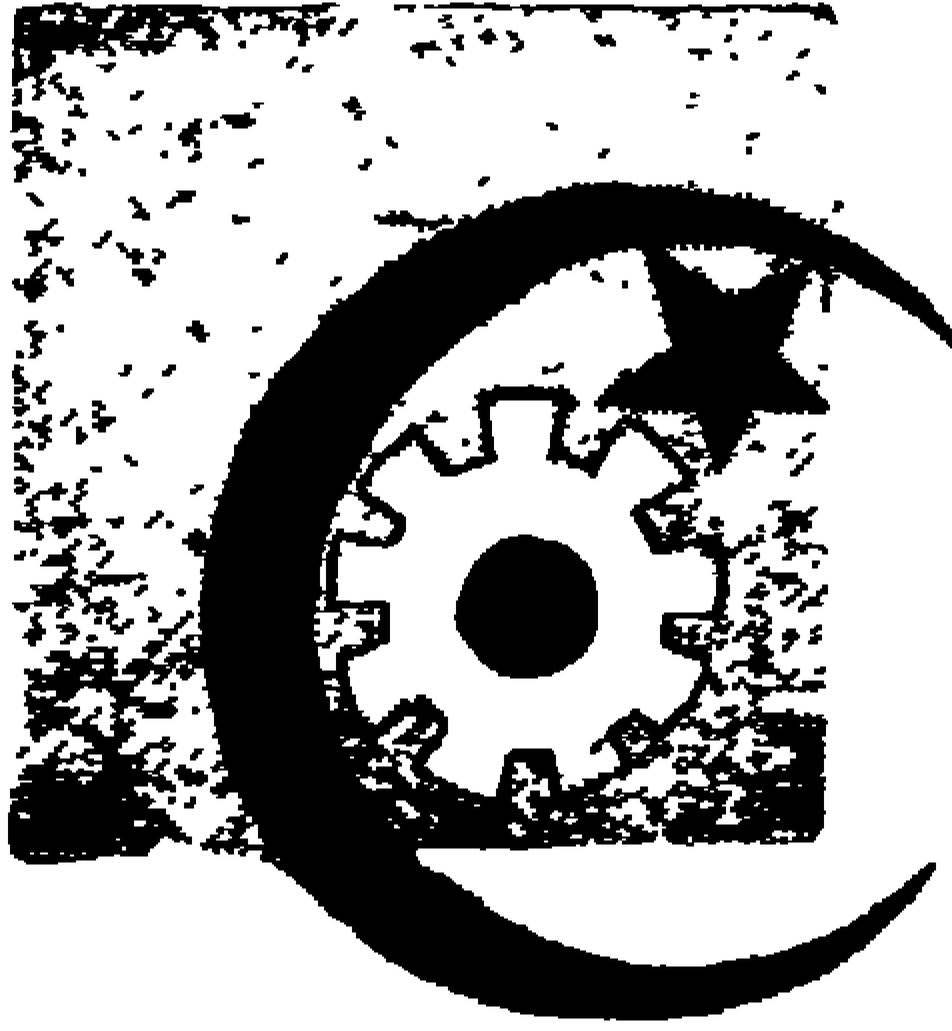
وبقى المسلمون فى مكه ثلاثة أيام ، هزت نفوس الكفار هزاً ، بعد أن هزهم صلح الحديبية وما رأوه من نظام المسلمين وترابطهم ، والتفافهم حول الرسول ، صدق طاعتهم له ، وحرصهم على السلام واحتمالهم لأذى الشرك والمشركين ، وهم قادرون على رده . فدخلوا فى الإسلام أفواجاً ، وكان على رأس من دخل فى الإسلام تلك السنة ، خالد بن الوليد ، بطل أبطال قريش ، الذى أبلى فى حرب أحد ما أبلى. وأسلم بعد خالد عمرو بن العاص ، داهية العرب ، وحارس الكعبة عثمان بن طلحة .

فإذا كان العام التالى ، وكانت قريش قد نقضت العهد ، فجاز للمسلمين أن يقتحموا عليها دارها ، فجاءها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على رأس جيش ، لم يشهده العرب من قبل ، بلغت عدته عشرة آلاف ومع ذلك لا نقول إن صلح الحديبية كان خطة سياسية ، مهدت لهذه الانتصارات العسكرية والسياسية . فرسول الله عليه السلام ، كان خالص النية ، حينما عزم على الحج ، وأنه لم يقصد مكة فى عامه السادس من الهجرة ، حتى يرغم قريشاً على صلح الحيبية ليكون من وراء هذا الصلح ، هذا النصر الذى أفاءه الله على رسوله والمسلمين . إنما كان ذلك كله فى ضمير الغيب ، وقد كتبه الله للمسلمين لأنهم أخلصوا له دينهم ، ووثقوا به ، واطمأنوا إليه .

ولقد صدق رسول الله إذ قال وهو يلخص نتائج صلح الحديبية على ما مر بنا : « بل هو أعظم الفتوح قد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادكم بالراح ، ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم فى الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا » .

فقد كان العهد بقريش أنها لا تطيق أن تسمع اسم محمد ، ولا أن يكون بينها وبين المسلمين من صلات ، إلا صلة المحارب بمن

يحاربه ، والعدو بعدوه ، صلة القتال ، والتهيؤ له ، واستنفار الناس ، وعقد المحالفات ، وتحريض القبائل ، تضييقاً على المسلمين ، وسد المسالك فى وجههم فماذا حدث يوم الحديبية ، اضطروا ، بعد طول التردد والتوجس ، أن يرسلوا إليه الرسول بعد الرسول ، فخذلتهم رسلهم ، وأحسنت الشهادة فى حق رسول الله وحق المسلمين ، ثم انتهى بها الأمر إلى التحدث إليه ، والمفاوضة معه ثم عقدت الهدنة لعشر سنوات فى رأى ولسنتين فى رأى . فلم يعد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذن هذا الساحر أو الكاهن أو المجنون ، ولم يعد خارجاً على قريش ، يسب آلهتها وما يعبد آباؤها ، بل أصبح قوة يحسب حسابها ، ويحسن الإقرار بقوتها . وهذا ما عناه رسول الله ، عليه السلام ، بقوله : « قد رأوا منكم ما كرهوا » أى رأوا منكم القوة والبأس والنظام والطاعة . وصلح الحديبية ، كان فتحاً للمسلمين . بمعنى آخر ، فقد عصمهم الله من الفرقة ، وعصمهم من الخضوع لدواعى الغضب ، ولحمية الجاهلية التى لا تعرف السيف سبيلا للإقناع والدفاع عن الرأى ، ووقاهم من الاستسلام لوسوسة الشيطان التى ألقت فى روع البعض أن المسلمين نالهم فى هذا اليوم خزى ، ولحقت بهم هزيمة ، وأنه يوم يجرؤ عليهم أعداؤهم ، وينفتح عليهم باب شر . وما لبثوا حتى تبينوا أن الرسول لا يضيعه الله أبداً ؛ لأنه مشمول برعايته ، وأن الله تعالى صدق وعده إذ قال : (كتب الله ، لأغلبن أنا ورسلى) .



خلافة الإنسان

القرآن الكريم ، هو كتاب الإنسان ، منذ أربعة عشر قرناً ، وقد أخرج الناس بعده : أسفاراً وكتباً ، فى أحوال الإنسان وطباعه ، وفضائله و رذائله ، وصحته ومرضه ، وقبائله وشعوبه ، وتاريخه وعلومه ، وعقائده وأديانه ، ما لو وضع بعضها فوق بعض ، لأصبح تلالا ، بل جبالا ، ولا زرت فى ارتفاعها وطولها ، وضخامتها وشموخها ، بالجبال التى نعرفها فى الطبيعة ، ونلقى عناء أى عناء ، فى الوصول إلى قممها الرفيعة ، وهاماتها المنيعة ، ومع ذلك بقى القرآن فى جملته وتفصيله بين هذه الكتب جميعاً ، الكتاب الأم ، ولما تقدم الإنسان فى علمه ، وعرف التخصص ، ووفق إلى وسائل ، لتحصيل المعرفة ، وتأصيلها ، وتعقب أصغر مفرداتها ، وأبعد عناصرها ، بوسائل أبدعتها علوم الفيزياء والكيمياء ، والحركة والآلة ، إذ أخرجت المجاهر وطرق التحليل ووسائل التصوير وأدوات التسجيل ، ما أطلق الإنسان فى أجواز الفضاء ، وأعماق الماء ، ومجاهل الجسم الإنسانى ، وفيافى النفس البشرية ، يصطاد ويقتنى ، ثم يفهرس ويصنف ، ويوزع ويبوب ، ويقوم ذلك كله جيوش ضخمة من العلماء والأساتذة ، والمساعدين والمعاونين ، من كل سن وجنس ، وفى كل فرع وعلم :

لذلك أصبح الإنسان وعاء لمئات من العلوم ، وأصبح كل وعاء لمئات من الفروع ، وأصبح كل فرع ، يحتوى لمئات من الشعب . . ومع ذلك كله بقى القرآن ، هو كتاب الإنسان (الأم) لأنه ينظر إلى الإنسان باعتباره وحدة متكاملة ، ويتعقبه منذ لم يكن شيئاً مذكوراً . (هل أتى على الإنسان حين من الدهر ، لم يكن شيئاً مذكوراً) . ثم يبقى معه خطوة خطوة ، وهو يضطرب فى هذه الدنيا ، طفلا وصبياً ، وشاباً ورجلا ، وكهلا وشيخاً ، وهو يؤمن ويكفر ، ويخاف ويطمع ، ويعد ويكذب ، ويصدق وينافق ، ويرضى ويغضب ويحب ويكره ، ويتئد ويفجر ، ويتذبذب ويتريث وفى آية واحدة ، يروى القرآن أطوار الإنسان فيقول الله تعالى : (فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً) .

ولا شك أن هذه الآية ، ليست إلا إفصاحاً ، رائعاً عن حرص هذا الكتاب المبين ، عن تعقب الإنسان فى أدواره ، مهما ضؤلت ، وصغرت وبعدت عن المشاهدة ، ونأت عن نشاط الإنسان اليومى المتصل بمصالحه المباشرة التى تشغله ، وشهواته القوية التى تحركه . والغاية من هذا التعديد ، والتفصيل ، هو ما جاء القرآن من أجله ، وما نجح فى تحقيقه ، ذلك ، بدعوة الإنسان والإلحاح عليه ، إلى التأمل فى ذاته ، وحياته ، وأطواره وأدواره ، ونوازعه وبواعثه ، الخفى منها والظاهر ، لأن ذلك كله ، يدعوه إلى الإيمان بقوته ، وإيمانه بقوته ، يدفعه إلى الإيمان بخالقه ، يزيد من إيمانه بقوته إن يحميه من الضعف ، واليأس ، والتذبذب والتردد ، ومن الخوف والوهن ، فإذا هو أعظم إيماناً ، وهكذا دواليك . .

وليست غايتنا التعرف عن هذا المعنى وحده ، وإنما اتخاذ هذا مدخلا إلى المعانى التى وردت فى الآية الثلاثين من سورة البقرة . ، فحسبنا أن نورد ، نماذج مما ورد عن بعض خصائص الإنسان وصفاته ، فى القرآن ، وعن بدء خلقه (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون) الحجر (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) السجدة (خلق الإنسان من علق) العلق : (وخلق الإنسان ضعيفا) النساء (إن الإنسان لظلوم كفار) إبراهيم . (وكان الإنسان عجولا) (وكان الإنسان كفورا) الإسراء (وكان الإنسان قتورا) الإسراء (وكان الإنسان أكثر شيء جدلا) الكهف (إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً) المعارج . . . إلخ .

على أن الآية التى وضعت الإنسان ، حيث لم يضعه كتاب ولا دين ولا مذهب ولا علم ، فهى الآية الثلاثون وما بعدها من سورة البقرة ونصها :

(وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ؟ قال إنى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا ، إلا ما علمتنا إنك العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) .

وسنرى أولا ، ما قاله المفسرون قدامى ، ومحدثون ، فى هذه الآيات .

يقول القرطبى : قوله تعالى (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها)

قد علمنا قطعاً أن الملائكة لا تعلم إلا ما أعلمت ولا تسبق بالقول ، وذلك عام فى جميع الملائكة لأن قوله (لا يسبقونه بالقول)خرج على جهة المدح لهم فكيف قالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها) فقيل : المعنى أنهم لما سمعوا لفظ خليفة فهموا أن فى بنى آدم من يفسد ، إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد ؛ ولكن عمموا الحكم على الجميع بالمعصية : فبين الرب تعالى أن فيهم من يفسد ومن لا يفسد فقال تطييبا لقلوبهم (إنى أعلم) وحقق ذلك بأن علم آدم الأسماء وكشف لهم عن مكنون علمه . وقيل إن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء وذلك لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم : فأفسدوا وسفكوا الدماء ، فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة فقتلهم وألحقهم بالبحار ورءوس الجبال ، فمن حينئذ دخلته العزة فجاء قولهم (أتجعل فيها) على جهة الاستفهام المحض : هل هذا الخليفة على طريقة من تقدم من الجن أم لا ؟ قال أحمد بن يحيى ثعلب ، وقال ابن زيد وغيره : إن الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذريته قوم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء ، فقالوا لذلك هذه المقالة ، إما على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه أو من عصيان الله من يستخلفه فى أرضه ، وينعم عليه بذلك ، وإما على طريق الاستعظام والإكبار للفصلين جميعاً « الاستخلاف والعصيان » . وقال قتادة : كان الله أعلمهم أنه إذا جعل فى الأرض خلقاً أفسدوا وسفكوا الدماء ، فسألوا حين قال تعالى : (إنى جاعل فى الأرض خليفة) أهو الذى أعلمهم أم غيره . وجاء فى تفسير الطبرى عن الحسن وقتادة ، قالا ، قال الله تعالى للملائكته (إنى جاعل فى الأرض خليفة) ، قال لهم : إنى فاعل — فعرضوا برأيهم ، فعلمهم علما ، وطوى عنهم علماً ، علمه لا يعلمونه ، فقالوا بالعلم الذى علمهم « أيخلف فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى

أعلم ما لا تعلمون » فلما أخذ فى خلق آدم همست الملائكة فيا بينها : فقالوا ليخلق ربنا ما شاء أن يخلق ، فلن يخلق خلقاً إلا كنا أعلم منه ، وأكرم عليه منه ، فلما خلقه ونفخ فيه من روحه ، أمرهم أن يسجدوا له ، لما قالوا ، ففضله عليهم ، فعلموا أنهم ليسوا بخير منه . فقالوا إن لم نكن خيراً منه ، فنحن أعلم منه ، لأنا كنا قبله . وخلقت الأمم قبله ، فلما أعجبوا بعملهم ابتلوا (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) إنى لا أخلق خلقاً إلا كنتم أعلم منه ، فأخبرونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قال ، ففزع القوم إلى التوبة — وإليها يفزع كل مؤمن — فقالوا (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) .

وجاء فى تفسير المنار : إن هذه الآيات متصلة بما قبلها من الكلام فى الكتاب ومن جاء به ، ومن دعى إليه ، فهى تجلى حجة الرسول ، ودعوته من حيث إن الملائكة إذا كانوا محتاجين إلى العلم ويستفيدونه بالتعلم من الله بالطريقة التى تناسب حالهم فالبشر أولى بالحاجة إلى ذلك منهم ، لأن طبيعة البشر جعلت على أن يكتسبوا كل شىء اكتساباً ، وهى من جهة أخرى تسلية له صلى الله عليه وسلم ببيان أن البشر أولى من الملائكة بإنكار ما لم يحيطوا بعلمه حتى يعلموا ، وأنهم جبلوا على أن يتوبوا ويرجعوا بعد أن يخطئوا ويذنبوا ، إن الإفساد فى الأرض وجحود الحق ، ومناصبة الداعى إنه ليس بدعاً من قومه — وإنما هو جبلة أهل الفكر وطبيعة البشر .

ثم قال : فقد سرى إلى المسلمين من أساطير الفرس وخرافاتهم ، ومنه أنه كان فى الأرض قبل آدم خلق يسمون بالجن والحن ، أو الطم والدم ، والأكثرون على أن الخلق الذين كانوا فى الأرض قبل آدم مباشرة كانوا يسمون الجن ، والقائلون فهم « بالحن » المهملة ، والحن قالوا إنهم كانوا قبل الجن ، وقالوا إن هؤلاء عاثوا فى الأرض فساداً ، فأبادهم الله .

ثم تناول المقصود بلفظ (الخليفة) فى هذه الآيات فقال :

« جرت سنة الله فى خلقه بأن تعلم أحكامه للناس ، وتنفذ فيهم على ألسنة أناس منهم يصطفيهم ليكونوا خلفاء عنه فى ذلك ، وكما أن الإنسان أظهر أحكام الله وسنته الوضعية (أى الشرعية) كذلك أظهر حكمه وسننه الخلقية الطبيعية فيصح أن يكون معنى الخلافة عاماً فى كل ما ميز الله به الإنسان على سائر المخلوقات ، نطق الوحى ودل العيان ، والاختبار على أن الله تعالى خلق العالم أنواعاً مختلفة ، وخص كل نوع غير نوع الإنسان بشىء محدود معين لا يتعداه ، فأما مالا نعرفه إلا من طريق الوحى كالملائكة ، فقد ورد فيها من الآيات والأحاديث ما يدل على أن وظائفه محدودة .

وأما ما نعرفه بالنظر والاختبار فهو حال المعدن والجماد ولا علم له ولا عمل ، وحال النبات ، وإنما تأثير حياته فى نفسه . فكل حى من الأحياء المحسوسة والغيبية فإن له استعداداً محدوداً ، وعلماً إلهياً محدوداً وعملا محدوداً ، وما كان كذلك لا يصلح أن يكون خليفة عن الذى لا حد لعلمه وإرادته ، ولا حصر لأحكامه وسننه ولا نهاية لأعماله وتصرفه .

أما الإنسان فقد خلقه الله ضعيفا كما قال فى كتابه (وخلق الإنسان ضعيفاً) وخلقه جاهلا كما قال تعالى : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً) ، ولكنه على ضعفه وجهله ، عبرة لمن يعتبر ، متواضع لعجب المتعجب لأنه مع ضعفه يتصرف فى الأقوياء ومع جهله فى نشأته يعلم جميع الأسماء .

وجاء فى التفسير الوسيط :

« معنى قوله (إنى جاعل فى الأرض خليفة) إنى خالق فى الأرض خليفة ، وهو آدم ، عليه السلام ، وخواص بنيه من البشر ، وهم الرسل ذلك إن كان المراد بالخلافة ، الخلافة من جهة الله سبحانه فى إجراء

أحكامه بين الناس وسياسة خلقه ، لقصر استعداد المستخلف عليهم وعدم لياقتهم لقبول الفيض الإلهى ، فتخص بآدم الخواص من بنيه ، فإن أريدت الخلافة ممن كان فى الأرض قبل ذلك فالخليفة هو آدم وذريته جميعاً ، صالحهم وطالحهم فقد خلفوا من سبقهم فى عمارة الأرض (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) استئناف دفع ، جواباً عن سؤال تنساق إليه الأذهان كأنه قيل : فماذا قالت الملائكة بعد أن أخبرهم الله بقوله : (إنى جاعل فى الأرض خليفة) فقيل جواباً لهذا السؤال : (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها) » .

والمعنى أتجعل فيها خليفة ، من يفسد فيها ؟ وقد عرفوا ذلك إما قراءة من اللوح المحفوظ لما سجل من مستقبل أعمالهم ، وإما قياساً لهم على من كان مثلهم وهم الذين أهلكهم الله وأحلهم محلهم ، وإما من الغرائز التى سيخلقون بها ، فإنها تدعو إلى الفساد ، والاستفهام ظاهره التعجب من أنه تعالى سيجعل فى الأرض من يفسدها ، أو الاعتراض على ذلك وإنكاره ، ولكن هذا الظاهر غير مراد لأنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، بل هو استفهام تعجب قالوه استكشافاً لما خفى عليهم من الحكم التى ألفت تلك المفاسد وأهدرتها ، واستخباراً عما يزيح شبهتهم ويرشدهم إلى معرفة ما فى آدم من الفضائل التى جعلته أهلا للخلافة هو وذريته ، كسؤال المتعلم أستاذه عما ينقدح فى ذهنه ليعلم جوابه فيستريح ، فليس سؤالهم اعتراضاً على الله ، ولاشكاً فى إشمال جعله خليفة فى الأرض على الحكم والمصالح .

وجاء فى تفسير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية :

بين سبحانه أنه هو الذى أحيا الإنسان ومكن له فى الأرض ، ثم بين بعد ذلك أصل تكوين الإنسان ، وما أودع فيه من علم الأشياء وذكره به ، فاذكر يا محمد نعمة أخرى من ربك على الإنسان ، وهى أنه قال للملائكته : إنى جاعل فى الأرض من أمكنه منها وأجعله صاحب سلطان

فيها : وهو آدم وذريته ، استخلفه الله فى عمارة الأرض من يفسد فيها بالمعاصى ومن يسفك الدماء بالعدوان والقتل لما فى طبيعته من شهوات : فى حين نحن ننزهك عما لا يليق بعظمتك ، ونطهر ذكرك ونمجدك ، فأجابهم ربهم : إنى أعلم ما لم تعلموا من المصلحة فى ذلك .

وبعد أن خلق الله آدم وعلمه أسماء الأشياء وخواصها ليتمكن فى الأرض ، وينتفع بها : عرض الله هذه الأشياء على الملائكة ، وقال أخبرونى بأسماء هذه الأشياء وخواصها إن كنتم صدقتم فى ظنكم أنكم أحق بخلافة الأرض ولا يوجد أفضل منكم بسبب طاعتكم وعبادتكم .

وقد ظهر للملائكة عجزهم ، فقالوا إننا ننزهك يا ربنا التنزيه اللائق بك ، ونقر بعجزنا وعدم اعتراضنا ، فلا علم عندنا إلا ما وهبتنا إياه ، وأنت العالم بكل شىء الحكم فى كل أمر تفعله » .

هذا هو رأى عدد من كبار المفسرين ، قدماء ومعاصرين ، اختلط فى تفسيرهم الرأى الإسلامى الصحيح ، بإسرائيليات صارخة ، وأساطير العجم ، ولكن يبدو من وراء هذا الضباب الفكرى ، حقائق القرآن الخالدة وهى :

أولا : أن الله سبحانه وتعالى ، أنبأ الملائكة بأنه سيستخلف فى الأرض خليفة .

ثانياً : أن هذا الخليفة هو آدم بالذات .

ثالثاً : أن الملائكة استفسروا أو أظهروا الدهشة ، أو اعترضوا لأن الله تعالى أذن لهم أن يقولوا ما بدا لهم ، باعتبار أن خلق صنف آخر من مخلوقات الله ، أمر يحتاج إلى تلقين وتفهم وتعليم ، لعظم المهمة التى سيقوم بها ، ولجدة العلاقة التى ستقوم بين الملائكة وبين هذا الصنف الجديد الذى سيكون منه الأنبياء والمقربون ، والشهداء والصالحون ، كما سيكون منه الكفار والمشركون ، وشياطين الإنس ، وسيصدر عن ذريته الفساد وسفك الدماء .

رابعاً : أن هذا المخلوق الجديد الذى خصه الله تعالى بعناية خاصة كانت بدايتها كلام الله تعالى إلى ملائكته عنه ، وإنبائهم باستخلافه ، وتساؤلهم عن مسوغ هذا الاستخلاف مع ما فى هذا المخلوق من آفات ونقائص ، كان هذا المخلوق الجديد ، وظهوره على الأرض ، امتحاناً للملائكة فاكتفوا جميعاً بالدهشة والتساؤل ، إلا إبليس أبى واستكبر .

خامساً : أن الله تعالى لم يلبث حتى امتحن الملائكة بما يعرفه آدم ، فثبت لهم ، أنه أعلم منهم ، فأدركوا أن الخلافة ما يسوغها .

سادساً : ثم انتهى هذا كله إلى أمر من الله للملائكة أن يسجدوا لآدم فسجدوا .

هذه الآيات ، هى ركن الزاوية فى البناء الفكرى ، الذى أقامه الإسلام ، على قاعدة المبدأ العام (ولقد كرمنا بنى آدم) ، وأن تمييز الإنسان عن على من سواه من المخلوقات ، سواء مرئية أو غيبية ، مرده أمران :

أولاً : استعداده العقلى والنفسى والروحى ، للتلقى والتعلم والتطور والتقدم .

ثانياً : أنه معرض للخطأ والزيغ والضلال ، وأنه قادر على الإتيان بجلائل الأعمال ، والتردى فى المعاصى والذنوب ، وأن ما بدا من نقص فى هذا الجانب ، هو ما هيأه لمقام الخلافة دون غيره من عباد الله ، حتى الملائكة الذين لا يخطئون والذين وصفهم القرآن الكريم بأنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون وأنهم (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) .

فالإسلام قائم على مجاهدة النفس ، والابتلاء بالامتحان ، فالله تعالى قال للمسلمين (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) ، (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) .

وبهذا الابتلاء ، يمكن للإنسان أن يتقدم ، وأن يتطور ، وأن

ينتقل من الضعف إلى القوة، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الجهل إلى العلم، ومن الظلام إلى النور ، ولأن الإنسان خلق مستعداً لهذا التقدم ، بفضل الابتلاء والفتنة والامتحان ، فقد أصبح قادراً على القيام بوظائف الخلافة ، إذ لو كان ، مخلوقاً لا يخطىء، لكان جميع أفراد ذريته ، على شاكلة واحدة ، ولكانوا أمة واحدة ، ولقد سبقت إرادة الله ومشيئته ألا يكون الناس أمة واحدة وقد كان هذا – بغير شبهة أو شك فى مقدوره – (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما أتاكم) .

ويكمل هذا المبدأ ، ويأتى تبعاً له ، مبادئ كلية فى العقيدة الإسلامية منها .

أولاً : مبدأ التوبة .

ثانياً : مبدأ تحريم القنوط واليأس .

ثالثاً : مبدأ أن الأمر كله للإنسان ، المؤمن ، الذى يملك أن يغير حياته ، وينسخ قبيحها ، ويمحو عيوبها ، ويحيلها إلى رفعة متصلة وطمأنينة شاملة ، ومعرفة سابغة .

أما التوبة فقد أصبحت دعامة من دعامات خلافة الإنسان على الأرض ، لا يمكن أن تقوم، إلا بها ، ولا أن تؤتى ثمارها ، بغير سند منها . ذلك لأنه ما دام قد تقرر أن الإنسان خلق به ميل إلى سفك الدماء والفساد ، وكان قد سبق فى علم الله ، أن هذا الإنسان مع ضعفه ، قادر على أن يتغلب على هواه ، وأن يكتسب المعرفة ، فلابد من أن يتقرر له مبدأ العفو ، ولكى يفعل هذا العفو ، فعله فى نفس الإنسان ، فلابد أن يعرف ، أن هذا العفو ، ككل شىء فى هذه الحياة الدنيا ، لا بد أن يأتى بعد مجاهدة ، وكدح ، وإرادة فى التغير ، وأن التوبة هى سبيل الوصول إلى هذا العفو ، فهى ليست مجرد إظهار الأسف لما وقع ، بل لابد أن تكون مقترنة ، بعقد العزم على تركه ، وعدم العودة إليه ، وسد الأبواب المؤدية إلى إتيانه ، وكل هذه المحاولات هى وسائل لرفع

نفس الإنسان وتزويده بالخبرة الروحية التي هى وقود التقدم وسره العظيم . ومثل هذه المجاهدة ممتنعة تماماً على الملائكة ، لأنهم لا يعرفون المعاصى ، والذنوب ، امتناعها على الشياطين ، لأنهم مفطورون على الشر ، مجبولون على الخطيئة .

فالتوبة فى الإسلام ، هى أساس من أسسه التربوية ، ومنهاج من مناهجه الروحية ، لأنها ضمان تطور الحياة الإنسانية كما أسلفنا ، ومن هنا كان (التوّاب) اسمًا من أسماء الله الحسنى ، وكانت الدعوة إلى التوبة ، فى القرآن الكريم ، تتردد فى آياته ، وأحاديث نبيه ، وتقوم الحياة الإسلامية على دعائمها ، وبهذه التوبة ، تحول العصاة إلى هداة ، والإمعات الذين لا قيمة لهم ولا شأن ، زعماء وقادة ، وتدفقت جموع من الذين عاشوا حياتهم أصفاراً وراء الرسول ووراء خلفائه ، إلى عالم جديد ، يبنون فيه ويشيدون الأمصار والمدائن ، ويضيئون مشاعل المعرفة والعلم ، وينشرون رايات الطمأنينة والسكينة ، ومن علائم هذا الطريق السوى الفسيح قول الله تعالى : (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه) المائدة (أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم) الأنعام : (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) .

وإذا كانت التوبة ضماناً للإنسان ، بأنه قادر أبداً على أن يبدأ حياته من جديد ، مهما لج من العثار ، وتورط فى الخطأ ، ومهما استمرأ المعصية ، وطابت له الرذيلة ، فإنه يكمل هذا الضمان ويحققه للجناة والعصاة ، وألا ييأسوا من إمكان التوبة من جانبهم ، ولا من إمكان المغفرة من جانب الله العظيم ، وتحريم اليأس ، وجعل القنوط جريمة ، كجريمة الشرك والكفر بالله ، خاصية تميز الإسلام ، وليس أفتك بعقول الناس وقلوبهم ، وليس أعظم منالا للأمم والجماعات ، من أن يستولى عليها اليأس ، وأن تشعر بأن الأزمة النازلة بها ، والمصيبة التى أحدقت بمجموعها ،

هي خاتمة الحياة ، وأنه لا نجاة منها ، ولا مفر . ولقد حرمت القوانين ، [الانتحار ، واعتبرت المحاولة له والشروع فيه جريمة ، ولكن هذا التحريم وذلك التجريم لا يكفي قط ، ما لم تسنده تربية روحية ، وما لم تثبته في النفوس عقيدة وإيمان ، ولقد قام الإسلام على تربية هذا الإيمان وتثبيته ، فتوالت الآيات على نبذ القنوط ، وعلى تأكيد أن الله مفرج الكروب ، كما أنه غافر الذنوب :

قال الله تعالى : (لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) الزمر . (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) الحجر (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) .

ويصل هذا المنهج إلى قمته ، بتقرير القرآن الكريم ، حقيقتين من حقائق الإسلام ، متكاملتين :

الحقيقة الأولى : (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

الحقيقة الثانية : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان) .

أما الحقيقة الأولى ، فجملة معناها أن العناية الإلهية ، ألقت بتبعة الحياة الإنسانية ومصيرها واستنباط الخير من هذا الكون ، ودفع الشر والتسابق إلى الخيرات والنهي عن المنكرات ، وتحمل الحياة ، وتخفيف أعبائها ، وتلطيف أحمالها ، وتوسيع نطاقها ، على الإنسان نفسه . فمنه تبدأ الأمور ، وإليه تنتهي ، وإذا كان إلى الله عاقبة الأمور ، وإذا كانت كل الأمور ترد إليه سبحانه ، فلا تناقض ، بين سلطة الإنسان المطلقة في هذا الكون ، لأن الله تعالى ، هو الذي سخر هذا الكون للإنسان ، ووضع في يده مقاليده ، وذلل له الأرض ، ودعاه إلى السير في مناكبها ، والأكل من خيراتها ، ذلك لأن عقيدة الإنسان وحدها ، هي التي تمنحه القوة والثقة والعزم ، وهي التي تحرمه القوة والثقة والعزم ، وفضل الإنسان ، كما تقرر الآية الثانية ، هو أنه يملك من أمره ،

ما لا يملكه سائر عباد الله ، فلا الملائكة ولا الشياطين ، ولا الجماد ولا النبات من قبل هذه الأمانة ، وتعرض لمشاقها ، وتحمل مخاطرها ، ومن هنا ، كان وحده بين مخلوقات الله ، الذى يتغير عهداً بعد عهد ، وجيلا بعد جيل ، فتغيره دائماً مرده العقيدة التى تسود حياته ، فهى التى تجعله فى (أحسن تقويم) وهى التى تهبط به إلى (أسفل سافلين) .

وكل هذه المعانى ، وأكثر منها ، تجود به على المتأملين ، فى الآية الثلاثين وما بعدها من سورة البقرة ، ومثيلاتها ، فى القرآن الكريم ؛ وهى ما تعنيه — فى رأينا — خلافة الإنسان فى الأرض ، واستحقاقه لهذه الخلافة وسبيله إلى النهوض بتبعاتها ، وتحمل أمانتها .

لخص مؤرخ للأدب الحديث المذاهب الأدبية المعاصرة . فرد ، بعضها إلى شعور الإنسان بالغربة فى العصور الأخيرة ، ووحشته بين الآلة الضخمة ، والدولة ذات السلطة غير المتناهية ، ومشروعات المال ، والصناعة ، التى يدرك الإنسان أنها تملك من أمره أكثر ما يملك ، وأنها توجهه وتصرفه ، وتفرض عليه الآراء والأذواق والمشاعر ، ولا تدع له إلا الهموم الخاصة ، هموم وحدته وعزلته ، وقلة حيلته .

ومذاهب أخرى ، تكاد تنبع من نفس المنبع ، ولكنها تنتهى إلى عبث هذه الحياة التى يحياها الإنسان ، وخلوها من المعنى ، وقلة جدوى صراعه الذى ينتهى إما إلى فراغ روحى ومادى ، وإما إلى امتلاء جسمى وخواء عقلى وروحى . والشعور بالعبث ، يدفع إلى العبث ، والسخرية من علاقات الإنسان القديمة ، الموروثة والمألوفة .. حب الأسرة ، وحب الزوجة ، وحب الولد ، وحب الوطن ، ولكن بعض هذه العلاقات يفرض عليه ، ولا يقوى على إعلان الكفر به ، فهو يستسلم له ، ويعلن ولاءه ، كارهاً لا راضياً ، ولكنه إذا استطاع أن يعبر عن سخرية به ، وهزئه منه ، فهو لا يتردد فى الانتفاع من الفرصة المتاحة ، فإن لم يستطع صراحة ، حاول ذلك فى التواء ودوران . وإن لم يستطع ، أصيب بانفصام الشخصية

أو بالاكتئاب أو بأكثر من ذلك .

ومذهب ثالث يشعر بعدم أخلاقية الحياة ، فى ظل العلاقات الصناعية والاقتصادية القائمة . فهو لا يكفر بالحياة ذاتها ، ولا يقول بخلوها من المعنى ، ولا يقرر أن الوجود الإنسانى عبث ، وإنما هو يرى الحياة الإنسانية ذات المعنى ، بل ذات المعنى الجليل والسامى ، مسحوقة تحت حذاء علاقات عمياء هو لا يستطيع أن يصلحها ، ولا أن يقيم ، معوجها . ولا يرى أن ثمة أملا يلوح ولو من بعيد فى تسديدها .

وقد استوقفنى هذا التصنيف ، ودعانى أن أتحدث عن دور الإسلام فى أزمة الإنسان الحالية ، وهو دور نابع أصلاً من العقيدة التى أقامها القرآن على أساس من خلافة الإنسان .

فالقرآن ، حينما نص على أن الله سبحانه وتعالى قد أعلم الملائكة ، أنه « جاعل فى الأرض خليفة » كان سبحانه وتعالى يقصد أن يكون الإنسان خليفة فى هذه الأرض التى سيعيش فيها آدم ، وذريته من بعده ، وأن هذه الخلافة ، وهى عن خالق آدم وربه ، الذى نفخ فيه من روحه وسواه بيده ، وأمر الملائكة أن يسجدوا فسجدوا كلهم جميعاً إلا إبليس أبى واستكبر .

فالقول بأن المقصود بالخلافة ، هى أن يخلف الإنسان بعضه بعضاً ، أى الابن يخلف الأب ، والجيل الأعلى يخلفه الجيل الذى يتبعه ، لا يستقيم مع الظاهر من آيات القرآن ، فخلق نوع جديد من خلق الله يخلف بعضه بعضاً دون أن تكون له الخلافة الشاملة للأرض ، وما عليها ، من حيوان ونبات وجماد ، لا يستلزم إخبار الملائكة به ، ولا يستدعى اعتراضهم عليه واحتجاجهم لحصوله ، كما لا يستطيع هذا الامتحان الذى يحكى القرآن نبأه ، وعجز الملائكة عن أن يلحقوا فيه بآدم ، وينجحوا إزاءه . ثم إن مخلوقاً لا تتجاوز خلافته ذريته ، لا يقتضى خلقه أن يأمر الملائكة بالسجود له ، ولا يفضى إلى تمرد أحد الملائكة ،

وهو إبليس وخروجه عن طاعة الله ، فليس فى هذه الخلافة ، امتياز يثير غيرة إبليس ، وثورته على خالقه ، ويحرمه من رحمته وجنته ، ويجعله رجماً ملعوناً إلى يوم القيامة .

أما أن يخلف آدم وذريته ، نوع آخر من مخلوقات الله ، سواء كانوا جنًّا أو حنًّا ، فكلام لا سند له من القرآن نفسه ، ولا من صحيح السنة ، وهو قول كالكثير مما تسرب إلى تفسير القرآن ، من الإسرائيليات حيناً ، ومن مفسرين كبار ، ينتمون إلى أجناس غير عربية ، طبعت على حب الخرافة ، والتهويل فى وصف أبدان المخلوقات ، وقوة من اندثر وهالك من شعوب أو أجناس ، وضخامة ما بنوا وشادوا : وعظم أجسام حيواناتهم وطيورهم ، وغرابة أطوار نسائهم وبناتهم ، وهكذا . . .
فخلافة آدم لجنس الجن أو الجن الذين هلكوا هو ضرب من هذا الهذيان الذى لا يليق أن يقول به المسلمون ، وقد نهاهم الله فى كتابهم أن يقولوا شيئاً ، بغير سلطان أو برهان .

وخلافة الإنسان مؤكدة بتكريم الله سبحانه وتعالى إياه منذ خلقه ؛ فقد نفخ فيه من روحه وسواه بيده ، وعلمه ما لا يعلمه أفضل مخلوقاته الذين لا يسبقونه إلى القول ، ولا يعصون له أمراً ، والذين ينقطعون لعبادة الله ، لا يملون منها ، ولا يضجرون ، ولا يفرطون فيها ولا يقصرون .

ثم إن هذا الإنسان الذى فاق علمه ، علم الملائكة أفضل خلق الله وأبعدهم عن المعصية والكفر ، لم يأمر خالقه فقط هؤلاء الملائكة بأن يسجدوا له ، بعد أن غابت عنهم حكمة خلافته ، وقالوا صراحة ، بأنه سيفسد فى الأرض ، ويسفك الدماء كرمه الله تعالى وقال ذلك فى أحد كتبه المنزلة على آخر أنبيائه وخاتمهم ، فقد قال تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم » ولم يقف كتاب الله عند هذا الحد ، بل قال وأكد القول ، فى أكثر من موضع فيه بأن الله سخر للإنسان الشمس والقمر ، والليل والنهار ، وما على السموات والأرض ، وكل ما فى هذا الكون الفسيح :

« وسخر لكم الشمس والقمر دائبين » إبراهيم « وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر » « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض » . . .

حسب الإنسان أن يسخر له هو كل هذا ، ليكون هذا التسخير ، إعلاناً لخلافته عن خالقه فى هذا الكون الذى أخضع له أجرامه وأفلاكه ، وعناصره وموارده ، ومصدر قوته ، ومبعث حركته . فإنه ليكونن من العبث أن يخلق الله الإنسان بيده ، ثم ينفخ فيه من روحه ، ثم يأمر أكرم مخلوقاته ، لا أن يقروا له بالتقديم عليهم ، بل بالسجود له ، ثم يطرد من رحمته ، ويلعن أشد اللعن ، الكائن الوحيد الذى يأبى أن يطيع هذا الأمر الصريح الواضح ، ثم يسخر له ما فى السموات وما فى الأرض ، ثم يقف سبحانه وتعالى عند هذا الحد : سبحانه وتعالى : تنزه عن العبث والعمل الباطل .

فخلافة الإنسان فى هذه الأرض ، هى ركن الزاوية فى العقيدة الإسلامية ، أو المذهب الإسلامى إن شئت ، وخلاصتها أن الإنسان هو سيد هذه الأرض بأمر خالقه ، وباستخلافه سبحانه عز وعلا ، الإنسان فيها ، وبالتصريح فى كتابه « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

فخلافة الإنسان ، وما جرى بشأنها بين الله وملائكته وآدم وإبليس ليست حكاية لما وقع فى أول الخلق لمجرد ذكر التاريخ ، ولا حتى لاستخلاص الموعظة منه الموعظة الموحية بأن الشيطان أو إبليس هو عدو الإنسان ، وأن الاستماع إلى وسوسته ، والأخذ بمشورته والانخداع بما يعرضه على الإنسان ، من الأمور التى تستهوى النفس وتطيب لها ، عاقبته وخيمة ، لأنها تجر إلى غضب الله ، وغضب الله يفضى إلى عذاب الخلد .

فالحكمة من حكاية خلافة الإنسان فى كتاب الله ، هو بيان أن

للإنسان رسالة . فما دام أنه خص بهذه المزايا ، ووضع تحت سلطاته بالتسخير . هذا الكون بأعظم ما فيه : فلابد أن يكون لهذا كله غاية . وإلا تعارض هذا كله مع قوله تعالى « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا» « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق » .

فخلق السموات والأرض وما بينهما لم يكن عبثاً ولم يكن ثمرة مصادفة ، وإنما كان لغرض محدد ، وغاية اتجهت إليها إرادة خالقهما ، والحق هنا » هو غاية هذا الكون البديع المحكم ، وإسناد الرياسة فيه لهذا المخلوق. الذى حفته عناية الله منذ خلق ، هو جزء من هذا التدبير المحكم . فهو أهل لهذه الرياسة صالح لها وقادر عليها ، واختياره للنهوض بتبعاته هو (حق) ، وإلا كان خلق الله للسموات والأرض باطلا ، أو كان ضرباً من اللعب أى ضرباً من العبث ، لأنه لا يكفى أن يحسن الصانع الآلة التى يبتكرها ، ويودع فيها ، ما يجعلها آية من آيات الإبداع والابتكار : ثم يدعها فى يد جاهل غر ، سيء التدبير ، فيحطمها ، أو يتخذها أداة للأذى المطلق ، يتلف بها نفسه ، ويفسد به وطنه ، ويعذب الآخرين . فالإنسان بعيوبه وحسناته ، بضعفه وقوته ، بحسن أدائه للتكاليف أحياناً ، وبعجزه عنها أحياناً أخرى ، هو جزء من الأرض والسموات وما بينهما وما فيهما من شمس وقمر ، وليل ونهار وجبال وبحار ، وجنات وأنهار . وجوده يكملها لأنها استمرار له ، ووجودها يكمله ، لأنه استخلاف فيها .

وكل هذا جرى بإحكام وتدبير : تنزه عن اللعب والعبث ، والتزم الحق ، وقام عليه .

فاستخلاف الإنسان ، مؤداه أنه مكلف برسالة . وعندى أن هذا ما عناه كتاب الله تعالى بقوله فى سورة الأحزاب :

(إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا) .

ولسنا نريد أن نسبق إلى القول ، بل سننتقل عن القرطبى رحمه الله ، ما قاله المفسرون ، ثم نعقب على ما قالوا ، بما يهدينا إليه تعالى ، نسأله التوفيق .

يقول القرطبى : لما بين تعالى فى هذه السورة من الأحكام ما بين أمر بالتزام أوامره ، والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال ، وهو قول الجمهور : وعن العباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله تعالى لآدم ، يا آدم إنى عرضت الأمانة على السموات والأرض فلم تطقها فهل أنت حاملها بما فيها قال : وما فيها يا رب . قال إن حملتها أجرت ، وإن ضيعتها عذبت فاحملها بما فيها فلم يلبث فى الجنة إلا قدر ما بين صلاة الأولى إلى العصر حتى أخرجه الشيطان منها » فالأمانة هى الفرائض التى اؤتمن عليها العباد . وقد اختلف فى تفاصيل بعضها على أقوال ، فقال ابن مسعود : هى فى أمانات الأموال كالودائع وغيرها ، وروى عنه أنها فى كل الفرائض ، وأشدها أمانة المال . وقال أبى بن كعب : من الأمانة أن ائتمنت المرأة على فرجها . وقال أبو الدرداء : غسل الجنابة أمانة ، وإن الله لم يأمن ابن آدم على شىء من دينه غيرها . وفى حديث مرفوع : « الأمانة الصلاة » . وكذلك الصيام وغسل الجنابة . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص ، أول ما خلق الله تعالى من الإنسان فرجه ، وقال هذه أمانة استودعتكها فلا تلبسها أو تبسلها أو تضيعها إلا بحق أو بحقها أو فى حقها ــ حسب روايات مختلفة ، فإن حفظتها حفظتك ، فالفرج أمانة ، والأذن أمانة ، والعين أمانة ، واللسان أمانة ، والبطن أمانة ، واليد أمانة ، والرجل أمانة ، ولا إيمان لمن لا أمانة له . وقال السدى هى ائتمان آدم لابنه قابيل . وذلك أن الله تعالى قال له : يا آدم هل تعلم أن لى بيتاً فى الأرض ، قال : اللهم لا . قال : فإن لى بيتا بمكة فأته . فقال للسماء احفظى ولدى بالأمانة فأبت ، وقال للأرض احفظي ولدى بالأمانة فأبت ، وقال للجبال كذلك فأبت . فقال لقابيل

احفظ ولدى بالأمانة فقال نعم : تذهب وترجع فتجد ولدك كما يسرك . فرجع فوجده قد قتل أخاه . ثم أورد أقوالا ، لا تخرج عما تقدم عن معمر عن الحسن ، ومجاهد .

وقيل : هذه الأمانة هي ما أودعه الله تعالى فى السموات والأرض والخلق من الدلائل على ربوبيته أن يظهروها فأظهروها إلا الإنسان فإنه كتمها وجحدها . قال بعض المتكلمين : ومعنى عرضنا ، أظهرنا ، كما تقول عرضت الجارية على البيع ، والمعنى أنا عرضنا الأمانة وتضييعها على أهل السموات والأرض وأهل الأرض من الملائكة والإنس والجن، فأبين أن يحملنها أى يحملن أوزارها . وحملها الإنسان قال الحسن : المراد الكافر والمنافق. فيكون على هذا الجواب مجازاً مثل « واسأل القرية » وفيه جواب آخر على أن يكون حقيقة أنه عرض على السموات والأرض والجبال الأمانة وتضييعها وهى الثواب والعقاب ، أى أظهر لهن ذلك فلم يحملن وزرها، وأشفقت ، وقالت لا أبتغى ثواباً ولا عقاباً .

وقال العلماء : معلوم أن الجماد لا يفهم ولا يجيب ، فلابد من تقدير الحياة على القول الأخير . وقال القفال وغيره : الغرض فى هذه الآية ضرب مثل ، أى أن السموات والأرض على كبر أجرامها لو كانت بحيث يجوز تكليفها تلك الشرائع ، لما فيها من الثواب والعقاب ، أى أن التكليف أمر حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال ، وقد كلفه الإنسان وهو ظلوم وجهول لو عقل . وهذا كقوله : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل) ثم (وتلك الأمثال نضربها للناس) قال القفال : فإذا تقرر فى أنه تعالى يضرب الأمثال ، وورد علينا من الخبر ما لا يخرج إلا على ضرب المثل ، وجب حمله عليه . وقال قوم : إن الآية من المجاز أى أما إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال ،رأينا أنها لا تطيقها وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت ، نعبر عن هذا المعنى بقوله ، (إنا عرضنا الأمانة) وهذا كما تقول أعرضت الحمل على البعير فأباه، وأنت تريد قايست قوته بثقل

الحمل فرأيت أنها تقصر عنه .

وعن مسروق عن عبد الله بن مسعود : قال لما خلق الله الأمانة ، مثلها صخرة ، ثم وضعها حيث شاء، ثم دعا لها السموات والأرض والجبال ليحملنها وقال لهن : إن هذه الأمانة ، ولها ثواب وعليها عقاب ، قالوا : يا رب لا طاقة لنا بها ، وأقبل الإنسان من قبل أن يدعى فقال للسموات والأرض والجبال : ما وقوفكم ؟ قالوا : دعانا ربنا أن نحمل هذه فأشفقن منها ولم نطقها . قال : فحركها بيده ، وقال : والله لو شئت أن أحملها لحملتها ، فحملها حتى بلغ بها إلى ركبتيه ، ثم وضعها وقال : والله لو شئت أن أزداد لازددت . قالوا : دونك ! فحملها حتى بلغ حقويه ثم قال : والله لو شئت أن أزداد لازددت . قالوا : دونك ! فحملها حتى وضعها على عاتقه ، فلما أهوى ليضعها : قالوا : مكانك إن هذه الأمانة، ولها ثواب وعليها عقاب ، وأمرنا ربنا أن نحملها فأشفقن منها وحملتها أنت من غير أن تدعى لها فهي في عنقك وفي أعناق ذريتك إلى يوم القيامة إنك ظلوم جهول .

وأحسب أن هذا حسبنا لنعرف كيف فسر المفسرون القدامى هذه الآية ، أما المرحوم محمد فريد وجدى فقد فسرها بقوله : إشعار للإنسان بأنه وهب من جانب الفيض الإلهي بمنح امتاز بها عن سائر عوالم الطبيعة إنه كان ظلوماً جهولا ، حيث لم يف بها ولم يقم بواجبها ، فطوبى لمن أدرك أن فيه سراً مصوناً ، وكنزاً مكنوناً، فنقب عنه خلال أغشية هذه الطبيعة الطينية فعاش ملكاً وإن كان إنساناً .

وأحسب أيضاً أنك تعجب بل تحزن لما ذهب به البعض من أن الله عرض على السموات والأرض فروضاً منها الغسل بعد الجنابة وأنها رفضت ذلك التكليف لمشقة أو أن الله لم يعرض على آدم من التكاليف إلا هذا الواجب الشاق ، فقبله ثم عجز عنه ولم يف به ، وأن الأمانة لم تكن سوى ائتمان آدم ابنه قابيل على ابنه هابيل ريثما يصل إلى بيت الله في مكة ،

فعاد فوجد أول الولدين قد قتل الثانى . أو أن الله مثل الأمانة بصخرة ؛ وأن الإنسان أخذ يحاول رفعها إلى ركبتيه ثم إلى حقويه ثم إلى كتفيه والسموات والأرض ينظران إليه ، حتى إذا ما أراد أن يخفف منها ، قالت السموات والأرض له إياك أن تفعل فقد قبلت هذا الحمل دون أن تدعى .

وقول القفال إن شرح الآية يجب أن يراعى إن ما ورد فيها كان من قبيل ضرب المثل أو أنها على المجاز .

والرأى عندى ، أن الأمانة التى تتحدث عنها الآية ، إذا أردنا أن نفسرها فى ضوء ما يدعو إليه القرآن كله ، وما ثبت فى الآيات الأخرى : هى (الاختيار) . هى حرية الإرادة التى تفضل الله بها على آدم ، والتى أهلته للخلافة ، دون الملائكة والجن . فقد عرض الله على آدم ، حياة رغدة ، يأكل فيها من الجنة ما يشاء ، ومما يشاء ؛ فلا يعرف للجوع ألماً ، ولا للعطش عذاباً ، ولا يحس أنه فى حاجة إلى ثوب يستر عورته . فهو لا يمارس رذيلة ، ولا يأكل طعاماً . فهو أقرب إلى الملائكة وأشبه بهم . ولكن إبليس ما زال بآدم حتى عرفه طريق المعصية وحبب له سبيل التمرد على إرادة الله ، أى أنه أطلق فى نفسه قوة الشر ، لتقابل قوة الخير . فتكون نفسه مجالا للصراع بينهما ، ومن هنا ، كان علم الملائكة بأن هذا المخلوق ستؤدى طبيعته التى ليست خيراً بحتاً ، وليست شراً محضاً ، سيسفك الدم وسيفسد ، وقد أطلعها الله تعالى على ذلك بما رآه عز وجل ، إيحاء أو إلهاماً أو كشفاً صريحاً . ولو بقى الإنسان بنزعة الخير وحدها ، لا يخطئ ، ولا يفكر فيما لا تفكر فيه الملائكة ، ويبقى أبد الدهر ، حتى يأذن الله بما يراه ، طفلا ، ساذجاً ، لا تساوره رغبة ، ولا يدعوه إلى المجازفة ، والمخاطرة ، والبحث والكشف غريزة أو طبيعة أو فضول وحب للمعرفة ، لأن كل شىء بين يديه ، وكل رغباته مجابة ، لكان صورة جديدة من صور الملائكة ، ولما رأى إبليس فيه هدفاً مغرياً ، ولعاش الجميع كما كانوا قبل أن يخلق الله آدم ، وقبل أن يستجيب آدم لدعوة إبليس.

قال الله تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ، فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك إلا تجوع فيها ولا تعرى ، وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ، فوسوس إليه الشيطان ، قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه ، فتاب عليه وهدى) .

وقال تعالى : (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر) .

فواضح من هذه الآيات الكريمة ، أن ما أخرج آدم وحواء ، من الجنة التى كانا يعيشان فيها كطفلين لا هموم ، ولا تكاليف ، يتفيآن ظلالها ، ويقطفان ثمارها ، ولا يبذلان جهداً ، لا يخافان جوعاً ولا عطشاً ولا عرياً ، ولا يعكر صفوهما لا حساب ولا عقاب ، إن الذى أخرجهما من هذا كله ، هو القرار الذى اتخذاه ، أيا كان هذا القرار ، بإغراء من إبليس ، فما كاد قرارهما يصدر ، ثم ما كادا ينفذانه ، حتى بدت سوءاتهما ، فشعرا لأول مرة ، بانكشاف الستر ، وبالحاجة إلى الحماية ، وأنفذ الله تعالى فيهما حكمته : الطرد من الجنة ، ولكن دون أن يحرمهما سبحانه وتعالى من رحمته ، فقد تاب على آدم وهدى ، كما جاء فى سورة طه ، وكما جاء فى سورة البقرة (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) وقد تابعتهما رحمة الله فى الأرض لقوله تعالى : (قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

جملة القول أن حياة آدم وحواء ، حياتهما فى الأرض ، بعد الخروج

من الجنة ، بدأت بما رآه آدم ، على غير ما نصحه به الله ، وعلمه إياه ، فهذا الذى رآه آدم مستقلا بارادته ، مخالفاً إرادة خالقه عز وعلا ، هو المعصية التى يحاسب عليها آدم ، وزوجه ، ولكنها الميزة التى تفرد بها بين مخلوقات الله جميعاً . فالملائكة لا يعصون لله أمراً ، والشياطين لا يطيعون له أمراً ، والجماد لا يملك لنفسه اختياراً ، والنبات لا يفضل كثيراً الجماد ، والحيوان وإن بدا أكثر حرية ، إلا أنها حرية بحرية النبات أشبه . فهو لا يذكر ماضياً ، ولا يرقب مستقبلا ، ولا يغير من نظامه المفروض عليه شيئاً ، فأعظم الحيوانات نظاماً ، وأكثرها فيما يبدو للإنسان رقياً ، كالنمل والنحل ، وكلاهما يعيش فى مملكة منظمة ، يعلوها نظامها على ممالك الإنسان ودوله ، يجرى فيها قانون ، لم يصل إليه أكبر مشرعى الإنسان ولا أعظم فقهائه ، إلا أنه نظام مستمر ومستقر ، لايتغير ولا يتبدل ولا يفضى إلى أحسن ، بل ولا ينحدر إلى ما أسوأ منه .

فنملة القرن الأول ، ونملة القرن العشرين . سيان ونحلة ما قبل التاريخ كنحلة اليوم ، كنحلة القرن الثالث والعشرين ، يحكمها نظام مضبوط ، وتسيرها قواعد محكمة ، فلا فضل لها فى نظام ، ولا اختيار فى إنشاء القاعدة ، أما الإنسان فلا يزال منذ اليوم الأول يفكر ويدبر ، ويبنى ويهدم ، وينقض ويبرم ، و يتجه يميناً ، وينحرف يساراً ، و يفرض الفروض ويثبتها ثم يثبت خطأها ، ويعود إلى ما كان عليه ، ثم يعدل عنه إلى ما يناقضه ، ويعدل عن هذا كله ، إلى شىء لم يخطر على باله ، ولا بال أجداده ، ويظهر هذا فى زيه ومأكله ومشربه ، وقانونه ونظامه ، وحربه وسلامه ، وتفكيره وتأليفه ، واختراعه وتصنيعه ، ليس عنده شىء مقدس ، وليس لديه نهاية يحسن الوقوف عندها أو الاكتفاء بها . فنفسه فى مثل سعة السموات والأرض ، وإرادته فى مثل صلابة الحديد والصلب ، لا تقتله الحروب ولا الكوارث ولا الأوبئة ، ولا تردعه النار ولا المشانق ، ولا العذاب ، يسقط حتى لا يظن أنه يطفو على السطح ، فإذا هو فى أجواز الفضاء ،

ويصعد حتى يبلغ السماكين ويظن الظانون أنه باق هناك ، فإذا هو قد انفلت من عليائه كأنه الشهاب ، يغيب فى ظلام السماء . وهذا هو سر تميزه على كل مخلوق ، وهذا فضله عند الله .

فالإنسان الذى يختار لنفسه ، ويخطئ ، ويصيب ، هو الإنسان الذى عناه الله تعالى بقوله : (فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون). أما إذا كان هدى الإنسان مضموناً ، لا يفضى إلى معصية ، أو كانت معصيته أبدية ، لا تنتهى بتوبة ، لما كان الإنسان إنساناً ؛ ولما سخرت له السموات والأرض ، وما بينهما. ولما اختير لهذه الخلافة العظمى التى شرفه الله بها .

فمن الخطأ الأول ، الذى انفرد الإنسان بتحمل مسئوليته ، خارجاً عن طاعة الله . وعن الأمر الذى أمره به سبحانه وتعالى، تسلسلت حلقات حياة الإنسان . خلافة الإنسان حر مختار فى القرار الذى يصدره ، وفى السبيل الذى يسلكه ، فهو إذن أهل للثواب والعقاب ، وبذلك يستقيم أن تكون حياة الإنسان من دنيا وأخرى ، وأن يكون فى الآخرة جنة ونار ، وأن يكون هناك خطأ وصواب ، وعقاب وثواب ، وتوبة ومغفرة ، أما إذا كان الإنسان مسيراً بلا إرادة أو إذا كان مصيباً بلا خطأ ، أو إذا كان خطأه بلا مغفرة ولا توبة ، لتغير وجه هذه الدنيا ، ولما نزلت الكتب السماوية ، ولما أرسلت العناية الإلهية أنبياء ورسلا ، ولما كان هناك هداة وعصاة ، وصالحون وطالحون ، ولما خلق المعلمون والمدرسون ، ولما تعدد الأتباع والأشياع .

فحياة الإنسان كلها تقوم على هذه الحرية ، وعلى التطور من الجهل إلى الرغبة فى المعرفة إلى الاهتداء إلى الحقيقة ، ثم الشك فيها ، معاودة البحث ، ثم الوقوع فى الخطأ ، ولما قامت الحضارات وبادت ، ولما تداولت الرذيلة والفضيلة الشعوب والأمم ، عهداً بعد عهد ، وجيلا بعد جيل .

ولو كان الإنسان محصناً ضد الخطأ ، لأصبح ملاكاً ، ولبقى على حاله ، كالنمل والنحل ، يبقى فى أحسن تقويم ، ولكن يبقى حيث هو ؛ لما احتاج إلى التجربة ، ولما أحس بالألم بعد المعصية ، ولما خرج من هذه وتلك ، أكثر حبًّا فى الخير ، وأشد إصراراً عليه ، حتى تضعف إرادته : مغريات الدنيا ووسوسة الشيطان ، وضعفه الذى ركب عليه .

فالأمانة التى اختارها الإنسان ، هى الاختيار نفسه ، الذى تعجز عنه الجمادات والحيوانات والنباتات . فالجبل الضخم ، والمحيط الفسيح : والسماء المترامية الآفاق كلها ، تطيع ربها ، وتسير فى أفلاكها وتبقى فى مواضعها ، والإنسان وحده الذى يملك أن يعلو فوقها ، وأن ينفذ فى أعماقها ، وأن يستخرج منها ما أخفته ، وأن يعرف من أسرارها ما احتوته ، فهى على جلالها وجمالها أصغر من الإنسان وأضأل .

ولكن الإنسان الذى اختار مصيره قد ألقى بنفسه فى وهدة الألم ، وأعماق الأحزان ، فهو سيكابد العذاب كلما واجهته حاجة إلى (قرار) وكلما تشعبت إليه سبل الاختيار ويبقى اختيار الطريق ، واختيار الكلمة ، واختيار الشخص ، واختيار الأسلوب ، واختيار المعيار : آلام عظمى ، تزلزل نفوس القادة والحكام ، وتشيب من أجلها النواصى ، ومن هنا حق للسموات والأرض أن يعتبروا أنهم أبعد نظراً ، فقد أشفقن من الاختيار ونجون منه ، بلسان الحال ، بطبيعة الحال ، لا بلسان المقال . .

فالإنسان استحق الخلافة : التى اختاره الله سبحانه وتعالى لها : لا لأنه معصوم لا يخطئ ولا لأنه كالملائكة ، لا يعصى لله أمراً ، ويطيع ما يؤمر ، ولا لأنه خير لا شر فيه ، وقوى لا ضعف به : بل إنه كما قالت عنه الملائكة بحق يفسد ويسفك الدماء ، ولكنه مع ذلك ، مستعد لإصلاح ما فسد ، ولتقويم ما اعوج ، وللتوبة عن الخطإ ، واستئناف الحياة .

والأمر الثانى ، أن (الأمانة) التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم ، والتى عرضت على السماء والأرض ، فأبينها وأشفقن منها هى كما سبق القول حرية الإرادة ، هى القدرة على الاختيار ، وهى أعظم مايتحمله الإنسان من أثقال وأوزار فى حياته منذ يولد ، حتى يوارى التراب . فاختيار الطريق ، والتفضيل بين الأمور ، والموازنة بين الأشخاص ، هى جوهر حياة الإنسان ، وهى التى تجدد جدارته للخلافة ، كما تجدد شقاءه (بالأمانة) ، وهو شقاء يزيد من قدره ، يوسع نفسه ، ويمنحه ثواب الاجتهاد .

فى الآية الثلاثين من سورة البقرة يقول الله تعالى :

(وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون) .

وفى الآية الحادية والثلاثين وما بعدها يقول الله تعالى :

(وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) .

ومن هذه الآيات ، يبدو واضحاً أن الله عز وجل ، أنبأ الملائكة بأنه جاعل فى الأرض خليفة ، وأن هذا الخليفة ، يمكن أن يصدر عنه الفساد وسفك الدماء ، فاعترضت الملائكة على هذا الاختيار ، فى حين أنهم لا يصدر عنهم شىء من ذلك ، فهم يطيعون الخالق ، ولا يخالفون له أمراً ، ولا يسبقونه بالقول . ومن باب أولى ، لا يسفك دماً ، ولا يفسد .

فكان جواب الله تبارك ، أن سأل الملائكة عن الأسماء كلها ، وهى الأسماء التى علمها سبحانه لآدم ، فأصبح عالماً بها ، داعياً لها ، فى حين أن الملائكة قد حرموا هذه المعرفة ، فثبت رجحان كفة آدم فى هذا المجال ، فانتقلت المفاضلة بين الملائكة من جهة ، وآدم من جهة أخرى ، من حيث الطاعة والمعصية ، إلى المفاضلة من حيث العلم والجهل ، وأعلن الله عز

وعلا مشيئته للملائكة فى تفضيل العالم الذى قد يخطئ إلى حد سفك الدماء وإتيان الفساد ، فى صدد الاختيار للخلافة فى الأرض ، عن المخلوقات التى تطيع ، وإن لم يكن لها حظ المعرفة . لا لأن الطاعة قليلة القدر ، ولا لأن المعصية عن الخطايا والذنوب ، فضيلة لا يجب أن يتحلى بها الخليفة ، ولكن لحكمة أعظم ، لأن العلم الصحيح ، هو بذاته التقوى وطاعة الخالق ، والانصياع لحكمه ، لأن الخروج على مقتضى أى منها يؤدى إلى الهلاك والشقاء والمذلة ؛ فآدم وأبناؤه ، بفضل العلم ، يهتدون إلى أحكام الله ، وينزلون على مقتضاها ، وإن كان هذا الاهتداء : سيتأخر حيناً ، وسيثقل عليهم حيناً آخر ، وسيضلون عن السبيل المؤدى إليه أحياناً ، ولكنهم بفضل الميل إلى العلم ، والشوق إلى المعرفة ، والاستعداد لتبين الجديد وكشف المخبوء ، والتطلع إلى البعيد والقريب ، سيبقى حرصهم على الهداية متجدداً ، وعملهم من أجل طاعة الله ، قائماً : يقوم به بعضهم ، أو تقوم به قلة ، أو يقوم به فرد ، ولكنه لا ينعدم كلية .

على أن الأمر لم يقف عند حد الاعتراض من جانب الملائكة ، فقد وصل الأمر إلى حد التمرد وإعلان العصيان جهرة من أحد هؤلاء الملائكة ، فى الآية الحادية عشرة من سورة الأعراف وما بعدها يقول الله تعالى :

(ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين. قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين) .

فحقت عليه العقوبة ، فقال الله تعالى : (قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين . قال أنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال إنك من المنظرين . قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين).

فما دلالة هذه الآيات؟

دلالتها الأولى أن إبليس استطاع أن ينفذ إلى موطن الغواية والإغراء من نفس آدم وهو موطن قوته وضعفه معاً . ونعني به ، شدة حبه للعلم ، وتشوقه الدائم إلى المعرفة ، وفضوله الذى لا يقاوم ؛ فلسنا مع المفسرين الذين يقولون إن الشيطان جاء لآدم وزوجه من جانب السلطان والخلود والملك الذى لا يبلى . فقد كانا فى الجنة ، وكانا لا يشكوان شيئاً ، ولا ينقصهما فيها ، مما تدفعهما إليه غرائزهما الإنسانية من مأكل أو ملبس أو مسكن أو راحة نفس ، ولكن الطمع الذى لا يشبع ، هو طمع المعرفة وشهوة العلم ؛ فلما حدثهما إبليس عن شيء لا يجهلانه ، ويختلف عما يعرفانه من لذائذ الجنة ومتعها ، تاقت نفسهما إليه ونسيا أمر ربهما ، فأكلا من الشجرة التى نهاهما ربهما عن الأكل منها .

ولسنا نريد أن نقف هنا أمام هذه الشجرة وماذا تكون ، ولا أن نتحدث عما إذا كانت شجرة بحق ، كشجرة الحنطة كما يقول بعض المفسرين الأجلاء ، أم أنها كناية عن شيء آخر يتفق مع سياق القصة وألفاظها ومدلولها ، ولكن الذى نريد أن نخلص إليه ، أن الشيطان ، أدرك منذ اللحظة الأولى ، حينما جرى الامتحان بين الملائكة وآدم ، فى الأسماء ، وما تفيد ، وعرف أن هذا العلم ، لا يقف عند حد ، ولا يقنع بشيء ، وأن ما يصل إليه ، يكون كالوقود فى النار ، يزيدها اشتعالا ، فما يعرفه الإنسان من شيء يدفعه ، إلى معرفة ما بعده ، وما بعده يجره إلى ما هو أعمق ثم إلى ما هو أبعد ثم إلى ما هو أشق من هذا كله : يشقى ويتعرض للزلل وللتعب وللمعصية وللآلام ، تكاد تندق عنقه فوق الجبال ، ويكاد يهوى من عل إلى أعماق الهاوية ، ومن البر إلى أعماق البحار ، وتكاد تتخطفه النسور وهو لا يخاف ، إلا للحظة ، يستجم فيها ، ويستجمع قواه ويندفع . وعندما يلوح له من أقصى الدنيا ، طرف للحقيقة ، يندفع لا يلوى على شيء . فاطمأن الشيطان وقال لأخرجن آدم وزوجه ، الذى لعنت

من أجلهما ، وطردت من الجنة بسببهما ، وقضى على أن أخرج من طائفة الملائكة مذموماً مدحوراً ، بعد خلقهما وقد قال فعلا (لأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) .

وقد طلب إبليس من رب العالمين :

(قال أنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال إنك من المنظرين) .

ولو عرض هذا الطلب على « آدم » نفسه عليه السلام ، أو لأحد من بنى آدم ، لأجرى فيه الحكمة البشرية القاصرة ، ولرفضه ، بغير تردد ، ولأقام حكمه على أسباب (بشرية) أيضاً تبدو لكل بنى آدم وجيهة : وجديرة بالاحترام .

فالله سبحانه وتعالى ، اختار « آدم » للخلافة على الأرض دون جميع عباده ومخلوقاته من ملائكة وجن . وذلك بعد أن خلقه بيده ، ثم أمر الملائكة — خير عباده المنقطعين لتقديسه وتنزيهه ، والذى يطيعون ما يؤمرون ، ولا يسبقون ربهم بالقول — أن يسجدوا لآدم .

فسجد الملائكة جميعاً إلا إبليس فكان جزاؤه أن يطرد من جنة الله ، وأن يحرم من رحمته ، وأن يبقى مذءوماً مدحوراً إلى يوم يبعثون .

ثم إن الله تعالى حذر آدم وبنيه من إبليس بقوله تبارك : (هذا عدو لك ولزوجك) وقد أعلن إبليس ماذا ينوى مع آدم وأولاده إذ قال : (لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) وكان إبليس فى خطته هذه مطمئناً إلى نتيجتها سلفاً ، لما عرفه من ضعف آدم فقال : (ولا تجد أكثرهم شاكرين) وشاكرون هنا بمعنى قادرين على الوفاء بالوعد، صابرون أمام الإغراء، مدركون لخطر وسوسته، أى وسوسة الشيطان .

لكل هذا ، يصبح طلب « إبليس » أن يمهل حتى يوم يبعثون حقيقا بالرفض ، لأنه سيتولى الكثيرين من أبناء آدم، يوسوس لهم ، ويخرجهم عن صراط الله المستقيم ، ويزين لهم المعصية، ويحسن الخطيئة ، ويعدهم

عن سبيل الله ، فهو عدوهم . عدو أبيهم وعدو أمهم ، وقد نجح فى طردهما من الجنة ، مقابل وعد كاذب ، ذلك هو الملك الذى لا يبلى . وتجربته الأولى من آدم وزوجه ، قد أثبتت كم هو قادر ، وكم كان الإنسان معه ضعيفاً .

ولكن لو رفض طلب إبليس ، كانت خلافة آدم عبثاً ، وتنزه الله سبحانه وتعالى عن العبث ، وتعالت حكمته وعمله عن البطلان .

فآدم خلق ، وبه ميل للفساد وسفك الدماء ، وهو لهذا ضعيف أمام الغواية ، ولذلك قد طرد إبليس من الجنة ، بسببه ، ليكون مصدر ابتلاء للإنسان ، يبعده عن الخير ، ويدنيه من الشر ، ويحبب إليه الرذيلة ، ويكرهه فى الفضيلة ، وسيقاوم الإنسان ما استطاع المقاومة ، وسينجح فى هذه المقاومة ، فيثاب ، وسيخفق فيجازى ، ولكنه لا يلبث أن يستأنف مقاومته فيقوم ويتعثر ، ويسير ويقف ، ويتقدم ويتأخر ، وفى هذا كله ينال حظاً من السعادة ، كما يصيب نصيباً من الشقاء ، فتتحقق مشيئة الله العظيم التى أفصح عنها القرآن الكريم ، بقوله عز وعلا :

(قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى . فمن اتبع هداى ، فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى ، فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى) .

وهذا هو جوهر حياة الإنسان ، وهذه هى ميزته عن الملائكة وعن الجن ، وعن إبليس فإنه قابل للابتلاء (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) وعن طريق هذا الابتلاء ، يعمر هذا الكون ، وتشاد فيه العمائر ، ويبدع فيه أبناء آدم ، من كل فن وعلم ، ما تتجمل به الحياة ، وتزداد اتساعاً ورحابة .

ولقد بدأ الشيطان حياته مع آدم ، مما اتضحت معه من حكمة رب العالمين ، وخالق الملائكة والإنس والجن أجمعين :

قال الله تعالى لإبليس :

(ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ! ، قال أنا خير منه ، خلقتنى من نار وخلقته من طين !) .

وجاء فى شرح البيضاوى لهذه الآية معنى طريف فقد قال :

« قال أنا خير منه » جواب من حيث المعنى ، استأنف به استبعاداً لأن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله ، كأنه قال المانع أنى خير منه ولا يحسن للفاضل أن يسجد للمفضول فكيف أن يحسن أن يؤمر به ، فهو الذى أصله التفكير وقال بالحسن والقبيح العقليين فقد خلقتنى من نار وخلقته من طين تعليلا لفضله ، وقد غلط فى ذلك بأن رأى الفضل كله باعتبار العنصر ، وغفل عما يكون باعتبار الفاعل كما أشار إليه بقوله تعالى : (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى) أى بغير واسطة » .

ومعنى ذلك أن « إبليس » وضع معيار القياس والمقابلة العقلية ، وقد جرى عليها الإنسان بعد ذلك ، فاحياناً يهتدى إلى الحق ، وأحياناً يضل ، لشدة اعتداده بعقله ، ناسياً أو مهملا خصائص أخرى فى نفسه ، ركبت فيه ، ليصل إلى الحقيقة .

وقد قال القرطبى فى هذا المعنى :

« قال ابن عباس والحسن وابن سيرين : أول من قاس إبليس فأخطأ القياس . فمن قاس الدين برأيه قرنه الله مع إبليس ، وقال ابن سيرين : ماعبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس وقالت الحكماء أخطأ عدو الله من حيث فضل النار على الطين ، و إن كانا فى درجة واحدة من حيث هما جماد مخلوق ، فإن الطين أفضل من النار من وجوه أربعة وأورد أربعة أسباب هى : الطين الرازنة والسكون ، والنار الخفة والطيش والحدة ، وتراب الجنة مسك ، والنار سبب العذاب والطين مستغن عن النار ، والنار محتاجة إلى المكان ومكانها التراب » .

ومهما كان الرأى فى هذه المقارنة بين النار والطين ، وأيهما أفضل ، فإبليس وضع أساس القياس بهذه المفاضلة ، وبدأ طراز جديد من المخلوقات ، يستعمل عقله فى كشف الحقائق ، وفى ابتداع الحجج ، وفى الرد على الخصوم ، وهذا كله أساس حضارة الإنسان وللدنيا التى خلقها فى هذه الأرض بإذن الله » .

ولا يغض من قدر هذا المنهج أن إبليس هو الذى بدأه ، فسنة الله فى خلقه ، أن الخير والشر ، ليسا أمرين ثابتين ، بل هما وقف على عقيدة الإنسان ونظرته إلى الأمور ، فما يكون خيراً فى يد إنسان يستحيل شراً فى يد آخر ؛ فالسلاح الذى يقتل به إنسان الضوارى المهددة لأمنه ، يستعمله إنسان فى قتل أخيه وجاره ، يروعهم ، ويعكر أمنهم ويقذف فى قلوبهم الرعب ، وما تنبته الأرض يمكن أن يكون سكراً ، كما يمكن أن يكون رزقاً حسناً . والطعام الذى يغذى الجسم ويقويه . قد يصيبه بالتخمة ويرديه . وقد استطاع الإنسان أن يحول منهج القياس ، إلى وسيلة للاستزادة من المعرفة ، والتدريب على الجدل المفضى إلى فصل الصحيح من الزائف ، ولكن ما كاد الشيطان يغلب الإنسان ، حتى يتحول الجدل إلى مماراة وسفسطة ، والقياس إلى تبرير الخطأ ، وتمويه الحقيقة ، واللعب بالحجة . وهكذا أكثر وسائل الإنسان ، ما يتناول منها شيئاً ، إلا ويقحم الشيطان نفسه فيها ، ليكسب منها ، ويحقق رسالة الشر التى أخذها على عاتقه ، والتى أعلنها لرب العالمين ، فى جرأة العاصى ، الذى لا أمل له فى نجاة ، ولا رغبة له فى توبة ، إنه سيواصلها فى غير هوادة .

وقد قال الله تعالى لآدم وزوجه ولإبليس :

(قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) .

فالإنسان وإن طرد من الجنة ، بعد أن استمع إلى وسوسة الشيطان ، إلا أنه لم يطرد من رحمة الله ، فلا تزال عناية الله ترعاه ، ولا يزال جهاده

من أجل إصلاح حاله ، ومقاومة هواجس الشيطان ووساوسه ، وتغريره ونزغه ، محسوباً له ، يكفر عنه السيئات ، ويكتب له حسنات .

وهدى الله يأتى به أنبياء الله ورسله ، فيأخذون بيده فى ظلمات الجهالة والشكوك التى ينسج خيوطها الشيطان ؛ ويرخى على النفوس سدولها ، ومصائد الشهوات ، وشباك الزلات ، التى يضعها فى طريق الإنسان ، مكشوفة ومستورة ، ليتخبط فيها ، ويقع فى حبائلها .

فهل نجا الأنبياء المرسلون مما يعانى منه سائر الناس ، من ويلات الابتلاء وآلام الامتحان ، إنهم أشبه بالملائكة من حيث كونهم معصومين ، فيما يخص الرسالة التى حملوها ، وبعض العلماء ، يحسبونهم أعلى درجة من الملائكة عند الله ، لأنهم فوق كونهم بشراً ، فهم مختارون من الله لأداء رسالة الله إلى الناس لا إلى فرد منهم ، ولا فى ظرف محدود ، وهم يكابدون فى سبيل هذه الرسالة ما لا يكابده الملائكة من الآلام ، والمشاق ، ومن تكذيب الناس لهم ، وصدهم الآخرين عن تصديق ما يقولون ، واتباع ما يعملون ، ثم ينسبون إليهم من النقائص والعيوب ، مالم يسمع عنه الملائكة ولا يعرفونه .

ولكن قضت مشيئة الله أن يكون الرسل بشراً ، يأكلون الطعام ، ويمشون فى الأسواق ، ويتزوجون النساء ، ويرزقون الذرية ، وتصيبهم تنزل العلل ، وبهم مصيبة الموت ، ويعرفون الثكل والحزن ، كما يعرفون اليتم والفقر ، وتجتمع عليهم المخاوف ، وتشتد بهم الهموم والخطوب ، وتتوالى عليهم المزائم ، ثم يبدو نصر الله بعيداً . وقد وصف القرآن الكريم هذه الحالات ، وذكر أتباع محمد عليه الصلاة والسلام بأنه ميت ، وأنه يقتل ، ووصف حالات تزلزل الرسول والذين معه . ونص الله تعالى صراحة فى سورة الكهف على لسان نبيه : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

وما كانت تفوته فرصة يؤكد فيها بشريته ، فقد دخل عليه صلى الله عليه وسلم رجل ، فأخذته رعدة من مهابة الرسول ، فبادره الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليطمئنه ، ويذهب عنه الروع ، وليؤد المبدأ الذى يقوم عليه « لست ملكاً جباراً ، وإنما أنا ابن امرأة تأكل القديد فى مكة » .

فلم يقنع عليه الصلاة والسلام بقوله بأنه ليس ملكاً وليس جباراً ، بل أردف ، هذا التقرير بأنه بشر ، ولم يقنع بقوله إنه بشر ، وإنما نسب نفسه لامرأة فقيرة فى مكة .

ولكن لا يزال فى القرآن الكثير فى بشرية الرسل ، وفيما يكابده الرسل من المتاعب والمشاق ، التى يتعرض لها سائر الإنسان ، وما يعالجونه من مشكلات الناس ، فى شئون حياتهم العادية ، وفى صلاتهم بالدين والرسالة التى حمل الرسول عبئها ، فإلى جانب ما كان يعانيه الرسول ، من الحرج لمطالبة الناس إياه بالمعجزات ومظاهر العظمة والجاه ، لأنهم بفعل الشيطان يستعملون القياس الذى استعمله الشيطان فى اليوم الأول حينما رفض أن يسجد لآدم بحجة أن آدم خلق من مادة أدنى وأنه خلق من مادة أعلى ، فقد كانوا لا يتصورون أن يكون الله قد اختار نبياً يهدى الناس ، وينقل إليهم أوامر السماء ، وينتقل بهم من حال إلى حال ، ويدعوهم إلى ترك ما ألفوه ، وهجر ما ورثوه ، ثم يكون واحداً منهم ، ليس له من الجاه ولا الثراء ولا النفوذ شىء ، بل يكون فى الأغلب الأعم من الفقراء الذين تزدريهم أعين الناس وقد سجل القرآن الكريم هذا فى قول الله تعالى : (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه) .

وإذا كان إلحاح الناس فى طلب هذه المعجزات ، مما يحرج الرسول لأنه لفرط حرصه على هداية الناس وأداء الرسالة ، يجعله يود لو كان

فى وسعه أن يرضى هذا الطلب ، على سذاجته ، وخلوه من فهم القيمة الحقيقية للأشياء ، وطعن الرسالة والدين ، حتى ينتقل هؤلاء المعاندون اللجوجون ، من الكفر إلى الإيمان ، ومن الفساد إلى الصلاح ، ومن الضعف إلى القوة ، ولكن سنن الله تأبى ، أن ينتقل الناس من ذلك إلى غيره مما يفضله ، بغير جهد من الناس ومكابدة ، هى فضل الإنسان ، وهى سر اختياره للخلافة ، ولو تكن هذه إرادة الله وحكمته ، لهلك إبليس فور اللحظة التى أعلن فيها تمرده ، ولعاش الإنسان ، لا يجد ما يزيغ قلبه ، ولا يبعث فى نفسه الشك ، ولا يحبب إليه الخطيئة ، ولما لقى فى حياته ، عناء فى كشف الحق ، وفى النجاة من الضلال . ولما قامت الحاجة إلى الرسل ، أو لما وجد الرسل فى أدائها عناء . إذ حسبهم أن يدعو الناس إلى رسالة السماء ودين الله ، فيتقاطر عليهم الناس أفواجاً يسمعون ويفهمون ويؤمنون ، ثم يعودون للسؤال والتثبيت ، ثم يتفاضلون بينهم بسعة النفس ، وقوة القلب ، وجلاء البصيرة ، ولكنهم جميعاً مؤمنون ثابتون ، لا يزعزع إيمانهم مصاب ، ولا يزيغ قلوبهم ملمة .

ولكن الرسل ، لم يجدوا قط من يستجيب لدعوتهم من بدء الدعوة ، إلا القلة المستضعفة وهى قلة ، لا تملك فى المجتمع الذى تعيش فيه لنفسها لا حلا ولا عقداً .

والرسول نفسه ، إزاء الصعاب المتعاظمة ، والعقبات المتزايدة ، يصيبه ما عبر عنه القرآن الكريم فى غير موضع فقال الله تعالى مثلا فى سورة الحج .

(وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) .

فالشيطان لا يقف فعله عند سائر الناس ، ولكنه لا يهوله أن يقتحم نطاق الرسالة ، وأن يعيث فى مجالها فساداً ، فقد أدرك أن العذاب كتب له ، وأنه لا يحق له أن يطلب المغفرة ، ولا أن يثوب إلى الصواب ، ولكن

الله ، يحمى رسله ، ويرسل لهم من يحميهم كما قال تبارك وتعالى : (إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم) ولذلك ما يلقى الشيطان فى أمنية الرسل شيئاً حتى ينسخه الله ، لتؤدى الرسالة على وجهها وقد قال الله تعالى فى سورة الإسراء (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا!) فالرسل مشمولون بعناية الله ؛ وإن حامت حولهم الشياطين ، ففعل الشيطان مردود إليه وسعيه مقصور عليه .

ومنذ بدء الخليقة ، والرسل ، وهم قدوة البشر ومثلهم العليا ، يبتلون ويمتحنون ، ويلتمسون من الله التوبة والمغفرة ، ويطلبون منه عز وعلا ، التثبيت والتأييد :

فآدم وزوجه يقولان : (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وقال موسى عليه السلام فى موضعين : (رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى) (فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) ! وقال تعالى عن داود عليه السلام : (فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب ، فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) .

قضت إرادة الله تعالى ، أن يجاب طلب إبليس ، حينما خاطب ربه بقوله : (قال ربى فأنظرنى إلى يوم يبعثون) فرد عز وتبارك : (قال فإنك من المنظرين) وقد أعلن إبليس بعد ذلك ، الحرب على الإنسان لفرط استكباره ولشدة غيرته ، فقد كبر عليه . أن يؤمر وقد خلق من نار ، أن يسجد لآدم ، وقد خلق من طين ، وكانت صيغة إعلان الحرب صريحة وعنيفة ، لا يسمعها أحد من بنى آدم ، حتى يملأ الخوف قلبه ، وحتى يطلب صادقاً من الله العون ، ولذلك جرت صلاة المسلمين من ذرية آدم ، على هذين المعنين إياك نعبد وإياك نستعين . فقد صاح إبليس (لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) .

والصورة القرآنية لخطة أبليس، كاشفة لما عقد عليه العزم هذا المخلوق المتكبر المريد، ذو الإرادة النافذة وقدرات الشر غير المتناهية ؛ ووسائل الإغراء المزلزلة لإرادة المقاوم ؛ فقد بدا من هذه الصورة أن الإنسان سيحاط به، من كل جانب، من أمام وخلف ؛ وعن يمين وشمال . حتى ليبدو معزولا عن كل الكون، محروماً من كل حول . ملقى به فى سجن بلا قرار . ولكن الإنسان، وإن بدا فريسة سهلة أمام إبليس وإغرائه ووسوسته لأن الإنسان، خلق ضعيفاً وكفوراً ؛ ويئوساً وقتوراً كما قال عنه خالقه تعالى ، إلا أنه بفضل رعاية الله ؛ وبفضل ما أودعه الله فى نفسه، من حبه للعلم، وشغفه الشديد بالمعرفة، وتطلعه الدائم إلى الغيب، وإلى المخبوء والدفين من أسرار نفسه، وغوامض دنياه ؛ قادر على أن يواجه أسلحة إبليس، وأن يبطل فى الكثير من الظروف والأحوال عملها .

وحينما بدأت المعركة بين الإنسان والشيطان . لم تكن معركة بين الخير والشر . وإلا لما كان هذا الكون الذى يعيش فيه الإنسان . ولما كانت هذه الحضارات والأديان ومحاولات الفكر، واجتهادات القلب بل كانت معركة بين الإنسان بكل خصائصه وصفاته، ومن تقلبه بين الشر والخير، وتذبذبه بين القوة والضعف، وتردده بين الهدى والضلال، فالإنسان الذى يرتفع إلى أعلى عليين فى التضحية والاستشهاد والعمل الصالح، هو نفسه الذى يبذ الشيطان قدرة على التدمير والتخريب، والفساد وسفك الدماء . . وتداخل الخير والشر، فى عمل الإنسان، هو الذى جعل المعركة بينه وبين الشيطان طويلة متجددة، وألا يكتب للشيطان فيها النصر من الجولة الأولى، فقد كانت أبرع حيلة، وأقدر على الإغراء من الإنسان الذى كان يدب على أرض هذا الكون، متأملا مديراً عينيه فى السماء والأرض، باحثاً عن طريق عن الهداية كما فعل « إبراهيم » عليه الصلاة والسلام إذ كلما وجد كوكباً حسبه ربه حتى

يأفل يبحث عن غيره ، وهكذا ولما كانت المعركة بين آدم والشيطان طويلة ، فكان لا بد أن يخلف آدم غيره ليواصلوا خوض مواقعها فى ظروف تتغير دائماً وبأسلحة تتطور إلى آخر العمر ، فقضت إرادة الله تعالى أن يكون لآدم شريكة فى الحياة ، وأن يكون لها ذرية ، تشبههما ، فى الجوهر ، وتختلف ، عنهما فى المظهر ، ذرية تواصل البحث عن الحقيقة ، وتنقب فى كل زمان ومكان عن مصادر المعرفة ، جوالة جوابة ، مشرقة مغربة ، يأتيها عون الله كما وعد تعالى عباده بقوله : فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى ، فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً) .

وعن هذا الدور الجديد من أدوار حياة الإنسان قال الله تعالى مخاطباً آدم وزوجته : (ولا تقربا هذه الشجرة) .

وجاء فى تفسير القرطبى عن هذه الشجرة : قوله تعالى ولا تقربا هذه الشجرة . أى لا تقرباها بالأكل ، قال ابن العربى سمعت الشاسى فى مجلس النضر يقول : إذ قيل لا تقرب العمل بفعل بفتح الراء ، كان معناها « لا تلبس الفعل بالفعل ، وإذا كان بضم الراء ، فإن معناه ، لا تقرب منه » .

ثم قال :

واختلف أهل التأويل فى تعيين هذه الشجرة التى نهى عنها فأكل منها ، فقال ابن مسعود وابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وجعدة بن هبيرة : هى الكرم ، ولذلك حرمت علينا الخمر ، وقال ابن عباس أيضاً ، وأبو مالك وقتادة : هى السنبلة والحبة منها ككلى البقر ، أحلى من العسل ، وألين من الزبد وقال وهب بن منبه : ولما تاب الله على آدم جعلها غذاء لبنيه ، وقال ابن جريج عن بعض الصحابة هى شجرة التين ، وكذا روى سعيد عن قتادة ، ولذلك تعبر فى الرؤيا بالندامة لآكلها ، من أجل ندم آدم عليه السلام على أكلها ، ذكره السهيلى ،

وقال ابن عطية : وليس فى شيء من هذا التعيين ما يعضده خبر وإنما الصواب أن يعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة فخالف إلهه ؛ وعصى فى الأكل منها ، وقال القشيرى أبو نصر : وكان الإمام والدى رحمه الله يقول : نقيم على الجملة أنها شجرة الخلد .

واختلفوا كيف أكل منها مع الوعيد المقترن بالقرب ، وهو قوله تعالى : (فتكونا من الظالمين) فقال قوم أكلا من غير الشجرة التى أشير إليها فلم يتأولا النهى واقعا على جميع جنسها ، كأن إبليس غره بالأخذ بالظاهر . قال ابن العربى : وهى أول معصية عصى الله بها على هذا القول . قال وفيه دليل : على أن من حلف ألا يأكل هذا الخبز ، فأكل من جنسه ، حنث .

وقال ابن المسيب : إنما أكل آدم بعد أن سقته حواء الخمر فسكر ، وكان فى غير عقله ، وكذلك قال يزيد ابن قسيط ، وكانا يحلفان بالله أنه ما أكل من هذه الشجرة وهو يعقل . وقال ابن العربى : وهذا فاسد نقلا وعقلا ، أما النقل فلم يصح بحال ، وقد وصف الله تعالى عز وجل ، خمر الجنة فقال (لا فيها غول) . أما العقل فلأن الأنبياء بعد النبوة معصومون عما يؤدى إلى الإخلال بالفرائض ، واقتحام الجرائم . قلت ، وهو الصحيح لإخبار الله تعالى فى كتابه بذلك حتما وعزماً فقال : (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل ، فنسى ولم نجد له عزماً) ولكن لما كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقظ لكثرة معارفهم ، وعلو منازلهم ما لا يلزم غيرهم ، كان تشاغله عن ذكر النهى تقبيحاً صار به عاصياً ، أى مخالفاً — قال أبو أمامة — لو أن أحلام بنى آدم منذ خلق الله الخلق إلى يوم القيامة ، وضعت فى كفة ميزان ، ووضع حلم آدم فى كفة أخرى ، لرجحهم ، وقد قال الله تعالى (ولم نجد له عزماً) .

• • •

ويقال إن أول من أكل من الشجرة حواء بإغواء إبليس إياها ، وإن أول كلامه كان معها لأنه وسواس المحنة ، وهى أول فتنة دخلت على الرجال والنساء ، فقال : ما منعكما من هذه الشجرة إلا أنها شجرة الخلد ، لأنه علم منها أنهما كان يحبان الخلد ، فأتاهما من حيث أحبا « حبك للشيء يعمى ويصم » فلما قالت حواء لآدم ، أنكر عليها وذكر العهد ، فالح « ابليس » على حواء ، وألحت على آدم إلى أن قالت : أنا آكل قبلك حتى إن أصابنى شيء سلمت أنت ، فأكلت فلم يضرها ، فأتت آدم فقالت : كل فأنا أكلت ولم يضرنى ، فأكل فبدت لهما سوءاتهما وحصلا فى حكم الذنب لقوله تعالى : (ولا تقربا هذه الشجرة) فجمعهما فى النهى ، فلذلك نزلت بهما العقوبة ، حتى وجد المنهى عنه فهما جميعاً» .

ويقول الأستاذ رشيد رضا :

ومجمل الآيات اللاحقة أن الله تعالى أمر آدم وزوجه بسكنى الجنة ، والتمتع بها ، ونهاهما عن الأكل من شجرة مخصوصة ، وأخبرهما أن قربها ظلم ، وأن الشيطان أزلهما عنها فأخرجهما مما كان فيه من النعيم إلى ضده ، ثم إن آدم تاب إلى الله من معصيته ، فقبله ، ثم جعل سعادة هذا النوع باتباع هدى الله وشقاءه بتركه وقد تقدم أن الآيات كلها قد سيقت للاعتبار ببيان الفطرة الإلهية التى فطر عليها الملائكة والبشر ، وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عما يلاقى من الإنكار ، وتقدم وجه ذلك فى الآيات السابقة ، وأما وجهه فى هذه الآيات فظاهر ، وهو أن المعصية من شأن البشر كأنه يقول : فلا تأسى يامحمد على القوم الكافرين ، ولاتبخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ، فقد كان الضعف فى طباعهم ، ينتهى إليهم سالف لهم : تغلب عليهم الوساوس ، فتذهب بصبرهم الدسائس ، انظر ما وقع لآدم ، وما كان منه ، وسنة الله مع ذلك لاتتبدل

« أما تفسير هذه الآيات بالتفصيل فقد اختلف علماء المسلمين من

السنة وغيرهم في الجنة . هل هي البستان أو المكان الذى تظلله الأشجار بحيث يستتر الداخل منه كما يفهم من أهل اللغة أم هى الدار الموعود بها فى الآخرة ، والمحققون من أهل السنة ، على الأول — أى أنها فى هذه الآيات هى البستان ، وليست الدار الموعودة فى الآخرة قال أبو منصور الماتريدى فى تفسيره المسمى بالتأويلات : إن هذه الجنة بستان من البساتين ، أو غيضة من الغياض ، كان آدم وزوجه منعمين فيها ، وليس علينا تعيينها والبحث عن مكانها ، وهذا هو مذهب السلف ولا دليل لمن خاض فى تعيين مكانها من أهل السنة وغيرهم .

« وبهذا التفسير — والكلام لايزال للأستاذ رشيد رضا — وبهذا ، التفسير تنحل إشتكالات كثيرة وهى .

١ — أن الله خلق آدم فى الأرض ليكون هو ونسله خليفة فيها ؛ فالخلافة مقصودة ، بالذات فلا يصح أن تكون عقوبة عرضية .

٢ — أنه لم يذكر بعد خلقه فيه الأرض أنه عرج به إلى السماء ؛ ولو حصل لذكر لأنه أمر عظيم .

٣ — أن الجنة الموعود بها لا يدخلها إلا المؤمنون والمتقون فكيف ، دخلها الشيطان الكافر الملعون .

٤ — أنها ليست محلا للتكليف .

٥ — أنه لا يمنع من فيها من التمتع بما يريد منها .

٦ — أنه لا يقع فيها عصيان .

وقال — المرحوم الشيخ رشيد رضا ، فى شرح « وكلا منها رغداً حيث شئتما » إباحة التمتع بتلك الجنة والتنعم بما فيها ، أى كلا منها أكلا رغداً واسعاً هنيئاً من أى مكان فيها إلا شيئاً واحداً ، نهاهما عنه بقوله : « ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » لأنفسكما بالوقوع فيما ، يترتب على الأكل منها ولم يعين الله تعالى لنا هذه الشجرة فلا نقول فى تعيينها شيئاً وإنما نعلم أن ذلك لحكمة اقتضته . ولعل فى خاصية تلك

الشجرة ما هو سبب خروجهما من حال إلى حال ، وربما كان الأكل منها ضرر ، أو كان النهى ابتلاء وامتحاناً منه تعالى ليظهر به ما فى استعداد الإنسان من الدليل من الميل إلى الإشراف على كل شئ واختباره ، وإن كان فى ذلك معصية يترتب عليها ضر.

وقال الأستاذ رشيد أيضاً فى تفسير الآيات من التاسعة عشرة إلى الخامسة والعشرين من سورة الأعراف :

النهى عن قرب الشئ أبلغ من النهى عنه كما بيناه فى تفسير (تلك حدود الله فلا تقربوها) تعريف الشجرة كتعريف الجنة ، وهى مشار إليها فى تلك الآية بما يعين شخصها ، ولم يبين فى القرآن نوعها ولاوصفها . إلا ما جاء فى الآية التالية عن إبليس ، ومثله فى سورة طه .

وفى الفصل الثانى من « سفر التكوين » أول أسفار التوراة ما نصه : وغرس الرب الإله فى الأرض من كل شجرة ش ية للنظر ، وجيدة للأكل ، وشجرة الحياة فى وسط الجنة ، وشجرة معرفة الخير والشر ثم قال « وأخذ الرب الإله آدم ، ووضعه فى جنة عدن ليعملها ويحفظها ، وأوصى الرب الإله آدم قائلا : من جميع شجرة الجنة تأكل أكلا ، وأما شجرة معرفة الخير والشر ، فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل منها تموت موتاً »

وقد أكل آدم من الشجرة ولم يمت يوم أكلها .

والقرآن قد علل النهى بأنه يترتب على مخالفته أن يكونا من الظالمين لأنفسهما ، أى بفعلهما ما يعاقبان عليه ، ولو بالحرمان من ذلك الرغد من العيش ، وما يعقبه من تعب فى المعيشة .

(فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ورى عنهما من سوآتهما) والظاهر هنا أن الشيطان تمثل لآدم وزوجه ، وكلمهما ، وأقسم لهما ، ولامانع منه على قول الجمهور . ومن جعل القصة تمثيلا لبيان حال النوع البشرى فى الأطوار التى تنقل فيها ، يفسر الوسوسة ، بأن الإنسان عندما ينتقل من طور الطفولة التي لايعرف فيها هما ولانصباً ، إلى طور التمييز

الناقص ، يكون كثير التعرض لوسوسة الشيطان واتباعها . وقد عللت هذه الوسوسة بأن غايته وغرضه منها أن يظهر لهما ما غطي وستر من سوآتهما . ثم قال الأستاذ رشيد: ومن باب الكناية بدت سوأته وبدت لهما سوآتهما. « إذا أضيفت السوأة إلى الإنسان أريد بها عورته الفاحشة لأنه يسوء بمقتضى الحياء الفطرى ما لم يفسده بتعود إظهارها مع آخرين فيرتفع الحياء » .

(وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) أى قال فيما وسوس لهما . ما نهاكما ربكما من هذه الشجرة أن تأكلا منهما إلا لأحد أمرين : أن تكونا بالأكل منها ملكين . أى كالملكين فيما أوتى الملائكة من الخصائص كالقوة وطول البقاء وعدم الفناء ، بفواعل الكون المؤلمة والمتعبة وغير ذلك . وقرأ ابن عباس وابن كثير « ملكين » بكسر اللام ، واستشهد له الزجاج بما حكاه الله تعالى فى سورة طه بقوله : (قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) (فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) أى فلما ذاقا ثمرة الشجرة ظهرت لكل منهما سوأته وسوأة صاحبه : وكانت مداراة عنهما : قيل بلباس من مادة (ظفر اليدين والرجلين) وكان يسترهما فسقط عنهما وبقيت له بقية فى رءوس أصابعهما والأقرب عندى أن معنى ظهورهما لهما ، أن شهوة التناسل دبت فيهما بتأثير الأكل من الشجرة فنبهتهما إلى ما كان خفيا عنهما من أمرها ، فخجلا من ظهورها وشعرا بالحاجة إلى سترها .

فالمواراة كانت معنوية فإن كانت حسية فلاشىء إلا الشعر ساتر خلقى وقد تظهر الشهوة ما أخفاه الشعر ، وإن لم يسقط بتأثير الأكل ، ويدل على كل من هذين المعنيين فطرة الإنسان التى نزلت الآيات فى شرح حقيقتها وغرائزها » .

* * *

وقد يحسن أن ننقل هنا ، ما جاء فى الإصحاح الثالث ، من سفر التكوين ، أول أسفار التوراة عن قصة خلق آدم وزوجه ، لتكتمل لنا النصوص فى شأن هذه القصة :

(١ —) كانت الحية أصل جمع الحيوانات البرية التى عملها الرب الإله فقالت الحية : أحقاً قال الله لا تأكلان من كل شجرة الجنة ، فقالت المرأة للحية : من ثمر — شجر الجنة — نأكل ، وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله لا تأكلان ولاتمساها لئلا تموت . فقالت الحية للمرأة : لن تموتا ، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح عيونكما وتكونا كالله عارفين الخير والشر . فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل . وأنها بهجة للعيون ، وأن الشجرة شهية للنظر ، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً فأكل منها فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق التين وصنعا لأنفسهما مآزر .

« وسمعا صوت الرب الإله ماشياً فى الجنة عند هبوب ريح النهار . . فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله فى وسط الشجرة . فنادى الرب الإله ، آدم : فقال من أعلمك أنك عريان ؟ هل أكلت من الشجرة ، التى أوصيتك ألا تأكل منها . فقال آدم المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلت . فقال الرب الإله للحية : لأنك فعلت هذا معاونة أنت من جميع البهائم ، ومن جميع وحوش البرية ، على بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتك ، وأضع العداوة بينك وبين المرأة ، ومن نسلك ونسلها . هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه .

وقال تكفيراً أكثر أتعاب حملك . بالوجع تلدين أولاداً ، وإلى الرجل يكون اشتياقك ، وهو يسود عليك . قال لآدم لأنك سمعت لقول امرأتك ، وأكلت من الشجرة التى أوصيتك قائلا : لا تأكل منها ، ملعونة الأرض بسببك ، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك ، وشوكاً وحسكاً تنبت لك ، وتأكل عشب الحقل . بعرق جبينك . تأكل خبزاً حتى

تعود إلى الأرض التى أخذت منها لأنك تراب ، وإلى التراب تعود . ودعا آدم اسم امرأته [حواء] ، لأنها أم كل حى » .

بهذا الإغراء والعصيان بدأت حياة خليفة الله فى الأرض ، فتحقق ماتوقعته الملائكة ، فالإنسان فيه ميل للإفساد ، وقدرة عليه ، وحب لسفك الدماء ، وإن كان ذلك اللون من الشر ، لن يتم على يدى آدم نفسه ، ولكنه سيقع على يدى أول جيل من أولاده . ليتم ظهور معالم الحياة الإنسانية ظهوراً ، تبدو معه مخاوف الملائكة ، من شرور هذا المخلوق الجديد ومعاصيه أقل –بكثير مما سيأتى به المستقبل :

ولكننا سنرى أن فى كل منعطف من حياة آدم وأولاده ، وإن بدا الشر مروعاً مخيفاً ، خيراً لا يلبث حتى يبدو أكثر روعة على الطمأنينة ، مؤكداً أنه جدير حقاً بالرسالة التى اختير لها ، وبالأمانة التى اختارها لنفسه .

ولكن لنا أن نتساءل ماذا؟ تكون هذه الشجرة ؟ وماذا تعنى هذه القصة ، قصة آدم وحواء ، ومعصيتهما الأولى التى استحقا معها أن يطردا من الجنة ، كما طرد إبليس ، مع فارق كبير ، هو أن إبليس طرد منها مذموماً مدحوراً ، وطرد منها آدم موعوداً بأن الله سيبعث إلى ذريته وبنيه هداة يأخذون بيده ، ويرشدونه إلى الطريق المستقيم ، وأن من هؤلاء من سيلبى داعى الله فيهتدى وأن منهم من سيضل ويشقى : فتكون حياته ضنكاً . فحياة آدم ، بقيت مفتوحة السبل إلى ماهو أفضل وأبقى ، وحياة إبليس ختمت ، فهى لم تعد أن تكون فصلا واحداً ، ابتدأت وانتهت عنده .

وعلى ضوء جميع نصوص القرآن التى تحكى قصة آدم وزوجه ، وعلى هدى من سياق قصة خلق آدم ودعوة الله تعالى الملائكة ليسجدوا له كلهم جميعاً نرى أن قصة آدم وحواء ، هى قصة كل أبناء آدم ، وأن دور (الشجرة) والوقوف إليها والميل إلى قطف الثمرة منها ، هو الدور

الذى يمر به كل آدمى ، حينما يبلغ السن الذى يكتمل فيه نموه ، ويبلغ عنده أشده ، وتقوى فيه غرائز حياته إنه دور الاشتياق إلى المرأة ، للاتحاد معها ، ليكون من وراء هذا الاتحاد ، خروج جيل جديد ، يخرج منه جيل منه ، ثم تتوالى الأجيال وتتعاقب ، فيكون لجنس آدم ونوعه ، ما يشبه الخلود ، وما يتحقق خلاله ما يصح أن يوصف بأنه ملك لايبلى . إذ سيكون لفريق من أبناء آدم ، من السطوة والنفوذ ، والتحكم فى هذا الكون ، ماتنقطع دونه رقاب الشياطين والأبالسة ، فلا يصلون إلى عشر معشاره ، كما سيكون لفريق آخر من أبناء آدم هذا ، من فتوحات الروح والعقل ، ما لايبلى على الزمن ولا ينقضى ، فأفكار الهداة والأنبياء ، وأقوال المفكرين والفلاسفة ، وخواطر الأدباء والشعراء ، تتناقلها الأجيال ، وتحفر على صفحات القلوب والعقول ، وتبعث فى حياة هذا الكون من صور الجمال وآيات الجلال ، ما لم يخطر على بال إبليس ، ولم يرد على خاطره ، وهو يقول لآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى .

لقد كان آدم وحواء ، ككل ابن من أبنائهم ، وبنت من بناتهم ، طفلين ، بريئين ، لايدركان ما العرى ، ولايعرفان ما العورة ، ولا يحس أحدهما نحو الآخر ، إلا بألطف المشاعر ، وأبسطها ، حتى تهيأ جسدياً وعاطفياً ، لدور جديد من أدوار الرسالة التى اختارها آدم ، وقبلها ، فى حين أشفق منها الكون كله ، بجباله وأرضه وسمواته . وإذا كانت تلك هى غواية آدم الأولى ، فلأن الله تعالى أراد أن تكون أقوى ميوله ، وأشدها استبداداً به ، وتسلطاً عليه ، هو ميله للأنثى ولقد قال الله تعالى : (زين للناس حب الشهوات من النساء) فجعل هذه الشهوة أقوى شهواته ، وأحقها بالتقديم عند بيان سائر شهواته .

وعندما يبدأ إحساس الرجل بالمرأة . بوصفها أنثى ، يتغير كل شىء

فيه فتشتد وساوسه وتتنوع هواجسه ويدرك إدراكاً خفياً أن شعوراً خفياً يدفعه إلى عمل لا يتبين مداه، ولا تتضح له صورته ، ولكنه لا يملك معه إلا الطاعة والإذعان ، وتبدأ المرأة ، فى الخجل ، فتبعد عن الرجل . وتحمر خجلا ، إذ تراه ، ولكنها مع ذلك . تتعقبه ، وتجرى وراءه مجذوبة بدورهما بقوة لا تملك لها دفعاً ، كما لا تملك منها نجاة .

ولقد بقى فى قاموس البشر من تاريخ هذه الواقعة الكبرى الكثير فالشجرة لا تزال عند الناس رمزاً إلى توالد الإنسان جيلا بعد جيل : وبروز عظمة العنق فى جميع اللغات هى جوزة آدم ، أو تفاحة آدم ، وهى عظمة لا تظهر إلا عند البلوغ .

وشعور الإنسان بالفتور وبشىء من الندم عند الفراغ من الاتصال بأنثاه : هى أثر جسمى لهذه الوظيفة الإنسانية ولكنها مختلطة ببقية ما ورثه الإنسان جيلا بعد جيل من الشعور بالندم عند الاقتراب الأول بين الرجل والمرأة والشعور بالسوأة ، وبأنهاسوأة وبأنها فى حاجة إلى الستر لا يبلغ أقصى مداه إلا بعد أن تهدأ ، غريزة الإنسان عندما تستوفى حاجتها .

لقد ضمن آدم بهذه المعصية ، أن يبقى على هذه الأرض سيداً يموت هو ولكن الذين سيأتون من ظهره سيتمون رسالته .

جاء فى تفسير الطبرى :

« واختلف أهل التأويل فى الحال التى خلقت لآدم زوجته ، والوقت الذى جعلت له سكناً ، فقال ابن عباس ، وابن مسعود .

فأخرج إبليس من الجنة حين لعن ، وأسكن آدم الجنة ، فكان يمشى فيها وحشاً ليس له زوج يسكن إليها ، فنام نومة فاستيقظ ، وإذا عند رأسه امرأة قاعدة ، خلقها الله من ضلعه فسألها : من أنت ؟ فقالت امرأة. قال ولم خلقت ؟ قالت تسكن إلى وقالت له الملائكة ينظرون مبلغ علمه : ما أسمها يا آدم ؟ قال : حواء . قالوا ولم سميت حواء . قال لأنها خلقت من شئ حى . فقال الله له : (يا آدم اسكن أنت وزوجك

الجنة وكلا منها وغداً رغداً حيث شئتما) .

إن الإنسان الذى استخلفه الله تعالى فى الأرض . هو آدم ، ولكن مالبث حتى خلقت منه ، زوجه ، وخلق منهما رجالا ونساء (يأيها الناس، اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء .جاء فى التفسير ، أن حواء خلقت من ضلع من اضلاع آدم ، وهو نائم ، فتم خلقها من غير أن يحس آدم عليه السلام بذلك ، ولو ألم بذلك لم يعطف رجل على امرأته ، فلما انتبه قيل له من هذه؟ قال امرأة، قيل وما اسمها قال: حواء ، ولم سميت امرأة ، لأنها من المرء أخذت، قيل ولم سميت حواء. قال لأنها خلقت من حى . روى أن الملائكة سألته عن ذلك لتجرب علمه وأنهم قالوا له : أتحبها يا آدم قال : نعم،قالوا لحواء : أتحبينه يا حواء؟ قالت : لا ، وفى قلبها أضعاف مافى قلبه من حبه، قالوا لو صدقت امرأة فى حبها لزوجها لصدقت حواء . وقال ابن مسعود وابن عباس : لما أسكن آدم الجنة مشى فيهامستوحشاً فلما نام خلقت حواء من ضلعه القصرى من شقه الأيسر ليسكن إليها، ويأنس بها ، فلما انتبه رآها قال من أنت ؟ قالت امرأة خلقت من ضلعك لتسكن إلى ، وهومعنى قوله تعالى: (هوالذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) قال العلماء : ولهذا كانت المرأة عوجاء ،لأنها خلقت من أعوج ، وهو الضلع . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المرأة خلقت من ضلع — وفى رواية : وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه — لن تستقيم لك على طريقة واحدة ، فإن استمتعت بها استمتعت وبها عوج وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها وقال الشاعر :

هى الضلع العوجاء لست تقيمها ... ألا إن تقويم الضلوع انكسارها
أتجمع ضعفاً واقتداراً على الفتى ... أليس عجيباً ضعفها واقتدارها

ومن هذا الباب ، استدل العلماء على ميراث الخنثى المشكل ، إذا تساوت فيه علامات النساء والرجال من اللحية والثدى ، والمبال تتعصى الأعضاء ، فإن نقصت أضلاعه عن أضلاع المرأه أعطى نصيب رجل ، وروى ذلك عن على رضى الله عنه - لخلق حواء من أحد أضلاعه .

وقد مر بنا فى مقال سابق عن ابن المسيب قال : إنما أكل آدم (من الشجرة المحرمة) بعد أن سقته حواء الخمر ، فسكر ، وكان فى غير عقله ، وكذلك قال يزيد بن قسيط ، وكانا يحلفان بالله أنه ما أكل من هذه الشجرة وهو يعقل . وقد أنكر هذا ابن العربى ، وقال : وهذا فاسد نقلا وعقلا ، أما النقل فلا يصح بحال ، وقد وصف الله عزوجل خمر الجنة فقال : [لا فيها غول] وأما العقل فلأن الأنبياء بعد النبوة معصومون عما يؤدى إلى الإخلال بالفرائض . واقتحام الجرائم .

لقد خلقت حواء ، بعد خلق آدم ، فماذا كان دورها ، فى خلافة الإنسان لربه على الأرض . جاء فى التفسير أن آدم كان يمشى فى الجنة وحشاً ، ليس له زوج يسكن إليها ، وأن الله خلقهاله ، من ضلعه ، وهو نائم ، لكيلا يألم ، حتى لا يكون ألمه داعياً إلى كرهه لها أوضعف حبه على الأقل.

فأول ماقامت به حواء لآدم ، الزمالة فى هذه الأرض ، والصحبة، وأن تكون مصدراً للطمأنينة ومبعثاً للسكينة ، وهى بهذه الصحبة ، توفر التناسق بين آدم وبين الكون المحيط به ، فثنائية تكوين العالم المحيط بآدم يوائمها ثنائية حياته فى الكون السالب والموجب ، والليل والنهار ، والحرارة والبرودة ، والتمدد والانكماش ، والامتلاء والفراغ ، والحياة والموت ، والسموات والأرض ، والماء واليابس ، فلابد أن يكون فى الحياة الآدمية : الذكورة والأنوثة ، وأن تخرج منهما الأبناء والبنات ، ليكون

من وراء خلق هذا الجيل ، قيام الجديد والقديم ، والصغير والكبير ، وليكون من ثمار هذا التوالد المتنوع الذى يحمل من صفات الذكورة شيئاً ، ومن خصائص الأنوثة شيئاً ، قدرات إنسانية لاحصر لها ، تتدرج من الكمال إلى النقص ، ومن القدرة إلى العجز ، ومن الثبات إلى التذبذب فالتحول ، وهى صفات وخصائص ، لاتقف كالأضداد الواحد عكس الآخر تماماً ونقيضه ، فكل شىء فى الكون يتلاقى ويتقارب ، ثم ينفرج ويتباعد ، ليتلاقى من جديد ويتقارب ، فالظلام والنور ، يتلاقيان حتى يتداخل أحدهما من الخارج ، فعند الفجر لاتدرى أيضاً نصف الحالة القائمة ، أهى ظلام يخف وينسحب . أمام نور، ينتشر ويسود. والله سبحانه وتعالى يقول : (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) وهو يقول أيضاً : (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً) وحثيثاً هنا معناه ببطء وخفاء .

فالذكر والأنثى ، يتداخلان ، والقرآن الكريم يصف علاقة النساء بالرجال بقوله : (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) .

وخلق حواء من آدم ، وإن لم يصرح القرآن بكيفيته إلا أنه نص على حصوله فقال تعالى : (اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة) (وهو الذى خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها) (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً) .

فخلق حواء من آدم ، تأكيد لوحدة البشرية ، ومع هذه الوحدة ، فهى تتكون من عناصر تختلف ولكن لاتتنافر ، ككل شىء فى الكون ، يتباين ولكنه ينسجم فى إطار فسيح واسع ، لخضوعه لناموس واحد وثابت .

ومنذ خلقت حواء والخطاب موجه من الله تعالى لها ولآدم معاً، سواء كان أمراً أو نهياً أو حكماً . كأنهما نفس واحدة: ففى سورة البقرة : (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغداً) وفى الأعراف :

(ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما) وفى طه : (يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك) .

وحكاية إبليس مع آدم ، فى مختلف أدوارها ، تذكر فيها حواء ، كما يذكر فيها آدم ، ويستعمل القرآن الكريم فى روايتها صيغة المثنى ، فى سورة البقرة قال الله تعالى : (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه) وفى سورة الأعراف : (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ، قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) ثم قال فى السورة نفسها : (يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما)

وفى سورة طه استمرت حكاية معصية آدم وحواء ، بصيغة المثنى ، كما هو الحال فى سورتى البقرة والأعراف ، مع فارق واحد ، هو أن التحذير الموجه من الله تعالى ، من خطر إبليس وعداوته ، وجه إلى آدم وحده ، وأن وسوسة الشيطان ، كانت لآدم وحده ، ثم ينتقل الكلام من صيغة المفرد الغائب إلى صيغة المثنى الغائب .

قال تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ، فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة

فتشقى ، وإن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وإنك لاتظمأ فيها ولا تضحى فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) .

فالقرآن الكريم صريحة آياته ، فى نفى ما ذهب إليه بعض المفسرين ، من تحمل حواء مسئولية السقوط فى الغواية ، ومقارفة المعصية ، ومن أن إبليس ، استضعفها ، وبدت له فريسة أضعف حولا ، وأقل حيلة من آدم ، فلما استمالها إليه ، استمالت هى بدورها آدم ، وقد أرادت أن تجرأه على المعصية ، وتشجعه على الاستماع إلى وسوسة الشيطان ، فأكلت من الشجرة فلما لم يصبها شىء ، أكل آدم فنالهما معاً العقاب فى الحال ، فسقط عنهما ما كان يسترهما وبدت لهما سوءاتهما .

وفى هذا المعنى يقول القرطبى : قال إن أن من أكل من الشجرة حواء بإغواء إبليس إياها وإن أول كلامه كان معها لأنها وسواس المحنة ، وهى أول فتنة دخلت على الرجال من النساء ، فقال أى إبليس : ما منعكما من هذه الشجرة إلا أنها شجرة الخلد لأنه علم منهما أنهما كانا يحبان الخلد فأتاهما من حيث أحبا (وحبك الشىء يعمى ويصم) — فلما قالت حواء لآدم أنكر عليها وذكر العهد ، فألح على حواء وألحت حواء على آدم ، إلى أن قالت : أنا آكل قبلك حتى إن أصابنى شىء سلمت أنت ، فأكلت فلم يضرها فأتت آدم فقالت : كل فإنى قد أكلت فلم يضرنى ، فأكل فبدت لهما سوءاتهما وحصلا فى حكم الذنب لقوله تعالى : (ولا تقربا هذه الشجرة) فجمعهما فى النهى . ولذلك لم تنزل بها العقوبة حتى وجد المنهى عنه منهما جميعاً وخفيت على آدم هذه المسألة ، ولهذا قال بعض العلماء إن من قال لزوجتيه أو لأمتيه : إن دخلتما الدار فأنتما طالقتان أو حرتان ، أن الطلاق والعتق ، لايقع بدخول إحداهما » .

فالقائلون بهذا وما يشبهه من المفسرين ، يريدون أن يجعلوا حواء

هى أداة الشيطان، ووسيلته فى الغواية ، وصرف الرجال عن طريق الهداية ، وهو رأى كما ترى ، مخالف تماماً لصريح نص القرآن الذى يجعل الوزر كله على آدم ، بل إن القرآن ، لا يحكى قصة الخروج من الجنة ، على الوجه الذى يخص حواء بالخطيئة ، والسبق إلى الميل إليها ، والرغبة فى إتمامها ، والإلحاح على آدم بتحسينها ، وإدخال الطمأنينة إلى قلبه ، من حيث انعدام الخطر منها ، بل إنه تعالى ، يخص آدم وحده بقوله تعالى : (وعصى آدم ربه فغوى) كما قال تعالى (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً).

وقد مر بنا قول ابن المسيب الذى ينسب إلى حواء ، أنها حين عجزت عن أن تسكر زوجها ببيانها وحديثها وحجتها أسكرته مادياً ، فسقته الخمر ، حتى غاب عن صوابه . ومرد هذا كله ، وما يشبهه من الاتجاهات المنافيه لروح الإسلام ، الحريصة على النزول بالمرأة من درجة المشاركة فى الحياة الزوجية ، إلى حضيض الغواية والفساد ، هو الإسرائيليات من جهة ، وما دخل على حياة العرب من مخالطة الأتراك والديلم وأشباههم بعد عصر الفتوحات ، فبعض هذه الشعوب ، كانت تنظر إلى المرأة نظرتها إلى الشيطان الذى يحبب للرجال لذات البدن ، ويصرفهم عن الفضائل ، ويصدهم عن واجبات الجهاد وذكر الله ، وإقامة الدين ، وهو العصر الذى نشأ فيه الفسق والزندقة والذى نحيت فيه المرأة عن المجتمع الإسلامى ، وأصبح الحجاب ضرباً من السجن والاعتقال . وكان ذلك كله ، بداية لتدهور المسلمين كلهم ، رجالا ونساء .

وقد نقلنا فى المقال السابق ، ما جاء فى سفر التكوين من التوراة ، عن مشهد الغواية ، والسقوط فى الخطيئة ، ومن مطالعة هذا النص فى التوراة ، يبدو أنه الأصل المباشر لما تسرب إلى كتب التفسير ، ونعيد بعضه لنسهل متابعة الكلام ، جاء فى التوراة :

قالت الحية : أحقاً قال الله لا تأكلان من كل شجر الجنة ، فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل ، وأما ثمرة الشجرة التى فى وسط الجنة

فقال الله لا تأكلان ولا تمساها لئلا تموتا فقالت الحية للمرأة ، لن تموتا ، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تتفتح عيونكما كالله، عارفين الخير والشر ، فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل ، وأنها بهجة للعيون ، وأنها الشجرة الشهية فانظرى ، فأخذت من ثمارها وأعطت ثمارها رجلها أيضاً فأكل منها فانفتحت عيونهما وعلما أنهما عريانان » .

ويمكنك أن ترى أثر هذا النص ، فيما ينقله بعض المفسرين عن وهب ابن منبه من أهل الكتاب الذين دخلوا فى الإسلام ، ودرجوا على أن يفسروا القرآن ، فى ضوء ما يعرفونه من التوارة والإنجيل الموجودين بين أيديهما الآن ، مما جاء فى تفسير القرطبى :

« عن وهب بن منبه ، دخل (إبليس) الجنة فى فم الحية ، وهى ذات أربع ، من أحسن دابة خلقها الله تعالى ، بعد أن عرض نفسه على كثير من الحيوان فلم يدخله إلا الحية، فلما دخلت به الجنة، خرج من جوفها إبليس فأخذ من الشجرة التى نهى الله آدم وزوجته عنها فجاء بها إلى حواء فقال : انظرى إلى هذه الشجرة ، ما أطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها ! فلم يزل يغويها حتى أخذتها حواء فأكلتها . ثم أغوى آدم ، وقلت له حواء : كل فإنى أكلت فلم يضرنى ، فأكل منها فبدت لهما سوآتهما وحصلا فى حكم الذنب ، فدخل آدم فى جوف الشجرة فناداه ربه : أين أنت ؟ فقال أنا هنا يارب ، قال ألا تخرج قال أستحى منك يارب » والفقرة الأخيرة ، منقولة بحروفها من سفر التكوين ، فقد جاء فيه : « سمعا (آدم وحواء) صوت الرب الإله ماشيا عند هبوب ريح النهار فاختفى آدم وامرأته من وجه الرب الإاله فى وسط الشجرة ، فنادى الرب الإله ، آدم من أعلمك أنك عريان هل أكلت من الشجرة ، التى أوصيتك ألا تأكل منها ، قال آدم ، المرأة التى جعلتها معى هى التى أعطنى من هذه الشجرة » .

فالقرآن لم يجعل آدم ضحية لخبث الحية وحواء ، وائتمارهما به .

ولم يصوره مخلوقاً عظيم الغفلة سهل القياد ، يسحب من خطامه ، وهو لا يملك من أمره شيئاً ، وليست حواء فى القرآن ، أصل الخطيئة ومصدرها ، بل هى شريكة حياته ، ومصدر الطمأنينة له : قال الله تعالى : هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) الأعراف . كما قال : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها) .

فالإسلام تنزه عن أن يعلق الخطيئة الأولى فى عنق « حواء » ، ثم يجعلها أماً لكل البشر ، بل إنه تنزه عن أن يجعل الخطيئة الأولى ، عبئاً ، يثقل ضمير أبناء آدم وحواء ، ويطاردهما إلى آخر العمر ، إذ أنه تاب على آدم ، وغفر له خطيئته ، وكفر عن ذنبه ، قال الله تعالى : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) وقد ارتفع إصر الخطيئة عن نفس آدم ، فبدأ حياة جديدة ، له أن يحقق فيها الخير ، وأن ينجو من الشر ، مستعيناً بالله إزاء غواية الشيطان ووساوسه ، كما أن ذرية آدم ضمن لها الأمن ، والتسامى على الفزع حسبما وعد الله به بقوله : (فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وقد تعزز هذا الوعد بما جاء فى القرآن من (أن الله يغفر الذنوب جميعاً) و (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) .

فآدم وحواء لم تلتصق بهما المعصية ، ولم يورثاها لأولادهما ، وأطلقت لمن يأتى من هؤلاء الأولاد ، أى لذراريهم حرية العمل ، بلا قيد من ذنب سابق ، لينهضوا بعبء الخلافة ، أطيب ما يكونون نفساً ، وأقوى ما يكنون ثقة برحمة الله ورضوانه .

* * *

هذه هى عناصر خلافة الإنسان لله فى أرضه . وهى فى جملة القول تكليف من الله تعالى لآدم ومن جاء بعده من أبنائه وبناته ، القيام بما رسمه لهذه الدنيا من قوانين وقواعد وما فرضه من أعباء وواجبات ، بقصدين أولهما وأعظمهما أن يتسامى الإنسان على نفسه ، وأن يدرج فى مدارج

الكمال الروحي والعقلي والبدني ، وأن يزداد علماً ومعرفة ويزداد فى هذا الكون تحكماً وتوجيهاً ليستخرج منه أعظم الخير ، وليملأه عمرانا ، ويقيم فيه نظاماً محكما وإدارة نافعة وليجعل من الناس أمة واحدة ، تتوثق خلائقها بالحب . وتترابط وشائجها بالتعاون ، وتردان حياتها بالأمن والطمأنينة والسكينة والدعة ، وليبطل فيها العنف ، وينقطع سفك الدماء . وتتسع آفاق النفس الإنسانية ، فتحيط بما فى هذا الكون العظيم من جمال وإبداع ودقة ، ولتمتد من هذا الجمال والإبداع والدقة لنفسها ولنظام حياتها جمالا وإبداعاً ودقة ، وبذلك يصبح لحياة الناس معنى ويتحقق قول الله تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) فهذا الكون لم يخلق عبثاً وحياة الإنسان فيه ليست عبثاً ، ولا لهواً ولا لعباً ، وإن ما يبدو فيها من اضطراب وما يشوبها من آلام وأحزان ، ليس إلا نتيجة التراخي فى البحث عن أهداف الحياة الإنسانية ، كما قدرها وأمر بها الله تعالى ، وأن الاهتداء إلى هذه الأهداف ، وترسم المثل الأعلى ، الذى يرفعه الله للناس أجمعين فى المشارق والمغارب ، هو الذى ينفى عن حياة البشر ، العبث والتناقض ، ويضفى على نشاطهم المغنى والقيمة ويصرفهم عن غايات حقيرة تبدو لهم عظيمة ، ويقى علمهم وفنهم وحضارتهم ، من الجرى وراء القوة المادية وحدها ، والإنتاج الذى لا يشبع جائعاً ولا يهدى نفساً ، ولا يريح قلباً ، ولا يرأب صدعاً ولا يجمع شملا ، ولا يمنع خطراً وإنما يزداد من الصراع بين الأقوياء حدة وضراوة ليسود أحدهم على الآخرين ويركبهم بالذل والمهانة ، ويخيفهم بالصاروخ والمدفع ، وهو يحسب أنه بهذا يحقق لنفسه الأمن والعظمة فلا يكتب لنفسه وللآخرين إلا الهلاك والدمار والشقاء .

* * *

وخلافة الإنسان ، هى فكرة تفرد بها الإسلام ، فلم تدع إليها عقيدة سواه ، ففى الإسلام مبادئ وقواعد . تضمنتها الأديان والعقائد

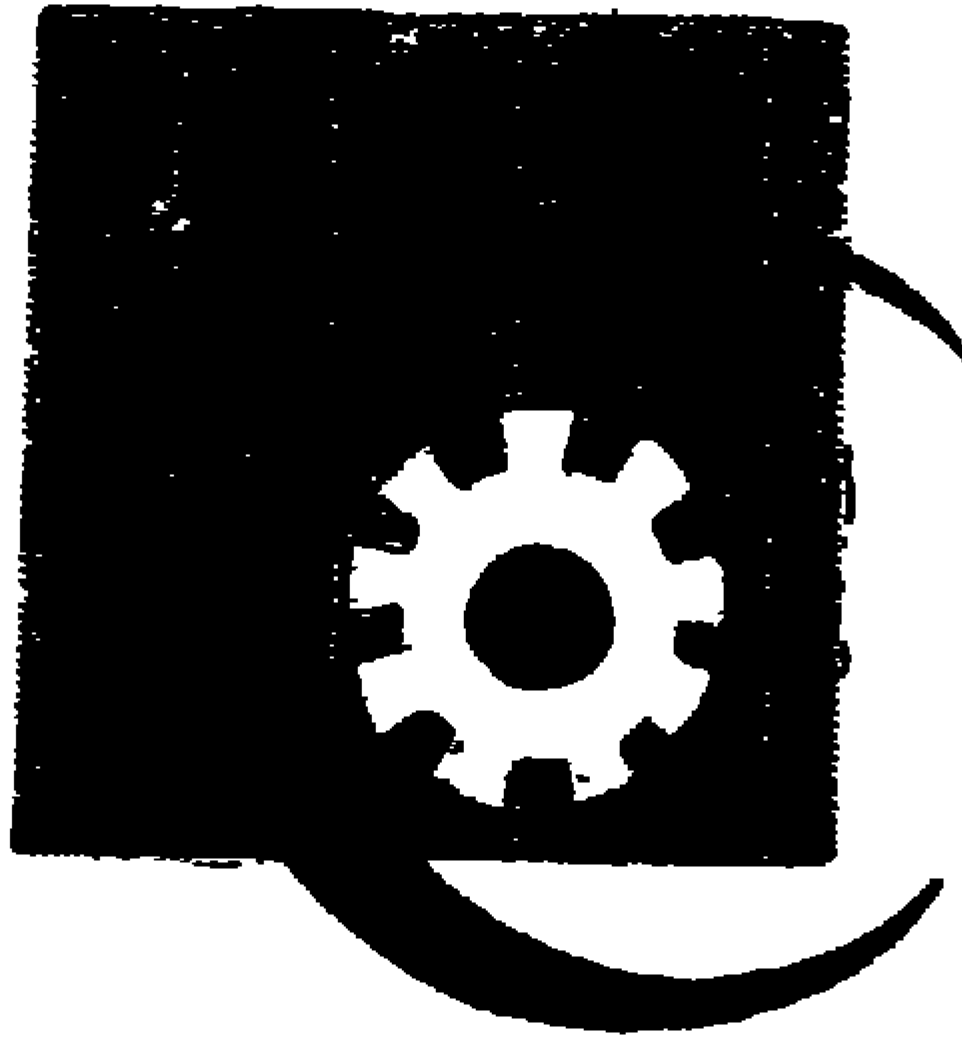
الأخرى ، كالبعث والحساب والعقاب والنبوة ، ووحدة البشر ، والمساواة بين الناس والعدل ، ولكن مبدأ خلافة الإنسان لله ، هى عقيدة تكشف عن إنسانية الإسلام الشاملة ، وعن نظرته المحيطة للكون ، ولعلاقة الإنسان به ، ورفع مقام الإنسان إلى أعلى عليين ، والمناداة به سيداً لهذا الكون لايطغى ولايبطش ولا يستأثر بالخير ، بل ليكون خيراً عاماً لكل ما فى هذا الكون من نبات وجماد وليتم بين مخلوقات الله، فى ظل حكومة الإنسان ، ترابط واتساق ، يجعله جمالا كاملا ، وكمالا دائما وليفتح أمام الإنسان وأبنائه طريق السمو والارتقاء إلى غير حد ، بالحب والعلم والمعرفة ، والإيمان بالخير والاسترادة منه ، وتوسيع معناه وتعميق مدلوله وتنويع وسائله وطرائقه ، وتعديد أهدافه وغاياته .

والمسلمون مدعوون للتأمل فى معانى هذا المبدأ الكبير من مبادئ دينهم ، واستمداد القوة والقدرة منه ليقودوا سواهم إلى الخير الذى ضلوا عن سبيله ، وحرموا من تفيئ ظلاله الوارفة ، فذهب جهدهم قتالا ومضى سعيهم تخريباً وتدميراً ، وعجزوا عن أن يوفروا لجائعهم طعاما ، ولخائفهم أمنا ، ولضعيفهم حماية ، مع أنهم حققوا من القوة ، وأنتجوا من الثروة ووصلوا إلى العلم إلى مالم يظفر جيل سابق من أجيال البشرية منذ دبت أقدام آدم على هذه الأرض .

فلا تزال عقيدة « خلافة الإنسان » فى حاجة إلى من يؤمن بها ، ويدعو لها ويعمل لتحقيقها ، والمسلمون أولى الناس بأداء هذا الواجب والنهوض بهذه الرسالة .

وخلافة الإنسان ، ترتكز أول ماترتكز على المبدأ العام « ولقد كرمنا بنى آدم » فهى لا تؤدى إلى غايتها إلا إذا حصل بنو آدم على ما يستحقونه من تكريم ورعاية تشمل العقل والبدن، والفكر والوجدان، وتتناول الطعام والمسكن ، والخلوة والعقيدة ، والذوق ؛ فكل وسائل العنف ، وكل أسباب الكبت، وكل صور الاضطهاد والإرهاق والاستعلاء المادية والأدبية الظاهرة

والخفية التى تلجأ إليها الدول أو مجموعات الدول ، أو الأنظمة الدولية ، أو تكتلات الأفراد ، أو القابضون على توحيد الآراء ، أو تكييف الأذواق ، أو نشر المعلومات والحقائق ، هى عوائق فى طريق خلافة الإنسان ، وموانع عن أن تؤتى هذه الخلافة أكلها ، وأن تثمر ثمارها فلابد من سعى مضن ونشاط متصل ، وإيمان عميق ، بها ، وبكل معانيها لينعم الإنسان بالأمن والدعة ، وبالسرور والسكينة وبالقوة والاكتفاء فى ظلها .



الإعجاز

ذهب بعض المتأخرين من أن وجه إعجاز القرآن الكريم، ما تضمنه من المزايا الظاهرة، والبدائع الرائعة، فى الفواتح والمقاصد والخواتيم، فى كل سورة وفى مبادئ الآيات وفواصلها والمعول على ثلاث خواص:

١ ـ الفصاحة فى ألفاظه كأنه السلسال.

٢ ـ البلاغة فى المعانى بالإضافة إلى مضرب كل مثل، ومساق كل قصة وخبر فى الأوامر والنواهى، وأنواع الوعيد، ومحاسن المواعظ والأمثال وغيرهما مما اشتمل عليه، فإنها مسوقة على أبلغ سياق.

٣ ـ صورة النظم. فإن كل ما ذكره من هذه العلوم مسوق على أتم نظام وأحسنه وأكمله.

وقد أورد المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى، هذه الخواص، ثم لم يعجبه هذا الكلام كله فقال: «ومحصل هذا المذهب أن الإعجاز فى القرآن كله، لأن القرآن كله معجز، وهو معجز لأنه معجز». ثم قال، إن هذا القول أشبه شئ بشعر ذلك الشاعر الظريف الذى أراد أن يصف قوما حولهم ماء، فقال:

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء

ثم طرح نظرية له فى الإعجاز خلاصتها. أن القرآن معجز بالمعنى

للذى يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه ،حين ينفى الامكان بالعجز عن غير الممكن ،فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغاً ،وليس إلى ذلك مأتى ولا جهة ، وإنما هو أثر كغيره من الآثار الإلهية يشاركها فى إعجاز الصفة ، وهيئة الوضع ،وينفرد عنها بأن له مادة من الألفاظ» :

وهو كما ترى رأى يمكن تلخيصه على طريقة الأستاذ مصطفى الرافعى نفسه ، بأن القرآن معجز ، لأنه معجز ، أى لأنه من صنع الله، وصنع الله لا يتأتى لبشر محاكاته ، فضلا عن الإتيان بمثله. فهذا القول مصادرة على المطلوب ، لأن محاولة إثبات إعجاز القرآن ، الغاية منها إثبات أنه من عند الله ، فإذا بدأنا القول بأنه من عند الله ، وكان فانا نكون قد قلنا ما قاله الشاعر الظريف الذى تهكم عليه الرافعى يجب أن نتتهى بهذا ، بعد أن نورد ، ما يؤدى إلى هذا الختام ويرتقى إليه وقد قال الرافعى نعم وهو يعلق على كلام ابن حزم فى كتابه (الفصل) : «وهل يراد من إثبات إعجاز القرآن إلا إثبات أنه كلام الله تعالى».

بيد أن الرافعى ، ترسل فى بيان رأيه هذا ، فقال كلاماً كثيراً لا يقف عند إعجاز القرآن الكريم وأسراره ، وإنما تناول أثر القرآن فى المسلمين ، وفيما أدى إلى عقد الصلة بينهم وبين هذا الكتاب ، وفيما تلا ذلك ، من نشوء نهضتهم ، وتعاظم قوتهم ، وهو كلام يتصل بحال المسلمين اليوم،وبما يمكن أن يؤول إليه أمرهم فى المستقبل القريب والبعيد معاً . ولما كان المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ، كاتباً معاصراً يتحدث فى هذا الشأن ، ونظره على ما يجرى فى أمم المسلمين اليوم ، أى يوم كتب ما كتب ، فإن التأمل فيه ، واستنباط معانيه ، وفهم مراميه مما يجب ، لأنه يخرج عن الدراسة اللغوية أو التاريخية ، كما يخرج عن المفاضلة بين المذاهب فى موضوع الإعجاز ، إلى الرأى الصحيح فى أثر القرآن فى نشأة الأمة الإسلامية ، ودوره الحقيقى فى بعث نهضتها ،ورأب صدعها ، ولم شملها، وتجديد قواها، وتسديد خطاها .

ومن ثم ، فنحن سننقل فقرات مما قاله المرحوم الرافعى ، ثم نوضح مقصده ، ثم نبقى التعليق عليه جملة فى آخر الأمر .

بدأ حديثه فقال ما ننقله بشىء من التصرف :

« كل من يبحث فى تاريخ العرب وآدابهم ، وينفذ إلى ذلك حيث تنفذه به الفطر فإنه يرى كل ما سبق القرآن من أمر الكلام العربى وتاريخه إنما كان توطيداً له ، وتهيئة لظهوره ، وليس فى الأرض أمة كانت تجربتها لغوية غير العرب ، فما كان فيهم كالبيان آنق منظراً ، وأبدع مظهراً ، ولا كان لهم كذلك البيان ، أزكى فى أرضهم فرعاً ، وأقوم فى سمائهم شرعاً ، وهنا موضوع عجيب للتأمل ،وأى شىء أعجب من نشأة لغوية ، وتنتهى بمعجزة لغوية . ثم يكون الدين والعلم والسياسة وسائر مقومات الأمة ، مما تنطوى عليه هذه المعجزة » .

ومعنى هذا الكلام ، أن العرب ، أمة بيان لم يكن لديهم شىء يعشقونه ، ويبذلون فيه الجهد ، ويفرغون من أجله الطاقة ، غيره، فهم يحبون الكلام الجيد ، يؤلفونه ويسمعونه ، ويتنافسون فى حلياته ويذهبون فى تجويده إلى أقصى الغاية . وهم مروا ، قبل أن يسمعوا القرآن ويدعوا إلى الإيمان بما فيه . والعمل بأحكامه ونواهيه ، فى أدوار من الترقى اللغوى ، حتى إذا وصلوا إلى أعظم مراحلهم ، جاء القرآن ، فكان معجزة لغوية لأمة رفعت اللغة إلى أعلى سواء . وكان ذلك عجباً من العجب وأعجب منه أن هذه الأمة عظمت فى شئون الدين والحكم والسياسة ، وكانت المعجزة اللغوية منطوية على أسباب هذه العظمة .

وقد ترى مع الأستاذ الرافعى ، أن هنا ، موطناً للعجب ، ولكننى لا أراه كذلك إذا أخذنا بمقدماته إذ أن هذه النتيجة هى وحدها التى تصح ، ما دام العرب ، قد وقفوا جهدهم على اللغة ، فاستولت على هواهم ، واستبدت بكل قواهم ، فما وجه الغرابة فى أن تكون المعجزة التى ترسل إليهم من نوع ما أحسنوه . وأن تكون هذه المعجزة ، المتفقة مع

طبائعهم وفطرتهم ، هى مصدر إلهام يبعث فيهم ما يعينهم على إقامة دولة عظيمة ، وسن أسلوب للحكم محكم ، وحافز لطلب العلم قوى ، وداع إلى عقيدة ودين قويمين ، متصل مستمر .

على أن الذى يدعوا إلى العجب حقاً ما قاله الأستاذ من :

(أنه — أى القرآن الكريم — أنشأهم على الكبر . ولم يجر معهم على المألوف من مذاهب تربية الأمم،ولا هو كان طبقا لروح الأخلاق التاريخية فيهم التى تظهرها العادات،على كل دين شريعة وسياسة،إذ كانت ميراث الدهر . فما عدا أن سفه أحلامهم ونكس أصنامهم وأزرى عليهم وعلى آبائهم الأولين ، وقام على رءوسهم بالتقريع والتأنيب ثم ذهب بطريقة لم كانت معروفة،وعادات كانت مألوفة،وكأنهم بعد ذلك على آدابه نشأوا وهم أحداث).

ولعمرك أن هذا عجيب ،وليس أعجب منه ،إلاّ أن أول جيل جاء من هؤلاء القوم كان هو الذى بسط الإسلام على العالم المعمور سيادته ورفع فوقه رايته،وهذا الذى قرره الأستاذ مصطفى الرافعى ،صحيح حقاً،فالقرآن جاء ليقوض كل ما كان العرب يفخرون به ويذودون عنه ،وكشف لهم عن بطلانه وخلوه من المعنى،وحضهم لا على هجره فحسب ، بل على الكفر به،والتبرؤ منه ، والتوبة من العودة إليه ، وندد بإيمانهم القديم،وهزأ بمنهجهم الموروث وقال عنه إنه ذميم وعقيم . فلما صفت له قلوبهم أنشأهم نشأة جديدة ، فكأنهم قوم آخرون يخالفون الأمة التى سمعت القرآن لأول مرة فى العادات والطباع ، وفى التقاليد وأساليب الحياة ، وطرائق التفكير، فاستحسنوا ما كرهوه ، من الوساوس والهواجس .

ولكن الرافعى رحمه الله — أسرع إلى نتيجة،ندع لك أن تتأمل فيها قال:

« لا جرم أن فى ذلك سراً من أسرار الفطرة ، فلولا أن أكبر الأمر عندهم كان الفصاحة وأساليبها ، حتى صارت هذه الأساليب كأنها أعصاب نفسية فى أذهانهم تنبعث فيها الإرادة بأخلاق من معانى الكلام : ولولا أن القرآن الكريم قد ملك سر هذه الفصاحة وجاءهم منها بما لا يقبل

لهم برده بما يشبه أساليب الاستهواء فى علم النفس ، فاستبد بإرادتهم وغلب على طباعهم،لولا ذلك لما صار أمر القرآن إلى أكثر مما ينتهى إليه أمر كل كتاب فى الأرض،بل لما كان له فى أولئك العرب لغته لأنهم قوم أميون.

« وما جاءهم القرآن بشىء لا يفهمونه ، ولا كان هذا القرآن كتاب سياسة ولا نظام دولة ، ولو كان أمراً من ذلك ما حفلوا به .

« فلو أن هذا القرآن غير فصيح ، أو كانت فصاحته غير معجزة فى أساليبها ، التى ألقيت إليهم ، لما نال منهم على الدهر منالا » .

ومعنى هذا الكلام أن القرآن كتاب فصيح جاء لأمة فصيحة ، فحصل بينهما من التوافق ،ما جعله كتاب هذه الأمة، الذى يمكن أن يحركها ويلهمها ويبعثها على العمل ، ويدفعها إلى التطور والتسامى وكانت هى أمة هذا الكتاب ، لأنها أقدر الأمم على معرفة قدره والوقوف على فضله ، والإحساس بدقائق أسراره :

وقد رأى الرافعى أن من الواجب عليه ، أن يبين كيف تهيأت أمة العرب لهذه الفصاحة ، التى ذهبت فيها إلى أبعد الآماد ، ووصلت من درجاتها إلى أعلى الطبقات ، فقال إن لطبيعة الجزيرة العربية دخلا فى هذا الشأن ، ففى المناطق الآمنة ، تهدأ النفوس ويهدأمعها خيالها . أما فى الجهات ذات الطبيعة المتخوفة ، فإن أهلها يكونون أكثر الناس « استسلاماً » للوهم والتخيل ، وإلى الخوف من كل شىء تكون فيه روح الطبيعة كما زعم العرب من البيات مع الغيلان وتزوج السعالى ومجاوبة الهواتف ،والروغان عن الحن إلى الجن ، مع الحرص على الماضى لأنه غيب الطبيعة التى يقدسونها فكان من أخلاق العرب ، ما هو مشهور عنهم من التفاخر بالآباء والأجداد ، والذهاب مع الوهم كل مذهب وعدم المبالاة إلا بما يلحقهم بآبائهم ويجعلهم فى عداد الماضين . فجاء القرآن يسفه تلك الطباع منهم ، ويحول بينهم وبين ذلك الماضى ويصرفهم إلى العمل . فكيف يمكن أن يكون هذا القرآن مع ذلك كله بما يطابق

أرض العرب فى طبيعتها وهى ما علمت ؟ وكيف يمكن أن يكون ذلك من صنعة رجل قد نشأ فيهم ؟ » .

عاد الرافعى بعده هذه التساؤلات العديدة ، إلى ما سبق أن قرره ، أن هذه العجائب الخارقة للمألوف ، والخارجة عن المعروف ، مردها كلها انعتاق العرب بالفصاحة ، فهى وحدها القادرة على أن تخرجهم من التوهم والتخيل إلى العمل المتصل بالواقع القائم على الملموس والمحسوس ، وتنقلهم من الماضى إلى الحاضر ، وتصرفهم عن عبادة الآباء والأجداد ، وتوقيرهم ، والفناء فيهم ، إلى العناية بالأبناء والحفدة فقال :

وهذا أمر لو ذهبت تتلمسه فى تاريخ الأرض كلها ما رأيت أسبابه الفطرية فى غير أو لئك العرب ، ولا رأيت تحقيقه فى العرب إلا من ناحية القرآن وإعجازه ، بنظمه وأساليبه وافتنانه على هذه الوجوه المعجزة ، التى أقل ما توصف به أنها السحر بل السحر بعضها . ورأى الرافعى ، أن هذا القول فى حاجة إلى مزيد من البسط والشرح ، مما ننقل عنه فى هذا الموضع .

وذلك فيما نرى إنما هو وجه الحكمة فى نشأة هذا الدين عربياً ، واختصاص العرب بالقرآن ، دون غيرهم من الأمم ، وأفراد قريش بذلك دون غيرها من العرب ، ومن يقرأ صدر التاريخ فى الإسلام ويعتبر ، حوادثه ، ويتدبر آثار القرآن فى قبائل العرب ، يرى أن شدة الإيمان كانت عند شدة الفصاحة ، وأن خلوص الضمائر كان يتبع خلوص اللغة وأن القائمين بهذا الدين ، والذين أفاضوه وصرفوا إليه جمهور العرب وقاتلوهم عليه ، وجمعوا ألفتهم وقوموا أودهم إنما كانوا أهل ، الفصاحة الخالصة من قريش إلى سرة البادية ، وأن الفتن إنما استطارت فى الجزيرة استطارة الحريق فيمن وراء هؤلاء إلى أطراف اليمن فكانوا ، قوماً مغلوبين منقوصين ، وما كان ضعف اعتقادهم إلا فى وزن الضعف من لغتهم ، وقد أسلفنا فى غير هذا الموضع أن غربة الدين ما تزال تتبع غربة العربية » .

لقد ملكت اللغة العربية ، على كاتب العربية الكبير ، فى النصف الأول من القرن العشرين ، هواه ، واستبدت بكل نفسه ، وكل عقله حتى استحال كل شىء عنده إلى العربية وفصاحتها ، وفصاحة الناطقين بها ، والمتلقين لكل ما يصدر عن رجالها ، ولو كان ديناً منزلا من السماء وكان الداعى إليه ، نبيا من رب العالمين . فالإسلام دخل إلى قلوب العرب من باب الفصاحة ، واشتدت به ايمانهم ، بقدر فصاحتهم ونشروه أول ما أنتشر ، فى مناطق الفصاحة العربية ، وفى مواقع الفصحاء ، والذين بذلوا فى سبيله المهج ، وأسالوا من أجله الدماء هم الفصحاء . وإذا كان الدين ينحسر عن القلوب ، وإذا كانت دولته ، ينقضها أعداء الدين ، فلأن العربية ذاتها ، تنحسر عن الألسن ، وتزاحمها اللغات الأخرى ، وتتداخل فيها الأساليب الهجينة ، ويصبح من الصعب على المسلم أن يفهم نصاً عربياً ، فيصعب عليه ، أن يعى كلماتها وهكذا دواليك

ولا شك أنه كان فى حاجة لأن يشرح لنا ، أمرين ، كيف كان الخصوم للإسلام ، هم أعظم رجال قريش ، وهى فى رأيه ، قمة الفصاحة العربية وكيف أسرع إلى الإيمان بمحمد ورسالته ، الدين الذى جاء به ، أبو بكر وعثمان ، وعبد الرحمن وطلحة وعلى ، وهؤلاء جميعاً لم يكونوا ، صماً ، دخلوا الدين الجديد ، واطمأنت قلوبهم إليه ، فكانوا أعظم رجاله لم يكن قد نزل منه بعد ، ما تبدو منه فصاحته ، حتى تغلبهم على أنفسهم ، وتقودهم ، لا يملكون مقاومة ولا تأبياً ، ولا حتى ترددا والأمر عندنا ، يختلف كثيراً ، مما رآه الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ، وإن كان لا ينقص فى قليل أو كثيراً من فصاحة القرآن ، ومن حب العرب لفصاحة القول ، والإكبار من شأن القائل الفصيح شاعراً أو خطيباً أو متحدثاً ، لأنه كان — بسبب ظروفهم الحضارية والمعيشة — رياضتهم ومتعتهم ومجال تنافسهم وسبيلهم إلى التفاخر والمباهاة ، ووسيلتهم إلى إهاجة الحمية ، وإثاره العصبية ، والتحضير للمعارك ، والإشادة

بالفرسان والمقاتلين عند النفير ، والناس المعاذير عند الهزيمة ، ولم يكن يصرفهم عن هذا ضرب من النشاط الإنسانى الذى هو الإبداع اللسانى فن آخر فلا نحت ولا رسم ولا بناء ولا معمار ولا تمثيل ولا رقص وهو بعد ذلك أدنى الفنون كلها وأقربها إلى عيشة البداوة وأيسرها على المبتدئين على سلم الحضارة ولاشك كما نبين أن القرآن علم الإسلام استظل به المجاهدون الأوائل وكان زادهم وعدتهم فى الدعوة والجدل ومصدر إلهامهم فى كل فرع من فروع الحياة وفى كل ضرب من ضروب المعرفة ، ولكن كان إلى جانب القرآن وفصاحته ، وبلوغه أقصى الغايات فى الأساليب ، والألفاظ أيسر أحكام الدين ، وشخصية الرسول ، وصلابة الرجال ، مما ستتناوله فى موضع آخر من الكلام .

وقد ختم الرافعى ، رحمه الله ، هذا الجانب من كتابه ، ببيان أسماء الذين سول لهم شيطانهم أن يدعوا النبوة ، ويحاكوا القرآن ، فذكر مسيلمة الكذاب الذى تنبأ باليمامة فى بنى حنيفة ، وقد استفحل شأنه ، وعبهلة بن كعب الذى يقال له أسود العنسى ، والملقب بذى الحمار ، لأنه كان يقول يأتينى ذو خمار . وقد قتل قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بيوم وليلة ، وطليحة بن خويلد الأسدى ، وكان من أشجع العرب ، يعد بألف فارس ، وقد عظم أمره بعد أن توفى رسول الله عليه الصلاة والسلام . وسجاح بنت الحارث بن سويد التميمية وقد عظم أمرها كذلك حتى خافها مسيلمة ثم تصالحا فاتبعته وتزوجته ، ثم أسلمت وحسن إسلامها . أما النضر بن الحارث فلم يدع النبوة ولا الوحى ، ولكنه لفق شيئاً من أخبار الفرس وملوك العجم ، وابن المقفع الذين روج بعض مؤرخى الأدب ، أنه اشتغل بمعارضة القرآن مدة ثم مزق ما كتب وأخفاه ويعتقد الكثيرون أن هذا الذى روج ، كان افتراء على ابن المقفع ، لأنه بفضل فصاحته وبلاغته ، وعلمه بالعربية ، ورجاحة عقله كان أعقل من أن يحاول محاكاة القرآن ، حتى لو صدق ما نسب إليه من رقة العقيدة ثم

أبو الحسين أحمد بن يحيى المعروف (بابن الراوندى) وهو أيضاً لم يؤلف قرآناً ، وإنما ناقش من تحجج بعجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن ، قائلا أو لو ادعى بطليموس أو إقليدس ، أنهما نبيان مرسلان لأن ما أتيانه من نظريات يعجز غيرهما عن الإتيان به أو بمثله أكان ذلك دليلا صحيحاً على نبوتهما وقد جاء فى بعض الكتب أن ابن الراوندى ألف كتاباً فى محاكاة القرآن وأن كل كتبه كالفريد ، والزمردة ، وقضيب الذهب والمرجان، وضعت لا لمحاكاة القرآن وإتيان إمكان الإتيان بمثله ، وإنما ألفها ، لإنكار أن القرآن معجزة ، وأنه دليل على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام .

والكلام عمن حاول محاكاة القرآن وتقليده ، أو من ادعى النبوة ، وأيد دعواه بكلام على نسق القرآن ، لا يكمل إلا بالحديث عن شاعرى العربية العظيمين : أبى الطيب المتنبى ، وأبى العلاء المعرى .

أما المتنبى فقد نسبوا إليه قوله ، فى محاكاة سور القرآن الكريم .

« والنجم السيار ، والفلك الدوار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفى أخطار ، امض على سنتك ، واقف أثر من قبلك من المرسلين ، فإن الله قامع بك زيغ من الحد فى دينه ، وضل عن سبيله » .

وهو كلام ، لا تعلوه مسحة من رواء بيان الشاعر الأكبر ، ولا تتفق مع جلال شعره ، ولا لطف ما عرف من نثره ، وإن كان نثره دون شعره بكثير .

كما نسب إلى المعرى قوله : أقسم بخالق الخيل ، والريح الهابة بليل ، والشرق مطلع سهيل ، إن الكافر لطويل الويل ، وإن العمر لمكفوف الذيل ، تعد مدارج السيل ، وطالع التوبة من قبيل ، تنج وما أخالك بناج » .

ويتقاولون هذا القول من كتاب المعرى الفصول والغايات ، ويقول الرافعى ، إن أبا العلاء الذى ينسبون إليه هذا الهراء ، هو الذى رد على

(ابن الراوندى) فى رسالة الغفران ، فقد جاء فى هذه الرسالة وأجمع ملحد ومهتدى ، وناكب عن المحجة ومقتدى ، أن هذا الكتاب ، الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم كتاب بهر بالإعجاز ، ولقى عدوه بالإرجاز ، وما حذى على مثال ، ولا أشبه غريب الأمثال ، ما هو بالقصية الموزونة ، ولا فى الرجز فى سهله وحزونه ، ولا شاكل خطابه العرب ، ولا سجع الكهانة ذوى الأرب وإن الآية منه أو بعض الآية لتعترض فى أفصح كلم ، يقدر عليه المخلوقون ، فتكون فيه كالشهاب المتلالىء ، فى جنح غسق ، والزهرة البادية فى جلوب ذات نسق » وقد لا نستبعد أن ترد على نفس شاعر فيلسوف ، سيئ الظن بالناس ، وكاره للدنيا ، ومتململ مما نكبه به الدهر ، إذ سلبه نور عينيه ، فلزم داره ، وسمى نفسه رهين المحبسين ، البيت والعمى ، لا نستبعد أن رجلا هذا شأنه ، أن ترد على نفسه ، الهواجس ، والوساوس ، وألا تكون عقيدته كعقيدة سواه ، ممن رزقوا ، خيالا أقرب مدى ، وطيفاً أخف ضراوة ، وظروف حياة ، أقل عطفاً ، وأنه قد يودع شكوكه ، شعره ونثره ، وشيئاً مما يستودعه القراطيس لخاصة نفسه ، ويعرف العربية ، ومن ثم فهو أكبر من أن يورط نفسه فى هذه المحاولات الصغيرة ، محاولا إنشاء القرآن ، ويزعم بعض الرواة ، أنه رد على من قال له إن قرآنه ليس له طلاوة القرآن بقوله : حتى تصقله الألسن .

والرأى عندى أن كل ما نسب إلى المتنبئين ، مصنوع ، ومفترى عليهم إما للزراية عليهم ، والنيل منهم ، وإما للنيل من القرآن نفسه ، بطريق ملفوف ، وبعد ذلك حتى ما نسب إلى مسيلمة بن حبيب من قبل : والمبذرات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات لقماً ، إهالة وسمناً ، لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعتر فآووه ، والباغى فناوئوه » .

تقول حتى هذا القول ، لا يقبله عاقل ، أن يصدر من مسيلمة ، فقد كان عربياً بين عرب ، يميزون بين القول الغث من الشعر أو النثر أو الرجز ، وبين القول الجيد ، كما يميزون بين ما يرفع من قدر الرجل وما يحط منه ، ولو لم يكن هذا الرجل متنبئاً ، ومسيلمة ، كان رجلا طموحاً ، وكان من خلفه أقوام ، يشدون أزره ، وينتفعون من قومته ، ويؤملون لأنفسهم خيراً من نبوته ، وهم قادرون على أن يردوه عن هذا العبث الذى لا يدور إلا حول اللقمة وخبزها وطحنها وزيتها سمنها ، ولو انتهى حديث البطون إلى الدعوة إلى معونة الفقير ، وغوث والعانى ، والأخذ على يد الباغى .

ولم يقنع الهازئون الساخرون بمسيلمة الكذاب بنسبة هذا القرآن المضحك فنسبوا إليه قوله : والشاة وألوانها ، وأعجبها السود وألبانها والشاة السوداء واللبن الأبيض ، وإنه لعجب محض وقد حرم المذق ، فما لكم لا تعجنون » .

ومزق اللبن مزجه ، عادة بالتمر .

ولا شك أن الذين صنعوا له هذا الكتاب ، أرادوا أن يقولوا إنه رسول لأمة من باعة الأطعمة ، وصناعها لأن كل نبى يرسل ، ومعجزته من نوع ما يتقنه قومه ، أو يزعمون أنهم يتقنونه ، فمعجزة السحر للسحرة ومعجزة إبراء المرضى ، لمن يتعاطون الطب ، ومعجزة مسيلمة الحديث عن الطحن والخبز ، واللت والعجن .

إلا أنهم نقلوه إلى الفيل فقال : الفيل ما الفيل ، وما أدرك ما الفيل له ذنب وبيل ، وخرطوم طويل .

ونقل الرافعى عن الجاحظ فى كتابه الحيوان ، ما نسب كذلك إلى مسيلمة فى الضفدعة ، نقل عنها : يا ضفدعة بنت ضفدعين ، نقى ما تنقين ، نصفك فى الماء ، ونصفك فى الطين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين .

وقد تساءل الجاحظ ماهيج مسلمة على الضفدعة ، وقد جاء الجاحظ الرد فيما نسب إليه هو أيضاً ، من أنه حاول مثل هذه المحاولات ، فكأنه كتب على سادة الكلام وأمرائه فى العربية ، لا سيما من نبغ منهم فى القرن الرابع من الهجرة ، قد امتحنوا جميعاً بما افترى عليهم من محاكاة القرآن : وبنسبة السخف إليهم ، وهم يحاولون هذه المحاكاة المزعومة وإن كانوا فى غيرها حتى عند من نسب إليهم هذه المحاولة فى القمة من البلاغة العربية .

تكلم السيد رشيد رضا ، فى تفسيره المعروف « بتفسير المنار » فى موضعين منه ، فى إعجاز القرآن ، وأهمية كلامه ، قائمة على السيد رشيد — كالأستاذ مصطفى صادق الرافعى — كاتب عاش من عمره سنين غير قليلة فى القرن العشرين ، وعرف الشبهات التى تثيرها طائفة جديدة من خصوم الإسلام ، وأعداء القرآن ، تسلحوا بلون جديد من أسلحة البحث والدراسة ، فزادت لذلك قدرتهم على بعث الشكوك فى نفوس المسلمين ، وهى طائفة تنتمى إلى دول اتسع سلطانها ، حتى شمل أكثر المعمورة واستأثرت بالسيادة والحكم ، على مناطق شاسعة من أراضى امتلأ ظاهرها وباطنها بخيرات الله والثروات التى تتقاتل الأمم وتتصارع لتظفر ببعضها ، تأميناً لملكها ، ودعماً لغلبتها . وقد أقامت هذا السلطان الباذخ ، على علمها بظواهر الطبيعة ، وكشف أسرارها ، والوقوف على المخبأ والدفين من قوانينها بالصبر الطويل ، والسهر المتصل ، وتنظيم الحقائق وتبويبها ، وتعقب الصغيرة قبل الكبيرة ، والمقارنة والمقابلة ، وإجراء التجربة مئات المرات بل آلافها ، فى ظروف متعددة ، وبوسائل متباينة ، حتى تثبت الحقيقة التى أسفرت عنها تلك التجارب وتصبح قانوناً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ولقد كبر مقام علماء تلك الدول الغنية القوية الحاكمة ، بما يسرته من سبل الحياة الأنيقة والهينئة ، وما هيأته للناس من أسباب الراحة المادية

والمتعة العقلية ، وما صنعته من لذائذ الحسن ولطائف الصناعة : وما أخرجته للناس من غرائب الابتكار ، حتى بات الإنسان سيد الأرض والفضاء ، وباطن الثرى وأعماق الماء . فى حين يزداد المسلمون ضعفا ، وتزداد أممهم إيغالا فى الجهل ، واسترسالا فى النأى عن دينهم ، والعجز عن فهم قرآنهم ، حتى بلغوا إلى تصور أن ما آل إليهم عن أجدادهم ، ليس سوى قراطيس أبلاها الزمان ، وأصبحت تستحق شيئاً واحداً ، هو الإلقاء بها فى سلة المهملات تخففاً من ثقلها ، انصرافاً إلى العلم الصحيح ، والفن الرفيع ، وكلاهما مما يملكه خصوم المسلمين ، والمارقون بالدين ، والخارجون على أحكام القرآن ، والداعين إلى نبذ الإيمان لذلك تعين على السيد رشيد ، وعلى الذين سيأتون من بعده ، ألا يقنعوا بما ردده الفقهاء السابقون ، ولو صاغوا كلامهم بأسلوب أيامنا ، واختاروا له من الألفاظ والنسق ، ما يألفه أهل هذه العصور .

غير أن السيد رشيد فعل ، فعل السابقين فى إحصاء وجوه القرآن ، فكانت تقريباً ما انتهى إليه الأقدمون ، وهى عنده :

١ ـ إعجاز القرآن بأسلوبه ونظمه .
٢ ـ إعجاز القرآن ببلاغته .
٣ ـ إعجاز القرآن بما فيه من علم الغيب .
٤ ـ إعجاز القرآن بسلامته من الاختلاف .
٥ ـ إعجاز القرآن بالعلوم الدينية والتشريع .
٦ ـ إعجاز القرآن بعجز الزمان عن إبطال شىء منه .
٧ ـ إعجاز القرآن بتحقيق مسائل كانت مجهولة للبشر .

وقد أفاض فى بيان كل وجه من هذه الوجوه ، وتصدى بين الحين والحين ، للرد على شبهات المفكرين للإعجاز ، والمكذبين من أهل الغرب المستعمرين ، ومن علمائهم المستشرقين .

فى الوجه الأول قال : ولعمرى أن مسألة النظم والأسلوب لإخدى

الكبر ، وأعجب العجائب لمن فكر وأبصر ، ولم يوفها أحد حقها ، على كثرة ما بدعوا وأعادوا فيها ، وما هو بنظم واحد ولا بأسلوب واحد ، وإنما هو مائة وأكثر : القرآن مائة وأربع عشرة سورة متفاوتة فى الطول والقصر ، من السبع الطوال التى تزيد السورة فيه على المائة والمائتين ، من الآيات إلى السور المئين إلى الوسطى من المفصل ،إلى ما دونها من العشرات فالآحاد كالثلاث آيات فما فوقها ، وكل سورة منها تقرأ بالترتيل المشبه للتلحين ، المعين على الفهم المفيد للتأثير ، على اختلافها فى الفواصل ، وتفاوت آياتها فى الطول والقصر ،فنها المؤلف من كلمة واحدة ومن كلمتين ومن ثلاث ، ومنها المؤلف من سطر أو سطرين أو بضعة أسطر ، ومنها المتفق فى أكثر الفواصل أو كلها،ومنها المختلف فى السورة الواحدة منها .

ثم أورد شبهة ، ضعيفة إذ قال : يقول قائل إن أساليب جمع الفصحاء والبلغاء متفاوتة كذلك ، لا يشبه أسلوب منها أسلوبه ، ولا يستويان منظوماً ولا منثوراً فمجرد اختلاف الأسلوب والنظم لا يصح أن يعد معجزاً ، ورد على هذه الشبهة التى لم نسمع بها على لسان أحد ، من القدامى أو المحدثين بقوله : مهما تختلف منظومات الشعراء فلن تعدو بحور الشعر المنقولة عن المتقدمين ،والتوشيحات والأزجال المعروفة عند المولدين ، ومهما تختلف خطب خطباء المترسلين من الكتاب والمؤلفين فى العلوم والشرائع والآداب فلن تعدو أنواع الكلام الأربعة : التى بدأنا القول بها ولا يشبه شىء من هذه ولا تلك نظم سورة من سور القرآن ولا أكثرها ، ولكل منهم نظم وأسلوب خاص .

وفى الوجه الثانى قال : بلاغته التى تقاصرت عنها بلاغة سائر البلغاء قبله وفى عصر تنزيله وفيما بعده ، ولم يختلف أحد من أهل البيان فى هذا ، وإنما أورد بعض المختلفين بعض الشبه على كون بلاغة كل سورة من قصار السور بلغت حد الإعجاز فيه ، ويتحقق التحدى عندهم بإعجاز بعض السور القصيرة بغيره، كأخبار الغيب فى سورة الكوثر التى هى أقصر سورة .

« ومن الناس من لا يفقه سر هذه البلاغة ويمارى فيما كتب علماء المعانى والبيان من قواعدها ، زاعمين أنه يمكن حمل كل كلام عليها ، وأن الإحالة على الذوق فيها إحالة على مجهول ، لا تقوم به حجة ولا يثبت به مدلول ، لأن الذوق المعنوى كالحسى ، خاص بصاحبه » .

ويبرر السيد رشيد هذا القول ، بالجهل الذى ران على المتكلمين بالعربية ، والمسلمين باللغة العربية ذاتها ، «فقد مرت قرون فى أثر القرون على ترك الناس لمدارسة الكلام البليغ منها واستظهاره واستعماله ، واقتصار مدارس الأمصار على قراءة كتب النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع وهى أدنى ما وضع فى فنونها فصاحة وبياناً ، وأشدها عجمة وتعقيداً ، حتى صار أوسع الناس علماً بهذه الفنون أجهل قراء هذه اللغة بها ، وأعجزهم عن فهم الكلام البليغ » .

وخلص السيد رشيد إلى القول بأن :

« معرفة مكانة القرآن من البلاغة لا يحكمها من الجهة الفنية والذوقية إلا من أوتى حظًّا عظيماً من مختار كلام البلغاء المنظوم والمنثور ، من مرسل ومسجوع ، حتى صار ملكة له وذوقاً ، واستعان على فهم فلسفته بمثل كتب عبد القاهر ، والصناعتين لأبى هلال العسكرى والخصائص لابن جنى ، وأساس البلاغة للزمخشرى ، ومغنى اللبيب لابن هشام » .

والنتيجة التى توصل إليها السيد رشيد ، خطيرة ، ذلك لأن معناها ، أنه لا يتأتى للمسلم العادى ، أن يدرك بلاغة القرآن ، ويحس بحلاوته ، لأن هذا الإحساس وقف على القلة التى توافرت على مدارسة كتب الأمهات ، التى يستحيل الآن على أكثر المسلمين المتعلمين فهمها ، والإحاطة بمجمل ما فيها ، إذ تراخت الصلة بين المسلم العربى ، وبين البسيط الميسر من أدب اللغة ، دع عنك الرفيع السامى ، من تأليف فقهائها وأئمة فنون بلاغتها . والواضعين لقواعد بيانها .

وينبنى على هذه النتيجة أن المسلمين العرب هذه الأيام واحد من

اثنين . إما جاهل تماماً لمعنى إعجاز القرآن ، يردد اللفظين ، دون أن يحاول أن يدرك لهما مدلولا ، وإما عليم بمعناهما كلفظين ولكنه غير قادر على أن يستنبط لنفسه الدليل على صحتهما ، فهو يكرر ما يصل إلى سمعه ، وما يبقى فى ذاكرته ، مما يقوله الآخرون أمامه، من عبارات تتصل بهما ، دون أن تنتفع نفسه ، ولا يتسع ذوقه ، للإعجاز فى ذاته .

وقد يحق لمن يشغله مستقبل الإسلام والمسلمين ، ومستقبل القرآن فى حياتهم ، أن يتساءل أى الطريقتين أقصر ، لعقد الصلة بينهم وبين كتابهم ، أنحاول إعادتهم إلى مثل عهد البداوة ، والفطرة ليعودوا إلى اللغة السليمة ، التى كانوا عليها ، يوم نزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ، أم أن نبعث فيهم الإيمان بدين محمد ، وبدين ربه الذى بعث به هادياً وبشيراً وسراجاً منيراً ، وبأحكامه القائمة على العقل ، ومناهجه الذى يمكن التدليل على سلامته وصحته ، وحاجة الناس فى هذه الأيام إليه ، ومن باب هذا الإيمان ، يعود المسلمون إلى القرآن ، فيحملهم الإيمان بأحكامه إلى إدراك أسرار بلاغته شيئاً فشيئاً ، حتى يألفوا قراءته قراءة تذوق واستمتاع ، لا قراءة واجب ، أو محاكاة ، أو التماساً للبركة ، واستجلاباً للمنفعة ودفعاً للشرور بوصفه مصدر كل التعاويذ والرقى ؟

على كل حال ، هذا واحد من الأسئلة ، التى نرجو أن نوفق إلى الإجابة عنها ، فى نهاية هذا البحث .

أما الوجه الثالث من وجوه الإعجاز ، عند السيد رشيد رضا ، فهو اشتمال القرآن على الإخبار بالغيب من ماض كقصص الرسل مع أقوامهم، ومن حاضر فى عصر تنزيله كقوله تعالى : (الم . غلبت الروم ، فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين) . وقوله : (قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون) وقوله تعالى : (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين) .

والوجه الرابع ، هو سلامة القرآن على طوله من التعارض ، والتناقض

والاختلاف خلافاً لجميع كلام البشر وهو المراد بقوله تعالى : (ولو كان من عند غير الله ، لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) .

ثم أضاف : « فإن قيل إن غير المؤمنين بالقرآن قد استخرجوا منه بعض الاختلاف والتعارض ، فاضطر علماء المسلمين إلى الجواب عنها [بما يزعمون أنه دفع الإيراد ، وأظهر بطلان الانتقاد ، وأن المسلم يقبل منهم ذلك تقليداً ، ومن لم يكن في نفسه سديداً قلت إذا كانت عين الرضى متهمة فعين السخط أولى بالتهمة ، وإننا إذا لم نلتفت إلى كلام أعداء القرآن الذين يخترعون التهم أو يزينونها بخلابة القول ، ولا إلى المقلدين من المسلمين ، وعرضنا ما ذكر من ظواهر الاختلاف على فريق المستدلين من الفريقين نرى أنه ليس في القرآن تعارض حقيقي معنوى يعد مطعناً صحيحاً » .

ولا شك أنك تبينت أن السيد رشيد لم يقل في هذا الوجه شيئاً ، فقد قال إن القرآن ليس فيه تعارض ولا تناقض ، وانتهى إلى القول بأن القرآن ليس فيه تعارض ولا تناقض ، فكأنما أقام الدعوى ، وحكم فيها ، وليس معنى هذا أننا نخالفه فيما قاله من خلو القرآن من التعارض والتهاتر ، ولكن نخالفه ، في عرض الحجة ، واستنباط الدليل عليها ، وأسلوب الرد على منكريها وحسب القائل في هذا الوجه ، أن يقول إن القرآن جاء لدعوة أساسها ، أن رب العباد وخالقهم ، إله واحد . وأن الأنبياء جميعاً بشر من البشر ، يدعون إلى عقيدة التوحيد ، بوحى يوحى إليهم ، وأن محمداً رسول الله من هؤلاء الرسل ، ونبى منهم ، وهو خاتمهم ، وهو كمن سبقه منهم عليهم صلوات الله ، بشر يأكل الطعام ويمشى في الأسواق وأنه ميت ، وأن الناس جميعاً سيموتون ، ثم يبعثون ليحاسبوا ، على أعمالهم ما جل منهم ، وما صغر ، وأنهم يتفاضلون بهذه الأعمال ، وأنهم مدعوون إلى فضائل مذكورة في القرآن في مقدمتها العدل والصدق والصبر والرحمة والتآخى . وأن القرآن من أوله إلى آخره ، على نهج واحد ، ونسق متصل ،

فى بيان هذه المبادئ وتأكيدها ، وتثبيتها فى النفوس ، وحمل الناس عليها، وتحريضهم على الاستشهاد والموت فى سبيلها . فليس فى القرآن جزء من آية ، ينقض عقيدة التوحيد ، ولا عقيدة البعث، ولا عقيدة بشرية الرسل، ولا عقيدة حساب الناس، ولا عقيدة مساواة الناس بعضهم ببعض، ولا عقيدة أن الناس بأعمالهم لا بأحسابهم ولا ألوانهم ولا دمائهم . ولا أن محمداً الإنسان هو مبشر ونذير ، وليس إلهاً ، ولا ابن إله ، ولا نائباً من الإله ، وأنه لا يطاع إلا فيما جاء فى القرآن وثبت فيه من أمور العقيدة . وأن هذه المبادئ والقواعد ذكرت فى السور الطوال وفى القصص والأمثال ، وفى الوعد ، والتبشير والتنفير ، فى بداية التنزيل وخاتمته ، وأن التناقض الذى يقع فيه الدعاة من البشر ، وكبار مفكريهم ، وزعماء حركاتهم ، فى أصول المذهب الذى يبشرون به ، ويدعون إليه ، معروف بارز، يضطرب أنصارهم ، وتتشعب فرقهم ، ففى المسيحية من قال بأن المسيح عليه السلام رسول من البشر ، ومن قائل إنه إله فى السماء وإنسان فى الأرض ، ومن قائل إنه إله فى الأرض والسماء ، ومن قائل إنه ابن الله ، وهذه ليست خلافات فى الفروع ، ولا تأويلا للنصوص، وإنما الواحد منها نقض للآخر وهدم له .

وإن هذا هو التعارض حقيقة ومجازاً ، أما ما دونه، فلا يعدم المماحكون والممتارون ، أن يستخرجوا من القول المحكم الذى لا يحمل تأويلا ، معانى لا نهاية لها ولا حد، لا لأن اللفظ يحتمل هذه التأويلات، لعيب فيه ، وإنما لأن القارئ له ، هو الذى يشكو العيب ، ويعانى منه . فالكفار حينما سمعوا قول الله تعالى : (فاتبعونى يحببكم الله) هتفوا أن محمداً « يؤله نفسه » وإذا قال الله تعالى : (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً) قال إن الله فقير ونحن أغنياء .

وإذا تركوا ليبينوا لنا ما وقعوا عليه فى القرآن من تناقض ، ضربوا مثلا لذلك ، ما جاء فى الآية التاسعة والستين وما بعدها فى سورة هود ،

عن زيارة الملائكة لإبراهيم ، وتبشيرهم إياه بمولد إسحق ، وقارنوه بما جاء فى الآية الحادية والخمسين من سورة الحجر ، عن نفس الواقعة :

فى سورة هود قال الله تعالى :

(ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا : سلاماً قال : سلام ، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم ، وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف ، إنا أرسلنا إلى قوم لوط ، وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ، ومن وراء إسحق يعقوب ، قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً !) .

وفى سورة الحجر قال الله تعالى :

(ونبئهم عن ضيف إبراهيم ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ، قال إنا منكم وجلون ، قالوا لا توجل ، إنا نبشرك بغلام عليم ، قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون ؟ !) .

وواضح أن الخلاف فى أن امرأة إبراهيم فى سورة الحجر هى التى تلقت البشرى من الملائكة ، وخطابهم توجه إليها : وأنها ضحكت : قبل أن تسمع هذا القول ، فى حين أن إبراهيم نفسه هو الذى تلقى هذه البشرى فى سورة الحجر ، وأنه هو الذى استغرب أن يرزق بغلام وقد مسه الكبر . ويحسبون من هذا تناقضاً ، فى حين أن الأمرين يمكن أن يقعا ، فلا غرابة أن تسمع الزوجة والزوج نبأ غريباً يخصهما ، فيبدى كل منهما دهشته بصيغة يرضاها : وهو أمر لا يتناول — من قريب ولا من بعيد — شيئاً تافهاً من أسس الرسالة التى جاء بها القرآن ، والدعوة التى تبشر بها ، ولكن لو جادلت المماحكين فى هذه الصغائر ، لهولوا فيها : ولأقاموا عليها بناء ضخماً تحسب معه أن القرآن كله يتهاتر ويتساقط . وصدق الله العظيم إذ قال : (وكان الإنسان أكثر شىء جدلا) .

ولقد أطلنا الوقوف أمام هذا الوجه من وجوه الإعجاز ، كما رآها السيد رشيد ، لنبين رأينا فى المنهج الذى اختطه .

أما الوجه الخامس ، عند السيد رشيد ، فهو اشتمال القرآن الكريم ، على العلوم الإلهية ، وأصول العقائد الدينية ، وأحكام العبادات ، وقوانين الفضائل والآداب وقواعد التشريع السياسي والمدنى والاجتماعى الموافقة لكل زمان ، وبذلك يفضل كل ما سبقه من الكتب السماوية ، ومن الشرائع الوضعية ومن الآداب الفلسفية .

ويعتقد السيد رشيد أن هذا الوجه من أظهر وجوه الإعجاز ، وهو فى حقيقة الأمر من أخفاها ، ذلك أن عبارة العلوم الإلهية وأصول العقائد الدينية وأحكام العبادات، وقوانين الفضائل والآداب . . إلخ عبارات غامضة لا نجد لها مدلولا ، معروفاً لدى الكافة ، ومتفقاً عليه بينهم ، فى جميع العصور وعند جميع الناس ،فالوثنى يعرف من عبارة العلوم الإلهية، وأصول العقائد الدينية ، ما لا يعرفه منها البوذى ، والمسيحى يعرف منها ما لا يعرفه المسلم ، وما كان معروفاً من الفضائل وأحكام العبادات ، عند أصحاب دين بذاته فى عهد ، غير ما ساد وتواضع عليه أصحاب نفس هذا الدين ، فى عهد آخر ، فالآداب والفضائل المسيحية فى العصور الوسطى ، حينما كان حزام العفة جهازاً يستعمله أهل الطبقة الغنية ، غير هذه الفضائل ، فى العهد الذى وصلت فيه المرأة المسيحية ، بعلم الكنيسة وموافقتها ، إلى مقاعد المجالس النيابية ، ومنصات الحكم الكبرى ، والتى مارست فيها صنوفاً من الرقص الذى يعتبر فنا رفيعاً ، لا شائبة فيه ، ولا عيب فى ممارسته وممارسيه .

ثم هل كان فى وسع العربى الأمى الذى سمع أول ما سمع بالقرآن من يحيط بهذه العلوم الإلهية ، ويعرف من وقوفه عليها ،أن الكتاب الذى احتواها ، هو كتاب معجز ، وأنه لهذا كتاب من عند الله ، فهو صالح أن يكون حجة على نبوة الرجل الذى يقول إن الله أوحى إليه ،ثم هل يعرف أكثر المسلمين شيئاً من هذه العلوم الإلهية التى ثبت صلاحها فى كل زمان ومكان ، من مجرد سماع القرآن ، أو حتى من مجرد سماع شرح بعض آياته

بل سوره . وهل يسلم المسيحي العصري المستنير المثقف المحايد بشيء من هذا ، حتى يعتقد اعتقاد المسلمين ، من أن مبدأ تعدد الزوجات الذي يأمر به القرآن أفضل من تعدد الخليلات ، وأن قطع يد السارق حكم سائغ ، وأنه مع التربية الإسلامية ، والإعداد الروحي وإقامة المجتمع الإسلامي السليم الصحيح ، أنفع في منع جرائم السرقة ، من نظام الحبس الذي تتزايد بفضله ،وفي داخل السجون هذه الجريمة بالذات ويتكاثر مرتكبوها . لا شك أن إقرار هذا المسيحي بهذا وأشباهه أمر مستبعد منه . فإقراره بإعجاز القرآن لاحتوائه على العلوم الإلهية وأصول العقائد الدينية أكثر استبعاداً .

والوجه السادس من وجوه الإعجاز ، كما أحصاها السيد رشيد هو أن القرآن يشتمل على بيان كثير من آيات الله تعالى في جميع أنواع المخلوقات من الجماد والنبات والحيوان والإنسان ، ويصف خلق السموات وشمسها وقمرها ، وفيه تفصيل لكثير من أخبار الأمم ، وبيان لطرق التشريع السوي للأمم ، وقد حفظ ذلك كله بكلمه وحروفه منذ أربعة عشر قرناً ونيف ، ثم عجزت هذه القرون التي ارتفعت فيها جميع العلوم والفنون أن تنقض بناء آية من آياته ، وهي التي جعلت فلسفة اليونان دكاً ، ونسخت شرائع الأمم نسخاً .

أما أن القرآن كتاب حق لا يأتيه باطل من بين يديه ومن خلفه ، وأن الله حفظه ، مصدقاً لوعده في القرآن الكريم : (إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون) فأمر لا مرية فيه ولكن عقد المقارنة بينه وبين فلسفة اليونان ، والقول بأن الزمن نسخ هذه الفلسفة ، ولم تنسخ القرآن ، فكلام لا نقبله . لأننا نرفض المقارنة بين القرآن و بين أية فلسفة بشرية أخرى ، لاختلاف طبيعة المقارن بينهما اختلاف السماء عن الأرض ، ودور كل منهما ، فالفلسفة اليونانية هي أساس العلم الحديث ، ولا تزال البدايات التي بدأها فلاسفة اليونان هي الأصول لكثير من فروع هذا العلم ، بل إن أكثر مصطلحات العلم الحديث يونانية ، وقد بقي أرسطو ، أستاذ المعرفة الإنسانية قروناً حتى

عهود قريبة ، وكان العرب المسلمون أنفسهم يسمونه « المعلم الأول » ، وهو لقب لم يطلقوه على واحد من أئمتهم ، وقد أدال الله على دول المسلمين حينما بعدوا عن دينهم ، ونأوا عن قرآنهم ، حتى كاد الإسلام لا تطبق أحكامه إلا فى أضيق رقعة من الأرض ، وعلى أقل القليل من سكان هذا الكوكب .

ولكن ليس معنى هذا ، أن المذاهب الأخرى السائدة الآن ، والتى سادت منذ عدة قرون ، فى دول حققت من السلطان والمنعة المادية ، ومن غزوات العلم ، ما لم يشهده الناس منذ دبت أقدامهم على سطح هذا الكوكب ، هى أصح من الإسلام ، وأحق بالاتباع من القرآن ، ذلك لأن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حذر المسلمين مما أصابهم بالفعل .

وقد استدرك الشيخ رشيد رضا فقال : فإن قيل : إن الطاعنين فى الإسلام من الملاحدة يزعمون أن العلوم ، والفنون العصرية من طبية وفلكية وتاريخية ، قد نقضت بعض آيات القرآن فى موضوعها ، وإن التشريع العصرى أقرب إلى مصالح البشر من تشريعه .

ثم قال : « قلت — إننا قد اطلعنا على أقوالهم فى ذلك فألفينا أن بعضها جاء من سوء فهمهم أو فهم بعض المفسرين ، ومن جمود الفقهاء المقلدين ، وبعضها من التحريف والتضليل ، وقد رددنا نحن وغيرنا ما وقفنا عليه منها . وإنما العبرة بالنقيض الذى لا يمكن لأحد أن يمارى فيه مراء ظاهراً أو مقبولا .

« فإن قيل : إن كهنة أهل الكتاب يدعون مثلكم أن كتبهم المقدسة سالمة من التعارض ، والتناقض ومخالفة حقائق الوجود الثابتة ويتكلفون مثلكم لرد ما يورده علماء الكون والمؤرخون مخالفاً لتلك الكتب » .

« قلت : إن هذا النوع من مخالفة كلام الخالق لكلام الخلق ، يجب أن يكون مشتركاً بين القرآن وغيره من الكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل ، لو بقيت كما أنزلت من غير تحريف ولا تبديل ، ومن المعلوم

من التاريخ بالقطع عندنا وعندهم أن التوراة التى كتبها موسى عليه السلام ووضعها فى التابوت « صندوق العهد » وأخذ الميثاق على بنى إسرائيل بحفظها كما هو منصوص فى آخر سفر « تثنية الاشتراع » قد فقدت من الوجود عندما أغار البابليون على اليهود وأحرقوا هيكل بيت المقدس، والتوراة الموجودة الآن يرجع أصلها إلى ما كتبه «عزرا» الكاهن بأمر « أرتحشت » ملك فارس.

والوجه الأخير عند السيد رشيد هو « اشتمال القرآن على تحقيق كثير من المسائل العامية والتاريخية التى لم تكن معروفة فى عصر نزوله ، ثم عرفت بعد ذلك بما انكشف للباحثين والمحققين من طبيعة الكون . . فمن ذلك قوله تعالى : (وأرسلنا الرياح لواقح) .

ومن قوله تعالى : (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى) وقوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين) ومنها قوله تعالى : (ومن كل شىء خلقنا زوجين) ومنه قوله تعالى : (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل شىء موزون) ويعلق على هذه الآية الأخيرة بقوله : إن علماء الكون الأخصائيين فى علوم الكيمياء والنبات قد أثبتوا أن العناصر التى يتكون منها النبات مؤلفة من مقادير معينة فى كل نوع من أنواعه بدقة غريبة لا يمكن ضبطها إلا بأدق الموازين المقدرة من أعشار الجرام والمليجرام .

ومن تلك الآيات أيضاً قوله تعالى : (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) .

ثم يعقب على هذا كله بقوله : فهذا النوع من المعارف التى جاء فى سياق بيان آيات الله وحكمه كانت مجهولة للعرب أو لجميع البشر فى الغالب، حتى إن المسلمين أنفسهم كانوا يتناولونها ويخرجونها عن ظواهرها. لتوافق المعروف عندهم فى كل عصر من ظواهر وتقاليد أو من نظريات العلوم والفنون الباطلة » .

ولا تعقيب لنا على هذا الوجه إلا ما نستخرجه من العبارة السالفة مباشرة ، فإن المسلمين الذين لم يعرفوا أن قرآنهم ، جاء مؤيداً لحقائق العلوم التى لم يوفق إليها العلماء إلا بعد أن نزل القرآن بأربعة عشر قرناً ، قد حسن إيمانهم بالقرآن وحسن انتفاعهم بأحكامه ، وآياته ، فنشروا نوره ، وأقاموا دولته ، ونفذوا أوامره ، وانتهوا بنواهيه ، وتأدبوا بآدابه ، فى حين الذين يعرضون الآن لنا علمهم ، وذكاءهم ،وقدرتهم على استنباط ما يتفق من آيات القرآن مع العلم الحديث هم أقل الأجيال المسلمة تأثراً بهذا القرآن فى شئون دينهم ودنياهم .

فالقرآن عاش بين المسلمين أربعة عشر قرناً، يفعل فعله فى النفوس ، ولا أحد منهم يعرف هذه الحقائق العلمية السبع أو العشر ، وستمضى سنون طويلة وربما قرون أخرى ، سيبين للناس حقائق علمية أخرى ، جاءت فى تضاعيف آيات القرآن ، ولا أحد يعرفها . وسيبقى القرآن مع ذلك يفعل فعله فى النفوس .

ولا يفوتك أن هذا الوجه من الإعجاز ، لن يوفق إليه ، إلا من كان من أهل العلم الذى يدرك هذه الحقائق ويعيها ، ويؤمن بصدقها . فإن لم يكن من هؤلاء من حجب عنه هذا الوجه. وفى هذا الوجه أيضاً منزلق إذ أن بعض أدعياء العلم الراغبين فى المباهاة به ولو كان زائفاً يحملون آيات القرآن فى هذا السبيل ما لا تحمل ، وقد ينسبون إلى العلم ما هو منه براء ، فيؤذون عقول المسلمين .

هذا موضوع ، يتسع فيه مجال القول ، حتى يستنفد ما لدى الكتاب من طاقة ،ويستفرغ ما عندهم من جهد، ويضيق حتى يكفى أن يقال فيه جمل قصار . كأن يقال مثلا :

لقد أنزل الله تعالى القرآن على نبيه الأمى ، محمد بن الله ، عليه الصلاة والسلام ، فشك المشركون فى أن هذا الكتاب من عندالله ، ثم قطعوا بذلك ، لأنه كبر عليهم ، واستحال لديهم أن يختار الله ، رجلا

كمحمد صلى الله عليه وسلم ، وليس هو من عظماء قريش ، وكبارهم ، ليكون رسوله ،لا إلى قريش وحدها ، ولا للعرب وحدهم . بل للعالمين كافة : ومن ثم فالكلام الذى يتلوه على الناس من صنعه هو اهتدى إليه: بعقله، أو أعانه عليه قوم آخرون ، ولكنه على أية حال كلام بشر . فتحداهم القرآن أن يأتوا بقرآن مثله ، أو بعشر سور مفتريات على نسقه : أو بسورة واحدة ، ثم لحق الرسول عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى. ومات من بعده جميع خلفائه وكل صحابته .

ونشأت للإسلام دولة ، ثم دول ، ثم دالت ، وتغيرت أحوال الناس، وأمورهم ، وجدت أمور ، وأصبح الناس غير الناس ، ولا يوجد بين أيدى المسلمين إلا قرآن واحد . هو القرآن الذى قرأه محمد صلى الله عليه وسلم على العرب منذ أربعة عشر قرناً . بحرفه ونظمه : وترتيبه وتبويبه ، لم يتغير منه شيء،ولم يضف إليه شيء ،مع أنه يتلى فى العالم كله، فى المشارق والمغارب ، فى بلاد تتكلم العربية ، وتفهمها ، وتعرف أصولها وقواعدها ، وتتقن نحوها وصرفها ، وتحفظ غير قليل من شعرها ونثرها ، كما يتلى فى بلاد لا تعرف العربية ، ويصعب عليها نطقها . . وقد قل حظها من العلم كله ، وبعد موقعها من عواصم الحضارة ، وأجدبت أرضها من معاهد العلم والثقافة ، ثم يتلوه أقوام، نشأوا فى غير مواطن العربية ، وتهذبوا بغير لغتها ، ولكنهم اتخذوها بعد دخولهم فى الإسلام لغة علمهم ، فذهبوا فى التأليف بها ، والتصنيف فيها ، وتعقب آثارها، وتحقيق أسفارها ، ما لم يصل إليه، أو يدن منه ، علماء العروبة الأوائل، ولا أئمتها الشوامخ .

والقرآن فى كل هذه المواطن المتباينة ثقافة وحضارة وجنساً ، والمتباعدة موقعاً وصنفاً والمختلفة طبيعة ومناخاً ،هو قرآن المسلمين الأوائل، الذى قرع أسماع أهل مكة ثم أهل المدينة،حينما نزل به الوحى على الرسول الذى اختارته إرادة الله،ليبلغ به وينذر. لم يوضع إلى جواره قرآن يشبهه

أو يختلف عنه ، ولم يسمع الناس أن شيئاً من كلام الناس . الذين يعارضونه وينكرونه ويزعمون أنه من مثل كلامهم ، قد عاش متحديا هذا القرآن ، سنةواحدة ، دع عنك الجيل أوالفترةمن الزمن . وبذلك تكون قضية عجز الناس عن الإتيان بمثل هذا الكتاب ، وإعجازه ، قد حسمها الزمن : منذ قرون . بل منذ صدر الإسلام حتى أصبح من قبيل الترف العقلي ، إن لم يكن من قبيل مضيعة الوقت . محاولة إثبات إعجاز القرآن ، أو تحليل عناصر هذا الإعجاز ، أو بيان أسبابه . إذ أنه من الحقائق المسلمة فى الواقع ، وليس وراء هذه المحاولة ، نفع يتحقق ولاشر يرد .

ولقد كانت حجة كهذه جديرة بأن تصرفنا عن الكلام فى إعجاز القرآن ، لو كان قصدنا من تناول هذا الموضوع ،الذى وضعت فيه الأسفار وتنافس فى حلبته الأئمة الأعلام ،أن نكرر ما قاله الذين سبقونا فى التصدى له ، والبحث فى دقائقه وحقائقه ، وموازنة الآراء المتعارضة التى سيقت فيه ، وتغليب واحد منها على سائرها ، أو رفضها كلها والإتيان بغيرها ، مما لا شك سيشبهها ، إن بدا جديداً ، مما سيحمل الآخرين على الغض منه ، والدعوة إلى الصدوف والازورار عنه .

ولكننا نبغى من تناول هذا الموضوع القديم الجديد ، شيئاً آخر ، هو الاستعانة به ، والتوسل ، إلى الحديث عن حاضر المسلمين ، وعن التأمل فى حالهم ، وعن تغليب الرأى فى الوسائل والخطط التى يمكن أن تجعل للقرآن الكريم فى حياة المسلمين ، وتغيير أمورهم ، وتقويم اعوجاجهم ، ومعالجة أسباب ضعفهم مما كان له فى العرب لعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حينما كانوا فقراء ، مبعثرين وخصوماً متعادين ، وضعافاً ، لا يحسب لهم فى حياة الأمم المحيطة بهم ، والمتصلة بقبائلهم وقوافلهم ، فضلا عن حياة الأمم الأخرى ، التى لا تعرف عنهم حتى الاسم .

وعلى الرغم من أن هذه هى غايتنا ، فقد يحسن أن نقدم بين يدى هذا المبحث ، الذى نراه جليلا وخطيراً ، وحقيقاً بأن تناوله من هذه

الناحية ، غيرنا ممن هم أعرف بالإسلام وعلومه . وبالقرآن وكنوزه . منا ، ببيان موجز عن موضوع إعجاز القرآن منذ سمع العرب به ، وصافحت آذانهم دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام . إلى الدين الذى بشر به . وبالعقيدة التى أعلن مبادئها وأحكامها .

* * *

فى القرآن الكريم أربعة مواضع ، فيها كلام لله تعالى . عن أن كتابه المنزل ، معجز ، لا سبيل إلى محاكاته . أو الإتيان بمثله . أو بشىء منه ، ولو كان هذا الشىء فى مقدار سورة من سوره . وأول ما نزل فى هذا المعنى قوله تعالى فى سورة الإسراء (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله . ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) ثم نزل بعدها آية فى سورة يونس (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) ثم آية فى سورة هود (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) .

وهذه السور الثلاث ، مكية ، وإن كان ابن عباس رضى الله عنه ، يقول إن سورة (يونس) مدنية ولكن الجمهور على أنها مكية .

على أنه فى سورة البقرة — وهى مدنية باتفاق — الآيتان الثالثة والعشرون والرابعة والعشرون وقد نزلتا فى المعنى نفسه : (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) والمتفق عليه أن أول ما نزل من القرآن هو قول الله تعالى (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق) .

ولما أن فتر الوحى بعض الوقت . خشى الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، أن يكون ربه قد قلاه ، وبقى مشفقا وجلا ، حتى نزل قوله تعالى : (والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى) .

وراح رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو صحبه إلى الدين الجديد :

فلبى دعوته أقرب الناس إليه : وأعرفهم به ، أبو بكر الذى مضى يدعو من يتوسم فيهم الخير . ويأنس فيهم حسن الاستعداد لقبول الدين والأخذ به . فدخل فيه عثمان وعبد الرحمن وطلحة وسعد والزبير .
وفى هذه الفترة لم يكن قد نزل من القرآن قدر كبير ، وبعد ثلاث سنين من حين البعث أمر الله رسوله أن يظهر ما خفى من أمره ، إذ نزل الوحى (وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين. فإن عصوك فقل إنى برئ مما تعملون) .

إلى هذا الوقت لم تكن آية من الآيات التى تتحدى العرب أن يأتوا بمثل القرآن أو ببعضه أو بسورة منه . قد نزلت ، وفى هذه الفترة، كان أعظم ما يؤرق بال المشركين وزعمائهم ، هو الحركة الدائبة التى يتوسل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه ، الذين آمنوا به ، فازدادوا حباً له ، وتأسياً به ، وإدراكاً لمعانى هذا الدين، الذى لخصته عبارة « لا إله إلا الله . محمد رسول الله » تلخيصاً أحاط بجوهره، وكشف للذين آمنوا ، وللذين كفروا — بعد الهوة: بين ما كان عليه العرب من الضلال ، وجلال ما يدعوهم إليه محمد من الهدى. وقد كان سعى محمد صلى الله عليه وسلم ، حثيثاً ، لا جلبة فيه، ولا دوى يصحبه، فقد كان يصدع بما أمره به ربه ،فقد كان يدعو عشيرته الأقربين، ويخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين ، فإن وجد فيمن يدعوهم ،إصراراً على الكفر ، وعناداً وتشبثاً بالشرك،لم يكن يزيد عن أن يقول (إنى برئ مما تعملون) ولكن هذا اللطف فى الدعوة،وهذه السماحة فى عرض الدين ، وهذا الصبر على الرفض والعزوف ،يخيف زعماء قريش ويفزعهم ويدعوهم إلى الإشفاق من المستقبل.لأن محمداً صلى الله عليه وسلم كان معروفاً بين عشيرته الأقربين ، ومن يتصل بهم ، بصدقه وأمانته، وكان فوق ذلك حسن المدخل إلى القلوب ، عليماً بالنفوس ،لا يفجأها ، بما تكره ،ولا يسمعها ما يجرح لها سمعاً أو يخدش لها أذناً . وبهذا

كان يشق طريقه فى لين ويسر ، وإن لم يزد أنصاره، فقد شغل الناس بما يقول ، وذاع أمره ، وكثر حديث الناس فى شأنه .

فلما توالى نزول القرآن ، وكثر ما حفظه القراء، وأقبلوا عليه يكتبون على اللخاف والجريد ، ثم يتدارسونه، فتناقلته الألسن ، وتداولته الأسماع ، هنالك أضيف إلى الحركة الإسلامية عنصر جديد هو عنصر القرآن وأثره فى نشر الدعوة ، وتأييدها ، ومد القائمين بها بالجديد من الحجج البالغة، والبراهين القاطعة ، مع تثبيتهم ، ونفى الريب عنهم ، وملء نفوسهم ، وقلوبهم بالثقة والأمل والسكينة . وقد كان للقرآن نقيض هذا الأثر فى معسكر المشركين ، فقد رأوا أن بروز هذه القوة، وظهور أثرها، إلى جانب الدين الجديد، يقتضيهم أن يقولوا فيه ، أسوأ ما تستطيع أفواههم أن تنطق به ، وأن يرموه ، بأقبح ما تعينهم عليه، نفوسهم المغيظة، وقلوبهم المحرجة ، وصدورهم المليئة بالأحقاد والسخائم

ومن ثم يمكننا أن نلخص موقف المعسكرين من قضية إعجاز القرآن من ناحية، وعجز البشر أن يقلدوه، ويحاكوه، أو يأتوا بمايشبهه أو يدانيه :

كان موقف المسلمين من القرآن تسليماً مطلقاً واقتناعاً كاملا ، وإيماناً ثابتاً بأنه كلام الله ، وبأنه منزل حقاً وصدقا على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه لا سبيل إلى الوصول إلى مستواه، ولا التشبه بشىء مما جاء فيه ، لا على سبيل المحاكاة والاقتداء، ولا على سبيل المعارضة والتحدى . ثم لم يفكروا فيما وراء ذلك ، ولم يشغلوا به عقولهم ، ولم يساور قلوبهم .

أما المشركون ، فقد كان القرآن لديهم افتراء من محمد ، عليه الصلاة والسلام ، وأنه أساطير ، أو أن أعجمياً لقنه إياه، وأملاه عليه، وأنهم لو أرادوا لقالوا مثله ، فهم لا يحاولون محاكاته ، ترفعاً وتعالياً، وقد أثبت القرآن الكريم موقف الطائفتين ، في تفصيل واضح وبيان شامل ، ووصف مبين .

ولكن الذى يهمنا هنا ـ هو أن المسلمين الذين آمنوا بأن القرآن من عند الله لم يضيعوا من وقتهم لحظة فى بيان إعجازه ، ورد هذا الإعجاز إلى أسبابه ؛ ومن هنا لم يختلفوا فى هذا الصدد ،ولم تتعدد لهم فيه آراء، لأنهم لم يجدوه جديراً بالتفكير لأن الحقيقة الساطعة يقرر وجودها فقط ، فما دام القرآن كلام الله تعالى ، وما داموا هم مؤمنين بهذا ، يعلنونه ويضمرونه ، ويقيمون حياتهم على أساسه ، ويؤدون عباداتهم فى ضوء هذا الإيمان . فكيف يسوغ أن يبينوا أسباب إعجازه . إنه كلام الله، وهو بهذه المثابة معجز . لأن عمل الناس غير عمل الله . والناس تمنعهم عقولهم أن يتسابقوا وخالقهم فى حلبة منافسة أياً كانت صورة هذه المنافسة ، وقد قرءوا فى هذا الكتاب نفسه ؛ ما نصه : (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له . وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) .

وهذا الكلام له معنى واحد ، هو أن أدنأ مخلوقات الله وأصغرها شأناً ، يصعب على الناس خلقها ، فإذا كان ذلك صحيحاً ، فكيف يتأتى لمن لن يخلق ذباباً ، أن يخلق مثل كلام الله .

أما طائفة المشركين ـ فهم شعبتان : شعبة تحس بحلاوة القرآن ، وتدرك أنه من غير طبيعة كلام الناس ، وأنه على الأقل القليل ، ليس قصيداً ، ولا رجزاً ، ولا سجعاً ولا نثراً ، وأن أحداً من العرب لم يأت بشىء على صورته ونسقه ، فضلا عن أن المعانى التى يدور حولها ، والغايات التى يدين الأفهام إليها . مما لم يخطر على بال حكمائهم وكهانهم ، وشعرائهم وخطبائهم ، لم يقولوا فيه شعراً ولا نثراً ، ولم يتسابقوا فى الإتيان به ، ولم يتنافسوا فى عرض الكلام فيه . أياً كان نصيب هذا كله من الحق أو البطلان ، من الصدق أو الكذب .

أما الطائفة الثانية فهى لم تمنح القدرة على تذوق ألفاظ القرآن ، ولا الوقوف أمام معانيه ، فهؤلاء كما قالوا ، وكما سيأتى البيان أحسنوا

وصف أنفسهم ، إذ قالوا إن قلوبهم غلف . والحق أنه قد قام بينهم وبين القرآن فى جملته وتفصيله ، حاجز صفيق ، لا ينفذ من خلاله شيء إلى قلوبهم ولا إلى عقولهم ، سواء كان ذلك عناداً أو استكباراً ، أو كانوا من غلاظ الأكباد ، ذوى الطبائع الترابية ، التى لا ترقى إلى تذوق الجميل ، أو الإعجاب بالبديع أو التأثر بالرقيق ، همهم بطونهم ، وشفاء أحقادهم والغلبة على أعدائهم ، بكل وسيلة ، ومن أقرب طريق .

وهؤلاء وأولئك ، بطبيعة الحال ، لا يتصور منهم أن يحاولوا تحليل القرآن ، ومعرفة أسرار جماله ، فهذا الجمال ، إما مجحود منهم ، مع أن أنفسهم استيقنته وسلمت به ، وإما أنهم معزولون عنه ، ومحرومون منه .

فعلى جميع الوجوه تكون قضية إعجاز القرآن . غير مثارة ، لا يدور حولها صراع ، ولا تفترق عندها المذاهب ، وتتشعب بسببها التصورات .

ولنر الآن ، كيف كان صدى هذا كله فى القرآن الكريم وكيف سجله ، وفصله ، وتركه لأجيال المسلمين ، ولخصوم هؤلاء المسلمين ، ليعوذوا جميعاً ، كيف شق هذا الكتاب الخالد ، طريقه فى الصخر ، ليقيم العلم السامى الرائع ، الذى أعلى صرحه للإنسانية ، فما يقوله المؤمنون ، ما قالوه ، وذكره الله تعالى فى سورة آل عمران على لسانهم : (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا) .

وما جاء فى سورة الزمر : (الله نزل أحسن الحديث ، كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم ، وقلوبهم إلى ذكر الله) . .

أما طائفة المشركين ، فقد قالوا: (لن نؤمن بهذا القرآن) سبأ ، كما قال :

(وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن ، والغوا فيه لعلكم تغلبون) فصلت. (ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا) الإسراء . (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) . أما ادعاء أو اعتقاد الكافرين بأن القرآن هو أساطير فقد وردت الإشارة إليه فى أكثر من أحد عشر موضعاً منه ؛ من ذلك قول الله تعالى: (فقال الذين كفروا إن هذا إلا أساطين الأولين) (قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا أساطير الأولين) الأنعام . (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) ، (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا). أما أن القرآن من تعليم رجل أعجمى يلقنه للرسول عليه الصلاة والسلام فقد ذكر فى سورة النحل : (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) .

فإذا كان موقف ، كل من معسكر الإيمان أو حزب الله ، ومعسكر الشرك ، أى حزب الشيطان ، من القرآن ، والهيته ؛ وافترائه ، واضحاً ، وهو موقف، لا يدعو إلى البحث فى موضوع إعجاز القرآن ، وتقليبه على وجوهه ، وتشقيق الكلام فيه لاستنباط الأدلة ، والرد عليها ، والرد على الرد، وهكذا فما الذى حدث حتى يصبح هذا الموضوع .شاغلا لعدد من الأئمة الكبار، أمثال الواسطى والباقلانى والجاحظ ، والجرجانى ، والرمانى ، والخطابى ، والرازى ، والزملكانى والذين جاءوا بعدهم ، حتى تناوله فى عهدنا مصطفى صادق الرافعى ، فى كتاب قائم برأسه ، والمفسرون المحدثون أمثال رشيد رضا، الذين يفردون له باباً من التفسير ، عندما يصلون إلى آية (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا) ؟

الذى حدث ، هو ما تقضى به سنة الله فى خلقه ، ففى صدر كل عقيدة جديدة يملك الإيمان على الناس زمام نفوسهم ، ويستحيل الإيمان ،

فور امتلاء القلوب به ، واطمئنان الأرواح إليه ، إلى عمل بكل وسيلة ، وبكل درب ، وفى كل وقت . عمل متصل، متجدد ، حار ، لا يهدأ ، فيغير أمور الناس التى كانت تبدو ثابتة لا تتغير ولا تزول ، ويطور أفهامهم ، ويمنحهم قوة كانت تعوزهم ، ويفتح لهم أبوابًا لم تخطر لهم على بال ، ويدفع بهم إلى مجالات ، لم يسمعوا ،ولا أجدادهم عنها شيئًا . فإذا وصلت الحركة إلى مداها ، وهدأت دفعة العقيدة الأولى ، وأثمر الجهاد الأول ثماره ، فنشأت بفضله وعلى سواعد الذين خاضوا معامعه ، واحتملوا أهوال معاركه ، حضارة مزدهرة ، فقامت المدائن والعمائر ، وشقت الطرق وازدهرت الحدائق ، وامتلات الأقطار بالعواصم والحواضر ، وامتلأت العواصم والحواضر ، بالمدارس والمعاهد ، وطبعت الكتب ، وتحلقت ندوات البحث والدرس ، حول الأساتذة ، وتشعبت المذاهب ، واصطرعت حولها العقول ، ودارت على جنباتها الألسنة ، وأصبح الإيمان الواحد الثابت الواضح ، الذى يلهم كل النفوس والعقول ، ويحرضها على الجهاد لهدف واحد ، عقائد تتفاوت قوة وضعفًا ، ويتفاوت أنصارها وأتباعها ، صدقًا وورعًا ، واندست فى الصفوف خصوم العقيدة الأولى ، فى أزياء لا حصر لها ولا عد . منهم من يبغى الفتنة ، ومنهم من يحس أنه وقد انتهى العمل، وقلت فرص الجهاد وثقلت على الناس أعباؤه، ومالوا إلى الراحة ، وآثروا العافية ، فعوضوا أنفسهم عن الحركة فى الواقع ، بالحركة فى التصور ، والخيال ، واستنفدوا طاقتهم وصرفوها فى الجدل ، واستبدلوا بالانتصار فى معارك السيف والرمح ، الفوز فى معارك الحجة والبرهان . وإلى جانب هؤلاء وأولئك ، أذكياء نابهون يرون أن الله منحهم عقولا باهرة قادرة على الإتيان بالعجائب والخوارق ، وأقلامًا بارعة ، تملك أن تطلع الناس بالمعجب والمطرب ، وأن اكتفاء الناس بإيمانهم البسيط القوى ، ودينهم المكين والغنى ، كان يحول بينهم وبين الإفادة من هذه المواهب ، أما وقد تحلل الناس شيئاً من أسار هذا القيد ،

وطمعوا فى أن يلتمسوا لعقولهم وأذهانهم . متعاً لم يكن لهم بها عهد ، فقد تهيأت لهم فرصة عرض ثمار هذه المواهب الكامنة ، وتلك القوى المعطلة ، فأخذوا يحاولون كل بسيط . ويستخرجون منه الطرائف ، ويفسرون كل واضح . ويستنبطون منه كل شارد ووارد . ويختلقون . ويثيرون معارك طاحنة . وقد طاب للحاكم الغنى القوى المطمئن إلى استقرار ملكه ، وإلى إذعان الناس لحكمه . وإلى كثرة الأرزاق بين يديه : ووفرة الأموال فى خزائنه : أن يشمل العلماء والشعراء والمفكرين والأدباء برفده ، وعطائه ، ليذهبوا عنه بما يكتبون ويقولون . الملل ووحأة الفراغ ، مما زاد المشاركين فى هذه المعارك . والمتفعين من غبارها الثائر . والصاعدين على سلالم المجد . بفضل دويها الصاخب .

لهذا كله . أصبح من المتعين ألا يقنع علماء العربية ، بالقول بأن القرآن معجز ، بدليل الواقع الناطق البليغ ، ووجب أن يقننوا لهذا الإعجاز . منهجا ، وأن يرسوا له قواعد .

ولقد أعان على هذا كله . أن العرب اتصلوا بحضارات غير حضارتهم . فعرفوا الفرس واليونان والهنود والسريان ، وأعجب بعضهم بمنطق أرسطو ، وتتلمذوا عليه وترجموه ، ونقلوا عنه ، فأدخلوا منطقه فى فنون الكلام ، وفى علوم اللغة ، وفى أصول الدين : فلم يعد ممكناً أن تقول إن القرآن معجز ، وتقف عند هذا الحد ، وإنما تعين أن تسأل — ولا أحد غيرك يسأل — لماذا كان معجزاً ، وأين موطن الإعجاز ، وهل هو موطن واحد، أو مواطن عدة . وأيكون هذا الموطن ألفاظه أم معانيه ، أم أنباءه ، أم ما دعى إليه ، أم ما رفع عن الناس من أنباء الغيب حجبه ، أم قدرته على إتيان الخبر الواحد بأكثر من أساليب . أم خروجه على نظام الشعر والنثر ، والسجع والرجز ، أم أم . .

وهذا كله بسبب فتح باب البحث فى إعجاز القرآن ، مما يحتاج إلى شيء من البيان .

نقطة الابتداء . فى الحديث عن إعجاز القرآن : هو الوقوف عند أثره الأول . فى المتلقى الأول ، لأول ما نزل من آياته ، وهو خاتم النبيين ، ورسول الله رب العالمين : محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .

ذلك أن القرآن الكريم، أنزل ، ليبلغ به محمد صلى الله عليه وسلم . عقيدة الإسلام وأحكامه ، ليبشر به ، وينذر ، ويعلم ويهدى ، ويصلح ويقوم، ويرشد ويسدد ، فإذا لم يفعل فى نفس هذا الرسول، الأثر الذى لا تتم رسالة القرآن إلا به ، ولا يعم أثره إلا عن طريقه، كان القرآن كتاباً ككل الكتب التى اكتتبها البشر ، والتى انطوت على الحكمة ، البالغة ، والأفكار العالية ، والمناهج العظيمة . يقرؤها أقوام ، فيعجبون بها ، ويتأثرون بما فيها ، من رأى صائب،وحقيقة حجبها الجهل ، أو استعصت على الفهم ، ثم يتحدثون بها مع خاصتهم ، فمنهم من يلتفت إليها ، ويبذل الجهد فى تحصيل ما بها، والانتفاع بخيرها ، ومنهم من يمضى وكأنه لم يسمع شيئاً . . ثم تنسى حتى يعود إليها ، مؤرخو الآداب ، فينفضون عنها الغبار ، ويرفعون الستار ، وينبهون الناس إلى خطرها وقيمتها ، ويدعونهم إلى تأمل نفعها وحقيقتها ، وهكذا دواليك . .

أما إذا كان المتلقى لكتاب الهداية العامة ، والرسالة الشاملة ، للناس كافة فى كل مكان، وفى كل زمان ، قد آمن بهذا الكتاب بهذه المثابة، وعمل به ، وله ، على هذه الصورة ، فانقلب من راع للغنم ، ومشتغل بالتجارة ، وزوج أمين ، وإنسان فذ فى مجتمعه ، خلقاً وصدقاً ، ونأياً عن الرذيلة ، ولاشىء أكثر من ذلك ، إلى داع ، يضحى بالراحة والزوجة والولد ، والمال ، وخلو البال والأهل والسند ، ثم متحد رابط الجأش ، ثابت العزم ، للمجتمع الذى يعيش فيه ، وينهى إلى أهل القمة منه فيسفه أحلامه ، ويجرح نظامه ، ويسب آلهته ، ويكذب أديانه ، ويدعو إلى حياة جديدة فى كل شىء ، أساساً وغاية وأسلوباً

ونهجاً ، ثم لا يحفل بالصعاب تتجمع فى طريقه ، وبالآلام تطارده بالليل والنهار ، وبانصراف الناس عن سماعه ، وتكذيبهم لدعواه وشكهم فى عقله . وسخريتهم بأمره . . فهذا هو الدليل الأول على إعجاز هذا الكتاب .

فليس الإعجاز : فى أى أثر مكتوب ، هو فى أسلوبه ، وألفاظه ، ولا فى معانيه ومبانيه ، ولا فى حلاوته ، وعذوبته ، فهذه كلها وسائل لغايات ؛ وغاية هذه الغايات ؛ هو نشر الإيمان الذى جاء به هذا الكتاب .

ولقد حفظت لنا كتب السيرة ، كيف كان وقع أول ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم من قرآن ، فى نفس محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكن غير المؤمنين بالقرآن وبالإسلام ، قد لا يصدقون كل ما روته كتب السيرة ، من مجىء الملك إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو فى الغار يتحنث ، وكيف أمره هذا الملك بقوله : « اقرأ » وما أحس به ، حين شعر بأن الملك يضمه ، ثم يرسله ، ويقول له « اقرأ » فيقول محمد صلى الله عليه وسلم : ما أقرأ ؟ « ثم يضمه الملك مرة أخرى ثم يرسله ويقول له (اقرأ) فيقول الرسول ، وقد خاف أن يضمه مرة ثالثة ، ماذا أقرأ . فقال : (اقرأ باسم ربك الذى خلق) .

قد لا يصدق غير المسلمين الآن ، هذه الرواية كلها ، وأغلب الظن أن كفار ومشركى العرب وغيره العرب ، ممن سمعوا بها إبان الدعوة ، قد كذبوها ، وأن هؤلاء ، وأولئك يحسبونها من تلفيقات محمد عليه الصلاة والسلام ليثبت صلته بالسماء ، وتلقيه الوحى ، واصطفاء الله تعالى إياه ، ليؤدى رسالة الإسلام إلى البشر جميعاً ، وإذا صدق بها بعضهم فلكى يتخذوها أسلوباً فى الطعن فى الإسلام ورسوله ، أبلغ فى تكذيبه ، وأبعد فى تجريحه ، إذ هم يقولون إن محمداً عليه صلوات الله ، كان به مس ، أو صرع يهيىء له من الأمور ، ما لا أصل له فى

الواقع ، وإن كان يسمعه ويراه ، ويؤمن به ، هو من وحى المرض لا من وحى الله تعالى :

ولكن الثابت الذى يسلم به كل مؤرخى الإسلام من اليهود والمسيحيين، فى القديم والحديث ، أن محمداً بن عبد الله ، كان أمياً وأنه ما كان يعرف ـ من قبل ـ ما الإيمان ولا الكتاب ، وأنه ما كان يخطه بيمينه ، وأنه واصل مع ذلك الدعوة إلى ما جاء فى هذا الكتاب ، فى وجه معارضة قاسية شرسة ، وصعاب متكاثرة لا قبل لبشر باحتمالها ، وأنه لما ضاقت قريش ، أكبر قبائل العرب ، وزعيمة عشائرهم ، أرسلت إلى عم الرسول، أبى طالب ، لتضع حداً لهذه الدعوة الجديدة التى أرقت العرب ، وأزعجتهم فعرضوا على (أبى طالب) عرضاً اجملوه بقولهم : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك، سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا، فإما أن تكفا عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ، ولما رفض أبو طالب هذا العرض، لشدة حبه لابن أخيه ، عرضوا عليه عرضاً آخر ، يتصدع له كل عزم ، وتتهاوى أمامه كل إرادة إن لم يكن له عاصم من عقيدة قوية غاية القوة ، وإيمان عميق بالغ العمق فقد اقترحوا أن يتوجوا محمداً صلى الله عليه وسلم عليهم ملكاً إن كان طامعاً فى سلطان ، وأن يجمعوا له المال ، إن كان يبغى من وراء دعوته الثراء ، أو أن يلتمسوا له العلاج إن كان يشكو علة ، فكان رد رسول الله الكريم ، « ياعم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه » وهذه العبارة ، هى بيت القصيد ، فى كل هذه الرواية الطويلة ، فهى أثر القرآن فى نفس محمد بن عبد الله، الأمى الذى لم يكن آنذاك زعيماً فى قريش ، ولا قائداً لجنودها ، ولا حكيماً من حكمائها ، وإنما كان رجلا لم يجرب عليه الكذب ، أميناً ، لم يسمع أحد ، عن رذيلة علقت بثوبه ، أو منقصة ، اتصلت بخلقه . فإذا كان قد نحى جانباً هذا العرض ، بهذه القولة الضخمة ، وهو يعلم أن

بعدها أهوالاً يخوضها . وآلاماً مرة يتجرعها ، فليس ثمة تعليل سائغ : ولا تفسير مقبول ، لهذه الصلابة فى الموقف ، والثبات فى المسلك ، إلا أنه استمد من القرآن قوة منحته هذه الصلابة ، وأفاءت عليه هذا الثبات . وهذا أول ما لاح من إعجاز القرآن الذى يعلو على كل ما نتصوره من أسرار ألفاظه ومعانيه . وقوة آياته ومعانيه واستعصائها على التقليد والمحاكاة، فقد شهد التاريخ على مر حقبه ، أقواماً يتعصبون لكتب يتداولونها . مقدسة : أو بشرية ، ويذهبون فى الإشادة بجمال نظمها ، وسمو معانيها مذاهب تبلغ العبادة . ولكن لم يرو التاريخ المحقق الثابت الذى لا تشوبه الأساطير ، أن كتاباً ، مَّا فعل فى نفس بشر ، ما فعله القرآن فى نفس محمد صلى الله عليه وسلم، العربى الأمى . فإذا انتقلنا إلى أثر القرآن فى الرجال الذين آمنوا بمحمد ، نجد أن الأثر نفسه ، أكثر وضوحاً ، وأدعى إلى الدهشة ، وأبعث على الاستغراب ، فمحمد عليه الصلاة والسلام كان يؤمن بأن ما نزل عليه وما سمعه وأذهله وأدهشه . هو قرآن من السماء ، إما لأن ذلك كان وحياً حقاً، كما نؤمن نحن ، وإما لأن محمداً كان به من خصائص النفس والعقل ، ما يجعله يصدق أوهامه : كما يقول خصوم محمد وخصوم الإسلام .

أما أصحاب محمد أمثال أبى بكر وعثمان وعبد الرحمن وطلحة والزبير فقد كانوا رجالا ، كسائر العرب ، أصحاء البدن والعقل ، يأخذون الحياة ، ويتناولونها ، أخذ سائر العرب وتناولهم إياها . يشتغلون بالتجارة : ويبيعون ويشترون ، ويتزوجون النساء ، ويحلو لهم ما يحلو للعرب ، ويأنفون مما يأنف العرب ، فلم يعرف عن أحدهم أنه منهم من أسهم فى بعض ندوات مكة التى تتحدث فى الدين ، أو تتعاطى قول الشعر . فما الذى جذبهم إلى هذا الرسول الجديد ، ثم أبقاهم فى أسر دعوته ، يشقون فى سبيلها ، وينالهم الكساد فى التجارة والضيق فى الرزق ، وهجر الأهل والأحباب ، وسماع ما يؤذى ؟

فإذا قيل إنهم كانوا يعرفون عن محمد الصدق ، ويؤمنون بأنه لا يدعوهم إلى باطل ، أو يتخذ من دينه الجديد سبيلا إلى الجاه أو السلطة أو المال ، وأنهم لم يتأثروا بالقرآن حينما دخلوا هذا الدين الجديد ، لأن الوحى كان فى مبدئه ، كان هذا القول صحيحاً فى جملته وتفصيله . فالقرآن لم يقرع آذانهم ، قرعه العذب الجميل ، فاستمالهم إليه ، بل استمالهم إليه شخص محمد وصدقه ولفظه وطهارة سيرته ، وثبات شخصيته التى تبعث على الاطمئنان والاحترام . ولكن هل كان هذا التصديق والحب والإعجاب وحدها كافية لأن تثبتهم على الدين الجديد ، بعد أن اشتدت المعارضة ، وحمى وطيس الصراع من قريش وسائر العرب من جهة ، وبين محمد وأصحابه من جهة أخرى لا ، فالذى ثبتهم ، وجمع كلمتهم وملأ قلوبهم أملا فى نجاح الدعوة ، ونصر الله إياهم ، وتأييده لهم ، هو القرآن .

وبين أيدينا نصوص ترينا ، أثر القرآن ، فى أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم فى صدر الإسلام وأسلوبهم فى مدارسته ، وإدمان قراءته ، ومداومة حفظه ، فى تأن وصبر ، فقد روى القرطبى فى كتابه (جامع بيان العلم) عن قرظه بن كعب قال : خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر إلى « حرار » فتوضأ فصلى اثنتين ثم قال: أتدرون لم مشيت معكم؟ قالوا : نعم : نحن أصحاب رسول الله مشيت معنا فقال : إنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل ، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم .

ويهمنا من هذا النص ، قول عمر رضى الله عنه « لهم دوى بالقرآن كدوى النحل » وجاء فى فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين : ولم يكن شائعاً فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم حفظ القرآن جميعه كما شاع بعد ، إنما كانوا يحفظون السورة أو جملة آيات ويتفهمون معانيها ، فإذا حذقوا ذلك انتقلوا إلى غيرها ، فكان حفظ القرآن موزعاً على الصحابة ، قال

أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين يقرءون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل . وقال أنس :

كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران فى بيننا (رواه أحمد فى مسند) وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمانى سنين ، ذلك أنه إنما كان يحفظ ولا ينتقل من آية إلى آية حتى يفهم .

والثابت أن القرآن كان شغل المسلمين الأوائل الشاغل، وأنهم كانوا يصرفون من الليل غير القليل من ساعاته يقرءونه ويرتلونه ، التماساً للبركة ، وتفهماً لمعانيه وتحرياً لأحكامه ، فقد كانوا يتحرون الحلال والحرام فى كل صغيرة وكبيرة من شئون حياتهم فى دورهم وفى أعمالهم ، وفيما لهم من حقوق ، وما عليهم من واجبات ، وكان القرآن هو دليلهم الهادى فى كل ذلك .

ولم تفعل أمة من الأمم فى الشرق كالهند والصين، أو الأمم فى الغرب كالإنجليز أو الألمان أو الطليان ، ما فعله العرب ، بعد أن أنزل إليهم القرآن ، فقد كانت لهذه الأمم كتب مقدسة ، يستلهمونها ، وتكيف أسلوب حياتهم ، وتشكل معاملاتهم وعلاقاتهم ، ولكن لم تعرف أمة ، استحال كتابها المقدس جزءاً من حياتهم اليومية ، لا عند الصلاة والتعبد فقط ، ولا فى المناسبات الدينية الكبيرة والصغيرة ، فحسب ، بل عند تناول اللقمة أو السير خطوة ، أو توجيه التحية ، أو عقد العقد ، أو استقبال الوليد ، أو دفن الفقيد ، بل فى كل خاطرة تسنح للنفس ، وفى كل فكرة تطرأ على العقل ، كما استحال القرآن فى حياة العرب المسلمين .

وهذا هو الإعجاز بأعلى مراتبه

على أن هؤلاء الذين أصبح القرآن ، مرشدهم ودليلهم فى شئون الدنيا ، وفى أمور الدين ، والذين رتلوا القرآن واستعذبوه ، والذين حفظوا القرآن وجودوه ؛ والذين درسوا القرآن وتفهموه ، والذين تعلموا القرآن وعلموه . أصابهم تغير لم يسمع به التاريخ فى قديم أو حديث ، لا فى الشرق أو الغرب ، فإن الأمة التى لم يكن عدد الذين يحسنون القراءة والكتابة فيها إلا قلة يعد أفرادها على أصابع اليدين على الأكثر ، والتى كانت هذه القلة منها ، لا يعدو علمها ، علم صبى فى مدرسة من مدارس الأمم المتحضرة فى مراحل التعليم الأولى ، هذه الأمة قفزت فى ثلاث وعشرين سنة — وهى عمر شاب صغير — من التعلم والتهجى والابتداء ، إلى تعليم نفسها ، فتعليم غيرها ، فنشر التعليم فى الدنيا ، فإقامة دولة فسيحة مترامية الآفاق ، شملت العالم المغمور فى ذلك العهد ومهدت لحضارة وثقافة وعلم ، جاء بفضلها ، وسار على هديها ، واستضاء بنورها ، فكان أعجب وأعظم وأوسع علم عرفته الإنسانية منذ ولدت على سطح هذا الكوكب .

وهذا شيء يتجاوز الإعجاز .

يتجاوز الإعجاز حقاً وصدقاً .

ذلك لأننا نعنى بلفظ الإعجاز ، فى خصوص القرآن الكريم ، هو ما إذا كانت السورة من القرآن فى مقدور أبلغ وأفصح الكتاب والقائلين من الناطقين بالعربية الإتيان بمثلها ، أم أن ذلك فوق طاقة البشر ، فالمقارنة محصورة فى ألفاظ وجمل عربية ، مما يتيح للمكابرين ، والمتعصبين ضد القرآن والإسلام ، أن يزعم أن ما أتى به الغير فى محاكاة القرآن ، فى مثل جمال نظم القرآن وروعة معانيه ، أو أعظم من ذلك النظم وأروع . أما هذا الذى حدث من أمة القرآن فى صدر حياتها ، وبعد أقل القليل

من الزمن . مما يقل بكثير عن عمر فرد واحد فى جيل واحد . فلا قبل لكتاب من الكتب : بتحقيقه . إنه لم يتحقق قبل القرآن ، ولا فى عهده . ولم يتحقق شيء مثله إلى الآن .

وقد تصورنا أن إعجاز القرآن : مقصور على لفظه ومعناه : كأنه كتاب ككل الكتب يتكون من لفظ ومعنى . وأغفلنا تماماً : ما وراء اللفظ والمعنى ، التى نراها فى كل كتاب من كتب الناس . العقيدة التى يدعو إليها . والتى لا تجدها فى آية منه بذاتها ، ولا فى سورة بعينها ، لأنها تسرى فى كل آياته وكل سورة . وتتساند بعضها مع بعض : لتخلق هذا البناء الشامل ، الذى لا يدع من حياة الناس : صغيرة ولا كبيرة ، حتى هجسات النفوس : ووساوس القلوب ، إلا أحصاها : وكشف أثرها : وأعلن سرها (ما لهذا الكتاب ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) ، مع أن الله تعالى وصف القرآن الكريم بقوله : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) الشورى . (نزل به الروح الأمين على قلبك ، لتكون من المنذرين) الشعراء (يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق) (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) فإذا كانت الروح من أمر الله : وكان القرآن : روحاً من أمره تعالى ، فمن المستحيل أن ينحل إلى لفظ ومعنى ، وسورة وآية ، وأن يناقش ما فيه مناقشة غيره من الكتب ، لأنه مهما سما ككتاب يقرأ ، ويفهم ، ويدرس ، ويلقن . وتستخرج منه الأحكام : وتستنبط قواعد الدين ، ويستعذب وقعه فى السمع ، وتحسن دراسة ألفاظه ، بل يجب التفقه فى أسلوبه ، وبناء الكلمة فيه ، وبناء الجملة من كلماته ، وإلا انعدمت قيمته التى اتجهت مشيئة الله إلى نفع الناس بها : وهدايتهم عن طريقها ، ولكن لابد بعد ذلك . أن نبحث عن سر القرآن فى أثره فى نفس الذى نزل على قلبه ، وعلى الذين أصطفاهم الله من الرجال والنساء لإقامة أحكامه ، ونشر الدين الذى بشر به ، وحماية العقيدة التى انطوى عليها . وجاء من أجلها . فهنا موطن

الإعجاز الحقيقي ، الذى لا يستطيع المكابر ، أن ينكره ولا يملك المعاند إلا أن يقر به ويعلنه .

وقد نجم عن الحديث فى القرآن ، للكتاب ، وتحليله إلى معان ومعايير أن جرؤ أقوام على الجهر بآراء ، تكاد تكون الكفر بعينه ، مثل ما ذهب إليه الجعد بن درهم من أن فصاحته غير معجزة ، وأن الناس يقدرون على مثلها وعلى أحسن منها « إعجاز القرآن : للرافعى ص ١٦١ » ثم قال إبراهيم النظام وهو من رءوس المعتزلة إن إعجاز القرآن كان بالصرفة ، أى أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليه ، فكان هذا الصرف خارقاً للعادة . وقال المرتضى من الشيعة إن معنى الصرفة أن الله سلب الناس العلوم التى يحتاج إليها فى المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن .

وقد أغضب القول بالصرفة على أية صورة سبق ، أهل السنة غضباً شديداً ، لحص (النظام) فى كل كتاب تناول إعجاز القرآن وأسراره ودلائله ، واعتبر أن هذا القول قريب من الشرك . ونحن وإن لم نقل بالصرفة ولا بشىء آخر مما قيل فى إعجاز القرآن ، مما أوردناه ، فنحن لا نرى هذا القول ، جديراً بكل هذا الغضب ، واللعن ، لأن غاية قائله أن يثبت أن القرآن من عند الله ، وأنه يحميه من المحاكاة والتقليد ، والغاية — أصلا — من بحث إعجاز القرآن تثبيت الإيمان به ، وتأكيد أنه من وحى العلى القدير ، ليؤمن الناس بالدعوة التى جاء بها ، والله يختار لحماية رسله ، وكتبه ، ما يخطر على بال عباده ، وما لم يخطر . وقد قال الله تعالى فى سورة التوبة (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم) .

وقد قاد هذا المنهج ، الذى لا يتفق أصلا مع ما جاء فى كتاب الله العزيز ، مما سنورد بعضه الآن ، أن ساق بعض المتكلمين فى هذا الباب ، أى فى إعجاز القرآن الكريم ، شواهد على الإعجاز لا تليق بكتاب من وضع أحد من كتاب البشر ، من ذلك ، الشاهد الذى نراه فى كثير

من الكتب الموضوعة فى الإعجاز ، وخلاصته أن الأصمعى سمع بدوية تتغنى ببيت من الشعر الجيد ، أعجبه ، فأثنى على بلاغتها فقالت أين هذا من بلاغة الآية التى جمعت أمرين ونهيين وبشرايين ، فقد قال الله تعالى موجهاً خطابه إلى أم موسى (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه ، فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى ، إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين) .

فأرضعيه وألقيه أمران ، ولا تخافى ولا تحزنى نهيان ، رادوه إليك البشرى الأولى وجاعلوه من المرسلين البشرى الثانية ، فأعجب أن يكون هذا دليلا على بلاغة القرآن وبالتالى على إعجازه ، ومن ثم فهو من عند رب العالمين .

وقد سمعت عالماً ، يسوق لسامعيه الدليل وراء الدليل على إعجاز القرآن ، وإنى مورد هنا ما علق بالذهن من هذه الدلائل لنرى معى ، أتصلح شاهداً على إعجاز كتاب الله العظيم .

فما قيل فى هذا الباب ، إن الله تعالى تحدث عن الأولاد ورزقهم فى موضعين فقال فى الموضع الأول : (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) الأنعام وقال فى الموضع الثانى (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم) الإسراء. وواضح من مقارنة الآيتين أن الأولى تتحدث عن قوم فقراء ، يعولون أولاداً كثيرين ، فالله تعالى ينهاهم عن أن يقتلوا أولادهم الذين يعيشون معهم ، لأن الله سيرزق الآباء وسيرزق الأبناء ، وفى الموضع الثانى يتحدث عن حالة عائلة ، تخشى الفقر ، إذا أرسل لها أولاداً ، ومن هنا ، بدأ بالحديث برزق الأولاد ، ليطمئن آباءهم أنهم إذا جاءوا فسيجيئون بأرزاقهم معهم . وهذا التباين بين بناء الآيتين دليل إعجاز عند من أشار إلى ذلك .

ولكن من الواضح أن مقتضى الحال ، فى الآية الأولى يحتم تقديم الآباء فيها على الأبناء ، فى حين يحتم فى الآية الثانية تقديم الأبناء على

الآباء ، وأن التباين بين الحالتين ، واضح ، لا تخطئه عين مجرد الكاتب من الناس ، فتصور أن الالتفات إليه من الله تعالى ليس إعجازاً ، ولا يمت إلى الإعجاز بشيء . وإن القول بأنه من دلائل الإعجاز هبوط بمقام القرآن إلى مستوى لا يليق .

والمثل الثانى ما جاء فى سورة الكهف، عند الحديث عن أهل الكهف وهم يلجأون إليه ويختفون فيه ، فى الآية الحادية عشرة (فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عدداً) . بعد قوله تعالى : (إذ أوى الفتية إلى الكهف) فقد رؤى فى قوله تبارك وتعالى : (فضربنا على آذانهم) شهداً على إعجاز كتابه الكريم ، إذ ما دام الفتية قد أغمضوا أعينهم ليناموا ، فلم يبق من حواسهم التى يمكن أن يأتيهم منها ، ما يوقظهم إلا حاسة السمع فإذا كان القرآن الكريم قد التفت إلى هذه الحقيقة فقال فضربنا على آذانهم فهو كتاب معجز. وأعجب لفتية أنامهم الله بأمره سنين عدداً ، ليفيقوا من نومهم فى الأجل المضروب ، ويحتاجوا إلى ما يقيهم من أثر الأصوات التى تعكر هذا النوم ، وأن النص على ذلك ، يفوت على غير الله سبحانه وتعالى .

الشاهد الرابع لام التأكيد، التى تدخل على عبارة (من عزم الأمور) فى موضع ، ولا تدخل عليها فى موضع آخر ، ففى سورة لقمان (يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) وفى سورة الشورى (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) فى الموضع الأول الإصابة من الله ، فليس فى وسع الإنسان أن يثأر لنفسه ، فلا يحتاج المرء إلا لمجرد العزم ، أما الإصابة فى الموضع الثانى ، فمن البشر ، ففى وسع الإنسان أن ينتقم ، ومن ثم ، فإن مزيداً من العزم مطلوب ، ومن هنا دخلت اللام على (من) وأصبحت (لمن) تأكيد للحاجة إلى العزم على الصبر . وأحسب أن استعمال أدوات التأكيد شيء مبذول للكافة ، يستعملها الكاتب ، حينما يريد تأكيد ما يدعو

إليه وينصح به .

وسمعت من متكلم آخر يسوق لفظ (اثاقلتم) الوارد فى سورة التوبة مخففاً من أصله (تثاقلتم) وقد ظن أن معنى اثاقلتم أقوى فى بيان حالة التلكؤ والتردد فى المضى إلى القتال عن لفظ « تثاقلتم » فى حين أنهما يحملان المعنى نفسه ، فى أن هذا التخفيف ، قصد به تيسير النطق ، دون المساس بالمعنى .

وهذا كله ، مرده تصور أن إعجاز القرآن ، مقصور على لفظه ومعناه ، وأن مجال البحث فى موضع الإعجاز ، هو عقد المقارنة بين ما قاله تعالى فى كتابه الكريم ، وما يمكن أن يقوله بلغاء القراء والكتاب ، وأنا زعيم بأن إعجاز القرآن أكبر من هذا ، وأن الله تعالى حينما وصف كتابه ، وبين للناس ، ما أنزل إليهم من أجله ، لم يشر إلى صياغته وبنائه ، ولكن قال عز وتبارك ما سنورد لك ، بعضه فيما يلى :

(ذلك الكتاب لا ريب فيه) البقرة (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق) البقرة (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه) آل عمران (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه) (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة) (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) (تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق) (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه) (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء وهدى ورحمة) .(كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) (كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون) . (الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان) .

قال الله تعالى عن القرآن (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى

للناس) (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين) (ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا) (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) (ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر) (وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث)(وكذلك أنزلناه قرآناً عربيا وصرفنا فيه من الوعيد) طه (قرآناً عربياً غير ذى عوج لعلهم يتقون) (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته) (وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى) (إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) .

فالقرآن سواء ذكر باسمه أو ذكر باسم (الكتاب) ، هو للبداية ؛ لينذر به الرسول ، الناس ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ليكون شفاء ، وليكون هدى ، وليكون رحمة ، وقد أنزل على رسول الله ، ليبين للناس ما اختلفوا فيه ، وليذكرهم بما جاء فيه. وأقصى ما قيل عن القرآن مما قد يتصل ببنائه وسياقه ، إنه كتاب غير ذى عوج ، وإن آياته فصلت وإنه قرآن عربى ، ولكن هذه الأوصاف أكثر اتصالا بما جاء فيه من الهداية والتبشير ، وبأنه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وإن الله لم يفرط فيه فى ذكر شىء ، يجب أن يذكر للناس ، لتتم هدايتهم ، وليكمل دينهم .

ولقد بين القرآن الكريم ، موقف المشركين والكفار من هذا القرآن الكريم : نورد فيه عشرات من الآيات ، تظهر انصرافهم عنه ، وكفرهم به ، وسخريتهم بالرسول الذى دعاهم إليه ، ورميه بكل عيب ، فهو مفتر ، ومجنون وشاعر وكاذب ، حاشاه صلى الله عليه وسلم .

ويمكن تقسيم آيات التكذيب للقرآن إلى ثلاث طوائف .

طائفة ، تصف صدود المشركين من الكفار ، وإعلانهم الكفر به ؛ وطلبهم إما أن يأتى رسول الله ، بغيره ، أو يبدله ، أو ينزل عليه جملة ،

أو دعوتهم الناس ألا يسمعوه .

وطائفة تتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه افترى هذا القرآن ، فهو غير منزل من السماء .

وطائفة ، تقول عن هذا القرآن إنه أساطير وسحر .

فمن الطائفة الأولى قوله تعالى :

(قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله) ؟ (ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفوراً) (وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ، ولوا على أدبارهم نفورا) (وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا) (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) الفرقان (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه) (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن) .

ومن الطائفة الثانية :

(إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين) (أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك) (افترى على الله كذباً أم به جنة) (بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر) (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه) .

ومن الطائفة الثالثة :

(وقالوا ما هذا إلا سحر مفترى) القصص (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين) يونس (ليقولن الذين كفروا إن هذا سحر مبين) (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين) .

فإذا كان هذا هو موقف المشركين من القرآن :

نفوراً منه ، وصدوداً عنه ، وكفراً به ، وإذا كانوا قد أعلنوا — كما جاء فى القرآن الكريم أنه حديث مفترى ، وأن محمد بن عبد الله ، هو الذى صنعه ، وأنه أساطير تملى عليه ، فاكتتبها ، وأن الذى لقنه إياه أعجمى فما الذى جعل هذا الكتاب ذاته كتابهم ، وما الذى نقلهم من معسكر

الشرك إلى معسكر الإيمان ، ومن الإضراب عن سماع القرآن إلى حفظه عن ظهر قلب ، وترتيله ، والسهر على تفهمه وتذوقه والوقوف على أحكامه واستنباط القواعد منه ، والاهتداء بها ، ودعوة الناس إليها ، والجهاد فى سبيلها .

إنه القرآن نفسه !

ولكن كيف ؟ هذا هو موطن إعجاز القرآن .

فكيف صنعت معجزة القرآن ، من العرب الأميين ، المتفرقين المتباعدين ، الموزعين فى أنحاء الجزيرة العربية وأعطافها ، والذين لاتضمهم وحدة ، ولا تظلهم حكومة أمة واحدة .

ومضت سنة الله في خلقه (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ، فلابد من قلة مؤمنة ، تجاهد فى سبيل الدين الجديد ، وتشقى ، وتبذل الحياة ، وتهجر أسباب الراحة وتتشرد فى فجاج الأرض ، ويتأخر عنها النصر ، وتتوالى عليها الهزائم ، حتى يأتى الله بأمره ، ويأذن للمغلوبين أن ينتصروا ، وللضعفاء أن يرثوا الأرض ، ليقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، ويأمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر ويتواصوا بالحق ويتواصوا بالصبر : (الذين إن مكناهم فى الأرض ، أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) الحج .

فمعجزة القرآن ، تحققت حينما استطاعت عصبة من الرجال الفقراء ، أكثرهم شبان ، أن تستلهم من هذا الكتاب القوة ، وأن تواصل جهودها ، حتى أصبحت كلمة الله هى العليا ، وكلمة الضلال والجهل والعصبية ، هى السفلى ، وخرج من صفوفهم القادة والخلفاء ، والأئمة والعلماء ، وأشرقت أرض الجزيرة العربية القاحلة المجدبة بنور ربها .

وقد كان لهؤلاء الرجال ، رفيق لا يتركونه ، ولا يتركهم ، وصاحب لا يملونه ولا يملهم ، وإمام لا يغيب عن أعينهم ، ولا ينأى عن ضمائرهم ، ذلك هو القرآن ، إذا قرءوه وهم الأشداء الأقوياء تتحدر دموعهم على

الوجنات . وتخشع قلوبهم . لا تأثراً بلفظ القرآن . وإنما بوعده ووعيده . طمعاً فى جنته فى الدنيا وفى الآخرة . وخوفاً من جحيمه فى الحياة وبعد الموت . فإذا أردنا أن نحقق معجزة القرآن من جديد ، فلنتحدث عن جانب من إعجازه . التفتت عنه عقولنا ، وهو الجانب الذى لا يحتمل جدلا . ولا يتسع لمناقشة . ذلك هو أثره الملموس باليد . المرئى بالعين ، فى بعث الأمة من رقادها . حينما تتأسى به . وتهتدى .

فهرس

للمؤلف
من مطبوعات دار المعارف

من مسلسلة اقرأ :

١ — أخى المواطن	العدد ١٤٨
٢ — هذا الشرق العربى	العدد ١٧٥
٣ — مومس تؤلف كتاباً	العدد ٣٣٩
٤ — الإسلام ومشكلات الفكر	العدد ٣٧٧
٥ — مصطفى كامل	العدد ٣٩٠

وله أيضاً :

٦ — دموع إبليس : مسرحية من أربعة فصول (طبعة ثانية)
٧ — مع الإنسان فى الحرب والسلام : دراسة تاريخية وسياسية
٨ — إله رغم أنفه : خمس مسرحيات من ذوات الفصل الواحد
٩ — خط العتبة : قصة طفل مصرى

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٥/٥٤٣٠

مطابع دار المعارف بمصر — ١٩٧٥
١/٧٥/٢٩٦

ـــه
٢٠

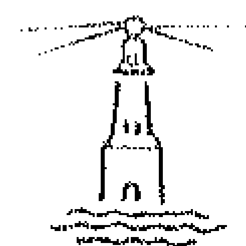


اقرأ

لكل زعيم قصة

مصطفى كمال
أتاتورك

حلمى مراد

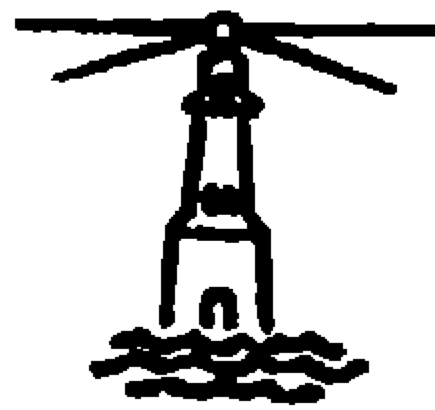


دار المعارف بمصر



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر



حلمى مراد

لكل زعيم قصة

مصطفى كمال

أتاتورك

اقرأ ٤٠٧

دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

الإهـــــداء

إلى الرئيس أنور السادات

إلى المكافح ، الوطنى ، الشجاع . . قائد ثورة ١٥ مايو لردّ الحريات والديمقراطية المسلوبة ، إلى الشعب الصامد الصبور ، وترسيخ قيم الاصالة المصرية ، والوفاء . .

إلى بطل قرار ٦ أكتوبر الجسور ، وقائد نصر ١٩٧٣ العسكرى المجيد ، حفاظاً على تراب مصر الغالى . .

تحية متواضعة — مع عميق الإعجاب والإكبار — لمناسبة حديثه بالتليفزيون يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٧٥ ، فى عيد مولده ، عن ذكريات كفاحه الوطنى وبدء اشتغاله بالسياسة . . وإشادته بكفاح محرر تركيا الحديثة مصطفى كمال أتاتورك ، الذى استلهم منه البطولة والوطنية فى طفولته ، منذ شب يرى صورته على جدار منزل والده بالقاهرة ، ويسمع قصص انتصاراته المجيدة ، وأمثلة تفانيه فى خدمة بلاده . .

حلمى مراد

مؤلف الكتاب



مؤلف هذا الكتاب – وثلاثة كتب غيره فى شئون تركيا – هو الكابتن (هـ . س . ارمسترونج) الملحق الحربي لبريطانيا فى تركيا سابقاً ، أما الكتب الثلاثة الأخرى فهى (تركيا تعمل) و (تركيا وسوريا تولدان من جديد) و (المعركة غير المنتهية) . وقد عاش المؤلف فى الشرق فترة طويلة من حياته ، فقد عين فى البداية – قبل الحرب العالمية الأولى – ملحقاً بالجيش الهندى ، وعهد إليه بمراقبة الحدود التى كان الأفغانيون يتخطونها ، فى غارات كثيرة متكررة فى ذلك العهد . ثم أرسل إلى العراق حيث عمل ملحقاً بقيادة الجنرال « سيرتشارلس ميلليس » – القائد البريطانى المشهور ، الحائز على وسام صليب فيكتوريا – ثم أسره الأتراك مع فرقة

الجيش السادس بأكملها . . وسار على قدميه مع الأسرى من أقصى جنوب بلاد العرب إلى تركيا ، ماراً بالأراضى السورية !

وقد حاول « أرمسترونج » الفرار من هذا الأسر بعد حين ، لكن محاولته باءت بالفشل ، فقبض عليه وصدر حكم بحبسه لستة أشهر .

وكان القائد أنور باشا هو الحاكم بأمره فى تركيا خلال ذلك العهد ، فالتمس مقابلته ، وجرى بينهما حديث طويل انتهى بأن أمر أنور باشا بأن يزج به فى السجن منفرداً ، عقاباً له على ما اعتبره إهانة له ! . . ثم فوجئ بإفراج السلطات التركية عنه بعد قليل وتعيينه على أثر ذلك ضابطاً مشرفاً على جميع أسرى الحرب الآخرين ! . وبعد ذلك اختير ممثلا للاتهام فى إحدى المحاكمات العسكرية التركية لقواد معسكرات أسرى الحرب ، بتهمة تهجمهم على الأسرى الموضوعين فى حراستهم ورعايتهم !

وقبيل نهاية الحرب العالمية الأولى فرّ الكابتن أرمسترونج من تركيا ، عن طريق استخدام الرشوة ! . . . وبعد انتهاء الحرب أعيد إلى تركيا فى مهام رسمية عهدت بها إليه السلطات البريطانية المحتلة ، وهناك بقى أعواماً كان خلالها على اتصال مباشر بالأتراك عامة ، وبمصطفى كمال خاصة . . وشهد نهوض تركيا الجديدة ، ثم هزيمة اليونانيين والإنجليز والإيطاليين والفرنسيين ، الذين كانوا يحتلون أراضى تركيا ، بحكم انتصارهم عليها وعلى حليفتها ألمانيا فى تلك الحرب .

وفى سنة ١٩٢٧ عين « أرمسترونج » ملحقاً بريطانياً فى لجنة تعويضات الحرب بتركيا . ومكث هناك ثلاث سنوات طاف خلالها بجميع أنحاء تركيا .

تمهيد

فى القرن الثالث عشر الميلادى أجدبت الأرض فى جزء كبير من المعمورة نتيجة لقلة الأمطار ، فأصاب القحط أكثر البلاد الممتدة بين سور الصين وآسيا الوسطى . . بحيث اضطرت القبائل التى تقطنها إلى الهجرة بحثاً عن مراع جديدة ، وكان « الأتراك العثمانيون » من بين أولئك المهاجرين ، وكان زعيمهم يومئذ « سليمان شاه » الذى جعل شعاره علماً عليه صورة لرأس « ذئب أغبر » .

والواقع أن هؤلاء الأتراك العثمانيين كانوا جبابرة قساةيعيشون على الفطرة ، أقوياء ، ذوى وجوه مغولية مسطحة ، تتوسطها عيون مشقوقة . . وكانوا أشبه بالذئاب الغبراء التى تجوس خلال تلك البرارى الفسيحة فى آسيا الوسطى . . . لكنهم – برغم ذلك – كانوا منظمين ، يدينون لزعمائهم بالخضوع التام والطاعة العمياء . وقد انقضت عليهم قرون وهم ينصبون خيامهم السوداء فى سهول « سنجاريا » عند حافة صحراء « جوبى » . . . فلما اضطرهم نقص الماء والخضرة إلى النزوح عن بلادهم ، قادهم زعيمهم سليمان شاه نحو الغرب ، ثم وجد أمامه قبائل التتار فانثنى بقومه جنوباً عبر (أرمينيا) ، إلى أن استقروا فى آسيا الصغرى ، حيث بدأ هناك تاريخهم الحديث !

ومات سليمان شاه ، فخلفه « ارطغرول » ، ثم تتابع الزعماء والسلاطين على حكم الأتراك العثمانيين لمدة عشرة أجيال كاملة ، ابناً عن أب ، فكان

منهم الحاكم . والزعيم ، وقائد الجيش ، وعرف أكثرهم بالقسوة والجبروت . ولم يجدوا مشقة فى غزو البلاد المحيطة بهم والاستيلاء عليها ، فقد كان بعض هذه البلاد تحت حكم الإمبراطورية البيزنطية الفاسدة الملوثة ، وبعضها تحت حكم إمبراطورية العرب الممزقة فى بغداد . وهكذا لم تمض ثلاثمائة عام بعد وفاة سليمان شاه – الجد الأكبر للأتراك العثمانيين – حتى كان خليفته العاشر العظيم السلطان « سليمان القانونى » ، يحكم امبراطورية شاسعة تمتد من (ألبانيا) ، على البحر الأدرياتيكى ، إلى حدود فارس ، ومن مصر إلى القوقاز ، ودانت لحكمه هنغاريا والقرم ، وجاءه ملوك أوربا بالهدايا يلتمسون معونته فى حروبهم ، وتغلغلت جيوشه فى الطريق إلى الشرق . . وأبحرت أساطيله مرفوعة الراية فى أرجاء البحر الأبيض وسيطرت عليه . ثم اعترفت بسيادته بلاد شمال أفريقيا . . ودانت له القسطنطينية ، فتطلع إلى سيادة العالم كله ، وأعد لذلك عدته . فما جاء عام ١٥٨٠ حتى كانت جيوشه تدق أبواب « فيينا » عاصمة النمسا ، فى قلب أوربا !

على أن أمنيته الكبرى هذه لم تتحقق ، ثم دب الفساد فى إمبراطوريته فى عهد خليفته سليم الأول ، وتفاقم الفساد فى العهود التالية ، ففيما عدا واحدا من سبعة وعشرين سلطاناً تعاقبوا على عرش الإمبراطورية العثمانية ، كان الحكم فى واقع الأمر لحريم القصر والخصيان « الأغوات » . . ووجد الأتراك أنفسهم بلا قائد ولا زعيم يوجههم إلى سواء السبيل ، فأمعنوا فى المجون وانساقوا مع الملذات والأهواء ، فأصابهم الانحلال ، وفقدوا صلابتهم الفولاذية ونشاطهم وحيويتهم وبسالتهم ، وكل قواهم المادية والمعنوية . وأخذت الشعوب التى حكموها تشق عصا الطاعة وتعلن العصيان ،

وحصل بعضها على الاستقلال ، كاليونان والصرب والبلغار ! وهكذا ، لم تمض ثلاثمائة عام أخرى بعد سليمان القانوني حتى تهاوت الإمبراطورية العثمانية مفلسة ، عاجزة ، متداعية ! . . وانتهزت دول الغرب القوية فرصة تفكك هذه الإمبراطورية الشرقية وانحلالها ، فسارعت إلى الإجهاز عليها واقتسام أسلابها ! . . فاستولت روسيا على القرم والقوقاز ، وطالبت بالقسطنطينية والطريق إلى البحر الأبيض عبر الدردنيل ، ووضعت فرنسا يدها على سوريا وتونس ، واحتلت بريطانيا مصر وقبرص !

وكانت ألمانيا يومئذ فى مرحلة التوسع فانحازت إلى صف السلطان العثماني « عبد الحميد الثاني » ضد بقية أوربا ، لا رغبة فى إنقاذ إمبراطوريته المنحلة ، بل لكى تستأثر لنفسها بالنصيب الأكبر من الغنيمة !

وفى سنة ١٨٧٧ قررت روسيا أن تضع حداً لذلك الترقب ، فأعلنت الحرب وتقدمت جيوشها حتى صارت على مسيرة عشرة أميال من القسطنطينية . . . وعندئذ حذرتها بقية دول أوربا — بتحريض من « دزرائيلى » فى مؤتمر برلين — من مواصلة الزحف ، وطالبتها بالانسحاب فوراً ، بدعوى وجوب المحافظة على سلامة الإمبراطورية العثمانية !

وبعد أربعة أعوام من ذلك التاريخ ، وفى مدينة (سالونيك) — الواقعة عند قمة بحر إيجة — ولد لأب تركى يدعى « على رضا » ، وأم تركية تدعى « زبيدة » ، طفل أطلقا عليه اسم « مصطفى » . . وكان هو نفسه « مصطفى كمال » أو « أتاتورك » . . أو « الذئب الأغبر » الذى شاء القدر أن يتم على يديه إنقاذ تركيا من التقسيم والفناء !

الفصل الأول

البيئة التى ولد فيها

كان (على رضا) وزوجته (زبيدة) يعيشان – مثل سواد الشعب التركى فى ذلك العهد – معيشة فقر وإملاق ، وإن استطاعا المحافظة على كرامتهما الشخصية ومكانتهما المرموقة بين الجيران ! . وكان منزلهما يقع فى الحى التركى من بلدة (سالونيك) عند منتصف الطريق الصاعد إلى القلعة القديمة فى أقصى تلك البلدة الصغيرة العامرة باليهود ، وأكثرهم من التجار الذين يتحكمون فيما يرد إلى مينائها من صادرات البلقان .

ولم يعرف (على رضا) بما يميزه من مواطنيه الكادحين فى المدينة ، ولم تكن له مبادئ جديدة يؤمن بها ولا آمال كبيرة فى المستقبل يسعى فى سبيل تحقيقها . وكل ما عرف عنه أنه انحدر إلى البلدة فى صباه من جبال ألبانيا على حدود الصرب ، ثم عمل كاتباً فى (إدارة صندوق الدين العثمانى) بالميناء ، فكان يؤدى عمله – مثل الألوف من موظفى الحكومة التركية – فى غير حماسة ! . ولما كان مرتبه ضئيلا لا يكفى لسد مطالب حياته فقد اضطر إلى استغلال أوقات فراغه فى ممارسة التجارة !

ولم يكن الشارع الذى يقع فيه البيت إلا « ممراً » ضيقاً أرضه من الأحجار التى تتعثر فيها القدم ، وسقفه « تكعيبة » خشبية تتسلق عليها أغصان

الكروم ، وكان البيت ذاته نصف مهدم ، يميل طابقه الأعلى فى زاوية على الطريق ، وكانت جميع بيوت الحى التركى ساكنة موحشة ، أبوابها ونوافذها مغلقة على الدوام ، لا تنبعث منها حركة أو حياة ! . وبين حين وآخر ترى بعض الصبية يلعبون فى الحارة ، أو نفراً من الرجال يتلكأون ويتسكعون أمام المقهى القريب ، أو يجلسون فيه يحتسون القهوة أو يدخنون.

ومن حين إلى حين كانت تدلف إلى الطريق من أحد المنازل امرأة متشحة من قمة رأسها إلى قدميها ، بعباءة سوداء ، وبعد أن تغلق الباب خلفها بعناية ، ترفع ذيل ملاءتها متخذة منه نقاباً يخفى وجهها فلا يظهر منه غير إحدى عينيها ، ثم تتابع سيرها إلى نبع الماء وكأنها شبح أسود يسير فى وضح النهار ! .

أما نوافذ البيت فكانت كلها مغلقة ، بحكم العادة السائدة فى ذلك العصر — عصر الحريم والمحظيات اللواتي يحرسهن الأغوات — لا فرق فى ذلك بين هذه البيوت التى هى أشبه بالأكواخ ، والقصور الفخمة التى يسكنها الباشوات والأثرياء !

وكانت زبيدة فى الثلاثين من عمرها حين ولدت « مصطفى » . وقد تعودت الحجاب منذ كانت فى السابعة . . وفيما عدا أهلها وبعض جاراتها لم تكن تتحدث إلى مخلوق . كما أنها لم تتلق شيئاً من التعليم على الاطلاق ، فبقيت تجهل القراءة والكتابة ، بل تجهل جميع الشئون العادية التى تجرى خارج نطاق بيتها ! لكنها مع ذلك كانت الحاكمة فى أسرتها ، بفضل طبيعتها المسيطرة وطبعها النارى الذى سرعان مايثور إذا استثير ، برغم أنها من أصل ريفى طيب ، فقد انحدرت من أب كان فلاحاً بسيطاً فى جنوب ألبانيا ، وأم مقدونية .

وكانت طويلة القامة ، قوية البناء ، زرقاء العينين ، كستنائية الشعر ذات حيوية تنم عن صحة خارقة ، كما كانت شديدة التدين ، متحمسة لوطنها ، ذات نزعة محافظة وفكر ثاقب ، وحكم صائب على مختلف الأمور !

وككل امرأة تركية ركزت عنايتها كلها فى ابنها الذكر ، وكانت قد فقدت قبله طفلا ذكراً آخر عقب ولادته . فلم يبق لها غيره وابنة تكبره بسنوات اسمها « مقبولة » . . ومن ثم دللته دون تحفظ ، لكنه لم يستجب لتدليلها إلا قليلا ، فقد كان صبياً صامتاً متحفظاً ضعيف البنية نحيل الجسم ذا عينين زرقاوين شاحبتين وشعر فى لون الرمال . وكان يندر أن يبدى أى عاطفة ، ويتقبل تدليل أمه كأمر لا بد منه – ولا فضل لها فيه ! – بل كان يعصى أوامرها ويأبى فى عنف كل عقاب !

كان اكتفاؤه بذاته خارقاً للمألوف ، فلم يبد ميلا إلى مصادقة زملائه من الصبية إلا فيما ندر ، وكان يلعب وحده فى أكثر الأحيان !

ولم يلبث أبوه قليلا حتى استقال من وظيفته الحكومية ليتفرغ لتجارة الخشب . وكان يرغب فى أن يخلفه ابنه فى احتراف التجارة ، بينما أصرت زبيدة على إعداده ليكون واعظاً . وتغلبت وجهة نظرها فأدخلته مدرسة ملحقة بأحد المساجد لكى يحفظ القرآن ويتلقى مبادئ الدين ، ثم ألحقته بمدرسة أفضل ، يديرها رجل يدعى الشمسى أفندى ، فأظهر الصبى تقدماً ملموساً فى دراسته . ولكن حدث أن توفى والده على رضا بعد قليل تاركاً تجارته مفلسة وأسرته معدمة . . فاضطرت زبيدة إلى إخراج مصطفى من المدرسة لتلجأ به وأخته إلى بيت أخيها الفلاح فى قرية قريبة من سالونيك . وهناك عهد إلى الصبى فى تنظيف الحظائر وإطعام



السيدة « زبيدة » ، والدة مصطفى كمال

الماشية ورعاية الأغنام .. وبدا أن هذه الحياة راقت له ، وأكسبه العمل الشاق والهواء الطلق قوة وازداد صلابة وعناداً ، على أنه كان كلما تقدم فى السن يبدو أكثر تحفظاً وميلا إلى العزلة ، والاستقلال عن الناس !

الثائر الصغير

وبعد عامين ، حين بلغ مصطفى الحادية عشرة من عمره ، استطاعت أمه أن تقنع شقيقة لها بأن تنفق على تعليمه ، لنفورها من أن ينشأ راعياً للغنم أو عاملا فى حقل ، ومن ثم ألحقته من جديد بإحدى مدارس سالونيك . لكن الصبى الذى ألف الحياة الحرة الطلقة لم يطق الخضوع للنظام ، فصار مشاغباً متمرداً شرساً مع أساتذته ، متعالياً على زملائه فى المدرسة ، يأبى مشاركتهم فى ألعابهم ، ولا يطيق أن يتدخل أحد منهم فى أمر من أموره . ومن هنا كثرت مشاجراته معهم ، وضربه إياهم ، إلى أن اشتبك فى معركة مع نفر منهم ، فانتزعه مدرسه انتزاعاً من وسطهم ، وألقى عليه درساً بيده وعصاه ، فأعماه الغضب لكرامته وبادر بالفرار من المدرسة . . ثم أبى العودة إليها بأية حال ، كما أبت خالته أن تتحمل زيادة فى نفقة تعليمه بمدرسة أخرى ، وكلما حاولت أمه مراجعته فى الأمر أبى إلا إصراراً على عناده !

واقترح خاله إلحاقه بسلك الجندية ، نظراً إلى شدة مراسه وطبيعته التى لا تؤهله للمثابرة على تجارة . . واستصوب إرساله إلى المدرسة الحربية الابتدائية فى سالونيك ، وكانت تحت رعاية السلطان ولا تتقاضى من تلاميذها رسوماً ، بينما يتيح برنامجها للتلميذ الناجح فيها أن يرتقى حتى يصبح

ضابطاً ، أو جاويشاً على الأقل !

ورفضت أمه هذا الاقتراح ، لكن الفتى كان قد بت فى الأمر وقرر قبول اقتراح خاله فى اغتباط شديد ، ولا سيما أنه رأى « أحمد » ابن جارهم بعد أن تخرج فى تلك المدرسة يختال بسترته العسكرية فى زهو الطاووس . هذا إلى أنه لم يكن يميل إلى أن يصير واعظاً دينياً ، وكانت التجارة فى رأيه حرفة لا تليق لغير اليونان والأرمن واليهود ومن إليهم . أما الأتراك أمثاله فالحرفة التى تليق بهم هى الجندية . . ولا شىء غير الجندية !

ولم يصبر الفتى على تأجيل والدته وخاله تنفيذ الاقتراح فمضى إلى ضابط مسن متقاعد من أصدقاء والده ، وأقنعه بأن يضمنه لدى إدارة المدرسة الحربية . . ثم تقدم لامتحان الالتحاق ونجح فيه فصار طالباً بالمدرسة ، ووضع أمه وخاله أمام الأمر الواقع !

وفى المدرسة الحربية وجد الفتى مجاله الذى أعدته الطبيعة له ، فنجح فى دراسته . . لكنه لم يكن محبوباً من المختلطين به ، فإنه — وقد خلق مرهف الحساسية بفطرته — كان يثور ويغضب إذا انتقده أحد أو تحدث إليه فى خشونة . ولذلك آثر أن ينطوى على نفسه ، وشغل بالدراسة عن اتخاذ الأصدقاء ، وإن لازمه شوق دائم إلى أن يكون ملحوظ المكانة مرموق الشخصية من الجميع ، وأن ينظر إليه الناس على أنه ممتاز متفوق على أقرانه ، خارق للطراز الشائع من الشباب !

ولم يكن أحد من زملائه يجرؤ على أن يتدخل فى أمر من أموره ، فقد كان الضرب أهون ما يرد به على ذلك التدخل ! وفى بعض الأحيان كان أحد إخوانه يسعى إليه ليدعوه إلى مشاركتهم لهوهم ، أو ليسأله فى أمر من الأمور . وهنا كان يجيب فى خشونة وجفاء : « لست أحب

أن أصير مثلكم بل أريد أن أكون أبرز شخصية وأكبر أهمية ! »

ونجح فى دراسته ، فقد كان ذا ميل خاص إلى الرياضيات ، وجميع العلوم العسكرية . . كما كان بارعاً فى الطوابير والاستعراضات وفى عامه الثانى بالمدرسة أعجب به سميه الكابتن مصطفى أحد أساتذته ، فرقاه إلى مرتبة « تلميذ مدرس » وعهد إليه فى الإشراف على فصل من الفصول الصغيرة . وأطلق عليه لقب « كمال » حتى لا يحدث لبس بسبب تشابه اسميهما ، فصار منذ ذلك التاريخ يعرف باسم « مصطفى كمال » .

واستمر فى دراسته مبدياً تفوقا كبيراً فى الامتحانات ، وفى تعليم التلاميذ الصغار ، إذ كان شغوفاً بالأمر والنهى والسيطرة . كما كان يظهر أحياناً قدراً غير قليل من الغيرة ، نحو كل زميل يحرز نجاحاً أكبر منه ، لأنه لم يكن يطيق أن يتقدمه غيره ، ويأبى إلا أن يكون الأول فى كل ميـدان ، أو لا يكون شيئاً على الإطلاق ! .

وكما أفادته رعاية الكابتن مصطفى تقدماً فى الدراسة ، كانت وبالا عليه من جهة أخرى ، إذ أنضجت شخصيته وغرائزه قبل الأوان ، فلم يبلغ الرابعة عشرة حتى كان قد جاوز مرحلة الصبا وتفتحت ميوله الجنسية مبكـراً ، فانغمس وهو فى هذه السن فى مغامرة غرامية مع ابنة الجيران ، وبينما كان أنداده يلهون ويلعبون ويمرحون ، كان هو يذرع الطرقات مرتدياً أحسن ثيابه ليتطلع إلى النساء المختبئات وراء النوافذ ، أو ليغازل بنات الهوى فى الميناء !

وحين بلغ السابعة عشرة نجح فى الامتحان النهائى للمدرسة العسكرية الابتدائية وأرسل إلى المدرسة العسكرية العليا فى « موناستر » . .

فى الكلية الحربية

شوارع موناستر يسودها الضجيج والغبار والذعر والقلق ، فاليونان احتلت جزيرة كريت ، ولم يسع تركيا إلا إعلان الحرب عليها ! . . وهذه هى طوابير جيوشها الزاحفة إلى ميدان القتال !

والعهد كله يسوده الاضطراب والمنازعات ، والحروب وشائعات الحروب ، بينما الإمبراطورية العثمانية فى الرمق الأخير تعالج سكرات الاحتضار ، ودول الغرب أنشبت مخالبها فى عنق الفريسة العاجزة ووقفت تتبادل فيما بينها النظرات الشزراء ، وكل منها تتحفز للنهش والقضم والابتلاع . . . !

وأدهى من ذلك وأمر ، أن الإمبراطورية المحتضرة كانت تمزقها من الداخل أيضاً عوامل التذمر والسخط ، فمقاليد الأمور فيها مازالت كلها مركزة فى يد السلطان ، مثلما كانت فى القرن السادس عشر ، ولكن شتان ما بين الحالتين ، فهناك كانت الإمبراطورية فى أوج قوتها ومجدها . أما الآن فهى محطمة القوى تتناهبها عوامل الانحلال والفساد من كل جانب . . فالفقر سائد فى كل مكان ، والعجز وعدم الكفاية يسيران دفة الدولة ، والسخط على كل لسان ، وصيحات الشباب تدوى مطالبة بإصلاح عاجل حاسم كفيل بالإنقاذ !

أما السلطان « عبد الحميد » أو الثعلب الأحمر كما كانوا يسمونه حينذاك ، فيخشى رعاياه بقدر ما يخشى الأجانب ، ولذلك يقمع كل فكرة جديدة ، ويرفض كل إصلاح ، ويغطى الإمبراطورية كلها بشبكة

من الجواسيس ، بحيث لم يكن ثلاثة يتحدثون فى أمر إلا كان على مقربة منهم رابع يتولى نقل حديثهم إلى إدارة البوليس السرى ! . . لم تبق حرية مكفولة ولا أمن شخصى لمخلوق ، بل ملأ السلطان السجون برعاياه !

وفى البلقان ، وحول موناستر خاصة ، كان السخط والثورة على أشدهما ، ونار الفتنة والعصيان متأججة على الدوام ، وكانت « الأفكار الجديدة » تملأ بلاد العالم الخارجى المتقدم فى المدنية والحرية ، فاستوعبها مصطفى كمال جميعها بحماسة الشباب المضطرمة فيه .! . وكان ككل ألباني أو مقدوني يقاوم بفطرته كل سلطان ، وكثيراً ما حلق به خياله الثائر فتصور نفسه قائداً لثورة تطيح بالظالمين وتنقذ الوطن وتطهره !

وفى أيام العطلة المدرسية كان يعود إلى سالونيك ، ولكنه كان يتجنب بيت أمه قدر طاقته ، إذ كانت قد تزوجت من تاجر رودسى ميسور الحال ، ولم يرض هو عن ذلك الزواج فصارحها برأيه هذا فى خشونة ، وقامت بينهما مشادة سرعان ما تحولت إلى مشاجرة ! . . ومنذ ذلك التاريخ أبي مصطفى أن يعترف بزوج أمه ، بل أبي حتى أن يكلمه . . أما أين كان يقضى وقته فى سالونيك ففى صحبة بعض الرهبان المقدونيين الذين لقنوه مبادئ اللغة الفرنسية ، ثم مع صديق جديد له هو شاب مقدوني خجول يكبره بقليل ، واسمه فتحى . وكان هذا يتقن الفرنسية ، فصار الاثنان يلتهمان معاً كل ما يصل إلى أيديهما من كتب فولتير وروسو وغيرهما من كتاب فرنسا الأحرار ، ومن مؤلفات « هوبز » و « جون ستيوارت ميل » فى الاقتصاد السياسى . وكانت كلها كتباً ممنوعة محرمة ، يسجن كل من يضبط متلبساً بقراءتها . لكن الخطر ضاعف من استمتاع الشابين بقراءة هذه الكتب !

ثم أخذ مصطفى كمال يمارس الخطابة فى زملائه الطلبة ، فيحدثهم عن وطنهم وكيف ينبغى إنقاذه من براثن الأجنبى ومن فساد حكم السلطان ! . كما أخذ يدبج المقالات الحماسية فى معانى الحرية والوطنية ، وينظم الشعر الملتهب بنيران المشاعر القومية المتأججة فى صدره ! . ومع ذلك كله كان فى دراسته فى موناستر – كعهده دائماً – ناجحاً متفوقاً تصفه تقارير أساتذته ومراقبيه بأنه « شاب نابه صعب المراس ، يتعذر على المرء أن يصادقه » . وأخيراً وقع عليه الاختيار ليسافر فى بعثة إلى كلية أركان الحرب الكبرى فى القسطنطينية ، ورقى إلى رتبة « ملازم ثان » قبل أن يرسل إلى هناك !

الحياة الصاخبة فى القسطنطينية

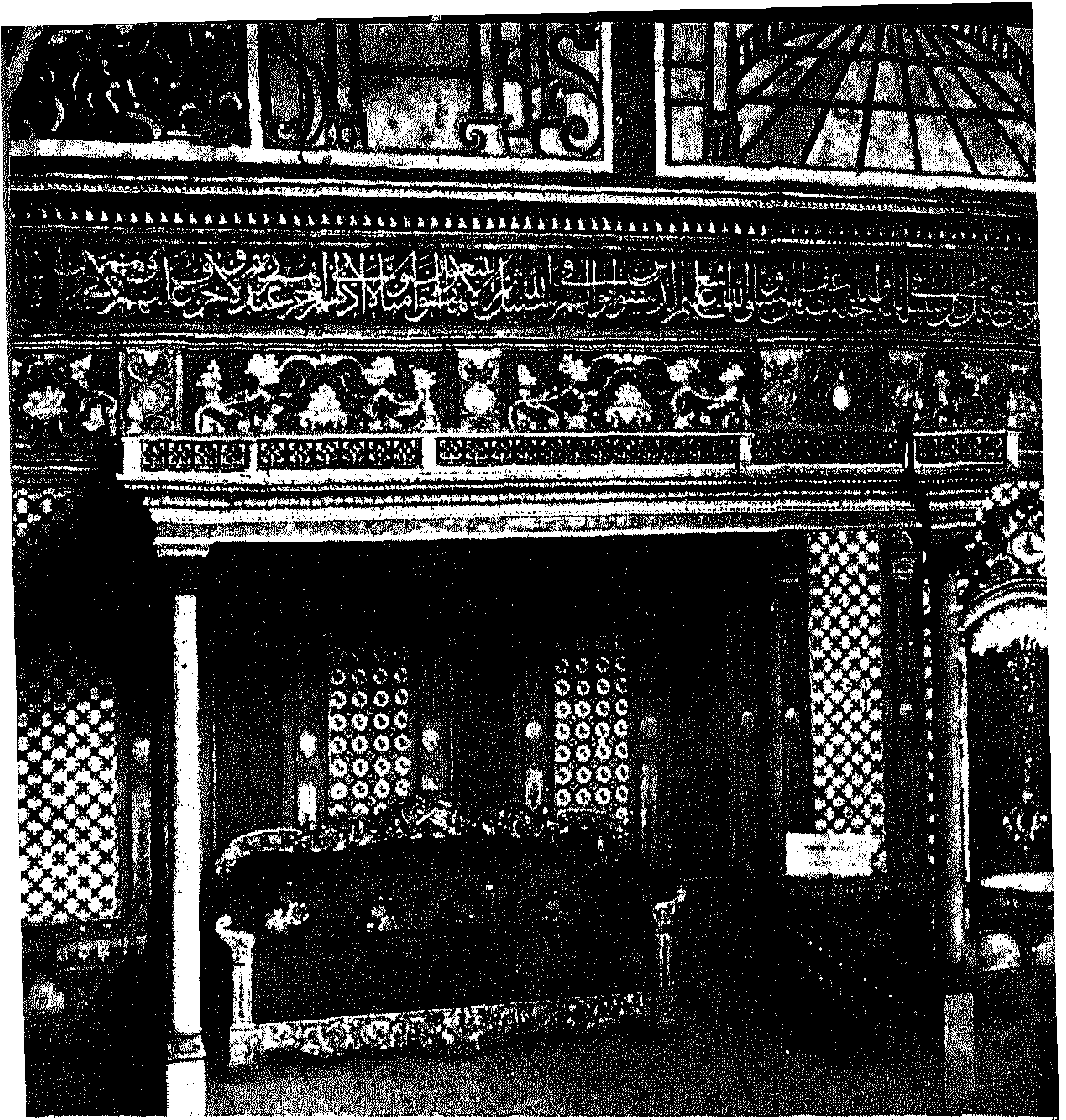
إنه الآن فى العشرين من عمره ، قوى البنية ، ذو حيوية غير محدودة . ولكن خبرته بالحياة والمجتمع كانت محدودة ، فالبلدتان اللتان عاش فيهما أعوامه السابقة – وهما سالونيك وموناستر – من البلاد الإقليمية الصغيرة نسبياً ، وليس فيهما إلا القليل من دور اللهو وأسباب الغواية ، وهو نفسه لم يكن على شىء من تدين أمه وإيمانها العميق ، فلما وجد نفسه فى العاصمة الصاخبة « القسطنطينية » انغمس لفوره فى ملاهيها وحاناتها ومقاهيها . .

وعلى حين فجأة أفاق الشاب الذكى الثائر الطموح لنفسه فإذا هو يضيق بهذه الحياة ، وإذا هو يركز همه كله فى عمله ، فيمضى فيه متقد الحماسة والنشاط ، وكأنما أدرك أن تحقيق أمانيه مرهون بما يبذل فى سبيل ذلك من جهود ، إذ لم يكن فى تركيا ما يحول دون الترقى من الحضيض إلى القمة ، فليست هناك مدارس مخصصة لأبناء الأغنياء وذوى الحسب

والنسب ، ولا أفضلية فى الوظائف والمناصب للأبناء بسبب نجاح آبائهم فى الحياة أو مولدهم فى حلة من الأرجوان . . وإذن ما كان انتسابه للفقراء والفلاحين بالذى يعوق طموحه وبلوغه الغاية التى ينشدها ، متى توافرت له الشخصية القوية والذكاء ، وهما عنده متوافران ، ولما كان قد جاز جميع امتحانات المدرسة بتفوق كبير ، فقد اختير للدراسة ذات برامج خاصة تابعة لكلية أركان الحرب ، ونجح فى هذا أيضاً بتفوق . . فتخرج فى يناير سنة ١٩٠٥ ورقى تبعاً لذلك إلى رتبة اليوزباشى !

وخلط السياسة بعمله ، فنى موناستر كان غلاماً ممتازاً بين الغلمان ، وفى كلية أركان الحرب بالعاصمة كان محاطاً بضباط شبان اختيروا جميعاً بعناية خاصة وكلهم فى مثل سنه ومستواه . . وقد وجدهم جميعاً ثوريين ، فكل ضابط شاب كان ثائراً ضد استبداد السلطان المدمر وتدخل الدول الأجنبية فى شئون البلاد . كان الشباب هم ورثة الإمبراطورية العثمانية ، وكانت تركتهم مثقلة بالديون ! . . وفى الوقت ذاته كان أساتذة الكلية وكثيرون من كبار الضباط يعطفون على الطلبة ويشاركونهم مشاعرهم ، لكنهم اكتفوا بأن أغمضوا أعينهم وسكتوا ، ولم يجرؤوا على البروز للعيان أو تزعم الحركة !

وكانت فى الكلية جمعية ثورية تعرف باسم « الوطن » ، تقيم مناظرات سرية وتوزع منشورات خطية تنتقل من يد إلى يد ، تهاجم فيها كل الأوضاع فى تركيا وأحوالها الراهنة ، وتخص بالعداء المرير أسس النظام القديم ، وطغيان السلطان ، وخنقه للحريات وقمعه للأفكار والآراء الحديثة ، وعدم كفاية مرؤوسيه وأعوانه الرسميين . . كما تهاجم الوعاظ ورجال الدين الذين يعوقون كل تقدم وإصلاح ، وتنادى بهدم صوامع الدراويش



منذ القرن الخامس عشر حتى القرن التاسع عشر ، كان قصر (سيراجليو) بالقسطنطينية مقر سلاطين الإمبراطورية العثمانية ، وفيه جرت أخطر أحداث التاريخ ، وأغرب مؤامرات العشق والغرام . وهو اليوم متحف يضم مجموعة من المجوهرات والتحف والأسلحة والخرائط والمخطوطات القديمة ، من أندر وأثمن مثيلاتها فى العالم . والجانب الأيسر من الصورة يفضى إلى جناح الحريم بالقصر !

الذين يضللون الشعب ، وبوجوب إلغاء القوانين العتيقة الرجعية !

وأقسم أعضاء الجمعية معاهدين أنفسهم على المضى فى مكافحة استبداد السلطان وإنشاء حكومة دستورية يختارها برلمان شعبى ، تكون مهمتها تحرير الشعب من رجال الدين وتحرير النساء من الحجاب ونظام الحريم . « فقد كانت تركيا بمثابة المخنوقة بيد السلطان وجواسيسه ، وما لم يسمح لدم الأفكار الجديدة بالمرور فى عروقها فمصيرها حتماً إلى الموت » ! وانضم مصطفى كمال إلى جمعية « الوطن » ، وصار يكتب المقالات النارية والشعر الملتهب للنشرة السرية ، ويخطب فى المناظرات والمناقشات السياسية فى حماسة شديدة . وكان مدير الكلية الحربية على علم بأعمال الجمعية ، لكنه تجاهلها وغض الطرف عنها ! .. كذلك علم بأمرها جواسيس السلطان وكتبوا تقريراً عن نشاطها رفعوه إلى القصر ، فانزعج السلطان « عبد الحميد » أيما انزعاج ، ولم يخفف من غضبه أن كل أفرادها من « الشباب الذين لم ينضجوا بعد » لأن هؤلاء الشباب هم ضباط الجيش وقواده فى المستقبل .. ومن ثم أصدر السلطان أمره إلى « إسماعيل حق باشا » ، القائد العام للتدريب الحربى ، لكى يقضى على « جمعية الوطن » هذه من أقرب سبيل .. وسرعان ما دعا حق باشا إليه مدير الكلية ، واشتد فى لومه وتعنيفه على تهاونه فى معاقبة القائمين بأمر الجمعية ، ومنذ ذلك التاريخ منع المدير عقد أى اجتماع داخل أسوار الكلية ، ولكن أعضاء الجمعية واصلوا عقد اجتماعاتهم فى الخارج ، وكفوا عن المناقشات العلنية والمناظرات الكلامية ليركزوا جهودهم فى العمل سراً على تقويض دعائم الحكم الاستبدادى .. وهكذا تحولت جمعية « الوطن » إلى منظمة من المنظمات السرية التى ازدحمت بها العاصمة!

فى السجن الأحمر !

كانت هناك بضعة أسابيع أمام مصطفى كمال بعد تخرجه فى الكلية إلى أن يعين فى المنصب الذى يلائمه ، وكانت حالته المالية أكثر يسراً من حالة أكثر زملائه ، فقد صار فى مقدور أمه بعد زواجها أن ترسل له إعانة شهرية منتظمة . . ومن ثم تولى إدارة جمعية « الوطن » ، فاستأجر غرفة فى شارع غير مطروق كى تكتب فيها وتنسخ المنشورات الثورية . ونظم عقد الاجتماعات فى منازل الأعضاء أحياناً وفى الغرف الخلفية بالمقاهى أحياناً أخرى ، فكان أفراد الجمعية يتسللون إلى مكان الاجتماع خفية وهم يختلسون النظر إلى ما حولهم خشية أن يتبعهم أحد الجواسيس ! وأمتعت مصطفى كمال هذه السرية ، والأخطار التى تكتنف الحركة ، فبدأ يدرس أنظمة الجمعيات الثورية ، وطرق تأليف الخلايا ، واختبار إخلاص الأعضاء الجدد ، كما درس الملاكمة ، واستعمال الشفرة والرموز والإشارات وصيغ الايمان المغلظة التى يتبادلها الأعضاء . . إلى آخر ما يتصل بالغاية التى يسعون فى سبيلها .

. وكان رجال البوليس يراقبون نشاط الجمعية خفية ، لكى يضبطوا أعضاءها « متلبسين » بالجريمة . ولم يكن ذلك عسيراً ، فقد كانوا « مبتدئين » ، تغلب حماستهم على حكمتهم . . وهكذا استطاع الاندساس بينهم جاسوس للحكومة أخذ يموه على الشبان الأغرار حتى كسب ثقتهم ، وفى الوقت المناسب قام – على رأس قوة من رجال البوليس – بمهاجمة مكان الاجتماع أثناء وجود الأعضاء فيه فضبطوا جميعاً متلبسين واعتقلوا

ومعهم مصطفى كمال ثم زج بهم فى « السجن الأحمر » باستانبول !
وكان موقفه يدعو إلى القلق ، فقد تجمعت لدى البوليس أدلة كثيرة ضده ، ومن ثم عزل عن الباقين فى زنزانة خاصة وبدا المستقبل مظلماً أمامه ، فأقل ما ينتظره إذا اعتبره السلطان « خطراً » أن يبقى فى السجن الأحمر إلى ما شاء الله ، وهذا أخطر من نفيه من البلاد ، لأن كثيراً من نزلاء هذا السجن قبله اختفوا من الوجود ولم يخلفوا وراءهم أى أثر يدل على مصيرهم الرهيب !

وجاءت أمه زبيدة وشقيقته مقبولة من سالونيك لترياه . . لكن السلطات حالت بينهما وبين مقابلته ، فلم تستطيعا أكثر من إرسال بعض النقود إليه . وانقضت أسابيع وهو حبيس زنزانة ضيقة قذرة عامرة بالحشرات والهوام ، لا يدخلها الهواء والنور إلا من كوة صغيرة فى أعلى الجدار !

وأثر السجن فى نفسيته أسوأ الأثر ، فغدا ثائرا متوحشا . . وذات يوم ، وبلا مقدمات ، فتحت زنزانته واقتيد منها عبر ميدان وزارة الحربية الى مكتب اسماعيل حقى باشا ، حيث وقف يؤدى التحية العسكرية فى حراسة اثنين من رجال البوليس الحربى . وجلس الباشا يرقبه برهه صامتاً ، وكان رجلا من الطراز العتيق ذا لحية ، وثياب فضفاضة زاهية ، وحركات بطيئة وقورة . وكان من رجال السلطان المخلصين . . وبعد أن تفرس فى السجين برهة ابتدره قائلا : « لقد أظهرت مقدرة فائقة . وأمامك — إذا شئت — مستقبل باهر فى خدمة صاحب الجلالة . لكنك بدلا من ذلك قد جلبت لعار على نفسك وعلى سترتك العسكرية ، فعشت مع رفاق من أسوأ لشبان ، تنفق وقتك فيما لا ينفع . وأنكى من ذلك أنك صرت خائناً ، انغمست فى السياسة والمؤامرات الانقلابية التى يقوم بها خونة يضمرون



مسجد السلطان أحمد ، أو « المسجد الأزرق » باستانبول ، من أشهر المعالم التى تمثل رواء ومجد الإمبراطورية العثمانية . والمسجد شهير بمآذنه السامقة الرفيعة ، وقد شيد فى بداية القرن السابع عشر ، وقت أن امتدت حدود الإمبراطورية العثمانية من ليبيا إلى أبواب (فيينا) عاصمة النمسا !

الشر لمولاك السلطان ، وشجعت رفاقك على أن يحذوا حذوك » .

وقبل أن ينبس مصطفى كمال بكلمة يدافع بها عن نفسه ، واصل حتى باشا كلامه فقال : « على أن صاحب الجلالة رأى مع ذلك كله أن يظهر نحوك الرأفة والحلم ، على أساس أنك شاب طائش ، أقرب إلى أن تكون منساقاً إلى ذلك الإجرام بحكم شراستك وعنادك وحماقتك . وعلى هذا سوف نلحقك بإحدى فرق الفرسان المعسكرة فى دمشق .. ومستقبلك يتوقف على التقارير التى سوف نتلقاها عنك . فيجب عليك أن تكف عن كل هذه السخافات والحماقات ، وتكرس وقتك وجهدك للنهوض بواجباتك العسكرية . . فخذ حذرك واعلم أنه لن تتاح لك فرصة أخرى ! » وفى الليلة ذاتها وضع مصطفى كمال فى سفينة متجهة إلى سوريا ، دون أن يسمح له برؤية أمه أو أحد أصدقائه .

شتاء فى دمشق

بعد رحلة شاقة استمرت ثمانين يوماً هبط مصطفى كمال من السفينة فى ميناء بيروت ، ثم امتطى جواداً مضى به عبر جبال لبنان إلى حيث وجد فرقته الجديدة المعسكرة هناك متأهبة للزحف ضد الثوار الدروز ، الذين يعيشون فى الجبال الشامخة الواقعة إلى الجنوب من دمشق .

وأفاد مصطفى كمال من تجربته الأولى هذه فى الخدمة العاملة بالجيش . لكنها كانت مهمة عسيرة شاقة ، فالإقليم يتكون من جبال صخرية متداخلة تقطعها وديان عميقة ، وليس هناك ماء ولا طرقات معبدة . وكان الدروز من الجبليين المتوحشين الذين لم يروضوا ، وهم يعرفون كل شبر من

الأرض فى بلادهم ! . بينما الطوابير التركية ظلت أياماً تهيم على وجهها عاجزة عن الاهتداء إلى مقر الثوار أو الاشتباك معهم فى معركة ، فقد كان من دأب الدروز أن يتجنبوا المعارك ، وما يكادون يشعرون بخطر يتهددهم حتى يغادروا مكان تجمعهم مسرعين ، ليتبعثروا فى كل مكان ، ثم يتصيدوا أعداءهم ليل نهار من وراء قمم الصخور ومنعطفات الجبال ! . .

وهكذا كان أقصى ما استطاعه الأتراك أنهم لقنوا الدروز درساً قاسياً بحرق قراهم المهجورة وحقولهم القليلة المتواضعة . . فلما فرغوا من ذلك عادوا إلى دمشق ليقضوا فيها فصل الشتاء !

عكف مصطفى كمال بعد عودته مع فرقته إلى دمشق على إنشاء فرع لجمعية « الوطن » هناك ، ومن هذا يبدو أن الأسابيع التى قضاها فى زنزانة السجن الأحمر ، والتهديدات التى وجهها إليه حتى باشا ، لم تضعف عقيدته ضد السلطان أو تخيفه من سطوة حكومته . . فقد كان بفطرته ثائراً ' يحترم عرفا أو إنساناً أو وضعاً من الأوضاع . وكان ما يزال يلتهب بحماسة شباب ، لكنه قرر أن يهجر الأدب والشعر والكتابة ، لأنها لا تتفق م الحركة والإقدام ، وتضعف العزيمة والقدرة على البت فى الأمور ! . . وركز همه فى التفصيلات العملية والتنظيم الدقيق للثورة . . . !

ووجد التربة صالحة لبذر البذور . . فالشبان من الضباط الأتراك ، دمشق كانوا كزملائهم فى القسطنطينية ساخطين متذمرين من الحالة ، لكبار منهم يؤيدون الحركة فى الخفاء ، ويبذلون عطفهم للقائمين بها ! . . قد وجد مصطفى كمال بين ضباط حامية دمشق زميلا قديماً من إخوانه ن المدرسة الحربية يدعى « مفيد لطفى » يشاركه ميوله وحماسته ، فاتخذه عيناً له . . ونمت الجمعية نمواً سريعاً فكثر عدد أعضائها وانتشرت مبادئها

فى صفوف شتى الحاميات التركية المتفرقة فى أنحاء سوريا ، وهكذا بدأ مصطفى كمال يصبح شخصية ذات أهمية . . لكنه تبين بعد قليل أن جهوده لن تؤتى ثمارها إلا إذا انصبت كلها على إشعال فتيل الثورة من دمشق ، وقد كان ذلك أمراً عسير التحقيق ، لأن ضباط الحامية التركية الصغيرة هم وحدهم المستعدون للثورة ، أما أهل البلاد السورية أنفسهم فكانوا أقرب إلى عرقلة الحركة وإحباطها ، إذ تنقصهم الحماسة للفكرة بحكم كونهم أجانب عن النزاع !

وفى أثناء ذلك تلقى مصطفى كمال رسالة من بعض أصدقائه فى إستانبول أكدوا فيها أن البلقان مركز القلاقل هى أصلح مهد للثورة ، واقترحوا أن يسعوا فى سبيل نقله إلى سالونيك ، لكى يتيسر له استغلال الفرصة هناك . فرأى أن يبحث بنفسه هذا الأمر ويذهب إلى سالونيك سواء أأذنت السلطات المختصة له بذلك أم لا . . وكان قائد حامية « يافا » – ويدعى أحمد بك – صديقاً له ، ومن أعضاء جمعية الوطن ، فاتفق معه على خطة رسمها لذلك ، ثم حصل على إجازة لبضعة أيام وسافر إلى يافا . وهناك حصل على جواز سفر مزور باسم تاجر سورى ، ثم أبحر متنكراً على سفينة متجهة إلى مصر ، ومنها عبر البحر إلى أثينا ثم إلى سالونيك ، وقد سره أن وجد السخط والتذمر ، والجمعيات السرية ، والجو الذى ينذر بالثورة ، فى كل مكان !

وهناك فى سالونيك اختبأ فى بيت أمه فترة من الوقت واستطاع عن طريق أمه وأخته أن يتصل ببعض زملائه القدامى فى كلية أركان الحرب ويبذل المساعى لكى ينقل من دمشق ، بعد أن تبين صحة ما قيل له عن تضخم حركة التذمر فى البلقان وتأهب الضباط الشبان للقيام بحركة

كبيرة ، فى الوقت المناسب !

على أن أمره انكشف قبل أن يتاح له الوصول إلى نتيجة ، إذ عرفه بعض جواسيس السلطان فى سالونيك ، وجاءت الأوامر من القسطنطينية بإلقاء القبض عليه فوراً ، ولكن نائب مدير البوليس فى المدينة — ويدعى جمال — كان عضواً فى جمعية الوطن بالعاصمة ، فأرسل إليه خفية بنبأ الأمر الصادر باعتقاله ، ونصح له بالفرار من المدينة خلال يومين على الأكثر ، لأنه لن يستطيع تأخير اعتقاله أكثر من هذه الفترة القصيرة !

فراره إلى اليونان ، ويافا ، وغزة !

وبادر مصطفى بالفرار عبر الحدود إلى اليونان ، ومن هناك استقل السفينة عائداً إلى يافا ، لكن أمر القبض عليه كان قد سبقه إلى هناك . . وبدا أنه لن ينجو هذه المرة ، ولن يجد فى السجن الأحمر رأفة ولا رحمة . . ولن تتاح له فرصة ثانية للتوبة والتكفير . . ! وعهدت السلطات إلى « أحمد بك » فى تنفيذ أمر القبض على مصطفى كمال ، فذهب إليه فى السفينة لدى وصولها ، ولكن لا ليقبض عليه ، بل ليسلمه أوراقه الخاصة وسترته العسكرية ويعاونه على الفرار إلى « غزة » ، حيث كانت منطقتها تعاني بعض الاضطرابات ، وكان صديقه الآخر « مفيد لطفى » يتولى قيادة الحامية التركية فيها ! . . ثم كتب أحمد بك إلى القسطنطينية يطلب مزيداً من الإيضاح مؤكداً أن ثمة خطأ فى ذلك الأمر ، لأن مصطفى كمال كان فى غزة منذ شهور ، ولم يبرح سوريا منذ جاء إليها ! . . وأيد هذا مفيد لطفى أيضاً ! . .

وهكذا أنقذه هذان الصديقان القديمان من شر الاعتقال الجديد

وما كان ينتظره بعده من خطر كبير ! وقضى مصطفى كمال العام التالى متجنباً كل نشاط عدائى ، فقد أدرك أنه لو وقع فى قبضة السلطان هذه المرة فلن يرى نور النهار بعد ذلك . . ومن ثم ركز همه فى عمله ، فكتب رؤساؤه تقارير يشيدون فيها بكفاءته وإخلاصه لواجبه . . واعتقدت السلطات المختصة فى القسطنطينية أن جواسيسها فى سالونيك أخطأوا فى مزاعمهم عن سفره إلى البلقان ، لأن الدلائل كلها تدل على أن هذا الضابط الشاب قد شفى من حماقته وثاب إلى عقله !

لكن مصطفى كان قد صح منه العزم على العودة لسالونيك ، إذ عز عليه أن يبقى فى سوريا بعيداً عن الأحداث الكبرى التى تجرى فى أرض الوطن ! . . وكان يعرف أعضاء جمعية « الوطن » المنبثين فى كل حامية أو فرقة ، وفى وزارة الحربية نفسها وما يتبعها من إدارات . . فاستغل كل فرصة وضرب على كل وتر ، حتى ظفر بأمر نقله إلى سالونيك آخر الأمر ، فهرع إلى مركز التمرد الذى تختمر فيه بوادر الثورة ، وكله تحفز !

وكان العمل الجديد لمصطفى كمال بسالونيك ، فى فرقة أركان حرب الجيش الثالث ، وهو عمل يقتضيه البقاء فترة من الوقت فى المدينة ، ثم السفر للتفتيش فى المناطق الأخرى فترة أخرى . وكان زوج أمه قد مات تاركاً لها منزلاً كبيراً وسط المدينة ، وقدراً كافياً من المال ، فأقام بهذا المنزل معها ومع أخته مقبولة .

وأتاح له عمله هذا أن يجتمع بكثير من الضباط الذين زاملهم فى كلية أركان حرب ، فحاول أن يؤسس منهم فرعاً لجمعية « الوطن » لكنه لم يوفق !

وكان يفاجئهم أحياناً وهم منهمكون فى الحديث فإذا بهم يسكتون

مرتابين ، كأنما يحسبونه جاسوساً مدسوساً عليهم ! وهكذا أيقن أنهم يدبرون أمراً لكنهم يحرصون على كتمانه عنه . ثم باح له واحد منهم أخيراً بأن منظمة ثورية كبيرة ألفت فى سالونيك وأطلق عليها اسم « الاتحاد والترقى » ، وبأن اجتماعاتها تعقد فى بيوت بعض اليهود المنتمين للجنسية الإيطالية والجمعيات الماسونية الإيطالية ، إذ أن جنسيتهم هذه تحميهم — بحكم المعاهدات والامتيازات الأجنبية — من الخضوع لأوامر القبض التى يصدرها السلطان ، ومن تفتيش البوليس لمنازلهم ، أو محاكمتهم أمام المحاكم التركية ، لأن لهم محاكمهم القنصلية الخاصة .. ومن ثم دأب أعضاء « الاتحاد والترقى » على الاحتماء بحصانة هؤلاء اليهود ، فكانوا يجتمعون فى بيوتهم آمنين من كل خطر !.. وكان بعضهم — ومن بينهم « فتحى المقدونى » ، صديق مصطفى كمال القديم — قد انضموا إلى جماعة « الماسون » — البنائين الأحرار — واستعانوا على تأليف جمعيتهم الثورية وتنظيمها باقتباس أساليب المنظمات الماسونية . وصاروا يتلقون الإعانات المالية الوافرة من مختلف الجهات ، ويتصلون اتصالاً منتظماً باللاجئين السياسيين البارزين الذين نفاهم السلطان إلى خارج البلاد !

ومضت فترة طويلة راقبت جماعة « الاتحاد والترقى » خلالها مصطفى كمال مراقبة خفية دقيقة ، ثم دعته إلى الانضمام لصفوفها بعد أن وثقت بأمانته وحسن نواياه ! وبدأ الأعضاء القدامى يدربونه على نظم جمعيتهم . ثم ألحق بإحدى الشعب التى تتألف منها الجمعية ، لكنه وجد نفسه فى جو غير ملائم له ، إذ كانت هذه الشعبة فرعاً من منظمة « النيهيلست » الدولية التى تؤمن بالفوضوية أو « العدمية » فلا تقيم وزناً للقيم والمعتقدات . والتى تضم أشتاتاً من الناس يتحدثون عن اضطهاد روسيا لليهود ، ويتغنون

بفضائل النمسا ، وإتاحتها لهم فرصاً لجمع المال ! .. وكان أكثر الأعضاء من معتلى الصحة ، الولوعين بالأسرار والتحدث بالرموز الغامضة ، فأدرك مصطفى أنه قد تورط فى الانضمام لمنظمة دولية سرية هدامة لا يدرى ما هدفها على التحقيق .. ولم يكن يعنيه فى شيء أمر الأهداف الدولية أو متاعب اليهود أو طقوس الماسونية .. وإنما كان كل ما يعنيه أنه تركى فخور بتركيته ، حريص على إنقاذ تركيا من طغيان السلطان وتجاوزه حدود سلطته ، ومن قبضة الأجانب الخانقة ! ولما كان حديث عهد بالجمعية ؛ لم يعهد إليه بشيء أكثر من تنفيذ أوامر الأعضاء القدماء المستترين خلف نقاب الطقوس الماسونية المعقدة .. فى حين كانت طبيعته تميل إلى أن يكون هو الآمر الناهى فى الجمعية ، أو لا يكون فيها على الاطلاق !

على أنه – أيًّا كانت مكانته بين الأعضاء – كان أبعد ما يكون عن الطاعة العمياء لسواه ، بل كان دائم الانتقاد حاد اللسان . وكانت انتقاداته قاطعة بتَّارة ، لا تقيم وزناً لمخلوق ، وإنما يكفى أن يعارضه أحد حتى يغدو شرساً متوحشاً !

وكان يحنقه من جمعية « الاتحاد والترقى » أنها جمعية جعجعة بلا طحن ، يكثر فيها القول ويقل الفعل ، فى حين كان هو يريد حقائق لا نظريات ، يريد أعمالاً تدبر بعناية وتنفذ فى مزيج من الحزم والحذر .. ومن ثم لم يظهر أى احترام لزعماء الجمعية ، بل تشاجر معهم جميعاً : مع « أنور » .. و « جمال » .. و « يافيد » اليهودى الأصل . و « نيازى » الألبانى المتوحش الدعىّ . . و « طلعت » ، الذى كان موظفاً صغيراً فى مصلحة البريد ! أولئك كانوا زعماء الجمعية ، وقد عاملهم مصطفى كمال جميعاً فى تعالٍ وخيلاء . كان يكلمهم كما لو كانوا فتية فى فصل دراسى وهو

أستاذهم !.. وفى إحدى المناسبات تحدث بعضهم فى مقهى « جنوجنو » عن « جمال » باعتبار أنه وطنى عظيم ، فقاطعهم مصطفى ساخراً وألقى عليهم محاضرة طويلة عن العظمة الحقيقية . وفى الصباح التالى التقى بجمال فى القطار أثناء ذهابهم جميعاً إلى أعمالهم ، فصارحه برأيه فيه وكونه « طالب شهرة » لا أكثر ولا أقل . . ثم كرر على مسمعه محاضرته !

وحتى علاقاته بزملائه الضباط كان فيها معتداً بنفسه ، دائم السخرية ، مرير الانتقاد ، دون ما دعابة تخفف من مرارة كلماته !.. ولذلك كرهه إخوانه ، وأساء اليهود الظن به .. وحرص زعماء الجمعية على تركه خارج نطاق الدائرة السرية الضيقة التى تدير أعمال المنظمة !

قلب الأم ... وحيرتها !

وكذلك كان شأنه فى البيت ، فلم يكن يقبل أية ملاحظة إلا من أمه زبيدة . بل لقد كان معها أيضاً كثيراً ما يعتصم بجموده وتحفظه إذا أخطأت مرة فخدشت كبرياءه .. ولم يكن يسمح لها بالتدخل فى شئونه الخاصة ، وقد حدث مرة أنه أحضر زملاءه المتآمرين معه إلى المنزل . وفيما هم يتباحثون سمع الخدم طرفاً من الحديث فنقلوه إلى أمه، وتسللت هى إلى باب الحجرة حيث أصغت إلى ما يدور فى داخلها !. فلما انصرف القوم خلت إليه واشتدت فىمعارضة ما يدبرون ، ولم يستطع مصطفى إقناعها ، إذ كانت من الجيل القديم لا تؤمن بغير العقائد والمبادئ التى رسخت فى ذهنها . وهكذا حمى وطيس الجدل بينهما ، لكن زبيدة كانت من الحكمة بحيث قبلت أن تساعد ابنها فى مشروعاته فقد كان رب البيت ، ويعرف من أمور الدنيا التى

لمسها فى حياته العملية أكثر مما تعرف ، وقد يكون الحق فى جانبه برغم ثقتها بغير ذلك ، ثم إنها كانت تخشى أن يترك البيت فاضطرت إلى مساعدته راغمة ، وإن لم تكف عن الشكوى والتذمر من تهوره ، وعن تحذيره فى كل مناسبة من عاقبة التآمر ضد السلطان ورجال الدين !

ووقع ما خشيته زبيدة .. فقد ضاق مصطفى بلجاجتها وبقيود الحياة البيتية ، وثرثرة النساء .. فاستأجر لنفسه غرفة فى الخارج مؤثراً أن يظل سيد نفسه ، واكتفى بالتردد عليها بين الحين والآخر .

وكان خلال النهار يؤدى واجباته العسكرية بنشاط وهمة خارقين .. ثم يقضى أكثر لياليه فى المقاهى ، حيث يأكل ويجتمع بزملائه المتآمرين فى حجرة خلفية من مقهى « جنوجنو » .. أو فى بيت أحد الأصدقاء ، بعد إحكام إغلاق النوافذ والأبواب فى وجه عيون البوليس وجواسيس السلطان ! . وهناك ، بين كؤوس الطلا ـ ودخان السجائر ، وعلى ضوء شمعة أو مصباح بترول ، كان المتآمرون يسهرون حتى ساعة متأخرة من الليل ، يتناقشون ويدبرون أمر الثورة المقبلة ! ..

وحرص مصطفى كمال مع حضوره هذه الاجتماعات ، على عضويته فى جماعة « الاتحاد والترقى » . على أن نصيبه من العمل فيها أخذ يقل ويتضاءل ، ولاسيما أن زعماءها استمروا يذودونه عن دائرتهم الخاصة الضيقة ، ولم يكن هو بالذى يقبل أن يكون مرؤوساً خاضعاً لأحد .. فإما الصدارة وإما الانزواء !

وهكذا كان يزداد ميلاً إلى العزلة والصمت كلما تقدمت به الأيام !

وأخيراً ، اندلعت الثورة التى كان القوم يحضرون لها . وكان ذلك فجأة وبلا مقدمات ، فقد جمع « نيازى » حفنة قليلة من الرجال ، ثم شرع بتهوره

المعروف – ومن غير أية دراسة سابقة – فى الزحف عبر جبال مقدونيا الجنوبية متحدياً الحكومة . وفى الوقت نفسه أصدر « أنور » بياناً أعلن فيه الثورة ، ورحف هو الآخر بفيلق من الجنود فى شرق مقدونيا !

لم يكن شيئاً معداً أو منظماً ، بل إن جمعية الاتحاد والترقى ذاتها لم يكن فيها أكثر من ثلاثمائة عضو عامل . وما كان أحد يعرف شعور الجنود أنفسهم وميولهم ! . . أما مصطفى كمال فقد اعتصم بالهدوء واستمر يؤدى واجباته العسكرية .. فهو لم يكن من الحمق بحيث يقامر بالاشتراك فى مغامرة جنونية مرتجلة كهذه . كان يرى أن الإقدام على خطوة من هذا القبيل لا بد أن تسبقه دراسة دقيقة حذرة ، وأن تعد العدة الكافية لكل احتمال !

لكن « المغامرة الجنونية » نجحت ، خلافاً لما كان يعتقده مصطفى كمال ! وكان تاريخ الأشهر القليلة التى تلت شروع نيازى وأنور فيها أشبه بحلم عجيب غريب . فالثوار الذين اشتركوا فى الزحف لم يكن عددهم يزيد على بضع مئات ، وقد تفرقوا فى الجبال بلا أمل فى معونة أو مدد ، ولكن القوات التى أرسلت للقضاء عليهم سرعان ما انحازت إلى جانبهم فرقة بعد فرقة ، وكان الجنود قد أهملوا سنوات ، ولم تدفع لهم مرتباتهم بانتظام ، وأعجب من ذلك أن القوات التى أرسلت بعد ذلك من داخل تركيا انضمت هى الأخرى إلى الثوار . وهكذا وجد أعضاء الجمعية أنفسهم أمام نصر مبين جاوز كل ما كان فى حسبانهم ، وبدأ جبروت السلطان يضمحل ونفوذه يتبدد كأوراق الشجر فى الخريف حين تذروها الرياح ! وسارع « ثعلب إستانبول » الماكر العجوز – السلطان عبد الحميد – إلى اتخاذ قرارات عاجلة لإنقاذ الموقف ، فأعلن تأليف حكومة دستورية ، ولام مستشاريه على أخطاء الماضى ومظالمه ، ثم ألغى الجاسوسية ، وأعلن ترحيبه باستقبال زعماء الثوار ، فعاد نيازى وأنور على رأس

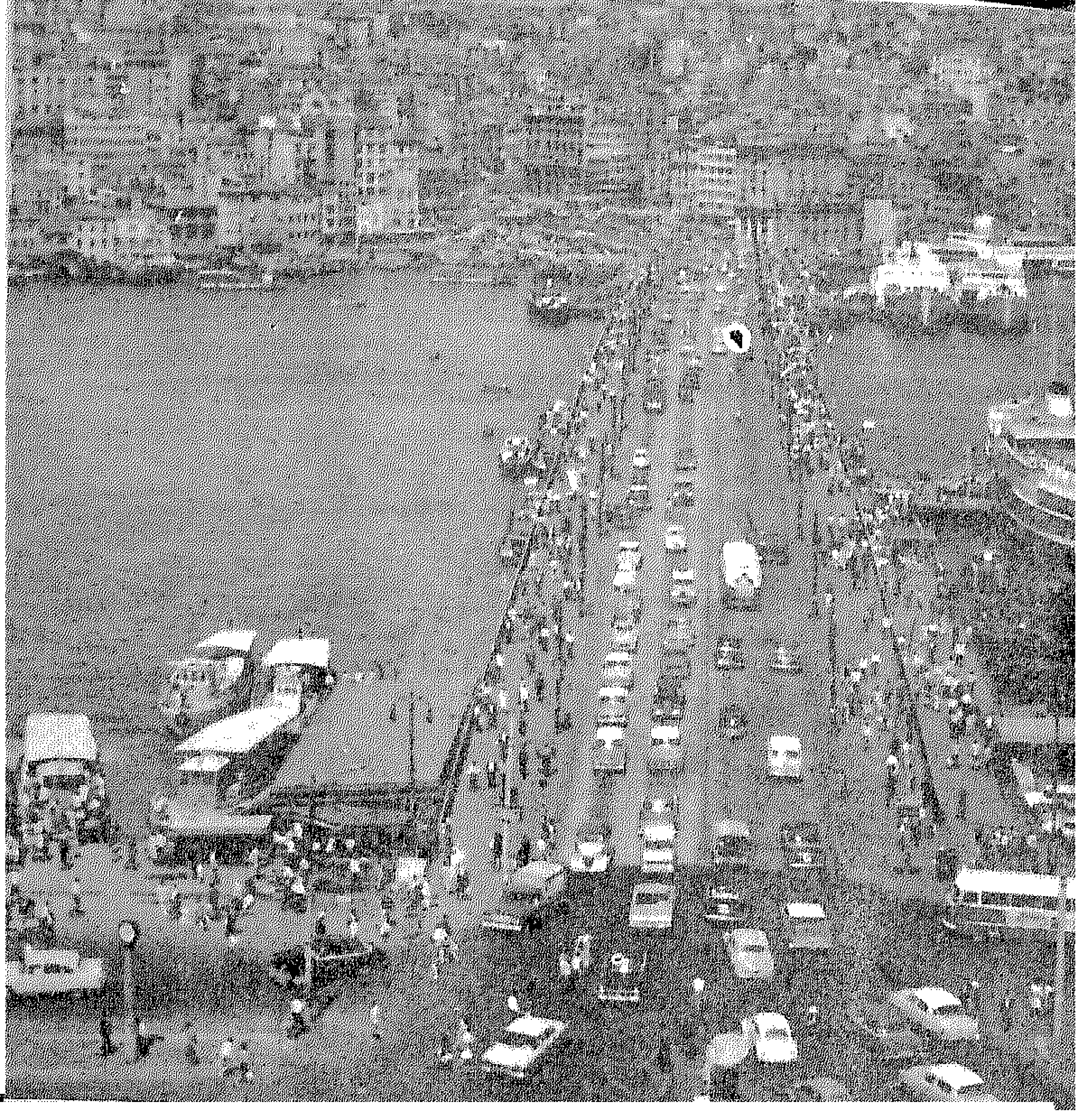
قواتهما إلى سالونيك ، واستقبلتهم هناك جموع حاشدة متحمسة من اليونانيين والأتراك ، واطمأن الجميع إلى أن عهد الإرهاب قد زال !

وكان بين المستقبلين مصطفى كمال وغيره من أعضاء الجمعية الذين لم يضطلعوا بأى دور إيجابي فى الثورة . وأعلن « أنور » دستور الحكم الجديد من شرفة فندق « أوليمبيا بالاس » الواقع فى الميدان الرئيسى بسالونيك . ووسط زحام الضباط الذين اصطفوا خلفه وقف مصطفى كمال يدير عينيه فى تلك الجموع ، ولا يكاد أحد يعرفه سوى أفراد قليلين يعتبرونه أحد الأعضاء الصغار الذين لا وزن لهم فى الجمعية !

وفى الأيام التالية تدفقت على المدينة جموع من المنفيين السياسيين الذين أبعدهم « عبد الحميد » منذ عشرين سنة . وبينهم الأمراء ، ورؤساء الوزارات والوزراء السابقون ، وغيرهم ، وانضم أكثرهم إلى الضباط الشبان الثائرين ، واشتركوا فى الإشراف على جمعية « الاتحاد والترقى » . . ثم هرعوا إلى القسطنطينية ينشدون الظفر بنصيب من الغنيمة ويتآمرون للاستئثار بالحكم !

وفى أثناء ذلك عاد نيازى إلى ألبانيا فما لبث قليلاً حتى اغتيل هناك ، وعين أنور ملحقاً حربياً بسفارة تركيا فى برلين .. أما مصطفى كمال فأرسل فى مهمة إلى أفريقيا الشمالية ليكتب تقريراً عن حامية طرابلس . وعم الاضطراب كل شيء ، واستغلت الدول الأجنبية الفرصة فاغتالت النمسا منطقة « البوسنة والهرسك » ، وضمت اليونان إليها جزيرة كريت .. وأعلنت بلغاريا استقلالها التام بمعاونة روسيا ! . . وقامت الثورات فى ألبانيا ، وفى شبه جزيرة العرب !

ووسط هذا الارتباك كله نشط أعوان السلطان للعمل ، فرشوا بالمال جنود القسطنطينية ، وأرسلوا الوعاظ ورجال الدين يحذرون الناس من الحكام الجدد ويتهمونهم بالإلحاد واعتناق المبادئ الباريسية الهدامة ،



قنطرة (غالاطا) الشهيرة ، على خليج (القرن الذهبى) ، إحدى معالم استانبول (القسطنطينية) . . المدينة التى تربط قارتى آسيا وأوربا ، والتى عاصرت ثلاث إمبراطوريات ، وشهدت أحداثاً غيرت مجرى التاريخ !

كما يتهمونهم بأنهم يهود وماسونيون ، وليسوا أتراكاً ولا مسلمين ، وكل ما يهدفون إليه هو القضاء على الإسلام والخلافة !

وكانت النتيجة أن تمرد جنود القسطنطينية فقتلوا ضباطهم أو سجنوهم ، وأعلنوا ولاءهم لدين الإسلام وللسلطان ظل الله فى الأرض وخليفة الرسول العظيم . ثم استولوا على القسطنطينية وطردوا منها أعضاء « الاتحاد والترقى » !

ولجأ أعضاء الجمعية إلى الجيش المعسكر فى مقدونيا يلتمسون منه العون حتى لا يعود عبد الحميد وزبانيته إلى استبدادهم وطغيانهم ! وكان القائد الأعلى لقوات مقدونيا عربياً من المقربين لدى السلطان عبد الحميد ، وهو شوكت باشا ، وكان طويل القامة نحيلها ، شاحب الوجه كالموتى ، فأخذته الحيرة برغم براعته فى فنه العسكرى ، ولم يدر ماذا يفعل إزاء هذه المشكلة ! . وأخيراً عمل بمشورة بعض الضباط أركان حربه ومنهم مصطفى كمال الذى كان قد عاد من طرابلس ، فأصدر أمره بزحف جيشى مقدونيا الثاني والثالث نحو القسطنطينية ، وأسند إلى مصطفى كمال قيادة أركان الحرب ، بينما تولى أنور قيادة إحدى فرق الفرسان ، وكان قد عاد من برلين حين سمع بالأحداث الأخيرة !

خلع السلطان عبد الحميد !

وأخمد الجيش المهاجم تلك الثورة المضادة ، وخلع السلطان عبد الحميد وسجنه فى « فيللا » بمدينة سالونيك ، ثم عهد فى حراسته إلى « فتحى » المقدوني وولى مكانه على العرش ابن عمه الكسيح ، وأعاد مقاليد الحكم إلى اللجنة العليا لجمعية الاتحاد والترقى . . وكان أنور أبرز أعضاء الجمعية ،

فبدا لأنظار الناس بطلاً شعبياً ، وأعانه على الظهور ذكاؤه وحماسته وجرأته وحبه للإعلان والدعاية .. فى حين كان مصطفى كمال لاذعاً ساخراً متحفظاً ، فبقى فى الظل .. مجهولاً من الجماهير ، غير محبوب من القادة . وكان رأى اللجنة فيه أنه ضابط كفؤ لكنه بغيض لا يكف عن انتقاد الجميع وعصيان الأوامر . ومن ثم دفعوه إلى المؤخرة وأعادوه إلى عمله العسكرى الذى أسند إليه من قبل !

عاد مصطفى كمال إلى عمله العسكرى مشتعل النشاط إذ كان عسكرياً بفطرته . وأخذ يبذل مجهوداً شاقاً فى تنظيم الطوابير وإلقاء المحاضرات ، ودرس التاريخ الحربى لحملات نابليون و « مولتكه » قائد الألمان .. فلم يمض وقت طويل حتى أحرز ترقيات عدة متتالية أوصلته ، وهو دون الثلاثين ، إلى منصب قائد أركان الحرب للجيش المقدونى الثالث ! وفى سنة ١٩١٠ عين ملحقاً بقيادة الجنرال « على رضا » فى البعثة العسكرية التى أرسلت إلى فرنسا ، فمكث بضعة أيام فى باريس ، ثم توجه إلى « بيكاردى » حيث كانت تجرى المناورات العسكرية السنوية .. وكتب الجنرال على رضا تقريراً عنه قال فيه : « إنه أظهر كفاءة ملحوظة وحسن تقدير للأمور ، وكان ضابطاً مقداماً بعيد النظر » .. فلما عاد بعد ذلك إلى سالونيك عين مشرفاً على مدرسة الضباط بها ، فأعاد تنظيم المدرسة بما شهد له بالكفاية العظيمة ، لكنه لم يكن راضياً أو قانعاً بهذا المنصب ، لأنه برغم ميوله العسكرية كان دائم الحنين إلى السياسة .

لم تكن الثورة قد أصلحت من الأمور شيئاً ، وقد تولى مقاليد الحكم فى البلاد زملاؤه القدامى الذين عرفهم فى سالونيك : أنور ، وطلعت ، وجمال . . لكن مصطفى كان يغض من شأنهم ، ويعتقد أنهم لا يصلحون

حكاماً !.. وقد جاهر بآرائه هذه فى مدرسة الضباط ، وفى المجتمعات المختلفة .. وصرح بأن الدول الكبرى تزداد شراهة وطمعاً فى خيرات البلاد ، فألمانيا تضيق الخناق على تركيا ، وماليوها يتاعون كل يوم لأنفسهم حقوقاً وامتيازات جديدة ، وقد ظفروا بامتياز السيطرة على سكة حديد بغداد ، إذ باعه إليهم الوزير اليهودى الخائن « يافيد » ، عضو الاتحاد والترقى القديم الذى صار وزيراً لمالية تركيا !.. وهؤلاء هم كبار الدبلوماسيين الألمان ينشطون فى القسطنطينية لبث دعايتهم وتحقيق مصالحهم .. أما فى الداخل فكل شىء ما زال على فساده الأول فى عهد عبد الحميد ، والفقر آخذ بخناق الشعب ، والسخط شامل عام فى جميع الطبقات ولا سيما فى صفوف الجيش ! . . ثم يختم مصطفى كمال حديثه الصريح الجرئ مؤكداً ألا بد من تطهير عاجل شامل !

وهكذا أخذ اسم مصطفى كمال وكفايته فى الذيوع والانتشار ، وكان بين الضباط عدد كبير من الساخطين المتأهبين لإحداث القلاقل ، فبدأوا يصغون إلى أحاديثه هذه ، وينظرون إليه فى إكبار ، ويلتفون حوله معجبين مؤملين ! وأمتعه أن صار مرموق المكانة بارز الشخصية محترماً من الجميع . فتغير مسلكه وصار أكثر تلطفاً مع الملتفين حوله وأكثر شعبية !.. وبلغت أخباره مسامع محمود شوكت باشا — وكان قد أضحى وزيراً للحربية — فأدرك خطره على منطقة البلقان التى يمارس فيها نشاطه ، ونقله من مدرسة الضباط إلى منصب قائد فرقة المشاة الثامنة والثلاثين فى سالونيك !.. لكن ذلك لم يغير من الأمر شيئاً ، فمارس مصطفى نشاطه فى بيئته الجديدة ، وكان فى الوقت نفسه يؤدى واجباته العسكرية على الوجه الأكمل ، فازداد عدد الضباط الملتفين حوله ، وبدأ يدبر خطة أكثر وضوحاً وتحديداً ، للقيام

بحركة مفاجئة لقلب نظام الحكم !. ومرة أخرى عاد يقضى أمسياته فى الاجتماعات السرية وراء الأبواب المغلقة .. لكنه فى هذه المرة كان العقل المسيطر ، وكان خصومه هم رجال الثورة القدامى الذين أصبحوا حكاماً !..

وكانت خطته ترمى إلى تأليف حكومة وطنية صالحة وإبعاد كل نفوذ للأجانب ، وقد اتخذ لخطته الجديدة هذه شعارا هو « تركيا للأتراك » ! وأبلغ رجال الحكومة رؤساءهم أن مصطفى بات رجلاً خطيراً !.. فطالبت اللجنة بمعاقبته . وإذ ذاك دعاه محمود شوكت باشا ووجه إليه تهمة تحريض الجنود على الثورة ضد الحكومة ! . لكنه لم يجد دليلاً كافياً يبرر القبض عليه فاكتفى بإعفائه من منصبه وانتدبه للعمل فى ديوان الوزارة بالقسطنطينية !

وكان عسيراً أن يجد المسئولون وسيلة للتخلص من خطر مصطفى كمال فالتحذير والتهديد لا يجديان شيئاً معه لأنه لا يعرف الخوف . ولم تكن هناك تهمة محددة يمكن إثباتها عليه ، فقد كان حذراً شديد الحرص !.. لكنه فى العاصمة سوف يكون بعيداً على الأقل عن مركز القلاقل فى البلقان ، وبعيداً عن أصدقائه وأتباعه ، كما تتيسر مراقبته فيها !

وفى تلك الفترة – أكتوبر سنة ١٩١١ – عمدت إيطاليا فجأة بلا إنذار أو مقدمات ، إلى إنزال حملة من قواتها فى ميناء طرابلس بشمال أفريقيا ، فاستولت على المدينة ، وعلى شطر من الساحل .. وكانت طرابلس وقتئذٍ تابعة لتركيا !

وعند ذاك طرح مصطفى كمال السياسة جانباً ، فقد لاحت له مهمة تليق بالرجال أمثاله : إنه ينبغي أن يهرع إلى طرابس ليقاتل الإيطاليين . .

ضابط مصرى ينقذه !

لم يكن يصل بين تركيا وشمال أفريقيا غير الطريق البرى الطويل الذى يخترق سوريا ومصر ، فقد كان الإيطاليون يسيطرون على البحر ويغلقون الدردنيل . وكان الأسطول التركى مؤلفاً من بارجتين وبضعة طرادات حربية . لكن مراجلها كانت صدئة وبحارتها قد اختفوا ، فتركت مهجورة راقدة فى الوحل فى خليج « القرن الذهبى » . . وهكذا كان مستحيلاً إرسال قوات نظامية لنجدة طرابلس ، وصار لزاماً على الضباط الراغبين فى التطوع للقتال دفاعاً عنها أن يبحث كل منهم عن الوسيلة الكفيلة بوصوله إلى الميدان ، وكان أكثر الضباط الشبان راغبين فى ذلك التطوع ، وقد سارع « أنور » إلى الذهاب إلى هناك ، ثم لحق به « فتحى » الذى كان قد عين ملحقاً حربياً فى باريس ، مستقلاً سفينة صيد فرنسية نقلته من مرسيليا إلى تونس !

أما مصطفى كمال فقد سلك الطريق البرى ، يصحبه اثنان من أصدقائه ، فعبروا آسيا الصغرى إلى سوريا ففلسطين فمصر ، إما بالقطار وإما بالمركبات أو على ظهور الجياد ! . على أنهم ما كادوا يصلون إلى الإسكندرية حتى وجدوا أن إنجلترا قد أعلنت حياد مصر وأغلقت حدودها فى وجه المحاربين من الفريقين !

وثار مصطفى كمال واستبد به الغيظ ، فقد كان يعتبر مصر تابعة لتركيا ، فكيف يجرؤ الإنجليز على إغلاق حدودها فى وجه الأتراك الذاهبين لمساعدة أتراك مثلهم فى أرض تركية ؟ ! ولكن لم يكن هناك ما يمكن عمله .. فافترق الرفاق الثلاثة ، على أن يتخذ كل منهم الطريق الذى يختاره للوصول إلى غايته !

وتنكر مصطفى كمال فى زى عربي ، واستقل القطار الحديدى المتجه إلى الغرب . لكنه أوقف عند الحدود بين مصر وطرابلس ، ولم يكن يعرف من العربية إلا ألفاظاً قليلة ، كما أن زرقة عينيه ولون شعره كانا ينمان عن أصله التركى . وكان ضابط الحدود المصرى قد تلقى من القائد الإنجليزى لمنطقة الإسكندرية أوصاف مصطفى كمال ، مشفوعة بأمر صريح بإعادته مخفوراً من حيث أتى .. لكن هذا الضابط كان يطوى قلبه على الكراهية للإنجليز والإيطاليين ، ويمالئ الأتراك بعواطفه ، فاعتقل مسافراً آخر ذا عينين زرقاوين .. وترك مصطفى كمال يواصل رحلته على بركة الله ! واتجه مصطفى رأساً إلى القيادة التركية فى « عين المنصور » ، على بعد خمسة عشر ميلاً من ميناء « درنة » . . فاستقبل بالترحيب ، ولا سيما أن القيادة هناك كانت تعانى نقصاً فى الضباط وأنه كان ذا خبرة بالإقليم وأهله منذ طاف بالبلاد فى العام الأسبق .. وهكذا رقى من فوره إلى رتبة بكباشى وأسندت إليه القيادة فى المنطقة المواجهة لدرنة وجعل مقر قيادته فى عين المنصور ، حيث يقيم « أنور » ، القائد العام للجبهة كلها . !

وكان الإيطاليون – بمعاونة أسطولهم – قد احتلوا جميع البلاد الواقعة على طول الساحل ، لكنهم عجزوا عن التقدم فى الداخل ، حيث واجههم الأتراك ومن خلفهم شعوب شمال أفريقيا كلها التى امتشقت السلاح وأعلنت « الجهاد » أو الحرب المقدسة . وجعل الوعاظ يثيرون حمية الأهالى بالضرب على نغمة الدين ، فتدفقت القبائل من ليبيا ومن واحة الكفرة لنصرة الأتراك إخوانهم فى الدين . وأعلن السيد السنوسى أن « أنور » يمثل عظمة السلطان خليفة المسلمين ، ومضى يزوده بالمحاربين .. فضلاً عن المتطوعين الذين جاءوا من كل حدب وصوب !

وعرف أنور كيف يستخدم الجميع ، وأقام لنفسه خيمة عظيمة فرشت بالسجاد وبطنت جدرانها بالجوخ والأصواف المزركشة ، وفيها كان يستقبل المشايخ ورؤساء القبائل ويستمع إلى آرائهم .. ونظم المحاربين تحت إمرته وقسمهم إلى جماعات تقيم فى أربعين خيمة ، خصصت لكل منها امرأة تسهر على راحة قاطنيها وتعد طعامهم . . ويشرف على كل جماعة ثلاثة من الضباط الأتراك . . وكان يسخو فى دفع أجور المحاربين وإطعامهم ، وإرسال الهدايا والعطايا إلى أرامل الذين يستشهدون منهم . . وهكذا مضى فى صبر ومثابرة ونشاط يلهب حماستهم للقتال ، حتى استطاع أن يرد الإيطاليين إلى الشاطئ !

وكان مصطفى كمال على صلة مستمرة بأنور ، وكان يكبره بعام واحد فى السن ، وإن عد مرؤوساً له . . ولم يستطع الإثنان أن يتفقا فى رأى ، بل كانا دائماً على خلاف . كان كلاهما أبياً سريع الغضب قوى الإرادة ، بحكم ما يجرى فى عروقه من الدم الألباني . كما كان كل منهما لا يقبل نقداً أو معارضة ولا يعرف المخوف من الأخطار . !

وبينما كان أنور يتحمس للمشروعات الضخمة والخطط الجبارة من غير أن يعبأ بالتفصيلات أو الحقائق والأرقام .. كان مصطفى كمال على نقيض ذلك ، شديد الحذر لا يجرى وراء الأحلام العريضة وإنما يسعى إلى أهدافه المحددة بعد أن يمعن فيها النظر طويلاً ويقلبها على شتى وجوهها .. ولم يكن يميل إلى استمالة العرب أو الأجانب بل كان معتداً بتركيته إلى حد احتقار كل ما عداها !

والواقع أنه كره أنور منذ عرفه فى سالونيك ، ولكنه الآن صار يكن له ازدراء شديداً ومقتاً هائلاً ، لم يحاول حتى أن يخفيهما . وكان يشوب ازدراءه شئ

من الغيرة لاعتباره مرؤوساً له مع أنه يكبره سنًّا وخبرة ، ومن ثم صار ينفس على أنور سلطانه ومكانته العريضة ومظاهر أبهة منصبه التى تحيط به فى خيمته الفاخرة .. فأخذ يكثر من انتقاد كل خطة لأنور ، وتسفيه كل مشروع له ، بأسلوبه الساخر وتهكمه اللاذع !

وبمرور الأيام ازداد سوء العلاقات بينهما ، وصار القتال سلسلة مرهقة من الهجمات فى إقليم صخرى تتسلط عليه حرارة الشمس المحرقة التى تستنفد صبر أقوى الناس احتمالاً وأعظمهم حلماً . . فبات الغريمان يتشاجران علناً . وعبثاً حاول « فتحى » أن يوفق بينهما . فانتهى الأمر بأن لاذ مصطفى بخيمته الصغيرة ، التى كان يعيش فيها معيشة بسيطة خشنة مثل معيشة جنوده . . وصار يأبى المشاركة فى ضروب اللهو والتسلية أو حضور المناسبات التى يبدو فيها فى صورة التابع المغمور وسط « حاشية » أنور !

وبعد انقضاء عام على بدء القتال ، كانت النتيجة لا تكاد تذكر ، فقد أنزل الإيطاليون نجدات كبيرة ، ودعموا مراكزهم على الساحل ، وإن لم يستطيعوا التقدم إلى الداخل !

وحدث بعد هذا أن أعلنت حكومة « الجبل الاسود » الحرب ، فإذا بدول البلقان المسيحية تتحد كلها ، لأول مرة فى تاريخها ، ضد تركيا . وإذا بالحكومة التركية تسارع إلى مهادنة إيطاليا كى توجه جهادها إلى الحرب المتاخمة .. وأرسلت تعليمات إلى طرابلس تقضى بسحب قواتها إلى مصر وإعلان استقلال طرابلس ، وعودة الضباط الأتراك فوراً إلى وطنهم .. لأن العدو على الأبواب ، يهدده بخطر الفناء !

٤٨
هزائم متلاحقة للجيوش التركية !

هرع مصطفى كمال عائداً إلى وطنه ، عابراً البحر الأبيض إلى فرنسا ومنها إلى النمسا ورومانيا فالبحر الأسود فتركيا . . وفى كل دولة من هذه الدول كانت تعوقه بعض العقبات ، بحيث لم يصل إلى القسطنطينية إلا فى الأسبوع الأول من ديسمبر . وهناك وجد كل شىء فى العاصمة مضطرباً : فالجيوش التركية قد هزمت فى كل الجبهات ، وقوات الصرب قد ضربت ضربتها بدورها من الجنوب فاحتلت سالونيك وأسرت خمسة وعشرين ألفاً من الأتراك . . والبلغار جعلوا وجهتهم القسطنطينية وراحوا يدقون الخطوط المحصنة فى « شطلجة » التى لا تبعد سوى خمسة عشر ميلا عن العاصمة ! . . وهكذا اكتسحت الجيوش المهاجمة تركيا الأوربية جميعها فلم يبق منها غير بضعة الأميال المحيطة بالعاصمة ، وقلعة « أدرنة » الكبيرة التى عزلت وحاصرها البلغار حصاراً شديداً ؟! ووسط هذه الظلمة المدلهمة والدمار الشامل لم يلمع غير ضوء واحد باهر . كان القائد البحرى الشاب « رؤوف » قد فر بالطراد القديم « الحميدية » فاخترق الحصار عند فم الدردنيل وراح يشن الغارات به فى بحر إيجة فيظهر فجأة ليدمر ميناء أو يغرق ناقلة ، حتى أمسى بطلاً وطنياً . . لكن بطولته لم يكن لها أثر وسط الهزيمة العامة الشاملة التى حاقت بتركيا !

وازدحمت العاصمة بالجرحى ، فغصت بهم المستشفيات والكنائس والجوامع والدور الخاصة . . وأصبح الإقليم المحيط بها حاشداً بمعسكرات اللاجئين . وانهار نظام التموين . . ومات الألوف بالكوليرا والتيفوس ،

وألوف غيرهم من الجوع والبرد . . وفى ظل ذلك استمر الساسة يتنازعون من أجل السلطان والنفوذ ، بحيث لم توجد حكومة وطيدة الدعائم لتسيطر على الحالة . . !

وراح مصطفى يتسقط فى انزعاج أنباء أسرته ، بعد استيلاء الأعداء على سالونيك ، فقال له اللاجئون الذين قدموا منها إن المدينة قد أخذت غيلة وغدراً . وأن اليونانيين قتلوا كل المدنيين الأتراك الذين صادفوهم ، وساد المدينة السلب والنهب . . !

على أن مصطفى كمال عثر أخيراً على أمه زبيدة وأخته مقبولة فى أحد معسكرات اللاجئين ، فنقلهما إلى غرفة أعدها لذلك على الفور . وكانت زبيدة قد جاوزت الستين ، وأثقلتها السنون وأظلم بصرها ، وقد عانت وابنتها ويلات الجوع والبرد خلال الفرار من سالونيك . . فلم تكد تلقى ابنها حتى استخفها المرح ولم تصدق عينيها ، لكنها حين استقر بها المقام صارت تتأوه وتندب أقرباءها الذين قتلهم اليونانيون فى سالونيك ، وبيتها الذى ضاع ، ومتاعها الذى فقد ، وبلدتها التى صارت موطئاً لنعال الأعداء !

ولم يكد مصطفى يكفل الراحة لأمه وأخته حتى توجه إلى الإدارة الحربية مقدماً نفسه لها . . فعين على الفور قائداً لفرقة فى شبه جزيرة غاليبولى كانت تدافع عن خط التحصينات الأخير ضد غزو البلغار للدردنيل وفتحهم الطريق إلى تركيا الأسيوية لقطع كل اتصال بالعاصمة !.. وما وصل إلى مقر قيادته حتى بدأ البلغار هجومهم العام ، بقيادة الجنرال سافا سافوف . . وكانت تحصينات الأتراك لا تزيد على مخلفات خط دفاعى بنى قبل خمسين عاماً بواسطة المهندسين الإنجليز أثناء حرب القرم ،

فكان المتوقع ألا تصمد طويلاً أمام هجوم البلغار المتواصل ، ولكن الفرقة التركية بقيادة مصطفى كمال استماتت فى القتال والدفاع عن هذا المعقل الأخير . وفيما هى كذلك عقدت الهدنة فى جميع الجبهات . . ثم تطورت الأحداث بسرعة فائقة ، فدعت الدول الكبرى إلى مؤتمر صلح ، طالبت دول البلقان فيه بأن تسلم إليها فوراً تركيا الأوربية كلها — عدا القسطنطينية — كى تقسمها فيما بينها . . وأصر البلغار على استسلام « أدرنة » بغير إبطاء !

وهنا انقسم الأتراك على أنفسهم ، واختلفت آراء قادتهم . . فرأى بعضهم ، وعلى رأسهم رئيس الوزارة ، أن تقبل تركيا الصلح بأى ثمن . . بينما أصر آخرون وفى مقدمتهم الضباط الشبان على مواصلة القتال ورفض التسليم بهذه الشروط المزرية !

واشتد الشد والجذب بين الفريقين ، وتعددت المؤامرات السياسية ، وعمت الفوضى . . ونشبت الثورات الصغيرة هنا وهناك !

انقلاب دموى فى مجلس الوزراء !

وفى وسط هذا الاضطراب الشامل عاد أنور من طرابلس . ولم يشأ أن يضيع وقتاً ، فدعا أعضاء « الاتحاد والترقى » إلى الاجتماع ، وحشد الضباط الشبان حوله ، ثم زحف وإياهم نحو مقر « الباب العالى » واقتحم المكان أثناء انعقاد مجلس الوزراء ، فلما حاول « ناظم » وزير الحربية أن يعترض سبيله أطلق أنورُ عليه رصاصة من مسدسه فقتله . . ثم طرد بقية الوزراء من المكان وأخذ مكانهم ، ومعه زملاؤه : جمال ، وطلعت ، ومحمود شوكت باشا ، وولى الأخير رئيساً للوزارة ! ولم يترك أنور لخصومه

أية فرصة لإضعاف الحركة ، فلما عارضه بعض الساسة سارع إلى شنقهم ! . . كما سارع إلى إخماد الثورات ، ورفض أن يقبل شروط الدول البلقانية لعقد الصلح ! . .

ولكن كان لا بد من إنقاذ أدرنة من البلغاريين الذين يحاصرونها ، فدبر أنور خطة واسعة النطاق لبلوغ هذه الغاية . وعقد اجتماعاً حربياً على ظهر إحدى البوارج للتشاور فى الأمر ، كان مصطفى كمال أحد الذين حضروه ، فانتقد الخطة انتقاداً بتاراً ، خلاصته أن الخطة فى ذاتها سليمة ، لكن تفصيلاتها لم تدرس دراسة كافية ولا يمكن تحقيقها !

وضايق النقد أنور ، وكان هو الرئيس صاحب النفوذ الأعلى والقول الفصل . . فطلب من مصطفى كمال أن ينفذ ما يكلف القيام به من أدوار الخطة دون مناقشة ! . . ونفذت الخطة فعلاً كما رسمها أنور ، فقامت فرقتان بالهجوم على العدو فى فجر ٨ فبراير ، وكان مصطفى كمال بين قوادها . . وتقدمت القوات التركية بضعة أميال ، ثم أوقفها الضباب الكثيف . فزحف البلغار حول الجناح الأيسر للأتراك وفتحوا أفواه النيران . . فانهزمت إحدى الفرقتين وولت الأدبار ، بينما انسحبت الفرقة الأخرى – وهى التى كان يقودها مصطفى كمال – بعد أن بلغت خسائرها خمسين فى المائة أو يزيد . . أما الجيش العاشر الذى اقتضت الخطة أن ينزل إلى البر فى إحدى المناطق ، بعد نقله بالسفن ، فقد اضطره البلغار إلى العودة من حيث أتى بعد أن تكبد خسارة بلغت ستة آلاف من جنوده وضباطه !

وهكذا فشلت خطة أنور فشلاً كاملاً . . ولم يمض شهر حتى سقطت أدرنة ، واضطرت حكومة أنور إلى التوقيع على اتفاق الهدنة مع العدو

بالشروط الأولى نفسها ، التى أحدث انقلابه وأسال الدماء وبطش بمعارضيه احتجاجاً عليها !

أما مصطفى كمال فعاد للقسطنطينية ، وقد هزمت تركيا ورقدت جريحة تلعق جراحها . . بينما راح أعداؤها يتنافسون فى اقتسام الغنائم والأسلاب التى انتزعت منها . وسرعان ما دب بينهم النزاع فهاجمت بلغاريا حليفتيها اليونان والصرب ، لكنها هزمت وتراجعت إلى حدودها . . وهكذا نسى المنتصرون عدوتهم تركيا وأمسك بعضهم برقاب بعض !

وانتهز أنور الفرصة فعمد – فى جرأة منقطعة النظير ، ودون إعلان حرب – إلى تسيير كل ما تيسر له من قوات نحو جبهة البلغار ، فاكتسح فلولهم التى أبقى عليها حلفاؤهم ، ومضى بجيوشه قدماً نحو أدرنة ، فدخلها منتصراً على رأس فرسان الطليعة ، تحف به الأعلام ، وتدق له الطبول ، ويفسح له الأهالى الطريق التى فرشوها بأغصان الزيتون . . ! وعلى رأس أحد الطوابير الزاحفة كان مصطفى كمال يحرق الأرم غيظاً وينفس على أنور هذه المظاهرة الظافرة المزهوة ، فى حين كان هو كالعهد به مغموراً مجهولاً من الجميع !

الفصل الثاني

نشوب الحرب العالمية الأولى

عاد مصطفى كمال إلى العاصمة ليعيش فيها مع أمه وأخته معيشة الانزواء والإهمال ، وكان قد رقى بعد فتح أدرنة إلى رتبة القائمقام ، ولكنه لم يجد العمل الملائم له ، ولم تكن أمامه أهداف محددة ، فعاد يختلط بساسة الصف الثاني الذين يكن لهم الكراهية !

وكانت الحكومة القائمة قوية حازمة ، يسيرها ثالوث مؤلف من : طلعت وأنور وجمال ، بعد أن قتل محمود شوكت باشا رئيس الوزارة ، وانفرط عقد الجماعات والعصابات القديمة !

وازداد الساسة زهداً فى مصطفى كمال ، أكثر من أى وقت مضى . . لقد أمسى خارج المسرح تماماً ، وتفوق عليه زملاء الأمس فخلفوه فى المؤخرة . . صار جمال وطلعت وزيرين ، وصار أنور شخصية (دولية) فوق كونه وزيراً للحربية .. وكان قد تزوج من أميرة وعاش معيشة أبهة ورفاهية فى قصر يطل على البوسفور ! . . وإن له لخططاً ومشروعات عظيمة : أن يوحد المسلمين جميعاً تحت زعامة السلطان « الخليفة » . . وأن يوحد كل الشعوب الناطقة بالتركية حول تركيا « الأم » ومن ثم يعيد مجد الإمبراطورية العثمانية ! . . هذا إلى أن الألمان ينظرون إليه باعتباره حليفهم !

ولم يكن مصطفى كمال أكثر من ضابط شاب (أركان حرب)

مكروه من زعماء الحكومة الثلاثية ، ومن جميع أعضاء « الاتحاد والترقى » ، فيما عدا صلته الودية مع جمال ، بحكم كراهيتهما المشتركة للألمان .

ورأى أنور – لكى ينفذ مشروعاته العظيمة – وجوب البدء بتنظيم الجيش ، ومن ثم دعا القائد الألماني الجنرال « ليمان فون ساندرز » كى يضطلع بهذه المهمة . . فلم يكد النبأ يبلغ مصطفى كمال حتى ثارت ثائرته واحتدم غضبه ، فراح يحرض رجال السياسة والضباط سراً وجهراً ، على الانضمام إليه فى الاحتجاج ، قائلاً : « إنه لجنون منا أن نسمح لهؤلاء الألمان بالسيطرة على الجيش أساس قوتنا وعصب كياننا . . بل إنها لإهانة للأتراك جميعاً أن نستعين بهذا البروسى ! » . . ثم قابل جمال وناقشه فى الأمر . . وطلب مقابلة أنور ، فلما رفض هذا أن يقابله كتب إليه مصطفى خطاباً مراً !

ووجد فيه زعماء الحكومة مشاغباً لا يكف عن مضايقتهم ويحسن إبعاده عن العاصمة ، لا خوفاً من تأثيره أو خطره – فما كان أحد ليصغى إليه أو ينحاز إلى صفه – وإنما تخلصاً من شغبه ومتاعبه . . وكان فتحى صديقه قد عين وزيراً مفوضاً فى صوفيا ، فعين ملحقاً عسكرياً له !

عد مصطفى كمال تعيينه فى منصبه الجديد بصوفيا بمثابة نفى له من تركيا ، وقد انقطعت كل صلة له بالحياة فى القسطنطينية . ومنصب الملحق العسكرى لا ينطوى على عمل يلائم مواهب العسكرى المحترف . ولكن حينما وجد هذا العمل ، كان مصطفى يؤديه على خير وجه . .

وارتبط بصداقة مع القائد العام البلغارى « كيتشيف » ومع أركان حربه . . وحضر المناورات والاجتماعات والاستعراضات ، وكتب تقارير بمشاهداته قدمها لصديقه فتحى الوزير المفوض .

وكان أغرب ما فى الأمر أنه صار صديقاً حميماً للقائد البلغارى

« سافا سافوف » ، الذى هزم فرقته فى الحرب وردها مدحورة محطمة ! . .

وقد كان مصطفى يكره الضابط أو السياسى المنافس له ، لكنه يحترم العدو الشجاع الباسل . ! . على أنه لم يكن ليستطيع أن يظل هكذا طويلا ، لا يعمل شيئاً ، فطبيعته تفرض عليه أن يشغل نفسه على الدوام ، إن لم يكن بالعمل فباللهو . . فلما لم يجد عملا ، ركز همه فى اللهو ، وكفل له منصب الملحق الحربي كل امتيازات الدبلوماسى وحصانته ، كما كفل له زيه العسكرى فرص خطب ود الحسان ، فاستغل ما توافر له من الناحيتين أكمل استغلال . . تعلم الرقص الكلاسيكى على مدرس خاص ومارسه حيثما وجد إلى ممارسته سبيلا . . وغشى الصالونات والحفلات ، وحاول أن يكون نجماً من نجوم المجتمع ، فغازل نساء صوفيا . . لكنهن لم يجدن فيه ما يحببه إليهن من الوسامة أو الجاذبية ، فضلا عن كراهيتهن التقليدية لكل الضباط الأتراك . . هذا إلى فظاظته وحدة لهجته ، وجهله التام بالأساليب العصرية للغزل . . وقد كاد يوماً أن يتورط فى حب حسناء هى ابنة القائد البلغارى الجنرال كوفا تشيف ، لكنها لم تحفل به ، فعاد إلى طبيعته ساخطاً على الحب والمحبين !

وسرعان ما تبين نساء المدينة مدى الفارق بينه — فى طبعه الفظ الشبيه بطبع التتار المتوحشين — وبين طبع فتحى ، التركى الرقيق الدمث الأخلاق ، فسخرن من رقص مصطفى ومن محاولاته تعلم قواعد السلوك اللائقة برواد الصالونات . . وانتهى بهن الأمر إلى الضيق به ثم إلى تجاهله ! . وهكذا ازداد انطواء على نفسه ، وازداد مقتاً لنساء المجتمع وأساليبهن الناعمة التى تجعلهن يفضلن الثرثرة والغزل البرىء على التمادى فى المغامرات الغرامية حتى نهايتها . .

يسعى ليخدم وطنه ، ولا من سميع !

ومرت الأيام ، ثم اندلعت شرارة الحرب العالمية ، واشتبكت أكثر الدول العظمى فى القتال ، فانضمت تركيا إلى ألمانيا ، لكن بلغاريا ظلت على الحياد ترقب الأحداث !

وبقى مصطفى كمال فى صوفيا يشتعل صدره غيظاً ، وقد كان يؤمن – مثل كثيرين من الأتراك – بأن الحكمة كانت تقتضى تركيا أن تقف على الحياد حتى ترى أية كفة ترجح فتساومها على مؤازرتها ! . . على أنه – وقد سبق السيف العذل ودخلت تركيا فى المعمعة – كان كأى ضابط نظامى يعتقد أن الحرب لن تطول أكثر من أسابيع معدودة . فلما انقضت الأسابيع والقتال ما زال دائراً ، من غير أن يشترك فيه ، استشاط غيظاً وكمداً ، لأن الفرص التى أعد نفسه لها وانتظرها ملهوفاً ، تفوته واحدة بعد الأخرى ! . . وأخيراً أبرق إلى أنور يسأله أن يسند إليه القيادة فى إحدى الجبهات . . فتلقى منه رداً مؤدباً ، وحازماً فى الوقت نفسه ، أمره فيه بأن يبقى حيث هو . . لأن بلاده تحتاج إلى خدماته هناك ! وأبرق إليه مرة أخرى ، ولكنه فى هذه المرة لم يتلق رداً ! . . فأخذ يكتب فى ذلك إلى كثيرين من أصدقائه فى العاصمة التركية ، ويلح على صديقه فتحى لكى يسعى بدوره فى سبيل تحقيق أمنيته تلك ، ولكن مساعيه كلها لم تفده شيئاً !

ومرت الأيام ، حتى أقبل فبراير سنة ١٩١٥ ، وكان صبره قد نفد ، فآثر أن يغادر صوفيا بغير إذن ليتطوع للقتال . . وفيما هو يحزم حقائبه وقد بيت أمره ودبر خطته . . تلقى أمراً باستدعائه إلى القسطنطينية !

كان أنور بعيداً عن العاصمة ، إذ مضى إلى القوقاز ليقود جيشاً ضد الروس . وأناب عنه فى تصريف شئون الدولة القائد الأعرج حقى باشا . . ولم يكن هذا ليحفل بميول أنور الخاصة وعواطفه الشخصية ، فأخذ يزود الجيش بحاجته من القواد الأكفاء ، ولا سيما بعد أن حاول الإنجليز مرتين اقتحام الطريق إلى الدردنيل ببوارج أسطولهم ، وكانت الدلائل تدل على أنهم يحشدون فى مصر جيشاً عظيما لمهاجمة غاليبولى ، بينما انهمك الجنرال الألماني ليمان فون ساندرز فى إعداد جيش جديد على وجه السرعة لمواجهة هذا الهجوم !

وكان حقى باشا يعرف ماضى مصطفى كمال ، ويعرف كفاءته العسكرية الممتازة حين يبتعد عن السياسة ، فأبرق إليه يستقدمه إلى العاصمة على عجل ، وقدمه للجنرال فون ساندرز ، فأسند إليه هذا قيادة القطاع الجنوبي فى شبه جزيرة غاليبولى .

كان فون ساندرز سيء الظن بكفاءة الضابط التركى العادى ، لكنه قدر مواهب مصطفى كمال غير العادية ، برغم مالمس فيه من خشونة غير مألوفة فى مخاطبته وفى التعبير عن رأيه . فى إحدى المناسبات قال له مصطفى كمال « إن بلغاريا قد أصابت بالوقوف على الحياد ، لأن انتصار ألمانيا آخر الأمر ، أمر غير موثوق منه ! » .

وفى مناسبة أخرى قال له : « إن هيئة أركان حرب القيادة الألمانية العليا تبدى تراخياً إجرامياً ! » .

لكن مصطفى كمال كان برغم ذلك يؤدى واجبه العسكرى على خير وجه . وكان صافى الذهن حازماً فى قراراته ، يستند فى تكوين آرائه إلى الحقائق الثابتة . . وقد اختلف غير مرة مع فون ساندرز ، وبلغ الخلاف

فى الرأى بينهما أشده ، إذ كان كلا الرجلين أبياً مزهواً بنفسه وكفايته . . لكن القائد الألماني كان يقدر فى مصطفى كمال مواهبه الفذة وطبيعته التى تحاكى طبيعة الألمان ، فكان لذلك لا يكف عن امتداحه ومنحه ثقته ! وكذلك كان مصطفى كمال – برغم كراهيته للأجانب عاسة وللألمان الذين جلبهم أنور خاصة – حريصاً على أن يحترم فون ساندرز ، ويقدر شجاعته وبراعته العسكرية . وجاءت الأنباء من كل مصدر فى القاهرة وأثينا تنبئ بتأهب الانجليز للهجوم ، بجيش قوامه ثمانون ألف مقاتل ، عدا الأسطول الجرار الذى يتحفز للاشتراك فى القتال ! وواجهت فون ساندرز مشكلة عسيرة ، إذ كان شاطئ شبه جزيرة غاليبولى لا يقل طوله عن آثنين وخمسين ميلا . وكان الأقليم جبليا ، وبعض جباله تشرف وتهيمن على الموقف كله . وعلى هذا فى وسع الإنجليز بفضل أسطولهم أن ينزلوا إلى البر ذلك الجيش المكون من ثمانين ألف مقاتل فى أية نقطة من هذا الشاطئ المترامى ، ثم يقتحموا أحد الجبال ويفتحوا الطريق إلى القسطنطينية ! .

ووزع فون ساندرز قواته وعددها ستون ألف جندى على ثلاث مجموعات تتألف كل مجموعة منها من عشرين ألفاً . . ولم يبق أمامه غير أن ينتظر ما يأتى به الغد ، فما كان فى استطاعة أحد أن يتكهن بموعد الهجوم البريطاني ، أو موضعه !

وعاد أنور من روسيا ، فأرسل إلى فون ساندرز أمراً بتنحية مصطفى كمال عن قيادته وإحلال آخر محله . . فاضطر القائد الألماني إلى إطاعة الأمر ، لكنه أعرب عن أسفه لذلك علانية وأسند إلى مصطفى كمال قيادة الفرقة التاسعة عشرة الاحتياطية المعسكرة فى « مايدوس » ، وفى الوقت ذاته أمره بالحذر فى استخدام قواته حتى تنجلى حالة التوتر والترقب ويعر

الموضع الذى سيركز الإنجليز فيـــه هجماتهم . وإذ أدرك مصطفى كمال مبلغ ثقة فون ساندرز به واعتماده عليه ، صار شخصاً آخر . . انهمك فى عمله بهمة وحماسة أظهرتا مواهبه الحقيقية الكامنة ، فلم تنقض أسابيع حتى أحال فرقته التى كان ثلثاها من الجنود العرب غير المدربين ، إلى فرقة قوية من أحسن طراز . . وأردف ذلك بدراسة الإقليم ، والتأهب لجميع الاحتمالات !

خدعة بريطانية جازت على الألمان !

وفى يوم الأحد ٢٥ أبريل وقع الهجوم البريطاني المرتقب . . فبرزت من قلب الضباب المخيم على الشاطئ موجة هائلة من السفن المدرعة ، من بوارج ومدمرات وناقلات . . فهجم بعضها على القطاع الشمالى من شبه الجزيرة ، عند « بولير » — وكانت هذه خدعة لكنها جازت على فون ساندرز — وهجم بعضها الآخر على القطاع الجنوبي ، بينما وقع الهجوم الرئيسى على القطاع الأوسط . . وكان الجيش المهاجم يتألف من أستراليين . . وقد جعل هدفه أن ينزل إلى البر فى منطقة الأرض المنخفضة عند « جاباتيب » ثم يمضى قدماً عبر وادى « مايدوس » ومن هناك يستدير ويستولى على منطقة التلال المعروفة باسم « شونك بير » . . وكانت تقع لصق معسكر مصطفى كمال ، وتعد أحد « مفاتيح » الموقف كله !

لكن تياراً بحرياً قوياً جرف سفن الأستراليين إلى أبعد من المنطقة التى حددت لنزولهم إلى البر ، فهبطوا خطأ فى « أرى بورنو » ، وإذ وجدوا أنفسهم عند حافة منطقة التلال اتجهوا رأساً نحو مرتفعات « شونك بير » ،

ولم يعرف مصطفى كمال شيئاً من هذا ، لكنه كان قد أمر أقوى فرقة وهى الفرقة السابعة والخمسون ، بالخروج إلى العراء فى الساعة الخامسة والنصف صباحاً لإجراء مناوراتها العادية عند سفح أحد تلال « شونك بير » . . وفيما هو يتسلق سفح التل ، رأى طابوراً من الأتراك آتياً من قمة التل . وعلم منهم أن الإنجليز نزلوا إلى البر عند « أرى بورنو » واضطروهم إلى الانسحاب بينما كانوا يقومون بمهمة الاستكشاف على الساحل ، وسرعان ما أصدر مصطفى كمال أمره إلى قواته بالتحرك . . وبعد دقائق جاءه نبأ من الفرقة التاسعة المعسكرة فى اتجاه اليمين تؤيد نزول الإنجليز إلى البر وتطلب طابوراً لتغطية جناحها الأيسر . . فقدح مصطفى زناد فكره بسرعة وانتهى إلى ترجيح أن تكون « شونك بير » هى المنطقة التى يعتزم الأعداء مهاجمتها ، وسرعان ما قرر وجوب انقاذ هذه المنطقة دون إبطاء وبأى ثمن ، غير منتظر وصول أوامر القيادة العليا وتعليماتها .

إن للدقائق قيمتها ووزنها فى هذه الظروف . وقد كان مصطفى كمال كثيراً ما يردد فى هذا الصدد شعار نابليون المفضل : « السرعة . والسرعة دائماً ! » . . . ومن ثم سارع إلى إصدار أمره إلى قواته بالتقدم فوراً ، وبأقصى سرعة : نحو « شونك بير » !

ولم تكن فى حوزته وقتئذ غير خريطة صغيرة ، غير موضح عليها حتى موقع « أرى بورنو » الذى هبط فيه الإنجليز ، فأمسك هذه الخريطة بإحدى يديه وأمسك « بوصلة » باليد الأخرى ، واصطحب دليلا يرشده إلى الطريق ، ومائتين من جنوده سار فى مقدمتهم لاستكشاف مراكز العدو !

كان الطريق وعراً تعترضه الصخور والخنادق والعقبات ، فعجز أكثر الجنود عن احتمال مشقة التقدم فيه ، بحيث لم يبق منهم مع قائدهم

حين وصل إلى قمة المرتفع غير نفر قليلين . وهناك رأى طلائع الطوابير الأسترالية الزاحفة تتقدم ، وقد بلغت منتصف السفح ، على مسافة لا تزيد على أربعمائة متر ! . . وهنا صاح بأقرب مرؤوسيه إليه : « هيا . . ارجع بأقصى سرعة واجمع كل من تستطيع جمعهم من جنودنا لمهاجمة العدو فوراً . . ! »

وبعد قليل وصلت وحدات الفرقة السابعة والخمسين وقد أرهقتها مشقة تسلق المرتفع وعواصف الطريق ، فأعاد مصطفى كمال تنظيمها على عجل ، ودفع بجنودها إلى الأمام . . ثم وصلت بطارية من المدفعية ، فساهم بيديه فى وضع المدفع الأول فى المركز الملائم ! . . ومضى تحت النيران المنطلقة يوجه قواته هنا وهناك وكأنه شعلة متقدة من الحمية والنشاط ! . . ثم استدعى فرقته الثانية وألقى بها فى المعركة على مسئوليته الخاصة أيضاً ، وقبل أن يتلقى أمراً بذلك من رؤسائه . . وحينما وجد ذلك كله غير كاف ، سارع إلى استدعاء الفرقة الثالثة والأخيرة وألقى بها هى الأخرى فى أتون القتال !

لقد تجاهل الأوامر الصادرة إليه بأن يكون حذراً ، وألقى بكل احتياطى الجيش من الجنود إلى المعركة ، آخذاً على عاتقه كل المسئولية عن هذا التصرف الخطير ، وذلك لاقتناعه بأنه يواجه الهجوم الرئيسى للعدو !

ولم يكن ليخفى على مصطفى كمال ما هنالك من خطر شديد أكيد على الجبهة كلها إن لم يصح تقديره وكان الهجوم الرئيسى فى موضع آخر ! وقد تبين بعد قليل أن تقديره صحيح ، واحتدم القتال طيلة ذلك النهار ، وكان الاستراليون قد قطعوا ثلثى السفح حين اشتبك الأتراك معهم ، فلم يستطيعوا بعد ذلك تقدماً ، وإن أنزلوا بالمدافعين الشجعان خسائر جسيمة ،

فأبيدت الفرقة التاسعة والخمسون ، وساد الارتباك جنود الفرقتين الأخريين من العرب !

والواقع أن خسائر الأستراليين كانت أفدح ، مما جعل ميزان المعركة معلقاً على وصول مدد إلى أحد الفريقين فترجح كفته بلا شك ، ولو لم يزد هذا المدد على خمسمائة جندى ! وهبط الظلام والتل ما يزال فى يد الأتراك ، بينما الأستراليون متشبثون بالسفح . . لكن مصطفى كمال لم ينتظر تطور الحوادث مكتوف اليدين ، بل اتخذ مركزاً لقيادته مخبأ يقع خلف كومة من الأحجار على بعد أمتار من القمة ، وظل طيلة تلك الليلة واليوم التالى كله يواصل العمل فى نشاط عجيب ، فينظم الهجوم تلو الهجوم لدفع الأستراليين إلى الخلف نحو البحر قبل أن يوطدوا أقدامهم . . وكلما فشلت هجمة شن غيرها فوراً فى غير يأس ولا كلال ! وكان يلهب حماسة جنوده بتنقله بينهم بنفسه ، عاملا على تدبير راحتهم وطعامهم ، وبذلك استطاع وقف تقدم الأستراليين ، وإن عجز عن دفعهم من سفح التل إلى البحر من حيث أتوا . . !

والواقع أن مرتفع (شونك بير) كان مفتاح الطريق إلى الدردنيل ، كما كان الدردنيل مفتاح الطريق إلى القسطنطينية . . فلو أن مصطفى كمال لم ينجح فى صد الأستراليين عن هذا الموقع لعزلت تركيا عن حليفتها ألمانيا وأجبرت على عقد الصلح ، بل ربما انضمت اليونان ورومانيا وبلغاريا إلى جانب الإنجليز وتحالفوا جميعاً ضد تركيا ، الأمر الذى يكون له أسوأ الأثر المعنوى فى مجرى السياسة الأوربية كلها ، بل يفتح الطريق إلى روسيا ويمكنها من التزود بالسلاح والمؤن !

ومن هنا احتدم أوار المعركة بين الأستراليين المهاجمين لتحقيق هذه

الأطماع الواسعة ، وبين مصطفى كمال الذى وقف فى وجوههم بوجهه الأغبر وعزيمته الجبارة ، ليذود عن المرتفع الضيق بقواته القليلة العدد والعدة ، معتمداً على كفاءته الممتازة وشخصيته المسيطرة الجبارة .

لا يهاب الموت !

عجز كل من العدوين المتقاتلين عن قهر الآخر ، فبدأ كلاهما يحفر الخنادق فى مكانه ويتحصن وراءها . . وقد استقر عزم الأستراليين على الثبات فى المركز الذى بلغوه إلى أن تتاح لهم فرصة لمواصلة التقدم ، فى حين اعتزم الأتراك بقيادة مصطفى كمال ألا يتركوهم يستقرون ، إلا . . فى البحر . . !

ومضت الأسابيع والفريقان يعانيان الإرهاق الشديد من حرب الخنادق وما يكتنفها من متاعب وأخطار وأهوال وقلق مثير للأعصاب ، فانفجار القنابل وصفير الرصاص لا انقطاع لهما ، وإصلاح الأسلاك المقطوعة فى الظلام فى الشقة الحرام بين الخطين يبعث الرعب القاتل فى الأوصال ، وهناك عدا هذا وذاك ساعات الانفعال المرير فى انتظار هجوم مروع مفاجئ من العدو بالسلاح الأبيض والحراب الحادة ! . . وهناك الحشرجة الأليمة التى تنبعث من الجرحى فى الخنادق الضيقة تحت سطح الأرض ، والمذابح الوحشية التى تتناثر فيها أشلاء الأجسام الممزقة وتختلط فيها الدماء الحارة بشظايا القنابل المتفجرة !

ومع كل هذه الأهوال أقبل الصيف بما يلازمه من نقص فى الماء ، وزيادة فى تسلط الشمس الملتهبة على التلال الصخرية بحيث تكاد

تصهرها . . وبين الخطوط كانت جثث القتلى تتعفن فيمتلئ الجو بأسراب الجوارح ، كما تمتلئ الأرض بالحشرات والهوام وجيوش القمل الناقل للأوبئة والحميات . وهكذا بلغت قوة مقاومة كل من الفريقين وطاقته على الاحتمال حداً يهدد بالانفجار ! ولم يعط مصطفى كمال نفسه — مع هذا كله — فرصة للراحة أو الاستجمام ، لكنه بقى موفور النشاط ، سعيداً بأنه يمارس هوايته المفضلة . . هواية القتال !

لم يكن ينام إلا قليلا ، لكنه لم يبد مفتقراً إلى النوم . . وإنما واصل استنهاضه لهمم جنوده فى غير ملل وفى حمية موفورة ! وظل هادئاً بارد الأعصاب . يرسم خططه ويصدر قراراته فى دقةبالغةوحزم صارم عجيب !

وأدهشت كفاءته الجنرال « كانينجيسر » الألمانى ، قائد الفرقة التاسعة التى تقاتل فى ميمنته ، فقال عنه : « إن مصطفى كمال ضابط نشط صافى الذهن ، يقرر كل شىء معتمداً على ذاته ، ويعرف بالضبط ماذا يريد ! » . . وكان مصطفى دائم الطواف بخط القتال ، يدرس الأرض ويستطلع الأنباء ، ويعرض نفسه للأخطار التى تهدد المراكز الأمامية ، برغم ما جرى به العرف من ألا يستهدف لها القواد ! . .

وفى خلال هدنة قصيرة فى شهر مايو ، تنكر مصطفى كمال فى زى جاويش واشترك فى أعمال إحدى الفرق المخصصة لدفن الموتى ، وذلك ليتمكن من التجسس بنفسه على خنادق الأعداء ! . . وكان لا يكف عن تنظيم الهجمات المحلية المتواصلة لإرهاق قوى العدو ، وكان يقود الهجوم بشخصه أحياناً ليضاعف من حماسة جنوده ، ولم يسترح يوماً واحداً أو يترك قوى رجاله المعنوية تضعف أوتخور ! وكم من مرة استهدف للنيران ! . . فالواقع أنه لم يكن يجنب نفسه خطراً محدقاً ، بل كان يشارك جنوده كل

المخاطر . . ومع ذلك ، بينما كان من حوله يتساقطون قتلى من كل جانب ، لم يصب هو يوماً بأذى !

وكثيراً ما أقدم على تصرفات جاوزت حد الاستهتار بالموت ، فألهب بذلك همم رجاله وحماستهم ! . . وحدث مرة أنه كان جالساً خارج خندق جديد ، حين فتحت « بطارية » إنجليزية مدافعها على الخندق ، وأخذت القنابل تتساقط من حوله بحيث أيقن رفاقه ألا مفر من إصابته ، فألحوا عليه فى أن يلجأ إلى مخبأ آمن ، لكنه أبي قائلا : « كلا ! . . لست أحب أن أكون مثلا سيئاً لجنودى ! » . ثم أشعل سيجارة ومضى يتكلم فى ثبات وعدم مبالاة بالخطر ، بينما كان الجنود من قلب الخندق ينظرون إليه متعجبين ! . . وبقى كذلك حتى تحولت مدفعية العدو إلى هدف آخر غير الخندق الذى يجلس خارجه ، فلم يصبه من أذاها غير غبار البارود الذى أثاره انفجار قنابلها !

وفى مرة أخرى كان عائداً إلى غاليبولى ، فتساقطت حول عربته قذائف زورق حربي سريع الطلقات ، وأصابت ما أمام العربة وما خلفها ، بل إن قذيفة سقطت على مقدمة العربة فقتلت السائق . . ومع ذلك لم يصب مصطفى بأى سوء !

وأحياناً كان يتناول بندقيته ، ثم يخرج رأسه من الخندق ليصوب النار إلى هدف معين فى خنادق الأستراليين ، غير عابئ بالخطر ! . . وفى المناطق المكشوفة كان يبطئ فى سيره عامداً ، لكى يشجع جنوده ويقوى عزائمهم ! . . وقد فشل قناصة العدو غير مرة فى أن يصيبوه برغم قربه منهم ! وكان يؤكد لمن حوله أنه موقن كل اليقين بأن قذيفة ما لن تصيبه ، وأنه لذلك لا يعد تعرضه لقذائف العدو جرأة تستحق الذكر ،

فكان جنوده إذ يسمعون ذلك يزدادون حماسة واستهانة بالاخطار !

وفى شهر يونية ، اكتشف مصطفى كمال مركزاً ضعيفاً فى خطوط العدو ، وسرعان ما دبر خطة محكمة للهجوم على ذلك المركز ، لإشاعة الاضطراب فى خنادق الأستراليين وإجبارهم على الانسحاب ، وحدد لذلك الهجوم يوم ٢٨ يونية ، وأعد للقيام به طابوراً كان قد وصل حديثاً ، هو الطابور الثامن عشر ، على أن تقوم الفرقة بأكملها بشد أزره !

وقبيل موعد الهجوم بيومين زار « أنور » جبهة القتال فى غاليبولى ، وكان قد أصبح وزيراً للحربية وقائداً عاماً بالنيابة ، فلما علم بأمر هذا الهجوم سفهه وعارضه قائلا : « إن مصطفى كمال ينبغى أن يستشير السلطات العليا ، قبل أن يبدد الأرواح فى هجوم خاسر ! » . . وكان مصطفى قد أعلن استيلاءه على مدفعين رشاشين ، فأبدى أنور أنه غير مصدق له ، وطلب أن يرى المدفعين بنفسه ليستوثق من صحة النبأ ! . . وإذ ذاك ثارت ثائرة مصطفى كمال ، ولم يطق صبراً على هذه الطعنة التى أصابت كرامته ، فقدم استقالته !

لقد كان يرى أن أنور ليس سوى شاب تافه مغرور وصل إلى قمة السلطان عن طريق السياسة الملتوية الرخيصة ، ولهذا يأبى إلا أن يتدخل فى كل شىء ، ويفسد كل شىء ! ولكن استقالة مصطفى كمال ما كادت تصل إلى القائد الألمانى « ليمان فون ساندرز » حتى سارع إلى إقناعه بسحبها ، إذ عز عليه أن يفقد أكفأ معاونيه ، وكان يشارك مصطفى كمال احتقاره لأنور واستياءه من تدخله فيما لا يعنيه ! . .

وإزاء هذا لم يسع أنور إلا أن يعدل عن معارضته ذلك الهجوم المرسوم ، فتم فى موعده وفقاً للخطة التى رسمها مصطفى كمال . . لكنه أسفر

عن فشل تام ، وأبيد الطابور الذى قام به ، بسبب إهمال المختصين فى اتخاذ بعض الاستعدادات ، وسوء تصرف هيئة أركان الحرب ! . . فاستغل أنور فرصة هذا الفشل للنيل من مصطفى كمال ، وزار الفرقة التاسعة عشرة حيث أعرب لمصطفى كمال عن لومه إياه على تلك النتيجة . وإزاء ذلك قدم مصطفى كمال استقالته للمرة الثانية ، وعبثاً حاول « فون ساندرز » أن يقنعه باستردادها ، إذ وجد منه تصميماً وعناداً . فعهد إلى أركان حربه « كاظم » فى محاولة التفاهم معه لعله يفلح فى إقناعه !

واتصل كاظم بمصطفى بالتليفون ، وسأله : « كيف ترى الموقف ؟ . . وماذا تطلب فى شأنه ؟ »

فقال له مصطفى : « لقد صارحتك من قبل بحقيقة الموقف وبما ينبغى أن يتخذ فى شأنه . . والآن لم يعد هناك غير حل واحد . . . وهو أن تضع جميع القوات التى فى حوزتك رهن تصرفى ! »

وعندئذ أجابه كاظم متهكماً : « أهذا كل ما تريده ؟ وهل تكفى هذه القوات لتنفيذ ما لديك من خطط جديدة ؟ ! »

فما كان جواب مصطفى كمال إلا أن وضع السماعة فى عنف !

على أن عودة أنور للعاصمة على أثر ذلك هيأت الفرصة لإصلاح ما أفسده بموقفه من مصطفى كمال ، فأفلح « فون ساندرز » فى إقناع هذا بالعدول عن استقالته الجديدة !

معركة الإنقاذ

بدا واضحاً فى أواخر شهر يولية أن الإنجليز يدبرون خطة للقيام بهجوم كبير ! . . فقد شوهدت فى مياه مصر وجزر اليونان ناقلات تحمل فرقاً

جديدة وإمدادات كبيرة . وعلى هذا سارع الأتراك إلى تعزيز جيشهم فى شبه الجزيرة ! ووقع الهجوم المنتظر ليلة ١٦ أغسطس ، وكان هـدفه قمة جبل يعرف باسم « حاجى شيمين » يقع إلى الشمال من منطقة « شونك بير » ويتصل بها بوساطة معبر جبلى يقع خلف الجناح الأيمن لخط القتال الذى يشرف عليه مصطفى كمال !

وكان الإنجليز يأملون من وراء الاستيلاء على القمة الجديدة أن يلتفوا حول منطقة (شونك بير) وبذلك يطوقون القوات التركية جميعها ويسيطرون على شبه الجزيرة !

ودبر الإنجليز أن يخرج طابور واحد من يسار الأستراليين متجهاً إلى « حاجى شيمين » رأساً ، فى حين ينزل طابور آخر أكبر قوامه خمسة وعشرون ألفاً من الجنود على بعد خمسة أميال من ساحل خليج « سوفلا » ثم يزحف إلى الداخل حتى ينضم إلى الطابور الأول ويهجمان معاً للاستيلاء على « عنق » شبه الجزيرة ، وبذلك يفتح أمامهم الطريق إلى الدردنيل ومنه إلى القسطنطينية !

وقبيل وقوع الهجوم بأسبوع ، أخذ الإنجليز ينزلون إلى البر كل ليلة — فى تكتم شديد — قوات جديدة على الساحل الواقع أسفل خط الأستراليين المواجه لمصطفى كمال ، وكانت ليلة السادس من أغسطس شديدة العتمة ، فانتهز الإنجليز هذه الفرصة وبعثوا من خلف خطوط الاستراليين بطابور مؤلف من ستة عشر ألف مقاتل ، سار فى محاذاة الساحل حوالى ميل ، ثم توغل إلى الداخل متجهاً رأساً إلى « حاجى شيمين » لكى يبلغ قمة التل هناك عند الفجر !

وما كادت هذه الأنباء تصل إلى « فون ساندرز » حتى أصدر أمره

إلى « كانتجايسر » بأن يقود الفرقة التاسعة المعسكرة عند ميمنة فرقة مصطفى كمال ، ليصد الهجوم الجديد . . فهرع كانتجايسر عبر الإقليم الوعر قاصداً قمة « حاجى شيمين » ، فبلغها فى الساعة الرابعة والنصف قبيل الفجر . . وهناك على ضوء السحر الباهت رأى على بعد ثلاثمائة ياردة طليعة طابور العدو الذى بدأ يصعد التل فى بطء ومشقة . . ولم يكن معه على القمة إذ ذاك سوى عشرين جندياً فقط ، لكنه لم يشأ أن يضيع الوقت فى انتظار وصول بقية جنوده فأمر من معه بإطلاق النار على طليعة العدو الزاحفة !

وخيل إلى الإنجليز أنهم بازاء مقدمات مقاومة منظمة ، فوقفوا حيث هم ، وبدأوا يحفرون الخنادق استعداداً لقتال طويل ! . . وكان قناصة الأتراك قد قاوموهم لدى نزولهم إلى البر مقاومة عنيفة أنهكت قواهم واضطرتهم إلى تلمس النجاة فى الظلام عبر المجارى المائية المليئة بالصخور الحادة المدببة ، يضاف إلى هذا أن الليلة كانت حارة ، وأن الماء كان شحيحاً ، فكان طبيعياً أن يرحب الإنجليز بالتوقف التماساً للراحة من كل ذلك العناء !

واستراح الإنجليز طيلة النهار ، بينما انهمك الأتراك فى جلب الإمدادات وإقامة التحصينات . وكان قائدهم الجرىء قد أصيب بجرح بليغ خلال مناوشة الفجر ، وفى الوقت نفسه أمدهم مصطفى كمال بكل من استطاع الاستغناء عنه من رجاله !

على أن الخطر الأكبر على الأتراك كان يتمثل فى ذلك الطابور الإنجليزى الآخر المؤلف من خمسة وعشرين ألف جندى ، فقد استطاع النزول إلى البر فى خليج « سفلا » دون أن يلقى مقاومة تذكر ، ثم حط

رحاله فى أقرب موضع ليأخذ أفراده قسطاً من الراحة !

ولم يخف هذا الخطر على « ليمان فون ساندرز » فسارع إلى الاستعداد لمواجهته بأن جلب من « ما يدوس » على عجل فرقتيه الإحتياطيتين ، كما استقدم من « بولير » ومن تركيا الآسيوية كل الجنود الذين فى متناوله ، على أن قواته حتى تلك الساعة لم تكن تزيد على ألف وخمسمائة ، فكيف تستطيع الصمود فى وجه ذلك الهجوم الخطير ؟ !

وبقى الانجليز طيلة اليوم السابع من أغسطس مخلدين إلى الراحة أمام خليج « سفلا » ، فى حين كان فى مقدورهم أن يتقدموا بسهولة ويسحقوا تلك القوات الضئيلة من الأتراك فيربحوا المعركة كلها !

ومن فجر اليوم التالى هجم الإنجليز فى جبهة « حاجى شيمين » ، موجهين قلب هجومهم نحو القمة ، وجناحهم الأيمن نحو « حاجى شيمين » وجناحهم الأيسر نحو خنادق مصطفى كمال فى شونك بير . . واحتدم القتال بشدة ووحشية ، واستطاع جنود نيوزيلندة أن يثبتوا أقدامهم فوق قمة شونك بير ، فكر عليهم مصطفى كمال وجنوده فى هجوم مضاد ، لكنهم استطاعوا رده على أعقابه . وساد الارتباك هيئة أركان حربه وتوقعوا الهزيمة والانسحاب من ذلك الموقع الحربِى الهام !

لكن مصطفى كمال ظل بارد الأعصاب ثابت الجنان ، ومضى يتنقل بين جنوده تحت النيران ، يبث فى نفوسهم الثقة والأمل بشجاعته ورباطة جاشه ، ويشجعهم على الصمود لهجمات العدو ! . وهكذا لم يستطع الإنجليز التقدم خطوة أخرى نحو القمة الوسطى ، أو نحو « حاجى شيمين » . لكنهم ظلوا متشبثين بالمركز الذى بلغوه فى « شونك بير » . وفى ساعة متأخرة من ذلك المساء ، أرسل « فون ساندرز » فى طلب مصطفى

كمال ، وصارحه فى سورة من الغضب والسخط بيأسه من الموقف لأن المدد الذى طلبه من « بولير » لم يصل بعد ، ولأن القائد « فوزى » أثبت نقصاً فى الكفاءة استحق من أجله أن يفصله ، بينما جبهة « سفلا » التى زارها فى الصباح ليس فيها غير فرقة واحدة ضعيفة ممزقة ، وإذن . . ليس ثمة ما يمنع الإنجليز من التقدم وفصل شبه الجزيرة عن بقية تركيا !

الألمان يسلمونه القيادة !

والواقع أن القائد الألماني كان على حق ، فقد قضى طيلة النهار فى طلب الإمداد بكل الوسائل . . بالبرق والتليفون ، والرسائل إلى كل الجهات المختصة ، مؤكداً تأهب الإنجليز للهجوم فى جبهة « سفلا » خلال الساعات القليلة المقبلة ، وأن الموقف غاية فى الحرج ! . لكنه لم يتلق أى مدد ، من أية جهة ! . . وقد ختم كلامه مع مصطفى كمال قائلا : « إننى قررت أن أجمع كل القوات المشتتة فى الميدان فى جيش واحد . . وأريد أن تتولى أنت قيادته ! » . ولم يتردد مصطفى كمال ، ولم يستفسر عن أى شيء ، فقد كانت المسئوليات الجسام والمهام الضخمة تستثير حميته وكفاءته الكامنة . . وعلى هذا قبل العبء الخطير الذى ألقى على عاتقه فى هدوء ، ثم أعد خططه بملء حريته ، ومضى لتنفيذها بنشاط خارق . . . وكان الحظ حليفه فوصلت قوات « بولير » بعد قليل ، قاطعة حوالى ثلاثين ميلا فى فترة وجيزة ، فاستقبلها مصطفى كمال مغتبطاً ومنحها فترة قصيرة للراحة ثم أعدها للهجوم المضاد ، الذى هو الأمل الوحيد الباقى لصد

الإنجليز ، إذ لم يكن فى الوقت متسع لإعداد مراكز للدفاع !

وفى تلك الليلة نفسها ، كان الإنجليز بدورهم يعدون عدتهم لحسم الموقف فى أقصر وقت ممكن ، وقد وصل « هاملتون » القائد الأعلى لقواتهم ، وأصدر أمره بمواصلة التقدم فوراً ، وحدد له فجر اليوم التاسع من أغسطس ، وهكذا وقع الهجومان فى وقت واحد ، واستمر القتال سجالا بين الفريقين ، فثبت الأتراك فى موقعهم ، ولم يستطع الإنجليز الاستيلاء على قمة « شونك بير » و « حاجى شيمين » ، بل أجبروا على التراجع قليلا ، ولكن لم يلبث أن اندفع طابور من الهنود والإنجليز إلى القمة حيث هاجموا الأتراك بالحراب وطردوهم إلى أسفل السفح ، وكادوا يبيدونهم لولا أن مدافع الأسطول البريطانى فتحت فوهاتها خطأً مصوبة قذائفها إلى مواقع الإنجليز أنفسهم بدلا من الأتراك فأصابتهم بخسائر فادحة واضطرتهم إلى الانسحاب !

وكان النيوزيلنديون قد تمكنوا من الاستيلاء على موقع فى (شونك بير) جعل فى متناولهم إصلاء الخطوط التركية بنيرانهم الحامية ، وفشلت جميع الهجمات المضادة فى زحزحتهم عن ذلك الموقع . . وهكذا يئس قواد الفرقة التركية التاسعة عشرة من الحالة ، فاتصلوا بمصطفى كمال بالتليفون ، وأبلغوه أن التعب والوهن أعجزا رجالهم عن مواصلة الهجوم ، وأن مدفعية العدو الرهيبة تواصل الفتك بهم وقد تفشى الذعر بين صفوفهم ! وكان جواب مصطفى كمال أن قال لمحدثه فى صوت هادئ : « لا تنزعجوا . . اثبتوا فى مواقعكم أربعاً وعشرين ساعة أخرى حتى أدبر الموقف هنا فى جبهتى وعندئذ ألحق بكم وأضع كل شىء فى نصابه ! »

وفى الساعة الثامنة مساء كان مصطفى كمال قد عاد إلى « شونك بير

فخرج بنفسه للاستطلاع . وكاد القناصة يصيبونه مرتين . . فرجاه رجاله أن يأخذ حذره ، لكنه اقترب من خطوط الأعداء كي يدرس طبيعة الأرض بعناية ، ثم عاد على قدميه دون أن يغطى موقعه بأى وسيلة من وسائل الحماية ! . . وانتهى من جولته الاستطلاعية هذه إلى أنه ما لم يجبر النيوزيلنديين على التخلى عن قمة (شونك بير) فلا مفر من الهزيمة المحققة ! . . وعلى هذا أمضى تلك الليلة كلها يفكر ويدبر الخطط . . وكان (فون ساندرز) قد أرسل لنجدته الفرقة الثامنة من تركيا الآسيوية ، بينما عزز هو الفرقة التاسعة عشرة بما يعادل ثلاثة فيالق . وحشد الجنود فى الخنادق بقدر ما استطاع ، واستثار شجاعتهم بأن سار بينهم بنفسه يضاحكهم ويقوى عزائمهم قائلا لهم : « لا تتعجلوا المعركة يا أبنائى ، فسوف نختار لها اللحظة المناسبة بالضبط ، وعندئذ سأخرج أنا فى مقدمتكم . وحين ترونني أرفع يدى ، فأعدوا حرابكم فى أيديكم واتبعونى ! » وبهذه الوسائل وغيرها « حقن » الجنود الأتراك البسطاء بقوة معنوية هائلة ، فتأهب الجميع لأن يتبعوه ولو إلى الجحيم ! أما فى الجبهة المقابلة فقد أخذ مكانالنيوزيلنديين المنهوكى القوى فيلقان جديدان كاملا العدة . . !

وقبل الفجر أطلقت المدافع التركية نيرانها على مواقع الأعداء ، ورد عليها هؤلاء بالمثل ، بينما خرج مصطفى كمال من الخنادق فى جرأة منقطعة النظير ، ومن خلفه الجنود الأتراك الشجعان . . وأصابت إحدى الرصاصات ساعته ، لكنه لم يصب بأى سوء . ولو جرح ساعتئذ لأبى الجنود التحرك ، وألغى الهجوم من أساسه ! . . وحينما توقفت نيران المدفعية بعد قليل وقف مصطفى كمال فى العراء وقفة القائد المسيطر الواثق من النصر ، ثم رفع يده صائحاً بجنوده « إلى الأمام ! » . وسرعان ما اندفع

مشاة الأتراك من خنادقهم وراءه .. موجة بعد موجة وكأنهم الوحوش المزمجرة ، وبأيديهم الحراب مشرعة .. ثم هجموا على الفرقتين الإنجليزيتين فأبادوهما ، وواصلوا التقدم نحو السفح المواجه للبحر .. وعندئذ أطلق الأسطول البريطاني نيرانه عليهم فأحدث فى جموعهم الزاخرة ثغرات كبيرة اضطرتهم إلى التراجع وحفر الخنادق للإحتماء فيها.. لكنهم كانوا قد طهروا قمة (شونك بير) من الأعداء ، وأنقذوا الموقف بتلك المعجزة التى صنعها مصطفى كمال ، الذى منح رتبة الباشوية على أثر ذلك تقديراً لبراعته وشجاعته ، ولما أحرز من فوز عظيم !

وفى خلال الأشهر الثلاثة التالية استمر مصطفى كمال يشرف على الجبهة كلها . وكان القتال قد اقتصر على حرب الخنادق ! وقد هجم الإنجليز من « سفلا » مرتين ، فاحتدم القتال فى كل مرة وكانت الخسائر جسيمة للفريقين ، واضطر مصطفى كمال إلى أن يلقى بكل قواته الاحتياطية فى المعركة ! واستطاع بشخصيته الباهرة وجرأته النادرة أن ينقذ شبه الجزيرة ، وأن ينقذ العاصمة نفسها تبعاً لذلك من خطر لا شك فيه !

وفى ديسمبر سنة ١٩١٥ يئس الإنجليز من الانتصار ، فكفوا عن النضال وانسحبوا من البلاد .. فخفضت الجيوش التركية إلى قوة رمزية صغيرة عهد إليها بأعمال « الداوريات » .. وعاد مصطفى كمال – باشا – إلى القسطنطينية ، مع العائدين إليها من ميادين القتال !

منقذ الدردنيل والعاصمة !

عاد مصطفى كمال إلى القسطنطينية مفعم النفس شعوراً بمكانته . لقد صار الآن شخصاً مرموقاً يحسب حسابه . . وأطلقت عليه الصحف لقب « منقذ الدردنيل والعاصمة » . وأمسى يتمتع بشهرة عسكرية كبيرة ، بحيث لم يعد فى إمكان أحد تجاهله كما كان الشأن فى الماضى . فقرر أن يرغم الساسة على الإصغاء إليه ، وأن يفرض آراءه على أولئك « الجرذان » كما كان يسميهم ، ليساهم فى حكم البلاد !

لقد كان – كالعهد به من قبل – يحتقر أولئك الساسة الأتراك الجامدين ، ولكن السياسة كانت تجذبه إليها ! . . وطالما جاهر فى كل مناسبة بأن الأتراك يجب أن يستقلوا بشؤون بلادهم ، وإذا لم يكن بد من استخدام الألمان فيجب ألا يكونوا أكثر من موظفين مرؤوسين ، لا يقومون بغير ما يأمرهم به رؤساؤهم الأتراك .

كذلك كان مصطفى كمال لا يفتأ يندد بغرور أنور ونقص كفاءته ، ويصفه بأنه « خطر قومى » يجب إبعاده حتى لا يدمر البلاد ويلقى بها إلى التهلكة ! وكان الرأى العام ينحاز إلى آرائه ، فقد أخذ التحمس للحرب تخمد جذوته ، وشعر الألمان بتضاؤل ميل الأتراك إليهم ، وتكررت حوادث الشجار بين الأفراد من هؤلاء وأولئك ، نتيجة لنفور الأتراك من أن يكونوا أداة لا غير فى أيدى الألمان ، وسيادة الاعتقاد فى كل أنحاء تركيا بأنها هى الخاسرة على أى حال ، أياً كان المنتصر فى الحرب العالمية ! . . وبلغ من تفاقم الشعور العدائى نحو الألمان أن وضع الأتراك خطة جهنمية لاختطاف جميع الضباط الألمان وإبعادهم من البلاد !

وكان أنور – بمساعدة الألمان – قد جعل من نفسه دكتاتوراً ، فغدا مكروهاً من الرأى العام ، بل مكروها من أنصاره أنفسهم وفى مقدمتهم أعضاء اللجنة العليا لجماعة « الاتحاد والترقى » . . فدبرت ضده عدة مؤامرات . وصار دائم الخوف من الاغتيال ، لا يخرج إلا فى حراسة قوية . منطلقاً بسيارته فى سرعة جنونية . . !

ولم يحاول مصطفى كمال إخفاء آرائه . ولما كان صديقه جمال غائباً وقتئذ فى سوريا فقد رأى أن يذهب إلى مقابلة طلعت باشا رئيس الوزارة . فاستقبله هذا مرحباً ، وأصغى إليه بانتباه وهو يشرح له مؤهلاته لتقلد منصب وزير الحربية ، ثم تظاهر بموافقته على طول الخط ، وما كاد يخرج من عنده حتى ضحك ساخراً منه متهماً إياه بالغرور ! . . ونقل أحدهم إلى مصطفى كمال أن طلعت كان يسخر منه ، فجرح ذلك كبرياءه وأغضبه إلى حد أنه لم يصفح عن طلعت بعد ذلك قط !

ورأى مصطفى كمال أن يجرب حظه مرة أخرى فتوجه إلى وزارة الخارجية حيث استطاع صديقه خليل وكيلها الذى كان معه فى صوفيا أن يهيئ له مقابلة مع وزير الخارجية « نسيم باشا » . وكان هذا معروفاً بكراهيته للألمان مثله . لكنه كان مشغولا ببعض المهام حين وصل مصطفى إلى دار الوزارة ، فتركه ينتظر بعض الوقت فى الحجرة الخارجية . . فلما أرسل فى استدعائه كان مصطفى فى حالة غضب وانفعال ، فقال للوزير فى فظاظة : « إن التقارير المتفائلة التى وضعتها قيادة أركان الحرب ليست صحيحة ، فالأحوال سيئة جداً ، ولا شك فى أن أنور سياسى عاجز مجرد من الكفاية ، ولا شك أيضاً فى أنك تعرف هذه الحقائق ، وعلى هذا تعتبر مشتركاً فى المسئولية عن الصدام المقبل الذى تبحث تركيا به

عن حتفها بظلفها ! » .

وساءت الوزير لهجة مصطفى كمال ، فأجابه بمثلها قائلا : « لقد أخطأت المرجع المختص بهذه الأمور إذ جئت إلى هنا للتحدث فى شأنها ، وكان ينبغى أن تتوجه بهذه الآراء إلى وزارة الحربية ! »

فقال له مصطفى كمال : « إن الإلتجاء إلى وزارة الحربية معناه الالتجاء إلى الألمان ، فهم يسيطرون على كل شىء ، وقد حاولوا أن يتخلصوا منى ! » . . ثم غادر مصطفى مكتب الوزير حانقاً .

وهكذا وجد نفسه ، كما كان فى الماضى ، غير مرغوب فيه من الساسة والمسئولين . والواقع أن تعدد مواهبه جعله يبدو غير صالح لمنصب معين بذاته . . وكان إلى ذلك شامخاً متعالياً ، لا يريد أن يختلط بأحد بل ينتظر من الجميع أن يأتوا إليه ويوافقوه فى الرأى ويطيعوه طاعة مطلقة ! . . . ولم يكن يرى أن يلتقى بأحد فى منتصف الطريق . . !

وإذ بلغ به الغيظ والسخط غايتهما ، صار يجاهر بآرائه هذه فى كل مناسبة .

وكانت العاصمة تعج وقتئذ بالمؤامرات التى يدبرها صغار القوم ، فبدأ اسم مصطفى كمال يقترن بأسمائهم ، باعتباره خصماً لأنور وللألمان ، ولو أنه كان فى الواقع أكثر حـذراً وذكاء من أن يشترك فى تلك المؤامرات. . !

وكادت إحدى هذه المؤامرات أن تبلغ غايتها ، فقد دبر ثرثار حقود يدعى « يعقوب جمال » خطة لقتل أنور ، انتقاماً لثأر شخصى ، وتحدث عن تنصيب مصطفى كمال مكانه ! . . وكانت مؤامرة « رخيصة » متهورة ، نسج خيوطها نفر من ضباط الصف الثاني ، فلما وصل خبرها

إلى أنور تأني وتريث حتى حصل على الأدلة الكافية لإدانة المتآمرين ، وعندئذ شـنق يعقوب وزملاءه ، إنذاراً وعبرة للآخرين ، وعلى الأخص لمصطفى كمال . . وما كان ليحجم عن شنق مصطفى كمال بدوره لو استطاع سبيلا إلى ذلك ، ولكن لم يكن هنـاك أى دليـل على اشتراكه فى المؤامرة . . !

على أن أنور خرج من الحادث وفى ذهنه أن مصطفى كمال مشاغب يحسن إبعاده عن العاصمة . . ومن ثم أسند إليه قيادة الجيش السادس عشر المرابط فى القوقاز . . ثم نقله إلى قيادة الجيش الثاني فى « ديار بكر » . . مبالغة فى ذلك الإبعاد المطلوب !

كارثة جيش القوقاز

كان يمتد من العاصمة خط حديدى مفرد ينتهى عند ملتقى الخطوط فى « أنقرة » ، على بعد ثلاثمائة كيلو متر منها . . ومن هناك ركب مصطفى كمال جواداً ، ثم عربة ، فسيارة ، قطع بها جميعاً مسافة الكيلومترات الستمائة الباقية التى تفصله عن جبهة القوقاز .

وكانت الرحلة طويلة شاقة ، والطرقات غير ممهدة ، لم تتناولها يد الإصلاح منذ سنوات ! . . ولم تكن أنقرة ذاتها إلا بلدة ريفية صغيرة تقع فى بقعة مرتفعة داخل البلاد . . ووراءها إلى الشرق إقليم جبلى صخرى كبير ، موحش قاحل كئيب ، يكاد يكون غير مأهول بالسكان إلا فى بضعة أودية خصيبة تتخلله ، طقسها شديد القيظ فى الصيف ، قارس البرد فى الشتاء . .

وقد وجد مصطفى كمال القوات التركية فى القوقاز فى حالة فوضى تامة . فإن أنور كان قد أعد فى العام السابق خطة – من خططه الضخمة – أراد بها أن يلتف جيشه حول جناح الجيوش الروسية ، وهناك يضرب خط تراجعهم ويضطرهم إلى العودة من حيث أتوا عبر القوقاز . وكان قد حشد لهذا الغرض جيشاً جراراً ، وجاء بنفسه خصيصاً من العاصمة كى يتولى قيادته ! . . والواقع أن خطته كانت من الناحية النظرية رائعة ، لكنه كان قد تجاهل التفصيلات العملية العديدة مثل عاملى المسافة والطقس ، فكانت النتيجة أن دهمت القوات التركية ، فى الممرات الجبلية ، أعاصير يناير الرهيبة . . فلم يعد من المائة ألف مقاتل الذين ذهبوا إلى هناك سوى اثنى عشر ألفاً من الأتراك تجمدوا من البرد بعد أن التصقوا ببعضهم بعضاً التماساً للدفء ! . وهؤلاء هم جنود فرق الأناضول ، زهرة الجيش التركى ! ومنذ ذلك اليوم أهملت جبهة القوقاز ، نظراً إلى شدة احتياج جبهة الدردنيل إلى كل رجل وكل سلاح . . فتقدم الروس ببطء ولكن بانتظام ، وأقاموا أثناء تقدمهم القناطر وأنشأوا الطرق ومدوا الخطوط الحديدية ، موطدين أقدامهم فى كل منطقة يظفرون بها . . وكانوا قد ظفروا بمدن : فان ، وبيطليس ، وموش ، ثم قلعة أرضروم الشهيرة . على أن مجهودهم الرئيسى كان مركزاً مع ذلك فى جبهتهم الألمانية . . وكانوا حين وصل مصطفى كمال يعدون هجوماً هائلاً للتوغل فى قلب تركيا . . وقد جاء قائدهم العام « الغراندوق نيقولا » ليتفقد بنفسه الحالة العامة فى الجبهة ! ولمس مصطفى كمال ضعف قوة المقاومة عند قواته التركية ، إذ كان ينقصها كل شىء : الطعام والذخائر والأسلحة ، وكانت ثياب الجنود قد غدت أسمالا مهلهلة ، كما كانت كل مواد تموينهم تختلس وتنهب . فمتعهدو الجيش

يرشون الضباط الذين بيدهم الأمر والنهى ويشاركونهم أرباح الصفقات ، فأثرى الفريقان من هذه السرقات على حساب تموين الجيش ! . وكذلك كانت الخدمة الطبية على أسوأ حال . . فالجنود يموتون بالألوف تأثراً بالدوسنطاريا والتيفوس وغيرهما من الأمراض ، فضلا عن موت الكثيرين منهم تأثراً بالبرد والجوع !

كل ذلك كان فى نظر مصطفى كمال دليلاً جديداً آخر على العجز الخطير فى كفاية أنور ، منافسه الدعى الأخرق . وقد زاد فى حنقه عليه أنه ألقى عليه عبء تطهير هذه التركة المثقلة ! ومع ذلك فإنه عكف من فوره على العمل بهمته ونشاطه الخارقين – إذ لم يكن هناك متسع من الوقت ! – وقدر ، بعد دراسة الأحوال والاحتمالات ، أن الروس سوف يهجمون فى أواخر ربيع سنة ١٩١٧ ، وأنه ما لم ينقذ ما يمكن إنقاذه فوراً ويبادر إلى اتخاذ إجراءات حاسمة ، فإنهم سوف يخترقون الخطوط التركية دون صعوبة !

ومن ثم أبرق فى الحال إلى وزارة الحرب فى العاصمة يصف الحالة العامة ويبين خطر الاستمرار فى سياسة إهمال هذه الجبهة ، ثم أردف ذلك بطلب الإسراع فى نجدته بالإمدادات اللازمة والذخيرة والدواء والرجال . . . فلما لم يتلق رداً أرسل إلى أنور رأساً فى وزارة الحرب برقية تنطوى صيغتها على التحدى والفظاظة . . لكنه لم يتلق رداً هذه المرة أيضاً ! . . لقد كانت جبهة القوقاز بعيدة عن أنظار القوم فى العاصمة ، وكان أنور ورجال هيئة أركان الحرب مشغولين بخططهم وتدابيرهم فى شأن أمور أخرى ! وازداد مصطفى كمال حنقاً وسخطاً على أنور ومعاونيه من الألمان ، لكنه برغم ذلك استمر فى العمل جهد طاقته لتنظيم قواته واستخدام القليل من

العتاد والأدوات التي تحت يده أحسن استخدام . . وبدأ بحملة تطهير شملت اللصوص من الضباط والموردين ، فأنزل بهم عقوبات صارمة ليس فيها شيء من الرحمة أو اللين ، وحينما جرؤ بعضهم – ممن أخطأوا فهم أخلاقه – على عرض الرشوة عليه كي يشاركهم فى أعمال السلب والنهب كان جوابه أن شنقهم وأمر بجلد كل من تثبت عليه تهمة مخلة بالنزاهة . . كما كان صارماً فى معاملته للكسالى والعاجزين . . وهكذا نجح إلى حد يثير الإعجاب فى إعادة تنظيم فرق الجيش التي تحت قيادته . وإدارات التموين والخدمات الطبية ، وعمل بغير توقف على بث روح جديدة فى صفوف المحاربين !

بداية ظهور « عصمت إينونو »

وكان يعاونه ضابط ذكى نشط هو الأميرالاى عصمت رئيس أركان حربه ، وينوب عنه فى القيادة عند الاقتضاء قائد يدعى الجنرال كاظم قرة بكير . وكان عصمت ضابطاً كفؤا مجرباً ، صغير الجسم شاحب اللون لكنه قوى البنية أنيق المظهر ، ذو رأس صغير وأنف كبير مقوس ، وكان هادئاً صموتاً ، به شيء من الصمم فى سمعه ، متزن الشخصية ، صبوراً مثابراً إلى أقصى حد ، خبيراً بالأعمال المكتبية وتصريف الأمور اليومية « الروتين » وتنفيذ الأوامر وغير ذلك ، مما جعله موضع تقدير مصطفى كمال .

أما كاظم قره بكير فكان ضخم الجسم ، بطئ العقل ، لكنه كان مخلصاً مجتهداً كفؤاً محبوباً من مرؤوسيه . وكان مثل عصمت نزيهاً أميناً إلى حد التزمت ، وقد قبل كلاهما مصطفى كمال رئيساً له وتعاونا معه تعاوناً رائعاً . . غير أنه برغم جميع الجهود والمحاولات التي بذلها هو ومعاونوه ،

ما لبث أن أدرك عند حلول الربيع أن هجوم الروس المنتظر لن يجد أمامه مقاومة مجدية ! ومرة أخرى أسعف الحظ مصطفى كمال . . فقد تغيرت الأحوال ؛ فاختمرت الثورة فى روسيا ، وأفسد التمرد والتذمر قواتها الحربية ، فساء النظام فيها واضطربت الأمور . . فبدأ الجنود يفرون من ثكناتهم وشاعت بينهم روح الهزيمة ، فاستدعى الغراندوق نيقولا إلى موسكو وأجل هجوم الربيع . . إلى أجل غير مسمى !

وفى خلال أشهر الربيع والصيف – من عام ١٩١٧ – فعل الانحلال فعله فى الجيوش الروسية ، فانهارت وتداعت وصارت كهشيم تذروه الرياح .

وهنا انتهز مصطفى كمال الفرصة فهجم بقواته ، لكنه لم يستطع التقدم إلا فى بطء ، نظراً إلى ما كانت عليه هذه القوات من ضعف وافتقار إلى العتاد . . فضلا عما أبدته قوات أرمينيا وجورجيا المحلية التى نظمها الروس من مقاومة شديدة للدفاع عن أرضها الخاصة ، وأخيراً . . تم له احتلال : « فان . . و « بيطليس » . . و « موش » . . ثم واصل تقدمه نحو باطوم ! وزال خطر الروس فى تلك الجبهة ، فقد تبددت جيوشهم واكتسحت . . ولكن الجبهة الجنوبية برز فيها خطر جديد ، فقد راح الإنجليز يعدون العدة لشن هجوم من طريق سوريا ، وجاءت الأوامر العاجلة من العاصمة – القسطنطينية – بندب مصطفى كمال لتولى القيادة فى الجبهة السورية ، وبإرسال كل جندى وكل سلاح يمكن الاستغناء عنه إلى تلك الجبهة . . فعهد مصطفى كمال إلى نائبه كاظم فى أن يخلفه فى إتمام تطهير جبهة القوقاز ، وهرع هو إلى العاصمة ، ومنها إلى سوريا .

كان الانجليز قد غزوا – بجيش من الهند – بغداد عاصمة العراق ،

واستأنفوا زحفهم نحو الموصل . وفى الوقت نفسه أخذوا يعدون جيشاً آخر فى مصر كى يهاجموا به فلسطين وسوريا . . فكان لابد من وقف تقدمهم واسترداد بغداد من أيديهم !

وأرسل الألمان – بناء على طلب عاجل من أنور – الجنرال (فون فالكنهاين) لينظم قوات جديدة أطلقوا عليها فيما بعد اسم (الصاعقة) . وجعلوا مقر قيادتها العليا بلدة (حلب) ، على أن تدعم بعدد كبير من الضباط والجنود الألمان ، وأرسل مصطفى كمال إلى حيث تولى قيادة الجيش السابع ، ولكنه لم يقنع بذلك المنصب واحتج بقوة على السيطرة الألمانية !

لقد عرف من قبل كيف يتعاون مع رئيسه الألمانى السابق (ليمان فون ساندرز) ، ولكنه لم يستطع أن يهضم رئيسه الجديد (فالكنهاين) . كما عجز هذا عن فهم شخصية مصطفى كمال القائد الكفء العنيد المعتد برأيه ، فلما فشل فى استمالته إليه أقدم على كبرى حماقاته فأرسل إلى مصطفى كمال « هدية » هى صندوق من العملة الذهبية . . فأرسل إليه مصطفى كمال ، رداً على ذلك ، إيصالاً يثبت تسلمه الذهب ، ثم أعاد إليه ذهبه فيما بعد واسترد إيصاله . . !

وفى أول اجتماع لهيئة القيادة العليا فى « حلب » التقى أنور وجمال – وكانا يتوليان قيادة الجيش الرابع – بمصطفى كمال وفالكنهاين وعدد من كبار القواد الألمان . . وانتقد مصطفى كمال بشدة كل خطط فالكنهاين ، وبخاصة خطته التى كان معتزاً بها وهدف بها إلى مهاجمة بغداد براً ومهاجمة قناة السويس جواً ! . . فقد كان مصطفى كمال مقتنعاً بأن مصير الهجوم إلى الفشل الذريع . . لكن الألمان لم يلقوا بالاً إلى اعتراضاته وانتقاداته ، ولم يؤيده فى رأيه هذا سوى جمال ، الذى كان يحاكيه فى نفوره من الألمان !

ثم توالت أسباب الخلاف بين الفريقين وازدادت حدة ، حتى لم يجد مصطفى كمال بداً من تقديم استقالته من القيادة الموكولة إليه . وحاول أنور وفالكنهاين إقناعه بسحب استقالته ، لكنه رفض ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فعين خلفه وأصدر أمراً بذلك إلى الجيش !

وأراد فالكنهاين أن يحقق معه بتهمة العصيان والتمرد ، لكن أنور حال دون ذلك وأمر بعودته إلى مقر قيادته القديمة فى ديار بكر . فلما رفض مصطفى هذا الحل رأى أنور – حفاظاً على ماء وجهه وعلى النظام – منحه إجازة مرضية إلى أجل غير مسمى !

وكانت نقود مصطفى قد نفدت . فأعطاه جمال مبلغاً مقابل ارتهان جياده ، وإذ ذاك استقل مصطفى كمال القطار إلى القسطنطينية ، وقد اقترب الخلاف بينه وبين أنور من مرحلته الحاسمة ، إذ أدرك هو أن موقفه سليم من كل شائبة . بينما أنور لم يكن واثقاً من قوة مركزه ، وكان الشعور العام ضد الألمان وضده يزداد ، وفى الوقت نفسه كان مصطفى كمال قد صار ضابطاً كبيراً ذا شأن وصيت ذائع . بحيث لو اتخذ أنور أى إجراء لاتهامه بالعصيان بسبب رفضه الخدمة تحت سيطرة الألمان لأثار عمله هذا عاصفة شعبية ، وخلق من مصطفى كمال بطلاً وطنياً . . !

وفى العاصمة عاش مصطفى كمال مع أمه وأخته فى المنزل رقم ٧٦ ، بشارع « أكارتلر » فى ضاحية « باش قطاش » ، القائمة فوق التلال الواقعة خلف المدينة ، لكنه – كعادته – وجد الحياة العائلية ثقيلة لا تحتمل . كما كانت القيود التى لا بد منها تثيره وتسخطه ، فهو يكره أن يرى النساء ملتفات حوله دائماً ، يثرثرن وينصحن وينتقدن ، بل ويعنين بأمره ويتدخلن فى شؤونه . . فى جميع الشؤون ، حتى فى أدق دقائق حياته وتفصيلاتها ،



مسجد (أيا صوفيا) باستانبول ، تحفة الفن البيزنطى ومن أروع نماذجه أنشئ في القرن السادس الميلادى ليكون كاتدرائية القديسة صوفيا ، حتى غزا الأتراك المدينة عام ١٤٥٣ فحولوه إلى مسجد ، وفى عام ١٩٣٥ حوله أتاتورك إلى متحف . وهو الذى قال فيه شاعرنا شوقى بيته الخالد :

كنيسةٌ صارت إلى مسجدِ   هدية السّيدِ للسّيدِ

كان يبغى أن يكون حرًّا من كل قيد !

ومن ثم استأجر لنفسه حجرة فى فندق « بيرا بالاس » المطل على القرن الذهبى وإستامبول . . وهناك عاش منفرداً ساخطاً منطوياً على نفسه . وإن لم يدع فرصة تمر دون أن يجاهر برأيه فى وجوب مهاجمة أنور والسيطرة الألمانية !

وبدأ بعض الضباط والساسة الذين كانوا يعارضون أنور يلتفون حول مصطفى كمال . . حتى غدا من الخطر إبقاء هذا القائد الثائر فى العاصمة ، عاطلاً عن العمل ! . . فلما تم الاتفاق فى ربيع سنة ١٩١٨ على أن يقوم الأمير وحيد الدين ولى العهد بزيارة رسمية لألمانيا . . ألحق أنور مصطفى كمال بحاشية الأمير المرافقة له فى الزيارة . وذلك للتخلص مؤقتاً من وجوده فى العاصمة . . فضلاً عن إتاحة الفرصة له كى يرى آلة الحرب الألمانية وهى تعمل ، لعله يقتنع بقوة ألمانيا وأرجحية انتصارها فى الحرب !

وقبل مصطفى كمال المهمة التى أسندت إليه كى ينجو من التعطل الذى عاناه طيلة ثلاثة أشهر ، وكان بقاؤه بلا عمل أثقل ألوان العذاب على نفسه ، سيما وأنه لم يرِ فى الأفق بوادر « تغيير » قريب ، برغم امتلاء العاصمة – كالعادة – بالمؤامرات والدسائس . . ذلك أن القائمين بها نكرات ضئيلو النفوذ والشخصية ، ومن رجال الطبقة الثانية ، ومن ثم حرص على أن ينأى بنفسه عنهم . . وكان أنور ، بفضل سيطرة آلة الحرب ، مستولياً على مقاليد الأمور بقوة وحزم !

ومن جهة أخرى راق لمصطفى كمال أن يرى الجبهة الألمانية ويلتقى بكبار ضباط القيادة العليا هناك . وقد ندم فى البداية على قبوله السفر . . وقبيل حلول موعده بيومين توجه إلى قصر ولى العهد كى يقدم إليه رسمياً ، وهناك

جلس فى انتظار الإذن بالمقابلة على مقعد غير مريح فى حجرة مزركشة الجدران بأفخر أنواع السجاد ، بينما وقف رجال القصر حوله فى أرديتهم الرسمية يتهامسون !

ودخل وحيد الدين . . وكان رجلاً هزيلاً كثيف شعر الجسم ، ذا رقبة طويلة ووجه يبدو عليه الضعف ، يرتدى مجموعة من ثياب الصباح لا تلائم جسمه . . وجلس على أريكة مزدحمة بالوسائد والرياش ، وبعد أن تقبل تحيات رجال حاشيته أغمض عينيه ثم فتحهما مرتين بعد مجهود ، وأبدى ملاحظتين تافهتين ، ثم عاد يغالب النعاس . . فأدرك مصطفى كمال أنه أبله ! وفى موعد السفر وصل الأمير إلى المحطة فى ثيابه المدنية ، ومر يستعرض قرّه قول الشرف وهو يرفع يديه إلى جبهته بالتحية على الطريقة الشرقية ، فلم تهضم عقلية مصطفى كمال العسكرية هذه الحركة واحتج عليها لدى مدير إدارة المراسم « البروتوكول » ، فأسكته هذا طالباً منه ألا يتدخل فيما لا يعنيه ! . . ثم تبين أن رتبته العسكرية ومرتبه قد خفضا ، وأن المكان الذى خصص له يقع فى العربة الأخيرة من القطار ، مع أمتعة ومهمات بقية الركاب ، فلما شكا من ذلك لم يأبه لشكواه أحد . . وعومل كضابط صغير ، وأثار غضبه أن يحف به كل هؤلاء القوم من حثالة موظفى القصر ، بمسلكهم المنافى للياقة وتملقهم لمن هم أكبر منهم ، وفظاظتهم مع من يصغرونهم فى المقام ! . . وحين وقف يرقب الأمير ، بوجهه النحيل وعينيه الغبيتين ، مطلاً من إحدى النوافذ يتقبل فى إعياء هتافات الجماهير عند بدء تحرك القطار ، أدركه الندم على حماقته التى جعلته يقبل مثل هذه المهمة . . فقد آلمه — وهو التركى الفخور بتركيته — أن يرى بلاده تمثل فى أوربا بواسطة بعثة يرأسها مثل هذا الأمير العاجز

الأبله ! . . على أن القطار لم يكد يعبر الحدود التركية حتى جاءه ساع يحمل إليه أمراً بأن يذهب ليقابل ولى العهد فى عربته ! فمضى مصطفى كمال عبر الممر الطويل ثائر النفس منفعلاً ، وحين دخل العربة السلطانية أذهله أن يجد الأبله الغبى الذى رآه من قبل قد اختفى . وحل مكانه رجل يقظ موفور الانتباه ينظر إليه بعينين ذكيتين ثاقبتين !

ولى العهد الماكر !

كان وحيد الدين قد عاش ستين عاماً فى القصر تحت حكم السلطان عبد الحميد ، الذى كان قد أعجب به ودربه أحسن تدريب ، لكنه لم يكف عن مراقبته طيلة الوقت بواسطة عيونه وأرصاده ، فعاش الأمير كل ذلك الزمن فى خطر دائم . كان يكفى أن تفلت منه هفوة واحدة أو إشارة تنم عن طموحه أو اهتمامه بالسياسة أو العالم الخارجى ، فسرعان ما يختفى من الوجود ، أو يزج به فى غياهب السجون ! . . ومن ثم عمد إلى اتخاذ ذلك المظهر التنكرى الخادع ، مظهر الأبله الواقع تحت تأثير مخدر أو منوم ! . . بينما كان فى الواقع يخفى وراء هذا المظهر فكراً ثاقباً وعقلاً ذكياً . . !

وكان مطمعه وهدفه أن يصير سلطاناً . . بينما أراد أنور وطلعت وبقية أعضاء اللجنة العليا أن يتجاوزوه إلى ابن أخيه عبد المجيد ، وعلم هو بذلك فكان من الحذر والمكر معهما ومع الجواسيس الذين أحاطاه بهم مثلما كان مع السلطان ! . . ومن ثم حرص فى العاصمة على أن يعامل مصطفى كمال بالإهمال والازدراء اللذين يقتضيهما الحذر . . أما الآن فها هو ذا يحييه فى حرارة ويعتذر إليه بأنه لم يستطع التبسط معه فى الفرصة

السابقة . . ثم هنأه على نجاحه وانتصاراته كقائد حربى ، وبهذا الإطراء المستحب أرضى غرور مصطفى بحيث أزال استياءه وأثلج صدره من فوره . . ! وسرعان ما صار الاثنان صديقين حميمين ، وغدا مصطفى خدن الأمير وأمين سره . وكان كلاهما يكره أنور وطلعت ، فأنفقا فترة الرحلة كلها فى أحاديث تسودها روح الثقة والتفاهم المتبادل !

ورأى مصطفى كمال فى ذلك فرصته المرتقبة . . فالسلطان الحالى رجل مريض ولا يمكن أن يعيش طويلاً . . ووحيد الدين ضعيف هزيل لن يعمر . . وهكذا يستطيع هو أن يرقى العرش بعد زمن وجيز ، فيغدو سلطاناً وقائداً عاماً فى الوقت ذاته ! . . وإذن فيجب أن يوطد نفوذه وتأثيره على وحيد الدين ، كى يصبح القوة المحركة لصاحب العرش المقبل ، ومن هذا الطريق يرتقى إلى القمة ويستأثر بالسلطة التى يريدها ! . . وأول شىء ينبغى أن يفعله هو أن يقنع وحيد الدين بأن ألمانيا لا تستطيع أن تكسب الحرب ، وأن التحالف معها حماقة جنونية ، وأن أنور ومن يظاهره من الألمان يجب أن ينحوا عن الحكم !

وبقى خلال رحلته فى ركاب ولى العهد بألمانيا لا يكف عن إبداء انتقاده لكل ما لم يعجبه فى حرية تامة . . واستقبلهما الفيلد مارشال « هندنبرج » فى مقر القيادة الألمانية العليا ، وعرض أمامهما فى لهجة المتفائل تفصيلات الموقف فى جميع الجبهات — ومن بينها الجبهة السورية — فلما خرجا من عنده صارح مصطفى كمال ولى العهد بأن أكثر ما قاله القائد الألمانى وهم وخداع ، وبأنه هو نفسه يعرف من حقائق الموقف فى الجبهة السورية ما ينقض كلام هندنبرج !

ولم يستطع مصطفى إخفاء كراهيته للألمان وزهوه البالغ بتركيته ، وإيمانه

بتركيا والأتراك .

وكلما اقتربت الجولة من نهايتها ازداد مصطفى كمال سعياً إلى هدفه . . وأخيراً سأل الأمير ذات يوم – وكان فى فندق « ادلون » ببرلين – أن يسمح له بأن يكون صريحاً معه . . فلما أذن له فى ذلك أردف قائلاً : « أريد أن أقترح شيئاً من شأنه – إذا وافقت عليه – أن يربط حياتي إلى حياتك » .

وعندئذ أومأ إليه ولى العهد كي يستطرد ، فقال : « أرى إن تطلب من الألمان أن يعهدوا إليك فى قيادة جيش من جيوش تركيا . . إن جميع الأمراء الألمان يقودون جيوشاً فكيف لا يقود ولى عهد تركيا جيشاً من جيوشها ؟ وإنها لإهانة كبرى أن أنور لم يقترح ذلك من قبل . . ومتى تم ذلك فإنه يسعدني أن تجعلنى سموك نائباً عنك فى القيادة ! » فسأله وحيد الدين : « وأى جيش تقترحه ؟ » .

وإذ ذاك أجابه مصطفى كمال : « الجيش الخامس » ، وكان يعلم أن هذا الجيش يقرر مصير العاصمة والمنطقة المحيطة بها ، وسوف يكون العامل الحاسم فى أية أزمة سياسية !

فقال الأمير : « ولكنهم سيرفضون طلبى ! » .

فقال له : « لا بأس ! . . أظهر لهم أنهم بإزاء شخصية يحسب حسابها ، وأنهم لا يستطيعون تجاهل سموك ! » .

فقال الأمير : « حسناً ، سوف نتدبر الأمر ، عند عودتنا إلى العاصمة ! » .

السلطان الجديد

بدأ مصطفى كمال خلال العودة من ألمانيا يرسم خطط المستقبل ، وأصغى إليه الأمير وحيد الدين فى اهتمام . . لكنهما لم يكادا يبلغان العاصمة حتى سقط مصطفى فريسة لمرض شديد ، إذ كان أثناء مقامه فى صوفيا قد أصيب بمرض خطير أهمل علاجه فلم يشف منه تماماً ، ثم أرهق جسمه وعقله فى خدماته العسكرية ، كما كان فى حياته الخاصة يفرط فى السهر ويبدد صحته ، فكانت النتيجة أن أثر الداء فى كليتيه ، واضطر إلى ملازمة الفراش شهراً كاملاً كان خلاله فريسة لآلام مروعة ، ثم أشار عليه الأطباء بالاستشفاء فى فينا وكارلسباد !

وكانت تصحب الداء نوبات انقباض وكآبة انحدرت به إلى مهاوى اليأس وأفقدته النشاط والمبالاة بأى شىء ، ومن هنا تلقى فى كثير من الفتور نبأ موت السلطان فى شهر يوليو وتولى وحيد الدين عرش تركيا والخلافة بعده . ولم يغره هذا النبأ بالمسارعة إلى البلاد لاستئناف عمله فى العهد الجديد !

وتلقى من العاصمة رسائل عدة نصح له فيها كاتبوها بأن يعجل بالعودة ، وذكروا أن السلطان قد اتخذ عزت باشا عدو جماعة « الاتحاد والترقى » مستشاراً له ، وانتزع من أنور لقب « نائب الجنرال » . كما بدأ يكشر عن أنيابه لكل زعماء الإصلاح . . على أن مصطفى كمال – برغم كل هذا – لم يجد فى نفسه أية رغبة فى اتخاذ خطوة إيجابية ، واكتفى بأن أرسل إلى السلطان الجديد كتاب تهنئة !

لكن رسائل أصدقائه توالت عليه ، كما تلقى خطاباً من عزت باشا

ناشده فيه أن يعود للعاصمة التركية . وإزاء ذلك لم يسعه إلا أن يتحامل على نفسه ويعود للقسطنطينية برغم مرضه الشديد ، فوصل إليها محطماً مهدود القوى ، سيما وأنه أصيب فى الطريق بانفلونزا حادة ، وكانت الانفلونزا فى ذلك الوقت أشبه بطاعون مخيف يكتسح أوربا ويقتل الآف الضحايا كل يوم !

على أن مصطفى كمال كان بطبعه قوى الأعصاب إلى أقصى حد ، بل كان نشاطه العصبى هو القوة الكبرى المحركة له ، فلما وجد نفسه مرة أخرى فى القسطنطينية ، بين أعدائه وأصدقائه ، أمدته أعصابه بقوة أفادت صحته العامة ، وجددت آماله القديمة ، فقرر الشروع فى تنفيذ الخطط التى رسمها بالاتفاق مع السلطان الجديد الحاكم بأمره منذ كان معه فى ألمانيا وهو بعد ولى للعهد !

واستقبله السلطان الجديد بكل مظاهر الود والترحيب . . بل ذهب وحيد الدين إلى حد أن أشعل له سيجارته بيده ، وهى عادة لها فى التقاليد التركية دلالة الإكرام والتبجيل ، الأمر الذى شجع مصطفى كمال على أن يصارحه بآرائه فى حرية تامة . . فشرح له خطته القديمة مؤكداً أن الدمار الذى يهدد البلاد قد صار قاب قوسين أو أدنى ، وإذن ينبغى أن يتولى السلطان بنفسه السيطرة التامة على الجيش ، وأن يجرد أنور والقواد الألمان من كل سلطة ، ليكون الأمر له حقاً ولا يكون سلطاناً بالاسم فقط كما يريدون . ثم عاد مصطفى كمال فأكد استعداده لأن يضطلع بأعباء القيادة العامة ، وبذلك ينقذ تركيا من الهاوية التى ستتردى فيها . . نعم ، عليه أن يتحرر من التحالف الألماني ويعقد صلحاً منفرداً على الفور ، قبل أن تفوت الفرصة الملائمة . . ! وسأله وحيد الدين : « هل هناك ضباط

آخرون يشاطرونك هذا الرأى ؟ » ، فأجابه مصطفى : « هناك كثيرون يا مولاى ! » .

لكن وحيد الدين لم يعد بأى شيء . . وفى المقابلة التالية لم يتقدم مصطفى كمال نحو غايته خطوة تذكر ، لكنه فى المقابلة الثالثة عاد إلى شرح وجهة نظره . . وكان يتكلم بلهجة التوكيد ، فقد رأى أحلامه القديمة العريضة فى متناول يده ، وليس ينقصه إلا أن يفلح فى التأثير على السلطان فيقفز إلى القمة فوراً ويستأثر بالسلطة التى طالما تحلب لعابه عليها . . ويطرد أنور – منافسه اللعين – وكل عصبته . . ! واحتد مصطفى فى كلامه ، محاولاً إقناع مولاه ، وإذ بدأ السلطان يجيبه تناسى مصطفى آداب اللياقة واستمر فى كلامه حتى طغى صوته على صوت السلطان . . فلما فرغ من قوله انبرى له وحيد الدين قائلاً فى لهجة الحزم والتوكيد : « لقد نظمت كل أمورى بالاشتراك مع صاحبى السعادة أنور باشا وطلعت باشا » . ثم صرفه من حضرته على الفور !

والواقع أن أنور كان قد هدد السلطان ، فاستشار وحيد الدين صهره وصفيه فريد باشا ، الذى أقنعه بأنه ليس من القوة بحيث يتصدى لمحاربة أنور وجمعية الاتحاد والترقى ، وبأن مصطفى كمال ليس له أتباع يذكرون . . ومن ثم فالحيطة تقتضيه أن يحذر فلا يخاطر بعرشه . . !

وهكذا أهمل السلطان الجديد مصطفى كمال أيضاً ، فزاده ذلك غضباً وحنقـــاً على أنور ، وبدا أن قد فشلت جميع خطط القائد المقامر وتبددت كل أحلامه . . ولم يكن فى وسعه أن يفعل شيئاً عاجلاً لمقاومة تيار القوى المناوئة له ، فانطوى على نفسه وقرر أن ينتظر ما تأتى به الأيام . . !

أما أنور فرأى من جانبه أن يتجنب كل خطر جديد من جهة مصطفى

كمال ، فقرر إبعاده عن العاصمة بأسرع ما يمكن . . ولم يمض أسبوعان حتى دعا السلطان إليه مصطفى كمال ، ووجده هذا فى رفقة أفراد حاشيته وبعض القواد الألمان ! . . وبعد أن استقبله محتفياً مرحباً ، خاطبهم قائلاً : « هذا هو مصطفى كمال باشا ، وهو من أكفأ الضباط الذين أثق فيهم ! » . . ثم استدار إلى مصطفى وقال له : « لقد عينتك يا صاحب السعادة قائداً لجبهة سوريا ، فهى ذات أهمية قصوى . . وأنا أريدك أن تذهب إليها فى الحال ، وألا تدعها تقع فى أيدى العدو ! . وأنا أعلم أنك ستؤدى المهمة التى أعهد بها إليك على خير الوجوه وأقربها إلى الكمال ! » ثم صرفه من حضرته على أثر ذلك من غير أن يترك له أية فرصة للكلام !

وفيما كان مصطفى كمال يعبر الحجرة المجاورة لمكتب السلطان التقى وجهاً لوجه بغريمه أنور ! . . فأدرك أنه المحرك الذى أغرى السلطان باتخاذ هذا القرار . وبعد أن لبث برهة واقفاً ينظر إليه . . قال له : « مرحى يا أنور مرحى ! . إنى أهنئك ، لقد انتصرت ! . . إن المعلومات التى عندى تقرر أن جيش سوريا لا يوجد إلا على الورق ، فبإرسالك إياى إلى هناك قد انتقمت لنفسك أعظم انتقام ! » ووقف الخصمان متواجهين ! أنور بجسمه الضئيل النشط ، المغطى بالأوسمة والنياشين ووجهه الصبياني الضاحك المرح ، وشخصيته الظريفة الشجاعة . . ومصطفى كمال بقوامه الطويل ووجهه الأغبر الداكن ، وشخصيته المشاكسة النكدة ، وحاجبيه المقوسين فوق عينيه المليئتين بالغضب !

وفى تلك اللحظة قال قائد ألمانى كان فى ركن الحجرة بصوت مسموع : « لم يعد فى الوسع عمل شىء للجيوش التركية . . إنها قطيع ماشية لا تعرف غير الهرب . . ولست أحسد أى شخص يتولى قيادتها ! » .

وإذ ذاك اندفع مصطفى غاضباً نحو القائد الألمانى وقال له وقد اشتعلت عيناه غضباً وانتفض جسمه كله : « أنا أيضاً جندى ، وقد توليت القيادة فى هذا الجيش . إن الجندى التركى لا يهرب أبداً ، وهو لا يعرف معنى التراجع .. فإذا كنت قد رأيت ظهور الجنود الأتراك يا سيدى الجنرال فلا بد أنك رأيتها أثناء فرارك أنت ذاتك .. كيف تجرؤ أن توبخ الجندى التركى من أجل جبنك أنت ؟ ! » .

وجلجل صوته فى أركان الحجرة وسط الصمت المطبق .. وما لبث أن عبر الحجرة ، ماراً بأنور ، إلى خارج القصر !

الجوع والأوبئة تقتل الألوف !

وصل مصطفى كمال إلى مقر قيادته فى الجبهة السورية فى أواخر أغسطس ، فقدم نفسه إلى القائد العام الألمانى « ليمان فون ساندرز » – وكان فالكنهاين قد عاد إلى ألمانيا فى الربيع – فأبدى فون ساندرز سروره بالتعاون من جديد مع مصطفى كمال ، وقام معه بجولة فى أنحاء الجبهة كلها ، حيث كان الأتراك قد حفروا خنادقهم على طول الجبهة من الغرب إلى الشرق عبر فلسطين ، ابتداء من نقطة تقع على عشرة أميال إلى الشمال من يافا ، ثم بمحاذاة الشاطئ على طول السهل الفسيح ، فتلال « اليهودية » ، فنهر الأردن ، إلى سكة حديد الحجاز ، فالصحراء !

وتسلم مصطفى كمال قيادة الجيش « السابع » من الجنرال فوزى ، الذى نقل إلى القسطنطينية رئيساً لهيئة أركان الحرب .. وكان الجيش السابع يسيطر على القطاع الأوسط من خط الدفاع التركى ، ويتألف من فرقتين تعسكران فى الخنادق ، يرأس أحداهما الأميرالاى عصمت والثانية الأميرالاى

على فؤاد . وإلى اليمين كان الجيش الثامن والفرقة الثانية والعشرون بقيادة الأميرالاى رفعت يدافعان عن الخط الممتد إلى شاطئ البحر .. وإلى اليسار كان الجيش الرابع يحمى سكة حديد الحجاز !

ووجد مصطفى كمال حالة القوات التركية فى الجبهة أسوأ كثيراً من حالها فى القوقاز ! .. كان الجنود مهلهلى الثياب ، تعيث فى أجسادهم الحشرات والهوام . وينقصهم الطعام بل ينقصهم الماء فى كثير من الأحيان .. كانوا يموتون بالألوف من الدوسنطاريا والجوع تحت شمس الصحراء المحرقة المروعة ! .. وكانت روحهم المعنوية قد انهارت تماماً ، فلم تعد تبقيهم فى خنادقهم غير القوة ، ممثلة فى داوريات من حملة المدافع الرشاشة يطوفون بإنحاء الجبهة فى سيارات نقل كبيرة ولديهم أوامر بإطلاق النار على كل من يجدونه خارج الخنادق . ومع ذلك كان عدد الفارين يزيد على عدد الباقين !

وكان الإنجليز قد اتخذوا لأنفسهم خطًّا للقتال يقع فى مواجهة خط الأتراك .. وكان واضحاً أنهم يعدون العدة للقيام بهجوم كبير ، وأنهم متفوقون تفوقاً كبيراً فى العدد والعدة ، وفى الحماسة ، والروح المعنوية ، وهذا عدا تفوقهم فى التنظيم والتموين والخدمات الطبية .. وبما لديهم من المخازن الواسعة المملوءة بالذخيرة ، والمدفعية الوافرة ، والطائرات العديدة ، والمواصلات الميكانيكية المنتظمة ... بينما لم يكن عند الأتراك سوى ثماني طائرات ومدفعين مضادين للطائرات !

وكان العرب بزعامة الأمير فيصل بن الحسين ملك الحجاز ، قد انضموا إلى الإنجليز .. وأقبلوا يشنون الغارات المتوالية فى الصحراء — بقيادة صديقهم الإنجليزى « ت. ا. لورنس » — فيقطعون السكك الحديدية وخطوط التليفون والتلغراف وينسفون الكبارى ويأسرون القوافل ويهددون المواصلات ، ويخلقون

بين قوات الأتراك شعوراً بعدم الأمان .. ويثيرون الأهالي الوطنيين في سوريا كي يرفعوا راية التمرد والعصيان .. !

ومرة أخرى انهمك مصطفى كمال في عمله بحماسته المعهودة ، باذلاً أقصى جهده في سبيل تحويل الفوضى والاضطراب إلى شيء من النظام .. لكن مرض كليتيه لم يلبث أن عاوده بشدة فألجأه إلى أن يلازم فراشه في مركز قيادته في « نابلس » ، بلا حول ولا طول ، في الوقت الذي أجمعت فيه كل التقارير السرية التي وردت عليه في ذينك الأسبوعين الأولين من سبتمبر سنة ١٩١٨ على أن الإنجليز يتأهبون لشن هجومهم الحاسم !

وفي ١٧ سبتمبر أقبل على خطوط الجيش الثاني والعشرين أمباشي هندي هارب من الجيش الإنجليزي ، وأبلغ المسئولين أن الهجوم الكبير الذي يتأهب له الإنجليز سوف يحدث في يوم ١٩ .. فنقل رفعت النبأ إلى مصطفى كمال ، وأكد صحته القائدان عصمت وعلي فؤاد .. وكان رفعت قد قضى ثلاثة أعوام في محاربة الإنجليز في هذه الجبهة فعرف أساليبهم ، ثم أرسلت هذه المعلومات إلى القائد الألماني « ليمان فون ساندرز » بوصفه القائد العام ، لكنه لم يوافقهم في الرأي ، ورجح أن الأمباشي الهندي الذي جاء بالنبأ ليس إلا جاسوساً عليهم ، وأما الهجوم فسوف يأتي بمحاذاة السكة الحديدية إلى الشرق . ومن ثم نقل أحسن قواته إلى ذلك الاتجاه ! ..

وبقي مصطفى كمال عند ترجيحه صدق رواية الهندي ، وعلى هذا لم يجد بداً من أن يتحامل على نفسه ، ويترك الفراش برغم الحمى التي كان مصاباً بها ، وبرغم القيظ القاتل في تلك الآونة .. ثم استعان بعزيمته لمواجهة الموقف ، واتصل بجميع مرؤوسيه ليكونوا على استعداد ! وفي منتصف ليلة ١٩ سبتمبر اتصل عصمت بزملائه بالتليفون ، وأخبرهم أن العدو بدأ يمهد للهجوم بحملة

قوية من القنابل الثقيلة . ثم بدأ الهجوم العام عند الفجر ، فركز الإنجليز جهودهم فى جبهة الجيش الثامن ، واخترقوا الجناح الأيمن لخط دفاع الأتراك .. ثم تقدموا نحو الساحل ، واكتسحوا الجيش الثاني والعشرين ، والجيش الثامن بأكمله ، حتى كادوا يأسرون القائد العام الألماني « ليمان فون ساندرز » .. ثم التفوا حول مؤخرة الأتراك وقطعوا الخط الرئيسى لتقهقرهم نحو الشمال .. !

وانسحب مصطفى كمال بجيشه وظهره إلى نهر الأردن ، ورغم أن جنوده كانوا قد ساد الذعر فى صفوفهم فإنهم استمروا فى القتال ، بفضل سيطرته الشخصية على من بقى منهم ، وفى اليوم الخامس تأهب لعبور النهر وبقى يشرف بنفسه على جميع التفصيلات والدقائق حتى عبرته كل قواته ، ثم تبعها إلى الضفة الأخرى ، ولكن لم تمض دقائق حتى كرت عليهم فرقة الفرسان الإنجليزية الحادية عشرة فقطعت الاتصال بينهم وبينه ، ونجا هو فى آخر لحظة !

وكان الجيش التركى الرابع ينسحب بمحاذاة السكة الحديدية ، فجمع مصطفى كمال فلول قوته ومضى بها نحو الصحراء ! .. لكن العدو هاجمه من الخلف والجناحين ، فحصدت مدافعه الرشاشة مؤخرة قواته مرتين ، وهاجمته طائرات الإنجليز من أعلى فحصدت من حصدت ودمرت مواصلاته ومدفعيته بالقنابل والمدافع الرشاشة .. فامتلأت ساحة القتال بجماعات من الرجال المذعورين الذين ينشدون الفرار بأنفسهم تاركين أسلحتهم وذخائرهم وعرباتهم وماشيتهم فى اضطراب لا حد له . وفى الوقت نفسه انقض عليهم العرب الذين يعملون مع « لورنس » فأعملوا فيهم الرصاص والسيوف !

وخلال ذلك كله ، ظل مصطفى كمال مسيطراً على طابوره الصغير

الذى بقى له بفضل شخصيته الجبارة ، وراح يستحث المحيطين به على القتال ، مزوداً إياهم بالشجاعة والحماسة حتى انسحب وإياهم بمحاذاة الخط الحديدى إلى دمشق فى سرعة أفقدت الإنجليز كل اتصال به !

وفى دمشق تمهل قليلاً ، وأمره « فون ساندرز » بأن ينشئ خطًّا دفاعياً جديداً فى « الرياق » ، فترك عصمت هناك ومضى لإنجاز هذه المهمة ومعه على فؤاد حيث عكفا معاً على العمل الشاق ، ولكن فى تلك الآونة جاءت الأنباء بأن الأهالى فى مدن الساحل استسلموا للإنجليز وأعلنوا ترحيبهم بهم ، وبأن بيروت سقطت فى أيديهم ، فأصبح أى خط ينشأ فى « الرياق » مهدداً بتطويق الجناحين من الأعداء !

انهيار . . فى جميع الجبهات !

وأخذ مصطفى كمال يفكر فى الأمر فرأى أن الانحلال المعنوى قد شمل جميع القوات ، حتى الضباط الذين من رتب عالية باتوا ينشدون الفرار ، وقد باءت بالفشل كل محاولاته فى سبيل وضع حد لحالة الذعر السائدة ، وحدث أن لمح قائد الجيش الرابع أثناء فراره فأوقفه وقال له : « أنت تستحق أن تشنق ، لكنى سأمنحك فرصة أخرى ، فهيا ضع نفسك تحت تصرف على فؤاد فى (الرياق) . . وكفر عن فرارك ! » . .

فحياه القائد وانصرف ، وفى الصباح التالى كان قد فر من جديد فلم يقف له أحد على أثر ! وإزاء هذه الحالة التى سادت صفوف ضباط القيادة العليا أنفسهم ، وجد مصطفى كمال ألا فائدة من أن يأمر بإعدام الجنود أو صغار الضباط الفارين ! . . وأدرك أن تنظيم الصفوف يحتاج إلى متسع من الوقت ، ولما كان الإنجليز ما يزالون بعيدين ، فى استطاعة الأتراك أن ينسحبوا فوراً

مسافة ميل إلى « حلب » متخلين عن سوريا كلها ، ثم يعيدوا التحصن وراء خط دفاع جديد فى الشمال . فيسدوا الطريق إلى تركيا ذاتها فى وجه الأعداء الزاحفين ! وتوجه من فوره إلى « ليمان فون ساندرز » ليعرض عليه هذا الرأى .

فقال له القائد الألمانى : « إن خطتك وجيهة . لكنى لا أستطيع إصدار الأمر بتنفيذها . لأنى لا أريد أن أتحمل مسئولية ترك قطعة كبيرة من الإمبراطورية العثمانية لقمة سائغة للأعداء دون أن أضرب ضربة أخيرة !.. إنها مشكلة عليكم أنتم الأتراك أصحاب البلاد أن تقرروا ما ترونه فى شأنها ! » .

فأجابه مصطفى كمال : « أنا أتحمل المسئولية الكاملة ! » . ثم أصدر أمره بالكف فوراً عن كل صدام مع العدو وبالتأهب للانسحاب العام إلى حلب . وذهب بنفسه فى المقدمة وأعد خطًّا دفاعيًّا جديداً على بعد عشرة أميال شمالى (حلب) كى يحمى الطريق الوحيد الذى يخترق جبال طوروس الجبارة إلى تركيا نفسها . وكان جناحا الخط الجديد محميين ، لا يستطيع العدو أو الفارون من الخدمة أن ينفذوا منهما دون أن يصطدموا بالمدافعين عنهما . ولئن ضاعت سوريا وفلسطين وبلاد العرب – التى كان الأتراك يحتلونها كغزاة وحكام لا غير – فقد صار فى وسع مصطفى كمال الآن بفضل هذا الخط الدفاعى الجديد أن يجعل جنوده يقاتلون وظهورهم إلى الحائط دفاعاً عن وطنهم ذاته !

ولم تكد الفيالق المهزومة تصل حتى أعاد مصطفى تنظيمها وأعد منها فرقاً جديدة قذف بأفرادها إلى خط القتال بعد أن نفخ فيهم من روحه الحماسية القوية ! .. ثم أبرق إلى السلطان يطالبه بإقصاء أنور وعصابته وتأليف حكومة جديدة يسند إليه هو فيها منصب وزير الحربية !

ولم يتلق أى رد على برقيته هذه . لكن الأنباء جاءت على أثر ذلك بأن

كلاً من أنور وطلعت وجمال قد ولوا الأدبار عبر البحر الأسود ، وبأن حكومة جديدة قد ألفت من الكابتن رؤوف والجنرال فوزى وآخرين ! واقترح بعض العرب ، بتحريض من صديقهم الإنجليزى « لورنس » ، أن يستخدم مصطفى كمال نفوذه ليقنع الحكومة التركية بفتح باب المفاوضة فى عقد صلح منفرد مع الحلفاء .. لكن مصطفى كمال رفض الفكرة مفضلاً الاستمرار فى القتال ، فهو ليس جباناً ليهرب كالآخرين أمام تهديد الأعداء له .. ومن ثم راح يواصل الكفاح ليل نهار كى يقوى تحصيناته !

وفى البداية ظل سكان « حلب » متذرعين بالهدوء ، ولكن لم تكد طوابير الإنجليز المتقدمة تقترب منهم حتى انقلبوا معادين مشاغبين . . وكان مصطفى كمال يعيش فى فندق « بارون » الواقع فى وسط المدينة ، فحدث وهو عائد إليه من مكتبه فى سيارته ، وليس معه سوى السائق ، أن أحاط به بعض المتجمهرين الذين راحوا يتصايحون ثائرين متوعدين ، فذادهم عن نفسه بسوط كان فى يده ، وحين تبعوه إلى الفندق رشاهم بوعده بإمدادهم بالمال والسلاح !

وفى الصباح التالى سمع ضجة فخرج إلى شرفة غرفته ، وإذا الشوارع المحيطة بالفندق تعج بالجماهير الصاخبة المهددة ، وعلم أن العرب أغاروا قادمين من الشرق عبر الصحراء وامتلأت بهم المدينة !

ولم يكن أمامه فى الوقت متسع ، فأخلى المدينة فوراً ونقل مركز قيادته إلى « كيتما » وراء الخط الجديد ، واستعد لملاقاة الهجوم القادم . . وفى ٢٦ أكتوبر ظهرت طلائع القوات الإنجليزية الزاحفة ، وهاجمت خط الأتراك عند قرية « هارى تان » فرقتان من فرق الفرسان الهنود . . فتوجه مصطفى كمال من فوره إلى القرية وتولى إدارة الدفاع بنفسه ، وكان الأتراك

قد استردوا روحهم المعنوية فقاتلوا قتالا عنيفاً ، ومنى الجنود بخسارة فادحة اضطرتهم إلى التراجع بغير انتظام والمسارعة إلى طلب النجدات . . بينما تراجع الأتراك إلى مراكز أعدت لهم من قبل على بعد عشرة أميال إلى الشمال . وفيما كان الفريقان ينتظران وصول النجدات لاستئناف القتال جاءت الأنباء من العاصمة بأن الحكومة وقعت على اتفاق للهدنة فى « مدروس » . وجاءت الأوامر إلى الألمان ليعودوا جميعاً إلى ألمانيا فوراً !

وهناك فى حانة بمدينة « أضنة » تسلم مصطفى كمال من « فون ساندرز » قيادة تركيا الجنوبية بأكملها ، وواجه كلا الرجلين الآخر عبر الرجلين كلام كثير يتبادلانه . . كان كلاهما شجاعاً قوى الشكيمة ، منضدة صغيرة من مناضد المقهى ، وقد صار مصطفى كمال المضيف وفون ساندرز ضيفه — لا رئيسه ! . . وفى ساعة الهزيمة هذه لم يكن عند وعسكرياً مجرباً مزهواً بنفسه ، يحترم الآخر دون أن يظهر له شعوره ! . . فلما حانت ساعة الوداع قال فون ساندرز لخلفه وهو يصافحه : « لقد عرفتك منذ توليت القيادة فى (أنافارتا) . . وإني لأغبط نفسى على كوني قد اكتشفت مقدرتك منذ البداية . لقد اختلفنا فى كثير من الأحيان ، لكننا صرنا صديقين . . وعزائى الوحيد اليوم أني أترك القيادة فى يديك القديرتين ! » .

لقد هزمت تركيا ، لكن مصطفى كمال — وقد انفرد بالأمر والنهى فى هذه الجبهة — أبي وهو المحارب الباسل أن يستسلم استسلاماً رخيصاً ، فناقش كل تفصيل يتصل بشروط الهدنة التى يعرضها العدو ، وانتهز كل فرصة ! . وحين أراد الإنجليز أن يحتلوا « اسكندرونة » أنكر عليهم هذا الحق وأمر حاميتها بالمقاومة بل هدد باستئناف القتال ! . وحين أبرق إليه



مصطفى كمال فى جولة تفتيشية على القوات التركية التى كان يتولى قيادتها .

« عزت » – رئيس الوزراء – آمرا ، ثم راجياً منه أن يستسلم . . أجابه قائلا :
« ينبغى ألا نقبل المذلة ، وإلا أباد الأعداء كياننا إبادة تامة ! »

واستمر يقوى خطوطه ، وأرسل ضباطاً إلى الجبال الواقعة خلفه بعد أن زودهم بالسلاح والذخيرة كى يجمعوا رجالا ويؤلفوا منهم عصابات قوية غير نظامية . . إنه سوف يوقف تغلغل الغدو فى تركيا بوسيلة أو بأخرى . . سوف يتأهب لأسوأ الاحتمالات ، ولو لحرب عصابات يشنها فى الجبال إذا اقتضى الأمر . . !

وتألفت حكومة جديدة فى العاصمة تضم فتحى والكابتن رؤوف والجنرال فوزى . . واستدعى عصمت ليكون وكيلا للوزارة لشئون الحرب . أما مصطفى كمال فقد ترك وأهمل ، الأمر الذى أحنقه وأثار ثائرته ، ولكن دون جدوى !

وفجأة أرسل إليه « عزت » رسالة مستعجلة : لقد اختلف مع السلطان واعتزم أن يستقيل من رياسة الوزارة . وكان مقرراً أن يخلفه فى منصبه « توفيق باشا » ذلك الشيخ المسن صديق الإنجليز ! . . لكن عزت رغب إلى مصطفى كمال فى أن يعود فوراً ، فإنه فى حاجة إلى معونته . .

وإزاء تطور الأمور على هذا النحو سلم مصطفى كمال مقاليد قيادته إلى الضابط الذى يليه ، ثم غادر مقره قاصداً إلى القسطنطينية !

الفصل الثالث

تفكك الإمبراطورية العثمانية

وصل مصطفى كمال إلى القسطنطينية وقد انقضى شهر على بدء الهدنة . وكان العدو قد سيطر على كل شيء : استولت البوارج الإنجليزية على البوسفور . . واحتلت الجيوش الإنجليزية العاصمة وكل قلاع الدردنيل والمواضع الحربية الهامة فى أنحاء تركيا ! بينما احتلت الجيوش الفرنسية إستانبول ، وملأ جنودها السنغاليون شوارع « غلطة » . . واحتلت الجيوش الإيطالية « بيرا » وخطوط السكك الحديدية . . وأشرف ضباط الحلفاء على شؤون البوليس والحرس الوطنى . وعلى الميناء ، وعلى تجريد القلاع من أسلحتها وتسريح الجيش !

لقد تحطمت الامبراطورية العثمانية وتفككت إلى أجزاء صغيرة . . وانسلخت عنها : مصر ، وسوريا ، وفلسطين ، وشبه جزيرة العرب . . وباتت تركيا ذاتها عزلاء لا حول لها ولا طول ، خاضعة لسيطرة العدو المنتصر وقبضته الحديدية . . وانهارت الأداة الحكومية انهياراً تاماً !

وكانت جمعية « الاتحاد والترقى » قد انحلت وتفرقت : ففرّ أنور وطلعت وجمال إلى الخارج . . واختفى « يافيد » اليهودى وبقية الأعضاء فى أماكن مجهولة . . وتألفت حكومة هزيلة برياسة توفيق باشا ، أحد رجال عبد الحميد المعروفين بصداقتهم للإنجليز ، لتنفذ أوامر الأعداء !

على أن مظاهر قوة الأعداء وبطشهم لم ترهب مصطفى كمال ، بل

ظل مستعداً لأن يقاوم ، وراح يناقش ويساوم معهم بعناد على كل صغيرة وكبيرة . . لكنه لم يتلق عوناً من أحد !

كان الأتراك من جميع الطبقات ، ممزقين مهزومين ، لا يقوون على مقاومة أو قتال . وكانوا ينتظرون – مسحوقى الأجسام والنفوس – أن يقرر الحلفاء المنتصرون مصيرهم ، ويتوسلون إليهم فى خضوع ومذلة أن يمنوا عليهم بالبقاء ! وتوجه مصطفى كمال إلى «عزت» – رئيس الوزارة السابق – فوجده غاضباً حزيناً ، وعلم منه أنه عاون أنور وطلعت على الفرار – قبل وصول الأعداء – على ظهر سفينة عبر البحر الأسود ، ولكن السلطان أنبه ولامه على عدم إلقائه القبض عليهما وتسليمهما للإنجليز ، قائلا : «إن تركيا ينبغى أن تكون على صلة طيبة مع الإنجليز المنتصرين» . فأجابه عزت بقوله : «إن أنور وطلعت قد يكونان نذلين ، لكنهما تركيان قبل كل شىء ، وما كنت لأشترك فى تسليم أحد من المواطنين إلى أية دولة أجنبية ، ولو تنفيذاً لأمر السلطان !» . . وعلى أثر ذلك استقال من منصبه ، وخلفه توفيق باشا .

ولم يجد مصطفى كمال بدا من أن يناشد عزت أن يعود إلى الحكم ، فهو وإن اتفق معه فى عواطفه الوطنية لا يتفق معه فى البقاء بمعزل عن الأمور والسماح لتوفيق وحكومته وللسلطان بقبول الهزيمة على هذه الصورة المزرية المنطوية على الجبن ، فذلك يعنى نهاية تركيا ! . . نعم إن الأمر لم يعد أمر إحياء الإمبراطورية أو استرداد شىء من ولاياتها المفقودة ، ولكن الأمر الآن أمر إنقاذ تركيا ذاتها ! . فيجب أن تؤلف حكومة قوية ، تطيح بحكومة توفيق وتحل عزت مكانه ، على أن يعين مصطفى كمال وزيراً للحربية ، كى يواجه الاثنان العدو بصلابة وينقذا ما تبقى من تركيا !

وعكف مصطفى كمال على تأليف حزب جديد ، باشتراك عزت ومعاونته . ومرة أخرى عاد يندمج فى أوساط الساسة . فوجد عشرات الجماعات التى تألفت كل منها بزعامة كل من هب ودب من الطامعين فى السلطة والنفوذ : فهذا حزب ينادى بتأييد الإنتداب الإنجليزى . وآخر يسعى إلى الانتداب الأمريكى . . وهذه جماعة من أصدقاء انجلترا ، وأخرى من أصدقاء فرنسا ، وثالثة من أصدقاء إيطاليا . وكل منها مؤلفة على أساس أنه لم يبق ما يمكن عمله من غير معونة من الدول الأجنبية ! أما مصطفى كمال فلم يكن يؤمن بفكرة المعونة الخارجية . إلا خلال الفترة القصيرة التى راودته فيها فكرة التعاون مع أمريكا . وفيما عدا تلك الفترة كان من رأيه دائماً أن الأتراك ينبغى أن ينقذوا أنفسهم أو يهلكوا . . ! وأصغى إليه الساسة ، فقد صار فى مركز فريد . لم يعد له منافس بعد أن فر أنور . وكان معروفاً بأنه وحده القائد الموفق فى تركيا كلها ، فقد رد الإنجليز عن غاليبولى مدحورين ، وأبى أن يمكنهم من الاستيلاء على « اسكندرونة » . . ثم هو إلى ذلك معروف بأنه صديق للسلطان . . وقد وقف موقف المعارضة العنيدة للألمان ولجمعية الاتحاد والترقى . وفوق هذا وذاك فهو لم يفر – مثل أنور وطلعت وجمال – لينجو بنفسه !

وراح مصطفى يسعى – يوماً بعد يوم – كى يقنع الساسة بآرائه . . كان ينفق الساعات الطويلة فى دار البرلمان فى نقاش وجدل معهم . وبدا على كثيرين منهم أنهم اقتنعوا بما يقول . . ودبر بعضهم أن يقترعوا على الثقة بتوفيق باشا وحكومته . وقبل أن يحل موعد طرح الثقة خطب مصطفى كمال فى جمع من النواب يستحثهم على الصمود فى وجه توفيق باشا وخلع حكومته ثم تأليف حكومة قوية رشيدة . وأيقن من النجاح ،

ومن تقلده منصب وزير الحربية فى الحكومة الجديدة ، وبذلك يستطيع أن يركز السلطة فى يده .

وفى ساعة الاقتراع مضى مصطفى إلى « قاعة الغرباء » فى دار البرلمان لينصت إلى مناقشة الاستجواب . وفى النهاية فاز توفيق باشا بأغلبية ساحقة . . فقد خشى النواب مصطفى كمال وآراءه وشدة بأسه ، وارتابوا فى مطامعه . فعدوا اعتزامه المقاومة حماقة كبرى !

وشحب وجه مصطفى كمال غضباً من النتيجة ، ولعن الساسة الذين خذلوه ! . ثم مضى إلى أقرب تليفون وطلب الإذن له فى مقابلة السلطان — وكان منذ عودته قد حرص على الابتعاد عن القصر . . فقيل له : إن فى الوسع تدبير لقاء بينه وبين السلطان ، لكنه ترك ينتظر أسبوعاً كاملاً ! وأخيراً استقبله السلطان وحيد الدين ، مبدياً ابتهاجه بلقائه ، لكنه لم يكن مرحباً به فى قرارة نفسه . . على أن ذلك لم يثن مصطفى كمال ، الذى مضى إلى غايته فوراً فطالب السلطان بأن يؤلف حكومة قوية لتواجه الأعداء وتعاملهم معاملة الند للند وتوقف الحركة التى يرمى منها بعض المتطيرين إلى قبول الهزيمة الكاملة ، وقال له : « إن كلمة واحدة من جلالتك كفيلة بتقوية الحماسة الوطنية ، فاجعلنى وزيراً للحربية فى حكومة قوية ، وأنا كفيل بإنقاذ تركيا . لكن هذا البرلمان يجب أن يحل . . فإن نصف النواب خونة . . أعضاء فى جمعية الاتحاد والترقى وأصدقاء لأنور . . ونصفهم الآخر من الجبناء . وليس بينهم رجل واحد صلب العود ! » .

وهنا قال له وحيد الدين — وكان قد ازداد بدانة فى الجسم واعتداداً بالنفس منذ تولى الحكم — : « أنت ذو نفوذ عظيم فى أوساط الجيش ، فهل

تعتقد أن الجيش مخلص لى ؟ » .

فأجابه مصطفى كمال وقد أخذ بالسؤال المفاجئ : « إنى لم أعد إلى العاصمة إلا منذ فترة قصيرة يا مولاى . . ولست فى الواقع أدرى ! » .

وكان وحيد الدين جالساً مغمض العينين كالنائم ، كعادته كلما أراد أن يخفى أفكاره الحقيقية عن عبد الحميد ! . . فسأله مصطفى كمال :

– هل لدى جلالتكم أى برهان على عدم الولاء ؟

فلم يجب بل سأله بدوره : « هل الجيش يدين لى بالولاء ، وهل يستمر كذلك فى المستقبل ؟ » .

فقال مصطفى كمال : « ليس عندى ما يحملنى على الارتياب فى ولاء الجيش ، ولا فى استمرار هذا الولاء ! » .

فقال السلطان : « إذن أستطيع أن أعتمد على استخدام نفوذك فى هذا السبيل ! » .

وكان السلطان قد كون لنفسه – منذ زمن – فكرة واضحة عن مصطفى كمال : أنه رجل طموح أشبه بالعاصفة ، وهو رجل خطر لا يمكن السيطرة عليه إذا أعطى النفوذ ، لكنه قد يكون ذا نفع أحياناً ، فى الماضى أمكن استخدامه ضد أنور ، والآن يمكن استخدامه لكسب ولاء الجيش !

ومن تحت أجفانه الثقيلة ، وبعينين حذرتين ، راح السلطان يرقب القائد النحيل ذا الوجه الأغبر الماثل أمامه ، مفكراً فى مدى استطاعته الإعتماد على إخلاصه ومعونته

كان جاسوساً للسلطان الأحمر !

وفى اليوم التالى حل وحيد الدين البرلمان ، وأسند رياسة الوزارة إلى صفيه ومستشاره الأول « فريد » ، وبذلك استولى هو على السلطة والنفوذ كاملين ! . . لكن فعلته أثارت عاصفة شديدة من النقد ، فصار الناس يلعنونه علانية . ونشرت إحدى الصحف فقرات من خطاباته إلى عبد الحميد ،وكانت قد وجدت فى القصر فى حوزة عبد الحميد ، وهى تظهر كيف كان وحيد الدين يشتغل بالتجسس لحساب السلطان الأحمر !

ولم يسند إلى مصطفى كمال أى منصب فى الوزارة الجديدة ، لكن الجميع اعتبروه مسئولا عن تصرفات السلطان وأخطائه ، فقد كان معروفاً لكل إنسان أنه حاول التوصل إلى حل البرلمان من طريق الاقتراع على الثقة بتوفيق باشا ، وأنه خلا إلى وحيد الدين ساعة كاملة تحدثا خلالها حديثاً لم يقف أحد على كنهه ! . . لكن رأى الأكثرية اتفق على أنه يعمل لحسابه الخاص ، فنفر منه كثيرون من الذين كانوا يتطلعون إلى زعامته . . وارتاب الناس فى أمره !

ثم إن حكومة وحيد الدين لم يكن فيها مكان له . . فإن السلطان بما طبع عليه من ضعف وجبن وعناد ، كان تفكيره يدور وينحصر فى فكرة واحدة راسخة فى ذهنه : هى أن العرش وتركيا شيء واحد ! . . وأنه ينبغى أن يدعم سلامة العرش وسلامته الشخصية ، وبذلك ينقذ تركيا ! . . ولكى يصل إلى هذا لابد له من أن يتحالف مع الأعداء ويجلب رضاهم عن طريق الطاعة لأوامرهم ! . . وكان الإنجليز هم المسيطرين على بقية

الحلفاء ، أعداء تركيا . . ومن ثم رأى أن ينحاز إلى جانبهم ، وكان لديهم هم من الأسباب ما يحملهم على أن يعتزوا به – وهو خليفة المسلمين – كحليف لهم . واقتنع هو بأن كل تفكير فى تأليف حكومة قوية أو إبداء مقاومة من أى لون يعنى دماراً عاجلاً ويجب الانصراف عنه . . وكان يؤيد السلطان فى هذه السياسة – على طول الخط – صهره ومستشاره الأول ورئيس حكومته الجديدة . . فريد !

ولم يعد لمصطفى كمال مكان فى السياسة الجديدة ، فقد تنكر له الجميع ، وكان من سعة الأفق وتعدد الزوايا بحيث لم يصلح للاندماج فى أية جماعة اندماجاً كاملاً يقنع به ويستكين . وقد استأجر منزلا صغيراً فى « شيشلى » – إحدى ضواحى القسطنطينية – وهناك عاش معيشة هادئة ، غير مشترك فى السياسة أو الشؤون العامة ، على أنه كان يتردد بين الحين والآخر على أمه وشقيقته ، بعد أن أبى السكنى معهما فى بيت واحد ، مؤثراً العزلة والانطواء على نفسه .

وكان له أصدقاء قليلون ، منهم صديق واحد حميم يدعى الأميرالاى « عارف » . وهو ضابط مشهود له بالكفاءة والمقدرة ، قضى سنوات تدريبه فى ألمانيا . وكان يصغر مصطفى كمال فى السن ، وقد تعارفا منذ زمالتهما فى سالونيك وموناستر وسوريا والبلقان وغاليبولى . وبعد عقد الهدنة ربطت بينهما صداقة متينة . وكانت لهما ميول مشتركة وطباع متوافقة ، فإن كليهما كان مستغرقاً فى المسائل العسكرية ، ولوعا بالاستمتاع بالحياة . . على أن عارف لم يكن على شىء من قوة إرادة مصطفى ، وكان ينظر إليه بمثل احترام الكلب لسيده وإخلاصه له ! . . وفتح مصطفى قلبه لعارف . . فقد آلمه وأثاره أن يرى تركيا تنحدر إلى المصير الذى صارت إليه ، وأن

يختال الإنجليز والفرنسيون فى شوارعها بغير حسيب ، ويهينوا نساءها المحصنات . . لكنه مع ذلك كان عاجزاً مسلوب القوة ، يبغى أن يفعل شيئاً دون أن يدرى ماهيته بالضبط . وفوق ذلك فإنه كان مراقباً ، وللإنجليز جواسيسهم فى كل مكان ، وعملاؤهم يعتقلون كل من يبدى ميلاً إلى القتال !

وهكذا اقتنع مصطفى كمال بأنه يجب أن يخفى مشاعره ويخمد نيران الكراهية التى تتأجج بين جوانحه نحو الإنجليز ، وإلا كان مصيره الاعتقال !

ومضت الأسابيع متتابعة ، حتى حلت الأشهر الأولى من سنة ١٩١٩ ، وعندئذ تبدلت الأحوال . . فقد بدأت قبضة العدو على البلاد تتراخى ، فسرحت جيوشه وانسحبت ، ونشبت فى كل من إيطاليا وفرنسا وإنجلترا متاعب داخلية جدية . . وفى جميع الدول المنتصرة بدت نذر رد الفعل المحتوم بعد الضغط المتوالى على الأعصاب طيلة سنوات الحرب . . وفى باريس استغرق ساسة الحلفاء فى وضع سياسة للتفاهم مع ألمانيا ، ولم يكن لديهم وقت للتفكير فى شأن تركيا . ولم تكن الخطوط الرئيسية لشروط الصلح قد حددت بعد . . !

وقال الناصحون للويد جورج : « دعوا تركيا وشأنها ، فسوف تنهار من تلقاء ذاتها وستتولى اقتسام أجزائها فيما بعد ! » . . وفى القسطنطينية كان ممثلو الحلفاء فى شجار دائم صريح : كل منهم يدبر خطة للحصول على نصيب الأسد من المراكز الاستراتيجية والامتيازات الاقتصادية فى البلاد . . وينافس حلفاءه — أو غرماءه — فى ابتكار الحيل التى تمكنه من أن يخدع الأتراك !

وهنا وهناك ، بدأت تلوح فى الأفق بوادر أمل جديد ضئيل ، مبعثه

الاعتقاد بإمكان تنظيم حركة مقاومة جدية تنقذ تركيا من الهاوية ! . .
لكن المقاومة كانت عسيرة التصديق فى العاصمة ذاتها ، حيث كانت قبضة الإنجليز والسلطان الجديد حليفهم قوية صارمة . . ولكن كان فى الإمكان فعل شيء فى المناطق الجبلية الداخلية . . فى الأناضول !

وتألفت فى العاصمة أكثر من عشر جمعيات سرية هدفها سرقة الأسلحة والذخائر والمستودعات الخاضعة لإشراف العدو ، ثم إرسالها إلى أنصارها فى الداخل ، وتكوين المراكز التى يجمع فيها الرجال وترسم الخطط !

وتلقت الحركة معونة من بعض الرسميين ذوى المراكز الكبيرة . كان عصمت بمثابة وكيل وزارة لشؤون الحرب ، وفوزى رئيساً لهيئة أركان الحرب ، وفتحى وزيراً للداخلية ، ورؤوف – قائد البارجة « حميدية » المشهور فى الحرب البلقانية – وزيراً للبحرية . . . وكان الجميع أصدقاء لمصطفى كمال ويسعون سراً إلى الغاية ذاتها !

وفى عشرات المواضع – فى الداخل – تألفت جمعيات مهمتها تدبير المقاومة السرية ، وانتعشت المنظمات التى كان مصطفى كمال قد وضع بذورها فى الجنوب ، قبل أن يعود إلى العاصمة . وفى كل مكان عادت الفروع المحلية القديمة لجمعية « الاتحاد والترقى » إلى سابق نشاطها واجتماعاتها . . وفى جبهة القوقاز ، على الحدود الشرقية النائية ، بدأ « كاظم قره بكير » والفرق الست التى لم تهزم ، يعصون أوامر الحلفاء بشأن تسريح الجيش ويقيمون العراقيل والعقبات فى وجوه ضباط المراقبة المتحالفة . . لكن هذه كلها لم تكن غير النذر الأولى الحذرة والمحاولات التجريبية التى بدت فى ظل إدراك أصحابها للمآل المحتوم الذى لا بد ستنتهى إليه حين يكتشف الإنجليز أمرها ويعصفون بها على الفور !

١١٤

اسمه فى القائمة السوداء !

وتسربت أنباء هذه المنظمات إلى الإنجليز ، فألقوا القبض على عدد من الرجال اعتبروهم « خطرين » وزجوا بهم فى سجن « بكير أغا » . . ثم أحبطوا محاولة دبرها هؤلاء وأعوانهم فى الخارج لتهريبهم من سجنهم ! . .

وكانت لمصطفى كمال يد فى هذه المؤامرة . لكنه لم يظهر فيها للعيان . . . كان على اتصال بجميع المنظمات السرية الحديثة ، لكنه كان اتصالاً حذراً مكتوماً ، لم يتورط فيه تورطاً يؤخذ عليه ، وذلك لأنه لم يكن واثقاً من نجاح الحركة ، فلم يشأ تعريض نفسه لمخاطر لا فائدة من ورائها . وهكذا بدا وكأنه قبل الهزيمة وأيد سياسة السلطان وصهره فريد ! . . على أن الإنجليز – برغم ذلك كله – كانوا يرتابون فى أمره ، فوضع اسمه فى قائمة الرجال الخطرين الذين ينبغى اعتقالهم وإرسالهم إلى مالطة . وكان قد ترك منزله فى حى شيشلى وعاد إلى غرفته القديمة فى فندق « بيرا بالاس » ، المطلة على القرن الذهبى ، بينما عاوده مرضه القديم وصار فى أسوأ حال من الانقباض والأسى والإفتقار الملح إلى النقود . . بل لقد بلت ثيابه وساء مظهره . . ولم يعد له صديق غير « عارف » . . هذا إلى أنه كان مراقباً من الأتراك أيضاً ، فأخذ يقضى أيامه ولياليه فى العاصمة متجولاً على غير هدى أو قصد معين فى الشوارع والطرقات ، أو جالساً فى مقهى من المقاهى مكتئباً جامد الأعصاب ، بغير أمل أو خطة للمستقبل !

ثم عاد الحظ فجأة فأسلم زمامه لمصطفى كمال . . لقد كان كما قال « ليمان فون ساندرز » يملك تلك الصفة الرئيسية من صفات القائد العظيم . . صفة الحظ ! . كما كان يملك الصفة التالية لها وهى القدرة

على أن يغتنم فرصة الحظ ويستخدمها فى حينها . . !

وكان الإنجليز والسلطان قد رأوا أن الخطوات الأولى للمقاومة فى الأناضول يجب أن تقمع فوراً . . وأن ينتدب السلطان شخصاً يمثله كى يتدبر الموقف ويجبر المتمردين على تسليم أسلحتهم وتسريح جنودهم ووقف اجتماعات اللجان المحلية لجمعية الاتحاد والترقى . فرغب السلطان فى أن ينتدب مصطفى كمال ليقوم بهذه المهمة ، لكن السلطات العسكرية الإنجليزية عارضت ذلك بحجة أنه رجل خطر قدير ، لم ينس بعد مسلكه فى إسكندرونة .

وهنا تطوع فريد – رئيس الوزارة – للدفاع عنه قائلاً : « إن جميع الاضطرابات الناشبة فى داخل البلاد لا ترجع إلى أية عاطفة شعبية بقدر ما ترجع إلى تصرفات جمعية (الاتحاد والترقى) الملعونة ، وعصابة الأشرار الذين يتزعمهم أنور . . أما الأتراك أنفسهم فهم يريدون السلام . ولئن كان مصطفى كمال عضواً – اسمياً – فى جمعية الاتحاد والترقى ، إلا أنه فى الواقع من ألد خصومها ومعارضى سياستها ، علاوة على أن له شهرة ذائعة فى البلاد . . ثم هو إلى ذلك « جنتلمان » يمكن الثقة به ، ومن ثم فهو خير من يصلح لأن يضطلع بالمهمة الكبيرة » .

وظل القرار معلقاً بضعة أيام ، ومصير مصطفى كمال يتأرجح بين أن يعتقل وينفى إلى مالطة ، وبين أن يرسل إلى الأناضول مبعوثاً رسمياً للسلطان ! . . وأخيراً أفلح رئيس الوزارة فى إقناع الإنجليز بوجهة نظره ، فرفع اسم مصطفى كمال من قائمة المرشحين للاعتقال وعين مفتشاً عاماً للمنطقة الشمالية وحاكماً للولايات الشرقية !

ومع أنه لم يكن على علم بتفصيل الأخطار التى تهدده من جانب

الإنجليز ، فإنه لم يكد يعلم بنبأ اختيار السلطان له ليشغل هذا المنصب حتى أدرك أن فرصته قد حانت ، فتبددت كآبته وانقباضه وعاودته فوراً حيويته وصحته . ثم بدأ على الفور يدبر خططه التى لم يطلع عليها غير صفيه عارف ، وأعلن موافقته الحارة على التعليمات التى رسمها له رئيس الوزارة !

إنه كمبعوث للسلطان سوف يحظى باحترام وتقدير كبيرين من جانب أتراك الأناضول . ومن ثم فإنه سيتظاهر بأنه قد أرسل لينقذهم من الإنجليز ،وبهذه الوسيلة يستطيع أن ينظم المقاومة الكفيلة بإنقاذ تركيا !

وكان أول ما فعله أن اتخذ لنفسه « شفرة » سرية فى مراسلاته مع عصمت وفوزى فى وزارة الحربية . وبعد ذلك لم يضيع وقتاً ، بل هرع إلى بيت أمه وشقيقته فى شارع « أكارتلر » كى يودعهما . وكانت أمه قد أوشكت أن تفقد بصرها تماماً ، فتحسست وجهه بأصابعها المرتجفة المعروقة ، ثم قبلته وهى تبكى ، كما اعتادت أن تفعل كلما جاء ليودعها ، وأطلقته مزوداً ببركتها . وفى هذه المرة لم يكاشف حتى أمه بخططه وآرائه !

وفى الليلة ذاتها استقل سفينة أبحرت به عبر البوسفور إلى شاطئ البحر الأسود . . يصحبه « عارف » والأميرالاى رفعت ، الذى عين قائداً للجيش الثالث فى « سيواس » . . وأقبل « رؤوف » لتوديعهم حاملا معه نبأ بأن مؤتمر الحلفاء فى باريس قد أرسل القوات اليونانية لتحتل مدينة إزمير ! . وكان واضحاً أن الأعداء قد حكموا على تركيا بالموت ، وأن مقاومة العدو – لا ممالأته – هى الأمل الوحيد الباقى لإنقاذ البلاد !

وفى منتصف الليلة نفسها طلب رئيس الوزارة أن يقابل ممثلاً للمندوب السامى البريطانى فى الحال . . وأوضح له أن السلطان قد عدل عن رأيه ، فقد جاءته الأنباء بأن مصطفى كمال يعتزم إثارة القلاقل فى الأقاليم

الداخلية ، ومن هنا ينبغي وقفه أثناء رحلته ، بأى ثمن !

وصدرت الأوامر باعتراض سبيله وإعادته إلى العاصمة . لكن إدارة قوات الاحتلال كانت على جانب كبير من تعقيد الإجراءات ، ومن تفشى الغيرة الدولية والأغراض الخاصة بين القائمين على أمرها من الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين ، الذين كانت لهم جميعاً يد فى تفتيش أو وقف سفن الركاب ، فاضطرب الأمر بين اختصاص سلطات الجيش أو الأسطول بتنفيذ هذه الأوامر ، وظلت المشكلة معلقة حائرة بين جهات الاختصاص المتضاربة بضع ساعات ، تمكن خلالها مصطفى كمال من الوصول إلى غايته !

كان مصطفى كمال أثناء الرحلة قد ترك نفسه على السجية ، فراح يتكلم بلا انقطاع ، شارحاً أفكاره ومطامعه وخططه . . بينما كان رفعت يصغى صامتاً . وكان رفعت على النقيض من ذلك تماماً . . فقد كان ضابطاً فى سلاح الفرسان فخوراً بنفسه ، شهماً مرحاً طيب المعشر ، مشهوراً بشجاعته ، وقد تولى قيادة قوات مقدونيا فى ثورة سالونيك ، ودافع عن « غزة » فى حصار طويل الأمد ضد الإنجليز . وكان ضئيل الجسم أنيق الملبس والمظهر ، يتكلم فى حماسة الصبى المنفعل وهو يحرك رأسه بلا انقطاع ، ويشير بيديه ويضحك بعينيه !

أما فى هذه المرة فقد جلس صامتاً يصغى . أدرك مدى كفاءة مصطفى كمال ، ومؤهلاته كقائد أو زعيم لثورة يائسة . وكان يؤيده فى اعتزامه تنظيم حركة مقاومة العدو . . لكنه وهو ينصت إليه أحس أن وراء كل ذلك تكمن أنانية مصطفى كمال الطاغية وتصميمه على اغتصاب السلطة بأى ثمن . . فقرر أن يقف فى صفه ، على أن يراقبه من طرف خفى !

الإنجليز واليونانيون يضعونه تحت المراقبة !

وبعد رحلة قاسية رست السفينة يوم ١٩ مايو سنة ١٩١٩ فى ميناء « سامسون » على البحر الأسود ، بينما كانت تزأر فى الجو عاصفة شديدة ، وكانت القوات الإنجليزية تحتل المدينة ، فدس ضابط قلم مخابراتهم أنفه فى كل حركات مصطفى كمال وسكناته . . ووشى عملاؤهم اليونانيون والأرمن بكل تنقلاته وأحاديثه ، بل حتى بمكالماته التليفونية . . أما الأتراك فقد خشوا حتى أن يكلموه !

وانتحل حجة نقل بها مركز قيادته من المدينة إلى « كافسا » ثم إلى « أما صيا » وهى بلدة بعيدة فى داخل البلاد ، تقع على الطريق الرئيسى الذى يصل بين شرق تركيا وغربها . . وهنا أتيح له أن يتحرر أخيراً من الإنجليز المتربصين ، فتنفس الصعداء . . ومد يديه فى حركة من يوشك أن يأخذ عدوه فى قبضته ! . . لقد عاش فى العاصمة ستة أشهر يغلى غيظاً وحنقاً ، مجبراً على أن يبقى مسلوب القوة مكظوم المشاعر ، بينما المدينة تئن تحت أقدام الحلفاء المنتصرين ! . .

ستة أشهر أجبر خلالها على أن يرقب الساسة والرسميين ، وفى مقدمتهم السلطان ورئيس الوزارة ، يحنون هاماتهم صاغرين ويلعقون مواطئ أقدام الإنجليز ، الأمر الذى طعن كبرياءه الوطنى - كتركى - فى الصميم . . فصر على أسنانه كمداً وراح يجتر كراهيته الهائلة للأعداء الظافرين ، وهو جالس بلا حراك ، ولا حول أو طول !

لكنه الآن يستطيع أن يتحرك . . وبعد الأشهر الطوال من السكون والدعة انقلب ، برد فعل عجيب ، إلى كتلة من النشاط الخارق ،

هدفها مقاومة العدو ! . . إنه يبغى أن ينظم حركة المقاومة . وأول خطوة عليه أن يتخذها هى أن يدعم سلطته على الجيش ، ومن ثم أرسل — من أماصيا — يطلب بالتليفون والبرق تقارير عن الحالة فى شتى أنحاء الإقليم . . !

كان الموقف غاية فى البساطة : إن تركيا ترقد مثخنة بجراح الهزيمة وليس فى طوقها أن تبذل مقاومة عسكرية إيجابية . كان كل ما بقى لها أربعة جيوش فى الأناضول ، وجيش فى أوربا ، وفى الجهة الأخرى من العاصمة . وكانت أربعة من هذه الجيوش الخمسة مجرد هياكل اسمية ، بقيت لها قيادتها العليا فقط أما جنودها فقد سرحوا وجمعت أسلحتهم فى المخازن والمستودعات ثم سلمت إلى الإنجليز . والجيش الباقى بقوته هو جيش « كاظم قره بكير » المعسكر فى ديار بكر ، فى أقصى الشرق . . ثم بضع عصابات كمنت فى الجبال المواجهة لازمير وقد أقسمت أن تقاوم قوات الغزو اليونانية التى أرسلها الحلفاء بقرار من مؤتمر باريس ! . .

وكان رؤوف قد استقال من منصب وزير البحرية وأخذ على عاتقه أمر تنظيم حرب هذه العصابات

وأدرك مصطفى كمال أنه فى حاجة إلى معاونة قواد الجيوش المتفرقة ، فاستدعى رفعت من سيواس ، ودعا على فؤاد — قائد الجيش العشرين المعسكر فى أنقره — كى يقابله فى أماصيا . . فحضر على فؤاد وفى صحبته رؤوف !

وكان الإجتماع سريًا ، تولى فيه عارف مهمة تسجيل أحاديث المجتمعين . . فأدلى مصطفى كمال بوجهة نظره وبسط آراءه ، فوافقه الجميع على أن المقاومة هى الأمل الوحيد الباقى . ومن ثم رسموا خطة

لتنفيذها تتلخص فى أن يضاعفوا وينظموا العصابات غير النظامية التى تواجه إزمير . كى تعرقل وتعوق تقدم القوات اليونانية . ووراء ستار هذه المناوشات يعيدون تكوين جيش وطنى واحد ، نظامى وقوى ، على أنقاض الجيوش « الاسمية » المتفرقة ! نعم ، عليهم أن ينشئوا فى أنحاء البلاد مراكز محلية لقيد الجنود وجمع الأسلحة ، على أن يتصرفوا بحذر بالغ ، وإلا سحق الإنجليز حركتهم فى مهدها ! . وهم يدركون أنهم لن يتلقوا عوناً من السلطان أو الحكومة المركزية ، وأن الشعب فى كل مكان منهك القوى ولن يستيقظ أو يثور بسهولة .. لكنهم سيبذلون أقصى ما فى وسعهم !

وكان لابد أن توحد مراكز المقاومة العديدة تحت إدارة واحدة : فاستقر الرأى على أن يتولى « على فؤاد » قيادة جميع القوات فى الغرب . . وكاظم قره بكير قيادة قوات الشرق . . ومصطفى كمال قوات القطاع الأوسط . . !

ثم استطرد مصطفى كمال قائلاً :

– إن الحكومة المركزية والسلطان واقعان تحت سيطرة الأعداء ، فينبغى أن نقيم حكومة وقتية هنا فى الأناضول !

ولكن . . لم يكد مصطفى كمال يدس أنفه فى السياسة حتى تردد الذين حوله وبدأت الشكوك تساورهم فى نيته ، فقد كانوا جميعاً يعرفون نزعته الثورية ويخشون بأسها . وهكذا بدأ رؤوف فأبدى معارضته فى اتخاذ أية خطوة من شأنها إغضاب السلطان « الخليفة » أو حكومته المركزية . . أما على فؤاد فكان حذراً متهيباً وغير متأهب لقبول مصطفى كمال رئيساً له ! . . وكان رفعت أيضاً يرتاب فى

مصطفى كمال وقد استعاد إلى ذاكرته ما سمعه من آرائه على ظهر السفينة ، وهي كلها تنطق بمطامعه وأفكاره الثورية وعدم احترامه لجميع ما درج الناس والتقاليد على الولاء له !

وحاول مصطفى كمال بكل ما أوتي من قوة تأثير أن يقنعهم باقتراحه ويكسبهم إلى صفه ، فقد كان فى أمس الحاجة إلى معاونتهم . . وأخيراً وافقه رؤوف وعلى فؤاد ، أما رفعت فقد ظل متردداً . لم ير أية فائدة من إنشاء حكومة مستقلة فى الأناضول . . لكنه أمام إلحاح مصطفى وحرج الموقف ، إضطر إلى الموافقة !

وقرر الأربعة أن يوجهوا — فى أسرع وقت — الدعوة إلى عقد مؤتمر فى « سيواس » يضم من يمثلون شتى أقاليم تركيا . . وسرعان ما تلقى مصطفى كمال تأييد كاظم قره بكير — قائد جيش ديار بكر — لقراراته . . وتلاه تأييد مماثل من « جعفر طيار » — من أدرنة — ومن القائد العام لمنطقة « قونية » . . وبذلك ربح مصطفى كمال الجولة الأولى من الصراع : ضم إلى صفه كبار قواد الجيش !

وعلى أثر ذلك عكف على وضع خطته لإثارة الشعب نفسه ، فطاف بالقرى ، وخطب فى الموظفين ، وجمع حوله الضباط المسرحين المتعطلين . وفى كل مكان وكل مناسبة نادى بمقاومة الإنجليز الغاصبين ، قائلا :

« لقد قرر العدو أن يدمر تركيا ، وطننا ، ويمزقها شر ممزق . . ويقيم ولاية يونانية حول سامسون ، وقد إمتلأت جميع قرى الأقاليم بوكلاء بطريرك اليونان . . وبات السلطان — خليفتكم — مسلوب الحول والقوة ، أسيراً فى أيدى الإنجليز . . لذلك أرسلنى إليكم كى أنقذكم ، لكنكم يجب أن تنقذوا أنفسكم بأنفسكم . . ولا جدوى فى بقائكم مكتوفى الأيدى

فى انتظار عون من الخارج . . وإنما السبيل الوحيد إلى إنقاذ وطنكم من الهلاك المحتوم وحماية زوجاتكم وبيوتكم من العار والمذلة هو أن تتطوعوا فى صفوف الجيش الوطنى الجديد وتقاوموا العدو بقوة السلاح ! » .

هكذا كان مصطفى كمال يقول فى بياناته ، وقد أرسل إلى كل قرية مندوبين مهمتهم أن يؤلفوا لجنة محلية للمقاومة ! . وكانت الخطة جبارة عسيرة التنفيذ ، فقد كان الشعب ممزقاً ، منسحق النفوس والأجسام ، فقد كل أمل فى المستقبل ، وتبخر من رؤوس أفراده كل تفكير فى المقاومة ، أو حتى الاحتجاج ! . . لقد غرق فى لجة اليأس والاستكانة بعد سنوات من الحروب الطاحنة والهزائم المتتالية . . ولم يعد ينشد غير السلام ، وإتاحة الفرصة له كى يعيش حياة هادئة ويحصد محاصيل حقوله !

لكن الأهلين وهم يستمعون إلى خطب مصطفى كمال الثورية بدأوا يستيقظون شيئاً فشيئاً . . وكانت الأنباء تترى من (إزمير) حاملة تفصيلات ما يقدم عليه اليونانيون من حرق القرى وذبح الأتراك . . فجعل مصطفى كمال ينفخ فى رماد الغضب والحمية المتخلفين فى النفوس ليعيدهما إلى الاشتعال من جديد . . وسرت فى قرى الأناضول ريح البغضاء للإنجليز ، فأثارت فى الجماهير نشاطاً جديداً . . وأقبل الضباط ينضوون تحت لواء مصطفى كمال ، فنفخ فيهم من روحه ، وأرسلهم إلى القرى الأخرى ليشعلوا فيها نار الحماسة ! .

يرفع راية العضيان !

طارت أنباء هذا النشاط إلى العاصمة ، فهدد الإنجليز بأخذ الثأر .. واستشاط السلطان غضباً ، فقد كان من رأيه أن المقاومة التى تدبر ضرب من الجنون ، وأنها عقيمة لن تؤدى إلى نتيجة غير استفزاز الحلفاء كى يسحقوا تركيا سحقاً كاملاً ! .. وقد أرسل مصطفى كمال إلى أقاليم البلاد الداخلية كى يوقف كل مقاومة ، لكن هذا ما لبث أن استخدم اسم السلطان كى يشجع المقاومة !

وإزاء ذلك أمر السلطان باستدعاء مصطفى كمال كى يقدم له تقريراً عن أعماله .. فلم يكد مصطفى يتلقى الأمر حتى اتجه إلى مكتب البرق وأرسل إلى السلطان برقية شخصية مطولة عاجلة ناشده فيها باعتباره الخليفة والسلطان والقائد لشعبه ، أن يذهب إلى هناك كى يقود ثورتهم ضد العدو الأجنبى !

وطيلة تلك الليلة لبث مصطفى فى مكتب التلغراف ينتظر الرد .. وعند الفجر تلقى رداً مقتضباً يأمره السلطان فيه بالعودة فوراً ، فأبرق إليه بدوره يقول : « سوف أبقى فى الأناضول حتى ينال الشعب استقلاله ! » .. فما كان من السلطان إلا أن عزله من قيادته وأخطر جميع السلطات المدنية والعسكرية بوجوب عصيان أوامره .. فاستقال مصطفى كمال من الجيش ، واستدعى جميع مناصريه وقواد الجيش وخاطبهم بقوله : نحن الآن فى مفترق الطرق ، فإذا مضينا إلى الأمام فنحن إنما نفعل ذلك اعتماداً على أنفسنا فقط ، فإن الحكومة المركزية سوف تكون ضدنا ، وقد يعنى ذلك نشوب حرب أهلية . وسيكون علينا أن نواجه مخاطر كبيرة ونبذل تضحيات جسيمة .. ومتى بدأنا

السير فى طريقنا فينبغى ألا يفكر أحد فى الفرار أو الندم أو النظر إلى الخلف ! فعليكم أن تقرروا أمركم . عليكم أن تختاروا لكم زعيماً . وهناك شرط واحد جوهرى للنجاح : أن يكون لكم رجل واحد فى المقدمة ، رجل واحد يقود هذه الحركة ، ورجل واحد فقط !.. فإذا اخترتمونى فسوف يتعين عليكم أن تشاطرونى مصيرى . لست الآن سوى مواطن مدنى ، وسوف أعتبر حتماً بمثابة ثائر على النظام والحكومة . ولست أطالبكم بغير شرط واحد : أن تنفذ أوامرى وتطاع دون مناقشة ، كما لو كنت لا زلت قائدكم العسكرى !

واختاروا جميعاً أن يستمروا فى طريقهم .. وانتخبوا مصطفى كمال زعيماً لهم وقائداً ، وقبلوا الشرط الذى فرضه عليهم ، وفى مقابل ذلك اشترطوا عليه هم بدورهم ألا يفعل شيئاً من شأنه أن يسبب أذى للسلطان ، فى شخصه .. فقبل الشرط قائلاً : « إن السلطان خاضع لقبضة العدو ولتوجيه ناصحيه الحمق ، فينبغى أن نقاوم حاشيته كما نقاوم الأجنبى الغاصب » .

كانت الوعود دائماً — فى نظر مصطفى كمال — وسيلة إلى غاية وسلماً إلى هدف .. ! وهذا هو الآن قد ألقى القفاز فى وجه العدو الأجنبى المحتل ... وفى وجه السلطان !

وبادر مصطفى كمال بتوجيه الدعوة إلى عقد « المؤتمر » الموعود ، من طريق برقيات أرسلها إلى جميع المناطق هذا نصها :

« إن الوطن مهدد ، والحكومة المركزية لم تعد قادرة على القيام بوظيفتها وتأدية واجبها .. واستقلال بلادنا لن يتيسر الاحتفاظ به إلا بإرادة الشعب وبجهوده . لذلك تقرر عقد مؤتمر وطنى عام فى « سيواس » للمناقشة فى الوسائل والأساليب الكفيلة ببلوغ هذه الغاية .. وفى وسع كل إقليم أن يرسل عنه ثلاثة من المندوبين .. وليحرصوا على السرية التامة ! »

وكان مركزه الشخصي غير محدد . لم يكن له قبل انعقاد المؤتمر المذكور أية صفة رسمية . كان مواطناً عادياً مجرداً من كل سلطة . بل تحاربه الحكومة الشرعية والتقاليد . وفى كثير من المدن رفضت السلطات المدنية أن تقبل أوامره ! .. ولكن من الجهة الأخرى كان يعضده قواد الجيش وأكثر ضباطه وجميع اللجان الجديدة التى تنظم حركة المقاومة ويزداد نشاطها يوما بعد يوم !

لكنه كان فى حاجة إلى نوع من الدعامة الرسمية ! .. وبعد مشاورات مع « كاظم قره بكير » دعا القواد العسكريين ومندوبى الأقاليم المجاورة إلى مؤتمر فى أرضروم . وكانت تواجهه مهمة عسيرة ، فإن كثيرين من الذين حضروا هذا المؤتمر كانوا يعارضون آراءه ، بل يعارضون سعيه إلى السلطة .. كانت تعتمل فى نفوسهم عوامل كثيرة من الغيرة الوضيعة . لكن مصطفى كمال – بصبر جميل وتواضع جم – أخذ يستميلهم إلى صفه .. وشيئاً فشيئاً بدأ يدعم زعامته الشخصية عليهم ، لكنه كان يلتقى دائماً بالشكوك والريب التى تعترض سبيل سيطرته الكاملة عليهم !

وفى وسط المناقشات المحتدمة جاءت الأوامر من حكومة القسطنطينية المركزية إلى « كاظم قره بكير » بإلقاء القبض على مصطفى كمال وفض المؤتمر وإعادة مندوبى الأقاليم إلى بلادهم !

وبات مستقبل مصطفى بين يدى كاظم بكير . كان هو القائد المسيطر على القوة الوحيدة النظامية فى تركيا ، وكان بفطرته نظامياً صارماً ، عادلاً ، محافظاً ، محباً للتقاليد .. فتردد أمام هذا الحرج . كان قد وعد مصطفى كمال بأن يؤيده ، لكن ولاءه للسلطان وحكومته المركزية كان يستحثه على تنفيذ الأمر بالقبض على مصطفى ! ولم يخف نص الأوامر التى تلقاها ولا مدى الحيرة التى يعانيها .. وبات الموقف معلقاً فى ميزان يتأرجح بين شخصيتين :

كاظم .. ومصطفى كمال .. فبذل هذا الأخير كل جهده وبراعته فى النقاش كى يقنع صاحبه بالانحياز إلى جانبه . كان يدرك أنه لو فشل الآن فقد هزم ! واعتزم – أيًّا كان ما يحدث – أن لا يدع نفسه يعتقل ويسلم إلى السلطان وإلى الإنجليز ، كى ينفوه إلى مالطة ليقضى بقية أيامه فى زنزانة ضيقة ، أو لعلهم يحكمون عليه بالشنق !.. وعاودته ذكريات الأيام التى قضاها فى « السجن الأحمر » فحدث نفسه بأنه يؤثر الموت على أن تتكرر . ودبر أمره مع عارف على أن ينشدا الفرار فيما إذا فشل فى التأثير على كاظم ، فإذا افتضح أمرهما قاتلا مطارديهما حتى يقتلا .. أما أن يؤسرا فلا !

واستخدم مصطفى كل بلاغته وحماسته فى محاولة إقناع كاظم قره بكير .. وقال له : « ينبغى أن نكون مخلصين ، لكن إخلاصنا وولاءنا يجب أن يكون لتركيا ، أما السلطان وحكومته فهما ألعوبة فى أيدى العدو الأجنبى ، ومن ثم فالأوامر الصادرة من العاصمة ليست فى الواقع صادرة من السلطان بل من الإنجليز ، وإذن فهى غير شرعية . والسلطة الوحيدة الشرعية هى الممثلة فى مؤتمر المندوبين المنعقد الآن . وفى المؤتمر الوطنى العام المزمع أن يعقد فى (سيواس) .. » .

وبهذا النقاش استدرج مصطفى كمال كاظم قرة بكير إلى متاهة من الأبحاث الفلسفية السياسية .. ثم ناشده كزميل ، وذكره بوعده له بالمساعدة .. وكان كاظم بفطرته بطيئاً فى الوصول إلى قرار فى أمر من الأمور ، لكنه إذا استقر عليه لم يكن ليغيره أو يتراجع عنه !.. وأصدر الرجل قراره أخيراً ، بالوقوف فى صف مصطفى كمال ورؤوف والشعب !.. وعقد المؤتمر فى جو من السخط على حكومة السلطان المركزية ، وانتهى إلى قرار حازم هذا نصه : « تنظم مقاومة للاحتلال والتدخل الأجنبى ..وتؤلف حكومة وقتية تتولى تصريف

أمور الدولة إذا عجزت الحكومة المركزية أو امتنعت عنه . . ! » .

وانتخب المجتمعون لجنة لتنفيذ قراراتهم ولتمثيلهم أمام مؤتمر « سيواس » المقبل . واختاروا مصطفى كمال رئيساً للجنة . كما أختير رؤوف مساعداً له .. وكذلك انتخبوا مصطفى كمال مندوباً عن ولاية أرضروم .. وهكذا ربح (الذئب الأغبر) الجولة الثانية الكبرى من جولات القتال .. وصار فى مركز معترف به ، يظاهره فيه كاظم قره بكير وقواته .. !

ينجو من الاعتقال ، بمعجزة !

أقبل المندوبون من شتى بقاع تركيا لحضور المؤتمر العام فى سيواس . جاءوا متنكرين خلال ممرات الجبال وتحت جنح الظلام ! .. وكانت الحكومة المركزية قد أصدرت إلى البوليس أمراً باعتراض سبيلهم . ولم ينج مصطفى كمال نفسه من الاعتقال إلا فى آخر لحظة ! إنه آمن فى أرضروم وسيواس ، حيث توجد قوات نظامية . لكن جمعاً من رجال المباحث انتظروه فى الطريق ليوقعوا به غيلة . فحذره بعضهم فى الوقت المناسب وإذ ذاك لجأ إلى طريق آخر يخترق الجبال ووصل إلى سيواس سالماً !

ولم تكن لمندوبى الأقاليم أهداف واضحة . فاشتبكوا فى مناقشات طويلة دون نتيجة . وكان من رأى بعضهم أن مقاومة الإنجليز بالسلاح مستحيلة .. ولم يبد مستعداً لمواجهة الحكومة المركزية بالعداء وتعريض البلاد لخطر الحرب الأهلية غير نفرٍ ضئيل .

لكن مصطفى كمال ثابر على مناقشتهم ومقارعتهم الحجة بالحجة دون ملل ، فى صبر نادر لم يكن طبعاً أصيلاً فيه .. فقد كان أول من يعلم أن كل

المستقبل يعتمد على نجاحه فى هذا الموقف . ومن ثم صار يجلس إليهم الساعات الطوال يجادلهم حيناً ويغمرهم حيناً آخر بسيل من كلامه المشتعل حماسة وحمية . وكان بذلك يكتسح معارضتهم اكتساحاً ! وكأن إيمانه برسالته التى تهدف إلى إنقاذ وطنه قد أمده فى ذلك الظرف الخاص بفصاحة غير عادية !

وشيئاً فشيئاً وطد مصطفى زعامته وسيطرته على المجتمعين ، كما فعل من قبل فى أرضروم ، فانحاز إليه المعارضون واحداً بعد واحد ، لكن الأغلبية ظلت تضن عليه بثقتها .. حتى رؤوف وكاظم بكير حاولا إقناعه بألا يرشح نفسه رئيساً للمؤتمر !

على أن ذلك لم يكن بذى أهمية فى الأمر ، فقد شق مصطفى طريقه بنجاح ، فى وثوق وتأنٍ !.. كان ، بصفاء ذهنه ، يعرف ما يريد ويسعى إليه مباشرة . . وحتى الذين ضنوا عليه بثقتهم وقعوا تحت تأثير سحره فسيطرت شخصيته على الحاضرين جميعاً !

ومرة أخرى خدمه أعداؤه فى إستانبول .. فى منتصف دورة المؤتمر وقع فى يد أنصاره أمر مرسل من الحكومة المركزية إلى « على غالب » حاكم (مالاطيا) – وهى إقليم يقع إلى الجنوب من سيواس ، فى بلاد الأكراد – وكان الأمر يوصى بتدبير حملة من رجال القبائل الأكراد لكى يغيروا على سيواس ويقبضوا على مندوبى الأقاليم الذين حضروا المؤتمر .. ذلك أن السلطان اعتقد أنه يستطيع الاعتماد فى تحقيق غايته على التعصب الدينى والولاء له بوصفه السلطان خليفة المسلمين !

وتلقى الحاضرون هذا الأمر بحنق شديد . اعتبروا تحريض عشائر الأكراد على إلقاء القبض عليهم إهانة لا يمكن السكوت عليها . ومن هنا طلبوا إلى مصطفى كمال أن يرسل قوات نظامية إلى مالاطيا . فأعد مصطفى حملة من فرق المشاة

نوافذ من جميع الجهات تشرف على السهول الصفراء العظيمة الممتدة أمامه إلى مالا نهاية . . . فشيدت فكرية فى الحجرة الوسطى منه ، نافورة من الرخام الأبيض تخرج الماء من قلبها فى أيام الصيف الحارة حين تمتلئ السهول بالغبار !

واختار مصطفى كمال غرفة لمكتبه يستطيع أن يطل منها على السهل ويرى أنقرة من بعيد مشيدة فوق سفح التل العارى وفوقها القلعة القديمة .. وفرشت فكرية الغرفة بالسجاد العجمى والتركى ، وعلقت على الجدران السيف البديع الذى أهداه إليه السيد السنوسى ، كما رتبت كتبه العديدة .. وكان مصطفى كمال من فرط ثقته بأنه سوف يحكم تركيا يوماً ، يحرص على قراءة كتب تاريخ الإسلام ودراسة المشكلات الاجتماعية ! . . وفوق منضدته ثبتت فكرية قطعة من القماش الأخضر مزركشة بالرموز السحرية الغامضة التى كان مصطفى – وهو المتطير المؤمن بالخرافات – يعتقد صدق أثرها ، برغم كفرانه بجميع شؤون دنياه الأخرى . .

وعدا هذا كله سهرت فكرية على سد حاجات مصطفى جميعها ، وتمريضه إذا مرض . . وصارت له بمثابة جارية خاضعة . . أعطته كل شىء ولم تسأل فى مقابله شيئاً غير أن يسمح لها بأن تكون جاريته ! . . وقد لبث مصطفى كمال زمناً مستغرقاً بكل جوارحه فى هواها ، لكنه عاد فسئمها وملها ، وعاد يسهر خارج البيت . . حتى أكلت الغيرة الضارية قلبها ، وكلما فتر شعوره نحوها ، ازداد حبها هى له حرارة وعنفاً !

* * *

وفى هذا الوقت الذى عمل فيه مصطفى كمال وفوزى فى أنقرة كان عصمت فى ميدان القتال يجهد كل عصب فيه كى يدعم مواقعه فى « افيون »

و « اسكى شهر » تأهباً لملاقاة اليونانيين ، الذين كانوا يحشدون جيوشهم ، ويجلبون الإمدادات من المدافع والطائرات ، ويضربون خط دفاعه بالغارات الاستكشافية والهجومية بلا انقطاع . وكان واضحاً أنهم يفوقون الأتراك عدة وعتاداً وعدداً !

وفى الأسبوع الأول من يوليو ، وقبل أن يكتمل استعداد الأتراك ، قام اليونانيون بهجومهم المرتقب ، فاكتسحوا كل ما أمامهم واحتلوا كوتاهيا وأفيون ، ثم ركزوا قواتهم فى مهاجمة « اسكى شهر » ملتقى الخطوط الحديدية ومفتاح غرب الأناضول كله !

وجلس عصمت فى مقر قيادته المتواضع خلف اسكى شهر ، محطم الأعصاب والقوى بعد أيام متتالية من المجهود الشاق والهزائم المرة ! . . . وبلغ من إعيائه أنه كان ينام فى مقعده وهو يقرأ تقريراً أو يدرس خريطة ! .

وكانت الطوابير اليونانية تزحف نحو « اسكى شهر » من ثلاثة إتجاهات ، بغية تطويقها وتطويق الجيش التركى الرئيسى معها . . وفشلت جميع الهجمات المضادة التى شنها عصمت على العدو الزاحف ، وأمسى الموقف يحتاج إلى قرار حازم لمواجهة الخطر المحدق : هل يثبت عصمت فى مواقعه برغم يأسه من النتيجة ، أم يخلى البلدة ويتقهقر بانتظام تاركاً للعدو مخازنه المليئة بالذخائر التى جمعت بشق النفس ، بل تاركاً الأهالى المدنيين تحت رحمة اليونانيين القساة الغلاظ الاكباد ، يسومونهم سوء العذاب ؟ !

وفى غمرة حيرته المريرة أبرق إلى مصطفى كمال طالباً إليه أن يخف من فوره لنجدته ولاتخاذ قرار حاسم فى الموقف !

عندما يتخذ الزعيم القرار المصيرى !

ولم يضيع مصطفى كمال وقتاً ، فوافاه على عجل ! . . لم يحاول أن يروغ من المسئولية أو يتهرب من مواجهة الموقف ، بل حمل العبء على كتفيه دون تردد . . . وللحال امتلأ الجو بروح جديدة من الشجاعة والتفاؤل ، اللذين كان مصطفى – على العكس من عصمت – قديراً على بثهما بسحر ساحر فى نفوس الجنود ، حتى فى أحرج الأوقات !

وبعد أن أصغى مصطفى إلى التقارير ، ودرس الخرائط ، فكر فى الأمر ملياً : إنه حين أمر بالتقهقر فى معركة دمشق كان يخلى أرضاً غير تركية ، يقطنها عرب وسوريون ، أما اليوم فهو سيخلى أرضاً تركية صميمة ، ويخلف مواطنيه رجالاً ونساء تحت رحمة العدو يحرق ويغتصب ويدمر وينتهك الحرمات ! . . لكنه من جهة أخرى لو بقى فى مراكزه فمعنى ذلك فناء الجيش التركى الرئيسى كله ! ولم تحجب الاعتبارات العاطفية والوطنية عن ذهن مصطفى كمال حقيقة الموقف من الناحية العسكرية ، فأصدر أمره الحازم : « اخلوا اسكى شهر . . انسحبوا فوراً مسافة ثلاثمائة كيلومتر إلى نهر « سقاريا » وأعدوا هناك خطاً دفاعياً جديداً لحماية أنقرة . . فذلك سوف يطيل خطوط مواصلات العدو ويخلق له مشكلات جمة ، فى الوقت الذى يعطينا فيه فرصة إعادة تنظيم صفوفنا ! »

ثم عاد مسرعاً إلى أنقرة ليواجه الأزمة الجديدة ، فوجد أهالى المدينة يحزمون أمتعتهم ليفروا شرقاً نحو الجبال . . ومرة أخرى عاد النواب يتصايحون مطالبين بدم « المسئولين » ! . . فواجههم مصطفى كمال بشجاعته المعهودة ، وفى هذه المرة طلب إليهم أن يعينوه قائداً عاماً ويزودوه

بكل سلطات الحاكم المطلق . . لكن « الجمعية الوطنية » أبدت تردداً ، فقد كان النواب يخشون خطره ! . . وأبى هو أن يساوم : فإذا أريد منه أن ينقذ تركيا فليمنح السيطرة الكاملة ! . . وبعد أن اشترطت « الجمعية الوطنية » بضعة شروط تحمى سيادتها العليا . . وافقت على طلبه ، فصار هو القائد الأعلى للجيوش التركية كلها . وتجمعت السلطة كلها فى يده !

وعلى أثر ذلك وجه نشاطه الخارق المعهود إلى اتخاذ التدابير لإنشاء خط دفاعى جديد يواجه العدو الزاحف . وفى أثناء ذلك سقط من جواده فأصيب فى أحد ضلوعه إصابة ألزمته الفراش يومين .. ثم عاودته آلام كليتيه .. بالإضافة إلى حرارة يوليو المحرقة التى تصهر الجماد .. لكن هذا كله لم يحد من عزيمته ، فهرع إلى الجبهة ليشرف على سير الأمور فيها بنفسه !

وفى فجر يوم ٢٤ أغسطس – سنة ١٩٢١ – هاجم اليونانيون الجبهة التركية بعد أن مهدوا لهجومهم بوابل من قنابل المدفعية الثقيلة ، فالتحم الفريقان فى معركة حامية قاتل فيها كلاهما بالسلاح الأبيض فى حماسة تذكيها الكراهية الموروثة المتأصلة فى دماء كليهما نحو الآخر .. ! واستمر القتال على هذا النحو أربعة عشر يوماً متوالية ، تحت أشعة شمس أغسطس المحرقة ! اليونانيون يهجمون فى غضب أحمق ، والأتراك يدافعون ببسالة رائعة .. وفى قرية تقع خلف الخطوط التركية راح مصطفى كمال يذرع مقر قيادته فى قلق ولهفة ، وضلعه المصاب ما زال يؤلمه . ولم يكن ينام إلاَّ لماماً ، وبثيابه الكاملة ، كما كان يكتفى من الطعام بلقيمات فى فترات فراغه غير المنتظمة .. فوقته كله موزع بين الإصغاء إلى السيل المتواصل من التقارير الحربية ، وتأمل الخريطة المثبتة بدبابيس فوق منضدته ، واتخاذ القرارات العاجلة ، ودراسة الموقف من شتى وجوهه ... وفى الليل كان يظل ساهراً على ضوء مصباح صغير

يفاضل بين شتى الاحتمالات ، محدثاً نفسه بصوت مسموع ، أو متحدثاً إلى صفيه « عارف » الذى كان خبيراً بكل شبر من الأرض والجبال فى تلك المنطقة !

وكان الموقف شديد الحرج ، فلو هزم الأتراك فى هذه المعركة لاضطروا إلى الانسحاب مسافة كبيرة إلى الشرق ، ولسقطت أنقرة فى أيدى الأعداء ، وكانت فى ذلك نهاية تركيا !. وإذن فهذه هى الفرصة الأخيرة ؛ فليصمدوا فيها إلى النهاية !..

وكان اليونانيون يتحسسون الجبهة بحثاً عن جناح ضعيف يلتفون حوله . فساءل مصطفى كمال نفسه : « أنهاجمهم من المؤخرة أم ننسحب ؟ » . إنه لا يملك غير عدد قليل من الجنود ، لا يستطيع التفريط فيهم أو المخاطرة بهم فى غير ضرورة قصوى !.. هذا إلى أن الإشراف على المعركة كان فى أيدى قواد الطوابير المختلفة أكثر مما هو فى يده ، وكانت هذه الطوابير موزعة مبعثرة بين التلال والوديان والزوايا والكهوف ! . . لكنه مع ذلك كله بذل قصارى جهده لكى يسيطر على المعركة ، مثيراً بشخصيته الجبارة حماسة الجنود ومنعشاً آمالهم كلما تزعزعت.. وكم من مرة كانت فيها الهزيمة تبدو محققة ، لولا تدخله فى اللحظة الحاسمة والموضع الحاسم لإنقاذ الموقف !

كان قد درس كل شبر من الأرض ، وعرف قيمة كل فريق من قواته ، ومؤهلات كل قائد صغير من القواد ، فأدار المعركة من غرفته فى مقر القيادة العليا ببراعة ويقظة رائعتين !

وبعد أربعة عشر يوماً من القتال المتواصل كانت النتيجة ما زالت فى كفة القدر . لكن مصطفى أدرك أن اللحظة الحاسمة وشيكة الحلول ، وأن أحد الفريقين لا بد أن ينهار عما قريب ، فقد بلغ الإعياء بكليهما مبلغاً لا يحتمل

المزيد . وفى الساعة الثانية بعد منتصف الليلة الخامسة عشرة ، دق جرس التليفون فى غرفته ، وكان المتكلم فوزى باشا يقول له : « إن العدو بلغ نهاية جهده ، وهو يتأهب لانسحاب عام ! » ، وعندئذ وضع مصطفى كمال السماعة وجلس برهة يوزع الأعلام الصغيرة فوق خريطة جبهة القتال ، فى ظل مصباح صغير أظهر مدى ما أصابه من إعياء بتلك الدوائر السوداء التى ارتسمت تحت عينيه .. ثم أصدر أوامره التالية : « الهجوم اليونانى يتراخى وسوف يتضاءل . فلنبدأ نحن الخطوة الحاسمة .. ألقوا بجميع قواتنا الاحتياطية هنا فى الشمال ، وهددوا خط انسحاب الأعداء من هذا الاتجاه !» ، ثم استدار صائحاً فى طلب قدح من القهوة .. وهو يسب ويلعن – كعادته فى لحظات انفعاله – كل من حوله – حتى الجاويش الذى احضر له القهوة ! – لكن رنين صوته كان قد تغير .. !

واستمر اليونانيون يدافعون فى بسالة وعنف أسبوعاً كاملاً ، لكن قواهم الدافعة كانت قد اضمحلت .. ومضى مصطفى كمال بشخصه إلى خط النار ، يتنقل بين جنوده ويشعل حماستهم .. فى الخنادق ، وفى العراء .. معرضاً حياته للخطر بلا أدنى تحوط .. ومع ذلك ، وبرغم أن من حوله كانوا يتساقطون قتلى كالفراش . . فإنه لم يصب بأى سوء !

وفى اليوم الثانى والعشرين عبر اليونانيون نهر « سقاريا » عائدين من حيث أتوا ، حارقين ومدمرين كل ما وراءهم طبقاً لخطة مرسومة ، فتركوا البلاد خلفهم على مدى مائتى ميل صحراء جرداء ! .. واندفع مصطفى كمال يلاحقهم بالقوة الضئيلة التى بقيت قوية على القتال ، حتى ألزمهم عقر خنادقهم التى بدأوا منها هجومهم على « اسكى شهر » فى شهر يوليه .. وإذ ذاك رابط فى خط مواجه لهم ، وأمر جنوده بحفر خنادق مماثلة . . ثم عاد هو إلى أنقرة !

الفصل الرابع

معجزة تحرير الأناضول !

جُنت الجماهير فى أنقرة فرحاً بزوال الخطر عن مدينتهم ، بعد أن حزموا أمتعتهم وجلسوا ينصتون إلى دوى المدافع فى انتظار ساعة الرحيل !

واحتفلوا بزعيمهم الظافر مصطفى كمال ، وخلعوا عليه لقب « الغازى » .. واشتركت الدول الأجنبية فى التصفيق له ، فجاءت برقيات التهنئة تترى عليه من : روسيا ، وأفغانستان ، والهند ، وأمريكا ، وحتى من فرنسا وإيطاليا ! لكن مصطفى كمال لم يركب رأسه أو يستسلم للغرور . كان يحب التصفيق والاختيال أمام الجماهير . يحب أن يكون موضع إعجاب الناس ، وأن يمجدوا بطولته .. ولقد اعتزم أن يسيطر ويصبح السيد الآمر ، لكن اتزانه لم يفارقه مع ذلك ، وبقى له صواب حكمه وبعد نظره وثبات أعصابه ! .. كان يعرف أن وقف هجوم الأعداء وكسب الأتراك أول انتصار لهم لا يمكن أن يعد نصراً حاسماً . كل ما فى الأمر أن الأتراك قد نجوا من الهلاك المحقق وصار ظهرهم إلى الحائط ، لكن البقية الباقية منهم لم تعد صالحة لمواصلة الهجوم ، ويتعين عليه الآن أن يعطل الأعداء عن الهجوم حتى يعيد تنظيم الجيش كله من أساسه ويوفر له الإمداد ووسائل التموين والأسلحة اللازمة ويستبدل بالكسيحين المصابين مجندين جدداً .. وهذا كله من شأنه أن يستغرق أسابيع وربما شهوراً ، يكون النصر بعدها رهناً ببقاء القوة المعنوية للأهالى المدنيين ، كما هو رهن بالتنظيم العسكرى والمعركة الفاصلة .. !

.. وعكف على العمل من فوره ليل نهار ، بمعاونة عصمت وفوزى، فى نشاط خارق وبراعة فائقة.. وفى سبيل بلوغ هدفه وصل إلى اتفاق مع فرنسا ، وعقد معاهدة سرية مع ممثل الوفد الفرنسي « فرانكلين بويون » ، اطلق بمقتضاها عقال ثمانين ألف جندى من الجبهة السورية ؛ وحصل على عتاد وذخيرة لأربعين ألفاً آخرين ! . . ثم لم يكتف بذلك فابتاع أسلحة من إيطاليا وأمريكا - بأموال اقترضها من روسيا ! - وجند طبقات جديدة من الشعب . .

وتوالت الأشهر والاستعدادات الشاقة قائمة على قدم وساق ، فوقع رد الفعل المنتظر بعد الفرحة الأولى بالنصر ! ضج الناس بالشكوى والملل من الحرب ، وعاد القرويون يطالبون بأن يتركوا فى سلام ، قائلين : « لقد اختفى الأعداء بعيداً عن الأنظار.. فلم القلق ؟.. لقد آن أن تنتهى الحـرب » .. واشتدت حركة المعارضة ؛ ففى ساعة الخطر منح الساسة فى الجمعية الوطنية مصطفى كمال سلطة الدكتاتور ، أما الآن - فى ساعة النصر - فقد أرادوا استرداد سلطاتهم !.. وكثرت المؤمرات من كل جانب . بدا الضباط يؤلفون جماعات سرية ويشتغلون بالسياسة .. وجاءت الأنباء بأن أنور نصب نفسه أميراً على « بخارى » ويطمع فى العودة لتركيا .. وكان جمال فى أفغانستان يعمل مستشاراً لأميرها ، فاستبد به الحنين إلى وطنه وكتب إلى مصطفى كمال يعرض عليه تحالفاً وهدنة !.. ونشطت « جمعية الاتحاد والترقى » القديمة ونظمت شعبها التى صارت تجتمع فى أوكارها الخفية .. أما الجيش فقد انتشر فى صفوفه القلق وارتفعت الأصوات مطالبة بشن هجوم على الأعداء فى الشتاء !

ونصح العقلاء لمصطفى كمال بقبول الصلح فوراً بأحسن شروط يستطيع

أن يحصل عليها ، وذلك قبل فوات الفرصة !.. لكنه أبى الانصياع للنصيحة ، وأصر على وجوب قهر الأعداء فى ساحة القتال . وراح يبث الحماسة فى الجماهير ويوقظ الناس من خمولهم و« غيبوبتهم » .. وقمع بوادر اشتغال الضباط بالسياسة والحزبية ، فشنق خمسة وعشرين منهم بتهمة التآمر على قلب نظام الحكم !.. وشدد قبضته على الجيش الذى عرف سيده فأطاعه !.. وكان فتحى ورؤوف وغيرهما من النواب الذين اعتقلهم الإنجليز فى مالطة قد أطلق سراحهم فعادوا إلى أنقرة .. وهناك أيدوا مصطفى كمال فى البداية ، لكنهم عادوا فانقلبوا معارضين له حين لمسوا نزعته الدكتاتورية ، وكان رؤوف يتزعمهم فى هذه المعارضة .. فتصدى مصطفى كمال لمحاربتهم بقسوة وبغير أية مجاملة .

وتحت وطأة الارهاق ، اشتد العبء على أعصابه . . وحتى فى بيته لم يعد يجد الراحة المنشودة . كانت والدته « زبيدة » — التى تقدمت فى السن وفقدت بصرها تماماً — قد جاءت من العاصمة لتعيش معه فى (شان كايا) . ولم تكن تكف عن انتقاد « فكرية » التى استمرت تقوم على شئون البيت ، رغم انهيار صحتها وشبهة اصابتها بداء الصدر ، ثم انهيار أعصابها وكثرة شكواها وبكائها . وكانت الأم تمقتها ، وتود لو تزوج مصطفى — وزيجة طيبة ، من إحدى بنات العائلات العريقة — وهكذا ضاق مصطفى كمال بصوت أمه المتسلط الحاد ، كما ضاق بسعال فكرية ، وأحاديثها التافهة عن مشكلات الخدم والطعام ! لم يكن لديه وقت ولا مشاعر يضيعها فى مثل هذه الأمور ! . . وكان يستعين على متاعبه بالشراب ، الذى منحه نشاطاً مضاعفاً فى عمله الشاق . .

وهكذا استمر يسعى نحو هدف واحد محدد : أن يتأهب لهجوم حربى

كبير يدمر فيه قوة العدو ثم يملى عليه بعد ذلك شروط الصلح !.. وفى أثناء ذلك ترك الساسة يحاولون الوصول إلى الهدف المشترك بالطرق السلمية ، من غير أن يؤمن بجدوى أساليبهم ، فلما عاد فتحى من باريس ولندن ساحباً أذيال الفشل فى مهمته ، ابتسم مصطفى كمال شامتاً !

وانقضى شتاء سنة ١٩٢١ ، ثم تبعه الربيع والصيف من سنة ١٩٢٢ .. ومصطفى كمال ماض فى استعداده للمعركة الحاسمة !

حفلة راقصة . . لتضليل العدو !

وفى أواخر أغسطس ، والشمس المحرقة تلهب سهول الأناضول والغبار يملأ الهواء ، قرر مصطفى كمال أن يضرب ضربته .. واختار لها اليوم السادس والعشرين . وكان قبل ذلك بحوالى أسبوع قد قطع كل المواصلات بين تركيا والعالم الخارجى ، وانتشرت شائعة تقول إن ثورة قد نشبت فى البلاد !.. وفى اليوم الرابع والعشرين وجه مصطفى كمال الدعوة إلى حفلة راقصة ساهرة تقام ليلة السادس والعشرين ، فلما انتصفت تلك الليلة انتقل مع أعوانه إلى مقر القيادة خلف الخط الأمامى ، ولم تعلم بذلك حتى أمه !.. وكانت قوات « العاصفة » التركية قد حشدت سراً فى مواجهة « أفيون » ، بينما أعدت بضع وحدات متحركة عند (اسكى شهر) كى تحول انتباه الأعداء عن الهدف الحقيقى نحو الشمال !

ولم يكن قادة اليونانيين يرتابون فى شىء مما يدبر . كانوا يتشاجرون فيما بينهم ، بينما المفاوضات تدور فى لندن فتمنح حكومتهم أملاً فى الحصول - بمساعدة الإنجليز - على سلام مشرف دون قتال !.. وكان قائدهم العام

الجنرال « هاجيا نستس » رجلاً مختل العقل ، أشبه بمجنون ، يقضى أوقاته متجولاً بين مقاهى ازمير بعيداً عن الاتصال بقواته ! .. وكان قد وُلِّىَ القيادة نتيجة لدسائس الساسة الذين كانوا يحاربون بعضهم بعضاً فى أثينا سعياً إلى السلطة . وكان الفساد قد عم الضباط والموظفين الرسميين ، وترك الجنود اليونانيون فى الخنادق بلا طعام ولا نقود ولا ثياب ولا ذخيرة ! .. فتبددت من القوات اليونانية روح الحماسة للحرب ، كما تبددت من الشعب التركى من قبل . وأخيراً أدرك مصطفى كمال أنه قد أعد كل تفصيلات الخطة ، ولم يعد يشغل باله إلا خشيته سوء الحظ ، وذلك لفرط تطيره وتشاؤمه ، فلم يجد بداً من أن يصطحب معه « خالدة أديب » التى جلبت له رفقتها النصر من قبل ! .. وكانت متغيبة فى « قونية » فأبرق لها كى تحضر على عجل ، برغم ميولها السلمية ومناقشاتها حول شرور الحرب . . فلما وصلت إلى مقر قيادته ، أيقن من الانتصار !

وحين اقتربت ساعة الهجوم أصدر إلى قواته الأمر التالى : « أيها الجنود . . إلى الأمام ! . إن هدفكم هو البحر الأبيض ! » وفى الساعة الرابعة من فجر يوم ٢٦ أغسطس شن الأتراك هجوماً على « دوملوبونار » ، مفتاح أفيون والمواقع اليونانية ، فلم يهبط المساء حتى كانوا قد اخترقوا خطوط العدو وشطروا جيشه شطرين وأتلفوا مواصلاته المباشرة مع مؤخرته !

وانهار الجيش اليونانى ! . وعمد ضباطه إلى الفرار حرصاً على النجاة بأنفسهم . . وتسابق جنوده بأقصى سرعتهم نحو ازمير وشاطئ البحر ، مدفوعين بنقص الطعام والذخيرة والحنين إلى الوطن والنفور من القتال ! . . فزالت فرق بأكملها من الوجود ، وتبعثرت أخرى إلى مجموعة متفرقة من الأفراد ! . وطارد فرسان الأتراك أعداءهم المنسحبين ، فتحول

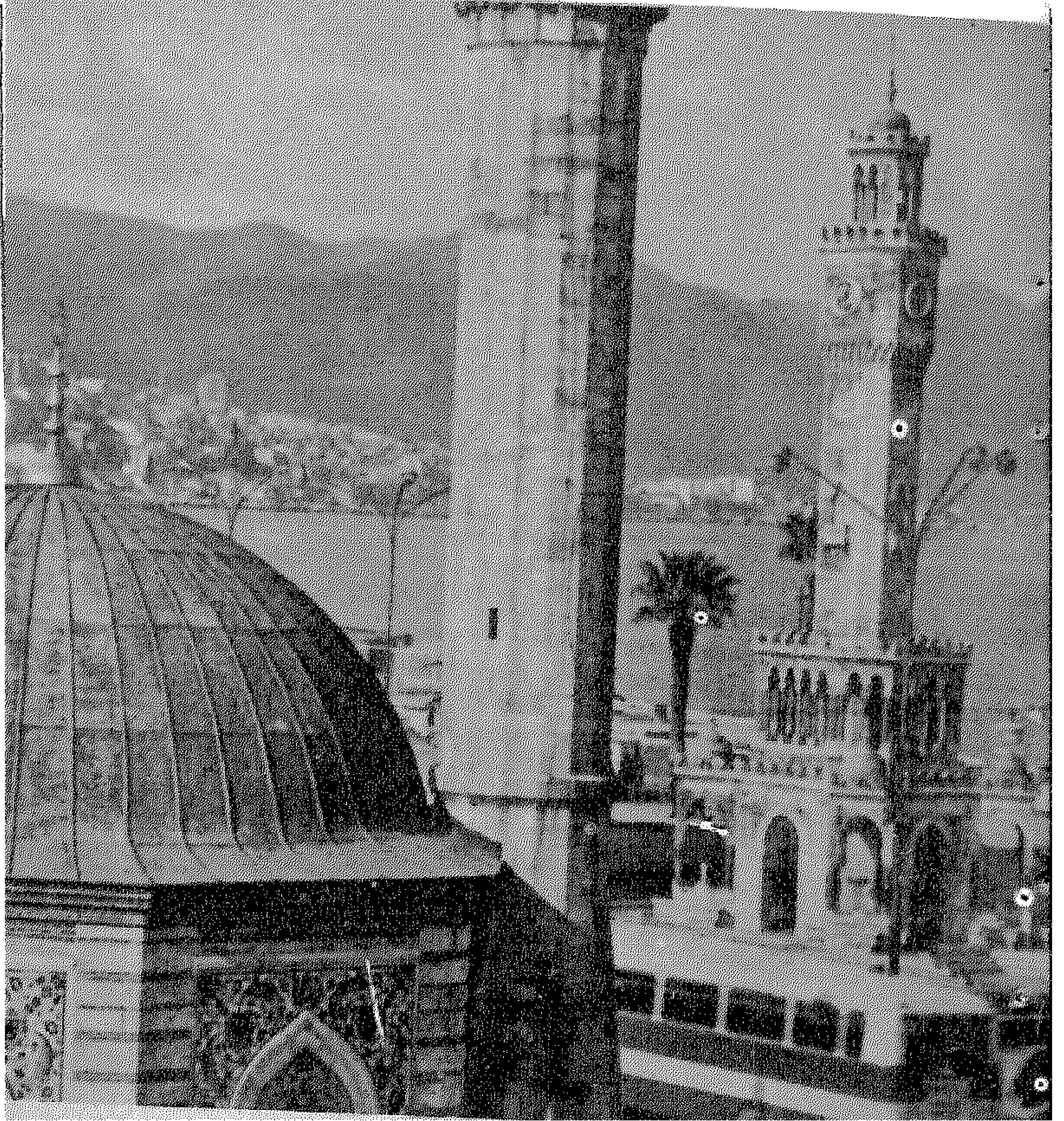
انسحابهم إلى فوضى مروعة وكابوس من الفزع الرهيب . . ومضت جموعهم تنهب السهول الصخرية نهباً ، تاركة وراءها خنادقها وخطوطها المحصنة ومخازن ذخيرتها وثيابها وخيامها ! . وانتثرت فى كل مكان جثث القتلى شاخصة بأبصارها إلى السماء ، نهباً للهوام والحشرات والكلاب الجائعة . . وفوق ذلك كله سحب الغبار الأحمر تحت الشمس المحرقة . !

وأحرق المهزومون فى طريقهم ما صادفهم من القرى ، وقتلوا النساء والاطفال ، بدافع الشهوة الملحة فى الانتقام والكراهية المتأصلة المدمرة ! . . وعجز مشاة الأتراك عن اللحاق بأعدائهم ، فقد كان عليهم أن يتقدموا حذرين – خشية المفاجآت الغادرة – أما الفرسان فقد لحقوا بهم واندفعوا يقتلونهم بغير رحمة ، محجمين عن أخذهم أسرى حرب كما تفرض قوانين الحروب !

وفى خلال عشرة أيام كان اليونانيون قد قطعوا المائة وتسعين ميلاً التى تفصلهم عن البحر ، واستقلوا سفنهم عائدين أدراجهم من حيث أتوا ! . . بينما وقف الأتراك المنتصرون على الشاطئ يشيعونهم بنظرات الشماتة والتحدى ، المشوبة بالغيظ ، لإفلاتهم من قبضتهم وانتقامهم . !

وتحررت هضاب الأناضول من العدو . . وكانت معجزة !

وكان مصطفى كمال قد تبع جنوده فى ملاحقتهم للعدو حتى وصل إلى المنطقة التى تنتهى عندها التلال والهضاب وتبدأ السهول الفسيحة الخصبة المؤدية إلى ازمير والسهل الغنى المحاذى للشاطئ . . وهناك توقف يتأمل ويفكر !



« إزمير » Smyrna ثانى موانئ تركيا (بعد استانبول) . . أو « لؤلؤة الشاطئ الأدرياتيكى كما يطلق عليها اليوم . وهى بمثابة المفتاح لزيارة أطلال مدينة (أفسس) وغيرها من المدن التاريخية القديمة .

قبل مجيء اليونانيين كانت تلك الأرض جنة عامرة بالخضرة والأشجار والقنوات الضاحكة ، والنبيذ والتين والقرى السعيدة . أما الآن فقد صارت مرتعاً للرعب والأهوال ، وحطام القرى التي دكت ، وجثث الأطفال والنساء اللواتي اغتصبن عنوة ثم ألقين بين الكروم طعاماً للذئاب ! .

ولكن لم تكن هذه الأهوال هي التي أغرت مصطفى كمال بالتوقف والتأمل . . ولا استرعت اهتمامه أو إشفاقه أنباء المرأة التركية التي رجمتها مواطناتها بالأحجار ! . . فإنه لم يكن يفكر في اللحم والدم والألم ، ولا في العواطف وأمور الأفراد . . بل في الحقائق الجغرافية والخرائط وإحصاءات الجنود والأسلحة ! . . .

وقد رأى نفسه واقفاً فوق القمة بينما جنوده قد بلغوا ازمير ، والبرقيات قد حملت إلى العالم أنباء انتصاره الساحق على الجيش الذي أرسلته إليه الدول العظمى ليسحقه ! . . إنها ساعة انتصاره التاريخي المجيد ، وإن أعين العالم بأسره لتتركز عليه في يوم مجده . . ولسوف يدخل ازمير بعد قليل دخول الغزاة الفاتحين !

وفي « أوشاق » جاءه النبأ بأن القائد العام لجيش الأعداء ، ومساعده ، قد أسرا ! . . فأمر بإحضارهما إلى مقر قيادته . واستقبلهما واقفاً مرحباً في احترام ، بين عصمت إلى يمينه وفوزي إلى يساره . . ثم صافحهما وأمر لهما بالقهوة والسجاير ، وفي أثناء حديثه معهما تبين – آسفاً – أنهما دون مستواه في المقدرة العسكرية والكفاءة الحربية ، فأحس بشيء من خيبة الأمل !

وأخيراً جاءته الأنباء من ازمير بأن كل شيء قد أعد لدخوله المدينة . . فقطع الأميال القليلة التي تفصله عنها على رأس قافلة من السيارات المتوجة بأكاليل الغار .

وعلى طول الطريق احتشدت الجماهير لتحيته ، هاتفة مهللة باكية ، شاكرة الله على إنقاذه إياها من طغيان اليونانيين !

وعند أبواب ازمير استقبلته فرق من الفرسان الشاكى السلاح ، ومضى الموكب ببطء خلال شوارع المدينة الضيقة ، تحت أقواس النصر وسقوف الأسواق ، وبين الهتاف والتهليل . . وحين مر ببوارج الحلفاء الرابضة عند مدخل الميناء – بمدافعها الضخمة – عاجزة عن التدخل ، حدجها بنظرة سخرية وشماتة . ثم واصل سيره نحو الدار التى اختيرت مقراً لقيادته . وقد تبين فى جبروت تلك البوارج جبروته ، وفى قوتها مدى قوته !

وفى قصر القيادة وجد الهرج والمرج سائدين ، والسعاة يحملون البرقيات من مكتب إلى مكتب . لقد طرد اليونانيون من تركيا الآسيوية ، لكنهم راحوا يحشدون قواتهم عبر البحر فى أوروبا ، لكى يهاجموا القسطنطينية . وإذن . . لا مفر من إعادة تنظيم الجيش التركى وإرساله على عجل إلى مركز الخطر !

زيارة . . من امرأة مجهولة !

ووجد مصطفى كمال أمامه مائة مشكلة ومشكلة تنتظر تصرفه العاجل ، فانغمس فى العمل بهمته المعهودة ، من الفجر الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل ! . . وفى اليوم الثالث جاءه ساعيه يعلن أن سيدة شابة تبغى مقابلة الغازى وتلح فى طلبها . وقبل أن يفرغ الساعى من كلامه اقتحمت المرأة الحجرة وقدمت نفسها اليه باسم لطيفة هانم !

ووقف مصطفى كمال لحظة بلا حراك ، غاضباً لدخول المرأة بغير

استئذان ، ثم تمالك نفسه فأومأ إلى الحاجب كي ينصرف ، وإلى المرأة كى تجلس ! كانت تختلف كل الاختلاف عن نساء الأناضول الفلاحات ، فرمقها بنظرة فاحصة . وكأنما شعر بارتياح خفى لمرآها بعد عناء الأيام المنصرمة ومتاعبها ! وكانت ترتدى الثياب الأوربية الأنيقة ، فيما عدا غطاء رأسها التركى الذى زاد فى جمال استدارة وجهها ! . ولم تكن محجبة ، فتبين من ملامحها أنها من أسرة طيبة . وليست فتاة رخيصة من الأسواق . وكان فى مظهرها هدوء من ألفت أن تطاع ، ولا سيما حين واجهته بنظرة ثاقبة كأنها نظرة رجل إلى رجل ، لا بتلك النظرة الرخوة اللينة التى ألفها من النساء ! . .

ولم يكن طبيعياً من فتاة تركية من أسرة طيبة أن تقتحم مكاتب القادة وتتكلم بمثل هذه الجرأة . . فأثار أمرها اهتمامه وفضوله : ترى ماذا تبغى ؟ وماذا يستطيع أن يفعل من أجلها ؟

وكانت نوافذ الحجرة مفتوحة فى ذلك الضحى الحار من سبتمبر ، ومن الخارج كانت تسمع طلقات الرصاص وصيحات الجرحى وحشرجة المصابين . فالأتراك يأخذون بثأرهم من بقايا اليونانيين المستوطنين فى البلدة ويقتلونهم كما قتلوهم هم فى يوم سطوتهم ! . . ودخل ضابط من مرءوسى الغازى لينبئه بأن الحرائق قد شبت فى كثير من أحياء اليونانيين ، وأن الذخائر المخبأة فى أقبية كنائسها مهددة بالانفجار ونسف الأحياء المجاورة من المدينة ! . . ثم انصرف الضابط ، فالتفت الغازى إلى ضيفته يسألها عن مطلبها ؟ . . إنه مطلب غاية فى البساطة ، فوالدها أحد كبار بناة السفن فى ازمير ، وهى قد عادت لتوها من باريس وبيارتز حيث تركت والديها . وهم يملكون منزلاً كبيراً مليئاً بالخدم فوق تلال « بورنوفو » وراء ازمير ،

ولما كانت الدار التى يتخذها الغازى الآن مقراً لقيادته قريبة من الضجيج ، وغير مريحة ، فإن الفتاة تعرض عليه ان ينتقل وأركان حربه إلى منزلها لينزلوا فى ضيافتها ويحظوا هناك بكل عناية فى طوقها . . !

وقبل مصطفى كمال ما عرضته شاكراً . . وانتقل ومرؤوسوه إلى الدار الجديدة التى أعجبه هدوؤها ، وكانت تحيط بها الكروم والحدائق وتطل على ازمير ومينائها ، وقد توافرت فيها كل وسائل الراحة ، من الطعام الجيد ، والخدم الأكفاء . . وفوق ذلك كله كانت هناك الفتاة ! إنها إدارية حازمة وقديرة ، وأنثى ناعمة رقيقة فى الوقت نفسه ، فجذبه سحرها ، واشتهاها . . وقبل أن ينقضى يومان كان قد أحبها حباً جنونياً عنيفاً . كانت « لطيفة » ، ولطيفة بحق ! . . بشعرها الفاحم ، وعينيها السوداوين الضاحكتين ، وصوتها الناعم وهى تتكلم التركية ذات الجرس الموسيقى !

وكان مصطفى قد أحس فى الأسابيع الأخيرة أنه قد بدأ يهرم ، وتسحقه متاعب الحياة ، فعمد إلى الخمر يشربها كى يهدئ من ثائرة أعصابه ، أما الآن فقد كف عنها وطلقها . لم يعد بحاجة إليها . لقد عاوده شبابه . . ومرة أخرى عادت دماؤه تجرى حارة دافقة بالحياة فى عروقه !

واستجابت لطيفة لحبه ، فأحبته بدورها حباً صريحاً عارماً . او ليس هو بطل بلادها ومنقذها ؟ . . ولم يضيع هو وقتاً ، فغازلها غزله الضارى المباشر الذى ألفه . . واستكانت هى لعناقه فى نعومة ودلال ، لكنها لم تسلمه جسدها قط . . كانت دائماً تروغ منه فى الوقت المناسب تاركة إياه يتحرق شوقاً إليها ويسائل نفسه عن مدى حبها له ؟ . . وحاول أن يفرض عليها إرادته ، فلعب على وتر وطنيتها وعبادتها لبطولته ، مستخدماً معها كل أفانين الغرام التى علمته إياها تجاربه . . . ولكن بلا جدوى ! . . لقد

كانت خبرته بالنساء خاطئة !

كان قد عاش منذ يفاعته معيشة غير منتظمة ، وحتى حين انقضت ضراوة الشباب لم يطلق نزواته . . أما الحب فلم يكن مصطفى كمال يعرف عنه غير قليل من المعلومات النظرية المبهمة المستقاة من الكتب الغربية القليلة التي قرأها عنه . . . كان « شرقياً » فى نزعته على طول الخط ، وشرقياً قحـًا مستبداً ! . . لكنه الآن بإزاء « شيء » آخر . . فتاة طيبة النشأة ، حرة النفس ، تعلمت فى الغرب وأشربت الأفكار الغربية فصارت قديرة على أن ترضى عقله وتصارعه وتسمو باهتمامه عن مطالب الجنس العابرة . . . قديرة على أن تكون له شريكة ومعينة . . ثم هى إلى ذلك ناعمة عطرة تستثير رغبته وتلهب دمه إلى حد الجنون ! . . ألا إنه قد فقد توازنه ، وبات يتقلب على نار وجمر . . فلأول مرة فى حياته أحب ! وهرع عائداً إلى البيت الذى فوق التل . . إلى لطيفة هانم ، وقد قرر ألا يصبر عليها أكثر مما صبر . . فليس ذلك التمنع من جانبها فيما يعتقد إلا من قبيل الدلال !

وبعد العشاء وقف مصطفى ولطيفة فى الشرفة العليا يطلان على التلال المشرفة على البحر ، والمقسمة إلى حدائق صغيرة مسورة بالصخور الغبراء ، وبين أشجار الزيتون والكروم بدأت أضواء نار المعسكرات والخيام تنير بقعاً من الظلام . . . وتحتها رقدت مدينة ازمير ، والحرائق المشتعلة فى الأحياء اليونانية تمتد وتتسع ، وتلعق ألسنتها الدور والمنازل واحداً بعد الآخر . . فالتفت مصطفى كمال إلى لطيفة وقال وهو يشير إلى النار : « إنها بشير بأن تركيا قد طهرت من الخونة والأجانب ، وصارت « تركيا للأتراك » ! . . ومن الحديقة تصاعدت نسمات دافئة حملت



لطيفة هانم

معها رائحة الليل . وأريج الورود والياسمين . فجذب مصطفى لطيفة إلى صدره . وقبلها . . غطى وجهها بالقبلات . . وكاد يحملها على ذراعيه إلى الداخل . . لكنها راغت من بين ذراعيه فجأة قائلة : « إنك لا تفهمني . إني أحبك . لكني لن أكون خليلتك . . تزوجني . أكن لك ! »

يتأهب لأخطر قرار في حياته !

انقضت أسابيع دون أن تتلقى لطيفه هانم أى كلمة أو نبأ عن مصطفى كمال ! وكانت قد أحبته إلى حد أنها ما كانت لتحجم عن أن تبذل له عينيها . أو حتى حياتها ، كي تجنبه أدنى كدر ! . . لكنها قد تعلمت أن تنظر إلى الأمور نظرة محافظة . رغم أنها تلقت دروسها في إنجلترا وفرنسا . ومن ثم رأت أن رجلها ينبغي أن يحترم ما يبغي امتلاكه . لقد احتفظت بشرفها كي تحتفظ بالرجل الذى أحبته . لكنها تتساءل الآن : هل أحسنت التصرف ؟ . . أم فقدت رجلها من حيث ارادته ؟ !

وإذ توالت الأيام دون ما كلمة من جانبه ، عاودت لطيفة هواياتها القديمة : دراسة القانون والأدب الفرنسي . . ومساعدة اللاجئين ، الذين هرعوا إلى ازمير بالألوف !

وانغمس مصطفى كمال في العمل الشاق ، وقد أبعد من ذهنه ذكريات المنزل الواقع فوق تل (بورنوفو) . وعاد يلجأ للشراب لتهدئة أعصابه الثائرة . واستبد به الأرق ! . . كان يواجه أزمة حربية تقتضيه أن يتخذ أهم قرار في حياته : لقد تزود الجيش اليوناني المهزوم بإمدادات جديدة من أثينا وعاد ليتجمع في (تراقيا) وراء القسطنطينية ! ولم يكن

لدى مصطفى كمال سفن حربية ، فكان عليه أن يطارد العدو بطريق البر . . ومن ثم أرسل قواته على عجل إلى الشمال ليحطمه قبل أن يستكمل أهبته . . وكان طريقها يخترق الدردنيل ، وهناك فى « شناق » التقت بجيش الاحتلال الإنجليزى الذى أبى أن يسمح لها بالمرور إلى أوربا ، ووقف حائلاً بينها وبين العدو . . !

وفى أنقرة كان مصطفى كمال منهمكاً فى وزن جميع الاحتمالات ، جرياً على عادته ، قبل أن يتخذ قراراً . . وكان يدرك أنه لو أمهل الأعداء حتى يكملوا استعدادهم فسيفقد الفرصة لدحرهم . . لكنه أدرك أيضاً أن جنوده وإن أثملتهم نشوة النصر مازالوا خائرى القوى تنقصهم الثياب والذخيرة والأسلحة الميكانيكية الحديثة ، بحيث لو أزمع الإنجليز مقاتلتهم حقاً لمنعهم من اللحاق باليونانيين لهزموهم شر هزيمة ، على الأقل بفضل خبرة ضباطهم وأسطولهم العظيم وطائراتهم . . ولكن هل يعتزم الإنجليز الإشتباك معهم حقاً ؟ أم أنه تهديد أجوف ؟ !

كان من رأى الفرنسيين والإيطاليين والروس أن الإنجليز إنما يهددون فقط ، وكانت صحف إنجلترا تحمل على لويد جورج لرغبته فى القتال . . على أن الأمر كان فى الواقع بيد القائد الإنجليزى لجيش الاحتلال « السير تشارلس هارنجتون » . . وتأرجحت كفتا الميزان : كان فى إحداهما الدكتاتور التركى المغوار بطل الأناضول ، الذى يتزعم شعباً أثملته نشوة النصر واعتزم أن يقاتل دفاعاً عن بلاده ووجوده . . وفى الكفة الأخرى القائد الإيرلندى المعسكر فى العاصمة ، غير الواثق من الأرض التى يقف عليها ، والذى يحارب — إذا حارب — لغير هدف سام أو مثل أعلى !

وكانت أخلاق القائدين تناسب الأدوار التى وضعت على عاتقيهما .

كان القائد التركى صلب العزيمة حديدى الإرادة ، يعرف هدفه ويعتزم أن يبلغه . . أو يحطم نفسه فى سبيل هـذه المحاولـة ! . . وكان قد درس خصمه واطلع على كثير من البرقيات التى أرسلها إلى لندن والتقط نصوصها قلم المخابرات التركى ، كما تلقى خطابات منه وتقارير عنه كتبها المراقبون الأتراك فى العاصمة . . وأدرك من كل ذلك أن « هارنجتـون » دبلوماسى أكثر منه جندياً ، ولا سيما فى الأزمات الحرجة التى تقتضى مغامرةومخاطرة. ومن هنا اعتزم مصطفى كمالأمراً ! كان بعض ناصحيه يريدونه أن يعقد الصلح فوراً ولا يعرض نفسه للهزيمة المحتملة ، فى حين طالبته الأكثرية فى عنف بأن يهجم توًّا فينحى الإنجليز جانباً ويطارد اليونانيين إلى أثينا ! . . لكنـه هو – بأعصابه الباردة وتقديره المتزن للأمور – تجنب كلا الحلين المتطرفين . . فرأى أن يحارب اليونانيين من غير أن يعرض نفسه للاشتباك مع الإنجليز ! . . ولما كان يعتقد أن « هارنجتون » سوف يضعف فى اللحظة الأخيرة ويسمح لجيوشه بالمرور . . فقد آثر أن يجس نبضه . وأمر ألفين من فرسانه بالتقدم نحو الخطوط الإنجليزية ، فلما أوقفوا فى حزم وبدا الموقف متحرجاً ، لم يجد بدًّا من تجربة حظه بالإقدام على « خدعة حرب » قد تجدى مع خصم ضعيف العزيمة . فأرسل مشاته نحو المدافع الإنجليزية مزودين بأمر بالتقدم وبنادقهم مخفوضة . مع الحرص على إظهار الود والاحترام للسلطات الإنجليزية ، ثم مواصلة اختراق خطوطهم وجعل الدفاع عنها عسيراً . .

وكان الخطر عظيماً . فإن طلقة واحدة خاطئة ، أو أمراً أسئ فهمه ، كفيل ببدء المعركة وتوريط تركيا فى حرب رسمية مع بريطانيا ! . . لكن الطلقة الخاطئة لم تنطلق ، فقد تحيرت القوات الإنجليزية ماذا تفعل ،

وكانت الأوامر التى لديها « مائعة » تقضى بمنع مرور الأتراك وفى الوقت نفسه بعدم إطلاق النار أو استخدام العنف ! . . وهؤلاء هم الأتراك يتقدمون دون أن يتوقفوا أو يقاتلوا ! . . وأضحى الموقف حرجاً ، واقترب الأتراك من الأسلاك الشائكة وبدأوا يخترقونها . . وفى هذه اللحظة جاءتهم فجأة أوامر من قيادتهم بالتوقف . . لقد بدأت المفاوضات لعقد هدنة !

كانت فرنسا قد خشيت أن يؤدى اشتباك تركيا مع إنجلترا فى القتال إلى نشوب حرب عالمية جديدة تنضم فيها روسيا الشيوعية إلى جانب تركيا . . فأرسلت مندوبها مسيو « فرانكلان بويون » لمفاوضة مصطفى كمال رأساً . وكان هذا على استعداد لأن يعد الغازى ، باسم الحلفاء واسم إنجلترا أيضاً ، بأى شىء يحول دون وقوع الحرب ، كأن يتعهد الحلفاء بأن يخلى اليونانيون (تراقيا) ويعيدوا تركيا الأوربية إلى الأتراك . . !

وتظاهر مصطفى كمال بأنه يقبل العرض كرماً منه ، فى حين كان ذلك أقصى ما تمناه وأراده ! . . إنه النصر الحاسم الذى يوفر عليه خسارة لا أقل من خمسين ألف جندى ، وأشهراً طويلة من القتال المرير ، ثم نتيجة غير مضمونة ! . . وهكذا فشل تهديد الإنجليز ونجحت خدعة الغازى !

وأمر مصطفى كمال قواته بالتوقف ، وأرسل عصمت ليقابل هارنجتون فى قرية « مودانيا » للاتفاق على التفصيلات . . وهناك وافق الحلفاء على طرد اليونانيين من (تراقيا) وجلائهم هم أنفسهم عن القسطنطينية وتركيا بأسرها ! وانتصر مصطفى كمال . كانت معركة صحراء « سقاريا » نقطة التحول فى حظه ، وكانت معركة ازمير نجاحاً كبيراً ، أما هذا فهو النصر الحقيقى ، نصره هو ! . . إن شجاعته وعزيمته وبراعته وصدق

تقديره ، هى كلها التى مكنت جيشه المهلهل الناقص التغذية والعدة والعتاد من أن يطرد اليونانيين من بلاده ويجبر الإمبراطورية البريطانية على التسليم له بالشروط التى طلبها ، ويخيف أوربا بأجمعها ! والآن آن له أن يملى شروط الصلح ، فى الداخل والخارج !

المرأة التى هزمته !

ما كادت تهدأ الأحوال ويخلص مصطفى كمال من شئون الحرب والجيش مؤقتاً ، حتى عاد إلى التفكير فى « لطيفة هانم » وفيما لقيه من تمنعها فى ذلك المنزل الذى تحيط به الحدائق فوق تل « بورنوفو » . . وكان الجو فى بيت مصطفى كمال فى « شان كايا » هادئـاً ، بعـد أن غابت عنه « فكرية » . . لقد تعلقت به المسكينة وبكت واستعطفت حين أصر على أن تسافر إلى ميونيخ للعلاج ، لكنه لم يزد على أن طيب خاطرها بأن أعطاها مالاً كثيراً لتنفق منه فى رحلتها . وحينما بعثت إليه من هناك برسائلها ، لم يجب على واحدة منها ! . . لقد أراد أن يمحو هذه الصفحة من كتاب حياته ، ويرغم إيمانه بإخلاص فكرية له ، وبشدة رغبتها فى العودة ، لم يشأ أن تعود !

وكانت أمه قد غدت طريحة الفراش ، فراح يسائل نفسه : ترى كيف تستقبل لطيفة ؟ . . انها لم ترحب يوماً بفكرية وكانت تغار منها ، وتأبى أن تكون صلته بأية امرأة لا تقوم على الزواج ! . . وراح يقلب الأمر على وجوهه فى روية ، ويزن جميع الاحتمالات ، حتى إذا ما إنتهى إلى قرار عمل على تنفيذه بسرعة الصاعقة ! طلب أن تعد سيارته من غير

أن يخبر أحداً عن وجهته ، ثم اندفع ينهب أرض تركيا قاصداً ازمير ، ومنها إلى بورنوفو !

وكانت لطيفة فى حجرتها بالطابق العلوى ، فاندفع يصعد السلم قفزاً . . واقتحم غرفتها بغير استئذان ، ثم ضمها إلى صدره قائلا :

« سنتزوج الآن . . نعم سنتزوج الآن بلا إبطاء ، وبلا أى احتفال ! »

لبثت الفتاة برهة كالمأخوذة ، وقد أدهشها قدومه المفاجئ واقتراحه الغريب ! . . ثم طلبت إليه أن يمهلها بضع ساعات . . فقبل على مضض !

وبعد الفجر بقليل عاد يلح عليها أن تستعد للذهاب . . ثم دفعها إلى الطريق دفعاً ، واستوقف أول شيخ معمم كان فى طريقه إلى المسجد وأمره بأن يزوجهما فوراً . . فى الشارع !

ولم يخبر أحداً بما حدث ، بل سافر ولطيفة معه عبر الإقليم الذى دمرته الحروب ! وحين ظهرت إلى جانبه فى سيارته أثناء استعراض رسمى ، علم أصحابه وخلانه أن الغازى قد اتخذ لنفسه زوجة ! . . وعندئذ سخر بعضهم هازئين ، وتنبأ آخرون بأن الزواج لن يعمر طويلاً . . واستنتج فريق ثالث من زواجه هذا أنه يرغب فى أن يصبح ملكاً أو سلطاناً ويؤسس أسرة مالكة . . أما أمه وأهالى الريف التركى البسطاء فقد هللوا فرحاً وابتهاجاً بهذا الزواج .

* * *

الآن . . بلغ مصطفى كمال قمة مجده ، وحق له أن يقف مزهوًّا بنفسه ! لقد انتصر الأتراك ، وانزوى الأعداء – الإنجليز والفرنسيون

والإيطاليون واليونانيون – وراحوا يتشاجرون فيما بينهم ، وقد استحال تحالفهم إلى عداء ! . . أما شعوبهم فقد أرادت السلام بأى ثمن ، ولم تكن على استعداد لأن تضحي برجل واحد ، أو درهم واحد .

لكن مصطفى كمال أدرك أن سلاحه الأكبر في مفاوضات الصلح القادمة لن يكون سوى جيشه المؤلف من مائة ألف جندى يرتدون الأسمال البالية ، يشد أزرهم تصميم الشعب على النصر أو القبر !

وصار مصطفى كمال يجاهر علناً بترديد الشروط التى تقبل تركيا الصلح على أساسها ، وكانت هى الشروط التى تضمنها الميثاق الوطنى القديم . . . أن تغدو تركيا دولة مستقلة ذات سيادة داخل نطاق حدودها الطبيعية ودون أى تدخل أجنبي !

ولو وجد فى مكانه رجل آخر صغير النفس لضاعف من مطالبه بعد الانتصارات التى أحرزها ! وبعد الحالة التى آلت إليها قوى الحلفاء ! وماذا يمنعه من الاسترسال فى الغزو والتوسع ، وهذه هى رسائل التهنئة وبرقيات المديح والهدايا من السيوف التى ترمز للنصر تنهال عليه من جميع الدول الإسلامية والغربية : من الهند ، وأفريقيا ، والملايو ، وأفغانستان ، وإيران ، والصين ، وروسيا ، وهنغاريا ، وغيرها ! والواقع أن انتصار مصطفى كمال أنعش آمال الأجناس الشرقية ، وزاد فى مخاوف الأجناس الغربية ، بحيث لم تكن تنشب أية اضطرابات عدائية نحو دول الغرب فى أى ركن من المعمورة إلا اتجهت الأنظار نحو هذا القائد الشرقى الذى هزم كل جبروت أوربا ! ورأت فيه شعوب الشرق بشيراً بخلاصها من ربقة « الرجل الأبيض » . وقد أمده السوفييت بتشجيعهم . . وعرضت عليه إيران وأفغانستان عقد معاهدات هجومية مع تركيا ، وطلب الهنود

والسوريون والمصريون عونه . ومن جميع الأنحاء انهالت عليه الدعوات كي يصبح بطل الشرق في كفاحه ضد الغرب !

رفاهية الشعب خير من الإمبراطوريات !

ولكنه برغم إنتشائه بخمر المديح والملق ، وزهوه بنفسه على خشبة المسرح العالمي . . ظل كعهده محتفظاً باتزان أحكامه ، واضحاً في أهدافه ومراميه ، لا يستسلم لوهم أو خيال ، ولا يجري وراء سراب زائف .

لقد أدرك مصطفى كمال مدى ما يستطيع الأتراك أن يفعلوه ، فلم يطلق خياله ليجمح وراء أحلام الغزو الخارجي وتكوين الإمبراطوريات ، بل أقنع نفسه بأن الإمبراطورية العثمانية قد ماتت وانتهت ، وانه لخير للأتراك أنفسهم أن يتخلصوا من تلك الإمبراطورية التي امتصت النخاع من عظامهم ، وقتلت الملايين منهم – طيلة خمسة قرون – فوق تربة العراق وبلاد العرب وأفريقيا ! . . لقد استغل السلاطين الأتراك شعبهم في غير فائدة لهذا الشعب ! . وإذن حسب تركيا ماقاست ، ولترقد تلك الإمبراطورية العثمانية إلى الأبد حيث انتهى بها المصير !

وكان جواب مصطفى كمال على بعض ممثلي دول الشرق الذين جاءوا ينشدون معونته : « نحن جميعاً نتمنى أن نرى إخواننا المسلمين يعيشون أحراراً . . لكننا لا نستطيع أن نمنحهم عوناً ، غير أمانيناالخالصة ! » . . وقال مخاطباً الجمعية الوطنية : « أنا لست مؤمناً بعصبة من جميع الدول الإسلامية ، ولا حتى بعصبة من الشعوب التركية ، ولكل منا أن يعتنق الرأي الذي يراه ، أما الحكومة فينبغي أن تلتزم سياسة ثابتة مرسومة ، مبنية على الحقائق ،

لها هدف واحد ، وواحد فقط : أن تحمى حياة الوطن واستقلاله داخل نطاق حدوده الطبيعية . فلا العاطفة ولا الأوهام ينبغى أن تؤثر فى سياستنا . . وسحقاً للأحلام والخيالات ، لقد كلفتنا غالياً فى الماضى ! » .

وكان موقفه تجاه « البلاشفة » أكثر وضوحاً ، فقد جاءه وفد من موسكو يرأسه القائد الأوكراني « فرونز » ، وأقام وزير أذربيجان مادبة عشاء تكريماً للوفد . فوقف « فرونز » يتحدث عن نصرة البلاشفة للشعوب الشرقية المحكومة ضد شعوب الغرب الظالمة ، التى تضطهدها ، ثم ناشد تركيا أن تنضم إلى بلاده فى « معركة التحرير » . . وعندئذ وقف مصطفى كمال ليجيبه ، فقال فى كلمته المختصرة الحاسمة : « ليس هناك دول ظالمة ولا دول مظلومة . . وإنما هناك فقط أولئك الذين يسمحون لأنفسهم بأن يتحملوا الظلم .والأتراك ليسوا من هؤلاء ، فهم يستطيعون أن يحموا أنفسهم . . فليفعل الآخرون مثلهم ! » . . نعم ، إن الغازى لن يقود تركيا إلى حماقة من تلك الحماقات ، أو ينصب نفسه بطلاً للشرق معادياً للغرب ، وللإسلام ضد المسيحية ، أو للأجناس المضطهدة ضد مضطهديها ، ولكنه لن يكون إلا كما سبق أن حدد برنامجه بقوله : « ليس لنا إلا مبدأ واحد ، هو أن ننظر إلى جميع المشكلات بالعين التركية ، ونصون مصالح تركيا ! » .

لقد اعتزم أن يجعل تركيا ، داخل نطاق حدودها الطبيعية ، دولة صغيرة الرقعة ، ميسورة الحال ! لكنه فى نطاق هذه الحدود سوف يجعل نفسه السيد الآمر والحاكم المطلق ، فقد كان يؤمن أنه وحده القادر على أن يخلق تركيا الجديدة وينظم أمورها ويقودها إلى شاطىء النجاح والرفاهية !

وهكذا لم تكن كل هذه الانتصارات العسكرية وما تلاها من مظاهرات التأييد والإعجاب لتحجب عن عينى مصطفى كمال تلك الحقيقة الهامة

فى بلده وظروفه ، وهى أن جميع قواد الجيش – باستثناء عصمت وفوزى وبضعة أصدقاء آخرين – وجميع رجال السياسة فيها ينفرون من صيرورته رئيساً عليهم ! . بل ان كثيرين منهم يمقتونه أشد المقت ، ولا يتورعون عن الكيد له بعد أن هزم العدو الأجنبى وخلا الجو لدسائسهم !

وبالفعل استدعته الجمعية الوطنية مرتين إلى أنقرة ، كى تناقشه بصدد مؤتمر الصلح القادم . . وعلم هو أنهم لم يجعلوه الحاكم المطلق إلا ليواجه الأزمات العسكرية . لكنه كان مستعداً لمواجهتهم !

وقالت له « خالدة أديب » ذات مساء بأسلوبها الخاص الهادىء : انك سوف تستريح بعد مؤتمر الصلح يا باشا ، فلقد جاهدت جهاداً شاقًّا ! » فأجابها بعنف وعيناه تومضان ببريق مخيف : « أستريح ؟ أية راحة ؟ إننا بعد أن خلصنا من اليونانيين سوف يقاتل بعضنا بعضا ، أو سوف يأكل بعضنا بعضاً ! » .

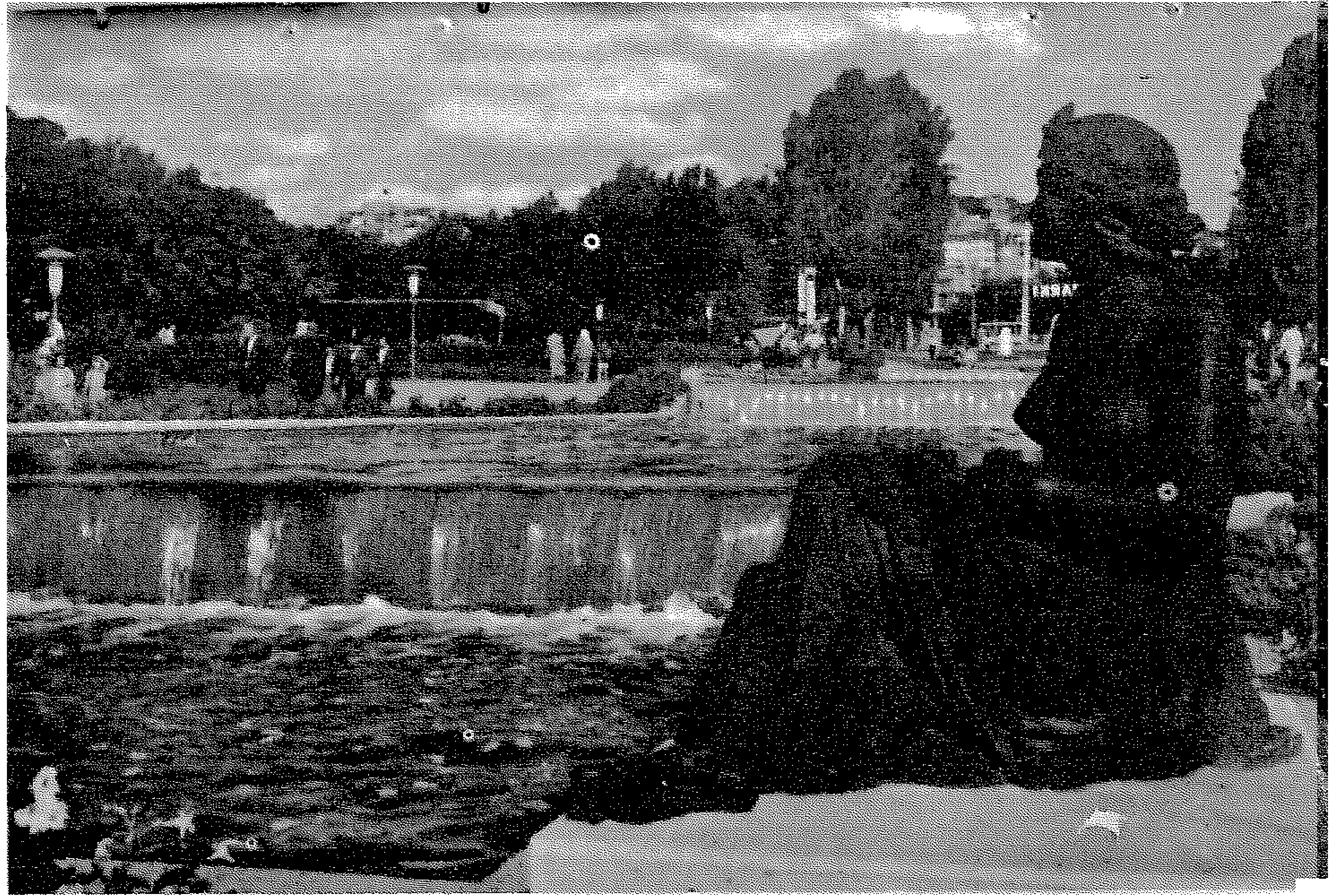
وأرسل إلى أنقرة يعتذر بأنه لن يستطيع الذهاب ، لأن واجباته العسكرية تعوقه فى ازمير . وعندئذ لحق به « رؤوف » –رئيس الوزارة – ولفيف من رجال السياسة ، ليستطلعوا رأيه فيما ينبغى أن تكون عليه الحكومة فى تركيا الجديدة ، فليس معقولاً أن تكون لتركيا حكومتان : حكومة مؤقتة ذات سلطة مقرها أنقرة ، وأخرى رسمية « اسمية » فى العاصمة يرأسها السلطان ومجلس وزرائه ! واقترح بعضهم أن تندمج الحكومتان فى حكومة واحدة يصبح فيها السلطان ملكاً دستورياً ويصير مصطفى كمال رئيساً للوزارة . لكنه أخفى نواياه الحقيقية عن محدثيه فلم يصرح لهم بأنه لن يقنع بأن يكون رئيساً لوزارة تخضع « لسلطان » دستورى وإنما يرى أن تذهب السلطنة والخلافة وكل مخلفات الإمبراطورية العثمانية بذهاب الأعداء الأجانب من البلاد ، وتنشأ جمهورية يستطيع فى

ظلها أن ينصب نفسه حاكماً مطلقاً على البلاد . وعندئذ يكون فى استطاعته أن يصلح تركيا الإصلاح الكامل الشامل ! . .

لكن رؤوف توجس شراً من نوايا مصطفى كمال ، فظل يلح عليه بأسئلته ؛ وأخيراً وعده الغازى بأن يلقاه فى أنقرة ليطلعه على آرائه . . وفى أنقرة اجتمعا حول مائدة الشراب ، وكان معهما رفعت وعلى فؤاد ، أى الجماعة التى التأم شملها فى المؤتمر الأول فى « أماصيا » سنة ١٩١٩ ، يوم أن كان مصطفى فى حاجة إلى معاونتهم جميعاً . . لكنه اليوم نيره بالأمس ، فقد صح عزمه على أن يصل إلى أهدافه بأى ثمن وأى سلاح ، ومهما يطل به الانتظار فلن تأخذه شفقة على أحد ، أو توهن من عزيمته عاطفة ، أو يضعف من قراراته إخلاص لإنسان ! . . لكنه رأى أن عليه أن يتمهل فى خطاه ، فقد كانت المعارضة أقوى مما توقع ، وعليه أن ينتظر حتى تحين الفرصة الملائمة ، أو يخلق هو هذه الفرصة بنفسه !

وبعد مضى أسبوع على اجتماعه برؤوف فى منزل رفعت ، دعا الإنجليز السلطان كى يرسل وفداً إلى « لوزان » لبحث شروط الصلح ، ورجوا منه أن ينقل الدعوة أيضاً إلى الجمعية الوطنية فى أنقرة . . وكان ذلك خطأ جسيماً ! . . فقد تكهرب الجو عقب وصول هذه الدعوة ، وثارت فى أنحاء البلاد عاصفة من السخط ، إذ كان كل تركى صميم يكره « وحيد الدين » ويعتبره الخائن الذى مالأ الإنجليز واليونانيين فى حربهم لتدمير تركيا !

كان هو ولويدجورج عدوى الشعب التركى الحقيقيين اللذين يمقتهما مقتاً شديداً ! . . وانتقلت موجة السخط من أنقرة إلى القسطنطينية ذاتها ، فاعتدت الجماهير على أنصار السلطان القليلين ، وانتزع صحفى منهم يدعى « على كمال » من أكبر أندية المدينة فى وضح النهار ، تحت سمع بوليس



(أنقرة) عاصمة جمهورية تركيا ، كما تبدو اليوم ، مدينة عصرية جميلة . . بعد أن كانت – منذ خمسين عاما فقط – بلدة صغيرة مليئة بالغبار . تتوسط هضبة الأناضول . .

الحلفاء وبصره . واقتيد إلى حيث رجم بالأحجار حتى مات ! ولم يعد يجرؤ أحد من حاشية السلطان أو خدمه أو وزرائه ، بل حتى رئيس الوزارة نفسه ، على الظهور فى الشوارع . . !

إلغاء السلطنة !

وفى أنقرة اجتمعت الجمعية الوطنية . فتصايح النواب ثائرين : ماذا فعلت حكومة العاصمة من أجل إنقاذ تركيا ؟ وأى حق لذلك العجوز الأحمق توفيق باشا رئيس وزرائها . فى توصيل الدعوة ؟ إنه وكل وزرائه كلاب عجزة خونة . يلعقون بصاق الضفدعة المدعوة سلطان إستانبول ! . . إن لتركيا حكومة واحدة فقط وتلك هى حكومة أنقرة ، هى الجمعية الوطنية التى تضم نواب البلاد !

وأدرك مصطفى كمال أنه — سواء حان الوقت المناسب أم لم يحن — ينبغى له أن يضرب ضربته فوراً ، وقد يستطيع إقناع النواب بخلع وحيد الدين وبإلغاء السلطنة . لكنه لا يجرؤ على مهاجمة الخلافة ، فذلك من شأنه أن يمس الشعور الدينى للشعب جميعه !

وفى وسط الضجيج الذى ساد قاعة المجلس . صعد مصطفى كمال إلى المنصة والتمس من النواب أن يصغوا إليه . ثم اقترح أن يفصل بين السلطنة والخلافة فتلغى السلطنة ويخلع وحيد الدين !

وعندئذ تنبه النواب من غمرة ضجيجهم ليتبينوا خطر القرار الذى يراد

منهم أن يصدروه ، فسكن هياجهم تدريجيا ، وبدأوا يتناقشون فى الأمر ! لكن مصطفى كمال وقد كشف عن نواياه لم يعد فى وسعه أن يتراجع أو يقبل الهزيمة ، ومن ثم طالب – يؤيده ثمانون من أتباعه – بأخذ الرأى على الاقتراح فوراً . لكن المجلس أحال الاقتراح إلى لجنة الشئون القانونية كى تبحثه !

وفى اليوم التالى اجتمعت اللجنة ، وكانت مؤلفة من عدد من المحامين ورجال الدين . . فقضت ساعات طويلة مملة فى بحث مسألة فصل السلطنة عن الخلافة ، واستشهد أعضاؤها فى بحثهم بنصوص القرآن والسنة ، ومئات الأمثلة المستمدة من تاريخ الخلفاء ، سواء فى بغداد أو القاهرة . . وفى ركن من القاعة جلس مصطفى كمال متنمراً كالوحش المفترس ، يشهد صامتاً مناقشاتهم وجدلهم حول تفسير الكلمات وتخريج النصوص . . وكانت اللجنة بأجمعها ضد اقتراحه ، وأدرك أنه سوف يخسر الجولة الأولى بسبب هذه المجادلات البيزنطية فى التوافه الصغيرة ، فبدأ حنقه يتفاقم ويهدد بالانفجار . ماذا ؟ أيليق به أن يجلس – وهو الغازى الفاتح – يوما كاملاً يتفرج على حفنة من الفقهاء يتلاعبون بالألفاظ وينفخون الحياة فى دستور ميت ؟ !

وفجأة فقد سيطرته على نفسه فنفر غاضباً واعتلى مقعداً ثم قطع مناقشات المجتمعين صائحاً : « أيها السادة ، لقد اغتصب السلطان العثمانى السيادة من الشعب بالقوة . . وبالقوة اعتزم الشعب أن يستردها منه . إن السلطنة يجب أن تفصل عن الخلافة وتلغى . . وسواء وافقتم أم لم توافقوا فسوف يحدث هذا . . كل ما فى الأمر أن بعض رؤوسكم سوف تسقط فى غضون ذلك » ! وكان يتكلم بسلطان الدكتاتور الذى يصدر أمراً واجب التنفيذ ، فوقف رئيس

اللجنة وقال :«أيها السادة . لقد أوضح الغازى المسألة لنا من وجهة نظر تخالف تلك التى كنا قد فهمناها » . . وفى عجلة يمليها الحرص على الفرار من وجه الخطر تكأكأ الأعضاء يتواصون بإحالة الاقتراح إلى الجمعية كى تصدر به قانوناً ! نعم إن السلطنة ينبغى أن تفصل عن الخلافة وتلغى ، ووحيد الدين يجب أن يخلع ! ثم جمع المشايخ أرديتهم حول أجسامهم وانطلقوا فارين من المكان قبل أن يثب الوحش الضارى عليهم !

والتأمت الجمعية الوطنية من فورها لتناقش الاقتراح ، وبدأت إجراءات أخــذ الرأى عليه بالتصويت العلنى ، فتبين مصطفى كمال أن الاتجاه الغالب يميل إلى رفضه .. لكنه يجب أن يكسب المعركة بأى ثمن ! .. ومن ثم جمع أنصاره حوله وطلب أخذ الرأى عليه دفعة واحدة ، فاعترض بعض النواب مطالبين بأخذ الرأى بالمناداة بالاسم .. وأبى الغازى أن يوافق على هذه الفكرة . وكان أنصاره مسلحين ، وبعضهم قدير على أن يرتكب أى حماقة . إنهم قد يطلقون النار إذا طلب إليهم ذلك !

وصاح مصطفى كمال وفى صوته رنة التهديد ، بينما وضع أنصاره أيديهم على مسدساتهم : « أنا واثق من أن المجلس سيقبل الاقتراح بإجماع الآراء . ويكفى أخذ الأصوات برفع الأيدى ! » . . وعندئذ طرح رئيس الجمعية الاقتراح للتصويت ، وعينه لا تفارق مصطفى كمال ، فلم ترتفع غير أيدٍ قليلة ! .. لكن الرئيس أعلن النتيجة بقوله : « أقر المجلس الاقتراح بإجماع الآراء » .. فقفز نفر من النواب فوق مقاعدهم محتجين صائحين : « هذا غير صحيح .. نحن لم نوافق ! » .. فصاح بهم آخرون : « اجلس .. اسكت .. خنازير ! » .. وراح الفريقان يتبادلان أقذع الشتائم وألفاظ السباب .. !

وساد الهرج والمرج ، فأومأ الغازى إلى رئيس المجلس ، فعاد هذا يكرر

قراره صائحاً بأعلى صوته : « بإجماع الآراء قررت الجمعية الوطنية الكبرى لتركيا إلغاء السلطنة » ثم فض الجلسة .. فغادر مصطفى قاعة المجلس يحيط به أنصاره .. !

وتتابعت الأحداث بعد ذلك مسرعة .. فلم تمض خمسة أيام حتى استولى رفعت على مقاليد الأمور فى العاصمة بانقلاب مفاجئ ، تم تحت بصر الجنرال هارنجتون وسمعه ، وبمقتضاه ألغى حكومة السلطان !.. ولبث السلطان أياماً يتجاهل هذا الوضع ، ثم أرسل إلى هارنجتون رسالة حملها إليه الشخص الوحيد الذى بقى « وحيد الدين » واثقاً من نواياه ، وهو قائد جوقة الموسيقى بالقصر السلطانى !.. وكانت الرسالة شفوية ، فاه بها الرجل أمام الجنرال الإنجليزى وهو يرتجف رعباً : « إن السلطان يلتمس حماية القائد الإنجليزى والحكومة البريطانية ، فإن جلالته على ثقة من أن حياته معرضة للخطر ! » .

وبعد يومين وقفت سيارة إسعاف بريطانية أمام الباب الخلفى لقصر السلطان ، فخرج وحيد الدين ليستقلها ، يتبعه ابنه ، وخصى يحمل حقيبة صغيرة فى يده ، وحمال يحمل متاع جلالته .. وكان الفجر يرسل أضواءه الأولى والسماء تمطر رذاذاً خفيفاً ، فدلّى مساعد السائق الإنجليزى سلم السيارة الخشبى من الخلف ، وإذ ذاك صعد عليه – يحمل مظلته فى يده – « آخر سلاطين آل عثمان ، إمبراطور جميع الأتراك ، السيد العظيم المرهوب من العالم بأسره » .. ثم انطلقت به السيارة إلى حيث استقل زورقاً بخارياً حمله بدوره إلى بارجة بريطانية كانت فى الميناء ، فاستقبله قبطانها بالاحترام اللائق .. وعلى أثر إعلان فرار « وحيد الدين » نودى بابن أخيه « عبد المجيد » خليفة للمسلمين .. خليفة فقط لا سلطاناً !.. خليفة مجرداً من كل سلطان ونفوذ !

خطة ذكية للسيطرة على الشعب !

انتصر مصطفى كمال على السلطان وحيد الدين. وأعانه على الانتصار مجده كقائد حربي ظافر، وكراهية الجميع لذلك السلطان .. لكنه تعلم من الأحداث الأخيرة درساً مؤداه أنه لكي يحتفظ بسلطته ينبغي أن يقاتل عن كل شبر من الأرض، كما يقول المثل !.. فقد كان النواب - سواء من العسكريين أو رجال السياسة - يقفون ضده .. كان أكثرهم يخشون بأسه ويرتابون فيه، وبعضهم يكرهه كراهية شخصية !

وكانت البلاد بعد إلغاء السلطنة بغير حاكم شرعي، بحيث بات يتعين البت في شكل الحكومة الجديدة خلال أسابيع .. وكان الشعب بقلبه وعواطفه محافظاً. والجمعية الوطنية تميل إلى إنشاء ملكية دستورية، على صورة من الصور .. وكان من عادة مصطفى كمال أن يعد عدته لكل خطوة في حذر، حتى إذا ما حانت اللحظة المناسبة ضرب ضربته .. ولئن ساقته الحوادث إلى كشف نواياه ضد السلطان قبل أن يتأهب لذلك، فإنه في هذه المرة ينبغي أن يدبر خطته في روية !

إن في وسعه أن يأتلف مع رؤوف، لكن ذلك لن يؤدي - على أحسن الفروض - إلى أكثر من صيرورته رئيساً اسمياً لحكومة دستورية، وهذا ما لا يطمع فيه، إنه يطمع في أن يصير دكتاتوراً !.. ولكن، علام يعتمد في بلوغ غايته ؟.. إن الجيش الذي يؤيده اليوم سوف ينسى انتصاراته وأمجاده غداً حين يتقادم به العهد في أحضان السلام والفقر !..وحفنة أنصاره من النواب المستعدين لتأييده بمسدساتهم، لن يستطيع أن يرهب بهم الجمعية

والبلاد كل حين ! .. وإذن ينبغي أن يكون له سند غير القوة .. أن يخلق آلة سياسية محاربة يتخذها سلاحاً له !

وهنا فكر فى لجان المقاومة المحلية التى أنشأها فى الأقاليم بمعاونة رؤوف ورفعت سنة ١٩١٩ ، والتى كانت نواة المنظمات الشعبية للمجندين التى طردت الإنجليز واليونانيين من البلاد وقادتها إلى النصر .. ولما كانت هذه المنظمات التى يلتهب أفرادها وطنية وحماسة ذات صبغة عسكرية ، أى تخضع لأمره مباشرة . فقد قرر أن يحيلها إلى آلة حزبية منظمة تخضع لإشرافه وتصبح الحاكم الفعلى لتركيا .. وفى وسعه أن يطلق عليها « حزب الشعب » ، ويمنح كل لجنة منها سلطة اختيار عمدة القرية وواعظها وناظر مدرستها ومدير شرطتها وبريدها وكناس شوارعها .. ومن هنا ترتبط اللجان به ارتباطاً شخصياً بحيث ينعكس على كل منها نجاحه أو فشله !

وبعد أن أعد خطته قام بجولة فى الأقاليم ، استقبل خلالها فى كل مكان بالحفاوة والإكبار ، بوصفه « الغازى » ومحرر الوطن .. وجن الناس حماسة برؤية بطلهم المغوار . وخلال جولته جمع فى يده أعنة تلك المنظمات ، فكان أينما حل يدعوها إلى الاجتماع ، ويعامل أعضاءها باحترام ، ويصغى إلى آرائهم ومطالبهم .. ثم يقول لهم فى النهاية : « احتفظوا بمنظماتكم ، إن العدو الخارجى قد ذهب ، لكن الحرب لم تنته بعد ، فالبلاد مليئة بالخونة .. فقفوا فى صفى ، وأطيعونى .. وبذلك نستطيع أن نبنى معاً تركيا الجديدة ، وطنكم الذى استرددتموه بدمائكم ، حتى تغدو من مناعة الجانب بحيث تقاوم هجمات جميع أعدائها من الخارج أو الداخل . إنكم سوف تكونون « حزب الشعب » فضموا جميع الأتراك المخلصين إلى منظماتكم .. فأنتم الشعب ، وحزب الشعب ، الذين ينبغى أن تحكموا تركيا ! » .

وإذ ضمن مصطفى كمال التفاف هذا « الجيش » العظيم من القرويين حوله . وفرغ من إعادة تنظيم تلك اللجان وتعيين ممثليه فيها ، عاد إلى أنقرة ليواجه خصومه مطمئناً !

واستهل الغازى هجومه بعرض مرسوم يقضى بإلغاء حصانة النواب الشخصية من الاعتقال والمحاكمة .. ثم أتبعها برقابة صارمة على الصحف ، وأمر البوليس بمنع أى اجتماع أو خطاب عام ! .. لكن النواب رفضوا مرسوم رفع الحصانة غاضبين . أما الرقابة على الصحف والاجتماعات فقد كان خارج نطاق نفوذهم أن يمنعوها ، إذ كانت حالة الحرب ما تزال قائمة . وشكل الحكومة الجديدة لم يتقرر بعد ، فكان مصطفى كمال ما يزال الحاكم الفعلى .. وقد أدرك النواب مغزى جولته فى الأقاليم ، ومدى ما يسعى إليه ، بل أدركوا أنه لن يتردد فى الانتقام من كل من يعارضه منهم فى أول فرصة تسنح له .. لكنهم كانوا فى الوقت نفسه عاجزين عن إيقافه عند حده !

على أنهم وجدوا لأنفسهم ثغرة أخرى ينفذون منها إليه . كان مصطفى كمال قد احتفظ فى يديه بكل الإجراءات الخاصة بمفاوضات مؤتمر الصلح ، وأرسل عصمت إلى المؤتمر — برغم احتجاج الكثيرين — ليمثل تركيا ، مزوداً بتعليماته الشخصية ، متجاهلاً فى ذلك كلاً من الوزارة والجمعية الوطنية .. وافتتح المؤتمر فى لوزان فى نوفمبر سنة ١٩٢٢ ، وسارت أموره فى البداية سيراً سيئاً ، فقد اختلف عصمت مع اللورد كرزون — ممثل الحلفاء — فى جميع شروط الصلح ، وبعد أن استمرت المشاجرات بينهما ثلاثة أشهر لم يصلا خلالها إلى تفاهم ، انفض المؤتمر فى فبراير سنة ١٩٢٣ بغير نتيجة ، وعاد عصمت إلى تركيا فهرع مصطفى كمال إلى لقائه فى (اسكى شهر) حيث عرف منه جميع الأنباء وعاد معه إلى أنقرة . وكان الغازى يعلق على



مصطفى كمال يخطب فى الجماهير التى احتشدت لسماعه . . داعياً إلى تأليف « حزب الشعب » ولجان المقاومة المحلية .

نجاح المؤتمر أهمية كبيرة ، فإن فشله كفيل بإفساد كل أثر لانتصاراته الحربية !
وفي محطة أنقرة فوجئ الاثنان بتخلف رؤوف رئيس الوزراء ونواب المدينة عن استقبالهما ، كما يقضي العرف بذلك .. فثارت ثائرة الغازي ، واستدعى رؤوف إليه وطلب منه إيضاحاً لمسلكه .. فأجابه رؤوف محتجاً على إرساله عصمت إلى المؤتمر بغير استشارة الوزارة وعلى إسراعه لمقابلته في اسكي شهر بغير استشارتها أيضاً .. الأمر الذي يعتبره عملاً غير دستوري ! .. ثم أردف رؤوف احتجاجه بالاستقالة من رياسة الوزارة . ومنذ ذلك اليوم صار خصماً لدوداً لكل من عصمت ومصطفى كمال !

وتكتلت الجمعية الوطنية لتشد من أزر رؤوف ، فقضت تسعة أيام تناقش مسألة مؤتمر الصلح .. وأثناء المناقشة ندد النواب بقبول مصطفى كمال الهدنة مع الأعداء في « مودانيا » ووصفوا الهدنة بأنها خدعة انطلت عليه ، في حين كان ينبغي أن يتابع يومئذٍ زحفه إلى القسطنطينية ثم إلى أثينا إذا اقتضى الأمر ! .. ثم حمل النواب على عصمت حملة شعواء اتهموه فيها بالخرق والغباء في مفاوضة كرزون ، وانتقدوا إرساله دون موافقتهم . ثم قرروا التصويت على تنحيته وإرسال خلف له يستأنف مفاوضات لوزان !

وهنا عمد مصطفى كمال إلى استخدام كل حيلة وسلاح في جعبته للتأثير على النواب كي يصوتوا ضد القرار المقترح ، فقد كان عصمت رَجُلَهُ الذي يطيعه بلا مناقشة ، وكان هو حريصاً على عودته إلى لوزان وعلى أن ينجح في مهمته فيها ! .. ومن ثمَّ توسل بالوعد تارة ، وبالوعيد تارة أخرى ، وبتأليب النواب ضد رؤوف من جهة ثالثة ، حتى أحبط قرار تنحية عصمت ! وعاد عصمت إلى لوزان وفي عزمه أن ينجح في مهمته بأي ثمن .. فإن فشل مفاوضات لوزان يعني نهاية مصطفى كمال .. ونهايته هو !

التخطيط لإعلان الجمهورية

انهمك مصطفى كمال ليل نهار فى تنظيم حزب الشعب.ولم يكن لديه متسع من الوقت بينما الأزمة تقترب يوماً بعد يوم !.. وأدرك النواب بدورهم خطورة الخطة السياسية التى يدبرها الغازى للانفراد بالحكم ، فقرروا إحباطها بأى ثمن .. ومن ثم أرسلوا إليه وفداً يطلب إليه التنحى عن رياسة الحزب الجديد ، بحجة أن رئيس الدولة ينبغى أن يظل فوق الأحزاب !.. لكنه أجابهم بقوله : « لست أوافقكم على حجتكم ، فأنتم تتكلمون عن زعامة أحد الأحزاب السياسية ، وأنا أقول إنه ليس فى الدولة غير حزب سياسى واحد ، فالوحدة جوهرية لنا ، ولا يمكن أن توجد أحزاب أخرى تناوئنا.ويهمنى من وجهة الكرامة والشرف أن أظل زعيماً لهذا الحزب الوحيد – حزب الشعب – ورئيساً للدولة فى وقت واحد .. ! » .

وكان الجواب تحدياً للجمعية الوطنية ، فبدأت الأعصاب تثور .. وبدأ كثيرون من زملاء مصطفى كمال الذين وقفوا إلى جانبه فى أحلك الأيام خلال السنوات الأربع الماضية يتكتلون ضده ، بزعامة رؤوف !.. كان بينهم رحمى ، وعدنان ، وكاظم قره بكير ، ورفعت ، وعلى فؤاد ، ونور الدين .. ولم يبق فى صفه غير عصمت ، وفوزى ، وبعض أصدقائه الشخصيين ..

وتوالى انضمام النواب إلى رؤوف واحد فى أثر الآخر ، وأخذوا ينتقدون مصطفى كمال علانية !.. إنهم لن يقروا أن تحكم البلاد حكماً مطلقاً ، ولا سيما على يد مصطفى كمال ، ذلك المنتقم الجبّار صاحب الآراء الثورية الشاذة والوسائل غير اللائقة ! إن أحداً لن يأمن على نفسه فى ظل حكم رجل

مثله . وكونه قد حقق لتركيا انتصارات عسكرية لا يبرر أن يغدو حاكمها المطلق أبد الدهر ! وتداعت الأكثرية التي كانت لمصطفى كمال فى الجمعية فى سرعة مخيفة ، فبادر إلى حلها وإجراء انتخابات جديدة ، آملاً أن يحصل على الأغلبية فيها بفضل معاونة حزبه الجديد .. لكن المجلس الذى أسفر عنه الانتخاب جاء مناهضاً له شأن المجلس القديم ، يأبى الانصياع لأوامره ، ويحدث ضجيجاً كلما خاطبه الغازى بلهجة ناظر المدرسة الذى يخاطب تلاميذه !

وبدا واضحا أن الأنتظار فى غير مصلحته ، وأنبأه أنصاره أن حزب الشعب يقوى بسرعة ، وأكد له فوزى أن الجيش كله يؤيده . . . وكان خصومه الرئيسيون غائبين عن أنقرة فى تلك الآونة ، وكان عصمت قد أحرز فى لوزان نجاحاً باهراً حصل بمقتضاه لتركيا على جميع مطالبها تقريباً ، وجلت آخر جيوش الاحتلال الإنجليزية عن العاصمة . وذيولها بين سيقانها ، فلمع اسم مصطفى كمال مرة أخرى باعتباره القائد الظافر ، وحانت فرصته للبت فى أمر حكومة تركيا الجديدة قبل أن يزداد خصومه قوة . . فليعلن تأسيس « الجمهورية » ويدبر أمر انتخابه رئيساً لها ، وحاكماً شرعياً للبلاد ! . . لكن الجمعية الوطنية لن تنتخبه ما بقيت حريتها الكاملة . فليدبر إذن مؤامرة سياسية تحقق له هدفه . ليخلق أزمة ويستغلها . . ! وبادر فدعا الوزراء إلى مأدبة عشاء فى داره بضاحية « شان كايا » ، ناقشوا فيها الموقف السياسى من جميع نواحيه ، وبعد أن أفرط المدعوون فى الشراب اقترح عليهم مصطفى كمال أن يستقيلوا فى اليوم التالى من مناصبهم ويرفضوا العودة إليها ، كى يحرجوا الجمعية ويستردوا هيبتهم لديها ، بعد أن كثرت شكواهم من محاسبة النواب لهم مباشرة وانتقادهم

إياهم فى كل صغيرة وكبيرة . . حتى إذا ما أحست الجمعية بالمأزق الذى أوقعها فيه تماديها فى مسلكها ، قبل الوزراء آخر الأمر أن يعودوا إلى مناصبهم مرفوعى الرأس مرهوبى الجانب !

وفى اليوم التالى استقال الوزراء جميعاً تنفيذاً لاقتراح مصطفى كمال .. وانعقدت الجمعية الوطنية لتأليف حكومة جديدة ، لكن غياب زعماء المعارضة عن المدينة أحدث تفككاً فى صفوف النواب ، فكثر بينهم الجدل والشجار ، وراح كل منهم يعمل بوحى مصلحته الخاصة ، حتى أسفر الموقف عن فوضى تامة !

وبعد يومين أقام مصطفى كمال مأدبة عشاء أخرى لنفر من أصدقائه المخلصين ، بينهم عصمت وفتحى وكمال الدين ، وابتسم حين حدثوه عن مأزق الجمعية الوطنية ! . . إن خطته توشك أن تؤتى ثمارها ! ومن ثم استدار الغازى نحو ضيوفه فجأة قائلاً فى حزم : « لقد حان الوقت كى نضع حداً لهذه الفوضى . غداً سوف نعلن قيام الجمهورية ، فهى المخرج من كل هذه المصاعب . . فعليك أنت يا فتحى أن تعقد الأمور فى المجلس غداً بقدر ما يمكنك ، فتؤلب الأعضاء ضد بعضهم البعض . . وعندئذ تقترح أنت يا كمال الدين أن أستدعى أنا لتولى زمام الأمور إنقاذاً للجمعية من مأزقها ! » .

وبعد إنصراف المدعوين عكف مصطفى كمال وعصمت على وضع صيغة قرار إعلان الجمهورية ، ففرغا منه قبيل الفجر !

وسارت الأمور وفقاً للخطة الموضوعة ، وفى اللحظة التى كان فيها النواب يتضاربون ويمسكون برقاب بعضهم البعض ، عرض كمال الدين اقتراحه بشأن استدعاء مصطفى كمال والاحتكام إليه لتشكيل الوزارة

الجديدة ، فقبل النواب الاقتراح مرحبين . إنهم فى غمرة شجارهم مع بعضهم البعض قد نسوا خصومتهم معه !

وكان مصطفى وقتئذ فى بيته ينتظر ما يسفر عنه عرض الاقتراح ، فلما استدعاه وفد من النواب أبى الاستجابة للدعوة فى المرة الأولى . . وحتى حين كتبت إليه الجمعية رسالة تحريرية تعلن فيها عجزها عن حل الأزمة الوزارية وتطلب معونته . أبى أن يتحرك . . لم ينهض لتلبية الدعوة إلا بعد أن اشترط أن تقبل الجمعية رأيه بلا مناقشة ! وحين صعد إلى المنصة ليواجه الجمعية ، بوجهه الأغبر الصارم وشخصيته الطاغية ، بدا النواب أمامه أشبه بالفيران الضئيلة وهم يتطلعون إليه صامتين ملهوفين . . ونطق أخيراً فقال :

« لقد أرسلتم فى طلبى كى أنقذ الموقف فى لحظة الحرج . لكن هذا الحرج من صنعكم أنتم ، فليس منشأ هذه الأزمة أمر عابر ، بل خطأ أساسى فى نظام حكومتنا . . فالجمعية الوطنية تقوم بوظيفة السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية فى وقت واحد ، وكل نائب منكم يبغى أن يشترك فى إصدار كل قرار وزارى ، ويدس إصبعه فى كل إدارة حكومية وكل قرار لوزير ! . . أيها السادة ، ما من وزير يستطيع أن يضطلع بمسئوليته ويقبل المنصب فى مثل هذه الظروف . يجب أن تدركوا أن حكومة تقوم على هذه الأسس لهى حكومة يستحيل إيجادها . . وإذا وجدت لم تكن حكومة بل كانت فوضى ! . . ونحن يجب أن نغير هذا الوضع . . لذلك أقرر أن تصير تركيا جمهورية لها رئيس يختار بطريق الانتخاب ! »

وذهل النواب للقرار المفاجئ ، لكنهم كانوا قد وعدوا مصطفى كمال بأن يقبلوا حكمه بغير مناقشة . . فلم يبق فى وسعهم غير أن يذعنوا ! . . ومع أن أربعين فى المائة منهم لم يشتركوا فى التصويت ، فإن للمرسوم الذى

أعده مصطفى كمال وعصمت بجعل تركيا جمهورية قد أقر ! . . وانتخب مصطفى كمال أول رئيس للجمهورية التركية ! وبهذا الانتخاب صار مصطفى كمال الحاكم الشرعى المطلق للبلاد ، أى صار يملك سلطة تعيين رئيس الوزارة والوزراء ، وصار فى الوقت نفسه رئيس مجلس الوزراء ، ورئيس الجمعية الوطنية ، ورئيس حزب الشعب ، الذى صار الآلة الحاكمة للبلاد . . وفوق ذلك كله كان مصطفى القائد العسكرى العام الذى يسيطر على الجيش والشعب معاً . . !

حرب الشائعات !

وهكذا تحققت لمصطفى كمال السلطة المطلقة التى طمع فيها ، وفى كل بلدة وقرية صار حزب الشعب – سلاحه السياسى – هو القوة المسيطرة على الأمور ، وكان الجيش خاضعاً لإشرافه المباشر ، وقبضته تهيمن على دولاب الدولة بأكمله . . لكن كفاحه الأكبر كان ما يزال ينتظره ! . . ولقد طالما أوضح لأصدقائه أنه يرى وجوب اقتلاع « سيطرة الدين » من تركيا .

لكن خصومه لم يعطوه فرصة للتمهل والانتظار . . لم يروا أن يدعوه حتى يعتدل فى جلسته فوق سرج جواده ، فقد كانوا زملاء له فى الماضى وعرفوا طبيعته جيداً ، فآمنوا بأنه لو استقر به المقام فوق ظهر الجواد فلن يتردد فى شنق أكثرهم أو نفيهم من البلاد ! . . ومن هنا عجلوا بنشر الشائعات فى أنحاء البلاد بما مؤداه أن مصطفى كمال يعتزم القضاء على الإسلام وطرد الخليفة !

وساعد على انتشار هذه الشائعات ما كان قد بدر من مصطفى كمال

أكثر من مرة خلال كفاحه ضد خصومه السياسيين من هنات تفصح عن ميوله ونياته المستورة ضد الخليفة الجديد « عبد المجيد » . . هذا فضلا عما كان معروفاً للملأ من إهماله للدين فى حياته الخاصة ، ومخالفته لكل قواعد اللياقة ، وسخريته من كل الأوضاع « المقدسة » . . وكان قد طرد « شيخ الإسلام » من مكتبه ! . . وأجبر نساء أنقره على نبذ الحجاب ، وخرجت زوجته سافرة ترتدى مثل ثياب الرجال ، وتحرض نساء أنقرة على المطالبة بمساواتهن بالجنس الآخر !

وذاع فى كل مكان أن حكام أنقرة الجدد كفرة ملاعين ، فصار الوعاظ والدراويش يندون بهم فى المساجد والأسواق ، وخاصة بزعيمهم مصطفى كمال . . ووزعت النشرات والصور الكاريكاتورية التى تهاجمه أشد الهجوم . . وشجع خصومه هذه الفتنة وأرسلوا رسلهم يبثونها ويذكون نارها كلما وجدوا الفرصة ملائمة . . ثم غادروا أنقرة والتفوا حول الخليفة « عبد المجيد » فى القسطنطينية ينشدون الأمان فى حماه ، إذ لم يجل بخاطرهم أن الغازى يجرؤ يوماً على أن يمس الخليفة بسوء !

على أن عبد المجيد لم يكن بالماكر الذى يحسن تدبير الخطط . كان رجلا بسيطاً أمينا هادئاً وسيماً فى الخمسين من عمره ، درس الرسم وأحب كتبه وحديقته ، وعاش طول شبابه معيشة بسيطة فى قصره المشرف على البوسفور ، وحتى استانبول ذات الألسنة القذرة لم ترو عنه رواية واحدة غير نظيفة ! . . لكنه بعد فرار وحيد الدين وانتخابه خليفة ، اتخذ مقتضيات منصبه كواجب اسمى ، فأحيا تقاليد أسلافه العظام . . وبدلا من أن يركب عربة كسلفه الأخير صار يمتطى صهوة جواد أبيض - مثل محمد الفاتح - يعبر به « القرن الذهبي » إلى جامع أيا صوفيا ليصلى الجمعة ،

يتبعه حرسه من الفرسان وتحف به الجماهير المهللة ! . . وكان يستقبل فى قصره الزائرين والسفراء والمبعوثين ، بوقار الزعيم الدينى لمائة مليون مسلم .

على أنه وإن لم يكن يطوى صدره على مطامع خاصة فى مجال النفوذ السياسى . أخذ يجتذب إليه العناصر الساذجة فى تركيا ! وكان آخر من انضم إليه خصوم مصطفى كمال السياسيين – رؤوف وصحبه – الذين دبروا خطة ترمى إلى تنصيب عبد المجيد سلطاناً دستورياً ، واختيارهم هم وزراء له ! . . وهكذا وجد المسكين نفسه بالرغم منه ، محوراً وسلاحاً للمعارضة لمصطفى كمال وحكومة أنقرة !

احتجاج أغا خان ، عجّل بإلغاء الخلافة !

أدرك مصطفى كمال خطر الحركة الدينية « الملكية » التى تدبر ضده فى القسطنطينية ، حيث أكثرية الشعب تكرهه ، وحيث يلتف أقوى خصومه حول الخليفة ! . . وفى الوقت ذاته كانت الفتنة الدينية فى الأقاليم تتفاقم كل يوم ، والشعور ضده يزداد ، بحيث لو اتحدت هاتان القوتان وأحسن تنظيمهما لهزمتاه دون ريب !

وفيما هو يدبر موقفه حائراً ماذا يصنع . خدمه الحظ مرة أخرى . وأمدته إنجلترا بسلاح جديد ، فقد أرسل الزعيمان الهنديان « أغا خان » و « أمير على » خطاب احتجاج باسم مسلمى الهند يطالبان فيه باحترام مقام الخليفة العثمانى « خليفة المسلمين » . . فنشر نص الخطاب فى صحف القسطنطينية قبل أن يصل إلى حكومة أنقرة . وإذ ذاك وجد الغازى فى هذا فرصته المنشودة ، فراح ينبش تاريخ أغا خان حتى تبين أنه يعيش فى إنجلترا ، ويسير جياده

فى حلبات السباق الإنجليزية ، ويمشى فى ركاب الساسة والسفراء الإنجليز ، وأن الإنجليز قد أعلوا من قدره بدعايتهم الحاذقة خلال الحرب العالمية حتى صار ينظر إليه كزعيم مسلمى الهند ، كى يستخدموه لتهديد سلطان تركيا كلما اقتضى الأمر ! . . وإذن فهو صنيعة من صنائع الإنجليز !

ونشط مصطفى كمال فى الضرب على هذا الوتر وإثارة هياج الرأى العام التركى ضد الخليفة ، قائلاً : « إن إنجلترا – العدوة الماكرة اللدودة – حين فشلت فى القضاء على تركيا بواسطة اليونان عمدت إلى دسائسها المألوفة فاستخدمت صنيعتها أغا خان كى يظاهر الخليفة ويشطر الأتراك إلى معسكرين ! ».

وأثار الأمر ثائرة الجمعية الوطنية فتسابق الخطباء من النواب إلى شن حملة شعواء على الخلافة ورجال الدين وزعماء المعارضة ، ثم أقروا قانوناً يقضى باعتبار كل معارضة للجمهورية وكل ميل إلى السلطان المخلوع خيانة يعاقب عليها بالموت ! . . .وحين تحدث بعض النواب عن فائدة الخلافة لتركيا من الوجهة الدبلوماسية أسكتتهم الأكثرية بالصياح وضجيج الغضب والاحتجاج . . ثم واجه مصطفى كمال الجمعية قائلا : « أليس من أجل الخلافة والإسلام ورجال الدين ، قاتل القرويون الأتراك وماتوا طيلة خمسة قرون ؟ لقد آن أن تنظر تركيا إلى مصالحها وتتجاهل الهنود وغيرهم وتنقذ نفسها من تزعم الدول الإسلامية ! » .

. وعلى هذا النمط نشر مصطفى كمال دعايته فى الأقاليم ، وحوكم محررو الصحف التى نشرت خطاب أغا خان ، وأذيعت تفصيلات المحاكمة بشتى وسائل النشر والإعلان ، بما يصورهم والخليفة فى مظهر الخونة وصنائع الإنجليز . . فماتت الفتنة الدينية فى مهدها وتعالت الأصوات تطالب

مصطفى كمال بإنقاذ تركيا ! . لكنه أراد أن يستوثق من تأييد الجيش له لو ألغى الخلافة وفصل الدين عن الدولة ، فذهب لحضور مناورات الجيش السنوية قرب ازمير ، وقضى أياماً يبحث الأمر مع فوزى وعصمت ويجس نبض صغار الضباط والجنود . . فلم يصل إلى نتيجة قاطعة يطمئن إليها ، ولبث يقلب الأمر على وجوهه بضع ليال . . . وفجأة قرر أن يضرب ضربته ، وأيقن أن الجيش سيؤازره ! وبمثل هذه السرعة انتقل من القول إلى الفعل . فاستحال غيظه المكبوت ثورة جامحة مدمرة ، وقرر أن يبدأ بإرهاب خصومه أولاً - - فانتهز فرصة تهور أحد النواب المعارضين فى إحدى جلسات الجمعية وكلف شخصاً باغتياله فى الليلة نفسها أثناء عودته إلى بيته ! . . وألقى أحدهم خطبة أيد فيها الخليفة ، فهدده الغازى بالشنق إذا فتح فمه بمثلها مرة أخرى ! . . واستدعى رؤوف من القسطنطينية وأجبره على أن يقسم يمين الولاء له وللجمهورية أمام اللجنة الرئيسية لحزب الشعب ، مهدداً بطرده من الحزب والجمعية إذا لم يفعل ! . . وأرسل أمراً حازماً إلى حاكم استانبول بوجوب إلغاء مظاهر الأبهة التى تحيط بموكب الخليفة أثناء تأدية الصلاة ، كما خفض مرتبه إلى الحد الأدنى ، وأنذر أتباعه بوجوب التخلى عنه . . فإنه ينبغى ألا يبقى فى القسطنطينية رئيس دينى يتحدى حكومة أنقرة !

والتمس بعض المعتدلين من مصطفى كمال أن ينصب نفسه « خليفة ».. وجاء من الهند ومصر وفدان يكرران الرجاء . . وكان إغراء المنصب عظيماً لما ينطوى عليه من مكانة أدبية ودولية فى العالم بأسره . . لكن مصطفى كمال رفض الاقتراح بحركة توحى بنفاد الصبر ، وكانت عظمته تكمن فى معرفته حدود نفسه وبلده والتزامه أهدافه الواضحة المحددة من قبل !

والآن صار على تمام الأهبة لمواجهة الموقف ، فقد بات كل من الشعب والجيش والجمعية الوطنية فى حنق على العدو الأجنبى وحليفه « الخليفة » . . وبات خصوم مصطفى كمال مذهولين مذعورين من عنفه وإجراءاته الأخيرة . . وفى الثالث من شهر مارس سنة ١٩٢٤ تقدم الغازى إلى الجمعية بمرسوم يقضى بإلغاء الخلافة وطرد الخليفة وفصل الدين عن الدولة . . وخاطب النواب المنفعلين قائلا : « بأى ثمن يجب صون الجمهورية المهددة وجعلها تتقدم على أسس علمية متينة . . فالخليفة ومخلفات آل عثمان يجب أن يذهبوا ، والمحاكم الدينية العتيقة وقوانينها يجب أن تستبدل بها محاكم وقوانين عصرية ، ومدارس رجال الدين يجب أن تخلى مكانها لمدارس حكومية غير دينية ! » .

وأقرت الجمعية القانون بغير مناقشة ، فهدم مصطفى كمال فى ساعة واحدة كل أسس الدولة القديمة . . وفى الليلة ذاتها أرسل أمراً إلى حاكم إستانبول يقضى بأن يغادر الخليفة عبد المجيد تركيا قبل فجر اليوم التالى ، فذهب هذا تصحبه حامية من رجال البوليس والجيش إلى قصر الخليفة فى منتصف الليل ، وهناك أجبر الخليفة أن يستقل سيارة حملته عبر الحدود فى اتجاه سويسرا ، بعد أن زوده بحقيبة بها بعض الثياب وبضعة جنيهات ! . . وبعد يومين ، حشد مصطفى كمال جميع أمراء العهد القديم وأميراته ورحلوا إلى خارج البلاد . . !

وفى طول تركيا وعرضها لم يبد أى مظهر من مظاهر الاحتجاج أو المقاومة !

الحزن والمأساة . . يدخلان بيته !

لم يتح هذا الانتصار لمصطفى كمال كل السعادة التى كان ينشدها ، أولعل منغصات حياته هى التى أفسدت عليه متعة بلوغ آماله . . فقد عاودته آلام كليتيه وصارت تهاجمه بلا انقطاع ، فيغالبها بالإفراط فى الخمر . . الأمر الذى زاد فى ثورة أعصابه ، وفى كآبة نفسه التى كانت تبلغ أحياناً حداً يفقده إيمانه بنفسه وبرسالته ! . . ولم يجد فى حياته الخاصة الشخص الذى يفضى إليه بذات نفسه ويفتح له قلبه ، فقد ماتت أمه بعد أن ساءت صحتها فى جو أنقرة القاسى فأخذتها لطيفة إلى ازمير لتبديل الهواء ، دون جدوى . أما لطيفة فقد عاش معها أشهراً بعد الزواج وكأنه فى الجنة . . لكن حبه الجنونى لها لم يلبث أن انطفأت جذوته ، فإن النساء عنده لم يخلقن إلا للمتعة العابرة . . وهكذا ضاق تدريجاً بحياة البيت الرتيبة ، وملازمة المرأة له ، واشتاق إلى ليالى العزوبة والحرية من القيود . . والرجل لا يستطيع مغالبة طبيعته طويلا ، وماضيه يترك طابعه فى نفسه كما يترك الجدرى آثاره فى الجسم ! . . وبرغم ما كانت عليه لطيفة من ثقافة وتحرر فى الفكر فإنها كانت تغار عليه كأية امرأة من نساء الحريم ، فلا تنفك تؤنبه على إفراطه فى الخمر وتطرد رفاق السوء من بيته . . ! وكان أهلها قد عادوا إلى أنقرة فطلبوا من الحقوق والامتيازات الخاصة ما أشعر مصطفى كمال بأنهم غدوا حملاً ثقيلاً عليه ، فطالبهم فى خشونة بأن يعودوا إلى ازمير من حيث أتوا ، الأمر الذى أحنق لطيفة عليه ! وبات الزوجان يتشاجران كل حين ، فتلوم لطيفة مصطفى كمال على أساليب حكمه الدكتاتورية وتصرفاته غير الدستورية ، وتنتقده فى السر والجهر ، بل تمالئ خصومه ! . . بينما يلومها

هو على تدخلها فى عمله وواجباته التى لا تعنيها . وكان كلاهما صلب الرأى قوى العزيمة والاعتداد بنفسه ، حاد اللسان يضيق بالنقد . . ولم يرزقا نسلا يلين العلاقة بينهما ويقوى رابطتهما . . فازداد شجارهما حتى ملأ البيت ضجيجاً . . وأخيراً قرر مصطفى كمال أن يتخلص من لطيفة . . فكتب وثيقة الطلاق ووقعها ، وأرسل رسالة قصيرة إلى الجمعية الوطنية والصحف والسفارات الأجنبية ينهى إليها النبأ فى إيجاز . . ثم أمر لطيفة بمغادرة البيت والبلدة من فورها ! وتغير أسلوب حياة مصطفى كمال من أساسه ، فكف عن الاختلاط بالشعب والتحدث إلى الناس فى الشوارع بحرية ، وصار متحفظاً منعزلا ، تتعذر مقابلته . ووقعت محاولتان لاغتياله : الأولى بالقنابل ، وقد فشلت تماماً . . والثانية بدس السم له فى الطعام ، وقد كادت تقتله ، فلم يعد إلى الحياة إلا بعد مجهود طبى شاق وآلام لا وصف لها ! . . وعلى أثر ذلك صار شديد الحذر والارتياب ، لا يخرج بغير حراسة قوية ، ولا يقترب من داره إنسان إلا بتصريح خاص ، ووضع حول الدار أنواراً كاشفة باهرة الضوء ، ولم يعد يقابل غير وزراء حكومته ونفر من أنصاره الكبار وأصفيائه الشخصيين . وبدأت العاصفة تنذر بالهبوب ، واهتزت الأرض تحت قدميه ! . .

صار الشعب يضج بالسخط ، بحيث اضطر عصمت وفوزى وأنصاره الخلصاء إلى تحذيره من الخطر الزاحف . كان الفقر يعم كل مكان ، والأيام الذهبية التى وعد الشعب بها بعد طرد الأعداء قد تمخضت عن أيام أسوأ من أيام السلطان عبد الحميد ذاته ! . . فقد عز الطعام ، وتفاقم الغلاء ، وشحت النقود ، بل شحت البضائع الضرورية واختفت من الأسواق ، وثقلت الضرائب ، وازداد جشع جباتها ، وجند الشباب

جميعاً فى الجيش برغم انتهاء الحرب ، فانهارت البيوت والمزارع على أصحابها ، وماتت الماشية لقلة العلف ، وأتلف الجدب أكثر الحاصلات الزراعية . . وصارت الحياة عبئاً لا يطاق بعد أن بلغت الفاقة والعوز حداً لم يسمع بمثله من قبل ! والواقع أن ذلك كله كان رد الفعل المحتوم بعد الحرب الرهيبة التى استنزفت موارد البلاد . . لكن خصوم مصطفى كمال من الساسة ورجال الدين أحسنوا استغلاله ، فأذكوا لهب السخط واستثاروا غضب الجماهير قائلين : « إن البشر لا يستطيعون أن يعيشوا على الانتصارات الحربية القديمة ، أو الإصلاحات والنظم الجديدة ، وإنما لا بد لحياتهم من الخبز والماشية والرى لحقولهم ، والمال لملء حوانيتهم بالبضاعة . . وهذه الحكومة ذات النظريات الملحدة والتغييرات الشاملة هى سبب فاقة الشعب وعوزه ! » .

وتفاقم التذمر والسخط ، وانتعش خصوم الغازى من الساسة والنواب فاستردوا جرأتهم على النقد والمهاجمة . وكان أول من هاجموه « عصمت » الذى احتفظ برياسة الوزارة منذ عاد من لوزان ، ثم انتقل الهجوم إلى زعيمه مصطفى كمال ، فتقدم بعض النواب فى الجمعية الوطنية باستجواب عن « مالية الدولة التى باتت فى حالة اضطراب وفوضى إجرامية » ! . . وتتابع الخطباء منددين بسوء الحالة الاقتصادية بسبب تصرفات عصمت ، ومطالبين بإقصائه فوراً ! ومع أن عصمت لم تكن له دراية كافية بالمسائل الاقتصادية . . فقد أصر على أن يتولى وزارة المالية ، ويناقش أمورها مع مرؤوسيه . وكان إخراج اليونانيين والأرمن من الوزارة قد حرم البلاد من كفاءاتهم الاقتصادية الممتازة ، ولم يفعل عصمت شيئاً لتعويض الوزارة عنها باستدعاء الخبراء الأجانب أو إرسال الأتراك فى بعثات إلى الخارج . . . !

وازدادت المعارضة جرأة وقويت شوكتها ، وصار زعماؤها يجتمعون فى القسطنطينية برياسة رؤوف ، وألفوا حزباً جديداً اسمه « التقدميون الجمهوريون » ، وانضم إليهم كثيرون من ألصق أنصار مصطفى كمال . وأعلن برنامج الحزب فإذا هو ينص على أن تكون الحكومة دستورية . وعلى مقاومة كل حكم مطلق ! . .

جريمة « عثمان أغا » أسقطت الوزارة !

وفى أثناء ذلك بقى مصطفى كمال فى « شان كايا » لا يحرك ساكناً . . بينما ازداد غليان الأعصاب فى أنقرة ، فى أوساط الساسة والنواب ، ولا سيما أن أنقرة لم تكن وقتئذ أكثر من قرية صغيرة خالية من وسائل التسلية واللهو والراحة والترف ، فكانت تسلية الناس الوحيدة أن يلتقوا ويتحدثوا فى السياسة ويتشاجروا فى شأنها فى الشوارع والمقاهى المتواضعة والفنادق الحقيرة ! . . بل إن الجمعية الوطنية ذاتها شهدت الكثير من المشاجرات العنيفة التى لوح فيها بالمسدسات . وهاجم أحدهم — ويدعى الكولونيل خليل — رئيس الوزراء عصمت أثناء المناقشة ، فقتله أحد أنصار الغازى برصاصة أطلقها على بطنه فى حرم المجلس ! . . ولم يجرؤ البوليس على اعتقال القاتل ! . . ثم حمل نائب آخر يدعى على شكرى على مصطفى كمال ، فقرر « عثمان أغا » رئيس حرس الغازى أن يتخلص من النائب السليط اللسان . فتودد إليه ثم دعاه إلى العشاء فى دار الحرس فى « شايا كايا » وهناك خنقه بمساعدة أعوانه وألقى جثته فى العراء . . فلما اكتشفت الجثة ثارت أنقرة بأسرها اشمئزازاً واحتجاجاً ، وطالبت الجمعية

بالقبض على عثمان أغا . . وطالب أعوانه بدورهم بحماية الغازى شم . بحجة أنه الذى أمر بالقتل . . فتردد مصطفى كمال برهة ثم تخلى عن حماية عثمان . لكن هذا تحصن فى دار الحرس فى وجه قوات البوليس . وثار رجال الحرس وحاولوا اختطاف مصطفى كمال . لولا أن استطاع الفرار فى سيارة من الباب الخلفى والتجأ مع رؤوف إلى منزل الأخير بالقرب من المحطة . . ونشبت معركة بين رجال الحرس وقوات الجيش التى استدعيت إلى شان كاي انتهت بقتل عثمان أغا وتشتيت شمل أعوانه . لكن تفصيلات القصة ذاعت فى أنحاء تركيا فجلبت على مصطفى كمال سخط الناس . وأقسمت عشيرة عثمان أغا أن تثأر لفقيدها من الغازى الذى غدر به . . ! وازاء تحرج الأمور على هذا النحو . لم يجد الغازى بدا من إقالة « عصمت » . . وأسند رياسة الوزارة إلى فتحى ، وكان هذا محبوبا من الرأى العام . . لكن المعارضة اعتبرت هذه المهادنة انتصاراً لها فأمعنت فى مهاجمة مصطفى كمال بغية التخلص منه واقتسام النفوذ بين أقطابها .. وبدأ أنصاره ينفضون عنه وينضمون إلى رؤوف . بل ان إحدى صديقاته آمنت بأفول نجمه فحزمت حقائبها وعادت إلى القسطنطينية !

ولم يعد الغازى يطمئن إلى تأييد الجيش له ! . وفى الأقاليم الشرقية شن رجال الدين عليه حرباً دينية . . وأرسلت إنجلترا إنذاراً بشأن امتلاك « الموصل » زعزع سمعته السياسية !

وفى أثناء ذلك كله بقى هو فى « شان كايا » متعباً مريضاً كسير النفس ، يغرق همه فى الخمر ! . . وأيقن خصومه أنه قد انتهى . . ولكن فجأة ثارت قبائل الأكراد التى تستوطن الجبال المجاورة للحدود الايرانية ، وارتفعت صيحتها المدوية : « تسقط جمهورية أنقرة ويحيا السلطان والخليفة ! »

ثم زحفت جحافلها الضارية نحو أنقرة تبغى « إنقاذ الإسلام » . . فاجتاحت فى خلال شهرين مقاطعات « خربوط » و « مأمورية العزيز » وباتت تهدد « ديار بكر » ، بل تهدد الوطن التركى بأكمله ! وعندئذ نفض مصطفى كمال عنه غبار الخمول واليأس والفتور . . وبعثت فى عروقه حيويته القديمة الكامنة ، وصاح بالشعب : « إن تركيا فى خطر ، فالعدو الأجنبي الأصيل – إنجلترا – يظاهر الأكراد ، ويمدهم بالمال والسلاح ! » وهب كل تركى ليمتشق السلاح ، وصهرت وطنية الشعب كل الخلافات السياسية والمقاومة الدينية ، وانهالت على الغازى من كل أنحاء تركيا ومختلف طبقاتها برقيات الولاء والتطوع بتقديم العون المطلوب ، فإن تركيا فى خطر . . والغازى وحده هو الذى يستطيع أن ينقذها !

ومرة أخرى برزت مواهب مصطفى كمال ، فى السيطرة والإشراف والإدارة ، وقاد جيوشه إلى الإمام ، فلم ينقض شهران حتى كان قد أخمد الثورة بغير رحمة ، فباتت كردستان كلها طعماً للنار والسيف : أحرقت قراها ، وعذب رجالها وقتلوا ، وأتلفت محاصيلها ، واغتصبت نساؤها ، وقتل أطفالها . . بمثل القسوة الفظيعة التى ذبح بها أتراك السلطان فى الماضى أعداءهم اليونان والأرمن والبلغار . . وأرسل مصطفى كمال محاكم عسكرية خاصة أطلق عليها « محاكم الاستقلال » تولت محاكمة الألوف من الأكراد فحكمت عليهم بالشنق أو النفى أو السجن . . كما عُذِّب كثيرون ، وشنق ستة وأربعون من رؤساء القبائل فى ديار بكر ، كان آخرهم « الشيخ سعيد » زعيم الثورة ومحرك الفتنة !

بقى على مصطفى كمال أن يواجه خصومه السياسيين ويثأر لنفسه منهم ، ولم يكن من طبعه الصفح عن الإساءة أو نسيانها . فدعا الجمعية الوطنية

إلى الانعقاد ووقف فى النواب خطيباً ، فظل يتلاعب بمشاعرهم حتى صفقوا له جميعاً مؤيدين . . اتهم زعماء المعارضة ، ولا سيما رؤوف والقواد العسكريين الأربعة ، بأنهم ساهموا فى تحريك ثورة الأكراد ، وقدم دليلاً على اتهامه خطاباً موجهاً من كاظم قرة بكير إلى الشيخ سعيد ، وهو خطاب وإن لم يتضمن شيئاً ذا بال إلا أنه يفضح الاتصالات الخفية بين الطرفين ! . .

ثم اتهم إنجلترا بأنها المحركة الأولى لثورة الأكراد ، طمعاً فى الوصول إلى بترول الموصل وبترول العراق . وأضاف أن زعماء المعارضة انضمّوا إلى الثوار سعياً إلى تحطيم الجمهورية وتدمير وطنهم . . فهم إذن خونة يستحقون العقاب . ولئن كان الأكراد قد هزموا فإن تركيا ما تزال فى خطر . . فالخطر يأتى من الداخل ، والدولة يجب أن تطهر !

فرار زعماء المعارضة !

وأفلح مصطفى كمال فى إثارة ثائرة النواب ، وأطلق حماستهم من عقالها ، فهبوا يطالبون برؤوس « الخونة » ، وهاجموا دار حزب المعارضة ، لكن زعماءه : رؤوف ورحمى وعدنان وخالدة أديب كانوا قد فروا من البلاد .

وبناء على طلب مصطفى كمال أقرت الجمعية الوطنية وقف الدستور وتخويل الغازى سلطة كاملة لإنقاذ البلاد . . وألغيت حصانة النواب ضد الاعتقال ، وفرضت الرقابة الصارمة على الصحف .

صار أى إجراء أو نقد شفوى للحكومة يعد خيانة عظمى تعاقب عليها « محاكم الاستقلال » بالموت فوراً ! . . وقرر الغازى وجوب محاكمة زعماء المعارضة ، لكن فتحى – رئيس الوزارة – والوزراء وكثيرين من

أنصاره عارضوا رأيه ، مؤثرين الاكتفاء بمهاجمتهم سياسيًّا ، تقديراً لماضيهم الوطني الناصع . فعقد الغازى اللجنة المركزية لحزب الشعب ، لأخذ رأيها . . لكن الآراء انقسمت وثار نزاع استخدمت فيه المسدسات . . فخشي مصطفى كمال مغبة إحداث انقسام فى صفوف أنصاره وأرجأ انتقامه من خصومه إلى فرصة أخرى . . لكنه لم يجد بدًّا من إقصاء فتحى عن الوزارة وإعادة . . عصمت !

على أن زعماء المعارضة وإن أفلتوا من العقاب هذه المرة ، فإن أتباعهم يجب أن يدفعوا ثمن معارضتهم . . ومن ثم أرسل « محاكم الاستقلال » إلى حيث تنشر فى الأقاليم عهد إرهاب دموى ، فتحاكم المعارضين وترسلهم إلى المشنقة من أجل أتفه الانتقادات . . وحين كان القضاة يظهرون تردداً أو ضعفاً كان الغازى يهددهم بأقسى عقاب !

لكنه لم يصرف النظر عن اصطياد خصومه من الزعماء فى أقرب فرصة ، فقد كان مؤمناً بأن نهوض تركيا الجديدة رسالة فى عنقه ، وبأن الإيقاع به قضاء على فرصة تركيا لبلوغ قمة مجدها ، ولا وسيلة يأمن معها شر خصومه غير أن يوقع بهم قبل أن يوقعوا به ، ولا سيما أن عدداً من الجمعيات السرية قد أنشئ فى جميع المدن الكبرى خلال الأشهر الأخيرة ، وأعيد تنظيم فروع جمعية « الاتحاد والترقى » القديمة ، وبدأت تنشط للعمل .

وهكذا تظاهر الغازى بأنه قد عدل عن فكرة محاكمة خصومه ، فعاد إلى « شان كايا » وهو يخفى نواياه وراء قناع وجهه الأغبر . . وهناك راح يعمل سرًّا ويدبر الخطط ببراعته المعهودة فى التآمر ، التى كسبها من عضويته القديمة فى جمعية « الوطن » ، وقدرته على انتظار اللحظة المناسبة ! وفى أثناء ذلك نشر فى أنحاء البلاد شبكة واسعة من الجواسيس ورجال

البوليس السرى مهمتهم اصطياد الأدلة التى تثبت على الخصوم تهمة التآمر والخيانة . .

وحانت فرصة أخيرة قبيل موعد زيارته الرسمية لمدينة « ازمير » بيومين . فقد ألقى البوليس القبض على ثلاثة أشخاص كانوا قد أعدوا قنابل لإلقائها من إحدى النوافذ على الغازى أثناء مرور موكبه فى شوارع المدينة . . كما وجد خطاب يفضح صلة المتآمرين بنائب معارض يدعى « سعيد خورشيد » . وعندئذ ضرب مصطفى كمال ضربته ، فألقى القبض على جميع زعماء المعارضة فى البلاد ، وأقام « محكمة الإستقلال » لمحاكمتهم فوراً ، بعد أن كلف رجال الأمن العام بجمع الأدلة التى تثبت التهمة على خصومه الرئيسيين . ولا سيما الباشوات الأربعة العسكريين ، وعصابة « أنور » من أعضاء « الاتحاد والترقى » القدماء .

وعقدت المحكمة جلساتها الأولى فى ازمير ، لمحاكمة المقبوض عليهم من رجال الطبقة التالية للزعماء الكبار ، فأصدرت حكمها عليهم جميعاً بالشنق ، بغير مراعاة لقواعد المرافعات والإثبات المقررة فى القانون . . وأرسلت الأحكام إلى مصطفى كمال فى بيته للتوقيع عليها ! وكان بينها الحكم بإعدام « عارف » ، صفى الغازى القديم الذى كان قد اختلف معه فى المدة الأخيرة وانضم إلى معارضيه . . ويقرر شاهد عيان أن عضلة واحدة لم تختلج فى وجه مصطفى كمال وهو يضع سيجارته جانباً ويوقع على الحكم بالموت على ذلك الصديق القديم الحميم ! . ثم ينتقل إلى توقيع الحكم على غيره . كما يوقع على أية ورقة عادية من أوراق الروتين الحكومى اليومى ، من غير أن يسمح للذكريات أو العواطف بأن تلين عزيمته !

ثم جاء دور محاكمة « الكبار » فى أنقرة ، فحشدوا جميعاً — عدا الذين

فروا من البلاد – فى قفص الاتهام . . وألفت المحكمة من ثلاثة قضاة من جماعـة الفدائيين أتباع الغازى ، يرأسهم من يدعى « بالدعلى » ، وكان يتباهى بأنه قد حكم بالشنق على عدد من الأتراك يفوق العدد الذى حكم عليه أى تركى منذ عهد السلطان محمود الثاني ! وكان « بالدعلى » هذا قد تلقى أمراً من مصطفى كمال بأن يحكم على المتهمين جميعاً بالادانة – أيًّا كان دفاعهم – فأدار المحاكمة بطريقة لم تسمح للمتهمين بالدفاع عن أنفسهم . وأظهرت المحاكمة مصطفى كمال فى دور البطل الوطنى العظيم ، بينما لطخت بالأوحال سمعة الباشوات العسكريين الأربعة بحيث كتبت نهايتهم السياسية فى اعتبار الرأى العام . . وعندئذ أطلق سراحهم ، إظهاراً لنبل الغازى وكريم عفوه ! . . أما الباقون من المتهمين فقد حكم عليهم « بالد على » بالموت ، وعلى شفتيه ابتسامته المألوفة ! وفى أثناء المحاكمة بذلت الحكومات الأجنبية والبيوت المالية الأوربية الكبرى ، والصحف العالمية ، جهوداً جبارة لإنقاذ أحد المتهمين من اليهود ، وهو « يافيد » وزير مالية تركيا فى عهد « أنور » . . . لكن هذه الجهود لم تزد الغازى إلا إصراراً على رأيه . . فلما حمل إليه « بالد على » أحكام إعدامهم ليوقع عليها ، بادر إلى ذلك فوراً ، وأمر بتنفيذ الإعدام فى الليلة ذاتها ! . . بل رأى – إمعاناً فى الانتقام – أن يحتفل بهذه المناسبة بإقامة حفلة راقصة رسمية بقصره فى (شان كايا) فى الليلة نفسها ! على أن يدعى إليها بالتليفون بأقصى سرعة جميع البارزين فى العاصمة من الأتراك والسفراء الأجانب والوزراء والقضاة وأجمل سيدات أنقرة ! . .



الغازى مصطفى كمال أتاتورك ، رئيس الجمهورية .

هدم . . وبناء !

صار مصطفى كمال هو الحاكم بأمره فى أنحاء البلاد ، بعد أن تخلص من معارضيه جميعاً واستكان الشعب التركى لحكمه . . وتركزت كل سلطات الدولة فى يديه ، وبات حزب الشعب الذى يرأسه هو الآلة المهيمنة على الحكومة ، بحيث صار محتوماً على كل ذى منصب حكومى ، من أصغر موظف فى أصغر قرية إلى رئيس الوزارة ، أن يكون عضواً فيه . كانت لجان الحزب الأقليمية بمثابة فروع محلية للحكومة ، تنفذ أوامر اللجنة المركزية العليا وتطلعها على كل صغيرة وكبيرة فى أنحاء البلاد ، وتدين بالطاعة العمياء لمصطفى كمال ، طبقاً للأسس العسكرية التى نظمت بمقتضاها . . وكان الغازى يختار منها وزراءه ، الذين كانوا موظفين دائمين أكثر منهم وزراء ، بسبب انعدام أحزاب المعارضة !

وصارت انتخابات الجمعية الوطنية إنتخابات « اسمية » ، إذ لم يكن يسمح لأحد بمنافسة مرشحى الحكومة الذين ينتقيهم مصطفى كمال من أعضاء حزبه ولجانه . . وكان النائب يلتزم الطاعة المطلقة لرغبات الغازى عند التصويت على مشروعات القوانين . . وإذا اجترأ شخص ، سواء أكان نائباً أم شرطيًّا فى إحدى القرى ، على أية مخالفة أو عصيان فسرعان ما يفصل فوراً من الحزب ، فيفقد تبعاً لذلك عمله ويتعذر عليه أن يجد عملاً آخر ، ولو أدى الأمر إلى موته جوعاً ! . . وهكذا صار الحزب أشبه بجيش احتلال ، يشرف على إدارة شؤون البلاد !

وكان مصطفى كمال يستعين فى حكمه بثلاثة أشخاص ، يجتمعون به كل ليلة فى منزله فينهون إليه الأنباء ويتلقون أوامره : عصمت ، الذى كان

يختص بشؤون الحكومة والجمعية الوطنية . . وفوزى ، الذى اختص بشؤون الجيش . . ثم « ظيا صفت » السكرتير العام لحزب الشعب ، وهو يهودى قدير حاضر البديهة كان يسرد على مسامعه أنباء اليوم الهامة وشؤون الحزب . . وكان الثلاثة يستلهمون فى أعمالهم رئيسهم الوافر النشاط ، الذى جمع بين رياسة الجمهورية ، ورياسة الجمعية الوطنية ، ورياسة حزب الشعب ، ورياسة مجلس الوزراء ، ثم القيادة العليا للجيش !

وكان مصطفى كمال يباشر مهام مناصبه بتعصب المؤمن بنفسه وبرسالته . وكانت رسالتـه أن يخلق من تركيا دولة متمدينة غنية رفيعة الشأن . تأخذ بأفضل ما فى الحضارات الأخرى ، إلى جانب الاحتفاظ بالصالح من حضارتها الخاصة . وأدرك أنه لكى ينجح فى مهمته عليه أن يستنهض همم الشعب نفسه ، ويدربه ويقوده ، بروح المستبد المصلح ، أو ناظر المدرسة مع تلاميذه الصغار ، البسطاء الأغرار ، الذين هم أشبه بالمادة الخام التى تصاغ حسب طلب صائغها ! . . ومثل ناظر المدرسة ، كان إذا لم يفلح فى الإقناع عمد إلى استخدام القوة . مؤمناً بأنها لخير تلاميذه ! وجعل همه الأول أن يكمل الهدم قبل أن يشرع فى البناء ، كى يطهر تركيا من أدران الماضى الفاسد تماماً . . لقد مزق الكيان السياسى للدولة بأكمله ، فحول المملكة إلى جمهورية ، وفصل الدين عن الدولة ، وأقصى السلطان والخليفة ، وأزال كل أثر للإمبراطورية العثمانية . . وصار عليه الآن أن يغير عقول الشعب بأسره : أفكارهم القديمة ، وعاداتهم ، وأزياءهم ، وأساليب حياتهم ، وأدق الدقائق التى تربطهم بنشأتهم الشرقية وماضيهم . . وكانت هذه المهمة أصعب بكثير من إعادة بناء الكيان السياسى للدولة ، أو على حد تعبيره : « لقد قهرت العدو ، وقهرت الدولة ،

فهل أستطيع أن أقهر الشعب !؟»

ورأى أن يتخلص من الطربوش ، رمز الدولة العثمانية . . وكان يعلم أنه سيلقى مقاومة عنيفة من الشعب ، الذى سيشعر أنه قد طعن فى شعاره القومى ، فآثر أن يصل إلى هدفه بالتدريج . . بدأ بأن فرض على حرسه الخاص ارتداء القبعة . فلما لم يعترض أحد عمم القبعة فى الجيش كله . وبث فى صفوفه من يشرح للجنود أفضليتها على الطربوش فى حماية الرأس من الشمس والمطر . . فلما لم يحتج الجيش ظهر هو فى حفلة رسمية مرتدياً قبعة من القش ! وكان الغازى قد وطن نفسه على احتمال ضحك الناس وسخريتهم من منظره . فقد كان يملك من الشجاعة الأدبية مثل ما يملك من الشجاعة البدنية . . وبدأ يبشر بنظريته قائلاً : «إذا أردنا أن نكون شعباً متمديناً فينبغى أن نرتدى ثياب المتمدينين الدولية . أما الطربوش فهو رمز الجهل !» . . لكن الجماهير أبت أن تجاريه أو تقلده فى «بدعته» ، وحتى الأفراد القليلين الذين تبعوه عادوا فنكصوا أمام إزدراء الناس وتهكمهم ! . وعندئذ أحس الغازى أنه فشل فى إقناع الأتراك برأيه ، فلم يجد بداً من فرضه عليهم بالقوة !

إلغاء الطربوش : وفرض القبعة !

وهكذا أصدرت «الجمعية الوطنية» بناء على طلبه ، قانوناً يحرم ارتداء الطربوش ويعاقب من يرتديه . وبعد يومين من إصداره انتشر رجال البوليس فى الشوارع الرئيسية فى جميع المدن والقرى وأخذوا «يصادرون» الطرابيش من فوق رؤوس المارة . وكل من قاوم أو اشتكى كان مصيره

الحبس ! . . وسرت فى البلاد موجة من الغضب والسخط ، ورجمت الجماهير فى كثير من البلاد ممثلى الحكومة بالأحجار ، مدفوعة بتحريض رجال الدين الموتورين الذين ألقوا فى روع الناس أن هذه « البدعة » مخالفة لتعاليم الإسلام ، وأن القرآن والسنة يحرمان ارتداء القبعة ! . . وفى الجمعية الوطنية نفسها وقف الجنرال نور الدين باشا يحتج على البدعة الجديدة ! عندئذ انقلب « ناظر المدرسة » إلى مستبد غاشم ، لسان حاله أن الثورات يجب أن تبنى على الدم . وإلا انهارت ولم تدم ! . . وبدأ فأقصى نور الدين باشا عن الجمعية ، وأرسل « محاكم الاستقلال » إلى الأقاليم لتحكم على مئات من « المتمردين » بالشنق والرمى بالرصاص والسجن ! . . فتوقفت حركة المقاومة ، وسارع كل تركى إلى شراء القبعة وارتدائها ، وحين لم يجد الأهلون فى إحدى القرى قبعات كافية هاجموا متجراً لبيع قبعات النساء يملكه أرمنى فابتاعوا محتوياته وارتدوها ، بريشها وأشرطتها الملونة !

وصار كل رجل فى تركيا يرتدى القبعة ، ولكى يوطد مصطفى كمال هذا التقليد فى أذهان العالم الخارجى أرسل مندوبه إلى المؤتمر الإسلامى المنعقد فى مكة ، مرتدياً قبعة ! . . وكان المؤتمر يضم ممثلين لجميع دول العالم الإسلامية ، ولم يجد المؤتمرون بدًّا من احترام المندوب وقبعته تقديراً لمصطفى كمال !

وبقى أمر « الدراويش » ، الذين كانوا يملكون أخصب الأراضى وأفخم العمارات ، وكانوا أشبه بالعالة على المجتمع العامل النشيط ، المحروم . . فضلاً عن صلتهم بثورة الأكراد . . ومن ثم رأى مصطفى كمال أن يتخلص منهم ، فأصدر قانوناً من الجمعية الوطنية يقضى بإغلاق

التكايا ومصادرة ثروات الدراويش وتشريدهم فى الشوارع ، كى يعيشوا من عرق جبينهم ، أو يموتوا جوعاً إذا آثروا الكسل . . شأنهم شأن جميع المواطنين ! وبذلك قضى مصطفى كمال على الأساس والمظاهر الدينية للدولة والشعب ، بأكملها !

* * *

وإذ فرغ الغازى من الهدم ، بدأ يشرع فى البناء . . فاستدعى الخبراء والمشرعين الأجانب كى يسنوا للبلاد قوانين تحل محل القوانين والتشريعات القديمة . فوضع أولئك الخبراء نصوص القوانين الجنائية والمدنية والتجارية ، المقتبسة عن تشريعات إيطاليا وسويسرا وألمانيا على الترتيب . . وبمقتضاها منع تعدد الزوجات ونظام « الحريم » وتقررت المساواة بين الرجال والنساء فى جميع الحقوق والواجبات . ثم عكف على تحقيق حلمه القديم الذى كان عماد مقاومته للغاصب الأجنبى ، وهو جعل « تركيا للأتراك » فأصدر مجموعة من القوانين والتشريعات التى تكفل بلوغ هذه الغاية . . استبعد من اللغة التركية سائر الكلمات الأجنبية — العربية أو الفارسية — واستبدل بها كلمات من لغة التتار ، التى هى أصل اللغة التركية ، وأمر بأن تتلى الصلوات فى الجوامع بالتركية وحدها . . وطبع طوابع بريد جديدة تحمل صورة « الذئب الأغبر » ، رمز الأتراك القدماء . وألزم المدارس الأجنبية بتعليم لغة البلاد واستخدام مدرسين أتراك ، وحتم أن تكون الدراسة الابتدائية مقصورة على المدارس التركية وحدها . . كما حتم أن تكون نسبة كبيرة من رأس المال فى كل مؤسسة تجارية ، ملكاً للأتراك ، وكذلك الحال بالنسبة للمديرين والموظفين فيها . . وألزمها بجعل مراسلاتها وحساباتها بالتركية . وأغلق فى وجه غير الأتراك ممارسة مهن الطب والمحاماة

وبعض الصناعات . وشجع الصناعات الوطنية بفرض الحوائل الجمركية ، وشن حملة لإغراء الشعب بمقاطعة البضائع الأجنبية التى لها نظير من انتاج البلاد ، إلى درجة استعمال شراب « البابونج » الذى يزرع محلياً بدلاً من الشاى الذى يستورد من الخارج !

وبعد أن كانت ساعات النهار تحسب إبتداء من الفجر المتغير ، صارت تحسب ابتداء من منتصف الليل الثابت . . وأدخل التقويم « الجريجورى » . . بل بز دول أوربا ذاتها فى بعض الأمور ، فقضى باعتبار الضحك سخرية بالمجنون والشاذ والكسيح ، إهانة إجرامية معاقباً عليها . . وطهر الشوارع من المتسولين ، وقضى بوجوب حصول الراغبين فى الزواج على شهادات رسمية بخلوهم من بعض الأمراض ، بغية خلق جيل صحيح الجسم يخدم البلاد . . هذا إلى مئات الإصلاحات الأخرى ، الكبيرة والصغيرة !

واعتزم أن يجعل أنقرة عاصمة جديدة بتركيا الناهضة ، برغم العوائق الطبيعية والجغرافية العديدة ، فاستدعى من برلين وفينا خبراء أخصائيين فى تخطيط المدن ، وكلفهم بتخطيط مدينة ذات شوارع وميادين فسيحة ومبان جميلة . . وشاركهم فى البحث والدراسة . . ثم استصدر من الجمعية الوطنية الاعتمادات المالية اللازمة للمشروع ، وأمر بزرع ملايين الأشجار ، وإنشاء الطرق وردم المستنقعات لمكافحة الأوبئة المتفشية . . حتى أنفق فى هذا السبيل ، فى مدة وجيزة ، ثلاثة عشر مليون جنيه ! ثم بدأ مصطفى كمال يحصر اهتمامه فى « الإشراف » على الأمور ، تاركاً أمر التنفيذ وما يكتنفه من دقائق وتفصيلات فى يد عصمت رئيس وزارته ، الذى صار يقتنص كل يوم مزيداً من الاختصاصات . . أما مصطفى فعاد تدريجاً

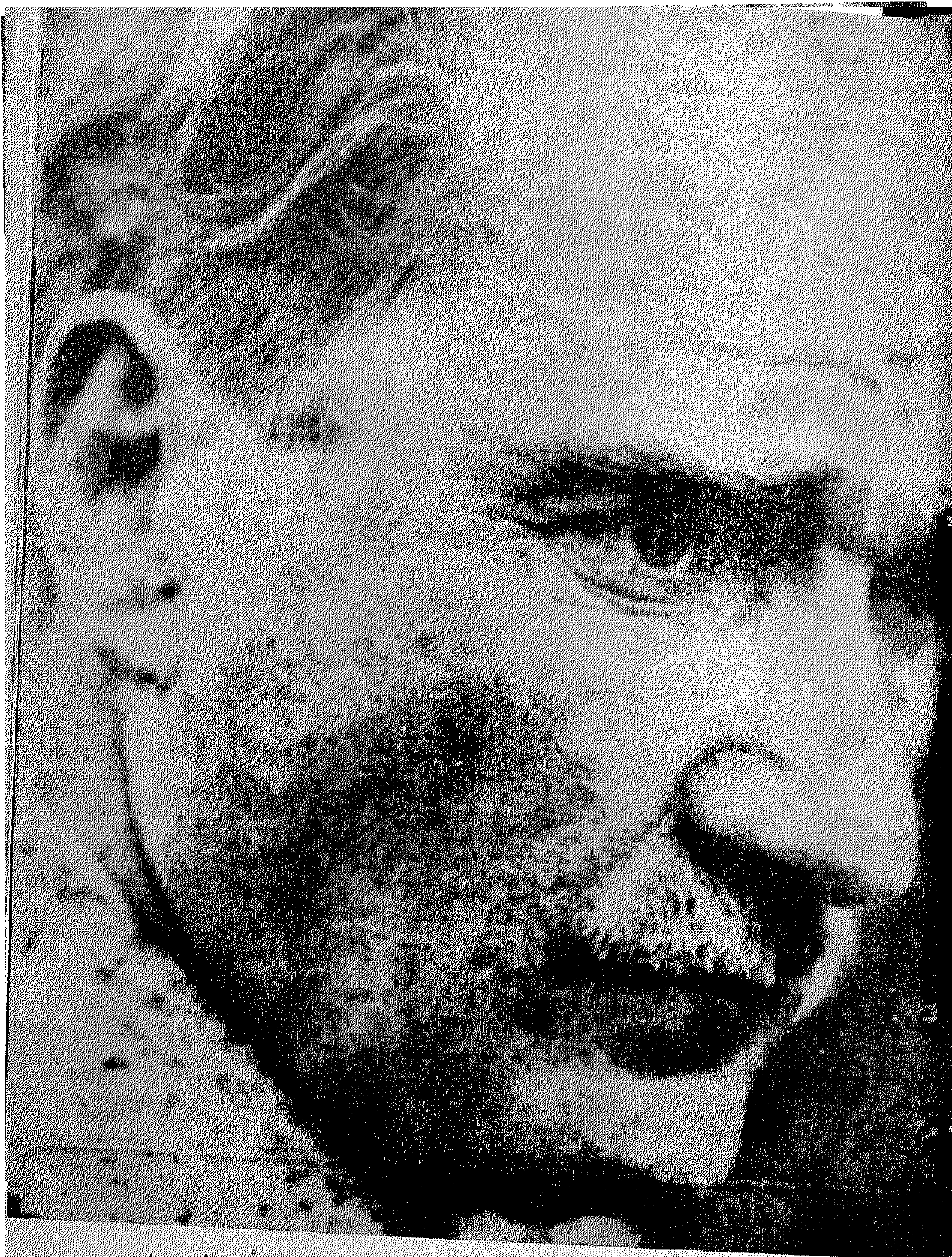
إلى انزوائه فى داره بضاحية «شان كايا» ، وإلى نفوره من الناس والمجتمعات ، بحيث لم يعد يراه غير ألصق أصدقائه وصديقاته ، وكبار الموظفين والمسئولين . .

وفى «شان كايا» عاش حياته الضارية الشاذة . . كان قد بلغ السابعة والأربعين ، وبدت عليه علائم الكهولة ، فامتلأ جسمه إلى حد يقرب من البدانة ، وتساقط شعره عن مقدم رأسه ، واكتسب وجهه تلك الصرامة التقليدية التى كانت متكلفة فى البداية ، فصارت فى النهاية غير ارادية . . بحيث لم تعد الابتسامة تعرف طريقها إلى شفتيه إلا نادراً ، ولفترة قصيرة من الوقت ، برغم ما كانت تنطوى عليه من جاذبية نادرة !

وكانت صحته دائمة التغير ، لا تستقر على حال . كان أحياناً يقضى ليالى بأكملها مؤرقاً ، وتعاوده نوبات الكآبة السوداء . . وآلام الكليتين الحادة . . وأحياناً أخرى ، وربما فى خلال ساعات قليلة ، ينقلب شخصاً ممتلئاً صحة وحيوية ! . . فهو اليوم شيخ مهدم ، وغداً شاب قوى البنية . . على أن حيويته الخارقة فى عمله لم تضعف أو تتضاءل ، فكان يقوم فى بعض الأحيان بمجهود متواصل يعجز عن مثله عشرة من الرجال الأقوياء !

وفى إحدى المناسبات ألقى خطاباً عن تاريخ الثورة الوطنية استغرق منه إعداده سبع ليال كاملة ، واستغرق إلقاؤه ستة أيام متوالية . . حتى تعب النواب ودهمهم النعاس ، وهو محتفظ بكلمل حيويته وقوة صوته !

وكان بعد ذلك يقضى عدة أيام منزوياً فى داره ، يسهر طول الليل مع أصفيائه . . وعقب هذه الليالى المرهقة ، أو ليالى الأرق الطويلة ، كان ينهض عند الفجر ليمتطى جواده إلى المزرعة النموذجية التى كان يشيدها فى واد قريب ، والتى زودها بأحدث المستحدثات الزراعية



علائم الشيخوخة قبل الأوان ، تبدو على قسمات وجه « أتاتورك » !

والميكانيكية ، وأحسن فصائل الأبقار والخنازير . . وكانت تراوده على الدوام صورة حالمة لتركيا فى المستقبل ، وقد عمتها هذه المزارع وفاضت أرضها حنطة وزيتاً . . فأمر بإنشاء الجمعيات التعاونية والبنوك الزراعية للتسليف ، لعقد القروض للفلاحين وتوزيع البذور . . ووضع مشروعات للرى ، وللطرق والسكك الحديدية الجديدة ، ولأعظم المستحدثات الصناعية !

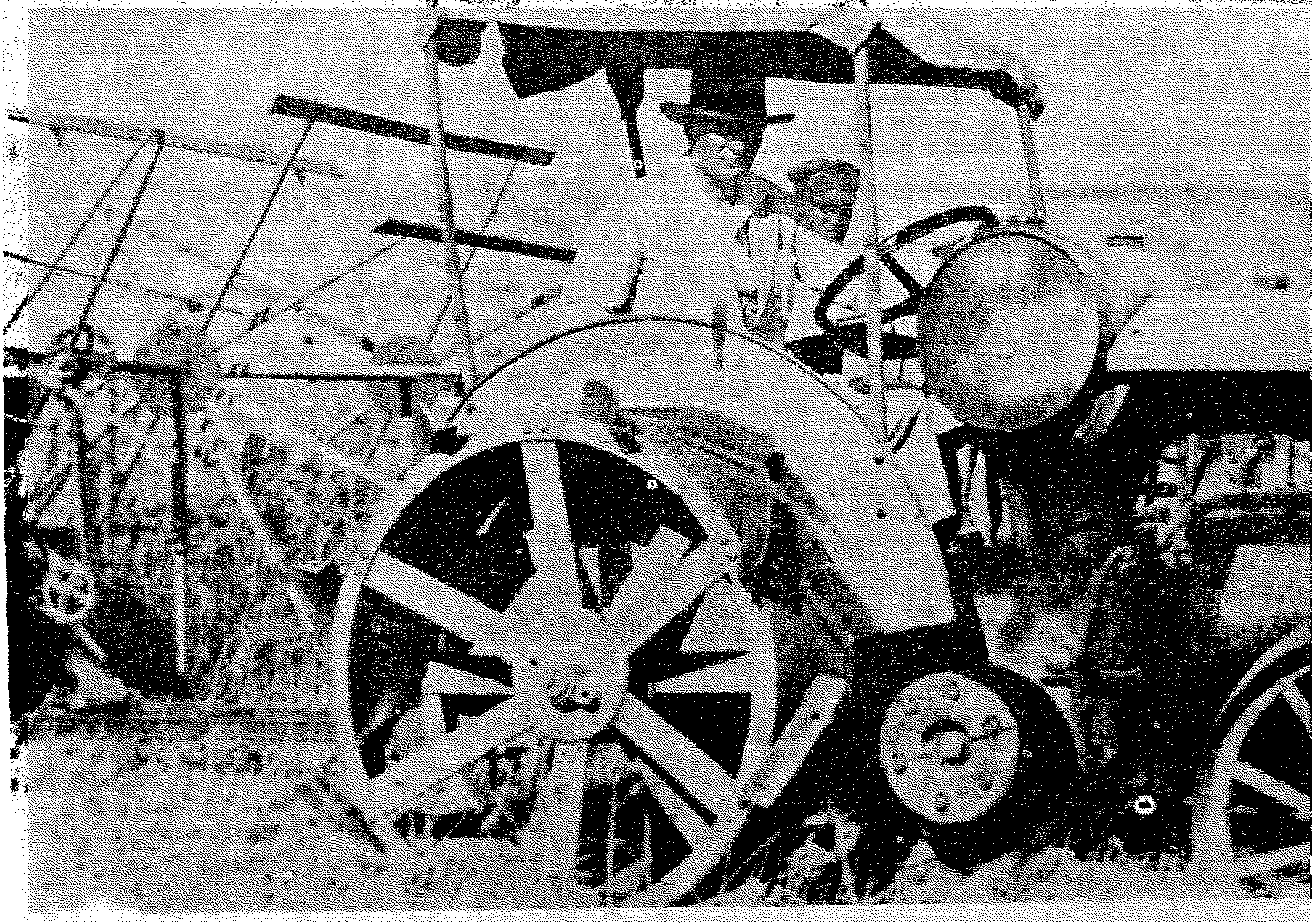
ولا شك أن مصطفى كمال — برغم دكتاتوريته — كان وطنياً ، مؤمناً برسالته وبنجاحه ، لكن عوائق كثيرة كانت تصدمه فى مراحل جهاده ، أهمها نقص المال ، وقصور الشعب وتواكله وفقره . .

الحروف اللاتينية ، بدلاً من العربية !

بدأ مصطفى كمال يمل حياته المتشابهة فى « شان كايا » . فود لو يسافر ويرى الحياة والناس . ويبتعد فترة عن السهول الصفراء المترامية أمام داره !

ومن جهة أخرى كانت صحته آخذة فى التدهور بسبب الإرهاق فى العمل ، حتى لقد أصيب مرتين بنوبة قلبية مصحوبة بإغماء شديد . . فأنذره الطبيب بوجوب العناية بصحته والاعتدال فى حياته ، وتغيير الهواء .

لكن « الذئب الأغبر » كان يبيت فى نفسه مشروعاً خطيراً يديره فى رأسه منذ زمن ويتردد فى الإقدام عليه . . فتحامل على متاعبه وهب من مرقده أخيراً لينفذه : إنه سيذهب إلى القسطنطينية ، وهناك يفاجئ الشعب من شرفة قصر السلطان العثماني بإصلاح جديد عنيف الأثر . سوف يلغى الكتابة بالحروف العربية ويجعل اللغة التركية تكتب بالحروف اللاتينية ، وبذلك يحدث ثورة فى الأدب التركى بأجمعه ، وفى وسيلة التراسل بين

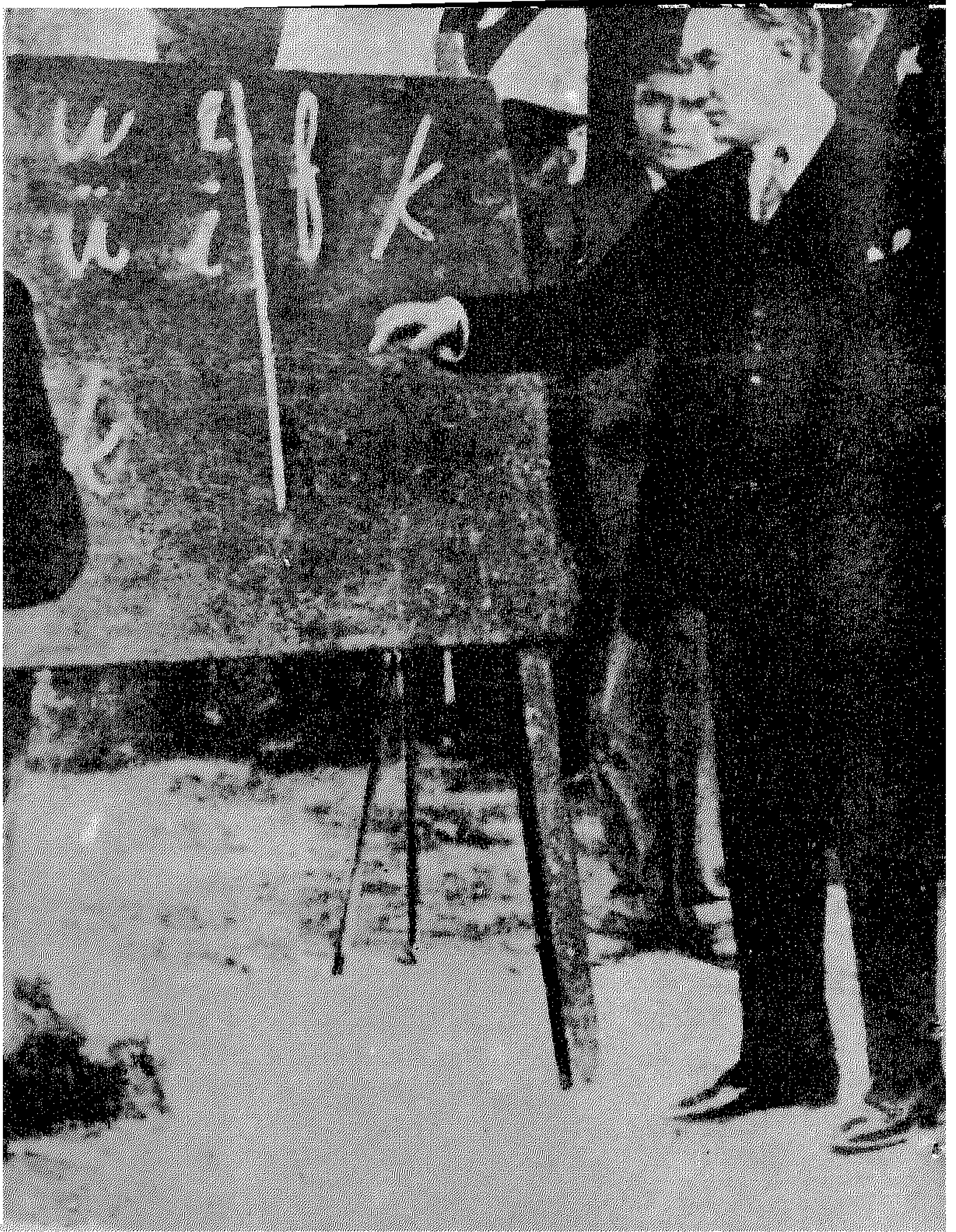


مصطفى كمال فى جولة تفتيشية يجرب آلة حصاد زراعية بالمزرعة النموذجية التى سميت باسمه بالقرب من (أنقرة) .

التركى والتركى . . سوف يقلب كل الأفكار فى البلاد رأساً على عقب !

وكانت حجته أن الكتابة بالحروف العربية شديدة التعقيد ، بحيث صارت وقفاً على خاصة المثقفين ورجال الدين . . أما أكثرية الشعب ، أو نحو تسعين فى المائة منه ، فلا تعرف القراءة والكتابة . . وحتى الذين يعرفونها تقتصر ثقافتهم على الأفكار العربية والفارسية فحسب ، وكأن جداراً قد اقيم بينهم وبين الفكر الغربي الوثاب . . لكنه بجرة قلم سوف يقلب هذه الأوضاع ، ويرسل أفراد الشعب جميعاً إلى المدرسة ، المتعلمين إلى جانب الجهال ، ورجال الدين إلى جانب الخدم والعامة . . سوف يفتح لهم جميعاً أبواب المعرفة ويقودهم إلى مستقبل باهر ! وعكف على مشروعه يدرسه بعناية وتؤدة ساعات كل يوم ، مستعيناً بأساتذة اللغة وخبرائها على وضع حروف أبجدية لاتينية تلائم اللغة التركية ، حتى أتم إعداد العدة لانقلابه الخطير ، فأعلن اعتزام الحكومة الانتقال خلال عطلة صيف سنة ١٩٢٨ إلى القسطنطينية وشاطئ البوسفور . . وعند وصوله استقبله أهل المدينة الكبرى بأعظم حفاوة وترحيب ، بعد أن طالت غيبته عنهم تسع سنوات . . وفى موكب رائع شق طريقه إلى مقره الجديد : قصر السلطان !

وبعد أيام وجه الدعوة إلى أكبر عدد من الشخصيات والنواب والموظفين ورجال الدين والصحفيين والكتاب وأساتذة المدارس وسيدات المجتمع وكبار التجار ، لحضور حفلة استقبال كبرى فى القصر . . وبعد أن اكتمل عقدهم وقف فشرح للمدعوين غرضه من دعوتهم ، وكانت إلى جانبه « سبورة » وقطعة من الطباشير ، فشرع يردف شرحه بالكتابة ، موضحاً طريقة الكتابة الجديدةوأفضليتها ، ملقياً النكات والملح اللطيفة بين الحين والآخر ، على خلاف عادته ، داعياً بعض الحاضرين إلى تقليده !

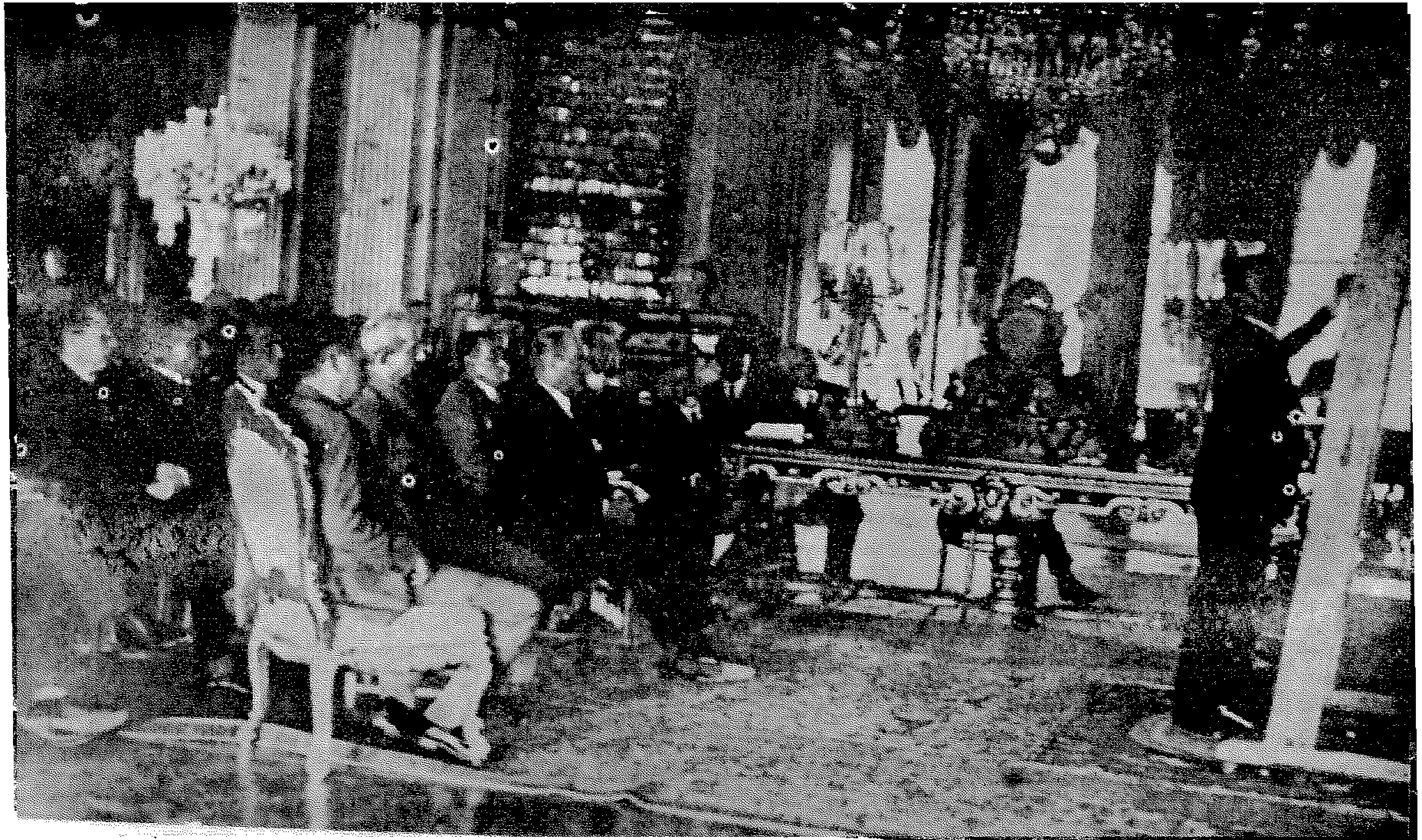


أتاتورك يعلم الشعب طريقة الكتابة بالحروف اللاتينية على « السبورة »

ثم قام فى الأيام التالية بجولات فى المدن والقرى حاملاً معه سبورته وطباشيره ، ملقياً دروس الكتابة باللاتينية فى الأسواق والميادين العامة . . . فاستجاب الشعب بأجمعه للدعوة الجديدة ، التى هى مفتاح الباب المؤدى إلى النجاح الذهبى والثروة والرخاء . . وصار الجميع ، شباباً وشيباً ، يجلسون فى أركان المقاهى والجوامع والميادين ، حاملين ألواح الإردواز والطباشير ، يتمرنون على « البدعة » الجديدة ! وكان الغازى لا يدع فرصة إلا امتحن فيها كل من يلتقى به فى مدى إتقانه الكتابة اللاتينية ، حتى لقد أوقف الرقص فى إحدى الحفلات ذات ليلة وطلب سبورة وطباشيرة ثم ألقى على الحاضرين درساً وعقد لهم امتحاناً ! . . ثم حدد يوماً يصبح بعده كل متخلف عن إتقان الكتابة الجديدة عرضة لعقوبات قاسية ، منها الطرد من الوظيفة والتجريد من الجنسية بل النفى من البلاد أو الاعتقال فى السجون ! وأخذ الغازى يقوم بجولاته فى أنحاء البلاد لتعليم شعبه بهمة ونشاط لا يعرفان الكلل . . وهكذا استرد من جديد إهتمام الناس به وتركيز الأضواء على شخصيته . . وأحياناً كان يفرغ من جولته فيسهر مع أصدقائه حتى مطلع النهار التالى ، ثم يخرج إلى جولة تعليمية جديدة دون أن ينام لحظة أو حتى يخلع ثيابه !

يحرر المرأة ، ويتجه نحو الديمقراطية

وواصل الغازى اصلاحاتـه . . فأمر بتشجيع نهضة الفنون وفق الأساليب العصرية ، وأنشأ فى أنقرة مدرسة يدرس فيها الجنسان الفنون الجميلة ، وأمر بإقامة تماثيل فى الميادين الكبرى ، وإحلال الموسيقى

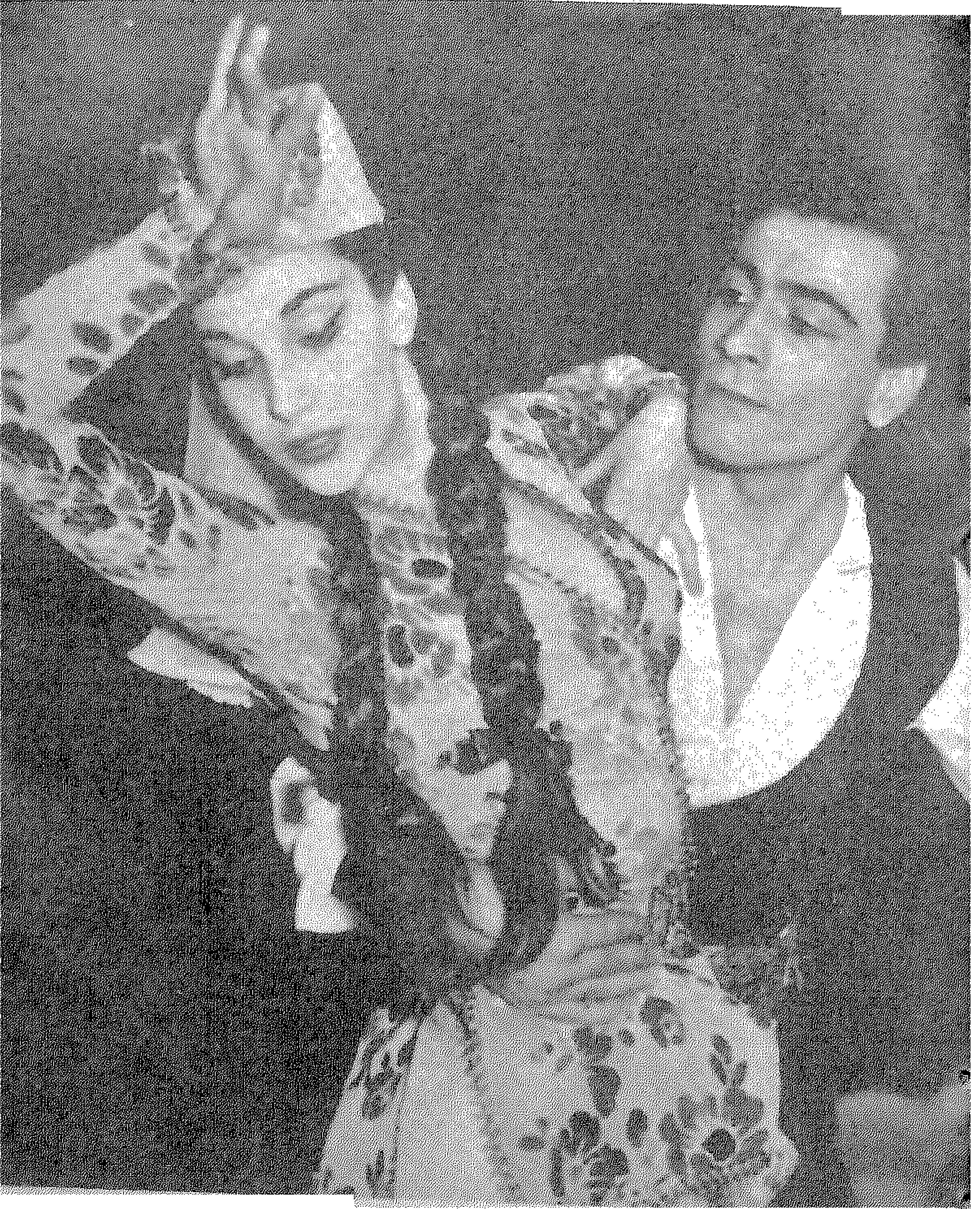


أتاتورك يحضر أحد دروس تعليم الكتابة بالحروف اللاتينية فى قصر (ضولماباتشى) ، عام ١٩٢٨

الغربية محل الموسيقى التركية العتيقة فى المناسبات والحفلات ، وإنشاء مدارس لتعليم الرقص الغربى الراقى ، وترقية الرقص التركى !

أما المرأة فقد رأى وجوب تحريرها تماماً من الحجاب ومن الانزواء فى عقر دارها ، كى تشارك الرجل فى حياته العامة وتساهم فى أوجه نشاط الأمة والحكومة . . ومنحها حق انتخاب أعضاء المجالس البلدية ، ووعد بمنحها حق الانتخاب للبرلمان – الجمعية الوطنية – وعين بعضهن عضوات فى حزب الشعب على قدم المساواة مع الرجل . وشجعهن على دراسة الطب والمحاماة ، وعين اثنتين منهن فى مناصب القضاء وفى المجلس البلدى لاستانبول . . وفتح مدارس للخدمة الاجتماعية ، بمعاونة أخته « مقبولة »

ومرة أخرى أمسى مصطفى كمال الرئيس العامل للدولة ولحزب الشعب ، فصار يطلب وضع تقارير لاطلاعه على تطورات الأمور ، ويستدعى إليه الوزراء والنواب وكبار الموظفين لمناقشتهم ، وطالب بأن تعرض عليه القرارات الهامة قبل تنفيذها ، ويكون له الإشراف الفعلى على شؤون الدولة . وكان عصمت قد ركز فى شخصه كل هذه السلطات أثناء انزواء الغازى فى « شان كايا » ، فأبى أن يتنازل عنها . . وصارا يصطدمان فى كثير من المناسبات ، فيوفق بينهما فوزى . . حتى بلغ الخلاف أقصى حدته فى صيف سنة ١٩٣٠ ، حين صارح فتحى – وكان قد عين سفيراً لتركيا فى باريس – زعيمه مصطفى كمال بمدى الهاوية التى يقود عصمت البلاد إليها بسياسته الخرقاء . . فرأى الغازى – الذى لم يكن يسهل عليه الإستغناء عن عصمت – أن ينشئ له « صمام أمان » يمنعه من الشطط . . فألف حزباً معارضاً باسم « الجمهوريون الأحرار » كى يحول الحكومة من أوتوقراطية ذات حزب واحد إلى دستورية برلمانية مثل سائر



أمر بتشجيع نهضة الفنون وفق الأساليب العصرية . .

الحكومات الديمقراطية ، وأسند رياسة الحزب إلى فتحى ، يعاونه أحد عشر نائباً ، وثلاثة من أخصائه ، ثم شقيقته مقبولة . . وشرح لكل من عصمت وفتحى نظريته فى وجوب قصر الخلاف بينهما على ما فيه صالح البلاد ، داخل الجمعية الوطنية ، على أن يظل الخصمان السياسيان صديقين فى الخارج ، كما هو الحال فى إنجلترا ، العريقة فى ديمقراطيتها .

وحين أجريت التجربة فى اجتماع الجمعية الوطنية بحضور مصطفى كمال وقف فتحى فهاجم عصمت هجوماً عنيفاً ، ورد عليه عصمت بهجوم أعنف ، ثم خرج الاثنان فى النهاية يتضاحكان متشابكى الأذرع .. لكن أنصارهما من النواب عجزوا عن فهم هذه المعارضة الشريفة أو هضمها ، فاشتبك الفريقان فى مشاجرات — داخل الجمعية وخارجها — استخدمت فيها المسدسات وأصيب فيها الكثيرون ! وقبيل موعد انتخاب المجالس البلدية قرر مصطفى كمال رفع الرقابة عن الصحف وإباحة حرية الاجتماعات ، بعد كبت استمر عشر سنوات ، كى يتاح للشعب أن يعبر عن إرادته فى انتخابات حرة . . لكن الحرية شجعت الشعب على إطلاق عواطفه المكبوتة دون حساب ، فتوالت على الحكومة الهجمات وحملات النقد والتشهير المعبرة عن السخط الشديد من جانب جميع الطبقات : التجار والمصدرين ورجال الأعمال وأصحاب السفن والموظفين والفلاحين ودافعى الضرائب وجميع النساء !

وشجع السخط أعداء مصطفى كمال القدماء ، من رجال الدين والمعارضين الذين خمدت أصواتهم منذ حركة التطهير العامة سنة ١٩٢٦ ، فانتعشت نفوسهم . . وحدثت أكثر من محاولة لاغتيال الغازى ، لا من جانب الساسة أو الثوريين المعادين له ، بل من جانب أفراد عاديين من

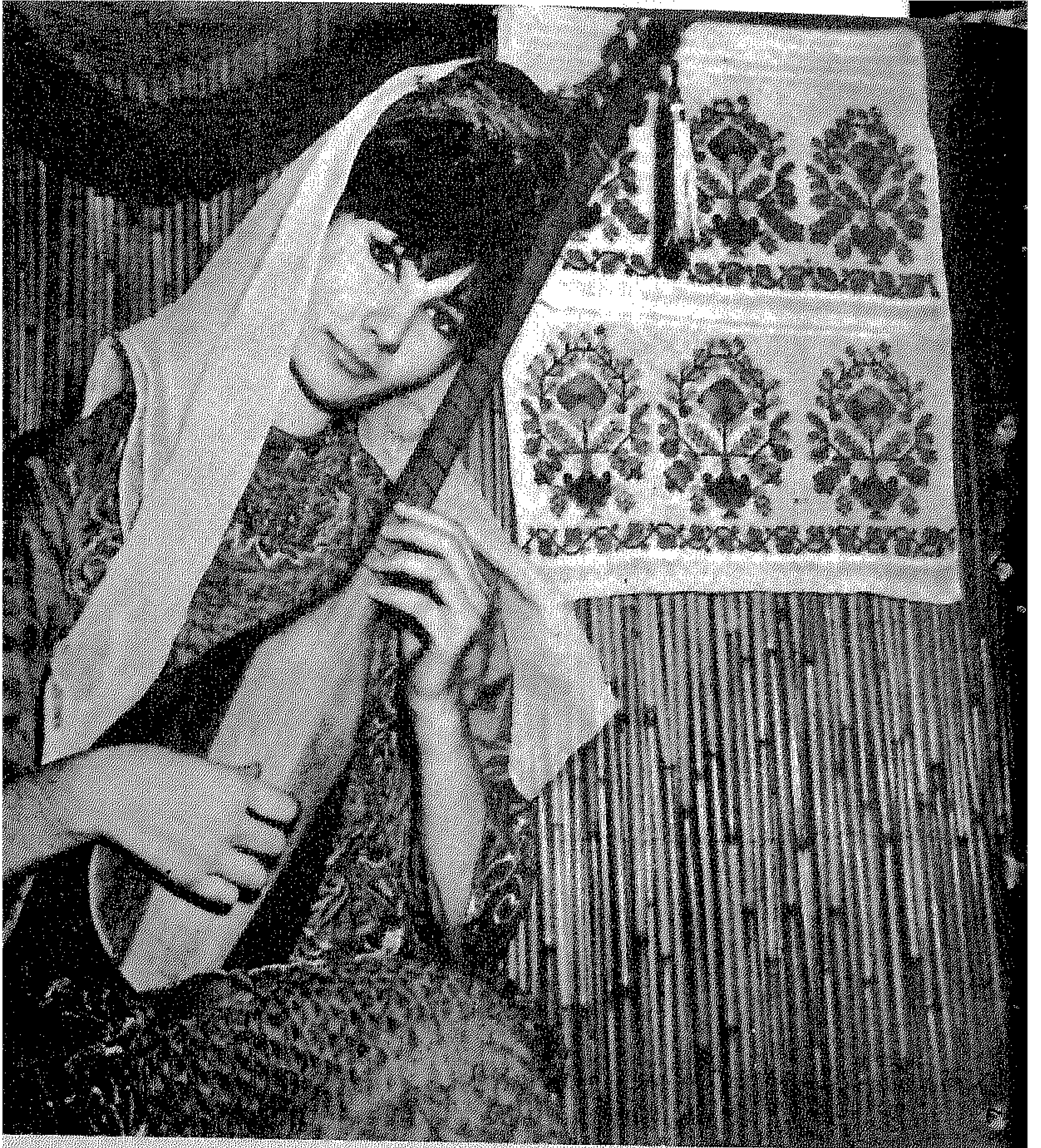


أتاتورك أثناء الاحتفال بعيد إعلان الجمهورية فى إحدى سنوات حكمه الأخيرة

الساخطين . . وانتشر الإضراب والاعتصاب – بتشجيع الشيوعيين – في مصانع تعبئة التين في ازمير ، ثم امتد إلى كثير من المناطق الأخرى . . وفي الجنوب ، على حدود سوريا (الفرنسية حينذاك) نشط الثوار الأرمن يعاونهم الأكراد المغيرون ، وعلى طول الحدود الإيرانية ثار الأكراد من جديد وعمدوا إلى القتل والحرق والنهب ، حتى لقد عجز عن قهرهم جيش تركي من خمسة عشر ألف مقاتل !

وأخيراً نشبت ثورة جدية في بلدة « منيمين » القريبة من ازمير ، على أثر صدام حدث في سوق البلدة بين شيخ من مدعي النبوة زعم أنه المهدي المنتظر جاء لينقذ تركيا من طغيان مصطفى كمال ، وبين ضابط من الجيش . . وانتهى الشجار بذبح الضابط « بالمنشار » بين تصفيق الجماهير وتهليلها ، فلما استدعيت قوات البوليس الضئيلة غلبت على أمرها ، أما قوات الجيش فقد أبت إطلاق النار على المتظاهرين . . وعندئذ هبت الثورة التي أعد « الدراويش » العدة لها منذ شهور ، في منطقة تمتد من قونية إلى أصاليا وازمير . . فطرد الأهالي في كل مكان موظفي الحكومة من مكاتبهم ، بين تهليل النساء وزغاريدهن . . ثم جاءت الأنباء بقرب نشوب ثورة مماثلة في (أرضروم) . . في الوقت الذي كان الأكراد فيه يقاومون الأتراك بعنف ووحشية ، ويسومون أسراهم أفظع ألوان التعذيب !

وأطل الغازي على الحالة المنذرة بالخطر ، كما أطل من قبل من مقعد الرياسة في الجمعية الوطنية على النواب المتشاجرين ، فأدرك أن وعي الأتراك السياسي لم ينضج بعد إلى الحد الذي يحتمل معه تجربة إطلاق حرية الرأي والسماح للمعارضة بمزاولة نشاطها . . فشمر الغازي من جديد عن قبضته الحديدية ، وكشر الذئب الأغبر عن أنيابه مرة أخرى ! . . إنه حاكم



فنانة تركية تعزف مقطوعة من الموسيقى الشرقية

على شعب بدائى أَلِف الضراوة . فى أرض قاسية بدائية . فلا مفر من أن يكون فى حكمه قوياً ضارياً . . ومن ثم أعلن الأحكام العرفية ، وأعاد الرقابة الصارمة على الصحف ، ومنع حرية الخطابة منعاً باتًّا . . وسوى خلافاته مع عصمت ، فقد كان فى حاجة إلى حزمه وصرامته . . ثم أخمد الثورات فى كل مكان بمنتهى العنف والقسوة ، وشنق الذين حاولوا اغتياله فى مشهد عام فوق قنطرة « غلطه » عبر « القرن الذهبى » . . كما شنق زعيم الدراويش – وكان فى الثمانين من عمره – مع أتباعه البارزين جميعاً . . وأرسل إلى « منيمين » قوات بطشت بالثوار وسجنت ألفاً من الأهالى وشنقت ثمانية وعشرين رجلاً من أبرز زعماء الثوار .

وهكذا عاد الأمن والسكينة يرفرفان على ربوع البلاد ، وخرست أصوات النقد والشكوى فجأة وعاد أصحابها إلى جحورهم . . وأحسَّت طبقات الشعب جميعاً بقبضة الغازى تشتد وتقوى من جديد ، فمنحته إيمانها القديم وثقتها العمياء !

قاد بلاده إلى المجد

ثم قام الغازى بجولة واسعة فى أنحاء تركيا ، اتصل فيها بشتى الطبقات ، ووقف على أسباب تذمرهم وشكواهم ، ودرس مطالبهم . . فلما عاد إلى مقـر حكمه دبر العلاج لكل داء . . وبدأ بإقصاء فتحى ، الذى تسبب دون قصد فى كل تلك الاضطرابات ، ثم طهر صفوف حزب الشعب من المسنين العاجزين وغير الأكفاء ، وأمر بإجراء انتخابات عامة جديدة ، حرص فيها على أن ينتخب فى الجمعية الوطنية تسعون نائباً جديداً من الصناع والعمال والتجار . إنه لم يفقد ذرة من إيمانه بالشعب ، وبقدرته على



طالبات معهد التمريض فى مستشفى (هاشيتيبى) بأنقرة . وهو مقر كلية الطب . ومركز تدريب للاطباء فى الوقت نفسه .

أن يقوده إلى مستقبل عظيم . وقد عبر عن رأيه بتصريح أدلى به فى ربيع سنة ١٩٣٢ ، قال فيه : « فليترك الشعب السياسة جانباً فى الوقت الحاضر ، وليضع همه فى الزراعة والتجارة ! . . إننى ينبغى أن أحكم هذه البلاد عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً أخرى . . وبعدها أستطيع أن أطلق للناس حرية الرأى ! »

* * *

وهكذا بقى مصطفى كمال – بحيويته الخارقة – دكتاتوراً لتركيا . . انه رجل أوجدته الظروف فى الوقت المناسب ليقود بلاده إلى المجد . . ولو أنه ولد فى الزمن الذى كانت فيه آسيا الوسطى كلها قبائل من الرحل لتزعمهم كما فعل (سليمان شاه) وقادهم فى ترحالهم تحت علم « الذئب الأغبر » ، وبقلب الذئب الأغبر وغرائزه !

ولو أنه وجد فى عصر « جنكيزخان » لبزه فى عبقريته الحربية وعزيمته الجبارة التى لا تضعفها عاطفة أورحمة أو وفاء . . ولقاد مثله قبائل الفرسان المتوحشين فغزا بهم الأقطار واجتاح الأمصار ودمر المدن . . ثم أنفق فترات الراحة بين الحملات المتعاقبة فى المجون الصارخ ، والخمر والنساء !

ولكنه ولد وريثاً لامبراطورية ميتة ، شذبت الظروف أطرافها وقلمتها فى عصره ، حتى جعلت منها بلداً صغيراً فقيراً أقرب إلى البداوة . .

وورطته هو فى شباك السياسة الوضيعة ، وفى الإصلاحات الحتمية !

لقد عاش – بعقلية امبراطور – فى داره بضاحية (شان كايا) . . أشبه برئيس قبيلة بدائية ، سلاحه سبورة وقطعة من الطباشير . . !

إن عظمته تكمن فى معرفته للحدود الضيقة لفرصه ، وقبوله لهذه



لم يهمل أتاتورك المحافظة على الطابع التقليدى للفنون اليدوية لبلاده ،
وفى الصورة طقم قهوة من النحاس ، فوق منضدة من مصنوعات (كوتاهية)

الحقيقة ! . . لكنه قبل كل شيء عظيم فى ايمانه العظيم بمستقبل شعبه الزاهر . . أو على حد قوله : « لقد عرفت جميع الشعوب . درستها فى ميدان القتال تحت النار وفى وجه الموت ، حيث تنكشف طبائع البشر وتبدو عارية . . وأقسم لكم ، يا شعبي ، أن القوة الروحية لوطننا تفوق قوى جميع الشعوب ! . . إني سوف أقود شعبي من يده خلال الطريق الطويل . . حتى تتوطد أقدامه فيه ويعرف سبيله . . وعندئذ يكون فى وسع مواطنى أن يختاروا لأنفسهم،بأنفسهم ، الحاكم الذى يريدونه . . ويحكموا أنفسهم على هواهم . وعندئذ تكون مهمتى قد انتهت ! » .

انتهى الكتاب ، كما نشره مؤلفه فى حياة أتاتورك (قبل وفاته بنحو عامين) ، فلم يغفل سوى أحداث مرضه ثم وفاته ، التى نوجزها بما ورد عنها فى التلخيص التالى لحياته فى سطور . الذى ننقله عن السجل الذى نشرته اللجنة التركية التابعة لليونسكو عام ١٩٦٣ ، لمناسبة ذكرى مرور ٢٥ سنة على وفاة مؤسس تركيا الحديثة :

حياة « أتاتورك » فى سطور

١٨٨١ : ولد « مصطفى » فى الحى التركى بمدينة (سالونيك) اليونانية ، التى احتلها الأتراك لخمسة قرون (١٤٣٠ — ١٩١٢)

حوالى عام ١٨٩٠ : توفى والده « على رضا افندى »

١٨٩٣ : التحق بالمدرسة الحربية الإعدادية بسالونيك .

١٨٩٥ : أنهى دراسته الحربية الإعدادية والتحق بالمدرسة الحربية العليا .

١٨٩٩ : تخرج منها فى موناستر ، والتحق بكلية استانبول الحربية .

١٩٠٢ : تخرج من الكلية الحربية والتحق بكلية أركان الحرب .

١٩٠٥ : تخرج منها ، والتحق بالجيش الخامس المعسكر في دمشق .



اهتم أتاتورك بإنشاء مختلف الصناعات فى بلاده ، ومنها صناعة السيارات . وفى الصورة مصنع السيارات الذى ينتج سيارة « أناضول » التركية

١٩٠٦ : ألف مع أصدقائه فى دمشق جمعية سرية باسم « الوطن والحرية »
١٩٠٧ : رقى إلى مساعد رائد ، ثم نقل إلى الجيش الثالث .
١٩٠٩ : على أثر تمرد ٣١ مارس ، اتجه إلى استانبول كرئيس لاركان حرب جيش الإضراب . ثم رقى قائداً لفرقة المشاة ٣٨ .
١٩١٠ : اشترك فى عمليات حربية فى ألبانيا كرئيس لأركان حرب .
١٩١١ : نقل إلى الأركان العامة فى استانبول ورقى إلى رتبة « رائد » .
١٩١٢ : قاد بنجاح هجوم (طبرق) فى ليبيا (التابعة لتركيا وقتئذ) . ثم عين مديراً لعمليات القوات الخاصة لمضايق البحر الأبيض .
١٩١٣ : عين ملحقاً عسكرياً فى (صوفيا) ، ثم رقى إلى « مقدم » .
١٩١٥ : أوقف تقدم جيش الحلفاء الذى نزل إلى البر فى (أرى بورنو) ثم رقى إلى « عقيد ».وفى ١٠ أغسطس تولى الهجوم الذى قذف بالحلفاء إلى الوراء ، بعد تعيينه قائداً لجماعة (انافارتالار)
١٩١٦ : قاد الفيلق ١٦ فى (أدرنة) ، ثم رقى إلى رتبة « عميد » . واسترد من العدو بلدتي « بيطليس » و « موش » .
١٩١٧ : عين نائباً لقائد الجيش الثاني ، ثم قائداً للجيش السابع ، وكتب تقريره المشهور عن حالة الجيش والبلاد . وفى أكتوبر استقال وعاد إلى استانبول
١٩١٨ : عين قائداً للجيش السابع فى فلسطين ، ثم صد هجوم العدو شمالى حلب .
١٩١٩ : عين مفتشاً على الجيش التاسع فى (ارضروم) بسلطات واسعة . ثم استقال من الجيش كله وانتخب نائباً عن أرضروم ، فنائباً عن أنقرة فى الجمعية الوطنية الكبرى .

١٩٢٠ : وجَّه فى ١٦ مارس احتجاجاً إلى الدول والبرلمانات الأجنبية ضد احتلال الحلفاء لأستانبول . وفى ٢٣ أبريل افتتح الجمعية الوطنية فى أنقرة ثم انتخب رئيساً لها . وفى ١١ مايو حكمت عليه حكومة استانبول بالإعدام ، وصدق السلطان على الحكم فى ٢٤ مايو .

١٩٢١ : عينته الجمعية الوطنية قائداً عاماً ، وفى ٢٣ أغسطس قاد الجيش فى معركة (سقاريا) التى استمرت ٢٢ يوماً وليلة ، فمنحته الجمعيـــة الوطنية رتبة الماريشال وأطلقت عليه لقب « الغازى » .

١٩٢٢ : شن هجومه الكبير ضد العدو فى ٢٦ أغسطس ، وفى ١٠ سبتمبر دخل إزمير ظافراً . وفى أول نوفمبر وافقت الجمعية الوطنية على مشروعه المقترح بإلغاء السلطنة !

١٩٢٣ : توفيت والدته « زبيدة هانم » فى ازمير فى ١٤ يناير . وفى ٢٩ يناير تزوج من « لطيفة هانم » (لكنهما انفصلا بالطلاق فى ٥ أغسطس ١٩٢٥) . وفى ٩ أغسطس ألف حزب الشعب ، ثم انتخب رئيساً للجمعية الوطنية الثانية . وفى ٢٩ أكتوبر انتخب أول رئيس للجمهورية التركية .

١٩٢٤ : افتتح الجمعية الوطنية بخطاب دعا فيه إلى إلغاء الخلافة !

١٩٢٥ : ألغى الطربوش وارتدى القبعة لاول مرة فى ٢٤ أغسطس .

١٩٢٧ : زار استانبول لأول مرة كرئيس للجمهورية ، وفى ١٥ أكتوبر بدأ إلقاء خطابه التاريخى الذى استمر لستة أيام (على دفعات) ، فى المؤتمر الثاني لحزب الشعب . وفى أول نوفمبر انتخب رئيساً للجمهورية لثانى مرة . ثم أزاح الستار عن أول تمثال له فى أنقرة .

١٩٢٨ : فى مايو زاره فى أنقرة ملك أفغانستان « أمان الله خان » ، وفى

٩ أغسطس أعلن فى اجتماع بقصر (سراى بورنو) باستانبول مشروعه لكتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية بدلا من العربية .

١٩٣١ : انتخب رئيساً للجمهورية للمرة الثالثة .

١٩٣٢ : زاره فى أنقرة ملك العراق فيصل الأول (١٢ يونية) .

١٩٣٣ : زاره فى استانبول ملك يوغوسلافيا « ألكسندر » (٤ أكتوبر) . وفى ٢٩ أكتوبر ألقى خطابه الشهير فى العيد العاشر للجمهورية ، معلناً فيه عبارته المأثورة : « سعيد هو المواطن الذى يدعى تركيًّا » .

١٩٣٤ : فى ١٦ يونية زاره فى أنقرة شاه إيران « رضا بهلوى » . وفى ٢٤ نوفمبر أصدرت الجمعية الوطنية تشريعاً بمنحه لقب « أتاتورك » أى « أبو الأتراك » .

١٩٣٥ : انتخب رئيساً للجمهورية للمرة الرابعة (أول مارس) .

١٩٣٦ : زاره ملك بريطانيا « إدوارد الثامن » (٤ سبتمبر)

١٩٣٨ : أصدرت سكرتارية رئاسة الجمهورية أول نشرة عن مرضه ، فى ٣١ مارس . وفى ١١ مايو وهب ضياعه لخزانة الدولة ، وبعض أملاكه لبلدية أنقرة . وفى ١٩ يونية زاره فى استانبول ملك رومانيا « كارول الثانى » . وفى ٥ سبتمبر حرر وصيته . وفى ١٦ أكتوبر صدرت أول نشرة طبية يومية عن حالته الصحية المتدهورة . ثم توفى فى ١٠ نوفمبر ، ودفن فى قبر مؤقت بمتحف السلالات البشرية (فى ٢١ نوفمبر) . وبعد أربعة أيام فضت وصيته .

١٩٣٩ : قرر مؤتمر فوق العادة لحزب الشعب أن يطلق عليه لقب « القائد الخالد » .

١٩٥٣ : نقل نعشه رسمياً فى ١٨ نوفمبر إلى ضريح جديد شيد من أجله .

محتويات الكتاب

الفصل الثانى :

صفحة

الفصل الثالث :

صفحة

الفصل الرابع :

صفحة

فهرس الصور

صفحة

رقم الإيداع	١٩٧٦/١٨٣١
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٦ – ٠٨١ – ٥

كتب صدرت ، لحلمي مراد :

١ – مجموعة (كتابى)

صدر منها ١٠٥ كتب ، تضمنت ملخصات نحو ألف (١٠٠٠) كتاب من شوامخ الكتب العالمية ، من جميع اللغات ، والبلاد ، والعصور – منذ « إلياذة » هوميروس و « جمهورية » أفلاطون ، حتى غزو الفضاء ! – فى مختلف فروع الآداب والعلوم والفنون : سير وتراجم ، علم نفس ، تاريخ ، محاكمات ، قصص ، سياسة دولية ، اقتصاد ، صحة ، رحلات ، فلسفة ، مسرحيات ، تربية ، تراث قديم ، اجتماع ، فنون . . . إلخ . .

٢ – مجموعة (مطبوعات كتابى)

صدر منها ٧٦ كتاباً ، تضمنت الترجمة الأمينة لأشهر الكتب العالمية بنصها الكامل ، فى مختلف فروع المعرفة .

٣ – كتب فى سلاسل أخرى

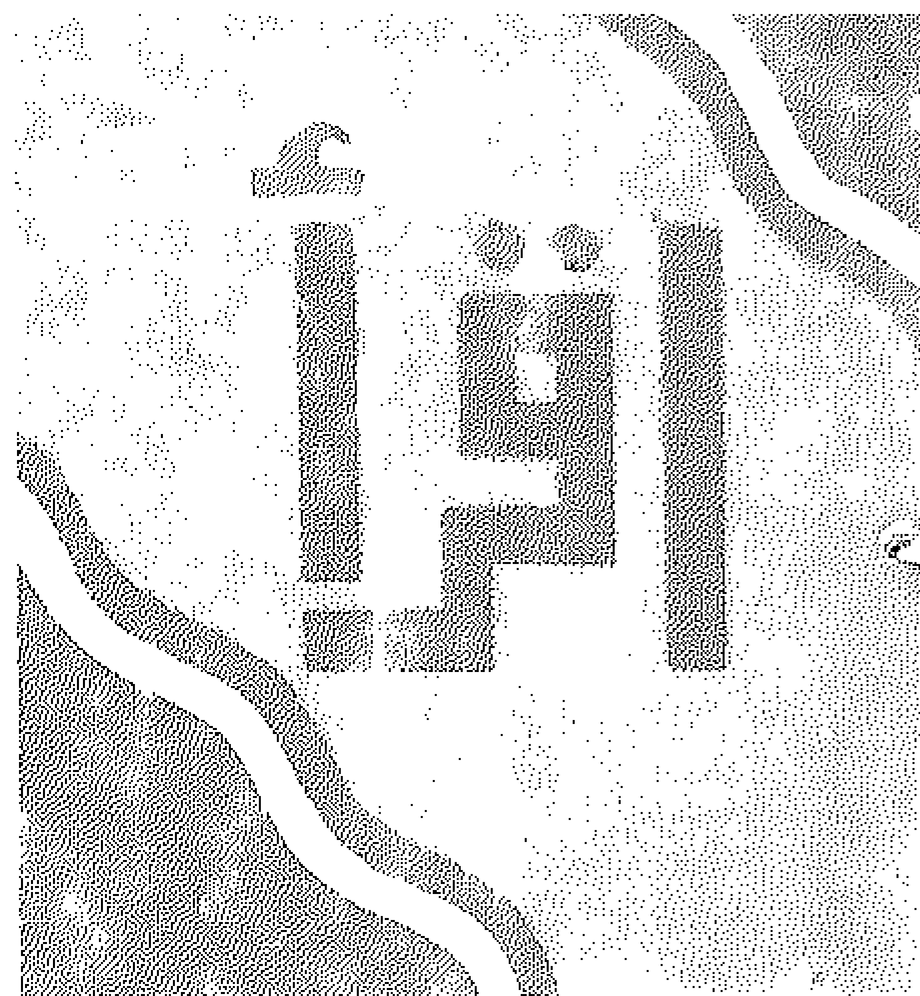
عندما تحب المرأة : قصص مصرية مؤلفة **(كتب للجميع – اقرأ)**
سير وروايات : مترجمة **(كتاب الهلال . روايات الهلال)**
عندما تخون المرأة : قصص مصرية مؤلفة **(كتاب اليوم)** .

ص
٢٠

هــذا البطــل

« . لقد أنعشت انتصارات أتاتورك العسكرية آمال شعوب الشرق ، وزادت فى مخاوف الغرب ، بحيث لم تكن تنشب أية اضطرابات معادية للغرب فى أى مكان ، إلاّ اتجهت الأنظار نحو هذا القائد الشرقى الذى هزم كل جبروت أوربا ! . . وانهالت عليه الدعوات من جميع الأنحاء كى يصبح بطل الشرق فى كفاحه ضد الغرب ! . . لكنه برغم مظاهرات التأييد والإعجاب ، وبرغم انتشائه بخمر المديح والملق ، وزهوه بنفسه على خشبة المسرح العالمى ، ظل كعهده محتفظاً باتزان أحكامه ، واضح الأهداف ، لا يستسلم لوهم أو يجرى وراء سراب زائف ! . . فلم يطلق خياله ليجمح وراء « أحلام » الغزو الخارجى وتكوين الإمبراطوريات ، بل أقنع نفسه بأنه خير لوطنه أن يجعل منه – داخل حدوده الطبيعية – دولة صغيرة الرقعة ، ولكن ميسورة الحال ! . . أن يخلق تركيا الجديدة ، وينظم أمورها ، ويقودها إلى بر الرفاهية !

« وكان فى موقفه تجاه « البلاشفة » أكثر وضوحاً ، فقد جاءه وفد من موسكو يرأسه القائد « فرونز » وفى مأدبة لتكريمه وقف القائد يتحدث عن نصرة البلاشفة للشعوب الشرقية المضطهدة ، ضد شعوب الغرب الظالمة ، ثم ناشد تركيا أن تنضم إلى بلاده فى « معركة التحرير » . . وعندئذ وقف أتاتورك ليجيبه بكلمة صغيرة حاسمة : « ليس هناك دول ظالمة ولا دول مظلومة ، وإنما هناك فقط شعوب تسمح لنفسها بأن تكون مظلومة ، والأتراك ليسوا من هؤلاء ، فهم يستطيعون حماية أنفسهم ، فليفعل الآخرون مثلهم ! » . نعم ، إن الغازى لن يقود بلاده إلى حماقة من تلك الحماقات ، أو ينصب نفسه بطلاً للشرق معادياً للغرب ، وللإسلام ضد المسيحية ، أو للأجناس المضطهدة ضد مضطهديها ، وإنما سيلتزم بحدود برنامجه : « ليس لنا إلا مبدأ واحد ، هو أن ننظر إلى كل المشكلات بـ « العين التركية » ، ونصون مصالح وطننا ! »



دكتور حسين مؤنس

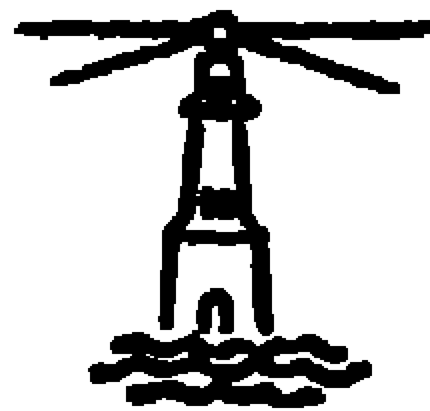
إدارة عموم «الزير»

وقصص أخرى



تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر



دكتور حسين مؤنس

إدارة عموم الزير

وقصص أخرى

اقرأ ٤٠٧

دار المعارف بمصر

(اقرأ ٤٠٧)

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

إدارة عموم الزّير



كانوا لا يخاطبونه إلا بـ «سيدنا» ، لأنهم كانوا يحبونه . وكان يسعده هذا الخطاب منهم ، لأنه كان يحبهم ..

وكان يقول : هذا أعظم الألقاب وأقربها إلى القلوب . . لهذا نحن نقول: سيدنا أبو بكر ، وسيدنا عمر ،وسيدنا عثمان ، وسيدنا على .. هل كان يمكن أن نقول : صاحب الفخامة أبوبكر ،أو صاحب الجلالة عمر مثلا ؟ .. ومع ذلك فأبو بكر وعمر وعثمان وعلى كانوا يحكمون بلاداً هى من أوسع وأعظم الممالك والإمبراطوريات .. لهذا فأنا أحب من قومى أن يخاطبونى بسيدنا ، وسيد القوم خادمهم لما تعرفون .. وأنا خادم هذا البلد وأهله . .

وكان لا يمكث فى قصره يوماً كاملا ، بل هو دائم التجوال فى بلاده

وفى ذات يوم كان عائداً إلى قصره وإلى جانبه وزيره ، ومن خلفهما بعض الحرس . كانوا جميعاً على صهوات الخيل ، وكان اليوم قائظاً تصب فيه الشمس غضبها على الناس ،أشعة من نار تلسع وتزهق الأنفاس...

ووقف الركب الصغير تحت شجرة صفصاف وارفة الظلال ، وأخرج سيدنا منديلا ضخماً ومضى يمسح عرقه ويتأمل ما حوله ، فاسترعى نظره سيل متصل من الناس يذهبون إلى ضفة النهر ، وينحدرون إلى الماء فيشربون ثم يصدرون . ولاحظ أنهم يعانون فى ذلك مشقة كبيرة ، فنظر إلى الوزير وقال :

— إنى أرى الناس يقاسون من العطش فى مثل هذا اليوم القائظ .. ألم تفكر فى شىء يخفف عنهم مشقة النزول إلى النهر لمجرد الحصول على شربة ماء ؟

— أمرك ياسيدنا . . نحن رهن الإشارة ، وسيدنا يفتح الله عليه دائماً

بأسعد الآراء .. من الممكن أن تنشئ حوضاً أو صهريجاً أو سبيلا أو أى شىء تأمر به ..

فكر سيدنا لحظة ثم قال :

ــ إن خير الأمور أبسطها .. وأنا واثق من أننا إذا قررنا إنشاء حوض مات الناس من العطش قبل أن يتم الحوض .. ضعوا هنا ، تحت هذه الشجرة، زيراً .. زير ماء كبيراً بسيطاً .. زير ماء بحمالة وغطاء وبضعة أكواز .. وليقم على خدمته واحد من رجالنا ..

ثم نظر إلى الحرس من خلفه وقال لواحد منهم :

ــ أنت ياصابر .. تعال .. هذه عشرة دنانير من مالنا.. اذهب الآن فاشتر زيراً وما يلزمه ، واغسله واملأه ماء وضعه تحت هذه الشجرة ، واختر واحداً من أصحابك لتتعاونا على ملء الزير مرة بعد مرة..وأنت أيها الوزير عليك بالإشراف على هذا الموضوع .. أريد أن يكون الزير هنا اليوم مليئاً نظيفاً دائماً ، والناس يشربون منه ماء صافياً زلالا ..

وأخذ صابر الدنانير وذهب لشأنه ..

وسار سيدنا ووزيره وبقية الحرس ، ومضى الوزير ــ على عادته ــ يقول :

ــ والله ياسيدنا ما أعطاك الله الملك إلا لأنك أذكى الناس أجمعين ، وأطيبهم أجمعين ، وأكرمهم أجمعين..ما أبدع الفكرة النيرة التى لا تخطر إلا على بال موهوب .. مجرد زير .. زير بسيط بحمالة وغطاء ، وهل هناك أحلى أو ألذ أو أبرك من ماء الزير ؟

وتركه سيدنا يسترسل فى كلامه المزوق هذا . كان يعلم أنه كله ملق ومداهنة ، ولكن هكذا كان وزراء ذلك العصر والأوان : يحسبون أن هذا المديح المزخرف واجب من واجباتهم ، ولا يمكن صرفهم عنه . هكذا كان وزراء أبيه ، وهكذا وزراؤه هو ، وهكذا سيكون وزراء ابنه وإلى أن يبدل الله الأرض ومن عليها ..

* * *

ومرت الأيام والشهور والأعوام ..

وفى ذات أصيل كان سيدنا يتحدث مع وزيره فى حديقة قصره فى شئون البلاد ، فرأى زيراً صغيراً تحت شجرة ،فالتفت إلى الوزير وقال:

– هل تذكر الزير الذى وضعناه تحت الشجرة ليشرب منه الناس ؟ أما كانت فكرة لطيفة ؟ ..

– لطيفة ؟ .. إنها فكرة عبقرية ياسيدنا .. لقد طورناها وعدلناها حتى أصبحت شيئاً مهولا ..

– ماذا تعنى بتطويركم إياها ؟ .. زير وغطاء وماء وكوز .. ماذا يمكن أن تتطور هذه ؟ ..

– سيدى .. إنكم تعرفون أننا دائماً فى تطوير وتحسين.. إن بلدنا فى مقدمة البلاد النامية ، لأن كل شىء فيه ينمو ويتقدم ويتحسن . . لايمكن أن يظل فيه شىء على حاله .. لابد أن يساير الزمن ..

– وكيف ساير الزير الزمن ؟ ..

فانفرجت أسارير الوزير وأشرق وجهه ، ونهض واقفاً وأنشأ يقول فى زهو عظيم :

– سأقص عليكم ياسيدنا القصة من أولها ، لأننى أعلم أنك تحب أن تقف دائماً على دقائق الأشياء ..

واعتدل سيدنا فى مجلسه ليستمع ، ومضى الوزير يقول :

– فى اليوم التالى لصدور أمركم إلى خادمكم صابر بشراء الزير ، أرسلت فى طلبه لأتأكد من أنه نفذ الأمر ، فوجدته قد فعل .. وذهبت بنفسى فوجدت الزير تحت الشجرة ، والناس يشربون منه جماعة بعد جماعة ، وخادمكم صابر وصاحبه يملآن الزير كلما فرغ ..

وبعد مدة وجدنا أن الإقبال على الشرب من الزير قد زاد ، لأن الناس استعذبوا ماءه وجعلوا طريقهم عليه . وحدث مرة أن انكسر الزير ، فأتانى صابر يطلب نقوداً لشراء غيره ، فأعطيته ..

ثم رأيت أن الأمر ينبغي ألا يستمر فى هذه الحدود الضيقة ؛ فما دام الناس يتزاحمون على الشرب من الزير ، فقد أصبح مرفقاً شعبياً ؛ ونحن — جرياً على سياستكم الرشيدة وإتباعاً لتوجيهاتكم السديدة — لابد أن ننهض بكل ما يعود على الشعب بالخير ..

وبناء على ذلك ،بدأنا فأقمنا بناء صغيراً يحمى الزير والعاملين عليه : ثلاثة حوائط بسيطة يعلوها سقف يقوم تحته الزير . وارتاح الناس لهذا وسعدوا به ، وتزايد إقبالهم على الزير ..

ووجدنا أن المشقة شديدة على صابر وزميله فى الوقوف إلى جانب الزير وملئه طول اليوم ، فابتنينا لهما غرفتين ليستريحا فيهما ، ووضعنا فيهما مالابد منه من أثاث بسيط ..

ونظرنا فإذا القواعد المالية تقضى بإنشاء جهاز إدارى للزير ، لأن الدولة أصبح لها هناك مبنى وأثاث و « عهدة » ..

لهذا كان لابد من إنشاء مأمورية صغيرة للزير فأنشأناها ، وعينّا فيها رئيس قلم وعينّا معه كاتبين : واحداً للعهدة ، وواحداً للشئون المالية . .

فتعجب سيدنا وقال :

— شئون مالية ؟ .. ماذا تقول يارجل ؟ .. زير وماء وغطاء وكوز .. تصبح لها مأمورية وشئون مالية ؟ !

فضحك الوزير وقال :

— حلمك ياسيدنا .. أنتم تعلمون أن للإدارة أصولا .. وللضبط والربط قواعد .. والدولة لايمكن أن تدع مالها وممتلكاتها سائبة ينهبها من يريد .. فما دام هناك مبنى للدولة يعمل فيه موظفون ، فلا بد من إدارة مالية .. ولا يخفى على علمكم الواسع أن الأمر اقتضى أن نفتح اعتماداً مالياً لمأمورية الزير ، فوضعنا فيها خزانة للنقود أودعناها سلفة ، فقد ينكسر الزير أو يتلف الغطاء أو يضيع الكوز ..

— ماشاء الله . . ماشاء الله . . ثم ماذا ؟ . .

– هذا قليل من كثير ياسيدنا .. إننا خدمك نسير فى عملنا على أحدث الطرق فى الإدارة وضبط المال .. بفضل هذه الأساليب سنخرج قريباً من نطاق الأمم النامية إلى عالم الأمم التى تم نموها فعلا . . أين كنا ؟

– كنت تتكلم عن الإدارة المالية والخزانة والسلفة ..

– آه .. معذرة ياسيدنا .. إن ذاكرتكم لا نظير لها فى الدنيا ..

– بعد ذلك رأينا أن إقبال الناس على الشرب من الزير قد تزايد وتزايد ، وأن الزير ينكسر كثيراً ، وكذلك غطاؤه وحمالته وكوزه ، فقررنا أن نحول المأمورية إلى إدارة ، وأن ننشئ فيها أربع إدارات فرعية : إدارة الفخار ، وإدارة الحديد ، وإدارة الخشب ، وإدارة الصفيح ..

– لماذا هذا كله ؟ ..

– إدارة الفخار مختصة بشئون الزير ، وإدارة الحديد مختصة بشئون الحمالة ، وإدارة الخشب للغطاء ، وإدارة الصفيح للكوز ..

فابتسم سيدنا وقال :

– والماء ؟ .. الماء الذى من أجله كل هذا ؟ .. أليست له إدارة ؟ ..

فنظر إليه الوزير فى إعجاب وقال :

– حقاً إنك لأمير ابن أمير ! .. والله ما خلقك الله إلا للسيادة والحكم وتدبير الأمور .. لقد نسينا ذلك حتى نبهتنا أنت إليه ياسيدنا .. غداً بإذن الله ننشئ إدارة الماء ..

– ثم ؟ ..

– ثم وجدنا أن مبنى إدارة الزير قد ضاق عن أن يسع حركة العمل الجبارة التى تدور فيه .. فاعتمدنا مبلغاً كافياً ووسعناه وزدنا فيه طابقين ، وجعلناها إدارة عامة .. إدارة عموم الزير ..

– وكم من المال تكلف المبنى ؟ ..

– شيئاً بسيطاً . . حوالى مائة ألف دينار ، بالأثاث وكل شيء

– وما هو المبلغ المخصص لإدارة عموم الزير هذه ؟ ..

ـ لا أذكره بالضبط ، ولكنى أقول لسيدنا على وجه التقريب : نحو أربعين ألف دينار سنوياً ..

ـ سبحان الله ! .. زير وضعناه فى الطريق ليشرب منه السابلة حسبة لله تعالى ، تصل تكاليفه اليوم إلى أربعين ألف دينار سنوياً ، غير ما تكلفته المبانى ؟ !

ـ هكذا شئون الدول ياسيدنا .. إن إدارة عموم الزير مرفق خدمات.. الاعتبار الأول لما يؤديه للأمة من نفع .. وفى سبيل هذا النفع يهون أى مبلغ يتكلفه ..

ـ ما أبرعك فى مثل هذا الكلام ..

ـ عفواً ، عفواً ياسيدنا .. هذا قبس من نور ذكائكم .. إن البراعة وقف عليكم ياسيدنا ، وما أنا إلا خادم من خدمكم .. ومنكم ياسيدنا تعلمت الدنيا فنون الإدارة .. إن كل جامعاتنا فيها معهد عال للإدارة .. ولدينا إلى جانب ذلك المجمع القومى لفنون الإدارة ، وفى كل مؤسسة من هذه المؤسسات يعمل عباقرة فى شئون إدارة الأعمال ، لورأيتهم ياسيدنا يتناقشون ويحللون ويفلسفون لرأيت عجباً ، ولا نشرح صدرك بما بلغناه من تقدم ، ولتأكدت من أن بلدنا قد صار فى عهدكم المبارك فى مقدمة بلاد العالم فى ميدان العلوم . ومع ذلك فقسما بالله العلى العظيم ، إن إشارة واحدة منكم لتغطى على علم هؤلاء جميعاً وعلى فلسفتهم كلها . .

ـ دعك أيها الوزير من هذا الكلام ، وقل ما توزيع هذه الأربعين ألف دينار ، على نواحى الإنفاق فى إدارة عموم الزير ..

ـ سأقول لكم ياسيدنا على وجه التقريب لا الضبط .. حوالى ٣٥ ألف دينار للباب الأول ، باب المرتبات .. و ٣ آلاف دينار نقل وصيانة ، وألفان أدوات كتابية ..

ـ والماء ؟

ـ الماء ؟ .. لا شىء .. لقد ركبنا طلمبة هيدرو ديناموإليكترونية لرفع

الماء وتنقيته ، وفقاً لآخر الأساليب العلمية ، ودفعه إلى الزير فى أنابيب خاصة ..

– مادام الماء ينقل إلى الزير بهذه الطريقة ، فلماذا بند النقل والصيانة الذى ذكرته ؟

– بند النقل .. أقصد بعض السيارات التى أوجبت شراءها حركة العمل الكبيرة .. سيارة خاصة لمدير عام إدارة عموم الزير ، وسيارتان جيب للتنقل السريع للموظفين : وسيارة فنطاس لنقل الماء ..

– ولماذا هذه ؟

– لنستخدمها فى حالة تعطل الطلمبة الهيدرو دينامو إليكترونية .. إنها تتعطل كثيراً ..

– وهل كل هذه السيارات ضرورية ؟

– ياسيدنا .. إن إدارة عموم الزير على إتصال دائم بدواوين الدولة الأخرى .. هناك مكاتبات ومراسلات لا نهاية لها مع وزارات الأشغال والخزانة والاقتصاد والخارجية والداخلية و ..

– الخارجية ؟ ! ما شأن إدارة عموم الزير بوزارة الخارجية ؟ ..

– المؤتمرات ياسيدنا .. المؤتمرات .. لقد أصبحت إدارة عموم الزير إدارة ذات شهرة عالمية ، ومديرها يحضر كل سنة مؤتمرين ثلاثة : فى لندن ، فى باريس ، فى نيويورك ، وغيرها .. فى المؤتمر الأخير الذى عقد فى طوكيو ألقى خطاباً أعجب الناس به إلى درجة أننا اضطررنا إلى طبعه وتوزيعه على الدول .. شىء يعلى قدرنا ..

– وهل فى هذه الدول كلها إدارات عموم للأزيار ؟ ..

– لا ياسيدنا .. إننا نفخر على دول العالم أجمع بأن تجربتنا هى التجربة الرائدة .. ولكن هذه الدول لديها مؤسسات ومعاهد للدراسات المائية ، ومديرنا العام رجل نشيط لايدع مؤتمراً إلا اشترك فيه ، وهو ينتهز كل فرصة للدعاية لسيدنا وإصلاحاته وبرامجه التقدمية ..

– ماشاءالله .. ماشاءالله .. وهل لديك تفاصيل أخرى عن هذه الإدارة العظيمة التى أنشأتها من لا شىء ؟ ..

– نعم .. لدينا ابتكار استمارات للشرب ..

– استمارات ؟ ! ..

– لقد رأينا ، بعد استشارة الدكتور وجيد وجدى وجدانى ، دكتوراه مع مراتب الشرف كلها ، فى العلوم الإدارية والتنظيمية والحسابية ، وأستاذ مادة التنسيق الليترى لإدارة الأعمال التكنولوجية فى المعهد الأعلى لشئون الإدارة .. رأينا ، بعد استشارة هذا الأستاذ العظيم وبتوجيهه ، أن نطبع أربعة أنواع من الاستمارات ..

– ولماذا الاستمارات أصلا ؟ ..

– لكى نحصى كل شىء .. إن الإحصاء اليوم ياسيدنا أساس سياسة الدول، وقد رأينا أن الناس يشربون ويمضون دون أن تكون لدينا فكرة عن أعدادهم أو أنواعهم ..

– فهمت !.. فهمت .. وما هذه الاستمارات ؟ ..

– استمارة بيضاء يملأها الذين يمرون بالزير مصادفة ويشربون مرة واحدة ولا يعودون .. واستمارة حمراء للذين يشربون كل يوم مرة واحدة بانتظام .. واستمارة صفراء لمن يحتملون على الزير فى شربهم طول النهار ، هؤلاء استمارتهم على هيئة بطاقة أو «كارنيه» يحمل صورتهم .

– والاستمارة الرابعة ؟ ..

– هذه هى الزرقاء،وهى تحرر فى الإدارة لترسل للحاسب الإليكترونى .. إن عملنا ياسيدنا يجرى على أحدث الأساليب العلمية، ولدينا تقرير سنوى مفصل مبين فيه مصير كل نقطة ماء تصل إلى الزير ..وكما قال الشاعر :

ماضاع قط درهم بحساب وألوف بغير حساب تضيع !

– حقاً إنك لوزير همام .. بمثلك تعمر الدول ..

– عفواً ، عفواً ياسيدنا .. هذا كله نقتبسه من حكمتكم .. أرجو

أن تثقوا فى أننا عن قريب جداً سنخرج من عنق الزجاجة ، سننتقل من طابور الأمم النامية إلى صف الأمم التى تم نموها فعلا ..

* * *

وفى ضحوة اليوم التالى أخذ سيدنا نفراً من رجاله وحاشيته وقال لهم: خذونى إلى إدارة عموم الزير ، وقولوا للوزير يلحق بى هناك ..

ووصل سيدنا إلى مقر إدارة عموم الزير ، فإذا هو مبنى شاهق ضخم مكتوب عليه «إدارة عموم الزير» بخط الثلث العظيم ، وناس كثيرون داخلين وآخرون خارجين ، وسيارات تصل وأخرى تقوم ، وحركة كبيرة متصلة .. وعلى الباب امرأة تبيع عرضحالات وأوراق دمغة، وقد أعطت ابنها الطفل بعضاً منها فوقف بها إلى جانب الباب ..

وقال سيدنا لمن معه :

ــ أحيطوا بالدار فلا يدخلها ولا يخرج منها أحد ، وليدخل بعضكم فينبهوا على كل موظف وفراش بأن يبقى فى مكانه لا يغادره إلى أن نخرج من هنا ..

ثم دخل فجعل يتأمل الناس رائحين غادين .. وطلب أن يأخذوه إلى غرفة المدير العام ، ودخلها فإذا سيادته غير موجود ، ولكن وكيل الإدارة خف إليه مرحباً ..

وجلس سيدنا على أريكة وثيرة ، وقال للموظف الذى مثل بين يديه:

ــ لقد سمعت الكثير عن هذه الإدارة وعن نشاطكم فيها .. كيف الحال ؟ ..

ــ طيب جداً بفضلكم ياسيدنا .. كل شىء يسير على أحسن صورة. لولا أن العمل يتزايد ، فنحن فى حاجة إلى مزيد من الموظفين ..

ــ سنرى الآن .. تعال معى لنرى أقسام إدارتكم هذه ونطلع على سير الأعمال فيها ..

وسار الوكيل يتدحرج إلى جانب سيدنا ،وبعد قليل لحق به مدير الشئون العامة ، وهو رجل طويل عريض عابس الوجه دائماً ، قدم نفسه وحيا تحية عظيمة وسار يشرح ويفصل .. هذه إدارة الخشب : غرفة مدير إدارة الخشب ، غرفة السكرتير الخاص للمدير ، سكرتارية الإدارة ، المكتب الفني ، غرفة خبير الأخشاب ، إلى آخره ، إلى آخره ..

ووصل سيدنا إلى باب لم يكتب عليه شيء، فدفعه ودخل فإذا خلية نحل : مكاتب ، مكاتب ، مكاتب .. موظفون يقرأون الجرائد ويكتبون ويتحدثون ..آنسات يكتبن على الآلة الكاتبة ويقرأن المجلات الملونة ويثرثرن .. فراشون ذاهبون بالقهوة والشاى والساندويتش ، وعائدون بالصوانى عليها الأكواب فارغة .. لغط كثير ، وكلام كثير ..

وأسرع إليه رجل قصير القامة يختفى وجهه خلف نظارة سميكة ، فقدم نفسه : «خادمكم رئيس قلم الصادر والوارد» .. وسار معه سيدنا حتى وقف أمام مكتبه ، ورأى أكوام الأوراق والدفاتر وعليها السجلات ، فتناول ورقة ونظر فيها وسأل عن ماهيتها ..:

— هذا خطاب من إدارة الخشب إلى إدارة الحديد ..

— وهذا ؟

— خطاب من إدارة الحديد إلى إدارة الخشب ..

— ماذا تقول إدارة الحديد لإدارة الخشب ؟ .. اقرأ الخطاب ..

فتناوله الموظف ومضى يقرأ :

« السيد مدير إدارة الخشب

تحية طيبة وبعد ، فنتشرف برجاء الرد على خطابنا رقم ٥٧٣٢ على ٢١٢ بتاريخ ٦ / ٦ / ١٩٦٠ ، بشأن طلب الإفادة بتخانة خشب غطاء الزير المستعمل حالياً للاسترشاد به فى تحديد تخانة حديد حمالة الزير . وتفضلوا ... »

وتناول سيدنا خطاباً آخر وقال :

ـ وهذا ؟ ..

ـ من إدارة الشئون المالية إلى إدارة شئون العاملين ..

ـ وهذا ؟ ..

ـ من إدارة شئون العاملين إلى إدارة الشئون المالية ..

وكان الوزير قد وصل ، فأوسعوا له ، فتقدم معتذراً عن تأخره ، فقال له سيدنا :

ـ أين المدير العام ؟

ـ إنه فى مؤتمر فى بودابست ..

ـ كيف عرفت بهذه السرعة أنه فى بودابست ؟ .. هل تعرف كل حركة أو سكنة لموظفى دولتنا ؟ ..

ـ لا .. ولكن ..

وضحك مرتبكاً بعض الشيء .. فأسرع أحد الواقفين يقول وعيناه تلمعان ببريق التشفى :

ـ إن سيادة المدير العام ابن أخت السيد الوزير وصهره ..

وأسرع الوزير يقول :

ـ والله يا سيدنا ما عينته لأنه قريبى ، بل لأنه المتخصص الوحيد فى هذا الموضوع ، لقد درسه فى أكبر الجامعات ..

ـ طبعاً .. طبعاً .. مافى ذلك شك ..

وسار سيدنا من مكتب لمكتب ، ومن طابق لطابق .. يتفرج ويتعجب ، ثم قال للوزير :

ـ والزير ؟ .. أين الزير ؟ ..

ـ إنه فى قاعته الخاصة ياسيدنا ، فى الدور الأرضى ..

وأخذوا المصعد إلى الدور الأرضى ، وأسرع مدير الشئون العامة يريد أن يسبق الجماعة ، فناداه سيدنا :

ـ لا تسبقنا .. لا داعى لذلك ..

ودخلوا قاعة واسعة مترِبة يغطى الغبار كل مافيها ، لها باب واسع يفتح على الطريق فى الناحية الخلفية من المبنى ، وعلى الباب جلس على منضدة عرجاء موظف ينطق مظهره بالتعاسة : وأمامه أربع مجموعات من الاستمارات : بيضاء ، وحمراء ، وصفراء ، وزرقاء .. وإلى جانبها سجل ضخم مفتوح ،والموظف يتحدث مع صاحب له، ولا ناس هناك داخلين أو خارجين . قال سيدنا :

ــ هذه قاعة الزير ؟ ..

فقال مدير الشئون العامة بعد لحظة ارتباك :

ــ نعم .. نعم .. إننا ننشئ الآن قاعة أخرى ..

ــ والزير ؟ .. أين الزير ؟ ..

فنظر مدير الشئون العامة ووكيل الإدارة أحدهما إلى الآخر ثم إلى الوزير ، ثم إلى حنية فى الجدار ، أشار أولهما إليها وقال :

ــ لا أدرى .. كان ينبغى أن يكون هنا ..

وقفز الموظف الجالس إلى جانب الباب ، وأسرع فصار أمام سيدنا وقال :

ــ الزير أرسلوه إلى الورش الأميرية ياسيدنا ..

ــ منذ متى ؟ ..

ــ من أربعة أشهر خمسة .. كان الماء يتسرب منه ، فجاءت لجنة من الخبراء وقررت نقله إلى الورش الأميرية ليصلحوه هناك ..

فضرب سيدنا كفًّا بكف وقال :

ــ إذن .. هذا كله .. ولا زير ؟ !

فقال مدير الشئون العامة :

ــ لا ، لا ياسيدنا .. الزير موجود .. فقط فى الإصلاح .. ستقوم باستعجالهم ..

ونظر سيدنا فإذا رجل مسكين هزيل ينهض عن كرسى غير بعيد من

موضع الزير ويقبل نحو سيدنا ، وصاح سيدنا :

— صابر ؟ !

— نعم ياسيدنا .. خادمك صابر .. لقد كذبوا عليك ياسيدنا .. الزير ليس هنا منذ ستين ..

— وأنت ؟ . . مالك شاحب الوجه ضعيفاً كما أرى ؟ . .

— إننى لا أتقاضى مرتباً من ستين ونصف ياسيدنا .. إننى أموت جوعاً . :

— سبحان الله ياناس ! .. الوحيد هنا الذى له عمل معلوم .. الوحيد الذى أقام فى موضعه مخلصًا .. لا يتقاضى شيئاً . . وكل هذه الزنابير تقبض مرتبات !

والتفت إلى وكيل الإدارة وقال :

— لماذا لا يقبض هذا الرجل راتبه ؟

— لأن له إشكالا إدارياً مالياً . . فقد كان صابر تابعاً لإدارة حرس سيدنا ، ثم تقرر نقله من ستين ونصف إلى إدارة عموم الزير ، فوجدنا أن راتبه لا تنطبق عليه القواعد واللوائح المالية ، فأرسلنا نسأل وزارة الأشغال — ونحن نتبعها — وهذه بعثت تسأل ديوان الموظفين ، وديوان الموظفين أرسل يسأل مجلس الدولة ..

— كل ذلك والرجل لا يتقاضى ما يتقوت به ؟ !

— لا نستطيع إعطاءه راتباً ياسيدنا . . من يتحمل المسئولية ؟ .. ثم إنه لا يحمل مؤهلات .. عندما أردنا تقييم وظيفته لم نستطع ، وكذلك لم نعرف على أى أساس نصرف له راتبه.. لذلك سألنا الجهات المختصة وللآن لم يأتنا رد . . ما ذنبنا ؟ . .

فسار سيدنا خطوات حتى بلغ الكرسى الذى كان يجلس عليه صابر فانحط عليه ، كأنما ناء تحت ثقل الحزن الذى عصر قلبه من أجل خادمه المسكين ، وليث لحظة يلوم نفسه على أنه كان السبب فى مصيره ، ثم

نظر إلى صابر – وفى عينيه مع الأسف والندم اعتذار – وقال له :

– من الآن .. تعود إلى قصرنا كما كنت .. ويصرف لك راتبك عن المدة الماضية ، ويضاعف لك الراتب .. من الآن ..

ثم نظر إلى الوزير وقال :

– اكتب يا أخانا هذا كله .. هذه أوامر لك .. أنت الذى ستقوم بالتنفيذ .. اسمع يا صابر .. خذ .. هذه عشرة دنانير .. اشتر زيراً ومايلزمه ، وضعه تحت شجرة .. أين الشجرة التى وضعت تحتها الزير الأول ؟ ..

– كانت هنا ، فى هذا الموضع .. قطعوها ليقيموا البناء ..

– سامحهم الله .. بل لا سامحهم .. وأين زميلك الذى كنت اخترته ليعمل معك ؟ ..

– مات .. أماتوه ..

فصاح سيدنا :

– كيف ؟ ..

– عندما أرادوا قطع الشجرة حاول منعهم ، فضربوه وفصلوه . فمات غماً ..

ففكر سيدنا ملياً ، ثم قال :

– ابحث لى عن زوجته وأولاده ، وقل لرئيس شئون القصر يحسن عوضهم ويرتب لهم معاشاً كافياً .. اذهب أنت الآن واشتر الزير واملأه وضعه كما قلت لك ، واختر واحداً من رجالنا ليقوم بأمره ، وسأدفع له أنا راتبه من مالى الخاص ..

ثم التفت إلى الوزير وقال له :

– أما أنت يا صاحبى فقد أنشأت هذا كله ، وحملت ميزانية الدولة نفقات باهظة ، لكى تخدعنا وتعين أقاربك بعد أن ضيعت الغرض الأساسى الذى توخيناه .. فأما هذا المبنى فسنرى كيف نستخدمه فى أمر آخر من مصالح العباد .. وأما هؤلاء الموظفون فأنت عينتهم كلهم

٢٠

وأنت ملزم بهم .. من مالك الخاص تدفع رواتبهم كما قررتها لهم ..

فصاح الوزير مرتاعاً :

ـ ولكن ياسيدنا .. إن مالى الخاص لا يحتمل تلك النفقة.. سينفد بعد شهر واحد ..

ـ لن ينفد بعد شهر ولا أشهر.. وبعد أن ينفد مالك يأخذون رواتبهم من مال زوجتك وأولادك وإخوتك وأبناء عمك وأبناء خالتك وبقية أقاربك الذين أغنيتهم من مال الدولة .. ستظلون تدفعون رواتب أولئك الناس دون خصم أو خفض أو نقص، حتى ينفد كل مالكم وتعودوا كما عرفناكم .. يا وكيل الإدارة .. عليك تنفيذ هذا وأنت مسئول عنه أمامى .. أما السيد المدير العام فاستعيدوا منه كل درهم أنفقه فى رحلته وكل رحلة سابقة قام بها ، فهى رحلات ملفقة مصطنعة ، ثم دعوه لقريبه الوزير يرتبان أمورهما كما يريدان .

فاطمة عبد النور



كان قطار الصعيد يخطف الأرض فى ظلام الليل كأنه البرق ، ليقطع المسافة من جرجا إلى نجع حمادى فى نصف المدة المقررة . كان وقوفه فى جرجا قد طال ، حتى خشى الناس أن يكون فى الأمر عطل طويل. وكنا قد أخذنا القطار من أسيوط حوالى منتصف الليل ، فاغتسلنا وأوينا مسرعين إلى هذه الأسرة المصغرة التى يحشرونها فى عربات الليل واحداً فوق الآخر ، وما إن هبطت رؤوسنا على الوسائد حتى سقطنا نياماً ، والقطار يهز أبداننا هزاً يوقظ الأحجار . .

ولكننا كنا مجهدين ، فقد قضينا يوماً من أيام المحاكم القاسية : جلسنا إلى منصة القضاء أنا وزميلى القاضى عبد الرحمن فكرى عثمان — الذى يرقد فى السرير الأعلى فى هذه الخلية التى ننام فيها فى القطار — وزميل ثالث من أجلاء القضاة . وقد بكرنا فى العمل لأن زميلنا الثالث هذا من سكان القاهرة ، وهو حريص دائماً على أن يعود إلى القاهرة بعد الجلسة ، فظللنا فى مكاننا حتى قرب الخامسة بعد الظهر ، مابين مرافعات واستجوابات ومراجعة محاضر ومناقشات ، حتى بلغ بنا التعب مداه ، وما إن رفعت الجلسة وأوينا إلى قاعة الاستراحة حتى انطلق صاحبنا يعدو إلى المحطة آخذاً طريق القاهرة ..

أما نحن فقد استرخينا فى مقاعدنا ريثما يفرغ زكى علام من أمر ترتيب المائدة ، فأنا أقيم فى أسيوط ، وقد تعودت أسرتى أن ترسل إلى الطعام فى استراحة المحكمة لكى أتناوله مع من حضر من زملائى القضاة والمستشارين. وكان زكى علام طباخى ، وكانت له شهرة كبيرة بين أهل القضاء .

وأكلنا صامتين ، ثم مضينا نحتسى القهوة ، فإذا نحن فى ذلك سمعت جرس التليفون . ونادانى رئيس كتبة المحكمة ، ونهضت إلى مكان التليفون فإذا المتكلم وزير العدل نفسه . سألنى عن قضية العوامر وكيف تسير ، ولم

تكن هذه القضية معى وإنما كانت مع زميلى القاضى عبد الرحمن فكرى عثمان . . وكان الوزير يعرف ذلك ، ولكنه أراد أن يرجونى أن استحث عبد الرحمن للسير فيها بشىء من السرعة،فقد تعرض الوزير لاستجواب عنيف عنها فى مجلس الشيوخ فى اليوم الأسبق ، وهاجمه بسببها خصمه السياسى راغب علوى المحامى وعضو مجلس الشيوخ عن أسوان هجوماً شديداً .

وكان راغب محامياً مشهوراً ذا باع طويل فى القضايا والمحاكم ، وكان أصدقاؤه يقولون إنه برلمانى ممتاز له صولات وجولات فى مجلسى البرلمان . ووعدت الوزير بأن أبذل غاية جهدى فى تحقيق ما طلب ، فسألنى إن كانت لدينا جلسات بقية الأسبوع ، فقلت إن لدينا أربعة أيام استعداد ودراسة قبل الجلسة القادمة يوم الأحد المقبل، فطلب إلىّ أن أذهب مع عبد الرحمن إلى أسوان الليلة، وأن أبحث الأمر معه ومع السلطات هناك ، وقال إنه ينتظر منا نحن الاثنين تقريراً قبل السبت القادم ، فوعدته بذلك .

وعدت إلى غرفة الاستراحة فإذا عبد الرحمن مستوسن كما تركته ، فجعلت أتأمل وجهه الهادئ النبيل ، وكانت تربطنى وإياه صداقة حميمة وإن كنت أكبره بنحو سنوات خمس. فقد تعاصرنا فى الدراسة فى باريس، وكان لنا صديق ثالث هو هذا الوزير الذى يكلمنى الساعة . وكنا هناك لا نفترق: نحضر الدروس معاً ،ونقرأ نفس الكتب،ونتقاسم نفس الأحلام.. ولم تكن أحلامنا لتخرج عن أن نكون فى يوم من الأيام مستشارين فى القضاء العالى . وقد كنا ، بل أصبح واحد منا وزيراً ..

وطلبت باشكاتب المحكمة ورجوته أن يحجز لنا تذاكر السفر ، فقال لى إن المستشار عبد الرحمن حجز تذكرته من أمس،وحجز كذلك الاستراحة الحكومية فى أسوان ، فرجوته أن يحجزلى تذكرة ثانية مع غرفة نوم ، وأن يخطر المسئول عن الاستراحة الحكومية فى أسوان بأننى قادم أيضاً ، وأننا

سنظل هناك إلى يوم الجمعة .

دارت فى ذهنى هذه الأشياء كلها وأنا راقد فى فراشى والقطار يجرى كالمجنون فى ظلمات الليل ، وأزحت ستار النافذة فى حذر ، ونظرت فإذا بالقطار يعبر النيل ، فلابد أننى أغفيت بعض الوقت فلم أشعر بوقوف القطار فى نجع حمادى . وكان نور خفيف يسرى فى الكون كله ، ومن بعيد رأيت غابات النخيل التى تحدد حافة الوادى فى هذا الجزء من الصعيد الجوانى ..

وبعد قليل أحسست بحركة فى السرير الأعلى،فحسبت صديقى قد صحا ، ولكنه سكن مرة أخرى فعرفت أنه لم يستيقظ وإنما كان يتقلب فى فراشه . وحسدته على هذا النوم الطويل الذى كان من خصائصه طول حياته ، وكان هو فخوراً بذلك ، لأن القاضى المستريح البال هو القاضى العادل . هكذا كان يقول دائماً .

وكانت القضية التى نحن ذاهبان من أجلها قضية عويصة ، مثل كل جنايات الريف التى تتدخل فيها ثارات الأسر ومنازعات الأرض والسلطان . ففى منتصف ليلة من ليالى ديسمبر ١٩٤٦ قتل إسماعيل عبد الحميد عامر عميد أسرة عامر وهو خارج من بيت عمدة قرية الرمادى قبلى مركز إدفو ، وكانت له فيها ضيعة كبيرة . وانقلبت الدنيا عقب ذلك، لأن العوامر كانوا أسرة خطيرة الشأن فى المديرية كلها . كانوا تجاراً أثرياء يقومون بجانب ضخم من تجارة مصر مع السودان ، وكان لهم وكلاء وعملاء فى الخرطوم وأم درمان وأسيوط والقاهرة، فضلا عن أسوان طبعاً، وكان فى الأسرة أطباء ومهندسون ومحامون من خيرة الناس فى القطر كله ، وكنت أعرف منهم عدداً طيباً .

وحامت الشبهة — بداهة — حول آل جادالله عيسى ، وهم أسرة منافسة للعوامر ، وكانوا أعيان المزارعين من أهل مديرية أسوان . وكان مركزهم قرية الجعافرة ، وكانوا يقولون إن ولى الله سيدى جعفر المدفون فى

الطريق الزراعى المؤدى للقرية هو جدهم لأمهم . وكان هؤلاء الناس ذوى جمع وقوة وثروة وحسب،وكانت فيهم صلابة ونخوة وشهامة لا تقل عما كان لمنافسيهم . وكان فى نسائهم — كما يقول الناس — جمال آسر بديع ؛ وقد اشتهرن بشيوع العيون الخضراء فيهن . وكان العوام منهم يقولون إن أصل جدتهم البعيدة حجازية ، وأن عينيها رمدتا مرة فداواهما سيدنا على ابن أبى طالب بأن وضع أصابعه على جفنيها ، فشفيتا للحال ، وعندما فتحتهما كانتا خضراوين كعينى قطة جميلة . أما المتعلمون منهم فكانوا يقولون إن نفراً من المماليك ذوى العيون الخضراء لجأوا إلى جدهم عندما طاردهم الفرنسيون ، ثم تزاوجوا معهم فأورثوهم لون العيون الأخضر الجميل .

وأخيراً أفاق صاحبى وجلس فى فراشه . وكان القطار إذ ذاك ينهب الأرض نهباً فى الطريق إلى الأقصر ، وكان نور الفجر قد أخذ ينفذ من خلال الستر ، فأزحت ستار النافذة الصغيرة قليلا وقلت :

— صباح الخير ..

فرد التحية ، ثم قال وكأنه يخاطب نفسه :

— أخيراً طلع النهار !

فقلت ضاحكاً :

— ومالك أنت تشكو طول الليل ؟ لقد أغمضت عينيك فى أسيوط فلم تفتحهما إلا هنا قرب الأقصر ..

— هذا صحيح ، ولكن صدقنى إذا قلت لك إننى لم أنعس لحظة واحدة ..

— وكيف ذلك ؟ إنك لم تتحرك فى فراشك إلا مرة واحدة ..

— كنت تراقبنى ؟ .. معنى ذلك أنك أنت أيضاً لم تنم ..

— أجل .. أظن أننى أول الأمر نعست أربع ساعات أو خمساً . .

ثم دلى ساقيه من الفراش وقفز إلى الأرض ومضى يبحث عن أدوات الحلاقة ، وقال وهو يتثاءب :

ـ لا أظن أنى سأنام إلا عندما تنتهى هذه القضية ..

وفتح صنبور الماء ووضع أصابعه تحته ينتظر مجىء الماء الساخن .. وقع ضوء النافذة على وجهه فراعنى ما رأيت : كان وجهه عابساً جداً متغضناً جداً ، وكان يتأمل المنظر من خلال الستار وهو سابح مع أفكار بعيدة ، فشعرت بخوف عليه ..

وذكرت ماكان أساتذتنا يقصونه علينا ، من أن بعض المحققين ينصرفون بكليتهم إلى القضايا التى تستهويهم وتتحدى مهارتهم وذكاءهم بتعقيدها ، فيندمجون فيها اندماجاً يجعلهم يشعرون أنهم الطرف الرئيسى فى القضية ، والطرف الثانى هو المجرم المجهول ، ويصبح التحقيق والبحث صراعاً عنيفاً خطراً بين الجانبين ، لأن القضية تصبح بالنسبة لهم مسألة كيان ، مسألة وجود : إما أن يحلوا القاتل أو يتفكك كيانهم كله ..

هناك محققون كثيرون فى أوربا استغرقوا فى قضايا كهذه ، وعجزوا عن الوصول إلى المجرم ، فاستقالوا .. لأنهم شعروا أنهم انهزموا وخسروا أنفسهم فى الصراع مع المجرم . فى إيطاليا حدث مرة أن محققاً ظل يوالى العمل فى قضية واحدة سنوات ، وتعلق بذهنه أن المجرم شخص معين ، ومضى يجمع الأدلة فى صبر طويل ، وأقام الدعوى ، ثم تبين أنه مخطئ وأن المجرم إنسان آخر ، فانتحر ..

أشياء مثل هذه دارت بذهنى وأنا أنظر إلى صديقى وهو يحلق ذهنه فى تكاسل وشرود ، فقلت له :

ـ لقد طالما نصحتنا بألا نأخذ القضايا بأعصابنا ..

ـ وها أنا الآن بحاجة إلى من ينصحنى ..

وفرغ من حلاقة ذقنة ، فقمت إليه وقلت له :

ـ عبدالرحمن ، لماذا تأخذ القضية بهذه العصبية ؟ إن الجنايات بطبعها معقدة ومتعبة ، فلماذا لا تدعنى أشاركك حمل هذا العبء ؟

ـ هذا يسعدنى ويريح قلبى ، فقد أهلكتنى هذه القضية ، وهاهى قد

تعقلت زيادة ودخلت فيها السياسة ومجلس الشيوخ ، ووضع راغب عدوى رأسه فيها !
سأقص عليك كل شيء ، ومن الآن فصاعداً نعمل معاً خطوة خطوة .

* * *

وكان القطار قد وصل محطة الأقصر واستقر فيها ، فأسرعنا بإكمال ارتداء ثيابنا ، وخرجنا نتمشى على الرصيف ، ريثما يقوم الخدم بتحويل غرفة النوم إلى غرفة جلوس كما هي العادة فى القطارات . ورآنا زكي أفندى برسوم ناظر المحطة ، فأسرع يحيينا ويدعونا إلى القهوة ، وأضاف أن القطار سينتظر نحو نصف ساعة ، فشكرناه ومضينا إلى بوفيه المحطة فطلبنا شاياً وشيئاً نأكله . وقلت لعبد الرحمن :

— أين وصلت بالقضية الآن ؟

فنظر إلىّ وعلامات الحيرة بادية فى وجهه ، وقال :

— أظن أن هذه القضية دخلت منذ أيام قليلة فى دور جديد يجعلنا نغير اتجاه التحقيق تماماً . .

— لماذا ؟ .. ماذا حدث ؟

— ثبت عندى أن القاتل ليس من الجعافرة ..

ودهشت لهذا النبأ ، فقد كنت أسمع من عبدالرحمن أن القاتل لايمكن أن يكون إلا من هذه الأسرة ، فهناك دلائل كثيرة تشير إلى ذلك : وقبل الجريمة بعام وبضعة أشهر قتل رجل كبير من الجعافرة ، وأشارت الأصابع كلها إلى العوامر ، وإلى إسماعيل عبدالحميد عامر بالذات : وكان هناك تحقيق وكلام كثير ، ولكن عبد الرحمن فكرى عثمان ، الذى تولى التحقيق فى قضية مقتل إسماعيل عامر بتكليف خاص من الوزير ، رفض رفضاً قاطعاً أن يقبض البوليس على أحد من آل عامر . كان من رأيه أن أعمال العنف والقهر تضر بالعدالة : كان يراقب ويتابع ويحقق ويستجوب ، دون أن يسمح للبوليس بأن يمس أحداً ؛ وكانت طريقته

تلك موضع ملاحظات ونقد كبير من رجال القضاء ..

وقلت له بعد لحظة تفكير :

— وكيف عرفت ذلك ؟

— خطاب من مجهول فتح لى الطريق ، كما هى العادة. خطاب من سطر واحد بخط لا يقرأ تسلمته من أسابيع يقول: «ياسعادة القاضى .. اسألوا عفيفي علوان وكيل شيخ خفر قرية الجعافرة» . وبعد أن عصرنا هذا الرجل عصراً ، تكلم وقال إن جادالله عيسى شيخ الجعافرة كان قد تصالح فى السر مع إسماعيل عبد الحميد عامر شيخ العوامر ، كانت هناك مفاوضات واتصالات كثيرة بين الجانبين .

— ولماذا فى السر ؟ ..

— لأن المسألة ...

وفى هذه اللحظة كان السفرجي يضع الطعام على المائدة . ولاحظ صديقى أنه يتمهل ، فهو من أهل أسوان فى الغالب ، ويريد أن يسمع شيئاً ، فانتظرنا حتى فرغ ومضى ، فاسترسل عبدالرحمن يقول :

— المسألة فيها حريم . . نسوان . كانت لعبد النور أحمد جاد الله عيسى —وهو ابن عم بعيد لجاد الله عيسى— بنت يقولون إنها غاية فى الجمال، اسمها فاطمة : سمراء فارعة الطول خضراء العينين ذات ملامح لم أر أجمل منها فى حياتى ..

— رأيتها ؟ ..

— نعم ، واستجوبتها مراراً .. وستعرف كل شيء ، فلنسر على مهل.. فاطمة عبد النور أحمد جادالله هذه تزوجت مرتين . فى المرتين مات الزوج قتيلا بعد الزواج بقليل ، فوقف سوق المسكينة وتشاءم الناس منها.

— لابد أن القاتل فى الحالتين واحد .. رجل يريد أن يتزوجها هو ..

فضحك وقال بهدوئه الذى أعرفه فيه من سنوات بعيدة :

— أراك بدأت تأخذ القضية بأعصابك . هل تسمح لى بأن أوجه

إليك نفس النصيحة الآن ؟

فلم أتمالك أن ضحكت من نفسي ، وعدت مسرعاً أسأل :

— إذن من القاتل ؟

— لو عرفت القاتل لما كان هناك داع لهذه الرحلة ..

وسكت قليلا ، ثم رشف شيئاً من الشاى ، واستطرد يقول :

— بعد بحث طويل تبين أن إسماعيل عبد الحميد عامر رأى هذه الفتاة فاطمة ذات مرة ، لا أدرى كيف ، ولكن قيل لى إنهما تلاقيا مصادفة عند تاجر مجوهرات فى أسيوط ..

— تعتقد أن ذلك تم مصادفة ؟

— لا أظن .. هذه المسائل لها دائماً أعماق وجذور ، ولابد أن تكون قد سمعت أن إسماعيل كان رجلا يعجب النساء . كان فى الحادية والخمسين من عمره ، ولكنه ذو هيبة وطلعة ووسامة ، وأخبار مغامراته — إلى تلك السن — كانت كثيرة .. المهم أنه لقى فاطمة هذه ووقع فى غرامها من النظرة الأولى كما يقولون ، وأعتقد أنها هى الأخرى أحبته بنفس العنف كما سترى بعد قليل ..

وهنا أقبل ناظر المحطة زكى أفندى برسوم ينبهنا إلى أن القطار على وشك الرحيل ، فعدنا إليه . وتحرك القطار فى طريقه إلى أسوان ، واسترسل صديقى يقول :

— أين كنا ؟ آه .. هل قلت لك إننى تبينت بعد ذلك أن إسماعيل لقى فاطمة مرتين أو ثلاثا بعد ذلك ؟ كانت لقاءاتهما قصيرة وسريعة فى محل نفس الجواهرجى فى أسيوط أو فى محل تاجر أقمشة هناك أيضاً . .

— كيف عرفت ذلك ؟

— من فاطمة نفسها . إنها امرأة غريبة جداً : جميلة وعنيفة ونافرة ، كأنها فرسة شابة تأبى أن تقاد أو تستأنس ، ذكية لماحة كأنها عجوز طُلَعة لا يفوتها شىء ، ورقيقة لطيفة أنيسة إذا أرادت ووثقت فى أحد.

إنسانة غريبة .. فريدة فى بابها دون شك ، لا أدرى إن كان ذلك الذى يترصد أزواجها ويغتالهم يعرف عن طبعها وخصالها ما أعرفه أنا ..

– فإذا كان يعرف ؟ ..

– فإننى أعذره فى جنونه ..

بعد أن تقابل إسماعيل وفاطمة مرتين أو ثلاثاً كما قلت لك ، اتفقا على الزواج . لقد جن بها هذا الرجل جنوناً جعله مستعداً لأى شىء فى سبيل الحصول عليها ، ولكنه خاف من أولاده . أنت تعرف حرص الأولاد الكبار على الإرث والتركة ، وخوفهم الشديد من أن تدخل عليهم آخر عمر أبيهم امرأة جديدة تنجب أولاداً جدداً ..

وقد خطر ببال إسماعيل أن يتغلب على هذه الصعوبة بالقول بأنه يريد أن يعقد صلحاً عاماً بين العوامر والجعافرة ، وأوحى إلى أتباعه أن يذيعوا فى المديرية كلها أن الأسرتين قد أصابهما شر كبير من جراء هذه الخصومة ، وأن الوقت قد حان للصلح والعقل وحقن الدماء والعيش فى سلام ..

ثم سكت قليلا ، وابتسم ومضى يقول :

– حقاً إن الحب شىء عجيب ! هذا الرجل الذى أنفق معظم عمره فى حرب الجعافرة لم يعد لديه مانع من أن ينسى كل شىء ويغفر كل شىء ، ويصالحهم ويعانق رئيسهم الشيخ جادالله عيسى .. كل ذلك من أجل الحب .. من أجل فاطمة عبد النور ..

وقد لقيت دعوة إسماعيل للصلح قبولا من عمدة قرية الجعافرة ، واسمه رمضان عبد الوافى ، وهو رجل عاقل مسالم لا يريد معارك ولاضرب نار . فأعلن أنه يرحب بدعوة إسماعيل ويعرض أن يقوم بالوساطة بين الأسرتين ، وأسرع إليه إسماعيل وزاره فى قريته ومركز عموديته ، وقال إنه يفوضه للتفاهم مع بقية الجعافرة على الصلح . ولكنهما كتما الأمر ريثما يتحدث رمضان عبد الوافى مع الشيخ جادالله عيسى وبقية رؤساء

الجعافرة ، وسارت الأمور سيراً بطيئاً . .

* * *

وقد كتم الرجل موضوع فاطمة عبد النور عن أولاده ، ولكنهم — بطريقة ما — سمعوا به وأوجسوا منه خيفة .. إن له من الأولاد ثلاثة، ومن البنات ثلاثاً أيضاً ، ومن الغريب أن هذا الرجل الضخم الفخم لم ينجب إلا أولاداً لا يسعد بهم قلب ولا تقر بهم عين ، صعاليك صغار العقول لاهم لهم إلا اللعب والجرى وراء بنات الليل فى القاهرة ، ومن حسن الحظ أن أزواج بناته رجال محترمون يعتمد عليهم ، ولولاهم لساءت أحوال هذه الأسرة الكبيرة كثيراً ..

وقد حدث فى أكتوبر ١٩٤٦ — أى قبل الجناية بشهرين — أن أحدهم — واسمه كمال عامر — أتى إلى أسوان مع نفر من أصحابه ليفرجهم على الآثار كما زعم ، وقد قضوا هناك ثمانية أيام أو تسعة، ثم عادوا إلى القاهرة.

بحثت طويلا عما إذا كان كمال عامر قد قابل أباه أثناء هذه الزيارة . قالت لى أمه إنه لم يره ولا نزل فى بيت من بيوت الأسرة ، وأنه قضى المدة مع أصحابه فى الفنادق ، وهذا كلام لم أصدقه أبداً . وبحثت بعد ذلك عما إذا كان هذا الشاب قد قابل رمضان عبد الوافى عمدة الجعافرة ورسول الصلح ، فعرفت أنهما تقابلا فى أحد فنادق أسوان وقد أنكر ذلك كل من كمال ورمضان إنكاراً تاماً، ولكن الواقعة صحيحة وعليها شهود كثيرون .

وعن طريق رمضان عبد الوافى ، علمت أن اجتماعاً عقد فى بيته قبل الجريمة بثلاثة أسابيع وضم إسماعيل عبد الحميد عامر وجادالله عيسى رئيسى العائلتين ونفراً من أنصار كل منهما ،وكان مجموع من حضر الاجتماع تسعة أنفار ، هم فى الحقيقة سادة هذه المديرية وأصحاب الأمر فيها . .

وكان من الممكن أن تنجح خطة إسماعيل وتعود على الجميع بالخير ، لو أنه عرف كيف يصبر ويضبط نفسه قليلا ، ولكن الحب لا يعرف

الصبر ، وياويل الشيخ إذا لعب بقلبه الهوى !

وفى أواخر أكتوبر الماضى دبر إسماعيل لقاء مع فاطمة ، ومن الغريب أنهما اتفقا على أن يكون اللقاء فى القاهرة . ولقد تعبت كثيراً حتى وضعت يدى على الخيط الذى كان يصل هذا الرجل بتلك المرأة ، فى ذلك الصعيد الجوانى الذى لا يجرؤ فيه أحد على النظر إلى امرأة ليست من أهله . لودرى صديقنا وزير العدل كم هى عسيرة هذه التحقيقات هنا ! ..

بعد لأى ما استطعت أن أصل إلى هذا السر ، فوجدت آخر الأمر أن الرسول بين الاثنين رجل صغير لا تكاد تأخذه العين : قطعة إنسان تسمى «عنبر» ، وهو رجل يرتدى جلباباً أبيض ومعطفاً أسود ، ويضع على رأسه طربوشاً طويلا داكن الحمرة ، وتحت الطربوش ترى وجهاً صغيراً لطيف الملامح ،ولكنه شديد النفور والخوف حتى لا ينظر إليك فى عينيك أبداً . وهو يحمل دائماً حقيبة يد فيها أمشاط وبودرة ومساحيق وعطور ، ولهذا يسميه الناس «عنبر» . وهذا الرجل يطوف بالمستشفيات ومدارس البنات وبعض البيوت ، يعرض بضاعته على الممرضات والمدرسات والسيدات . وقد دهشت عند ما تبينت أنه ناجح فى عمله هذا ، فإنه يبيع فى اليوم بما يتراوح بين سبعة جنيهات وثمانية ، وربما عشرة ؛ وأكثر من نصف هذا المبلغ ربح له ..

ولكن هذا لم يكن المورد الرئيسى لذلك الرجل الضئيل العجيب ، لأن مورده الحقيقى وشغله الذى كان ينفق فيه ذكاءه ونشاطه هو التوسط بين المحبين . ولقد تكشفت لى عند استجوابه أشياء فى غاية الغرابة ،عن الحب والهوى فى ذلك الجزء المترمت من بلاد الله ، أشياء لا يجوز ولا يليق ولا يحسن أن أذكر منها أدنى طرف ..

ولم يدهشنى هذا فى شىء ،فإن الناس هنا بشر كما هم فى أى مكان آخر على الأرض ، والبشر — بطبيعتهم — عرضه للحب وللضعف وللرغبة وللخطيئة وللزلل .. والله سبحانه وتعالى لم يخلق إبليس عبثاً .. ولكن

الذى أدهشنى أن يكون هذا الإنسان الصغير الضعيف : الذى يخاف من ظله ، هو الذى يتصدى لعمل كهذا كله مخاطر ، وتصور أنت ما يمكن أن يحدث له لو علم الناس بوساطاته وسفاراته ومهماته ..

— على أى حال لقد انتهى أمره الآن ، ولن يدعه أهل الصعيد حياً ..

— لا أدرى .. أنا شخصياً لن أكشف له سراً ، فقد أفضى إلىّ بما عنده بعد أن أمّنته على حياته وسمعته وتعهدت له بذلك بشرفى ، ولم يكن لى بد من أن أفعل ذلك .. بل إننى لم أكلف بالبحث عنه وكيل نيابة ولا مخبراً ولا رجل بوليس ، لأنه كان من الممكن أن يختفى فلا نجد له أثراً .. إنما كنت أنا الذى سعيت إليه بنفسى وتعقبت خطواته . ودخلت عليه منفرداً فى غرفة يسكن فيها فى أسيوط ، وفيما عداى وإياك وزملاءنا المحققين لن يعلم إنسان بأمر هذا الرجل . ولقد وعدنى وعد رجل بأن يترك هذا كله الآن ، وأن يعيش بعيداً جداً . وبالفعل هو الآن مقيم فى بلد من بلاد القطر بعد العدة لافتتاح متجر صغير ..

— أين ؟

— هذا سر بينى وبينه لا يعلمه غيرنا إلا الله سبحانه .

.. المهم أنه دبر لهما اللقاء فى بيت يملكه إسماعيل فى الدقى . ذهب هو قبلها بخمسة أيام وأقام فى البيت دون أن يخطر خادماً أو حارساً ، ثم أتت هى فى سيارة أجرة يصاحبها عنبر . ولم تمكث معه — فيما أكد لى هذا — إلا ساعة ونصفاً اتفقا خلالها على الزواج، ثم خرجت إلى سيارة أجرة ثانية كان عنبر قد أعدها لتذهب بها إلى بيت قريبة لها فى بندر الجيزة . كانت الحجة التى تعللت بها أنها أتت من الصعيد لتعرض نفسها على طبيب أمراض نساء، وقد مرت فى الطريق بطبيب النساء وكشف عليها فعلا وكتب لها دواء ، كل ذلك بتدبير عنبر وتنظيمه الذى يثير العجب ..

ولم يرها أحد لا فى الذهاب ولا فى الإياب ،ولا شك فى أمرها أحد، وكان من الممكن جداً أن تمر هذه المخاطرة بسلام ، ولكن إسماعيل كشف

أمر نفسه بصورة تدل على نزق وعجز عن ضبط النفس : كان يعلم أنها ستأخذ مع قريبتها تلك قطار الصعيد من محطة الجيزة فى الليلة التالية . فذهب — متستراً فى زعمه — ووقف فى ركن مظلم من المحطة ليراها وهى داخلة . ودخلت . ولا تدرى كيف حانت منها التفاتة إلى الركن الذى هو فيه فرأته . . وأجفلت لحظة . ثم استجمعت جأشها . . ونظرت قريبتها ناحيته وقالت : ما هذا ؟ . . من هذا ؟ . .

وأسرع إسماعيل خارجاً من المحطة . وكان مع فاطمة وقريبتها رجلان من أهلهما. فحسبا أن هذا المسرع بالخروج قد تعرض لنسائهما بشر . فأسرعا خلفه وأخذا بتلابيبه .. ووقف الرجل واستدار . ونظر إليهما نظرة سيد عزيز لا يعرف قلبه الخوف من أحد وقال : ماذا تريدان ؟ . . وعرفه أحدهما فبدت الدهشة على وجهه وقال : إسماعيل عامر؟! .. ماذا تعمل هنا يا إسماعيل يا عامر ؟ ..

وريعت فاطمة فأسرعت تصعد القطار وخلفها قريبتها . واستقرتا فيه . وقام القطار وذهب . وكان من سوء حظ إسماعيل أن هذا الرجل كان من كهول الجعافرة . يعرفهم ويعرف العوامر معرفة جيدة . فثبت مكانه ونظر إلى إسماعيل وقال :

— تجرى وراء نسائنا يا إسماعيل ؟ !

— أنا أجرى وراء نسائكم يا محمود رحيمة ؟.. أنا إسماعيل عبد الحميد عامر أنظر إلى حرمة من الجعافرة ؟ . . إن الذى جرى بيننا كثير يا محمود، لكن برضه أنتم أشراف وإحنا أشراف . والأشراف لا ينظرون إلى نساء بعض . .

وهدأت هذه الكلمات — التى قالها إسماعيل عامر بثبات وفى صوت خفيض — من غضب محمود رحيمـــة وأحس بشىء من الحرج فقال :

— إذن ماذا كنت تعمل هنا ؟

ـــ أى شىء إلا ما تظن .. مهما حصل بيننا فالجعافرة لحمنا ودمنا وشرفهم شرفنا .. تعالوا بنا من هنا .. لنجلس فى مقهى بعيد عن هذا المكان ، ولنخز الشيطان ..

هذا الكلام قصه علىّ محمود رحيمة . وأضاف :

ـــ أنا أعرف أنك قد تفكر فى اتهامى بقتل إسماعيل . وأنا لا يهمنى أن أتهم أو أن يجرى لى أى شىء . فأنا صعيدى ابن صعيدى . وإحنا الصعايدة ناس من حديد ، وإسماعيل عامر رجل ملء ثيابه .. صحيح أنه عدونا . ولكنه عدو شريف وعدو الشريف شريف مثله ..

فقلت لصديقى :

ـــ وهل قبضت عليه ؟

ـــ لا ياسيدى . أنا لا أقبض على الناس فى الصعيد . هؤلاء ناس أشراف أحرار ، إذا آذيتهم أو أهنتهم لم تحصل منهم على شىء . أسوأ ما يعمله المحققون هنا أنهم يسرعون بالقبض على الناس . وفتح محاضر التحقيق ووضعهم فى الزنزانة أو التخشيبة . وتركهم ينامون على الأرضية الأسمنت متغطين بالبرش .. هنا لن يصبحوا بشراً ، ولن يصدقوك أبداً .. فى هذه القضية أنا لم أقبض على أحد . ولا أرسلت العساكر يأتونى بأحد ، ولم أدع البوليس يضع يده على أحد ..

معذرة .. ربما لهذا السبب لم نستطع الوصول إلى المجرم ..

لا أدرى .. ولكنى واثق من أن هذا هو الطريق الوحيد لحل معضلة كهذه ..

ثم سكت ..

وظللت أنتظره أن يتكلم . ولكنه أشعل سيجارة ونظر من نافذة القطار ثم عاد إلىّ يقول :

ـــ ماذا تنتظر ؟ .. لقد قلت لك كل ما عندى .. هل تراه قليلا ؟ ..

— بالعكس .. لقد وصلت إلى معلومات كثيرة جداً ، ولكن القضية زادت تعقيداً ..

— هذا صحيح ، ولكن هذه هى الطريقة الوحيدة للوصول إلى نتيجة .. الجناية كانت أول الأمر كقطعة صخر لا يدرى أحد مم تتركب .. ما عملته إلى الآن هو أنى كسرتها .. أصبحت قطعاً صغيرة .. تستطيع أن تقول إنه صار لدينا بدل الحجر الواحد مائة حجر .. بدل المشكلة الواحدة مائة مشكلة . . ولكننا نرى داخل المشكلة . . نرى شيئاً كثيراً جداً . .

وسكت لحظة ثم عاد يقول :

— وأنت ، ما رأيك ؟

— هناك ناس كثيرون ممكن أن تحوم حولهم الشكوك : محمود رحيمة مثلا .. أنا لا أستبعد أن يكون قد أذاع خبر حادث محطة الجيزة .. ولماذا تستبعد أن يكون أحد الناس قد أوصل الخبر إلى أولاد إسماعيل ؟ ..

فأسرع يقول :

— آه .. نسيت أن أقول لك أن عمدة الجعافرة قال لى إن اثنين من أولاد إسماعيل اتصلا به وقالا له إنهما سمعا إشاعة تقول إن أباهما سيتزوج قريبته ، وحذراه من ذلك ..

— أحدهما ابنه كمال عامر الذى حدثتنى عنه ..

— لا ، ولكن أخويه الآخرين ، ياسين وسعد الدين ..

— هل استجوبتهما ؟

— أكثر من مرة ، وشكوكى تحوم حول سعد الدين ، فهو شاب أصفراوى وخبيث وفى غاية القسوة .

— وأين يقيم ؟

— المفروض أنه يقيم فى أسوان ، ولكنه دائماً فى القاهرة .

— ولماذا تحوم شكوكك حوله ؟ ..

ـ لأنه ثبت لى أنه تغيب عن أمكنته المعهودة تسعة أيام من ديسمبر ، وقد وقعت الجريمة خلالها ..

ـ هذا لابد من القبض عليه ..

ـ اطمئن ، إنه فى أضيق من زنزانة السجن .. إن رجالى فى أعقابه خطوة خطوة .. من شهرين تقريباً حاول الاتصال بفاطمة ، قال لأصحابه إنه مستعد للزواج منها بدل أبيه ..

ـ وماذا دار بينهما ؟ ..

ـ لم ترض أن تقابله مرة واحدة .. إنها مختفية تماماً عن الأعين .. ولكنى أعرف بالضبط ماذا تعمل فى كل لحظة من لحظات النهار أو الليل. وقد تبينت أن لسعد الدين عامر رجلا يتبعه مثل ظله ، وهو شرير معروف ، وهناك احتمال كبير جداً أن يكون هو القاتل . .

ـ حققت معه طبعاً ؟ . .

ـ دون شك ، وقد أمرناه ألا يغادر القاهرة ، وهو تحت مراقبة دائمة .

وكان قد تعب من الحديث ، وتعبت أنا أيضًا من الإصغاء وحصر الذهن ، فسكتنا . ووصل القطار إلى أسوان ، فخرجنا من المحطة صامتين واتجهنا إلى الاستراحة .

كان الوقت ظهراً ، اتصلنا بوكيل النيابة . وبزميل له انتدبناه من القاهرة من شهور ، وأخطرنا رجال البوليس بوصولنا ، وتغدينا ، وأوينا إلى الفراش لنستريح شيئاً قبل أن نخوض الجولة الأخيرة من هذه المعركة . .

صحونا بعد راحة قصيرة وقد تجدد نشاطنا ، وأحسسنا أننا نستطيع مواصلة العمل حتى الصباح . كنا قد اتفقنا على أن أول ما نفعله هو الذهاب إلى «الرمادى قبلى» للمعاينة ومراجعة الوقائع . لم نصدق أعيننا عندما رأينا عمدتها داخلا علينا . .

هل تستطيع أن تقول لى كيف تنتقل الأخبار فى الريف ، دون

تليفون . دون تلغراف . دون إذاعة ؟ ! .. قال لنا إنه أتى مصادفة (وهل فى ذلك شك ؟ !) كان غرضه أن يبلغ وكيل النيابة المقيم أنهم قبضوا على رجل غريب ثبت لديهم أنه كان يحوم حول القرية ليلة الحادث، وأنهم ضبطوا معه سلاحاً . وقد أتى معه بالرجل والسلاح للتحقيق والبحث والفحص .

من أول وهلة تبينت أن هذا الرجل لا يمكن أن يكون القاتل . فقد كان المسكين ثلاثة أرباع أعمى . لكى يجلس على كرسى لابد أن يتحسسه بيده أولا مخافة أن يجلس فى الهواء . تبينت كذلك أنهم ضربوه ضرباً مبرحاً . كان ذلك بادياً على رقبته الطويلة وفى صدره المفتوح . عندما كشفنا ثيابه رأينا عجباً ، ما أتعس الضعيف فى هذه الدنيا !

وقال العمدة :

ــ لقد اعترف بالجريمة ياسعادة البيه .. اعترف وبصم بأصابعه العشرة ..

قلت له :

ــ لو فعلنا بك أنت ما فعلتم به لاعترفت بقتل سيدنا الحسين يا شيخ..

وبعد لحظة قال عبد الرحمن :

ــ هذا الرجل لم يفعل شيئاً . .

وصاح العمدة :

ــ تطلقون سراح مجرم ؟

ــ أولا هو ليس مجرماً . . على الأقل لم يثبت ذلك .. لن نطلق سراحه ، ولكننا سنعامله معاملة إنسان لإنسان .. فكوا قيود الرجل حالا ..

والتفت إلى أحد مساعديه وقال :

ــ خذ هذا الرجل ودعه يغتسل ، وغير له ملابسه وأعطه عشاء ودعه ينم فى إحدى الغرف هنا ، سنحتاج إليه فى التحقيق ..

وقال للعمدة :

ـ لماذا لا تكتب تقريراً عن حكاية هذا الرجل يا عمدة ؟ .. ادخل غرفة من الغرف هنا واكتب كل شيء بالتفصيل .. إذا كانت الكتابة تتعبك فليساعدك أحد الكتبة ..

واستدعينا بعد ذلك ناساً كثيرين. سمعنا كلاماً كثيراً جداً . وكتب الكتبة محاضر تملأ مجلدات . ثم نظر عبد الرحمن فى ساعته وقال :

ـ الساعة الآن الثانية والنصف بعد منتصف الليل .. أظن أنه قد آن أن نستريح .. سننام هنا ، هل عندك مانع ؟ الاستراحة الحكومية ليست أحسن من هنا على أى حال ..

وقال وكيل النيابة :

ـ هنا غرفة نوم فيها سريران .. أعدتها المديرية لحالات الطوارئ

ـ حسناً .. لم نكن نعرف ذلك ..

وكان الخدم قد أعدوا لنا شيئاً من الطعام فى غرفة صغيرة ، فمضينا نتناول شيئاً مما وجدناه على المائدة . كنا متعبين جداً . ولكن أذهاننا كانت تطن وتوش كأنها خلايا نحل ..

* * *

وعندما قاربنا على الانتهاء ، ولم يبق على المائدة إلا وكيلا النيابة دخل خفير فأدى التعظيم وقال :

ـ سعادة البيه .. هناك حرمة تريد أن تقابلكم ..

ـ حرمة ؟ .. أى حرمة ؟ ..

ـ حرمة لابسة أسود من فوق لتحت .. يظهر عليها يافندم أنها من عيلة كبيرة .. فنظرت إلى زميلى والدهشة تملأ وجهى ، وظللت أنتظر أن يقول شيئاً ، وأخيراً قال :

ـ هاتها ..

وبعد دقيقة كانت فى الغرفة امرأة طويلة لم نر لها وجهاً ، لأنها غطت رأسها كله بخمار سابغ .. وسمعت صوتها يقول بثبات :

ـ أريد أن أتحدث إلى القضاة وحدهم ..

ـ هذان ياسيدتى مساعدانا وهما وكيلا نيابة ، وما ستقولينه أنت لابد أن يسجلاه هما .. فليس هناك أى معنى لإخراجهما .. من أنت ؟

وقال الخفير :

ـ تعبت معها يا فندم .. لا تريد أن تقول ..

ـ إذن فاخرج أنت وأغلق الباب وقف عنده ، لا نريد أن يدخل أحد .. سمعت ؟ .. تفضلى ياسيدتى .. تفضلى اجلسى ..

وسارت فى خطىً متزنة وجلست ، ثم كشفت عن وجهها . أحسست فى نفسى أننى رأيت هذا الوجه قبل ذلك . ونظرت إلى عبد الرحمن فإذابه ينظر إليها صامتاً واجماً وقد فتح عينيه على اتساعهما فى دهشة كبرى .

وقالت السيدة :

ـ أنا فاطمة عبد النور جادالله عيسى ..

وصمتت لحظة ، ثم عادت تقول :

ـ أنا قتلت إسماعيل عبد الحميد عامر فى ٦ ديسمبر من العام الماضى .

وقال عبد الرحمن وهو لا يصدق ما يسمع :

ـ أنت قتلت إسماعيل عامر ؟ !

ـ نعم قتلته عند منتصف الليل وهو خارج من بيت قريبى رمضان عبد الوافى عمدة الجعافرة .. قتلته بهذا السلاح ..

وأخرجت من ثيابها بندقية ووضعتها على المنضدة . تناولها عبد الرحمن وفحصها ثم قال : ماوزر سرينجفيلد عيار ٣٠ـ٦ صناعة أمريكية . بالضبط هذا هو السلاح الذى استعمل ..

ـ وهل كان العمدة يعرف بوجودك ؟ ..

ـ لا .. لم يعرف إلا خادمى برهوم عطية الذى قبض عليه العمدة وضربه ليقر ..

ونظرت إلى عبد الرحمن وقلت :

ـ هذا هو الرجل الذى أمرت بمعاملته معاملة حسنة ، هاهو شريك فى الجناية ..

فقالت السيدة :

ـ لا .. ليس شريكاً ولا يعرف شيئاً ، أتيت به ليدلنى على الطريق ليس إلا ، ولكى يحمينى إذا حاول أحد الاعتداء علىّ فى ليل الريف والغيطان ..

فسألها عبد الرحمن :

ـ ولماذا قتلت إسماعيل عامر ؟

ـ انتقاماً لشرفى . كان قد وعدنى بشرفه بالزواج : على هذا الأساس قبلت لقاءه على انفراد فى بيت فى حى الدقى بالقاهرة . هناك اتفقنا على أن يتم الزواج قبل أن ينقضى شهران . بعد ذلك بدأ يراوغ ويسوف . فى ٢٠ نوفمبر أرسل إلىّ يقول إنه يرى أنه لابد من تأجيل الزواج ستة أشهر. قال إنه سيتصل بى ليشرح الموضوع . لم يتصل . أرسلت إليه رسولا فتهرب من مقابلته . لم يعد هناك شك فى خيانته . لا يغسل الشرف إلا الدم ، لهذا قتلته ..

ـ كيف قتلتيه ؟

فأخرجت من صدرها مظروفاً وناولته لعبد الرحمن ، كان المظروف مفتوحاً أخرج منه عبد الرحمن حزمة أوراق كبيرة ، وقالت هى :

ـ هنا تجدون تفصيل كل شىء .. إنه اعتراف بخطى وإمضائى كتبته خلال اليومين الماضيين .

وقال عبد الرحمن :

ـ هذا كلام كثير .. إنه يحتاج إلى وقت كثير لقراءته ..

ـ نعم . إلى أن تقرأوه ،هل تسمحون بأن آوى إلى غرفة لأستريح ؟ لى ثلاثة أيام بلياليها لم أنم . .

وأخذناها إلى الغرفة التى كنا سننام فيها فى الطابق الأعلى : لحسن

الحظ كانت النوافذ كلها محصنة بالحديد . كلفت مساعدينا وكيلى النيابة بحراسة الغرفة . رجوتهما أن يقوما بذلك بالتناوب، وألا يكلا ذلك إلى أحد. وعدنا إلى غرفتنا، واسترخى كلانا فى كرسيه محاولا اصطياد لحظة نعاس..

* * *

كانت الساعة الثانية والربع صباحاً عندما أفقنا على أصوات تنادينا . دخل علىّ وكيل النيابة مذعوراً وقال :

ـــ المتهمة انتحرت . .

ـــ انتحرت ؟ كيف وأنتم هناك ؟

ـــ قطعت شرايين يديها بموسى كانت معها ، وتصفىّ دمها كله طول الليل . .

ـــ نادوا الطبيب ، افعلوا أى شىء ، لابد من إنقاذها . .

ـــ لافائدة . . الطبيب الشرعى هناك ،وهو يؤكد أنها ماتت منذ أكثر من ساعتين . .

وصرخت دون وعى منى : ولكن لماذا انتحرت ؟ . .

وفى هدوئه المعتاد ، قال عبد الرحمن وهو يشعل سيجارة :

ـــ لأنها تحبه أكثر من الحياة ياعزيزى . . قتلته ، وكان من الممكن أن يظل سرها مكتوماً إلى الأبد . . ولكنها لم تحتمل الحياة بعده . . يا إلهى ! ما أظلم الحب! ما أقساه! ما أحرّ نيرانه فى قلب المحب المهجور، وخاصة إذا كان أصيلا من طراز فاطمة عبد النور .

البئر



لا أدرى — على وجه التحديد — متى ولدتُ ، فقد كان ذلك فى واحدة من تلك الألوف من القرى التى تعمر بطن الريف فى مصر ، حيث كان الناس لا يحرصون على ضبط تاريخ ولادة أو قيد اسم مولود . .

كان ذلك منذ سنوات كثيرة جداً . أما شهادة الميلاد التى أحملها الآن فقد كتبها لى طبيب ، بعد أن صرت رجلا ثابت القدم فى الحياة ، كتبها بحسب ما أردت وهى ، تقول إن سنى بعد الخامسة والخمسين بقليل ؛ ولكننى أكبر من ذلك بكثير . .

إذا كنت أستطيع أن أكذب على الناس . فإننى لا أستطيع أن أكذب على نفسى . لأن حمل السنين فوق عاتقى باهظ وثقيل . ستعرف أنت أيضاً ثقل هذا العبء عندما تتعالى طبقات السنين فوق كتفيك . . ستشعر بمثل الرغبة التى أشعر أنا بها الآن : وهى أن أحط عن كاهلى هذا العبء وأهرب منه . . ولكن كيف ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟ ألكى أعيش حياتى من جديد ؟ ليس فيها ما يغرى بالاستعادة . وقد أخذت من هذه الدنيا حظى ، وآن أن أترك مكانى لغيرى . . .

ثم إننا كنا فى بلدنا — ولا نزال ، فيما أظن — نكره قياس الأعمار وحساب السنين ، لأن الزمان عندنا عدو يترقب بالإنسان الدوائر ، فلابد — لهذا — من مراوغته وخداعه والاحتيال عليه ؛ وهو آخر الأمر — فى حسابهم — يوم واحد يتكرر . .

الأمس مات ولن يعود ، والغد لم يولد بعد ، فما معنى التفكير فيه ؟

إن العالم يموت مع غروب كل شمس ، ومع شروق شمس اليوم التالى يولد عالم جديد ، بمتاعبه وهمومه ، ولهذا فهم لا يصطحبون متاعب اليوم وهمومه إلى الفراش . .

إنهم يتركون الديون والأحقاد والمخاوف عند الباب ، وينامون نوماً عميقاً . .

فى الصباح يمكنها أن تعود ، وفى كثير جداً من الأحيان لا تعود ،

إنها تتبدد وتتلاشى فى ظلام الليل . .

كان أبى يقول : الهموم مثل الزرع ، إذا عنيت بها نمت وزادت، وإذا أهملتها ذبلت وماتت . .

على هذه الفلسفة عاشوا وماتوا آلافاً كثيرة من السنين . فإن قريتنا هذه لابد قد ولدت عند الخليقة ؛ فكل ما فيها كان عتيقاً قديماً حزيناً . .

حتى أبى . كنت أتصور وأنا طفل أن عمره خمسمائة سنة : فقد كان وجهه كله غضون وأخاديد . .

كان نجاراً ، حياته كلها سعى إلى الرزق ، وحرب لإطعام أفواه كثيرة ؛ غير المعاونات التى لابد منها للخالات والعمات . كان نجار سواق ، مصنعه رحبة واسعة خلف البيت . كان أشهر نجار سواق فى المديرية كلها ؛ ومع ذلك فلم يعرف الحساب أو القياس حياته كلها . كل شىء كان عنده بالنظر والتقدير التقريبى . .

ولماذا القياس والتدقيق ؟ إن الساقية عجلة ضخمة ليس من الضرورى أن تكون كاملة الاستدارة ، وأوطابها آنية من خشب يفر الماء من شقوقها فلا يصل منه إلى القناة إلا ثلثه أو ربعه . ومحور العجلة لا ينبغى أن يكون مطابقاً لثقب مركزها . وانعدام الدقة فى صنع الساقية هو الذى يجعلها عنصراً من عناصر الفن فى حياة الفلاح ، إنه هو الذى يجعلها تبكى وتنوح وتصاحب الفلاح فى الموال !

كان المفروض أن أصبح نجاراً مثل أبى ، ولكن صاحباً له كان يعمل بنّاء ، واحتاج إلى صبى ، فأمرنى أبى أن أصحبه وأعمل معه ؛ وهكذا تقرر مصيرى وصرت بنّاء . .

ليس فى الدنيا أقل رزقاً من بناء فى قرية مثل قريتنا : فالناس هناك لايحتاجون إليه ، لأنهم يبنون مساكنهم بأيديهم. القليلون الذين يبنون بيوتاً باللبن أو الطوب الأحمر ، هم العمد والمياسير من أصحاب الضياع ، لهذا كانت أيامى مع هذا الرجل رحلة دائمة من قرية إلى قرية ، بحسب مطلب الرزق والتساهيل . . .

ولكن مورد رزقنا الحقيقى فى هذه القرية كان حفر الآبار وبناءها . فإن قريتنا على الطرف الشرقى للدلتا . حيث لا يصل الماء إلى الترع إلا بضعة أسابيع تعقب الفيضان . عماد الناس بقية السنة على مياه الآبار .

فى هذا الفن كان معلمى أستاذاً عظيماً : كان يعرف طبيعة الأرض. ونوع الحفرة التى ستحفر للبئر . وسعتها واتجاهها . . فإذا فرغ الحفارون من عمل الحفرة ، ووصلوا إلى « رأس الماء » ، بدأ عمله الحقيقى . وهو عمل دقيق عسير يتلخص فى « بناء الحفرة » — أى تبطينها — بالحجر من أسفل إلى ارتفاع ثلاثة أمتار . ثم بالطوب الأحمر بعد ذلك . وبناء سلالم حلزونية — أو زجزاجة — تنتهى بمصطبة عند الماء . يقف عليها الناس لاستخراج ما عسى أن يقع فى البئر . أو لتنظيفها .

وكنت — مثل كل صبى يعمل مع معلم — أقوم بأعسر جزء من ذلك العمل : كانوا يدلوننى فى الحفرة إلى قاعها ، لكى أسوى الجدران وأتقن استدارتها قبل البدء فى البناء . كانوا يتزلوننى فى الصباح جالساً على لوح من الخشب مربوط من طرفيه بحبلين . وإلى جانبى شمعة ومعى علبة ثقاب لأن الظلام فى القاع دامس . وعلى ضوء الشمعة كنت أعمل فى الجدران بآلات بدائية علاها الصدأ .

ولا أستطيع أن أصور لك رعبى الدائم ، وأنا أعمل فى هذا القبر طول النهار : كنت صبياً فى الثامنة من عمرى . وليس هناك ما هو أشد إرعاباً لصبى فى مثل هذه السن ، من البقاء ساعات متوالية فى الظلام تحت الأرض . والحشرات والديدان تجرى على الجدران ، وتسقط علىّ أو تجرى على يدىّ . .

قاسيت مع هذا المعلم خمس سنوات أو ستاً ، تعلمت فيها شيئاً كثيراً . ولكن أقصى ما وصلت إليه من الأجر كان خمسة قروش فى اليوم ، فى مقابل عشر ساعات أو أكثر من ذلك العمل الذى وصفته لك . .

وفي الشهور الأخيرة من عملي معه كنت أقوم بكل شيء . حتى تبطين الحائط كنت أقوم به . والمعلم جالس قرب حافة البئر ، يلخن الجوزة ويحتسي الشاي كوباً بعد كوب . ولقد حاولت الفرار مراراً من ذلك الشقاء ، ولكن والدى أصر على أن أستمر حتى أصبح « معلماً معتبراً » . كما كان يقول . .

وعندما انقضى من عمرى ستة عشر عاماً . فكرت فى ترك المعلم والاستقلال بنفسى ، ولكن آداب المهنة فى بلدنا لم تكن تسمح للصبى بأن يستقل عن معلمه . إلا إذا مات هذا أو أذن له فى الاستقلال ، فلم يكن لى بد من احتمال متاعبى والسير بها مع الأيام . .

وفى ذات مساء عدت من العمل ففوجئت بأن أبى قد مات . مات بعد خروجى إلى العمل فى الصباح ، ولم يعرفوا مكانى ليستدعونى ، فدفنوه دون أن أراه ، ولم يبق لى إلا أن أتقبل العزاء فى الدوار . .

وبعد ذلك بأشهر قلائل مضى المعلم — هو الآخر — إلى حال سبيله : وخلفه فى عمله ابن له شاب لاعب لا خبرة له بالعمل . ولكنه ورث عمل أبيه واسمه . وأراد أن يرثنى أنا الآخر ضمن التركة ، وأصر على أن أظل فى العمل بنفس الشروط .

وأنفت نفسى ذلك . فانفصلت عنه . ومضيت أبحث عن عملاء فلم أوفق كثيراً ، لأن الناس جاملوا الابن بل لاموني على انفصالى عنه . فقبعت فى دارى واجتهدت فى أن أشق طريقى وحدى .

وكانت الأحوال فى بيتنا قد تغيرت تغيراً كبيراً : فعقب موت أبى بأيام ، أقبل أخى الأكبر وزوجته البدينة وأولاده الستة فاحتلوا البيت على وعلى أمى ، ولم يبق لنا إلا ركن صغير . ومضى أخى يستثقلنى ويتبرم بوجودى ، لائماً إياى صباح مساء ، وقائلا إننى متبطل لا أريد العمل وأرجو أن أعيش عالة عليه . وضاقت الدنيا فى وجهى .

ثم جاء الفرج ذات ليلة . زارنا خال لى كان يعمل فى مصنع يملكه رجل يونانى فى الإسكندرية . وفى حديثه مع أمى قال لها إن المصنع فى حاجة

إلى بنّاء ، وعرض عليها أن تأذن لى فى السفر معه .

كنت إذ ذاك راقداً فى غرفة مجاورة أسمع — وأنا يقظان نائم — ما يجرى بينهما من حديث ، فأصغيت عندما سمعت ذلك ، وسمعت أمى ترفض رفضاً قاطعاً أن أمضى لأعمل بعيداً عنها ، ثم ترجوه ألا يقول لى أو لأحد شيئاً عن الموضوع ..

ولكنى وعيت الحديث كله ، وكنت أعرف عنوان خالى فى الإسكندرية ، فضيت طول الليل أدير الفكرة فى خاطرى . واستقر رأيى قبيل الفجر على أن أمضى بنفسى إلى هناك ، إذ لا معنى لأن أظل فى هذا الفقر والشقاء مراعاة لعواطف أمى ، ولو أطاع الأبناء عواطف الأمهات لما ظهر فى الدنيا بطل أو مغامر ..

وبعد ثلاثة أيام ، بارحت الدار مع تباشير الصباح ، زاعماً أن ورائى عملا فى قرية بعيدة ، ومضيت أسأل من ألقاهم فى الطريق عن « سكة الإسكندرية » ، حتى وصلتها بعد أربعة أيام . كنت أسير طول النهار ، فإذا هبط الظلام بحثت عن مكان مهجور أنام فيه . وكانت معى قروش قليلة ، أشترى منها ما تيسر من الطعام .

ودخلت البلد الكبير ، فكأنما ألقى بى فى بحر : شوارع كثيرة متشابهة ، وألوف من الناس تروح وتجيء معجلة كأنما قامت القيامة ، وعربات وترام وباعة جوالون ، ودنيا لا أول لها ولا آخر ..

وغرقت فى هذا البحر : أدخل فى شارع وأخرج من آخر ، وكلما سألت إنساناً عن العنوان — وكنت أحفظه — نظر إلىّ متفحصاً كأنى أتيت من كوكب آخر ، أو كأنى لا أتكلم « العربية » ، وتأملنى ساخراً وضحك واستضحك مَن حوله ومضى ..

وجاء المساء وكنت قد هلكت ، فضيت أبحث عن شيء أبيت فيه ، ومررت ببائع خبز وطعمية على ناصية حارة ، فضيت إليه وأعطيته قرشاً ، فناولنى ما تيسر ، ورآنى آكل فى نهم فنظر إلىّ بعطف ، وتشجعت

فسألته عن العنوان ، فمضى يسأل من حوله ، حتى عثر آخر الأمر على غلام يعرفه ، فتطوع ليدلني عليه . .

وسرت خلفه ، حتى إذا بلغنا طرف البلد — فيما أتصور — أشار إلى مبنى كبير تتصل به ساحة يدور عليها سور طوله طول قريتنا كلها ؛ وقال : « ها هو محلج جالانو » . . وأعطيته قرشاً فمضى يجرى فرحاً . وكنا حوالى منتصف الليل .

وكان نباح كلاب كثيرة يترامى إلىّ من داخل المحلج ؛ فابتعدت عن السور ولجأت إلى جدار كوخ خشبى . ووضعت جنبى على الأرض فنمت فى الحال . .

* * *

لا أنسى ما حييت منظر هذا الرجل أول ما لقيته . كان طويلا عريضاً أحمر الوجه أبيض الشعر . وكان له شارب كبير أبيض وقور . كان رجلا هادئا رزيناً يتحدث فى تؤدة بصوت عميق ينم عن كمال ورجولة . أصغى إلى قصتى وهو يدخن سيجاراً . فلما فرغت ابتسم ، وأحسست بأنه أعجب بالمغامرة التى قمت بها . .

ولم يسألنى عن خبرتى فى البناء ، وكأنما اكتفى بما لقيت من العناء فى سبيل الحصول على العمل ، فربت على كتفى وقال بلهجة مصرية خالصة : « حماسك جيد يا بنى ، ولك مستقبل ! ستعمل عندى بناء فى العزبة ، وسأعطيك عشرين قرشاً فى اليوم » . ثم التفت إلى خالى وقال : « خذه عندك الليلة ، وأطعمه جيداً ، فقد هلك المسكين ، وفى الصباح تقدمه إلى استيفانيدس » .

وعندما قابلت استيفانيدس فى الصباح ، تبينت أن الخواجة جالانو قد قص عليه خبرى وأوصاه بى . .

كان شاباً لطيفاً من مواليد مصر ، يتحدث المصرية ويقرأ العربية ويكتبها كأنه عربى ، وكان آية فى الذكاء والطيبة والكفاية ، وكان خاله

« الخواجا » قد أقامه مديراً للعزبة ، وكانت تقع قريباً من بحيرة مريوط . أخذنى فى سيارته ، وملكنى الذهول وأنا أتأمل هذا الشىء الهائل الذى يسميه عزبة : مساحات شاسعة مزروعة فواكه من كل صنف ، ومئات الصفوف من شجيرات صغيرة قيل لى إنها عنب ، وحقل واسع مزروع قطناً وآخر قمحاً ، ثم مرعى فسيح تسرح فيه أبقار لم أر فى حياتى مثلها . .

وكان اسطفان — وهكذا كانوا ينادونه — يمر بى مسرعاً من جانب لجانب ، ويتحدث وأنا بالكاد أستطيع ملاحقته . ثم مضى بى إلى مجموعة من المساكن الجميلة تقوم فى أربعة صفوف . وقال إن هذه هى مساكن العمال ، وأعطانى مسكناً فى الدور الثانى من واحد منها . ثم مضى بى إلى موضع فى طرف الضيعة رأيت فيه أربع آبار أو خمساً . فقال : « هذا عملك : تعنى بهذه الآبار وتبنى لنا ستاً أخرى حددت مواضعها . . » . ثم أمر أحد مساعديه أن يأخذنى عنده إلى الغد ويسرع بإعداد مسكنى ، وقال إنه ينتظرنى فى الساعة السابعة من صباح غد عند موضع الآبار لأبدأ العمل . .

وشعرت بخيبة أمل كبرى : لقد عدت إلى العمل فى الآبار ! هربت منها هناك لأجدها فى انتظارى هنا ! محكوم على أن أقضى عمرى كله فى هذه الحفر ، كأننى ولدت للموت البطىء دفينا تحت سطح الأرض ..

وعدت إلى بيت زميل لى ثقيل القلب . وانتقلت مساء اليوم نفسه إلى مسكنى الجديد . فأحسست أننى ولدت من جديد : غرف جميلة نظيفة ناصعة البياض ، تضيئها مصابيح كهربائية ، تدير المفتاح فإذا بها تملأ البيت عليك ضياء . . وماء صاف كالبلور ينصب من الصنبور أنى شئت . . وفراش وثير وأثاث جميل ، ما كنت أحلم بمثله أبداً . .

أحسست كأنما كنت ميتاً فبعثت حياً ، أحسست أننى أعيش ، ومس قلبى — للمرة الأولى فى حياتى — فرح بالحياة وبشرها . . أحسست أنى إنسان ، وأن الحياة جديرة بأن تعاش ، وهان عندى العمل فى الآبار ،

ما دام هو سبيلى إلى هذا العيش الكريم . .

وبكرت فى الصباح لألقى اسطفان ، وفحصت أمامه بئرين واقترحت ما يصلحهما ، ثم ذهبنا فعاينا مواقع الآبار الجديدة . وانقضى اليوم وأنا فى عمل متصل مع الشاب اللطيف . ومضت الأيام بعد ذلك تترى . ووجدت معى زملاء طيبين سعداء فأشرقت نفسى . ورضى عنى اسطفان فمضى يصطحبنى معه فى كل عمل . .

كان مهندساً ممتازاً . كنا نسميه الباشمهندس . وتعلمت منه كثيرا من أصول البناء والمعمار. فلم أقتصر على الآبار. وزاد مرتبى إلى ثلاثين قرشاً فى اليوم ، ثم قدروا لى مرتباً شهرياً قدره عشرة جنيهات . وكتبت لأمى بما أنا فيه من السعادة ودعوتها للعيش معى فأقبلت . وطوتنا السعادة فى أعطافها ، ومضت الأيام رخاء . .

وفى ذات مرة قال لى اسطفان : أليس عاراً على شاب ذكى مثلك أن يظل أمياً لا يقرأ ولا يكتب؟ . .

فأخذت دروساً على شيخ . وما مضت أشهر حتى صرت أقرأ وأكتب ، وانفتح أمامى باب القراءة الواسع ، فأقبلت أقرأ الصحف والمجلات والكتب وكل ما تصل يدى إليه ، ورأيت أننى أمضى إلى عالم جديد جميل ، وأننى أصبح إنساناً أحسن يوماً بعد يوم . .

وكانت تسكن الدور الأرضى فى بيتنا امرأة كريمة تسمى نفيسة . كان زوجها يعمل فى الضيعة ثم مات فى حادث . فعرضوا عليها أن تبقى فى الضيعة وتقوم بغسل الملابس ويجرى عليها راتب زوجها . فقبلت. وكان لها ابن صغير وحيد اسمه « سلامة » ، كان قطعة من الظرف وخفة الروح . وكان فى السادسة من عمره فتعلقت به وتعلق بى حتى صرت لا أخطو خطوة إلا وهو معى ، فإذا عدت إلى البيت مع الليل تعشى معى وأمى وبقى معنا يلعب ويصخب ، وأنا أقرأ وألاحظه كأنه ابنى ، حتى إذا تعب وأدركه النوم أخذته أمى إلى فراشها ، أو نام

على أريكة فى غرفتى ، لكى أستمتع بصحوه فى الصباح ، وأستمع إلى هذه العبارات اللطيفة التى لا تصدر إلا عن الأطفال فى سنه . .

وأخذنى اسطفان لأعمل معه فى عمارة كبيرة كان الخواجا يبنيها فى الإسكندرية . هناك أصبحت مساعداً للباشمهندس ، فعلمنى الرسم والقياس واستعمال أدوات المهندسين . وصار إذا تغيب قمت بالعمل مكانه ونفذت المشروع كما هو فى الرسم ، فلما فرغت العمارة أعطانى عشرين جنيهاً ، ثم مجموعة من رسوم المبنى وأعطانى إياها وقال لى : أنت الآن أكثر من معلم : أنت مهندس . .

* * *

وفى ذات يوم عدت من الإسكندرية حوالى الحادية عشرة مساء ، وسألت عن « سلامة » قبل أن أجلس إلى مائدة الطعام ، فقالت لى أمى إنه يلعب مع الأطفال . فإذا نحن فى هذا سمعنا ضجة وأصواتاً ووقع أقدام تجرى ، فنظرت من النافذة وسألت ، فقالت امرأة تعدو : سلامة! قلت مترعجاً : ماله ؟ فلم ترد : فهرولت إلى الطريق وتبعت الناس . وعلمت فى الطريق أن سلامة وقع فى بئر مهجورة فى طريق الضيعة كانوا يسمونها « الغولة » لرهبتها . ووصلت إلى الموقع فإذا الناس حول الحافة فشققت طريقى بينهم ، ونظرت فى البئر وسألت :

— أنتم متأكدون أنه وقع ؟

فقال غلام وصوته يشرق بالبكاء والفزع :

— نعم . . كنا نلعب هنا ، وقال لنا إنه مثلك مهندس آبار ، ثم نزل بضع درجات ليرينا مهارته ، فزلقت قدمه ووقع . .

وانبطحت على الأرض ، وتدليت فى البئر قدر ما استطعت وناديت : سلامة ! سلامة !

ومن قاع البئر سمعت صوتاً ينادينى ، ولكن ضجيج الناس كان عالياً فصرخت فيهم فسكتوا ، وناديت مراراً أخرى ، وسمعت الصوت

الصغير ينادي أمه ويناديني ويبكي .

وهذه الآبار – كما قلت لك – ليست مجرد حفر ، فإننا نبني أسفلها عند رأس الماء مصطبة من الحجر يقف عليها عمال التنظيف أو الإنقاذ . ثم طلبت قنديلا علقته في ذراعي ، ومضيت أنزل سلالم البئر ، ثم وجدت السلالم تنتهي بعد نحو متر ونصف ، فعلمت لماذا سقط المسكين ، فصعدت وطلبت حبلا ، فجاءوني به ، وثبتُّه على الحافة ، وربطت القنديل على صدري . .

فإذا أنا أهم بالنزول إذا أمي مقبلة تصرخ وتستغيث ، ثم أنشبت يديها في عنقي وأخذت تولول وتبكي وتقسم أنني لن أنزل أبداً ، وعبثاً حاولت التخلص منها ، فقد كانت يداها قد ماتتا حول عنقي ، وقالت إن الغلام مات من زمن ولن تتركني أموت أنا الآخر . . وحاولت إقناعها بأنه حي وأنني سأعود به ، ولكنها كانت قد جُنت ولم تعد تفهم شيئاً ، وانضم إليها نفر من الرجال فأحاطوا بي جميعاً وحملوني وأنا أحاول الفكاك منهم ، وأخذ واحد منهم الحبل والقنديل وجرى قائلا إنه من الجنون أن أقتل نفسي على هذه الصورة . .

ويبدو أن أحدهم ضربني على رأسي ضرباً متتابعاً ، لأنني لم أعد أرى شيئاً ، وأفقت بعد ساعات فوجدت نفسي على الأريكة في بيتي ، فنهضت أتسحّب مخافة أن تستيقظ أمي ، وأخذت أدواتي ومصباحي ومضيت بمفردي نحو البئر . .

كانت الساعة الرابعة والنصف صباحاً ؛ وثبتّ الحبل ، ومضيت أنزل في البئر حتى وصلت القاع ، وهناك وجدت الغلام منطرحاً : نصفه الأعلى على المصطبة وقد تدلت رجلاه في الماء . جسست نبضه فإذا المسكين جثة هامدة .. ساعتها شعرت بغضب لا أنساه عمري . . فهذا الغلام لم يمت غرقاً ولكنه مات فزعاً ، لقد جاهد في البقاء على المصطبة قدر استطاعته ، حتى خارت قواه فارتمى وتدلى نصفه الأسفل في الماء ومات . كان حيًّا عندما حاولت إنقاذه ، ولو تركتني أمي لانتشلته وانتهى الأمر بسلام . . .

وحملت جثمان الصغير بذراع ، ومضيت أتسلق بيد واحدة وقد

ثبتّ قدمى فى الجدران . ووصلت إلى الأرض بعد ساعة أو نحوها وأنا خائر القوى ، ووسدته الثرى وجلست أمامه أبكى مصيبتى فيه . وأقبل واحد من الخفراء . ثم تجمع الناس حولنا ، وبعد قليل أقبل اسطفان ورآنى على هذه الحال ؛ وقصصت عليه الأمر ، فأخذ بذراعى ومضى بى إلى بيتى يعزينى ويواسينى .

لم أحضر جنازة الغلام ولا دفنه ، إذ لم أكن أستطيع ذلك ، فمضيت مع اسطفان إلى الإسكندرية طول اليوم . وعندما عدت فى الليل لم أطق النظر فى وجه أمى . إنها هى التى قتلت سلامة . . كان دافعها الخوف علىّ ، ولكنها قتلت الغلام على أى حال .

وهبط ستار كثيف بينى وبينها . لم أعد أتحمل رؤيتها أو سماع صوتها ، فضلا عن المقام معها . كنت أخرج إلى العمل مع البكور ، وأعود مع الليل فآوى إلى غرفتى دون أن يدور بينى وبينها أكثر من تحية مقتضبة . .

وشعرت بضيق شديد جعل يتزايد يوماً بعد يوم . كرهت الضيعة وما فيها ، وأصبحت أقضى الليالى المتوالية دون نوم ، حتى خفت على نفسى . ومضت أمى تشكونى للجيران والجارات فأخذوا يلوموننى لوماً شديداً . . أما أم سلامة ، فقد نزل بها ذهول وصمت ، وما رأتنى مرة إلا أطالت النظر إلىّ دون أن تقول شيئاً ، ثم أجهشت فى البكاء . .

فلما طال الأمر ، نظر إلىّ اسطفان وقال :

— حالك لا تعجبنى يا محروس . . أنت لست مسئولا عن موت هذا الغلام ، فلماذا تعذب نفسك على هذه الصورة ؟

— كان من الممكن أن أنقذه ياباشمهندس ، لولا أمى . .

— وما ذنبك أنت ؟

— أنا وأمى واحد ، وأنا الذى أتيت بها إلى هنا . .

— وماذا يجدى الحزن الآن ؟ ما وقع وقع ولا حيلة لك فى إصلاحه . .

ـ تلك هي مشكلتي . لو كانت هناك أى وسيلة لإصلاحه لما ضاقت الدنيا فى وجهى على هذه الصورة .. إننى أرى صورة سلامة كلما أغمضت عينى . كلما رأيت أمى بدا لى هول جريمتها .. أمى قاتلة ياباشمهندس ، ولا أطيق أن أعيش معها .. قتلت طفلا مسكيناً ..

ـ لا تبالغ يامحروس .. إنها لم تقتله .. لقد فعلت ما كانت تفعله أى أم فى مثل هذه الظروف : حالت بينك وبين الموت ..

ـ باشمهندس ! ماذا كنت تفعل لو كنت مكانى ؟

ـ كنت أعيد أمى إلى قريتها بعض الوقت ..

ـ هذا لا أستطيعه .. لا أستطيع إخراجها من بيتى .. ثم إن أخى فى القرية لا يريدها ..

ـ إذن ما العمل ؟ .. لابد من حل . لن تستطيع الاستمرار طويلا على هذه الصورة ..

فظللت لحظة صامتاً ، ثم وضعت يدىّ على كتفيه ونظرت إليه طويلا ، ثم قلت :

ـ الحل أن أذهب من هنا . انتهت سعادتى فى هذا المكان وماتت مع سلامة فى البئر الملعونة !

فابتسم متعجباً ، وهز رأسه وقال :

ـ هذا جنون .. أنت لم تبدأ هنا بعد .. المدة الماضية كانت مدة تعلم ، وأنت الآن أهل لعمل أكبر ومسئوليات أكثر .. من أيام كنت أتكلم مع الخواجة فى أمر تعيينك مكانى هنا ، لكى أنتقل أنا إلى الإسكندرية وأشرف على المبانى التجارية .. الخواجة هو الذى اقترح ذلك .. أتدرى ما معنى ذلك ؟ معناه أن راتبك سيرتفع إلى أربعين أو خمسين جنيهاً فى الشهر ، وستأخذ دارى هنا بما فيها ..

فهززت رأسى وقلت :

ـ ليتنى أستطيع قبول ذلك .. أريد أن أبتعد عن هنا عامين أو

ثلاثة .. أريد أن أذهب إلى حيث لا أرى أمي ولا البئر ولا الأماكن التي كان سلامة يلعب فيها .. إنني لا أنام ياباشمهندس ولا آكل .. شيء انهدم داخل كياني ، ولا بد أن أعيد بناءه بعيداً عن ذكريات المأساة . .

— وإلى أين تريد أن تذهب ؟ . .

— إلى آخر الدنيا . . إلى مكان لا تستطيع أمي الوصول إليه . . ساعدني ياباشمهندس ، أرجوك . . أنتم تعرفون الدنيا أكثر منا . .

— تريد أن تهاجر مرة أخرى ؟ . .

— نعم أريد أن أهرب من نفسي ومن أمي . . ومن سلامة . .

. وافترقنا . عدت إلى عملي وشعرت كأن حملا ثقيلا قد انزاح عن صدري . كنت واثقاً من أن اسطفان قد فهمني . ولم نتحدث في الأمر أياماً كثيرة ، وفي ذات مساء كنت أجلس معه في مقهى على شاطئ البحر صامتاً ، فأمسك بذراعي وقال :

— تسافر إلى المكسيك يا محروس ؟

— المكسيك ؟ . . هذه بلد ؟ . .

— بلد واسع عظيم . . مساحته أكبر من مساحة مصر ثلاث مرات أو أربعاً . .

— وبعيد ؟ . .

— جداً . . بيننا وبينه بلاد وجبال وبحور . . .

— أي أن أمي لن تستطيع إدراكي هناك ؟

— ولا الشيطان . .

— هل لك معارف توصيهم بي هناك ؟ . .

— أمي بالذات . .

— إذن سأذهب إلى هذا البلد . .

— ولكن هناك حروباً وثورات . .

— لايهم . . لو بقيت هنا فصيري إلى الجنون . .

ـ وتعود إلينا بعد سنتين ؟ . .

ـ أعدك بذلك . .

وتصافحنا . . وابتسمت ، للمرة الأولى من شهور . .

* * *

رسمت خطة السفر مع اسطفان وكيل صاحب الضيعة اليونانى . وعارض الخواجة صاحب الضيعة أول الأمر فى المشروع ، ولكن اسطفان ما زال به حتى رضى . وكان لاسطفان صديق ربان لسفينة تجارية يونانية تعمل بين موانى اليونان وأمريكا ، فكلمه فى أن يأخذنى عاملا أو بحاراً .

كنت إذا ذاك فى الثانية والعشرين من عمرى ، ولكن تجارب أيامى جعلتنى أكبر من سنى بكثير . وكانت صحبتى لاسطفان قد أوسعت ذهنى وقلبى وحببت إلىّ المغامرة والمخاطرة ، فلم يعد لى بعد ذلك تفكير إلا فى ذلك البلد الكبير ، القريب البعيد الذى سأمضى إليه ، المكسيك . . وخفّت عن نفسى هموم أمى وسلامة .

وكان لدىّ ٢٥٠ جنيهاً ادخرتها ، فأعطيت مائتين منها لاسطفان لكى يعطيها لأمى بعد سفرى ، لتشترى بها فداناً فى بلدنا وتعيش فى سلام . وكانت امرأة حازمة واعية ، تستطيع السير وحدها فى الحياة معتمدة على هذا الملك الصغير .

وفى طى الكتمان مضيت فى الاستعداد فلم تعلم أمى بشىء ، ولا لاحظ خالى شيئاً . واستخرجت جواز السفر ، وتأشيرة دخول وهجرة إلى المكسيك . وفى العاشر من نوفمبر سنة ١٩٣١ ، وقفت على ظهر باخرة البضائع اليونانية « كرينيا » ، أنظر إلى الإسكندرية وهى تبتعد عنى رويداً رويداً . .

كان ضباب البكور يغشاها ، وأشعة الشمس تمتد خيوطاً من ذهب رقيق لتوقظ عروس البحر الأبيض المستسلمة للنعاس ، وطيور البحر

تحوم وتدور وتتنادى ، ثم تتبع الباخرة حتى ابتعدت عن الشاطئ . وشيئاً فشيئاً اختفى الميناء الجميل وراء الأمواج .. وانحدرت من عيني دمعات . ولكن فرحاً عظيماً كان يملأ قلبي ...

وفجأة صاح صوت :

- أنت ، هناك .. إلى العمل ! ..

نظرت خلفي فإذا بالخواجة ديمترى — رئيس عمال المركب ، وكانوا قد قدموني إليه قبل أسابيع — يرمقني بنظرة حازمة ، فاستدرت إليه وقلت :

- لا مؤاخذة يا خواجة .. فراق الوطن مر ..

- أنا أعرف ذلك ، ولكن وقوفك هنا لن يغني عنك شيئاً . لن يسري عنك إلا العمل ، اتبعني ..

وسرت خلفه . فهبطنا دورين ، ثم وقف عند رأس سلم حلزوني يهبط إلى قاع المركب ، وقال :

- النظام هنا أن يتدرب البحار على كل أنواع العمل في المركب ، بادئاً بالأفران . انزل من هنا ، ستجد رئيس الأفران في انتظارك تحت . إنه مصري مثلك ، وسيسر برؤيتك ..

ومضيت أهبط السلم الحديدي الدائر . أحسست بقلبي يهبط ، عدت إلى الحفر والظلام مرة أخرى ! لا فرار لي من هذا أبداً . حتى على المركب تنتظرني هذه القبور . هل من المعقول يا ربي أن أولد لأعيش عمري كله تحت الأرض ؟ .. وأين أدفن إذن عندما أموت ؟ ! ..

واستقبلني وهج الأفران الرهيبة فعدت إلى نفسي . وجدت المعلم خضر في انتظاري ، كان عملاقاً ضخماً حازم الوجه كأنه تمثال شيخ البلد . كان حليق الرأس نافذ النظرات مثله ، وكان عاري الصدر يأتزر ببنطلون ، ومثله كان كل العمال . سلمت عليه ، ودون كلمة ناولني جاروفاً وقال : تعمل على الفرن رقم ٤ . أفراننا غيلان فحم ، لا تتوقف عن العمل أبداً . المركب سيزيد السرعة الآن ، ولابد من تسخين هذا

الفرن إلى ٤٠٠ درجة . انظر إلى هذه الساعة . المؤشر على ٢٢٠ ولابد أن يدور إلى ٤٠٠ ويستمر على ذلك . .

ونظرت إلى الساعة وإلى الفرن ، وخلعت جاكتى وقميصى ، وأخذت ألقى الفحم فى التنور . وكان زملائى يغنون . فمضيت أغنى معهم . .

كان زملائى على المركب خليطاً غريباً : هنوداً ، وعرباً ، وسوداً ، ويونانيين ، ومالطيين ، وقبرصيين ، وإيطاليين ، وسوريين .. كان فيهم جميعاً عنف وجفوة ، ولكنهم كانوا طيبين ظرفاء .

كنا نتحدث لغة غريبة ، فيها من كل لغة لفظ ، وكانوا يسمونها إنجليزية . تعلمتها خلال أيام . ولم يكن ذلك بالأمر العسير ، لأن موضوعات الحديث كانت لا تخرج عن الطعام والخمر والنساء . كانوا يعطوننا أربعة شلنات فى اليوم يصرفونها لنا جملة عندما يرسو المركب فى ميناء ، فيأخذ كل منا عشرين أو خمسة وعشرين شلنا . . وننزل إلى الشاطئ ، فيسرع زملائى إلى بارات وأماكن يعرفونها فلا يعود أحد منهم بشلن واحد . وأنا أيضاً أنزل إلى البر ، وأجتهد فى تدبير نفسى طول النهار . . بشلن واحد . .

ورغبت فى تعلم اللغة الإنجليزية ، فاشتريت من بيروت كتيبا يقول عنوانه إنه يعلمك الإنجليزية فى شهر بدون معلم ، وجعلت أقضى وقت فراغى فى هذا الكتاب .

وأرادوا نقلى إلى قسم شحن البضائع وتفريغها ، ولكن المعلم خضر تمسك بى ، وزادوا أجرى شلنين ، فبقيت أعمل فى المواقد حتى عبرنا المحيط الأطلسى ، وأرست بنا المركب فى ميناء نيويورك ، وكنت قد قرأت عنه كثيراً .

ونصحنى بعض زملائى أن أغادر المركب هناك ، فالحاجة إلى العمال — من أى صنف — كبيرة . مكثنا هناك ثلاثة أيام فى المنطقة الصغيرة المحيطة بالميناء . هناك قدمنى المعلم خضر إلى رجل سورى يعمل

مقاولا ، فعرض عليّ أن يستخرج لى إذن إقامة وتصريح عمل ، وقال إنه سيعطينى عشرة دولارات فى اليوم ؛ ولكن الحياة لم تعجبنى هناك . شعرت بخوف من ألوف الإيطاليين والصقليين الذين كانوا يعمرون منطقة الميناء .

ولما عرف ديمترى أنهم يفاوضوننى لأترك المركب ، عرض عليّ أن أكون رئيس عمال الشحن بأجر قدره جنيه إنجليزى فى اليوم ، فقبلت ، وأقلعنا من نيويورك . وقد اشتريت من هناك قلم حبر وكتاباً مصوراً ، فلما فتحته فى المركب لأقرأه وجدته مجموعة صور نساء عاريات ، فبعته لأحد زملائى بضعف الثمن الذى اشتريته به .

ورآنى ديمترى منهمكاً فى استذكار كتاب اللغة الإنجليزية ، فقال لى إننى لن أحتاج إلى ذلك ، لأن الناس فى المكسيك يتكلمون الإسبانية ، وهى لغة أخرى تختلف عن الإنجليزية تماماً ؛ ولم أكن سمعت بهذه اللغة من قبل هذا أبداً .

وبعد زوابع وأعاصير وصلنا إلى البحر الكاريبى ، أعاذك الله من أعاصيره ، فى هذا البحر وأهواله هان عليّ الجنيه اليومى الذى أغرونى به لأستمر فى العمل على هذا المركب ، بل هانت عليّ الحياة . .

وعندما دخلنا خليج المكسيك دهمنا نوء عاصف دفع المركب دفعاً خطيراً نحو مرفأ اسمه كُواتزاكوالكُوس ، وعلى مرأى من ذلك المرفأ تعطل المركب تماماً ، فجروه إلى الشاطئ ، ونزلنا إلى البر ، فإذا نحن فى مكان لا يوصف إلا بأنه جهنم : بيتان أو ثلاثة والباقى أكواخ يسكنها ناس معظمهم هنود مكسيكيون .

ومن اللحظة الأولى تبينت أن المكان تسيطر عليه عصابات من القتلة والسفاحين ، ولا بد أن تؤدى لهم ضريبة لكى يأذنوا لك بالبقاء على الشاطئ ، فعدت إلى المركب .

وبعد يومين جمعنا ديمترى ، وقال إن خلل المركب كبير ولا يمكن

إصلاحه فى هذا الموضع ، ولا بد من سحبه إلى ميناء سانتاكروز ، وهناك سيحتاج إلى ثلاثة أشهر للإصلاح . ولهذا فإن ربان السفينة قرر الاستغناء عن كل العمال عدا اليونانيين ، وأنهم سيصرفون لكل واحد منا خمسة جنيهات تعويضاً . .

وحاول بعضنا أن يحتج ويعتصب ، ولكن الربان كان قد سلح اليونانيين وأوقفهم على المركب مستعدين للقتال . ولم يكن هناك قانون ولا كانت معنا عقود ، فرضخنا للأمر الواقع . وأنزلونا إلى البر ، سبعة وعشرين رجلا ، بعد أن أعطونا مكافآت وشيئاً من الزاد ، ثم ابتعدت السفينة عن الشاطئ يجرها لنشان بخاريان .

وعلى الشاطئ وقفنا والحسرة تملأ قلوبنا ، وقد اجتاحنا شعور بأننا شرذمة حكم عليها بالموت ، أو حطام ألقت به الأمواج على الشاطئ . .

وتزعمنا رجل هندى اسمه باندا ، وكان لى صديقا ، فقال : إن سلامتنا مرهونة باتحادنا ، فلا حكومة هنا ولا أمان .

واقترح أن يشترى كل منا سلاحاً ، وأن نسير كلنا جماعة واحدة مسلحة ، وأنه كان جندياً فى الجيش البريطانى ويعرف كيف يحمينا .

وتبعناه طبعاً ، فسرنا حتى دخلنا البلد ، واحتللنا باراً حقيراً ، ومضى هو ليساوم فاشترى لكل منا « طبنجة » ورصاصا ، واكترى لنا كوخين ، عشنا فيهما أياماً كأننا مواش فى طريقها إلى المذبح ، فهى تنتظر الموت فى أى لحظة . .

وسرى عنا الرعب بعد أيام ، واعتدنا حياة الشقاء هذه ، والإنسان يتعود بسرعة أى لون من ألوان الشقاء إذا لم يكن له من ذلك مفر . واتصل بعضنا ببعض الهنديات وتزوجوهن قبل أن تمضى عشرة أيام ، وانفصلوا عنا . واشترك الهندى باندا مع أربعة من أبناء جنسه ونفر من المكسيكيين ، وبدأوا تجارة تهريب جعلوا مركزها البار القذر الذى كنا نجلس فيه ، وانفصلوا عنا هم الآخرون . .

وما استتم للشهر حتى وجدت نفسى مع ثلاثة فقط فى الكوخ الحقير . كان واحد منهم – لحسن الحظ – سوريًّا . فتعزيت بصحبته وصرنا لا نفترق . ثم انتقلنا معاً إلى نزل . ليس أحسن من الكوخ ، تديره امرأة ضخمة مرهوبة الجانب فى الناحية كلها . وقد عرضت علينا هذه السيدة أن تتوسط لنا لنحصل على إذن رسمى بالإقامة والعمل مقابل خمسة جنيهات لكل منا ، وبالفعل حصلنا على هذه الأوراق ، وزال خوفنا من أن تقبض السلطات علينا .

ثم تعلقت السيدة بصاحبى الباقى ، وبدأت بينهما حكاية طويلة ، وأحسست أن بقائى فى النزل لم يعد مرغوباً فيه . فبدأت أبحث عن مخرج.

ثم سمعت أنه غير بعيد من كواترا كواالكوس هذه تقوم مدينة صغيرة أسمها « سابولا » آهلة عامرة يحتاج أهلها إلى بنّائين . فعولت على الانتقال إليها . وكان الناس إذ ذاك لا يسافرون إلا قوافل فى حراسة فرق من البستوليروس (أى الضاربين بالرصاص) . وكانت السيدة صاحبة النزل تشترك فى تنظيم هذه القوافل مقابل مال معلوم يدفعه كل مسافر ، فانضممت إلى قافلة ، ووصلنا سابولا على ظهور الخيل يحيط بنا ذلك الحرس .

كانت سابولا أقرب إلى مفهوم البلدان من ذلك الركن الخرب الذى كنا فيه . كانت مركزاً زراعيًّا غنيًّا يسيطر عليه نفر من الإقطاعيين يتناوبون حكمه كأنهم أمراء مستقلون .

كان البلد يتكون من ميدان صغير تقوم فيه كنيسة إلى جانبها دار الحكومة ويسمونها الكابيلدو ، وفى مواجهتها قصران كبيران هما أشبه بالحصنين ، يملك أحدهما حاكم البلد فى تلك الأيام السنيور ريباس دى موفتويا ، ويملك الآخر الحاكم السابق السنيور ڤيسنتى جارتيا بيريرا ، وكانا متنافسين لا يفتر القتال بينهما ، ولكل منهما جيش صغير من البستوليروس يسمونه البورّا أى الهراوة . ويتصل بالميدان شارع

طويل ، على جانبيه مبان متوسطة الحجم ، يملك نصفها هذا ونصفها ذاك . وحول الميدان والشارع مجموعات من مساكن الأهلين . كلها فقير حقير . وحول البلد من كل ناحية مزارع واسعة ممتدة . يعمل فيها الجنود رقيقاً . .

كان سيد البلد — عندما وصلنا إليها — السنيور موفتويا . وكان من أنصار رئيس المكسيك إذ ذاك فرانسيسكو ماديرا . وكان رجاله وأنصاره كثيرين يسيطرون على كل شيء . وقبل وصولنا بعام كان الحكم في يد منافسه السنيور بيريرا . وكان من أنصار دكتاتور المكسيك المشهور پورفيريو دياث . وعندما سقط پورفيريو سقط معه أنصاره . ومنهم بيريرا . ولكن بيريرا هذا كان رجلا قوياً جريئاً . فلم يستطع موفتويا انتزاع كل شيء من يده . وظلت الحروب بينهما سجالا . فما كان يمر يوم إلا وتدور فيه معركة يموت فيها من أهل البلد من حان حينه .

وكان من المناظر المألوفة أن تدخل عصابة مسلحة المقهى الذى كنا نجلس فيه . فتأخذ رجلا بعينه من خصومها . فتصرعه بالرصاص أمام الناس . فلا يزيد الجالسون فى المقهى عن النظر إلى القتيل لحظة . ثم مواصلة الحديث واللعب والشراب كأن شيئاً لم يحدث . . .)

ولم يكن قد بقى معى من النقود إذ ذاك إلا نزر ضئيل . فاكتريت غرفة صغيرة علقت على نافذتها لافتة تقول إنى بناء . وبدأت أقوم بأعمال قليلة يؤجروننى عليها بعدد من أرغفة الذرة الصغيرة التى يسمونها هناك بالتورتيا ، وقطعا من الجبن أو بضع بيضات . وعشت على هذا أسابيع ، وكنت أدهش كلما صحوت من نومى كل صباح فوجدت نفسى لا أزال على قيد الحياة !

وفى ذات يوم كنت أشرب فنجاناً من القهوة فى المقهى . ومن حولى ناس كثيرون يشربون الخمر المكسيكية المعرفة بالتكيلا ، إذ دخل نفر من أعوان الحاكم موفتويا وسألوا عنى بالاسم ثم اقتادونى إلى دار الحكم

(الكابيلدو) ، وأدخلونى غرفة واسعة مظلمة وجدت فيها ستة أو سبعة من أمثالى ، ثم أغلقوا الباب وتركونى . .

ظللت هناك من الصباح إلى المساء وأنا لا أدرى فيم أتوا بى ولا ما سيجرى علىّ . . ولم يتملكنى الخوف ، فالحقيقة أن حياتى كانت إذ ذاك من التفاهة والشقاء ، بحيث كنت أرحب بالموت . وكان إلى جانبى رجل جالس القرفصاء محتبياً باللباس المكسيكى المعروف بالبونشو ، ويغطى رأسه بقبعة هائلة من الخوص . وسمعت هناك أن صاحبنا الهندى باندا قد قتل ، فشرعت أقرأ الفاتحة على روحه دون وعى منى . . فرفع ذلك القابع إلى جوارى رأسه وقال : ماذا تفعل ؟ . .

قلت : أصلى على صاحب لى قتلوه . .

فقال بكل هدوء : صلّ على نفسك أيضاً ، فإن مصيرك ليس أحسن من مصيره !

ثم أمال رأسه واستند على ركبتيه تحت القبعة كما كان، ولم يتحرك غير هذه الحركة طول النهار . .

وقرب الغروب ، دخل جندى ونادانى ، فقمت أتبعه وأنا أتشهد على نفسى ؛ وسار بى إلى باب أوقفنى عنده وقال : لا تتحرك من هنا حتى ينادوك . . .

ثم مضى فجلس على الأرض ، ووضع مسدسه إلى جواره ، وأخرج شيئاً أظن أنه فول سودانى ومضى يأكله كأنه فأر . .

وبعد قليل فتح الباب وأمرت بالدخول ، فوجدت رجلا يلبس زياً عسكرياً جالساً إلى مكتب ، ومن حوله نفر من أصحابه وهم يضحكون .

وأمرنى جندى بأن أقف مؤدباً أمام « السنيور الوثيل » أى مدير مالية البلد . وقد علمت بعد ذلك أن لفظ الوثيل أصله عربى ، هو « الوزير » . . وكان هذا الرجل — واسمه خافييرناردو — اليد اليمنى للسيد موفتويا . . فنظر إلىّ من وراء شاربه الضخم وسألنى عن السبب

فى علم قيد اسمى فى دفتر المقيمين فى البلد ، وقال إن عقوبة ذلك هى الإعدام ، لأننا فى وقت حرب وأوامر السيد موفتويا مشددة بأن كل غريب لا يقيد اسمه فى سجل السكان يضرب بالرصاص فى الحال . .

فقلت له : إننى لم أعلم بأمر هذا السجل إلا الساعة ، وإنى مستعد لقيد اسمى فيه . .

فقال بعد أن فتل شاربه :

ـ أنت بنّاء ، أليس كذلك ؟

ـ نعم . .

ـ وتمارس المهنة دون تصريح ؟ . .

ـ معى تصريح من عمدة كواتزاكوالكوس . . .

ـ أرنى . .

فناولته الورقة التى حصلت عليها هناك ، فنظر فيها وقال : مزورة.. ثم مزقها ، وألقى بها على الأرض . .

وسادت لحظة صمت ، ثم قال واحد من الجالسين :

ـ لا داعى لإعدامه ، يبدو أنه لا يعرف القوانين .

فقال ناردو :

ـ لا أدرى كيف سمع السنيور موفتويا بأمرك . قالوا له إنك مهندس معمارى ، فما رأيك فى أن نخفف العقوبة عنك إلى عشر سنوات تعملها فى خدمة الحكومة دون مقابل ؟ . .

ـ إننى لست مهندساً ، إننى بنّاء ، ويستوى عندى أن تقتلونى أو تدعونى أعمل لكم عشر سنوات أو عشرين سنة . . الأمر أمركم . .

ـ لا تنكر أنك مهندس ، فذلك لا يعفيك من العمل . انصرف الآن ، وعد إلىّ غداً فى الساعة العاشرة لتبدأ العمل . .

وفى صباح اليوم التالى كنت عنده . كان فى الغرفة وحده ، وأدهشنى أن وجدته فى غاية من اللطف معى . دعانى إلى الجلوس بجانبه ، وقال لى:

ـ اسمع يا هذا ، إن السيد موفتويا يريد أن يبنى بيتاً لابنه الصغير خوانيتو ، وقد بحث عن معمارى فدلوه عليك ، وقد تحدثت فى أمرك معه ، فقال إنه مستعد للعفو عنك وإعطائك إذنا حقيقياً بالإقامة وأوراق جنسية مكسيكية ، إذا أنت بنيت له البيت . .

وذكرت وهو يتكلم أنى أتيت معى برسوم البيت الذى بناه اسطفان فى الإسكندرية ، فقلت :

ـ يريد أن أبنى له مثلا بيتاً حديثاً من أربعة طوابق فى كل طابق مسكنان ؟ . .

ـ الحقيقة أنه كان يريد قصراً ، ولكن فكرتك أحسن ، لأنهم ـ فى هذه الحالة ـ يستطيعون تأجيره . .

ـ أظن أن هذا أوفق . .

فضحك وقال :

ـ أنت ذكى يا هذا . . تعال معى . .

وأخذنى إلى حيث قابلنا السيد الكبير ، فتفضل وأصدر أمره بالبدء فى العمل . وخرجت فى صحبة ناردو لنرى الموضع ، وبعد أن عايناه أخذنى جانباً وقال هامساً :

ـ اسمع . . إن هذا الحمار ـ يعنى السيد موفتويا ـ لا يفهم شيئاً ، وأنا أعمل له كل شىء ، وابنه خوانيتو هذا طفل فى السادسة من عمره . تصور أنه كان يريد أن يبنى قصراً لطفل ! المهم ، ستبدأ العمل وسأصدر أمراً بالعفو عنك ، وأعطيك إذن الإقامة ، ولى عليك شرط : هو أن توقع كل كشف حساب أرسله إليك دون مناقشة . .

وأومأت بالإيجاب ، فقد كنت فى يده يستطيع أن يفعل بى ما يريد . ولم يكن فى استطاعتى أن أعارض ، فإن موتى لن يكلفه إلا إخراج مسدسه . ثم قلت :

ـ ولكنى لا أملك شيئاً ، أقصد ليس معى ما أتقوت به ، ولا

ما أدفع به إيجار غرفتي . .

— سأعطيك كل يوم ٥ بيو (كانت قيمتها إذ ذاك نحو ٢٥ قرشاً) .

— أشكرك . . سأبدأ العمل في رسم المشروع من غد . .

— أسرع بقدر ما تستطيع ، ولا تنس ما شرطت عليك . .

* * *

وأطلعته على الرسوم بعد أسبوع ، فأخذ يتأملها واحداً واحداً ؛ ثم نظر إلىّ وقال :

— ألم أقل لك إنك مهندس ؟ أقسم لك إنك تخرجت من لندن أو باريس ! هذا شيء لا يعمله إلا مهندس عظيم . . من الآن فصاعداً سنعمل معاً . سأسجلك في الدفاتر مهندساً معمارياً ، وسأكلم الباترون (أي الرئيس ، ويريد به السيد موفتويا) لكي يعينك مهندساً للبلدية.. أنت منجم عظيم . .

وفهمت ما يريد : منجم يستغله هو ! وبلعتها وابتسمت ، فقد كنا في أيام لا يطلب الإنسان فيها شيئاً إلا السلامة . وأعطاني أربعين هندياً ليعملوا معي . ومضيت إلى الموقع ، وأخذنا نعمل . حفرنا الأرض وألقينا الأساس ، وأخذ البناء يعلو . كنت أسير على الرسم كأنه كتاب مقدس ، وكنت أسرع في العمل مخافة أن يطلبوا تغييراً أو تعديلا فلا أستطيع إدخاله . لم يكن لي مفر إذ ذاك من أحد أمرين : إما أن أظل مهندساً معمارياً أو يرموني بالرصاص . .

وبعد شهور أربعة كنا قد وصلنا إلى الدور الرابع . ومر بنا الباترون في صحبة ناردو ، وتفقد العمل فسر بما رأى سروراً عظيما ، وزادوا أجرى إلى ١٠ بيو ، كنت أحتفظ لنفسي باثنين منها ، وأوزع الباقي على العمال ، لأن المساكين لم يكونوا يتقاضون أجراً . كان هناك رجل معينا من قبل ناردو ، كان يقف طول النهار ومسدسه في يده لكي يصرع به أي عامل يتهاون أو يفكر في التمرد ، ووعدني موفتويا بأن يمنحني

٥٠٠ بيو عندما ينتهى البيت .

وانتهى البيت قبل أن يحول الحول . . لا أتذكر تماماً كم من الأوراق وقعتها أثناء ذلك ، مبالغها ألوف كثيرة صارت كلها إلى جيب ناردو .. من بينها كشوف بأجر يومى قدره ٣ بيو لكل عامل ، و ٥٠ لى ، أى ١٩٠ فى اليوم لم يكن يصلنا منها إلا عشرة . كان لابد أن أوقع خوفاً من المسدس الرهيب الذى يمسكه الحارس . .

وتسلموا البيت فى حفل كبير ، وصرفونا كما يصرف قطيع من الغنم : ولم يعطنى أحد المكافأة التى وعدونى بها ، وإنما أعطانى ناردو أوراق إقامة رسمية حقيقية ، ولم يعد يرانى بعد ذلك . أما الهنود فبعد أن انتهى العمل اختفوا دون أن يطالبوا بشىء .. حمدوا الله على النجاة من المسدس وصاحبه ، وعدت إلى حياة الخمول الأولى . .

* * *

ولكن اسمى طار بين الهنود . كانوا يعيشون فى محلات متواضعة حول البلد يزرعون الذرة والتيكيلا فى مزارع جماعية صغيرة . كان عمادهم على مياه الآبار الملعونة وحياة الظلام . .

وفى عصر أحد الأيام كنت عائداً من جولة بين مزارع الهنود ، ومعى بعض أرغفة الذرة الصغيرة المعروفة بالتورتيا ، وبضع بيضات هى أجر عمل يوم فى ثلاث آبار . .

فبينا أنا أدخل البلد سمعت صيحة أعقبتها صيحات ، وإذا الناس تجرى فى اتجاه واحد كأن شيئاً خطيراً وقع هناك ، فجريت معهم ؛ وفى أثناء الطريق عرفت ما حدث . .

لقد وقع خوان — أو خوانيتو ، كما كانوا يسمونه — الابن الوحيد للسيد موفتويا فى بئر فى مزارع أبيه فى طرف البلد . كانت بئراً رديئة خطرة تهدمت حافتها وسقط الكثير من جدرانها ، وطلبوا إلى إصلاحها فلم أستطع ، فنصحت بأن تغطى بالخشب والحجارة مخافة أن يقع فيها

أحد . ولكن الإهمال – أو القدر – حال دون ذلك، وذهب الصغير مع نفر من لداته يلعبون حولها ، فوقع المحذور . .

ووصلت إلى المكان فإذا جمع غفير حول الحافة ، ودفعت الناس حتى أفضيت إليها . هناك كان السيد موفتويا بنفسه وإلى جانبه ناردو وأم الغلام السيدة إميليا وقس القرية الأب إجناسيو ، وكانوا – جميعاً – يصرخون كالمجانين ويستحلفون من يستطيع أن ينزل ليخرج الغلام .. ولم يتحرك أحد ، لأن البئر – فى الحقيقة – كانت مخيفة ، وكان السيد موفتويا يبكي ويصرخ ويرفع يديه إلى السماء ، ويدعو .. الآن عرف الله ! .. ثم قال :

– إننى أعطى ألف بيو لمن ينزل ويأتى بالغلام ..

وكان غريمه السيد بيريرا قد حضر ، فقال له :

– أخرجها من جيبك وأعطها الأب إجناسيو قبل أن يغامر أحد بحياته .. إننى أعرفك ..

وبسرعة البرق أخرج ناردو ربطة كبيرة من الأوراق المالية ناولها للأب وقال : هذه فيها أكثر من ألف .. .

وحاول رجل أن ينزل ولكنه عاد مسرعاً ، وتبعه ثان وثالث ..

وصرخت السيدة إميليا قائلة :

– إننى أعطى البيت الذى بنيناه لمن يأتى بابنى ..

وتلفتت الوجوه ذاهلة ، ولكن أحداً لم يتحرك ، وقال بيريرا للسيد موفتويا : اكتب وثيقة بذلك وناولها للأب إجناسيو ..

ومضوا يبحثون عن ورقة وقلم .. وكنت أقف جامداً .. سبح فكرى إلى مزرعة الخواجة فى مصر ، وطفرت صورة سلامة أمام عينى ..

الآن أستطيع أن أنقذه ! الغلام الذى غرق فى مصر ، أستطيع أن أنقذه هنا . .

كانت معى أدواتى كلها ، فتقدمت مندفعاً وقلت فى عزم : سآتى بالغلام!

فأسرع بيريرا وقال : أيها الأب إجناسيو ، البيت ملك لهذا الرجل إذا أتانا بالغلام . .

فهز الأب رأسه مؤمناً ، وأقسمت السيدة إميليا على ذلك ..

وثبتُّ عارضة من الحديد على فوهة البئر . وربطت حبلى ، وعلقت قنديل الآبار على صدرى ، وقلت : سأجذب الحبل مرتين كل بضع دقائق لتعلموا أننى على قيد الحياة ، وإذا وجدت الغلام حياً فسأجذب الحبل عشر مرات . .

ومضيت أنزل على مهل . بعد نحو ثلاثة أمتار ، انتهت البطانة الحجرية إلا من قطع هنا وهناك . وبعد أمتار أخرى وجدت قصبة الحفر تنحرف إلى اليسار ، وهذا كثير فى الآبار ، وهو علامة سيئة. وشيئاً فشيئاً أخذ الظلام يسود ، وتلاشت أصوات الناس على سطح الأرض . وعندما صرت على نحو ٢٠ متراً نظرت إلى أسفل وناديت بأعلى صوتى : خوانيتو ! خوانيتو !

ولكنى لم أسمع شيئاً ، فنزلت نحو خمسة أمتار أخرى وناديت ، ثم وقفت أصغى . وإذا بصوت الغلام يجىء خافتاً ضعيفاً يستنجد بأبيه وأمه : بابا بيتو .. ! ماما بيتو .. !

ودق قلبى سريعاً ، وهتفت : سلامة !

ومضيت أنحدر مسرعاً حتى وصلت إلى جزء من الجدار كان لايزال مبطناً بالحجر ، فوضعت قدماً فى اليمين ، وأخرى فى اليسار ، وناديت : خوان ! خوانيتو !

فعاد صوت المسكين وهو يشرق بالدمع : بابا بيتو .. ماما بيتو ..!

ونزلت فى حذر بالغ حتى استقرت قدمى على المصطبة ، ونظرت على ضوء القنديل ، فإذا الغلام ملقى عليها ، نصفه الأسفل فى الماء .. كما كان سلامة ! ورفعته فى رفق ، فوضعته على عاتقى وطلبت منه أن يمسك برأسى . ولم أكن بحاجة إلى ذلك ، فقد أحاطت ذراعاه بعنقى فى عنف

حتى كاد يخنقني ، ثم جذبت الحبل عشر مرات . ومن العمق الذي كنت فيه ، ترامت إلى سمعي أصوات الناس تردد جماعة : واحد .. اثنان .. ثلاثة .. حتى إذا عدوا العشرة انطلقت صرخة هزت كياني هزاً ...

وبدأت أصعد في حذر ، فقد كنت أحاذر أن يقع الغلام ، خاصة وقد أحسست أنه — وقد اطمأن ، ودفئ جسمه على جسمي — استرخت يداه وثقلت رأسه على رأسي ، ونام ! فكان لابد أن أرفع يداً وأضعها خلف ظهره ، وأكتفي بيد واحدة للصعود ..

كنت أصعد شبراً في دهر طويل ، وتسلخت يدى وسال دمها على ذراعي فأبدلتها باليد الأخرى ، ومضيت أصعد وأصعد ، معتمداً على قدمي وذراع واحدة .

وسقط القنديل وأصبحت في ظلام دامس ، ولكني مضيت : أضع رجلا في الحائط ، حتى إذا ما تأكدت من أن موضعها ثابت رفعت الأخرى ، وتشبثت بالحبل وجذبته لأصعد خطوة .. وهكذا ..

ووصلت إلى قرب الحافة ، وسمعت الأصوات ، حتى إذا صار رأسي والغلام على مستوى الأرض ، انقضت الأم فاختطفت ابنها فاضطرب توازني وكدت أهوى إلى القاع ! ولكني تشبثت وصعدت ، ثم جذبني الناس ووقفت بينهم لا أكاد أسمع شيئاً مما يقولون ..

كان رأسي يدور وجسمي يتهافت ضعفاً .. وهجم على السيد موفتوياً يعانقني ، بينما كانت دموعي تملأ عيني : لقد أنقذت سلامة ! بعد أربع سنوات عدت به حياً !!

ومد الأب إجناسيو يده بوثيقة البيت قائلا :

— بوركت يابني وبورك لك في بيتك .. بيدك بنيته ، وهو الآن لك !

فنظرت إليه كأنني أفيق من حلم ، وتناولت الوثيقة .. ونظرت إلى السيد موفتوياً فإذا به يرمقني بنظرة احترام وشكر عميقين ووجهه كله يضحك ، وقال :

ـ نعم ، البيت لك ، وكل ما تريده . . ومن الآن أنت مهندس البلد . . و . .

فقاطعته وقلت وأنا أنظر إليه وإلى غريمه بيريرا :

ـ هذا البيت بنيته لخوانيتو . . ولخوانيتو سيظل . . كل ما أريده أن تتصافحا أيها الرجلان وتنسيا ما بينكما . . الآن تريان هباء الدنيا . . فى لحظة كان من الممكن أن تفقد أعز ما لديك فى الوجود يا سيد موفتويا ، وأنت أيضاً يا سيد بيريرا من الممكن أن يحدث لك مثل هذا وأسوأ . . إن الناس معكما فى شقاء ، فما ضركما لو تركتما الظلم والعسف والعداوة وعشتما معنا فى خير ؟ !

ونظر إليهما الأب إجناسيو وقال :

ـ صدق هذا العربى . . آن أن تعودا إلى الرشاد والإحسان . . نحن معكما فى ذلك ، وقد أذل الله واحداً منكما كما تريان .. فماذا تنتظران؟

ولم أصدق عينىّ عندما رأيت العاتيين يتعانقان . .

وقال الأب إجناسيو :

ـ الآن أقسما أمامى على أن ما بينكما قد انتهى ، وأنتما اليوم أخوان صافيا القلب تبارككما الكنيسة . .

ومدا يديهما . . وساد صمت ، بينما كان الأب يقرأ صلاة . .

وهممت أن أمزق الوثيقة ، ولكن موفتويا صاح :

ـ لا ، والله لا تمزقها . . البيت لك وهو قليل فى حقك . .

وقال بيريرا :

ـ وأنا أعطيك ضيعة « فرندوسا » فهى لك ، واشهد أيها الأب ..

وصاح موفتويا :

ـ اكتب وثيقة بذلك .. أنا أعرفك ! ..

فقال الأب إجناسيو وهو يضحك :

ـ عدت إلى طبعك يا موفتويا ..

وضحك الجميع وتعانقوا ..

* * *

أقاموا ليلتها حفلا عظيماً فى الكابيللو (دار الحكومة) ، وجلست فى مكان الشرف بين موفتويا وبيريرا .. وبينما كان الناس يرقصون ويغنون سبح خيالى إلى بلدى ، وملأ الفرح قلبي ..

لقد صالحت نفسى ، وأديت دين أمى ، وأنقذت سلامة ! أصبحت غنيًّا ، ووضعت يدى على أول خطوة من خطوات السعادة والوفرة التى أنعم بها الآن . . .

لم أعد إلى بلدى لأن الله أعطانى بلداً آخر ، وكل مكان ينبت العز طيب . .

وعندما أعود بذهنى عبر نصف قرن مضى ، وأسرح الطرف فى حدائقى ورياضى ومزارعى ، وأتأمل أولادى وقد كبروا وتزوجوا ، وملأ أولادهم علىّ بيوتى . .

عندما أجلس فى شرفة قصرى المحبب إلى نفسى وأرسل النظر عبر الخضرة ويسبح خاطرى عبر السنين ، تنهلّ الدموع من عينى ، وأصلى فى صمت للخالق سبحانه ..

خلق رجلا فى مصر ، ورزقه فى المكسيك . .

وأمات غلاماً فى مصر ، وأحيا مثله على بعد عشرة آلاف كيلومتر.:

سبحانه !

عطَش



تتفرع «حارة الفحام» من «درب الجناين» ، ومن حارة الفحام تتفرع «عطفة الحمامة» ، ومن عطفة الحمامة ينساب «زقاق الساقية» كأنه ثعبان قصير يتلوى مرتين وينتهى ببيت الحاج أمين العطار ..

وهذه كلها مجموعة من الممرات والسراديب معظمها خرائب ، نصف البيوت أطلال متهدمة وبقايا بيوت نمت عليها أكوام القمامة ، والبيوت القائمة أقرب إلى مناطق الآثار منها إلى البيوت ، والمنطقة كلها من أول درب الجناين لا تعرف الكهرباء ..

ليس فيها كلها سلك واحد ، وليس فيها مياه جارية ، إنما هناك حنفية تقوم على باب حارة الفحام ، منها يملأ النساء الصفائح ، والسقاؤون يملأون القرب ، ويطوفون على بيوت الناس ..

وبين هؤلاء السقائين شاب بين الخامسة والعشرين والثلاثين ، كلما حمل قربة إلى أحد البيوت خط على بابه بالطباشير خطاً ، وفى أول كل شهر يعد خطوط الشهر المنقضى ، ويتقاضى عن كل خط قرشاً ..

* * *

كان يوماً حاراً من أشد أيام يوليو قسوة ، الشمس فوق الرؤوس كأنها سيف مصلت ، وقد سكنت الحركة فى هذا الجو القاسى فبدا الحى كله وكأنه صحراء لا يسكنها أحد ، حتى القطط والكلاب سكنت عن الحركة ، وتمددت على الأرض فى الظل وفتحت أفواهها لاهثة تلتمس شيئاً من الطراوة ...

واشتد نشاط حنفية الماء ، فجلس عم جبر يحرك مفتاحها ، والنساء ينطلقن بصفائح الماء ، والسقاؤون يعدون عدواً .. فهذا موسمهم ..

جلس الحاج أمين مسترخيا من شدة الحر .. إنه رجل فى الخامسة والستين ، ولكنه غنى مكتمل الأشد ، لأن الله أوسع عليه وبسط له

أسباب العيش من ناحية .. ولأنه عطار عارف بأصناف « المقويات » وأسرارها من ناحية أخرى . .

إنه يملك محل عطارة كبيراً فى درب الجنابن ، محلا تقوم على أبوابه ثلاثة « ملدقات » من الحجر المنحوت ، يلدق الرجال فيها بأعمدة من الحديد : واحد للزعفران ، وواحد للبهارات ، والثالث لسر الحياة وسر ثروة الحاج أمين فى وقت واحد ، ذلك هو « القرطاس العجيب » . . مجموعة من البذور والحبوب والجذور وأوراق الشجر الجافة ، اخترع خلطتها الحاج أمين . .

إنها تعيد الشباب ، وتعين على أوصاب الشيخوخة . . إن القرطاس أكيد الأثر .. ملعقة من المسحوق السحرى كل صباح يتلوها كوب شاى أخضر بالنعناع ، تلين المفاصل ، وتحل نخاع العظام الذى يتجمد مع الشيخوخة ، وتهدئ العروق النافرة ، وتفتح الشهية ، وتمهد الطريق بين الشيخ والغيد الحسان . . .

والحاج أمين شخصياً مخلص للقرطاس ، لا يمر يوم دون أن يتناول منه ملعقة ساحرة يعقبها كوب من الشاى الأخضر المعتق ، ثم يغفو إغفاءة يسيرة ، ريثما يتسرب السر العجيب إلى نخاع العظام وسراديب المخ والقلب ، ويفعل فعله المبروك . .

وهو مخلص كذلك لبنات حواء . . . فمنذ أدرك الخامسة والخمسين وهو يسير بنظام على قاعدة ثابتة .. كل خمس سنوات شابة جديدة ... إنه نظام سنوات خمس شخصى ، اهتدى إليه هذا العطار الذكى ، قبل أن يخطر ذكر برامج السنوات الخمس ببال أهل السياسة ..

وقد نفذ الحاج أمين برنامجه فى نظام تام ، وها هو ذا فى الحلقة الثالثة من برنامجه ، يقيم مع « فتحية » الشابة الثالثة من شابات عمره المديد .. وهى فتاة فى الثالثة والعشرين .. تزوجته على رجاء أن تختصر من عمره ما تيسر ، لترث منه ما تيسر أيضاً ..

كانت فتاة طيبة القلب ، نصيبها من الجمال كثير ، ومن العافية أكثر .. ومن الفقر أكثر وأكثر .. وهذا الأمر الأخير هو الذى رمى بها بين أحضان هذا الشيخ ..

ولقد فرحت فتحية عندما طلبها الشيخ .. فرحت من كل قلبها ، وانتقلت إلى « بيتها » مزهوة سعيدة .. أقبلت فى سذاجة .. ثم أخذت حقائق الحياة الزوجية تتكشف لها شيئاً فشيئاً ، وكان عليها أن تحل ما استطاعت حله منها ، بطريقتها الخاصة ، وبحسب ما تمليه عليها الظروف .

* * *

قلنا إنه كان يوم قيظ شديد ..

جلس الحاج أمين فى ردهة بيته فى الطابق الثانى على كنبة عتيقة إلى جوار النافذة ، وبيده مروحة من ريش الدجاج الملون ، وقد فتح صدر جلبابه الأبيض وأزاح طاقيته إلى مؤخر رأسه ، فظهر شعره الأسود المخضوب .. وبدت قطرات العرق على جوانب وجهه ، فمضى يجففها بمنديل كبير فى يده .. كان الإجهاد الشديد يبدو فى وجهه من أثر الحر ، وكانت لفحات الهواء الساخن تهب من صحن البيت فتمس وجهه دافئة تزيد النفس ضيقاً .. وكان يسمع وقع خطوات زوجته الشابة تروح وتجىء فى الغرفة المجاورة ، كأنها تعمل عملا .. كانت تذهب إلى النافذة فتطيل النظر منها ، وتتطلع إلى آخر الزقاق ، عليها ترى شيئاً ، ثم تعود إلى الغرفة ، وتمر — فى طريقها إلى الباب — بمرآة الدولاب ، فتتوقف لحظة ، تشد خلالها على جسمها ثوبها الضيق بعض الشىء ، وتسوى شعرها ، وتجفف العرق السائل على خديها المحمرين من شدة الحر ..

وصاح الحاج أمين :

— لم يأت بعد ؟ ..

فأقبلت ووقفت بباب الردهة وقالت :

— ليس بعد .. لا أدرى ما جرى له ! ..

كان يسألها عن منصور السقا الشاب ، فلم تكن فى البيت قطرة ماء .. لقد فرغ الزيران فى المطبخ والحمام ، وجفت القلل الثلاث ، وغدا البيت من غير ماء ..

كان منصور يأتى دائماً مع الظهر ... وها قد انقضت ساعتان بعد الظهر ولم يأت الرجل ، والحر يتزايد والعطش يشتد والصبر ينفد ! ...

وصاح الحاج أمين :

ــ راح فين الولد ده ؟ .. راح فين ؟ .. والله ما هو جايب ميه تانى هنا ... لازم أجيب واحد بداله ..

ومرت سحابة من الروع بوجه الزوجة ، وبادرت تقول :

ــ دلوقت ييجى ياحاج .. النهارده نار والناس كلها عايزة ميه ..

ــ ناس مين ؟ ... فيه ناس أحسن منا ؟ .. فيه ناس أولى من الحاج أمين ؟ .. الحق علىّ .. أنا اللى فتحت بيته وشغلته ..

وكان القلق يأكل قلب الزوجة الشابة .. وكانت أشد شوقاً إلى رؤية هذا السقاء من زوجها .. لقد تعبت من النظر من النافذة واستكشاف الطريق .. وكانت تنظر إلى زوجها الشيخ فترى شرر الغيظ فى عينيه .. كانت لا تستقر فى مكانها : من السلم إلى النافذة .. ومن النافذة إلى الحمام .. ومن الحمام إلى غرفة النوم ، لتلقى نظرة عجلى على هيئتها .. ثم تعود إلى النافذة ..

وقال الحاج أمين فى صوت يتجلى فيه ضعف الشيخوخة :

ــ ياناس .. هلكت من الحر .. هلكت من العطش ..

وفجأة صاحت فتحية :

ــ أهه .. أهو جاى ..

وفاض الفرح فى كيانها .. وأسرعت إلى غرفة النوم فألقت نظرة على هيئتها ، وشدت ثوبها على جسدها ، ونظرت إلى زوجها ضاحكة وقالت :

ــ أهو جه ياسيدى ، ماتزعلش ...

واقتربت منه ، وجففت العرق من وجهه ، وقبلته ..

وانفرجت أسارير الرجل ، وانبسط وجهه ، ونسى غضبه ..

وأسرعت إلى السلم تستقبل السقاء .. ورأته صاعداً بحمله الثقيل من الماء على ظهره ، وابتسمت ..

ورفع الشاب رأسه ، وابتسم ..

وجعلت ترقبه يصعد درجة درجة ، حتى إذا أدرك الدرجة الأخيرة وصار قبالتها ، قالت بعتاب :

ــ كده ؟ ..

ونظر إليها طويلا ولم يجب ... ثم رفع صوته وقال :

ــ يا ساتر .. ميه ..

فصاح الحاج :

ــ تعال يا شيخ تعال ... تعال أحسن روحى قربت تطلع ..

ودخل السقاء وهو يقول :

ــ ما تآخذنيش والله ياحاج .. الميه كانت مقطوعة .. أعمل إيه ؟ .. والله دى أول قربه أشيلها النهارده وحياة الحسين ..

فقال الحاج :

ــ يللا بس .. املا الزير .. واملالى القلة .. يللا ..

وأسرعت فتحية إلى الحمام لتساعد السقاء .. ملأ الزير الكبير .. وبقيت فضلة من الماء فملأ قلتين .. حملت فتحية إحداهما وأسرعت بها إلى الشيخ ، فقال :

ــ هنا .. ضعيها على الشباك لتبرد ...

وبحث السقاء عن طباشيرته فلم يجدها ، فتناول قطعة من جص الحائط وخط بها خطاً .. وخرج متمهلا ، فقال له الحاج أمين :

ــ والقربة الثانية ؟ ..

ـ العصر ، زى العادة ...

وخرج .. وكانت فتحية قد سبقته إلى السلم ، ووقفت وظهرها إلى الحائط وقد تبدت هيئة جسدها الغض الجميل .. ونظر إليها منصور وفتل شاربيه .. وقال :

ـ الدنيا نار .. هلاك ! ..

ولم تقل فتحية شيئاً .. كانت شفتاها منفرجتين وقد تبدى فيهما عطش شديد .. وكانت عيناها نصف مغلقتين ، وقد تدلى شىء من شعرها الأسود على جبينها الأسمر ..

ورفع الرجل يده وهو يبتسم ، ومر بكفه الخشن المبلل على ذراعها العارى .. وبعد ثوان كانت الزوجة الشابة ، والسقاء الشاب فى الغرفة « المسروقة » فى الدور الأسفل من البيت ، وكانت فتحية تعتبرها غرفتها الخاصة .. كان فيها بعض حاجاتها ...

* * *

وكان الحاج أمين مشغولا إذ ذاك بأمر خطير ..

انتظر لحظة حتى بردت القلة بعض الشىء ، ثم نهض إلى دولابه وأخرج مفتاحاً وفتحه ، وتناول كوباً فوضع فيه أربع قطع من السكر .. إنه يحتفظ بالسكر فى دولاب ملابسه ، لأن تجاربه مع الزوجات الشابات علمته أن يحترس منهن من هذه الناحية .. إنهن شرهات إلى السكر .. والحاج أمين رجل دقيق مدبر ..

ثم فتح الشيخ علبة صغيرة ، وأخرج منها حبة فى حجم الحمصة .. إنها دواء مجرب للكبد .. والكبد فى عرف الحاج أمين هو « بيت » الشباب ومصدر الحياة .. إنه يتناول الحبة عصر كل يوم .. ثم يظل جالساً هادئاً عشر دقائق ، حتى يصل مفعولها إلى الكبد ، ومنه ــ فى رأى الحاج أمين ــ إلى نخاع العظام ...

تناول الرجل إكسير الحياة . . ثم ظل مكانه ساكناً . . وانتبه بعد نحو

ربع ساعة ، وتلفت حوله فراعه الصمت المخيم ، وتساءل: أين فتحية ؟ ثم هتف :

ـ فتحية ! .. بت يا فتحية ! ..

وانقضى نصف دقيقة دون أن يسمع حركة .. ثم سمع همساً من بعيد ، ثم وقع أقدام . . . سمع قدميها تهبطان السلم على عجل ، فنادى مرة أخرى :

ـ فتحية ! . .

وسمع وقع قدميها ترقيان السلم نحوه . . . ثم سكن كل شيء لحظة .. كانت بالباب تسوى من هيئتها . . وفى الوقت نفسه جاء من بعيد وقع خفيف لقدمين تهبطان السلم ! . .

ونظر إليها الرجل طويلاً ثم قال :

ـ أين كنت . . . ؟

ـ كنت ... كنت أضع شيئاً من الماء للبط ...

وكان البط فى فناء البيت . . .

واقتربت فتحية من النافذة . . وفى هذه اللحظة رأت « منصوراً » السقاء يخرج من البيت ويصلح من هندامه . . ويسير فى هدوء . . وتتبعته عيناها وفيهما ابتسامة هادئة ..

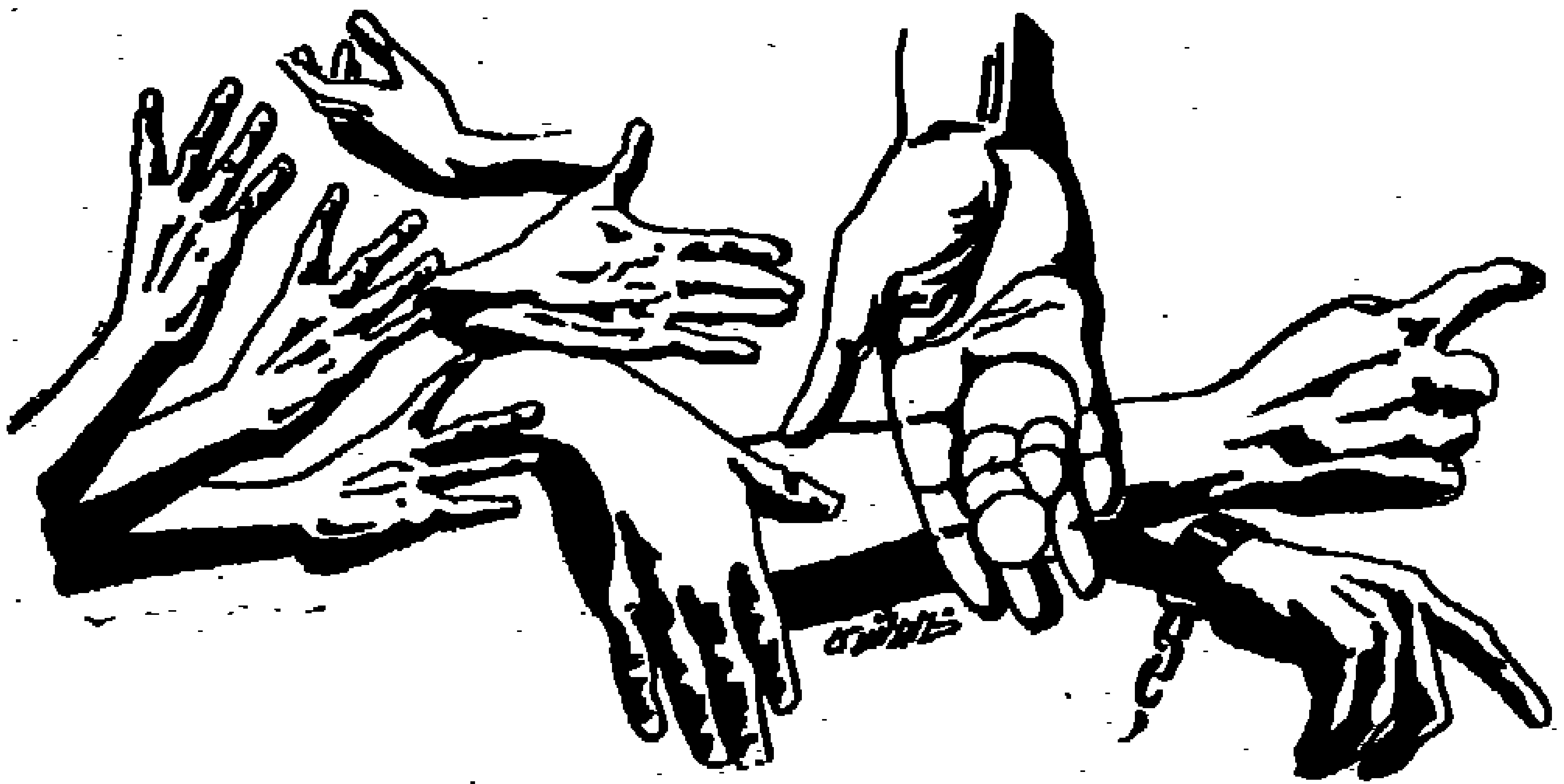
وأطال الحاج النظر إليها . . كانت هيئتها تعجبه ، بل تفتنه . . . ثم قال :

ـ هيه . . وشربت . . ؟ أما كنت عطشى ؟ ..

فقالت فى شبه الهمس ، وهى ترى منصوراً السقاء ينحرف ويختفى فى حنية العطفة . .

ـ شربت .. شربت خلاص !

ميلاد إنسان



المنظر : مكتب الأستاذ رضا عبد الرحمن وكيل النيابة . مكتبه فى صدر المنظر ، إلى اليمين . إلى يساره ، فى الركن ، دولاب حديدى لحفظ الملفات . تحتل بقية صدر المنظر إلى يمين المكتب — نافذة كبيرة تحتها دولاب كتب يتكون من رفوف مفتوحة . فى الناحية اليمنى من المنظر دولاب كبير تظهر خلف زجاجه صفوف الملفات . ثم باب ناحية الجمهور . فى الناحية اليسرى كنبة وكرسيان فوتيل بينهما منضدة صغيرة عليها بعض الكتب . يلى ذلك باب آخر مواجه للباب الأول . على هذا الباب يقف الشاويش رجب . عندما يرتفع الستاريلو رضا جالساً إلى مكتبه يقرأ أوراقاً أمامه وإلى جانبها ملف مفتوح . إنه شاب فى السابعة والعشرين من عمره . يجلس أمامه ضابط المباحث « أمين » وهو شاب يكبره بقليل . الوقت حوالى الثانية بعد الظهر .

رضا : [يرفع رأسه عن الأوراق وينظر إلى أمين مبتسماً وهو ينقر بأصابعه على ورق الملف المفتوح إلى يمينه] طيب . .

أمين : طيب إيه ؟ . . خلاص ؟ . .

رضا : تقريباً . .

أمين : يعنى لم تفرغ بعد ؟ . .

رضا : لا . . أشياء بسيطة . . أريد أن أقرأ الأوراق مرة أخرى . .

أمين : ولكنك لن تعيدها إلىّ ؟ . .

رضا : لا أظن . . الأوراق مستوفاة : محضر . . مش بطال . . شهادات الشهود . . اعتراف المتهم . .

أمين : [فى فخر] شغل مضبوط . .

رضا : طبعاً ، طبعاً . . سأرسل لك الملف صباح غد . . أعلمك بذلك . .

أمين : ولماذا ننتظر إلى غد مادام الشغل مضبوطا ؟ . . وحياتك يارضا ، خلّصنا . . لو سرنا على هذه الطريقة لما فرغنا أبداً . . غرفة

الحجز فى القسم مليئة بالناس .. لابد من البت فى القضايا بسرعة .. هذا قسم بوليس كبير ، والحوادث تجرى مع عقرب الثوانى .. هذه كلها مسائل روتينية لا تستحق منك أكثر من نظرة .. أنت تعرف كيف نعمل ..

رضا : نعم أعرف ، ولكنك أنت لم تعرف بعد كيف أعمل أنا .. إننى جديد هنا ، والجديد يحتاج إلى صبر وطول بال . كل ما أرجوكم فيه هو أن تصبروا علىّ . هذه القضية بسيطة فعلا ، ولكنها ليست مجرد جنحة عادية . إنها سرقة مبلغ كبير ومحاولة الاعتداء على رجل البوليس ..

أمين : وقد اعترف المتهم بذلك كله ... والاعتراف سيد الأدلة ..

رضا : ليس دائماً .. هناك ناس من هذا الطراز يعترفون بجرائم لم يرتكبوها ليفرغوا من متاعب الاستجوابات .. وهناك من يعترفون ليدخلوا السجن ويستريحوا بضعة أشهر من عناء الحياة خارجه .. وهناك من يعترفون ليستروا آخرين ..

أمين : ولكننا غير مسئولين عن دوافعهم إلى هذه الاعترافات .. ما دام المجرم قد اعترف فقد انتهت القضية بالنسبة لى ..

رضا : صحيح .. ولكنها تبدأ بالنسبة لى ..

أمين : طبعاً ، هذا هو نظام العمل ، ولكن ليس معنى ذلك أنك ستعيد التحقيق . .

رضا : قد لا يدعو الأمر إلى ذلك .. هناك فقط بضع نقط أريد أن أستوفيها .. أقصد بضع نقط أنا غير مطمئن إليها تماماً ؟ ..

أمين : أى نقط ؟

رضا : مثلا .. لماذا لم يعترف هذا الرجل فى الاستجواب الأول ؟ ..

أمين : لأن هذا الطراز من معتادى الإجرام لا يجيبون على السؤال إلا بعد أن تلقيه عليهم للمرة العاشرة . الحقيقة عندهم بنت السؤال العاشر ..

رضا : والدكتور صدقى ، المجنى عليه ، لماذا لم يتعرف على المجرم فى المرتين الأوليين ؟ .. إنه يقرر أنه لاحظ أن المتهم يتبعه من وقت خروجه من السيارة إلى دخوله الصيدلية ، وأنه رآه ينتظره خارجها .. لقد اكتشف ضياع حافظة نقوده بعد نشلها بقليل جداً ، ورأى المتهم يسرع بالفرار .. يعنى كان من المفروض أن يتعرف عليه بمجرد رؤيته ..

أمين : اسمع يا أخى .. إن هذا الدكتور صدقى رجل عصبى ، وهو كل ساعة يسأل : وجدتم المحفظة ؟ .. وجدتم المحفظة ؟ .. كأنه يتصور أن المجرمين يسرعون بتسليم المسروقات إلينا لنعيدها إلى أصحابها عندما يسألون عنها .. إن الناس لا يتصورون المعركة الهائلة التى نخوضها مع عالم الإجرام هذا ليل نهار ..

رضا : الدكتور صدقى على حق .. ما دمنا قد قبضنا على المجرم بعد وقوع الجريمة بساعتين ، فمن المفروض أن المال المسروق مازال معه ..

أمين : [ضاحكاً] يا .. سا .. لا .. م ! .. ألم أقل لك إنك لا تعرف هذا النوع من المجرمين ؟. لو كنا قبضنا عليه ويده فى جيب الدكتور ما وجدنا حافظة النقود معه ..

رضا : أى أننا لن نجد الحافظة ولا النقود ؟ ..

أمين : [يهز رأسه] مستحيل ..

رضا : [يقف ويتجه نحو دولاب الكتب إلى يمينه ويأخذ واحداً منها فينظر فيه ثم يعيده إلى مكانه وينظر إلى أمين] إذن ما فائدة عملنا كله ؟ إذا كان مال الناس يضيع ، وكل ما نستطيع عمله هو أن نأتى برجل ونلقى به فى السجن لبضعة أشهر ؟ .. ما فائدة ذلك ؟ ..

أمين : لا أدرى ، ولكن هذا كل ما نستطيع فى حالة مثل هذه . .

على الأقل نحول بين المجرم وبين ارتكاب سرقات أخرى مدة سجنه ..

رضا : [يهز رأسه ويرفع كتفيه] يجوز .. ولكن هذا تفسير ضيق جداً لمهمتنا .. الناس ينتظرون منا أكثر من ذلك ..

أمين : فى أحيان كثيرة نستطيع استعادة المسروقات .. ولكن ماذا نعمل عندما يكون ذلك مستحيلا ؟ .. فى هذه الحالة بالذات عصرنا المتهم عصراً ، وقبضنا على عشرين أو ثلاثين نشالا آخرين ، وقضينا أياماً نستجوب ونضغط ونفتش .. لا فائدة .. أمامك دوسيه كامل ، وعندك مجرم معترف ..

رضا : إننى لا أبحث عن مجرم .. إننى أبحث عن « المجرم » ..

أمين : [بعد تفكير لحظة] فهمت ما تقصد .. يا أخى دعك من هذه الفلسفة .. [ينهض واقفاً] القضية بين يديك .. افعل ماتريد

رضا : فى بعض الأحيان يا أمين يخيل إلىّ أن المعركة بين رجال الأمن وأعدائه تتحول مع الزمن إلى نوع من المباريات الرياضية .. إنكم تعملون دائماً مع نفس الوجوه .. مجموعة معينة هى التى تسرق، وتهرب .. أو تدخل السجن ، وتخرج منه ... نفس الوجوه دائماً .. بحكم الاحتكاك المتصل واستمرار السرقات والمطاردات ، تنشأ شبه قواعد للعبة ..

أمين : [مستنكراً] تقصد . . .

رضا : [مقاطعاً] لا .. لا .. لا أقصد ما يدور فى ذهنك .. ولكن أقصد أن استمرار المعركة بين الجانبين يؤدى إلى نوع من التعاون غير المقصود ، غير المحسوس .. [يبتسم ويصمت لحظة] فى حالتنا هذه ــ وهذا مجرد تصور شخصى ، أرجو أن تأخذه على أنه مجرد مثال ــ رجل يعترف بجريمة لم يرتكبها ليريح المحقق ويمكنه من إكمال عمله وإقفال الملف .. وفى نفس الوقت يطمئن

على نصيبه فى حافظة نقود سرقها زميل له فى المهنة ..

أمين : كأنك تتصور أن هؤلاء المجرمين ناس مثلنا ؟ ..

رضا : تريد أن تقول إنهم ليسوا آدميين ؟ ..

أمين : آدميون من طراز آخر . . من طبقة أخرى : سفاحون وقتلة ولصوص ونشالون وتجار مخدرات . . لا . . لا . . هؤلاء كوم وبقية المجتمع كوم . .

رضا : هذا التصور بالذات هو سبب الخطأ . . تصورك أنهم جنس آخر ، يحول بينك وبين الانتصار عليهم .. أنت تعاملهم بطريقة خاصة ، وتستجوبهم بطريقة خاصة .. ماذا يحدث مثلا لو عاملتهم على أنهم بشر مثلى ومثلك .. أو مثل الشاويش رجب ؟ . .

رجب : (مستنكراً) أعوذ بالله . . أعوذ بالله .. سيادة الوكيل لا يعرف هذا الجنس . .

رضا : وهل تعرفه أنت ياشاويش رجب ؟

رجب : أنا ؟ . . طبعاً . . عشرين سنة فى حرب معهم . بنظرة واحدة أعرف ما يجول فى ذهن الواحد منهم . .

رضا : إذن . . هل تستطيع أن تأتينا بالحفظة الضائعة ؟ . . (رجب ينظر إليه كأنه لا يفهم)

أمين : رجب يستطيع . . كل شاويش يستطيع . .

رضا : إذن . . لماذا لا تظهر المسروقات ؟ . .

أمين : لأن هذا النظام الذى نجرى عليه يخدم المجرمين ويشل يد رجب وأمثاله : تحقيقات طويلة . . سين وجيم ، ومعاملة طيبة ، والطعام يحمل إليهم فى التخشيبة . . وسجن مريح . . ومحامون.. كل ذلك ليس فى صالحنا . . ما داموا متحصنين وراء هذه القوانين (يشير بعصبية إلى الكتب) وهذه الكتب ، فلن نستطيع أن نحصل منهم إلا على ما يريدون . . فى معركتنا

هذه ، المجرم سيد الموقف (يتوقف ثم ينظر فى ساعته) ياخبر ! . . قربنا من الساعة الثالثة (يتجه نحو الباب ويوجه الحديث لرضا) موعدنا غدا . . لا تنس . . (يحيي ويقفل الباب) .

رجب : (يقترب من رضا) الآن لا بد أن تتناول غداءك . . حرام أن تستمر فى العمل هكذا . .

رضا : أظن أن لدينا رجلا آخر ينتظر . .

رجب : (فى سأم) يستطيع أن ينتظر . .

رضا : (يعود إلى مكتبه . يبدو عليه أنه يفكر) أقول لك يا رجب ؟ . . هاته بالمرة . . لنفرغ منه أولا . . بعد ذلك نستطيع أن نأكل فى هدوء . .

رجب : يا سيادة الوكيل . . هذا رجل متعب . . لو أتيت به الآن ما فرغنا منه قبل سنة . .

رضا : تعرفه يا رجب ؟

رجب : أعرفهم كلهم . . هذا بالذات دخل السجن قبل ذلك أربع مرات أو خمساً ..

رضا : وهم أيضاً يعرفونك ؟ . .

رجب : لا مؤاخذة يا سيادة الوكيل .. لا أقولها شكراً فى نفسي .. ولكن الشاويش رجب يرهبه كل مجرم فى البلد .. قبل أن أنقل إلى إلى هذا المكتب كان المجرمون يتحاشون القسم الذى أعمل فيه ..

رضا : وماذا تعرف عن هذا الرجل ؟

رجب : ألعن من الأول .. لو بيدى لشنقته وأرحت الدنيا من شره ..

رضا : هاته إذن .. وهات دوسيه قضيته ..

(رجب يتجه إلى الدلاب الأيمن ، يأخذ منه ملفاً يضعه أمام رضا ، ثم يخرج من الغرفة . يعود بعد قليل وأمامه رجل فى يديه

الحديد يمسك به جندى . على باب الغرفة يقف رجب محيياً تحية عسكرية . المتهم اسمه زكى . يلبس بذلة مهلهلة : البنطلون لون والجاكتة لون آخر .. قميصه مفتوح عند الصدر ، ينقصه زراران . إنه شاب بين الخامسة والثلاثين والأربعين ، شاحب الوجه أشعث الشعر . الجندى من خلفه يدفعه إلى وسط الغرفة . المتهم يتقدم مقترباً من المكتب . الجندى يمسك به فى عنف)

الجندى: رايح فين ؟ .. قف هنا ولا تقترب من مكتب السيد الوكيل ..

رضا : دعه يا عسكرى .. دعه واخرج أنت (لزكى) تعال .. اقترب (زكى يقترب . الجندى يخرج . يتقدم رجب ويخاطب زكى)

رجب : اسمع يا واد .. السيد الوكيل تعبان ولا يريد وجع دماغ .. لا تقلق قلبه .. أنا عارفك ..

زكى : يا شاويش حرام عليك . السيد الوكيل تعبان .. وأنا المستريح ؟

رضا : سيبه يا رجب .. سيبه .. إذا كنت متضايقاً فاخرج وقف عند الباب .. سأناديك عندما أحتاج إليك ..

رجب : لا ياسيادة الوكيل .. لا يصح أن أخرج .. سأقف مكانى ، ولن أتكلم (يعود إلى مكانه بجانب الباب ويقف ونظره مصوب إلى زكى فى احتقار شديد)

رضا : (يفتح الدوسيه وينظر فيه ، ثم يسند ظهره إلى مسند كرسيه وينظر إلى زكى طويلا)

رضا : اسمك إيه ؟

زكى : خدامك زكى ..

رضا : زكى إيه ؟ ..

زكى : زكى إيه ؟ .. زكى أى حاجة ...

رجب : أجب السيد الوكيل وقف معتدلا .. دعك من هذا التهريج ..

زكى : أبو حبل .. زكى أبو حبل ..

رجب : حبل يشنقك !

رضا : أيوه ياسي زكي أبو حبل .. خطفت الحقيبة من يد الست.. ما اسمها ؟ .. (ينظر فى النوسيه) آه .. هذا اسمها هنا ..

زكي : والله العظيم .. ثلاثة بالله العظيم .. والسيدة نفيسة .. أو يدوسنى الترام .. ما خطفتها ..

رجب : (يهز كتفيه فى غضب وسخرية ، ثم يضحك) طبعاً لم يخطفها.. هى أعطتها له ..

رضا : ويعدين يا رجب ؟ ..

رجب : خلاص يافندم .. خلاص .. لن أفتح فى .

رضا : هيه ؟ .. خطفتها ؟ ..

زكي : لا يافندم ..

رضا : إذن ما الذى حدث ؟ ..

زكي : كما قال الشاويش ..

رضا : يعنى إيه ؟ هى أعطتها لك ؟

رجب : (يضرب كفاً بكف) يا نهار أسود .. (يضحك فى مرارة)

زكي : أى والله يافندم .. والسيدة نفيسة .. أو يدوسنى الترام ..

رجب : حاجة تجنن ..

رضا : كيف أعطتها لك ؟ .. هل كنت تعرفها ؟ ..

زكي : لا يافندم لا أعرفها .. ولا كنت رأيتها قبل ذلك .. ولكنها كانت تحمل ربطات كثيرة ، ووقعت إحداها .. وكنت بالصدفة إلى جوارها ، فناولتنى الحقيبة لتأخذ الربطة التى وقعت ..

رضا : (يهز رأسه) هيه .. ولماذا الحقيبة بالذات ؟ .. ألم تكن معلقة فى ذراعها ؟ ..

زكي : لا أدرى .. ولكن هل كنت أستطيع أن أرفض طلب سيدة تطلب مساعدة ؟ ..

رضا : وبعد ذلك .. ماذا حدث ؟
زكى : سرت وراءها حتى باب المحل ..
رضا : يعنى .. السيدة تركت حقيبتها فى يدك وسارت .. وسرت أنت وراءها ..
زكى : بالضبط .. ثم خرجنا إلى الطريق ، وأرادت السيدة أن تعبر الشارع لتأخذ الأوتوبيس ، وفى زحمة المرور لا أدرى أين ذهبت .. ما دريت إلا وهى تصرخ ، وأمسكنى البوليس ..
رضا : وأنت تجرى والحقيبة فى يدك ؟
زكى : نعم .. لكى أسلم الحقيبة لصاحبتها .. (رجب ينفجر ضاحكاً فى مرارة .. رضا ينظر إليه ويبتسم .. رجب يضع يده على فمه إشارة إلى أنه لن يتكلم)
رضا : تعتقد أننى يمكن أن أصدق هذه القصة ؟
زكى : أقسم بالله العظيم ثلاثاً ، وبالسيدة نفيسة ، أو يدوسنى الترام .. هذه هى الحقيقة ..
رضا : أنت تعرف أنك تكذب .. لقد قلت كلاماً غير هذا فى التحقيق ..
زكى : بل هذا هو الذى قلته ..
رضا : وقلت غيره .. ووقعت على ذلك كله .
زكى : (مستنكراً ومتظاهراً بالبراءة) وقعت ؟.. إننى لا أقرأ ولا أكتب.. ليتنى أستطيع ..
رضا : أقصد بصمت بأصابعك ..
زكى : نعم بصمت .. إننى أبصم كل شىء .. ما داموا هم يريدون ..
رضا : إذن فسأعيدك إلى ضابط المباحث ليعيد التحقيق ..
زكى : (فى رعب) لا ياسيادة الوكيل .. لا لزوم لذلك ..
رضا : لا يمكن أن أحيلك للمحكمة وأقوالك بهذا الشكل ..

زكى : لا أريد أن أعود إلى المباحث .. ما تقرره سيادتك أنا موافق عليه ..

رضا : ولماذا لا تقول أنت الحقيقة وتريحنا ؟

زكى : تصدق بالله يابيه ؟ .. والله العظيم أنا لا أتذكر ما جرى بالضبط . .

رضا : بل أنت تذكر وتعرف ، ولكنك تتصور أن هذا المكر ينفعك ..

زكى : لا والله يا سيادة الوكيل .. أقسم بالسيدة نفيسة ، أو يدوسنى الترام .. مع سيادتك لن أقول إلا الحق ..

رضا : إذن ، فأنا سأسألك وأنت تجيب ..

زكى : أمرك يافندم . .

رضا : (ينظر فى الأوراق التى أمامه ، ثم ينظر إلى زكى طويلا ، ثم يقول بلهجة تقرير) خطفت الحقيبة من يد السيدة ..

زكى : (محتجاً) لا .. هذا لا .. إننى لست خطافاً ..

رضا : إذن ، ماذا حدث ؟

زكى : (بعد تردد يطأطئ رأسه ويعبث بجاكتته فى حركة عصبية) . . هذه السيدة كانت تحمل ربطات كثيرة . وضعتها على إحدى المناضد لتحملها بصورة أحسن . . وضعت حقيبة يدها إلى جانبها ، وأخذت تصلح هيئتها .. كنت إلى جانبها . لاحظت أنها نظرت ناحية أخرى ، فأخذت الحقيبة وسرت بهدوء . عندما التفتت السيدة لاحظت ضياع الحقيبة فصرخت .. كنت إذ ذاك على أمتار منها ، فأسرعت بالخروج من المحل .. لا أدرى كيف رآنى أحد المخبرين وأمسك بى ..

رضا : إذن فأنت تعترف بأنك سرقت الحقيبة ...

زكى : (يرفع كتفيه ويطأطئ رأسه أكثر ويهزه بالإيجاب) .. صحيح

رضا : ولماذا كنت داخل المحل ؟

زكى : لا أدرى .. ماذا يهم ذلك ما دمت قد قلت إننى أخذت الحقيبة ؟ . .

رضا : أنت لم تأخذها .. أنت سرقتها ..

زكى : يستوى الأمران . . هل من الضرورى أن أقول إننى سرقتها ؟ . .

رضا : نعم ..

زكى : أمرك .. سرقتها ..

رضا : ولماذا دخلت المحل ؟

زكى : كما يدخله كل الناس .. هل دخول المحلات التجارية جريمة هو الآخر ؟

رضا : إننى أريد أن أساعدك .. إذا كنت قد دخلت للسرقة فالجريمة فى هذه الحالة أشد .. وإذا كنت قد دخلت لتشترى شيئاً مثلا .. ثم ..

زكى : (ضاحكا فى مرارة) أشترى شيئاً ؟ .. (يهز رأسه ويصمت)

رضا : إننى أسألك .. لأن المحل أبلغ عن سرقة أشياء أخرى فى نفس اليوم . .

زكى : (ينظر إليه مندهشاً) سرقة أشياء أخرى ؟ يا سيادة الوكيل لقد قلت إنك تريد مساعدتى .. ثم تريد أن تلبسنى تهمة أخرى؟ ..

رضا : إننى أساعدك فعلا ..

زكى : إن كانت هذه هى المساعدة ، فالله الغنى عنها ..

رضا : لقد أبلغ المحل عن سرقة مجموعة من الكرافتات فى نفس اليوم ..

زكى : (فى إنكار شديد) كرافتات ؟ ! (يمد يده إلى عنقه ويتلفت يمنة ويسرة) لماذا ؟ .. لماذا أسرق كرافتات ؟ ..

رضا : كما سرقت الحقيبة . . حقيقة إنك لا تلبس كرافتات ، ولكنك أيضاً لا تحمل حقيبة سيدة ..

زكى : فهمت .. لا يا سيدى .. لم أسرق أى شىء آخر . .

رضا : حاول أن تتذكر .. لعلك أخذتها لأحد شركائك ؟ ..

زكى : ليس لى شركاء .. ليس لى فى الدنيا صديق ولا شريك .. إننى أشتغل بمفردى .. أنا رجل عصامى ..

رضا : وماذا تشتغل ؟

زكى : أرتزق .. أعيش .. أعيش هذه العيشة السوداء التى أنا فيها .. لو كان الموت ممكناً لأرحت نفسى وأرحتكم .. ولكن سيادتك تعرف : الموت غال على الفقراء .. وصعب أيضاً ..

رجب : ليه ؟ ما صعوبته ؟ ذهبت ترمى نفسك فى النيل فقال لك : لأ ؟ .. ألم تتحصل مرة على قرشين اثنين تشترى بهما سم فأر ؟ هل تأخر الترام عن الاستجابة إلى طلبك ؟.. قال غالى .. قال..

زكى : قصدى أنه ليس سهلا .. يعنى .. يحتاج إلى شجاعة .. والله لقد حاولته مراراً .. ليتك تحكم علىّ بالإعدام وتخلصنى .. قل لهم يضربونى بالرصاص .. أو يعلقونى فى المشنقة .. تعبت يا سيدى وأتعبت الناس معى .. ماذا أعمل ؟ .. لا حرفة ولا صنعة ، ولا أحد يريد أن يقبلنى .. أينما أذهب يطلبوا منى تحقيق شخصية وصحيفة سوابق .. (يبكى)

رجب : ابك .. تصنع البكاء كما تفعل دائماً .. هذه الدموع جزء من أدوات النصب التى تعيش بها ..

زكى : ياشاويش حرام عليك .. أنا فى عرض النبى .. الجريمة واعترفت بها .. ألا تتركنى أشكو ؟.. هل هذا أيضاً حرام ؟ ..

رضا : تريد أن تقول إنك حاولت أن تبدأ حياة جديدة ولم تستطع ؟ ..

زكى : طبعاً .. بدون فائدة .. سيادتك لا تتصور الدنيا التى أعيش فيها ، أنا وأمثالى .. نحن نعيش فى بئر .. فى حفرة عميقة .. فى حفرة مثل جبلاية القرود التى فى حديقة الحيوانات .. بيننا وبين الدنيا التى تعيشون فيها حيطان عالية .. لا أحد منا

يستطيع التسلق أو التسلل إلى دنيا الناس المحترمين .. من الحفرة التى نحن فيها نراكم تسيرون .. نرى أقدامكم فقط .. ليس إلا طريقة واحدة للدخول فى عالم الناس ..

رضا : ما هى ؟ ..

زكى : أنت تعرفها .. أمامك مثال منها ..

رضا : تعنى ؟ ..

زكى : قلها ياسيدى ولا تتردد .. كلصوص .. الجريمة هى الصلة الوحيدة بيننا وبين عالمكم ..

رضا : إذن فقد دخلت المحل للسرقة ؟ ..

زكى : آه ... والله ياسيدى لم أكن قد أكلت شيئاً من اليوم السابق .. كان رأسى يدور .. كنت أبحث عن أى شىء .. ثم قبضوا علىّ .. سيادتك تعرف ماذا يفعل الجمهور بالواحد منا عندما يقع ..

رضا : ضربوك ؟ ..

زكى : (يهز رأسه فى حزن) طبعاً .. وبعد ذلك التحقيق فى القسم .. سين وجيم .. سين وجيم .. ثم .. يقولون لك ابصم ! وتبصم .. ثم يلقون بالواحد منا فى الحجز .. وتمر ساعات دون كوب ماء .. تصدق بالله ؟ .. من ظهر أمس ما دخل بطنى شىء ..

رضا : تريد أن تأكل شيئاً ؟ ..

زكى : لا .. ولكن إذا كان ممكناً .. سيجارة ..

رجب : (مستنكراً) سيجارة ؟ ! ولك نفس تدخن ؟ ..

زكى : ياحضرة الشاويش أنت تعرف .. نحن نعيش على الدخان ..

رضا : (يخرج علبة سجائره ويمد يده بها إليه . زكى يحاول أن يستخرج واحدة فلا يستطيع) خذها .. خذها كلها .. إنها لك ..

زكى : (فى سرور ودهشة) لى ؟ .. كلها ؟ ! ..

رضا : نعم لك .. (زكى يضعها فى جيبه فى بطء) دخن واحدة ..

رجب: ياسيادة الوكيل ..

رضا : دخن واحدة .. هيا .. هل معك كبريت ؟ ..

زكى: (يخرج علبة السجائر ويأخذ واحدة ويشعلها) الله يخليك .. ربنا يعمر بيتك ..

رضا : (يبحث فى جيوبه ثم يبتسم) أعطنى واحدة ..

زكى : (ضاحكاً) العفو ياسيادة الوكيل العفو .. (يقدم العلبة لرضا فيأخذ واحدة .. زكى يشعلها له)

رضا : تريد أن تأكل شيئاً ؟ ..

زكى : لا والله .. هذا لا يجوز .....

رضا : اجلس ..

زكى : (متردداً) لا ياسيادة الوكيل .. غير ممكن ..

رضا : اجلس أقول لك . . (زكى يجلس متردداً على حافة الكرسى ، ثم ينهض) اجلس .. قلت لك اجلس (يجلس مرة أخرى) :

رضا : (لرجب) رجب .. هات سبت الأكل ..

رجب: (مستنكراً) أكلك ياسيادة الوكيل .. تعطيه لهذا ال ..

رضا : (مقاطعاً) هات السبت ..

(رجب يتجه إلى الدولاب الأيسر وهو يستنكر ويتأفف ، يفتحه ويخرج من الرف الأسفل شيئاً : يضعه أمام رضا .. رضا ينقله أمام زكى ويفتحه ويخرج منه شطيرة : يمد يده بها لزكى . زكى يتردد فى أخذها . رضا يصر عليه . زكى يتناولها) كل .. لا تخف (يرفعها إلى فمه فى تردد ويبدأ الأكل : بعد ذلك يفتح الشطيرة وينظر فيها ويبتسم) .

زكى: فراخ ! .. (يأكل مرة أخرى) الله يكرمك .. الله يسعدك ! ..

رضا : (يأخذ شطيرة لنفسه ويقول لرجب) تعال يا رجب .. خذ ..

رجب: أستغفرالله ياسيادة الوكيل .. والله لا يمكن ..

رضا : (لزكى) على مهلك .. يوجد كثير ..

زكى : (وهو يأكل) ماذا أقول ؟ .. والله أنا مكسوف ..

رجب: (فى سخرية واحتقار) مكسوف ؟ .. اللى اختشوا ماتوا .. مكسوف !

رضا : (وهو يأكل شطيرته) أين تسكن ؟

زكى : فى أى مكان ..

رضا : أليس لك بيت ؟ ..

رجب: بيته السجن .. هل له بيت غيره ؟

رضا : أقصد عندما تكون خارج السجن ..

زكى : كان لنا من زمان بيت .. عند السيدة نفيسة .. بيت خالتى .. ثم ماتت .. الله يرحمها .. فى بعض الأحيان أنام فى نفس البيت عند زوجها .. إنه رجل طيب ، ولكنه لايحبنى .. ولكن ، عندما أتعب جداً .. أذهب إليه ..

رضا : وماذا يعمل زوج خالتك هذا ؟ ..

زكى : سمكرى .. عنده دكان صغير ..

رضا : ولماذا لا تعمل عنده ؟ ..

زكى : هو لا يريد ..

رجب: طبعاً ..

زكى : هكذا .. يوم هنا ، ويوم هناك .. أحياناً أنام عند صاحب لى ..

رضا : وماذا يعمل صاحبك هذا ؟ ..

رجب: لص مثله ..

زكى : لا والله يا حضرة الشاويش .. قهوجى .. لا زوجة له ولا ولد .. أحياناً ــ عندما يرانى متعباً آخر الليل ــ يأخذنى لأنام عنده ..

رضا : أليس لك أهل ؟ .. أب .. أم ؟ ..

زكى : أبى وأمى ماتا من سنين .. يرحمهما الله .. أبى كان يعمل شيالا فى المحطة .. بعد أن مات توسطوا لى وأخذونى محله .. كنت صغيراً .. ١٦ سنة .. ثم حدثت سرقة .. حقيبة ضاعت .. اتهمونى بها وطردونى .. من يومها وأنا فى الشوارع ..

رضا : وهل سرقت هذه الحقيبة أيضاً ؟ ..

زكى : لا والله .. سرقها شيال آخر .. رجل كبير .. وهو الذى اتهمنى بها وضربنى حتى كاد يقتلنى ..

رضا : تقول إنك حاولت أن تعمل عملا شريفاً ؟ ..

زكى : مائة مرة .. من ثلاث سنوات عملت فى دكان لمدة شهرين ..

رضا : ولماذا تركت العمل ..

زكى : طالبونى بتحقيق الشخصية وشهادة الخلو من السوابق ..

رضا : ألم تسرق هناك شيئاً ؟ ..

زكى : لا والله .. والسيدة نفيسة .. أو يدوسنى الترام ..

رجب : يا أخى ليته يدوسك ..

زكى : ليته يا حضرة الشاويش ..

رضا : وما اسم صاحب المحل ؟ ..

زكى : الحاج أمين السيد بالغورية ..

رضا : (لرجب) ابحث لنا عن رقم تليفونه فى الدفتر ..

رجب : ياسيادة الوكيل .. سنفتح على أنفسنا باب تحقيق جديداً ..

زكى : اسأله أرجوك .. كلمه بالتليفون ..

رضا : (لرجب) شوف النمرة يارجب (رجب يأخذ الدفتر ويفتحه ويمضى يبحث فى استنكار)

رجب : (يقف عند صفحة ويضع أصبعه على سطر) الحاج أمين السيد الأسيوطى؟

زكى : نعم ..

رضا : اطلب الرقم .. (رجب يدير القرص ثم يناول السماعة لرضا) محل

الحاج أمين السيد الأسيوطى ؟ .. هنا نيابة الوايلى .. أريد أن أكلم صاحب المحل.. أيوه .. رضا عبد الرحمن وكيل نيابة الوايلى.. .. الحاج أمين الأسيوطى ؟ .. سيادتك ؟.. لا .. لا .. لاشىء .. خير .. هل تعرف شخصاً اسمه زكى أبو حبل ؟ .. أيوه أبو حبل .. كان يعمل عندك ؟ .. كم شهر ؟ .. شهرين .. ولماذا طردتموه ؟ .. لم تطردوه ؟ ..

زكى : (فى فرح) الحمد لله ..

رضا : (مستمرا فى الكلام فى التليفون) إذن لماذا خرج ؟ .. آه .. لم يقدم تحقيق شخصية .. وما رأيك فيه ؟ .. يظهر أنه رجل طيب ؟ .. أنت متأكد أنه لم يسرق شيئاً ؟ .. شكراً .. شكراً .. لامؤاخذة على هذا الإزعاج .. شكراً .. لا .. لا .. لاشىء (يضع السماعة مكانها وينظر إلى رجب)

زكى : جاءك كلامى ؟ .. ماذا أعمل ؟ .. والله ياسيدى خلال هذين الشهرين كنت كل يوم أذهب إلى مقام الست – السيدة نفيسة – وأقول لها : ياست يا طاهرة .. أنا فى عرضك .. دعيهم ينسوا تحقيق الشخصية .. أنا فى عرضك .. ولكن ماذا تعمل الست الطاهرة ؟ .. كان الحاج أمين رجلا طيباً جداً .. ولكن ماذا يعمل هو الآخر ؟ .. تركت العمل .. وعدت إلى الحفرة .. إلى جبلاية القرود .. من يومها وأنا ألبس هذه الملابس ..

رضا : وهل أنت مستعد لأن تبدأ حياة جديدة ؟ ..

زكى : لا فائدة .. هل رأيت أو سمعت أن قرداً قفز من الجبلاية إلى أرض الحديقة ؟ .. غير ممكن .. سوابق كثيرة ، وهاهى سابقة جديدة .. الله يدرى ماذا سيفعلون بى .. كل يوم صحيفة السوابق تزداد طولا .. وتصبح الحفرة أعمق وأعمق ..

رضا : أقصد بعد أن تفرغ من هذه القضية .. هل أنت مستعد أن تبدأ

حياة جديدة إذا أنا .. ضمنتك ؟ ..

رجب : (مستنكراً) تضمنه ؟ .. تضمن من يا سيادة الوكيل ؟ .. هؤلاء وحوش وأنت رجل محترم وشاب صغير ومستقبلك عظيم .. هؤلاء يجنون عليك .. يأكلونك .. أرجوك .. (متوسلا) أرجوك.

زكي : صحيح يا سيادة الوكيل .. كما قال الشاويش .. نحن وحوش.. أنا من طينة أخرى .. مكانى هناك .. وأنا أعرفه .. لا لزوم لأن تهبط معنا فى الحفرة .. سنأكلك كما قال الشاويش ..

رضا : أنا أعرف ما أعمل .. هل أنت مستعد لأن تبدأ حياة أخرى ؟..

زكي : أجل .. ولكن بدون ضمانك .. دعنى أخرج من الوحل وحدى ..

رضا : ضمانى لك ليس معناه أننى مسئول عنك .. معناه أننى سأجد لك عملا ، وسأعفيك من صحيفة السوابق ..

زكي : وإذا حدث منى شيء ؟ ..

رضا : تعود إلى الوحل ..

زكي : وأنت ؟ ..

رضا : لا تخف علىّ .. أنا أعرف ما أعمل .. والآن هل أنت مستعد؟

زكي : مستعد ..

رضا : كلمة شرف ؟

زكي : كلمة شرف ..

رجب : كلمة شرف من هذا ؟ !

رضا : سيكتب الشاويش رجب المحضر ويقرأه عليك وتبصم عليه وستحال إلى المحكمة .. ستعاقب على هذه الجريمة .. ستضاف سابقة جديدة إلى الصحيفة .. ولكن هذه الصحيفة كلها سترقد هنا فى درج مكتبى ، وسيفتح لك الطريق لتخرج من الجبلاية .. سنجربك .. سأعطيك الفرصة التى تطلبها ..

زكي : (ينظر لرجب فى دهشة) هل هذا معقول يا حضرة الشاويش ؟

رجب : (يهز كتفيه ويفتح يديه ويبدو على ملامحه الشك) مادام سيادة الوكيل يقول ذلك .. (لرضا) لكن لا تنس سيادتك أنهم سيطالبونه بصحيفة السوابق .. وهى — كما تقول — فى درجك ..

رضا : سيستخرجون له صحيفة جديدة ..

رجب : (يهز رأسه ويبتسم ابتسامة مريرة .. يتكلم كأنه يحدث نفسه) صحيفة جديدة ؟.. ما كان أحد تعب! كلام ! .. هذه إدارة كبيرة .. سبعة أدوار فيها ألف موظف .. كل عملهم الصحائف السوداء لهذا وأمثاله .. ثم نذهب ونقول لهم : احرقوا الصحائف التى عندكم واعملوا صحائف أخرى جديدة .. بيضاء ؟ .. ولمن ؟ .. كلام ! ..

رضا : (فى شىء من الغضب) ماذا تقول ياشاويش ؟ ..

رجب : لا شىء يافندم .. لا شىء .. أمرك .. سيستخرجون له صحيفة جديدة ولكن .. حتى بهذه لن يقبله أحد .. سمعته .. ربنا يحفظ سيادتك ..

رضا : أنا سأجد له العمل .. بل عندى هذا العمل .. (لزكى) بعد أن تخرج من السجن تأتى إلى هنا ..

زكى : (فى لهجة غير المصدق) صحيح يابيه ؟ .. سأعمل مثل غيرى ؟ أصبح صاحب عمل دائم ؟ .. وآخر الشهر يعطوننى مرتباً ؟ .. (ينظر فى يده) وأؤجر شقة (فى شبه حلم) مثل بقية الناس ؟ .. وأشترى أثاثاً ؟ وأنام على .. سرير ؟ .. (يلتفت إلى رضا ويستمر فى الحديث بنفس اللهجة وهو يشير إلى بذلة رضا) وألبس بذلة .. كهذه ؟ .. وقميصاً أبيض بأزرار كاملة ؟ .. (يمد يده إلى عنقه) وألبس رباط رقبة ؟ .. وأحلق ذقنى ؟ .. وأسير فى الطريق نظيفاً ؟ .. محترماً ؟ .. (يطأطئ رأسه ويهزه فى عصبية .. ثم يرفع وجهه ويبتسم ، ويتكلم وأثر البكاء فى صوته) يمكن .. جائز .. مادام سيادتك تقول .. يمكن ..

رضا : (يتأمل زكى لحظات . يتحسس جيوبه باحثاً عن علبة السجائر

زكى يسرع فيقدم إليه العلبة . يأخذ منها سيجارة . زكى يشعلها له) شكراً .. هيا يا رجب .. خذ زكى للمكتب المجاور وأثبت أقواله التى أدلى بها هنا وهاتها لى قبل أن يبصم عليها ..

رجب : حاضر يافندم (يأخذ زكى من ذراعه ويمضى به نحو الباب)

رضا : (منادياً زكى) طعامك .. (ينهض ويحمل السبت ويتجه به إليه . زكى يسرع ويأخذه . رضا يعود إلى مكتبه . زكى يسير مع الشاويش حتى يبلغ الباب . يقف لحظة . رجب يحاول أن يدفعه خارجاً)

زكى : انتظر ياحضرة الشاويش (يلتفت نحو رضا) ياسيادة الوكيل .. أنا مدين لك .. ولابد أن أرد دينى ..

رضا : ستَرده بعد أن تخرج من السجن ..

زكى : (فى تصميم) لا .. الآن .. (يريد العودة نحو رضا . رجب يحاول أن يمنعه بالقوة) .

رضا : دعه يارجب ..

(زكى يتقدم فى بطء نحو مكتب رضا . ثم يقف . يضع السبت على الأرض . يدس يده فى بنطلونه من أعلى . يبدو أنه يحاول استخراج شىء . رجب ينظر إليه ثم إلى رضا كأنه يستأذنه فى إخراجه . رضا يشير إليه أن يقف ساكناً . زكى يخرج يده وفيها حافظة نقود . يتقدم ويضعها أمام رضا . رضا يتأملها دون أن يمسها)

رضا : ماهذا ؟

زكى : محفظة .. خذها .. انظر ما فيها ..

رضا : (يتناولها . يفتحها فى دهشة . ينظر فى بطاقة تحقيق الشخصية الموضوعة فى غلاف سلوفان بداخلها ويقرأ) دكتور صدقى إسماعيل (ينظر إلى زكى فى دهشة ، ثم إلى رجب) هذه حافظة نقود الدكتور .. الحافظة الضائعة ..

رجب : والنقود ؟ .. فيها ؟ ..
رضا : تعال .. تعال .. ابحث أنت ..

رجب : (يتقدم ويأخذ المحفظة . تتسع عيناه وهو يرى نقوداً فيها . يأخذ في إخراجها ويضعها شيئاً فشيئاً على المكتب وهو يعد) عشرة .. عشرون .. ثلاثون .. (إلى مائتين . ثم ينظر إلى زكى) والباقى ؟.

زكى : فيها .. ابحث جيداً ..

رجب : (يعود إلى البحث . يخرج أوراقاً أخرى) مائتان وخمسة ، وعشرة (إلى ٣٧)

رضا : (يفتح الدوسيه وينظر فيه) ولكن الدكتور أبلغ عن ٢٣٥ جنيهاً فقط ..

زكى : وصرفت جنيهين .. كانا ديناً علىّ لزوج خالتى ..

رجب : يعنى ٢٣٩ جنيه .. ولكن المثبت فى المحضر ٢٣٥ ..

رضا : غير مهم .. نادراً ما يعرف رجل مثل الدكتور صدقى مافى جيبه تماماً .. (لزكى) إذن فأنت الذى سرقت المحفظة ؟ ..

زكى : نعم ..
رضا : ألم يفتشك البوليس ؟ ..
زكى : فتشنى .. ولكن البوليس لا يعرف هذه الأشياء ..
رضا : إذن لماذا أخرجتها الآن ؟ ..

زكى : (يهز رأسه ويطأطئه) لا أدرى .. خجلت منك .. أردت أن ترى أننى أيضاً بنى آدم ..

رضا : ولكن هذا يزيد عقوبتك .. هذه جريمة أخرى ..

زكى : لا يهم .. ستة شهور أو سنة زيادة فى السجن .. المهم أن أشعر أننى محترم فى نظرك .. لابد أن أصفى حساب الماضى مادمت سأخرج من السجن رجلا جديداً .. هل هذا يؤثر فى وعدك ؟ ..

رضا : بالعكس .. هذا يخفف مهمتى .. ربما استطعت تخفيف العقوبة عن الجريمتين معاً ..

زكى : ليس من الضرورى أن تتعب نفسك .. أنا فى حاجة إلى مدة فى السجن ..

رضا : ماذا تعنى ؟ ..

زكى : لأنى أريد أن أتعلم القراءة والكتابة .. هل تستطيع أن توصيهم بأن يعلمونى قيادة اللورى فى السجن ؟ ..

رضا : أى لورى ؟ ..

زكى : اللورى .. أى لورى .. طول عمرى أحلم بأن أكون سائق لورى . تعلمت ذلك مرة .. ولكن اليأس من الحصول على الرخصة أقعدنى .. (يبتسم وينظر إلى بعيد ويعمل بيديه حركة قياة اللورى) طول عمرى ! .. طول عمرى أحلم بالجلوس على المقعد العالى .. من مصر إلى الإسكندرية .. إلى أسيوط .. إلى المنصورة .. آه .. ودمياط ! .. وغيرها .. وغيرها .. (يهز رأسه) لولا الرخصة الملعونة ! أخيراً فكرت فى أن أشترى لورى .. لكى أعمل عند نفسى دون أن يكون هناك صاحب عمل يطالبنى برخصة .. قالوا لى إن اللورى ثمنه ٢٠٠٠ جنيه .. قلت أجمعها بالسرقة .. كانت البداية هذه المحفظة .. لم أنفق مما وجدته فيها إلا جنيهين دفعتهما لزوج خالتى ليسمح لى بالنوم عنده .. ستة أيام وأنا أتضور جوعاً .. ولكنى لم أمس مليماً .. كنت أريد أن أجمع الألفى جنيه .. عندما رأيت السيدة ذات الحقيبة بدا لى الأمل فى مبلغ محترم آخر .. ولكنى وقعت .. لايهم .. كنت سأتابع العمل بعد الخروج من السجن.

رضا : والآن ؟ ..

زكى : (يهز رأسه) لا .. الآن لا .. أصبحت فى دنيا أخرى .. صحيفة السوابق انتهت والحمد لله .. إننى أقف الآن على نفس الأرض

التى يقف عليها الناس المحترمون .. سأتعلم الكتابة ، وسأحصل على رخصة القيادة .. أليس كذلك ؟ ..

رضا : (يفيق من تفكير طويل .. يمسح بيده على وجهه) مؤكد .. مؤكد (لرجب) اذهبا معاً وانتظرا عند حسيب أفندى .. قل له يعد أوراقه ليكتب التحقيق هنا .. أتعبتُ هذا الرجل معى .. ولكن قل له إن الأمر لن يستغرق طويلا ..

رجب : الجندى هنا .. إنه يريد أن يعود بالمتهم إلى القسم .. لقد هلك من الجوع ..

رضا : (يخرج ورقة مالية من جيبه ويناولها لرجب) اشتروا لأنفسكم طعاماً ولا تؤاخذونى .. اعتذر له ياشاويش رجب .. بعد ربع ساعة سأناديكم لنعمل المحضر .. (رجب وزكى يخرجان .. .. رضا يفكر طويلا ثم يأخذ الدوسيه الذى إلى يمينه ويقرأ شيئاً ثم يدير قرص التليفون) دكتور صدقى إسماعيل من فضلك.. سيادتك ..؟ هنا نيابة الوايلى . لا تؤاخذنى إذ أزعجك فى هذا الوقت ، ولكن لدىّ خبراً يسرك .. نعم وجدناها .. كم كان فيها ؟ .. لا ٢٣٩ .. العفو .. ليس لنا أى فضل .. الفضل للسارق .. نعم للسارق ، هو أعادها إلينا متطوعاً .. من تلقاء نفسه .. بماذا تكافئه ؟ .. لا ياسيدى ، لا خمس ولا ربع .. إنه لا يريد شيئاً .. غير معقول ؟ .. لا .. معقول ، ومعقول جداً .. يريد أن تساعدنى فى الحصول على عفو عنه .. مستعد ؟ .. شكراً ، هذا ما توقعته منك .. غريبة ؟ نعم ، مسألة غريبة جداً .. ستأتى الآن ؟ .. أرجوك .. أنا فى انتظارك .. (يعيد السماعة إلى مكانها . يجمع النقود ويضعها فى المحفظة ويضع المحفظة فى الدولاب المعدنى إلى يساره . يعود إلى مكانه . يضع يده على جبهته مفكراً فيما سيعمل بعد ذلك . يضغط زر الجرس الكهربائى المثبت

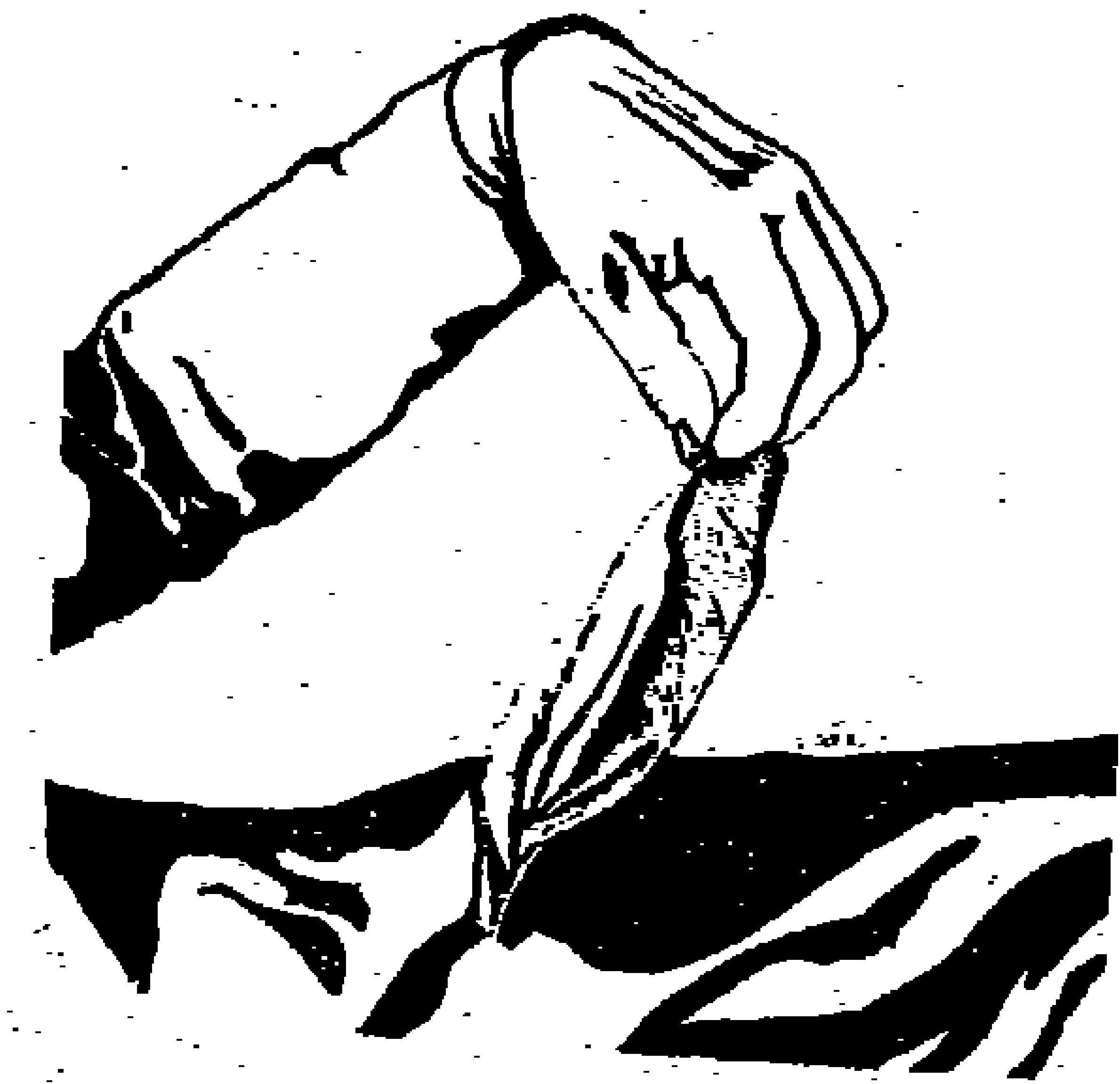
فى الحائط خلفه . رجب يدخل) رجب .. أريد أن تشترى لى سجائر ..

رجب : (ماداً يده بعلبة سجائر وهو يبتسم) هاهى . بعثت الفراش فاشتراها .. لاحظت أنك أعطيت علبتك لذلك الرجل (يأخذها رضا ويشكره . يشعل واحدة . يبدأ فى إدارة قرص التليفون . رجب يقاطعه فيتوقف والسماعة فى يده ، وينظر إليه) ولكن .. ما الذى جرى لذلك الرجل ؟ هل جن ؟ ..

رضا : لا .. لم يجن .. عاملناه كإنسان .. فكان لابد أن يعاملنا كإنسان (رجب يخرج وهو يهز رأسه كأنه يحاول أن يفهم .. رضا يعود إلى طلب الرقم) السيد النائب العام من فضلك .. قل له رضا عبدالرحمن وكيل نيابة الوايلى .. نعم .. نعم .. (لحظة صمت) سيادة النائب العام ؟ .. أرجو ألا تؤاخذنى .. عندى مسألة هامة جداً .. أجل هامة جداً .. تتعلق بمصير رجل .. اليوم ؟ .. فى مكتبك ؟ الساعة السادسة ؟ .. شكراً .. شكراً ..

(فى أثناء ذلك يهبط الستار فى بطء ..)

غـــريـبٌ



فى الشقة الصغيرة يسود الصمت . السكون يخيم على كل شيء فيها مع أن سكانها أحد عشر إنساناً . تسعة منهم أطفال وأولاد يستطيعون إقلاق الجن لو أطلق لهم عنان الحركة والكلام . ولكن أباهم نائم ، وهو إذا نام القيلولة فلابد أن ينام كل شيء ، ويخمد كل صوت فى ذلك الكون الصغير الذى يحكمه بالحزم والعزم .. والحب أحياناً .

يظل كل شيء ساكناً لا يبرح حتى يصحو الوالد من نوم العافية ، وإشارة صحوته هى أن يصفق بيديه طالباً القهوة . هنا تدب الحياة فى كل شيء من جديد ، فينطلق الشياطين الصغار ، ويبدأ الكر والفر والشجار ، والشكوى إلى الوالد والجرى على السلم ومنه إلى الحارة ، وهى الميدان الحيوى لهذا الجيش الصغير ..

هذا هو الوالد يصحو ويفتح عينيه ، وهو راقد على الكنبة التى تحجر قطنها من طول الاستعمال ، ثم ينهض نصف نهضة ويصفق .

ويفتح باب الحجرة ، وتدخل زوجته الست عزيزة تحمل صينية عليها كوب ماء . يتناول الكوب ويفرغه فى بطنه . هذا أول مراسم استيقاظ ذلك السلطان الصغير ، الجالس بكل تواضع على كنبة عتيقة فى ركن حجرة نصف مظلمة على منور يضيق الصدر لمجرد النظر إليه .

وتخرج الست عزيزة تجر قدميها جراً ، ويفتح زوجها عينيه ويتأمل بدنها المتضخم الذى يسير مترنحاً ، ويتذكر أنها فى الشهر التاسع وأن ابنه العاشر على الأبواب ، فيفيق دفعة واحدة كأنما كان قد نسى ذلك !

لقد تعود وصول الأولاد على الإفلاس ، حتى أصبح ذلك جزءاً من واقع حياته .. ولكن هذه المرة .. ومد يده تحت المخدة التى كان يتوسدها وأخرج حافظة نقود مستهلكة ومصابة بالأنيميا المزمنة ، ودس فيها أصابعه وأخرج جنيهاً مهلهلا وورقتين قيمتهما معاً عشرون قرشاً ..

هذا كل ما عنده وابنه العاشر يتأهب للخروج إلى دنيا الشقاء ، ومؤشر الشهر يشير إلى اليوم السابع عشر ، وبينه وبين قبض الراتب الجديد أربعة عشر يوماً كاملة لابد لهذا الجيش الصغير أن يفطر ويتغدى ويتعشى فى كل يوم منها ..

وأقبلت ست عزيزة بالقهوة وصبتها له ، وتأملها بحنان شديد ، وشعر بالخجل منها وهى تنحنى فى جهد وقد تصبب العرق على وجهها وأخذت تمسحه بمنديل فى يدها . وظل يتأمل وجهها ثم تناول فنجان القهوة ورشف منه رشفة ، وسمعها تقول : — أظن أننى اقتربت جداً ياسى عبد الحق. فقال فى شىء من الاستسلام :

— ماذا تعنين ؟ أليس أمامنا أسبوع أو أسبوعان ؟

— لا ياسى عبد الحق ... لا أسبوع ولا نصف ؟ يمكن يكون غداً ، أو اليوم ؟؟

فاستقام ظهره فى فزع وقال :

— لماذا ؟ :. هل يمكن أن يبكر الوضع بهذه الصورة ؟

— لا .. هو هكذا .. مضبوط فى موعده ..

— وهل تحسين بشىء ؟

— بكل شىء .. ممكن تجيئنى الحالة فى أى لحظة ..

وأحس بسحابة تمر أمام عينيه، ثم رأى عزيزة تخرج فى بطء شديد، ثم عادت بصينية أخرى عليها أدوات الحلاقة ، فوضعتها على كرسى إلى جواره وخرجت ، ونهض فأخذ يحلق ذقنه دون مرآة ، فلم يكن بحاجة إلى أن يرى وجهه .. ويسبح فى بحر من الآلام ..

* * *

ماذا يعمل ؟ ومن أين المال ؟ وجعل وهو يحلق يسب الأولاد والبنات والخلف والسلف أيضاً . أما قال الناس لك كفاية عفاريت ؟ ألم ينصحك الطبيب بالاحتراس ؟ ما العمل الآن ؟ وماذا لديك لاستقبال هذا الزائر

غير المرغوب فيه ؟ كم شكت لك عزيزة من الأولاد وتعب الأولاد ؟ ولكنك لا تتعظ ! دائماً تقول : كل ولد يأتى برزقه معه ! وها أنت بنفس المرتب منذ الولد السادس ، وما العمل الآن وليس لديك ما يكفى حتى التاكسى للذهاب لإحضار الداية من « السبتية » !

وأحس ببغض شديد لهذا المولود الذى لم يأت بعد ، وتمنى لو يحدث شىء يحول بينه وبين الوصول ، ثم عاد فاستغفر الله ..

وخطر بباله خاطر .. يستدين خمسة جنيهات من الحاج طه إبراهيم صاحب البيت ...

لقد سبق أن استعان به فى مثل هذه المناسبة ، ولكن الحاج طه كبر الآن ولم يعد حراً فى التصرف فى أمواله كما كان الحال قبلا ، لقد كبر أولاده وأصبحوا كالضباع ، ووضعوا يدهم على كل شىء ، والرجل مريض ..

إنه ذاهب فى الساعة الخامسة إلى شقة الحاج ، لإعطاء درس اللغة الإنجليزية لابنه الذى لايريد أن ينجح .. تمنى أن يكون الحاج موجوداً وأن يستطيع أن يخلو به دقيقتين ، ليطلب منه سلفة على حساب تلك الدروس التى يعطيها كل يوم مقابل جنيهين فى الشهر ...

وتذكر أن لديه كتاباً جديداً فى الإنشاء الإنجليزى ألفه زميله مسعود وأعطاه منه نسخة احتفظ بها فى صندوق الكتب فى غرفة السطح . هذه الغرفة ملحقة بالشقة تكرم عليه بها الحاج أيام العز ، أيام كان أجر هذه الشقة ثمانية جنيهات .. قبل أن تنزل عليها التخفيضات وتهبط بالإيجار إلى خمسة جنيهات وقروش.. كان يضع فيها مالا يحتاج إليه من الأثاث البالى. لو أنصف لوضع فيها كل أثاث بيته ، فليس فيه قطعة تصلح لغير الإلقاء فى النار .. وكان يضع فيها صندوقاً فيه كتبه إنقاذاً لها من أيدى العيال .. فكر فى أن يأخذ هذا الكتاب ويقدمه هدية منه إلى الولد ، فيفتح له ذلك باب للدخول فى موضوع السلفة ..

وفرغ من الحلاقة على عجل ، وأخذ مفتاح الحجرة من تحت قمصانه من دولاب الملابس، ومضى يصعد السلم إلى السطح .

* * *

استلفت نظره أن باب غرفة السطح الثانية المجاورة لغرفته كان مفتوحاً .. لابد أن أحداً من عند الحاج طه صاحب البيت هناك ..

فتح باب غرفته ودخل . التراب يغطى كل شىء على العادة ، وأزال التراب عن صندوق الكتب ، ورفع جرائد كانت فوق الكتب فوجد كتاب الإنشاء ، وتناوله فإذا صرار متعلق به . وقع الصرار على الأرض واتجه هارباً خارج الغرفة ، فلاحقه ليقتله فاصطدم بامرأه كانت مقبلة ، أجفلت للصدمة فتراجعت. وتبين أنها عطيات بنت الحاج طه ، فاعتذر لها بأنه لم يرها ، فهونت عليه الأمر وقالت :

ـ كنت أرتب غرفتى هنا عندما رأيتك داخلا السطح . . هذه الغرفة ملجأ لى وأنا أعتصم فيها عندما أغضب من أمى ، إنها تضايقنى كثيراً . .

فنظر إليها طويلا ثم قال :

ـ أنت مثلى لا تسلمين من المتاعب ، والذين يضايقونك هم أعز الناس عليك ، مثلى تماماً . .

فابتسمت وقالت :

ـ تعال انظر . . لقد نظفتها ورتبتها وفرشتها . . إننى أقيم فيها أحياناً . . يوماً أو يومين . .

فنظر إلى الغرفة وراقه منظرها وما وضعت فيها من فرش : حصير عليه قطعة سجاد وسرير سفرى صغير ومنضدة صغيرة وكنبة وكرسيان .

ـ أليست جميلة ؟

ـ إننى أحسدك . . على الأقل أنت لك مهرب وملجأ . . أما أنا . .

واستند إلى الجدار ونظر إليها . لا يزال منظرها جميلا كما كان دائماً . هذا الوجه القمحى يذكره بوجه زوجته عزيزة . فى فترة ما فيما مضى

كان بينه وبين عطيات غزل عابر ، لم يلبث أن انطمر تحت هموم الأيام وكثرة العيال . .

وأفاق على صوتها تقول :

ــ وكيف حال ست عزيزة ... ؟

فهز رأسه وقال :

ــ لا تسألينى عن عزيزة يا ست عطيات...إنها على وشك أن تضع مولودها العاشر ...

ــ هذا الأسبوع فيما أظن ؟ ...

ــ ربما غداً أو اليوم ...

ــ ياخبر ! كان الله فى عونها ...

ــ وفى عونى أنا أيضًا ياست عطيات ... تصدقين بالله ؟ . . مامعى إلا جنيه واحد وعشرون قرشاً ، وأمامى زوجة ستلد ومازلنا فى السابع عشر من الشهر ... صدقينى إننى لا أدرى ماذا أعمل ... لا أدرى ... ضاقت بى الدنيا جداً ... جداً ...

وأحس بيدها تمتد وتستقر على كتفه تعبيراً عن العطف ... فوضع يده على يدها ومضى يقول :

ــ لديك ما يكفى من الهموم ياست عطيات ... فلا تحملى همى أنا أيضًا ...

فقالت فى رقة شديدة :

ــ والله ياسى عبد الحق أنا دائماً حاملة همك .. حينما أرى أولادك وتعبك ومسئولياتك أتمنى لو أستطيع معاونتك ..

ودون أن يشعر وجد نفسه يقرب يدها من فمه ويقبلها ، وظل ممسكاً بها وجعل يقول :

ــ ربنا تخليكى ياست عطيات ... والله إنى لأحس بعطفك علىّ وهذا يكفينى .: وأنت دائماً تشترين الحلوى والكراريس للأولاد .

وتنفس من أعماق صدره وقال :

— ولكننى فعلا فى ورطة ...

فقالت :

— وخصوصاً وست عزيزة لابد أن تلد فى المستشفى هذه المرة ...

— هل قالت لك ذلك .. ؟

— نعم .. ولكنها خجلت أن تقول لك بسبب المصاريف .. لقد تعبت فى المرة الأخيرة تعباً شديداً وأصبحت لا تطيق رؤية الداية .. إنها خائفة هذه المرة ...

وأحس برقة شديدة نحو زوجته . هذه الإنسانة الأصيلة الصبور التى تحملت فى صمت ... حقاً لقد تعبت كثيراً فى الولادة الأخيرة ... ونظر إلى عطيات وقال وكأنه يناجى نفسه :

— بودى لو أخذتها للمستشفى .. ولكن من أين .. ؟ وهل الولادة فى المستشفى أمرهين؟ فنظرت إليه لحظة ثم قالت له : انتظرنى .. سآتى حالا ... لا تترك السطح ...

ومضت مسرعة تنزل السلم، وجلس على طرف الكنبة وأدار بصره فيما حوله. إنها أسعد منى على أى حال .. لقد تزوجت ثلاث مرات ، وطلقت ثلاث مرات ، لأنها لا تلد .. يابختها .. ليس لديها هموم مصاريف أو هموم أولاد... وأبوها ميسور ولن تحتاج أبداً ... ولابد أن يرزقها الله يوماً برجل تعيش معه بمالها على الأقل... هذه المرأة عشقتك فى يوم من الأيام! وأنت أيضاً لا تنكر أنها شغلت بالك كثيراً .. كان ذلك من ست سنوات .. عندما سكنتم هذا البيت .. كنت أنت فى الأربعين ، ولم يكن شعرك قد عرف الشيب بعد .. كان أولادك خمسة ، وكان أبوك على قيد الحياة يرسل إليك كل أسبوع من البلد معونة من الزاد وشيئاً من المال . . كانت عطيات لا تزال عليها مسحة البنات. كانت قد تزوجت وطلقت مرة واحدة عندما مرت بحياتك.. كنتما تتلاقيان على السلم ، عمداً فى الغالب ... وكنت تضمها إلى صدرك .

وهذا كل ما حدث..ثم ذبل هذا الحب الخاطف تحت وقع الزمن القاسى ولكن لم يمت ، وتكاثر أولادك وتزوجت عطيات مرتين أخريين .. وانتهت لاجئة إلى غرفة السطح هذه إلى جوارك ..

وسمع خطواتها صاعدة، ثم أقبلت إليه ومدت نحوه يدها بورقة ماليةوقالت:

ــ خذ.. هذه من عندى ... علشان الست عزيزة.. لابد أن تأخذها للمستشفى ..

ونظر فى الورقة . كانت عشرة جنيهات . لم يصدق عينه وابتسم على رغمه وقال وهو يمسك بذراعى عطيات :

ــ سأعيدها إليك جنيهاً كل شهر .. ربنا يخليك ويسعدك .. لقد أنقذتنا جميعاً ...

ورآها تبتسم وتقول :

ــ إنها هدية منى لست عزيزة وللولد الجديد .. لا تفكر فى ردها.

وضمها إلى صدره ، فألقت رأسها على كتفه وقالت :

ــ لم أنسك أبداً يا عبد الحق ...

وقبل أن يرد انفلتت من بين ذراعيه ، وأسرعت ونزلت على عجل .. ووقف صامتاً ، ورفع بصره إلى السماء :

ــ أشكرك يارب ، أشكرك .. الحمدلك ألف حمد .. والله ماأردت شرًّا ... أنت عالم بحالى يارب ... هى غلبانة وأنا غلبان ... وأنت رب الغلابى تعطِّف قلب المسكين على المسكين ...

ووضع الورقة المالية فى جيبه ، وعاد إلى غرفته ، وبصر فإذا الصرار يعود إلى الغرفة سائراً فى حذر أسفل الحائط ، فقال :

ــ أنت مسكين مثلنا .. عد إلى صندوقك وعش فيه فى هدوء .. وهذا كتابك لتنام تحته كما كنت !

ووضع الجرائد فوق الكتاب وأقفل الصندوق فى رفق ، ثم أغلق

الغرفة ومضى نازلا وهو يحس كأن حجراً انزاح عن صدره :::

* * *

عندما وصل إلى شقته وجد صديقه وزميله فى المدرسة محمود عمران فى انتظاره . أتى يسأله عن الحال ، ثم ليذهبا إلى المقهى معاً ، فقال :

— أظن يا محمود عزيزة ستلد اليوم أو غداً .. هل كلمتكم ست بركة الداية ؟

— هذه المرة عزيزة ستلد فى المستشفى . .

وكانت عزيزة داخلة بالقهوة ، فقالت :

— من قال لك إننى أريد أن ألد فى المستشفى هذه المرة ؟

— لا أحد ... ولكنك تعبت المرة الماضية تعباً شديداً ..

— معلهش .. أتحمل مرة أخرى..المستشفى تحتاج إلى مصاريف...

— ربنا معنا .. كل شيء يهون فى سبيلك ياعزيزة.. وهل عندى غيرك؟.. هيا يامحمود .. تعال نحجز غرفة فى مستشفى المبرة.. يقولون إن الزحام شديد ..

— على الدرجة الثانية فقط . . يعنى الغرف المزدوجة ..

— هذا ما نريد .. تعال ...

وبينما كانت عزيزة تدعو له بطول العمر ولسانها يلهج بشكره ، كان ينحدر على السلم مع صاحبه .

ووصلا المبرة ... وجدا سريراً خالياً ، قالت الممرضة إنه آخر سرير: دفع خمسة جنيهات ما بين أجر الغرفة ونفقات غرفة العمليات . أصر كاتب المستشفى على أن يأخذ أجر ليلتين . هذا هو الحد الأدنى . ودفع جنيهاً آخر لا يدرى لماذا ...

شعر بسرور عظيم أن استطاع ذلك، ثم ذهب مع صاحبه فجلسا فى المقهى قدر ساعتين . كانت الساعة الثانية مساء عندما عاد إلى البيت ،

استقبله ابنه أسامة وقال له :

ــ ماما راحت المبرة ...

ــ متى ؟

ــ من نصف ساعة ... بعدأن خرجت مباشرة جاءها الوجع فاستدعت ست عطيات وذهبتا إلى هناك فى سيارة الحاج طه . قالت إنك تنتظرها هناك .. ألم ترها ... ؟

ونظر إلى وجه ابنه الذى كان يسير نحو الثامنة من عمره وقال :

ــ ومن ذهب معها منكم ؟

ــ عديلة ودولت .. آمال بقيت معنا هينا .. أريد أن أذهب معك يابابا لأرى أخى الجديد ..

وأقبلت ابنته آمال . كانت فى الرابعة عشرة ، وهى ثالثة بناته . عندما تزوج أنجب ثلاث بنات متتابعات : عديلة ودولت ثم آمال .. ثم جاء الأولاد بعد ذلك .. ستة ذكور فى خيط ...

وأوصى ابنته ، وأسرع إلى مستشفى المبرة . كانت قريبة جداً من البيت ..

وعندما وصل كانت عزيزة لا تزال فى غرفة العمليات ، وقرأ فى وجه الممرضة شيئاً لم يعجبه . طمأنته قدر ما استطاعت ورجته أن ينتظر فى هدوء .

وانحط على كرسى ، وأخذ يلعن الأولاد ومتاعب الأولاد ، وانصب غضبه بالأكثر على هذا القادم الأخير : هل كنا نقصك أنت أيضاً ؟ من أين أتيت ؟ ولماذا ابتلانا الله بك ؟ ماذا أفعل بك يا وجه الفقر ؟ ماذا أتيت تعمل ؟ أولاد .. أولاد .. هلكنا من الأولاد .. وهاهى المسكينة لايدرى إلا الله ماذا بها ..

وبعد قليل خرجت الممرضة وخلفها الطبيب ، فأسرع خلفه يسأل فى لهفة . وقال الطبيب :

– الحمد لله .. كانت ولادة متعسرة .. المشيمة تفجرت فى الطريق ورأس الولد كان ملتصقاً بالرحم .. كنّا على وشك إجراء القيصرية .. ولكن الله سلم .. نزل الولد سليماً ..

– وهى .. ؟ كيف حالها هى .. ؟

– بخير .. تعبت كثيراً ولكننا أسعفناها .. ولكن الولد ..

– فى داهية الولد .. المهم هى ..

وأسرع إلى غرفة الولادة ، هز الطبيب رأسه وسار نحو غرفته . ولحقت به الست عطيات وقالت له : مسكين .. هذا هو ابنه العاشر ...

– وأنت أختها .. ؟

– بل جارتها .. ولكننا كالأخوات ...

– إذن تعالى خذى فنجان قهوة عندى فى المكتب .. لقد تعبت معنا كثيراً ..

وسارت معه ، وسألها :

– وهل تسكنين معها فى نفس البيت ؟

– أنا بنت الحاج طه إبراهيم ..

– صاحب العمارات التى على الميدان ؟ إننى أسكن فى إحدى شققكم.

ونظر إليها طويلا وابتسم ، ودخلا الحجرة .. وطلب القهوة ..

* * *

كانت عزيزة قد خرجت من غرفة العمليات . كانت فى سريرها . وجدها فى حالة طيبة . كانت تبتسم ولكن الإجهاد كان بادياً عليها ، قالت :

– الولد .. ؟ أين الولد .. ؟ كيف حاله .. ؟

– الولد مش مهم .. المهم أنت ...

فقالت فى جزع :

– ابنى .. أين ابنى .. ؟ هات لى ابنى .. إنه ولد جميل كبير ..

– لن يحصل للولد شىء ... طمنينى عليك أنت ...

— أنا بخير ... شوف أنت الولد ...

ودخلت ممرضة فقاست حرارة عزيزة ونبضها ، وأعطتها حقنة وقالت :

— الآن أنت بخير ، سنأتيك بطبق شوربة .. لابد أن تأكلى شيئاً .. أنت منهوكة القوى ..

— الولد .. ؟ فين الولد .. ؟

— الولد تحت الأكسيچين .. لا تخافى عليه ... حصل له اضطراب فى التنفس بعد الولادة ، ولكن الدكتور فوزى شاطر جداً .. أعاد إليه التنفس .. وهو الآن تحت الخيمة ولونه يتحسن وقد أصبح تنفسه طيباً ..

فقالت عزيزة :

— قم انظر ابنك ياسى عبدالحق ... أريد أن أطمئن على ولدى ...

فقال فى ضيق :

— ياستى هل ينقصنا أولاد ؟ .. المهم أنت .. أنت أولا .. أنالاأريد أولاداً ...

— معلهش ياسى عبد الحق ظر كيف حال الولد .. أريد أن أطمئن على ولدى ..

وخرج على رغمه . أخذته ممرضة إلى غرفة فيها أجهزة وأدوات كثيرة. عندما دخل استقبله الدكتور فوزى وطمأنه على الولد ..

— لقد أنقذناه بمعجزة ... كادت الأم أن تموت ... وخرج هو دون تنفس .. ثم تنفس .. ثم وقف تنفسه ، ولكنه الآن عال .. كل شىء فيه طبيعى : التنفس ، الحرارة ، النبض ... ولكن لابد أن يظل تحت الخيمة هذه الليلة ... زيادة فى الاطمئنان .. انظر .. هاهو .. لقد تحسن لونه كثيراً ...

ومن بعيد نظر إلى حيث أشار الطبيب . رأى الولد تحت كلة من النايلون .. لم يجد ما يحفزه على التقدم ليراه : كان لا يريد أن يراه .. كان يشعر أنه عبء جديد حط على كتفيه .. لماذا بذلوا هذا الجهد كله لينقذوه ؟ ..

وشكر الطبيب ومضى فطمأن زوجته .. رجته أن يأتيها بولدها قبل أن يمضى . وجد أن النعاس يحط عليها فخرج، وسار فى الطريق إلى بيته ..

وجد أولاده ينتظرونه . طمأنهم على أمهم . لم تلبث ابنتاه عديلة ودولت أن جاءتا . أعطى عديلة عشرين قرشاً ليشتروا عشاء . قالت إنهم لن يستطيعوا الشراء من البقال المجاور لأنهم مدينون له بجنيهين . أخرج جنيهين فناولهما لابنته وقال : ادفعوا له وخذوا ما تريدون.. تعشوا جيداً ..

— ولكن ماما تريد الولد .. لابد أن تذهب إلى المستشفى بعد العشاء وتأتيها بالولد . . .

وفعلا ذهب . كانت الساعة العاشرة مساء . وجد أن الطفل قد تحسنت حاله جداً ، فسمحوا بأن ينتقل إلى غرفة أمه لتراه . رأته واطمأنت عليه ، ثم استأذنوها فى أن يعيدوه إلى خيمة الأوكسيچين ريثما تصحو فى الصباح . رضيت، وقبل أن يتركها رأى وجهها الوسيم يبتسم راضياً . .

خارج الحجرة وجد الدكتور فوزى ، سار معه خطوات . طمأنه على الولد ثم قال له :

— تعرف أنها لطيفة جداً ؟ ..

— من هى ؟ ..

— عطيات هانم التى أتت مع زوجتك ..

— نعم .. أصلها بنت الحاج طه إبراهيم .. مسكينة .. إنها لا تنجب..

فقال الطبيب وهو يهز رأسه :

— إيه رأيك إنى محتاج لواحدة مثل عطيات هانم تماماً ؟ .. أصل مراتى المرحومة ...

ولم يسمع بقية كلامه . كان غارقاً فى همومه . كانت الممرضة قد قالت له إن عليه أن يدفع جنيهين زيادة بسبب إجراءات تعسر الولادة ونفقات الأوكسيچين ...

وعندما كان خارجاً قابله كاتب المستشفى ، كان لا يزال يعمل فقال له :

– نريد منك جنيهين و ٢٢ قرشاً ..

يمد يده فى جيبه وهو يقول :

– خذها من الآن ...

– تستطيع أن تدفع غداً ..

– خذها الآن أحسن ..

وعندما سار فى الطريق إلى بيته أخذ يحصى ما معه . لم يبق معه إلا جنيه ونحو سبعين قرشاً . جعل يكلم نفسه : لابد أن أسافر إلى البلد . غداً الخميس . أستطيع أن آخذ إجازة ، مسافة الخميس والجمعة . أقابل عمى وآخذ منه ما أستطيع . بدون هذا لا أمل .. الجنيه سأعطيه للأولاد .. والسبعون قرشاً تكفى للسفر ..

وأحس بخطوات تلاحقه . كان كاتب المستشفى ، قال له :

– تعرف أننا نسينا أن نسألك ماذا تريد أن تسمى الولد ؟

وكان يفكر فى قريتهم والشيخ غريب الذى يقوم ضريحه فيها فقال :

– سموه كما تريدون .. كله عندى زى بعضه .. سموه « غريب » .. هو غريب وأنا غريب .. كلنا غرباء ..

وأسرع فى خطوه . وسمع الكاتب يقول :

– صحيح أنت غريب ، ولكن لماذا تعطى الولد المسكين هذا الاسم ؟ ..

* * *

وصل قريتهم ، كوم الراهب مركز سمالوط مديرية المنيا ، بعد صلاة العصر بعد رحلة بالقطار والسيارة والحمار – على الترتيب .. فى الطريق قرأ الفاتحة للشيخ غريب . وجد عمه كما هو من سنوات ، جالساً على الكنبة فى غرفته الواسعة المليئة بالنور . كان مريضاً لا يبرح بيته من سنوات . سر لرؤيته ورحب به كثيراً واستدناه إلى جواره على الكنبة وقال له :

– ابن حلال .. كنت أفكر فيك ..

– كلك خير ياعمى .. بعد المرحوم والدى أنت أبى ..

ـ الله يرحمه .. كان سندى فى الحياة .. بعد أن مات ، أكلنى أولادى ..

وسكت قليلا ، ثم عاد يقول :

ـ أما كنتم تنتظرون ولداً جديد ؟ .. ألم تخبرنى فى آخر خطاب لك أن عزيزة حامل ؟ ..

فتنهد عميقاً وقال فى أسف :

ـ أيوه ياعمى .. أهى ولدت أمس .. أصبحوا عشرة ..

ـ ماذا ولدت ؟ . .

ـ جابت ولد .. والله ياعمى ماكنا نريده ..

فقال العم فى استسلام وهو يطرد ذبابة بمنشة فى يده :

ـ أهى قسمتك بقى .. مصيبتك هى مصيبتى .. الأولاد ..

ـ ياعمى .. ليس عندك إلا ستة .. وكلهم كبار ومتروجون ..

ـ عفاريت بعيد عنك ياعبد الحق . . والبنات وأزواج البنات أوحش من الأولاد ..

ـ ليه ياعمى ؟ .. كفى الله الشر ..

ـ ياسيدى كلهم متحزبون على مراتى عايدة بنت الشيخ سليمان الهراس .. مالها والنبى عايدة ؟ .. بعد أن ماتت المرحومة أمهم تركونى وحدى كالكلب . حتى البنات نسين أباهن .. من وحدتى تزوجت عايدة .. بنت حلال وبنت أصل ، وكانت مطلقة من سنوات ولا ولد عندها ولا بنت .. أخذتها وطلعت بنت حلال وأميرة وصالحة وأصيلة .. ولكن الأولاد لا يريدونها .. كانوا يريدون ألا أعطيها ولا قيراط أرض .. هل هذا يصح ياعبد الحق ؟ ست أصيلة وبنت ناس ومخلصة وصابرة ولسانها لا يقول العيب ، لا أعطيها شيئاً ؟ . . من الصبح إلى الليل تخدمنى وتشوفنى وترعانى .. ثم أخرجها من تركتى هكذا ؟ .. هل هذا يليق ؟ ..

ـ معلهش بقى يا عمى .. إنهم أولادك ..

— والله عايدة كل يوم تفكر فيك وفى أولادك .. دايماً تسأل : سى عبد الحق لم يكتب لنا .. لازم نكتب له ..

— فيها الخير .. أصيلة برضه ..

— إى والله أصيلة . وألف أصيلة كمان .. لهذا أقسمت بالله أن أعطيها ثمانية فدادين من الخمسة والعشرين قبل أن أموت .. كانت حرب يا ابنى وضرب نار .. ولولا أن أولاد الهراس ناس كبراء والله ماكنت سأستطيع إعطاءها شيئاً : قسمنا الأرض بحضور العمدة . وإخوتها استلموا أرضها يزرعونها لنا .. ناس أصلاء يعرفون الله .. والله إنهم ليأتون لنا بثمن المحصول إلى باب البيت .. ويملأون بيتنا خيراً .. وأولادى ؟ .. لا أحد منهم يسأل عنى بكوز ذرة .. لعنة الله على كل الأولاد ..

— كلهم يأتون غصباً عنا يا عمى .. لا أدرى لماذا يحزن عديم الخلف على الخلفة ؟ ..

ودخلت السيدة عايدة . كانت امرأة عريضة حلوة الوجه ، عليها وسامة ووقار . فى الخمسين من عمرها ولكن وجهها كان شاباً جميل التقاطيع .. رحبت بعبد الحق كثيراً وكانت تعطف عليه دائماً ..

وأتت القهوة وقال العم :

— قم اقفل الباب ياعبد الحق .. امرأة عمك تريد أن تقول لك شيئاً .

وقام عبد الحق فأقفل الباب ، وقالت الست عايدة وهى تملأ الفناجين : قل له أنت ياحاج ..

— شوف ياعبد الحق ياابنى .. أنا كنت قلت لعايدة إننى أريد أن أكتب لك شيئاً ، لأن أولادك كثيرون وأبوك لم يترك لك شيئاً .. وكمان أنت الوحيد الذى نفع فى المدارس من أولادنا وأصبح مدرساً ..

— والله كتر خيرك ياعمى .. أنت خيرنا وبركتنا ..

— والله ما خيرنا وبركتنا إلا عايدة .. هذه التى تراها أمامك .. بعد أن قسمنا الأرض وكتبنا وسجلنا قالت لى :

اسمع ياحاج عمر .. أنا عارفة أنك كنت تريد أن تعطى ابن أخيك عبد الحق شيئاً ، وأنا لا أكسر لك كلمة ، خصوصاً وأننا سمعنا أن امرأته حبلى من جديد . .

فقال العم :

ـ خلفت ياستى .. جابت ولد .. ماذا سميتموه ؟ ..

ـ غريب ..

ـ شىء لله ياشيخ غريب .. وبعلين ياسيدى .. بعد أن تسلمت رضها قالت : أنت كنت تريد أن تعطيه فدانين ، لكن إخوتى أنا أيضًا لن يرضوا بذلك . . إنهم ليسوا أحسن من أولادك .. ولكنى أعطى سى عبد الحق ثمنهما من عندى لتكون أنت راضياً وهو راض .. وليكون الله سبحانه راضياً عنا ..

فنظر إليها عبد الحق وقال :

ـ والله لا لزوم لذلك ياامرأة عمى .. لقد أتيت أرجو عوناً بسيطاً علشان الولد .. أى شىء .. كما تفعلين معى دائماً ..

ـ لا .. سأعطيك ثمن فدانين الأرض ، حتى أبرئ ذمتى ويكون عمك قرير العين . . .

ـ والله هذا كثير يا عمى ..

ـ خذهم يا ابنى علشان ابنك الجديد .. خذهم وخليهم لغريب ..

وقالت عايدة :

ـ علشان عندما ما يكبر يدعو لى . . عندما يكبر قليلا هاته .. أربيه لك ..

ـ من عينى هذه وعينى هذه يا امرأة عمى ..

ونهضت فأتت بمنديل وفتحته . كانت فيه أوراق مالية . ناولته إياه وقالت :

ـ ٥٠٠ جنيه .. دول حقك ونصيبك .. دول لغريب .. راض الآن ؟

— راضى ؟ .. ألف راضى .. بأقل من هذا راضى .. بخمسين راضى .. بخمسة راضى .. برضاكم عنى بس راضى ..

وأكب على يدها يقبلها ؛ وعلى يد عمه يقبلها ولسانه يلهج بالشكر والدعاء لهما .. وقال عمه :

— ضع النقود الآن فى جيبك ، وإياك أن تقول شيئاً .. ولا كلمة .. غداً صبحاً سيذهب عبد المجيد الهراس أخو عايدة إلى مصر . اذهب معه . لا تقل له شيئاً .. هذا سر بيننا نحن الثلاثة. لا يعلم به إلا الله..

وابتسم وقال :

— رزق ابنك غريب .. ابن سعد .. رزقه سبقه إلى الدنيا ..قم الآن فاغتسل وتعال نتحدث ..

* * *

عندما اقترب من بيته كان يقول فى نفسه :

— اعذرنى يا ابنى غريب .. ظلمتك والله .. ظلمتك وكفرت بنعمة ربنا .. والله لأحفظن هذه النقود لك ، لن أنفق منها مليما إلا عليك.. هذا رزقك وحلال عليك .. والله لأعلمنك إلى الجامعة .. والله لتكونن طبيباً أو مهندساً .. يا حبيبى ياغريب..

وفتحت له ابنته الباب ، وأخذت الحقيبة التى ملأتها الست عايدة بالطعام والدجاج والزاد . وكان وجهه كله ضاحكاً ، فنظرت إليه عديلة وقالت :

— غريب مات ..

فكأنما انقضت عليه صاعقة ، وظل واجماً لحظة ثم أجهش بالبكاء .. ودهشت بناته ، لأنهن كن يعرفن أنه لا يريده . ولكنهن جعلن يواسينه ، وأقبلت عزيزة فقالت وهى تمسح دموعاً صامتة :

— هاهو قد ذهب . أتى غريباً وذهب غريباً . لم تكن تريده، وما رضيت أن تراه إلا بالقوة .. ياعينى يا ابنى ..

وَوقف عبد الحق وقال :

ـ متى مات ؟ ..

ـ يوم الخميس فى الصباح . عادت له أزمة التنفس واختنق ، وعجزوا عن إنقاذه ..

وأجهش الكل بالبكاء . وقال عبد الحق ..

ـ ودفنتموه وأنا غائب .. !

فقالت عزيزة وهى تبكى :

ـ نعم .. دفناه مع أختى ..

وانطلق خارجاً وهو يقول إنه يريد أن يقرأ الفاتحة على قبر ابنه .. وصل مع المساء، بعد لأى ما وجد الحارس ، فتح له ودخل ، فانكب على القبر يبكى ..

وتعجب الحارس وقال :

ـ هذا طفل عمره يوم .. كان الله فى عون جارك الذى فقد بالأمس شاباً فى التاسعة عشرة ..

وتركه ومضى . وأخذ عبد الحق يبكى ويناجى ابنه : سامحنى يا غريب.. إننى لا أستحقك .. لم أرد حتى أن أنظر إلى وجهك .. ما كنت أعلم أنك خير أولادى .. أتيت برزقك معك وورثناك .. اغفر لى يارب .. اغفر لى يارب ..

الثّور



كانت ساعة الغروب أثقل ساعات النهار على قلب عبد الكريم محمد خطاب المزارع بقرية كوم الأشراف ، مركز ميت غمر ، دقهلية ..

عندما تأخذ الشمس فى انحدارها السريع نحو المغيب ، وتهبط أشعتها الذابلة من مئذنة الجامع ورؤوس النخيل إلى حائط الجامع وجدران البيوت ؛ ومن الجدران إلى الأرض ، ثم تنسحب شيئاً فشيئاً كأنها ذيول ثوب عروس تمضى ، وتطول فى أثناء ذلك الظلال حتى تصبح ظلمات ..

ثم عندما تتجمع أسراب عصافير الجنة ، وترف بأجنحتها طائرة فى دوائر تضيق شيئاً فشيئاً ، كأنها تودع الشمس الذاهبة برقصة أخيرة حزينة ، عندما كان يتأمل هذه العصافير الصغيرة تدور كأنها سهام مارقة ، وتعلو فى الجو شيئاً فشيئاً ، حتى تظل فى الأشعة الذهبية إلى اللحظة الأخيرة ، كان يشعر بصدره يضيق ، وبقلبه يثقل تحت عبء خانق من خوف وحزن غامضين ؛ لأن الليل فى القرية موحش مخيف خطر ، وربما لأن شيئاً مبهماً فى نفسه كان يقول له إن النهار لا يموت وحده أبداً ، وإنما يموت معه شىء منا ..

ثم يمر به إخوانه أصحاب الحقول المجاورة ؛ فى طريقهم إلى بيوتهم فى كوم الأشراف ، يسيرون نياماً خلف الجاموس النائم هو الآخر ، والحمير الغارقة فى النعاس وأرجلها تمضى بها إلى البيوت ، وكلما مر به واحد منهم هتف به صوت نعسان : سلام عليكم يا عبد الكريم ! ويمضى دون أن ينتظر رداً ، ويده ممسكة بحبل الجاموسة أو بذيلها ، وقد جلس على ظهرها ابن له صغير ، ممسكاً بحمل صغير من الذرة أو البرسيم أو أى شىء تسير به الجاموسة على وهن ، وربما غنى الغلام لها شيئاً ..

ويتبعهم عبد الكريم بنظره ، ويتأمل هذا الركب البطىء يسير ظلالا سوداء فى عرض الأفق ، ثم تختفى عن بصره فى الظلام . ثم يأخذ بالجبل

الصغير الذى يحيط برقبة ثوره العزيز « ورد » ، ويضع فأسه على كتفه ويمضى هو الآخر إلى بيته ، ويصبح هو وثوره ظلين أسودين آخرين من ظلال موكب الغروب الحزين .

* * *

ولكنه اليوم لم يكن يستطيع السير فى أعقاب القافلة كما تعود أن يفعل كل يوم ، كان فى ساعة العودة إلى البيت هذه جالساً على الأرض فى حالة إعياء شديد لا يستطيع معه أن ينصب قامته ، كان يجمع بقايا قوته الذاهبة لينهض . ثم إن عم محجوب ، ذلك الشيطان الرجيم كان ينتظره فى البيت ، وكان كل شىء فى الدنيا هيناً عليه إلى جانب لقاء ذلك الدائن اللدود .

كان منهوك القوى ، لأن مغص الكلى – أو الدور كما يسميه – زاره اليوم زيارة ثقيلة قبل الغروب بقليل .

شعر – كما هى العادة كل مرة – بذلك الألم الشديد الذى يفاجئه دفعة واحدة ، كأنه سكين يوغل فى أسفل ظهره ، فاستند إلى شجرة الجميز وأمسك بجنبيه وأخذ يئن فى صوت مكتوم ، مخافة أن يسمعه أحد من جيرانه فيتجمع عليه الناس ، ويمضى كل منهم يقترح عليه ويشير بأشياء لا تنفع ولا تشفع . وتصبب العرق على جبينه وجسمه كله ، فجلس مستسلماً منتظراً أن تأتى بنته « عيشة » ، فهى تأتى كل يوم فى مثل هذا الوقت حاملة إبريق الشاى .

وتصابر حتى وصلت . فما رأت أباها على هذه الصورة حتى فهمت ، فهى بنت لطيفة حادة الذكاء . وأسرعت إلى « ورد » وكان مربوطاً إلى الساقية يدور ويدور ، فحلت رباط النير ثم رفعت العصابة عن عينيه : فسار بخطوات متثاقلة حتى إذا صار على خطوة من صاحبه برك ونظر إليه كأنه يستدعيه ..

ونهض عبد الكريم ، فجلس مسنداً ظهره إلى ورد كأنه يستعين بدفء جسده على الألم ، وأسرعت عيشة فوضعت إبريق الشاى على

الأحجار الثلاثة إلى جانب الشجرة . وجمعت قشاً وقوالح ذرة وأوقدت تحت الإبريق ، ثم مضت إلى أبيها تجفف عرقه بمنديل رأسها ، ثم مدت يدها فى جيبه فأخرجت علبة الدخان ، وناولته سيجارة منها وأشعلتها له، ثم ذهبت فوضعت الإبريق ، وصبت منه فى الكوب وأتت به إلى أبيها ..

ومضى أبوها يرشف منه شيئاً بعد شىء ، ويأخذ أنفاساً طويلة من السيجارة ، وشيئاً فشيئاً أخذ الألم يخف ، وتصبب على جبينه الملتهب عرق بارد كثير ، يسمونه فى القرية « عرق العافية » ، وهبط عليه شىء من النعاس ، بينما كانت عيشة تجفف له العرق ، وتنظر مبتسمة إلى « ورد » ، فينظر إليها فى سرور ، ويزداد التصاقاً بصاحبه ، تعبيراً عن حبه له وحنانه عليه ..

وكان الظلام قد هبط واختفت القرية عن النظر ، فلم يعد يبدو منها من بعيد إلا أضواء بعض مصابيح البترول . ونظرت عيشة إلى أبيها تستحثه على النهوض إلى البيت ، فأشار إليها بأن تتريث . وكانت شديدة الحب لأبيها والإعجاب به ، فنهضت وسارت حتى جلست إلى جانب النار التى يغلى فوقها الإبريق . وملأت لنفسها كوباً من الشاى ، وأضافت شيئاً من الحطب إلى اللهب الخابى فتأجج من جديد ، وأخذت تنظر إلى ألسنة اللهب تتلظى . وترشف الشاى على مهل ، فى انتظار إشارة من أبيها بالعودة إلى الدار .

وكان أبوها فى ذلك اليوم أشد منها شوقاً إلى العودة إلى البيت ، فإن الرقود فى الفراش والاستدفاء خير ما يرد إليه عافيته بعد ذلك « الدور » الذى يهد الكيان هداً . ولكنه لم يكن يستطيع دخول بيته هذا المساء إلا إذا أذن المؤذن لصلاة العشاء ، فإن عزرائيل كان ينتظره هناك ولن يغادر باب البيت إلا إذا أذن المؤذن لصلاة العشاء .

وعزرائيل كان الاسم الذى أطلقه أهل قرية كوم الأشراف على عم

محجوب إبراهيم عزب – وهذا هو اسمه الكامل – أغنى أهل قريتهم وأبغضهم إلى نفوسهم . ولم يكن الرجل أول الأمر ثقيلا أو رذلا إلى الدرجة التى يستحق معها لقب قابض الأرواح ، ولكنه كان ذكياً متحركاً فاستطاع أن يقتنى واحداً وأربعين فداناً قطعة واحدة ، تمتد قبلى القرية من حوض الدراويش إلى زمام ميت العز ، واشترى بيتاً فى ميت غمر . وأودع البنك مالاً يقولون إنه ألوف ، وهذه كلها ذنوب قلما يغفرها القرويون لأحد من أهل بلدهم ، فكانوا جميعاً طامعين فى ماله .

وكانوا – فى نظره – أعداء لابد من الحذر الدائم منهم . وشيئاً فشيئاً أصبح جامد العواطف قاسى القلب ، لا يفكر إلا فى المال وسبل الحصول عليه ، ومن ثم نشبت معركة طويلة صامتة بينه وبينهم ، وزاد أسباب العداوة أنه كان ممن يقرضون الناس قرضاً غير حسن . وكان يصر على استيفاء دينه فى الأجل المضروب . ولو أدى ذلك إلى خراب بيت المدين .

وكان محجوب لا يعرف فى موضوع النقود هذا رحمة أو رفقاً ، فهو لا يفرق بين من يقترض المال منه للضرورة التى لا مفر منها ، مثل شراء التقاوى أو شراء جاموسة بدل التى نفقت ، أو للذهاب إلى القاهرة لعلاج مرض أعيا طب القرية ، وبين أولئك الذين يستدينون ليقيموا الأفراح لأبنائهم ، أو إذا تزوجوا هم أنفسهم ..

هؤلاء جميعاً كانوا عنده سواء : كان يتقاضى منهم أرباحاً ، « الجنيه عشرة » ، أى عشرة قروش على كل جنيه فى السنة ، وهو يقتطع ربح السنة الأولى من الدين قبل أن يعطيه . وكان عارفاً بكل ما يملكه أى واحد من أهل القرية ، فكانت وثائق الرهن التى يحمل الناس على توقيعها فى غاية الدقة ، فلا يكاد المدين يتأخر فى الدفع يوماً حتى تكون إجراءات الحجز فى الطريق . وإذا طلب المدين مهلة ، عملت له عملية معقدة تنتهى بالشىء المرهون إلى قائمة أملاك عم محجوب قطعاً ..

وكان عبدالكريم مديناً له بثلاثين جنيهاً كاملة ، أخذها منه

العام الماضى ليعين أمه على الحج ، وذهبت المرأة الطيبة فحجت ثم ماتت ودفنت فى الأرض الطيبة ، وها هو العام قد دار وحل أوان الدفع ، وليس لدى عبدالكريم قرش واحد ، وبدأ عزرائيل يلازم البيت على طريقته عندما يحل أوان السداد على معسر ، وأمله أن يتنازل له عبد الكريم عن قيراط أرض من الفدان المرهون على ذمة السداد ..

* * *

وقد بدأت هذه المساومات من أيام ، وتبين لمحجوب أن استخلاص قيراط الأرض عسير جداً ، فوضع عينه على «ورد» ، ذلك الثور العظيم الذى يعتبر زينة ثيران مركز ميت غمر ، ومقصد الراغبين فى السلالة الطيبة لمواشيهم فى الدقهلية كلها . لقد عرضت عليه الجمعية الزراعية ستين جنيهاً كاملة فى مقابل «ورد» فرفض ، لأن ورداً كان أكثر من ثور ، كان أشبه بصديق كريم وإنسان فهيم .

كان يعمل من طلعة الشمس إلى مغيبها ، فيروى الفدانين فى اليوم ، ويحمل على ظهره الأربعة أرادب أو الخمسة ويسير بها من الحقل إلى الطاحونة فى «ميت العز» فى ساعتين . وكان إلى جانب ذلك ذكياً لبيباً يفهم من عبد الكريم ما يريد بإشارة يسيرة ، ولو استطاع الكلام لكان دون شك من رجال القرية المحترمين ..

لهذا كان عبد الكريم يراوغ ويتهرب ، فقد كان مستعداً — فى سبيل الاحتفاظ بورد — لأن يبيع قيراطاً من الأرض ويدفع لعزرائيل دينه ، أما أبوه فكان — ككل شيوخ الفلاحين — لا يعدل بالأرض شيئاً فى الوجود ، وهو لهذا لا يمكن أن يسلم ببيع قيراط الأرض مهما حدث ..

وخلال الأيام الماضية كلها كانت المناقشة حامية بين الرجلين : هذا يريد أن يبيع الأرض وذاك يريد أن يبيع الثور ، وبعد صلاة العصر من كل يوم يهبط عليهما عزرائيل ويجلس يشرب الشاى كوباً بعد كوب ، وفى كل كوب أربعة قوالب من السكر ، ويصغى إليهما وهما

يتناقشان فى حمية وعنف . ويمد يده فيأخذ مرة سيجارة من علبة هذا ومرة من علبة ذاك ، ويضحك فيما بينه وبين نفسه ، واثقاً من أن الأمر سينتهى بحصوله على الثور والقيراط جميعاً ..

وكان عبد الكريم يعرف أن عم محجوب لا يدع صلاة تفوته ، لأن تقاه يأبى عليه إلا أن يصلى الخمس فى مواعيدها ؛ وفى الجامع خلف صديقه وصهره وشبيهه فى كل شىء الشيخ خالد ، المدرس الإلزامى الذى يقول إنه «يتبرع» بخدمة الجامع وإمامة الصلاة فيه لوجه الله .

وكانت هذه الإمامة تخلع عليه مهابة . وتؤمِّنه وأمواله من عدوان الناس ؛ فلم يكن أحد يجرؤ على أن يأكل عليه مليماً ، خاصة وقد كان هو حريصاً على أن يذكِّر الناس فى خطبة كل جمعة بالآيات الكريمة التى تحض الناس على أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها . فى حين أن أحداً من القرية لا يذكر أنه تلا عليهم مرة واحدة الآية الكريمة التى تحرم الربا !

فإذا ذكَّره بها أحدهم أتى بتفسير لها غريب كل الغرابة ، ملخصه أن الربا المحرم هو ربا الجاهلية . وذلك أن أبا جهل كان يقرض الناس الجنيه بعشرة فى الشهر . فكان يقرض الرجل جنيهاً ويطالبه فى آخر السنة بمائة وواحد وعشرين ، وهذا هو عين الظلم !

فإذا قالوا له : ولكن يا شيخ خالد هل كان الناس يتعاملون بالجنيه إذ ذاك ؟ ضحك وقال : سبحان الله ! إن الجنيه مشتق من الجن ، وهم الذين اخترعوه «ليجننوا» به بنى آدم ، وهو موجود من قبل الطوفان !

وأمام هذا العلم المتدفق يصمت القرويون فى دهشة ، ويبادر المدينون منهم إلى دفع ما لديهم أو يبيعون الشىء المرهون ، ليخلصوا من متابعة الشيخ خالد إياهم باللوم والتقريع فى الجامع على ملأ من الناس .

وكانت فكرة عبد الكريم أن ينتظر حتى إذا أذن الشيخ خالد لصلاة العشاء ، أسرع هو واقترب من البيت ، فإذا مضى العم محجوب للصلاة انسل هو إلى بيته ورقد فى فراشه ومضى يتلوى من الألم . فإذا عاد محجوب

لم تكن أمامه وسيلة للمطالبة والإلحاح ذلك اليوم ، ولا يستطيع أن يهدد بتوقيع الحجز . لأن الناس سيصيحون فى وجهه : حرام عليك يارجل ! خل عندك رحمة وإنسانية ! الرجل يموت فى فراشة وأنت وراءه بالمطالبة والتهديد !

بهذه الطريقة يكسب من عزرائيل يوماً ، وربما بضعة أيام ...

لهذا أخذ بعنان «ورد» وسار ، وجلست عيشة على ظهر «ورد» وقد أمسكت بحمل من البرسيم والذرة وبعض رؤوس القلقاس ، ومرت القافلة الصغيرة ببيت إبراهيم خضر ، وكان قاعداً على الباب وحده يشرب الشاى ويدخن المعسل . فتبادل عبد الكريم التحية معه ..

وعند حائط بيت داود سعفان وقف عبد الكريم وثوره فى انتظار الأذان ، ولم يطل الانتظار فقد انطلق صوت الشيخ خالد ، ولم يلبث عبد الكريم أن رأى من بعيد العم محجوباً يسرع إلى الجامع ، فأسرع هو والثور ودخلا البيت ، ثم وضع يديه على كليتيه وسار فى بطء وهو يتوجع ، فى حين مضت عيشة بالثور إلى الغرفة التى ينام فيها فى رحبة الدار ، ووضعت له البرسيم ومضت لتأتى بالماء .

أما عبد الكريم فقد رقد فى فراشه ، وغطته امرأته باللحاف ، ومضت لتأتيه بالحبوب التى وصفها له حكيمباشى مستشفى ميت غمر ، ثم وضعت الشاى على النار ، وبعد قليل كانت جالسة إلى جواره تمسح له جبينه بمنديل وتناوله كوب الشاى ليرشف منه حتى « يفوت الدور » بسلام .

وبعد قليل أتى أبوه وجلس إلى جواره يحدثه ويطيب خاطره ، ويلف له السيجارة ويشعلها له . ويمضيان فى الحديث فى ضوء مصباح الكيروسين الصغير ..

وعاد العم محجوب بعد أن «خطف» الركعات الأربع . لقد استغرقت منه الصلاة ربع ساعة كاملة ، أى أضعاف ما تستغرقه كل يوم ، لأنه تعود أن يخطفها خطفاً فى ثلاث دقائق أو أربع ، ولكنه اضطر إلى الحديث

بعض الوقت مع صهره الشيخ خالد :

ثم جرى نحو بيت عبد الكريم خطاب ، لأنه أحس أن فى الأمر تلاعباً ، فما كانت عادة هذا القروى المدين أن يتأخر إلى صلاة العشاء فى الحقل ، ولكنه لم يكد يدخل البيت حتى اطمأن ، فقد شم رائحة الثور ، وكان يخشى أن يهربه عبد الكريم أو يخفيه عند أحد معارفه ، خوفاً من الحجز عليه ...

لم يستقبله أحد بترحاب أو ابتسام ، ولكنه ابتسم وحيا متهالا ، وكانت تلك وسيلته فى تجاهل عبوس المدينين فى وجهه وتجهمهم عند رؤيته ، وكان يعرف أنه ليس فى الدنيا مدين يبتسم فى وجه دائن مطالب أبداً ..

وكانت عادته إذا دخل على قوم أن يلح فى التحية ولا يزال يكرر : إزاى الحال ؟ خير إن شاء الله .. سلامات .. ! ، إلى غير هذه من عبارات التأنيس حتى تنفرج الوجوه العابسة ، وتتلاشى معالم الكرب والخوف ، فإذا اطمأن إلى أن الضحية استأنست واستسلمت باغتها بالمطالبة والتضييق والتهديد ..

ولكنه أحس ، عندما دخل بعد عودته من المسجد أن هناك شيئاً جديداً فى الجو . فقد عادت الوجوه إلى العبوس بعد أن كان قد أنّسها ، فجعل يتبسط ويتظرف دون فائدة ، ظلت الوجوه جامدة كالصخر ، وأخيراً قال الشيخ محمد خطاب والد عبد الكريم وهو يهز رأسه فى أسف :

ــ والله ياعم محجوب ، لا ندرى ماذا أصاب عبد الكريم ...

فقال محجوب فى انزعاج ظاهر :

ــ خير إن شاء الله .. ماذا جرى له ؟

ــ رجع من الغيط فى غاية التعب ، لا يستطيع الوقوف على قدميه ..

ــ عنده إيه ؟ الشر بره وبعيد ؟

ــ أتاه الدور فى غاية الشدة هذه المرة ..

فانفرجت أسارير عم محجوب ، وقال فى سرور متكلف :

— ياشيخ خوفتنى ... قل باسم الله ... إنه الدور الذى يأتيه ، وسيأخذ الله بيده ببركة سيدى إبراهيم ... أعطوه قرص الحكيم وشوية شاى ، وفى ربع ساعة يعود كالحصان ..

فعاد الوالد يهز رأسه فى أسف ويقول :

— لا والله ياعم محجوب ... هذه المرة أشد بكثير من كل مرة فاتت .. الجدع فى غاية الألم .. لا ندرى إن كان يفيق الليلة ...

فتغير وجه محجوب وتجهم . ثم قال فى صوته الجهورى الجامد :

— بقى اسمع يا محمد ياخطاب .. هذا اللؤم لا يجوز علىّ ، أنا عارفك كويس .. هذه حيلة تحسبون أنها تنفعكم فى التهرب من السداد ...

وأطلت عزيزة — زوجة عبد الكريم — برأسها من باب الغرفة وقالت:

— ياعم محجوب حرام عليك ، الراجل راقد دايخ مش قادر يأخذ نفسه وسخن زى النار ... وأنت ...

فلم يدعها تتم كلامها واندفع يقول :

— الراجل بخير ، ولا سخن ولا حاجة ...

فقال الوالد : يارجل اتق الله، خل عندك رحمة ... أليس لك أولاد ؟ ...

— اتقوا الله أنتم ... ابنكم بخير ...

— من أين تعرف ذلك ؟

— إبراهيم خضر قال لى .. كان جالساً على عتبة بيته ساعة المغرب، ومر به ابنك وسلم عليه بصوت كالرعد . كان معه الثور وبنته عيشة ، وعندما مر ببيت داود سعفان وقف طويلا كأنه ينتظر شيئاً ..

ففتح محمد خطاب عينيه دهشاً وقال:

— سبحان الله ياعم محجوب .. إنك ترقب هذا المسكين خطوة خطوة كأنه قتل لك أحداً .. ماذا تريد منه ؟

— نقودى.. حقى .. لا أريد إلا حقى.. هل المطالبة بالحق حرام ؟.. أم تريدون أن تنهبوا مالنا وننام ... ؟

— لا أحد ينهب مالك ياعم محجوب ... عيب هذا الكلام الذى تقوله ...

— أنا عارف أنه عيب ... ولكن ماذا أعمل إذا كنتم تحاولون إخفاء رجل فى حجم الباب وتدّعون المرض والموت ؟

— ألا زلت لا تصدق أن الدور أتاه ؟ ...

— الدور يأتى أهل القرية جميعاً .. ليس فى هذه القرية إنسان لا يشكو مغصاً ... كلنا مرضى وأنت عالم بالحال ...

ثم ضرب كفاً بكف وجعل يهز رأسه ويقول :

— قال مغص قال ! هل الفلاح يكون فلاحاً بدون مغص-يا محمد ياخطاب ؟ أرنى واحداً فى هذه القرية لا يأتيه دور كدور ابنك هذا ...

فقال محمد خطاب محاولا تهدئة الرجل :

— صحيح ياعم محجوب كلنا أصحاب مرض ... والمريض ياشيخ محجوب يعذر المريض ... غداً يكون عبد الكريم بخير ، وتأخذ نقودك إلى آخر مليم ، والدنيا لن تطير ...

— نعم .. الدنيا لن تطير ، ولكننى أعرف ما الذى سيطير .. نقودى! أنا ذاهب للعمدة الآن ، ومن باكر نبدأ الإجراءات ... سلام عليكم ..

ونهض مغضباً واتجه نحو الباب ، وقام من خلفه محمدخطاب وأمسك بذراعه ليمنعه من الخروج ، فإن هذا الرجل لو ذهب إلى العمدة وطلب إليه البدء فى الإجراءات ، فإن شيئاً فى الدنيا لن ينفع محمد خطاب أو ابنه ، فإن العمدة نسيب محجوب ، والأغنياء فى كل بلد أقارب وحلفاء ..

وما زال محمد خطاب يتلطف مع محجوب ويطيب خاطره حتى هدأ وعاد إلى مجلسه ، ثم صب له محمد خطاب كوب شاى كأنه الحبر الأسود، وأضاف إليه أربعة قوالب من السكر مزيداً فى الإكرام ، ولف له بيده

سيجارة وأشعلها له ثم قال :

— ياعم محجوب أنت خيرنا وبركتنا . بس انت عارف الأحوال ...

— أنا أعرفها جيداً : عندك فدان ونصف وعند ابنك اثنان ، وعندكما أشياء أخرى كثيرة ...

— يعني ، ألا تنتظر علينا أسبوعاً ؟

— — ولا ساعة ...

— يرضيك أن نبيع الأرض ؟

— ويرضيك أن يضيع مالي ؟

— مالك لن يضيع ... سنعطيك نقودك في الصباح ياعم محجوب ، والناس أعذار ...

— وماذا ستعمل إذا كنت لا نبيع قيراطاً من الأرض ؟ ...

— سأجعل عبد الكريم يعطيك الثور ...

فصرخت زوجة عبد الكريم وهي تضرب صدرها :

— يا للمصيبة ! ورد لا يخرج من بيتنا أبداً ... وسمعوا صوت حركة داخل الغرفة ، ثم أطل رأس عبد الكريم وقد استند بيديه على الباب وقال : إذا مس أحد منكم الثور بيده أطلقت عليه النار ...

ونظر إليه محجوب دون أن تبدو على وجهه أقل علائم الدهشة وقال : هذا هو المريض .

فقال الأب محمد خطاب وهو في حرج :

— صدقني أنه مريض ... ثلاثة بالله العظيم إنه يكاد لا يستطيع أن يأخذ نفسه ..

— بل صدقني أنت ، ثلاثة بالله العظيم — وليس لك عليّ يمين — إن ابنك عبد الكريم سليم قوي مثل شجرة الجميز ، ولو تركناه لأكلنا جميعاً .

فصاحت زوجة عبد الكريم في رعب شديد :

ـ ياحفيظ .. احفظنا يارب من عين السوء ... هذا الرجل ينلبّ فى عينه مسمار ...

ـ أنا ياأم عيشة ؟ .. أنا يابنت نفر التراحيل ؟ ..

فانفجر عبد الكريم غاضباً يقول :

ـ احفظ لسانك ياعم محجوب .. أم عيشة أبوها كان فقيراً حقًّا ، ولكنه أشرف من ناس كثيرين ..

ووجم الجميع . فقد كانت هذه العبارة أشبه بقنبلة . كان مفهوماً من هم أولئك الناس الكثيرون . بعد مثل هذه الجملة لا يبقى إلا التماسك والتضارب ، وإذا وصل الأمر إلى أن يمسك عبد الكريم بعم محجوب ويضربه فإن أحداً فى القرية ، بل فى المديرية كلها ، لا يستطيع إصلاح الأمر...

فى هذه اللحظة دخل الشيخ خالد صهر محجوب وصديقه وحليفه : دخل فى اللحظة الحرجة ، ليوفق بينهما . ومضى يهدئ هذا تارة وذاك تارة أخرى ، وطالت عملية التهدئة حتى تعبت أم عيشة من عمل الشاى وصبه فى الأكواب ..

سمع الشيخ خالد من كل من الرجال حكايته مائة مرة ، حتى بلغت الساعة الحادية عشرة ، وكل من الأطراف متمسك برأيه : محمد خطاب يقسم ألا يباع قيراط من أرضه أو أرض ابنه ، وعبد الكريم يقسم أنه سيطلق النار على من يمس بيده ثوره «ورد» ، والشيخ محجوب يقسم على البدء بإجراءات الحجز وخراب البيوت من الغد ، إذا لم يحصل على المال أو الثور أو قيراط الأرض الليلة ..

وبعد كلام كثير جداً ، ساد صمت ...

ثم رفع الشيخ خالد رأسه وقال وقد انفرجت أساريره ، كأنما وجد طريق الفرج : عندى حل ..

فقال له الأب : خير بإذن الله ..

ـ تزوجوه عيشة ..

وظل ساكتاً لحظة ، ثم تلفت فى وجهى عبد الكريم وأبيه متفحصاً :

ثم نظر إلى أم عيشة التى وقفت واجمة تنظر بعينين بلهاوين إلى هذا الشيخ العاتى ، ثم أفاقت من ذهولها وقالت فى إنكار شديد :

ـــ عيشة ؟ بنتى عيشة ؟ .. لكى يطلقها بعد أسبوع أو تقتلها امرأته نفيسة ؟ ..

وضحك الثعلب العجوز ، فقد كان يتوقع ذلك . كان معتاداً هذا النوع من احتجاجات الأمهات كلما ألقى شباكه على واحدة من بناتهن . كانت تلك هى لذته الثانية فى الحياة بعد جمع المال : الزواج ..

فى سبيل الحصول على بنت حلوة مثل عيشة ، كان مستعداً لاحتمال أى إهانة . كانت زوجته الدائمة الحاجة نفيسة بنت عم الشيخ خالد تقف له بالمرصاد ، فكان لا يغافلها ويتزوج عليها إلا أسرعت مع إخوتها وأجبروه على الطلاق ، بعد أسبوع أو أسبوعين ، ربما شهر ..

هذه المرة أحكم الأمر مع الشيخ خالد ، وسارت الأمور كما رسما معاً ، بقى أن تسرع الخطوات التالية فيتم الزواج قبل أن تعلم زوجته .

وكان واثقاً من أن هذا الزواج سيتم . فإن عبد الكريم ومحمد خطاب ، ككل أب أو جد ، لا يكرهان أبداً فكرة تزويج بنت تخطت الخامسة عشرة . أما أن عم محجوب عجوز ، فمن قال إن الرجال لهم سن ؟ وبالنسبة للطلاق القريب المحتمل ، فمن الذى يضمن أنها لا تطلق بنفس السرعة إذا تزوجت شاباً ؟

على أى الأحوال هناك احتمال وفاة العم محجوب وحصول البنت على تركة ، وهناك احتمالات المساومة على ما يعطيها وما يكتب لها من المال والعقار ، وهو رجل موسر مولع بالنساء . وعيشة بنت حلوة ، لطيفة بيضاء سمينة ، يعرف قيمتها رجل خبير مثل محجوب !

هذه هى الأفكار التى كان محجوب يقرؤها على وجوههم وهم يناقشونه . لقد سبق أن قرأ مثلها على وجوه أخرى كثيرة قبل ذلك ، وعرف كيف

يمكر بأصحابها ويخرج من المأزق رابحاً غانماً ..

وأحس محجوب أن المقاومة تنهار شيئاً فشيئاً ، فضاعف الهجوم ومضى يذكر كيف سيقدم لعيشة من فرص السعادة والهناء ما لا يمكن أن يدور بخلد أمها أو أبيها أو جدها : سيسكنها فى شقة وحدها فى بيته فى ميت غمر بعيداً عن الحاجة نفيسة ، وسيشترى المتاع كله باسمها ، وسيأتيها بالمصاغ الغالى وملابس الحرير ، وسيكرم أمها بالهدايا ، ولديه على سبيل المثال « ملس » حرير معتبر شغل المحلة أحضره لها خاصة ، ونظر إلى الشيخ خالد وقال : فين الملس ياشيخ خالد .. ؟

ــ عند منصور البقال .. نرسل من يحضره

وقال محجوب :

ــ الثلاثون جنيهاً التى لى عليكم هى المهر .:

وفكر جد العروس قليلا ثم قال :

ــ ياعم محجوب ، خلى المهر خمسين جنيهاً ، منها الثلاثون التى تدينينا بها ، والباقى تعطيه لنا فنشترى للبنت حاجة ونجهزها ..

وأراد محجوب أن يحتج ، ولكن الشيخ خالد سارع فقال :

ــ لا مانع ، كل هذا إكراماً لخاطرك يا محمد ..

ومضى الكلام فى التفاصيل ، كان محجوب يريد أن يفرغ من العقد هذه الليلة ، فوافق على كثير مما لم يعجبه ، وأرسلوا فأتوا بالشيخ زيدان مأذون القرية ، فكتب العقد بعد أن سلم محجوب لعبد الكريم عشرين جنيهاً بقية الصداق ، وقرر فى الوثيقة أن عليه خمسين جنيهاً مؤخر صداق...

* * *

وبينما كان المأذون يكتب والرجال يتحدثون ، مضت أم عيشة إلى ابنها الصغير أحمد فأيقظته ، وأمرته أن يسرع إلى بيت الحاجة نفيسة ويبلغها الخبر ، ويرجوها الإسراع فى المجىء . . .

وبعد العقد أرسلوا إلى عم منصور البقال ، ففتح الدكان وأتى بملس

الحرير وزجاجتين من الشربات : وفيما كانت الأكواب تدور سمعوا ضجة وأصوات أقدام مقبلة ، ثم فتح الباب ودخلت الحاجة نفيسة يتطاير الشرر من عينيها ، ومعها إخوتها الثلاثة بدوى ومحروس ودسوقى ، كل منهم كالمارد ضخامة ورهبة ..

وقفوا فى رحبة الدار كأنهم سباع تتأهب للانقضاض . ونظر إليهم محجوب واجماً ، وتمشى فى جسده الخوف وهو يرى هذه العيون النارية الثمان تنظر إليه فى غضب وتهديد ، وقالت نفيسة :

ــ ماذا عملت يا عجوز السوء ؟

ولم ينطق . وضع كوب الشربات على الأرض ولم ينطق ، وقالت أم عيشة :

ــ تزوج .. تزوج ابنتى عيشة .. رغماً عنا !

ــ أنا عارفة .. هكذا يعمل دائماً ... يأخذ بنات الناس بالديون .

وقال دسوقى وهو ينظر إلى محجوب بعينين تخرقان الفولاذ : طلقها . .

وجمع الشيخ خالد أطراف شجاعته وقال :

ــ بس يادسوقى ...

ولم يدعه دسوقى يتم كلامه ، بل لكزه بفوهة بندقيته فى بطنه لكزة آلمته وأخرست صوته . وكانت ورقة الزواج فى يد عيشة ، فطوتها ووضعتها فى صدرها ، وقالت نفيسة : طلقها الآن .. !

ولم يشعر محجوب فى حياته بمثل هذا الخوف .. كان الموت يتواثب فى عينى دسوقى ، وكان هذا رجلا رهيباً له جرائم ومصائب ، ولا يجرؤ أحد على تحديه ، خاصة إذا كان فى هذه الحالة من الغضب : وقال دسوقى :

ــ قلت لك طلقها .. قل إنها طالق بالثلاثة !

ــ إنها طالق بالثلاثة ..

ــ اكتب ياشيخ زيدان ورقة الطلاق ..

وفى أقل من خمس دقائق كانت الورقة قد كتبت ، وتم التوقيع والإشهاد عليها ، ثم سلمت لعبد الكريم ...

ونهض محجوب والشيخ خالد وخرجا ، ومن خلفهما الحاجة نفيسة وهؤلاء المردة الثلاثة ...

وأقفل الباب وساد الصمت ، ثم انفجرت أم عيشة ضاحكة وقالت: خلصنا منه ومن الدين ...

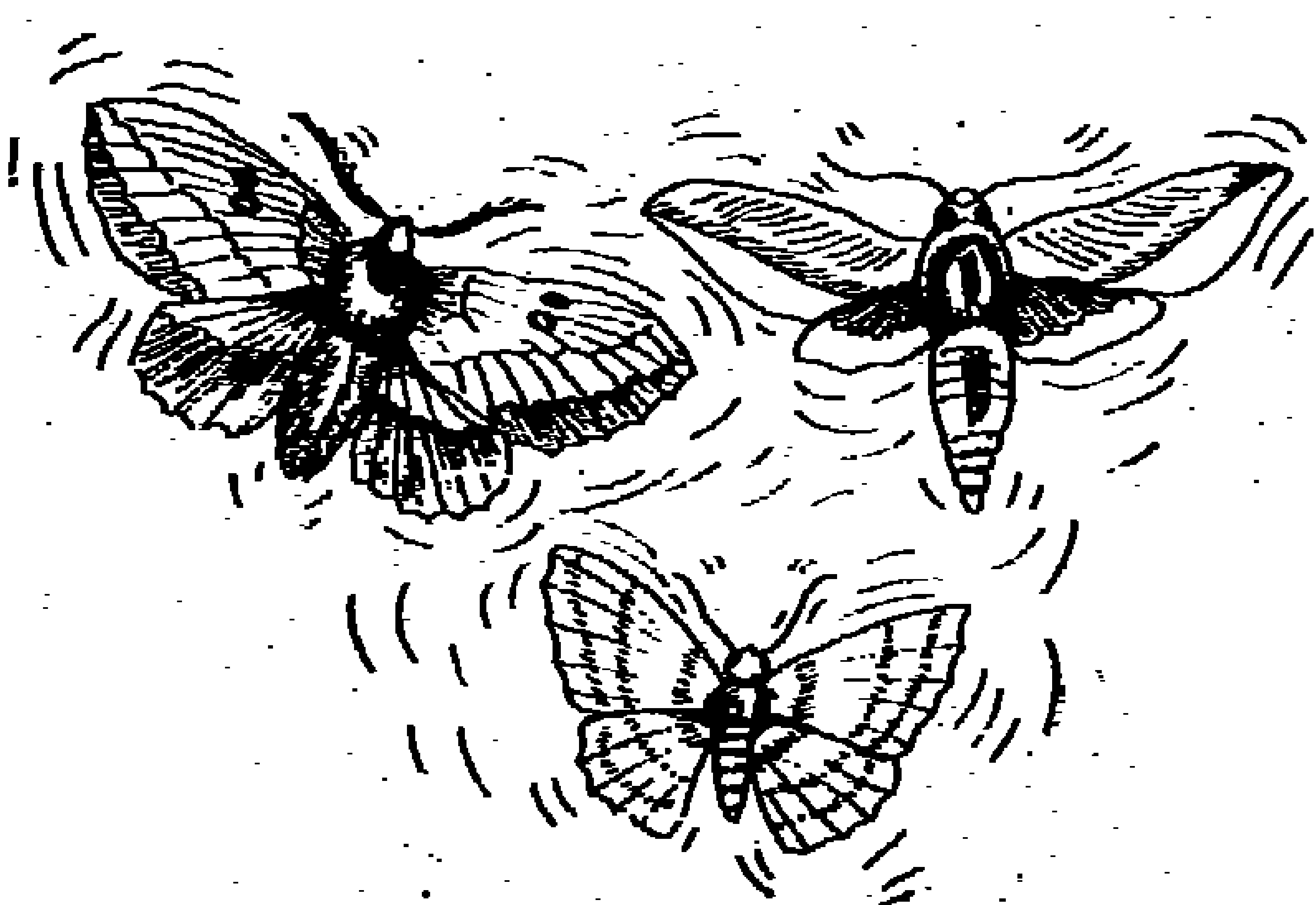
وقال محمد خطاب :

ـ ولنا عنده خمسون جنيهاً مؤخر الصداق ...

ولم يسمع عبد الكريم شيئاً ، كان لا يفكر فى مؤخر الصداق هذا ; كان شعوره بالسعادة لمجرد الخلاص من الدين لا يوصف ، وأخذ زجاجة شربات ومضى يفرغ منها فى الماء الذى يشرب منه «ورد» وهو يقول :

ـ اشرب ياورد اشرب ... كلك بركة يا أمير ... !

الفـراشـة



أغمض المعلم خليل عينيه ليستمتع استمتاعاً كاملا بآخر جزء من عملية حلاقة الذقن الثقيلة التي كان «يجريها» له الأسطى توفيق ، بموساه الرهيبة التي لم تعرف قط حجر المسن منذ اشتراها . وتناول الأسطى توفيق فوطة مبللة بالماء الساخن ، وأدارها حول وجه المعلم خليل ، من إحدى سالفتيه إلى السالفة الأخرى ، مارة بمنطقة الذقن الحافلة بالجروح ، وضغط الفوطة ضغطاً رقيقاً ، ومضى — فى أثناء ذلك — يقص على عميله المستسلم له بين يديه آخر ما فى جعبته من حكايات اليوم ، وتتلخص فى أن عم خليفة البقال أضاع من يده عريساً معتبراً تقدم لابنته «إلهام» بسبب اختلاف بسيط على المهر ، فقد عرض العريس — وهو ابن أخى إبراهيم رفاعى العلاف — ثمانين جنيهاً ، وأصر الأب — أو الأم ، كما يقول البعض — على مائة كاملة ..

ولم يكن المعلم خليل مصغياً إلى حديث الأسطى توفيق ، لأنه يعرف أنه ثرثار لا يلفق فيما يحكى ، ومن ثم فكلامه لا يستحق عناء الإصغاء ، هذا إلى أنه — أى الأسطى توفيق — عدو للدود لعم خليفة البقال ، وقد قامت بينهما منذ سنوات حرب ألعن من حرب البسوس كما يقول عبد السلام أفندى كاتب الأستاذ صفوت المحامى ، وبالأمس فقط شرح لهم الأسطى توفيق — فى شبه محاضرة طويلة — كيف يغش عم خليفة الجاز بالماء ، والسمن بزيت جوز الهند ، والشاى بقشر العلس المصبوغ ، والبن بالفول السودانى ، وختم محاضرته قائلا إن « بقالة خليفة » لا يمكن أن تبيع إلا ماهو مغشوش ، هذا بالإضافة إلى الغش فى الوزن، ولعم خليفة فى ذلك حيل تحيرت فيها عقول الجان ..

وفى هذه اللحظة بالذات ، لم يكن المعلم خليل مستعداً للإصغاء لأحد من الناس ، لا للأسطى توفيق ولا لسواه. لأنه كان يريد أن يشعر بسخونة

الفوطة الموضوعة على ذقنه شعوراً كاملا . يخفف عنه آلام الجروح الكثيرة التى خلفتها معركة حلاقة الذقن فى وجهه . نعم إن هذه الفوطة الساخنة كانت تزيد انبثاق الدم من الجروح . ولكن علاج ذلك سهل ، فبعد أن يرفع الأسطى توفيق فوطته يضع فى كفيه قدراً طيباً من مسحوق التَّلْك ويكبسهما على وجه المعلم المستسلم له بين يديه استسلامه لقضاء الله الذى لا يرد ، وبعد ذلك ينفض المسحوق عن وجهه بفرشاة بالية تساقط شعرها من طول الاستعمال ، فبدت كأنها ذيل دجاجة من دجاجات أم عطية ، التى تسرح وتمرح فى أكوام الزبالة التى تعتبر من المعالم التاريخية المميزة لزقاق «الطابونة» منذ خلقه الله ..

ثم انتهت هذه العمليات المتوالية ، وتلقى المعلم خليل تهانى الموجودين فى المحل : نعيماً ! .. نعيماً ! .. كأنه خرج منتصراً من معركة . وربما كانوا على حق ، فإن موسى الأسطى توفيق كانت فى الواقع قد أصبحت سكيناً باردة منذ سنوات . ولم تكن هناك وسيلة للهرب منه ، فإن أمواس المزينين الآخرين كانت أسوأ وأبرد ، وخصوصاً موسى الأسطى بيومى ، فقد كانت زوجته أم رجب تستعملها فى تقشير الخضار وتقطيع اللحم فى الليل ، وتقول إنها تسنها بهذه الطريقة ...

* * *

خرج المعلم خليل من «صالون النعيم» وسار على مهل فى طريقه إلى المقهى ، ومن حين لحين كان يرفع كفيه إلى أنفه ليستمتع ببقايا عبير قطرات «كولونيا القسيس» التى صبها فيهما الأسطى توفيق كختام لعملية حلاقة الذقن ، وكانت هذه القطرات من كولونيا القسيس امتيازاً خاصاً يقصره الأسطى توفيق على الأعزاء من عملائه ، وكان المعلم خليل من أولئك العملاء الأعزاء وإن لم يكن أكرمهم ..

وفى هذا المساء كان المعلم يشعر بنشوة تفيض فى كيانه كله ، فقد حصل فى الصباح على حكم لصالحه فى قضية الفرن الذى ينازعه ملكيته

من سنوات محمد أفندى كامل سكرتير المدرسة الابتدائية ، وهو رجل يقول المعلم خليل أنه سيذهب إلى جهنم رأساً دون حساب ، فإن حياته كلها ظلم فى ظلم ونهب لأموال الناس ، ومع أنه من أعرف الناس فى بر مصر كله بالقانون والقضايا والمحاكم ، إلا أن المعلم خليل عرف كيف ينتصر عليه ، ويحصل من الاستئناف العالى على حكم نهائى مشمول بالنفاذ ، ومن غد بإذن الله سيشرع فى إجراءات طرد عم جعفر الفران ، وإخلاء الفرن ليبنى على أرضها الواسعة عمارة من ثمانية أدوار ، فى كل دور أربع شقق على الأقل . وقد وعده المهندس وصفى بأن يبنى له فوق العمارة فيلا ذات حديقة وأشجار وزهور .

كان هذا وحده كافياً لإشعار المعلم خليل بنشوة شاملة ، فما بالك وقد تغدى بعد الحكم غداء كفيلا يبعث الحياة فى الحجر ؟ أكل كباباً وكفتة مع محاميه الأستاذ أحمد نور ، ثم مضى إلى بيته فنام ساعتين كاملتين ، ثم صحا فشرب فنجانين من القهوة المحوجة بجوزة الطيب المحلاة بنصف ملعقة من عسل النحل ، مضافاً إليها قطرة واحدة من العنبر الذى « يشد الوسط » ، ثم لبس الجلباب السكروتة الذى يسميه القفطان ، وأسبغ عليه المعطف الأسود — إذا أغضينا النظر عن عشرات البقع التى تزينه من كل لون — ووضع على رأسه الطربوش ، ثم مضى فخاض معركة حلاقة الذقن ، وهى — مهما يقال فيها — تشعر الإنسان بالشباب والنشاط ، وخاصة إذا وضع بعدها شيئاً من القرنفل تحت لسانه ، كما يفعل هو الآن ..

كان فى طريقه إلى « قهوة » المحبة ، وكان يتباطأ فى سيره ليرجئ لحظة وصوله ، لأن شلة الإخوان كانت تنتظره هناك — ولابد — للاحتفال بانتصاره العظيم ، وعلى رأس الشلة عبد السلام أفندى كاتب الأستاذ أحمد نور المحامى ، والحاج برهان تاجر المانيفاتورة ، والمعلم مجلى صاحب محل « الموبيليات النهبية » ، وأمين أفندى راغب الموظف على المعاش ، ونديم أفندى زوج أخته ، وبقية أولئك الكهول الذين يتلاقون فى هذا المقهى

من سنوات طويلة . لابد أنهم سيستقبلونه بزفة كبرى . فقد شرح لهم عبدالسلام أفندى تفاصيل آخر أدوار المعركة مع محمد أفندى كامل سكرتير المدرسة . حتى نديم أفندى سيتوقف عن لعب الطاولة مع المعلم مجلى لينهض ويعانقه . وهذا فى ذاته حدث عظيم . لأن نديم أفندى والمعلم مجلى غريمان فى الطاولة . لا تتوقف الحرب بينهما يوماً . برغم أنهما يسكنان فى بيت واحد فى حارة زيتون .

*

وانتبه وهو فى الطريق إلى أنه تأخر أكثر مما قدَّر . فقد هبط الليل وأوقدت الأضواء . فأسرع فى سيره فقطع الباقى من شارع الترعة ثم انحرف إلى اليمين فى شارع العطار . وهو شارع طويل موحش بالليل لقلة الدكاكين فيه . ثم انعطف إلى اليمين مرة أخرى فى حارة سيدى الأربعين . وهى حارة لا يكاد يمر فيها إنسان بعد الغروب . لأن جانبها الأيمن كله حائط جامع سيدى الأربعين . وجانبها الأيسر دكاكين تجار خضر وفواكه بالجملة تعمل فى الصباح فقط . وبعد صلاة العصر تخلو هذه الحارة إلا من قطط وكلاب كثيرة تعيش على أكوام القمامة وترقد فى بقايا الخضر وغيرها مما تخلفه هذه الدكاكين ويظل إلى صباح اليوم التالى حين تمر عربات الزبالة فتحمله ...

وكانت هذه الحارة تصب فى شارع أكثر منها وحشة هو شارع القبانى . وهو شارع طويل يمتد بطول السور الخلفى لسوق الخضر . وكانت مخازن التجار تملأ هذا الشارع . فإذا مررت فى الصباح لم تكد تجد موضعاً لقدميك . ولم تستطع سماع صوت محدثك بسبب الضوضاء التى تصم الآذان : ما بين نداء الباعة ولغط الناس — ومعظمه شجار — وضجة العربات الغادية والرائحة بالبضائع ، وصياح العربجية الذى يثير الأعصاب . يضاف إلى ذلك أصوات الراديو المنبعثة من معظم الدكاكين .

أما بعد الظهر فهذا الشارع قاحل ، ماحل لا يعمره إلا بار — أو خمارة

بتعبير أصح — افتتحه الخواجا بنايوتي اليوناني من سنوات كثيرة ، ومقهى على ناصيته من ناحية الميدان ، ثم قهوة المحبة التي يقصدها الآن المعلم خليل ، وتقع على ناصية شارع القباني وحارة سيدى الأربعين ، وهي تقوم على شبه شرفة عالية ، فيصعد الناس إليها سلماً من اثنتي عشرة درجة ، وهي منتدى التجار من كل صنف ، يتلاقون فيها أو على شرفتها في الصباح ، وبعد الظهر يقل روادها ، ولكنها تظل مفتوحة إلى منتصف الليل ، لأن هدوءها في الليل مع قربها من الميدان الكبير يجعلانها أنسب الأماكن لتلاقى شلل الكهول مثل شلة المعلم خليل :

وعندما أهلّ المعلم خليل على المقهى من بعيد ، نظر إلى شرفته فلم ير الشلة في مكانها المعهود تحت فانوس النور ، فأدهشه هذا بعض الشيء ، لأن الجماعة لابد أن تكون موجودة بكامل هيئتها في هذا الوقت ..ونظر في ساعته فإذا هي تقارب الثامنة . فاشتد عجبه ، ولكنه قال في نفسه إنهم ربما كانوا داخل المقهى ، فهم يأوون إلى داخله إذا أحسوا في الجو برداً ، وهذه الليلة «طراوة شوية » بالفعل .

صعد السلم على مهل ، ووقف في شرفة المقهى ، ونظر فلم ير أحداً من الشلة هناك ، ووجد منضدتهم خالية ، فسار حتى دخل المقهى ، وبحث عن زكي القهوجي فوجده مشغولا مع جماعة جلست في ركن هناك ، فخرج وجلس على كرسي من كراسي المنضدة التقليدية للجماعة ، وخلع طربوشه ووضعه على كرسي آخر ، ومضى يجفف عرقه ، وهو ينتظر أن يأتيه زكي القهوجي ليسأله عما يطلب .

وأقبل زكي فحياه واعتذر إليه عن تأخره ، ثم قال له : لا مؤاخذه يامعلم خليل .. ألم تذهب مع الجماعة ؟ ..

— أذهب ؟ .. إلى أين ؟

— إلى بيت أمين أفندى راغب : الليلة سنوية المرحومة مراته ، تعيش انت :

ـ سنوية مراته ؟ الليلة ؟ كيف لم يخبرنى أحد بذلك ؟
ـ أنت لم تأت إلى القهوة أمس ..

فهز المعلم خليل رأسه ، ورفع يده إلى جبهته ، ومر بالسبابة والوسطى فوق حاجبه وقال :

ـ آه ... صحيح .. قضيت الليلة الماضية كلها مع الأستاذ أحمد نور المحامى .

وابتسم ابتسامة عريضة ، إذ ذكر انتصاره العظيم . ثم نظر إلى زكى القهوجى فانفجر هذا ضاحكاً وقال :

ـ الله ! نسيت .. ألف مبروك يامعلم .. اليوم يوم عيد .. والله حفلرم عليك يا معلم .. إلى اليوم لم ينتصر أحد على محمد كامل فى قضية واحدة ، ثم تجىء أنت وتملأ قلبه حسرة على أرض الفرن كلها ! .. فدان أرض فى وسط البلد ، المتر فيه يساوى عشرين جنيهاً . تأخذها أنت هكذا بالهنا والشفا ! صدق عبد السلام أفندى إن الأستاذ أحمد نور أعظم محامى فى البلد كلها ... .

فهرش المعلم خليل رأسه وابتسم وقال :

ـ الأستاذ أحمد نور ؟ .. وماذا كان الأستاذ أحمد نور أو غيره يستطيعون أمام الثعبان محمد كامل ؟ .. تصدق بالله يا ابنى يازكى ؟ . . هذه القضية ما كسبها إلا ذراع عمك خليل والتكال على الله .. بيدى هذه كتبت له المذكرات واحدة واحدة .. وهل هناك محام يكسب قضية لأحد ؟ .. المحامون يتقاضون الأتعاب ويلبسون الروب ويقفون فى المحاكم أمام القضاة ، لأن هذه وسيلتهم للرزق .. أما القضايا فيكسبها أصحابها ..

ـ لكن برضة عبد السلام أفندى اشتغل معك ..

ـ عبد السلام أفندى يا ابنى يا زكى كاتب المحامى ، يعنى بتاعه ، يخدمه هو ، يخدم رزقه .. وكل يوم والتانى يأخذ جنيهاً أو اثنين ، ولا يكتب ورقة أو يقوم باطلاع إلا بفلوس .. أرزاق يا ابنى أرزاق !

سبحان من خلق الكون ورزق الخلق فيه ...

وسكت زكى لحظة ، ثم قال :

— لابد أن تذهب يامعلم إلى سنوية المرحومة .. الوقت متأخر والإخوان ينتظرونك هناك ..

فتفكر المعلم خليل قليلا ثم قال فى امتعاض ، وصوته يفيض بالشكوى والتألم :

— والله تعبان يازكى ياابنى ... الليلة الماضية لم أنم ساعة على بعضها .. سهرت مع المحامى للساعة الثالثة صباحاً ، ولم أستطع النوم بعد ذلك .. تعبان ... والله تعبان يازكى ..

ثم بدت على وجهه علائم ملل وضيق شديدين ، ومضى يقول :

— وهذا الثقيل البخيل أمين راغب .. ألم يعجبه من ليالى الزمان غير هذه الليلة للاحتفال بمرور سنة على وفاة امرأته ؟ .. قضية كسبناها بعد خمس سنوات من الحرب مع الغيلان ، فيأبى علينا هذا الثقيل أن نفرح بذلك ويحشر سنوية امرأته الليلة ! والله يا ابنى لاهو أحبها لحظة ولاهى أحبته ، وفى حياتها كان يجلس هنا ، على هذا الكرسى الذى تراه ، ويشكوها ويلعن آباءها أجمعين ساعة بعد ساعة .. وكان فى كل صباح يترك لها نصف ريال للطعام ، ويعود ساعة الغداء ويغضب إذا لم تقدم له دجاجاً .. الدنيا كلها تعلم أنها باعت مصاغها كله لتطعمه هو وأولاده العجول الذين لم ينفع منهم أحد ... ثم يحلو له أن يقيم لها سنوية فى هذه الليلة بالذات ...

فقاطعه زكى قائلا :

— معلهش بقى يامعلم .. المسامح كريم .. أمين افندى راغب صاحبك برضه ، ومراته الله يرحمها كانت ست أميرة وكريمة .. تستطيع أن تذهب إلى هناك فى نصف ساعة ..

— أى نصف ساعة ياابنى يازكى ؟ .. إنهم يسكنون فى منشية البكرى .. لكي أصل إلى هناك أحتاج إلى ساعتين ، وأنت أعرف بالمواصلات ..

وفكر قليلا . ثم أخرج علبة سجائره وأشعل واحدة ومضى يقول فى عصبية وغضب :

— ولماذا لم ينتظرونى ؟ ..

— والله كانوا كلهم قد نسوا الموضوع ، وتجمعوا هنا على العادة حوالى الساعة السابعة . ثم جاء إبراهيم ابن أمين راغب بسيارته وأخذهم كلهم معه ..

— ونسونى طبعاً . . لقد تعمدها إبراهيم .. طبعاً ، إنه لا يحبنى لأنى لا أعهد إليه فى قضاياى .. والله مادفع من ثمن هذه السيارة إلا خمسين جنيهاً ، وصاحبها يجرى وراءه من سنتين .. كل عيشته حرام ؛ وأنا لا أركب سيارته هذه أبداً ..

— يعنى .. لن تذهب ؟ ..

— لا ياابنى .. البيت بعيد والمواصلات صعبة والليل متأخر .. ثم إنهم لابد آتون بعد قليل .. السنويات لا تدوم أكثر من ساعة أو ساعتين

— والله أظن أنهم سيتعشون هناك ..

— أمين راغب يعشيهم ؟ .. كم أنت متفائل ! .. غير ممكن .. وحياتك ماهو إلا فنجان القهوة السادة ولا زيادة .. هات لى القهوة هات . . لعن الله من يسأل عنهم أو ينتظرهم .. كنت آتيا الليلة على نية الاحتفال معهم بكسب القضية ، فأراد لهم وجه النحس أمين راغب أن يذهبوا إلى مخزنة .. فى داهية ! .. فى ستين داهية كمان ! ..

ولم ينتبه وهو يتكلم — إلى أن زكى القهوجى مضى ليأتيه بالقهوة ، فمضى يتكلم وحده ويسب أصدقاءه ويلعن آباءهم ، لأنهم ضيعوا عليه فرحة الاحتفال والسعادة بالنصر العظيم .. وكلما ذكر أمين راغب ازداد غضبه وأطلق لسانه فيه بكل جارح مهين من الشتم والسباب .. وقد كان كاذباً حينما زعم لزكى أنه متعب . فالحق أنه كان يشعر بالعافية تتدفق فى جسمه كأنه حصان شاب . كان الفوز بالأرض الواسعة ثم الغداء الطيب والنوم العميق .. كل هذه كانت قد رجعت به سنوات إلى الوراء وملأت قلبه

غبطة .. وأتى زكى بالقوة ، فأخذ المعلم خليل يرتشفها فى بطء وتلذذ ، ونسائم الليل الطرية تصافح وجهه وهو جالس فى ركن شرفة المقهى العالية تحت مصباح النور ..

* * *

ومضت ساعة أو نحوها ، والمعلم خليل جالس ساكن فى ركنه ينظر إلى شارع القبانى تارة وإلى حارة سيدى الأربعين تارة أخرى ، كأنه ملك عظيم يتأمل رعاياه . كان الوقت فى أواخر يونيو ، وهواء القاهرة يهب دافئاً ثقيلا ، تختلط به بين الحين والحين نسمة بحرية منعشة ، كأنها نفس رقيق ينبعث من فم ملاك رحيم ..

ولم يكن فى الشرفة غيره . كان هناك ثلاثة رجال على منضدة بعيدة ، جلسوا ساعة شربوا أثناءها قهوة وتهامسوا ، ثم مضوا .. بأتاه زكى بقهوة أخرى ، فمضى يشربها فى صمت شامل شعر معه بكأنه وحيد على وجه الأرض . كانت الرِّجل قد سكنت فى الشارع والحارة تماماً ، واستغرق المعلم فى أحلام المبانى والعمارات ، والفيلاَّ التى على سطح ثمانية أدوار بالحديقة والزهور والأشجار .

رفع المعلم رأسه ونظر إلى فانوس النور . إن علاقته بفانوس النور تعود إلى أيام طفولته .. كانت مصابيح الغاز — فى تلك الأيام — جديدة فى القاهرة ، وكان هو وغيره من الصبيان إذا أقبل المساء يطوفون شوارع الحى وحاراته ، خلف ذلك الرجل الطريف الذى يلبس بذلة وعمامة ويسير حافياً ، وفى يده عصا طويلة فى آخرها شعلة يوقد بها مصابيح الغاز بعملية فنية عجيبة ، والأولاد من خلفه عشرات يزفونه مترنمين كأنهم كورس كبير : عفريت الليل بسبع رجلين ..

أما اليوم فلم يعد مصباح الشارع هنا غازياً ، بل كهربائياً . كان المصباح يقوم فى صندوق زجاجى قاعدته صغيرة ولكن أعلاه متسع ، وكان زكى القهوجى يحرص على تنظيفه وتلميع زجاجه كل يومين ثلاثة ،

لأنه كان كأنه جزء من القهوة . ولكن الليل لا يكاد يهبط ويتلألأ نور المصباح حتى تسرع نحوه عشرات من الفراشات من كل حجم ونوع ، وتأخذ فى الدوران حوله والهبوط عليه كأنها بشر يقومون برقصة طويلة حول صنم .

وكان المعلم خليل ينفق وقتاً طويلا وهو جالس مع أصحابه يتأمل هذا المشهد الذى لا ينتهى ، ويتعجب من أمر هذه الفراشات التى تتزاحم على فرجة صغيرة بين المعدن والزجاج ، ولا تزال الواحدة منها تحشر نفسها فى الفرجة شيئاً فشيئاً ، حتى تفضى إلى داخل الفانوس فتندفع نحو المصباح الكهربائى الملتهب فتلسعها حرارته ، وتجد نفسها فى حرارة خانقة حارقة فتمضى تدور وتدور مصطدمة بزجاج الفانوس فى كل حركة .. وبعد دقائق تكون أطرافها وأجنحتها قد احترقت .. ويخنقها الهواء الساخن ، فتدور دورات قليلة مخبولة مترنحة ثم تهوى على جثث أمثالها فى قاع الفانوس ، مفسحة المكان لأخريات فى مراحل شتى من دوران الموت الرهيب هذا ..

هذا المشهد رآه المعلم خليل عشرات المرات . ولكنه يتأمله هذه الليلة فى هدوء وانتباه كاملين . فقد كان وحيداً ، ثم إن عدداً من فراشات كبيرة الحجم صغيرة الأجنحة كان يتزاحم فى عنف وعصبية على الدخول من ثقب الموت .. كان يرى الواحدة منها تحاول أن تحشر رأسها فلا تستطيع ، فتطير فى عصبية وتدور دورات : ثم تحاول مرة أخرى ، ثم تطير فى غضب أكثر ، ثم تعود .. وتطير وتعود .. وأخيراً توفق إلى الدخول لتهلك فى دقائق فى نار جهنم ، بينما تكون غيرها تحاول وتفشل وتطير ، وتحاول وتفشل وتطير .. ساقية موت رهيبة تدور وتدور .

جعل يقول لنفسه وهو يشعل سيجارة : « ما أتعسك أيتها الفراشات المجنونة ! ترين جهنم الحمراء وتتزاحمين على الدخول فيها ! حقاً إنكن فراشات لا عقل لكن ! حتى أنت أيها الفراش الضخم تجاهد كأنك

بعوضة صغيرة لتدخل من ثقب لا يكاد يتسع لرأسك ... ألا تدرى ما ينتظرك إذا دخلت ؟ .. ألا تحس بالحرارة من الخارج ؟ .. إنها نار أيها الغبى .. نار .. ألا تفهم ؟ ..

وفيما هو يناجى هذه المخلوقات المسكينة لمح من بعيد شبحاً أحمر يتحرك فى شارع القبانى . ونظر فإذا امرأة تسير فى خطى متزنة ذات إيقاع رتيب ، ثم تختفى فى بار بنايوتى .

* * *

كانت إحدى نساء هذا الشارع المهجور فى الليل . نساء شقيات ممن تعودنا أن نسميهن بنات الهوى ؛ أولئك اللاتى يسرن فى طريق الغواية بسبب الكسل أو الجهل أو الضياع أو سوء القدوة ، ويجدن أنفسهن بعد سنوات فى وسط طريق طويل ممل بلا نهاية ولا عودة ، فيمضين سائرات ، سائرات ، سائرات حتى يأكلهن الأفق المظلم البعيد ...

كان المعلم خليل يعرف أولئك النسوة ، كان يراهن يسرن فى شارع القبانى الموحش هذا ، ويلتقين هناك بمن يسعى إليهن من الرجال .. كن قليلات : خمساً أو ستاً يرحن ويجئن دون ملل ؛ ومن حين لحين تختفى الواحدة منهن لساعة أو نحوها فى صحبة رجل ثم تعود .. وقد تدخل بار بنايوتى ، وهو محطتهن الوحيدة فى سفر الحياة الطويل ..

كان المعلم خليل وأصحابه يتسلون بالفرجة عليهن ، فمنهم من يتندر عليهن ومنهم من يأسف لحالهن ، وقد تتحرك فى نفس أحدهم الرغبة فى الاقتراب من إحداهن ، ولكن هذه الرغبة تظل مجرد رغبة حتى تموت ، لأن عيون الإخوان مفتحة .. وإذا بليتم فاستتروا ..

وكانت عين المعلم خليل قد استقرت — على غير وعى منه — على باب خمارة بنايوتى تنتظر خروج المرأة ، وخرجت وسارت وبصره يتبعها . كانت ترتدى ثوباً أحمر ينم على تفاصيل جسدها — أو خيل إليه ذلك — وكانت فى يدها بسيجارة ، وسحابات الدخان تحوم حول

وجهها بين الحين والحين ، ووجد نفسه يهز رأسه فى اهتزاز ويقول :

ـ أعوذ بالله ! اللهم احفظنا واستر علينا يارب ! دخان وخمر وحياة سوداء .. ربنا يتوب عليكم ...

وتلفت حوله فلم ير أحداً : كان وحده فى الشرفة . من داخل القهوة لم يسمع صوتاً ، ونظر فى ساعته فإذا هى العاشرة والنصف . فى هذا الوقت من كل يوم يجلس زكى مع صاحب المقهى فيتعشيان ويستريحان بعض الشيء ، استعداداً لنوع آخر من العملاء يأتون حوالى منتصف الليل . لا يعرف المعلم خليل أو أحد من أصحابه شيئاً عن أولئك الناس ، لأنه وأصحابه يرحلون عن المقهى حوالى الحادية عشرة .

كان السكون شاملا . فى الشارع الطويل لم يكن هناك أحد ، حتى المرأة ذات الثوب الأحمر اختفت ، ونظر المعلم إلى فانوس النور : كان الفراش الضخم لايزال يحاول الدخول فى الفرجة بين المعدن والزجاج ، ويئس فطار .. وأخذ يدور فى عصبية ، وابتسم المعلم ، ونفث دخان سيجارته وقال :

ـ تمهل قليلا أيها المسكين .. هل تخشى ألا تموت ؟ اطمئن .. ستموت بإذن الله وتشبع موتاً .. ستحترق فى هذه النار التى تترامى عليها .

وخيل إليه أنه يسمع وقع قدمى المرأة من جديد ، فاتجه بصره فى اهتمام إلى مصدر الصوت ، فإذا امرأة أخرى فى ثوب أصفر . عندما اقتربت من فانوس النور رأى وجهها ، كان أبيض سمينا ؛ وعندما صارت تحت الفانوس رأى هيئتها . لم تكن بيدها سيجارة ولا هى دخلت خمارة بنايوتى ، فظل يتابعها ببصره حتى اختفت فى نهاية الطريق .. واستقرت يده حول ذقنه وأخذ يفركها بأصابعه كأنه يفكر ، وتلفت حوله .. لم يكن هناك أحد .. كان وحده فى الدنيا ..

ونظر فى ساعته : الحادية عشرة إلا عشر دقائق . الإخوان لن يعودوا هذه الليلة ، لن يعودوا قطعاً . لابد أن أمين راغب احتجزهم

للعشاء عنده ليحول بينهم وبين العودة إلى المقهى، فعل ذلك ليتركه وحيداً ليلة نصره العظيم .. طبعاً ، ما كان أمين راغب ليحتمل رؤية الناس يهنئونه بكسب القضية !

وضحك ضحكة صغيرة جامدة كلها مرارة واحتقار .. وسمع وقع قدمين ، فنظر .. كانت المرأة ذات الثوب الأصفر ، تبعتها عيناه خطوة خطوة ، هذه المرة دخلت خمارة ينايوتى . ظل ينتظرها بعينيه ، وارتفع بصره إلى فانوس النور .. الفراش الشقى يوشك أن يدخل .. دون وعى منه شعر بغضب فنهض ، ومد عصاه فى حذر إلى الفانوس حيث كان الفراش قد حشر رأسه ، وجعل يزيحه حتى أبعده ، فطار وأخذ يدور غاضباً .. وجلس المعلم وقال وهو يبتسم :

— وتغضب أيضاً ؟ ! أحول بينك وبين الموت فتغضب ؟ سبحان الله فى طبعك يا أخى .. حقاً إنك لغبى !

وخرجت المرأة ، خيل إليه أنها تنظر إليه من بعيد ، ربما ابتسمت له أيضاً ، وسارت فى طريقها .. ها هى تلتفت إليه وتنظر مرة أخرى . تلفت حوله ، لا أحد . مازال وحيداً .. إنه وحيد مع ذات الثوب الأصفر .. ها هى تبلغ ناصية الشارع وتختفى .. أين اختفت ؟ .. هل تعود ؟ ..

ووجد نفسه يسأل : كم تطلب مثل هذه المرأة ؟ جنيهاً ؟ اثنين ؟ ثلاثة ؟ .. ربما كانت ثلاثة .. مبلغ كبير .. أى غبى يدفع مثل هذا المبلغ فى الشيطان الرجيم ؟ .. ولكن لابد أن هناك من يدفعون . وإلا فكيف تعيش هذه المرأة ؟ حقاً إن الدنيا حافلة بالأغبياء ..

وتأخرت المرأة فى العودة ، ونظر إلى الفانوس . كان الفراش الكبير قد عاد يحاول ، هذه المرة فى تصميم بالغ .. فمضى يتأمله ، ثم هز كتفيه وقال فى نفسه : ماذا أفعل لك ؟ .. لابد أن تموت محترقاً .. ربما كان هذا قدرك .. من يدرى ؟

وتوقف لحظة ، ثم استرسل يقول : وماذا تهم ثلاثة جنيهات أو

أربعة مادام الإنسان يملكها ويستطيع أن ينفقها ؟ .. أو حتى خمسة .. ما الضرر ؟ .. لقد كسبنا اليوم بضعة ألوف .. الأرض ١٨٤٠ متراً .. المتر بعشرين جنيهاً على الأقل .. يا له من مكسب عظيم ! ستة وثلاثون ألف جنيه وكسور ! .. خمسة جنيهات ؟ .. وما هي خمسة جنيهات ؟ .. لقد كنت مستعداً لإنفاق عشرة جنيهات على هؤلاء الخنازير الذين تركوني وحدى ! .. لا .. لن أكون وحدى .. يقولون إن أولئك النساء لهن غرف جميلة أنيقة مفروشة بسجاجيد غالية وفيها أسرة عريضة وستائر من الحرير .. هكذا قرأ فى قصة نشرتها إحدى الصحف ..

واسترسل مع أفكاره : هذه القصة تحدثت أيضاً عن الأمراض السرية وحذرت منها . قالت إن كل هؤلاء النساء مريضات . وأن من يذهب معهن يخاطر بنفسه . وتحدثت القصة كذلك عن البوليس الذى يتتبعهن ويهاجم أوكارهن ويقبض عليهن وعلى من معهن ويأخذهم إلى القسم .. أى أخطار وأى فضيحة ! اللهم احفظنا ! سترك يارب ! من الغبى الذى يلقى بنفسه فى كل هذه المخاطر ، وفوق ذلك يغرم خمسة جنيهات ؟ ! ..

ونظر إلى الفانوس .. الفراش الكبير على وشك الدخول .. ها هو قد دخل جهنم فعلا .. ياللمسكين ! ها هو يدور ويتخبط فى زجاج الفانوس .. كلما تعب من الدوران حط على الزجاج فتلسعه الحرارة فيطير ويتخبط .. ها هو يترنح ثم يقع فى قاع الفانوس : ويأخذ فى الاحتضار . يستحق ما جرى له ! ها هو فراش آخر يحاول الدخول .. إنه يرى ما يجرى لإخوانه داخل الفانوس ، ولكنه يصر على الدخول .. هذه قسمته وذلك مصيره .

* * *

نهض المعلم خليل ، كانت الساعة بعد الحادية عشرة بقليل . لا أحد فى الشرفة ولا فى الطريق ، إنه وحيد تماماً . أخذ يهبط السلم

فى حذر . لكيلا ينتبه إليه زكى القهوجى . وصل إلى الطريق فى رفق ، ثم أسرع فى سيره حتى انعطف فى شارع القبانى . الشارع خال تماماً ومظلم ، فيما عدا أشعة النور التى تخرج من الخمارة . شعر باطمئنان، وسرى فى جسده تيار من النشوة وهو يتأمل نور الحانة ..

هذا الرجل ارتكب موبقات كثيرة ، ولكنه لم يصطحب قط امرأة من بنات الهوى . لا يدرى لماذا ، ربما لأنه كان — فى قرارة نفسه — يخاف من الذهاب مع امرأة منهن وحيداً . من يدرى ماذا تخبئه أولئك النساء ؟ فى شبابه الباكر وقعت حادثة مروعة لرجل سقط فى هذا الشرك وذهب مع إحداهن ، فى الصباح وجدوه ملقى فى الطريق قتيلا .. وسرت فى جسده رعدة .. ولكن ، ما هذا الهراء ؟ .. ذلك كان زماناً آخر .. أما اليوم فقد تمدنت الدنيا وهناك بوليس وحكومة .

تمهل فى سيره ، ثم توقف على أمتار من الخمارة . عادت إلى ذاكرته القصة التى قرأها عن امرأة من هؤلاء . كاتب القصة يقول إنها كانت — فى قرارة نفسها — قديسة .. قديسة ألقى بها الشيطان فى طريق الغواية . جوهرة فى وحل . لا تقسوا على هؤلاء المسكينات . الكثيرات منهن جديرات بالحب والرحمة . إنهن يبحثن عن الحب فى عالم بلا حب . عطاش فى صحراء بلا ماء .. ولهن فتنة لا تعرفها الزوجات . ترى ما معنى ذلك ؟ .. لهذا يجرى وراءهن الرجال ، ويدفعون لهن بسخاء ..

صدقونى : لسن كلهن شيطانات . الشيطانات هن الزوجات اللاتى يمتصصن دمك العمر كله ، ثم يرثنك أيضاً بعد الموت ! أما هؤلاء فماذا يأخذن ؟ خمسة جنيهات ؟ وما خمسة جنيهات فى مقابل ساعة جميلة ، فى غرفة مفروشة بسجادة حمراء ، يزينها فراش وثير ، وتعمرها امرأة تعرف كيف تعطيك السعادة فى سخاء ؟ .. جوهرة فى الوحل .. الجوهرة جوهرة ، سواء أكانت فى علبة من المخمل أو فى الوحل .. هكذا قال كاتب القصة ..

وهل من الضرورى أن يصاب بالزهرى كل من ذهب مع امرأة كهذه ؟ .. هراء .. والبوليس ؟ ماذا يفعل البوليس ؟ .. مخاوف وأوهام لا محل لها ، وهذه الدنيا لا يفوز بها إلا الجسور ..

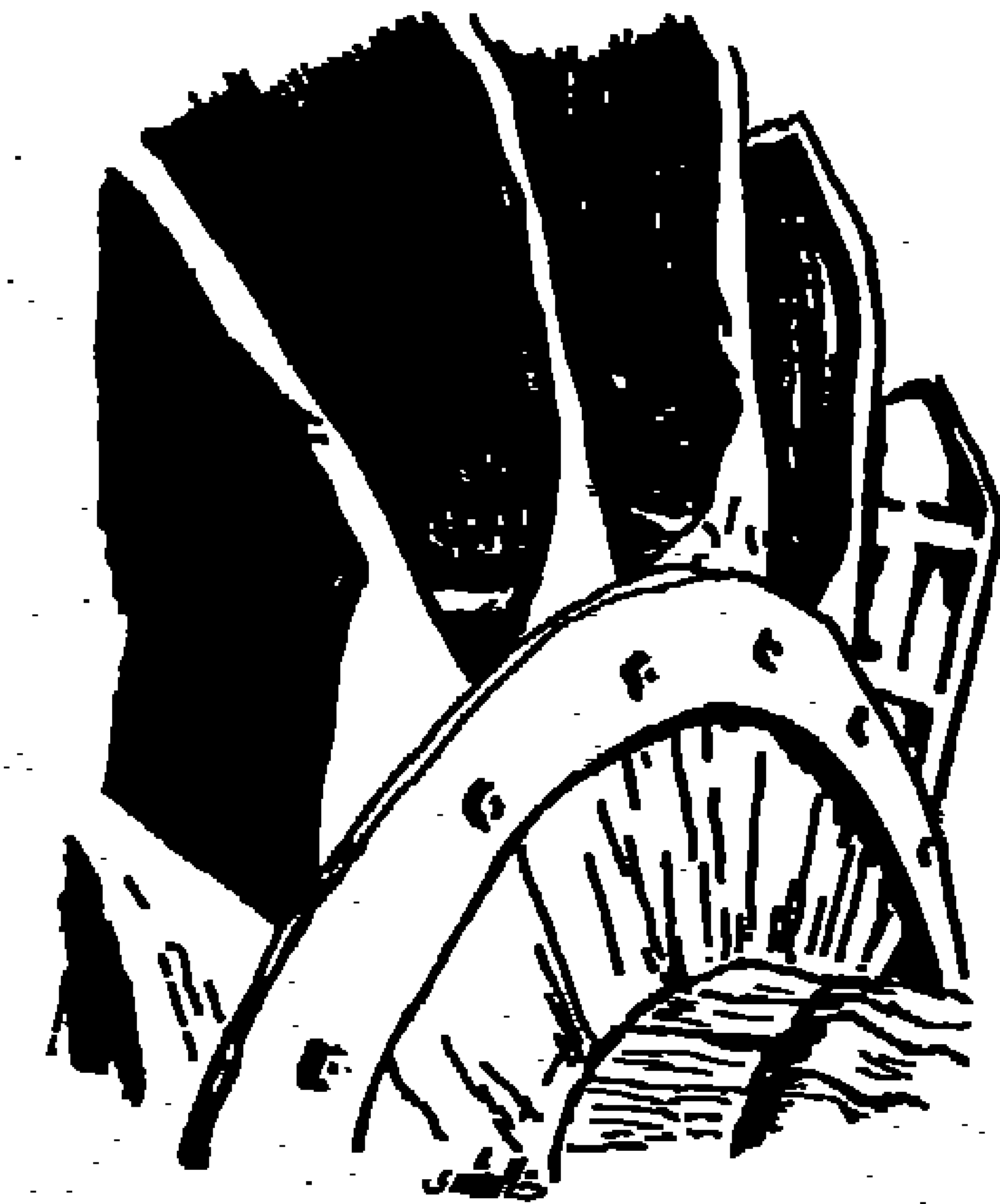
وخطرت بباله الفراشات التى تحوم حول الفانوس . ثم تموت فيه .. وانتبه على وقع قدمين ، فاتجه بصره نحو الحانة . ها هى المرأة ذات الثوب الأصفر تخرج منها ، وفى يدها سيجارة . على ضوء الحانة رأى قسمات وجهها . ما أجملها ! أين منها زوجته سامحها الله ! لقد قضى حياته مع خفير . تحول – مع الزمن – إلى شيخ خفراء ..

وابتسم . وسارت به قدماه – وهو لا يدرى – فى أعقاب المرأة . ما أجمل السيجارة بين أصبعيها ! أخرج علبة سجائره وأشعل سيجارة ، واقترب منها . رأى وجهها الأبيض السمين عن قرب . أعجبه وجهها وشعرها الأصفر المصبوغ ، وملأت أنفه رائحة البودرة المعطرة ، وتسارعت دقات قلبه ..

عندما صار بحذائها كانا قد وصلا إلى ناصية الشارع . دون قصد منه نظر ناحية المقهى ورأى الفانوس .. مازالت الفراشات تدور فى رقصة الموت ..

حياها . فابتسمت .. ودون وعى منه ، مد يده وأمسك بذراعها .. وسارا فى صمت ..

الطَاحُون



كان فى أحلى نومة عندما روّعه « دسوقى شقرف » يهتف به بصوته الأجش الجافى : « صح النوم يا عم عطا ! نوم العافية على بدنك ! »

انتبه عطا بعض الشيء ، وتشبث لحظات بأطراف النعاس ، على أمل أن يكف عنه هذا الثقيل ، ولكن هيهات ! فإن دسوقى ذبابة لحوح يغريها توالى الطرد بتوالى الإقبال ، فهو ما زال يهتف به ويضحك ضحكته الخشنة التى تشبه تدحرج شيء على سلم ، حتى أفاق عطا وفتح عينيه . .

لو كان الهاتف رجلا غير دسوقى لنهض إليه وشفى منه غضبه ، ولكن هذا كان ذا دالّة عليه ، وليس أبغض إلى النفس من ثقيل يتدلل. كان دسوقى حارس محطة سكة حديد الدلتا ، وكان يأتيه بأخبار الناس وصفقات الأرض والمواشى ، وأسرار شون البنوك وما فيها ، واعتماداً على هذه المعلومات وغيرها كان عطا يشترى ويبيع ويكسب ، ورجل كهذا لم يكن هناك مفر من احتمال ثقل ظله وبشاعة هيئته . .

وفتح عينيه شيئاً فشيئاً ، فإذا بوجه دسوقى أمامه كأنه شيطان خرج من قمقم : عينان ضيقتان كأنهما شرخان فى جدار عتيق ، وأنف ضخم منتشر فى وجهه كأنه كوز ذرة ، وشارب كبير أشعث كأنه حشائش طويلة نابتة على حافة بركة راكدة ، والبركة هى فمه الواسع الذى يمتد من أذن لأذن . .

وقال عطا فى هدوء ظاهر التكلف: يا دسوقى يا ابن سليمان شقرف، حرام عليك ! أنت لا تترك هذه العادة السيئة أبداً ؟! رجوتك ألف مرة أن تدعنى فى حالى إذا رأيتنى نائماً . . يا راجل حرام عليك ! أنت تعرف أنى صحوت اليوم من الفجر ولم أذق طعم الراحة إلا الآن . .

فضحك دسوقى وقال : « وهل هذا يسمى تعباً ؟ . . صحوتَ من

الفجر ، وطرت إلى دسوق : فخطفت تسعة عشر فداناً بسعر التراب ، ثم عدت إلى هنا ورقدت تحت الجميزة تجترها كأنك جمل بارك . . ومحسوبك الذى همس بالسر فى أذنك وصحا من الفجر مثالك . ووضعاك فى القطار ، واستقبلك فى رجوعك كأنك راجع من الحج . ماذا كسب؟ لا شىء ! يدك على الحلاوة فإن قطار الساعة السادسة على وشك المجىء ، والعيال ينتظروننى والبركة فيك . . عند وصولى إلى دسوق سأقرأ لك الفاتحة عند مقام سيدى الشيخ إبراهيم . . شىء لله ياسيدى إبراهيم يا بو الكرامات . . »

فاغتصب عطا ابتسامة باهتة . ودس يده فى جيب معطفه ومضى يبحث عن شىء يسكت به هذا اللحوح ، ولكن هذا هز رأسه وهو يضحك : « لا والله يا أبا المعاطى ! لا آخذ من هذا الجيب أبداً . . دعك من جيب الفكة والبرونز هذا ، وسم بالرحمن ودس يدك فى صدرك وأخرج المبروكة الدافئة ، حافظة الورق الجميل الأحمر والأخضر . . ورقة بمئذنة ، وحياة المحروسين . بارك الله فيهم وفى العزب والعمارات . . »

ونظر إليه عطا نظرته إلى حية خبيثة نهضت برأسها أمامه . يفكر فى قتلها ، ولكن لا يدرى كيف . وهو بعد ذلك لا يجرؤ على أن يرفع يده إليها بشىء ، خشية أن تعاجله . وتمالك نفسه ، مرغماً لا بطلا ، وقال وكأنه يسترحم :

— شوف يا دسوقى ، أنت دائماً تنظر إلى ما عندى كأنك تحسب أن عندى ألوفاً . والله ما اشتريت اليوم ولا بعت . عندما وصلت وجدت السخاوى قد طبخ الطبخة ، وأكلها بليل ، ضحك على الأرملة واشترى الفدادين بربع ثمنها ، ودفع ألف جنيه عربوناً . وأخذ توقيع هذه السمينة الملعونة ، وأشهد أخاها بعد أن دس فى جيبه عشرة جنيهات . . ضاع على كل ما كنت قد أعطيته للسماسرة زبانية جهنم : وعدت بخسارة لا تقل عن خمسين جنيهاً . . هذه نصيحتك يا سيد دسوقى . ولا أدرى هل تستحق عليها حلاوة أم سماً ؟ . .

فقال دسوقى : يا عم عطا .. أنت سيدى وتاج رأسى ، ولحم أكتافى من خيرك . ولكنى لست مغفلا .. السخاوى اشترى لحسابك ، لأن الأرملة أقسمت ألا تبيع لك ، اشترى ثم باع لك ، وتغديتما كباباً عند المهيلمى ، وأثناء الغداء تم التحويل.. إننى لست عبيطاً يا عم عطا .. إن ورائى صبية وبناتاً وأمهم وأنت تعرف ، وحرام أن تظلم مسكيناً مثلى يعيش من جود الكرام أمثالك ..

فابتسم عطا دون أن يبدو عليه شىء من الخجل ، وقال : حقاً إنك شيطان .. بماذا أقسم لك لكى تصدقنى ؟ .. حقاً تغديت مع السخاوى عند المهيلمى ، ولكننا لم نتفق .. إنه طماع دنىء . ولا أدرى كيف سأستخلص البيعة منه ..

فقال دسوقى : أنتم أكابر ياعم عطا ، طول عمركم هكذا : ديوك تتشاجر . ولكنكم فى النهاية لا تنامون إلا أحبة .. إذا لم تأخذ منه هذه الصفقة عوضك عنها بخير منها ، والمال — كما يقولون — نسب .. إنما المساكين هم أمثالى ، كلاب تلهث وراء عظم ، وليتها تناله ! .. هات ياعم عطا هات ، قرش تعطيه لمسكين مثلى ينزل بركة عليك وعلى أولادك .. سم بالله وأخرج المبروكة وناولنى الورقة ذات المئذنة ، ووالله إذا لم أحصل عليها الساعة فلن ترى وجهى أبداً ؛ والله الغنى عن شغلة الهباب والشحاذة هذه ! .. عيب ياعم عطا .. نحن رجالك ، وخدمك ، وكلاب صيدك ولا بركة لنا إلا أنت ..

وسكت عطا وأحنى رأسه كأنه يفكر ، ثم رفعه ، ورفع طربوشه عن رأسه ودعكه بمنديل كبير ذى ألوان باهتة ، ثم وضع المنديل على رأسه ، وأرسى الطربوش فوقه ، وتدلت أطراف المنديل من كل ناحية فأخفت عينيه ، ثم أمال رأسه إلى الوراء وأغمض عيناً ورفع وجهه نحو دسوقى وقال :

— عشرة جنيهات يادسوقى؟..عشرة؟..لو أنك بعتنى البنك الأهلى ما دفعت لك فيه هذه السمسرة ، فكيف بصفقة هزيلة كهذه؟..وياليتها تمت!

وأدرك دسوقى أن المعركة بدأت ، وعطا لا يدفع قرشاً فما فوقه إلا بمعركة ، فهذا الرجل — عطا — فرع من شجرة عنيدة ترى أن الحياة أخذ فقط ، أخذ بلا عطاء .. بهذا جمع المال وكلسه . وبهذا وحده يشعر بطعم الحياة ..

وكانت طريقة دسوقى فى كسب المعارك من عطا هى الكر والفر ، أى التهديد ثم اللين ، الهجوم ثم الارتداد ، والتظاهر بالغضب ثم التذلل ، مرة بعد مرة حتى يسأم عطا ويمل ، ويعطيه شيئاً تخلصاً منه وهرباً من صوته الشنيع ووجهه الأشنع ..

وقد طال الكر والفر هذه المرة ، واستماتت عطا فى الدفاع عن قروشه ، واستهلك دسوقى فى الحصول على أقصى ما يستطيع : صاح وهدد ورجا واستعطف وبكى واستبكى ، ولم يفز بعد ذلك الجهد إلا بجنيهين ، أخرجهما عطا من جيبه وكأنه يخرج الروح . وقال دسوقى وهو يدسهما فى جيبه ويمسح عرقه :

— يا هوه ! لعن الله حياة تلجئنا إلى هذا كله ! اللهم تب علينا من هذا الشقاء والنكد ! نلطم على الألوف ويبخلون علينا بالملاليم .. هذه آخر مرة أدلك فيها على شىء ، إن خدمتكم حرام ومالكم حرام .. اللهم احفظنا يارب ! ..

وتركه عطا يقول مايريد . أغمض عينيه نصف إغماض ، وتصنع أنه يحاول العودة إلى النوم ، وشعر بالسرور يغمر نفسه ، فقد تخلص من دسوقى بأيسر الخسائر ، ولم يكن يضيره بعد ذلك أن يشتمه دسوقى أو يطيل عليه لسانه ، ذلك أهون بكثير من دفع مليم . وقد علمته التجارب أن أمثال دسوقى يحصلون على أقل جزء من أتعابهم نقداً والباقى شتائم يفرجون بها عن صدورهم ، فكان يأذن له فى أن يتمتع بسبه وشتمه كيف شاء ..

وعندما ابتعد دسوقى تحسس عطا صدره ، فسمع همس وثيقة الشراء

المطوية فى جيب الصدار الأيمن تحت الجلباب . وأحس بالدفء يغمر جسده كله . فقد كانت صفقة عظيمة حقاً استخدم فيها ذكاءه كله . فقد كان منافسه السخاوى قد اتفق مع أرملة بلهاء على أن تبيعه تسعة عشر فداناً بسعر زهيد . وأعطاها مائتى جنيه مقدماً . ولكنه لم يوقع عقداً ، وأبلغه دسوقى الخبر ، فبكر بالذهاب إليها حاملا أسورة من الذهب دفع فيها تسعة جنيهات ، وما زال بالمسكينة يحاورها حتى زادها خمسة جنيهات فى الفدان ، وأسرع فأتى بصديق له محام ووقع العقد ، ودفع ٥٠٠ جنيه .

وأقبل السخاوى بعد ذلك وعلم بما حدث . فثار وسب وشتم وهدد ، ولكنه لم يجد بداً من أن يسترد مادفع وينسحب داعياً على عطا بألا يبارك له الله فى تلك السرقة التى سرقها، وأقسم ليبذلن من جنيه إلى ألف لكى يفسد هذه الصفقة . واجتهد عطا فى أن يسترضيه، ودعاه للغداء مع المحامى . وتغدوا معاً غداء أعداء، وكان هذا حالهما معاً : يتحاربان أبداً ، ولا يفارق أحدهما صاحبه أبداً . .

وفى أثناء الطعام عرف السخاوى أن العقد لم يسجل بعد، كل ما يثبته ورقة حررت فى بيت الأرملة، وهى تلك التى يحتفظ بها عطا فى صدره ، ولو ضاعت منه قبل أن يسجل فى المحكمة فكأنه ما اشترى ولا باع . .

ولم يكد الغداء ينتهى ، ويسرع عطا إلى القطار ، حتى مضى السخاوى إلى هذه البلهاء وأمضى ساعة يحاورها ، وخرج من المساومة باسماً راضياً عن نفسه ، وأسرع إلى بيت كئيب فى حارة مظلمة ، بيت من هذه التى تحوم حول أهلها الشكوك ، ودق الباب وهو يضحك . .

* * *

وصفق عطا بيديه ، فسمعه عامل المقهى المتنقل وهتف : أيوه حاضر! حاضر يا حاج ، القهوة السادة والماء المثلج بماء الورد . .حاضر!

ولم يكن مقهى ، وإنما عربة صغيرة يجرها هذا المسكين من مكان لمكان . عربة صغيرة : ولكنها كأنها بوفيه عظيم : القهوة والشاى والقرفة والجنزبيل والمعسل والتمباك والجوزة والنارجيلة والكيف وسجاير الملكونيان وكوتاريللي الممتاز ودخان اللف وورق البفرة وسجائر هوليوود وونيجز وبلمونت ودخان المضغه والكوكا كولا وأختها البيبسي وبنات عمها من زجاجات البرتقال والليمون والكازوزة الراقدة فى الثلج . وشىء من الطعمية والخبز والملح والفلفل والشطة والترمس : ثم قلتان عامرتان بماء الترعة اللسم الذى يشد ظهور الرجال ويقوى الأوصال . .

وبينما كان عطا يرشف القهوة . كان القطار الصغير قد وصل يجرجر وراءه عرباته الأربع . ويستقر بها فى المحطة الهزيلة التى لا تزيد عن كوخ خشبى كأنه دولاب ملابس ، ومظلة من خشب ناءت تحت ثقل السنين وهموم الزمان . ووقف القطار ينفخ ويلهث . ونزل السائق يبحث عن جردل الماء ليطفئ ظمأ القطار . .

وهبط أربعة أو خمسة يحملون القفف وربطات الملابس والأقفاص ، ثم صفر القطار مرتين أو ثلاثاً . ونفخ وسعل . ثم تحرك يجرجر عرباته الأربع بكل ما فيه من جهد . وسكن المكان شيئاً فشيئاً . وعاد عطا إلى النوم . .

* * *

يقولون فى بلدنا إن الثعلب لا ينام نوماً متصلا أبداً ، وإنما هو يغفو دقيقة ويصحو دقيقة ؛ حتى لتستطيع أن تضبط ساعتك على ذلك . ويزعم الأستاذ زكي مدرس الألعاب فى المدرسة الابتدائية : أن الثعلب فى هذه الناحية أضبط من الكرونومتر . .

وسواء أصدق هذا عن الثعلب أم لم يصدق ، فهو صحيح بالنسبة لعمنا عطا ، فقد كان آية من آيات الذكاء واليقظة ، وإن لم تدل هيئته على ذلك ، فقد كان سميناً محتقن الوجه ضيق الجبهة ؛ حتى ليكاد شعر رأسه أن يتصل بحاجبيه الكثيفين . .

وكان يبدو دائماً وكأنه نائم ، ولكن عينه لاتكاد تغفل . نهض بنفسه من « نفر » إلى « مقاول أنفار » : إلى وزان فى الأسواق ، إلى تاجر ماشية ، وعلم نفسه القراءة والكتابة ، وعرف البنوك والحسابات التى تجرى والأخرى التى لا تجرى ، فتراكم عليها الأرباح كما يتراكم اللحم على البقر الذى يربط ليتهيأ لسكين القصاب .

كان من أولئك الذين أعطاهم الله موهبة صنع المال : أولئك الذين يتمتعون بحاسة خاصة تعرفهم أين يوجد المال ، وكيف يؤخذ ، وكيف يستغل ويحبس فلا يرى النور ، أولئك الذين لا يعرفون من لذاذات الحياة إلا لذة واحدة : جمع المال وتثميره وحبسه وتأمله من بعيد كما يتأمل الوثنى صنمه ، ثم التفكير فيه وتسريح النظر فى أرقامه ، كما يسرح العاشق النظر فى سطور بطاقة معشوقته .. ثم يخلفونه بعد ذلك لينفقه أبناؤهم المحرومون ، فى سفه وغيظ ورغبة فى التضييع ، كأنها لون من الانتقام من الأب البخيل الملدق المكدود ..

وقد ورث عطا تلك الشهوة عن جده ، وكان آية فى البخل والتقتير ، ولكنه لم يجمع — برغم ذلك — شيئاً ، لأنه كان سيئ الحظ : جمع المال وعدّده ، ثم ابتلاه الله بزوجة متلافة ، تزوجها على كبر واستهلك فى عشقها واستهلكت فى إتلاف منزله ، وصرفته عن العمل والسعى ، فما هى إلا سنوات حتى نفد ماعنده ، وغاضبته المرأة وانصرفت ، وبقى مع الشيخوخة والفقر والحسرة ، وهذا الغلام عطا ، وكان أبوه قد توفى ونشأ يتيما فى حجر الشيخ المسكين ..

وتحول الشيخ إلى فيلسوف ، كما يحدث للكثيرين من الفاشلين ، يجرى لسانه بالحكمة عن أساليب جمع المال والحفاظ عليه . ولم تكن له فى ذلك إلا قاعدة رئيسية : البعد عن المرأة .. كان يقول : إذا دخلت المرأة من الباب خرج المال من الشباك .. ما يجمعه الرجل بكده فى سنة تنفقه المرأة بخفقة رمش ، فى لحظة .. لا يجتمع مال وامرأة أبداً..

حذار يابنى من النساء ، إذا وهبك الله مالا فإن النوم لا يواتيهن وفى البيت مال .. إنهن حليفات الفقر والفقراء ، لا يستمتع بهن إلا الفقراء .. وماذا يأخذن من التراب ؟ .. لا تصدق أنهن يعشقن الغنى . ذلك كذب .. لو تزوجن غنياً لم يكن لهن هم إلا إضاعة ماله.. الفقر هو معشوقهن وسيدهن..لكل شىء طاحون يجعله تراباً..وطاحون الرجل امرأة.

نشأ عطا وفى نفسه هذه العقدة من النساء . . وكان قد تزوج فى أيام الفقر ، فلما بدأ المال يتجمع لديه فكر فى طلاق زوجته : ثم أراحها الله وأراحه فماتت وخلفت له أربعة من البنين وبنتين ، فاستقدم أختاً له كانت أرملة لتقيم له شئون البيت ، ومضى بعد ذلك يخوض معركة المال وهو محمى الظهر آمن .

غير أنه ــ برغم اجتهاده ــ لم يستطع أن يقتل المرأة فى كيانه تماماً . فى ركن من أركان النفس الإنسانية ، التى تشبه أعماق بحر مظلمة لايدرى ما فيها غير خالق الكون سبحانه ، وبين شعاب هذه الأعماق ، رقدت المرأة كأنها قوقعة ، إذا هاج ماء البحر ماجت وطفت على السطح فأرقته أرقاً شديداً ، حتى إذا مرت العاصفة وسكن الماء عادت القوقعة إلى الشعاب واستكنت ، وساد السلام . .

وهذه القوقعة ــ فيما يبدو ــ راقدة فى شعاب كل نفس ، وهى لاتزال تطفو وتهبط حتى يتخطى الإنسان من مراحل العمر ما يجعله فى مأمن من العواصف ، عندما يهبط عليه شتاء العمر الطويل ، وتثلج المياه وتموت القوقعة فى الأعماق . وكان عطا لا يزال بعيداً عن عصر الثلوج هذا ، وكانت قوقعته لا تزال تطفو ..

وأكثر ما تطفو هذه القواقع فى أثناء النوم ، عندما يهبط على النفس ظلام الموت الأصغر ، وتأمن القواقع والأصداف ونجمات البحر وجنيات الماء فتبارح شعابها وتسبح . وفى اليابان يقولون إن المحارة عندما تكبر اللؤلؤة فى جوفها ويشتد كربها منها تطفو على السطح فى الليالى المقمرة ،

وتتفتح : فيذيب ضوء القمر اللؤلؤة وتتحول إلى جنّية .

ولم يسمع عطا بذلك . ولكنه كان يشعر — على أية حال — بأن الليالى القمرية الساجية تُخرج من أعماق نفسه جنية ساحرة ذات صورة واحدة لا تتغير ،فهى بيضاء مليئة. ذات عينين سوداوين وأهداب طويلة. وشعر طويل متموج غزير لونه فضة وذهب ، وهى تسبح فى الماء تحت ضوء القمر . وهو يمضى نحوها هاتفاً بها ، فإذا مد إليها يده ليلمسها انتهى الحلم وأفاق . .

صورة غريبة لا يدرى من أين استقرت فى نفسه ، ولكنها — فى الحقيقة — أتت من «ألف ليلة» . . فإن صاحبنا عندما تعلم القراءة والكتابة ، نصحه صديق بأن يقرأ ألف ليلة على سبيل المران ، فقرأها بالشغف الذى قرأناها به جميعاً . وفى أثناء القراءة هربت هذه الجنية من صفحات الكتاب واستقرت فى نفسه . .

وعلى طول العصور الوسطى كانت جنيات ألف ليلة يهزبن ويكمن فى بحار نفوس أجدادنا . فمنهم من اجتذبته الجنية إلى الأعماق فذهب ولم يعد . ومنهم من خرجت له من مياهها وعاشت معه على وجه الأرض. هكذا كنا نسمع ، والله سبحانه أعلم . .

وقد مضت هذه العصور ، ولم يعد من الممكن أن يغوص عطا وراء جنيته أو يستدرجها إلى الشاطئ ،ولم يبق له — ولا لغيره — إلا أن يقنع برؤيتها فى عالم الأحلام لحظات قصاراً ، ثم تعود القوقعة إلى الشعاب ويعود السكون . .

* * *

ولا يدرى عطا ما الذى حرك مياه نفسه فى هذه الساعة من الغسق ، فإن اليوم كله كان ثقيلا متعباً ؛ رحلة مبكرة فى قطار الدلتا الكسيح . وحديث متعب مع أرملة مترهلة لا يوحى منظرها بأى شىء له علاقة بعرائس الماء ، ثم مناقشة سقيمة مع للسخاوى ذى الوجه الكالح الذى

تذكره تجاعيده بحصير عتيق فى مسجد. وغداء ثقيل حضره معهما الأستاذ كامل المحامى ، وجلسة طويلة لتحرير عقود ودفع نقود . .

وانتهى ذلك كله بوجه دسوقى بن شقرف وغرم جنيهين . وليس فى هذا كله ما يوحى بحلم جميل . . ولكن النفس الإنسانية سر هائل . فهاهى العروس تطفو من عالم الباطن ، وتنظر إليه بعينى السحر . وتبهر عينيه بوجهها الأبيض الناصع وشعرها الفضى اللهبى . وهى تبتسم له وتلقى إليه تحية . وتمد له يداً كأنها شعاع من نور . وهو يبسط كفه التى تشبه خف الجمل ويضمها على كف كأنها ريش نعام . .

وفى لحظة الهناء هذه يوقظه عامل المقهى المتنقل الثقيل : تريد الجوزة الآن يا معلم ؟ . . وكاد يخطف الجوزة من يده ويضربه بها ، ولكن رائحتها هدأت ثورته ، فتناولها بيد كسلى . ومسح مبسمها بيده، وتناول من عامل المقهى كوباً من الماء ، فتمضمض بالماء ثم مجه . وطلب فنجاناً ثانياً من القهوة ، ومضى يدخن الجوزة فى هدوء . ويده اليمنى تتحسس صدره من يمين ليطمئن إلى وجود العقد . ثم من يسار ليطمئن على أن حافظة النقود فى مكانها ، منطوية سبع طيات على المائتين وتسعين جنيهاً التى بقيت معه من صفقات النهار . .

كانت الشمس قد بدأت تهبط . وهبت نسمات المغرب عليلة تبعث فى نفسه أمناً وسلاماً ، وأحس أن الوقت قد حان لينهض ويعود إلى بيته فى القرية على بعد كيلو مترين . .

وكانت العادة أن يأتيه غلام بحمار من البيت فيركب ويعود ، ولكن الغلام تأخر هذا اليوم ، فأخرج الساعة ونظر فيها ، وتبين أن الوقت لم يستأخر بالقدر الذى حسب ، فالساعة ما زالت السادسة والنصف . أى أنه لم ينعس إلا دقائق . .

وبينما كان يلمس الساعة فى صدره سمع أصواتاً تتحدث ، فنظر صوب الصوت ، ورأى تحت شجرة مجاورة رجلين وامرأة جلوساً يتحدثون .

كان المنظر مألوفاً ، فتحت هذه الأشجار فى مفترق طرق كهذا ، كان القرويون يحبون الجلوس فى عودهم من المهام البعيدة ، وهؤلاء الثلاثة لابد كانوا فى دسوق هذا اليوم ، لزيارة طبيب أو لقراءة الفاتحة عند مقام الشيخ إبراهيم . وهبط القطار الأخير ، ولكن عطا — بغريزة الثعلب فى نفسه — وجد أذنه تصغى إلى حديثهم دون أن يدرى .

لم يميز الكلام ، ولكن جرس الأصوات وقع من أذنيه موقع الغرابة : فهو رقيق لين أقرب إلى أن يكون منصورياً أو طنطاوياً ، بل قاهرياً .. واسترعى سمعه صوت المرأة خاصة ، كان رقيقاً ناعماً فيه رنة خيل إليه أنه سمعها من قبل ، فأقبل يصغى بأذنيه معاً .

وإذ هو فى ذلك ، إذا بالمرأة تلتفت نحوه وتطيل النظر إليه ، فوجم وظل ينظر إليها دهشاً . . كأنما عاد إلى الحلم : الوجه المستدير الأبيض ، العينان الحوراوان ، والشعر ؟ هل يمكن أن تكون هنا ، تحت شجرة الجميز ، امرأة ذات شعر فضة ذهب ؟ . .

خلال لحظة قصيرة تحركت المياه الساكنة فى الأعماق ، وخرجت القوقعة من بين الشعاب ، وصعدت حتى طفت على السطح ..

وتلفت حوله ليتأكد أنه فى صحوة لا منام ، وجذب من النارجيلة نفساً طويلا ، ثم نظر صوب المرأة . ما زالت تنظر إليه ، ودون أن يدرى مد يده وحك صدره وسبح فى عالم بعيد . .

ثم رأى الرجلين يتهامسان ، ثم ينهض واحد منهما فيقبل نحوه ويقول :

— لا مؤاخذة يا حاج .. نحن غرباء عن هنا . . كنا عائدين مع أختنا هذه فى ذلك القطار المتعب ، كنا فى طريقنا إلى المنصورة بلدنا ، ولكن أختنا أصابها ما لا ندرى ما هو . . أغمى عليها وأطبق صدرها على قلبها ، فاضطررنا إلى مغادرة القطار هنا ، ولو لم نفعل ذلك لماتت المسكينة ، ولا ندرى الآن أين نذهب .. وقد توسمنا فيك مروءة وأصلا ، فهل تدلنا على مكان نقضى فيه الليل ، والصباح رباح ؟ ..

فنظر إليه عطا لحظات ، ثم مد بصره إلى المرأة، ثم إلى الرجل الآخر ، وأخذ من الشيشة نفساً ، ثم قال :

ــ ومن أنتم ؟

ــ محسوبك جنيدى مخلوف وأخى إبراهيم ، تاجرا غلال فى المنصورة .

وكان عطا يعرف تجار الغلال فى الوجه البحرى كله ؛ فلم يسمع بهذين الاسمين ، وتحرك الشك فى نفسه ؛ ثم نظر صوب المرأة فإذا بها لا تزال تنظر إليه ، وقرأ فى عينيها شيئاً يشبه الابتسام ، فنظر إلى الرجل الواقف أمامه وقال :

ــ أظن أننى سمعت اسميكما .. هل تعرفان عبد السلام مخلوف ؟ ..

ــ ابن عمنا .. وشريكنا أيضاً ..

ــ هل ترك تجارة الأرز ؟ ألم يكن يملك مضرباً ؟

فوجم الرجل لحظة ، وبدأ وكأنه يبحث عن شىء فى ذهنه ، وقال :

ــ نعم .. لا يزال يملك مضرب الأرز .. ولكنه يشاركنا فى تجارة الغلال . .

ــ غريب ! . .

ثم قال للرجل : تفضل اجلس . .

ودعا بكرسى ، فأتاه به عامل المقهى ، وإذا بالرجل ينظر إلى صاحبه وصاحبته ويهتف :

ــ تعاليا . . فرجها الله بفضله . . تعاليا . .

وأقبل الرجل ومن خلفه المرأة . كانت قد أخذت طرفاً من طرحتها السوداء فحجبت به جانباً من وجهها ، وظلت عينا عطا مثبتتين فيها ، وهى تقترب خطوة خطوة ، حتى وقفت على مقربة منه خلف أخيها إبراهيم . وانتبه عطا إلى أن هذا يمد يده إليه ليصافحه، فأسرع ووقف وصافحه . وجلس إبراهيم على الأرض، وجلست المرأة خلفه . ونظر إليها عطا وقال :

ــ كيف حالك الآن ؟

فأرخت أجفانها إلى الأرض وقالت فى شبه الهمس : نحمده .. أحسن ..

وبدأ يفكر فى حل للمشكلة : ماذا يفعل بهؤلاء الغرباء ؟ .. إن المروءة تقضي بأن يؤويهم ، ولكن الحذر المتأصل فى نفسه ينفره منهم نفوراً غريزياً .. وهذه المرأة تجذبه إليها جذباً شديداً ..

وأحس بشبه عاصفة تثور فى أعماق الماء المظلمة ، وطال سكوته ووجومه ، ثم نظر إلى جنيدى وقال :

ـ الآن يأتى غلامى فأطلب منه أن يبلغ أهلى ليعدوا لكم الضيافة . معذرة إذا لم أستطع أن أقوم بحقكم كما أريد ، فالساعة مغرب وكنت طول النهار بعيداً عن البيت . سيقلقكم عيالى ، وهم كثيرون ..

فقال جنيدى ضاحكاً :

ـ بارك الله لك فيهم ، وبارك لهم فيك .. إن أختى تحب الأولاد ..

ونظر إليها عطا وقال :

ـ عندك أولاد كثيرون ؟

فلم تجب . اكتفت بالنظر إليه ، وقال جنيدى :

ـ لا والله يا حاج ، مات زوجها من سنتين ، وهى لا تريد أن تتزوج ، وقد تعبنا معها . .

ووجد عطا نفسه يهز رأسه ويقول :

ـ خسارة ! . .

وقال إبراهيم وهو يهز رأسه أيضاً :

ـ لا ندرى ماذا بها ! منذ مات زوجها وهى تقول لن أتزوج إلا صاحب النصيب ، وصاحب النصيب لم يأت بعد . .

وبدا على عطا أنه لم يفهم ، أوأن هذا الكلام لم يدخل عقله كما يقولون ، فظل ينظر إلى إبراهيم كالمستزيد أو المستوضح ، فقال هذا :

ـ لامؤاخذة يا حاج . . أصلها منذورة . . نذرتها المرحومة أمنا للشيخ

عراقى ، ولى بلدنا .. وقد قال لنا خادم مقام الشيخ : دعوها، لا يتدخل أحد منكم فى أمرها . إنها مسيّرة وإن ابن الحلال سيرسله لها الشيخ . .

وقالت المرأة :

ــ شىء لله ياصاحب المقام .. شىء لله ياصاحب النور .. الفاتحة ياحاضرين . .

وتحركت شفاههم جميعاً بالفاتحة .. ومضى عطا ينظر إلى هذه المرأة الغريبة، ثم نقل بصره إلى أخويها ، ولم يقل شيئاً . وانتبه فإذا غلامه قد حضر يجر حماراً عالياً حسن السرج والزينة .

كان الظلام قد أوشك على الهبوط ، وهو هناك يهبط دفعة واحدة بعد شفق قصير لا يدوم دقائق . وعلى ضوء هذا الشفق القانى . حانت من عطا نظرة إلى المرأة . .

رآها تحسر الطرحة عن رأسها فيبدو من تحتها منديل رأس متعدد الألوان، ثم تحل المنديل فيبدو شعرها وكأنه يتوهج، ثم تعصب رأسها وتعيد الطرحة إلى وضعها. فعلت ذلك فى أقل من دقيقة كأنها تخشى أن يراها أحد ، وبعد هذا ألقت نظرة عجلى على عطا ، فكأنما رمته بسهم ..

ونظر عطا إلى الخادم وقام : هل فى البيت ضيوف ياسيد ؟ ..

ــ ملآن .. نحو ستة أنفار ينامون الليلة فى « المندرة » .. أصهار العمدة أتوا يخطبون ابنته الثانية ، ملأوا بيته وفرق الباقين على بيوت أصحابه ؛ وأنت مدعو للعشاء عنده الليلة .. ليلة كبيرة والبلد مقلوب ..

وظل صامتاً لحظات ، ثم نظر إلى جنيدى كأنه يقول : « ما العمل ؟ » وأحس هذا بحرجه فقال :

ــ لا عليك ياحاج .. إذا استطاعت أختنا أن تنام مع حريمك نمنا نحن فى الدوار .. ولم يقل شيئاً . كان بطبعه رجلا قليل الكلام . قوته كلها كانت فى ذهنه الذى لا يكل له نشاط . كان يشعر أنه غير مرتاح ، غير مطمئن ..

لقد تعود — إلى الآن — أن يمسك بزمام كل موقف يجد نفسه فيه ، ولكنه لا يدرى مابه هذه المرة . إنه لا يريد هؤلاء الناس ، ربما كان يشعر بشيء من الخوف من ناحيتهم ، ولكن هذه المرأة تشل تفكيره تماماً. إنه يريد أن ينظر إليها دواماً ، ولولا شيء من الحياء لما رفع بصره عنها أبداً . .

ونظر إلى جنيدى وقال :

— الدوار مستحيل الليلة . أصهار العمدة وأصحابه كثيرون : لابد أنه امتلأ بهم الآن ، ثم إن دوار قريتنا لا يصلح لأمثالكم . .

ثم قال مخاطباً الغلام :

— ما العمل يا سيد ؟ . .

— هناك غرفة الطاحونة . . . ننظفها ونفرشها ويدخلونها قبل أن يتذكرها العمدة . .

ولمعت عينا عطا . كانت هذه الطاحونة ملكه . كان قد حازها بإحدى حيله بربع ثمنها ، فنفر منه القرويون وحرموا الطحن فيها ، فوقف سوقها رويداً رويداً ، ولم تعد تطحن إلا غلاله وغلال بعض أصحابه ، وأصبحت كالمهجورة معظم الأيام ، وكانت تقع فى الطرف الجنوبى للقرية قريب المقابر ، مما زادها فى نظر الناس وحشة ، ولكنها كانت بناء واسعاً فيه بعض الغرف تصلح لإيواء الضيوف النزلاء فى حالات الضرورة . .

ونظر إلى جنيدى وقال :

— لا تؤاخذونا ، قد سمعتم بآذانكم . . كنا نود أن نأخذكم فى البيت، ولكن ما باليد حيلة . غرفة الكاتب فى الطاحونة لا بأس بها ، وسأرسل لكم فرشاً وغطاء وطعاماً وماء . . سنصل إلى القرية الآن ، ثم يأخذكم سيد إلى الطاحونة ، وسيأتيكم كل شيء هناك . .

فرغ عطا من تحية العمدة وتهنئته ، أنبأه خبر هؤلاء الغرباء ، فنظر إليه طويلاً ثم قال :

— .. ثم تزعم أنك رجل نبيه لا يفوتك شيء ..! من أدراك يا أخي أن هذه أختهم .. ؟

فتح عطا عينيه دهشاً ، ووضع يده على فمه وقال :

— عندك حق يا عمدة .. لم يخطر ببالي ذلك ..

— نرسل خفيراً الآن يأتي بالحرمة لتنام مع الحريم عندي..أو عندك..

— أنا ذاهب إليهم بعد قليل مع سيد ، وسأدعه يعود بها إلى بيتي ..

— ذلك أسلم ، نحن الآن في أيام موالد وأولاد الحرام كثير .

ثم ألمّ ببيته لكي يودع مامعه في حرز سري أمين لا يعرفه أحد غيره، ولكنه لم يستطع . كان العمدة قد أرسل ست نساء أو سبعاً ليثمن عنده ، وأقبلت كل منهن ومعها فرقة من العيال والأطفال ، فلم يبق في البيت ركن هادئ، ثم بحث عن خادمه سيد فلم يجده . فقال لأهله أن يبعثوا به إليه في الطاحونة ، ومضى إلى هناك ..

كان الليل قد استأخر عندما وصل . وجد السكون مخيماً . كان قد أرسل لهم مع الفرش والطعام مصباحاً غازياً . فأكلوا وأطفأوه وناموا، وكانت الليلة مقمرة ، وعلى الضوء الأزرق الخفيف رأى الرجلين في غرفة الكاتب يغطان في النوم ، وبحث ببصره عن المرأة فلم يجدها ، فرجّح أنها نائمة في موضع آخر .. فخرج وجلس على كرسي خارج الطاحونة لصق الجدار ، وأرسل بصره نحو المقابر يغشيها ضوء القمر الحزين وسكون الأبد .. وأحس بشيء من الخوف ، وتمنى لو يصل سيد ليأخذ المرأة ويعود معه ..

وبينما هو في الانتظار سمع حركة في الداخل ، وأنصت فإذا وقع أقدام خفيفة تقترب ، ونظر إلى الباب ، فإذا المرأة تقبل وتقف فيه ويقع عليها ضوء القمر ، وبدا له وجهها ناصع البياض تحيط به الطرحة السوداء، ثم أزاحت الطرحة وحلت المنديل وهزت رأسها فانتشر شعرها على كتفيها ، وبدا له منظرها غريباً حقّاً ، ثم حانت منها نظرة فكأنما ريعت، وخطت إلى الوراء وقالت :

ــ بسم الله الرحمن الرحيم ! ... من أنت .. ؟

ــ أنا عطا صاحب الطاحونة ..

فعادت ونظرت إليه ، ثم ابتسمت وقالت :

ــ لامؤاخذة ياحاج ... حسبتك غريباً . .

ــ ألم تنامى بعد .. ؟

ــ لا .. أشعر بخوف فى هذا المكان ..

ــ ومعك أخواك ؟

ــ إنهما ينامان كأنهما حجران ، ولو قتلنى أحد ما استيقظا ..

ثم أقبلت نحوه وهو ينظر إليها تقترب منه كأنها جنية الأحلام ، ثم جلست على الأرض عند قدميه وقالت :

ــ أنت رجل ابن حلال ... ووجهك كله خير ..

ــ أتيت لآخذك إلى البيت لتنامى مع حرمى .. هكذا طلب العمدة.

فظهر عليها الروع وقالت :

ــ وهل يعلم العمدة أننا هنا ؟

ــ لابد أن يعلم .. وماذا يضيرك فى ذلك ؟

ــ لا أحب العمد ..

ــ ليس فى الدنيا أحد يحب العمد .. ولكن لابد منهم ..

فأرسلت بصرها نحو المقابر ، ثم قالت :

ــ لم آكل شيئاً مما أرسلت . . أمسكنى الخوف عن ذلك .. الآن فقط زال خوفى وأنت هنا .. إننى أشعر بالجوع .. انتظر ..

ثم نهضت فدخلت الطاحونة ، وعادت تحمل «طبلية » الطعام ، ثم عادت وأتت بقلة الماء ، وقالت : تأكل معى شيئاً . .

ولم يفكر فى شىء . مد يده وأخذ يأكل وهى تأكل وتنظر إليه ، ثم ناولته قلة الماء فشرب . وجد للماء طعماً غريباً ، ولكنه لم يكترث ، ثم رآها تبتسم فابتسم ، ثم ضحك وضحكت ، وأحس بخدر فى جسمه وخفة

فى روحه . وبشىء يشبه النعاس يطوف برأسه ..

* * *

لا يدرى كم من الوقت مر به على ذلك الحال .. وأفاق على يد تحركه، وتجذبه فى عنف . وسمع صوتاً يهتف :

ــ عم عطا .. سيدى عطا .. انهض .. ماذا جرى لك ؟ ..

وأفاق شيئاً فشيئاً . تبين أن الذى يخاطبه خادمه سيد . وفتح عينيه. أحس أن جسده متخشب من البرد ، وتنبه إلى أنه مجرد من ملابسه غير السروال .. فقال لسيد :

ــ ما الذى جرى ياسيد ؟ أين أنا ؟

ــ أنت على باب الطاحونة ياحاج . نمت هنا طول الليل ؟ .. أين ملابسك ؟ واتسعت عيناه فى رعب ، وحاول أن ينهض ، ولكن ألماً شديداً فى ظهره قعد به ، فعاد يقول :

ــ أنهضنى .. ! أنهضنى .. ! أين هؤلاء الناس ؟

ــ لا أحد هنا .. لا أحد فى الطاحون ..

ــ وملابسى ؟ أين ملابسى ؟

فصرخ سيد :

ــ ياخبر اسود .. سرقوها .. كان من الممكن أن يقتلوك .. سأجرى لأبلغ العمدة ..

وأفاق عطا دفعة واحدة وانتصب قاعداً عندما سمع لفظ العمدة ، وقال لسيد ، آتنى أولا بملابسى . أسرع إلى البيت ، وحذار أن يراك أحد . لا تقل إنك وجدتنى على هذه الحالة . لو عرف أحد ذلك قتلتك، أتسمع ؟ أقتلك بيدى هذه .. اجر .. اجر ..

وجرى الخادم ، ووقف عطا شبه عار فى ذلك المكان الموحش . ثم تذكر ما كان فى ملابسه ، فشهق ولطم صدره بيده وصاح :

ــ ياللمصيبة ! ضاعت النقود ، وضاع العقد ..

ثم اندفع كالمجنون داخل الطاحون ومضى يبحث . لم يجد أحداً . ثم خرج وجعل يجرى هنا وهناك باحثاً عن آثار أولئك اللصوص ، دون جدوى ..

وعاد سيد بالملابس ، وريع إذ رأى سيده على هذه الصورة . تناول عطا الملابس ودخل فيها ، ثم جلس على الأرض كأنه حطام ، ونظر إلى سيد وقال : وأنت أيها الحمار ما أخرك ؟ ألم آمرك أن تلحق بى ؟

— أتيت ياسيدى فوجدتك جالساً مع هذه الحرمة .. وقد نهرتنى وأمرتنى بالعودة . وكدت تضربنى ...

فضرب كفًّا بكف وقال : أنا فعلت ذلك ؟

— أجل . وحياة سيدى إبراهيم ..

— وهل قلت لأحد ذلك ؟

— لا ، لم أقل ، كانوا جميعاً نياماً ..

— قل الحق ياسيد ..

— والله ماقلت لأحد . .

— أنت تعلم ما سيصيبك لو كنت كاذباً ..

— أجل أعرف ..

ثم توكأ على كتف الخادم . وسار كأنه فلول جيش منهزم . فى الطريق استعاد فى ذهنه ماحدث . ضاعت النقود وعقد الفدادين ، ولن يستطيع شيئاً . لن يستطيع حتى إبلاغ العمدة ، فإن هذا لن يفهم إلا أنه أراد شيئاً فوقع فى أيدى اللصوص ، ولو صدقه وبحثوا عن اللصوص وظفروا بهم فماذا يقول إذا زعم الرجلان أنه هم بشىء فضرباه ، وأنهما لم يأخذا منه شيئاً ؟

وعندما رقد فى فراشه محطماً عادت الحكاية كلها إلى ذهنه ، من ساعة ذهب إلى دسوق إلى أن عاد والتقى بالرجلين وأختهما المزعومة .. حورية الماء .. جنية الأحلام .. لصة الطاحونة ! .. وأحس أن الذى

نزل به كان جزاءه حقًّا ،اعترف فيما بينه وبين نفسه أنه لم يكن خالص النية عندما ذهب إلى الطاحونة ليأتى بالمرأة .. ليته أطاع العمدة وأرسل الخفير ليأتى بهذه الشيطانة . .

* * *

فى عقابيل هذه المأساة رقد فى الفراش أسبوعاً — أصابه البرد فى الليلة المشئومة ، علت به الحمى وأحس بالوجع فى عظامه كلها : وفى غمرات الحمى رأى رؤيا غريبة مختلطاً بعضها ببعض : عرائس ماء ، وجنيات نيل . وضوء قمر . وأشباحاً مؤتزرة بالبياض وأخرى بالسواد ، ومياهاً زرقاء داكنة ، تعلو وتعلو حتى تكاد تغرقه فيصرخ ويستغيث ، ويهرف بكلام يعجب له كل من حوله ..

وفى بلدنا يقولون : إن علامة شفاء المريض أن يأكل دجاجة : وأكل عطا دجاجته ، وقعد فى فراشه منفرداً بنفسه فى غرفته، يشرب فنجاناً من القهوة ، ويبتسم ساخراً من نفسه ويقول :

— صدق العجوز ! ما تجمعه بيديك ورجليك فى سنوات : تأخذه حرمة بخفقة رمش ! لكل شىء طاحون يجعله تراباً ،وطاحون الرجل امرأة! دخلت الطاحون بقدمى ،وها أنا تراب .. أستحق ما جرى علىّ ! يافرحتك ياسخاوى ، يافرحتك ! أتكون أنت الذى دبرت ذلك ؟ ..

حكاية سي توفيق



قال فى نفسه، وهو يشتد فى سيره: «لم يبق إلا القليل ثم أكون عند عم رمضان!» . ثم أخرج منديله الأبيض ، ومر به على جبينه وجوانب وجهه ، كأنه يجفف عرقه. ولم يكن به عرق ، فإن الجو كان بارداً فى هذه الساعة الباكرة من النهار ، ولكنها إحدى مستلزمات الأناقة التى يحرص عليها توفيق سالم هذا ، أو «سى توفيق» كما يعرفه أهل الحى ، وهذه الأناقة هى رأس وأساس شهرته ...

ثم انحرف إلى شارع القناوى، فبدت له عربة اليد البيضاء الناصعة التى يبيع عليها عم رمضان بليلته المشهورة... عربة تقوم عليها صينيتان، واحدة يطبخ فيها بليلة القمح ، والأخرى بليلة الذرة، وحول الصينيتين : ومن خلال البخار المتصاعد، رأى توفيق صف الأطباق الصغيرة البيضاء وكوم الملاعق وآنية السكر الناعم ، وجوز الهند المفروم ،واللوز المجروش، وزجاجات ماء الورد والزهر ، وبنات وصبياناً أقبلوا وفى أيديهم الأطباق، أرسلهم أهلوهم ميكرين ليحصلوا على شىء من هذا «البوريدج» المصرى الأصيل قبل أن ينفد، لأن عم رمضان لا يعمل إلا إلى العاشرة صباحاً.

من السادسة والنصف إلى تلك الساعة يكون قد باع ست قدور من بليلة القمح ،وأربعاً من بليلة الذرة،يصب القدر فى الصينية ،فإذا فرغت صب الأخرى، والناس تتزاحم ،وتتضارب. نحن الآن قبيل السابعة،ولكن تعال فى الثامنة والنصف مثلاً وحاول أن تفوز بصحن من طعام الجنة هذا ...

وعم رمضان فنان عظيم يعرف قدر ما يعمل. إنه يقف بالفوطة البيضاء الناصعة مدلاة من رقبته ، يغرف من هذه الصينية مرة ومن الأخرى مرة بحساب شديد ، حرصاً على الرحيق المختوم ، وهو يردد فى صوت عال جميل : صلى على النبى ! : صلى على كامل النور .. صلى على اللى يشفع فيك .. وهو يمد صوته بقول «صلى» حتى يسترعى الانتباه .

وإلى جانب الحائط ، وقف فى تلك الساعة الباكرة خمسة أو ستة يأكلون فى صمت ،وفى أيديهم الأطباق الصغيرة ، وعم رمضان ينظر إليهم كأنه يتعجل فراغهم من الأكل ، ليأخذ الأطباق ، ويناولها الغلام ليقوم بغسلها إلى جانبه .

وبين الحين والحين يتوقف عن العمل لحظة ليمسح عرقه المتصبب بالفوطة المعلقة فى رقبته ، ثم يعيد فتل شاربه الأسود الضخم المصبوغ ، وربما فتح صندوق النقود وألقى نظرة عجلى تبعث فى صدره برداً وسلاماً ، فمن هذا الصندوق يبنى عم رمضان فى العباسية — كما يقول الناس — عمارة يقولون إنها ستصل إلى عشرة أدوار ..

وابتسم عم رمضان عندما رأى سى توفيق ، فحياه ثم سأله : قمح أم ذرة ؟

فكفر توفيق قليلا ، ثم قال :

— بالأمس أكلت بليلة قمح ..

فقال رمضان وهو يتناول طبقاً صغيراً ، ويضع المغرفة فى صينية بليلة الذرة :

— إذن فاليوم ذرة .. بالهناء والشفاء بإذن الله ..

ومضت يده تعمل .. وضع فى الطبق مغرفتين كاملتين دليلا على احتفاله بسى توفيق ، ثم أربع ملاعق من السكر واثنتين من جوز الهند ومثلهما من اللوز ، ثم أفرغ على ذلك كله قدراً محترماً من ماء الورد ، ثم ناول الطبق لسى توفيق ، مع ابتسامة عريضة . وعادت يده بالقرش ، فألقاه فى الصندوق ، والتفت ناحية أخرى ، ومضى يغرف فى الأطباق ويضع القروش فى الصندوق ..

وأكل سى توفيق الطبق الشهى ، وأعاده فارغاً لعم رمضان وحياه ومضى ، ثم أخرج المنديل الأبيض ومسح فمه ووجهه ، وأعاده إلى جيبه بعناية .. وبعد خطوات انحرف إلى شارع البقلى ومن بعيد بدا له المنزل

الذى يقصده ، منزل الحاج عبد السلام صاحب الدكان الكبير الذى يعمل فيه ، ونظر سى توفيق فى ساعة يده ، فإذا هى السابعة وخمس دقائق ، وابتسم ، فقد وصل فى الموعد كما هى عادته كل يوم ..

* * *

وفى الطريق مر بضريح الشيخ عفيفى . على الجانب الأيمن من الشارع ضريح صغير متواضع بين بيتين عاليين جديدين ، ومن خلفه شىء أشبه بالبيت الخرب. إنه بيت وقف. لا يلفت الأنظار إلى هذا الضريح إلا شباك مغطى بحاجز من حديد علاه الصدأ . هذا الشباك لا يعلو عن الأرض غير ربع متر .

أمام هذا الشباك وقف — على العادة فى كل يوم — ذلك القط المشمشى الكبير — ذو الرأس الضخم . وقف يلعق كفه ويمسح به وجهه — ويحك جلده بأظافره حيناً وبفمه حيناً آخر . عملية ضخمة شاقة تبعث على الإعجاب بهذا الحيوان الصبور ، وكلما مر إنسان توقف القط عن العمل ونظر إليه نظرة كلها ريبة. عندما رأى سى توفيق عاد إلى العمل دون اكتراث لأنه يعرفه جيداً ..

هذا القط المشمشى مقيم فى ضريح الولى ، وهو حارسه . إحساسه كقط هو أن هذا بيته ، والمقام والشيخ ملكه . هنا يعيش من سنوات وقد قضى على كل حشرة أو دابة سولت لها نفسها ولوج هذا العرين . إنه الوحيد فى الدنيا الذى يعنى بأمر الشيخ عفيفى وضريحه ، فقد عدا عليه الزمان وبدأ يختفى فى أطواء النسيان .

ربما كان الشيخ عفيفى مسئولا عن ذلك المصير ، فقد قلت كراماته جداً خلال السنوات العشرين الأخيرة. لم يعد يتولى علاج المرضى أو يتوسط لذوى الحاجات . كانت النتيجة أن أهمل الناس كسوة ضريحه فبهتت وتهلهلت وعلاها التراب ، وقلت الشموع المهداة إليه شيئاً فشيئاً ، ثم تلاشت . وعندما ابتنى الحاج عبد السلام العمارة الضخمة إلى جواره

وارتفعت هذه العمارة ثمانى طبقات . لم يعد للشيخ عفيفى فى الحقيقة وجود وانتهى أمره إلى رعاية القط المشمشى الكبير ...

قرأ توفيق الفاتحة للشيخ فى صوت غير مسموع . ثم وقف أمام بيت الحاج . وتناول اليد الحديدية الصغيرة الممسكة بالكرة ،ودق بها الباب دقتين اثنتين فى غاية الرقة والتواضع . ثم التفت وصعّد النظر فى عمارة الحاج عبد السلام التى ابتناها قبالة بيته ، ثم هبط ببصره إلى مقام الشيخ المجاور لها . ووجد أن القط المشمشى قد فرغ من عملية الاستعداد لجهاد اليوم ، وتمطى ، ثم جلس ساكناً وعيناه تنظران يمنة ويسرة . .

ورفع توفيق يده ليدق الباب مرة أخرى . ولكن يده جمدت على اليد الحديدية الصغيرة الممسكة بالكرة . لأن الباب فتح وبدت أم بهية الخادمة العجوز بوجهها الصبوح الذى يبعث البشر فى النفس . وقد لفت رأسها بطرحة بيضاء أخفت شعرها الأبيض .

ابتسمت عندما رأت توفيق وحيته فى مودة . فدخل ومضى فى تؤدة نحو المندرة القائمة فى الحوش . بينما كانت هى تغلق الباب . قبل أن يدخل المندرة قال : ياساتر ! .. مرتين . ثم دخل . وجلس على طرف كرسى وشبك يديه فى حجره ، وأخفض رأسه فى حياء : ثم أخرج المنديل ومضى يمسح وجهه . .

عندما اطمأن إلى أن أم بهية قد ابتعدت وأخذت تصعد سلم البيت أفرج عن نفسه . فاسترّاح فى المقعد كله وأسند ظهره إلى ظهره ؛ ومضى يتأمل الحجرة . بل جرؤ وأخذ ينقر بأصابعه على خشب كرسى مجاور ، ثم تحسس بيده شعره وبأصابعه حاجبيه وشاربه ؛ وتبين هنا وهناك بعض الاضطرابات . فأخرج المشط ومضى يسوى ، ثم مرّ ، بيده ليتأكد من أن الإصلاح قد تم بإحكام . .

ثم أخرج مرآة صغيرة مستديرة ، ونظر فيها ،وأدخل تعديلات طفيفة ، ثم سمع وقع اقدام أم بهية مقبلة ، فأخفى المشط والمرآة ، وأخفض رأسه فى

حياء ، وانتقل إلى طرف الكرسى ، وشبك يديه فى حجره وجلس صامتاً ..

ودخلت أم بهية ، ووضعت أمامه صينية القهوة ، وأفرغت له القهوة فى الفنجان ، وقالت له :

— اشرب يا ابنى على مهلك ... لا يزال الحاج نائماً ، عندما أوقظه سأناديك من الشباك .

ورفع فنجان القهوة وأدناه من أنفه قليلا ليستمتع بعطر القهوة قبل أن يشرب ، ثم أخذ يرشفها على مهل قطرة قطرة .

كان فنجان القهوة هذا هو الجزء الثالث من إفطاره كل يوم . الجزء الأول هو طبق الفول أو البيض المقلى تقدمه له أمه العجوز — وهى كل عائلته — قبل أن يبارح البيت، والجزء الثانى طبق البليلة عند عم رمضان، وهذا هو مسك الختام .

إنه شاب بسيط ليس له فى الدنيا إلا أمه ، والعمل الذى يقوم به فى دكان الحاج عبد السلام فى الغورية ، ولا لذة له فى الدنيا إلا الطعام والأناقة التى تعجب العشرات من عميلات الدكان الكبير ، أو المحل كما كانوا يسمونه : الشعر «المسبسب» اللامع المفروق على اليمين ، والشارب القصير المقصوص بحساب ، والقميص الأبيض يزينه رباط الرقبة الحريرى والجاكتة الكحلية المكوية يطل من جيبها منديل حريرى من لون رباط الرقبة ، والبنطلون الرمادى الذى تستقيم كسرته كحد السيف ، وكل هذا يقوم على قاعدة من حذاء نظيف أسود فى الشتاء وأبيض فى الصيف .

ونادته أم بهية من النافذة ، فنهض واقفاً وأعاد مراجعة كل شىء : الشعر والشارب والحواجب ورباط الرقبة ، ومنديل الصدر وكسرة البنطلون التى تهبط كحد السيف ، ثم أحنى رأسه ونظر إلى الأرض فى حياء كأنه «مادونا» ..

وسار على مهل وهو يقول : يا ساتر ! يا ساتر !

وصعد السلم : «ياساتر» !

ودخل الردهة ثم القاعة الوسطى : «ياساتر» !

ووقف قبالة باب حجرة نوم الحاج صامتاً كأنه عابد يلتمس البركات من كاهن الوثن .

كانت الحاجّة وراء الباب ، فحيته تحية الصباح ، ثم مدت يدها فناولته مفاتيح الدكان فى يده. أخذها دون أن يرفع بصره وحيا ومضى .

ونزل السلم ، وعبر فناء البيت ، ثم خرج من الباب وأحكم إغلاقه خلفه ، وأخرج المنديل ليمسح عرقه ، ونظر إلى مقام الشيخ عفيفى. كان القط المشمشى قد اختفى . مضى ودخل معركة اصطياد الطعام . .

وسار توفيق على مهل فى طريقه إلى الدكان . كذا كان يفعل كل يوم . لم يكن له مفر من أداء هذه الطقوس ، لأن الحاج عبد السلام لايثق إلا فيه ، وهولا ينام فى الليل إلا ومفاتيح الدكان تحت وسادته .

وفى الساعة السابعة صباحاً لابد أن يأخذها بيده من الحاجة . عندما يدق دقتيه الرقيقتين المتواضعتين تستيقظ الحاجة بعد قليل ، فتوقظ الحاج وتستأذنه فى أخذ المفاتيح . يسلمها إياها ، بيده فى يدها ، لتناولها لتوفيق عندما يصعد . بعد هذا يعود الحاج إلى النوم . ينعس ساعة أو نحوها ، ثم ينهض ليكون فى الدكان حوالى التاسعة .

هناك يجد « توفيق » قد فتح المحل ، وتثبت من حضور العمال وأشرف على التنظيف والترتيب ، وبدأت عمليات البيع وسارت سيرها العادى فى كل يوم .

* * *

أثناء هذه الطقوس كلها كان شىء آخر يجرى بنفس النظام . شىء لم يكن لتوفيق به علم ، ربما كانت أم بهية تعرف عنه شيئاً ، ولكن أم بهية بئر عميقة . .

عندما يتردد فى الجو صدى الدقتين الرقيقتين المتواضعتين ، كانت سوسن ابنة الحاج تقفز من فراشها لتتأمل مى توفيق وهو داخل . إنها

تنام مع بهية فى حجرة واحدة،وبهية تستيقظ فى السادسة صباحاً لتبدأ عملها المرهق فى البيت .

ويقطع توفيق فناء البيت وعينا سوسن ترقبانه . كانت تتأمل فى إعجاب بالغ شعره الأسود اللامع المفروق على اليمين ،وسوالفه الطويلة التى تنساب على جانبى وجهه بقدر وحساب ،وعينيه اللتين تنظران إلى الأرض أبداً ، والشارب الأنيق الصغير ،والجاكتة المكوية يطل من جيبها المنديل فى هيئة الأهرام ، وكسرة البنطلون تنساب كحد السيف ، ثم المنديل الأبيض يمسح العرق الموهوم ..

ويختفى سى توفيق فى المندرة ، وتظل سوسن فى مكانها حتى يشرب قهوته وتناديه أم بهية ، فتراه سوسن وهو يقطع الفناء،ويختفى فى بئر السلم وتسمع صوته : يا ساتر! وهو يصعد على السلم ..

ثم يدخل باب المسكن ، ويمر على قدر شبر منها ،لأنها تنتقل إلى باب غرفتها ، وتنظر من شقه ، وتشم هذا العطر الغريب الذى يعطر به مناديله . لقد بلغ من إعجابها بهذا العطر أن قطعت السوق كله باحثة عنه ، إنه يسمى « ڤينوس » ..

ثم تراه واقفاً أمام الباب ينتظر المفاتيح ، ويمر بها مرة أخرى، لو أصغى لسمع أنفاسها ، ويهبط السلم فتجرى إلى النافذة،وتودعه ببصرها وهو يغلق الباب خلفه ، فتعود إلى فراشها لتسترسل مع أحلام السعادة مع هذا الأمير الفاتن الجميل ..

هكذا كل يوم .. ووراء طقوس تسليم المفاتيح كانت تجرى حلقات قصة حب من طرف واحد ،حلقات متشابهة يتلو بعضها بعضاً مع مرور الأيام . واحدة من أقاصيص الهوى ، التى كانت تدور حول سى توفيق الشاب البسيط المتواضع ، الذى ما كان يتصور أن أناقته وعطر ڤينوس ونظرة الحياء الساهمة الحالمة ، سيكون لها هذا العدد العظيم من الضحايا ..

من حى الدراسة إلى باب المتولى كان سى توفيق موضع الإعجاب

وبطل الأحلام للعشرات .. كلهن كن عاشقات لهذا الأنيق الصغير الحيي : معجبات بالشعر الأسود اللامع المفروق على اليمين والسوالف المرسلة على جانبي الوجه بحساب . والشارب الصغير الأنيق ، والجاكتة ذات المنديل فى هيئة الأهرام ، وكسرة البنطلون الهابطة كحد السيف . وفوق هذا كله : عطر ڤينوس والمنديل الذى يمسح العرق الموهوم ..

كان هذا كله سراً من أسرار الإقبال على المحل. ربما لاحظه الحاج عبد السلام، فهو رجل بعيد الذكاء ، وهو يرى البنات يسألن عن سى توفيق ويتحدثن مع سى توفيق ، ويشترين من سى توفيق . ولكن سر سى توفيق هذا عنده ، هو أنه كان رجلا أميناً جداً ، متواضعاً جداً ، لا تسمو به المطامع إلى أكثر من راتب الشهر الذى كان يتقاضاه ..

* * *

ولكن إذا كان توفيق رجلا متواضعاً جداً لا تسمو به المطامع إلى أكثر من راتب الشهر الذى يتقاضاه، فإن مطامع سوسن كانت تسمو إلى أكثر من نظرة من وراء نافذة أو من شق باب .. كانت ابنة مدللة وسط شقيقتين ، وكانت أمها تحبها حباً يفوق الوصف ؛ وكان أبوها يدللها ويبحث عما يفرحها أو يرضيها ، وكان المال بين يديها كثيراً ، والآمال فى صدرها أكثر ، وكان ذهنها الصغير يدور ويدور باحثاً عن طريق إلى هذا الشاب الذى صورت لها سنوات عمرها القليلة — ثمانى عشرة — أنه أعظم وأجمل شاب فى الدنيا . .

بعد تفكير طويل عزمت على أن تذهب إليه فى الدكان. قد يعرف وجهها بعض العاملين فيه ، ولكن الملاءة والبرقع تخفيان كل شىء ؛ وما أكثر ما يستر الحجاب !

وجعلت ترقب حتى سافر أبوها وأمها للحج ؛ وخلا لها الجو بعض الشيء ، فتعللت بشيء وأفلتت من أم بهية،وفى منزل صديقة لها لبست ملاءة وبرقعاً ، وذهبتا معاً إلى الدكان ، ووقفتا مع سى توفيق تطلبان

صنفاً بعد صنف ، والمسكين يروح ويجيء ويصعد ويهبط ويفتح أثواب القماش ، ويجتهد فى الإقناع . ثم اشترتا بضعة أشياء ومضتا والمسكين يلهث لكثرة ما صعد وهبط ، وفى الطريق قالت الصديقة ، وكانت فى سن مقاربة لسن سوسن :

ـ إنك معذورة !

ـ ألم أقل لك إنه شاب عجيب ؟

ـ فعلا .. لطيف وأمير ومؤدب . .

ـ وجميل جداً .. أليس كذلك ؟

ففكرت الصديقة ثم قالت :

ـ جميل جداً .. ؟ لا أدرى .. المهم أنه رقيق جداً . .

ومضى الحديث بين البنتين على هذا النحو وقتاً طويلا ، وفى منزل الصديقة تركت القماش الذى اشترته وعادت إلى البيت . هناك وجدت أم بهية تكاد تموت خوفاً ، فقد غابت البنت فى الطريق ساعات ، وجرى بينهما نقاش حاد انتهى بأن أكدت الفتاة أنها لن تعود إلى ذلك أبداً . .

ولكنها عادت ، وعادت ، وماذا تفعل خادم كهذه وكلت إليها حراسة صبية ركبها الشيطان ؟ وفى كل مرة كانت تطيل الحديث مع توفيق ، وصاحبتها تتفرج على الأقمشة وتشترى لحسابها ، ثم تخرجان بشيء ضخم من كل لون ، وسى توفيق يتأملهما دون أن يفهم شيئاً . كان يحسبهما بعض فتيات الحى ممن لا يجدن ما يعملن فيزجين الفراغ بالتردد على الدكاكين . .

أخيراً ، وقبل أن يعود أبواها من الرحلة بقليل ، ذهبت وحدها . تعمدت أن تكون زيارتها أوائل بعد الظهر ، وفى وقت تخف فيه الرجل ويقل الناس فى المحل ويهوم بعض العمال على الكراسى . .

وجدت سى توفيق على الباب كعهده ، دخلت وسار وراءها حتى انتهيا إلى قاع الدكان ، ثم طلبت شيئاً ، وأتى به ووضعه أمامها ، وفتحه لتتأمله ، ووقف ينظر إليها فى زهو وسرور ، شأن التاجر يعرض بضاعة

لا يشك فى أنها ستلقى قبولا من الناس ، فوقف متحفزاً بهذه النظرة ليخوض معركة الثمن .

ولكنها ألقت نظرة عجلى على القماش ، ثم تلفتت حولها . لم يكن هناك أحد ، ولا كانت هناك عين ترقب ، فرفعت يدها إلى خلف أذنيها وكشفت النقاب عن وجهها ، ونظرت إليه طويلا وهو واجم ثابت النظر إليها ، ثم قالت :

ــ توفيق...أنا سوسن بنت الحاج عبد السلام.. اطلبنى من أبى...

وفى هدوء أعادت النقاب مكانه ، وجمعت ملاءتها ، ووقفت ، ثم أخذت طريقها إلى الباب ، واختفت فى الطريق ..

وظل توفيق مكانه واجماً ، جمد مكانه وزاغ بصره . وأحس أنه يفقد توازنه كأنما صدم رأسه شىء هائل ، فأخذت الأرض تميد تحت قدميه، واجتهد فى أن يستمسك ، ونظر فإذا كرسى صغير غير بعيد عنه ، فمد يده فى جهد ، وقربه، ثم جلس . ورآه على هذا الحال زميل له مرقوبياً منه فأسرع إليه ، وقال :

ــ توفيق .. ! مالك ياتوفيق ؟

وبعد لأى ما ، استطاع أن يجمع نفسه الشاردة ويقول :

ــ لا شىء .. لا شىء .. !

ــ مريض .. ؟

ــ لا أدرى ... أحسست بدوار شديد ... الآن أنا أحسن ..

ــ تريد شيئاً ؟

ــ شيئاً من الماء ... وفنجان قهوة إذا استطعت ..

ومضى عنه صاحبه ليأتيه بما طلب . لم يكن بحاجة إلى ماء أو قهوة، كل ما أراد هو أن يتخلص من هذا الزميل ويخلو إلى نفسه لحظة. واسترد نفسه شيئاً فشيئاً ، وأخذ يعيد عليها ماحدث ويفكر علّه يفهم .

لم يعد عنده شك فى أن هذه الزائرة الغريبة هى سوسن بنت صاحب

المحل . كان قد رأى وجهها لمحات خاطفة ، ولكنه لم يفهم شيئاً . لماذا تسترت بالملاءة والبرقع وأتت إليه ؟ هل أتت على هذه الصورة مرات قبل ذلك دون أن تكشف عن نفسها؟ هل هى تحبه ؟ أم أنها تسخر منه؟ أم أنه عبث المترفات أمثالها بالمساكين أمثاله ؟ وأتت القهوة والماء وشربهما دون أن يدرى ، وإن كان قد استمسك بعض الشىء .

وأقبلت زحمة بعد الظهر ، وامتلأ الدكان على سعته بالنسوان ، وأقبل بعضهن يشاغلنه ، ويداعبنه على عهدهن ، وفى أثناء ذلك نسى مأبه وأقبل على العمل ، ولكن سوسن كانت تقتحم عليه كل شىء ، وتملأ نفسه ويتردد صوتها فى كيانه ، كأنه انفجار هائل يصرفه عن كل شىء لبضع لحظات . كانت تبدو له بوجهها الوردى الجميل الجزين بعض الشىء بشعرها الكستنائى الغزير المتهدل على جبينها الأبيض ، بعينيها الساجيتين المعاتبتين ، ثم بفمها الصغير الجميل وهو يقول فى همس ذى دوى يهز كيانه هزاً :

— توفيق ... أنا سوسن بنت الحاج عبد السلام... اطلبنى من أبى .!

وخيل إليه أن بعد الظهر هذا لن ينتهى أبداً ، كان ينظر إلى ساعته كل دقيقة ، لأنه كان يريد أن يهرب من الناس إلى مكان هادئ يفكر فيه .

وانتهى العمل وأغلقوا الدكان ، وتسلم مفاتيحه صبحى ابن الحاج عبد السلام ، وكان شاباً يدرس التجارة ويعمل مع أبيه ، وكان يحب توفيقاً ويعطف عليه ، فسأله وهو خارج إن كان يستطيع أن يحمله بالسيارة إلى مكان ما ، فشكره وحياه ، ثم مضى مسرعاً واختفى فى زحمة الناس فى الغورية ثم فى السكة الجديدة . وفى الزحمة شعر بشىء من الاطمئنان . .

استقر رأيه على أن يذهب إلى شاطئ النيل ، ولكنه أحب أن يطمئن أمه قبل أن يذهب ، فهى عجوز قلقة تثير الدنيا إذا هو تأخر عن موعده بضع دقائق ، فمر على دكان صاحب له يسكن إلى جواره ، ورجاه أن

يبلغ أمه أنه ذهب فى عمل للمحل وسيتأخر إلى حوالى الحادية عشرة مساء، ثم انطلق مسرعاً يطلب الخلوة والسكون ...

* * *

لم يفعل أثناء خلوته على شاطئ النيل أكثر من استعادة المشهد ألف مرة، دون أن يهتدى إلى رأى . خطر بباله أن يذهب إلى بيت الحاج فى الصباح الباكر ، ويتحدث إلى أم بهية فلعلها تعرف شيئاً ، ولكنه خاف أن يراه صبحى أو أحد من أهل البيت ؛ وكان أعسر شىء على تصوره هو أن يتحدث مع سوسن نفسها ، أو أن يطلبها من أبيها بعد أن يعود من السفر ...

وعاد إلى بيته ، وأوى إلى فراشه ، فلم يستطع أن ينام لحظة . ظل يتقلب فى فراشه إلى الصباح ، وسألته أمه عما به المرة بعد المرة ، فأبى أن يجيب ، وأخيراً استحلفها ألا تقول شيئاً ، ثم قص عليها الأمر . . . واستمعت إليه العجوز ثم ابتسمت وقالت :

— خير يا ابنى ... وما الذى يحيرك ؟

— الذى يحيرنى ؟ أننى لا أدرى ماذا أعمل ..

— اطلبها من أبيها ..

— أنا أطلب ست سوسن من الحاج عبد السلام؟ هل انقلبت الدنيا؟

— إذا كانت البنت نفسها طلبت إليك ذلك ..

— البنت مجنونة .. هذه طفلة ...

— وماذا تخاف ؟

— أن يطردنى الحاج من المحل ..

— لن يطردك .. ومع هذا ، فإذا طردك هناك محلات أخرى كثيرة تستطيع أن تعمل فيها ..

— تريدين أن تقطعى عيشى .. ؟

— أريد أن أفتح لك الطريق .. لقد طرق الحظ بابك ، وأنت ابن

لحلال وتستأهل كل خير .. ولكن ياخسارة ..

— ياخسارة إيه ؟

— تنقصك الشجاعة يا ابنى ..

فضرب على فخذه بيده وقال :

— سوسن تضحك علينا يا أمى .. نحن ناس فقراء وهم ناس أغنياء جداً . .

— هم أيضاً كانوا فقراء يوماً ما ..

وسكت قليلا ، ثم قال :

— هل تتصورين أن سوسن تحدثت إلى أبيها فى الموضوع ؟

— أبوها وأمها مسافران .. ولكن لابد أنها تعرف أنهما سيوافقان .. إن سوسن ليست مجنونة ..

— إذن لماذا فعلت ذلك ؟ ..

— لأنها تريدك ياابنى .. عشرات من نساء الحى يردنك .. أنا امرأة وأفهم ذلك ..

— لاياستى .. أنت لا تفهمين شيئاً .. لا أريد أن أرى نفسى فى الطريق أبداً ..

وهزت الأم رأسها أسفاً ، وسكتت ..

وقبل أن يخرج استحلفها بكل عزيز عليها ألا تقول شيئاً ، ولا تفعل شيئاً ..

* * *

ومرت الأيام ...

لم يستطع توفيق أن يعلو بنفسه شبراً عن الأرض . لقد عاش عمره كله هادئاً مطمئناً فى رعاية أمه ، مدللا من أولئك الفتيات اللاتى يداعبن أمثاله للتسلية . كان مرتبه صغيراً ، ولكنه كان قانعاً به ، ثم إن الحاج عبد السلام كان يحبه ويكرمه ، ويتفضل عليه بشىء من المال فى الأعياد

وبعض المناسبات . كل هذا كان يتصوره شيئاً عظيماً لا يمكن المغامرة به ...

لهذا ، وبرغم افتتانه بالفتاة ، لم يجرؤ على أن يخطو خطوة ..

وكلما أرادت أمه أن تشجعه وتدفعه تراجع إلى الوراء وتخوّف ..

وبعد شهور ترامى النبأ بأن سوسن قد خطبت ..

وبعد شهور أخرى تم زفافها . تزوجت شاباً كريماً من أبناء مياسير التجار . وليلة الزفاف كان توفيق يسير وراء الحاج كأنه خادمه ، يأمره بهذا فيفعله ويرسله فى شىء فيجرى ..

وبين الحين والحين كان يلقى نظرة على سوسن فى ثوب الزفاف ، وقد جلست إلى جانب زوجها ، وأطال النظر مرة ، والتفتت ناحيته وتأملته بعينين كلهما عتاب أو غضب .. لا يدرى .. ومن مكانه فى الركن الخفى أحس للمرة الأولى أنه فقد شيئاً عظيماً ، وأحس بيد تستقر على كتفه . كانت أمه .. همست فى أذنه :

— ألم يكن أحسن أن تكون هناك .. تحت الأنوار ؟

وأحس باللمع فى عينيه ، وتركها ومضى . واقترب منها أخوها وكانت قد قصت عليه الحكاية ، فهز رأسه وقال :

— لا فائدة .. توفيق ابننا تنقصه الجرأة .. ينقصه الطموح .. بدون جرأة ، بدون طموح ، لا يمكن أن يتقدم الإنسان خطوة ..

فابتسمت الأم فى مرارة ، وقالت :

— يريد أن يتزوج بنت عم رمضان ..

— بتاع البليلة ؟ ..

— أيوه . . بتاع البليه . . يقول إن عنده عمارات . . .

— أى أنه يريد أن يتزوج عمارة .

— ليته يصل إلى ذلك ..

— سيصل ..

وأشعل سيجارة ، ثم قال وهو يهز رأسه آسفاً :

— توفيق طماع .. إنه ساكن هادئ، ولكنه طماع .. الفرق عظيم بين الطماع والطامح ..

— قسمته . . المهم أن يتزوج . .

وتزوج سى توفيق من جليلة بنت عم رمضان . بعد الزواج تبين أن عم رمضان لا يملك عمارات ؛ ولا عمارة واحدة . كل ما يملكه قطعة أرض بنى عليها أربعة دكاكين .. وله من الأولاد خمسة . .

وظل سى توفيق مكانه. كل ما حدث له أن حماه أمده بشيء من المال فاستأجر شقة أوسع تحمله وزوجته وأمه وما يستجد من البنين ، وزاد الحاج عبد السلام راتبه شيئاً ، ومضت الأيام ، وأقبلت مع الأيام البنات والبنون ..

واستمر توفيق يمضى كل صباح ليأخذ المفاتيح ، ويقف كل يوم ليأكل طبق البليلة . وعندما يصل إلى ضريح الشيخ عفيفى يبحث عن القط ، وقد اختفى القط المشمشى وحلت محله قطط أخرى ..

وعندما كان توفيق ينقر على الباب باليد الحديدية الصغيرة الممسكة بالكرة ، كان يلتفت وينظر إلى عمارة الحاج . فى شقة بالدور الرابع كانت تسكن سوسن . وفى بعض الأحيان كان يجد سيارتها تنتظر عند الباب . كان يتأمل نفسه صغيراً ضئيلا أمام الباب الكبير ، وربما تساءل: هل كان من الممكن ياناس أن أتزوج هذه ؟ ! ثم يهز رأسه ويبتسم مهنئاً نفسه : « بأن البنت لم تلعب به » ..

* * *

وبعد سنوات ، فى صباح أول يوم من أيام عيد الأضحى ..

كان أولاده قد كثروا ، وأصبح القيام بمطالبهم صراعاً لا يعرف هوادة .. ذهب مع الحاج إلى المدافن كعهده فى كل عيد ..

قرأ القراء ما تيسر من آى الذكر الحكيم ، ووزع توفيق « الرحمة »

على الفقراء .. وخلا الضريح إلا من الحاج وخادمه الأمين . وعندما حان وقت انصراف الرجل ، أخرج ورقة مالية كبيرة ودسها فى يد توفيق ليستعين بها على نفقات أولاده ، واستكثرها توفيق . فابتسم الحاج وقال :

— تستكثرها يا توفيق ؟ كان من الممكن يابنى أن تكون اليوم صاحب الحق فى جزء كبير من أموالى ..

ونظر إليه توفيق واجماً ، فهو لم يفهم شيئاً ، فاستطرد الحاج يقول :

—كان ذلك من ١٥ سنة .. أنت تعرف كيف كنت أثق فيك دائماً . كانت سوسن قد بلغت السابعة عشرة وآن زواجها ، ولاحظت أمها أنها تترقب حضورك فى الصباح ، فانتهرتها دون جدوى ، فحدثتنى فى الأمر .. إننى أذكر ما قلت لها :

— والله يا أم صبحى لا مانع عندى ، توفيق ابنى وابن حلال ، وقد بدأت حياتى أنا أقل منه ...

واتفقنا على أن نجيب طلبك إذا تقدمت تخطبها ..

وسافرنا للحج ..

وعندما عدنا أحسسنا فى البيت بشىء ، ثم أبلغتنا أم بهية — يرحمها الله — أن بعضهم أوحى إليك أن تخطب سوسن .. والحقيقة يا ابنى كان قلبى متفتحاً لك .. وظللنا ننتظر ..

ولم تتقدم أنت .. قلنا إن البنت لا تعجبك . هذه المسائل قسمة ونصيب ..

وضحك الحاج، ثم نهض ورجا توفيقاً ألا يقول لأحد شيئاً من ذلك ، وأوصاه بإحكام إقفال الباب ، وركب سيارته ومضى . .

وعاد توفيق إلى المدفن وأسند رأسه إلى قبر وأجهش فى البكاء ، وعلا نشيجه حتى سمعه حارس المدفن ، فأقبل وربت على كتفه قائلا :

— ماذا جرى ياسى توفيق ؟ .. هل مات لك أحد ؟

فرفع بصره ونظر إليه طويلا ثم قال :

ـ أيوه .. أنا ياعم دسوقى .. أنا اللى مت .. وعلى نفسى أبكى .

وتركه الرجل وخرج وهو يهز رأسه قائلا :

ـ لاحول ولا قوة إلا بالله ، لقد جن الرجل !

أنا وإبنى



هذه ليست مجرد قصة واقعية ، إنها اعتراف . . .

اعتراف بسر ثقيل ، ناء بحمله صدرى سنوات بعد سنوات ، أستميحكم العذر إذا حططته عن كاهلى لحظات ، ورجوت ذوى القلوب الطيبة أن يشاركونى حمله بعد ذلك ، أو التخفيف عنى بكلمة تبعث الرجاء فى المغفرة فى قلب تضيق به مذاهب الأمل كلما تقدمت به الأعوام . .

فإذا لم يكن هذا ولا ذاك ، فلا أقل من رأى أو مشورة ، فلعل الأخذ والرد واتصال الكلام تخفف عن صدرى ثقل وزرى . وعزائى فى حكايتها أنى أعتقد أن كل سطر منها يحس به أولئك الذين أنعم الله عليهم بالولد، وعرفوا شقاء الأبوة ومتاعبها قبل أن يعرفوا لذاذاتها . . ويتعزى بها أولئك الذين لم يرزقهم الله الولد، وحسبوا — لهذا — أنهم حُرِموا نعيم الدنيا كله..

أما الذين لم يدخلوا بعد دنيا الزواج وعالم الأبناء والبنات ، وأولئك الذين شاءوا أن يقطعوا صحراء الحياة أفراداً عُزّباً زاهدين فى متعة الأهل ، وناجين بأنفسهم من متاعب الأسرات ، وأولئك الذين شاءت لهم الظروف أن يظلوا على شاطئ هذه الدنيا متفرجين.. هؤلاء جميعاً ربما قسوا فى الحكم علىّ ، أو على ابنى ، أو علينا معاً ..

وهؤلاء جميعاً تضعهم هذه الحكاية أمام مشكلة لا زلت أنا ، بعد ثمانية عشر عاماً من مرورها ، فى حيرة من أمرى وأمر زوجتى .. أكانت هى على صواب فيما فعلت ؟ أم كنت أنا على الحق فيما أتيت ؟ هل تحق علينا لعنة الإجرام ؟

وهل هناك أمل فى الغفران ؟

إليك القصة أولا ..

* * *

كنت فى أواسط العقد السادس من عمرى ، تاجراً ذائع الصيت فى

الوجه البحرى كله . كنت قد استطعت ــ بعد كد السنين ــ أن أجعل متجرى من أكبر متاجر دمياط وأكثرها عملا وأولاها بثقة الناس ، فكان محلى ــ بأبوابه الأربعة ، وبضائعه التى جمعت فأوعت ــ أشبه بسوق عامرة لا تسكن الحركة فيها من البكور إلى الغروب ، وكنت ــ إلى جانب ذلك ــ من أسرع الناس لمعاونة إخوانى فى الحرفة وأكثرهم استعداداً لخدمتهم فمنحنى الله حبهم وثقتهم . وكثر المال فى خزائنى ، وزادت ودائعى فى المصرف ، واقتنيت ضيعة جنوبى البلد أنشأت فيها داراً خلوية ، كنت أخرج إليها كلما سئمت نفسى العمل وطلبت شيئاً من الاستجمام ..

ولم يرزقنى الله من الأبناء إلا ولداً واحداً ، أكرمنى به الله لأول زواجى فى شبابى الباكر ، وانتظرنا له أخاً أو أختاً ، ولكن الوهاب سبحانه لم يشأ . وحمدنا لله عطيته ، وأقبلنا ــ أنا وزوجى ــ نربى وحيدنا ونحوطه بما استطعنا من العناية . وبارك الله لنا فيه ، فنشأ شاباً ذكياً واعياً باراً بوالديه . وزاد سعادتى به أنه رغب فى العمل معى فى المتجر ، بعد أن أصاب الضرورى من التعليم ، فحمدت الله على ذلك ، لأننى كنت أخشى أن ينصرف إلى طلب الطب أو الهندسة وما شاكلهما ، كما فعل الكثير من أترابه. ومن أسوأ ما يحدث لنا ــ معاشر التجار ــ ألا يجد الواحد منا من بين أبنائه من يرغب فى التجارة ، وينصرف الأبناء إلى مطالب أخرى من العيش ، فيباع الدكان أو يأكله العاملون فيه ، ويتلاشى الاسم بعد طول العناء فى إنشائه وتثبيت أركانه . .

وكنت أجد فى هذا الولد خير العوض عما لقيت من العناء فى تأسيس المتجر ، فصار يخلفنى فيه لأمضى إلى الضيعة أو إلى المنصورة أو بورسعيد أو القاهرة ساعياً فى شئون تجارتى ، فيسد مكانى ويقوم بالأمر على خير وجه . وكانت مفاتيح الخزانة فى يدى أو يده سواء ، وكل منا يفتح ويراجع ويقابل على المدون فى الدفاتر ، فإذا أخذ واحد منا شيئاً قيده فى الدفتر حتى لا يضطرب الحساب .

وتخطى إسماعيل — وهذا اسمه — الخامسة والعشرين من عمره ، وبدأت أمه تتحدث فى أمر زواجه ، ولكن انصرافه إلى العمل وطموحه إلى التوسع فيه جعلاه لا يلقى إلى حديثها بالا ، ولم أكترث أنا للأمر ، ثقة منى فى أنه سيتزوج على أى حال يوماً من الأيام ، ولم يكن بصاحب سهر أو عبث ، وما أظن أن الحادية عشرة مساء أتت فى ليلة من الليالى إلا وهو فى الفراش .

ولكننى بدأت ألاحظ تغيراً واضحاً فى أحواله فى مطالع عامه السادس والعشرين . لاحظت أنه يتأخر خارج البيت إلى منتصف الليل أو بعده ، ويأتى إلى المتجر متأخراً مع الضحى ، جهماً عابساً متعباً ، فيأوى إلى المكتب ويظل واجماً كأن أمراً يشغل ذهنه ، ولاحظت كذلك إهمالا منه فى العمل ، فإذا نبهته إلى خطأ فى القيد أو توان فى مخاطبة هامة ، اعتذر واستدرك خطأه فى تكلف وتثاقل .

وحاولت أن أعرف السر ولكنه لم يشأ الإفصاح ، بل بدالى أنه يستثقل ذلك منى ويراه فضولا ..

ولو أن ابنى كان شاباً طائشاً ثقيل الإحساس معتاد الإهمال ، لما ترددت فى لومه والإكثار عليه ، ولكنه كان — فى هذه السن — رجلا ذا هيبة تعجبنى ، فاستحييت أن أفاتحه فى الأمر ، ولم أتحدث فيه إلى زوجى ، وعولت على الصبر ، وعقدت ثقتى فى الله ..

ومرت الأيام ..

ولكن الأمر زاد وأخذ صبرى ينفد ، فقد لاحظت أن يده بدأت تمتد إلى المال يأخذ منه العشرين والثلاثين جنيهاً دون أن يثبت ما أخذ ، وكان يرانى أحصى ما فى الخزانة وأراجع الدفاتر وأتعجب ، فيُطرق كأن الأمر لا يعنيه ، حتى جاء يوم وجدت الناقص فيه مائة وخمسين جنيهاً دفعة واحدة ، فأحسست أن الحياء لم يعد ينفع ، فقلت له يوماً وقد خلونا فى المكتب :

— يا إسماعيل .. ألم تلاحظ النقص المتوالى فى ودائع الخزانة ؟ لى ثلاثة أسابيع وأنا أتبين خلافاً بين المودع فى الخزانة والمقيد فى الدفاتر ، وقد رجوت أن تلاحظه أنت أيضاً وتفاتحنى فيه . .

— ولم أفاتحك مادمت أنا الذى آخذ هذه الفروق ؟ ..

— يابنى هذا المال مالك ، ولا حرج عليك فى أن تأخذ منه ما تحتاج إليه ، ولكن للتجارة وحساب المال أصولا أنت تعرفها ، وكان لابد على الأقل أن تدون ما تأخذ ..

فقال فى جفاء يدارى به حرجه :

— هذه الخزانة لا يفتحها أحد غيرنا ، ومن المفهوم أننى أنا الذى أخذت هذا المبلغ ، مادمت أنت لم تأخذه .

— وكيف أعرف إذا لم تقل أو لم تسجل ما أخذت ؟ ثم إنى فى حيرة من أمرك ،إنك تأخذ ما بين عشرين وثلاثين جنيهاً كل يومين أو ثلاثة ، حتى بلغ ما أخذته إلى أول أمس اثنين وثلاثين جنيهاً ، ثم أخذت أمس مائة وخمسين دفعة واحدة ، وهذا مال كثير .

— ألم تقل إن هذا المال مالى كما هو مالك؟ففيم تغضب إذا أخذت منه شيئاً ؟ وهل تستأذننى أنت فيما تأخذ ؟ لقد أخذت خمسمائة أول أمس .

— إننى أقيد فى الدفاتر ما آخذ ، والخمسمائة التى أخذتها مدونة ، وقد دفعت بها صكوكاً علينا وأثمان بضائع ، والأوراق عندك ، أما ماتأخذه أنت فلا ذكر له فى الدفاتر ولا علم لى أين يذهب . .

— إننى رجل أعرف ما أصنع يا أبى ، وليس من الضرورى أن أستأذنك فى كل قرش آخذه كأننى طفل ، وليس لطيفاً منك أن تحاسبنى هذا الحساب ..

ومضى الحوار بيننا على هذا النحو الغريب المؤلم ، وقد أحسست فى كلامه نغمة من الجفاء وشيئاً من الضيق أيأسانى من الوصول إلى نتيجة ، وبدا لى بوضوح أن وراء الأمر سراً يخجل منه ويجتهد فى مداراته ، وانتهيت

إلى أن أعطيه خمسمائة جنيه دفعة واحدة يتصرف فيها كما يريد ، ولا يعود يمد يده إلى الودائع إلا فى شئون المتجر ..

وكان المبلغ الذى أعطيته إياه جسيما دون شك ، ومهما كانت ثروتنا فإن ضياعه على هذه الصورة أمر مؤلم . ونحن قوم تجار نحارب من أجل القرش ويؤلمنا فقد قرش واحد فى غير وجهه . وقد علمتنا التجارب أن مثل هذه الثغرات قد تبتلع المتاجر الضخمة وقد تجر إلى الإفلاس . وضحايا هذا النوع من التصرف كثيرون . وكم من تاجر ملىء ثابت الأقدام تزعزعت الثقة فيه ومادت الأرض من تحته بسبب بئر انفتحت تحت قدميه وأكلت ماله . ولكننى قدرت أن ابنى واقع فى إشكال كبير لا يريد أن يصارحنى به ، فآثرت إعطاءه هذه الجملة الكبيرة من المال ليستعين بها على الخروج من المأزق ، وربما استرحنا بعد ذلك ، وليس لى فى الدنيا غيره على أى حال ..

وكان لنا شيخ زاهد نحبه ونزوره لنقرأ معه الأوراد ونصيب من بركاته ونستمع إلى وعظه ، وكنت أثيراً عنده . أفتح له صدرى وأستشيره فيما حزبنى من أمر ، فأجد عنده من الحكمة وجودة الرأى ما يفرج كربى .. فمضيت إليه ليلة . وصلينا العشاء وقرأنا الأوراد والأحزاب ، ثم قصصت عليه الأمر كله . فظل واجماً لحظة ، ثم قال وهو يعبث بأصابعه بمسبحته :

— فى الأمر امرأة يافلان . . مشكلة ابنك امرأة عرضت له وملكت عقله وأخذت تستصفى ماله . . امرأة لعوب هلوك لا تهدأ إلا إذا ، جردتكم من ثيابكم هذه ، والرأى ألا تظل ساكناً . .

— أى امرأة ياشيخ ؟ هذه بلدنا نعرف كل ركن فيه ، والولد لا ، يبرحه حتى نقول إنه وقع فى حبائل هذا النوع فى المنصوره أو بور سعيد مثلا ...

— هؤلاء يوجدن فى كل مكان يا أخى ، ولا تخدع نفسك .. لا يصلح هذا الكون إلا باريه .. لقد قلت لك فتدبر أمرك وانظر فى شأنك ، وما أحسب هذه الشيطانة إلا لاعبة بعقل ابنك ، ولو انتظرت لأصبح فى القريب عدوك ..

ولكنك تعرف إسماعيل يا شيخ ، إنه ملاك طاهر ورجل عاقل . .

ـــ لهذا وقع فى حبائلها . هذا الطراز من الشباب الطيب السليم القلب هم أسهل فرائس هؤلاء الملعونات ، لو أن ابنك كان عابثاً ماجناً ما تمكنت منه ، وهى تعرف ذلك ، وتعرف أيضاً أنها ستستمر فى استصفاء دمكم إلى آخر قطرة . . وعليك أن تدافع عن كيانك . .

ولا أبالغ إذا قلتُ إننى لم أنم ليلتها لحظة . ظللت أتقلب فى فراشى وأتصنع النوم حتى لا تنتبه زوجى ، وهى امرأة حازمة عاقلة أريحية . وقد كنت عولت على ألا أخبرها بشىء حتى لا ينفجر بركانها ، وكانت تحب ابنها حباً يقرب من العبادة ، وشىء كهذا كان كفيلا أن يهد كيانها هداً . وقد سألتنى أكثر من مرة . ولكنى طويت عنها الأمر رفقاً بها ، فإذا نحن فى أخذ ورد سمعت صوت باب البيت يفتح . فأصغيت إلى وقع قدمى ابننا يدخل متلصصاً حذراً مخافة أن نتنبه ، ثم دخل حجرته وأغلقها عليه ، وساد الصمت . ونظرت فى ساعتى فإذا نحن بعد الرابعة صباحاً بقليل ، فنهضت المسكينة جالسة فى فراشها وقالت :

ـــ أما كان قد دخل حجرته لينام بعد العشاء ؟ .

ـــ نعم ، ثم خرج مرة أخرى متلصصاً كما دخل الآن . .

ـــ وسمعت ذلك كله . . ؟

ـــ نعم سمعت ، وهكذا يفعل منذ أيام . .

ـــ وتكتم عنى يا رجل ؟ ألا يهمك أمر ابنك ؟

فسكتُّ لحظات ، ثم رأيت أن أخبرها بالأمر ففعلت ، وأصغت إلىّ فى ذهول ، وأحسب أن الدموع جرت من عينيها ، ولكنها تماسكت على عهدى بها وقالت :

ـــ وما العمل ؟ . .

ـــ دعينى أدبر الأمر . .

ـــ لا أستطيع أن أدعك ، إنه ابنى ولا أستطيع أن أتركه يضيع هكذا . .

ثم همت واقفة تريد أن تذهب إليه، فما زلت أرجوها أن تهدأ وتسكن حتى قعدت ، ثم قلت لها :

— إن ابننا الآن كالمسحور لا يدرى ما يفعل ، ولو فعلت شيئاً دون تفكير لتعجلنا المصيبة وخسرناه جملة . .

— إن كانت امرأة فأنا لها، وأقسم بالله لا يطمئنن لى جنب حتى أخرجها من هذا البلد وأستريح . .

— إن إخراجها أمر هين . ولو اتصلتُ بأصحابى من أهل الحكومة وشرحت لهم الأمر لما أطل مساء الغد إلا وهى بعيدة عن بلدنا ، ولكن الخوف أن يطير عصفورنا وراءها . . هذا أمر لا تعرفينه أنت، والشاب إذا وقع فى مثل هذا الشرك فلا خلاص له إلا فى رفق وبروية .. فدعينى أدبر الأمر أرجوك . وإياك أن تفاتحيه فيه أو تدعيه يعرف أنك تعرفين ..

ثم أذن الفجر . فنهضنا وصليناه ، وجعلنا نبتهل إلى الله أن يزيل عنا هذا الكرب ، وأن يخلص ابننا من هذا الخطر المحيق . .

وعولت على أن أتصدى لعلاج الأمر بالحزم الذى أشار به الشيخ ، وقررت مع ذلك أن يكون عملى فى طى الكتمان ، حتى أتفادى فضيحة سيئة العواقب .

وكان لدينا فى المتجر رجل ناصح أمين ، نشأ معى فى العمل وخدمنى بإخلاص عمراً طويلا ، وكان أشبه بوكيلى وصاحب سرى ، فناديته يوماً وأفضيت إليه بالأمر ، بعد أن أخذت عليه عهداً بالكتمان ، وطلبت إليه أن يتتبع ابنى حيثما ذهب بالنهار أو الليل ، وأن يستعلم عن المواضع التى يتردد عليها ويأتينى فى ذلك كله بنبأ صحيح ، فنهض الرجل بكل ما فيه من همة ، ومضى يبحث ويتعقب أياماً متوالية ،فتبين لى صدق فراسة الشيخ فيما قدر . . وثبت عندى أن إسماعيل قد ألف امرأة من بنات السوء ، وفدت على بلدنا منذ شهور مع نفر من صاحباتها وأصحابها، واتخذوا لهم وكراً فى دار خافية فى حى متطرف من البلد معظمه خرائب ،

وإلى هذا البيت يفد الشباب ومن كتب الله عليهم الشقاء ، فينفقون مالهم وصحتهم ويتعرضون للفضيحة . .

وعرفت أن صاحبة ابني من هؤلاء ، امرأة شريرة يقال لها زكية ، لها رفيق من عتاة الأشرار يقال له محروس ، وأن الاثنين يتعاونان على ابتزاز المال من ابني ساخرين منه ومن غفلته ، والمسكين واقع فى أسر المرأة لا يكاد يطيق فراقها ولا يبخل عليها بمال ، وهو يحمل إليها كل يوم من الهدايا ما يكلفه المال الجسيم، ولا تقنع هى بذلك بل تسأله العشرات من الجنيهات ، زاعمة له أنها تحبه وأنها لاتطيق الصبر عنه ، وهو — لغفلته — كالمسحور يفعل ما تريد . .

وبدا لى — بعد تفكير — أن أذهب للقائها بنفسى ، لأعرض عليها شيئاً من المال لتتركنا فى حالنا ؛ ومثل هذه الشيطانة لا تطلب إلا المال ، ولن يعسر علىّ إقناعها ، فإذا أصرت على العناد كان لى معها شأن . وقد كنت أستطيع أن أعهد فى ذلك إلى ذلك الرجل الذى ذكرته ، واسمه عبد السلام ، ولكن شيئاً فى نفسى كان يدفعنى إلى رؤية وجه الشؤم الذى جلب علينا هذا الشقاء كله . .

وفى يوم من الأيام أخذت معى شيئاً من المال ، واصطحبت عبد السلام ومضينا نحو ذلك البيت ، ولقد عرفت وأنا فى الطريق أننى أعرض نفسى لما لا أحب ، ولكن رغبتى فى إنقاذ ابنى هوّنت علىّ الأمر . ومضينا فى حوار ودروب وخرائب ، حتى انتهينا إلى بيت كئيب رابض وسط أطلال ، وكان الوقت ضحى والشمس ساطعة ، ولكن سكوناً رهيباً كان يخيم على ذلك الدرب وما فيه . وكان عبد السلام قد أخذ معه سكيناً حادة ليدافع بها إذا لزم الحال .

ودققت الباب مرتين وثالثة ، حتى كدت أيأس من أن يفتح لى أحد ، ولكنى كنت أسمع أصواتاً وحركة أقدام ، ثم أقبل من فتح الباب ، ووجدت نفسى أمام عجوز قبيحة الشكل رثة الملبس قد عصبت

رأسها بعصابة حمراء ، سألتنى عما أريد فقلت إننى أريد أن أتحدث مع الست زكية ، فقالت دون تردد إنها لا تعرف أحداً بهذا الاسم . . وكادت تغلق الباب ، ولكن عبد السلام دفعها ودخل ، ودخلت وراءه ، ووقفنا فى ردهة مظلمة بعض الشيء ، وأصررنا على رؤية زكية ، فإذا نحن فى فى جدل مع العجوز ، إذ أقبل من الداخل رجل ما أظن أننى رأيت فى حياتى أقبح منه : أشعث أغبر فى جلباب قذر مفتوح الصدر ، وعلى رأسه طاقية قد أمالها على حاجبه الأيسر ، محاولا أن يخفى بها عيناً عوراء . أقبل حافياً وفى يده سيجارة وقال :

— ما هذه الضجة ؟ من هناك ؟ من هؤلاء . . ؟

فلما صار قبالتى نظر إلىّ طويلا ثم قال :

— كيف تقتحم البيوت هكذا أيها الشيخ ؟ وماذا تريد منا ؟

— خيراً إن شاء الله . . أردت أن أتحدث مع الست زكية . .

— وأى صلة لك بالست زكية وماذا تريد منها ؟ هكذا الأمور فى بلدكم ؟ يأتى شيخ مثلك ولا يستحى أن يطلب الكلام مع امرأة متزوجة ؟

— يا هذا أنا لا أعلم عنها شيئاً ، وما كنت أعرف أنها متزوجة ، ولو عرفت ما أتيت . .

— إذن فقد علمت ، إنها زوجتى ولا صلة لأحد بها . .

وفاجأنى هذا الشيطان بذلك ، وقطع علىّ كل سبيل للقول أو العمل ، فاعتذرت إليه ووليت وجهى منصرفاً ومن خلفى عبد السلام . وإذا بالرجل يهتف بى : تعال هنا . . لن تخرج من هنا حتى أعرف فيم أتيت تكلم زوجتى ، أم هل أنت لا يعنيك فى شىء أن يتردد الرجال على امرأتك دون أن تعلم . . ؟

ولا أذكر أن الغضب تملكنى فى حياتى كما تملكنى هذه اللحظة . ولو لم يمسك عبد السلام بذراعى لضربته ضربة حطمت بها رأسه ، فظللت

مكانى أنظر فى وجهه الكئيب وبودى لو لطمته لطمة تطير عينه الباقية . وأحسست أن الخوف يتمشى فى جسده . وأنه يتلفت ملتمساً الهرب من أمامى ، فإذا نحن على هذه الحال سمعت صوت امرأة يهتف من الداخل :

— ما هذا ؟ من هؤلاء وماذا يريدون ؟

ثم أقبلت امرأة تمشى على مهل حتى صارت قبالتى . ومدت يدها فأزاحت ذلك الرجل من أمامى ، ونظرت إلىّ طويلا كأنها تعرفت ملامح ابنى فى وجهى ، ثم نفضت الرماد من سيجارة فى يدها . وقالت :

— ماذا تريد يا شيخ ؟

وأراد الرجل أن يتكلم ، ولكنها أسكتته بإشارة من يدها . ولم أجد ما أجاوبها به ، فمضيت أتفرس فيها : كانت امرأة وسطاً . وربما كانت أصغر من السنوات التى ينطق بها وجهها . كانت بيضاء ذات شعر أشقر واضح الخضاب ، وفى وجهها شىء من ملاحة ورقة . وتحت عينيها هالة من زرقة اجتهدت فى تغطيتها بالصباغ . وكان لها عينان واسعتان يبدو فيهما أثر السهر . ثم انتبهتُ إلى نفسى . فنظرت إلى الرجل وقلت

— هذه زوجتك ؟

وأراد الكلام ، ولكنها قاطعته قائلة :

— أنا لا زوج لى . إننى حرة نفسى ، من أنت ؟

— أنا والد إسماعيل ، إسماعيل الوزان . .

فنظرت إلى الرجل ، ثم إلىّ ، ثم هزت رأسها وكتفيها ساخرة وقالت :

— آه . . هذا الشاب الذى يأتينا مع توفيق . . وماذا تريد ؟

— أريد أن أتحدث إليك على حدة . .

— قل ما تريد . . نحن على حدة ، كل من هنا أهل بيتى . .

فهززت رأسى فى حيرة ثم قلت :

— لا أدرى ما أقول . . كنت أود أن أرجوك لو كان من الممكن

أن . . أن تتركيه . .

فانفجرت ضاحكة وقالت :

ـــ أتركه ؟ هل سمعتم شيئاً مثل هذا ؟ وهل أنا ممسكة به ؟ . . أطفل هو أم ماذا ؟ إنه يأتى هنا بمحض اختياره ، وهو رجل يعرف ماذا يفعل . . ألست أباه تستطيع أن تأمره بما تريد ؟ . . إنه يأتى هنا مع نفر من أصحابه ليسمر قليلا وليلعب الورق . . ماذا فى هذا . . ؟

ـــ فى هذا شيء كثير يا سيدتى . . إنه ينفق ماله ووقته . .

ـــ ونحن مسئولون ؟ . .

ـــ اسمعى يا سيدتى . أنت تفهمين ما أريد ، وقد أتيتك لأرضيك بما تحبين إذا تركت لى ابنى . .

ـــ لا أستطيع أن أتركه . . إننى أحبه . . هل الحب فى بلدكم حرام . . ؟

ولو أنها لطمتنى لكان أهون علىّ من سماع هذه الكلمة ، وشعرت أننى أمام ثعلب ماكر قد أنشب مخالبه وتمكن ، ولن نستطيع النجاة منه بالسهولة التى تصورتها ، وزاد الأمر حرجاً أن ذلك الرجل قال :

ـــ ثم إنه مدين للست بمال كثير . .

ـــ مدين لك ؟ كيف وقد أنفق عليك منذ عرفك المئات . .؟

ـــ على نفسه . . إنه يشرب ويلعب الورق ويخسر ، ولدىّ عليه عليه صكوك بخط يده . .

ـــ أين هذه الصكوك ؟

ـــ هذه مسائل بينى وبينه ولا دخل لأحد فيها . . ربما تنازلت عنها عندما نتزوج . . .

وكدت أصعق عندما سمعت هذه الكلمة ، ومضيت أتأملها وهى تشعل سيجارة وتنفث دخانها فى وجهى وتنظر إلىّ فى تحد وسخرية . ثم جمعت أشتات ذهنى وقلت لها :

ــ اسمعى يا هذه . . هذا الولد وحيدى فى الدنيا ، ولن تتزوجيه أو تمسى شعرة من رأسه وأنا حى . وهذه الديون التى تتحدثين عنها تلفيقات لا تجوز علىّ ، وهذه بلدنا ولنا فيها عزوة وقوة ، ولو أردت لهدمت هذا البيت على من فيه ، وليس أمامك إلا أن تحملى متاعك وتخرجى من هذا البلد ، أقولها لك وأرجو ألا تحدثك نفسك بالوقوف فى وجهى . .

وأراد الرجل أن يتكلم ، ولكنها أخرسته بنظرة قاسية ، وأقبلت نساء أخريات هن فى هيئاتهن أقرب إلى الشيطانات : فأحطن بنا وجعلن يتضاحكن ويتغامزن مشيرات إلىّ ، ثم قالت :

ــ لامانع عندى من مغادرة هذا البلد . . ولكننى لن أمضى وحدى . .

ــ طبعاً . . تذهبين مع هؤلاء جميعاً . .

ــ ومع من أحب !

ــ قلت لك . . دعى ابنى فى سلام ، قد حذرتك . .

ــ قل هذا لابنك . .

ثم استدارت وتركتنى ومضت ومن خلفها رجلها ونساؤها ، وفتحت العجوز الباب ورجتنا أن نذهب . .

وسرت مع صاحبى فى الطريق وأنا لا أكاد أعقل من الغضب والهم ، ومضيت إلى شاطئ النيل ، فجلست على الشاطئ أستروح النسيم وأفكر فى أمرى ، ثم نظرت إلى عبد السلام وقلت :

ــ طالما ندبت حظك يا أخى لأن الله لم يرزقك الولد ! فها أنت ترى ما يفعل الولد بأهله . ربينا وتعبنا ، وبنينا لكى يصير كل شىء إلى يد من رأيت ! تعرضنا للإهانة ، ودخلنا بيوتاً ما كان يدور بخلدنا أن تجرى إليها بنا قدم ، وآخر المطاف تستكتب الأحمق صكوكاً وتكبله ثم تتزوجه ، وتطير به ويتهدم كل ما بنيناه . . ما أتعس الآباء لو علموا ! يعيشون لغيرهم ويبنون على رمال . . . يشقون مع العيال ، حتى إذا شب الواحد منهم عن الطريق كان أول ما يقول : لا شأن لكم بى . . .

لا تتدخلوا فى شئونى . . أنا حر ولست طفلا . .

فهز الرجل الطيب رأسه وقال :

— هوّن عليك يا سيدى ولا تبتئس إلى هذا الحد . . هى سحابة وتمر بإذن الله . .

— وما العمل إذن ؟ . .

— هذه المرأة ستقول هذا كله لابنك حينما يراها الليلة ، وأحسب أننا فى حاجة لمزيد من الصبر وضبط النفس فى الأيام القادمة . .

— إننى أخشى أن يكلمنى فى هذا الأمر فيزيد غضبى وقد أوذيه . . والله لو قال لى إنه يريد أن يمضى مع هذه العاتية ما منعته . . سأحتسب الله فيه وعلى الله العوض . .

فسكت الرجل طويلا ثم قال :

— ما رأيك فى أن تترك الأمر لى ؟ فلعلى أعالجه على نحو يرضيك . . إنك الآن مغضب متأثر ، وهذه حال لا يؤمن فيها الزلل . . وإسماعيل ابنك وابنى ، ومهما كان فهو لحمنا ودمنا ، وما تقوله الآن بلسانك لا يرضاه قلبك . .

— ماذا ستفعل ؟ . .

— لا أدرى الآن ، ولكننى لن أعدم سبيلا على أى حال . .

ومضيت إلى بيتى ، فما لقيتنى زوجى حتى توجست الشر ، ولم تزل تتلطف بى حتى قلت لها كل شىء . وكنت أتوقع أن تبكى أو تصرخ ، ولكنها تلقت النبأ وكأنها طود راسخ ، ثم هزت رأسها وقالت :

— نعم الرأى ما رأى عبد السلام ، دع الأمر له ، فربما حُلّت على يديه ، قم الآن فأصب شيئاً من الطعام ثم استرح ، والله سبحانه لن يخذلك أبداً . . قم على بركة الله .

ونزل كلامها برداً وسلاماً على قلبى ، وأحسست براحة كبرى أن وجدت إلى جانبى هذه الزوجة العاقلة الصادقة الحازمة ، وذلك الصديق

الأمين ، وتركت الأمر لله . .

وشغلتنى شئون المتجر فلم ألق إلى الأمر بالا ، وقد كنتُ قد قدرت أسوأ التقديرات وعولت على مواجهتها بالصبر والثبات ، ولو أن إسماعيل فاتحنى فى الأمر لقلت له : افعل ما بدالك . . إن شئت اختيار هذه المرأة علينا فالباب مفتوح أمامك ، وليكن فى علمك أنك إذا خرجت فلن تعود . .

ولكنه لم يفاتحنى ، ولا كلمتنى زوجتى ، ولا عبد السلام . .

وفى ذات يوم قالت لى زوجى : يا أبا فلان أبشر . . أظن أننا حللنا الإشكال . .

قلت : كيف . . ؟

قالت :

ــ أرسلت عبد السلام فأتانى بهذه المرأة ، وبعد مقابلات متعددة اتفقت معها على أن تأخذ خمسمائة جنيه وتمضى عن البلد دون أن يعلم إسماعيل . .

ــ لن تصدُقك . . ستأخذ المبلغ ولن تبالى ، ثم تطلب غيره وهكذا . .

ــ لن تستطيع . . لست أنا بالتى تلعب بها مثل هذه . إن هذا الرجل الذى قابلته عندها زوجها حقاً ، وهى تريد أن تفر منه ، وقد رجتنى أن يظل الأمر سراً بينى وبينها ، فإذا أخذت المبلغ هربت وحدها فى الحال ، وقد أعدت الأمر لذلك وأتتنى بحقيبة ملابسها لكى تمضى من عندى إلى حيث تريد .

ــ وهل يعقل أن مثل هذه المرأة تأمن لنا ولا تأمن لمن هم معها ؟ . .

ــ يعقل أو لا يعقل ، هكذا اتفقنا ، والويل لها إذا حاولت خداعى . .

ــ ومتى يكون ذلك ؟ . .

ــ غداً ستأتينى فى الضيعة . .

ـ في الضيعة ؟ وما جعلك تفكرين فى ذلك . . ؟

ـ هى قبلت أن يتم الأمر بعيداً عن هنا . . . ستأتيني مساء الغد هناك . .

ـ ولكننا لم نخطر أحداً فى الضيعة بأننا قادمون، أظن أن لا أحد من الخدم فى البيت هناك . . لقد استأذننى الحارس والخدم فى أن يذهبوا إلى دسوق ليحضروا مولد سيدى إبراهيم كما هى عادتهم . . وأظنهم ذهبوا . .

ـ لا بأس، المفتاح عندنا . . سنذهب غداً بعد الظهر ، وبعد غد نكون هنا . .

ذهبت بمفردى مع زوجى ، ولم نجد فى البيت أحداً . وقد استشعرنا شيئاً من الوحشة . ولكن أم إسماعيل بادرت بإعداد البيت . وكنت قد أخذت معى سلاحاً للطوارئ ، وقد اتفقنا على أن أرقب الباب حتى تقبل المرأة ، فإذا أتت وحدها تركتها تدخل دون أن تفطن لوجودى ، وأظل أرقب فى الحديقة حتى تنصرف . فإذا أحسست فى الأمر خيانة بادرت بسلاحى . .

ولم يطل انتظارنا . من مكانى تحت شجرة فى الحديقة رأيت المرأة تدخل الباب مهرولة ، ورأيتها تتلفت خلفها لتتأكد من أن أحداً لا يرقبها ، وبرزت لها زوجى على شرفة البيت وأشارت إليها فدخلت . كانت الساعة السابعة والنصف مساء ، وهبط الظلام دفعة واحدة ، وأعدت النظر فى مسدسى لأتأكد من الرصاص ، ووضعته فى جيبى ، وتناولت هراوة ضخمة ومضيت أتمشى ذهاباً وجيئة . .

وطال انتظارى ، ساعة أو نحوها ، فقررت أن أمضى إلى البيت لأنظر ما هناك ، فإذا أنا قرب السلم إذا امرأتى خارجة تهرول تنظر يمنة ويسرة باحثة عنى ، وأسرعت نحوها ، فراعنى منظر وجهها . كانت مصفرة اللون يتمشى الفزع فى ملامحها ، فما رأتنى حتى قالت :

ضربتُها فوقعت على الأرض لا تنطق . . !

فصرخت : كيف؟ . . ماذا حدث ؟

فقصت عليّ كيف أن المرأة أخذت الخمسمائة جنيه ، ثم طلبت مثلها لزوجها ، قائلة إنه علم بالأمر وأصر على أن يصيب مثلها ، وإلا فلا ذهاب ولا اتفاق . واحتد الكلام بينهما ، فإذا المرأة تخرج سكيناً لتضرب بها ، فأسرعت زوجتي إلى هاون ضربت به رأسها فسقطت جثة هامدة . .

وأسرعت أعدو داخل البيت ، فإذا المرأة منبطحة لا حراك بها ، ونظرت فى وجهها ثم جسست نبضها فإذا هى ميتة ، ووجدت السكين الذى أرادت أن تقتل به ملقى إلى جانبها . .

وجمد الدم فى عروق ، ونهضت واقفاً وظللت صامتاً كأن ذهنى أصابه شلل ، ثم قلت :

ــ رحنا فى داهية يا فلانة . قتلت المرأة !

وأدهشنى أننى لم أقرأ شيئاً من الفزع فى وجهها ، وقفت ساكنة رابطة الجأش ، ثم قالت :

ــ أنت لا دخل لك بهذا . هذه غريمتى وقد قضيت عليها ، ولا بأس فى أن يأخذونى بها . لقد أنقذنا الولد ، وهذا هو المهم . .

ــ أنت مجنونة أو محمومة .. كيف تقولين أن لا دخل لى بهذا وأنا شريكك فيه وأنت زوجتى ، وهل خطر ببالك أن أسلمك للبوليس وأظل أتفرج ؟

ــ نعم . . هذا ما لا بد أن تفعله . . هذه خائنة وهذا عقابها . .

ــ وماذا سنفعل الآن . . ؟

ــ سأواريها التراب ، سأدفنها خلف البيت ولن يعلم بأمرها أحد .

ــ تدفنيها الآن ثم يشكو زوجها إلى البوليس ولا تلبث الجريمة أن تنكشف . .

— وماذا فى ذلك ، ابننا وأنقذناه . . اذهب أنت إلى الحديقة ، وسأحفر قبرها بيدى . . عليك أن تراقب . .

فإذا نحن فى هذا إذ سمعت وطء أقدام ، فخرجت أجرى والمراوة بيدى ، وعند أسفل السلم وجدت الرجل . . ذلك الأعور الشائه الوجه واقفاً ينظر إلىّ ، ثم قال :

— أين زوجتى ؟ . .

— لم نرها . .

— كيف وقد أوصلتها بنفسى إلى قرب الدار وظللت أرقبها . كان الاتفاق أن تأتينى بألف جنيه كاملة . .

— قلت لك لم نرها . .

فهجم علىّ وأخذ بخناقى فى إحدى قبضتيه ، وضربنى فى وجهى بقبضته الأخرى ، فتخلصت منه ، فما خلصت يده حتى دسها فى جيبه يلتمس سلاحاً ، ودون أن أدرى هويت على رأسه بالمراوة مرة ومرة ، وكأنما انفجر بركان غضبى المكتوم من أسابيع ، فخرجت عن وعيى وأصبحت كالوحش الكاسر ، ولم أكف عن الضرب حتى كلت يدى . ثم نظرت إليه عند قدمىّ جثة هامدة ، ولا أدرى كيف شعرت براحة . . وتصبب العرق على جبينى ، ومضيت أمسحه بالمنديل وأنا ألهث ، ثم روعت إذ سمعت صوت زوجتى تقول :

— حسناً فعلت . . لا شلت يمينك . .

فقلت لها دون وعى :

— قتلته . . !

— لم يكن لها حل إلا هذا . لو لم تقتله أنت لقتلته أنا . . كان ثعباناً ضارياً ولا راحة منه إلا بهذا . .

— والعمل . . ؟

— الحفرة التى تسع واحداً تسع اثنين . الآن لن يعلم بالأمر أحد ..

كان تفكيرى قد وقف تماماً . كان الصواب أن أسرع بإبلاغ البوليس وأقول إنهما أرادا قتلنا فقضينا عليهما ، وهذه الأسلحة معهما دليل على ذلك ، ولم يكن من العسير أن يصدقنا الناس ؛ ولكن عقلى لم يكن معى ، فجررنا جثة الرجل إلى خلف المنزل ، ومضينا نحفر ساعات متوالية حتى صنعنا بئراً لا يقل عمقها عن أمتار كثيرة ، ثم ألقينا فيها بالجثتين . ووجدت شيئاً من الجير ـ فألقيته فى الحفرة وأطفأته بالماء ؛ ثم أهلنا التراب ودككنا الأرض دكاً حتى لم يعد هناك أثر . .

وبدأ نور الفجر ينتشر ، فطلبتُ إلى زوجتى أن تذهب إلى البيت وتمحو كل أثر ، وعمدت إلى كوم كبير من حطب القطن فنقلته فوق الموضع ، وذهبت إلى حيث مات الرجل فجمعت ما كان قد تناثر من أشيائه ، ثم غسلنا الأرض جيداً ، وراجعت النظر مرة بعد مرة ، وعدت إلى موضع الحفرة فنظرت مراراً ، واطمأننت إلى أن كل أثر قد زال ، ثم دخلت البيت ونظرت ، ولم يبق عندى شك فى أننا سترنا الأمر قدر طاقتنا ، والبقية على الظروف . .

وعدت إلى البيت ، فاغتسلت ثم مضيت إلى الدكان ، ومن عجب أننى تماسكت فلم يلحظ أحد علىّ شيئاً ، وجلست إلى ابنى وتحادثنا فى شئون العمل كأن شيئاً لم يقع . وعدت إلى بيتى مع الليل ، وذهبت بعد ذلك للعزاء فى صديق لنا توفى ، وجلست مع الناس وكأن لم يكن ما كان . .

ومرت الأيام ، فالأسابيع ، فالشهور . .

وفى ذات يوم ، قلت لابنى :

ـ لم أسمعك تتحدث عن هذه المرأة مرة أخرى . .

فسكت لحظة ، ثم ابتسم وقال :

ـ هربت مع خليل لها . .

ـ نجاك الله منها . .

ـ نعم ونجا معي كثيرون . . كانت نزوة شباب يا أبى ، وأرجو ألا

تكون غاضباً علىّ . .

ــ لا . . ولكن المهم أن تكون أنت راضياً عن نفسك . .

ــ لا أدرى إن كنت أغفر لنفسى . لا أدرى أيضاً ماذا كان بى : جنون أم ذهول أم . . . لا أدرى ماذا . . لو كنت مكانك ياأبى وجرى لابنى ما جرى لصفعته على وجهه ليفيق . .

ــ أتدرى ماذا كان يفعل ابنى لو صفعته . . ؟ كان يرد علىّ الصفعة . .

فابتسم فى مرارة . ثم قال :

ــ معاذ الله يا أبى . ما عاشت يد ترتفع عليك . . ولكن عبد الرحيم فعل هذا مع أبيه . . .

ــ عبد الرحيم ؟ ابن محمود جارنا . .

ــ نعم . .

ــ كان معك فى هذا كله ؟

ــ كلنا جرفنا التيار يا أبى ، كل جماعتنا : نشأت ورياض وتوفيق وضياء . .

ــ كلكم عشقتم هذه المرأة ؟ . .

ــ كان هناك غيرها كثيرات . .

ــ وكلكم أنفقتم هناك بهذا الجنون ؟ هل وقع الآخرون صكوكاً ؟..

ــ كلنا دفعنا ووقعنا . . ولكن أظن أننى دفعت أكثر من غيرى.. دفعنا المرات الأولى برضانا ، والباقى بالتهديد والتخويف من الفضيحة . .

ــ وماذا كان يخيفكم وأنتم ستة شبان أو سبعة ؟

ــ رجل مجرم كان هناك . كان قاتلا سفاكاً . . قيل لنا إنه هرب من الجيزة بجناية قتل . .

ــ هل كان أعور ؟ . .

ــ نعم . . من قال لك ذلك ؟ .....

— سمعت الناس يتكلمون . .

— على أى الأحوال وصلت الأوامر إلى وكيل النيابة بالبحث والقبض عليه . .

وشعرت بشىء من الخوف ، وتمالكت نفسى ، وقلت :

— متى وصلت هذه الأوامر . . ؟ وماذا فعل ؟

— من شهرين ، وتبين أن الرجل وخليلته هربا معاً ذات ليلة ، هكذا قالت النسوة اللائى قبض عليهن فى البيت .

— وهل مازالوا يبحثون عنهما ؟

— لا أظن . ثبت بالفعل أنهما هربا . هربا ذات ليلة سيراً على الأقدام فى طريق فارسكور . كان معهما نحو ثلاثة آلاف من الجنيهات ..

ودون وعى منى سرح خاطرى بعيداً إلى الضيعة . لقد دفنا الرجل والمرأة بهذا المال وبالخمسمائة جنيه التى أخذتها المرأة من زوجتى . . ثم انتبهت إلى ابنى يقول :

— أنا أعرف فيما تفكر . .

فقلت جزعاً : فيم ؟

— فى زواجى . . أظن أن الأوان قد آن لذلك . . ألست ترى ذلك . . ؟

وسُرِّى عنى . كان وجهه يبتسم ، فابتسمت برغم ما بى ، وقلت له إن أمه كفيلة بزواجه ، فهى تعرف الأسر والبنات أكثر منى .

* * *

هذا ما جرى لى مع ابنى ، أو ما جرى لنا نحن الثلاثة على يد الأيام . .

انقضت عليه إلى الآن ثمان عشرة سنة . .

لم يعلم بسرنا أحد . طوته الأيام التى تعدو ، وتكاثفت عليه ركام السنين وسحب النسيان .

حتى نحن نسيناه دهراً طويلا ، تزوج ابننا وأنجب ، وامتلأ البيت علينا عيالا ومرحاً ومشاكل .

وكبر الأولاد ، فغادرنا ابننا بأهله إلى بيت آخر . .

وعدت أنا وزوجتى إلى الوحدة ، فى صمت البيت الخالى إلا من عجوزين يدبان فى بطء يزيد الصمت رهبة عادت الذكريات . .

بدأت الجريمة تتمثل أمام أعيننا مرة بعد أخرى . كلما اقتربنا من النهاية المكتوبة على كل حى زاد الخوف من لقاء الحى الباقى الذى يمهل ولا يهمل . .

لم ينفعنا عزاء ولا تأس . حججنا ثلاث مرات ، وتعلقنا بالأستار ، واستلمنا الأركان ، ودعونا غافر الذنب أن يتغمدنا بما هو أهله من العفو عن المذنبين . . ولكننا فى خوف . .

أما أننا قاتلان فما فى ذلك شك . .

كنا فى السنوات القلائل التى أعقبت الحادث لا نشك فى أننا فعلنا ما فعلناه دفاعاً عن النفس ، دفاعاً عن العرض والكيان .

ولكن شيخى الذى حدثتكم عنه أوقعنى فى حيرة لا أستطيع الخروج منها . .

كان ذلك قبل أن يموت بأيام . .

ذهبت إليه أعوده وهو دنف يقطع آخر أيام الحياة . . كان صدرى مثقلا بالسر ، فأفضيت به إليه ألتمس الراحة . .

نظر إلىّ طويلا ، طويلا جداً ، ثم قال :

ـ هذا يا بنى شىء كبير ، شىء أكبر منى بكثير . . أما كفاك ما أنا فيه حتى أتيت تحملنى وزرك وأنا فى طريقى إلى الموقف العظيم ؟

ـ إذن فادع لى ، لعل دعاءك ينفعنى . .

ـ لو دعوت لك لحملت معك الوزر . . أدع أنت لنفسك . .

ولم أره بعد ذلك حيا . .
ولم أر الراحة بعد ذلك أبداً !
هل نحن قاتلان فعلا ؟ هل من أمل فى النجاة من عذاب الأبد ؟
. . هذا هو السؤال !

روايــة للسّـينما



مسرحية مصرية فى ثلاثة مناظر

المنظر الأول

(غرفة سكرتير الأستاذ « حليم » المخرج السينمائى ومدير شركة «الأنوار» للأفلام . السكرتير « فهمى » شاب فى الثلاثين من العمر ، منظره أقرب إلى البلطجية منه إلى السكرتيرين.. مكتبه حديث الأثاث ولكنه غير مرتب، لا يبدو عليه شىء من الذوق . . عندما يرفع الستار يكون قد فرغ من محادثة تليفونية ، ويتحدث وحده فى صوت مسموع) .

فهمى : (فى غضب) الأستاذ .. الأستاذ .. ياسلام على الأستاذ ! خلاص أصبح عميد الفن ! (فى نغمة ساخرة) ياسلام على الحظوظ! .. ما يسواش بصلة، والله ما يسوى بصلة ، ولا قشرة بصلة ! لكن .. تعمل إيه ؟ ربك عاوز كده !

(يسمع وقع أقدام نسائية مقبلة من الخارج . يفتح الباب فى عنف وتدخل النجمة « نور العيون » ، جميلة مسرفة فى الأناقة ،ولكن أناقتها تدل على ذوق رخيص .. كل ما عليها غال ثمين ، ولكنه تشكيلة عجيبة من الفراء والحرير والجواهر .. تمضغ « لبانة »؟ ، وأثناء المضغ تفتح فمها إلى آخره و « تطرقع » باللبانة !)

نورالعيون: (فى غير اكتراث) سعيدة يا واد يا فهمى ..

فهمى : يا ألفين و ٦٠٠ سعيدة يا نور العيون.. يانور عينىّ أنا لوحدى!.. يانور قلبى ! ..

نور : الأستاذ موجود ؟

فهمى : طبعاً موجود .. إذا ما اتوجدش علشان نور ، حايتوجد علشان مين ؟ علشان نادية أم الحلول ؟ .. شفتى فيلمها بتاع امبارح ؟

ياحفيظ ! .. تصدق بالله ؟ والله ما تنفع غسالة ، غسالة . ما أخدهاش ! . مفيش غيرك والله يا أم الأنوار ! ..

نور : بس يا واد بلاش قلة أدب .. سيدك موجود ؟

فهمي : (غاضباً) سيدى ؟ .. لا .. كله إلا كده .. سيدى قال! .. وانا لىّ سيد إلا انت . . إنتِ ستى وسته وست الكل ..

نور : ياواد رد .. انت بهلوان ؟ .. قول : الأستاذ موجود ؟

فهمي : موجود بس الله لا يوريكي..الخواجه وياه،بيحاسبه بقى له ساعتين.. الفيلمين الأخيرين راحوا بوش .. والله أنا قلت له أم الخلول دى ماتنفعش فى حاجة.. لارقص ترقص،ولا غنا تغنى..لكن تقولى إيه؟ مزاجه كده ، مخه كده ! .. يعرف خلاصه بقى مع الخواجه ! ..

نور : (فى شيء من الجد) مش حاتقول لى بقى دفع لها كام فى الفيلمين دول ؟

فهمي: فى الدفاتر عندى متقيد ألف جنيه فى الفيلم .. لكن تلاقيها هفت لها كام ألف جنيهم .. دى محفظته فى جيبها .. عدوك..ميت فيها، ميت صبابة .. اتفضلى اقعدى شوية وأنا أجيب لك دفتر الشيكات تشوفى ..

(تجلس نور على مقعد فى الركن ، ينهض فهمي ويفتح الدولاب ويبحث ،يسمع نقر على الباب . فهمي يصيح : « ادخل » .. يدخل « توفيق » : شاب وسيم طويل القامة، تتحدث ملامحه عن رجولة . هيئته تدل على أنه شاب مثقف . فى يده « دوسيه »)

توفيق : صباح الخير ..

فهمي : طلبات حضرتك ؟ ..

توفيق : عاوز أشوف الأستاذ حليم ..

فهمي : فيه ميعاد قبل كده ؟

توفيق : أيوه .. كنت قابلته الجمعة اللى فاتت فى « الأوبرج » وكلمته عن

رواية من تأليفي . فقال لى : « ابقى فوت فى أى وقت .. »

فهمى : قمت حضرتك صدقت ، وجيت ! ..

توفيق : يا أخى أنا سألتك إذا كان الأستاذ موجود ؟ تقدر تقول مش موجود .. تقدر تقول إنه مش فاضى .. لزومها إيه التريقة دى ؟ أنا جايب له رواية ، رواية هو طلبها .. عملت غلط ؟ ..

فهمى : اسمع يا أستاذ .. أنا كل يوم بيورد علىّ عشرات من الشبان اللى زى حضرتك .. كل واحد معاه رواية ، وروايات .. وكل واحد منهم الأستاذ قال له : «ابقى فوت»..لكن احنا مابناخدش روايات ، مابنشتريش روايات ، أبداً .. بقى لى باشتغل مع الأستاذ عشر سنين ، عمرنا ما اشترينا رواية من مؤلف .. بالعربى : الأستاذ بيضحك على الناس ..

فهمى : أمال بتعملوا الأفلام إزاى ؟ مين بيكتب لكم القصص ؟

الأستاذ .. هو المؤلف والمخرج ، والمنتج ، وكل حاجة .. أمال يبقى مخرج كبير إزاى ، إذا ما كانش يؤلف رواياته بنفسه ؟!

توفيق : يا أخى أنا متذكر إنى شفت له فيلم مش من تأليفه ..

فهمى : فيلم مش من تأليفه؟..ما يبقاش فيلم !.. طب اسمه إيه كده؟

توفيق : فيلم تافه من بتوع الأيام دى .. أظن اسمه « عفاريت الجنة » أو « عصافير جهنم » .. حاجة زى كده ! ..

فهمى : (مغرقاً فى الضحك) بس ولا مؤاخذة يا أستاذ.. الفيلم ده كان من تأليف الأستاذة ! .. (مشيراً إلى نور . كانت تتبع الحديث باهتمام ، وتنظر إلى الشاب فى إعجاب . تضحك هى الأخرى. توفيق يرتبك .. فهمى يستمر فى كلامه) الأستاذة نور العيون .. الكوكب المشهور وبطلة « عفاريت الجنة » ومؤلفتها ..

توفيق : (يزداد ارتباكاً . يتقدم نحو « نور » ويحاول الكلام فلا يجد شيئاً يقوله) ..

نور : (محاولة التخفيف عنه) مافيش حاجة يا أستاذ .. أنا عارفة إنها رواية تافهة .. لكن نعمل إيه ؟..الجمهور مش عاوز روايات.. الجمهور عاوز رقص وغنا .. الجمهور عاوز ...

فهمي : (مقاطعاً) نور العيون ..

نور : (لفهمي) اخرس انت ..

فهمي : حاضر .. خرست ! ..

نور : (لتوفيق فى تلطف) اتفضل يا أستاذ..سيجارة (تشعلها له) اقعد .. أنا من زمان بدور على رواية ، رواية كويسة .. رواية أضرب بها السوق .. اتفضل اقعد ، وريني ــ روايتك دى .. (تتناول منه الرواية وتحاول قراءة العنوان) « فـَردوس القلوب » (تقرأها بفتح الفاء ، وتلتفت إليه فى اهتمام وتقول) فـَردوس ؟ مين فـَردوس دى ؟

توفيق : (يبتسم) لا .. دى مش واحدة ولا حاجة .. دى فِردوس بكسر الفاء ، يعنى جنة ...

نور : (فى دهشة) الله ! ياحلاوة !هيه فردوس يعنى جنة ؟ ! عمرى ما سمعت بالحكاية دى ... حضرتك لازم نحوى خالص ...

توفيق : لا نحوى ولا حاجة ... دى حاجة بسيطة ، ده أنا كمان مادرستش لغة ولا أدب ، أنا محامى ..

نور : محامى ؟ محامى صغير كده ؟ .. ولك مكتب وبتروح ترافع فى المحاكم ؟ ..

توفيق : (ضاحكاً) أمال يعنى محامى ازاى ؟ !

(يدق الجرس ، فينهض فهمي ويدخل عند الأستاذ)

نور : (تنظر إلى وجهه نظرة فاحصة، ثم تقول) ما دام حضرتك أستاذ بقى ، فيه عندى مسألة عاوزة أسألك فيها .. الناس دول (تشير إلى حجرة الأستاذ) مغلبينّى جداً ..بيلعبوا بالعقود ويضحكوا علينا

... وأنا عاوزة واحد يمسك شغلي .. أنا ليّ محامي، الأستاذ إسماعيل عوض ، محامي كبير . . لكن مش مريحني .. تعال ، تعال ، أنا عاوزة أكلمك .. (تنهض وتجره من يده)

توفيق : (يمانع في المسير قليلا) بس الرواية .. عاوز أشوف الأستاذ ..

نور : أستاذ إيه ؟ روايتك حناخدها خلاص ..

توفيق : مين قال ؟

نور : (في كبرياء وغرور) أنا اللي بقول ..

توفيق : كده ؟ من غير ما تقريها ؟ ..

نور : أقراها ؟ .. إحنا ما بنقراش الروايات ..

توفيق : أمال بتاخدوها ازاي ؟

نور : كده من غير قراية .. حد فاضي يقرا ؟ ! تعال بس تعال : (تشده من يده مرة أخرى . يفتح باب مكتب الأستاذ حليم ويبدو الأستاذ على عتبته)

حليم : (متهللا) أهلا .. نور عينيّ .. إيه .. ما دخلتيش ليه ؟

نور : ما دخلتش ليه ؟ اسأل سكرتيرك ياسيدي ، اسأل سي فهمي بتاعك .. قال لي إن الخواجا بيحاسبك ..

حليم : وخلاّكي تستني هنا؟يا خبر زي بعضه ! (ينادي) واد يا فهمي.. يا فهمي الكلب !

فهمي : (مسرعاً من داخل المكتب) أيوه يافندم .. نعم ياسعادة البيه ! ..

حليم : إنت ازاي ...

نور : (مقاطعة) معلهش ، معلهش .. حصل خير ، برضه كانت فرصة كويسة .. عرفت فيها مؤلف كبير .. الأستاذ ...

توفيق : (مكملا) توفيق صلاح الدين ..

حليم : تشرفنا يا فندم .. حضرتك مؤلف ؟ بتكتب روايات للسينما ؟ ..

توفيق : دي أول مرة ، معايا رواية أرجو أن تعجبك ..

نور : رواية هايلة .. حاجة مافيش كده ..

حليم : إنتى قريتيها ؟ ..

نور : لا .. الأستاذ حكاها لى .. قصة مدهشة..لازم تاخدها ياحليم . أنا عايزاك تخرجها ..

حليم : بس مش لما أشوفها ؟

نور : (تأخدها من يد توفيق وتفرّها أمام حليم ثم تعيدها إلى توفيق) أديك شفتها .. خلاص ..

حليم : لكن بس .. عاوز أقراها يانور..

نور : تقراها ؟ .. إنت عمرك ما قريت رواية ! .. إنت بتفرّهم كده زى أنا ما عملت قصادك ..

حليم : وبعدين يا نور؟

نور : ولا قبلين .. إيه .. رواية كويسة .. وأنا باقول تاخدها، مش موافق ؟ ..

حليم : (مستسلماً) تاخدها ..

نور : (تجذب توفيق من يده وتسير به إلى الباب) خلاص. الأستاذ يجيلك بعد الظهر علشان تكمل الاتفاق .. سعيدة بى ..

(تخرج وهى تجر توفيق فى يدها .الأستاذ حليم ينظر إلى فهمى مندهشاً .. فهمى يبتسم ..)

المنظر الثانى

(فى منزل نور العيون . صالون جميل من آخر طراز . الأستاذ توفيق جالس وأمامه منضدة وضع عليها قصته . أمامه كأسان ، نورتفتح باراً صغيراً وتحضر منه زجاجة)

نور : .. وكمان «شيرى براندى» ما تشربش؟ ده شربات.. ميه بسكرا..

توفيق : أرجوكي .. عمري ما دقت حاجة من دي ، اتفضلي بس حضرتك عاوزين نتكلم ..
(تملأ لنفسها كأسا ، تقدم له سيجارة وتجلس)

نور : شوف ياسيدي .. الراجل حليم ده حرامي كبير .. كل تعبي رايح في جيبه ..

توفيق : إزاي ؟ .. هوه وصي عليكي ؟ .. وكيلك ؟ ..

نور : لا .. شريكي .. أنا وهوه عملنا الشركة دي ، هو دفع ١٠,٠٠٠ جنيه وأنا عشرين ألف .. كل اللي حيلتي .. وكل مرة يقول إن الشركة بتخسر .. تلات سنوات دلوقت وأنا ماباخدش أرباح .. ما فيش إلا أتعاب الأفلام اللي بأمثلها ، زيي زي أي واحدة من بره ..

توفيق : وانتي ما بتراجعيش الحسابات ؟

نور : أنا ما بفهمش في المسائل دي .. أنا كنت فاكراه راجل أمين ، كل ما يخلص فيلم ييجي يديني نصيبي بالحق .. مش كفاية إني عملته مخرج ومنتج وبني آدم في وسط الناس ؟ ..

توفيق : مش أقدر أطلع على أوراق الشركة ؟ مش عندك أوراقك ؟

نور : الأدراج دي كلها مليانة ورق .. ورق مالوش أول ولا آخر .. مش فاهمه منه حرف واحد وحياتك ..

توفيق : تسمحي لي أبقى آخد الأوراق دي معاية ؟ عاوز أدرسها ..

نور : تعمل في معروف والله .. أنا حاتجنن ..

توفيق : لا ، لا .. حاتشوفي إن كل حاجة حاتبقى عال .. (لحظة صمت) تقدري بقى تخلصي حكاية روايتي دي علشان نفضى لأمور الشركة ..

نور : أي والله .. إيه ياسيدي قصتك دي ؟ إحكيها لي ..

توفيق : أظن الأحسن إني أقراها لك ..

نور : يلخبر أبيض ! .. تقرأ ده كله؟! قول بس إيه الحكاية فى كلمتين.. مش لىّ فيها دور كبير؟ ..

توفيق : أظن إن مافيهاش أدوار نسائية أبداً ..

نور : (فى دهشة) ودى تبقى رواية؟! فيه فيلم فى الدنيا من غير نسوان ؟!

توفيق : دى نوع جديد ، نوع إنسانى ..

نور : إنسانى يعنى إيه ؟

توفيق : يعنى بيبحث مشكلة إنسانية عليا ..

نور : وهم الستات مالهمش دخل فى المسائل الإنسانية ؟

توفيق : لا .. قصدى يعنى .. القصة دى بالذات بتعالج مشكلة الستات مالهمش فيها دخل .. قصة جماعة من الطيارين كل واحد من جنسية ، وكانوا بيحاربوا بعض .. يعنى أعداء .. وبعدين الظروف جمعتهم فى مكان واحد .. وعاشوا سوا شهور طويلة ، وتحولوا إلى أصدقاء . . وعرفوا أن العداوة والحروب وكل ده كلام فارغ . .

نور : طيارين إيه ؟

توفيق : طيارين حربيين .. ضباط فى الأسلحة الجوية ..

نور : يعنى عاوز تعمل لك حرب؟ .. طيارات وقنابل .. و .. دى دوشة كبيرة ! . . الأفلام بتاعتنا مش كده ، إنت ماشفتش فيلم مصرى أبداً ؟ ..

توفيق : شفت كتير ..

نور : يعنى إنت عارف الصنف بتاعنا ..

توفيق : أيوه عارفه .. وعلشان كده وضعت الرواية دى ! ..

نور : مش فاهمة ..

توفيق : قصدى علشان أنقذ السيما من اتجاه الرقص والغنا ..

نور : (فى غضب) مالهم الرقص والغنا ؟

توفيق : كويسين .. بس الحياة مش كلها رقص وغنا ..

نور : أمال الحياة إيه ؟ .. طيارين وقنابل ؟ !
توفيق : فيها ده ، وفيها ده ..
نور : وحياتك ما فيها إلا الرقص والستات ! إوعى تتجنن وتفتكر إن حد يدفع قرش علشان يشوف إزاى الطيارين بتوعك بقوا أحباب (ساخرة) إنسانية ! .. أفلام إنسانية ! .. ماتشوف جمعية خيرية تخرج لك روايتك دى ..
توفيق : (ينهض غاضباً ويضع روايته تحت ذراعه) ياستى أنامش جاى هنا علشان تهزئينى .. خيرية أو مش خيرية .. أهى دى روايتى .. أهو ده الفن اللى أقدر عليه ، عاوزة رقص وغنا شوفى واحد غيرى ..
نور : (فى دهشة) الله ! .. جرى لك إيه ؟ .. ما كنت بعقلك !
توفيق : (بهدوء وفى لهجة جد خالص) أنا دايماً بعقلى يا هانم ، ومش ممكن أبيع عقلى علشان تاخدوا منى رواية . . المسألة مش مسألة ١٠٠ أو ٢٠٠ جنيه حاخدهم فى رواية .. المسألة مسألة رسالة الفن .. الكلام اللى انتم بتعملوه ده مش فن ، ده لعب .. خداع للناس واحتيال عليهم .. الناس مش بتديكم فلوس علشان تفرجوهم على رقص ، وكمان رقص ، وكمان رقص ! . . عندك مؤلفين كتير يقدروا يكتبوا لك كلمتين ترقصى عليهم . . وكل يوم يهبطوا بيكى شوية شوية .. لكن أنا افتكرت إنى أقدر أخدمك .. أنقذك ! ..
نور : (ساخرة) ياسلام ! .. تنقذنى بقصة أدبية فنية ما يتفرجش عليها حد .. مش كده ؟ !
توفيق : لا .. مش كده .. إنتم فاكرين الجمهور ده طفل ، أو إنسان سفيه .. ما يعجبوش إلا الكلام الفارغ . . فاكرين الجمهور ده على قد عقلكم .. لا .. إنتم غلطانين ..
(يفتح الباب ويدخل فهمى . ينظر إلى توفيق ثم إلى نور ،

ويبدو الاستغراب فى وجهه ثم يقول) :

فهمي : جرى إيه ياست نور؟ الدنيا قايمة قاعدة وانتى هنا بتتسامرى ؟ ..

نور : اخرس ياولد .. إيه اللى جابك هنا دلوقت ؟ ..

فهمي : إيه اللى جابنى ؟ .. جرى إيه ياست ؟ .. إيه الحكاية ؟ .. الأستاذ بيدور عليكى فى كل حتة ..

نور : قول للأستاذ بتاعك ينفلق ..

فهمي : ينفلق ؟ .. إيه اللى جرى فى الدنيا ياست نور؟ ..

توفيق : (مقاطعا) أظن إن ماليش مكان هنا ..

(يسير نحو الباب ويخرج فى هدوء . نور تجرى وراءه وتناديه)

نور : أستاذ توفيق . . أستاذ توفيق! . . (تفتح الباب) أستاذ توفيق..

(تنتظر لحظة ثم تغلق الباب وتعود والحزن فى وجهها . تجلس فى صمت وهى تنظر إلى الباب)

فهمي : جرى إيه ياست ؟ نحن هنا ! ..

نور : (تلتفت إليه فى هدوء) إنت لسه هنا ياوش النحس ؟ ..

فهمي : لا ، لا .. دى حكاية تانية . . ياست نور ، اللى خد عقلك ..

نور : (فى غضب واشمئزاز) ياأخى إنت إيه اللى جابك هنا ؟ قاعد مستنى إيه ؟ يللا من هنا ..

فهمي : (مندهشاً) يللا من هنا ؟ .. يعنى إيه ؟ .. بتطردينى ؟ . .

نور : أيوه باطردك . . مش عاوزه أشوف وشك ولا وش الأستاذ بتاعك . .

فهمي : يانهارزى بعضه ! .. إيه بس ياست اللى جرى .. ؟

نور : (فى حزم) فهمى .. أرجوك تخرج ..

(فهمي يقف ذاهلا وقد بدا الجزع فى وجهه . يجد أن لا خير فى الكلام . يتجه نحو الباب تشيعه نظرات نور .. يخرج. تسرع إلى دفتر التليفون وتبحث حتى تجد الاسم الذى تريده .. تدير القرص) .

نور : مين ؟ الأستاذ توفيق ؟ أنا نور ، نور العيون . . أرجوك تيجى دلوقت .. لا .. لازم تيجى ، مش ممكن ؟ .. حاجيلك أنا .. يعنى جاى؟ .. أنا منتظراك .. (تنزل السماعة . تجلس صامتة)

المنظر الثالث

(مكتب الأستاذ حليم . غرفة مكتب واسعة فخمة الأثاث . فهمى سكرتير الأستاذ يتحدث مع فراش المكتب) ..

الفراش: يعنى خلاص ياسى فهمى ؟ .. راحت على الأستاذ حليم ؟ ..

فهمى : راحت ؟ .. راحت ونص .. خلاص .. البقية فى حياتك ! ..

الفراش: سبحان المعز المذل ياناس ! .. ياسلام على النسوان ياعالم ، يا .. سا .. لام ! ..

فهمى : على رأيك . مين كان يصدق ؟ ! حتة محامى صغير زى ده . يحط إيده على الشركة بما فيها !

الفراش: لازم غنى قوى ..

فهمى : ولا غنى ولا حاجة ، ده أفقر منى ومنك ! ..

الفراش: أمال إيه بس اللى حصل ؟ .. ما تفهمونى ياعالم !

فهمى : نفهمك ازاى إذا كنا احنا مش فاهمين ؟ .. ده واحد جالنا كده من الباب للطاق من تلات أشهر ومعاه رواية ما تسواش نكله .. يريد ربك إن الست تقع فى دباديبه .. نور العيون اللى الدنيا دى كلها تحت رجليها ، بقت لعبة فى إيد الواد ده ، تقولش ساحرها والا عامل لها عمل ؟ . . الأستاذ حليم حيتجنن . . ماهوش فاهم حاجة ، ولا أنا فاهم حاجة .. مصيبة وحت لنا !

الفراش: إيه بس اللى حصل ياسى فهمى ؟ ما تحكى لى ..

فهمى : أحكى لك ازاى ؟.. ما أنت شايف.. مش شايف إن صاحبنا أصبح مديرا لشركه ؟ . . والا مش عارف إن الست كانت تملك

نص الشركة وجه صاحبنا توفيق روميو طلع لها تحليلة كله خلاها تملك الثلاث أربع .. قامت صاحبتنا المغفلة كتبت له توكيل عن نفسها يعمل اللى هوه عاوزه ..

الفراش: آه .. قلت لى..أتاريه شال صاحبنا من الإدارة وقعد مطرحه.. أهو دلوقت بس أنا فهمت ..

(تسمع أصوات فى الخارج . أقدام مقبلة . يفتح الباب ويدخل الأستاذ توفيق ، وبعده بقليل نور العيون. تتحدث إلى الأستاذ حليم . توفيق يأخذ مكانه على المكتب . حليم يجلس على مقعد أمام المكتب. نور تشعل سيجارة فى مبسم طويل وتجلس على حافة المكتب) ..

توفيق : إيه رأيكم ؟ مش نعمل عقود مع جمال رفعت وسوسو نظاجة ؟

حليم : بس يا أستاذ توفيق دول مهرجين ما ينفعوكش ..

توفيق : ما ينفعونيش ازاى ؟ .. أفلامهم بتكسب والالأ ؟ ..

حليم : بتكسب قوى ..

توفيق : خلاص ! ..

نور : (ضاحكة) أهو كله الجد ! ..

حليم : يعنى التهريج ما كانش بيعجبك قبل كده ..

توفيق : إسمع بس خلينا نشتغل .. إحنا فى الشغل والاَّ فى اللى يعجبنى ؟..

نور : تعجبنى ياحضرة المدير !

توفيق : طيب .. نتفق معاهم بقى .. همه دلوقت بياخدوا كام فى الفيلم

نور : مين جمال وسوسو؟ .. أظن كل واحد ألف جنيه ..

توفيق : (فى دهشة) ياسلام ! .. ألف مرة واحدة !! ليه ؟ !

نور : وحياة أبوك ما يساووا نكلة .. إن كان هوه والاَّ هيه .. لكن ، تقول إيه ؟ الجمهور ما بيفهمش.. برضه نتعاقد وياهم ؛ ونسيب لك انت الاتفاق.. اجتهد تنزل شوية، ٧٠٠، ٨٠٠ حاجة زى كده ..

توفيق : طيب . وعاوزين لهم روايات ، مين يكتب لنا ؟
نور : أبو العينين عجوة ..
توفيق : (مندهشاً) ودا يبقى إيه ؟ !
نور : ده مؤلف قد الدنيا .. أستاذ كبير ، يكتب أكبر سيناريو وهو قاعد على القهوة البلدى والشيشة فى إيده .. إنت ماشفتش رواياته المشهورة : « فسيخ وشربات » و « مرجيحة الهوا » ؟ ..
حليم : ده حتى ما بيعرفش يكتب .. يملى بس .. يادوبك يمضى اسمه ..
توفيق : عجيبة ! .. وبياخد كام فى القصة ؟
حليم : شوف ياسيدى .. الرواية الواحدة بميتين جنيه .. وإذا أخدت اتنين ياخد ٣٥٠ جنيه .. تلاتة يبقوا بخمسمية ! ..
توفيق : ودا يبقى أديب ده ؟ !
حليم : أهو أديب على قد جمال رفعت وسوسو نظاجة وهنية سامبا .. أمال عاوزين مين يؤلف للول ؟ .. شكسبير ؟ !
نور : عاوزين نشوف حانعمل إيه فى روايتك انت بقى ..
حليم : ناخدها طبعاً ..
نور : طبعاً .. بس عاوزين نشوف لنا مخرج درجة أولى يخرجها .. عاوزين نخليها درة الموسم ..
توفيق : بس عاوزة شوية تعديلات ..
نور : تعديلات إيه ؟ .. ما قلنا ناخدها زى ماهية ..
توفيق : إيه رأيك يا حليم ؟ أنا شايف إنها كده من غير ستات خالص تبقى تقيلة قوى !
نور : (مندهشة) أنا مش فاهمة حاجة ..
توفيق : عاوزين ندخل فيها دور لنور .. خسارة يكون عندنا نجمة كبيرة زى نور ولا تظهرش فى روايتى !
نور : قلنا كده .. قلتوا اطلعوا م البلد !

توفيق : اسمعى يانور .. قصدى ندخل فى القصة دور نسائى ، بس ما يغيرش من جوهرها .. برضه لازم نراعى ذوق الجمهور..

حليم : (ساخراً) أهو كده الشغل !

توفيق : قصدى يعنى دور من مستوى عالى ..

نور : عالى ازاى ؟ ..

توفيق : يعنى دور بنت ساذجة .. طاهرة .. عذراء ..

نور : (مروعة) ياسم ! بنت ساذجة طاهرة عذراء ؟ ! .. أبقى نجمة قد الدنيا.. وأمثل دور بنت ساذجة طاهرة عذراء ؟ .. دى إهانة .. إهانة لفنى ولمقامى ..

توفيق : إزاى بقى إهانة ؟ .. دور بنت طاهره ! ..

نور : (غاضبة) طاهرة يعنى إيه ؟ .. عبيطة يعنى ؟ ! مش كده ؟ .. أمال أرقص ازاى ؟ ..

توفيق : يعنى .. وانتى لازم ترقصى ؟ مش ممكن تمثلى بس ؟

نور : أمثل بس ؟ أقعد أعيط على المسرح والناس تتأسف على حالى ؟.. عاوزنى أمثل دور زى ليلى بتاعة قيس ؟ ..

توفيق : وفيها إيه يعنى ؟

نور : فيها إيه ؟ !

حليم : قصدها إن الفيلم بالشكل ده يسقط ..

توفيق : يعنى بلاش دور نسائى خالص ؟ ..

حليم : فى الحالة دى يبقى بلاش فيلم خالص ، ونوفر فلوسنا ..

توفيق : يعنى رأيكم إننا لو فصلنا دور على قد نور الفيلم ينجح ؟

حليم : ١٠٠ فى المية ..

توفيق : إذا كان كده ، نقدر .. بلاش تبقى بنت ساذجة عذراء ، خليها غانية ..

حليم : غانية من نار..

توفيق : بس فى الحالة دى ما يبقاش اسم الرواية مظبوط .. لازم نغير اسمها ..

نور : (فى دلال) وإيه يعنى ؟ غيره .. أصل الاسم اللى انت اخترته لحا دمه تقيل من الأصل .. نفسى أحط اسمى فى اسم رواية زى ما بيقولوا : « ليلى بنت مدارس » و«ليلى فى الظلام» ... و .. حاجة زى كده ..

حليم : إيه رأيكم ؟ .. نور .. نور .. نور ..

توفيق : ونار .. نور ونار ! ..

نور : (تهجم عليه وتعانقه) أهو كده يا قمر !..كده الأسامى والابلاش!.. ياسلام ! .. نور ونار .. فيه أحسن من كده؟!حارقص ..حاغنى حاخليه فيلم نار خالص .. ملهلب !

توفيق : أظن إننا كده نضمن نجاحه ..

حليم : عاوزين تضمنوا نجاحه ١٠٠ فى المية ؟ ..

توفيق : طبعاً ..

حليم : دخلوا فيه كمان دورين لجمال رفعت وسوسو نظاجة ..

توفيق : (مروعاً) يانهار اسود ! دول كمان ؟ ..

حليم : شوف ياتوفيق .. إحنا عاوزين الفيلم ده يجيب ١٠٠ فى المية مكسب .. الشركة مديونة : عاوزين ننقذها ..

توفيق : بس ياناس ازاى حنعمل فيها دورين جداد لواحد مهرج وبنت ما بتعملش إلا أدوار الخدامات البلدى ؟ ..

حليم : إنت عامل مكان الرواية فين ؟

توفيق : فى الصحراء الكبرى ..

حليم : يا نهار زى بعضه الصحراء الكبرى كلها ؟ !

توفيق : أيوه .. أمال انت عايز الطيارين ينزلوا فين ؟

نور : طيارين ؟ مابلاش ياأخى الطيارين دول .. حانأجر لك طيارين وطيارات منين ؟ دى حاجة تتكلف فلوس كثيرة !

توفيق : لا ، لا .. لحد هنا وبس .. كمان موضوع القصة أغيره ؟ !

حليم : مش تغيره كله ، لا .. قصدنا يعنى ، بلاش يبقوا طيارين ومطارات .. خليهم يتقابلوا فى بار .. بار وسط القاهرة، إيه رأيك؟

توفيق : لا .. ده مستحيل .. بار إيه ياناس ؟ دى قصة إنسانية رمزية .. نقوم ندخل فيها رقاصات ومهرجات ؟ !

نور : أنامش عارفة بس أنت مالك ومال الرقاصات! يا أخى همه عملوا لك حاجة ؟ !

حليم : ياريت !

نور : (ضاحكة) اخرس انت ..

توفيق : يعنى قصدكم كمان مكان أحداث الرواية تغيروه ؟ ننقلها فى بار؟ .. لكن أنا ما أعرفش أوصف منظرفى بار .. ما أعرفش الكلام اللى بيتقال هناك..

حليم : دى حاجة بسيطة .. تشوف واحد زى أبوالعينين !

توفيق : (مقاطعا) عجوة ؟ .. لا .. لا .. مش ممكن الأستاذ عجوةده يحط إيده فى روايتى ..

نور : (مغرقة فى الضحك) هيه بقت روايتك ؟ .. ياحسرة ! ..

توفيق : (مفكراً) تعرفوا يا جماعة إن دى فكرة .. (ضاحكاً فى سخرية) والله عال .. قعدتم تقطعوا من الرواية حتة حتة لحد ما بقاش منها حاجة . أنا لى اقتراح ، إيه رأيكم ؟ .. نشيل اسمى كمان من على الرواية ...

نور : لا ، مش ممكن .. ياسلام ! .. ودى تيجى ؟ ..

توفيق : تيجى قوى .. إحنا عاوزين الشركة تنجح ، عاوزين نكسب . المقياس عندنا من دلوقت ذوق الجمهور .. الجمهور هوّ اللى بيدفع الفلوس . . سيبينا من الروايات الإنسانية . . من الأفكار الخيالية . .

(نور تقترب منه وتحيط عنقه بذراعها فى دلال..وهو مستمر فى الحديث . . حليم يخرج . . توفيق مستمر فى الكلام)

توفيق : إيه رأيك يانور؟ ..

نور : تمام كده يا حبيبى .. الشركة بتاعتك وكل حاجة زى ما أنت عاوز!

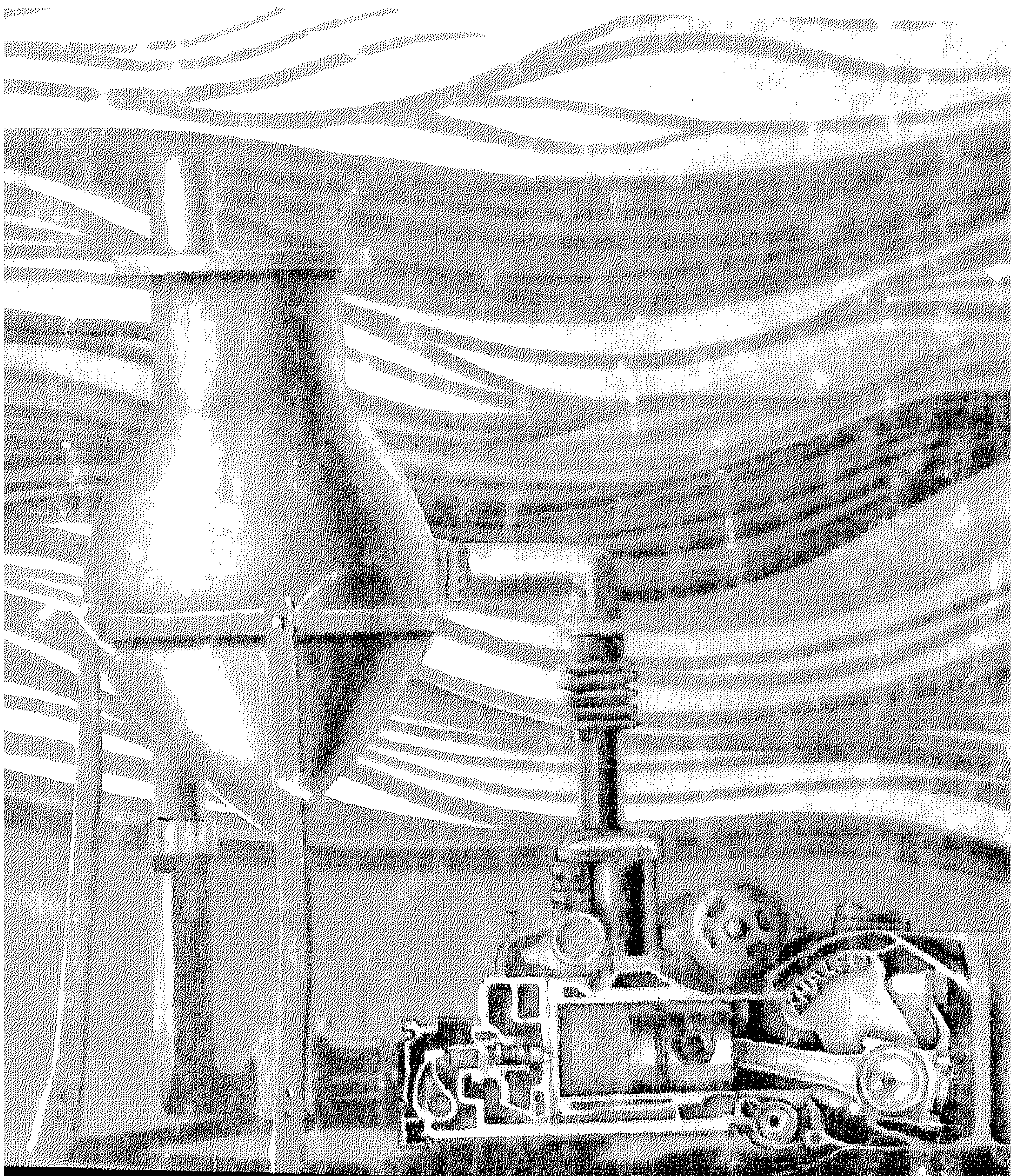
ستار

فهرس

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٥/٥٣٨٢

مطابع دار المعارف بمصر – ١٩٧٥
١/٧٥/٢٨٧

ـهـ
٢٠



اقرأ

دكتورة نعمات أحمد فؤاد

الجمال والحرية والشخصية الإنسانية

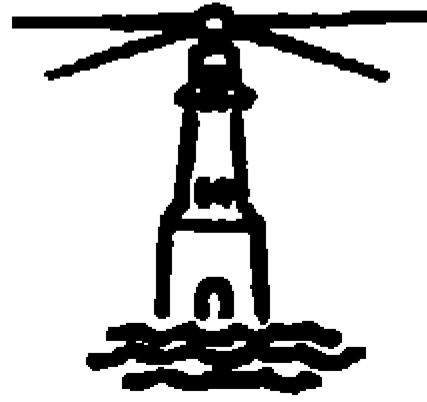
في أدب العقاد





تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير : السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر



دكتورة نعمات أحمد فؤاد

الجمالُ والحريّةُ والشخصيّةُ الإنسانيّة

في أدب العقّاد

اقرأ ٤٠٩

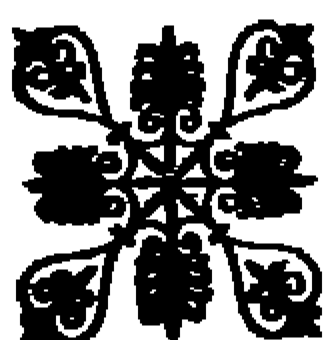
دار المعارف بمصر

(اقرأ ٤٠٩)

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

الباب الأول

الجمال والحرية





العقّاد

وكأنه منذور للمعبد . . . فقد وهب نفسه للكتابة ووهبت نفسها له . .

هى صاحبته والولد . . . لا يكاد يخلو إلى نفسه أو إلى الناس إلا وهو على موعد معها يعود إليها فيه؛على أنه فى خلوة الظاهر،لا يخلو حسه وشعوره منها. فهو مع الناس تعيش معه فكرة فى عقله ، أو صورة فى عينه ، أو مسئولية فى ضميره ، أو خاطراً فى خياله ، أو خلجة فى شعوره . . لا يذكره الناس وما أكثر ما يذكرونه — إلا مقترناً على لسانهم بكتاب جديد ، أو رأى جديد أو فتح جديد فى عالم الكتابة . . عالمه . . يراه الناس وحده ، ويرى نفسه فى جمع لا تمل صحبته ولا تذم رفقته ولا ترث صداقته . . صداقة صافية صفاء الخير ، سامية سمو الأدب ، صداقة أدباء يعيشون معه فى بيته . . ويعيش معهم فى نتاجهم.يطلون عليه أينما يخطو من زجاج المكتبات العديدة المنتشرة فى داره حتى لتكاد تحجب جدرانها وتخفى معالم أثاثها فى كل ركن ، فى كل زاوية ، فى كل ردهة ، فى كل حجرة أكداس مركومة من الكتب بعضها سمح الوقت بتنسيقها والبعض ينتظر دوره فى القراءة . . ومكانه على الرفوف الخاصة . . يراه الناس حياة عريضة خصبة وأراه حيوات كثيرة.ويعيش المرء أيامه ويعيش هو أجمل أيام العباقرة المحيطين به

فى صمت وزهرة حياتهم . . وتثير وحدته من التفاسير ألواناً . . إنها ظاهرة عجيبة فى دنيا التطاحن والصراع والزحام والتدافع والجلبة والطنين واللغط . . هذا الرجل المتوحد المتشامخ كيف يعيش ؟ . . ويذهبون فى الجواب أشتاتاً . . يراه قوم هادياً كالشعاع . . عالياً كالمنار . . وارفاً كالظل . . زاخراً كالنهر . . عميقاً كالبحر . . حالياً كالروض . . رحباً كالأفق . . خصيباً كالوادى . . مترفعاً كالأسد . . مصعِّداً كالنسر . . مهيباً كالعلم . . عنيداً كالجبروت . . لا يرجو ولا يخشى ، إذا تكلم أسمع ، وإن حاجى أقنع ، وإن عادى أفحم ، كثير بنفسه ، سلاحه لا يفل ، وصبره لا يمل ، وجده لا يكل ، وطاقته لا تنضب ، كأن وراءها مدداً يرفدها من سر الخلود أو من روح الله.
ويفرض عليه آخرون برودة الوحدة وكآبة الوحشة وجدب القلب وفراغ البيت حوله من إنسان يعيش له ويرتجيه . إنسان يخرجه من جوه بين الحين والحين . لا بل إن المرء محتاج إلى التفاهة أحياناً تجدد شوقه إلى الجد فيعود إليه أنشط وعليه أقدر ، كما يحتاج محرك السيارة إلى الماء يبرده بعد سير طويل.
ويؤيدون رأيهم بالشيوخ من القادرين يتخذون جليبة تقوم على مطالبهم فى مثل مسئولية الزوجة أو قريباً منها . أليس هذا دليل إحساس بالفراغ يحتالون على ملئه ؟ . . وهب هؤلاء يستغنون بهذا الحل عن بلادة فى التفكير أو بلادة فى الإحساس . . عن كثافة لا ينفذون معها إلى القيم العليا فى الزواج من سكن وأمان وراحة وتعاطف ومودة ورحمة ، ولكن الكاتب العبقرى هو يدرك هذه المعانى كيف احتمل الحرمان ؟ ولا عبرة عند هؤلاء بهموم الأولاد ومشاغلهم ، فقد يدفع الملائكة الصغار الثمن فى لحظة ،يدفعونه

ابتسامة منورة أو كلمة مسكرة ، أو لغواً عذباً أو لهواً منعشاً ، أو دعابة هانئة ، تغسل نفس المكدود فتسترد فى ظلهم الرطيب صفاءها وسلامها .

ويعودون من جولتهم وعلى لسانهم . . هذا السؤال لا يزال : كيف يعيش هذا الكاتب ؟ أيامه كلها قلم وكتاب حتى مجالسه وأسماره مع أدباء أى كتب حية . . حتى ضحكاته على نوادر أدبية . . هل أقفرت الحياة إلا من هذا ؟ إن الأدب جميل معجب ممتع شهى يستطيع أن يملأ القلب والنفس والحس جميعاً . . إنه موسيقى ذات أفكار ولكن على أن يكون هواية . . إن الفن ابن الموهبة والهواية ولكن إذا انقلب حرفة فقد الطلاوة والبهاء .

على أن الامتياز ١٠٠ ٪ كما يقول الرياضيون مخيف . . إنه فى هذه الحالة يضمر القلب ويغدو العقل مسيطراً على نفسه وتغدو الحياة بدورها جافة صعبة . . هل يمكن للجسم أن يكون رأساً فقط ، لا بد من أعضاء صغرى تؤكد إنسانية الحى . . تؤكد وجوده . . لا بد من رجلين تسعيان . . ويدين تصفقان ولسان يتكلم وثغر يضحك وحسب العقل أن يهيمن . . أن يسيطر . . حتى فى هذا لا بد له من التجاوز لحظات أو حتى ساعات لتلوين الحياة .

ومرة أخرى يعودون إلى الكاتب العملاق والسؤال على لسانهم لا يزال : كيف يعيش فى هذه السن العالية ؟ أين الراحة التى يرتاح إليها فى شيخوخة العمر ؟ والحقيقة أنى ضعيفة أمام هذا السؤال . . إنى ممن يحبون الحياة حباً جماً وأرى فى كل مرحلة من مراحلها جمالاً خاصاً لا يفوقه جمال الصبا وربيعه . . يخيل إلىّ أن الرجل أو المرأة أعنى الزوج والزوجة فى الكبر ، يحب كل منهما الآخر أكثر من حبه لأولاده . . إنهما عندئذ عالم خاص . .

عالم من الأسرار . . من الذكريات . . من التجارب . . فسلم الحياة الطويلة لكل درجة فيه عندهما قصة . . وما أحلى العمر عند القمة . إن الشيخين لا غنى لأحدهما عن الآخر . . العلاقة بينهما معنى خالص . . معنى عميق لا دخل للجنس أو الشهوة فيه . . إنهما يجلسان على حافة نبع غير منظور من الذكريات المزدوجة . . من الأحلام المحققة والتى ظلت أمانى . . يعيش الفرد عمراً واحداً ويعيش كل منهما عمرين .

مسكين الكاتب العملاق فى توحده . . نخلة سامقة وسط الحجر . . إرتكازه على شخصه فقط حين يرتكز كل واصل على ظروف محيطة . . ووضعه وضع نادر فى الدنيا . . لقد زادت الفردية عنده على حدها . . فهو لا يهنئ ولا يعزى أقصد بشخصه ، ولا عبرة بالرسائل والبرقيات تنوب عنه . . فهو ليس قطب مجالس ، ومن ثم ترى حديثه كعود القصب مستقيماً صلباً وإن لم يحجب صلابته ما فيه من سكر. وكتابته كحديثه صلبة هى الأخرى دقيقة . . خير من تتمثل عنده دقة اللفظ العربي ومطابقته للفكرة . . الكلمة عنده (قفاز) محبوك ولو أنه أمد له فى الإتساع نصف نمرة لأراح بعض الناس،ولكنه يأبى ويصر لأن المسألة تتصل عنده بطاقة القدرة . ولهذا لا يتذوقه إلا متخصص . وقارئه إما أن يفهمه كله أو يتركه كله ، والكاتب فى الحالين كأن صومعته قد كتب عليها بيت المتنبي إن جاز أن يقبل صاحبها فى شموخه البالغ . . الاستعارة من أحد ولو كان عبقرى الشعر :

أنام ملء جفونى عن شواردهـــا ويسهر الخلق جراها ويختصم

ولكن لماذا يلوم الناس الكاتب ، لماذا لا يلومون ، أنفسهم ؟ هل من

الضروری أن يكون الكاتب هو المخطئ ؟ ولماذا لا يكون القارئ هو المختلف ولا أقول المتخلف ؟ لماذا لا يصعدون إلى الكاتب . . ويجشمون أنفسهم جهد الصعود بدلاً من أن يقولوا له . . انزل سلينا .

ولكنها كلمة لا يجرءون على كل حال ، مع هذا الكاتب أن ينطقوها فإن قالوها بمعنى أو بآخر فإنما يكون ذلك بعيداً فى الفضاء على طريقة دون كيشوت . والكاتب العملاق إذا تصدر للسؤال والجواب ألفيته موسوعة جامعة تتطوح الأسئلة ولا تعييه ، وتستعصى ولو فى نظر قائليها ولا تعدم عنده الجواب ! كيف اجتمعت له حقائق العلوم مع لطائف الأدب ولا سيما فى عصر التخصص الذى غدا الامتياز فى مادة واحدة كسب يزدهى صاحبه ويعليه ؟ كيف تهيأ له هذا كله ؟ قد يكون هذا هو السؤال الوحيد الذى يزهد فى الإجابة عنه .

على أن وضاءة النبوغ فيه ، ولألاء العبقرية ، وعبقرية العصامية لا تسكت تافهين يتصايحون حوله بالغل والحفيظة ، ومن عجب أمرهم أو أمر بعضهم على الأقل أنهم يقولون مالا يعتقدون إنْ هو إلا ابتغاء للشهرة أو رثاء للخصوم ، فإن حدث أن رقى صياحهم إليه كما يتصاعد الدخان إلى السماء لم يسكتهم واحداً واحداً بل يدعهم يطنون كالذباب ويتهافتون مثله حتى إذا تكاثر جمعهم وألهاهم التكاثر هشهم بمذبة واحدة فيتفرقون بكلمة منه جامعة أو لطمة منه رادعة يدخلون بعدها جحورهم كالنمل . . ومن الطريف قوله فيهم إنهم (واغش بشرى) يعجزه الصعود ويحنقه الهبوط . .

ميزته وعيبه الفحولة . . . كل إنسان فيه جانب أنثوى وجانب ذكرى ولكن

العقاد جانب الذكورة فيه كان طاغياً . . . والفنان تخدمه صفة الأنوثة . . فالفنان رجلاً أو امرأة ، أم في احتضان البذرة أى الفكرة وتربيتها . . ثم الخضوع للوحى أو التلقى الذى يقابل فى الطبيعة ، الحمل

التأنيث بالنسبة للإنسان وبصفة خاصة ، الفنان ، هو الاستقبال والتلقى والضيافة والإضافة . .

إن الصين حين تقول (ين) أى المؤنث تقصد المتلقى .

إن النفس البشرية مكونة من الثنائية المتضادة من الأنوثة والذكورة . .

كل صفات الجمال أقرب إلى الأنثى .

كل صفات الجلال أقرب إلى الذكر .

ولعل هذا سر انجذابهما أحدهما إلى الآخر . والإنسان المثالى عند أفلاطون إنسان لا هو ذكر ولا هو أنثى ، ولكن مزيج منهما ثم انشق قسمين ولهذا عندما يجد شق ، الشق الآخر ، فى الحياة ، يسعى إليه ويتكامل به ومعه وهو ما يسمونه الحب من أول نظرة .

الرجل والمرأة والطفل

أى الذكر والأنثى والأمل .

وجنت عليه الفحولة فى معاركه الأدبية والسياسية إذ دفعته إلى العنف وورطته فى خصومات لم يتأخر أصحابها عن التهجم العنيف . . . .

ومرة أخرى ميزته وعيبه ، **الإرادة الحديدية** . كانت هذه الإرادة وراء إنكاره أستاذاً له[١] ولعل ثورة العقاد على المرأة انعكاس للمعاناة من الفحولة

---

(١) اقرأ كتاب العقاد (حياة قلم) .

والإرادة الحديدية .

ومن فحولته وإرادته أنه يرى الرأى فيغلو عقيدة .

شب العقاد فى عصر افتقد الحريةفعرف الجمال بأنه الحريةمع أن الجمال عِدْل الحرية وصنوها . حتى التناسب وهو أحد مقاييس الجمال سلط العقاد عليه فحولة منطقة فيقول : (. . . قد يتم تناسب الشكل فى وجه قسيم صحيح ثم لا يعجبك ولا تنشط إليه روحك لأنك لا تحس فيه ما يدل على حركة الحياة فى نفس صاحبه وذلك ما يسمونه بثقل الروح . . . وندع الأعضاء والأجسام وننظر إلى الفضائل والأخلاق فلانجد خصلة من الخصائل الجميلة المحمودة إلا وكان فيها معنى من غلبة الحرية على الضرورة)

أكد هذا فى (مطالعاته) و (مراجعاته).

حتى الأشياء طبق عليها نظريته فى الجمال الذى يراه تكاملاً بين الشكل وبين معنى يوحيه أو يضفيه (فالمادة الصماء نفسها تتفاضل فى الجمال بحسب ما يبدو لها من حرية الحركة ومشابهة « الإرادة » فتروقنا النيران والرياح والأمواه ، وتطلق فى نفوسنا خوالج الحياة ، ونعاطيها شيئاً من العطف لا نعاطيه لغير الأحياء ، وليس لهذا فضل ظاهر على عامة الجماد إلا بما تخيله للناظر من حرية الإرادة ومحاكاة الحياة .) .

لقد عاش العقاد شبابه فى ثورة ١٩١٩ التى جعلت كل مصرى بله الفنان يلهج بالحرية ويعتنقها . ومن هنا تأكدت نظرية الحرية وصارت عقيدة ، حتى رفضه (الوظيفة) نابع من عقيدة الحرية .

اتخذ السياسة وسيلة لتحقيق الحرية بمعناها الواسع . .حرية البلد

وبالتالى حرية كل شيء فيه . وفى مقدمة هذاقيم الجمال والفن . وقد كان هذا وراء دفاع العقاد عن الدكتور طه حسين فى الأدب الجاهلى . . . كان موقفاً بطولياً رأى نفسه كرجل فكر وجماليات ملتزماً بالدفاع عن الحرية .

ومع تقديسه للحرية يعد النظام خاصة فى حياته الفكرية . . . هنا تكون الحرية تنظيم القيود . . . إن لعبة كرة القدم لها قوانين ضابطة وأصول وقواعد . . فأولى الفن أن يكون له نظام مميز وإلا انقلب فوضى .

ومن الحرية ، اهتمامه بالفرد .

ومن الحرية ، حربه الشيوعية لأنها تلغى الفرد . . . واهتمام العقاد بالفرد نابع من ضمير البلد الذى ابتدع فن البورتريه .

حتى شكه الأول نوع من الارتفاع على النمطية وتحرر منها ... ولعل نضجه العقيدى الأخير مرجعه أنه وصل بنفسه لا بالتلقين ...

إن مركز الإيمان ليس الشعور ولكن الخبرة التلقائية الدينية من تنمية الذات تصل إيمان صاحبها مباشرة بالله .

إن من يعكف على نفسه يتحسسها ويتفهمها يؤكد أهليتها للأهمية وهذا كرامة .. وهذه التجربة .. هذه المعاملة مع اللاشعور هى الوسيط الذى تتدفق من خلاله التجربة الدينية ، حين يفتقد الإنسان الانطباعى الخبرة النفسية الناضجة التى تنسجها الدراسة المستأنية والتمحيص .

واستطاع الإسلام بواقعه وروائعه أن يكون رافعة وجدانية نقلت العقاد من القلق إلى مرتقى عال .

إن الوعى الدينى قدرة القلب البشرى على استشفاف المقدس فى الكون

أو فى أعمال الإنسان ...

وغير هذا التدين فإنه ظاهرة . . . عادة قد تكون مجردة من الوعى الدينى وقد تتحول إلى الضد . . . إلى نوع من الوثنية التى يحاربها الدين حين تكون التجربة الدينية خبرة مباشرة محققة ذاتية بوجود المقدس أى وعى دينى بلغ الرشد .

ينسبون إليه أنه قال فى مرحلة الشك حين سئل عن الله (هانسيبه يدور علينا هو) ... إذا صح صدور هذه القولة فقد يكون فيها من التسليم بالعجز ، إيمان يعدل ما فى ظاهرها من التمرد . . . .

على كل حال لقد دور عليه وجابه وشغله لحسابه فكتب كتابه (الله)...

ومن اهتمامه بالفرد واعتداده بنفسه هو ، أنه لم يترجم إلا مجموعة قصص قلما يذكرها أحد .. ثم عدل وإن كان أشرف على سلسلة لفرانكلين .

المترجم عادة فى رأى الناس هو الرجل الثانى وهو معنى لا يطيقه العقاد .

ثم لماذا يترجم آراء الآخرين وعنده جديد دائماً ليعطيه ؟

وكما لم يترجم العقاد ، لم يكتب المسرحية ، لعمق إحساسه بفرديته ....

المسرحية تحتاج إلى معايشة الناس والانغماس فى حياة كل يوم .. وهذه ليست عند العقاد المعتكف المتوحد ...

وينسحب هذا الكلام على (القصة) . ولهذا نجد القصة الوحيدة التى كتبها « سارة » قصته هو (١)

---

(١) كتب العقاد فى أوائل الثلاثينات قصة للسينما تسمى (أنشودة الفؤاد) بل وكتب أغانى الفيلم . . ولكن العملية أو العمل أقرب إلى التكليف منه إلى الانبعاث الشخصى أو الفنى .

المسرحية أشخاص متباينون وعلى المؤلف أن يتقمص كلاً منهم ... ترى هل يستطيع العقاد بعملقته أن يتقمص شخصية إنسان تافه أو مخطئ أو منحرف مثلاً ؟ مثل هذا التقمص ليس عيباً فى كاتب القصة بل قدرة من قدراته ولكن طبيعة العقاد لا هى تستطيعه ، ولا هى ترضاه ...

المسرحية يبدل ويغير فيها الإخراج المسرحى فهل يطيق العقاد هذا ؟

والمسرحية لا تحمل اسم المؤلف وحده ... إنما اسم المخرج والممثلين ... والعقاد فرد متفرد ...

المسرحية توزيع للذات .. والعقاد تجميع للذات وإدلال بها .. ودلال .

وحين أصدرت له دار الهلال قصة حياته ، خرجت فى كتاب اسمه (أنا) _ وسواء لدينا أكان هذا الاسم من عندياتها أم من اختياره هو ، فإنه بلا شك استيحاء نافذ وتعبير صادق عن حقيقة ... إنه يؤكد من خلال هذا العنوان (الفردية) : إنه يقول : أنا الفرد ، لا أنانية ، ولكنه الإيمان بالإنسان ... إنه يقول أنا الكاتب لا المنشئ ... فقد عاش فى عصر العقاد ، الأديب المنفلوطى الذى كان يصوغ بأسلوب شاعرى ما يفكر فيه الآخرون أو يترجمونه له . ولكن العقاد ، أو الأصالة ، هو الذى يفكر ويدعو ويتعاطف أو يثور ... العقاد هو الكاتب لا المنشئ .

أما القصة فقد كان يفضل بيتاً من الشعر عليها ، لأن بيت الشعر يركز له التجربة الإنسانية أو الموقف الإنساني فى ألفاظ قليلة ووقت قصير سريع ... ووراء هذا التفضيل خلفية من طبيعة العقاد وطبيعة القصة معاً ....

أما طبيعة العقاد فهو كرجل موسوعى يريد أن يقرأ ، وهو يفعل ، فى شتى

أنواع المعرفة المتاحة .. وهو كرجل فكر ومسئولية يقرأ للمعرفة لا للتسلية أو حتى للمتعة الفنية ...

وهو كأسلوب شخصية أو شخصية ذات أسلوب كان منهجه فى القراءة أن يقرأ فى المادة العلمية أحسن ما كتب فيها ولأحسن كاتب فى هذا . بل إن الكاتب المختار يقرأ له خير ما فى كتابه من الفصول الجامعة أو الفصول المركزة المقطرة تقطيراً ... خلاصة الخلاصة .

ولا يفرض العقاد هذه الطريقة على أحد فقد كان فى معرض حديثه عن عبد الرحمن شكرى يقول : (إنه يقرأ أكثر منى) ويستدل على هذا بأن عبد الرحمن شكرى يقرأ حتى للكتاب من الدرجة الثالثة ... وجهات نظر .

رجل كهذا وخاصة بعد أن بلغ نضجه الزمنى والفكرى لا يمكن ولا يتسنى له : أن يقرأ ما تخرجه المطابع من قصص مئينية أو ألفية ....

ودعنا قليلاً من العقاد هل نحن أنفسنا نطيق هذا ؟ إن القصص الطويلة لا تجد فسحة من وقت إلا عند الشباب .. أما حين يمتد العمر وتغلو الساعات فإنها تكون محسوبة ... والإنسان لا يعطيها إلا باقتناع وقدر ... وليس من هذا، البذل للقصص الطويلة إلا إذا كانت قمة لها قيمة معينة . . . وقد قرأ العقاد رباعية الإسكندرية للورانس داريل وكتب عنها كتابة من استوعبها .

إذن تفضيل العقاد الشعر على القصة له مبرراته المعقولة ولو من زاويته هو، فليس كل قارئ أو حتى كاتب عنده هذا (الانضباط الثقافى) الذى كان يعيشه العقاد .

ولا وجه هنا للحديث فى هذا المجال عن الأشكال الهندسية وتشبيه فضل

الشعر على القصة بفضل الدائرة على المربع كما يقول بعض ناقديه .

وبلغ من اعتزاز العقاد بإنسانيته وشخصيته وموهبته أنه وقف شعره على نفسه والناس فى وقت سار فيه الشعر فى ركاب السياسة والإمارة فدواوينه الأولى أفكار وأعماق وتأملات ... أما دواوينه الأخيرة فغنائية تعبيراً عن الإنسان فيه ، عواطفه وآلامه ...

والشعراء عادة يبدأون بالغنائيات وينتهون بالتأملات ولكنه العقاد الشخص والظروف .

ويراه بعض النقاد فى احتفاله بالفرد ، مرحلة لاحقة ومكملة لمرحلة الأفغاني والشيخ محمد عبده ولطفى السيد الذين كانت رسالتهم دعوة إلى « تعقيل الحياة » وترشيد الوعى ، فكان العقاد بشخصه ودعوته ، علامة لدور جديد يجد فيه الإنسان المصرى نفسه ، ويحترم ذاته وكرامته .

لم يفرغ بعد حديث الحرية ... فقد كانت معنى يلح على العقاد فى نثره وشعره وسلوكه وتصرفه .. كانت الحرية بالنسبة إلى العقاد قولاً وعملاً وكتابة لا شعاراً للزينة .

لقد ورد العقاد والمازنى الأدب الإنجليزى وكثيراً ما كانا يقرآن معاً مرجعاً بعينه أى أن ثقافتهما الغربية واحدة أو متلاقية . وكانا فى الحياة متلازمين على امتداد أربعين عاماً ... وكتب المازنى كثيراً عن الحرية .. ولكنها لم تكن عنده الوتر المتوفز كما كانت عند العقاد .

وصف المازني – نثراً – العصفور ، وصفاً كأنما هو بدع ريشة مصورة ملونة . ووصف العقاد – شعراً – العصفور فكان خط الحرية هو بيت القصيد ....

عصفور المازنى (يذهب إلى حيث يشاء ويحلق فى الجو ويسبح فى الفضاء . ويبصر وهو ناشر جناحيه كل ما بين الأرض والسماء . . . عصفور ينحدر على شعاع من نور الشمس أو خيط من ضوء القمر . . عصفور يرفع منقاره وهو طائر ويتلقى فى فمه الدقيق قطرة من المطر . . . عصفور يحط على أعلى فنن فى أسمق شجرة ، أو يهوى إلى الأرض ويخطو بين أغصان البرسيم فتحجبه ، ويضع بيضه الصغير فى حيث يروقه أن يؤلف عشه . . ويمد منقاره إلى الماء حيث يجده ويمص قطرة ويتلفت . . . عصفور لا يغير ثيابه ولا يبدل أفواف ريشه ولا يكون فى رأى العين مع ذلك إلا جميلاً . . . آه إنه روح الكون ولا شك فى العصافير والسحب سابحة تجوب الآفاق ، وفى الأزاهر والأشجار التى لا تكون إلا عطرة ولا تبدو إلا حالية مونقة ولا يعتورها قلق ، ولا يساورها اضطراب) .

وعصفور العقاد بين الأيك والأيك . . . بين السحب والروض . . بين الماء والشجر طائر مرفرف حتى بين الشباب والشيخوخة لا يسكن له جناح « مرفرفاً قط ما استقر » .

طار وليداً وطار شيخاً   بَيْنَ البَســـاتِينِ والغُدُر

وهو سعيد سعيد لا يعنيه بل لا يخطر على باله الجنود والحشود والعروش والتيجان وما ينجم عنها ويعلق بها من مداهنة ومداراة وخوف وحذر وكل ما يكبل الإنسان من قيود تغتال حريته ووجوده :

حَطَّ على الغُصْنِ وانْحدَرْ   أَقلَّ منْ لمْحَةِ البَصَرْ
مغـــرِّداً قطّ ما تَوَانَي   مُرفرفاً قط ما اسْتَقَرّ
كخِفّة الطِّفل فى صِباه   لكنَّها خِفّةُ العُمُـــر

ورُودُه نَغْبَة فأخــــرى		من خوْفَّ الطائر الصَّدِر ؟
يُقاربُ السُّحْبَ ثم تَهوى		يُبشِّر الروضَ بالمطـــرْ
أصــدقُ من سار فى سرار		بين الحَيـا العذب والشَّجَر
ويَسْتحِثُّ الرياحَ ضرْباً		بخافقَيْـــهِ فتبتـــدِر
أخبر بالنُّضج مُقلتــاه		ممَّن سقَى الحَبَّ أو بَـــذرْ

سلْه عن الجُنْـد والزُّمــر		سله عن المُلك والسُّـرُر
لم يأتِه عنهمُ بــــلاغٌ		ولا دليلٌ ولا خَــــبَر
هذا هُوَ العيشُ فاغبطوه		عليه يا أيها البشــــر

ومع هذا لا تخلو حياته من المشاكل — وهل خلت حياة العقاد على الرغم من تركه للناس المناصب والمنافع والعروض ؟ فنى حياة العصفور الصقر الكاسر ، والنسر الجارح ، والشراك والشباك .

حَبائل الدَّهْر قانصاتٌ		من طار أو غاص أو خَطَر
إنها الحياةُ ذُخرٌ لصاحبها		وحارسُ الذخرِ فى خطر

وحين تهون على ناس أعمارهم يريقونها على الأرض ، أى على أعتاب الممدوحين ، يرى العقاد أن الطير المغرد هو الشعر كله (لأنه هو الطلاقة والربيع والطرب والعلو والتعبير والموسيقية . فمن لم يأنس به ، لم يأنس بما فى هذه الدنيا من طبيعة شاعره ولم يختلج له ضمير بما فى الحياة من فرح وجيشان وتعبير)

وهكذا وصل العقاد بشعره ونثره بين عالم الطير وعالم الشعراء . إنه من هذه الزاوية يذكرني بشيللى فى قصيدته الجميلة عن (القبرة) .. إننا نرى القبرة

كثيراً ويبدو أنها دخلت فى خية الروتين ولكن « شيللى » شاعر لم (تترتون) رؤيته ... وكم غشى الروتين - الرؤية وكم طمس أخرى . ولكن هذا بالطبع غير إشارات أخرى تزاوج بين عصفور العقاد وقبرة شيللى . وليس بين عصفور العقاد وقبرة صاحبه إلا خط خلو بال الطائر من العروش وأصحابها والعروض والزيوف . ولكن العقاد يستقل بوصف حركة العصفور ودنياه كما يستقل ببعد آخر ... وهو آفة (حبائل الدهر) التى تقنص كل شىء مهما ابتعد بنفسه .. تقنص كل (من طار أو غاص أو خطر) ...

العقاد منذ عشرات السنين يرى فى الطير عوالم شتى :

كل إلْفٌ له من الطيرِ إلْفٌ   هكذا تَجْمُل الحياةُ وتَصفو
أملٌ يرتَقِى ، وحب يُنَــاجِى   ولسانٌ يشــدُو وقلبٌ يَرِف
بكَ خفَّ الجناحُ يا أيهــا الط   يرُ وما كنت بالجنــاح تخف
لُطفُ روحٍ أعار جنبيْك ريشاً   فمن الرُّوح لا من الريش لطْفُ
ليس يُنميكَ للسَّماء جنــاحُ   بل غناءٌ عن الضياءِ يشِــفُّ
إن مضَى الناس يعجبون قديماً   كيف تَعْلو؟ عجبتُ كيف تَسِفُّ

حقًّا إن الطيور فيها من جمال الصياغة وتنوع الشكل ووفرة اللون ، وخفة الحركة فى الأرض ، ورفة الجناح فى السماء ما يجعلها من أجمل ما خلق الله .

إن الريشة فى حسن نظامها ودقته وحسمه ورياضة منحنياته ، وفى تمامه ، ملمسه ، وفى تماسك نسيجه ، مسرح كبير للفكر ...

فيض كبير تستطيع أن تسكبه ريشة من جناح طائر ....

ولأمر ما وضع المصريون القدماء قلب الإنسان فى كفة ، والريشة فى كفة .

إن القلب الذى يعادل الريشة فى هذه المعانى له جنة النعيم ...

لو تأملنا الجناح لأحسسنا أنه موجة بحر فى صورة أخرى من التشكيل ..

كم فى الطيور من سحر أشكال وألوان . إن الطبيعة فى باب الطيور كالمغنى الشرقى الذى يسهر الليل مع الليل (يقسّم) ويقول : يا ليل .

الطبيعة فى باب الطيور تبدع أنماطاً مختلفة .

وفى باب (الحيوان) تخلق أنماطاً متعددة وكذلك فى باب (الحشرات) .

والقرآن الكريم يقول : (وما من دابة فى الأرض ولا طائرٍ يطير بجناحيْهِ إلا أممٌ أمثالُكم) . (سورة الأنعام : آية ٣٨) .

من معانى الطير عند العقاد ، من واقع عبارته ، (العلو) ..

إن الطير فى طيره رمز للنفس الإنسانية فى تحليقها وشوقها إلى السامى .. إلى العالى .. رمز تطلعها ...

لقد تصور الغزالى فى رسالته (منطق الطير) الطيور ، رموزاً ، للنفوس ... وكان هذا منطلقاً للشاعر الفارسى فريد الدين العطار الذى نظم قصيدته الرائعة منطق الطير ....

والروح أغلى وأعلى ما فى الإنسان ، صورها ابن سينا فى صورة طائر فى أبياته :

هبطتْ إليكَ من المحلِّ الأرفَعِ ورقاء ذاتَ تعـــــزُّز وترفُّـــــع
محجوبةٌ عن كل مُقلةِ عـــالم وهى التى سفرَتْ ولم تتبرقَع
وصلت على كره إليك وربما كرهَتْ فراقك وهى ذاتُ تفجع

كما كان السهروردى يرى الروح (عصفوراً) والجسم قفصا .

العقاد إنسان حساس وشاعر فى نظرته رهافة وشمول – ومن الناس من يستخدم عينه جهاز إخطار . إشارة فقط – فهى نافذة إلى عوالم شتى ونافذة على دنى عريضة . إن نسيج الحياة فيه من الطيور والنبات والإنسان . والنظرة المقتصرة أو المبتسرة تورث الاضطراب ...

أن ندرك الطبيعة ككل هو الاتزانَ بعينه . فالحياة ليست أشتاتاً متفرقة ولكنها وحدة متكاملة . حتى ليقول العقاد للكروان :

أنا لا أراكَ وطالما طرق النُّهى وحْىٌ : ولم تظْفَرْ به عيْنان
أنا فى جناحِكَ حيثُ غابَ مع الدُّجَى وإن استقرَّ على الثَّرى جُثمانى
أنا فى لسانك حيثُ أطلَقَه الهوى مرحاً ، وإن غلَب السرورُ لسانى
أنا فى ضميركَ حيث باح فما أرَى سِرًّا يغنّيه ضميرُ زمانى
أنا منك فى القلب الصَّغيرِ مساجِلٌ خفَق الربيعُ بذلك الخَفَقَان
أنا منك فى العينِ التى تَهَب الكرَى وتضِنُّ بالصحَوات والأشجان
طِرْ فى الظلام بمهجةٍ لو صافحت حجَر الوِهاد لَهَمَّ بالطيران
تُغنيك عن ريشِ الجَناح وعزمِه فَرْحاتُ منطلِق الهوَى نَشْوانِ

كل هذا الخفق من المشاعر ، والدفق من المعانى يهديه العقاد الكروان ..

حين يقول بعض الناس الطير ويقصد (الدبان) . . . !

فإذا ارتفع قليلاً كانت الطيور هى العصافير . . . !

بل أهدى العقاد ، الكروان ، ديواناً كاملاً (هدية الكروان) مع أن الشعر المصرى لم يلتفت إلى هذا الطائر المصرى حتى ليعجب العقاد فى مقدمة الديوان :

من العجيب أنك لا تقرأ صدى للكروان فيما ينظم الشعراء المصريون ، على كثرة ما يُسمع الكروان فى أجوائنا المصرية من شمال وجنوب !

وأعجب منه أنك لا تقرأ فيما ينظمون إلا مناجاة البلابل وأشباهها على قلة ما تُسمع فى هذه الأجواء !

فكأنما العامة أصدق شعوراً من الشعراء ، لأنهم يلقبون المغنى بالكروان ولا يلقبونه بالبلبل ، فيصدرون عن شعور صادق ويتحدثون بما يعرفون .

إن كثيراً من شعر العقاد الذى لا يقرؤه الكبار يجب أن نعلمه الأطفال لنربطهم بروعة الحياة ، أو نعلمه الأم المصرية لتكون سباقة إليه قبل طفلها حين يكبر حتى لا يقول مقالة ذلك الذى قال عن أمه ، يكفيها فخراً أنى لها ابن ، امتداداً لادعائه النبوة .

من أوصاف الأدب العربي للسعيد ، القول : غنت بلابله . . . وهذا القول رمز عندى إلى أن داخل الإنسان فيه عوالم شتى منها الطيور . . . فإذا كان سعيداً تغنى بلابله . . . وإذا كان تعيساً متطيراً تنعق فى داخله البوم والغربان ، وإذا كان ثرثاراً تنق فيه الضفادع . . . وهو بالغناء والنعيق وبأشياء أخرى كثيرة ، إنسان . . .

إن فى حديث العقاد عن الكروان تربية للوجدان . . .

والشعراء عندنا ينمون وجدان الناس على المستوى الأفقى . . . البارودى شاعر عظيم . . . نفض التراب عما عندنا من جيد . . . وهذه بلا شك مرحلة . . .

وشوقى عارض الأقدمين وتفوق عليهم أحياناً كثيرة . . . ووفر لشعرنا أصواتاً كثيرة وملأه موسيقية . . . وهذه مرحلة .

عندنا فى العربية رثاء كثير ولكن نادراً ما نجد موقفاً كبيراً أمام الموت .

عندنا غزل كثير ولكن نادراً ما نجد موقفاً كبيراً أمام أجمل العواطف الإنسانية .

عندنا الكروان والعقاب والعصفور وكل ما ألهم العقاد الشعر لا الكلام . ولكننا مررنا به بلا عطف أو تفضلنا عليه بالوصف ولكن من الظاهر لأننا انشغلنا باللغة لا بآفاق النفس واللغة مطلب يسير . . .

هل يعترف الكوز من البحر وهو كنوز . أكثر من قطرات ؟ .

ولكن الغواص إلى الأعماق يظفر باللؤلؤ والمرجان . . .

لماذا قال القرآن الكريم : (وَٱلشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ) .

(سورة الشعراء : آيات ٢٢٤ - ٢٢٦)

لقد انتفى الصدق . . مثل هذا الشعر صناعة . . لقد أزرى القرآن بمثل هذا الشعر وهو أروع كتاب لا من الناحية الدينية فحسب ، ولكن من الناحية الأدبية الفنية الجمالية . . . ولكنه رأى الشعر الجاهلى الموجود وقت نزوله هواية وغواية يتنزل بالنفس حين يرتفع هو كأدب حقيقى راق بالنفس ويسمو بها . . .

وحتى اللغة كثيراً ما أسأنا إلى الألفاظ والمعانى . . فحرفنا معنى الحنبلة إلى الحذلقة والصرامة الصارمة . مع أن الإمام أحمد بن حنبل من أرق

الأئمة وأوسعهم أفقاً .

ولفظة (البركة) التي تعني الزيادة والخير والنعمة أخرجناها عن مدلولها وأدخلناها في جو السبهللة .

ومثل هذا لفظ (الفن) الذي يعني في التخريج الجديد ، البوهيمية .

فإذا لم نحرف الكلم عن مواضعه ، قلق به من التكرار المسئوم،موضعه . فتقول ونعيد حضارة سبعة آلاف سنة حتى باتت العبارة وكأنها اكتفاء وإيحاء بالجهد الجهيد وبالتالي النوم والراحة . . . مع أن سبعة آلاف سنة معناها عبء ومسئولية وكنز يستوجب السهر للحفاظ عليه .

* * *

والعقاد الشاعر والكاتب والمفكر يقدس مع الحرية الفن والفنان :

والشِّعرُ من نَفَسِ الرحمنِ مقتَبَسٌ والشاعرُ الفــذُّ بين الناسِ رحمنُ

والفن عند العقاد أعلى وأغلى من الأغراض والمنافع . . إنه الحياة مصفّاة من الرتابة والآلية وغبار الاحتكاك اليومي . . . الفن عنده كشف لا وصف من الظاهر الخارجي . . .

(الأمة بغير علم ، أمة جاهلة ولكنها قد تكون على جهلها وافية الخلق والشعور . . . والأمة بغير صناعة أمة تعوزها أداة العمل ولكنها على هذا قد تكون صحيحة الحس صحيحة التفكير . . . والأمة بغير تعبير أمة مهزولة أو مشرفة على الموت ، وكذلك تكون الأمم التي خلت من الفنون لأن الفنون تعبير الأمم عن الحياة) .

وليس بفن عند العقاد الخطوط الصماء أو التصوير المحسوس . . .

ليس بفن عند العقاد ما لا يحمل رؤى ممتدة تصل قلوبنا بقلب الفنان . فالظمآن لا يجديه شيئاً وصف الماء ولكن يرويه الشرب . . المذاق . . الذوق بكل ألوانه شيء ليس فى الكتب . . إنه كما يقول العقاد استعداد خاص وبذل خاص .

ليس الخطوط الصماء ولكن أناقة المبنى ولطف المعنى ونصاعة الشكل . . حشد من الذخر والبشر .

الذخر حين تنبثق الراحة من فرط الدقة ، وتكسو البساطة غزارة التركيب كالزهر يبهر بالألوان ، ولكنه بعد اللون عالم فسيح للفن . . وللعلم . . وللحياة . . أما البشر فسر من أسرار الشخصية المصرية . . إنه يغطى بحراً من الهموم . .

ولأمر ما يقترن فى ذهنى وشعورى ، الفن ، بالآية : (يرزق من يشاء بغير حساب) فعطاء الفنان ، وقد يكون فى عمل واحد ، قدره وتقديره بغير حدود . . . وإلا فأى حساب يقابل الموهبة نفسها ؟

يقول العقاد فى غنائه للكروان إذ يرفرف فى الهزيع الثانى :

يحدُو الكواكب وهو أخفى موضِعاً ... من نابغٍ فى غَمرةِ النِّسيانِ
ما ضَرَّ من غَنَّى بمثلِ غنائه ... أن ليس يَبْطِشُ بِطشةَ العِقبانِ

إن الجمال والفن قيمة كبرى عند العقاد . . . دونهما بكثير القوة والسطوة . . . ولغة الموسيقى أغنى عنده من لغة الحروف :

أغْنَى الكلامَ عن المقَاطِعِ واللُّغَى ... بَثُّ الحزين وفرحةُ الجذلانِ

وهو يقرن بين المعرفة والموسيقى :

مُعلمـةَ الإنسـانِ ما ليس يعلَمُ — وقائلةً ما لا يَبـوح بِـهِ الفَـمُ
أعيدِى علىَّ القولَ أنصت وأستمع — حديثـاً له فى نَوْطَةِ القلبِ ميسَمُ
حـديثــاً يناغِينِى وأذكـرُ أننى — تَسمَّعتُه والقَلْب وسْنان يحلُـم
وأوغِـل بالذكـرَى فأزعُم أنـــه — قَديمٌ كعهْد القلبِ أو هو أقـدَم
أعيدِى علىَّ الصوتَ أنظر لعلنى — أرى فى ثَنايا اللَّحـنِ ما يُتوسَّم
ويا رُبَّ وجهٍ يطرق السمَع حسْنُه — إذا غنَّتِ الأوتـارُ أو يَتنسَّمُ

والجمال والفن جوهرهما عند العقاد ، **الصدق** . . . إن مقياس العمل الفنى ليس العرق كالأعمال اليدوية وحتى هذه ليس العرق وحده مقياسها فقد يعرق المرء لأنه يعمل خطأ . . ولكن المقياس أن يكون العمل إنسانيًّا أى مترعاً ببشرية العامل وحبه له ، وأن يكون الفن صادقاً وأميناً منبثقاً فى لحظة خلوص . . . والخلوص نقطة لا ترى . . . نقطة تلاقى الكيان الإنسانى بمذخوره ، مجمعاً : فى سن القلم أو الريشة عند ملامستها للصفحة أو اللوحة .

هنا يكون الفن عطاء قلب . . وفيوض روح . .

والفنان الصادق عند العقاد رؤية جديدة للحقيقة . . . كشف لها فى داخل نفسه وخارجها . . . فهو يتفتح بالبصيرة النافذة ، للحقيقة حوله وفى أعماق نفسه . حتى الصورة الفوتوغرافية محكومة برؤية المصور نفسه .

ورؤية العقاد لكثير من أعمال الفنون التشكيلية وكتابته عنها ونقده التطبيقى لها ، رؤية بصيرية ، وكتابه (**ساعات بين الكتب**) هو فى

الحقيقة أيام بين المعارض والمتاحف أيضاً ، كما أن بيته ليس مكتبة أدبية ضخمة فحسب ، ولكنه بيت يضم مع المكتبة مجموعة موسيقية عظيمة ومجموعة لوحات تتقدمها لوحة (أنس الوجود) للفنان هدايت،ولوحات من فن فنانينا شعبان زكي ولبيب تادرس ومحمد حسن حتى ليقول الفنان الأستاذ بدر الدين أبو غازى :

(ليس من جيل العقاد مفكر أو أديب مثله عكست كتاباته اهتماماته بالفنون وأفصحت منذ البدء عن وجهة نظر بل عن يقين فى ضرورة الفن للمجتمع ، وعن مدلول الفن الجميل فى نظره : ومصاحبة العقاد فى كتاباته تطلعنا على منهج متماسك فى النظر إلى الأعمال الفنية . ويصدر عن خلفية فلسفية لمعنى الجمال عنده . ويقدم أمثلة تطبيقية تشير إلى ذوقه ومطالبه من العمل الفنى : ويحدد مدارس وأعمالاً يؤثرها بحبه) .

لقد نقد العقاد ١٩٢١ النموذج الأول لتمثال نهضة مصر وأخذ على الفنان محمود مختار ما فى أبى الهول فى النموذج من ملامح بطلمية . .

وقد وقع هذا النقد من الفنان المثال مختار موقع الأهمية العلمية لصحته ودقته فأخذ به وأخرج أبا الهول ، على هدى رأى العقاد ، فى صورة مصرية فرعونية .

والعقاد الفنان داخله مملوء النفس بمجالى الطبيعة ونداءاتها فهو :

كلما أشرقَ فى الليلِ القَمرْ
وسها الناسُ ولاذُوا بالحُجَرْ
خِلت أرواحاً تداعَتْ للسَّمرْ
زُمَراً تهمِس من حول زُمَــرْ

أن هذا الحُسْنَ لا يمضِى هَدَرْ
حينما أسْفَـر نورُ وانتشـــرْ

(ديوان وحى الأربعين)

فى النور يحلو فى عينه . . عين الفنان كل شىء :

فى الليلةِ القَمْراء ما أحْلَى النُّظـر   لكل شَىْءٍ لاحَ فى ضوءِ القمـر
حتى الثَّرى ، حتى الحَصى ، حتى الحجر

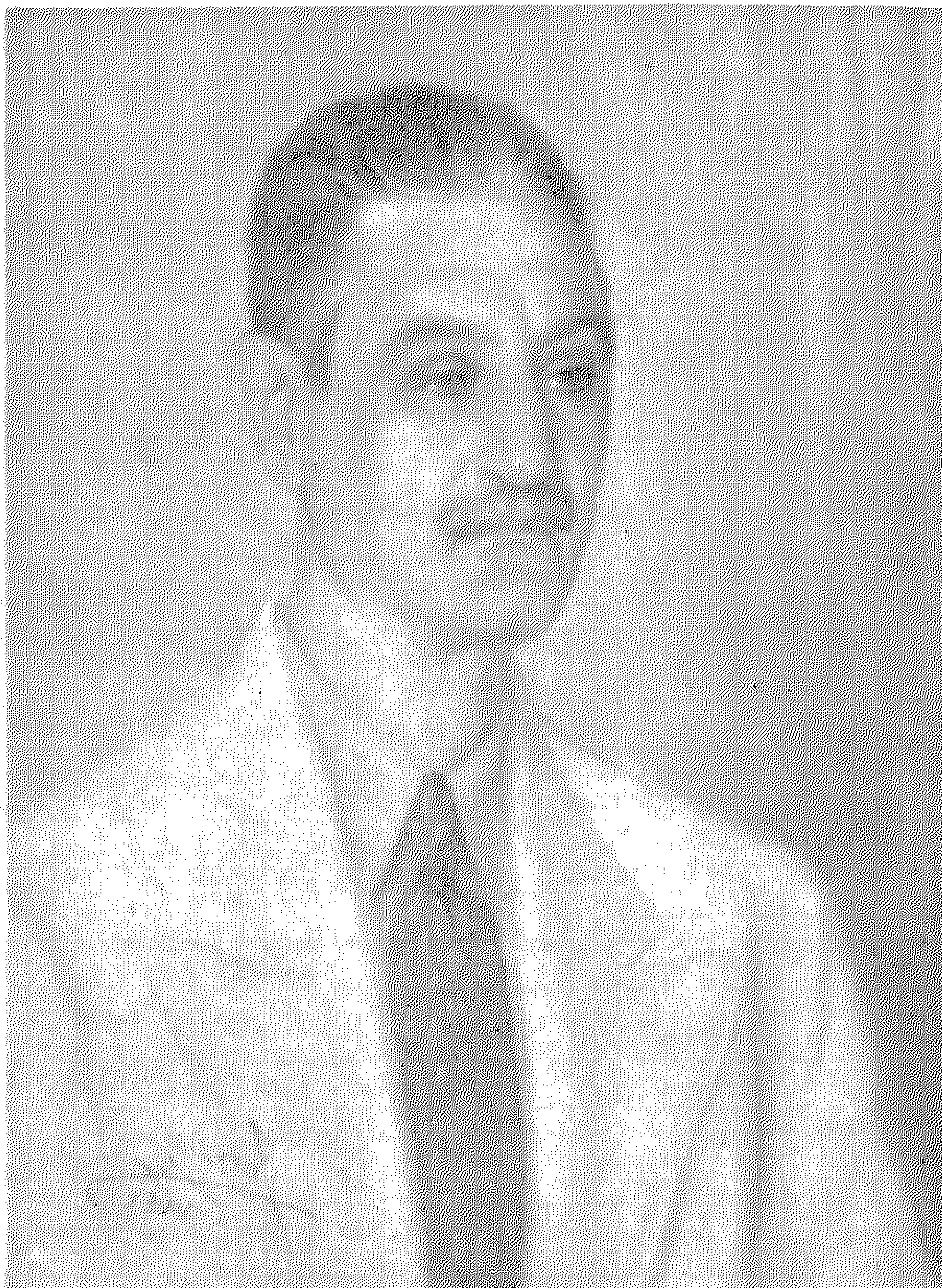
فإذا تنفس الصبح تهلل العقاد وهلل للنور . للحياة :

صَفْحةُ الجوِّ على النَّزْر   قاء كالخَـدِّ الصَّقيلِ
لمعـةُ الشَّمسِ كعيْنٍ   لمعَتْ نحـوَ خليـلِ
رجفَـةُ الزهْرِ كجسْمٍ   هـزَّه الشوْقُ الدَّخيـل
حيث يَمَّمتَ مـروج   وعلى البعـدِ نخيـل
قل ولا تَحفِـل بشىء   إنمـا العَيْشُ جَميـل

(إنما العيش جميل) وهو الذى لاقى فيه أهوالاً . ولكنه الفنان فيه الذى يحس (رجفة) الزهر و (هزة الشوق الدخيل) . إنه الفنان فيه الذى يسعده أبسط الأشياء فى أعين الناس وإن كانت أكبرها فى عينه هـو . . . .

حتى سهولة الكلمات فى هذه الأبيات تنم على نفس راضية منبسطة متطلقة ، فى ذلك الوقت على الأقل ، هذه البساطة تكاد تجعل الأبيات على غزارة مشاعرها عفوية . . . بريئة ، طفلة . . .

إنه العقاد الذى يرق هذه الرقة كلها فى الشعر وهو نفسه العقاد



الذى اشتغل بالسياسة على أنها قضية حرية . وفى سبيل هذه الحرية الوطنية فجر قنبلتين فى البرلمان فى ٢٣ يونية عام ١٩٣٠ مهدداً الملك فؤاد بتحطيم الرأس الذى يعتدى على الدستور ؛ فإذا بالوفد حزب العقاد تأخذه المفاجأة المدوية كالقصر سواء بسواء بل كان العقاد أحياناً يتعمد تصعيد الهجوم حتى لا يترك للوفد وهو حزبه طريقاً للمهادنة أو المساومة .

وكانت صيحة العقاد علامة كبيرة نبذت الأحزاب خلافاتها على أثرها لتلتقى على طريق الدستور تعيده إلى البلاد .

وسرت اليقظة فى الحياة المصرية فظهر الفدائيون وسمع للمتفجرات دوى كأنه تجديد لدوى الكلمة المجلجلة . . .

وسارت المظاهرات .

وأسرّها القصر للعقاد . . . بل إن المعتدلين من نواب حزب الوفد استنكروا جرأته ! حتى رئيس الوفد لم يكن راضياً !

رئيس آخر كان راضياً وملبياً ذلك هو الشعب .

كان العقاد على بسطة الجسم وفراهة الطول ، ضعيف البنية ، ضعيف الصدر خاصة ، يتوقى البرد والحر ويتحرى ما يأكل وما يدع . . . ومع هذا استقبل الحكم عليه بالسجن ثابتاً من وثوق ، واثقاً من إيمان بالله والرأى والوطن .

ودخل السجن وهو يعرف ما ينتظره فيه من تهديد لحياته ، مرفوع الرأس . وخرج منه مرفوع الرأس رفيع التصميم . . .

لم تهدأ له ثورة داخل القضبان . . وحين انتهت المدة خرج من

السجن ليقول بيتيه العتيدين :

وكنت جَنِينَ السِّجن تسعةَ أشهرٍ   وهأنذا فى ساحة الخُلْد أُولـــد
عِداتِى وصحْبِى لا اختلافَ عليهمُو   سيغْهدُنى كلٌّ كما كان يَعهَـــد

لجأ القصر إلى المصانعة فعرض عليه أن يكون مدير الإدارة العربية فرفض .

عرض عليه العارضون منصب مدير دار الكتب فرفض .

ويرتقى العرض فيما بعد إلى منصب مدير الجامعة فرفض !

وفى وزارة الائتلاف الدستورى تعرض عليه الوزارة فيرفض .

لم يستهوه منصب أو جاه أو منفعة فقد أسقط هذا كله من حسابه مع كثرة ما عرض عليه منه . . . إنه لا يريد لأحد عنده من نعمة تُجزى حتى الوفد ثار عليه حين أنكر منه ما لا يرضيه . . . لهذا لم يدع استبداداً فى أى صورة من الصور إلا حمل عليه مستجيباً لنداء الكرامة والفكر معاً . . .

إنها رسالة الكاتب عرف الأمانة فيها ، وشرف الكلمة والرأى والضمير . . (عباس محمود العقاد) .

لو أن العقاد بتركيبته هذه ، جاء بعد القرن العشرين أى بعد أن فرغنا من عملية نفض الركام – فى الأدب والسياسة على السواء – وإرساء قواعد النهضة والتطلع إلى الغرب ثم اللحاق به وما يجرى هذا المجرى فى الميادين الأخرى من مصاولات أدبية وتيارات فكرية . . إلخ لو جاء العقاد بعد مرحلته التاريخية التى شدته إليها وغمسته فيها بحكم منطقها . . . لو عاش متخففاً من هذا كله لأعطى العقاد عطاءه كاملاً بلا تشتيت أو تفتيت فى النفس والجهد . . . فعند العقاد من الأصالة

والفحولة الفكرية ما يعطى معه على الصعيد العالمى .

ولكن لعل هذه المرحلة التاريخية من حياة وطنه هى التى أصّلت دوره فى حياتنا الفكرية بما أصّله من معان ومضامين وإرساء قواعد وأفكار .

إن الدكتور (طه حسين) أستاذ أدب .

أستاذ جامعة ورجل دولة .

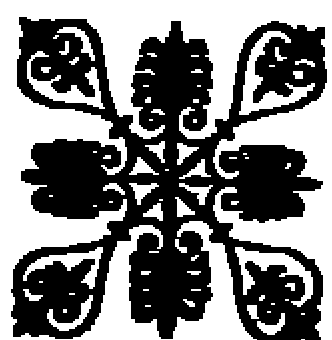
أستاذ يشرح ويفصل ويطوف ويربط وينقد ويعرض . . . ويستوزر ويحكم ويتمتع بهالات وشيات .

الدكتور طه حسين بهذا كله أستاذ أدب ورجل دولة .

ولكن العقاد رجل فكر وراهب صومعة .

البابُ الثانى

الشخصيّة الإنسانية



الفصل الأول

عبقريات العقاد

الكتابة عن العبقرية والبطولة أو العباقرة والأبطال خط واضح مميز فى أدب **العقاد** . وهذا الخط له أهمية خاصة عند الدارسين،فهو عنوان تندرج تحته عناوين كبيرة من حيث الموضوع والدلالة . فالشخصيات الإنسانية التى كتب عنها العقاد منها ما هو أدخل فى فن التراجم ومنها ما هو مزيجٌ فنى بين الترجمة والدراسة الأدبية . وهى فى الحالين وعلى أى الصورتين مفتاح من مفاتيح نفسه هو ، وشخصيته هو ، بل لعلها أهمها جميعاً وأقربها إلى دخول عالمه . . . الأدبي والإنسانى .

وليست الشخصيات التى كتب عنها العقاد كلها من طراز واحد هو طراز العبقرية والتفرد المميز أو الامتياز الفرد ، فقد كتب العقاد عن عمر ابن الخطاب ، وعن عمر بن أبى ربيعة ، بل ظهر كتاباه عنهما فى وقت واحد . ابن الخطاب بما فى شخصيته الرائعة من مذخورات للكتابة وموضوعات للقلم ، وابن أبى ربيعة . . يحسن بي أن أترك الميدان لفارسه ، يقول الأستاذ العقاد : (ابن أبى ربيعة ولا ريب ظاهرة أدبية ، وظاهرة نفسية قليلة النظير فى الآداب العربية ، وحقه فى الدراسة كحق جميع الشعراء المعروفين بهبة الفن وصدق التعبير . . وإنه لفى الطليعة الملحوظة من هؤلاء)(١)

---

(١) ص ٧ شاعر الغزل .

أما كون ابن أبى ربيعة شعره كله غزل وديوانه كله رسائل غرام فلا يثير دهشة عند العقاد : (لأنه كان يعبر عن حاجة من حاجات عصره تتسع للدواوين)[١].

فابن أبى ربيعة يستحق الكتابة بما يمثل من حقيقة عصره : (وإن لم يكن أفضل شعرائه نظماً ولا أبرعهم قصيداً ولا أقدرهم صناعة ، على إجادته الموفقة فى أبيات ومقطوعات)[٢].

كما كان فى شعره يمثل حياته هو أصدق تمثيل (وإن أصدق الشعراء فنا وحياة لمن تعرفه بديوانه وتعرفه لديوانه)

وكتب الأستاذ العقاد عن النواسى بما هو (شخصية) يعرفها المتأدبون والقارئون والأميون على سواء بينهم وإن تفاوتوا بعد هذا فى ناحيته الفنية .

(شخصية تحجب حقيقتها – على الشهرة والذيوع – أغطية كثيرة جعلت دراستها النفسية ودراستها التاريخية موضوعاً يستحق الكتابة بما يبرز من هذه الحقيقة من وراء تلك الأغطية المضللة . وحسب الكتابة أن تمحص حقًّا وتدحض باطلاً وإن كان (موضوع) الحقيقة شخصية مأمونة كأبى نواس الذى لا يشفع له إلا عزو آفته إلى الضعف والشعور المغلوب لا إلى الشر والأذى)[٣].

ولئن كان حبه مشوباً بشهواته لقد كان لمحاسن الدنيا حب مطبوع

---

(١) ص ٢٩ شاعر الغزل .

(٢) ص ٦٢ « «

(٣) ص ٧ « «

فى وجدانه وذوقه ، وكان له فى تلك المحاسن كما يقول العقاد وصف يكسو الحياة زينة ويصقل ما اخشوشن من شدائدها وأكدارها على نفوس الأحياء.

ويتساءل العقاد فى عطف ظاهر على الضعف الإنسانى :

(هل زادت عيوب أبى نواس مقدار الرذيلة فى الدنيا . إن المقدار ليختلف هنا مع المقدارين ، ولكنهم لا يختلفون فيما زاده من ثروة النفس والبيان) [١].

* * *

دراسة العقاد لطرز مختلفة من الشخصيات فيه لون من المقابلة يعمد إليها لأنها فى نظره وتقديره (أنفع الدراسات النفسية ' فهى دراسة نافعة لفهم حقيقة الإنسان وفهم حقيقة الجماعات ، ونافعة لكل من يعنيه أن يحسن تقدير الأعمال الكبرى والدعوات الشاملة . . ونافعة لمتعة العقل وتوسيع آفاقه) [٢].

لقد تناول العقاد أنماطاً مختلفة من الشخصية وترجم لهذه الأنماط كلها بل ترجم العقاد للشيطان . ويبدو أن الشيطان أعدته مثاليات العقاد فكفر بالشر ، وظفر بالعفو وإن كان هذا لم يدم طويلاً إذ غلب الطبع التطبع ، فاستكبر وعصى فاستحال حجراً ولكنه الحجر الذى يفتن العقول والألباب من خلال الصور والتماثيل الذى يتشكل فيها .

ليس الشعر وحده من وادى عبقر ولكن الفن التشكيلى أيضاً .

---

(١) ص ١٩٧ أبو نواس الحسن بن هانى .

(٢) ص ١٨٣ » » » » » »

وقصيدة (ترجمة شيطان) فجرت فى الأدب العربى آراء ومواقف لعل أبرزها وأظرفها موقف الدكتور طه حسين فقد قال عنها : (. . . قصيدة لن ينقضى إعجابى بها . وقد أقرؤها عشرين مرة أو ثلاثين . . . والسبب فى ذلك أني أجد فيها كلمات قرأتها معنى جديداً ، أو معانى جديدة . ثم هذه الطرافة المدهشة . وتستطيعون أن تبحثوا عن مثلها فى الشعر القديم فلن تجدوا لها شبيهاً) ومن أجلها قال : (ضعوا لواء الشعر فى يد العقاد وقولوا للأدباء والشعراء : أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه) .

وتهامس الخبثاء إنه يخلع عليه إمارة الشعر لتخلو له إمارة النثر .

وما كان العقاد أو طه حسين فى حاجة إلى التقسيم أو المقايضة الأدبية فإن تصدرهما لدولة الأدب يغنى فيه الواقع عن التنصيب والتلقيب .

ومن الطريف أن الدكتور طه حسين على إثر محاولات نقدية بينهما ، أنكر أنه بايع العقاد بإمارة الشعراء ! فى مقال له بجريدة الجمهورية .

* * *

ما هو الخط الرابط بين النماذج المختلفة التى قدمها لنا العقاد ؟ لقد تناول ألواناً مختلفة من الموضوعات بينها من التباين ما بين فلسفة هيوم ومجون أبى نواس .

والعقاد لم يلتزم منهجاً واحداً فى كتاباته اللهم إلا إذا استثنينا عبقرياته الإسلامية فهى تكاد تكون ذات طابع واحد .

ما هذه الأنماط . . ما هى ؟

ما هذه المناهج ؟

ما هذه الموضوعات ؟

ثم ما هى القيم الفنية والإنسانية التى تعطيها ؟

ما هى الدلالات الكامنة فيها ؟

أسئلة يحاول هذا الكتاب أن يجيب عنها . . وأن يوفيها . .

تكلم العقاد عن سمو الإنسان فى محمد الرسول ، والمسيح ، وأبى بكر الصديق ، وغاندى ، والشيخ محمد عبده وعن عبقريته فى عمر ،وعن شاعريته فى عمر بن أبى ربيعة وجميل بثينة ، وعن إبداعه فى شكسبير وبرناردشو وجيته ، وعن طاقاته الخالقة والفائقة فى ابن سينا وابن رشد ، وعن علمه فى فرانسيس بيكون . وعن ملكات القيادة فيه . . فى سعد زغلول ومحمد على جناح ، وبنيامين فرانكلين .

كل فى مجاله، شخصية . . والشخصية فى فكر العقاد وأدبه قمة الوجود الإنسانى . . تكامل الكيان البشرى نحو قيمة جديدة . . . وينطبق هذا عنده على الأمم كالأفراد . . . فالشخصية بالنسبة إلى الأمم خلق حضارى كالذى فعلته مصر والهند والصين فى العالم القديم .

طريق طويل أو عوالم شتى . . يضل فيها بلا مراء من لا يعرف كلمة السر . . أو سر الكلمة . . الكلمة التى قالها العقاد فى كل واحد من هؤلاء .

هذا السر هو تقديسه للفرد وتقديسه للذاتية ، ذلك التقديس الذى يقف وراء الكثير من آرائه وكتاباته ، ولعله مفتاح أشياء كثيرة عنده . . فتمجيده للديمقراطية التى تكفل حرية الفرد وأهم ما فيها عنده : (أن

يشعر كل فرد ، وكل فريق بأنه صاحب رأى فى حكومة بلاده وبغير ذلك لا تتحقق لها مزية) فالديمقراطية بلغته الحاسمة الحتمية : (إما أن تكون ثقة شعبية أو لا تكون شيئاً) وحيثيات هذا الحكم العقادى يفصله تفصيلاً كتابه : (الحكم المطلق فى القرن العشرين) .

وحربه الشيوعية إذ يستحق كما يقول فى كتابه (أفيون الشعب) أن يسمى مذهباً هداماً كل مذهب يقضى على جهود الإنسانية فى تاريخها القديم والحديث ، ولا سيما الجهود التى بذلها الإنسان للارتفاع بنفسه من الإباحية الحيوانية إلى مرتبة المخلوق الذى يعرف حرية الفكر وحرية الضمير .

ثم ثورته على الشعر العربى التقليدى ومعظمه مدح بل إغراق فى المديح والتبعية يمسخ شخصية الشاعر ويذيبها فى شخص ممدوحه وهدر القيم الفنية فى أثناء هذا لأن الفن عند هؤلاء وسيلة لا غاية . .

وتقديره (العبقريات) أى التفرد أى الامتياز الخاص ومقاييسه الفنية . . بل إن الإسلام نفسه لم يأت تفضيله له إلا باعتباره العقيدة المثلى للإنسان منفرداً أو مجتمعاً ، وعاملاً لروحه أو عاملاً لجسده ، وناظراً إلى دنياه أو ناظراً إلى آخرته ، ومسالماً أو محارباً ، ومعطياً حق نفسه أو معطياً حق حاكمه وحكومته . . أى أن شمول العقيدة فى ظواهرها الفردية وظواهرها الاجتماعية مما فصله فى كتابه (الإسلام فى القرن العشرين) ، هو المزية الخاصة فى العقيدة الإسلامية ، وهو المزية التى توحى إلى الإنسان أنه (كل) شامل فيستريح من فصام العقائد التى تشطر السريرة شطرين

ثم تعيا بالجمع بين الشطرين على وفاق .

والقرآن كتاب الإسلام من مزاياه الواضحة الجديرة بالاعتبار مزية (**التنويه بالعقل والتعويل عليه فى أمر العقيدة وأمر التبعية والتكليف**) . والتفكير فريضة إسلامية أى الذاتية أى احترام الإنسان .

وحين يكون العمل بالعقل أمراً من أوامر الخالق يمتنع على المخلوق أن يعطل عقله مرضاة لمخلوق مثله ، أو خوفاً منه ، ولو كان هذا المخلوق جمهرة من الخلق تحيط بالجماعات وتتعاقب مع الأجيال) .

كل هذه الخطوط الكبيرة فى شخصية العملاق الذى سافر إلى أسوان ، تنبع من حقيقة كبرى تملأ عليه نفسه وهى **تقديس الإنسان** . . وتقديسه للذاتية هو الذى جعله يرفض تعريف ابن خلكان لشاعره الأثير ابن الرومى ، مع ما فى ظاهر هذا التعريف من مدح بالغ فى رأى كل عين إلا عين العقاد . أما النظم العجيب والتولد الغريب والغوص على المعانى النادرة واستخراجها من مكامنها وإبرازها فى أحسن صورة ، واستيفاء المعنى حتى لا يبقى فيه بقية . كل هذا مما يبهر القارىء ، يراه العقاد ناقصاً بل الناقص فيه هو المهم وهو الأجدر بالتنويه كما يقول . فالغوص على المعانى . . إلخ لهو لعب فارغ كلعب الحواة المشعوذين إنْ لم يكن صاحبه صادق التعبير مطبوع التمثيل والتصوير ، إذ **المزية الكبرى للشاعر إنما هى الطبيعة الفنية** (هى تلك الطبيعة التى تجعل فن الشاعر جزءاً من حياته أيًّا كانت هذه الحياة من الكبر أو الصغر ، ومن الثروة أو الفاقة ، ومن الألفة أو الشذوذ . وتمام هذه الطبيعة أن تكون حياة الشاعر

وفنه شيئاً واحداً لا ينفصل فيه الإنسان الحى من الإنسان الناظم ، وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره وموضوع شعره هو موضوع حياته ، فديوانه هو ترجمة باطنية لنفسه يخفى فيها ذكر الأماكن والأزمان ، ولا يخفى فيها ذكر خلجة ولا هاجسة مما تتألف منه حياة الإنسان) .

والشعر الجيد يساوى عنده الطبيعة الفنية (أما المعاني والتوليدات فهى وسائل إلى غاية لا قيمة لها فيما تؤديه وتنتهى إليه ، ويستوى بعد ذلك من أدى إليك سريرة نفسه بتوليد وإغراب ومن أداها إليك بكلام لا إغراب فيه ولا توليد) .

فالشعر من الشاعر هو إهابه الموصول بعروق جسمه المنسوج من لحمه ودمه ، وليس لباساً للزينة فى مواسم الأيام ولا لباساً يلبسه للابتذال فى عامة الأيام .

* * *

حتى الصحافة لم تستطع أن تجنى عليه جنايتها على الأدباء ، فظل أسلوبه له طابعه الذى لا يتغير ، طابع الدراسة والاستقصاء والتمحيص ، وهذا صدى لفرديته واعتزازه بذاته حتى لتغلب شخصيته فلا تطغى عليها شخصية أخرى فردية أو معنوية . . **إن الصحافة تغلب بالكثرة وهو معتكف متعال متفرد .**

ومما يتصل بصفة (الذاتية) عند العقاد ، **إيمانه بالإنسان** . فالعقاد الكاتب السياسى الذى هز الوزارات والعروش كان لا يرى رأى من يبررون القتل السياسى . وكان يأخذ على الشيخ جمال الدين الأفغاني أنه أوعز

بقتل الشاه . روى لى مرة أنه شاهد فيلماً يقضم فيه (Attila) زور عدوه فتقزز من المنظر حتى لم ينم ليلته ، فلما وقعت حادثة دنشواى هزته هزاً عنيفاً تضاءلت معه بشاعة هذا الحادث حتى خيل إليه أن إنجلترا لو تجسمت له لقضم زورها كما فعل (Attila) تماماً . لقد كان وقت الحادث فى أسوان حين طلعت عليهم اللواء بهذا العنوان (يا دافع البلاء) والتفوا حول الجريدة أربعة يقرءون فأغمى على أحدهم وانخرط الباقون فى البكاء . لقد سمعته يقول إن دنشواى أصابته بصدمة لم تتكرر فى حياته . ومع أنها حادثة فردية وهناك من الحوادث القومية ما هو أضخم منها ولكنها ، من الناحية الإنسانية ، كانت تثيره وتفزعه وكان يتناولها بمنطقه المعهود وعقله الثاقب فيرى أن الاعتزاز بالقوة إلى حد الاستباحة . . استباحة كل شىء يجرح كرامة الإنسان . وكان العقاد مؤمناً بالإنسان إيماناً يبلغ حد التطرف والمغالاة من حفاظ على الكرامة والشخصية جعله يغضب من التلويح البعيد غضبة إنسان آخر مما يجرح أو يسوء .

كان العقاد يتمنى على لودفج فى كتابه عن نابليون ألا يستطرد فى أسلوبه بتلك السهولة وذلك الانسجام ، وأن يعمد إلى التركيز من حين إلى حين (ليستوقف السياق المألوف ويطلع قراءه على مواضع الغرابة والتقديس فى البطل الممتاز كما أطلعهم على شئونه التى تجرى فى الحياة مجرى العادة والعرف المشاع)[1] .

وحجته فى هذا أن (العرف المألوف لا يستفز القدوة ولا ينصف

---

(١) ساعات بين الكتب ج ٢ ص ١٤٥ .

العظمة ولا يبعث الشوق إلى المعرفة . فإبراز جوانب الغرابة والتنويه بها هو الأساس فى تراجم الأفذاذ الذين ما كانوا أفذاذاً إلا لأنهم غرباء يختلفون عن سواد الناس) (١) .

الذاتية والشخصية الإنسانية هى محور تقديره وتفكيره . من أصالة ذاته هو وقوة شخصيته هو .

والعقاد أحب صفاته إليه : الشاعر . ولكل شاعر شيطان يسكن وادى عبقر — هكذا يقول العرب — وقد ترجم العقاد للشيطان . وحتى هذا يرى الأستاذ عبد الرحمن صدقى أن (الشيطان الذى أحياه العقاد ، وأماته ، وصور لنا حياته هذا التصوير البديع ، **إنما هو شيطان العقاد وشعره** . . . وهذه النفس الطامحة التى لا حد لآمالها . . هذه النفس التى لا يرضيها شىء ولا تستريح ولا تطمئن إلى شىء ولا ترضى إلا لتسخط ولا تستقر إلا لتتحرك حركة لا حد لها ، حتى إذا خرجت من الحياة وانتهى عهدها بالوجود ، فإن آثارها لا تزال قائمة تعمل فى النفوس وتغريها وتبعث فيها الحركة ، وإن كان الشيطان قد استحال إلى رماد فى القبر ، هذا الشيطان هو سحر صاحب الفن . والذى نلحظه فى كل أثر من آثار العقاد أو الشعراء النابهين أمثال العقاد) .

لقد كتب العقاد عن « الذاتية الإنسانية » فى مجال تفردها بما فيه

---

(١) ساعات بين الكتب جـ ٢ ص ١٤٦ . .

هو من التفرد والامتياز وكانه يرى نفسه من خلالها أو يرى نفسه من خلال .

* * *

وهو بكتابته عن شخصية من الشخصيات فذلك علامة تحذير لأنها علامة طريق .

فابن رشد موضوع للكتابة بمكانته فى تاريخ الفكر الإنسانى إذ هو شارح المعلم الأول أرسطو وأكبر الفلاسفة الشراح أثراً فى الغرب من القرن الثالث عشر إلى القرن العشرين .

وهو موضوع للكتابة بمشاركاته فى الفكر والفلسفة والطب والفقه وما يتخللها من معارف ، موزعة كالعلم الطبيعى وما إليه فى زمانه .

وهو موضوع للكتابة بما رزقه من أنصار ومعجبين من أصحاب الأديان الثلاثة ممن لم يرزق مثله فيلسوف قبله ولا بعده . وهو هو الذى كان له مصادرون ومضطهدون من أتباع كل دين ، وخدام كل سلطان . ولو أن المصادرين عملوا قصداً وعمداً على نشر آرائه وشروحه لفاتهم بعض النجاح وأخطأهم بعض التدبير كما يقول العقاد .

وابن رشد موضوع للكتابة بما رزق من بعد الأثر واتساع مداه ، وبما رزقه من قوة الأثر وعمق البحث فيه وشدة الخلاف عليه . وبين هذين فروق يفصلها العقاد (فربما كان بعد الأثر واتساع مداه مسألة مسافات وأبعاد ، ولكن قوة الأثر وعمق البحث فيه وشدة الخلاف عليه شىء آخر يقاس بدوافع الحياة والحركة النفسية ولا يقاس بالسنين والأمكنة .

هو شىء فى آفاق النفوس والعقول ، وليس فى آفاق الفضاء أو صفحات

الأوراق ، وقد رزق ابن رشد من هذا الحظ النادر أوفى نصيب ، فما ظهرت فلسفته فى مكان إلا انتصب فيه ميدان كفاح ، وكان الكفاح عنيفاً والاستبسال فيه من الجانبين على غايته فى مجال الرأى والعقيدة .

ففى أوربا لم تنقطع المناقشة فى الفلسفة الرشدية من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر ، ثم كان لها استئناف فى القرن التاسع عشر على يد المؤرخ الباحث أرنست رينان (١٨٢٣–١٨٩٢م) صاحب كتاب حياة المسيح ، وكتاب ابن رشد والرشدية وغيرهما من كتب البحث والتاريخ .

وشملت المعركة معسكر اللاهوت المسيحى ، ومعسكر اللاهوت الإسرائيلى فى وقت واحد ، حيثيات للشخصية كحيثيات الحكم سواء بسواء) .

وكتب العقاد عن محمد عبده ، إذ رآه (ينبوع قوة روحانية تطوى عوارض الزمن وصغائر الدنيا فيما تفيض به من حياة إنسانية ، يخلص لنا منها – بعد تمحيص الجوهر – عن نفايات الأوشاب والأخلاط–أشرف ما تتحلى به نفس الإنسان : فى العالم الخالد الذى يذهب بالزبد ويبقى ما ينفع الناس) .

كتب عنه إذ رآه (صورة يلتفت إليها طلاب القدوة الحسنة من أبناء هذا الجيل ، فيجدون أمام أعينهم – محمد عبده – إماماً هو أولى أئمة العصر ، أن يأتم به المقتدى فيما اضطلع من أمانة العقيدة وأمانة الفكر ، وأمانة الخير ، وأمانة الحق ، وأمانة الإخلاص للخلق والخالق ، فى كل ما يتولاه الإنسان – الجدير باسم الإنسان – من نية وعمل ، ومن سر وعلانية)(١).

---

(١) كتاب محمد عبده .

ومن شخصيات العقاد خوالد ، فى أعمالها من القيمة الباقية ما لا ينقضى بانقضاء فترة من فترات الثقافة الإنسانية أو الثقافة الأوربية مثل فرنسيس باكون .

واستحق ابن الرومى منه ما كتبه عنه بمزية (التفرد) بين شعراء عصره . فهو بينهم الشاعر الذى امتزج فنه بحياته أو انعكست حياته فى شعره وتلك هى الطبيعة الفنية التى لا غنى عنها للشاعر الحق ، والتى لا يكون الشاعر شاعراً إلا بها،أو بنصيب منها. وهى مزية يستحق ابن الرومى من أجلها عند العقاد أن يكتب فيه كتاب مع أن حياته بأيامها المجردة (لا تخرج لنا قصة نادرة بين قصص الواقع أو الخيال) .

ولكن هوانه على الناس لم يقعد به عند العقاد فعله عبقرياً نادراً بما ذخر به شعره من سمات حياته فكان (شاعراً فِي جميع حياته حيًّا فِي جميع شعره ، وإن الشعر كان لأناس غيره ، كساء عيد وحلة موسم ولكنه كان له كساء كل يوم وساعة بل كان له ، جسماً لا تكون بغيره حياة)[٢]

إن العقاد يعجبه التميز أمارة من أمارات الشخصية ولو كان هذا التميز فى أخص علائق الإنسان . وأنا هنا ألمح جميل بثينة الذى كتب عنه العقاد باعتباره (أستاذ المدرسة الغزلية التى تجرى على طريقته فى النسيب والتشبيب ، وهى مدرسة الشعراء المحبين الموكلين بمحبوبة واحدة

---

(١) ابن الرومى ص ٣٣٦ .

ينظمون الشعر فيها ولا ينظمونه فى غيرها، وقلما يطرقون باباً من النظم غير باب النسيب) .

بهذا استحق جميل شاعراً أن يكتب عنه العقاد .

قد تقول وما قيمة الغزل ليستحق صاحبه الكتابة والتاريخ ؟ وأقول قيمته أن الحب إذا صدق كما صدق من جميل له شأن كبير فى الحياة الإنسانية حتى ليعزو إليه رجال الاجتماع غير قليل من ألوان التطور فى حياة الإنسان . وما جميل صاحب الترجمة ، إلا (الإنسان حيث كان ، واحد فى كل زمان ومكان) .

ثم تبقى لجميل سمة أخرى هى فى الحقيقة سمة للعصر كله الذى عاش فيه فكان هو بشعره ممثلاً لها ودليلاً عليها تلك السمة هى شيوع الغزل وأحاديث الغزل ومواقف الغزل فى بيئة الحجاز أو بيئة جميل حتى لا ينجو منها من عاش فيها ولو كان مطبوعاً على الجد والطموح كمصعب بن الزبير صاحب قصتى أم منظور والشعبى .

وهنا تكون الترجمة لجميل، « بعض تاريخ وصورة عصر » .

* * *

والعقاد يقسم النوابغ من أصحاب الرسالات والترجمات إلى فئتين :

(فئة تظهر فى أوانها لأن أسباب نجاحها تمهدت وتم لها النجاح قبل فوات ذلك الأوان . وفئة أخرى تظهر لأن الحاجة إليها قد بلغت غايتها ، وهى التى تظهر لتحقق تلك الحاجة التى تبحث عن صاحبها ، وله منها معين يذلل صعابها ويهدى إلى طريقها) .

* آية العبقرية عند العقاد سبق الرؤية فضلاً عن وضوحها فآية العبقرية أن (تلهم صاحبها ما يحسب اليوم كفراً ويحسب فى الغد حقيقة من حقائق الإيمان والحكمة ومصلحة من مصالح الواقع والعيان) (١) .

وأجدر عبقرية عنده بإعجاب وتشريف معاً عبقرية (**يلتقى فيها سداد الفكر بشجاعة الضمير**) (٢) .

وهذا يفسر قول العقاد بعبقرية الصديق وعمر والإمام فإنه فيما أحسب يريد بها فى هذا المقام بالذات ، الإلهام الربانى ووضوح الرؤية والتوقيعات فى الرأى ، والفطنة الواجبة وبلوغ هذا كله مجتمعاً ومتفرقاً غاية تثير الإعجاب عند من خبروها بالتجربة أو السماع . ولا يتجاوز الأمر هذا إلى ضلاعة العقول،أو فتوحات العلم،لأن عصرهم كانت حاجته أشد إلى نور الهدى،وخلق النفوس،وإشاعة قيم جديدة.وقد نجحوا فى هذا نجاحاً تحويلياً نقل قومهم من حال إلى حال يستحق من أجله أن يسمى(عبقرية)، لا سيما وأن نجاحهم له من المنكرين والجاحدين كفاء ما له من مؤيدين .

وقبل هذا كان محمد عبقرياً باللماثة التى تزكى السامع حين لا يخفى عليه أو عليها بواطن نفسه أوكوامن طباعه .

فقد كان عمرو بن العاص مغرى بالمال جمّاعاً له.وكان النبى عليه السلام (أدرى الناس بهذه الصفة فى عمرو بن العاص قبل أن يعرفه

(١) الكواكبى ص ١٨١ .

(٢) الكواكبى ص ١٨٣ .

المسلمون أو المشركون بطول المراس وتعاقب الأعمال والمساعى وتفتق المطامع والآمال ، فولاه الإمارة فى غزوة ذات السلاسل . وقال له وهو يعرضها عليه فى دماثة وفى حصافة معاً :

« إنى أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك وأرغب لك من المال رغبة صالحة » .

فأجابه عمرو ، وهو يشفق أن يظن النبى بإسلامه الظنون :

« يا رسول الله ، ما أسلمت من أجل المال ، بل أسلمت رغبة فى الإسلام » .

فهون عليه النبى ما خامره من الظن ، ودفع عنه وهمه وهو يقول له :

— « يا عمرو ، نعماً بالمال الصالح للمرء الصالح »(١) .

ولم يحتج العقاد إلى إعلان العبقرية مع ابن سينا الشيخ الرئيس الطبيب الأديب الفيلسوف الحكيم العالم . . العالم بالرياضيات والطبيعيات والموسيقى أيضاً (لأنه كان طبيب العصر غير مدافع فى الشرق كله ، ثم انتقلت تواليفه إلى الغرب فأصبح طبيب العالم بأسره زهاء أربعة قرون. ولم يشتهر أحد بهذه الصناعة مثل تلك الشهرة العالمية،بغير استثناء أحد، من أيام بقراط وجالينوس) .

* * *

أما من حيث المنهج — أو ، المناهج ، فى الحقيقة فقد نهج الأستاذ

---

(١) عمرو ، ص ٢٦ — ٢٧ .

العقاد مناهج متباينة وفقاً لما تقتضيه طبيعة كل شخصية ، وطبيعة دورها ، وأثره ، وامتداد هذا الأثر فى الزمان والمكان .

ومن هذا أن يضع الأستاذ العقاد الصورة فى إطار عصرها فحين يتكلم عن ابن رشد يرسم أولاً صورة للحركة العلمية فى نشأته ونضوجه ، ثم الحركة السياسية وتأثيرها فى الثقافة ، ثم الحركة الاجتماعية ، ثم أسرته .

وبعد هذه الصور أو هذه الخلفية الواسعة للصورة الرئيسية يتكلم عن ابن رشد : آثاره وفلسفته ، وأثر الفلسفة الرشدية ثم قوة هذا الأثر .

ومع ابن سينا استهل بحديث عن الدولة والفلسفة . . . الدولة السامانية بخراسان ثم عن موقف المتقدمين عليه من مشكلات الفلسفة (والمتقدمين عليه) هؤلاء يعنى بهم العقاد (أولئك الذين سبقوا ابن سينا إلى مثل موضوعاته وكان لهم أثر فى تفكيره واعتقاده) .

ثم تكلم العقاد عن حلول الفلسفة وأشهر أصحاب هذه الحلول فتكلم عن أفلاطون وأرسطو وأفلوطين ، والفارابى أو الفلاسفة المسلمين الذين تتلمذ لهم ابن سينا نوعاً من التلمذة .

أولئك أسلاف ابن سينا الفكريون.وبين مذهبه وبين كل واحد منهم مقاربة ملحوظة فى بعض الأمور (فهو يقارب الفارابى فى التوقيعات الدينية ويقارب فرفريوس والأفروديسى فى الرموز الصوفية ، ويقارب أرسطو فى التفكير المنطقى ، ويقارب أفلاطون فى النزعة الفنية)[١] .

---

(١) ص ٨٧ .

ثم يمضى العقاد يفصل هذا تفصيلاً يقف وراءه علمه الموسوعى .

ولكن المقاربة بين مذهب ابن سينا وبين أسلافه لا تدل (على أنه كان متقيداً بمذهب أستاذ أو أكثر من أستاذ من هؤلاء الأسلاف الفكريين والروحيين ؛ لأنه كان يعارضهم كما كان يجاريهم ويوافقهم . وكانت أكثر معارضاته لهم فيما بينهم وبين الدين من خلاف ، فلم يكن لمذهبه الفلسفى من حدود غير العقيدة الدينية وهى صحيحة عنده فى جوهرها الأصيل لا خلاف بينها وبين القضايا العقلية فى غير الظواهر والعروض)(١) .

ثم خلص العقاد بعد هذا للحلول التى ارتآها ابن سينا لمشكلات الفلسفة الإلهية وهى العالم ، والنفس ، والخير والشر ، والحرية الإنسانية .

ثم تكلم العقاد عن (عقيدة الفيلسوف) . .

تكلم عن ابن سينا الطبيب .

وابن سينا الأديب . . .

وابن سينا ذى الشخصية الجامعة .

إذن،العظيم للبيئة والوراثة دخل فيه وإن لم يكن كل شىء أو أكبر شىء .

بل إن العظمة أو العبقرية فى مفهوم العقاد هى شخصية فذة متميزة بالتفرد الفوق . . شخصية فعالة بذاتها وقدراتها فى عصرها وغالباً يمتد قوة أثرها إلى عصور قريبة أو بعيدة . . . تغيب هى ويبقى الأثر .

وابن سينا بعد هذا عند العقاد (موسوعة حية وعبقرية ملهمة وعقل

---

(١) ص ٨٦ .

فعال لأنه فعل فى مجال الثقافة الإنسانية قصارى ما تفعله العقول)[١].

أما الفارابى فقد قدم بين يدى الموضوع بمقدمة عن تيارات الفكر العربى واتجاهاته من العصر الجاهلى إلى منتصف القرن الرابع الهجرى وهو الوقت الذى وجد فيه الفارابى .

ثم عرف به وبنسبه ونسبته وبعدها اتجه مباشرة إلى مؤلفات الفارابى ليخصها بتفصيل . فالعقاد غير ملتزم خطًا جامداً لا يتحرك بل إنه يكيف الشخصية وفق ملابساتها الخاصة حتى لتحس معها ومعه أن، كلا، له طابعه الخاص كشأنه فى الحياة .

وفى كتاب التعريف بشكسبير تناول :

عصر شكسبير – الشعر والمسرح – أسرة شكسبير . . .

الرجل – الفنان – المؤلف – الشاعر – الخصائص والمزايا – مصادر الروايات – نسبة الروايات – تراث عالمى .

وأحياناً يؤرخ العقاد بين يدى الترجمة للمدينة مربى الشخصية ومهبط رأسها كما صنع مع عبد الرحمن الكواكبى .

والعقاد بين يدى الترجمة كثيراً ما يقدم دراسة للعصر الذى عاشت فيه الشخصية أو ما قبله، إيماناً منه بدور العصر والبيئة والعوامل المساعدة فى فن تكوين الشخصية الإنسانية جنباً إلى جنب مع المواهب الخاصة والخصائص الذاتية .

بل يندر جداً عنده : (أن يشتهر رجل أو يرتقى سلم المناصب الرفيعة

---

(١) بنيامين فرانكلين . ص ١٥ .

ثم لا يكون للعصر أثر فى أخلاقه إن لم تكن أخلاقه كلها مشابهة لأخلاق عصره ، لأن الشهرة وارتقاء المناصب تجاوب بين الرجل وأهل زمانه ، وقلما يتأتى هذا التجاوب بغير مماثلة أو مقابلة بين الشيئين المتجاوبين)[١] .

وهو يرى أن (كل رسالة فى عالم الفكر أو الروح هى رسالة توكيد وتقرير أو رسالة توسيع وتحويل ، ويندر جداً أن نرى فى عالم الفكر والروح رسالة ابتداء وابتداع لم يسبق لها تمهيد طويل) .

ويزيد هذه الحقيقة توضيحاً فيقول : (إن الرسالات الفكرية أو الروحية تسبقها رسالات من قبيلها تتناول أطرافها ومبادئها وتهيئ الأذهان لانتشارها والتوسع فيها . فكل رسالة كبيرة هى بمثابة كتاب من أجزاء متعددة ترقى من البداية إلى النهاية جزءاً بعد جزء ودرجة بعد درجة. ولم يحدث قط أن رسالة فكرية أو روحية تعم الإنسانية ولدت فجأة، أو خلقت خلقاً بغير سابقة تمهد لها الطريق وتهيئ لها الأذهان)[٢] .

لا بد من تمهيد وارتياد واطراد :

وإذا كانت الشخصية متعددة الجوانب غنية باللمحات والقدرات فإنه يتناولها قيمة كبرى يطرد القول فيها جوهرياً لا تفسده التفاصيل. فهو مع بنيامين فرانكلين يعطى صوراً متتابعة لهذه الشخصية أو لهذه العبقرية دون أن يحفل فيها بسجل الأرقام أو بإحصاء الأيام. ولم يكتبها ليبدأ فيها

(١) برناردشو ص ٧ .

(٢) بيكون ص ٥٤ .

بسنة الولادة ويختمها بسنة الوفاة ويمضى فيها مع التقويم شهراً بعد شهر وعاماً بعد عام ، ولكنه عمد إلى عرضها (لمحة بعد لمحة تتم بها ملامح الصورة بعد الفراغ من النظر إليها ، وقد يتابعها القارئ فلا يفوته من ذلك سجل الأرقام ولا إحصاء الأيام وإنما يلم بها حيث يعبرها فى طريقه ويستغنى عنها بعد ذلك إذا شاء،أو يبقيها على حد سواء)(١) .

والعقاد فى تراجمه الأدبية يحتم دراسة العصر الذى نشأ فيه الكاتب لأن (الكاتب قد يسبق عصره فى أشياء ، وقد يتخلف عنه فى أشياء ، وقد يخالفه فى أشياء ، ولكنه لا ينفصل عنه كل الانفصال فى جميع الأشياء . فلا بد بين الكاتب والعصر الذى ينشأ فيه،من صلة،نعرفها لتمام التعريف به والاستدلال على مصادر أدبه وقواعد تفكيره . .)(٢) .

تلك الصلة يسميها العقاد (البطانة الثقافية) . .

إنه ينظر بعين الاعتبار إلى فعالية البيئة الخاصة للفنان والبيئة العامة ، فكما قال فى حديثه عن برناردشو (نشأة الكاتب فى بلده،ونشأته فى أسرته، ونشأته من أبويه ، ونشأته فى جيله السياسى ، ونشأته فى جيله الثقافى — كل أولئك على صلة وثيقة بعنصر من عناصر حياته أو عنصر من عناصر استعداده وعمله فى حياته الفنية والثقافية) .

ويتعاطف العقاد مع الشخصية التى يترجم لها إذا لاح منها وفاء لإنسانية الإنسان . فى أى مكان.فإذا كانت مصر أمل هذا الوفاء وغايته

(١) بنيامين فرانكلين ص ١٥ .

(٢) برناردشو ص ٧ .

أحس العقاد الأمر كأنه دينه الخاص الذى يؤدى فيه واجب الشكر والجزاء . مثال هذا موقفه من (شو) رداً على موقف شو الكريم من الأمة المصرية بعد حادث دنشواى .

ويراها كلمة واجبة فى كل ترجمة لبرناردشو تكتب فى مصر باللغة العربية وإن كان (التعريف بهذه الناحية الإنسانية لازم فيما يكتب عن برناردشو حيثما كان كاتبوه)[1] .

* * *

على أن العقاد أوضح بنفسه ، فى كتابه عن عثمان بن عفان ، طريقته فى الترجمة وغايته منها وهما يكادان يكونان شيئاً واحداً هو (**التعريف بالنفس الإنسانية فى حالة من أحوال العظمة والعبقرية أو حالة من أحوال النبل والأريحية** ، فإن جاوزنا هذا المقصد إلى غيره فإنما نجاوزه لجلاء فكرة تحيط بأطوار التاريخ الإنسانى، وتخرجه من غمار التيه والظلمة ، وتسلك به مسلكاً غير مسلك التخبط والضلال)[2] .

وشرط العظمة عند العقاد فيمن ترجم لهم : (**همة الجبابرة من رجال العمل . وطموح المثاليين من المؤمنين بالفكرة**) .

يظاهر هذا ويقف وراءه خلق مكين (يقاوم كل إغراء ولا يتخاذل أمام الوعيد) .

وهو يرى فى عظمة العظيم أو عبقرية العبقرى **صورة من صور العظمة الإنسانية**. وهى بهذا وحده تستحق الوقوف عندها والكتابة عنها فضلاً عن

(١) أنظر ص ١٦ .

(٢) ذو النورين ص ٧ .

دلالتها فى تفسير أطوار الأمم وأسرار التاريخ .

بهذا الاعتبار كتب العقاد ما كتب غير ملق بالاً إلى غيره من اعتبارات يفسر هذا كتابته عن غاندى وعن محمد على جناح وبين الهند وباكستان ما بينهما فى تاريخ الإنسان ، لا رعاية لدولة الهند أو باكستان ولا لمرجع من مراجع السياسة ، فى كتاب غاندى ما لا يوافق الهند ولا يوافق الباكستان .

* * *

والأستاذ العقاد فى كتابته عن العبقريات أو العباقرة يجمع بين فلسفتين متباينتين فى تدوين التاريخ : هل البطل يصنع التاريخ أم التاريخ هو الذى يصنع البطل ؟

أو كما يتساءل العقاد فى كتابه (محمد على جناح) [١] هل للبطولة شأن فى حياة الأقوام أو هى فى حياة الأقوام صفر على اليسار ؟ هل المادة وحدها هى الترجمان المفسر للتاريخ، أو لهذا التاريخ مفسرات أخرى قد تهزم تفسير المادة وتنقضه وتتحداه ؟

الأستاذ العقاد يرى أن العبقرى الفنان يولد (كالغلة التى تنبت على غير قصد فى فرع من فروع شجرة الحياة ، ثم تصبح الغلة مثلاً يحتذى وقالباً يصب فيه الأنداد والنظراء .

والبطل والعبقرى يتشابهان فى التفدية بكل شىء فى سبيل الغاية التى يقصدان إليها أو ينساقان إليها على غير قصد منهما ، والناس ينساقون معهما ولو أهلكتهم مطامع البطولة ، ومطالب العبقرية) [٢] .

---

(١) ص ١٧٨ .
(٢) برناردشو ص ١٢٢ .

وأرى أن البطل بعد الموهبة ، من صنع بيئته واللحظة المناسبة .

* * *

ويفرق العقاد بين العبقرى والبطل بقدر ما بينهما من أفضلية العبقرى (فإن البطل قد ينحرف عن الجادة الكبرى مرضاة لكبريائه وسلطانه ، ولا يكترث العبقرى لجاه أو سلطان إذا حادا به عن غايته ، وهى خلق الأمثلة الجديدة والقيم البديعة فى أحلام الناس ، ثم فى واقع الحياة)[١] .

وحين يعتمد كاتب ترجمة على آراء الناس فى الشخص موضوع حديثه فإن العقاد يعول أكثر على أقواله هو فى الناس (وإن الناس قد يغبنونه بعض حقه وقد يعطونه فوق حقه ، وقد يختلفون – بل لا بد أن يختلفوا – فى النظر إليه .

أما أقواله فى الناس فلن تظلم شيئاً فى الإبانة عن مبلغ فهمه وطوية نفسه وطبيعة خلقه ومقياسه الذى يقيس به الرجال والأعمال من وحى تفكيره وشعوره وخلجات ضميره)[٢].

وحين تكون العبقرية عبقرية فنان،فإن العقاد يرى أعمال الفن ذات رسالة فى تاريخ الفكر الإنسانى تتحقق بإلغاء تلك الفروق والمفارقات – وفى الذوق والتذوق – وإدماجها الثابت وتعبر الزمن من فوقها ومن ورائها فى حياة واحدة باقية هى حياة الإنسان الخالدة فى مرآة العبقرية الخالدة . وهى تؤدى الأمانة الكبرى فى طريقها الثابت لا تعتمد على سطوة تحميها، ولا تحفل من سطوة تنازعها.وهذه هى أمانة الفكر الإنسانى من قديم

---

(١) برناردشو ص ١٢٤ .　　(٢) ص ١٢٦ .

الزمن سبقت دعوة الداعين وعظات الواعظين،وعرفت الإنسان (إنساناً) واحداً قبل أن يلفظ بها رسل الدولة وسماسرة السلطان مخلصين وغير مخلصين .

واستدل على هذا بعالمية شكسبير وإنسانية عبقريته ، فرواياته (تنقل إلى اللغة العربية تامة محققة فى عهد استقلال ولم تنقل على هذا المثال خلال سبعين سنة فى عهد حماية أو احتلال .

سطوة الدولة لم تكن لها يد بالأمس فى « ترويج » شكسبير بين الفرنسيين والألمان والروس ، وسطوة الدولة لم تروجه بين المصريين وهم يعملون بأعينها ولا يفلتون من قبضة يدها .

أخذته الأمة حصة من التراث الإنساني لا تنزل عنها ، ولم يفرض عليها ضريبة تدين بها لمن يغلبها ويتحكم فيها .

وتلك آية « الفكر » الإنساني فى الآداب العالمية كل أمة تسأل عن حصتها منه ، لأنه تراث مدخر لجميع بنى الإنسان) [١] .

يعرف الدكتور مصطفى سويف العبقرى الفنان بأنه إنسان (تنتظم علاقته بمجتمعه الخاص فى صورة تعارض واختلاف يصحبه الشعور بالحاجة إلى إنهاء هذا الخلاف وإقناع الآخرين بوجهة نظره .

فإذا صحب هذا الخلاف وما ينجم عنه من توترات وانفعالات عميقة..إذا صحب ذلك استعدادات خاصة ومجموعة من القيم تبرز

---

(١) التعريف بشكسبير ص ٢٢٥ .

للعبقرى الناشىء نماذج معينة من الأشخاص يتعلق بهم ، انطلق هذا الناشىء يطلع على أعمالهم ويتمرن على الإنتاج فى الاتجاه الذى أنتجوا فيه ، محاولاً أن يقلدهم أحياناً وأن يتحرر من نماذجهم أحياناً أخرى .

حصيلة هذا أن العبقرية تفرد يؤيد استحالة التساوى بين الناس فى المواهب ، بل استحالة إنقاص الفارق بينهم فيها.فالعبقرية كما يقول « سدني هوك » فى كتابه « البطل فى التاريخ » ليست حاصل مواهب مركبة ، وإلا فكم فيلق عسكرى يوازى ويعادل نابليون ؟ وكم من علماء الطبيعة العاديين يمكنهم أن يقوموا بالعمل الذى قام به انيشتين ؟

إن أسئلة من هذا النوع لا تطرح للإجابة عنها إنما لتقرب إلى الأذهان حقيقة أن العبقرية شىء فريد) (١).

إن العبقرى ابن موهبته أولاً وإن كانت الظروف المساعدة تسعد بالتوفيق . (إن بعض فترات التاريخ هى بدون شك أكثر قابلية للتفاعل مع العبقرية،أى أكثر تنشيطاً لها وأكثر تحمساً لها من غيرها من الفترات فهى تمكن العباقرة كما تمكن العاديين من النجاح والفلاح وبالتالى لا يمكن أن تعتبر فى تمخضها عن العباقرة بأنها المصدر الخلاق للعبقريات بأكثر مما يمكن اعتبار رقعة خصبة من الأرض تنبت عليها الأزهار النادرة والأعشاب الطفيلية العادية المصدر الخلاق لتلك الأزهار)(٢).

---

(١) كتاب العبقرية فى الفن ص ٣٧ .

(٢) كتاب العبقرية فى الفن ص ٣٧ .

إن العبقرى ابن موهبته الخاصة أولاً وأصدق ما يكون هذا على أصحاب الفنون ومبدعيها (فإن للتقاليد الفكرية والحاجة الاجتماعية وتنظيم المجتمع العلمى تأثيراً فى مكتشفات العلماء أعظم من تأثيرها على إبداعات وابتكارات الفنانين ورجال الأدب . فإن الإبداع الجديد فى شكله وأسلوبه المميزين له عن غيره فى الميادين الأدبية والفنية هو بديهياً عمل قام به فرد . ومن السخف ، برغم كل اعتماد ذلك الفرد على حضارته واتكاله على ثقافته ، الاعتقاد بأن العالم خليق بأن ينعم بعمل ذلك الفرد الفنان عن طريق شخص آخر لو أن ذلك الفرد الفنان لم يولد . فليس باستطاعتنا أن نتصور صورة سستين ملوناً « الموناليزا » بدون الرسام روفائيل وسمفونيات بيتهوفن . أما فى الميدان العلمى من جهة أخرى فإنه من المحتمل جداً أن يتم الوصول إلى معظم اختراعات أى عالم معين بواسطة أفراد آخرين ، عاملين فى الميدان نفسه)(١).

وكتاب العقاد ساعات بين الكتب يكشف عن إعجابه الشديد بپلوتارك كما كان معجباً بلودفج وهما من أصحاب التعاطف مع العظمة ونفحها بالإنسانيات التى تقربها إلى القلب بما فيها من ملامح إنسانية هى خير ألف مرة من التطويب والتقديس الذى يفصمها من الناس ويرفعها ولكن إلى مراتب الغرابة والإعجاز المعزول .

وإعجاب العقاد بپلوتارك ولودفج يعكس بطريق غير مباشر رأيه الشخصى

---

(١) كتاب (البطل فى التاريخ) تأليف سدني هوك ، ترجمة مروان الجابرى ، مراجعة د . أنيس فريحة .

فى كتابة التراجم. فما كان ليعجبه هذا المنحى إن لم يكن فيه من رأيه مشابه ومن اتجاهه موافقات .

ومنهج البحث عن الفتات الإنساني اتهجه « اندريه موروا » و« ستيفان زفايج » و « لودفج »، كما أن منهج تفسير الأحداث تفسيراً عقلياً وكشف القوانين المتحكمة فى سير الحوادث ومحاولة إيجاد ترابط بينها أخذ به المفكر الألماني (اشبنجلر) ، ومن المعاصرين الأستاذان « أرنولد توينبى » و « بيتريم سوركين »؛ غير أن العقاد اختلف عنهم فى عدم التزام الخط التاريخى حين زاد عليهم التفسير النفسى والخلقى. (والوصول إلى نتائج علم الأخلاق هو الصعب الجديد الذى لا يزال اليوم وبعد اليوم صعباً وجديداً إلى أمد بعيد) .

الأستاذ العقاد يفسر التصرفات على طريقة التعريف المحدد وهو يريحك بإعطائك النتيجة والرد على أسئلتك الحائرة وكشف الغموض الذى يلف عادة شخصية العظيم .

هذا حين يعرض أندريه موروا التصرفات فى شريط ويدع لك التفسير كما يدع لك تلوين فكره بنفسك . اندريه موروا يشوقك ويشدك إليه حين يجعلك تلهث وراءه لمعرفة النتائج والنهايات .

* * *

وللأستاذ عبد الفتاح الديدى رأى فى تفسير ميل الأستاذ العقاد إلى كتابة التراجم والسير بعامة[1] وهو رأى أملاه حب وحماسه الشخصى

---

(١) عبقرية العقاد ص ٣١ .

للعملاق، فجعله فى مقام الدفاع عنه أمام أصحاب الشهادات ممن لم يعطوا عطاءه للعلم والأدب ، يفسر اتجاه العقاد إلى التأليف عن الشخصيات وعمل ترجمات حياة للشعراء والأنبياء وكبار المفكرين ، برغبة التعويض وكأن العقاد تنبه إلى شئ هام جداً فى حياته (وهو أنه هو نفسه الذى لا شهادات له يقوم بمنح الشهادات إلى كبار العباقرة والمفكرين والقواد والشخصيات ، لقد كانت ترجمته وكتابته لسيرة من السير نوعاً من الشهادة للشخصية التى يكتب عنها . واختص باكتشاف الجوانب الرائعة فى كل شخصية من هذه الشخصيات حتى أحس العقاد بأنه يستعرض ملامح من يترجم له على نحو يثبت عبقريته فى ناحية من النواحى ولا يبزه فيها أحد)[1].

واستهوت الأستاذ الديدى . الفكرة على ما يبدو فاسترسل يقول : (كانت كتب العبقريات ودراساته عن ابن الرومى وجوته وشكسبير وبرناردشو ترفعه إلى مستوى من يقدم إلى هؤلاء جميعاً الشهادات التى تميزهم بالعبقرية والنبوغ والامتياز ، ووجد لذة كبيرة فى كتابة التراجم والسير . لهذا كان حماسه فى إثبات دعواه التى يفتتح بها ترجمته لكل هؤلاء نوعاً من استعراض قدرته وقواه العلمية فى إثبات كفايته هو نفسه فى تقدير النابهين والأذكياء. وكأنما يقدم فى كل كتاب دعوى تشبه دعوى الأكاديميين فى بحوثهم الجامعية للدكتوراه. وكأنما يفتقر هؤلاء العباقرة إلى شهاداته التى لولاها لظلوا مغموطى الحق مجهولين من الناس . فدراساته هى شهادات لمن تلزمه، ورأيه فى شخص ما، يكاد يكون من الاتزان والدقة

---

(١) المرجع السابق ص ٣١ .

بحيث لا يصح له أن يجنح به نحو الهوى فى معاملة معاصريه)(١).

وعندى أن العقاد كانت ثقته فى نفسه وعدم مبالاته فى الوقت نفسه برأى الآخرين فيه ، مدحوا أم قدحوا ، لا تتفق معها الرغبة الحادة فى إثبات تفوقه وهو لا يحتاج إلى دليل . ولا أحسب أنه كان يفكر فى الشهادات وأصحابها ويشغل نفسه بهذا إلى الدرجة التى يكرس نفسه وجهده فى كتابة تراجم وسير لمجرد الإحساس بإعطاء شهادات لأصحابها الأعلام .

لم كل هذا ؟ أليس الأسهل لو حاكت بصدره يوماً هذه الرغبة أو هذا الشعور أن يقبل منصب عمادة كلية الآداب التى عرضها عليه محمد محمود باشا ورفضها ؟

إن هذا المنصب بالذات خليق بأن يشبع رغبة الاستعلاء على الشهادات ورغبة إعطائها لمحبيها والراغبين فيها والمستعزين بها .

وقد يفسر برغبة التحدى والاستعلاء على حملة الشهادات ، الكتابة عن أصول البحث العلمى عند أكبر دارسى المنهج فى العصر الحديث وهو فرنسيس بيكون أستاذ المناهج والأصول الفعلية للأبحاث والدراسات ، ولكن الأنبياء ، بجوهم الخاص وواقع عصرهم المعين ليسوا بحاجة إلى شهادات أو تزكية ، بل إن خيرهم (الأمى) الذى دانت به العلماء .

إن الكتابة عن الأنبياء والشخصيات الدينية تحتاج إلى فيض فياض من العاطفة قبل أى سبب آخر .

---

(١) كتاب (عبقرية العقاد) .

ثم إن الكتاب الباقى إن صح أن يكون شهادة ، فهو شهادة لصاحبه أولاً بما فيه من دلالات القدرة .

قد يفسر برغبة التحدى والاستعلاء مشاركاته المتنوعة الخصبة العميقة، فى موضوعات كثيرة تنتمى إلى العلم مرة وإلى الفن تارة مما يحسب التخصص فى واحد فقط منها ، مزية لصاحبه كأنما يقول (وفى الناس واحد كالألف) . ومن هذا صولات العقاد وجولاته فى ميادين أصول الفلسفة ومذاهبها وفى تحليل جزئياتها الخاصة بالسببية وعناصر الوجود وطبيعة الحياة ونظريات نيتشة وشوبنهور وكانت وداروين وآراء استيوارت مل ، وهيوم .

لقد كتب العقاد عن أشخاص بينهم من الاختلاف ما بين عمر ابن الخطاب وعمر بن أبي ربيعة كما أشرت ، إذن ملاك الأمر قدرات فيه وهبها يجلوها بقلم موهوب ولا يعنيه بعد هذا أن يعطى بها شهادات – أو يأخذ عليها شهادات .

ثم هو كما يقول الأستاذ الديدى – وهنا أتفق معه – صاحب فكرة تبدو من وراء الكلام الذى يورده على لسان غيره . فهو كاتب ذو اتجاه ، وكثيراً ما يسقط هذا الاتجاه على الذين يترجم لهم حتى لتحسبه هو نفسه المتكلم وليسوا هم . وفى أغلب الأحوال كان ينطق فى الكلام عن تجاربه الشخصية إذا ما تشابهت مواقفه ومناسباته الجزئية مع ظروف الإنسان الذى يترجم له . وهنا تقترب الترجمة من الفن القصصى الذى كثيراً ما يكون البطل فيه صورة من المؤلف .

وعندى أن كتابة العقاد للتراجم والسير إنما هى لون من تجميل الحياة

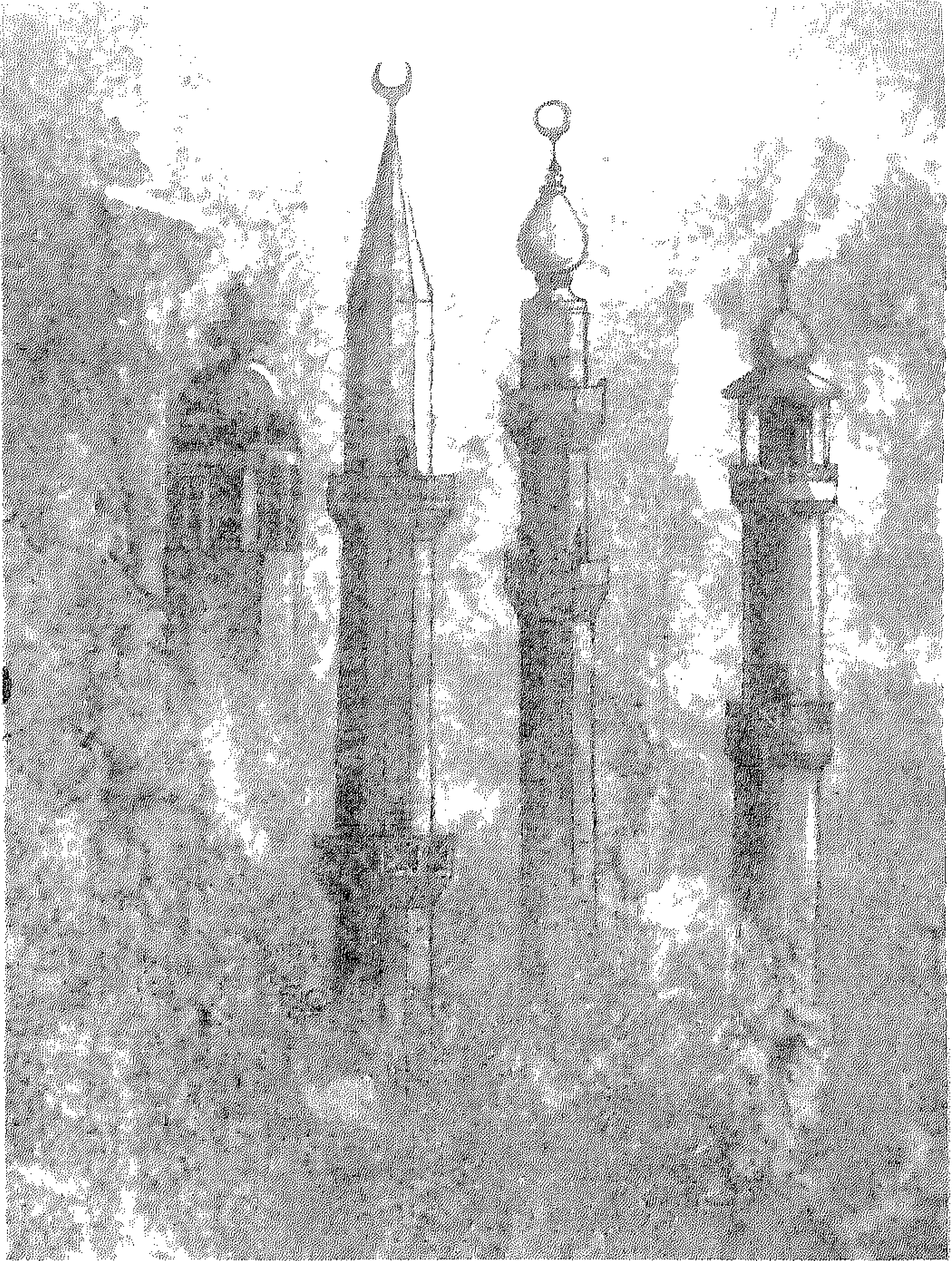
بالفن وبالصدق معاً يخلص إليها عن طريق التراجم كما يخلص إليها فنان آخر عن طريق النحت أو التصوير أو الغناء . (فكل حياة – كما يقول – خلت من الجمال الفني ومن الصورة المثالية التي يسبغ عليها ذلك الجمال هي حياة فاترة أو حياة ناقصة لا تستحق أن تعاش . وإنما هو مقياس الحياة التي تكتب عنها التراجم والسير هي الحياة التي تعاش) .

وكتابة العقاد للتراجم سبيله وسبيلنا معه إلى النفاذ إلى النفس الإنسانية وسبر أغوارها . والنفس الإنسانية غاية ما يشغل الإنسان ويستثير اهتمامه وعطفه وتقديره .

وكتابة العقاد للتراجم إنصاف واعتراف

وكتابة العقاد للتراجم وفاء وحث على الاقتداء برسم الصورة، وتمجيد البطولة، وغرس الأمل في الإنسان، والإيمان به ، على الرغم من نواحي الضعف فيه وجواز الخطأ عليه . وما بالقليل هذا في دفع مسيرة الشعوب وتغذية مطامحها .

* *



الفصل الثاني

عبقرية المسيح

عالية تعلو خمس قامات وتزداد . . .

باقية تبقى خمسة قرون ثم لا تصير إلى نفاد . .

كريمة ، تؤتي من ثمراتها ما تشتهيه الأنفس وتشتهى به طيب الطعام :

سعيدة تؤتي من عصيرها النور والطب ومسوح الإهاب وجبائر العظام .

من خشبها صور المحاريب وأعواد المنابر .

ومن ورقها أكاليل الأبطال وتحيات البشائر .

وتتشابه بركتها على الأبطال الأقدمين فيتمسحون بطيبها طلباً لقوة النفس وقوة الجسد وهم يقبلون على الصراع ويتناضلون ، وتتشابه بركتها عليهم كرة أخرى فهم يعلنون السلم ويرفعون غصن الزيتون .

بوركت فى وحى المعابد والضمائر ، وبوركت فى رموز القرائح والخواطر ، فلم يعرف الناس أمنية لا يرمزون لها بسماتها وأسمائها . ولم يذكروا نعمة لا يذكرونها بنعمائها : رمزوا بها إلى الضياء ورمزوا بها إلى السلام ، ورمزوا بها إلى الخير والرخاء ، وتزودوا منها فى البادية والحاضرة ، وادخروها للدنيا والآخرة ، واتخذوها للمصابيح فى محاريب الصلاة والتسبيح ، ورجعوا إليها باسم من أقدس الأسماء ، هو اسم « السيد المسيح » .

* * *

بهذا الشعر الرفيع قدم الأستاذ العقاد بين يدى عبقرية المسيح . وقد استحقت شجرة الزيتون هذا الوصف فى أدبه بما وهبت من مسحتها للرسول الأمين .

ولو لم تكن « للزيتونة » إلا أن هذا الاسم المبارك مردود إلى مسحتها وبركتها لاستحقت به الخلد المصون ، خضراء على مدى السنين والقرون .

* * *

تناقض وصف الواصفين للسيد المسيح والكاتبين فقال قوم : بأنه وسيم وقال الآخرون : دميم .

ومال العقاد إلى الوسامة بما ساق بين يدى الرأيين من حجج المنطق. ولكنى أحسب أنه مال إليها أيضاً باعتزازه الكامن بفردية العظيم وتفرده .

فالعقاد من بين الأقوال والأوصاف التى تتعلق بالمسيح ثم من بين ما استخرجه لنفسه من أقواله هو ومنازعه ، رأى المسيح مأنوس الطلعة يتكلم فيوحى الثقة إلى مستمعيه . . (مواهب نفس) ورآه فصيح اللسان سريع الخاطر له قدرة على وزن العبارة المرتجلة.لماذا ؟ (لأن وصاياه مصوغة فى قوالب من الكلام الذى لا ينظم كنظم الشعر،ولا يرسل إرسالاً على نسق. ويغلب عليه إيقاع الفواصل،وترديد اللوازم،ورعاية الجرس فى المقابلة بين السطور)(١).

ورآه ذواقة للجمال محبًّا للأزهار والكروم والرياض والمروج حتى بلغ من حبه الطبيعة أنه كان يتخذ من السفينة على بحيرة طبرية ،

---

(١) عبقرية المسيح ص ٩٣ .

منبراً يخطب منه المستمعين على شاطئها المعشوشب (كأنما يوقع كلامه على هزات السفينة وصفقات الموج وخفقات النسيم)(١).

ورآه جذاباً بما يبسطه من طمأنينة،وما يشيعه من حنان الطهر والقداسة .

ورآه وديعاً وأعلى ما تبلغ الوداعة فيه ذروتها حين تصير رحمة بالخاطئين والعاثرين (وهى الرحمة التى تبلغ الغاية حين تأتى من رسول مبرأ من الخطايا والعثرات)(٢) .

والإنسان فى صورته العليا عند العقاد – من خلال المسيح – هو الذى يجمع بين القسوة والرحمة فى إهاب واحد.فليست المثالية أن يكون طرازاً غير بشرى،ولكن المثالية أن يكون بشراً يخضع لنواميس البشر ثم يجالد الضعف الكامن فى الغرائز وينتصر عليه ما استطاع.وحين لم يستطع يكون الأمر قد جاوز حده إلى الحد الذى ينفى العجز عن القدرة فلا يكون عاجزاً من لا يستطيع .

من هذا أن المسيح (الوديع الرحيم كان يعرف الغضب حيث تضيع الوداعة والرحمة) .

ومن هذا أن المسيح وهو من أصحاب الرسالات بما تتطلبه الرسالات من استبسال كان يشكو حزنه وبثه حين أحدق به الخطر،وأنه كان يدعو الله أن يجنبه الكأس الذى هو وشيك أن يتجرعها.(فليس الإقدام على الجهاد أن تتجرد النفس من طبيعتها فى وجه المخاوف والمتالف ، وليس

(١) المرجع السابق ص ٩٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٦ .

محظوراً على النفس فى سبيل ذلك الجهاد أن تأخذ بالحيطة أو تلوذ بمن تحب وتستمد العون من عواطف المحبين ، وإنما المحظور عليها أن تخشى الخطر على الجسد حيث تجب الخشية على الروح.وفى غير ذلك لا خشية ولا مخاطرة ولا ملام)(١).

فالعقاد يدور حول الشخصية ويلف طويلاً بعين لماحة وأذن مرهفة . إنه يتسقط كل حرف يخرج من فمها فى سبيل الوقوف على سرها أى مفتاح الشخصية ليدخل إلى رحابها وشعابها ؛ فاتحاً به كل قول مستغلق ، أو تصرف يحتمل التأويل والتعليل .

وقد وجد هذا المفتاح فى شخصية المسيح فى (ابتهالة) كان يرددها فى أخريات رسالته وهى قوله : (اللهم جنبنى هذه الكأس ، لكن كما تريد أنت لا كما أريد) .

لأنه يرى أن القاعدة الأساسية فى طبيعة الرسل هى أن الشك أخوف ما يخافونه ، وأن استبقاء الإيمان غاية ما يبتغونه وعلى ضوء هذا رأى موضع الشبهة فى نفس المسيح : (إن السلامة هى ما يريده ، وإن النكول هو طريقه إلى اجتناب الكأس.فليكن مسيره إذن فى غير هذا الطريق وليكن التسليم هو طريق الإيمان)(٢).

والعقاد يدرس الشخصية الإنسانية بوجدانه وعقله معاً . وعقله دائماً منطقى-استقرائى فهو يؤمن بـ (اطراد السنن الكونية فى الحوادث الإنسانية

(١) المرجع السابق ص ٩٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٩ .

الكبرى فلا يحدث طور من أطوار الدين أو الدنيا إلا سبقته مقدماته التي تمهد لحدوثه ، وجاء سريانه فى العالم على وفاق لوازمه ودواعيه) (١).

حتى العصور التاريخية لها عنده مفتاح هو هنا « آفاتها البارزة » التي تكون علامة طريق ونقطة تحول .

وهو يهتم بهذه الظاهرة اهتماماً خاصاً فى سير الأنبياء وتاريخ الرسالات .

ويبدو من استقراء كتابات العقاد أن آفة كل عصر عنده هى انتقال الحضارة من الداخل إلى الخارج أو من النفس إلى الجسد فتصير إلى (أشكال وقشور حيث لا جوهر هناك ولا لباب) .

وهنا تغيم الرؤية أو تتضح ولكنها فى الحالين تحلم بالخلاص .

وهنا يكون ظهور الرسل أو المصلحين أو الأفذاذ ضرورة يقتضيها عصرهم ونتيجة تسبقها، إن لم تكن سبقتها بالفعل ، ومنذ أمد طويل ، مقدمات .

والعقاد الذى له فى ذهن الكثيرين ، خاصة من لم يعرفوه عن قرب ، صورة قوية صارمة، تعجبه السماحة فى نفوس السمحاء، واللين والعفو يصدر من الأقوياء القادرين على العقاب .

فى كتابه عبقرية المسيح كانت سماحة السيد وإنسانيته، سر عبقريته عند العقاد . . إنسانيته الغفور التى علمت ناساً فى عصرها من دروس الحب القدسى، ما لم تتعلمه من دروس العقاب .

والمثل عند العقاد : المرأة . . المرأة التى كانت ضحية الضحايا فى

(١) عبقرية المسيح ص ١٠١ .

ذلك العصر لأنها لم تزل ضحية الضحايا فى كل عصر يطغى عليه البذخ من جانب،ويطغى عليه الحرمان من جانب،ويعم الرياء فى كلا الجانبين ، ولم تزل فى كل عصر كذلك العصر تبوء بشقاء الفتنة على ألوانها .. فتنة الغواية ، وفتنة الفاقة،وفتنة الأسرة المنحلة،وفتنة الحيرة التى تعصف بالثقة والطمأنينة ألزم ما يلزم المرأة فى كل زمان .

ونظرت تلك الفريسة التى لاحقتها اللعنة أحقاباً بعد أحقاب،وأطبقت عليها الفتنة فى ذلك العصر خاصة آكاماً فوق آكام – فإذا (حنان طهور يغمر ضعفها ويجبر كسرها ويمسح اليأس من قرارة وجدانها ، ويشيع الأمل فى رحمة الله بين جوانبها . فعلمها درس من دروس الحب القدسى ما لم تتعلمه من دروس العقاب فى شريعة المنافقين وموازين المقسطين . وبرزت على صفحة الزمن فى ساعة من ساعات ذلك العصر الجريح صورة مشرقة زالت شرائع الهيكل ، وزالت شرائع رومة ، وهى باقية عالية : صورة الغفران ماثلة فى شخص الرسول الكريم ، وصورة التوبة ماثلة فى شخص فتاة منبوذة جاثية على قدميه ، تسكب عليهما الدمع والطيب وتمسحهما بغدائر رأسها)(١) .

حقاً من أحب كثيراً غفر له الكثير من خطاياه كما قال السيد ، ولكن العقاد حتى فى مواقف الطيبة والسماحة يأبى إلا أن يقرنها بالذكاء صفته المفضلة بين الصفات النوابغ فهو لم يكتف بغفران السيد لخاطئة تتمسح بأعتابه وتتعلق بأهدابه ، بل وقف وقفة أطول ، بموقف من مواقف

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٢ .

الذكاء والنفاذ نجح فيه السيد وأخفق متحلوه الذين تعمدوا – وهو فى الهيكل – أن يضطروه إلى موقف الحكم أو إنكار الشريعة . فاقتحم عليه الكتبة والفريسيون درسه ومعهم امرأة يدفعونها إلى وسط الحلقة ، وراحوا يتصايحون : أيها المعلم هذه امرأة أخذت وهى تزني ، وقد أوصانا موسى أن نرجم الزانية ، فماذا تقول أنت ؟

ماذا يقول هو ؟ ما بالهم يسألونه ويستأذنونه وهو لا يملك أن يمنعهم لو ذهبوا بها إلى قضاتها ؟ إن الشرك مكشوف على وجه الأرض وليس منه مخرج فيما حسبوا وخمنوا . إن قال : أرجموها فذلك حق الولاية يدعيه ، وإن قال أطلقوها فتلك شريعة موسى ينكرها فى قلب الهيكل. فكيف الخلاص من جانبي الشرك ، ولو أنه مكشوف معروف .

سبق إلى ظنهم كل خاطر إلا أنه ينتهى من القضية إلى حل لا يدعى به السلطة، ولا ينكرها، ولا ينساق فيه إلى مجاملة الرياء بالدين ، والكبرياء بالتقوى . ولبثوا يترقبون ولا يدرون كيف يخرج من المأزق الذى دفعوه إليه . وهو يستمع إليهم ويخط بأصبعه على الأرض حتى فرغوا من جلبتهم وسؤالهم ، فوقف ورد عليهم رياءهم فى وجوههم. وكسر الشرك بقدميه من كلا طرفيه وهو يقول لهم : (من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم وليرمها بحجر) . ما أروع حديث العقاد بعد هذا وإن طال الاستشهاد .

لا ينقض شريعة موسى، ولا يدعى تنفيذها، ولا يجامل رياءهم، بل يدعهم هم يحاولون الخلاص من الحيرة والخجل بالزوغان .

وبقيت المرأة المسكينة واقفة وحدها أمامه فسألها سؤال العارف .

أين المشتكون منك . أما دانك أحد ؟ فقالت : لا أحد أيها السيد فأرسلها وهو يقول : ولا أنا أدينك فاذهبي ، ولا تخطئي .

(نعم لا يدينها ولا يحسب عليه أنه لا يدينها فى تلك القضية ولو كان هو قاضيها لأن القاضى لا يدين بغير شكوى وبغير شهود وبغير بينة) (١).

الذكاء ووضاءة التفكير والتعبير من علامات الشخصية التاريخية عند العقاد فعبقرية المسيح ترى ، فيما يرى ، فى الردود السريعة والأجوبة المسكتة (التي تدل إلى جانب أدلة كثيرة على الشخصية التاريخية) .

بإشراقات الذكاء وعطاء القلب والضمير أثبت السيد المسيح وجوده التاريخي وجلاله الأدبي، وإن تجنبت رسالته التشريع وزهدت فى سلطات الدنيا والدين .

* * *

هذا هو المسيح ومن بعده ، أتي « أحمد » ليكمل بالتشريع رسالة السيد ، ويختم بالقرآن من وحى ربه ، والحديث من هدى أدبه ، عطاء النبيين لتبدأ مسيرة العبقريين الإسلاميين .

* * *

---

(١) عبقرية المسيح ص ١٢٥ .

الفصل الثالث

عبقريات العقاد الإسلامية

عبقريات العقاد الإسلامية أسلوب فى الترجمة ومنهج فى الدراسة قلما تخطئه عين منصفة .

والعقاد فى عبقرياته يبث قيماً ينشدها الدارس والقارئ بعامة، والمسلم بخاصة، ولا سيما إذا كان طريق الوصول إليها صعباً والريادة فيه عسيرة ، وهنا يتصدى للأمر قوة المنطق فى العقاد ، وحركة الذهن عنده وهى قوية قادرة ، الذهن الثاقب وقدرة المناقشة التى تحتكم **المقابلة** ، **والمضاهاة** ، **والعلم** ، بل تخدم **الزمن نفسه** بما تعين عليه أحداثه قبل ظهور السيرة وبعدها .

وتتمثل قوة المنطق فيه وقوة التفلسف التاريخى فى تناوله موضوع تقديم أبي بكر فى الاستخلاف .

ومن خصائص العقاد تخديم الأفعال اليومية للوصول إلى دلالات كبيرة على الشخصية ، وهذا هو الجديد الذى فعله العقاد ، فالحوادث والتصرفات وقعت من أصحابها وعرفت عنهم مروية أو مدونة، ولكنها فى كلتا الحالتين صماء إلا عن المعنى الظاهر من ظاهر الألفاظ والحروف، حتى إذا استشفها العقاد، ونفذ إلى أغوارها، بدأت خلقاً جديداً بالمعنى المستبطن، والعبرة المستفادة، والدلالة الكامنة . وبمثل هذه الإضافات تغدو

للتاريخ قيمة حضارية لأنها قيمة إنسانية .

والتفسير النفسي الذى أشرنا إليه يتمثل فى **تناوله الشخصية من جميع جوانبها النفسية** وعرض هذا على ما تواضعنا عليه من صفات التفوق الإنسانى .

فيقابل العقاد شخصيته المختارة بالنموذج الإنسانى الذى رسمه الإنسان لنفسه ، ووجه القوة عند العقاد فى **قوة الصفة عند (البطل)** ، ذلك الوجه الذى يعطيها خصيصة أقوى من الامتياز التقليدى المقترن بها ، أى السمة التى تميز موصوفها بين من يتصف بها من الناس الممتازين (بالاتصاف) فعمر مثلاً كان قوياً لا كواحد من الأقوياء ولكنه كان قوياً من طراز متميز القوة إذ كان قوياً (ليتنفع الناس بقوته ، ولم يكن قوياً ليطغى بقوته على الضعفاء)(١) .

وقل مثل هذا فى عديد الصفات التى اتصف بها عمر حتى لتعد دراسته، أو بالذات دراسة العقاد له (غنيمة لكل علم يتصل بالحياة الإنسانية كعلم الأخلاق وعلم الاجتماع وعلم السياسة . . . ولم تقتصر مزايا هذه الدراسة على علم النفس وكفى)(٢). وما بالقليل هذا ولا بالسهل المنال حتى، حين ينتهى إلى مفتاح شخصية عمر (بطبيعة الجندى) لا يقف

---

(١) عبقرية عمر ص ٦٥ .

* اقرأ بحث (« توينبى » وفلسفة التاريخ) للأستاذ على أدهم ، مجلة الكتاب العربى ، العدد الحادى والعشرون الصادر فى ١٠ فبراير سنة ١٩٦٦ .

(٢) عبقرية عمر ص ٥٦ .

ولا يتوقف بل يعطى هذه الصفة سمة خاصة (عمرية) تبدو معها بالتفوق ، بعيدة عن طبيعة الجندى هذه وهى منها جد قريب .

فأهم الخصائص التى تتجمع لطبيعة الجندى فى صفتها المثلى ؛ إنما تجمعت لها بعد ألوف السنين من تجارب الأمم فى تعبئة الجيوش ، ولكنها اتفقت لعمر بالفطرة القوية الموهوبة حتى لا تحتاج - من أصالتها فيه - إلى اكتسابها بطول المرانة وإدمان التعود كالجنود . وهذا وجه التفوق الذى يرتفع بصاحبه وحده إلى أوج العبقرية ولو اشترك معه آخرون فى صفة أو صفات .

وهنا نلمح ظاهرة الاستقصاء عند العقاد ظاهرة التفصيص ، فحين يقول إن عمر مهوب لا يقف عند الهيبة فحسب ، ولكنه يمضى مع المعنى إلى أقصاه (فهى هيبة من قوة النفس قبل أن تكون من قوة الجسد ، إلا أنه مع هذا كان فى منظر الجسد رائعاً يهول من يراه ، ولا يذهب الخوف منه إلا الثقة بعدله وتقواه)[١] .

وهو إذا وصل إلى حكم للشخص أو عليه يمضى يفصله أو يفصصه كأنه قاض يفرّع الحيثيات ثم يزيد هو فيجمع إلى الظاهر ، الباطن حتى ليبدو الأمر استقصاء أفقيًا رأسيًا معاً . فطبيعة الجندى فى عمر يلتقط لها الفتات الإنسانى فى أقواله وأعماله مما يؤيدها بل يقنع بها الآخرين اقتناعاً . فحرصه على النظام فى صفوف الصلاة ، وحلقات المسجد ، وتجمعات السوق ، ومجالس الحكم حرصاً يأخذ به نفسه قبل الآخرين

---

(١) عبقرية عمر ص ١٨ .

فيتزل درجة من سلالم المنبر بعد أبي بكر لأن الخليفة الأول أحق منه بالتقديم (ذلك هو السمت العسكري بالفطرة التي فطر عليها ، وليس هو السمت العسكري بالأسوة والتعلم)(١).

ثم يرقى في عملية التشريح من جزئيات الشخصية إلى التقسيم الأعم الأكمل كما يسميه فيجمع التصرفات والأقوال في خطوط كبيرة تحدد معالم الشخصية وتؤكد خصائصها ، وقد تحدد هذه الخطوط من قوتها وعمقها بفعل الحفر على الورق الذي يمارسه العقاد في اقتدار،معالم عصره ، وخصائص حكم بعينه أو دولة بذاتها ؛ فلفتات عمر في بيئته القريبة المحيطة انبسطت فغدت فعالها على مستوى الدولة إذ (دوّن الدواوين وأحصى كل نفس في الدولة الإسلامية كأدق إحصاء وعاه الموكلون بالتجنيد في العالم الحديث)(٢)

وهكذا تطرد نظرات العقاد الخاصة في السيرة معمقة كأنها أحكام حروفها محفورة بالعدل في عمر حاسة كحواس البدن عملها أن تسمو به على نفسه وكانت نفسه أسمى من عامة الأبطال .

ومن عباراته الجامعة التي تغنيك عن أسفار ولو حوت مئات الصفحات قوله في إسلام عمر تعليقاً على واقعة أبي مريم السلولي قاتل أخيه (حسبك من إسلام يحمي الرجل من خليفة يبغضه وهو قادر عليه ، فذلك المسلم الشديد في دينه ، والذي يشتد فيأمنه العدو والصديق)(٣)

(١) المرجع السابق ص ٦١ .
(٢) » » ص ٦٢ .
(٣) » » ص ٩٥

هذه قيمة دينية وقيمة إنسانية معاً . فليس الدين بالطقوس والعبادات ولو صحت وصدق فيها صاحبها ولكنه ارتفاع على الضعف الإنسانى لا سيما الغريزى منه،بفعل الدين .

وليس بحق يستأهل التنويه من العقاد إن لم يشمل الأولياء والأعداء على سواء (فإن الحق الذى يتبعه الرجل مع أهل دينه وحدهم لحق محدود يدخل فى باب السياسة القومية أكثر من دخوله فى باب الفضيلة الإنسانية ، وإنما يصبح جديراً باسم الحق حين يتبعه الرجل مع أهل دينه ومع الخارجين عليه)[١]

وعمر كان بلا ريب أشد المسلمين فى إسلامه .

وعمر كان أشد المسلمين رعاية لعهد أهل الكتاب .

وهى قيمة إسلامية إبرازها أجدى على التاريخ الإسلامى من القصص الشائق والرواية المسهبة .

كان العقاد دقيقاً دقة عمر حين أوصى قاضيه أن يؤاسى بين الناس فى مجلسه ، ووجهه ، ولحظه ، وطرفه . وكم فى اللحظ من معان تدرك ولا تحس فتسبق الأحكام قبل صدورها بما أرادها عليه القضاة .

والعقاد معنى بالمعانى هى وحدها المقياس والتوقيت الصحيح وإن سبقت التاريخ الزمنى لها أو سبقها ، فعمر ثاني الخلفاء ولكنه فى ميزان العقاد مؤسس الدولة الإسلامية (إذ الشأن الأول فيها للعقيدة التى تقوم عليها وليس للتوسع فى الغزوات والفتوح . وعمر كان على نحو من الانحاء

(١) عبقرية عمر ص ٩٠ .

مؤسساً للدولة الإسلام قبل ولايته الخلافة بسنين ، بل كان مؤسساً لها منذ أسلم ، فجهر بدعوة الإسلام وأذانه ، وأعزها بهيبته وعنفوانه .

وكان مؤسساً لها يوم بسط يده إلى أبي بكر فبايعه بالخلافة ، وحسم الفتنة التي أوشكت أن تعصف بأركانها . . وكان مؤسساً لها يوم أشار على أبي بكر بجمع القرآن الكريم وهو في الدولة الإسلامية دستور الدساتير ودعامة الدعائم)[١].

في البداوة البادية وضع عمر حجر الأساس لتاريخ وحضارة استطالاً آماداً بعيدة عن البداية الصغيرة التي استهلا بها وإن كانت أصيلة بقدر ما رزقه عمر من سليقة التأسيس ، تلك السليقة التي هدته أن ينشئ حكومة وأن يجعل الأمر فيها شورى والقضاء تقاليد وأصولاً .

حضارة لم تنس نصيبها من الدنيا ولكنها واعية بالخلفية الروحية للوجود ، تلك الخلفية التي غابت عن الوعي المعاصر . . . ترى الله حياة الحياة أي السر الأسمى لها . . . وترى إبداع الكون في اتساقه الغريب . ومن ثم حققت هي الاتساق في أسلوبها .

وانطلاقاً من هذا الأفق المضيء حفظ المسلمون الحضارة القديمة حفظ الكريم الذي ينمي ويضيف . فحياة الروح يقينية بقدر ما هي قادرة على إغناء الوجود الفردي . . . إنها تمنح بهجة الرؤية .

هذه الرؤية تمنح الحرية والجمال والحب لأفكار الإنسان ولعلاقته بالآخرين .

---

(١) المرجع نفسه ص ٩٦ .

إنها تهيئ الحلول بشروقها .
إنها تعيد الانسجام بين العقل والغريزة .
وترد الشارد إلى مكانه من حياة الإنسان .

وحين تكون الحادثة أو التصرف غريباً بعيد التصديق أو مظنة للنفي،لا يصر عليه بدفاع أو تسويغ ؛ لأنه ليس همه إنحال الشخصية خوارق الأعمال،ثقة بها وبغناها الذاتي عن إضافات لا تزيدها حين يكفيها المسلم لها به ، والثابت الصحيح مما صدر عنها بلا افتعال نسبة أو تفسير . فقصة سارية والجبل يكتفي منها العقاد بدلالة لها أشباه في تاريخ عمر تقوم وحدها دليلاً على المعنى المراد ، فهي في السيرة تعزز النظائر ثم لا تزيد . إن البطولة فى مفهوم العقاد إنسانية ممتازة ، والبطل إنسان ممتاز عبقرى موهوب حتى صفاء الرؤية أو النظر البعيد (تلك المزية الإنسانية النادرة) لا يقفها العقاد على التدين والعمق فيه ، بل صرح بعقلية رجل العلم بأن من الناس من مارسوا (التلباثي) وسجلوا مشاهداته (وهم ملحدون لا يؤمنون بدين) .

كل شيء عند العقاد مقنن وبحساب ، فهو لا يخلع على البطل الصفات الحسنى غمراً بلا ضابط،ولكنه يتقصى الأسباب والعوامل ويكشف عن مكنونها . فقوة العدل فى عمر شيء طبيعى لأنها قوة اجتمعت له أسبابها حين تعددت هذه الأسباب من وراثة حيث مارست أسرته القضاء فى الجاهلية واستشعرت رضا العدل وذاقت الظلم من أقربائها فى الوقت نفسه حيث تكثروا عليها بالعدد ، ومن عقيدة دان بها تأمر بالعدل وتتشدد

فيه ، ومن تكوين ، ومن عبر الحوادث . وهكذا تعددت الأسباب وكان تعددها (هو العاصم الذى حمى هذه الصفة أن تتناقض فى آثارها)(١) وأن تهتز فيه حتى ليسوى عمر فى عطاء بيت المال بين المولود اللقيط وبين المولود من زوجين ، وهى رحمة وعدل قد يحجبهما النفور من الزنا وثمراته فى نفوس أناس ينفرون فلا يرحمون ولا يعدلون .

وحين يجمع إلى عدل عمر ورحمته ، الغيرة على الحق والحرمات والذكاء وألمعية الذهن لا يقول إن عمر رضى الله عنه خلق (بذهن عالم بحاثة منقطع للكشف والتنقيب ، ولا أنه خلق بذهن فيلسوف مطبوع على التجريد والذهاب بالفكر إلى مناحى الظنون والفروض ، ولا أنه خلق بذهن منطيق يدور بين الأقيسة والاحتمالات مدار الترجيح والتخمين . فالواقع أنه لم يكن كذلك ولا يعيبه ألا يكونه)(٢) .

ومن اقتدار العقاد ابتداؤه بالصفة وانتهاؤه بعكسها مما قد يبدو تناقضاً وهو تكامل . فتصرفات وأقوال التواضع العمرى ليس تصاغراً يكشف الصغر ، (إنما هو تصاغر يكشف القوة والاعتداد بها ويكبحها بعنان متين هو نفسه دليل القوة والاعتداد)(٣) .

ويمضى العقاد فى مقابلاته المعمقة الشيقة فيصف ما كان عليه الحال بين النبى وعمر فلم يكن أحد يعجب بمحمد أكبر من إعجاب عمر .

---

(١) عبقرية عمر ص ٦١ .

(٢) المرجع نفسه ص ٤٠ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٤٠ .

ولم يكن أحد مستقلاً برأيه فى مشورة محمد أكبر من استقلال عمر .

فهو آية الآيات على أن فضيلة الإعجاب لا تغض من صراحة الرأى عند ذى الرأى الصريح .

(فما أحجم عمر قط عن مصارحة النبي عليه السلام برأى يراه ، ولوكان ذلك الرأى من أخص الخصائص التي يقف عندها الاستقلال)(١)

الإنسان فى البطل :

وينتصر العقاد لروعة الإنسانية فى البطل ، فعمر العبقرى إنسان فيه فن وحب للجمال فى كتاب (عبقرية عمر) ، عمر المنوء بهموم الدولة ، عمر الرياضي المشغول بالرياضة البدنية ، فكان يصارع فى المواسم ويسابق على الخيل ويكتب إلى الأمصار أن (علموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر) (٢).

فى كتاب العقاد،عمر إنسان عطوف حتى لينزع الثقة من وال لا يحنو على صغاره ، ويتمدح أمام عمر بأن له عشرة أولاد ما قبل أحداً منهم ولا أدناه ، فيجيبه عمر ولما يزل معه الصبي الصغير الذى كان يجلسه فى حجره يلاطفه ويقبله : « وما ذنبي إن كان الله عز وجل نزع الرحمة من قلبك . . إنما يرحم الله من عباده الرحماء . ثم أمر بكتاب الولاية أن يمزق وهو يقول : إنه إذا لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرعية ؟

---

(١) عبقرية عمر ص ١٤٠ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٩٥ .

عمر فى كتاب العقاد بطل يروع ويعرف روعة البطولة فى غيره (فعمر كان يحب محمداً حب إعجاب ، ويؤمن به إيمان إعجاب ، ويستصغر نفسه إذا نظر إلى عظمة محمد ، وما هو فيما خلا ذلك بصغير فى نظر نفسه ولا فى نظر الناس)[١] .

ومن قوة الشخصية فيه قوة الكلمة الجامعة ومن هذا قوله لقاض يوصيه إذا جلس للحكم أن يدعو الله قائلاً : (إنى أسألك أن أفتى بعلم وأن أقضى بحِلم وأسألك العدل فى الغضب والرضا)[٢] .

ومفتاح منهجه فى رسم الشخصية (كل صفة تتمة لجميع الصفات كما يقول : وكأنما اتفقت لتصبح كل صفة) أو (كل خليقة منها على أتم قدرتها فى بلوغه كمالها وتحقيق غايتها) فلا العدل ينقصه جهل الطبيعة البشرية وضعفها الفطرى،ولا الرحمة يغلبها الهوى فلاتدين بالمساواة، إنما هى ميزات تهديها الفطنة ويعصمها الإيمان برقابة ساهرة فلا تضل ولا تغوى .

ولعل هذا يفسر وصفه لعمر أو لصفاته بـ (التركيبية) ولم يقل : التركيب لأنها تتركب كما تتركب أجزاء الدواء الذى ينفع لغرض واحد مفهوم ، والذى ينقص جزء منه فينقص نفعه كله ويدخله التناقض والاختلاط .

وهو فى رسم العبقرية لا يتكثر بالأخبار والروايات ولو أجمعت على صفة تعزز رأيه أو تؤيد اتجاهه بل هو يفترض الشك فى بعضها ويبيح

---

(١) المرجع نفسه ص ١٣٧ .

(٢) المرجع نفسه ص ٧١ .

إسقاط الكثير منها ثقة منه بإنسانية الشخصية التي اختارها، وامتياز هذه الإنسانية فيها حتى ليبقى منها بعد الشك فى الأخبار والإسقاط ما يدل على خصائصها فى مجال العبقرية الخاصة بها. وسيبقى (ذلك التركيب العجيب الذى هو موضع الإعجاز وموضع الدهشة وموضع التساؤل فى مصادر الأخبار)(١).

والعقاد لا يسخو بوصف العبقرية على كل ذكاء أياً كان نوعه أو باعثه فقد كان عمرو بن العاص ذكياً يعتمد على (لباقته وحيلته وحسن بصره بتواقع الأهواء وذرائع الإرضاء) ولكنه لم يزد عند العقاد عن أن يكون عظيماً من عظماء لا صاحب عبقرية إليه تضاف لأن مزاياه أو سجاياه (مجموعة من الصفات القوية ولكنها على قوتها بسيطة متناسبة يأخذ بعضها ببعض على نحو مألوف غير مستغرب فى أمثال هذه النفس الفطرية. وأعمقها جداً هو أظهرها جداً، أو هو الذى تعمق حتى بلغ من عمقه أن ينضح على قسمات وجهه وحركات جسده) حتى الطموح الذى كان يجيش به إلى فتح البلاد وتغليب الدول وافتتاح المساعى إلى المجد والرئاسة، لم يرتفع به عند العقاد إلى أوج العبقرية ليسامت العباقرة ، لأنه رأى طموحه (قائماً على مطالب الواقع فى بواعثه ومراميه ، فكانت نظرته إلى الدنيا نظرة عملية معروفة الموارد والمصادر ، ولم تكن النظرة الخيالية التى يتسم بها أصحاب الحماسة والأحلام من ذوى الطموح)(٢).

---

(١) عبقرية عمر ص ٥٥ .

(٢) عمرو ص ٢٧ .

المسألة فى عمرو ليست العبقرية بقدر ما هى عارضة قوية هى فى رأى العقاد أنبغ ملكاته حتى بلغ من نبوغها أنها كانت عند الفاروق من آيات قدرة الله ، فكان إذا رأى رجلاً يتلجلج فى كلامه قال : آمنت بالله خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد .

كما أن ملكات عمرو من ذكاء ماض وعزيمة ماضية ولسان ماض وهوى يمضى فى زمامه وينثنى بعد عرامه ، مما يحسب لصاحبها حساب فى كل زمان وجد فيه ، ولكن هذا الحساب تصعد أسهمه فى أيام الفتن والقلاقل خاصة واختلاف الدعاوى والحقوق ، لأنه يستطيع التفريق والتوفيق ويستطيع التأليب والتغليب فهو بهذا كله (عسير جداً أن يهمل شأنه بين الشيع والأحزاب ، وإن لم يكن إهماله فى غيبة الشيع والأحزاب جد عسير . .) .

أى أن عمرو (رجل حالة) لو صح هذا التعبير وليس رجل عصر بعينه أو دعوة بعينها أو مبدأ بذاته .

العقاد لا يسخو بوصف العبقرية من تقديسه لامتياز العبقرى وتفرده . فهو لا يشرك معه إلا من يشائيه . وهو لا يطلق صفة وتبدو فضفاضة على موصوفها . إن اللفظة عنده كالقفاز مفصل على اليد التى تملكه .

إن أوجب ما يوجب كتابة السير (أن تكشف جانب الخير فى أغوار النفس الإنسانية ، لا قصيدة مديح كما يقال ، بل تحية صدق تمتحن بالنار والنور بين ظلمات الشرور)

لم يسم العقاد سيرة عثمان «عبقرية لأنه لا يؤمن بالعبقرية لعثمان رضى الله

عنه ، حين يؤمن أنه ذو النورين : نور اليقين ونور الأريحية والخلق الأمين .

(ومن أبي عليه ميزانه أن يحابي فى كلمة تستدعيها المجاراة لما سبقها من الكلمات ، لن ينظم قصائد المديح فى محراب التاريخ . فحسب النفس البشرية أملاً أنها غنية بالحق عن قصائد المديح فى هذا المحراب)[١].

* * *

وعبقريات العقاد فيها قيم بمثلها تقيم الكتابة والكتاب . فالعقاد فى العبقريات الإسلامية يثبت الإيمان عند الحائر لا بتحلية الوقائع التاريخية أو الترويق الأدبي،ولكن بمناقشة المسائل الشائكة التى يجهر بها العدو ويخافت الصديق .

فى عبقرية محمد ناقش دعوى انتشار الإسلام بالسيف.وإذ سلط على الاتهام عقله ومنطقه تهافت الباطل إذ الإسلام كما يقول العقاد حين حارب بجيوش إنما كان أصحابه يحاربون بوصفهم دولة لا بوصفهم مسلمين،وبوصفه نظاماً لا بوصفه ديناً (هذه الفتوح كانت تفرضها سلامة الدولة إن لم تفرضها الدعوة إلى دينها)[٢].

ويعزز هذا ولا ينفيه فرض الجزية التى جعلها الإسلام ضريبة حرية العقيدة يتحلل بها من الالتزام من لا يريد اعتناقه ، وحتى هذه الجزية رفعها عمر عن أهل الكتاب للسن والحاجة .

و (الإسلام لم يوجب القتال إلا حيث أوجبته جميع الشرائع وسوغته

(١) عثمان بن عفان ص ٢٠٠ .

(٢) عبقرية محمد ص ٥٨ .

جميع الحقوق ، وإن الذين خاطبهم بالسيف قد خاطبتهم الأديان الأخرى بالسيف كذلك ، إلا أن يحال بينها وبين انتضائه ، أو تبطل عندها الحاجة إلى دعوة الغرباء إلى أديانها)[١].

كما ناقش بمثل هذه الفحولة مسألة زيجات النبي وخاصة زواجه من زينب بنت جحش .

أما فى عبقرية عمر فقد ناقش ثلاث مسائل شائكة فى سيرة عمر :

١ — نهيه عن استخدام بعض الذميين .

٢ — منعهم أن يتشبهوا فى الأزياء والمظاهر بالمسلمين .

٣ — إخلاء بعضهم عن الجزيرة العربية فى إبان الفتوح .

فاحتكم إلى منطق العقل وإلى مقاييس السياسة ، والحكم فى الدولة القديمة أى بمعناها القديم والدولة الحديثة .

ومن الحقائق التى جلاها كتاب عمر ، حقيقة : موقف الإسلام من الفتوح هل فى الأمر شهوة السيطرة واللهج بالحكم ؟ أم هو تأمين الجزيرة مهد الإسلام من الدول العظمى التى تهددها وتتحيفها وهى تتاخمها ؟ وهى نقطة يغنى فيها حديث العلم والواقع التاريخى عن دفاع طويل عن اقتران الإسلام فى رأى البعض بالسيف .

كما ناقش العقاد فى (عبقرية عمر) حريق مكتبة الإسكندرية وما إلى هذا من أمهات المسائل .

كما ناقش من متعلقات السيرة :

---

(١) المرجع نفسه ص ٦٠ .

عزل خالد

وحادثة الوأد في الجاهلية . التي (ما نحسبها إلا إحدى جنايات الأغراب على من خلقوا وفي سيرتهم مثال للأغراب والإعجاب)[١].

ولكني أحسبها صحيحة بقرينة الآيات (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإيّاكم) .

* * *

في عبقريات العقاد الإسلامية إضافات كبيرة :

فعمر من عطاءات الإسلام بما طور من حياته وشكل سيرته .

(كان جاهليًّا فأسلم . . . فأصبح إسلامه طوراً من أطوار التاريخ ، ولو لم يكن الإسلام قدرة بانية في التاريخ الإنساني لما كان إسلام رجل طوراً من أطواره الكبار)[٢].

عمر إذن من عطاءات الإسلام ، كما أن مواضع البأس في الإسلام على عصره من معطيات عمر . يعزز هذا سؤال النبي وبه أن يعز الإسلام بعمر الذى وضح أنه أحب الرجلين إلى الله .

وأسلم عمر وحسن إسلامه فكان النبي (يدخر للإسلام سورته كما يدخر له تسليمه وطاعته)[٣].

---

(١) عبقرية عمر ص ٢١٤ .

(٢) المرجع نفسه ص ٩٥ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٤٦ .

وأسلم عمر فكان إسلامه كما قال عبد الله بن مسعود (فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمارته رحمة)[١].

وكتاب عبقرية عمر كتاب (يقرأ . . فيه القارئ قبل كل شيء ماذا يصنع الإسلام بالنفوس ويعلم منها قبل كل علم أن هذا الدين كان قدرة بانية منشئة من لدن المقادير التي تسيطر على هذا الوجود . كان قدرة تلابس الضعيف فيقوى ، وتلابس القوى فتنمى قوته وتجرى به فى وجهته ، وكان يداً خالقة حاذقة تأخذ الحجارة المبعثرة فى التيه فإذا هى صرح له أساس وأركان ، وفيه مأوى للضمائر والأذهان)[٢].

وحسب الكتابة وكاتبها أن تصور حياة فرد فتؤرخ لدين بأسره من خلاله . . . دين هو أحوج ما يكون إلى تصوير قد يدحض عنه التهم ويرحض عنه الأذى ويجلو عن مراميه الشكوك .

ويقارن العقاد فى كتابه « عبقرية الصديق » بين شخصيتى أبي بكر وعمر،أو بين النموذجين الكبيرين فى التاريخ الإسلامى،فيجمع الموقف كله فى تقديم وصف على موصوف يكفى فى الإبانة عما بين عمر والفاروق ، من فروق .

فأبو بكر كما يقول العقاد كان يعجب بمحمد النبي وعمر كان يعجب بالنبي محمد أى أن (حب أبي بكر لشخص محمد هو الذى هداه إلى الإيمان بنبوته وتصديق وحيه .

---

(١) المرجع نفسه ص ١٦٩ .

(٢) المرجع نفسه ص ٨٢ .

وأن اقتناع عمر بنبوة محمد هو الذى هداه إلى حبه والولاء له والحرص على سنته ، وعلى رضاه .

ولهذا كان أبو بكر يطيع محمداً فيفهم القرآن ، وكان عمر يأخذ بالقرآن ، أو بما يفهم من مشيئة الله فيناقش محمداً حتى يثوب إلى الفهم الصحيح .

هما قريبان جد قريبين .

ولكنهما ليسا بشىء واحد على كل ما بينهما من اقتراب)[١].

ويمضى العقاد فى المقابلة حتى ما يتعلق منها بتكوين النبوة وتركيب المزاج فتكون فى جماعها مقابلة بين القوة من نوع والقوة من نوع آخر ، وكلتاهما فعالة ، وكلتاهما ذات أثر فى الإسلام ، وفى العالم ، جليل .

(وإن العقيدة التى تتسع لهذين الرجلين ، ولهذين الخلقين ولهذين العقلين ، ثم يكون كلاهما إماماً فيها ، عظيماً فى اتباعها ، لهى عقيدة تتسع لكثير)[٢] لكأن العقاد موكل بتحريك السطح الراكد، أو تحقيق المفاهيم الثابتة ونفض التلقائية عنها .

فإسلام أبى بكر مثلاً لا يقف به العقاد عند دلالة السماحة والطيبة التى قد تغرى الغرض بتحميلها معنى الضعف أو الاستسلام ، ولكنه يتعمقه كالعادة مستبطناً الأسباب البعيدة . . . والقريبة فإذا إسلامه

(١) عبقرية عمر ص ٨٤ — ٨٥ .

(٢) عبقرية الصديق ص ١٢٨ .

الموقف الذى يتخذه كل إنسان فى مثل مواضعاته وظروفه التى خلت من الموانع حين جفلت بالموجبات وعلى رأسها انطباعه ، سليم الفطرة ، على الإعجاب بالبطولة .

(دان أبو بكر إذن بالإسلام سريعاً إلى دعوته لتلك الأسباب التى تليق به وتليق بالدعوة المحمدية وليس تلقائية ساذجة . فكان جديراً أن يكتب له من اللحظة الأولى أن يكون ثاني اثنين حين يكون النبى هو أول الاثنين . فكان ثاني اثنين فى الإسلام ، وثاني اثنين فى غار الهجرة ، وثانِي اثنين فى الظلة التى آوى إليها النبى يوم بدر الذى لا يوم مثله ، وثانِي اثنين فى كل وقعة من الوقعات بين المسلمين والمشركين ، وأقرب صاحب إلى النبى فى شدة الإسلام ورخائه ، وفى سره وجهره ، وفى شئون نفسه وشئون المسلمين)[1].

هكذا العقاد لا يسرد ولا يقص ولا يتسلى ولكنه يقف وراء التجارب والأعمال والأقوال والظاهرات والأحوال كعلامات طريق . .

* * *

فى (عبقرية الإمام) صوّر عصر على لا بالإنشاء والتحبير ، ولكن بتصرفات أصحابه على مسرحه وأقوالهم وسلوكهم وما وراء هذا من دلالات وعـبر .

كانت الخلافة منذ تولاها عثمان مسرحية كبيرة شغلت أذهان النظارة والنقاد معاً وبلغت الدراما ذروتها بمقتل عثمان .

---

(١) عبقرية الصديق ص ١١٣ .

واعتلى على خشبة المسرح الأصغر وهو الذى استفاضت شهرته وأعماله على مسرح الحياة الكبير فى حربها وسلمها . . فى عملها وقضائها . . فخسرته الحياة ولم تكسبه الخلافة . .

لم يكن صاحب عصره . عاش فى مرحلة تحويلية يسرع فيها الحكم الإسلامى إلى الملك فى سمته وأسلوبه وغاياته ووسائله وكلها تتعارض مع فروسية الشجاعة ، وزهد الروحانية ، وتقوى العالم بالدين . . تتعارض مع الإمام .

(فأى مصير لهذا الرجل غير الشهادة فى زمن لم يعرف بطارئ من الطوارىء كما عرف بالإقبال على الدنيا . . . ؟)[١] .

ومرة أخرى يقول الأستاذ العقاد :

(خرج « على » إلى الدنيا والشهادة مكتوبة على جبينه ، وخرج منها والشهادة مكتوبة على ذلك الجبين بضربة حسام) .

ولكن موته لم تكن هلكاً ، وخلافته لم تكن مقطوعة ، فقد عاش على موته الملوك ، وقامت باسمه الدول ، وهو الذى لم تقم له دولة فى حياته .

وبين البداية والنهاية أو المقدمة والنتيجة عرض العقاد حياة الإمام بألوان عبقريتها فى الشجاعة والرأى والعلم والروح فما فرغ من العرض إلا وفى كل ناحية من نواحى النفوس الإنسانية ملتقى بسيرة على بن أبي طالب رضوان الله عليه . . ملتقى بالعاطفة المشبوبة أو بإحساس الرحمة والإكبار . ملتقى بالخيال حيث تحلق الشاعرية الإنسانية فى أجواء الذين ألحقوه

---

(١) عبقرية الإمام ص ٢٠٤ .

بأبطال الأساطير ، أو ملتقى بالعقل يفصل بنفسه بين اختلاف المختلفين وتشيع المتشيعين .

ملتقى للذوق الأدبي حيث يقع من نوابغ الكلم عند الإمام على مهوى للتذوق الحسن ، للجميل من التعبير .

إن هذه السيرة تخاطب الإنسان حيثما اتجه إليه الخطاب البليغ من سير الأبطال والعظماء ، وتمس قلبه حين يجرى تاريخه وتاريخ أبنائه فى سلسلة طويلة من مصارع الجهاد والهزيمة ويتراءون من بعيد واحداً بعد واحد شيوخاً جللهم وقار الشيب ثم جللهم السيف الذى لا يرحم ، أو فتياناً عوجلوا وهم فى نضرة العمر يحال بينهم أحياناً وبين الزاد والماء وهم على حياض المنية جياع ظماء .

على بن أبي طالب فى كتاب العقاد ، الإمام العبقرى ، والشهيد أبو الشهداء . . .

* * *

ومنهج العقاد مطرد فى كل عبقرياته الإسلامية كأنه علامة مميزة .

هذا المنهج تستطيع أن تطبقه فى (عبقرية خالد) فقد رسم خلفية مادية وإنسانية للبطل تفسر مواقفه وتصرفاته وآراءه ومنازع السلوك عنده .

وهذه الخلفية لا تستثنى خالجة من مشاعر أو ظاهرة من الظاهرات فى بيئة البطل العامة أو الخاصة ولو كانت بعيدة فى رأى العين أو النظرة الأولى عن الموضوع . فجمال المخزوميات يحسب فى خلفية صورة القائد خالد بن الوليد (فقديماً كانت الفروسية والغزل . . والمرأة بيئة واحدة

تتعاون فيها البطولة والشاعرية والجمال)[١] .

يعالج العقاد إسلام خالد فلا يستريح إلا أن يكون إسلامه (تسليم القلب نفض عنه الكفر ، وليس تسليم اليد رمت منها السلاح)[٢] .

ولا يبدأ العقاد عند الأقوال المقررة فيقيم عليها بناءه الأدبي أو التاريخي ولكنه يعرضها على الدرس والتعميق فإذا هو يبدأ من حيث انتهت .

والبدايات عند العقاد جذرية إلى أبعد إمدادات الجذور فى تربة البطل أو منبته المادى والمعنوى على السواء .

فالقول بأن خالد (سيف من سيوف الله) لا يتعلق به العقاد ليعفى نفسه من متناقضات السيرة فيتجاوز بالقارئ أو بالحقيقة العلمية (ميدان حنين) أو صنيع خالد فى سرية بنى جذيمة .

لا . . بل لعل العقاد يرى فى مثل هذه المزالق مجاله الذى يصول فيه بطاقة الجدل عنده وقدرة الإقناع فيه .

يقول العقاد : (كثير من رؤساء الأمم يعرفون موضع الإكليل من رءوس القادة وهم منتصرون ظافرون ، ولكنه موضع يخفى جد الخفاء على أنظار هؤلاء الكثيرين إذا لم يدلهم عليه ضياء النصر والظفر ويبقى للعين الملهمة وحدها أن تراه فى ظلال المحنة والبلاء) .

ويعنى العقاد بهذا القول عين النبي الملهمة فقد سمى خالداً سيف الله (قبل أن يهزم المرتدين وقبل أن يهزم الفرس والروم وقبل أن يصون للإسلام

---

(١) عبقرية خالد ص ٢٧ .

(٢) المرجع نفسه ص ٤٢ .

جزيرة العرب ، ويضم إليها العراق والشام . . وهى الأعمال الجسام التى من أجلها يدعى اليوم سيف الإسلام)[١] .

ولا يتردد العقاد فى تقرير الخطأ إذا قام عليه من الأحداث والروايات ووقائع الحال ، الدليل . ومن هنا أثبت على خالد الخطأ فى وقعة البطاح (لأنها لم تضف إلى فخاره العسكرى كثيراً ولا قليلاً وأهدفته للملام أحمد ما يحمد منه أن له عذراً فيه ، يقبله أناس ولا يقبله آخرون)[٢] .

وقد أثبته عليه عملاً بمبدأ تقرير الخطأ كالتنويه بالصواب (لأن الرجل الذى يخشى على قدره من تقرير أخطائه رجل لا يستحق أن يكتب له تاريخ)[٣] .

ناقش العقاد عزل خالد[٤] فلم يقدم اقتناع خالد عندما أفاء إلى الهدوء بهذا العمل، جنوحاً إلى الأسهل بل أجله إلى آخر المناقشة فانتهى به حيث بدأت النفس القارئة فى الاقتناع . وهنا لم يترك لها فرصة أطول للتفكير أو الترجيح بل انتهى بها إلى قرار معروف إذ توفى خالد (وهو يجعل وصيته وتركته وإنفاذ عهده إلى عمر بن الخطاب)[٥] .

العقاد نفسه إنسان رقيق الإحساس فى الكتابة عن العباقرة والعظماء ..

---

(١) المرجع نفسه ص ٤٨ .

(٢) المرجع نفسه ص ٩٦ .

(٣) المرجع نفسه ص ٩٦ .

(٤) عبقرية خالد ص ١٤٥ – ١٥٣ .

(٥) المرجع نفسه ص ١٥٤ .

فمفخرة خالد بن الوليد أعنى موقعة (اليرموك) قمة نصره الحربي فى تاريخه كله لا تلهى العقاد الإنسان الرقيق عن موضع الدلالة فى قصة (قلنسوة) خالد القائد الظافر ، الذى يصر على البحث عن القلنسوة فى موقف الهول وما هى بالنفاسة التى توجب الحرص عليها أو تؤلم عند افتقادها . ولكن إصرار خالد على العثور عليها إنما كان لتيمنه بها لما حملت من شعر ناصية الرسول .

ويؤمن العقاد على رأى خالد ، أقرب ما يكون إلى القلب الإنساني :

(ما فى ذلك من عجب فليس أحوج إلى صلة بعالم الغيب من رجل يلقى الموت صباح مساء)(١) .

لا يستطيع إدراك فعل هذه الكلمة من العقاد إلا من يقرأ كتابه عبقرية خالد الذى يقيد فيه العقاد أنفاس القارئ ليسمعه يمنطق ويجادل ويفلسف الأشياء الصغيرة حتى تغدو لها قيمة ويصاول الحجة بالحجة ويستقصى حتى يقفل الدائرة تماماً حتى إذا لهث القارئ من التصعيد إليه وحسب أن مهمته صعبة مع الكاتب العالم المحقق وظن أنه عنه بعيد . . بعيد إذا ، به ، منه قريب قريب . . إنسان مثله يحنو على ضعف الإنسان أمام القوة الكبيرة فيتوسل إليها بالتبرك والتيامن . . ونافلة من صلاة .

إن عبقريات العقاد الإسلامية أجدى على الإسلام من حيث هو دين ونظام وعلى الأدب العربي من حيث هو تصوير وتعبير ، وعلى الأدب الإنساني من ناحية إعلائها للشمائل الإنسانية من خير وحرية واستقلال

---

(١) المرجع نفسه ص ١٦٢ .

رأى وشعور بالتبعة وإيثار للعدل . . أجدى على الدين والدنيا فى إجلائها العقيدة واحترامها العقل الإنساني من كتب كثيرة ليس فيها من الجهد والعلم والقيم . . وإن أغنت فى ناحية أو أخرى – معطيات العقاد التى أسداها مخلصاً لله ، وللإنسان عن إيمان . .

والعقاد يعزو تعلقه بالموضوعات الإسلامية وما اتصل منها بالعترة النبوية على التخصيص ، فيما يعزوه ، إلى وراثاته . (ولدت لأبوين من أهل السنة أبي على مذهب الشافعى وأمى على مذهب أبي حنيفة.وفتحت عينى على الدنيا وأنا أراهما يصليان ويتيقظان قبل الفجر لأداء الصلاة « صلاة الصبح » حاضرة ، وربما زارنا أحد أخوالى فى تلك الساعات المبكرة ذاهباً إلى المسجد القريب أو عائداً منه إلى داره .

وفتحت أذني كما فتحت عينى على عبارات الحب الشديد للنبى عليه السلام وآله . فمولد النبي حفلة سنوية فى البيت نترقبها نحن الصغار ونفرح بها لأننا نحن القائمون بالخدمة فيها . وأسماء النبي وآله تتردد بين جوانب البيت ليل نهار ، لأنها أسماء إخوتي أجمعين محمد وإبراهيم والمختار ومصطفى وأحمد والطاهر ويس ، وشقيقتى الوحيدة اسمها فاطمة ، واسمى أنا منسوب إلى عم النبي لا إلى الأمير الأسبق : عباس حلمى كما كان يتوهم بعض معارفى لأننى ولدت قبل ولايته ، وأبيت فى المدرسة أن ألقب « حلمى » جرياً على ما تعودته المدارس فى تلك الحقبة .

ورثت هذا الحب الشديد للنبي وآله عليهم سلام الله ورضوانه ، وليس هذا الحب الشديد بالمستغرب من أهل السنة لأنهم يدينون بدستور

السنة النبوية ، ولكنه كان فى بيتنا أشبه بالعاطفة النفسية منه بالآداب المذهبية فاستفدت منه كثيراً فى دراسة تاريخ الإسلام)[١] .

هل المسألة عاطفة فحسب ؟ عاطفة توجد عند الكاتبين والأمين ؟ لقد استدرك العقاد ، العقل المفكر ، بعد قليل ، فقال وكأنه لمح هذا السؤال خاطراً يسنح بغير حروف .

(قاربت سير العظماء الإسلاميين و « النبويين » لأرضى ذهنى ، ولم يقنعنى أن أرضى بها عاطفة لا أستمد من ذهنى شواهدها وآياتها . فعظماء الإسلام عندى أعلام إنسانية ، باذخة تخولها مكان العظمة ، مناقب يكبرها المسلم وغير المسلم ،وليست غاية الأمر فيهم أنهم أضرحة للتبرك وتلاوة الفاتحة والسلام)[٢] .

حتى فى تأريخه لفاطمة لم يكتبه لأنها بنت محمد أو زوج على ، أو لأنها أم الحسن والحسين وبنيهما الشهداء . ولكنها مع هذه الكرامة قد تكتب لها ترجمة لأنها هى فاطمة ولأنها هى (مصدر من مصادر القوة التاريخية التى تتابعت آثارها فى دعوات الخلافة من صدر الإسلام إلى الزمن الأخير)[٣] .

وعلى ما يبدو من صرامة منطق العقاد خاصة حين يحلل أو يسوق الحجج ، فإنه فى سيرة الحسين يكتب بقلم مغرورق فإذا السطور عن

---

(١) كتاب فاطمة الزهراء والفاطميون ص ٨ .

(٢) المرجع نفسه ص ٩ .

(٣) المرجع نفسه ص ٩ .

سبط الرسول ، مندّاة بالدموع .

هل أستعير عبارته عن الفاروق بن الخطاب : (أكثف ما تكون الدروع ، أرق ما يكون الموضع الذى يليها) .

والعقاد الذى يراه الناس صارماً جباراً ، يرق ويرق فى الكتابة عن الحسين عن أريحية وحب وعطف على موقفه ونفوراً من ظالميه وقاتليه حتى ليقول فيهم وفيه : (ذهب يزيد إلى سبيله وعوقب أنصاره فى الحياة والحطام والسمعة بعده بشهور ، ثم تقوضت دولته ودولة خلفائه فى عمر رجل واحد لم يجاوز الستين .

وانهزم الحسين فى يوم كربلاء وأصيب هو وذووه من بعده ، ولكنه ترك الدعوة التى قام بها ملك العباسيين والفاطميين،وتعلل بها أناس من الأيوبيين والعثمانيين ، واستظل بها الملوك والأمراء بين العرب والفرس والهنود ، ومثل للناس فى حلة من النور تخشع لها الأبصار .

وباء بالفخر الذى لا فخر مثله فى تواريخ بنى الإنسان غير مستثنى منهم عربى ولا أعجمى وقديم ولا حديث .

فليس فى العالم أسرة أنجبت من الشهداء من أنجبتهم أسرة الحسين عدة وقدرة وذكرة وحسبة،إنه وحده فى تاريخ هذه الدنيا الشهيد بن الشهيد أبو الشهداء فى مئات السنين) .

والحسين فى كتاب العقاد ، وكتابته ، سيرة عطرة صافية صفاء النور تلحق بعالم المثال الذى يتطلع إليه خيال الشعراء وتتغنى به قرائح أهل الفن .

وليست هذه ، على قيمتها ، كل ما فعله العقاد ولكنه كشأنه ناقش

قضيتها مناقشة معمقة خدَّم لها فحولة منطقه وقدرته فى الجدل والقياس . وكأنه كان يكتب ليقنع (بالحسين) المخالفين والأولياء على سواء .

ولا يخدم قضية مهما تراءت قوتها ، قدر مواجهة آراء الطرف الآخر ومناقشتها ودراستها حتى لا يحيك بالنفس شك فيها قد تخفيه ولا تبديه ، وقد تداريه ، ولكنها فى الحالين لا تصل إلى مرتبة الصدق الخالص غير مشوب ، وهى مرتبة اليقين .

* * *

وبعد فالعقاد بمجموعة كتاباته الإسلامية الجامعة دعوة واضحة إلى الاعتزاز بالتراث فى صوره المشرقة . وإن كان من علماء التاريخ من يرى إبراز الجانب المشرق فى عبقريات العقاد الإسلامية نهجاً لطريقة الكماليين من علماء الأخلاق ، غدا منهجاً . (ومن هنا فعبقريات العقاد الإسلامية ليست سيراً بالمعنى التاريخى المألوف ، وإنما هى صور أخلاقية قلما يحتفل فيها بالأحداث والوقائع) . . ثم التطرق من هذا إلى نقد (التركيز على جانب واحد من جوانب التاريخ خدمة لأهداف مباشرة فهو سلاح ذو حدين ، إذ أنه يقدم للقارئ ، كبيراً وصغيراً ، أنماطاً غير إنسانية لا تتحرك إلا فى عالم آخر غير عالمنا هذا)(١) .

على أن هذا الرأى كان يمكن أن يكون أكثر مطابقة لو أن العقاد

---

(١) من مقال (عباس العقاد مؤرخاً) للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى . الهلال العدد الرابع — السنة الخامسة والسبعون عدد خاص (العقاد) .

كتب ترجمة فحسب ثم اجترأ بالجانب المشرق دون الجانب الآخر ، ولكن العقاد منذ العنوان صرح بأنه يقصد (العبقرية) .

على أن العقاد لم يقتصر على الأنماط العزيزة أو التى لا تتحرك إلا فى عالم آخر غير عالمنا هذا ، فقد كتب العقاد عن إنسان (مجهول القدر منحوس الحق يصطلح على بخسه والنزول به عن قدره جهل النقاد وظلم الأغراض والأهواء) . ذلكم هو الشاعر المغبون : ابن الرومى .

الفصل الرابع

العقاد والمرأة

والآن نفرد فصلاً للحديث عن المرأة فى أدب العقاد كما أفرد لها هو فصلاً فى كتابه عن جيتى . وكتاب يتحدث عن الجمال والحرية والشخصية الإنسانية لا يجوز أن يغفل المرأة فهذه العناصر الثلاثة محور حياتها .

وفى حياة العقاد نماذج للمرأة كتلك التى فى حياة جيتى ، فالعقاد يكاد أن يكون مثل صاحبه الذى أحب طائفة شتى : منهن الفتاة والنصف ، ومنهن الشقراء والسمراء ، ومنهن التى أحبها للرشاقة والدماثة ، والتى أحبها للحب والمتعة ، والتى أحبها للذكاء والحصافة ، والتى أحبها للعطف الأنثوى الذى يحتاج إليه الرجل الشاعر فى حياته النفسية .

ولكن أحب إنسان إلى قلبه من النساء أو الرجال كانت أمه التى تشى كتاباته عنها بتفضيله لها على أبيه . . .

وحين يتكلم الأستاذ العقاد عن العبقرية والشخصية الإنسانية فإنما يقصر حديثه ، إذا استثنينا عقيلات بيت النبوة كالسيدة النجيبة المنجبة فاطمة الزهراء ، والصديقة بنت الصديق ، – من واقع الشخصيات التى خصها بإعجاب – على الرجل أقولها أنا السيدة بأسف عاتب . بل إن الأمر تجاوز هذا إلى التصريح بتفضيله الرجل على المرأة فى غير مواربة بل فى قسوة

أحياناً كثيرة . وهنا ألمح كتابه (المرأة فى القرآن الكريم) فهو يرى فى القوامة الواردة فى القرآن الكريم أنها مستحقة **بتفضيل الفطرة** وأن قوة الجسم فى الرجل وراءه سبب من فضل (فإن الجنس لا يمتاز فى جملته بقوة الجسد ، دون أن يرجع ذلك إلى فضل فى التكوين يوجب الامتياز والرجحان) .

وهل قوى الحيوان كالأسد والنمر مثلاً أفضل فى التكوين من الإنسان لعامل قوة الجسم ؟

المرأة وظيفتها الأولى فى الحياة لا تحتاج إلى ضلاعة الجسد ، بل تحتاج إلى تكوينها الخاص بها المرسوم بحيث ينهض بالأمومة .

والمرأة – من حيث الشكل – تهوى الجمال لا القوة أى أن تكون جميلة فى استدارة لا مفتولة الساعدين ، بل إن المرأة (القوية الجسد) والبنيان تعاب فى عرف النساء وتوصف بأنها : « رجل » .

وحين افترض الأستاذ العقاد (النقص فى التكوين) بنى عليه الكثير فعنده من النادر جداً أن يوجد بين النساء من تبدع الجمال فى فن من الفنون ، سواء كان الشعر أو التصوير أو الموسيقى أو التمثيل .

ويعارض الرأى الذى يعزو تخلف المرأة فى الفنون الجميلة إلى الحجر عليها فى صور الجهالة الأولى فهو يرى أن الحجر (كان شاملاً للضعفاء من الرجال والنساء على السواء ومع هذا نبغ الشعراء والفنانون من طبقة العبيد والسوقة) .

وتهدر حجج العقاد :

(المرأة لم يحجر عليها فى الغناء والعزف ومع هذا لم يتجاوز حظها من

الغناء طبقة الأداء الحسن إلى طبقة الخلق والإبداع) .

وإن كان الأستاذ العقاد قد نسى قوله في غمرة الفرح بشفاء أم كلثوم الذى أوحى إليه قصيدة رقيقة منها :

أيها الكوكبُ الـــذى أسْعَدَ الأرْضَ باللِّقـاء
ردِّدِى الطرفَ فى الفضا ء ، وما أرحَبَ الفَضاء
واسأليهِ ســؤال مَنْ يُلحِنِ الطيرَ فى الهـــواء
هل سرَى فيهِ مثلُ صـو تك فى الحُسْنِ والنَّقـــاء
فى قديمٍ من الزمان أغ نى وفى حاضر سواء
لا أحاشى من الرجا لِ قبيلاً ولا النِّساء
. . . .
لا تُجيبِى . أنا المجيـ ـب ولم أغْلُ فى الثَّنـاء
أنتَ كالشَّمس لا تُعدُّ د فى هذه الســماء

ديوان بعد الأعاصير

ومن حججه المماثلة ، الطبخ والتطريز والتجميل من الصناعات التى تفوق الرجل فيها وكان الظن أن تكون الصدارة فيها للمرأة .

وأرى أن مرجع ذلك إن الرجل يمر بمرحلة شبه دراسية من التمرين فى المطبخ حتى يصل إلى « طباخ » لأنه يستعد للاحتراف فى البيوت والفنادق . أما المرأة فلا تفكر عادة فى الاحتراف بهذه الصورة . إن المقصود بالطبخ عندها أسرتها الخاصة أو (أسرة) غريبة إذا دعاها داعى الحاجة إلى العمل بالمنازل .

على أن معاهد التدبير الآن بمن فيها قادرة على ابتداع الأصناف والافتنان فيها وتنويعها وتحسينها . أما من جهة الآداب فقد نجحت المرأة فى الآداب على كافة المستويات . فالمسألة ليس فيها استحالة حادة.ومثل هذا يقال عن موضوع التطريز والتجميل .

يقول الأستاذ العقاد :

(وتنوح المرأة على موتاها ، وتتخذ النواح على الموتى صناعة لها فى غير مآتمها ، ولم تؤثر عن النساء قط فى لغة من اللغات مرثاة تضارع المراثي التى نظمها الرجال) .

وأقول : هنا أيضاً يتعلق الأمر بقدرة النظم.وهذه يترتب عليها الحفظ والذيوع.ولكن بين (عديد)-النساء ما يفجّر الصخر.وقد دخل فعلاً فى عداد الفنون القولية أو الشعبية على الأقل . على أن أشهر مراثي الأدب العربي ما أثر عن الخنساء .

ومثل هذا قاله عن الرقص وهنا أيضاً لا يمكن إطلاق الأمر قاعدة . إن المرأة التى استطاعت أن تدرس الطب والهندسة وتنجح فيها تستطيع أن تدرس الرقص وغيره مما أثير وتبلغ فى نجاحها مبلغ الرجل ، وتستطيع أن تفوقهم كما فاقتهم أحياناً كثيرة فى ألوان الدراسات الأخرى . والأستاذ العقاد نفسه يقول بهذا ولكن على سبيل الاستثناء الذى يؤيد القاعدة ولا ينفيها ! لماذا ؟

إن أشهر نجوم فن الباليه راقصات مثل بافلوفا و « أولانوفا » و « ايزادورا » .

لأن فضائل الأجناس فى رأيه (لا تقاس بالنصيب المشترك بل

تقاس بالغاية التى لا تدرك ولا تؤخذ بالاستثناء الذى يأتى من حين إلى حين ، بل بالقاعدة التى تعمم وتشيع بين جملة الآحاد . وقد يوجد بين الصبيان من هو أقدر على أعمال الرجال ، بل قد توجد فى أثناء الليل ساعة أضوأ من بعض ساعات النهار ، وإنما تجرى الموازنة على الغايات القصوى ، وعلى الأغلب الأعم فى جميع الأحوال . وما عدا ذلك فهو الاستثناء الذى لا بد منه فى كل تعميم) . ص ١٨

لماذا إذن لم يأخذ بهذه القاعدة عند الحديث عن نبوغ العبيد من الرجال ؟ قاعدة الأغلب الأعم ؟

حتى النكتة يستكثر الأستاذ العقاد على المرأة النفاذ إليها ! (إنها قليلة الفطنة للنكتة ، إلا فى الندرة التى تحسب من الفلتات العارضة) .

حتى هذا ! !

والنظافة ليست من خصائص الأنوثة إلا لاتصالها بالزينة ، وحب الحظوة فى أعين الجنس الآخر . (ولو لم تكن النظافة « قيمة خلقية » مفروضة عليها بإشراف الرجل على حياتها العامة وحياتها الخاصة ، لكان استقلالها بنفسها وشيكاً أن يضعها موضع الإهمال والاستثقال) .

وردى أن بين الأرامل والجدات مولعات بالنظافة دائبات عليها ولا رجال هناك يشرفون على حياتهن العامة أو الخاصة .

ترى لماذا ربط الأستاذ العقاد المرأة فى كل شىء ، حتى فيما يتعلق بالطبيعة الإنسانية المشتركة بين الرجال والنساء ، بالرجل كأنها كلبه الأمين ؟

حتى صفة (الحياء) عندها أو الاحتجاز الجنسى كما يسميه ،

يعده (من الغريزة التي يتساوى فيها إناث الحيوان . وليس من الإرادة التي يتميز بها نوع الإنسان بجنسيه) .

وأقول الاحتجاز الجنسي لا يتساوى فيه. الإناث سواء من الإنسان أو حتى الحيوان والدليل من القرآن نفسه . وهنا يكون الاحتجاز الجنسي عند من تتمسك به إرادة ، وقيمة أخلاقية . وهو حياء وليس مجرد اضطرار يدعي أنه (الحكم القاهر الذي فرضته عليه وظائف الأعضاء) .

حياء تفاضل فيه المرأة بين ما يحسن وما لا يحسن وبين ما يليق وما لا يليق وما هو أعلى وما هو أدنى وهو (ضبط نفس وقدرة على الامتناع) .

وهو امتياز يحسب لصاحبه كما أقر الأستاذ العقاد نفسه بعد قليل في حديثه عن الحواجز الجنسية ومنه (الرجل الذي يقدر عليها هو رجل ممتاز في خلقته الطبيعية كالمرأة التي تقدر عليها . وكلاهما زوج أصلح من غيره للبقاء وإنجاب الأبناء) .

وليس بصحيح أن المرأة تستعصم بالاحتجاز الجنسي (لأن الطبيعة جعلتها جائزة للسابق المفضل من الذكور ، فهي تنتظر حتى يسبقهم إليها من يستحقها فتلبيه تلبية يتساوى فيها الإكراه والاختيار) .

إن تلبية المرأة حين تلبي يسبقها اختيار منها وإرادة ورغبة تفضيل وليست التلبية البلهاء أو العشواء .

وعنده أن المرأة متناقضة. ومع تسليمه بأن (الشخصية الإنسانية) في حالي الذكورة والأنوثة عرضة لكثير من النقائض المحيرة للعقول : عقول الرجال وعقول النساء ولكنه يرى التناقض في المرأة أغرب وأكثر !

وهو يعرف مقدماً رد المرأة فيجاهر به قبلها ولا يبالى فيورد أمثلة المرأة فى هذا الباب من نحو تشبيهاً الرجل بالبحر المالح وشهر أمشير . . . إلخ .
ويعلق على هذا فى طرافة تبدد غضبنا نحن النساء أو الكاتبات على الأقل من قبيل الفن للفن : يعلق الأستاذ العقاد على الأمثلة النسائية :

(وكم لهن من أمثال هذه الأمثال مما لا يحفل به الرجال)(١) .

أكلت حواء من الشجرة وزينت لآدم أن يأكل مثلها .

وقد لخص الأستاذ العقاد قصة الأنثى فى (هذه الشجرة) التى غدت عنواناً لأحد كتبه بعد أن رآها عنوان ما فى المرأة من خضوع يؤدى إلى لذة العصيان ، ومن دلال يؤدى إلى لذة الممانعة ، ومن سوء ظن ، وعناد ضعف ، واستطلاع جهل ، ومن عجز عن المغالبة ، وعجز عن الغلبة بغير وسيلة التشهية والتعرض والإغراء)(٢) .

حتى حين يظن به أنه يقر لها بتفضيل فإنما هو مدح معكوف أو ذم ملفوف ، فالحمل تضحيتها الكبرى (قد أتاح للمرأة مزية فطرية لا تتاح لزوجها على وجه اليقين ، وهى ضمان نسلها بغير دخل ولا ارتياب . فكل من ولدت المرأة فهو وليدها الذى يستحق عطفها وحنانها ، وليس ذلك شأن الآباء فيما ينسب إليهم من الأبناء)(٣) .

وتبلغ القسوة منتهاها حين يقول (إن النساء يوكلن إلى الفطرة فى

---

(١) هذه الشجرة ص ٩٧ .
(٢) « « ص ١٥ .
(٣) (المرأة فى القرآن الكريم) ص ٤٤ .

أخلاق الغرائز والعادات ولكن لا يصح أن يتركن فى الأخلاق الأخرى، أخلاق الإرادة والضمير – بغير إيحاء شديد ، بل إكراه يتجاوز حدود الإيحاء) .

وتضحيات الأمومة تتساوى فيها مع بعض إناث الحيوان وليست فضلا لها أو فضيلة ! !

يخيل إلى أن الأستاذ العقاد كتب هذا الكتاب فى فترة عداء كبير لامرأة من النساء .

إن من النساء من هن مثال الوفاء للإنسان والمكان والقيم والأوطان عن إرادة وضمير وبغير إيحاء شديد أو ضعيف وبغير إكراه يتجاوز حدود الإيحاء . والدليل إجلال المرأة لمكانته الفكرية والأدبية حتى بعد صدور هذا الكتاب ، والعدل فى الغضب ، والانتصاف عند افتقاد الإنصاف ذروة من ذرى النفس والضمير . والكتاب لا يخلو مع هذا من بارقة إنصاف للمرأة فى بعض القضايا كقضية الشهادة التى يحملها الناس معنى تفضيل الرجل على المرأة وهى ليست كذلك . . فالمسألة ترجع إلى طبيعة المرأة العاطفية . إن الدين الإسلامى إذ يشترط شهادة امرأتين حين يكتفى بشهادة رجل واحد فإنما كان ذلك كما يقول الأستاذ العقاد لأن (النساء لا يملكن من عواطفهن ما يملكه الرجال) . على أن القرآن الكريم طالب من مقتضيات الحيطة لحماية البرىء وإنصاف المظلوم أن يزاد عدد الشهود من الرجال .

وهنا يتسمح الأستاذ العقاد وتستحيل غضبته على المرأة إلى رفق هادئ فيقول توضيحاً لهذا الموقف من مواقف الدين : (ولقد يوجد من

لنساء من تقوم شهادة إحداهن بشهادة ألف رجل ولقد يوجد من الرجال لوف لا تقبل منهم شهادة ، ومع هذا من مصلحة المجتمع قياساً على الأعم الأغلب أن يحتاط فى الشهادة على الوجه الذى رسمه الله) .

وفى مسألة الميراث يرى مسوغ : (زيادة حصة الأخ لا فى أفضلية له ولكن فى مسئوليته عن نفقة أخته ، وأن الابن يعول من لا عائل لها من أهله ، وأن رب البيت عامة هو الزوج أو الأب أو الرشيد من الأبناء والإخوة ومن إليهم ، وتقرير وجوب السعى على الرجل أولى وأصلح من تقريره على المرأة التى يظلمها من يساويها به فى واجبات السعى على المعاش ، مع نهوضها بواجب الأمومة والحضانة وتدبير المعيشة المنزلية) .

لقد عانت المرأة من الجدل السياسى الذى عاشه العقاد قبل كتابه عن المرأة كما عانت من مزاياه : **الإرادة الحديدية والفحولة** .

ومع كل هذا فسواء أهاجم الأستاذ العقاد المرأة أم هادنها **فقد دان لها وقبّل منها الوجه بل اليدين وجاش باللمع وجاش بالشعور** وما ارتوى على كثرة العب وطول الرشيف . إن شعره فى هذه الناحية ينكر نثره . . . شعره الرقيق فى الغزل ، ينسخ عرام منطقه فى الجدل .

ومن شعره فى (ليلة الوداع) :

وألثُمُه كيما أبَرِّدَ غُلَّتى ... وهيهاتَ لا تَلْقَى مع النار راويا
فقبَّلتُ كَفَّيْه وقبلّت ثَغْرَه ... وَقَبَّلتُ خديْه وما زلتُ صاديا
كأنا نذودُ البَيْنَ بالقُرب بيننا ... فنشتدُّ من خوفِ الفراق تدانيا
كأن فؤادى طائرٌ عاد إلفُه ... إليه فأمسَى آخرَ الليلِ شاديا

إذا ما تضاممْنا ليَسكُنَ خفقه ... تنزَّى فيزداد الخُفوقُ تواليا
أوشِّج فى كلتـا يديْه رواجبى ... وشيجاً يظَلُّ الدهرَ أخضرَ ناميا
وتلمسُ كَفِّى شَعْرَه فكأننى ... أعارِضُ سَلسالا من الماء صافيا
وأشكُوه ما يَجنِى ، فَينفِرُ غاضباً ... وأعطِفُه نحْوِى فيعطفُ راضيا
ولما تَقَضَّى الليل إلا أقلَّــــه ... وحان التنائى جشْتُ بالدَّمع باكيا[1]

دائماً الفرد الممتاز يتخذ نفسه ظاهراً أو باطناً ، أراد أم لم يرد ، مقياساً للآخرين . وسيراً مع هذا المنطق ، فإن العقاد ما دام خلق رجلاً ، فالرجل إذن أحسن من المرأة بعامة . . . والعقاد بالذات أحسن ، بصفة خاصة من (سارة) التى عذبته . . وكل سارة . . أليس رقيقاً ناعماً ؟ يتحنن ويترضى ويقبل الخدين بل اليدين ؟ ماذا تريد المرأة من مظاهر الغلبة الآسرة أكثر من هذا ؟

ويزيد هذا قيمة أنه لا يفعله للتشهى أو التلهى ، بل إنه يحب المرأة لذاتها . . لا للجمال .

نَبِّئِينِى ، فلَسْتُ أعلَم مــــاذا ... منك قلبِى بحُسْنِه مشْــــغوفُ
كلُّ حسْنٍ أراكِ أكبرَ منـــــه ... إن معنـــاكَ تالـدٌ وطــريـف
لستُ أهـــواكَ للجمال وإن كا ... ن ذكاءٌ يُذْكى النُّهىَ ويشـــوفُ
لستُ أهـــواك للدلالِ وإن كا ... ن ظريفــاً يصبُو إليه الظـريفُ
لستُ أهـــواكَ للخصالِ وإن ر ... فَّ علينا منهنَّ ظـــلٌّ وريـفُ
لســت أهـــواك للرشـــاقة والـرِّ ... قة والأنس وهو شـــتى صنـــوف

---

(١) يقظة الصباح .

أنا أهواكِ (أنت) أنت فلا شـ　　ىءَ سوى (أنت) بالفؤادُ يُطيفُ
إن حبًّا يا قلب ليس بمنســـــ　　ـيكَ جمالَ الجميلِ حبٌّ ضعيفُ (١)

بل إنه نزه المرأة عن شهوة الجسد وثار عليها حين تردت :

تُريدين أن أرضى بك اليوم للهوى　　وأرتادُ فيكِ اللَّهوَ بعدَ التَّعبُّدِ
وألقاكِ جسماً مُستباحاً وطالمــا　　لقيتُكَ جَمَّ الخوفِ جَمَّ الترددِ
رويدكِ إنِّي لا أراكِ مليئــــةً　　بلذةِ جُثمانٍ ولا طيبِ مشهدِ
جمالُكِ سُم في الضلوع وعَثرةٌ　　تردُّ مهاد الصفوِ غيرَ مُمَهّـدِ
إذا لم يكنْ بُدٌّ من الحانِ والطِّلَى　　ففي غيرِ بيتٍ كان بالأمس مسجدي (٢)

طراز آخر من الرجال . . فيه نصاعة القمم . . .

مرة أخرى أعود إلى رقيق غزله بعد التجنى تجنى صاحب (كأس على ذكرى) . . . تجنى القائل :

صوتُ النذيرِ الذى أبقاكِ خائفةً　　على ذِراعى قُولِى كيف أخشاه ؟
أو البَشيرُ الذى يدعوكِ ثانيـــةً　　إلى الطريقِ لعَمْرى كيف أرضاه
الحبُّ والحربُ وا ويلا قد اجتمعا　　فى القَلبِ فانقلبَتْ أحوالُ دنياه !

وله فى الصدار المشهور :

هنـــا مكانُ صِدارِكْ　　هنا هنا فى جِوارِكْ
والقلبُ فيـــه أسيرٌ　　مطـوَّقٌ بحصارِكْ

* * *

(١) أشجان الليل ص ٣١٦ .
(٢) أشجان الليل ص ٣٣٢ .

نسجتـــــه بيديْـــكِ على هُدًى ناظريْــــك
إذا احتـــوانِى فـــإنى ما زلتُ فى أصبعيْكِ (١)

العملاق يتطامن ولكن للحبيب ! فحسب . . .

هو ينتقص المرأة أو على الأقل يراها دون الرجل ولكنه يضعف أمامها حتى ليصرح مرة أنه بين أصبعيها وتارة لدى قدميها ! ! هذه أبياته :

أبيات العملاق الذى ما دان حتى للطغاة يلقى سلاحه ويقول :

أريد التى ألـقَى سلاحى وجنـتى إليها وألقاها من البَـأْس أعـْـزَلا
وأطـرَح أعبــاء الجهادِ وهَمَّـــه لدَى قَدميْها مُغَمَضَ العيْنِ مُرسِلا
وأنتِ إذا أقبلتِ أقبلتِ جحفَـلاً وجردت أسيافاً وشيَّدت معقِــلا
فإن تهزمينى فاهـــزمى عن بصيرة مريداً لأسـباب الهزيمة مقبلا (٢)

ويقول :

أهجوكِ يا أكْـرمَ من أمدَح ومن بإطرائى لهـــا أصــــدَحُ
أُهجــوكِ والتَّسبيحُ أحـرَى بِمــا أجَدُّ فيـــه اليـومَ أو أمـــزحُ
قـــاســـيةٌ أنتِ ولـــكننِي أُقَبِّـــل الكفَّ الـــتى تَجـرَحُ
وأعظَـــمُ القســـوة تِلك الـــتى يَلهوبها المجْروحُ ، بل يَفْـرحْ (٣)

وفى (أعاصير مغرب) قصيدة بعنوان (هذا هو الحب) .

بلا نواح أو جراح أو سهاد أو دموع أو خضوع ذليل ، عرف العقاد الحب : شفافية ، وفهم ، وغفران ، وإعذار ، وبهر ، وإحجام ، وإقدام ،

---

(١) أعاصير مغرب ص ٣٥ . (٢) أشجان الليل ص ٢٩٩ .
(٣) ص ٣٠٢ .

وسكر بغير خمر ، وخمر بلا دنان ، وعمران وعهدان ، وارتفاع فوق الذرى ، وهبوط تحت الثرى ، وإيثار للذة ، وآلام تُرى آثراً . . . جنة ونار ورى وسعار ، وفيض من الوحي والشعر ، وغيض من النظم والقصيد :

مسـألةٌ أسهلُهـا صـعبُ
لا الناسُ تَدريهـا ولا الكتْبُ
حَسْبُكَ منهـا ، لو شفَتْ حسْبُ
إشـارةٌ دقَّ لهـا القـلبُ

المرأة فى شعر العقاد هى الدنيا :

ماذا من الدنيا – لعَمْرى ، أريدْ ... أنْتِ هى الدُّنيا ، فهل من مَزيدْ ؟
فيـكِ لنـا نورٌ ونارٌ معـاً ... وأنجُمٌ زُهْـرٌ وأفْقٌ بعيـدْ
وفيـكِ روضٌ مسـفِرٌ عاطـرٌ ... وجـوهرٌ حـرٌّ ودُرٌّ نضِيـدْ
ونَشْـوةُ الخمـرِ إذا قوبلَتْ ... بنَشْـوةٍ منكِ متـاعٌ زَهيـدْ
والفـن إن لم تكُ نجـواه منْ ... نجـواكِ لغـوٌ باطل لا يُفيـدْ
وكل ما فى الـكـونِ منَ رَوْعـةٍ ... لهـا نظيرٌ فيـكِ حىٌّ جديـدْ

أشجان الليل

وكأنه بعد الكفين والقدمين تذكر شموخه وصفات العلم فيه والذكاء ، أو لعله تذكر كتابه (هذه الشجرة) أو كتابه الأشد قسوة (المرأة فى القرآن الكريم) ، فبرر جنوح قلبه بقوله إن ثروته من الوفرة بحيث لا يضيرها تبديد درهمين ! !

أكـذبينى مـرةً أو ... فأكـذبينى مرتـيْن

ألف ألف من أعاجيـ — ـبك فى غِشٍّ ومين
لن تبيدَ الفارقَ الخا — لِدَ يا قُرَّةَ عيني
والسماواتِ الـتى بيـ — ـنكِ فى اللُّبِّ وبينى

* * *

أكذبينى واكذبينى — كلما شئتِ اكذبينى
ما غَناء اللبِّ عندى — ان أبى أن تخدَعينى
أنا فى ثَروةٍ وفْـر — منهُ مهما تسلبينى
أنقِصيها . أى ضَيْرٍ؟ — درهمـاً أودرهمين ! !

تبرير على أى حال .

* * *

وحين قرأت كتابه (فى بيتى) اشتهيت أن يفتقد المرأة فى هذا البيت ولكنه لم يفعل ! حين تحدث حديثاً طويلاً عن كتبه . . عن النور . . . عن . . . ولكن شعره وشى به فى نفثة من نفثات النفس :

ظمآنُ ظمآنُ لا صوبُ الغَمام ولا — عذبُ المُدام ولا الأنداءُ تَروينى
حيرانُ حيرانُ لانجمُ السماء ولا — مَعالِمُ الأرضِ فى الغَمَّاء تهدينى
يقظانُ يقظانُ لا طيبُ الرقاد يُدا — نينِى ، ولا سمر السمار ، يُلهينى
غصَّانُ غصَّانُ لا الأوجاعُ تُبلينى — ولا الكوارثُ والأشجانُ تُبكينى
أسوانُ أسوانُ لا طبُّ الأساة ولا — سحرُ الرقاةِ من اللَّأواء يَشفينى
سأمانُ سأمانُ لا صفوُ الحياةِ ولا — عجائبُ القَدَر المكنون تَعنينى
أصاحبُ الدهرَ لا قَلبٌ فيسعِدُنى — على الزمانِ ولا خِلٌّ فيأسُونى(١)

---

(١) وهج الظهيرة .

وإذا عرفنا أن العقاد أحب أكثر من مرة وظفر بالحب ، تبينا أن القلب الذى يعنيه هنا إنما هو القلب الباقى . . قلب الزوجة . ويؤكد هذا الأبوة الكامنة فى شعره والتى تظهر فى وصفه للطفولة ودلها، ووصف والد متحنن (قصيدة بين محمد وعزوز) . وصورته الطريفة التى رسمها لطفلة يداعبها :

ما كان أملحَ طِفلةً   من غير شىء تَخجلُ
ضاحكتُها فتمايلتْ   وشعُورهـا تتهـدَّلُ
ورجَوْت منها قبلـة   فأبَتْ كمَنْ يتـدلَّلُ
وتعبتُ وهى تصدُّنى   حيناً وحيناً تُقبِـل
فرفعتُ مرآة لهـا   فتطلعت تتأمَّـل
قلتُ انظرى فى وجهِها   أفأنتِ أم هى أجملَ
قالت وفيها غضبـةٌ   أنا بالملاحَةِ أمثَـلُ
ومضت تقولُ إلى متى   تنسَى الجميلَ وتجْهلُ
وأقـول أيكما إذن   أدعُو بهـا فأقبلُ
عطفت علىَّ وكل مجبو   ب يَغـار فيسهُل (١)

بقى سؤال يلوح فى الخاطر . . ما رأى العقاد فى الجمال ؟

والجمال فى المرأة هو « الحرية الموزونة » قياساً على قاعدته فى الجمال إنه الحرية .

وكأنه يلمح (نفرتيتى) . أو (نفرتارى) . . . جمال (المصرية) فى

---

(١) يقظة الصباح .

العصور الأولى أيام كان (المصريون فى عظمتهم قبل آلاف السنين يستجملون من الأجسام كل حر رشيق ويجعلون الأمثلة العليا للجمال تلك الصور التى توشك أن تطير من الخفة كما نراها على بقايا الآثار) .

الجمال المصرى القديم الذى ثاب إليه العالم كله بعد الحرب العالمية جمال النحافة والرشاقة والنسج الدقيق .

ويرى هذا الذوق فى الجمال مقياساً على تقدم الأمة حين يدل الشحم واللحم على تأخرها وركودها ركود البطء والكسل حتى ترى (الكثافة الواهنة) كما يسمى الأستاذ العقاد ، البدانة ، مقياس الملاحة ! وجمل المحمل أو (التختروان) مثال الحسن المطلوب فى النساء .

ومن طريف قوله فى هذا : (تعلو المرأة السمينة وتهبط فى مشيتها وما تنتقل شبراً واحداً فى أقل من خطوتين ، والمقرظون من حولها يهللون ويكبرون ويباركون الخلاق العظيم ويعوذون هذا الجرم الذى لا تمضى فيه السيوف . . من لحظات العيون ومن حسد الحاسدين) .

وبمناسبة الجمال ، يقول الأستاذ العقاد إن أقبح رجل فى عين المرأة أجمل من جميلات جنسها.ويلح عليه هذا المعنى حتى على الشاطئ والفتنة من حوله يقظى تصول وتجول . وترى عينه إحدى العرائس تقبل صاحبتها فيغبطها أو يحسدها لست أدرى :

راحت إلى ترب تخاصرها كلتاهما فى ضحوة العمر
راحت تخاصرها وتلثمها وتضمها حيناً إلى الصدر

لا تلثمى فمها فما ظمئت   يوماً لريقك والثمى ثغرى[١]

وقد أوضح العقاد فى (سارة) الصفات التى تعجبه فى المرأة وإن كان فصَّل هذه الصفات على مقاسه هو إذ يقول :

(هو قليل المرح فيروقه من المرأة أن تكون مرحة بغير تكلف ، ولا مبالغة ، ويسمى المرح الذى يزين المرأة ويشوق الرجل مرحاً « موقعاً » تشبيهاً بالغناء الذى ينطلق انطلاقاً وينبعث انبعاثاً ولكنه يقف حينما يحسن به الوقوف . ويسكن حينما يطلب منه السكون ، ويقف ويسكن على اقتضاب موحش وانقطاع ناشز ، ولكن على نغمة تفصل اللحن من اللحن أو على قافية تختم البيت بعد البيت ، فهو الوقوف الذى يريح ويشوق ويزيد لذة الإيقاع وطرافة السماع .

وهو يحب من المرأة الزينة التى تغرى من يبصرها إغراء لا يخفى ، ولكنها لو أنكرته وزعمت أنها لم تتعمده ولم تفكر فيه لما استطاع أحد تكذيبها ببرهان .

وهو يحب المرأة التى تدرك الفكاهة ويكره التى تتخذ من فكاهتها صناعة أو معرضاً مفتوحاً فى كل ساعة ، وأقرب دليل عنده على إتقان المزاجين هو دليل « نيتشه » الذى يقول إن الضحك من نكتة واحدة هو العنوان الواضح على تقارب الضاحكين فى المزاج والتفكير ، وما انفصل اثنان بفاصل هو أبعد من ابتعادهما فى تمييز النكات .

وهو يحب ربة البيت التى تكون أول خادمة فيه لأنها سيدته الوحيدة ،

---

(١) يقظة الصباح .

ويحتقر المرأة التي تأنف من تلويث يديها فى مطبخها كما يحتقر الرجل الذى يأنف من تلويث يديه فى حقله أوحديقة داره .

وهو يحب المرأة التى تستطيع أن تكون « إنساناً » فى بعض الأوقات بمعزل عن الأنوثة والذكورة ، فلا تكون الأنوثة الحيوانية هى كل وظيفتها فى الحياة)[١] .

وقد ظفر العقاد فى دنيا القلب بذلك النموذج الذى تخيله أوحدده ، ظفر به مفرقاً ومجمعاً . فكانت الحبيبة الأولى (إنساناً) وكان (يحبها الحب الذى جعله ينتظر الرسالة أوحديث التليفون كما ينتظر العاشق موعد اللقاء ، وكانا كثيراً ما يتراسلان أو يتحدثان وكثيراً ما يتباعدان ويلتزمان الصمت الطويل إيثاراً للتقية، واجتناباً للقيل والقال، وتهدئة من جماح العاطفة إذا خافا عليها الانقطاع . . ولكنهما فى جميع ذلك كانا أشبه بالشجرتين منهما بالإنسانين ، يتلاقيان وكلاهما على جذوره ، ويتلامسان بأهداب الأغصان ، أو بنفحات النسيم العابر من هذه الأوراق إلى تلك الأوراق .

وكان يغازلها فتومئ إليه بأصبعها كالمنذرة المتوعدة ، فإذا نظر إلى عينيها لم يدر أتستزيده أم تنهاه ، ولكنه يدرى أن الزيادة ترتفع بالنغمة إلى مقام النشوز . وكان يكتب إليها فيفيض ويسترسل ، ويذكر الشوق والوجد والأمل ، فإذا لقيها بعد ذلك لم ير فيها ما ينم عن استياء ، ولم يسمع منها ما يدل على وصول الخطاب ، وإنما يسمع الجواب باللحن والإيماء دون الإعراب والإفصاح) . ويبدو أنه جاراها فى أسلوبها – وقد كانت صاحبة

---

(١) سارة ١٣٨ – ١٣٩ .

أسلوب – فكنى عنها باسم (هند) ولم يصرح باسمها المعروف الذى كان هو الآخر كناية عن الاسم الأصلى الثابت فى شهادة الميلاد .

وحبه الثانى أى « سارة » . . لون آخر ولكنه يقابل النموذج الذى رسمه للمرأة المفضلة عنده فى مواضع شتى .

وصف العقاد سارة بأن (لونها كلون الشهد المصفى ، يأخذ من محاسن الألوان البيضاء والسمراء والحمراء والصفراء فى مسحة واحدة . وعيناها نجلاوان ، وطفاوان ، تخفيان الأسرار ولا تخفيان النزعات ، فيهما خطفة الصقر ودعة الحمامة ، وفمها فم الطفل الرضيع لولا ثنايا تخجل العقد النضيد فى تناسق وانتظام ، ولها ذقن كطرف الكمثرى الصغيرة ، واستدارة وجه وبضاضة جسم لا تفترقان عن سمات الطفولة فى لمحة الناظر . وبين وجهها النضير،وجسمها الغضير،جيد،كأنه الحلية الفنية سبكت لتنسجم بينهما وفاقاً لتمام الحسن من كليهما . . فليس هو جيداً كأى جيد . . ولكنه الجيد الذى يوائم بين ذلك الوجه وذلك القوام) (١).

ولقد كانت سارة وهند على مثالين من الأنوثة متناقضين تفرقت صفاتهما فى ذاتيهما واجتمعت الصفات والذوات عند العقاد حتى بعد أن غابت الغريمتان .

(كلتاهما أنثى حقًّا لا تخرج عن نطاق جنسها ، غير أنهما من التباين والتنافر بحيث لا تتمنى إحداهما أن تحل محل الثانية ، وتوشك أن تزدريها .

---

(١) سارة ص ٩٣ .

فإذا كانت سارة قد خلقت وثنية فى ساحة الطبيعة فهند قد خلقت راهبة فى دير ، من غير حاجة إلى دير .

تلك مشغولة بأن تحطم من القيود أكثر ما استطاعت ، وهذه مشغولة بأن تصوغ حولها أكثر ما استطاعت من قيود ، ثم توشيها بطلاء الذهب ، وترصعها بفرائد الجوهر .

الحزن الرفيع والألم العزيز شفاعة عند هند مقبولة ، إذا لم تكن هى وحدها الشفاعة المقبولة ، أما عند سارة فالشفاعة الأولى بل الشفاعة العليا هى النعيم والسرور .

تلك يومها جمعة الآلام ، وهذه يومها شم النسيم .

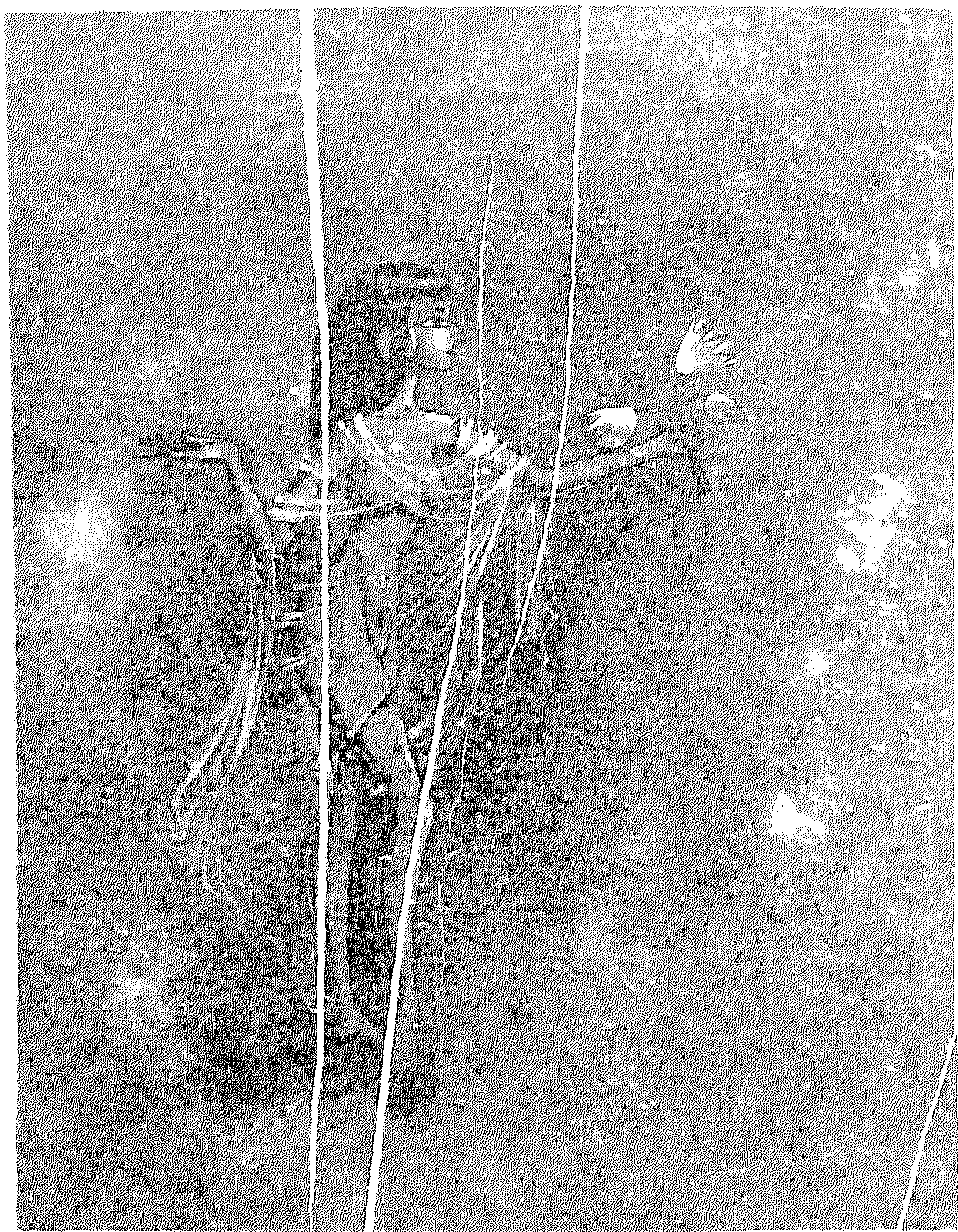
تلك تشكو ويخيل إليك أنها ذات أرب فى بقاء الشرور تستديم بها معاذير الشكوى ، وهذه تشكو كما يبكى الطفل لينال نصيباً فوق نصيبه من الحلوى .

تلك مولعة بمداراة نقائصها لتبدو كما تتمنى أن تكون ، وهذه مولعة بكشف نقائصها لتمسح عنها وضر الخجل والمسبة وتعرضها فى معرض الزينة والمباهاة .

تلك لها عدة المتانة والمجاملة ، وهذه لها عدة الرخاصة والبساطة .

لو عملت تلك عمل الرجال لانتظمت فى السلك السياسى ، ولو عملت هذه عمل الرجال لانتظمت نديماً فى حاشية أمير مفراح .

كلتاهما جميلة ، ولكن الجمال فى هند كالحصن الذى يحيط به الخندق ، أما الجمال فى سارة فكالبستان الذى يحيط به جدول من الماء



النمير ، هو جزء من البستان لا حاجز دون البستان ، وهو للعبور أكثر مما يكون للصد والنفور.

تلك ذات طموح وهم ، وهذه تحسب الواقع الذى يواتمها خيراً وأشهى من كل مطمع ومن كل همة .

تلك تعطيك خير ما أعطت على البعد والحيطة ، وهذه تعطيك خير ما أعطت على القرب والسرف .

كلتاهما ذات ثقافة وألمعية ، لكن ثقافة هند إلى المعرفة ، وثقافة سارة إلى الفطرة . .

يقول العقاد – الذى هو فى القصة . . . « همام » .

(ما زالت الصور النسائية تتوارى وتتهافت فى بديهة همام حتى احتجبت كل صورة إلا هاتين الصورتين المتقابلتين إحداهما قائمة فى محراب ، والأخرى بائقة كالزهرة من زبد العباب .

وتعاقبت الأيام فأصبحت إحداهما صورة فنية نفيسة لا تقوم بمال ومثلت الأخرى كما كانت تمثالاً من لحم ودم)[1] .

ولكن ذلك كتب قبل أن يلتقى العقاد بالفاتنة المصرية السمراء التى تركت له بدورها صورة مشهورة رسمها له أولها الفنان صلاح طاهر .

* * *

طويلة قصة العقاد مع المرأة ولعله لخصها فى هذه السطور :

(حواء أخرجت من جنة ، وبناتها كل يوم يُخرِجن من جنات . .

---

(١) سارة ص ١٦٤ .

فهل المرأة ضرة الجنة تغار منها غيرة الضرائر ؟ لا ندرى . . ولكنها هى المرأة أبداً لا تريد للرجل أن ينعم بغير نعيمها أو يسعد بغير سعادتها ، وليس يعنيها أن تفرح معه كما يعنيها أن تكون سبب فرحه وينبوع سعادته دون كل ينبوع . وربما أرضاها أن تكون سبب ألمه وألمها ، ولم يرضها أن تشاركه السعادة الوافية ، إن كان للسعادة سبب سواها)[١].

والجملة الأخيرة تشى بمكانة المرأة عند العقاد أو نظرته إليها سواء رضى عنها أو رضى عليها .

إن المرأة فى الحالين تريد أن تكون شغل الرجل الشاغل . . وقد كانت . . من واقع أدب العقاد . . لقد كتب العملاق عن المرأة ستة كتب :

الإنسان الثانى — سارة — هذه الشجرة — المرأة فى القرآن الكريم — الصديقة بنت الصديق — فاطمة الزهراء .

وقد أشرت إلى الأربعة الأولى فى ثنايا هذا الحديث والآن نقف وقفة عند كتابيه عن أم المؤمنين عائشة وأم الشهداء فاطمة الزهراء .

وأم بطل كربلاء لم يكتب لها العقاد ترجمة كما سبقت الإشارة لأنها بنت محمد أو يكتب لها ترجمة لأنها زوج على أو يكتب لها ترجمة لأنها أم الحسن والحسين وبنيهما الشهداء ولكنها مع هذه الكرامة كتب لها ترجمة لأنها هى فاطمة ولأنها هى مصدر من مصادر القوة التاريخية التى تتابعت آثارها فى دعوات الخلافة من صدر الإسلام إلى الزمن الأخير .

---

(١) سارة ص ١٤٦ .

وإلى فاطمة الزهراء تنسب فضائل بنيها وإن كانوا ورثوها عن على كما ورثوها عنها ولكن الأستاذ العقاد رأى هذه الخصال (إلى ميراثهم من الزهراء أقرب منها إلى ميراثهم من الإمام)(١) .

وأوضح سمة فى شخصيتها عنده (الجد) وفى خلائقها منه مدد صالح (للثبات على الحق الذى يعتقده صاحبه ، أو يذاد عنه فلا ينكص عنه على رغم)(٢) .

وهذا الثبات رسم مسيرة أبنائها على طريق التاريخ الإسلامى .

فإذا كانت الزهراء قد غوضرت وهى فى الثلاثين أو قبل الثلاثين فمعنى هذا كما يقول الأستاذ العقاد أن هذا الجد وهذا اليقين وهذه العزة وهذه الإرادة ظهرت منها وهى فى تلك السن الباكرة فذاك عنده (دليل على قوة كامنة يرجع إليها حين يفسر المفسرون خلائق بنيها وما عساهم قد استملوه من هذا الميراث المكين)(٣) .

وهذا الإقرار من الأستاذ العقاد فى دلالته العامة كسب للمرأة قبل أن يكون كسبا للسيدة البتول .

أما السيدة عائشة فقد ترجم لها مثلاً من أمثلة الأنوثة الخالدة فى جميع أقوامها وجميع عصورها .

* * *

فالأستاذ العقاد لم يستطع أن يغفل المرأة أو يغفل عنها وكيف وقد بلغ

---

(١) ص ٧٢ كتاب فاطمة الزهراء . (٢) ص ٧١

(٣) ص ٧٣ .

من قوة أثرها فيه أو عليه أنه جفا من جفوتها طريقاً كان رفيقاً إذ شهد وسمع السر والنجوى (فأصبح بعد الخصام كل خطوة فيه كأنما تثقل النفس بآكام فوق آكام من الذكريات والآلام . وكانت كل زاوية من الزوايا كأنما تخفي فيها رصيداً من الشياطين الثائرة والعقبان الكاسرة وكان اجتناب تلك الطريق أسلم الأمور وأهون المحذورات) (١)

ليس للمرأة أن تتغضب من العقاد فقد أغضبته هي الأخرى ، ثم نسي غضبته ونسيت ولم يبق إلا إكبارها له وإكبارها لوقفته المبكرة معها سنة ١٩١٢ حين نادى بتعليم المرأة تعليماً عاماً لا تعليماً نسوياً مصعداً بها إلى الأفق الأعلى من الثقافة الإنسانية الرحبة .

(١) سارة ص ١٠ .

الفصل الخامس

الإنسان فى شعر العقاد

كان العقاد إنساناً حين اختار شخصياته التى كتب عنها وحين اتهج هذا الأسلوب فى الكتابة والتفسير . والعقـاد حين أعلى من كرامة الإنسان كانت هذه عنده رسالة التزمها فى كل ما خطت يده نثراً أوشعراً . ونستطيع أن نرى قيمة هذا إذا عرفنا أنه نشأ فى أواخر القرن التاسع عشر وبلغ مبلغ الرجال فى الثلاثينات من القرن العشرين . أى عندما كان الشاعر نديماً لكبير،أوسميراً فى مجلس،أو بوقاً للملك أو ظلاً لآخرين تحت مختلف الأسماء . أيام كان الشعر مدحاً والشاعر مداحاً على طريق وطريقة الشعر العربي القديم وهو ما ندد به الجاحظ فى بيانه هاجمـه العقـاد والمـازني وشكرى ، أعمدة مدرسة الديوان ، هجوماً عنيفاً فى مطلع الحياة الأدبية. منتصرين لكرامة الإنسان ثائرين على هوان الشاعر فى القصيد الكاذب والنظم الأجوف . وقد تركت هذه المدرسة بصماتها على الحياة الأدبية.

وليس معنى هذا أن العقاد لم يمدح قط ففى ديوانه (أعاصير مغرب) قسم خاص بالمدائح والمراثي ، ولكنه إذا استثنينا مدحته فى (فاروق) فإن مدحه الآخر قيل فى أناس كانوا يحترمونه بقدر احترامه لهم ، بل كانوا يعرفون لقلمه سطوته . ألم يدعه سعد (الكاتب الجبار) ؟ وقد مدح العقاد

سعداً الذى أكبره ، عندما كان الوفد يمثل الشعب . وفى قصيدته (يوم المعاد) ينبع كل شىء من مصر والشعب .

ورثا العقاد ، سعداً ، بقصائد تهمى تنتظم ما يقرب من مائتى بيت (١٨٧ بيتاً) فى ديوانه (أشجان الليل) فيها صدق اللوعة وزفرة الأسى .

ومدح العقاد إعجاب رزين فلم يكسف الشمس لأحد ولم يحشد له ألوان صيغة (أفعل) .

على أن مدحه (لفاروق) إنما كان فى مطلع عهده عام ١٩٣٨ أيام كان مرجى (فى طالع الأيام مرتقب ولم يكن قومنا يختلف منهم اثنان على حب فاروق فى ذلك الوقت . وكان حبنا له أمل ورجاء وعطف على صباه الأعزل وهو الملك ! فنحن شعب عاطفى كنا نراه يتيماً والعرش تحته . ومع هذا فقد ذكّره العقاد فى مدحته (بالشورى) .

وقصيدة فاروق لا تخلو من طرافة . فيحكى الأستاذ العوضى الوكيل فى كتابه (العقاد والتجديد فى الشعر) أن الأستاذ العقاد وقف يلقى القصيدة وعندما بلغ البيت الثامن قال فاروق لمن حوله (لقد كان والدى أحق بهذا) وسمعها العقاد فطوى الورقة وجلس ولم يكمل القصيدة ، وكانت أزمة كبرى ، استمرت ثلاثة أيام وانتهت بأنه – ترضية للعقاد واعتذاراً له – يدعوه الملك إلى حفل شاى بيخته الراسى أمام مرسى مطروح ، ويقول العقاد (إن القدر لم يشأ أن تتم حفلة الشاى فثار البحر ومنع الوصول إلى اليخت . . . وعاد العقاد إلى الإسكندرية) .

* * *

إن المسألة ليست المدح فى ذاته وعلى إطلاقه فقد مدح العقاد ورثا كلبه (بيجو) شعراً ونثراً، إنما ملاك الأمر شخصية الشاعر وإحساسنا بذاتيته الإنسانية أى إحساسنا بذاتنا من خلاله ولا عليه بعد هذا أن يقول ما يريد وفى أى إطار يشاء .

ومثل هذا رثاؤه . فقد رثا السلطان حسين والرثاء فى رأيي مدح للميت وما خرج عن مألوف قاعدته لأن السلطان حسين كان عهده قصيراً خفيفاً يحتمل :

مرت ثلاث سنيه وهى كـأنهـــا صبح غداة الأمس حـل ظلامه
مرت مخففة الصروف سريعـــة وكذا الرخـــاء سريعة أيامـــه

ولكنه فى جملته رثاء من قبيل (اذكروا محاسن موتاكم) ليست فيه الفجيعة أو حتى الحزن . ولكنه حين رثا نبي الوطنية المصرية « محمد فريد » ، تفطر أسى :

أطلقْت وُجدانِي ومثلُك يطلِـــقُ فالنفسُ تألَّمُ والجوانِحُ تخفِـــقُ
مرَّتْ بِيَ الأيـــام أنكر كلمـــا يُبدِى الخيالُ وما يُعيـــدُ المَنطقُ
أجفُو الكلامَ ، وقد يُغوِّثُ مكتَـو ناج ويسكتُ فى اللَّظَى من يخْنَقُ
أسَفِي عليكِ وقد تقسَّمكِ الضَّنَى والشَّوْقُ والألم المِلِحُّ المصعِـقُ
فى عالمٍ يسَعُ المـــدائنَ والقُـرى فإذا طلبتَ الحقَّ فهو المـــأزقُ
وغلوتُ كالشَبحِ المـردَّد كلَّمـــا دجَتِ الحوادثُ يستثارُ فيطـرُقُ
مَثَلتْ لعينى صورتاك فـــرابَنِي نظرى ولـــكن الفجائعَ تصدُقُ
أكذا تحور النفس فى أجسادها أكذا يحول الرونق المتـــألـــق

في هـــذه سَمَتِ الحياةُ ، وهذه ... فيها الحيــاةُ بقيــةٌ تتعلَّـــقُ
وهنا الطَّماحُ المشرئبُّ . وها هنــا ... سأمٌ على رغمِ التجلـد محـدِّق
شكلان ما اختلف اختلافُهما على ... بُعْــدِ الوشيج مغــربٌ ومشرقُ
حالت مجالى البِشْرِ وانطفأ السَّنى ... في وجهكِ الضاحِي وغاضَ الرونَق
في خمسةِ الأعوامِ بُدِّلَ كلُّـــه ... إلا سماحــةَ ماجدٍ لا تَخلُــــق
وتساءل الأحبابُ كيف تــرونَــه ... فتلعثموا حذَر الجــوابِ وأطرَقُــوا
وأتى النعىُّ فقــــال كُلٌّ مروَّع ... اليوم تُبتَذل الدموعُ وتُهــــرَقُ
ما مات قبلَك يا فــريدُ مجــاهد ... إلا وأنت الســابِقُ المتفـــوِّقُ

لم يرث العقاد أحداً من الحاكمين كما رثا رجال مصر . لم يمدح أحداً من الحاكمين كما مدح « رمسيس » في اعتزاز الحى بنفسه ، والمصرى بأمسه ، والوطنى بكرائم تاريخه وآيات مجده .

لجلالِ وجْهِكَ يا ابن (سيتى) هيبةٌ ... تعنو لهـــا الآمادُ فهِى هَبَــــاءُ
لمــا وقفتُ لديكَ زالت أعصـرُ ... بيني وبينــكَ وانطوت آنـــاء
وتقشَّعَتْ عنى الدهور فها هنـــا ... تلك الديار وها هنــــا القُدَماء
فخر الملوك رجاء عفــوكَ عنهـم ... ورضـــاك أكبرُ ما ابتغَى الأمـراء
والأمرُ أمركَ مـــا قضيتَ فنافــذٌ ... فيهم وما لم تَقضِ فهــو هبــــاء
والنيلُ يجرى حيثُ سار عليه من ... أجنـــادِ عصرِكَ عصبةٌ زهـــراءُ
وكأن طيبةَ والهيـــا كلُّ حولهــــا ... ملءُ الفضـــاءِ أواهلٌ شَمَّــــاءُ
يشدو بذكركَ شيْخُها ورضيعهـــا ... وبحبِّــك الســـادات والوضَعاء
في كل يومٍ يستطـــيرُ جنـــانُهم ... نصرٌ يزف ومنحـــةٌ غــــــراء

لسمعت (بنتاعور) يُنشِدُ شعرَه ... فتهزُّ ساحةَ قصرك الأصداءُ
ورأيتُ قصرَك فى المدائنَ يحتمِى ... فيه الضعيفُ ويجبت العُظماءُ
والقوم حولك خاشعون كأنهم ... يحمى (أمون) لجمعهم إصغاءُ
تلْقَى الوفود العائدين وكلُّهُمْ ... بيضاً وسوداً ، أعبدٌ وإماءُ
ثم انتبهت كأنما هى فى الكرى ... رؤيا تُلفِّقُ نسجَها الظلماءُ
فبكيتُ مصرَ وهل يفيدُ إذا جرى ... حُكْمُ القضاء على الديارِ بُكاء (١)

وهى طبقة من المدح لم يبلغها فى شعره حاكم فى عصره ، وهو دليل صدقه النفسي والفني. ومصر الفرعونية لم تبرح منه الفكر والقلب حتى فى أطلال بعلبك التى خاطبها بقوله :

آتاكَ من الوادى الذى فى ضِفافِه ... تسامىَ (لآمون) البناءُ المدَعَّم
يُحيِّيكَ عن (آمون) فى مستقَرِّه ... وأنت المحيِّى باسمه والمُسلِّم

على أن العقاد فى كتابه (شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى) قال كلمته فى المدح ومقياسه والذى يعتقده (إن شعر المديح من أفضل المقاييس لقياس حال الأمة والشاعر والأديب فى وقت واحد . فيخطىء من يظن أن الأمم المترقية لا تمدح أولا تقبل المدح من شعرائها . إذ المديح جائز فى كل أمة ومن كل شاعر ، فلا ضير على أعظم الشعراء أن يصوغ القصيد فى مدح عظيم يعجب به ويؤمن بمناقبه ، ولا ضير على الأدب أن يشتمل على باب المديح بين أبوابه الكثيرة التى يعرفها الغربيون أو الشرقيون . وإنما الخلاف فى نوع المديح لا فى موضوعه على إطلاقه

(١) وهج الظهيرة ص ١٩١ .

فمديح الأمم المتعلمة غير مديح الأمم الجاهلة ، والشاعر الذى يملك أمره يتبع فى مدحه أسلوباً غير الذى يتبعه شاعر مغلوب على أمره ، ومكانة الأديب فى الأمة تظهر أتم الظهور من أساليب الشعراء فى هاتين الحالتين ، فلن يقال إن للأديب مكاناً فى الأمة والشاعر مضطر فيها إلى إذلال عقله وتسخير كرامته فى مديح لا تسيغه العقول ولا يليق بالرجل الحر المريد لما يقول . ولن يقال إن الأمة متعلمة والمبالغات الشعرية فيها تؤخذ مأخذ الجد والوقار ، وهى أقرب إلى الهزل والهجاء المستور . أو لن يقال إن الأمة حرة تشعر بوجودها وأنت تقرأ مدائح شعرائها فلا ترى فيها ذكراً لغير الرؤساء ، ولا ترى فى الصفات التى يمدحون بها صفة ترجع إلى الأمة وتعتمد على تقديرها أو تستفاد من خدمتها والعمل بمشيئتها) (١) .

وشعر العقاد فيه إنسانية حتى فى وصف الأشياء فنور المنار (أرق يقلب مقلتى ولهان) ووميضه على البحر أفكار وأشجان وهو (كالبيت يجمع بعد شتيت النوى : شمل الأحبة فيه والإخوان) .

وهو إنسان حين يودع شعره التجارب الإنسانية وآلام الإنسان تحت وطأة كل الظروف ، وآماله وغروره وأوهامه ومطامعه .

فقصيدة الشاعر الأعمى فيها عذاب إنسان محروم من النور الذى يجود به الأفق لعين الذئب فلا يرى جمال العيون فى المها ولكنه يرى لحمها والشحم ، ولا يرى در الجيد فى الغيد كالجوهر ولكنه يرى الدم عالقاً بالمخالب . ويلمح قلبه البشر عميقة القرار لا حاجة بها إلى النور الذى تهدره

(١) ص ١٨ - ١٩ .

الشمس فيها أو تريقه فوق الرمال . وتبلغ المأساة قمتها فى هذا البيت ينفثه الشاعر الحزين :

وهل كنتُ أخْشَى المـوتَ إلا لأنه ‏ ‏ سيحجبُ عنِّي حسن تلك المناظر(١)

إنسان وهو يعيش تجربة العقاب الهرم الذى يهم ويعييه النهوض فيجثم فى عجز يعمق خطوطه ترنيق الصرصور وصياح القطا . لكأنه طريد السماء كما طرد إبليس من الجنة .

إغفاءته فزعة خائف ، وغمضته حلم ماض ذهبى ولى ولن يعود. وتأتى اللفتة الإنسانية الكبيرة فى هذا البيت :

لعينـــكَ يا شيخَ الطيورِ مهابَــةٌ ‏ ‏ يفـــر بغاثُ الطَّـيْرِ عنها ويُهْزَمُ

مع كل هذا العجز والضعف يشفع الماضى القوى الجسور . إذن لن تذهب سابقات الأعمال وإن أتت من طائر . لكل كائن ما قدم بين يديه .

* * *

وهو يألم للضعف الإنسانى الذى يغافل الضمير الحى فينسى العهود ويجحد الجميل . وتعمق خطوط الصورة فى مقطوعته (خمارويه وحارسه) — مشيراً إلى قصة الأسد الذى كان يحرس خمارويه — بالمقارنة بين الأسد والإنسان :

أليْسَ من العَجــائبِ أنَّ لَيْثــاً ‏ ‏ يَذودُ رعيــةً عمَّنْ رعاهـــا ؟

وأن يَحمِي ابنَ آدمَ من أخيـــه ‏ ‏ سِباعٌ جَلَّ أن يُدْعَى أخـاهــا

وثِقْتَ بِذِى حفاظٍ ليس يـرشِى ‏ ‏ ولا يَنْسَى الحقــوقَ لمن حباهـا

---

(١) يقظة الصباح .

وهم قتــلوكَ حين وثقتَ منهــم   وكم حَفِظَ العهــودَ فما اعتداها .
ولــو شهد اغتيالَكَ فى دمشــقٍ   لضرَّجَ بالجنـاية من جناهـا (١)

تجربة لعلها واحدة من تجارب كثيرة جعلته يتساءل فى الديوان نفسه : أين الحقيقة ؟ ولم ينتظر الجواب بل أودعه فى هذه الأبيات :

أين الحَقيقةُ ؟ لا حقيـ   ـقَةَ كل ما زَعموا كلامْ
الناسُ غَرْقَى فى الهوى   لم يَنْجُ غِــرٌّ أو إمــامْ
إن الحقيقة غــادةٌ   كالغيدِ يُضمِرُها اللثامْ
كلٌّ يَهيمُ بهـا فــإن   لاحَتْ لَهُمْ صَدُّوا وهاموا
كم أشرَفَ الحَـقُّ الصر   احُ فأعرضَتْ عنه الأنامْ
والناسُ لو تَدْرى خَفـا   فيشَ يَطيبُ لها الظلامْ
لا حـــقَّ إلا أنــــه   لا حَقَّ فى الدنيا يــرام

شعره فيه أبعاد وأعماق :

وهو لا يعفى نفسه من التأمل والتعمق حتى فى حضرة الجمال الذى (يقف عليه تحيته وحياته) فما يلبث أن يخاطبه :

أُوتيتَ من حُسْنِ الشمائلِ نِعْمَــةً   والحسنُ فى الدنيــا من الآفات
هو جوهرٌ يُجنِى عليــكَ وميضُــه   عدوانُ سُرَّاق وحقــدُ عُفَـــاةِ
والحسـنُ يعْشَقُه الكريمُ وربمــا   أضْرَى لئيمُ النَّفسِ بالنزعـــاتِ
كالبــدرِ يأتمُّ السراةُ بنــورِه   ولقد يُضيء مواقــعَ الشبهاتِ (٢)

---

(١) يقظة الصباح .

(٢) يقظة الصباح ص ٣٢ .

وكأنه يحس غرابة عظته للجمال فيقول معللاً :

إني ليؤلمني الجمالُ إذا هَوَى فارتدَّ بين أبالسٍ وغـواة
أقسى القلوبِ تلينُ إن هى أبصَرَتْ ورقاءَ نهبَ قشاعِمٍ وبزاةِ

وناقش العقاد الشاعر الخلود فى الآخرة فى قصيدته الكبرى (ترجمة شيطان) وطاف بما يدور فى أخلاد المنكرين من معان . . معانى الشك واليأس والحيرة والضلال أيضاً . . وانتهى منها بأن الراشد سيمضى والغوى سيزول ويبقى الفن وحده (يستهوى العقول) .

الفن أبقى من القوة . . . فالكروان :

ما ضر من غنى بمثل غنائه أن ليس يبطش بطشة العقبان

الفن يحيى الميت ويرد الروح :

إذا شيَّعوني يوم تُقضَى منيَّتي وقالوا أراح اللهُ ذاك المُعذَّبا
فلا تحملوني صامتينَ إلى الثَّرى فإنِّي أخافُ اللَّحْدَ أن يتهيبا
وغنُّوا فإن الموتَ كأسٌ شهيَّةٌ وما زال يَحْلو أن يُغَنَّى ويشرَبا
وما العيشُ إلا المهدُ مهد بنى الرَّدَى فلا تحزنُوا فيه الوليدَ المغيَّبا
ولا تَذْكروني بالبكاءِ وإنما أعيدُوا على سَمْعِي القصيدَ فأطربا

يقظة الصباح

وبمناسبة الخلود نذكر سخريته ممن يعنون أنفسهم بنقد العصاة والكفار . . . وما فطنوا أنهم (بكفرهم) يريحونهم من المنافسة فى الجنة ومزاحمتهم فيها :

نَقِمُوا على الكُفَّارِ أن تَركوا لهمْ أجرَ السَّماء وأنكروا ما أنكروا

لوكان ما وعدوا من الجنات فى هذى الحياة لسرهم من يكفر

كما سخر من المقادير التى ترزق الغنى بغير حساب ، الفصاحة والحب والغفران والسيادة وخدمة الناس .

وسخر من تقوى المشيب :

أبعد الشيب ترغب فى الصلاح وتزهد فى المدامة والملاح

فرغت من الحياة ، فأنت ترجو حياة فى الفراديس الفساح

رجعت عن الحرام فأنت عندى عجزت عن المحرم والمباح

فما تقوى الشيوخ سوى اضطرار كتقوى اللص بات بلا سلاح

يقظة الصباح

وأجرى العقاد فى ديوانه (وهج الظهيرة) حوارا طريفا بين المعرى وابنه بالغيب نابعا من بيت أبى العلاء :

وإذا أردتم بالبنين كرامة فالحزم أجمع تركهم فى الأظهر

يا أبي طال فى الظلام قعودى فمتى أنت مخرجي للوجود ؟

طال شوقى إليك فاحلل قيودى

يا أبي عالم الظلام مخيف ليس يقوى عليه طفل ضعيف

فأجزني من ظله الممدود

ما الوجوه الحسان ؟ ما النوار ما الدرارى ؟ ما الفلا ؟ ما البحار ؟

إن دأب الوليد حب الجديد

لى جدود وليس لى أبوان ولئن شئت آن فيكم أوانى

وتمليت قسمتى فى الوجود

ولكن أباه . . . أو أبا العلاء يقنعه بآرائه المعروفة . واقتنع الصغير واكتفى بالانتظار حتى التقيا فى اللحد .

وفى شعره عنصر الفكاهة . والفكاهة من أخص خصائص الإنسانية حتى ليعرف البعض الإنسان بأنه حيوان ضاحك .

أفضى إليه صديق بأن كلبته ولدت فقال يبارك للنفساء ويحيي المولود :

أعْلِنِي (يافلورة) الأفراحا ... واملئى الأرض والسماء نُباحا
ما حَبى الدهرُ بنتَ كلبٍ بأعلَى ... من ذراريك عنصراً ولقاحا
أبشِرِى دولَةَ الكلابِ بجَروٍ ... سوف ينفى عن جيلِه الأتراحا
ما تَقضَّى الأسبوعُ إلا تمشَّى ... يذرع الدار جيئةَ ورواحا

ويرمز ويسخر سخرية ملفوفة :

سوف يُدْعَى على الكلاب أميراً ... يُفزِع الأسدَ وثبةً وصياحا
يلبَسُ الطوقَ من نُضارٍ ودُرٍّ ... ويحوكُ الخزَّ الثمينَ وِشاحا

ويعود إلى مدح وليد (فلوره) وهو المترفع عن المدح حفاظاً على كرامته :

ما مدحتُ الأنامَ يوماً وإنِي ... لستُ آلوكِ يا كُلَيْبُ امتِداحا
أعجَمَ الناسُ فى الوداد ومازا ... ل بنو الكلب فى الوِداد فِصاحا
إن عِيَّ اللسانِ خيرٌ من النُّط ... قِ إذا كان للأذاةِ سلاحا
وسُعارُ الكلاب أهونُ شرًّا ... من سُعارٍ يمزِّق الأرواحا

يقظة الصباح

وحديثه عن وفاء الكلاب يذكرنا بحزنه على كلبه (بيجو) الذى بلغ فيه أعلى درجات الإنسانية حين يسع عطفها كل شيء وتتجاوب مع الحيوان

وتتحد بالطبيعة :

حزناً عليه كلَّما لاح لى
بالليل فى ناحية المنزل
مُسامِرى حيناً ومُستقبِلى
وسابِقى حيناً إلى مدخَلى
كأنه يعلم وقتَ الرجوع

* * *

حزني عليه كلما عزّني
صدقُ ذوى الألبابِ والألسُن
وكلما فوجئت فى مَأمَنى
وكلما اطمأننْتُ فى سكنى
مستغنياً . أو غانياً بالقنوع

* * *

أبكيكَ . أبكيكَ وقل الجَزاء
يا واهبَ الود بمَحضِ السخاء
يكذب من قال طعامٌ وماءُ
لو صَحَّ هذا ما محضْتُ الوفاء
لغائب عنكَ وطفلٍ رضِيع (١)

(١) أعاصير مغرب .

ومن الفكاهة صورة غير عابرة رسمها لعسكرى المرور فى ديوانه (عابر سبيل) :

متحكِّمٌ فى الـــراكبين وما له أبداً ركـوبَـــه
لهـم المثـوبةُ من بنـــا نك حـين تأمر والعُقوبه
مُرّ ما بدالك فى الطريقِ ورُضْ على مَهَلٍ شُعوبه
أنا ثائر أبـــداً ومـــا فى ثـوْرَتِي أبـداً صعوبه
أنـا راكبٌ رجلى فـلا أمْرٌ علىَّ ولا ضريبـــه

* * *

وكذلك راكب رأســه فى هذه الدنيـا العجيبـة

* * *

حتى فى الفكاهة لا ينسى (الحرية) أو النفرة من الأوامر والنواهى.

ومن مداعباته الفكهة لأصدقائه، قصيدته عن كلب الشاعر طاهر الجبلاوى :

حزناً على كلب طاهرٍ فإنه طـاهرُ الـكـــلاب
تَشابها فى خليقـــــةٍ واتفقا، شيمةَ الصِّحاب
وربـــا عَىَّ طـاهرٌ وكلبُه حـاضرُ الجـــواب
فليس يُوفيه حقَّـــــه منَ اكتئـاب أو انتحابْ
إلا إذا بات نائحـــاً نبح المساعيرِ فى الخراب
عوعو، عووو بلا وَنِيً ولا انقطاع ولا اقتضاب
لا تَسْألوا رحمـــةً لــه قد رحم اللهُ واستجاب

لعلّه مـات قانطــاً من (أزمة) الأكل والشراب
أراحــه الله من ضنىً أنقذه القبر من عــذاب

وشاعر آخر . . . كان العقاد يوفد عنه الشاعر العوضى الوكيل فى المآدب . فكتب مرة إلى الأستاذ إبراهيم الدسوقى أباظة باشا يؤكد (توكيله) للعوضى الوكيل فى (التأكيل) .

يا مُطْعِمَ الأدبــاء من خيرِ الذَّبائح والبُقـول
ما طاب من ضـأنٍ ومن طيرٍ ، ومن عدس وفـول
«عوضى الوكيل» إذا دعو تُم دعوةً عوضى الـوكيل
عوِّض إذا مــا شئتم عنىً وأكال أكيـــل
بين الموكِّل والمؤكَّـــــل ، فاز بالغنم الأصيل

أنا هنا لا أتكلم عن شعر العقاد من الناحية الفنية فإنما يعنيني هنا الناحية الإنسانية وحدها لارتباطها بموضوعى وتعميقها له . وإلا دخلت فى مناقشة (ديوانية) عن الشكل ، (القافية) حين عنيت بالموضوع ، ومناقشة لغوية عن اللفظ ، حين احتفلت بالمضمون - وعلى ذكر اللفظ حفل شعر العقاد فى شبابه بالألفاظ اللغوية وكأنها معرض لمحصوله منها. وحفل تبعاً لهذا بالهوامش والشروح - وعادة التكثر باللفظ يبدوَ أنها لازمة للأديب فى مطلع حياته الأدبية .

* * *

وبعد ، فهذه لمحة من شعر العقاد الإنسان أو إنسانية العقاد الشاعر .

الفصل السادس

العقاد يترجم للعقاد

تبدأ القصة فى سنة ١٩٤٦ .

قال العقاد رداً على أمل أن يكتب كتاباً فى حياته (سأكتب هذا الكتاب وسيكون عنوانه « عنى » وسيتناول حياتى من جانبين : الأولى حياتى الشخصية بما فيها من صفاتى وخصائصى ونشأتى وتربيتى البيتية والفكرية ، وآمالى وأهدافى،وما تأثرت به من بيئة وأساتذة وأصدقاء،وما طبع أو انطبع فى نفسى من إيمان وعقيدة ومبادئ . أو بعبارة أخرى : (« عباس العقاد الإنسان » الذى أعرفه أنا وحدى ، لا عباس العقاد كما يعرفه الناس ، ولا عباس العقاد كما خلقه الله .

والجانب الثانى : حياتى الأدبية والسياسية والاجتماعية المتصلة بمن حولى من الناس أو بالأحداث التى مرت وعشت فيها أو عشت معها ، وخضت بسببها عدة معارك قلمية ، وكانت صناعة القلم أبرز ما عشت فيها ، أو بعبارة أخرى « حياة قلمى »)[١] .

أما الجزء الأول من الكتاب الذى كان مأمولاً فقد تكفل به أو ببعضه كتاب (أنا) الذى جمعه من مقالاته المتفرقة الأستاذ طاهر الطناحى بل أعطاه العنوان .

---

(١) كتاب (أنا) .

أما الجزء الثاني من الكتاب فقد تكفل ببعضه كتاب : حياة قلم .

وما زالت حياة العقاد موضوعاً خصباً لكثير من الكتب والدراسات .

ترجم العقاد لنفسه فى كتابيه (حياة قلم) و (أنا) وحسناً فعل أو فعل الذين رغبوه فى الكتابة عن تاريخه أو تاريخنا فى سبعين سنة حافلة بالأحداث . ففى هذه الترجمة صور مدينة أسوان فى أواخر القرن التاسع عشر وصفاً تفصيلياً لم يخطئ حتى اللعبات المفضلة عند الأطفال . . .

تكلم عن مدارس الصحافة وأولها مدرسة عبد الله النديم التى نشأ فيها مصطفى كامل، وإن كان العقاد نفسه ليس من تلاميذها بل لقد عارضه فى طفولته الباكرة – كان تلميذاً فى الثانية عشرة – حين أنشأ من قصاصات الورق ، (لا مراكب) كالأطفال ولكن مجلة يعارض بها مجلة (الأستاذ) لعبد الله النديم .

حتى الاسم عارضه الطفل عباس فسمى مجلته (التلميذ) . وصدقت كلمة أمهات مدينتنا أسوان التى كن يرددنها لأطفالهن كلما أصابهم ما يسوءهم من التورط فى المزاح معه وراء الحد الذى يسيغه . فإذا ذهبوا إلى أمهاتهم يشكون ما أصابهم كان الجواب الذى يقال بين الضحك والغضب : « أمزح مع من شئت يا بنى . . ولكن . . كل الناس ولا عباس » .

ومن الطريف أن صحيفة العقاد أو مجلته المخطوطة (التلميذ) لم يصدر منها غير بضعة أعداد لم يكن لها من قراء غير زملائه فى المدرسة وأقاربه المشجعين أو المتندرين المتفكهين . ولم يكن لها من اشتراك غير تعب النسخ لمن يراها مستحقة لهذا الثمن .

ولكنها تركت آثارها فى نفسه طويلاً بل حددت وجهته فعرف بعدها أنه ليس للجندية ولا للزراعة كما كان يحسب فى سن الأخيلة والأوهام والأحلام . . إنها صناعة القلم لا غيرها . . . وما أمنية الجندية وعلوم الزراعة إلا (ترجمة لأمنية الكتابة مستعادة فى صورة من صور الصناعات الأخرى ، وبخاصة حين نذكر أنها كتابة لا تخلو من نضال ، ولا تخلوا كذلك من زراعة ولا من عناية بالحياة والأحياء)(١).

وقد باعد بين العقاد وعبد الله النديم – على الرغم من وجوه شبه ظاهر بينهما – سببان : أحدهما يرجع إلى الأحوال العامة والآخر يرجع إلى المزاج الشخصى الذى فطر عليه .

ثم هناك طبيعة العصر الذى كان يعيش فيه . فقد كان عصراً لا يسمح لمدرسة واحدة أن تطغى على أفكار الناشئة فى كل بقعة من بقاع البلاد المصرية . . لأنه كان عصراً مزيجاً مضطرباً بين عصرين ذهب أحدهما ولم يخلفه العصر القادم على رأى واضح مقسوم بين كل فئة من الناشئين وما يوافقها وتوافقه من التفكير الحديث .

(كان عصرنا « برج بابل » يبنى ويعاد بناؤه بين عام وعام . كنا نعيش فى عصر الجهاد الوطنى على مذاهب ، ونعيش فى عصر التجديد الفكرى على مذاهب ، ولا نرى أمامنا مذهباً واحداً فى قضية من قضايانا الكبرى ، وكلها مشكلات)(٢).

---

(١) حياة قلم ص ٣٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٣ .

حين أرخ العقاد لقلمه تناول بهذا القلم موضوعات كبيرة فتاريخ الصحف وأصحابها .

والصحافة قبل خمسين سنة أى فى أوائل القرن العشرين .

تحدث العقاد حديث العيان والتجربة عن (حق الصحيفة) و (عدة الشغل) و (التوزيع) و (المعلمين) . المسيطرين على التوزيع - والإعلانات و (الإعلانات السرية) ، و (أسعار الرتب) .

تكلم عن (الصحافة اليومية) و (غير اليومية) وعن وسائلها المشروعة وغير المشروعة ، تكلم عن مكاتب التحرير بين العتبة والفجالة .

وكم من مضحكات مبكيات يرويها العقاد فى سياق هذا الحديث أو البحث الدارس ، كثمن الفخر والثناء وطبقة المأجورين .

ومع هذا كله يرى أن الصحافة فى أوائل القرن العشرين قد أصبحت (هامة) ولم تصبح (عامة) إلا بعد حين .

وإلى هذه الظاهرة يعزو علة التناقض بين صحافة يومية محترمة - بمقاييس المجتمع - وصحافة أخرى غير محترمة بكل مقياس من هذه المقاييس .

(وعلى كلتا الحالتين كانت الصحافة - يومية وغير يوميه - عارضاً غريباً على المجتمعات المصرية ، ولم تكن هناك بيئة خاصة يقصدها الصحفيون لأنهم صحفيون ، بل لم تكن للصحافة نفسها كلمة متفق عليها . فربما سمى الكاتب فى الصحيفة بالتحريرجى ، أو الجورنالجى ، أو الغازيتجى ، أو المحرر من صناعة التحرير فى المطابع والدواوين التى

تكتب فيها الرسائل . . فأما كلمة « الصحافة » فهي بدعة مستحدثة خلقها اللغويون على وزن « فعالة » كالتجارة والحدادة والملاحة والنجارة وكل ما يأتي على هذا الوزن للدلالة على الصناعات .

ولو سئل الصحافي يومئذ : ما عملك ؟ لما وجد كلمة مفردة يجيب بها من يسأله ويفهمها السائل والمسئول . . .)[١].

ولكن هذا « العرض » لا يتركه العقاد بغير تعليل بل يغوص كعادته وراء السطح أو (الظاهر) إلى الأعماق البعيدة فيرى (للصحفي في المجتمع المصري أب واحد من لحمه ودمه ومن طبيعته وصناعته هو . . . اللبيب . .

اللبيب الذي يعلو حتى يتبوأ مكان الواعظ المسموع والمستشار المعول عليه والمعلم الذي يصغي إليه المتعلم المستفيد كما يصغي إليه « الفهم » المعجب بسحر الكلام وفتنة البلاغة .

واللبيب الذي يهبط حتى يصدق عليه وصف « الثرثارة » أو « الأدباتي » الذي يفهم بالإشارة ولا يتورع عن الحيلة في طلب الرزق المباح والمحظور ، ولا يبالي ما يصيبه في سبيله من الزراية والابتذال . . .

اللبيب هو « جد » الصحفي في المجتمع المصري ، على أسوئه وأدناه على أحسنه وأعلاه)[٢].

أما عن الجزء الأول فيقول العقاد :

(إنني لا أتحدث بطبيعة الحال عن « عباس العقاد » كما خلقه الله .

---

(١) حياة قلم ص ١٠٤ – ١٠٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧ .

فالله جل جلاله هو الأولى بأن يسأل عن ذلك .

ولن أتحدث بطبيعة الحال عن « عباس العقّاد » كما يراه الناس فالناس هم المسئولون عن ذلك .

ولكنى سأتحدث عن عباس العقاد كما أراه .

وعباس العقاد كما أراه – بالاختصار – هو شيء آخر مختلف كل الاختلاف عن الشخص الذى يراه الكثيرون ، من الأصدقاء أو من الأعداء . هو شخص أستغربه كل الاستغراب حين أسمعهم يصفونه أو يتحدثون عنه ، حتى ليخطر لى فى أكثر الأحيان أنهم يتحدثون عن إنسان لم أعرفه قط ولم ألتق به مرة فى مكان .

فأضحك بينى وبين نفسى وأقول : ويل للتاريخ من المؤرخين .

فعباس العقاد هو فى رأى بعض الناس مع اختلاف التعبير وحسن النية هو رجل مفرط الكبرياء .

ورجل مفرط القسوة والجفاء .

ورجل يعيش بين الكتب ، ولا يباشر الحياة كما يباشرها سائر الناس .

ورجل يملكه سلطان المنطق والتفكير ولا سلطان للقلب ولا للعاطفة عليه .

ورجل يصبح ويمسى فى الجد الصارم فلا تفتر شفتاه بضحكة واحدة إلا بعد استغفار . . . واغتصاب .

هذا هو عباس العقاد فى رأى بعض الناس .

وأقسم بكل ما يقسم به الرجل الشريف أن عباس العقاد هذا رجل لا أعرفه ولا رأيته ولا عشت معه لحظة واحدة ولا التقيت به فى طريق .

ونقيض ذلك هو الأقرب إلى الصواب .

نقيض ذلك هو رجل مفرط فى التواضع ، ورجل مفرط فى الرحمة واللين ، ورجل لا يعيش بين الكتب إلا لأنه يباشر الحياة ، رجل لا يفلت لحظة واحدة فى ليلة ونهاره من سلطان القلب والعاطفة ، ورجل وسع شدقاه من الضحك ما يملأ مسرحاً من مسارح الفكاهة فى روايات شارلى شابلن جميعاً) .

وبين هذا وذاك رسم العقاد بنفسه صورته الصحيحة :

إننى لا أزعم أننى مفرط فى التواضع .

ولكنى أعلم علم اليقين أننى لم أعامل إنساناً قط معاملة صغير أو حقير ، إلا أن يكون ذلك جزاء له على سوء أدب .

وأعلم علم اليقين أننى أمقت الغطرسة على خلق الله ، ولهذا أحارب كل دكتاتور بما أستطيع ولو لم تكن بينى وبينه صلة مكان أو زمان كما حاربت هتلر ونابليون وآخرين .

وأننى لا أزعم أننى مفرط فى الرقة واللين .

ولكننى أعلم علم اليقين أننى أجازف بحياتى ولا أصبر على منظر مؤلم أو على شكاية ضعيف .

فعندما كنت فى سجن مصر رجوت الطبيب أن يختار لى وقتاً للرياضة غير الوقت الذى تنصب فيه آلة الجلد لعقوبة المسجونين .

فدهش الطبيب ، وظن أنه يسمع نادرة من نوادر الأعاجيب وقال لى فى صراحة : ما كنت أتخيل أن أسمع مثل هذا الطلب من العقاد

« الجبار » . والجبروت تنبأ به محمد عبده فى طفولته ووصفه به سعد زغلول فى رجولته وقد يبدو من الغريب أن تقرن الطفولة بالجبروت ولكن أحداث طفولة العقاد تنفى الغرابة وتؤكد غيرها .

ومثل من أمثلة أنه كان تلميذاً صبياً بمدرسة أسوان فى العهد الذى كانت المفاضلة بين شيئين هى المحور الغالب على موضوعات الإنشاء فى أيامه بمدرسة أسوان . فكان من عرام شخصيته يختار أضعف الجانبين حتى اختار الجهل مرة فى مفاضلة بينه وبين العلم ! وهو الذى كانت أول قصيدة نظمها فى حياته – كان وقتئذ فى التاسعة من عمره – قصيدة مدح بها العلوم ومن قوله فيها :

علمُ الحساب له مَزايا جمَّةٌ   وبه يزيد المرء فى العرفان
والنحو قَنطرةُ العلوم جميعها   ومبينٌ غامضها وخير لسان
وكذلك الجغرافية تهدى الفتى   لمسالك البلدان والوديان
وإذا عرفتَ لسانَ قوم يا فتى   نلتَ الأمانَ به وأى بيَان

المسألة إذن شدة إحساس بالقدرة وطاقة التفوق بغير معين .

ومن كتاب (أنا) نتأمل لمحات من شخصية العقاد .

لم يكن العقاد يتشاءم من شيء فى الحياة بل كان يتحدى الشؤم فى كل صورة من الصور التى اصطلح الناس عليها ، فاحتفظ فوق مكتبه بتمثال للبومة المضطهدة المرمية بالشؤم ، واتخذ داراً برقم ١٣ المزعوم نحسه ، حتى حين قرر بناء منزله بأسوان شرع فيه يوم ١٣ مارس وقسم كتبه ١٣ قسماً وكتب عن ابن الرومى المقرون بالشؤم .

ومن الغريب حقاً أنه دفن فى أسوان يوم ١٣ مارس .

فهل أثبت الرقم المشئوم وجوده آخر المطاف ؟

* * *

يقول لودفج فى معرض حديثه عن نابليون .

(إذا أردنا أن نصور حياة حافلة كحياة هذا الرجل لم يكن لنا بد من أن نصبغها بألوانه ، فلا غنى للكاتب عن الرجوع إلى كلام صاحب الترجمة ولا خوف من الإفراط فى هذا الصدد مهما أفرط ، إذ الواقع أن كل إنسان أقدر على شرح نفسه من أى إنسان غيره)[١].

ومن هنا نستطيع أن نعتمد على كتاب العقاد (أنا) فى التعريف إليه أو التحدث عنه أو الترجمة له ولو من باب تفصيل المجمل أو توضيح التوضيح كما يقول النحاة . . .

ومن كتاب (أنا) : (لم أشعر قط بتعظيم إنسان لأنه صاحب مال ولم أشعر قط بصغرى إلى جانب كبير من كبراء الجاه والثراء بل شعرت كثيراً بصغرهم ، ولو كانوا من أصحاب الفتوحات . .

وأنا أعتقد أن نابليون مهرج إلى جانب العالم باستور ، والإسكندر المقدوني بهلوان إلى جانب أرشميدس ، وإن البطل الذى يخوض الحرب ذوداً عن الحق والعقيدة أكرم جداً من كل بطل يقتحم الحروب ليقال إنه دوخ الأمم وفتح البلدان)[٢].

---

(١) ساعات بين الكتب جـ ٢ ص ١٤٤ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٤ .

لأنه كان فى نفسه ، وبنفسه ، أغنى الأغنياء ، وغنيًّا عن الأغنياء .

* * *

وكان العقاد القوى ، قوى الشخصية وقوى الحجة وقوى الإعجاب وقوى الخصومة ، أضعف الناس أمام ضحايا الألم والقهر. فقد وقع نظره أثناء سجنه يوماً على جلاد يهوى بسوطه على ظهر سجين ثم ينبثق الدم من ظهر الرجل المسكين . . فعاد إلى مكانه فى السجن باكياً ، وقلبه يكاد ينفطر شفقة ورحمة ، ومكث مريضاً مدة أسبوع كامل ، ولم يستطع النوم ثلاث ليال بأكملها وظلت صورة الدم على ظهر السجين تخايل عينيه ، واستمرت أنات الرجل تدوى فى أذنيه ، ولم يرحم خياله أن ذلك الرجل قد أتي ذنباً استحق عليه العذاب .

هذا هو العقاد الذى قال من جهلوه إنه قاس لأنه لا يرحم ضعفهم الفنى ، حين رق ورحم وشجى أمام كل ضعف سواه .

* * *

كان عزيزاً حتى فيما لا حيلة فيه ولا مجال لكرامة أن تختار . ومن هذا إيثاره الموت نفسه على المرض لو جاز أن يسلك الموت فيما يستحق الإيثار . ومن قوله فى هذا :

(إذا فاجأني الموت فى وقت من الأوقات ، فإننى أصافحه ولا أخافه بقدر ما أخاف المرض ، فالمرض ألم مذل لا يحتمل لكن الموت ينهى كل شىء) .

حتى فى المواقف التى يجنح فيها الفرد إلى المداهنة والملاينة تندفع شخصية

العقاد تجاهر بالرأى الصريح . . والصحيح . . مسقطة من اعتبارها حساب المكسب والخسارة فى هذا الاختيار .

ومن هذا أن العقاد أيام البرلمان كان يعلن فى كل دائرة تقدم فيها أنه لن يقبل الوساطة فى مسألة شخصية ، إلا أن تكون تقريراً لحق أو دفعاً لمظلمة .

شخصية لها عرام . لقد أقسم (العقاد) لزعيم الوفد فى أكتوبر سنة ١٩٣٥ وهو يشير إلى قلمه الرصاص الذى كان يكتب به مقالاته – وكان يحمله وقت جداله معه فى بيته بالإسكندرية – ألا ينتهى هذا القلم حتى تنتهى وزارة نسيم باشا من دست الحكم . وقد صدق فما كاد يمضى اليوم الرابع من يناير سنة ١٩٣٦م حتى استقالت الوزارة النسيمية استقالة أشبه ما تكون بالإقالة وتولت الحكم بعدها وزارة (على ماهر باشا)[١] .

دائماً اعتزازه بالقلم مع سائر الحكام ، فمنذ حمله إلى أن ودعه قبل سفره إلى أسوان للمرة الأخيرة ، لم يمالئ حاكماً قط ولم يداهن حاكماً قط . إن أقصى ما يطمع فيه الحاكم المستبد ، أو يطمح إليه ، من العقاد : السكوت . وإنه لأمنية الحاكمين من صاحب الرأى الحر والقلم الجهير

وفى باب الأنفة تروى عن العقاد هذه القصة :

كان فريق من كبار رجال الصحافة أعضاء فى مجلس الشيوخ . وأريد الإنعام عليهم بالباشوية ، لكن لما كان القانون يحرم الإنعام برتب أو نياشين على أعضاء البرلمان ، اشترط عليهم أن يستقيلوا من المجلس ليظفروا بالإنعام

---

(١) حياة قلم ص ١٨ .

السامى ثم يعاد تعيينهم فى المجلس .

قبلت الأغلبية الاستقالة من عضوية المجلس لتظفر بالباشوية ومنهم خليل ثابت وأنطون الجميل وآخرون .

عضو واحد فقط رفض الباشوية . . هو العقاد !

وحدث عقب الإفراج عن العقاد من السجن أن أوفد إليه القصر من يعرض عليه منصب مدير الإدارة العربية فى القصر بكافة مزاياها فرفض .

ثم بعد فترة – عرض على العقاد منصب مدير دار الكتب فرفض . وارتقى العرض إلى مدير الجامعة فرفض .

وفى عهد تال عرضت عليه الوزارة فى الائتلاف الدستورى السعدى فرفض وقال إنه لا يرضى عن قلمه بديلاً !

ويروى عن الأستاذ العقاد أن أحمد حسنين أبلغه أن (فاروق) أصدر أمره بإعادة كتابة اسم العقاد فى جدول الانتخابات . وكانت الوزارة الوفدية قد حذفته .

وفى كياسة رجل البلاط قال أحمد حسنين : إن الملك يقدر العقاد ويرى أنه كاتب كبير لا ينبغى إغفاله . . .

وينتظر أحمد حسنين فى تشوف جواب العقاد على هذا « التقدير الملكى » فيجيب العقاد ولكن بقوله :

إن قول فاروق إن عباس العقاد كاتب كبير شىء لا يقدم ولا يؤخر ، أما أن يقول العقاد إن فاروق ملك كبير فشىء آخر ! وهو ما لم أقله حتى الآن .

سئل العقاد يوماً لماذا هو ديمقراطى ؟ فأجاب : (لأننى لست بالملل ولست بالذليل ولست بالمؤمن بصلاحية الاستبداد فى جميع الأحوال . وهذه هى الأسباب التى تبغض إلى الاستبداد حيث كان . وتحبب إلى الديمقراطية حيث كانت ولوكانت بين أناس لا يستحقونها أحسن استحقاق .

فالحرية فى أقبح أوصافها خير من الاستبداد . وقد شبع العالم من عيوب الحكم المطلق ألوفاً بعد ألوف من السنين)[١].

وكان سعد زغلول فى قمة زهوته يعمل للعقاد ألف حساب.ومن ذلك أنه كان لا يقترح عليه الكتابة أو الكف عنها . كان يتنسم رأيه بطرح الموضوع للمناقشة كمن يجس النبض فإذا وقف على رأيه ورآه يلتقى معه من تلقاء نفسه أفصح عن غرضه الحقيقى وتمنى عليه أن يعالج الموضوع .

يرويها العقاد فى مجال ترحيبه بالاقتراح الأدبي يأتي من المجلات الأدبية وأصحابها لأنهم كما يقول أدرى بحاجة صحفهم إلى ألوان الموضوعات ، حين كان يرفض كل اقتراح سياسى بالكتابة فى مسألة من مسائل السياسة .

وقد فسر العقاد شبهة الكبرياء فإذا بها ترفع ، هو بعض وفائه للقيم الإنسانية ، وعطائه للحياة الأدبية ، وصنيعه لكرامة الأدب والأدباء .

ومن اعترافات العقاد فى كتاب أنا :

(أعترف بأننى لا أطيق التواضع الكاذب الذى هو رياء فى المتكلم وغفلة فى السامع . فإذا بخسنى الباخسون حقاً فدعواى إذن أمام ضميرى

(١) حياة قلم ص ٢٢ .

لا يزعزعها إجماع المخافقين .

أعترف بأنني أحب الشهرة والخلود . ولكنني أعترف كذلك بأنني لا أطلبهما بثمن يهبض من كرامتي . وأنني إذا أحسست أن إنساناً يمتن على بشهادة يبذلها أو شهادة يمنعها فلا نصيب له عندى غير التحدى الذى يذهب به إلى الحائط . ولتذهب الشهرة وليذهب الخـــلود معها إلى الشيطان)[١] .

ألوف تبلغ به الألفة حد الضعف أمام العادة فلا يقدم على التبديل إلا بعد عناء طويل . ومثل من أمثلة أن البيت الذى كان يسكنه قد تغير له أربعة ملاك وهو الساكن فيه لم يتغير .

وأنه كان فى مصر الجديدة ودكان حلاقه فى شارع محمد على لأنه من سنين كان يسكن هناك .

يلتقى عنده المحافظة والتجديد من أثر نشأته فى أسوان (وهى أعرق مدينة بين مدن مصر القديمة بموروثاتها التى لا تبلى وهى فى الوقت نفسه مدينة أوربية فى الشتاء أوكانت كذلك يوم نشأ نشأته الأولى فأوربا كلها كانت تتراءى هناك كل شتاء بملاهيها وأزيائها وعاداتها ومؤلفاتها وفنونها واختلاف أقوامها)[٢] .

وكذلك كان بيت العقاد بالقاهرة فيه أحدث كتاب وأحدث ما يعين على استجلاء فن كالتليفزيون . . . والريكوردر . وفيه أيضاً أقدم ما عرفت

---

(١) حياة قلم ص ٢٧ .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٧ .

البيوت من آلات خارج دائرة الفنون .

أما بيته فى أسوان فقد رأيت الحجرة الفسيحة التى كان العقاد يعقد بها ندواته فى أسوان عصر الاثنين والجمعة من كل أسبوع . ورأيت المقعد الذى كان يجلس عليه والناس من حوله ، الواقفون يربون أضعافاً على الجالسين إلى جانبه والجالسين بين يديه . كان العقاد يحل بأسوان فما يكاد الناس يتسامعون بمقدمه حتى تتدفق جموعهم على مجلسه ، وتهرع وفودهم إلى داره فلا يبقى فى الطابق السفلى موضع لقدم . . إنه ابن أسوان وأبوها فكل من فيها يدعوه « أبو يا العجاد » .

ورأيت حجرة العقاد الخاصة وقد ترك فيها كل شىء كما خلفه آخر مرة . . ملابسه معلقة وعصاه . . كل شىء يبدو منتظراً كأنه قادم إليه من القاهرة . وما درى أنه سافر منها إلى أسوان منذ أمد قريب . . بعيد . .

والدور العلوى مخصص للعقاد حين كان يسافر إلى أسوان . وتستطيع أن تكتشف هذا بنفسك . فكل شىء مرتفع القامة مثله . رفوف الزجاج على الأحواض . . ومراياها . . الأزرار فى الجدران . . الشماعات (المشاجب) ، الأثاث ، حتى الأدوات ضخمة غير نظائرها عند الناس . . وابتسمت من بين دموعى . . لقد لحقت عملقته الأشياء التى تنتمى إليه . .

واستوقفنى فى بيت أسوان صور أسوان . . كل مَعْلَمٍ من معالم أسوان تضمه لوحة زيتية . فالخزان والمقياس وأنس الوجود وجزيرة النباتات . . إلى هذا الحد كان « أبو يا العجاد » متعلقاً بمسقط رأسه . كما كان مسقط رأسه متعلقاً به إذا أخذنا بدلالة الصور هنا . ففى كل حجرة صورة للعقاد

وفى كل ردهة صورة . . للعقاد . . وكم من صورة رسمها له أو رسمه فيها الفنان صلاح طاهر . إن مدرسة العقاد فيها الرسام كصلاح طاهر والموسيقى كالشجاعى أليست جامعة ؟

وبين الصور ، صورة كان العقاد يعتز بها . . صورة زيتية من رسم صلاح طاهر أيضاً . إنها صورة طفلة نائمة أناملها الصغيرة البضة تمسك أطراف الغطاء ودوائر شعرها المخملى تلقى على وسادتها البيضاء ظلالاً رقيقة مثلها ، ووجهها كله تغسل براءته وطهره بحراً من آثام العالم . . كان العقاد المهيب يحب الطفولة .

وقد سمعت قصة غريبة صحت أم لم تصح فإن لها دلالة كبيرة على أعماق . . صاحبها . . روى لى ابن أخيه أن العقاد رجع من جنازة ابنه صفيَّه المازنى وقد اتخذت صرامته قراراً لا يحيد كالعادة وهو ألا يتزوج لكى لا يقف هذا الموقف الجريح .. لكى لا تدفن نفسُه نفسَه .. لكى لا يوسد الثرى بضعةً منه أو أعزَ شيء فيه . وظل فترة يردد : كيف أحتمل المازنى دفن ابنته ؟ كيف ؟ وكثيراً ما سئل العقاد عن سر عزوبته فكان يصنع للسائلين الجواب .

كان يحب الأطفال (إنهم معلمون من الطراز الأول . . لأن أخلاق الإنسانية مكتوبة فى نفوسهم بالخط البارز الذى تقرأه لأول نظرة ، وهى فى نفوس الكبار ضامرة أو مصحفة أو ملتبسة بوشى الرياء وزركشة العرف وزخارف التكلف والتمويه .

إن معلمينا الصغار لا يكتمون شيئاً وكل ما كتموه أبرزوه وضاعفوا

إبرازه ، فمن لم يتعلم حقائق الضمير الإنساني من الطفل فما هو بمستفيد شيئاً من علوم الكبار ولو كانوا من كبار العلماء)[١] .

(وجاهل بهذا الخطب من يحسب أن الحزن على الصغير أهون من الحزن على الكبير .

إذ الواقع أن الحزن على الكبار قد يهون عند الحزن على هؤلاء الصغار ؛ لأنك تحزن عليهم بمقدار تعويلهم عليك ، ومقدار الرجاء فى غدهم وغدهم طويل مفتوح لآمال الخيال ، ونظرتهم إليك وهم مرضى على يديك تطالبك بالمعجزات وتعجزك بعد ذلك عن الصبر على ذلك الأمل الذى ضاع فيك وضاع فيهم ، فلا عزاء .

متعة نفيسة وثمن غال ، ومما زهدني فى اقتناء المتعة النفيسة علمى بغلو الثمن ولا إخالنى مع هذا نجوت مما ابتليت به فى طائفة من هؤلاء الأصدقاء الأعزاء)[٢] .

فنان عاطفى حتى ليبكيه الأداء المتقن أو المشهد الدرامى ومن ذكرياته أنه بكى فى أول فيلم أجنبى ناطق ، كان يمثله الممثل القديم (آل جونسون) . وكان مع آل جونسون طفل صغير يمثل دور الطفل الذى حرم من أمه وظل هدفاً للإهمال حتى مات .

بكى ولم يستطع النوم فى تلك الليلة .

عاطفى يتعلق بوالدته حتى فى شيخوخته واستغنائه المفروغ منه عن

---

(١) حياة قلم ص ١٧١ .

(٢) حياة قلم ص ١٧٤ .

الرعاية والحدب . ولكنه كان أول ما يفعله عندما يزور أسوان أن يهرع على أثر نزوله من القطار إلى غرفتها ويسكن إليها فلما توفيت لم يدخل غرفتها ما عاش كيلا يراها خالية منها .

إنه يذكرنى بفريد الدين العطار الذى كان يقول عن أمه وهو وزير (هذه السيدة التى هى أوهى من خيوط العنكبوت كانت لى حصناً) .

(حتى الشوارع التى كنت أغشاها مع صديقى المازنى – رحمه الله – لم أستطع أن أغشاها بعد مماته . وصرت أتجنب ما يذكرنى بفجيعتى فيه حتى لا أحزن من جديد !!)(١) .

فنان يستهويه الجمال . وللعقاد فى وصف النهار والفرح بالنور كلمات ما كتبت عن العقاد مرة إلا تاقت نفسى إلى ترديدها .

(كان النهار بساماً ، مدلاً بشمسه ، مزهواً بنوره ، كأنما يحس روعته فى الأنظار وبهجته فى الأرواح وكأنما يتوهج من نظر العيون إليه كما يتوهج الوجه الصبوح تحت لمحات الأحداق . كان نهاراً مبتكراً عليه جدة لا تحسبها قد مضت عليها سويعة من يوم . خلقاً مبتكراً يخيل إليك أنه يتلألأ فى فضائه للمرة الأولى . . وهل هنالك فارق بين نور نهارنا هذا وبين النور فى أبعد مكان من الفضاء وفى أبعد فترة من الزمان ؟ ها هنا شىء على الأقل تستطيع أن تقول إنه لم يفتك أن تراه قبل ألف ألف من السنين)(٢) .

---

(١) حياة قلم ص ٣٨ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٧٧ .

وهو يحب النور كجيتى الذى مات (وهو يطلب المزيد من النور ، كما يقول العقاد فى كتابه عنه ، ويهتف بمن حوله وهو يجود بنفسه أن « افتحوا النافذة ليدخل النور »)(١) .

وكان للعقاد دستور حياة .

(فلى وقت للعمل ، ولى وقت للرياضة ، ولى يوم كل أسبوع أكف فيه عن كل عمل وكل قراءة حتى مطالعة الصحف وفض رسائل البريد ، ولى مواعيد للطعام والنوم لا تختل فى يوم ، ولى قاعدة هامة تشمل العمل والرياضة والطعام والجد واللهو والبطالة وهى التوسط بين الإفراط . . والتفريط) .

ويراه الدكتور عثمان أمين متأثراً بكانط فى نظريته المعرفة ومذهب الأخلاق . وما قاله العقاد فى هذين لا يستلزم بالضرورة تبعية أو متابعة . فمذهب العقاد فى الأخلاق كما يقول الدكتور عثمان أمين نفسه يعتمد (على أخلاق الضمير والفطرة السليمة ، أخلاق الصراحة والوفاء والإخاء . ولاسبيل إلى إنكار هذه الأخلاق ما دامت تعبر عن طبيعة الإنسان ووجوده) .

وقصة ابن طفيل « حى بن يقظان » تزكى اتجاه الفطرة السليمة فى مسار خلقى سليم بدون كانط أو نظريات .

أما عن علاقة الإنسان بالكون فإن الإسلام حددها حين قال بعد الدعوة الموسعة إلى التأمل والتفكير والتعلم : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

إلا قليلا

---

(١) حياة قلم ص ٢٧٧ .

هنا الدقة تستريح .

فى الأساطير الإسلامية أن الله أخبر موسى أنه وهب « الخضر » من لدنه علماً . فذهب موسى يبحث عن الخضر حتى وجده فى كهف وأمامه شبه بركة صغيرة من الماء . وسأله موسى :

– هل أعطاك الله علماً ؟

– حمداً له فى كل حال .

وفى هذه الأثناء حط طائر وحسا حسوة من الماء . وهنا التفت الخضر إلى موسى وقال له :

ما عندى من العلم فى حجم ماملأ فم هذا الطائر من الماء .

والقصة ترمز إلى تواضع العالم الحق . . وإلى أن الإنسان ماأوتي من العلم إلا قليلا .

إن T. W. A لاتقاس بالطائر الصغير المهاجر الذى يطير مسافات شاسعة على جناحيه .

هذا هو معجزة القوة .

كم من ملايين الخلايا فى جسم الإنسان تعمل بنظام محسوب ؟

لقد استطاع الإنسان أن يصل إلى القمر ولكنه لم يستطع أن يخلق خلية حية .

ماهى الأرض التى يعيش عليها الإنسان ويتصارع فوقها ويزدهيه النصر فى هذا الصراع ، إلى جانب الشمس ؟ ذرة من غبار فى مدينة الشمس لو أن الشمس مدينة .

ماهذا كله مجتمعاً ومتفرقاً بالنسبة إلى الله ؟

حدث فى الانتخابات الأمريكية أن سأل رجل ، عالماً من علماء الفضاء : هل هناك كواكب أخرى مثل الأرض ؟ وهل هناك شموس أخرى ؟ فقال العالم : نعم .

قال الرجل : إذن لايهمنى من الذى نجح أو سقط .

والقصة من عالم الواقع ترمز إلى تفاهة الاهتمامات اليومية صغيرة أم كبيرة .

إن إنسان العصر يتحدث كثيراً عن إنجازاته العلمية حتى سمى عصره ، عصر التكنولوجيا . . . . هذا العصر نفسه له علامة أخرى : التلوث .

هذا التلوث مؤشر يدعو الإنسان أن يخفف صلفه وغروره .

لقد أبدع الإنسان الصناعة فلوث دخانها الجو .

وفى الزراعة ، قاوم الآفات فلوث النبات .

وفى التجارة لوث الأفكار بالإعلان .

وفى السياسة ، لوث ضمير الإنسان ، وهدَّم القيم ، وخرَّب البشر ، وقد آن الأوان لتنظيف بيته أى بيئته أى دنياه .

ليست دعوة ضد الصناعة والزراعة والتجارة . . .

محال . . . ولكنها دعوة إلى الوعى بأنه ماأوتى من العلم إلا قليلا . . ودعوة إلى الإيمان بأنه فوق كل ذى علم عليم ، وبأنه لم يخرق الأرض ولم يبلغ الجبال طولا . . . وإلى أن هناك خالقاً أكبر وأقدر وأعلم وأحكم . . كل شىء عنده قدره تقديراً . . .

يقول الأستاذ العقاد : إن العقل لايفهم حقيقة الشىء فى ذاته ، فليس

أمامنا إلا أن نفترض أحد فرضين . فإما ألا يكون هناك حقيقة تفهم ، وإما أن العقل يضع نفسه فى غير موضعه حين يتصدى لاستكناه تلك الحقائق . والفرض الأول بعيد التصديق . فلم يبق غير أن العقل غير منوط بفهم كل صلة بين الإنسان وهذا الكون الذى نشأ منه . وأن الصلة موجودة وإن لم تكن معقولة .

إن الإيمان ليس الشهادتين . . إنه عملية صعبة . . إنه اتحاد بالكون . . استماع إلى المعزوفة الكبرى والمايستر و الأكبر والأقدر والأعظم

وينفتح القلب ويشرب النغم

وتتوهج الروح إذ تلمسها الشرارة المقدسة

ويبصر الإنسان بعد أن رأى .

إن الحضارة هى وصول الذات إلى مرتقى عال من التوحيد والتكامل ، ثم ممارستها الحياة انطلاقاً من هذا الأفق كالوردة الكونية . ولعلها سميت كذلك لأنها تمثل خروج النفس من الفوضى الداخلية إلى كونية الكون .

إن شدة اهتمام الغرب بعلم النفس مؤشر إلى معاناته النفسية من أمراض العصر . . من أمراض حضارته الصناعية العقلانية . . ولسنا ضد العقلانية ولكننا نؤمن بالتكامل . . أن يكون الإنسان عقله وقلبه وروحه وجسمه كلا واحداً لا يتجزأ .

يقول الأستاذ العقاد : لن ترى الكون حق رؤيته وأنت تحاول الخروج منه . والانفصال عنه . إنما تدرك حقيقة الكون وأنت « بعضه » أى وأنت متأثر به مؤثر فيه ؛ متصل بكل ما فيه من سر وجهر وسرور وألم . . إنما تدرك

حقيقة الكون المقدورة لك ، وهو جسم حي يعاطفك وتعاطفه وتعطيه وتأخذ منه . ولن تدركها ألبتة وهو جثة ميتة على مائدة التشريح تُعْمِل فيها المبضع ، وتهيئها للدفن في التراب .]

وهكذا نرى العقاد المولع بالمعرفة فى فروع شتى ، الموكل بالمنطق والقياس والتحديد العلمى ، مدركا لجلال اللامحدود ، مؤمنا بخالق الكون الإيمان الواسع العميق البصير ، مسلماً حين يقرر محدودية العقل ، بأن الإنسان ما أوتى من العلم إلا قليلا ، متكاملا بالمعنى الحضارى للتكامل الذى يلتقى فيه العقل والقلب والرأى والضمير .

نعود إلى حديث العقاد :

(وقبل ذلك كله كانت لى شيخوخة فى مقتبل الشباب .

ولم يخل شبابى من الشيخوخة ، فمن الحق ألا تخلو شيخوختى من الشباب)[١] .

وحين ترهب فى محراب الفكر وجد من يقلب الحسنة النادرة ، سيئة ! فزعمه قوم زاهداً فى الحياة .

وما أحب الكتب إلا لأنه يهوى الحياة مشغوفاً بها صبًّا (إننى أحب الكتب لأن حياة واحدة لا تكفينى . ومهما يأكل الإنسان فإنه لن يأكل بأكثر من معدة واحدة . ومهما يلبس فإنه لن يلبس على غير جسد واحد . ومهما يتنقل فى البلاد فإنه لن يستطيع أن يحل فى مكانين ، ولكنه بزاد الفكر والشعور والخيال يستطيع أن يجمع الحيوات فى عمر واحد ،

---

(١) حياة قلم ص ٦٠

ويستطيع أن يضاعف فكره وشعوره وخياله كما يتضاعف الشعور بالحب المتبادل ، وتتضاعف الصورة بين مرآتين)(١).

ومن الطريف أنه حتى الجنة لم يستطع تصورها خالية من الكتب . فقد تخيل الأستاذ توفيق الحكيم فى بعض كتبه ، العقاد وقد دخل الجنة فلم يلبث أن أخذ يطوف بين أرجائها عسى أن يرى واجهة مكتبة يقف أمامها ويتأمل عناوين الكتب فيها ، فلما طال به المطاف ولم يجد مكتبة ولا كتباً ضجر منها وطفق يقول : ما هذا ؟ جنة بغير كتب ؟) .

وهنا ابتسم العقاد أو لعله ضحك ضحكته المجلجلة وقال :

صديقنا الحكيم لم يبالغ فى تخيله لأننى فعلاً لا أستطيع أن أعيش فى جنة لا أطلع فيها وليس من الضرورى أن أقرأ فى كتاب .

يقصد بالعين . . بالسمع . . بالشعور . . بالملاحظة . . بالتعمق . . بالاستشفاف . . وسائل كثيرة للاطلاع غير القراءة .

ويسأل العقاد كالمستغرب : لماذا لا نطلع فى الجنة؟

يجب أن نطلع فى الجنة قبل غيرها لأن المكان الذى تسكنه وتحب أن تسكنه هو أحق الأمكنة أن تطلع عليه وتعرف كل ما قيل فيه ، وكل ما خطر بالبال عنه ، وكل ما خامر به النفوس غير نفسك من خوالج الغبطة والشوق والرغبة والاستطلاع .

يجب أن نطلع فى الجنة لأن الساعة الحاضرة فيها لا تكفينا ومن حقها علينا أن نعرفها ماضياً ، وحاضراً ، ومستقبلاً ، وأن نحيط فيها بشعورنا

---

(١) المرجع نفسه ١١١ .

وشعور الآخرين الذين اختبروها غير خبرتنا وشهدوا منها غير ما شهدناه .

فإن لم تكن لنا وسيلة إلى ذلك غير الكتاب، فليكن الكتاب فى الجنة. ولا يعقل أن تنقص الجنة حيث تكمل المدن العامرة فى هذه الدنيا(١) .

وفى حديثه عن مقاييس الشباب بين قائل بمقياس الشعور، وقائل بمقياس القلب والهوى، وقائل بمقياس الهمة والطموح، كان المقياس الواحد لدى العقاد الذى يقيس به جهوده فى جميع أدوار حياته هو النهم إلى المعرفة .

ولكن لا ضير فالعقاد نفسه كان لا يبالى سخط الساخطين لأنه كان يعلم (أن خطأ الكثيرين جائز وأن سخريتهم لا تضير فلم أحفل بتلك السخرية. ولعلى بالغت فى قلة الاحتفال بها « وأخذت راحتى » جداً فى بسط رجلى حيث أشاء)(٢) .

وهو هنا يشير إلى قصة أبي حنيفة وكان كما قيل يبسط رجله فى حلقة الدرس لأنه لم يكن يستطيع أن يثنيها من مرض أو من إعياء . فأقبل على درسه ذات يوم شيخ غزير اللحية وقور المشية هابه أبو حنيفة فثنى رجله على ألم ثم أخذ فى درسه عن موعد صلاة الصبح ، فإذا بالشيخ يسأل : (وما العمل إذا طلعت الشمس قبل الفجر؟ قال أبو حنيفة : « العمل أن أبا حنيفة يبسط رجله ويحمد الله ») .

وقف العقاد فى حياته كالطود الأشم فى وجه العواصف والرياح. ومن

(١) حياة قلم ص ٥٩ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٣٨ - ١٣٩ .

العواصف ما حاول أن يسفى عليه التراب،أو يكيل له السباب. ولكنه فى ثبات الراسخ الواثق من نفسه صدها بوقفته ، أوردها خائبة لمناعته. وفى كل مرة تسكن الضجات وتخفت الأصوات ليعلو صوته وحده ، حتى وهو فى صمت الموت وهم فى صخب الحياة !

لقد حارب العقاد الطغيان وحارب الفوضى .

لقد حارب رءوس الأموال وحارب مذاهب الهدم والبغضاء .

لقد حارب التبشير وحارب التقليد الأعمى والدجل المريب باسم الدين .

لقد حارب الجمود والرجعية . وحارب الإنكار والجحود .

لقد حارب الأحزاب وحارب الملوك .

لقد حارب هتلر ونابليون وحارب المستعمرين فى صفوف الديمقراطيين .

لقد حارب أعداء الأدب المسمى بالقديم وحارب أصدقاء الأدب المسمى بالجديد .

لقد حارب الصهيونية وحارب النازية أكبر أعداء الصهيونية .

لقد حارب جميع هؤلاء فالتقى على محاربته أناس من جميع هؤلاء صهيونى إلى جانب نازى ، إلى جانب فوضوى ، إلى جانب رجعى إلى جانب ملحد ، إلى جانب حامل اللحية والعَذَبة باسم الدين ، إلى جانب الماركسى من اليسار والمبشر من اليمين .

ولكن لا ضير مرة أخرى فقد كان العقاد يدعو الله ألا يحرمه من عداوة مدع أو دخيل على حرم المعرفة وحرمتها ، نكرانه للفضل على قدر شعوره بعرفان غيره . . وكفرانه بالحق على قدر صواب المحق ، لا على قدر خطئه .

فإن الذى لا صواب له يكفى الحاقدين مئونة النقمة عليه، واللجاجة فى مذمة عمله وبخس جهوده واجتهاده[١] .

سئل العقاد : هل ظفرت بما كنت تريده من الحياة ؟

فكان جوابه : (بلغت فيما أعتقد غاية ما يستطاع فى بيئتنا العربية ولم أبلغ الغاية التى رسمتها أمامى فى مقتبل حياتى ولا قريباً من الغاية . وإذا قدرت ما صبوت إليه مائة فى المائة ، فالذى بلغته لا يتجاوز العشرين أو الثلاثين)[٢] .

بعد كل هذا العطاء يرى العقاد أنه لم يبلغ العشرين أو الثلاثين فى المائة مما كان يصبو إليه . .

وسئل العقاد ما الذى يتمنى بعد السبعين .

فكان جوابه (**لئن تمنيت شيئاً بعد السبعين لأتمنين أن أعيش فلا أعيش عبثاً ولا فضولاً** ، وأن أعيش كما عشت بحمد الله على الدوام أحقاباً وأحقاباً إلى الأمام فيقول الناس اليوم ما كنت أقوله قبل عشرات الأعوام فذلك هو العمر الذى أحتسبه سلفاً وأعيشه قبل حينه فلا يكلفنى انتظاره إلى الختام)[٣] .

وكان له ما أراده فلم يعش يوماً واحداً عبثاً ، أو عبثاً ، ولم يعش يوماً واحداً فضولاً .

غالنا الردى فيه فانتُزع منا والكتاب إلى جانبه ، والقلم إلى جانب

---

(١) حياة قلم ص ١٦٧ .   (٢) كتاب أنا ص ١٣ .

(٣) كتاب أنا ص ٢٦٤ .

الكتاب . وعشنا بعده نردد اليوم ما كان يقوله قبل عشرات الأعوام . وسيظل هذا شأننا معه على الأيام . جيلنا على الأقل .

أقول غالنا الردى فيه لا تدبيج كاتب أو صناعة إنشاء ، ولكنى أقولها وبين يدىّ خطاب أرسله مصرى بسيط من غمار الشعب ، إلى الأستاذ العقاد يقول فيه :

أنا الموقع أدناه ببصمة يدى وتوقيعى يوسف السيد غانم بطاقتى الشخصية رقم ٦٧٢ كرموز .

قد تنازلت عن دمى الذى يجرى فى عروقى تحت تصرف الأستاذ عباس محمود العقاد وليس بكثير أن أتنازل عن حياتى لأننا جميعاً مدينون لك بحياتنا) .

(إمضاء)

وقيمة هذه الكلمة المخلصة الطيبة تكمن فى صدورها عن أحد أفراد هذا الشعب النبيل . . فى صدورها عن رجل بسيط لا يبغى بها منفعة أو جاهاً أو مالاً . . وهل كان العقاد يملك هذا ليعطيه ؟ إن أنزه الناس أولئك الذين يكبرون العقاد لأنهم يكبرونه باعتباره قيمة كبرى وحسب ، ومعنى جامعاً .

ووددت أن أرى المصرى الذى تقدم ليفتدى العقاد . وسافرت إلى الإسكندرية وراء دلالة من يكون .

وهناك دلنى عليه بسطاء آخرون من قومنا كرماء . فقد كانوا يعرفونه بحبه للعقاد . . . وآية هذا عندهم أن الرجل يكتب لهم العرائض . . أليس

هذا دليل فصاحة واطلاع ؟

ما أطيبهم . . وما أحبهم إلىّ . .

وبلغت داره . . دار؟ إنها لا تزيد عن حجرة متواضعة .

وفى ركن من الحجرة الصغيرة منضدة خشب غطيت بورق الصحف رصت فوقها كتب الأستاذ العقاد وقد جلدت تجليداً شعبياً ولكنه يصور حفاوة صاحبه بصاحب هذه العبقريات .

أما مقالات العقاد فقد نسخها الرجل فى كراسة وجمع كثيراً منها فى ملف ! ! وأطلعنى الزجل على كتابات أخرى صانها الرجل الطيب فى حقيبة صغيرة كتب عليها (عباس محمود العقاد) .

وصارحت الرجل بمهمتى فأخذ يتدفق فى الكلام كمن يجد رضا نفسه، ويسمع عن ظهر قلب محفوظاته من كتابات العقاد .

وتقطع زوجته حديثه فى سذاجة محببة من أمثالها وتقول كأنها تريد أن تعطينى بدورها إضافة جديدة :

– أتدرين يا ابنتى أنه لم يستطع أحد أن يخبره بموت العقاد إلا أنا ؟ رأيت أولادى جميعاً فى ذهول لا يدرون كيف يلقون إليه بالنبأ ولم أجد لى حيلة إلا الخروج من الكتمان .

وأصغيت إليها أتعجل النتيجة التى لم تصل إليها ببراعتها إلا بعد استطرادات شتى كشأن بنات البلد .

– ماذا كان من شأنه يا أماه ؟

– لا أراك الله مكروهاً يا ابنتى . . ماذا أقول وماذا أدع لقد انكفأ

يبكى بكاء مرًّا .

ومما يضحك الثكلى قولها وهيئتها وهى تستعيد قولها له :

– بتبكى ليه ؟

ويحها . . ألا تدرى .

– دعينى أبكيه . . ده اللى علمنى الغلبة والعرائض !

* * *

هكذا كان البسطاء ينزلون العقاد من نفوسهم . فكيف يكون وفاء من علمهم معنى الحياة ومعنى الشرف ومعنى الكرامة ، كرامة الأديب وكرامة الإنسان ؟

ما أكثر ما صنع وما أقل ما صنعناه .

يقول العقاد فى تذكار جيتى :

(من العبقريين من تعرف مداه بكتاب واحد أو قصيدة واحدة لأنه يرتقى إلى أوجه فى بعض أعماله فيأتى بخير ما عنده أو بكل ما عنده . وتعرفه حق عرفانه فلا تحتاج إلى تجربة له بعدها ولا تصيب فى التجربة الجديدة إلا تكراراً لا جديد فيه .

ومنهم من يعطيك جزءاً من عبقرية فى كل جزء من كتاباته ، فبعضها لا يدل على مداها كلها ، وتكرار القراءة فيها ينتهى بك كل يوم إلى جديد ، فلا غنى لك عن التجربة لسبر غورها، والإحاطة بمداها، والحكم عليها فى جميع أحوالها .

وجيتى من هؤلاء العبقريين الذين لا ينبئ قليلهم عن كثيرهم ، لأنه

لم يجمع نفسه فى قطعة واحدة ولا موضوع واحد ، فهو كثير الجوانب كثير التجزئة : الموضوع الواحد عنده لا يدل على كل موضوعاته ، والجزء الصغير لا يدل على جملة الموضوع . فكل فكرة له هى أصغر من الرجل فى جميع أفكاره، كما أن اليوم الواحد فى غمار أيامه هو أصغر لا محالة من سنيه الثمانين) .

والعقاد أيضاً من هؤلاء العبقريين لتنوع آثاره وموضوعات كتابته وكأنما هى كلها من باب (الفصول) فى كتاب العقاد .

وعن جيتى أيضاً يقول العقاد :

(كان جيتى يغبط صاحبه شيللر لموته فى العقد الخامس من عمره ، فذكراه أبداً مقرونة بذكرى الشباب المحبوب والنضارة الموموقة .

وقلما يصيب المرء فى تمنيه ولو كان من الحكماء . فلو مات جيتى فى سن صاحبه لضاع أكبر نصيبه من الشهرة،وهبطت مكانته فى عيون قومه وعيون سائر الأقوام ، لأن طول عمره أقامه فى الأدب الألماني الحديث مقام الأبوة والرجحان ، وأتاح له أن يتم ما بدأه من الكتب فى أوائل الحياة .

لكنه كان يتمنى ذكرى الشباب على خطأ أو على صواب ، فعزاء له ولا ريب أن تضمه الأرض إليها وهى فى نضرتها وأن تلف ذكراه فى أكفان ربيعها ، فقد مات فى الثاني والعشرين من شهر مارس خاتمة الشتاء ، فلا يذكره الذاكرون إلا بدرت إلى أذهانهم صور الربيع فى مطلع وروده ورياحينه !) .

ألم يكن هذا توقيت الحياة لوداع العقاد ؟

واستقبلته أسوان فى الثانى عشر من شهر مارس حضارة حديثة، كما استقبلت من قديم الأزمان حضارتنا القديمة لتكون الأرض الواعدة والموعودة بالخلود .

سلام عليه .

وسلام عليها

منها خرج وفيها نشأ و إليها يعود .

وسوف يتسع العمران بأسوان ويزداد امتداداً . وسوف يقام فيها للصناعة صروح كثيرة . ولكن أعلى صروحها ، وأغلى ذخائرها ، سيظل ، عباس محمود العقاد بقدر ما تأصل فى نفس الفنان من إعلاء للفكر ، وإجلال للعقل ، واحتفاء بالقلم ، وحب للفن ، وتوقير للعلم ، وولاء للموهبة ووفاء لصاحبها .

سيتغير كل شيء فى أسوان . . الحياة والأفكار والمجتمع ومعالم المدينة حتى الجبال ، ويظل ثابتاً كالعهد به عباس محمود العقاد ؛ لأنه تاريخ والتاريخ دائم ، ولأنه فكر والفكر قائم ، ولأنه قلم والقلم سائر ، ولأنه عصامية من طراز نادر ، ولأنه موهبة على مستوى رفيع ، ولأنه جامعة ، ولأنه شرف لجيله ومفخرة مصرية لسائر الأجيال .

* * *

وبعد ، فللعقاد موقف تجاه النفس وتجاه الآخرين . . . إنسان ثراؤه ليس خارجياً من ثقافة مكتسبة فحسب، ولكن داخليًا من مواهب الذات وقدراتها . شخص هو نفسه موضوع .

العقاد بما كَتَب ، وبما كُتِب عنه ثراء أغنى المكتبة العربية. وسيظل

يغنيها لأن بصمات العقاد على عصره ، لا يستطيع إغفالها كاتب فى الأدب أو النقد سواء وافق العقاد أو خالفه . . مال إليه أو مال عنه . لقد غدا جزءاً من نسيج شخصيتنا الفكرية . . وحسب المرء من وطنه أن يغلو سمة من سماته ، أو قسمة من قسماته ، لا تخطئها عين القريب أو الغريب .

* * *

بقيت كلمة : كان العقاد يبحث فى شخصية شعب المترجم له تماماً كما يبحث فى شخصية العظيم أو العبقرى صاحب الترجمة . فلو طبقنا هذا المنهج فى ترجمة العقاد وتساءلنا ما الذى أخذه العقاد من الشخصية المصرية ؟ وجدنا أكثر من نقطة التقاء . . . أخذ العقاد من مصر :

الشخصية المصرية كيفها النبات إلى حد كبير وإذ عرفت النفس المصرية الزراعة منذ القدم عرفت التجدد والنماء وشق الطريق كما تشق البذرة الأرض فى إيمان ووثوق وهو ما فعله العقاد إذ زرع نفسه وشق طريقه . . وكالبذرة عرف النضج المشغول على مهل . . كالنبات عرف العقاد العمق كالجذور الضاربة فى الأرض ، والارتفاع كالجذوع الصاعدة فى السماء . .

فى مصر كل شىء باق ، مزروع أصلاً . . الفلاح يزرع فى الوادى ، والراهب يزرع نفسه فى الصحراء التى نشأت فيها الرهبنة المصرية بالقراءة والحكمة والنمو بالذات إلى أفق المعنى وسماوات الروح والفكر . لقد ابتدعت مصر الرهبنة فى المسيحية ، كما وضعت أسس التصوف فى الإسلام .

وأخذ العقاد الخلود من مسيحية مصر وإسلامها معاً . فكما آض آباء الكنيسة المصرية إلى الصحراء احتجاجاً على مجتمع المدينة فى عهد الرومان ،

أخلد العقاد إلى بيته ومعبده ، حين تعب من الأحزاب والمعارك . وكما غدت الخلوة علامة فى طبع مصر ، غدت الخلوة طابعاً فى شخصية العقاد .

وكالراهب خلص العقاد للفن . . . وكالراهب زرع نفسه .

وكالمتصوف عكف العقاد على القلم ومن التصوف كل عكوف على عمل عظيم . وإذ عرفت مصر الزراعة عرفت الأعماق والأشواق فارتفعت المسلات ثم المآذن طموحاً مشتاقاً يرتاد آفاقاً علوية ما تلبث أن تتجسد على الأرض عمائر ومنابر وعلوماً وفنوناً وحكمة . . . وكم آفاقاً ارتادها طموح العقاد حتى ارتفع شخصاً ، وشخصية ، وكأن بداخله مسلة أو مئذنة من سراوة العمود وتكثيف المجهود وعمق المعنى والدلالة . . . إن حامل المؤهلات متعلم ولكن الثقافة شىء آخر جد بعيد . الثقافة نمو النفس . . خبرة مقطرة . .

وفى العقاد من الشخصية المصرية ، المقاومة إلى حد الفداء إذا اعتقدت فى شىء أنه الحق . . .

وفيه منها الاستعلاء على الأحداث .

وفيه منها طاقة التحدى . . .

وفيه منها حب الفكاهة التى تغسل بحراً من الآلام ، إن الدعابة المصرية فيها رقة وصفاء من أثر التاريخ الطويل فى الحضارة ، فالعقاد الذى يحسبونه صارماً عابساً كان يهش للنكتة ويضحك لها ضحكة مجلجلة . . . ويرويها أحياناً كثيرة .

وهكذا تدخلت فى صنعه البيئة واللحظة المعينة .

حتى الصعوبة التى اتهم بها العقاد وهى جدية ، صفة مصرية قديمة

عندما كانت حضارة مصر طرحها فينان . . فالنفس المصرية بعطائها نفس أرستقراطية لا بالمعنى المادى أى الثراء الفاحش ، ولكنها أرستقراطية بالثراء العريض فى الفن . . . فى الإدراك . . . فى الحكمة .

ومن العجيب أن غير العارفين بها حين يريدون الراحة . . السهولة . . . يربطون الشعب بالعامية ، حتى يتخففوا هم أنفسهم من قيود الفن ومجاهداته .

والعامية التى أقصدها ، العامية الفكرية لا لغة الحديث فإن لغة الشعب ، البعد عنها ، بُعد عن بواطن ومواطن الحكمة . . .

إن الفكرة الثابتة أو التسرع فى الحكم على الأعمال الفنية ، قتل . . . المتسرع قاتل للفنان وقاتل لنفسه أيضاً حين وكل لسانه بقطع رسائلها عنه . . . إن الثرثرة وإلقاء الأحكام بلا تثبت ، ترجم السكون بالضوضاء فلا يسمع المشاهد ،الأصوات الدقيقة الهامسة الآتية من أعماق النفس متلاقية أو متوازية ولكنها متحابة . . .

وفى العقاد من الشخصية المصرية تمجيد البطولة والمثل الأعلى منذ تعلقت مصر بإيزيس . . وأوزوريس . . وحورس . . ثم الملوك والمعبودات المختلفة .

وشخصيات العقاد التى ترجم لها تمثل نواحى من قوة العقل . . قوة الروح . . قوة الخلق . . قوة المبدأ . . حتى قوة الشر ممثلة فى الشيطان .

هل كانت كتابته عن العظماء صدى لإحساسه بالفرد أو بتفرده من باب جاذبية التشابه ؟

هل كانت كتابته عن الأبطال بتأثير عصر كان يتقدمه أفراد مميزون

تستهوى زعامتهم الجموع فتسير خلفهم فى السياسة أو الفن على السواء ؟

قد يكون هذا كله مجتمعاً ومتفرقاً ولكنه فى كل صوره يرجحها ينم عن إيمان راجح بالإنسان وقدرته على الوصول إلى قمة . . ولعل مقدمته لعبقرية محمد خير دليل . وكأنه توماس كارليل العرب .

ترجمة حياة

الأستاذ عباس محمود العقاد ١٨٨٩ - ١٩٦٤

عصره – بيته – مولده – أبواه – أسوان – طفولته – المرض – مقومات شخصيته (فرديته – عصاميته – ارتفاعه على التقليد) – حربه الشيوعية – ثورته على الشعر العربى التقليدى – مقاييسه الفنية – احترامه للإنسان – العقاد وديوان الأوقاف – ساعات بين الكتب – الإنسان الثانى – مجمع الأحياء – نفوره من الوظائف – تحديه للاستعمار – تاريخه معه – تاريخه فى الصحافة – تاريخه فى التدريس – تاريخه السياسى – حربه الملكية – سجنه – رفضه المناصب – اللغات التى علمها نفسه – أسلوبه – تعدد جوانبه ومواهبه – العقاد شاعراً – العقاد كاتباً – لازماته فى الكتابة – العقاد والمرأة – ظاهرة النور فى أدبه .

قصدت بكتابى هذا عن رجل الفكر والأدب الأستاذ العقاد أن

يكون كتاب رأى . لهذا تأتى ترجمة حياته آخراً لا أولاً على عادة التراجم . . . تأتى تطبيقاً أو تفسيراً لصفات رأيتهـا فيه لا مقدمة لها . . . إنها خطوط مكملة فى صورة العقاد الإنسان . . . وكثيرون يتطلعون إلى مثل هذه الخطوط فى صورة كاتبهم المفضل أو قدوتهم المختارة بين نماذج البطولة والأبطال . . .

وقد سبق أن رسمت له صورة قريبة من هذه عندما أصدرنا ، تلاميذه ومدرسته ، بمناسبة عيده السبعين ـ كتاباً . وعنوانها فى ذلك الكتاب كان : (لمحات من حياة العقاد) . وقد « لمحها » فى كتابتهم بعض من كتبوا عنه فى سلسلة اقرأ قبل هذا . . . ويبدو أنهم نسوا الإشارة إليها كما نسوا الإشارة أيضاً إلى ما جاء بكتابى (قمم أدبية) عن العقاد . ولهذا يحسن ورودها هنا ليعم الاطلاع عليها بما تتيحه هذه السلسلة من ذيوع القراءة وتعدد القارئين .

* * *

لقد رأى العقاد عظمة شكسبير أعجوبة خارقة ورآه كاتب الأعاجيب وإن لم يكن فى سيرته خبر غريب . ولكن العقاد أعجوبة خارقة فى سيرته وفى أعماله على السواء . فقد ولد شكسبير فى عصر يعين على نماء البذرة الكامنة فى صاحب الموهبة وازدهارها . كان عصر شكسبير فى إنجلترا عصر الفن والمسرح والغناء ، ولكن العقاد ولد فى عصر تكتنفه ، فى مصر ، الظلمات من كل ناحية . فى السياسة احتلال يكبل الحريات ، وفى الأدب عفن يجمّد الأقلام ، وفى المجتمع ركود فى كل شىء تختنق فيه العبقرية إلا إذا ظاهرتها من نفس صاحبها إرادة ماردة تتحدى وتتخطى وتستعلى على

الأحداث ، والناس ، واليأس ، والجحود ، كما فعل العقاد .

* * *

منيت مصر بالاحتلال سنة ١٨٨٢ وولد عباس محمود العقاد فى ٢٨ يونيو عام ١٨٨٩ . وكأن مصر بعد الغاشية ولدت من جديد . فإن وليد أسوان كان حدثاً ضخماً فى حياتها هز فيها كل شىء : الأدب والسياسة والوزارات والأحزاب والملك نفسه .

وإذا كان زمن المولد لا ينبئ بمستقبل الوليد،فإن مكان المولد ببيئته الخاصة والعامة يصلح ركيزة للشخصية الفريدة الواعدة . . ركيزة فحسب تمده بالعرق أو الفطرة أو بالعوامل المساعدة بما يعينه على قطع الطريق الملىء بالجلاميد إلى أعلى القمم فى تاريخ الفكر المصرى والأدب المصرى والخلق المصرى والشخصية المصرية بكل ما يدخل فى مضمون هذه الكلمة من وراثات التاريخ،وصفات الإنسان على هذه البقعة من الدنيا ذات الأسرار .

ولد العقاد فى بيت عرف صاحباه بحب العزلة وطول الصمت والتقى . فقد كانت أمه من أسرة تنسب نفسها إلى النبى صلى الله عليه وسلم . وسواء أصحت هذه النسبة أم لم تصح فإنها تضفى على القائلين بها جواً خاصاً يليق بها . وهذه السيدة التى ولدت لمصر موسوعتها الحية،كانت لا تعرف القراءة والكتابة إلا أنها بالغة الذكاء خاصة فى المسائل الرياضية : حازمة حتى لقد كان الأهل يطلقون عليها (المشدة) وهو مقدم الفعلة الذى يسوقهم بالقوة إلى العمل ، دءوب ، ولوع بالنظافة ، حريصة عليها ، وعن هذه الأم أخذ العقاد الجانب الذهنى كما أخذ ملامح الوجه .

أما والده فقد كان على رزانة فيه ، يؤدى عمله بلا إفراط ذكاء . كان أمين المحفوظات بأسوان . وكانت فى عهدته مستندات أملاك مديريتى إسنا وأسوان اللتين هجرهما أهلهما أثناء حرب الدراويش مخلفين وراءهم أموالهم ثم عادوا . فكان الحصول على سند ملكية يهون لدى صاحبه فى سبيله أى ثمن ، ومع هذا تعفف الرجل فلم يستغل وظيفته ، ومثل هذه الظروف محك لأخلاق الرجال .

وبهذه الصفات المميزة استطاعت هذه الشجرة المباركة أن تمكّن لنفسها فى وادينا العجيب الخصب ، فثبت أصلها فى الأرض وبلغ فرعها السماء بما غذته من مواهب العقل والقلب وصفات الإصرار والصبر ، وسمات التعفف والترفع والإباء حتى اجتمع له من صفاته النوابغ شعوراً بالمناعة يبلغ حد العجب أو الخيال .

* * *

ونشأ العقاد فى مدينة يلتقى فيها الماضى السحيق بالحاضر . ففى أسوان خاصة فى الشتاء تلتقى أحدث صور الحضارة الحديثة بآثار الماضى العريق لا فى المتاحف وحدها بل فى البيوت ، فالحياة هى الحياة والوسائل هى الوسائل كأن كل شىء ثابت فى مكانه لم يتحرك إلا الزمن .

وفى ملتقى الحياتين شب العقاد . فتح عينه الطفلة على الفتاة الباريسية والليدى الإنجليزية ثم المرأة الأسوانية المحجبة حتى ليعز على المرء أن يعرف أمه فى الطريق . وهو وإن لم يعط هذا النقيض أهمية فى طفولته إلا أنه قد لمسه فى سن الوعى وملأ عليه إحساسه . فقد منحه بسطة فى الأفق، كما

أعطاه قابلية الإحساس بسعة الحياة . وطبعه على الاستعداد للتقابل وعدم الإحساس بالتنافر .

ومرة أخرى تظهر مدينة أسوان فى الصورة التى تراها وتقرؤها وتلمسها عيوننا اليوم . فلما كانت مدينة سياحية بل مشتى عالمياً فقد غصت بالمكتبات لمنفعة السائحين ، وهى بالطبع عامرة بكتب الآثار والتاريخ والقصص والمجلات . فكان العقاد يتردد عليها ويعب منها ما وسعته الطاقة والرغبة . وكان ذا نفس طلعة يندس بين السائحين ويتحدث إليهم ليمرن على الكلام بالإنجليزية . وقد مكن له من طلبته أيضاً المجالس المختلطة التى كان يدعى إليها . فقد كان بعض الأجانب ممن يزورون معالم المدينة يدعون ناظر المدرسة والطلبة المتقدمين ، فتسنى للعقاد فى حداثته أن يجالس صفوة الأجانب رجالاً ونساء .

ولا شك أن الأمر هاله بادئ ذى بدء ولكنه واجه الموقف واستفاد منه .

يقول العقاد عن أسوان فى مذكراته :

«كانت البلدة التى نشأت فيها بلدتِى أسوان بأقصى الصعيد ، يكاد الناشئ فى مثل سنى أن يأوى إلى صومعة من صوامع الفكر يقلب فيها وجوه النظر فى كل ما يسمع أو يبصر من الشئون العامة ، بغير تضليل أو تهويل . . وتهب الزوبعة القومية فلا تفاجئنا فى وسط غبارها لتعمى البصائر عما فيها ، ولكنها تقترب منها رويداً رويداً فلا تصل إلينا حتى تنكشف على جلاء » . .

يضاف إلى هذا كما يقول العقاد حالتان طارئتان على أسوان — فى ذلك الحين — لم تجتمعا لبلد من بلدان السياحة . هما حملة السودان وبناء الخزان .

فنى أثناء حملة السودان كان الحاكم العسكرى ومحافظ المدينة وقاضى المحكمة وقادة الفرق الموزعون على المصالح طائفة من الإنجليز العسكريين أو المدنيين لا يعرفون العربية . وكان كل بيت فيه (ولد من أولاد المدارس) مرجعاً نافعاً لقراءة الأوراق الرسمية أو ترجمة العرائض إلى (الحكام) على حسب الاجتهاد . وكان (نصف الفرنك) نفحة سخية يحصل عليها (الولد) المترجم الذى يستطيع أن يخط فى الورق بضعة سطور تدل على معنى من المعانى مفهوم بالإشارة أو التخمين . فأما (الولد) الذى تتكرر الشهادة له بحسن الترجمة فنصف الفرنك قد يصعد فى معاملته إلى نصف ريال ، ويزداد التقدير مع زيادة القرابة أو الجوار .

أما بناء الخزان فقد جلب إلى المدينة مئات من المهندسين والخبراء والمفتشين يقرءون الصحف الافرنجية طوال العام ، ويدفعنا حب الاستطلاع إلى النظر فى هذه الصحف وفى صحف السائحين ، فلا يفوتنا (مع تتابع النظر) أن نعرف أقسام الصحيفة وعناوينها وأماكن البرقيات والأخبار منها ، وأن نختطف عبارة هنا وتعليقاً هناك فلا يخفى علينا معناها بالمقابلة بعد المقابلة أو بالتصحيح بعد التصحيح . . . »

(آخر ساعة العدد ١١٩٣ – ١٩٥٧/٩/٤)

* * *

نستطيع أن نقول فى العقاد ما قاله فى كتابه عن برناردشو من أن نشأته فى أسوان (ونشأته فى أسرته ، ونشأته فى أبويه ، ونشأته فى جيله السياسى ، ونشأته فى جيله الثقافى – كل أولئك على صلة وثيقة بعنصر من عناصر

حياته ، أو عنصر من عناصر استعداده وعمله فى حياته الفنية والثقافية) .

هذا الفتى الذى صنعته أسوان على عينها رفض طفلاً أن يلبس البنطلون القصير كما رفض وهو فى السابعة من عمره تلميذاً صغيراً أن يدعوه المعلم باسم (عباس حلمى) كما جرت عادة أهل ذلك العهد الذى كان الطفل فيه لا يذكر اسم أبيه بل يطلق عليه أحد الأسماء التقليدية ، حلمى – صبرى – لطفى – شكرى (على حسب المطابقة لأسماء المشهورين أو الموافقة لجرس اللقب ورنينه فى الأسماع) .

وهكذا عرف الطفل فى العقاد ، الرفض ، مبكراً . عرف الاعتزاز بالنفس والاعتداد بالذاتية ، هذه الصفات التى رسمت طريق حياته . . وحياتنا بالتطلع إليه،والاستمداد منه،والتأسى به . . . بل لعل موقف طفولته البطولى بالنسبة إلى سن السابعة وبالنسبة إلى الشائع بين لداته مما لم يجز عليه ولم يقبله يفسر قوله عن نفسه صادقاً فى (سارة) (أنه مطبوع على ألا يعلق قيمته فى معارض الفخر والمباهاة على رأى إنسان من النساء أو من الرجال) . وهو جبروت لم يتخل عنه حتى فى السجن ، عالم السدود والقيود ! ! لم يتخل عنه جبروته ورغبة القدرة فى تتبيع الآخرين لها ولو كانوا هم الطلقاء ! !.. دخل العقاد السجن فجعلت نفسه المادرة – وهو ما لم يسمع به من سجناء . (العالم الخارجى جزءاً لاحقاً بالسجن مضافاً إليه) ويرى العقاد تلك الشيمة فى النفس – الإنسانية . والحقيقة أن (الشيمة) لا يقدر عليها إلا نفس العقاد . . هى وحدها التى تستطيع أن (تنقل مركز الكون كله إلى حيث تكون) .

* * *

وفى مطلع حياته كان يقرأ كرفاق صباه صحف عبد الله النديم ، ولكن على طريقته هو (ولفتتنى العناوين البارعة فقرأت كل ما وجدته من صحف النديم ووجدتنى ذات يوم أقطع الورق قطعاً على قدر المجلة وأعمد إلى مكان العنوان منها فأكتبه متأنقاً وأعارض عنوان « الأستاذ » بعنوان « التلميذ ») . هنا تطل شخصيته . . تطل الذات لتأخذ (موقفاً) فى موقف يغلب فيه التسليم والاتباع .

(أما المقالة الافتتاحية فقد كانت أيضاً من قبيل المعارضة لمقالة من أشهر المقالات التى تردد صداها زمناً فى البيئات المصرية ، وهى المقالة التى جعل عنوانها « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » وافتتح بها الجزء الثانى والعشرين من السنة الأولى .

فكتبت مقالى الافتتاحي وجعلت عنوانه « لو كنا مثلكم ما فعلنا فعلكم ») .

ومرة أخرى تطل الذات العقادية الشموس فيستشرف إلى أبعد من هذا ولا يرى نفسه تلميذاً فى مدرسة النديم ولا يشعر بأن (الرجل قدوته المختارة بين أمثلة النبوغ التى يتمناها أو بين الشخصيات المثالية التى يجلها ويحب أن ينتمى إليها) .

على أن الرجلين يلتقيان فى أكثر من وجه شبه فكلاهما تعلم صناعة التلغراف ، وكلاهما اشتغل بالتعليم فى مدرسة خيرية ، وكلاهما طورد من البوليس وتنكر مستخفياً .

ولكن الأمر لا يعدو وجوه الشبه التى تصنعها المصادفات أو مقارنات

الكتاب فى معرض التأريخ وكتابة السير . فإن العقاد يمتد امتناعه على الاقتداء فينسحب على غير النديم حتى ممن يفوقونه . فليس بين العظماء السابقين واحداً اتخذ منه العقاد مثله الأعلى على إعجاب بهم وتقدير . وتأثر ، يفرضه ولو بدون وعى ، الإعجاب والتقدير ، خاصة ، فى مطلع حياته حين كان يحتفى بقراءة كارليل ، وماكولى ، وهازلت ، ولى هنت ، وأرنولد وغيرهم من أئمة المقالة فى القرن التاسع عشر . وترك هؤلاء الكتاب انطباعاتهم عليه فترجم عنهم حيناً وترسم نهجهم حيناً آخر فيما كتبه عن أدباء العرب والفرس ومسائل النقد والتعليق .

وإذا كان العقاد لا يطيب له أن يكون هناك أشخاص فى حياته يجرى ذكرهم فى قلمه أو يعرض حديثهم على لسانه ، فلعلها من الموافقة التى تلتقى فى الهوى على غير خلاف،أن نذكر فى باب المؤثرات شيئاً يحسب له لا شخصاً يحسب عليه عند الرجحان . والشىء الذى كان له فى حياته مكان أو أثر هو المرض الذى ألم به فى فجر شبابه وإن لم يذكره العقاد ، بل لعله يخصه بإغفال ، ومع هذا يرى له كاتب كالأستاذ محمود تيمور (الأثر الأعظم فى تكوين حياته وإبراز طابعه) — فقد اضطره المرض أن يحيا حياة عزلة واعتكاف ، فانفسح المجال لميوله الأدبية كى تشبع نهمها إلى القراءة والدرس فى ذلك المعزل .

وكان من أثر الاحتجاز فى صومعة القراءة والدرس أن تمكنت فى خصائص (العقاد) ملكة التأمل فى الحقائق ، والتعمق فى الأفكار ، فاكتست فصوله تلك الصبغة ، من أسلوب رصين وتفكير دقيق ، وإحاطة شاملة

وهذا المرض كان من أثره أن استقر فى قلب (العقاد) حب الحياة والتشبث بها والكفاح فى سبيلها ، فإنه لما واتاه الظفر فى عراك المرض ازداد تعلقاً بالحياة ورغبة فى التمتع بأطايبها ، فكرم نفسه ونعمها ما وسعه التكريم والتنعيم . فلم يجمع العقاد مالاً ولم يدخره ، بل أنفقه على فكره ، وعلى نفسه ، وعلى من يلوذ بحماه . وكان من عقبى ذلك الظفر أنه أورثه زهواً وعزة ، وثقة بالنفس ورهافة شعور بالكرامة ، واذكى بين جنبيه نزعة المغالبة والمصاولة والإصرار . فتجلى فى حياته وفى إنتاجه هذا اللون من القوة والصراع وصلابة القناة فكان بصفاته الفريدة حدثاً ضخماً فى حياته وفى حياتنا . كان العقاد يذهب إلى رئيس الحكومة ومجلس الوزراء منعقد فيخرج من الاجتماع للقائه فى موعده لأنه يعرف خطر موعد العقاد .

كان دقيق التفكير . . دقيق النظام . . دقيق الموعد . . دعاه نائب قنا ثم تأخر عن استقباله بالمحطة . فلم يغادرها العقاد انتظاراً للقطار العائد . وعبثاً حاول الرجل استرضاءه . فلما أعيته الحيل نقل سرادق الاحتفال إلى المحطة حيث هو .

* * *

وعقيدة احترام الإنسان ، اقترنت فى رأيه وضميره بالكرامة الشخصية ؛ فزهدته بل نفرته من الوظائف الحكومية التى تولاها ، والتى كان سرعان ما يضيق بها . فحين عين بالقسم المالى بادئ الأمر فى مديرية الشرقية ، فكر فى الاستقالة لينشئ صحيفة اختار لها اسم (رجع الصدى) ثم عدل عنها .

وفى الفترة ما بين ١٩١٢ ، ١٩١٤ التى عمل فيها بديوان الأوقاف لم يكن راضياً كل الرضا مع أن عمله فى قلم السكرتارية من ذلك الديوان كان مزيجاً من الصحافة والوظيفة . وكان (ديوان الأوقاف فى تلك الحقبة مجمع الأدباء والشعراء من شيوخ وشبان . كان فيه محمد المويلحى وأحمد الأزهرى صاحب مجلة الأزهر وأحمد الكاشف وعبد الحليم المصرى وعبد العزيز البشرى وحسين الجمل وإخوان هذا الطراز) ومع هذا ما إن فاتح حافظ عوض ، العقاد ، فى الإشراف على صفحة الأدب بصحيفة المؤيد حتى سارع إلى القبول . على أنه لم يلبث أن استقال لسمة من سمات الكرامة فى نظره وتقديره ، وكانت استقالة رابحة فقد خلا بعدها إلى القراءة والتأليف .

ويصف العقاد هذه الفترة بأنها كانت موسماً خصباً حقًّا بثمرات التأليف (لأننى انتهيت من كتاب : « ساعات بين الكتب » فى نحو خمسمائة صفحة ، وأودعته ثمرة الاطلاع والتأمل فى أهم مذاهب الفكر الحديث . وأولها مذهب داروين ومذهب نيتشه السوبرمان . وهذا الكتاب الذى ظهر بعد ذلك باسمه وأعيد طبعه مرات ، لأن « ساعات بين الكتب » التى كتبتها فى أسوان ضاعت مرتين ولم يبق منها غير خمسين أو ستين صفحة .

وفرغت من كتاب غير الساعات ، عن المرأة سميته « الإنسان الثانى » ولم يبق منه كذلك غير صفحات .

وأتممت رسالتى « مجمع الأحياء » تلخيصاً للآراء فى فلسفة النشوء وفلسفة القوة وفلسفة الفطرة التى تهذبها الرياضة النفسية والاجتماعية ،

وهو الكتاب الوحيد الذى تم ونشرته تماماً بعد تأليفه بفترة وجيزة .

ونظمت فى هذا الموسم الأسوانى أكثر من نصف قصائد الجزء الأول من الديوان. ومنها قصيدة دالية مطولة نبذتها بعد ذلك لأنها تعبر عن دفعة من دفعات الفكر لم يبق لها فى نفسى سند سليم ولا مسوغ مقبول) .

ولعل كرهه للوظائف وعدم استعداده الطبيعى أو الخلقى لها هو الذى أقنعه بعدم التأهل لها بمؤهلاتها التقليدية من شهادات كانت فى زمانه ، خاصة لا تقصد فى الأعم الأغلب إلا لما تهيئه لصاحبها من وظيفة تنسبه إلى الميرى وتحسب عليه . فاكتفى العقاد من مدرسة الدولة بالشهادة الابتدائية حين لم يقنع من مدرسة الحياة بما هو أكبر بكثير . فظل حياته طالباً فى تلك المدرسة وأستاذاً بها يتعلم عليه فيها حملة الإجازات بمختلف مراتبها وألقابها .

وهذا القلم الذى استقر نصف قرن بين أصابع العقاد فى ثبات واعتداد كان له درعاً وكان له سلاحاً. فحين نشبت الحرب العالمية الأولى ومست أسوان بالتجنيد الإجبارى والاعتقال المتكرر والإتاوات لتعلات ملفقة ، شهر العقاد سلاحه الخاص : القلم . فكتب ونشر فى تحد ظاهر هو سمة من سمات العقاد حتى إن السلطات عند ما نفت ناظر مدرسة المواساة إلى جزيرة مالطة، تعمد أن يشغل مكانه (تحدياً للأمر) كما يقول .

ويبدو أن التحدى أفاده هذه المرة فإن مدير الإقليم حين ضاق به، تعذر عليه نفيه إشفاقاً أن يقال إنهم يضطهدون المدرسة الإسلامية الوحيدة فى البلدة ، وإن احتال للأمر فصدمه بمفتش الداخلية الإنجليزى حتى

اضطر العقاد إلى أن يرحل من أسوان متنكراً . ولكنه لم يكف عن حربهما حتى أودى بهما فى النهاية . فإنه لم يكد يطأ أرض القاهرة حتى لاذ (بجعفر والى باشا) وكان صديقاً . وكان فى ذات الوقت وكيلاً للداخلية فكان يصطحبه كل يوم إلى مكتب المستشار ليشهده على كذب التقارير ضده التى تفد كل يوم من أسوان منذرة بخطر وجوده فى الإقليم ، مما أدى إلى إحالة المدير إلى المعاش قبل موعد الحركة الإدارية . فخرج من أسوان ولحق به المفتش . ومن الطريف أن المدير الذى خلفه كان يدعى « مقبل باشا » . فأبرق العقاد إلى أصدقائه فى أسوان يقول :

شر مدبر وخير مقبل

* * *

وحين كان العقاد يعمل فى وظيفة بمصلحة الإيرادات بقنا – وهى مركز أدبى قديم – أنشأ مع أهل الأدب بها – جمعية أدبية كانت تجتمع يوم الخميس من كل أسبوع فى مبنى الكنيسة باتفاق مع قسيسها البروتستنتى .

ثم خلف الصعيد وسافر إلى القاهرة وعمل بالكتابة والصحافة .

وتاريخ العقاد فى الصحافة يبدأ بصحيفة « الدستور » التى أصدرها الأستاذ « محمد فريد وجدى » منذ نصف قرن . فقد كانت أول صحيفة يومية عمل فى تحريرها، وأول صحيفة أيضاً واظب عليها . فقد عمل بها من العدد الأول إلى العدد الأخير مضطلعاً بنصف أعباء التحرير والترجمة والتصحيح وتهذيب الرسائل والأخبار . فقد كان هو المحرر الوحيد مع صاحبها .

وقد كان العقاد يوقع مقالاته الأولى باللقب وبالحرفين الأولين من اسمه : « ع. م. العقاد » متأثراً بالمجلات الأجنبية التي كان يقرؤها . ومن الطريف أن هذا لفت إليه النكتة المصرية فكان رفقاؤه يسمونه « عم العقاد » ويتفكهون « ماذا تقول يا عمنا » . . إلخ .

ولكنه في سني الحرب انصرف أكثر وقته إلى التدريس . ولكن علاقته بالصحافة لم تنته وإن كانت قليلة متقطعة على تعدادها وتنوعها . فقد اتصل بألوان من الكتابة الصحفية أتاحت له الوقوف على طرف من أسرارها وخباياها . وفي هذه الفترة كتب إلى المجلات الشهرية والصحف الأسبوعية كما اشتغل بالصحافة اليومية في غير القاهرة .

وقد عمل العقاد رقيباً نزولاً على رغبة « جعفر والى باشا » وكيل الداخلية . ولكنه لم يلبث أن اصطدم بالرقيب العام مستر « تيلور » في ذلك الوقت فألقى إليه باستقالته ولما يمض عليه غير أسبوع .

* * *

ثم اشتغل بالتدريس في مدرسة وادى النيل الثانوية على مقربة من مكتب المقتطف والمقطم حيث كان يكتب في فلسفة المعرى وفلسفة شوبنهور مقارناً بينهما . وقد استدعاه ذات يوم الدكتور يعقوب صروف واقترح عليه الرحلة إلى الخطوط الأمامية في صحراء سيناء ليصفها بثًّا للطمأنينة في النفوس . ولكن العقاد رفض لأن الدفاع في ذلك الوقت كانت تقوم به دولة الحماية وهو يناوئها .

ثم انقطعت به الأسباب حيناً قبيل انتهاء الحرب العالمية الأولى فآوى

إلى بيته الذى اختاره بحى الإمام الشافعى متعمداً ليكون بعيداً عن القاهرة بتكاليفها ، فلم يكن يفد عليها إلا مرة فى الأسبوع هى يوم السبت . وفى إحدى هذه الزيارات علم أنه مطلوب للتحرير فى صحيفة « الأهالى » بالإسكندرية .

وكانت « الأهالى » إحدى ثلاث جرائد كانت شبيهة بالرسمية . فقد عمل على إنشائها « محمد سعيد باشا » رئيس الوزارة فى ذلك الحين لتكون لسان حاله . ومن الطريف أن اسمها هو نفس الاسم الذى كان إسماعيل أباظة باشا يصدر به صحيفته . وقد وقع الاختيار على هذا الاسم بذاته (لأن اسم « الأهالى » يقابل اسم « الشعب » واسم « الأمة » مصبوغاً بالصبغة التى تدل على معنى « الرعية » ولا يفهم منها معنى المقاومة والثورة كما يقول العقاد) .

ولما شرعت صحيفة « الأهالى » فى مهاجمة الرأى السياسى الذى كان يتشيع له العقاد ، تركها وعمل بجريدة الأهرام حيث كان يدافع بقلمه عن القضية المصرية . وقد حدث عند ما أعلن ملنر بلاغه أن ترجمته الحكومة فى بلاغها الرسمى (أن الغرض من التحقيق إعطاء الاستقلال « تحت أنظمة دستورية ») وشايعتها الصحف بإيعاز منها ما عدا الأهرام . فقد رأى العقاد هـــذه الترجمة مدلسة وانفرد بترجمتها « تحت أنظمة حكم ذاتى » . حدث هذا فى ظل الأحكام العرفية . وكان هذا النزوع إلى إشهار الحقيقة والبر بها ، أحد الأسباب التى عرضته للنفى يوماً .

* * *

كما حارب العقاد الملكية فى مصر بلا هوادة من أجل الدستور وإرساء قواعد الحياة النيابية . فقد حدث أن سلم عبد الخالق ثروت الدستور للسراى حيث ظل بلا إعلان لأن الملك فؤاد كان يريد أن يسقط من الدستور عبارتين أولهما (الأمة مصدر السلطات) ، والأخرى (الوزارة مسئولة أمام البرلمان) . وفى سبيل هذه الغاية حاول استمالة بعض الوفديين ، فإذا العقاد يفتح عينه على المكيدة.فكتب مقالة يقول فيها إن الدستور كما كُتِبَ يعلن.وإذا كانت به أخطاء فإن البرلمان يناقشها . وقدر لهذه المقالة إحدى اثنتين إما أن يرفض البلاغ نشرها فتنكشف الحقيقة ، وإما أن ينشرها فتحبط المؤامرة . ونشرت المقالة وأبطل التدبير الذى بُيِّت بليل . . .

ثم توالت الوقائع . حدث أن أقال الملك فؤاد الوزارة الوفدية وأقام وزارة يرضاها.وهذا نذير يهدد بإلغاء الحياة النيابية . فوقف العقاد على منبر البرلمان يعلنها مدوية أن شعبنا قادر على سحق أكبر رأس تتعرض لحياته . وحفظها له الملك فؤاد .

على أن العقاد لم يكتف بهذا بل ظل يكتب مقالات عن الرجعية يرتد الهجوم فيها بلا مشقة إلى الملك فؤاد فأفضى به الأمر إلى السجن .

* * *

وحياة العقاد سلسلة طويلة من الكفاح . . الكفاح بكل ألوانه . . الكفاح الأدبى والسياسى والمادى أيضاً . فقد صارع الرجل الزمن والأحداث والسلطات فى عهود شتى حتى استطاع أن يزحزح كل القوى المعوقة ، وينفذ

إلى مكانه الطبيعى فى الحياة . وكان يقضى الليل يقرأ على ذبالة مصباح ويقضى النهار على وجبة واحدة من الخبز والجبن أو من الخبز والفول . . وتعقبه فى أعقاب الحرب العالمية الأولى الاستعمار والسلطات الممالئة له ، ولكنهم لم ينالوا منه شيئاً غير أن أخرجوه من بلده أسوان ليعود . واضطهدته الملكية حتى أودعته السجن ، وعرف مرارة الغبن والجحود فعاش منفرداً ، معتداً ، جميعاً بنفسه ، كثيراً بشخصه الفرد . . غير آبه بمن يعيبون عليه التفرد أو العزلة أو الاعتداد . خلص للأدب والعلم فخلصا له . وعاش بين كتبه لا يمل صحبتها ولا تمله . . كلاهما غنى لصاحبه وكفاء . . وقد انتظمت حياته على القراءة والكتابة فهو إما أن يستزيد وإما أن يزيد . . رفيقه فى العمر كتاب هو قارئه أو هو كاتبه فليس غيره على الحالين صاحب وخدين .

وقد أوتى العقاد الكتابة بكل ملكاتها ومواهبها ففاض بالشعر ، وتوسع فى المقال ، والنقد ، والتاريخ . . واللغويات ، والدين ، والفلسفة ، والعلوم ، وعالج القصة . وبهذه المواهب المتنوعة المتعددة ، مصحوبة بالقدرة على التأمل النافذ من ذهن موسوعى استطاع العقاد ، كما يقول الدكتور عثمان أمين ، أن يفتح فى عالم الفكر (طريقاً طويلاً بلغ فيه بجهده وصبره غاية قلما يبلغها مفكر واحد فى عصر واحد) .

ولما تنسك العقاد فى مكتبته **رفض المناصب** وقد عرض عليه منها ما يغرى . إنه الاكتفاء الذاتى لو صح هذا التعبير فى دنيا الأفراد . لكأن العقاد أودع رفضه كل صفاته من جبروت وصرامة واعتداد واستعلاء وزهد فى المناصب وما تضفيه . . إنه الأغنى بالقلم .

وهكذا عاش **العقاد لقلمه وعاش به** . . عاش ولوعاً بالمعرفة الإنسانية على اختلاف ألوانها . يخف إليها فى مظانها . عصامى صنع نفسه على غير مثال فى الرجال. وشق طريقه فى الحياة بسلاح الذكاء الفطرى والموهبة الأصيلة التى يزيدها الصقل والتجربة والطموح تألقاً ومضاء .

وهو يجيد من اللغات غير العربية ، الإنجليزية إجادة تامة . . روى لى مرة أنه كان إذا كتب فى العربية تمثلت الجملة فى ذهنه لأول وهلة ، إنجليزية ثم يخرجها على الورق عربية وذلك من طول قراءته للإنجليزية وتشربه لها . وإنه ليستعين بها على فهم الإيطالية والإسبانية اللتين يفهمهما بقدر ما هو مشترك بينهما وبين الإنجليزية .

أما الفرنسية فقد تعلمها أقصد علمها نفسه أثناء سجنه .

وفى الأدب العربى كان العقاد يؤثر من كتابه ابن المقفع وصاحب الأغانى ومن الشعراء ابن الرومى .

وعملاق الفكر العربى والأدب العربى كان أسلوبه بخصائصه المتميزة يمثله ويعلن عنه . **أسلوب العقاد أسلوب منطقى يعتمد على المقدمات والنتائج** حتى لتحس إزاء مقالته أن أفكارها مرتبة ترتيباً يتميز فيه البدء والختام قبل أن يخط فيها حرفاً . وأدب العقاد كما يقول الدكتور عثمان أمين (أدب الفكرة الواعية فى أرفع منازلها) . وقد كان ملاك الرأى عند العقاد فى الفن والأدب هو أن (**الفن والأدب وجدان إنسان ، ولن يكمل الإنسان بغير ارتفاع فى طبقة الحس وارتفاع فى طبقة التفكير ، وأن التمام فى مزاياه الإنسانية أن يتم له الحس ويتم له التفكير**) .

الصرامة والجد والتوقر طابع جلى فى (أدب العقاد) شعره وترسله .

وأسلوب العقاد أسلوب علمى ما لم تغلب عليه طبيعة الموضوع إن كان أدباً خالصاً . الجملة عنده بنيان مرصوص . والكلمة فى مقاله لها موقعها الذى لا موقع غيره يكفل لها الجلال والخطر . فهو بحق إمام من أئمة العارفين بمقامات الكلام .

وهو لا يرتاح إلى الجمل المعترضة ومن ثم يدخلها فى السياق . ويتحكم فيه السياق نوعاً ما حين يملى عليه التعبير المختار أو يوحى به . .

ومع ما لأسلوبه من الطابع العلمى إلا أنه يميل إلى الإيقاع ونهاية الفواصل فى غير حشو أو فضول . وهو يؤثر المعنى على اللفظ وإن كان يستهويه السجع أحياناً فى موضوعات التهكم والدعابة ، كما يختاره فى الموضوعات الوجدانية وما إليها مما يلحق بالأغراض الشعرية . (فإن السجع ينبه الذهن إلى المعاني فى هذه الأغراض ويزيدها جلاء وتوكيداً ، كأنه اللحن الذى يضيف إلى الكلمات ومعانيها قوة ليست للكلام الذى يسمع بغير تلحين) .

* * *

وهو متعصب للفصحى ولا يقبل التساهل فيها ، ويرى أن الكتابة الإنسانية ما كانت باللغة الباقية ذات القواعد .

ولكن تعصبه للفصحى فى الحقيقة كان رد فعل للهجوم عليها من جهات عدة . وكان العقاد يرى (الحملة على اللغة فى الأقطار الأخرى إنما هى حملة على لسانها أو على أدبها وثمرات تفكيرها على أبعد احتمال ،

ولكن الحملة على لغتنا نحن حملة على كل شيء يعنينا ، وعلى كل تقليد من تقاليدنا الاجتماعية والدينية ، وعلى اللسان والفكر والضمير فى ضربة واحدة . لأن زوال اللغة فى أكثر الأمم يبقيها بجميع مقوماتها غير ألفاظها ، ولكن زوال اللغة العربية لا يبقى للعربى أو المسلم قواماً يميزه من سائر الأقوام ، ولا يعصمه أن يذوب فى غمار الأمم فلا تبقى له باقية من بيان ولا عرف ولا معرفة ولا إيمان) .

ولم يقف العقاد عند هذا الحد بل انبرى يبرز المزايا العلمية لهذه اللغة فى كتاب كامل حين مست الحاجة إلى إبراز هذه المزايا غاية المساس ، لأنها فى يقينه (قوام فكرة وثقافة وعلاقة تاريخية ، لا لأنها لغة كلام وكفى) .

* * *

وهو يزوّر عن النقد المتشائم ويعزف عن أصحابه . وإن كان لا ينكر على النقد أنه أصدق المذاهب على أن يداف فيه العطف وتمترج به الرحمة . Humanity Sympathy كالذى تطالعه العين فى أدب المعرى وشوبنهور .

والعقاد فى نقده يراه قوم متعصباً لرأيه . فأفكاره قضاء من حقه التسليم . ونسوا أن أفكاره هذه ، حياته .. أنها زوجه والولد .. أنها نور عينيه .. أنها دنياه وعالمه ، حين يفكر الآخرون ولكن ساعة من نهار ، أو سانحاً من خاطر ، أو حتى اهتماماً مقصوداً ، ولكنه أحد اهتمامات كثيرة هى فى مجموعها لا تلهيهم عن مناعم دنيا تعفف عنها العقاد ، وترفع عليها ، واستبدل بها عالم الفكر ومحرابه ليتعبد فيه ويتهجد ، وكأنه الكاهن حتحور كما كان يلقبه تلاميذه الصغار حين كان هو نفسه صغيراً فى حساب السنين .

يقول العقاد : (إن للعظمة خصائص تدعو إلى العجب ، وإن كانت معروفة الأسباب ، وناهيك بالعظمة التي ترتقي هذا المرتقى .

من تلك الخصائص أنها قد توصف بالنقيضين في وقت واحد لأنها متعددة الجوانب فيراها أناس على صورة ، ويراها غيرهم على صورة أخرى ، وربما رأتها العين الواحدة على اختلاف في الوقتين المختلفين .

ولأنها تبعث الحب الشديد كما تبعث البغض الشديد ، وبين الطرفين مجال للاعتدال يستقيم للراشدين ، ومجال للمغالاة من هنا وللمغالاة من هناك .

ولأنها عميقة الأغوار فلا يسهل استبطانها لكل ناظر ، ولا يتأتى تفسيرها لكل مفسر .

ووصفه هذا للعظمة ينطبق عليه ، فقد كان كابن سينا المعجبون به على الجملة أكثر من محبيه ، لأنه رزق أسباب الحسد من جميع نواحيه . فكان رجلاً عظيم الذكاء عظيم الاعتداد بالنفس عظيم النشاط ممتلئاً بالحياة . لكأنما كان يصف نفسه من خلال ابن سينا .

* * *

وآثر فنون المعرفة عند العقاد بترتيب :

* الشعر عربياً وأجنبياً وما يلحق به من نقد ودراسة .
* البحث فيما وراء الطبيعة .
* العلوم .

* * *

لقد شارفت كتب العقاد المائة .

ومن عجيب أن هذه التحليقات التي أغنت أدبنا وتاريخنا ، هذه الآفاق التي أحسنت إلينا ، أساءت إلى ربها شاعراً ! فشعر العقاد قيمة إنسانية كبرى بما أعلى من شأن (الإنسان) وليس شعراً عربياً فحسب . وكانت أحب صفات العقاد إلى نفسه صفة « الشاعر » . ولكن بحوره فى الكتابة على اختلاف ألوانها غلّبت صفة الكاتب ، وصفة المفكر ، وصفة الأديب . يضاف إلى هذا أن العقاد شاعراً يقترن فى أذهان الناس برفيقيه الشاعرين المازنى وعبد الرحمن شكرى عضوى مدرسة الديوان . والذى حدث أن المازنى زهد فى الشعر وخلص للنثر ، « وشكرى » زهد فى كل شيء : الشعر والناس والحياة . وآض إلى عزلة رهيبة أسلمته إلى العزلة الكاملة .

هذه العوامل مجتمعة ومتفرقة ألهت الناس وأنستهم ما لا يُغْفَلَ عنه فى مجال التاريخ والتقدير ، وهو مثالية العقاد فى الشعر ، وتفرد العقاد الشاعر . وقد سبقنى إلى هذا القول الدكتور طه حسين الذى أعلن سنة ١٩٣٤ على الملأ : أنى لا أؤمن فى هذا العصر الحديث بشاعر عربى كما أؤمن بالعقاد . ولم يقل الدكتور طه حسين وهو أعلم بمواطن الكلام هذا القول ، تحية مجامل فطالما تعارض الرجلان فى الأدب وفى غيره مما تتشاجن فيه الآراء ، ولكنه قال عن علم رجل الأدب بالعقاد الذى خلق لنفسه بالدرس المتصل الطويل الذى لا يعرف حداً ، (قوة لم يعرفها غيره من شعرائنا ، قوة خاصة خارقة لا يعرفها شعراء العرب لأنهم من أقل الناس قراءة فى هذا العصر . خلق العقاد لنفسه قوة شاعرة لا تجد لها نظيراً إلا فى أوربا حيث يلتمس الشعراء الفن لا فى الأدب وحده ، بل فى العلم ، وفى كل شيء آخر) .

وحين يحدد الدكتور طه حسين مكان العقاد في الشعر ومتى ؟ منذ ربع قرن يعلن مرة أخرى (أن المدرسة القديمة قد ماتت بموت حافظ وشوقى ، وأن المدرسة الجديدة – أى مدرسة العقاد – قد أخذت تؤدى حقها وتنهض بواجبها فترضى المصريين والعرب جميعاً ، فإذا الشعر الجديد يفرض نفسه على العرب فرضاً ، وإذا الشعور المصرى والقلب المصرى والعواطف المصرية أصبحت لا ترضى أن تصور كما كان يصورها حافظ وشوقى ، إنما تريد وتأبى إلا أن تصور تصويراً جديداً . وهذا التصوير هو الذى حمل الملايين على إكبار العقاد) .

لماذا أكبر الدكتور طه حسين العقاد وآمن به وحده دون غيره من الشعراء فى هذا العصر؟

(لأنى حين أسمع شعر العقاد إنما أسمع الحياة المصرية الحديثة) .

ثم لماذا أيضاً ؟ (ثم لأنى إذا قرأت شعره مرة ومرة ومرة – لم أستطع أن أقول لنفسى : قد قرأت هذا الكلام من قبل أو أين قرأت هذا . أفى شعر البحترى أم عند أبى تمام أم سبق أبو نواس إلى مثل هذا الكلام ، كلا . . إنما تقرءون العقاد فتقرءونه وحده ، لأن العقاد ليس مقلداً ، ولا يستطيع أن يقلد ، ولو حاول التقليد لفسدت شخصيته . وشخصية العقاد فوق الفساد . خذوا ما شئتم من دواوين الشعراء المعاصرين الذين أكبر منهم كثيرين وأحب منهم كثيرين . أنا واثق أنكم لن تمضوا فى قصيدة حتى تذكروا شاعراً من المتقدمين ، أو أن تذكروا شاعراً من الغربيين المحدثين ولكن انظروا فى العقاد خذوا بيتاً من العقاد أو قصيدة أو مقطوعة فلن تروا إلا العقاد) .

هذه أقوال أفذاذ لم تستطع المعاصرة أو المنافسة أن تحجب كلمة الحق أو حتى زهو الفخر وإشادة التقدير . . .

* * *

وكان العقاد يخطط لحياته فلا ينجز مشروعاً حتى يرسم آخر فلا يستريح بينهما إلا أسبوعاً . والراحة هنا معناها أنه يتخفف فى القراءة فيختار الموضوعات الخفيفة والشيقة . فإذا فرغ الأسبوع الموعود شرع فى وضع الكتاب الجديد . وكان آخر اهتماماته سلسلة أتم بعض حلقاتها . وهذه السلسلة كتب أربعة عن :

الله — الكون — الإنسان — الشيطان .

وقد أنجز العقاد منها كتابه (إبليس) وكتابه (الله) الذى احتشدت له ملكاته كلها . وبعد رحلته الفلسفية الطويلة فيه . انتهى إلى القول بأن (الإيمان ظاهرة طبيعية فى هذه الحياة . لأن الإنسان غير المؤمن إنسان « غير طبيعى » فيما نحسه من حيرته واضطرابه ويأسه وانعزاله عن الكون الذى يعيش فيه ، وأن الحس والعقل والوعى والبديهة جميعاً تستقيم على الإيمان بالذات الإلهية ، وأن هذا الإيمان الرشيد هو خير تفسير لسر الخليقة يعقله المؤمن ويدين به الفكر ويتطلبه الطبع السليم) .

كما انتهى بحثه فيه إلى أن (العقيدة الدينية هى أقرب الفلسفات إلى المعقول وليس قصارى الأمر فيها أنه أمر تصديق وإيمان .

لا بد من وقفة فى كل تفسير للوجود .

فوقفة المؤمن أصح من وقفة الفلاسفة فى النهاية : كل ما هو محدود

فقد يحيط به القياس ، ولا إحاطة بما ليست له حـــدود . « البارى » قديم سرمد لا يحده الزمان ولا المكان . ليس كمثله شيء وهنا يحسن الوقوف .

ألأنه عقيدة وكفى ؟

كلا ، بل لأنه منطق سليم ، ولأنها نهاية شوط العقول) .

ومن مشروعاته فى الكتابة لو أن العمر امتد به ، الكتابة عن الغزالى وعن بعض الشعراء مثل توماس هاردى وهاينى .

* * *

وإذا كان الدكتور زكى نجيب محمود يشبه شعر العقاد بأنه (أقرب شيء إلى فن العمارة والنحت وأن القصيدة عنده بناء من الصوان ، والقلم فى يده هو إزميل النحات ، وأنه لا يصوغ قطعة من العجين اللين ولا يقيم بناء من الطين الطرى المطواع فلا الفكرة عنده قريبة المنال ، ولا المادة سهلة التشكيل . القصيدة عنده هى المسلة القديمة قدت من حجر الجرانيت لترسخ فى الأرض وترتفع فى السماء فهما هنا العمق . . والسموق معاً) .

إذا كان الدكتور الباحث يقصر هذا الوصف على شـــعر العقاد ، فإن هـــذا الوصف يصدق فى غير زيادة أو تحريف على أدب العقاد كله شعره ونثره على السواء . فكل كتاب للعقاد وراءه جهد دارس متعمق محيط . وكل كتاب للعقاد بصورته التى هو عليها من حيث التناول والصياغة ومادة الموضوع ونفاذ الرأى والتحليل ، (مسلة) قدت من حجر

الجرانيت لترسخ فى الأرض وترتفع فى السماء . وليس بكتاب للعقاد ما احتوى على فكرة قريبة المنال أو مادة سهلة التشكيل .

ولكن أقرب كتبه إليه كتابه (ابن الرومى) . إن بينه وبين الشاعر تجاوب الفن حتى ليراه فى النوم على صورة واحدة كما حدثنى مرة . . وهو يرى فى ابن الرومى شاعراً وصافاً لا نظير له . فى آداب الدنيا على كثرة ما فيها من وصف ووصافين . فهو حين يكتب عنه يجد رضى نفسه فى الكتابة . إنه يرتاح حين يعطيه حقه ويرفعه إلى حيث يجب أن يكون . .

لقد كتب العقاد عن عمر ، الذى نال بكتابه عنه جائزة الآداب . ولكنها كتابة الإنسان الذى يؤدى واجبه ويقول ما يعتقد . ولكن كتابه (ابن الرومى) فيه ذاتية واضحة تحب فى إعجاب وتتعصب فى حماسة . .

* * *

وقد تُرجم كتاب (الله) إلى الفارسية كما ترجمت بعض كتب الأستاذ العقاد فى ألمانيا وروسيا وفرنسا .

وترجمت إلى الإيرانية والأردية والملايو كتبه :

(عبقرية محمد) ، (أبو الشهداء) ، (عبقرية الإمام) .

* * *

ولكتابه الأول (خلاصة اليومية) قصة هو يرويها :

(كان يأساً من معنى الحياة . . كل غاية فى الحياة . . لأننى قبل ذلك بشهور عكفت على القراءة فى كتب (الفلسفة المادية) وأكثرت من النظر فى مذهب النشوء والارتقاء فلاح لى أنه أصدق من أقوال خصومه

المتعصبين الذين تصدوا للرد عليه بين الأوربيين باسم الدين . ولاح لى من النظرة الأولى على غير رؤية فيه أنه يهبط بالإنسان إلى حضيض الحيوان ، ولا يبقى بينه وبين السماء معراجاً واحداً يرتفع عليه .

وكذلك كتبت فى مقدمة كتابى (خلاصة اليومية) أن الإنسان حيوان راق ولكنه حيوان .

وقصة (الخلاصة) هذه هى قصة الأمل الذى بقى عندى يومئذ فى شهرة الأدب وفى عدد الأيام التى أقضيها قبل ظهور هذا الكتاب . وكنت أظننى مبالغاً إذا حسبتها بأكثر من الأيام .

هو الموت إذن كما استقر فى خلدى بلا أثر ولا خبر ، وهو الموت إذن أمضى إليه صفر اليدين من مجد الأدب ومن مجد الدنيا ومن كل مجد يبقى بعد ذويه .

* * *

و « اليومية » هذه هى دفتر صغير كنت أقيد فيه الخواطر والتعليقات وأبادر إلى إيداعه أبيات الشعر التى نظمتها ولم أتممها قبل أن أنساها ، أو رءوس الموضوعات التى نظرت فيها ولم أفرغ من دراستها ، أو ملاحظات الطريق ونوادر الأحاديث العابرة التى أعاودها فى مناسباتها . وقد اجتمع عندى من هذه اليوميات دفاتر ثلاث سنوات . فلما وقع فى وهمى أننى سأذهب بغير أثر ولا خبر تصفحت هذه الدفاتر ونقلت منها صفحات متفرقة تشتمل على جميع نماذجها وبعثت بها إلى صديق فى القاهرة أقول له إن هذه الصفحات هى كل ما أتركه إذا تركت الحياة : فإن وجدنى أهلاً

للذكر ووجدها أهلاً للنشر فتلك كرامة الصديق الراحل على الصديق الباقى ، وإلا فلا حرج عليه أن يهمل نشرها ويسلمها للنسيان . يطويها حيث طواها فى زاوية من زواياه .

ثم طبعت خلاصة اليومية بعد أن أضفت إليها وحذفت منها ، وكان من التوفيقات التى لم أترقبها أنها نفدت فى أقل من ستة شهور ، فلم يبق من ألفى نسخة طبعتها منها غير مائة أو نيف ومائة ، وهو نجاح غريب لكتاب ولسته فكرة يائسة من الحياة) .

ولكنه لم يخرج من الدنيا فى ذلك الوقت الذى قدره لأن الله أراد بنا خيراً فعاش العقاد ليملأ الدنيا لمصر مجداً ، وعاش ليملأ حياتنا أدباً وعلماً وفكراً ، وأملا فى (الطموح) ، وفى (الكرامة) وفى (الإنسان) . . فى الإنسان الذى كان العقاد بشخصه ، وسيرته ، وكتابته ، أشرف مثل له وأكرمه على الحياة والناس .

* * *

والعقاد مدرسة ولكنها لم تتبلور إلا فى الأعوام الأخيرة . فقد كانت قبلاً شبه علاقات متفرقة بأفراد متفرقين ثم اتضحت معالمها . ومن أبرز أبنائها الأستاذ على أدهم والدكتور زكى نجيب محمود . والدكتور عثمان أمين والدكتور محمد غلاب والأستاذ أنيس منصور والأستاذ عبد الرحمن صدقى والفنان صلاح طاهر والموسيقى الشجاعى والأستاذ عبد الفتاح الديدى والدكتور نظمى لوقا والشاعر محمود عماد والشاعر محمد طاهر الجبلاوى تلميذه وصديقه .

ومن أصدقاء مدرسة العقاد الشاعر عزيز أباظة والمرحوم الأستاذ كامل الشناوى والأستاذ طاهر الطناحى .

* * *

وأدب العقاد على جديته وصرامته لا يخلو من المرأة حبيبة ، وصديقة .

فالعقاد من ذلك الرهط الذى كان يؤم صالون (مى) الأدبى ويغشى مجالسها ، ومى هى بعينها (هند) فى (سارة) وفى الديوان . وظاهرة فى أدب العقاد أن كل اسم فى (الديوان) أو (سارة) من حيث الوزن العروضى له نظيره الحقيقى حتى تلك التى يدعوها (يابنية) فى ديوانيه (أعاصير مغرب) و (بعد الأعاصير) .

وكانت (سارة) شخصية مستوفية ثقافة وجمالاً . ذات أنوثة متأصلة علرمة طاغية حتى ليؤثر عنها قولها (لو خيرونى أن أكون رجلاً لأبيت) .

ولعل هذه المستويات الرفيعة من الثقافة والنماذج الرائعة من الجمال هى التى زهدت العقاد فيما هو أدنى ، أو لعله التنسك فى محراب الفكر حتى لا يعطى من نفسه أحداً سواه . يعزز هذا ما رآه العقاد من تمزق صديقه المازنى عند وفاة ابنته فآل يومئذ على نفسه ألا يواجه هذا الموقف المروع وأشفق عليها من مجرد احتمال الثكل . وكان العقاد مرهف الإحساس شديد التأثر لا يطيق الألم فى نفسه أو نفوس الآخرين وخاصة الألم الذى لا قبل للإنسان بدفعه أو تفاديه .

وجوهر الرأى عنده فى قضية المرأة كما جاء فى أكبر كتبه عنها (المرأة فى القرآن الكريم) أن :

ملاك العدل والمصلحة بين الجنسين أن تجرى الحياة بينهما فى الأمة على سنة التعاون والتقسيم (لا على سنة الشقاق والتناصل بالمطالب والحقوق) .

وليس الخلاف بينهما بالخلاف الذى ينفض بالصراع على كفاية واحدة يدعيها كلاهما فى مقام الخصومة ، ولكنه خلاف على كفايتين أيهما أصلح لهذه وأيهما أصلح لتلك . وإن صلح كلاهما لكفايه الآخر فى كثير من الأحيان .

وهو حين يرى وظيفتها المثلى التى تستقل بها : حماية البيت فى ظل السكينة الزوجية من جهاد الحياة . وحصانة الجيل المقبل لإعداده بالتربية الصالحة لذلك الجهاد . . حين يرى هذا يعلن فى غير مواربة أن حصتها هذه ليست بأصغر الحصتين . **ليس تدبير السكينة فى الحياة بأهون من تدبير الجهاد ، وليس العمل الصالح لسياسة الغد بأهون من العمل الصالح لسياسة اليوم .**

* * *

وقبل أن أضع القلم أريد أن أقف وقفة قصيرة عند ظاهرة لا تخطئها عين الدارس لأدب العقاد بل القارئ العادى وأعنى ظاهرة (النور فى أدب العقاد) .

والنور ظاهرة من ظاهرات كثيرة فى تراث الرجل الكبير فقد أحب النور ، واختار بيته فى مدينة النور ، وفتحه للنور كما فتح عقله الكبير للنور . . كل النور . . من الشرق والغرب **فغدا عقلاً نورانياً موسوعياً فى عصر التخصص والتحديد** . وهو بهذه الصفة ظاهرة فذة بين الأعلام المعدودين

وهو بهذه الصفة عاش قروناً طويلة لا تقاس فى عداد السنين بالستين والسبعين ، التى نعرفها .

والنور الذى أحبه العقاد النور العادى والنور المعنوى على السواء .

فقد أحب العقاد النور لأنه كان صريح النفس لا يخاتل ، صريح الرأى لا يخافت به ولا يجمجم فيه بل كان حرًّا كالنور ، نافذاً مثله يكشف المعميات والخوافى . على غواره . واختلف الناس فى طبيعة النور الذى أشرق على مصر من أسوان اختلافهم فى معنى العظمة والعظيم فقال المبصرون هو النور والإشراق ، وقال المذعورون بل النار والإحراق . ثم غدا العقاد سيرة مجيدة . وإذ هدأ روع الخائف تعلق بما كان ينكره ، والتقى معنا على تمجيده والوفاء له . وحق له الوفاء والتمجيد .

إنسان شفاف مضىء يحب النور ويعيش فى النور بل كان يتعشق النور حتى ليقول : (أحبه صافياً وأحبه مزيجاً ، وأحبه مجتمعاً وأحبه موزعاً . وأحبه مخزوناً كما يخزن فى الجواهر ، وأحبه مباحاً كما يباح على الأزاهر . وأحبه فى العيون ، وأحبه من العيون ، وأحبه إلى العيون .

ويوم سكنت فى هذا المكان ، ونظرت من هذه النافذة ، أعجبنى أننى أفتحها فلا أرى منها إلا النور . . والفضاء .

والحق أنه لا فضاء حيث يكون النور . .

وكيف يكون فضاء ما يملأ العينين ، ويملأ الروح ، ويصل الأرض بالسماء !)(١) .

---

(١) فى بيتى ص ٥ .

إنسان عميق لا يرى الأشياء سطحها ولكنه ينفذ خلالها كالشعاع حتى النهار الذى يتكرر فى حياة الإنسان كل يوم ما عاش فلا يثير التفاته بله تفكيره شأن المكرر المعاد . . هذا النهار ينظر إليه العقاد نظرة متوهجة غنية مبتكرة فهو نهار مبتكر (عليه جدة لا تحسبها قد مضت عليها سويعة من يوم ! . . خلقاً مبتكراً يخيل إليك أنه يتلألأ فى فضائه الأول للمرة الأولى . . وهل هنالك من فارق بين نور نهارنا هذا وبين النور فى أبعد مكان من الفضاء ، وفى أبعد فترة من الزمان ؟ ههنــا شىء على الأقل تستطيع أن تقول إنه لم يفتك أن تراه قبل ألف ألف من السنين)[1].

وقد غنى العقاد للنور فى كتابيه (أنا) و (فى بيتى) غناء عذباً . والبعثة المحمدية « مطلع النور » ورسالة محمد (رسالة النور) ص ١٢٩ .

النور عنده مصدر كل شىء حتى الربيع : (إن الربيع ليغنى لأنه حى ولا سبب للغناء غير ذلك ولا حاجة إلى سبب غيره لمن يحس ويعيش . والربيع حى لأنه موسم الحرارة والضياء . وهل الحياة إلا حرارة وضياء ؟ إنك لتؤمن بالروح وحده أو بالجسم وحده ثم تقول إن النور هو مصدر كل شىء وأصل كل حياة فلا تكون إلا على صواب ، وما كان نور العين ولا نور الروح إلا شيئاً واحداً فى العنصر والقرار ، وإلا عنصراً واحداً لكل ما يظهر فى هذه الدنيا للبصائر والأبصار)[2] .

وقد يكون هذا القول مجملاً أو مكتزاً على عادة أقواله . ولهذا أرانى

---

(١) فى بيتى ص ١١ .

(٢)ساعات بين الكتب ص ٣٩ .

بحاجة إلى التماس مزيد من إيضاح أو تخريج فيعين كتابه (الفصول) على الغرض فيسأل معنا : ما هو الربيع ؟ أليس هو فصل الحب ؟ أليس هو الموسم الذى تشرق فيه ألوان الأزهار فتتراوج كما يتراوج الأحياء ؟ ألا تنكشف للعشاق علاقة هذه الأزهار بالغرام فيتراسلون بالأنوار الندية ، والرياحين الشذية . ويخرجون إذا أقبل الربيع إلى المنازه والخلوات فيختارون من الأماكن ما تحف به الورود المتعانقة والطيور المتعاشقة . وتفاجئهم بهجة الحب داخل نفوسهم ومن خارجها فى نفثة واحدة من نفثات الطبيعة الحية ؟ وأى ميلاد يؤلف بين نسبها ونسبنا ، وأية قربى تمت بها الأزهار إلينا ألصق من القربي التى تجمع فى موسم واحد بين توالدنا وتوالدها ، وحياتنا وحياتها وامتزاج الجمال والحب فيها بامتزاج الجمال والحب فينا ؟

ولم يحقق لنا العلم ما هو سر تأثير ألوان الزهر على أبصارنا ولا ما هو سر تأثير الزهر بذاته فى شعورنا . ولكنا قد نرى علاقة النور بالألوان . ونرى علاقة الحرارة بالنور ، ونرى علاقة الربيع بالحرارة ، ثم نرى علاقة العواطف الغرامية بالربيع . فكلها عناصر ربيعية تظهر بباعث واحد فى زمن واحد ولا نرى منها إلا ما هو من الحرارة قابس ، وبالضوء مزدان ولابس ، وفى الحب مغروس وغارس) .

وليس هذا من حلى الأسلوب كما يوحي التوافق بين أواخر الجمل فى الصوت والحروف فإن العقاد يمضى قائلاً :

الحرارة تنبعث من الشمس إلى جوف الأرض فتتخللها فتنبت البقل والثمرات — ذلك هو الربيع .

والحرارة تبسط نورها على الأزهار فينسج على أوراقها اللطيفة ألوانه ويحليها بأصباغه ونقوشه . ذلك هو سحر الألوان وبهجة الأزهار .

والحرارة تجرى الدم فى العروق فتيقظ العواطف التى أنامها الظل . وتتحرك الحياة الكامنة فيملكها الشوق إلى تجديد الحياة فى مخلوق جديد . ذلك هو الحب . فالربيع والأزهار والحب أشقاء لم يولد بعضها بعضاً ولكنها تولدت على السواء من أم واحدة هى الحرارة . أو هى الشمس أم الحب والحياة فى هذا النظام) .

كان العقاد يحب النور وما أكثر ما قرأ العقاد فى صباه على ضوء شمعة أو فتيل مصباح !! . وما أكثر ما فى حياة هذا القلم من عجائب ومقابلات .

* * *

أنا لم أقل كل شىء عن ظاهرة واحدة من ظاهرات عديدة فى أدب العملاق إن هى إلا لمحة من نوره تسعى على ضوء ذكرى حياة طويلة جهيرة كبيرة العطاء ، وحياة عريضة غنية لها تاريخ فى التاريخ . وهى مَعْلَم من معالم النهضة الأدبية الحديثة يقف صاحبها بين أعلامها قمة شامخة باذخة . حياة ثرة المنابع كثيرة الجوانب كالنهر العظيم تتفرع عنه فى سيره الجداول والعيون . أملت له ، فى العمر ، الأيام وأملى لها ، وأمدته وأمدها ، وعاشت فى أدبه وعاشها . وعلى جلال السن وهالة المشيب رحل عنها وهى ما زالت ترتجيه ، وما زال عنده الكثير مما هو بسبيل كتابته والبحث فيه . كانت الكتابة روح حياته ومعناها فلم يحل بينه وبينها إلا سفره إلى أسوان . وهو

معنى ضخم لا ينفذ إليه إلا الأقلون ليعيشوه . وحتى هؤلاء ، يقف بينهم يذكره العريض ، نموذجاً وحده ، عباس محمود العقاد .

* * *

إن العقاد كقمة الهرم الأكبر لا يرقى إليها صاعد إلا من قاعدة واسعة . فالعقاد لم يكن شاعراً فحسب ، أو كاتباً فحسب ، أو ناقداً فحسب ، أو عالماً فحسب ، بل كان هذا كله مجتمعاً ، وكان أكثر منه .

إن القول فى العقاد يطوف ما يطوف ثم يقصر عن الإحاطة أو ما دونها . إن هى إلا لمحات جانبية لأن القول الحق فيه والتقييم الدارس لا يتأتى إلا بالوقوف على الأصول التى درسها العقاد ، وورود المنابع الثقافية التى عب منها العقاد . وهو أمر تشكل ضخامته صعوبة كبيرة للدرس والتقييم إلا أن يسعف صبر صابر وتفرغ مخلص وجد دءوب . ولعل هذا يفسر طواف معظم الدراسات والكتب بمشاهير الكتاب والشعراء دون العقاد من تهيب لمجالاته وتقدير لوعورة الطريق .

حين ترجم العقاد لابن الرومى قال (لأن تكون ترجمة ابن الرومى صورة خير من أن تكون قصة ، لأن ترجمته لا تخرج لنا قصة نادرة بين قصص الواقع أو الخيال) . ولكننا إزاء العقاد . نجد أنفسنا أمام قصة نادرة بين قصص الواقع تكاد تكون أسطورة بما اجتمع لها من ألوان التفرد والترفع والامتياز .

مؤلفات الأستاذ العقاد

وبعض تراث العقاد فى حياتنا الفكرية ما أذكره على سبيل المثال لا الحصر

الشعر :

- ديوان العقاد (أربعة أجزاء) ١٩٢٨
- يقظة الصباح ١٩١٦
- وهج الظهيرة ١٩١٧
- أشباح الأصيل ١٩٢١
- أشجان الليل ١٩٢٨
- وحى الأربعين ١٩٣٣
- هدية الكروان ١٩٣٣
- عابر سبيل ١٩٣٧
- أعاصير مغرب ١٩٤٢
- بعد الأعاصير ١٩٥٠
- ديوان من دواوين ١٩٥٨
- ما بعد البعد ١٩٦٦

الأدب والاجتماع والتاريخ :

- الفصول ١٩٢٢
- الشذور ١٩١٥

- مطالعات فى الكتب والحياة ١٩٢٤
- مراجعات فى الأدب والفنون ١٩٢٥
- اشتات مجتمعات فى اللغة والأدب ١٩٦٣
- ساعات بين الكتب ج ١ ١٩٢٧ ج ٢ ١٩٤٥ الجزءان معاً سنة ١٩٣٧
- عالم السدود والقيود ١٩٣٧
- يسألونك ١٩٤٧
- بين الكتب والناس ١٩٥٢
- إبليس ١٩٥٥
- على الأثير ١٩٥٣
- مطالعات ١٩٥٦
- عقائد المفكرين فى القرن العشرين ١٩٥٨
- جحا الضاحك المضحك ١٩٥٦
- فى بيتى ١٩٤٥
- القرن العشرون ما كان وما سيكون ١٩٥٩
- ١١ يوليو وضرب الإسكندرية ١٩٥٢
- اليد القوية فى مصر ١٩٢٨
- جوائز الأدب العالمية ، مثل جائزة نوبل ١٩٦٤

القصة :

- سارة ١٩٣٨

الدراسة والنقد واللغة :

- الديوان فى النقد والأدب مع الأستاذ المازنى ١٩٢١
- ابن الرومى حياته وشعره ١٩٣١
- شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ١٩٣٧
- رجعة إلى أبي العلاء ١٩٣٩
- قمبيز فى الميزان ١٩٣١
- أبو نواس الحسن بن هانئ ١٩٥٣
- شاعر الغزل (عمر بن أبي ربيعة) ١٩٤٣
- جميل بثينة ١٩٤٤
- شاعر أندلسى وجائزة عالمية ١٩٦٠
- اللغة الشاعرة ١٩٦٠
- التعريف بشكسبير ١٩٥٨

الترجمة :

- (عرائس وشياطين) مجموعة من الشعر العالمى ١٩٤٥
(ألوان من القصة القصيرة فى الأدب الأمريكى) ١٩٥٤

المذكرات :

خلاصة اليومية ١٩١٢

- اليوميات جـ ١ ، ١٩٦٣ ، جـ ٢ ١٩٦٥ ، جـ ٣ ١٩٧١ ، جـ ٤ ١٩٧١ ، جـ ٤ ١٩٧٤

الفلسفة :

- مجمع الأحياء ط ١ ١٩١٦
- الله ١٩٤٧

السياسة :

- الحكم المطلق فى القرن العشرين ١٩٢٨
- هتلر فى الميزان ١٩٤٠
- أفيون الشعوب ١٩٥٦
- فلاسفة الحكم فى القرن الحديث ١٩٥٠
- الشيوعية والإنسانية ١٩٥٥
- الشيوعية والإسلام ١٩٥٦
- النازية والأديان ١٩٤٠
- الصهيونية العالمية ١٩٥٥
- لا شيوعية ولا استعمار ١٩٥٧

العبقريات والشخصيات الإسلامية :

- عبقرية محمد ط ١ ١٩٤٢

- عبقرية الصديق ١٩٤٣
- عبقرية عمر ١٩٤٢
- عبقرية الإمام ١٩٤٩
- عبقرية خالد ١٩٤٥
- عبقرية المسيح ١٩٥٣
- أبو الأنبياء . . الخليل إبراهيم ١٩٥٣
- داعي السماء (بلال) ١٩٤٥
- ذو النورين (عثمان بن عفان) ١٩٥٤
- الصديقة بنت الصديق ١٩٤٣
- أبو الشهداء ١٩٤٥
- عمرو بن العاص ١٩٤٤
- معاوية بن أبى سفيان فى الميزان ١٩٥٦
- فاطمة الزهراء والفاطميون ١٩٥٣

الإسلاميات :

- الإسلام والاستعمار ١٩٥٧
- مطلع النور ١٩٥٥
- الديمقراطية فى الإسلام ١٩٥٢
- أثر العرب فى الحضارة الأوربية ١٩٤٦
- الفلسفة القرآنية ١٩٥٧

- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ١٩٥٧
- الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان العبريين ١٩٦٠
- التفكير فريضة إسلامية ١٩٥٧
- الإنسان فى القرآن الكريم ١٩٦١
- الإسلام فى القرن العشرين ١٩٥٤
- ما يقال عن الإسلام ١٩٦٣

التراجم :

- حياة قلم ١٩٦٣
- سعد زغلول ١٩٣٦
- روح عظيم (غاندى) ١٩٤٨
- تذكار جيتى ١٩٣٢
- بنيامين فرانكلين ١٩٥٦
- محمد على جناح ١٩٥٢
- برنارد شو ١٩٥٠
- الشيخ الرئيس ابن سينا ١٩٤٦
- عبد الرحمن الكواكبي ١٩٥٩
- صن يانسن ١٩٥٢
- فرانسيس باكون ١٩٤٥
- ابن رشد ١٩٥٣

- الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ١٩٦١
- رجال عرفتهم ١٩٦٣

المرأة :

- الإنسان الثانى ١٩١٢
- هذه الشجرة ١٩٤٥
- المرأة فى القرآن الكريم ١٩٥٩ .

أما الكتب التى قدم لها ، أو عرف بها أو نقدها . . . أما المقالات والبحوث فى شتى المعارف فقد سجلتها دار الكتب فى نشرة ببليوجرافية باسم عباس محمود العقاد .

كتب للأستاذ العقاد صدرت بعد وفاته

- أنا (١٩٦٥)
- ردود وحدود (١٩٦٩)
- دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية (١٩٦٩)
- الحرب العالمية الثانية (١٩٧٠)
- المرأة ذلك اللغز (١٩٧٠)
- بحوث في اللغة والأدب (١٩٧٠)
- خواطر في الفن والقصة (١٩٧١)
- قيم ومعايير (١٩٧٢)
- عيد القلم (١٩٧٣)
- مع عاهل الجزيرة العربية عبد العزيز آل سعود (١٩٧٣)
- الإسلام والحضارة الإنسانية (١٩٧٣)
- آراء في الآداب والفنون (١٩٧٣)
- دين وفن وفلسفة (١٩٧٣)
- الإسلام دعوة عالمية (١٩٧٣)
- مواقف وقضايا (١٩٧٤)
- فنون وشجون (١٩٧٤)

فهرس كتاب العقاد

الصفحة

الباب الأول

الباب الثانى

رقم الإيداع	١٩٧٦/٢٥٩٤
الترقيم الدولى ٣-١٧٧ - ٢٤٦ - ٩٧٧ ISBN	

١/٧٥/٢

مطابع دار المعارف بمصر
١٩٧٦

هذا الكتاب

يناقش هذا الكتاب ثلاثة خطوط رئيسية فى أدب العقاد :

- خط الحرية وفهمه لها بألوانها ، ومواقفه منها .
- خط الجمال والفن « الموسيقى والفنون التشكيلية » .
- خط « الإنسان » .

وهذا الخط يشغل جزءاً كبيراً من الكتاب حيث ناقش عبقريات العقاد الإسلامية . . كما ناقش عبقرية المسيح .

وتناول هذا القسم من الكتاب التراجم الإنسانية التى كتبها العقاد من أمثال غاندى والشيخ محمد عبده . وشكسبير وبرناردشو وجيته وابن سينا وابن رشد وفرانسيس بيكون وسعد زغلول . ومن شعراء الطبيعة كابن الرومى ، وشعراء الغزل كجميل بثينة وعمر بن أبى ربيعة .

ومن هذا المنطلق ترجمت الكاتبة حياة العقاد نفسه :

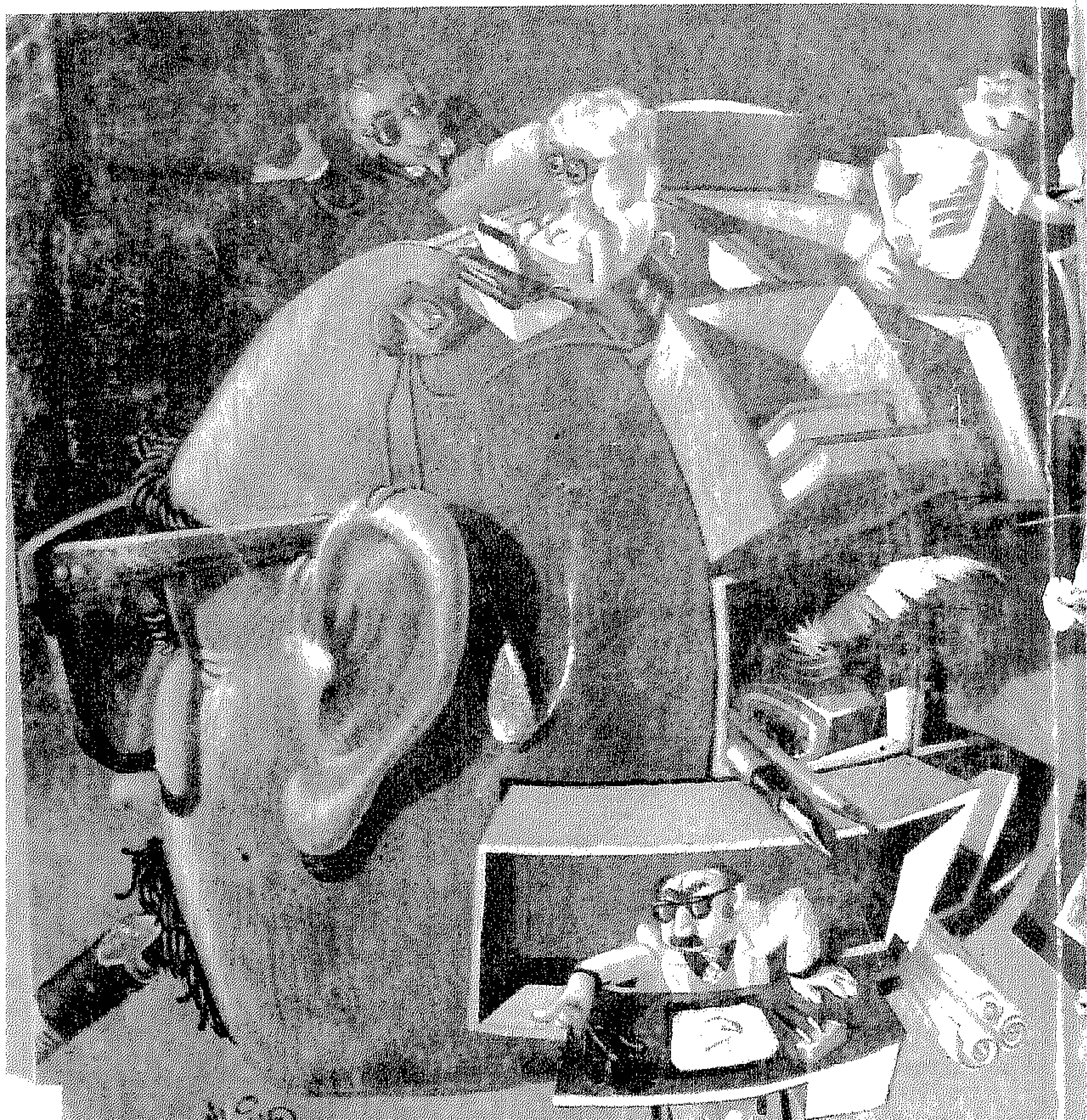
« العقاد الإنسان . . العقاد الشاعر . . العقاد والمرأة » . .

فى موضوعية علمية تجمع مع دقة التحليل وبراعة العرض والكثير من الجديد الذى يكتب لأول مرة ، الأسلوب الأدبى الشيق والجميل .

اقرأ

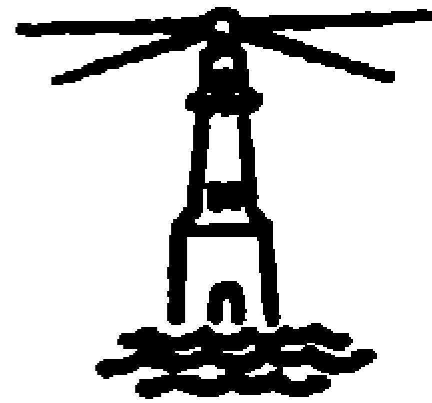
دكتور السيد أبو النجا

كلمات إلى العقل





تصدر في أول كل شهر



دار المعارف بمصر



دكتور السيد أبو النجا

كلمات إلى العقل

اقرأ ٤١٠

دار المعارف بمصر

(اقرأ – ٤١٠)

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

لماذا كلمات إلى العقل ؟

عباءة الأزهرى والحمض :

كنت فى العشرينات (بعد الميلاد طبعاً) أتردد على الأزهر ، وأنا طالب بالمدارس الثانوية ، وأجلس مع من يتخلقون على حصيرة ، حول أستاذ يتربع على مرتفع ، ويحاضرهم فى « علم الخصائص التى أودعها الله سبحانه وتعالى الأشياء » ؛ وهذه الجملة الممطوطة هى أقرب إلى الإملاء منها إلى الاسم ، ولكنها هروب من كلمة واحدة هى « الطبيعة » ، لأن الطبيعة كانت تعتبر كفراً مادامت بديلاً من لفظ الجلالة .

وكان الأستاذ يخلط فى دروسه بين الطبيعة والكيمياء ، فيحدث تلاميذه فى الأحماض ، ويقول إنها تحرق الثياب . ونهض شيخ من الطلاب يتساءل فى استنكار : « كيف تحرق وهى سوائل ؟ » فأيده الجميع فى استنكاره ، ورفعوا أصواتهم فى احتجاج على هذا اللامعقول ، ولم يجد الأستاذ بدًّا من أن يطلب عباءة الطالب المستنكر ، ويسكب عليها الحمض ، فإذا السائل يحرق صوفها فعلاً ، ويمرق من وجهها إلى ظهرها . . . وآمن الطلاب بأن السوائل تحرق الثياب !

إن هذه الحكاية تعكس أسلوبنا فى التفكير ، هذا الأسلوب الذى

يلازمنا ويأبى أن يفارقنا، فنحن ما زلنا نعيش فى الماضى : نقاوم التطوّر الحاضر، ونعادى من يتحدث بلغة المستقبل، لأننا أعداء ما نجهل.

ولقد عاشت الأمة العربية طويلاً فى تقاليدها، ولم تعش كثيراً فى مشاكلها العلمية والاقتصادية، عاشت فى أحلامها ولم تعش فى واقعها، التفّت حول روحانياتها، ولم تحفل بإمكانياتها، عرفت أن مصر كنانة الله فى أرضه، فلم تسع إلى زيادة الإنتاج. استنامت لقول من قال : « تجوع الحرة ولا تأكل بثديها »، ولم تبحث لهذه الحرة عن جلباب تلبسه، وكسرة عيش تأكلها، حتى لاتقع فى الزلل. أهملت محاصيلها، فلما أكلها الدود رفعت عيونها إلى السماء، وأيديها بالدعاء، ولم تنهض لمحاربة الآفات. وهكذا ازدهر الشعر والأدب والقصة وراجت الخزعبلات. ولكن كتب العلم لم تجد طريقها إلى اللغة العربية إلا فى القليل.

كيف السبيل إذن إلى أن تضع الأمة العربية تقاليدها فى خدمة تقدمها ؟ وكيف تنتزع نفسها من عهد عنترة بن شداد لتعيش فى عهد الذرّة والأسلحة الإليكترونية ؟ لاسبيل إلا أن تكتوى بنار الحرب كما اكتوت عباءة الطالب الأزهرى بسائل الحمض.

صحوتنا على معارك ٦ أكتوبر :

وهاهى ذى معاركنا مع إسرائيل تقوم بهذا الدور، حتى ليصح فيها قول طه حسين : « الحرب تصيب الناس بما نشهد الآن من ضرر، وتروى الأرض بما تقشعر له أبداننا من دماء. ولكن ماتكاد الدماء تجف

حتى يهب الإنسان من وقفته الحائرة ، وإذا قوة حياته المادية والعقلية قد ضوعفت ، وأصبحت أقدر على الجهاد وأصلح للبقاء .

فليست الحرب كما يظن البعض نذيراً يؤذن بكساد المدنية وإفلاس الحضارة ، وإنما هى آية تغير الحياة الإنسانية ، ودليل انتقال من حال إلى حال أظهر منها نفعاً وأقرب إلى الكمال » .

والواقع أننا كنا قبل هذه المعارك نؤمن بالوحدة العربية إيماناً مسجوعاً فنقول « وحدة الماء ، وحدة الهواء ، وحدة الغبراء ، وحدة اللغة والسماء » ! فأصبحنا نعالج الوحدة بلغة النفط والبنوك وشركات التأمين والطيران والسياحة والقوة الشرائية .

كنا نتحدث عن الأخوة العربية ، فأصبحنا نتحدث بلغة المصالح المشتركة . وكنا نتحدث عن الهبات والمساعدات ، فأصبحنا نتحدث بلغة التعاون وتبادل الخدمات . كنا نفكر فى وحدة التاريخ ، فأصبحنا نفكر فى وحدة المصير .

العلم والإيمان :

إن الصراع مع إسرائيل لم يعد يكفى القتال والانتصار للتفوق فيه ، وإنما يتحقق ذلك بالعلم والإيمان . فالحرب الحديثة فى حاجة إلى المال والتكنولوجيا قبل الشجاعة . وهذه الحرب لم تعد حرب جيشين يقفان فى الجبهة ويتبادلان الطلقات ، وإنما هى مباراة حضارية بين شعبين .

ولنتعلم درساً كبيراً هو أن روسيا لم تمنعها أيديولوجياتها من سياسة الوفاق مع أمريكا ، وأمريكا برغم عدائها للشيوعية دقت أبواب الصين ووافقت على انضمامها إلى هيئة الأمم ومجلس الأمن .

لنأخذ لنا عظة من هذين الاتجاهين ، وليحتفظ كل بلد عربى لنفسه بمذاهبه الطائفية والاجتماعية والسياسية مع التفاف الجميع حول قاسم مشترك أعظم هو :

تكنولوجيا حديثة

اقتصاد سليم

جيش مشترك

بهذا يعيش العالم العربى ، وإلا فالويل له !

رسالتنا فيما بقى من هذا القرن :

إن عام ١٩٧٦ وما بعده أعوام الدعوة فى المنطقة إلى النظرة العلمية ، ووضع تقاليدنا فى خدمة أهدافنا . لقد آن الأوان لكى نؤمن بالبحث قبل المقال . وبالأرقام والنسب المئوية بدل الصفات وأفعل التفضيل ، وبالمساواة بين العبارة والمعنى بدل الإطناب فى البيان والبديع . وعلينا أن نكرم العقل ونحكمه فى العاطفة ، ونتصرف عن المستحيل إلى طلب الممكن ، ونضع المصالح جنباً إلى جنب مع المبادئ .

أما الإيمان فهو بالله والوطن . وعلى كل مواطن بعد ذلك أن يؤمن معهما بمذهبه الخاص ، على أن يروض نفسه على السماحة فى معاملة

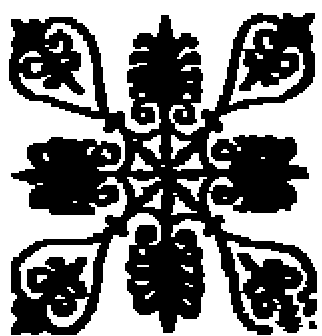
الأديان الأخرى عملا بقوله تعالى : « لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ » .

هكذا تضع مصر أقدامها فى أعماق التاريخ ، وتسير إلى عام ١٩٨٠ ، ثم تهرول مسرعة فيما بقى حتى سنة ٢٠٠٠ ، لتلحق بركب الحضارة . والركب يجرى فلا ينظر خلفه ، ولا ينتظر المتخلفين .

من أجل هذا كتبت هذه الفصول .

آفة البيروقراطية

في مؤسساتنا العربية وكيف نكافحها



للإدارة فى كل الدنيا وظيفتان رئيسيتان : أولاهما رسم السياسة Policy making والأخرى اتخاذ القرار Decision making وإذا كان فى رسم السياسة خوف يخضع له المدير ، فإن فى اتخاذ القرار خوفاً يجب أن ينتصر المدير عليه . ذلك أن رسم السياسة يحتاج إلى إنصات وتدبر وتشاور ، بل إلى تردد بين شتى البدائل والحلول ، على حين أن اتخاذ القرار يحتاج إلى شجاعة وتوقيت وحزم . والحزم غير العنف ، فالحزم تحديد للهدف وانطلاق إليه ، وأما العنف فهو تنفيس عن الأعصاب المرهقة وانتقام للنفس مما تعانيه .

مهما يكن من أمر فالمدير فى اتخاذ القرار يجب أن يكون فى توافق مع نفسه ، ليكون سعيداً بعمله ، وإلا أصبح ضحية صراعات داخلية يهرب منها فيلوذ بالسلبية ، وغالباً ما تعبر السلبية عن نفسها بإحالة الموضوع إلى لجنة . وقديماً قال أحد علماء الإدارة : « إذا أردت أن تبعد المسئولية عن نفسك فكوّن للمسئولية لجنة » .

If you do not want to commit yourself, committee yourself

الإدارة الورقية :

هكذا تنشأ الإدارة الورقية فى العالم العربى وهى إدارة الاستيفاءات ، فتحيل الأمر من مكتب إلى مكتب ومن جهة إلى أخرى ، ونظل نكتب

المذكرات وتطلب تقديم الاستمارات حتى تتضخم الأضابير وهى تذهب وتجىء ، وتلف وتدور ، حتى يفرغ صبر صاحب المصلحة ، وقد تضيع منه الفرصة التى يطلب من أجلها ما يطلب .

إن هناك عبارات روتينية تعرفها الدوائر الحكومية وأشباهها من المؤسسات الكبرى . ومن هذه العبارات « إلى إدارة الحسابات لإجراء اللازم » واللازم هذا غير معروف . ومنها « إلى الشئون القانونية لبحث الموضوع » والموضوع المطلوب بحثه غير محدد المعالم . ومنها « إلى إدارة الإنتاج للمراجعة » مع أن المذكرة صادرة أصلاً من هذه الإدارة . وقد رأى الكاتب مرة تأشيرة لمدير عام هذا نصها « موافق بتاتاً » فاحتار بين الكلمتين لأنهما متناقضتان .

الحوافز كعلاج السلبية :

ذكرت أن مما يساعد المدير على اتخاذ القرار هو أن يكون سعيداً بعمله . والسعادة لا تجىء إلا بممارسة غريزة حب التملك فيه . وهذا الحب يتمثل فى الإنسان الحيوان بالسرقة والنصب والنهب، ويتمثل فى الإنسان الفاضل بإنشاء المشروعات الاقتصادية وتنميتها وتحقيق الربح منها . ولذلك كان من الضرورى أن يكون للمدير من الحوافز الإيجابية والسلبية ما يدفعه لمواجهة المسئولية .

والحافز الإيجابى هو أن يمنح المدير فرصة الترقية إلى منصب أعلى أو الحصول على نسبة من المبيعات أو نصيب من الربح . وأما الحافز

السلبي فهو أن يحاسب على التقصير وأن يواجه بالنتائج . وقد يصل الأمر إلى توقيع الجزاء عليه ، ولكن الجزاء لا يكون بحسب ماترتب على تصرفه من نتائج وإنما بحسب ما كان فيه من انحراف وسوء قصد .

التوفيق بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة :

من العبث أن نطالب المدير بأن يؤثر المصلحة العامة على مصلحته الشخصية ، فهذا مطلب يقدم للأنبياء والملائكة . وكل ما يمكن أن نرجوه منه هو أن يسعى فى تصرفاته إلى التوفيق بين مصلحته ومصلحة المؤسسة التى يعمل فيها . وقد قال لى صديق يوماً إنه تمكن من شحن مايزيد على حقه فى طائرة أجنبية مقابل جعل دفعه للقائم على الأمر ، فلما أظهرت عجبي من أن يكون هذا الفساد فى شركة كبيرة ، رد قائلاً إن كل الفرق بين هذه الشركة وشركة مبتدئة هو أن موظف الأولى يحسب حمولة الطائرة قبل أن يجامل ويقبل « الهدية » فإن وجد فى الحمولة باقياً سمح بالمجاملة . أما موظف الشركة المبتدئة فقد يقبض ثمن الخيانة ولو عرض طائرته للسقوط . ولست بإيراد هذه الحكاية أوافق على مافعله موظف الشركة الكبيرة ، ولكننى أجسّد الفرق بين خائن وخائن ، وأبيّن أن الناس مشغولون أبداً بما يعود على ذواتهم من كسب مادى أو معنوى ، وأن الإنسان الفطن — حتى بين السارقين — هو الذى يحقق مصلحته ولا ينسى مصلحة المجموع .

السلبية والمركزية :

ولنعد إلى السلبية فى الإدارة فنقول إنها تعود فى أساسها إلى المركزية التى تبسط سلطانها على مصالح الحكومة وشركات القطاع العام. إن الرجل الأول فى المؤسسة يمسك بخيوط السلطة فلا يكاد يترك موضوعاً مهما صغر ينتهى دون اعتماده. إنه يعتقد أن سلطته العليا تجبّ سلطة من هم دونه، مع أن الواقع الذى يقضى به علم إدارة الأعمال هو أن سلطته تبدأ من حيث تنتهى سلطة من يليه، فسلطة المدير العام تبدأ من حيث تنتهى سلطة مدير الإدارة. وسلطة هذا تبدأ من حيث تنتهى سلطة مدير الحسابات . . . . وهكذا. ويترتب على ذلك أن تكون للمرءوس سلطة الإثبات وللرئيس سلطة الاستبعاد، فإذا خلت وظيفة فى الحسابات فرئيس الحسابات هو الذى يختار الأصلح من بين المتقدمين، وعليه أن يزكيه ليعتمده المدير، فإن لم يعجبه كان على رئيس الحسابات أن يبحث عن غيره ليفوز بموافقة رئيسه. وهكذا تقترن السلطة بالمسئولية فيحدث التعادل. أما إذا جاء التعيين بالبراشوت فهذه ديكتاتورية الإدارة العليا، وهى تؤدى إلى السلبية فى الإدارة الوسطى وما تحتها ممن يقعون أو يجلسون فى مواقع الإنتاج.

ومما يتصل بهذا ألا يعتقد الأرقى منصباً أنه أرقى شخصاً فيعامل مرءوسيه فى استعلاء كأنما هم تابعون أو خدم وإنما يعاملهم كزملاء. إن منصبه يعلو على مناصبهم ولكن شخصه ليس أكبر من أشخاصهم، وكرامته ليست فوق

كراماتهم . إن وظيفة المدير هى التى تأمر ووظيفة المرءوس هى التى تأتمر. أما الشخصان فهما متساويان يتبادلان الاحترام والتعاون . والخبرة هى التى تفرض قيمتها من أعلى إلى أدنى ، ومن أدنى إلى أعلى دون أن يكبت الطغيان الرأى عند أهل الرأى فيفرض عليهم السلبية فى معالجة الأمور.

البيروقراطية وقانون باركنسون :

يقول باركنسون إن المدير يميل عادة إلى أن يكون له مساعدان بدل مساعد واحد لينشغل كل منهما بالتغلب على زميله فيقع الصراع بينهما ويتنافس الاثنان فى التقرب إلى رئيسهما وهو المطلوب. ولكن هذا الصراع يؤدى أولاً إلى مزيد من العمالة وثانياً إلى توجيه معظم الجهود إلى الدفاع عن النفس ، وثالثاً إلى التخلى عن علاج المشاكل خوف الوقوع فيما يستفيد منه الزميل المنافس . وكل مساعد من الاثنين يزاوج بين مساعديه ولا يحدد خطوط السلطة بين اختصاصاتهما فيقع الخلف بينهما ويكون المتعاملون مع المؤسسة هم الضحية .

إن قانون باركنسون يحل هذه البيروقراطية التى تملأ الدواوين بالموظفين وتجعل كلاً منهم مشغولاً عن عمله الأصيل باحتساء القهوة والشاى ، وانتقاء مقاعد مريحة لغرفته وسجادة فاخرة ومكتب وجيه فتتحول المكاتب إلى صالونات للاستقبال بدل أن تكون مراكز للإنتاج .

١٧

البيروقراطية بين اليمين واليسار :

ليس قانون باركنسون وقفاً على نظام دون نظام وإن كان من شأن الإدارة فى النظام الرأسمالى أن تعتمد على المصلحة الخاصة والملاحظة الشخصية فتقلل الزيادة فى العمالة ، أما فى النظام الاشتراكى فالمقياس الأول للنجاح هو العمالة الكاملة والعدالة الاجتماعية . ومن شأن هذا الاتجاه أن يشد القطاع العام إلى الدولة ، فيزحف النظام الحكومى على الشركات والمؤسسات بما فيه من لوائح الضبط والملاحقة والتطبيق على المدير فى التصرف . ولا عاصم من الوقوع فى البيروقراطية إلا إرهاف النظام الإدارى ليحل محل الإدارة الشخصية فى النظام الرأسمالى .

ومهما يكن النظام الاجتماعى الذى تعمل فيه الإدارة فإن هناك توجيهات عامة وخاصة أوردها فى تركيز :

التوجيهات العامة :

* لابد أن يعرف كل رئيس مكانه من رؤسائه ومرءوسيه وزملائه .
* لابد أن يعرف كل عامل إلى من يتجه بسؤاله أو باقتراحه أو بشكواه .
* لابد أن تصبح اللوائح والنظم فى مجموعها وسيلة إعلام للمستجدين يعرفون منها نظم المؤسسة وتقاليدها .
* لابد أن تحدد الصلاحيات بين العاملين بحيث لا يطغى اختصاص على اختصاص ، ولا يبقى اختصاص دون مختص .

* مهمة الإدارة أن تهيئ النجاح لكل عامل ، ومهمة كل عامل أن يزيد هذا النجاح لمن يأتى بعده .
* الإدارة ترعى العامل كإنسان ، ثم تحاسبه بعد ذلك كعامل .
* لابد أن نسوّى فى الفرص بين العاملين ، ثم نفسح لهم جميعاً ، فيسبق الأذكى عقلاً والأعلى كفاية . أما المساواة بين الناس فى كل شىء فهى متعذرة التحقيق .
* الحق عادة وسط بين باطلين . والمناقشة تعاون للوصول إلى هذا الحق .
* الإنصات مساهمة إيجابية فى البحث عن الحلول .
* لابد أن نعترف بالخطأ لكى نضعه فى الماضى ، ونضع الصحيح فى الحاضر ، والتخطيط فى المستقبل .
* إذا كانت الصداقة حقًّا فإن الزمالة واجب ، ولذلك يجب أن يتعاون العاملون فى خدمة المؤسسة بغض النظر عن علاقاتهم الشخصية .
* المدير يستطيع أن يقلّم الأشجار بإرادته المنفردة ، ولكن هيهات أن يروّض العاملين معه بدون التجاوب المشترك .
* الإرادة غير العناد . فالإرادة منهاج والعناد افتعال .
* القائد غير الرئيس . فالأول يحترم لشخصه والثانى لايهاب إلا لمنصبه .
* مواعيد العمل مقدسة . والتوقيع عند الحضور واجب على الإدارة العليا وجوبه على أصغر عامل .

التوجيهات الخاصة :

فى المصنع

* الصيانة الوقائية للآلات ترفع إنتاجها ، لأنها تنزل بمرات توقفها إلى الحد الأدنى .
* الخطة الشهرية للإنتاج تحارب الضائع من الوقت ، فهى تهيئ لكل آلة ما يناسبها فى الوقت المناسب .
* لابد من ملاحقة القطار العالمى فى الصناعة بزيارة المعارض الدولية . والاشتراك فى مراكز البحث العالمية وإيفاد البعثات واستقدام الخبراء .
* نقابة العاملين لابد أن تعرف أن مهمتها الأولى هى التعاون مع الإدارة فى زيادة الإنتاج ، لأن الإنتاج هو وعاء الحقوق .

فى الحسابات

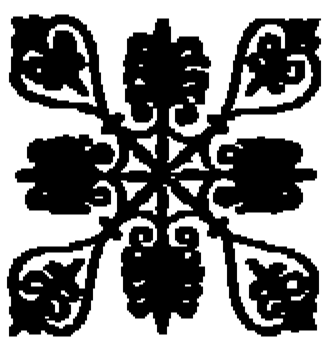
* الرقم الصحيح فى الوقت المناسب هو أداة القرار الصحيح .
* إدارة الحسابات وسيلة للضبط والمتابعة وليست سلطة للتعطيل .
* المراجعة الداخلية لتفادى الأخطاء وليست لتصيدها .
* المحاسب يرى ولا يسمع : يرى المستندات ولا يسمع الأقاويل .

فى البيع

* العميل دائماً على حق ، ولذلك نسعى إليه إذا ابتعد
* العميل أغلى من الصفقة ، ولذلك نتمسك بالصدق فى البيع له أو الشراء منه .
* البيع للعملاء ليس شطارة . . إنه خدمة .
* لابد أن نؤمن بالمنافسة البناءة ، وأن نسعد بالمنافس الناجح ونتعلم منه .
* تحصيل مالنا عند عملائنا ودفع ما علينا لهم بانتظام هو خير طريق للمحافظة على صداقتهم .
* يجب أن نشارك عملاءنا فى مناسباتهم باعتبارهم أعضاء معنا فى أسرة المؤسسة .
* لابد أن نبحث عن العملاء وأن نذهب إليهم ولا ننتظرهم حتى يجيئوا إلينا .

الكتاب العربي

في هذا العصر الحديث



من الأقوال المأثورة أن أول العلم الصمت ، والثانى الاستماع ، والثالث الحفظ ، والرابع العقل ، وخامس مراتبه النشر. وإذا نظرنا إلى الصمت كشرط لازم للاستماع صح القول بأن أول العلم الاستماع .

وقد كان الاستماع وسيلة العلم الوحيدة قبل التاريخ ، ثم جاء الكتاب حداً فاصلاً بين التاريخ وما قبل التاريخ . بين الحضارة وما قبل الحضارة . ولو لم يحرق حكام العرب كتب ابن رشد ، بل لو قام من بيننا من تابع أبحاث الخوارزمى وابن الهيثم وجابر بن حيان وابن خلدون وغيرهم ، لكان للعرب فى العلوم شأن آخر .

ولقد نزل القرآن بفعل أمر هو « اقرأ » ، فكانت هذه الكلمة أول ما خوطب به النبي الكريم والناس . والقراءة تتمثل أفقياً فى الصحافة ، وتتمثل رأسياً فى الكتاب ، فالصحافة تعالج موضوعات كثيرة فى عدد واحد ، على حين يتعمق الكتاب موضوعاً واحداً فيستوفيه بحثاً . وفى الكتاب قال العقاد قوله المشهور :

« إني أحب الكتاب لأن حياة واحدة لاتكفيني . ومهما يأكل الإنسان فإنه لن يأكل بأكثر من معدة واحدة . ومهما يلبس فإنه لن يلبس على غير جسد واحد . ومهما يتنقل فى البلاد فإنه لن يستطيع أن يحل فى مكانين . ولكنه بزاد الفكر والشعور والخيال يستطيع أن يجمع الحيوات فى عمر واحد » .

اقتناء الكتاب استثمار :

القراءة تنمى الفرد ، والفرد ينمى المجتمع . ولن تكون قراءة معلِّمة بغير كتاب . فالكتاب هو جهاز الاستقبال الذى يفتحه القارئ على الدنيا فيغترف بعينيه ما فيها من جديد . والفرد الذى لايقرأ يوقف التيار الفكرى الذى يربطه بالعالم ، ويحكم على نفسه بالعزلة ، وعلى عقله بالجمود ، وعلى ملكاته بالتحجر .

إن القراءة هى التى علمت الناس كيف يحلقون ذقونهم بالشفرات ، وينظفون أسنانهم بالمعجون والفرشة ، ويقطرون الدواء فى أعينهم إذا أصابها التهاب أو ألم بها غبار . وهى أيضاً التى نشرت بينهم عادات التدخين وشرب الخمر وسباق الخيل وغشيان الملاهى . لقد أصبحت القراءة معلم الجمهور الأول ، حتى ليتعذر تصور الحياة بدونها . إن الحكومات لا تستطيع أن تحصل من شعوبها على التلبية المطلوبة إذا لم تكن هذه الشعوب قارئة ، حتى ليصح القول بأن تكوين الدول صعب التصور بغير قراءة .

والذى يقرأ الكتاب يقوم بعملية لازمة لزيادة كفايته الشخصية على حل مشاكل الحياة . وهو يضفى من كفايته على تحسين عمله من التقدير مايفتح له أبواب الحياة .

إن الكتاب يمتاز فى هذا على مدرس الفصل .

فالكتاب يعلم بالجملة ، والمدرس يعلم بالمفرّق . والكتاب لا يفرض

نفسه على قارئه وإنما يضع نفسه فى خدمته كلما اشتاقت نفسه إليه ، فى حين يحدد المدرس موضوع الدرس ووقته ومكانه ، ثم يصبه على طريقته الخاصة فى آذان التلاميذ ، ويفرض عليهم الإنصات ساعة من الزمان أو أكثر ، وهم جلوس على مقاعد خشبية .

وكما يكون البيع بالجملة أرخص منه بالمفرَّق ، تكون المعرفة بالكتاب أرخص منها بالتدريس . وإذا كانت المدرسة لاتستغنى عن الكتاب ، فإن الكتاب قد يستغنى عنها . وكبار المفكرين من أمثال العقاد وكامل الشناوى لم يستمدوا من المدرسة إلا أقل القليل ، ثم بقى الكتاب فى أيديهم يؤاخيهم ويشترك فى أفراحهم ومآسيهم ، بل يدخل معهم إلى بيوتهم ومخادعهم ، وبالصداقة التى نشأت بينه وبينهم وترعرعت على طول الزمان تغلغل الكتاب برسالته فى أعماق نفوسهم فسار فى خباياها وغيَّر فى مكنونها.

أصبح الكتاب إلى جانب قيمته الثقافية ، له قيم عملية : منه نتعلم كيف نسعف المريض ، ونصلح السيارة ، ونربى الطفل ، وننظم المصنع . إن الكتاب هو الذى يأخذ بأيدينا اليوم إلى إنتاج أكبر وحياة أفضل .

المراحل الأربع لقراءة الكتاب :

أظهرت الأبحاث أن تحصيلات التلاميذ من القراءة تختلف اختلافاً كبيراً ، فبعضهم يصل فى المرحلة الأولى إلى ما لايصل إليه سواه إلا فى المرحلة الثانية أو التى بعدها .

والمرحلة الأولى هى التى يبدأ فيها الطفل فى تكوين ملكاته العقلية

والاجتماعية والعاطفية واللغوية ، حتى إذا وصل فى عمره إلى ست سنوات بدأ يهتم بالكتاب والكلمة المطبوعة فيدخل المرحلة الثانية .

وفى هذه المرحلة يتعرف بنظره على نحو ثلثمائة كلمة ، ويزداد اهتمامه بالقراءة لأنه يبدأ يفكر فيما يقرأ ، ومع تزايد سنه يتعلم كيف يستقل بنفسه فى القراءة فيدخل المرحلة الثالثة .

وفى هذه المرحلة تزداد سرعته فى القراءة الصامتة ، وفى فهم مايقرأ . ويزداد عدد الكلمات التى سيتعرف عليها بنظره إلى ألف وخمسمائة أو ألفى كلمة ، ثم يتعلم القراءة بصوت مسموع ويكتسب المهارات اللازمة للتحدث بما يجمعه من قراءاته ، كما يستخدم القراءة لإشباع حب الاستطلاع فى نفسه ، ولجنى المعلومات من العلوم المختلفة . بقيت المرحلة الرابعة ومن خصائصها أن تكون القراءة باهتمام أكبر وتذوق أحسن . وخلال هذه المرحلة تُنَمَّى القدرات السابقة وتُرهَف ، ويتسع مدى التعرف على الكلمات والمعاني ، وتنمو القدرة على التفسير . وبزيادة الحصيلة من المعرفة تتأكد القدرة على التقيم الصحيح وعلى الاستفادة من القراءة فى تكييف الاتجاهات والسلوك . إن القراءة فى هذه المرحلة تزداد اتساعاً وعمقاً فيصبح القارئ ناضجاً Mature كما يقول William Gray

الكتاب واهتمام الأطفال والبالغين به :

أثبتت الدراسة أن الأطفال يظهرون فى مدارجهم الأولى اهتماماً بالحيوانات وميلا إلى الحكايات عن الأطفال الآخرين الذين هم فى سنهم .

وقبيل المراهقة يظهر الأولاد ميلا إلى قراءة المغامرات وطرق القيام بهاوالهوايات وعبادة الأبطال . أما البنات فيظهرن اهتماماً بالبيت والحياة المنزلية . وبعضهن يملن إلى قراءة المغامرات . وقد لوحظ أن البنات يحببن كتب الأولاد على حين أن الأولاد لايحبون كتب البنات .

وفى سن المراهقة يبدى الأولاد اهتماماً بالمجهول وبالألعاب ونواحى الترفيه ، فى حين يقبل البنات على الروايات الغرامية والقصص التى تعالج مشاكلهن فى سن المراهقة .

أما ميول البالغين فهى متنوعة ومعقدة . وقد ذكر Douglas Woples و Ralf Tyler أنهما بحثا الميول للقراءة عند البالغين – على مستوى دولى – فوجدا أنها تختلف باختلاف السن والبيئة والوظيفة وعدد سنوات الدراسة . ولم تتفق الميول إلا فى اتجاهين اثنين هما الاتجاهات الدولية والنظافة الشخصية . كما لاحظا أن الوصول إلى المواد المقروءة فى سهولة ويسر من أهم دوافع الإقبال عليها ، ولذلك تقرأ الجرائد والمجلات أكثر مما تقرأ الكتب .

التأليف والترجمة :

يميل المؤلفون العرب إلى الكتابة فى الدين والتاريخ وتراث الأقدمين وسير الخالدين والمسرحيات والسياسة والشعر والقصص . ومنهم من يكتب فى علم النفس والعلوم الاجتماعية والفلسفة . أما العلوم الطبيعية والفنون

الجميلة والموسيقى والموسوعات والمراجع والهوايات والحرف فلم يصدر فيها إلا قليل .

وبعد القرآن الكريم وكتب التفسير ، من حيث الشيوع ، تجيء مؤلفات الطبرى ، والشريف الرضى ، وابن المقفع ، وابن سينا ، وابن رشد ، وابن خلدون ، والغزالى ، وابن قتيبة وألف ليلة وليلة ، وقصص عنترة ، والظاهر بيبرس وسيف بن ذى يزن ، والزير سالم ، وأبي زيد الهلالى . . . إلخ .

ثم يجيء من آثار المُحْدَثين كتب الجبرتي والمويلحى ورفاعة الطهطاوى وجمال الأفغاني ومحمد عبده وفرح أنطون والمنفلوطى وقاسم أمين ومحمد حسين هيكل والعقاد وإيليا أبو ماضى والزهاوى والشابي . . . إلخ . وتجيء آثار الأدباء الأحياء وهم أغنياء عن التعريف .

ولعل منشأ إقبال الناشرين على كتب التراث ، أنهم لا يدفعون عنها حقوق تأليف بعد أن مضى على تأليفها أكثر من خمسين عاماً ، كما أن القراء يحبون القراءة فى هذه الكتب واقتناءها فى مكتباتهم .

هذا عن الكتب المؤلفة ، أما الكتب المترجمة فهى للأسف قليلة جداً فضلاً عن أن الذى تُرجم منها لا يخضع لتخطيط منهجى . وإذا عرفنا أن الولايات المتحدة وحدها تصدر فى كل عام أكثر من عشرين ألف كتاب جديد . وأكثر من خمسمائة مليون نسخة من الطبعات الشعبية ، تصورنا كم يصدر فى العالم المتحضر من مئات الألوف من الأبحاث الجديدة ، وقد كان علينا أن نستفيد منها بالترجمة لنلاحق ركب الحضارة والتقدم .

إن كبار الكتّاب العرب لا يزالون يعتقدون أن الترجمة دون التأليف مكانة . فالفضل يرجع للمؤلف مرتين : مرة عند التأليف ومرة عند الترجمة . أما المترجم فهو ظل المؤلف ، والجزاء الذى يلقاه قليل بالقياس إليه .

إننى أدعو إلى تشجيع القادرين على ترجمة الإنتاج العالمى المعاصر والتراث الكلاسيكى منذ عصر النهضة . أدعو إلى ترجمة بعض المعاجم المنتقاة والموسوعات والأطالس ، وإلى ترجمة الكتب التى تساعد على إتقان الحِرَف وتحسين الإنتاج ، وتلك صرخة أوجهها إلى دور النشر الكبرى وإلى الحكومات العربية .

حقوق التأليف :

لم تكن حقوق المؤلفين والمترجمين فى العالم العربى منظمة بقوانين إلى عهد قريب ، ولذلك كانت الأحكام فى المِلْكية الأدبية تصدر استناداً إلى قواعد العدل ، مع أن الأمم المتحدة أصدرت الإعلان العالمى لحقوق الإنسان فى ١٠ ديسمبر ١٩٤٨ ونصت فى مادته السابعة والعشرين على أن لكل فرد الحق فى حماية المصالح الأدبية والمادية المترتبة على إنتاجه العلمى أو الأدبى أو الفنى ، ومعاهدة برن الدولية لحماية حقوق المؤلف أبرمت عام ١٨٨٦ ثم عدلت عدة مرات كان آخرها فى استكهولم عام ١٩٦٧ . وهيئة اليونسكو نظمت عقد اتفاق دولى فى جنيف فى ٦ سبتمبر ١٩٥٢ عن حقوق التأليف .

وقد ظهر فى يوليو عام ١٩٦٧ اتجاه معارض لهذه الاتجاهات جميعاً

حين وضع المؤتمر الدبلوماسى الذى عقد فى استكهولم بروتوكولاً يحد من حقوق النشر لصالح الدول النامية فيجيز إنقاص مدة حماية حق المؤلف ، ويتوسع فى الحالات التى يجوز فيها لهذه الدول أن تترجم وتنشر المصنفات الأجنبية مراعاة لاحتياجات التعليم والثقافة دون إذن المؤلف والناشر .

ومهما يكن من شىء فإن القوانين الحالية تكفل للمؤلف مبادئ ثلاثة :

أولها : أن يكون حرًّا فى التعبير عن رأيه فى حدود القانون ، فلا يملى الناشر عليه فكرة معينة أو يطلب منه نتيجة محددة . ولو عهد الناشر إلى مؤلف بوضع كتاب معين ثم وجده دون المستوى الذى كان يتوقعه ، فلا يجوز له أن يرجع فى اتفاقه معه .

ثانيها : أن للمؤلف وحده الحق فى تقرير نشر مصنفه وفى تعيين طريقة هذا النشر .

ثالثها : أن انقضاء حق المؤلف فى الاستغلال المادى بعد مرور خمسين عاماً لا يعنى انقضاء حقه الأدبي وهو نسبة مؤلفه إليه .

مهنة الناشر :

درجت دور النشر على أن تتعامل مع المؤلفين على أحد الأسس الآتية :

١ – تعطيه مبلغاً محدداً عن الطبعة الأولى ومبلغاً آخر عن كل طبعة تالية .

٢ – تعطيه نسبة من الثمن المنشور على غلاف الكتاب مضروبة

فى عدد النسخ المطبوعة .

٣ – تعطيه نسبة أكبر من ثمن الغلاف مضروبة فى عدد النسخ المبيعة فى كل سنة .

٤ – تقسم معه فائض الكتاب بعد نفاد النسخ مع تحديد البنود التى تتألف منها المصاريف .

ويقع الخلاف عادة بين المؤلف والناشر بسبب أن الأول يقدر كتابه بمقدار مافيه من مادة علمية ، على حين يقدره الثانى بمقدار ما ينتظر له من رواج . وقد يكون للمؤلف قيمة ذاتية كبيرة ، ولكن قيمته السوقية موضع نظر !

والناشرون فى أوربا وأمريكا يتجهون إلى التخصص . فمنهم من يقتصر على كتب الأطفال ، ومنهم من ينتج الكتب المدرسية ، ومنهم من لا يعمل إلا فى الكتب الفنية والجامعية . أما الناشرون العرب فلم يصلوا بعد إلى هذا المستوى . وقد تنشر دار فى القاهرة كتاباً من كتب التراث . أو تترجم مؤلفاً أجنبياً ، ثم يتبين أن الكتاب نفسه قد صدر فى السنة نفسها عن دار فى بيروت . وذلك لانعدام مرجع ينشر الكتب الصادرة فى العالم العربى بعد تصنيفها بحسب موضوعاتها .

وكذلك تتخصص دور النشر العالمية فى تحديد الفراغات العلمية والثقافية ، وفى فحص الموضوعات المعروضة واختيار الأصلح من بينها والتعاقد مع مؤلفيها ، ثم ترسل المخطوطات والصور والرسوم إلى مطابع متخصصة ، فإذا صدر الكتاب تسلمته شركات مستقلة للتوزيع . أما دور

النشر العربية فلا يزال معظمها يتولى كل شيء بل إن من صغارها ما قد يتولى التأليف !

ومن أسف أن دور النشر لا تقبل على كتب العلوم الطبيعية وهى معذورة فى ذلك فقد ثبت أن القراء العرب يفضلون الاطلاع على هذه العلوم بلغاتها الأصلية .

إنتاج الكتاب :

الكتاب شكل وموضوع . والشكل فيه لا يقل اليوم أهمية عن الموضوع . وإذا كان الكتاب رسالة فقد أصبح صناعة تحمل هذه الرسالة . إنه لا يؤدى رسالته إلا حين تمر عين القارئ على سطوره . فعلى الناشر أن يتجه فى شكل مشوق يجذب إليه أكبر عدد من القراء وإلا فإنه يخرج من ساحة المطابع إلى ظلمات المخازن !

الكتاب ورق يُنتقى ليناسب عملية الطباعة بالتيبو أى بالحرف المجموع Letter-Press أو بالأفست Offset . وحبر يُختار ليجف بسرعة أو على مهل . . وألوان تُصمم ليتم فصلها فى التصوير وإعادة تركيبها عند الطبع . . وبنط يتناسب مع القطع والهوامش وعمر القارئ وثقافته . . وغلاف يتمشى مع ثمن الكتاب وعدد صفحاته .

لقد كانت كتب الأطفال تجرى على وتيرة واحدة Static فأصبح كثير منها دائب الحركة Dynamic ومنها ما يخرج قطعاً موسيقية أو أصواتاً للطيور . وقد أصبحت الكتب الطبية التى تدخل المشرحة على

القماش أو اللدائن أو على الورق بعد معالجته معالجة خاصة لا تتأثر بالرطوبة أو الأحماض . والكتب التعليمية اليوم ذات جيوب فيها أسطوانة يديرها القارئ وهو يطالع فيتلقى الثقافة بعينيه وأذنيه ليعمق الأثر فى نفسه وقد انتشرت هذه الطريقة فى تعليم اللغات بصفة خاصة .

وصف الحروف للطبع كان باليد فأصبح آلياً حرفياً بالمونوتيب ، وسطرياً باللينوتيب والأنترتيب ودخل العقل الإلكترونى فى الصف ، فارتفعت سرعة الآلة فى الساعة من مائة إلى تسعمائة سطر .

وألواح الزنك أو الألومنيوم تأتى اليوم من المصنع محسسة جاهزة لطباعة الأفست ، فيتم نقل الصورعليها فى بضع دقائق بعد أن كان يستغرق ساعات . وفصل الألوان يتم اليوم تلقائياً فى آلة التصوير بعد أن كان يتم بالعين المجردة .

ومن الآلات الإلكترونية مايتسلم الصورة الملونة من ناحية فيفصل ألوانها ويخرج لها أربعة كليشهات من الناحية الأخرى . وهناك من آلات الطرق والثقب والورنشة والتشكيل ما يجعل الطباعة صناعة من صناعات التجميل .

وفى التغليف بالورق والتجليد بالقماش أو الريكسين تذهيب وحفر وإبراز وإحاطة الكعب باللوالب . كل ذلك فى تسلسل آلى يحيل اللفة من الورق المطبوع إلى نسخ معلودة ومرصوصة فى الصناديق .

وهكذا أصبح مايكتبه المؤلف مجرد مادة أولية يصنعها الرسامون والخطاطون والمهندسون والكيميائيون والطابعون ، فيجعلون منها سلعة

بة يتوافر فيها ما يتوافر فى سائر السلع من جودة وجمال .

وقد دعا تقدم الطباعة فى اليابان وإيطاليا ويوغسلافيا إلى أن يفضل
ں الناشرين العرب طبع كتب الأطفال وهى كثيرة الألوان فى هذه البلاد .
غريب أن هذه الكتب تصل على ورق صقيل بألوان أنيقة وبثمن بخس .
ن هذا الحال يهدد صناعة الطباعة فى العالم العربى ولا عاصم منه إلا
ان تجدد بلادنا آلاتها وتدخل التكنية الحديثة فى كل مجال للطباعة .

دراسة السوق :

الكتاب – كما قدمت – لا يؤدى مهمته الثقافية إلا إذا تمت اللقيا بينه وبين القارئ ، فالذين ينشرون الكتب لقيمتها العلمية فقط دون استيثاق من أن لها حداً أدنى من القراء المرتقَبين ، ينفقون أموالهم وجهودهم فى غير طائل . إنهم يستعلَون على الجمهور فيتجاهلهم ، وتكون النتيجة وبالاً على المؤلفين والناشرين جميعاً . ومن الناحية الأخرى فإن بعض المؤلفين ينزلون بمادتهم إلى مستوى غير لائق فيتملقون غرائز الجنس وينشرون باسم الدين خرافات قد تكون طريفة ولكنها ليست منه .

وأول خطوة فى التسويق هى دراسة السوق للإجابة عن مثل هذه الأسئلة :

كم من الناس فى كل سوق عربى أميون وكم منهم ألفبائيون ؟

كم منهم يحملون شهادات متوسطة وكم منهم يحملون مؤهلات عالية ؟

كم منهم يقع فى كل شريحة من شرائح الدخل ؟
كم منهم رجال وكم منهم نساء ؟
كم منهم فى سن الطفولة وكم فى سن الشباب وكم فى سن الشيوخ ؟
كم منهم فى كل مهنة من المهن والحرف ؟
إلى غير ذلك من الخصائص التى تساعد على تقدير القراء المرتقبين لكل كتاب بالذات .

بحث ميدانى عن الكتب والصحف :

وقد أجرى المركز العربى للبحوث والإدارة بالتعاون مع الجامعة الأمريكية بالقاهرة فى سنة ١٩٦٦ بحثاً ميدانياً عن الكتب والصحف كما يراها المشترون ظهرت منه النتائج الآتية :

١ – أن أكثر الموضوعات انتشاراً هى الموضوعات الدينية وتليها الجنسية . وأقل الموضوعات انتشاراً هى العلمية .

٢ – أن أكثر الطبقات إقبالاً على القراءة هى المتوسطة التى يروح دخلها بين ٣٥ ، ٦٠ جنيهاً فى الشهر .

٣ – أن أكثر الناس قراءة هم مدرسو التعليم الثانوى ويليهم طلاب الجامعات . أما المتخصصون من الأطباء والمهندسين والكيمائيين وغيرهم فهم يتوافرون على ما تخصصوا فيه ولذلك تقل قراءتهم لكتب الثقافة العامة .

٤ – أن الأعزبين يقرءون أكثر من المتزوجين على خلاف ما كان متوقعاً .

٥ – أن سن القراءة الغالبة هى ما بين العشرين والخمسين .

تسويق الكتاب :

إذا أردنا ترويج الكتاب فى كل بلد عربي فلا بد أن نعمل على زيادة منافذ التوزيع فيباع الكتاب فى المكتبات والأكشاك والقطارات والأسواق المركزية Super Markets والمخازن الكبرى Department Stores ، ومع باعة الصحف . ولا بد أن ينتقل إلى القارئ فيعرض نفسه عليه فى القرى والدساكر وقرب الملاهى والمطاعم والمحطات . ولا بد أن تقوم له معارض سنوية فى كل عاصمة ، ومعارض متنقلة بين المدن لتنقل إلى الناس أحدث ما صدر فى كل ميدان من ميادين المعرفة .

أما بائع الكتاب فلا بد من إعطائه إياه على سبيل الأمانة فلا يدفع للناشر ثمن ما يأخذ من كتب ، وإنما يدفع له ثمن مابيع منها . ولابد من إعطاء البائع خصماً مجزياً وتوصيل الكتب التى يطلبها إلى بابه وتبديلها له كلما وجد منها مالا يروج .

بقى على البلاد العربية أن تتبادل ثقافاتها . ولن يكون ذلك إلا بتيسير تصدير الكتاب واستيراده وتخفيف قيود العملة والرقابة على المطبوعات ، وتخفيض ثمن الإعلان عن الكتب فى الصحف وفى وسائل الإعلام الأخرى .

قراصنة الكتب يهددون صناعة النشر كلها :

وقد اجتاحت العالم العربي فى المدة الأخيرة موجة من التقليد تهدد صناعة النشر كلها . فبعد انتشار طباعة الأفست أصبح من السهل على أى مطبعة أن تصور الكتاب ، الذى لا تملكه (بالكمرة) ثم تنقله على الزنك المحسَّس لتبدأ فى طبعه على الفور بسرعة عشرة آلاف نسخة فى الساعة للذى حملته الطابعة . والمقلد يمتاز هكذا على الناشر الأصلى بما يلى :

١ – ينتقى أحسن الكتب الرائجة فهو يقامر دائماً على جواد رابح .

٢ – لا يدفع للمؤلف حق التأليف وهو يدور عادة حول ٢٠٪ من ثمن الغلاف .

٣ – يوفر تكاليف الصف والرسم والتصوير والتنفيذ والتصحيح والإخراج .

٤ – يستفيد من السمعة القائمة للكتاب المقلد وما أنفق عليه من إعلانات .

٥ – يبيع الكتاب بسعر أقل – للأسباب المتقدمة – ويمنح أصحاب المكتبات هامشاً أعلى من الربح فيضمن توزيعاً أكبر .

وقد بلغ من جرأة المقلدين أنهم تقدموا بالكتب المدرسية فى المناقصات الحكومية دون أن يكون لهم حق نشرها ، فإذا رست عليهم طبعوها فى أى مكان ووردوها . ولذلك لجأت الحكومة السعودية إلى اشتراط أن يتقدم المتزايد بما يثبت ملكيته للكتاب ، أما أغلب الحكومات الأخرى فترى أن هذا

ليس من عملها ، فترسى العطاء على من يقدم أرخص الأسعار وتترك لصاحب الحق أن يقاضيه .

هل يكون الحل أن تنضم الدول العربية جميعاً إلى معاهدة برن ؟

إن اثنتين فقط من الدول العربية قد انضمتا إلى هذه المعاهدة وهما لبنان وتونس . ولا شك أن انضمام باقى الدول يعزز مكانة المؤلفين العرب ويساعدهم على حفظ حقوقهم فى الخارج . ولكن القوانين المحلية فى كل بلد عربي تكفى على الأغلب لمحاربة التقليد لولا أن الإثبات صعب . فليست العلة فى عدم الانضمام لمعاهدة برن ، وإنما العلة فى تقاعس الحكومات العربية عن مكافحة هذه القرصنة . ولعل الجامعة العربية تستطيع أن تفعل شيئاً جدياً فى هذا الصدد بعد أن عقدت حلقة دراسية فى سنة ١٩٦١ وحلقة أخرى فى سنة ١٩٦٩ ولم يترتب عليهما أى تحسن فى الموقف .

الكتاب الميسّر والخاص :

هل الكتاب سلعة ميسرة Convenient Good أو هو سلعة خاصة Special Good ؟ الواقع أن موضوعه هو الذى يحدد نوعه . فإن كان عاماً كالمصاحف ، والكتب الدينية ، والمدرسية ، والقصصية ، وكتب الأطفال فهو من السلع الميسرة ، وإن كان علمياً أو فنياً ، أو ثقافياً ، أو من كتب التراث ، أو الموسوعات والأطالس والقواميس ، فهو من السلع الخاصة .

والكتب الميسرة يلعب السعر والإخراج فيها دوراً كبيراً فى تكييف الطلب عليها . ثم إنها تباع فى المكتبات ويعلن عنها عادة فى الجرائد والمجلات . أما الكتب الخاصة فالمهم فيها موضوعاتها وأسماء مؤلفيها وناشريها . والاتجاه فى بيعها يكون لدور الكتب Libraries والمعاهد العلمية وإلى الصفوة من القراء . ولذلك يحسن الإعلان عنها برسائل بالبريد Direct Mail وفى الصحف المهنية Trade Papers .

ومهما يكن نوع الكتاب فهو يتميز فى إنتاجه بأنه منجم ذهب أو بئر إفلاس . إن معظم نفقات إنتاج الكتاب لا تتأثر كثيراً بعدد النسخ المطبوعة ، فالصف والتنضيد والتصوير والتصحيح والمصاريف الإدارية كل ذلك يكاد يكون ثابتاً بقطع النظر عن التوزيع . وحقوق التأليف لا تقل على كل حال عن حد معين ولا تزيد حتماً بنسبة زيادة التوزيع . ومن هنا كانت أهمية التوزيع والتسويق فى تحقيق الأرباح . إن الكتاب كلما زاد توزيعه ارتفعت أرباحه بنسب متزايدة ، وإذا قلت مبيعاته عن مستوى معين أصبحت خسارته محققة .

وأغلب دور النشر تحقق أرباحها حتى الآن من الكتب المدرسية وكتب الأطفال . أما الكتب الثقافية فقلما توزع فى العام أكثر من ثلاثة آلاف نسخة .

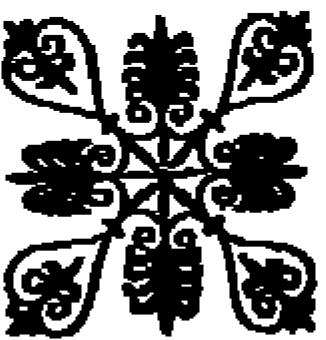
وماذا بعد ؟

أما بعد فإنى لا أجد ترفيها عن القراء بعد هذا البحث خيراً من هذين البيتين لشوقى :

تَجِدُ الكُتْبَ على النقْد كما ... تجدُ الإخوان صُدُقاً وكِذَابا
فتخيرْها كما تختارهم ... وادّخرْ فى الصَّحْب والكتُب اللبابا

مسيرة الإنسان

بين الجنّة والمسالك الخشنة



منذ ترك صاحبنا قريته صبياً إلى القاهرة وهو يسمع من الناس قولهم له ولغيره : « إذا بليتم فاستتروا » ولكنه يرى المسيحيين يسعون إلى الكاهن ليعترفوا بين يديه حين يذنبون عسى أن يكون فى هذا الاعتراف مصارحة للنفس ، وتنفيس عن الإثم ، ووعد بالتوبة .

وصاحبنا ليس يدرى إن كان كبت الذنب أحسن من البوح به إلا إذا كان البوح للتباهى والمفاخرة ، أما إذا كان للندم فهو فى رأيه اعتذار عما كان ، واعتراف بما يجب أن يكون .

إن غريزة الجنس المكبوتة تعبر عن نفسها بالاعتداء . أما الغريزة التى تعلن عن نفسها بالزواج فهى تمارس حقها فى شرعية ، وتؤدى واجبها فى التزام .

وغريزة حب التملك إذا لم تعبر عن نفسها بعمل مثمر فإنها تبقى مكبوتة لا تجد ما تشبع به نفسها إلا أن تعتدى على المجتمع فى شكل سرقة أو احتيال .

وغريزة حب القتال إذا لم تعبر عن نفسها بمحاربة الميكروب وبالتفرج على مصارعة الثيران وتقاتل الديوك وتنافس الرياضيين وتناظر المختلفين فى الرأى فإنها تخرج أبخرتها بقتل الناس وإشعال المعارك وإحداث الهرج وتدبير المظاهرات .

ولعل تفادى الكبت هو الذى يدعو إلى انتشار نوادى العراة واستباحة الصور العارية فى المجلات والأفلام ، فإن الناس فى سعى دائم إلى تجريد

المرأة من أهم أسلحتها وهو التجمل ، وتجريد الرجل من أهم دوافعه وهو التخيل .

ولعل تفادى الكبت هو الذى يدعو إلى انتشار « الهيبية » بين الشباب ، فقد برموا بما فرضته المدنية عليهم من تحرز وتحضر ، فعادوا سيرتهم الأولى إلى أحضان الطبيعة .

هل على الناس إذن أن يصارحوا أنفسهم بما فعلوا فيعيشوا فى توافق معها ، أو أن يكبتوا نوازعها فيعيشوا فى صراع داخلى دائم ؟

إن البشرية لاغنى لها عن الفضائل لتسمو بالإنسان على الحيوان . ولكن كبت الذنوب يكف البشرية عن مصارحة الناس بما اقترفته من انحراف فى اللاشعور ويؤصله فى السلوك بمرور الوقت .

إن صاحبنا يؤيد المسيحيين فى الاعتراف أمام الكهنة ، ويدعو المسلمين إلى الاعتراف أمام علماء الدين كما يعترفون الآن أمام رجال الطرق الصوفية . وهو يؤيد كتابة الذكريات الصادقة الصريحة التى يعرض الكاتب فيها أخطاءه على الرأى العام ، فإن فى نشرها ما يلقى الضوء عليها ويبصر الناس بآثارها ، كما أن النشر وعد من صاحب الذنب بعدم العودة إليه .

الإيمان سلوك :

إن الإيمان سلوك وليس عملية حسابية تخرج حاصلها آخر الأمر ، فالمسلم يؤمن بأن دينه هو الصحيح لأنه ولد مسلماً ، كما أن المسيحى يؤمن بأن الأديان الأخرى باطلة لأنه ولد مسيحياً . بل إن الطوائف الكاثوليكية

والأرثوذكسية والبروتستانتية تؤمن بمذاهبها ولا تؤمن بالمذاهب الأخرى . ولا يمكن أن يكون الجميع على حق وهم مختلفون ، فالحق واحد لا يتعدد والله وحده هو الذى يعرفه .

إن كل إنسان ولد مصرياً أو فرنسياً أو أمريكياً ، وولد مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً . . . ولد هكذا دون أن يستشار فيما يختار ، فوجد عقله مطالباً بأن يدافع عن كيانه . وهكذا أقبل على كتابه السماوى ليستنبط أحكامه ، وأنصت لنبيه المرسل ليتبع أقواله وأفعاله .

ومن أجل هذا يرحب صاحبنا بالهيئات الدولية التى تسعى لحل الخلافات الإقليمية بالحسنى ، ويرحب بالتسامح الدينى ما دام كل فرد يتمسك بعقيدته فلا يرضى عنها بديلاً إلا فى ظروف قليلة خاصة. والإسلام يعمل بهذه الروح فيقول : « لكم دينكم ولى دين » .

ولكن التمسك بالدين وبالوطنية لا يبعد صاحبنا عن التعرض للفضيلة . فهل الفضيلة مجموعة من مبادئ السلوك المطلقة ؟ أو هى محاولات لتحقيق مصلحة المجتمع ؟ إن كانت مبادئ فهى ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان . وإن كانت محاولات فهى بطبيعتها تتغير من عصر إلى عصر ومن دولة إلى دولة ، والعبرة فى النهاية بما يترتب عليها من خير . ولكن هل الفضيلة هى الخير نفسه أو هى وسيلة إلى هذا الخير؟ إذا كانت هى الخير فالصدق مطلوب فى جميع الأحوال . ومن الواجب أن نقول لمن فقد إحدى عينيه إنه أعور . ولمن حرمت نعمة الجمال إنها قبيحة ، وأن نحذف أساليب البيع والعلاقات العامة من إدارة الأعمال ،

ونلغى الإتيكيت من قواعد الاجتماع ، ونرفع السياسة والتربية من العلوم السلوكية فإنها جميعاً تقوم فى بعض صورها على المجاملة والمغالطة .

الغاية تبرر الوسيلة :

وإذا كانت الفضيلة وسيلة إلى الخير فالوسيلة تتشكل بحسب الأحوال ، والأمر فى ذلك متروك للضمائر . فإذا استراحت للأسلوب فالأسلوب فاضل . وإذا لم تسترح له فهو غير ذلك . ومعنى هذا أن الغاية تبرر الوسيلة كما يقول « مكيافلى » .

إن صاحبنا يوجه سؤالا صريحاً لرجال الأخلاق : لو جاءكم وسيط فأظهر استعداده للحصول على قنبلة ذرية تكفل النصر للعرب فى حربها مع إسرائيل مقابل رشوة فى مقدوركم ، فهل ترفضون العرض لأن الرشوة حرام ، أو تقبلونه لأن فى قبوله خيراً للعرب والمسلمين ؟ وفى الإجابة عن هذا السؤال ماذا يكون تعريف رجل الأعمال الفاضل ؟ هل هو الذى يداور عميله ليبرم الصفقة لمؤسسته ، أو هو الصريح الذى يقول إن سلعه أقل من السلع المنافسة أو أغلى منها وليذهب العميل إلى حيث يشاء ؟

هل هو الذى يعطى نسبة صغيرة إلى سكرتير أحد المديرين فيعقد لمؤسسته صفقة كبيرة . أو هو الذى يعتبر هذا العمل رشوة ولتذهب مؤسسته إلى الجحيم ؟

إن الكذب المكشوف فى المعاملات يفقد المندوب ثقة الناس . والصدق الكامل يكشف عيوب السلعة أو الخدمة التى يبيعها . ولذلك ابتدعت أساليب البيع حلاً وسطاً عليه مسحة الصدق وليس فيه جوهره . إن

هذا الحل يعلم الناس كيف يبدءون الحديث مع العميل بجذب انتباهه ، ثم ينتقلون إلى إثارة اهتمامه ، ثم يشبعون هذا الاهتمام . ومتى لمح المندوب على وجه العميل بادرة الرغبة طرقها وهى ساخنة فقدم عقد البيع له واستمضاه .

والمندوب وهو ينتقل بعميله من مرحلة إلى مرحلة . لايتجه إلى عقله بقدر مايتجه إلى نوازعه . فهو لا يحاول خلق اقتناع عنده بقدر مايسعى إلى خلق انطباع . وهو فى سيره يعمل كسيارة الركوب القوية التى يبدو أنها تجرى على مهل مع أن عدادها يشير إلى مائة وستين كيلو متراً فى الساعة !

خداع الأرقام :

ذلك والأرقام تتسابق فى تقديم الحقائق بعد أن تباعد بين شفتيها لتبتسم ، وتضع المساحيق على وجهها لتتجمل ، فإذا الجو كله يوحى بالصدق ، وهل أصدق من الأرقام ؟ ولكن للأرقام هى الأخرى لغتها فى الكذب . فإذا قالت إن متوسط الأعمار فى قاعة هو إحدى وعشرون سنة ، فالذى يتبادر إلى الذهن أن الحاضرين شباب ، ولكن قد يظهر فيما بعد أن نصفهم أطفال ونصفهم شيوخ ! وإذا قالت إن مدرسة تفوق أخرى لأن الأولى حققت نجاحاً فى الشهادة الثانوية بنسبة ١٠٠٪ على حين حققت الثانية ٩٨٪ فقط ، فقد يتبين بعد ذلك أن الذى تقدم من المدرسة الأولى تلميذ واحد نجح ، وأن الذى تقدم من المدرسة الثانية مائة نجح منهم ثمانية وتسعون !

بين الرشوة والمجاملة :

أما الرشوة فمسألة فيها نظر . . . فقد يقدم المندوب لعميله مبلغاً من المال أو نسبة مئوية من قيمة الصفقة . وقد وافق رجال البيع على اعتبار هذا رشوة ، ولكنهم أباحوا تقديمها ولم يبيحوا قبولها . إن من حق المندوب أن يرشو عميله إذا باع ، ولكن ليس من حقه أن يرتشي إذا اشترى . . . . اتجاه غير منطقي ولكنه مطبق .

والرشوة في عرف رجال الأعمال غير المجاملة . فالرشوة تكون عن صفقة أو صفقات محددة . والمقصود بها أن يتصرف المرتشي تصرفاً محدداً يتنافى مع واجبه . فالقصد الجنائي موجود بلغة أهل القانون .

أما المجاملة فتكون بالإهداء في الأعياد والمناسبات . وبالدعوات العامة والخاصة ، وبتقديم الخدمات كالاستقبال في المطار ووضع سيارة في خدمة العميل أثناء زيارته دون مطلب إلا أن يخلق جواً من الصداقة يسهل فيه التعامل .

ولكن كيف نحدد الخيط الرفيع الذي يفصل بين الرشوة والمجاملة ؟

إن صاحبنا يعرف رجلاً أميناً من رجال الحكم ارتشى وهو لا يدري . ذلك أن رجل الأعمال الذي يتعامل معه عرف أنه يبحث عن سكن مناسب لابنته المخطوبة فسارع إلى صاحب عمارة جديدة ودفع له معظم الخلو المطلوب على أن يطالب رجل الحكم بالباقي . وذهب الرجل الأمين مع رجل الأعمال بعد أن ادعى هذا أن صاحب العمارة صديقه وهنالك

جعل يمزح معه أحياناًويغلظ له فى القول أحياناً أخرى حتى رضى الرجل فى النهاية بأقل القليل وهو الباقى له من الخلو. لم يكن فى وسع رجل الحكم أن يرفض هذا الفضل من رجل الأعمال وهو لا يكلفه شيئاً . كما لم يكن فى وسعه كبشر أن يتجاهل هذا الفضل فى معاملاته معه فيما بعد .

إن صاحبنا مارس مرة هذا النوع من الرشوة أو المجاملة مع كبير مغرم بالشعر فحفظ له بعض القصائد التى يحبها وجعل يحدثه فيها فكسب مودته وأقنعه بقضاء مصلحته .

الضعف فى الإنسان :

إن فى كل إنسان نقط ضعف . فمن الناس من يؤثر المال . ومنهم من يحب النساء والخمر . ومنهم من يتفاني فى حب ابنته الصغيرة . ومهمة رجل الأعمال أن يبحث عن نقطة الضعف فى عميله ليشبعها فإذا المفتاح يدور والباب ينفتح . ولكن إلى أى مدى يسير ؟

وما يقوله صاحبنا عن رجل الأعمال يقول مثله عن رجل السياسة . فالسياسة زيف فى زيف ، وهى محاولة مستمرة لإلباس الباطل ثوب الحق فى لغة حريرية وقوة حديدية . والسياسة تعتمد على خداع النفس والتجسس والوقيعة بين الشعوب ، كما تعتمد على فعل الخير وتشجيع المثل العليا ودعم الحضارة إذا كان هذا أقرب لتحقيق أهدافها . ففى أى نقطة تصطدم السياسة بالفضيلة ؟

أين دور الفضيلة ؟ هل دورها أن تقومَ بوظيفة الدجاجة التى تنام

على بيضها فى جو مقفل ، أو أن تعتلى المنابر فى المساجد والكنائس عساها تخفف من ضغط المصالح وتعلى من شأن الأخلاق ؟ أليس من الخير أن تفتح أبوابها وأن تنزل من عليائها وتنفتح على الناس لتعايش الواقع الذى يعيشون فيه ؟ إن فى وسع الفضيلة أن تثبت وجودها فى أخريات القرن العشرين كما أثبتته فى عهود الإنسانية الأولى ، وكل ما هو مطلوب منها أن تتنازل قليلاً عن مثلها العليا لتتفاعل مع الأوضاع القائمة التى استقرت ، ولكن كيف ؟

الأمانة المثالية والأمانة العملية :

للإجابة عن هذا السؤال يفرق علماء الإدارة بين الأمانة المثالية Ethical Honesty والأمانة العملية Business Honesty فيقولون إن من يكتب لأحد أصدقائه خطاباً على ورق المؤسسة التى يديرها أو يكلم زوجته فى عمل عائلى من تليفون المصلحة التى يعمل فيها فهو سارق ، ولكن رجال الأعمال يحفظون مثل هذه القضايا لعدم الأهمية كما يقول رجال القانون .

والهدايا التى يقدمها المنتجون لمديرى الشركات فى المواسم والأعياد يتسامح فيها علماء الإدارة لأن القصد الجنائى ليس موجوداً كما تقدم .

والصحفى الذى يسرق الخبر من درج الوزير بالاتفاق مع السكرتير يحتمى بسر المهنة إذا قدم للقضاء بل إنه يحاكم أمام نقابة الصحفيين إذا أفصح عن مصدره .

والدولة التى تكلف مخابراتها بالحصول على معلومات عن عدوها تسخر

ضعاف النفوس عنده وترشوهم ليضروا بوطنهم .

إن صاحبنا كان يسعى يوماً للحصول على دين كبير لمؤسسته فعرف أن للمؤسسة المدينة مجموعتين من الدفاتر إحداهما حقيقية للشركاء والأخرى مزيفة لمصلحة الضرائب وأن الدين مبين فى المجموعة الأولى فاستعان بسكرتير خائن ليدل على المجموعة المخفية نظير جعل و بذلك حصل لمؤسسته على حقها.

ولكن ماذا فعل صاحبنا بنفسه حين كتب هذا المقال ؟

بينَ الأرض والسماء :

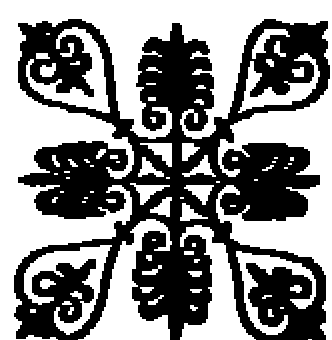
إن القراء سيظنون أنه مارس حياته العملية كما يمارسها الأبالسة . وصاحبنا يؤكد لهم جميعاً أنه أعطى تلاميذه الكثيرين خير ما عنده من توجيه ، وأعطى زملاءه الكثيرين أيضاً خير ماعنده من وفاء ، وأعطى آلاف عملائه خير ما عنده من خدمة . ولكن التوجيه والوفاء والخدمة كانت كلها تلبس رداء المصلحة العامة ولم تكن من وحى النظريات .

والناس يؤيدون فى أعماقهم هذا الاتجاه ، فهم حين يسخرون من شخص يقولون إنه « مِدَب » وحين يثنون على آخر يقولون إنه « عفريت » يريدون بذلك أن الأول لا يعرف ما يريد وأن الثانى ينطلق إلى الهدف . فهل صاحبنا فى هذا المقال من النوع الأول أومن النوع الثانى ؟

هل الناس جميعاً على الأرض مخطئون والفضيلة فى سمائها محقة ؟ إذن فإن صاحبنا يعترف أنه بشر ، وبوده لوكان ملاكاً فيصعد إلى السماء .

علاقتك في العمل

بالزملاء و العملاء



إذا كانت كفايتك الفنية فى عملك على قدر كبير من الأهمية فإن نجاحك فيه يتوقف إلى حد كبير على علاقتك بزملائك وعملائك .

ولعل متطلبات الناس أشد تعقيداً من متطلبات العمل ، فإن الناس أشتات من البيئات والأمزجة ومستويات الثقافة والقوة الشرائية وظروف الحياة بحيث تبدو تصرفاتهم وكأنها لا تخضع لقانون أو منطق ، بينما العمل محكوم بضوابط تحدد معالمه وتيسر على من يتولاه أن يوجهه .

وقد تنبهت إدارة الأعمال إلى هذا الفرق بين العمل والناس فجعلت العلاقات العامة فرعاً من فروعها ، كما جعلت الإعلان وأساليب البيع فرعين آخرين ،

وفيما يلى كلمة أوجهها إليك عن علاقتك بالزملاء والعملاء .

أولاً : علاقتك بالزملاء

بين الزميل والزميلة :

زميلك فى الدار هو رئيسك ومرءوسك ومن هو فى مرتبتك .كل منهم له كرامته الشخصية التى لا يجوز المساس بها . . وأقل القليل أن يكون تعاملك معه فى احترام يرتقى بعد قليل إلى قدر من الصداقة .

وزميلك قد يكون رجلاً أو امرأة ، فعاملهما على السواء ، مع ملاحظة أن

المرأة بطبيعتها أقل انفتاحاً على مجتمعها وأكثر تحفظاً فى علاقاتها .فاعترف فى تعاملك معها بهذا الواقع ، ولكن لاتجعل منه حاجزاً بينكما . وعليها هى الأخرى ألا تنطوى على نفسها ، وألا تعمل فى عزلة عن زملائها . فإن فى هذا شعوراً بالنقص يقلل من إنتاجها ويحجب فرصتها فى الوصول إلى منصب أعلى .

إن المرأة التى تكتسب احترام الزميل هى المنطلقة فى غير تبرج ولا إسفاف : تختلط فى عزة ، وتتحدث فى ثقة ، وتتجاوب مع البسمة الكريمة والمجاملة الرقيقة .

والزميل الذى تحترمه المرأة هو الذى يسمو على الصغائر ، ولا يخوض فى الموضوعات الشخصية ، وينظر إلى زميلته بوصفها « رجلة » لا أنثى .

مظهر الزميلة :

المطلوب فى المرأة العاملة – وخصوصاً فى وظائف البيع والعلاقات العامة – أن تكون أنيقة لا متأنقة . ومعنى ذلك أن تحضر إلى الدار فى ملابس قد تكون قيّمة ولكنها ليست ضيقة تفصّل الجسم ، ولا مفتوحة الصدر أو الظهر أو بالغة القصر لتكشف عن المحاسن .

ولا بأس من التجمل فى الوجه والشعر والأظافر ولكن فى بساطة لا تخل بجو العمل . كما أنه لا مانع من دبلة أو خاتم أو عقد بسيط . ولكن لا يصح أن تتزين الزميلة كما لو كانت فى إحدى الحفلات . إن مظهرها ينبئ إلى حد كبير عن خلقها . وخلقها هو الذى يحدد أساس التعامل معها .

الزمالة واجب :

إذا كانت الصداقة حقًّا فإن الزمالة واجب . والزمالة تعاون بين الزملاء فى خدمة المؤسسة التى يعملون بها ، وهذا التعاون هو حقها عليهم بما يقابل ماتدفعه لهم من مرتبات وأجور . ليس من حق زميل إذن أن يقاطع زميله أو يعرقل عمله بحجة أنه أساء إليه ، وإنما من حقه أن يتخلى عن مجاملاته له فيما يخرج عن دائرة العمل ، وإذا أراد أن يشكوه فإن لائحة الدار ترسم له الطريق لذلك .

إن دار المعارف كغيرها من المؤسسات الكبيرة هى بيئة فيها عاملون وعاملات نشأوا فى أسر متفاوتة . ولتربيتهم المنزلية أثرها المباشر فى أسلوب تعاملهم مع الزملاء والزميلات . فمهمة الإدارة أن تكون استمراراً لمهمة المربى فى المدرسة كى توفق بين مختلف الاتجاهات البيئية ، وتبعد العاملين عن العنف ، وإن كانت تحضهم على الحزم . والحزم هو أن يعرف كل منهم أهدافه فينطلق إليها ويحدد الوسائل المشروعة التى تفسح له الطريق إليها .

إن تصرف الزميل فى موقعه يفصح إلى حد كبير عن تربيته فى منزله . وهذا هو الذى يفسر عجز الإدارة فى الشعوب النامية ، ونجاحها فى الشعوب المتقدمة . خصوصاً إذا أخذنا فى الاعتبار المستوى التربوى للمديرين وهم القدوة – كما قلت – لمن يعملون معهم .

التعاون بين العمل الذهنى والعمل اليدوى :

كل الأعمال تحتاج إلى فكر ، ولكن منها ما تغلب عليه الصفة الذهنية ، ومنها ما تغلب عليه الصفة اليدوية . وقد كانت الطبقة الحاكمة فى عهد الرومان تحترم العقل باعتباره مصدر المعرفة ، وتحتقر الجسد باعتباره حيوانياً ، وبالتالى كانت تمجد الشعراء والفلاسفة ولا تحترم العاملين بأيديهم فى الإنتاج . ثم جاءت الثورة الصناعية والثورات الاشتراكية فاتجهت فى حدة إلى الناحية الأخرى وأعطت معظم الحقوق السياسية للعاملين فى الحقول والمصانع .

والواقع أن الحق وسط بين هذين الباطلين : فالعملية الإنتاجية قوامها الذين يديرون الآلات . ولكن هؤلاء فى حاجة إلى من يخططلهم ويشترى ويبيع ويحسب التكلفة ويحارب الفاقد . . . إلخ فلابد أن يتعاون الفريقان بوصفهم زملاء ، لتستفيد المؤسسة من حصيلة هذا التعاون .

إن عامل النظافة أو التجليد يستحق من الاحترام فى التعامل مثل ما يستحقه المشرف العام أو المدير العام مادام كل منهم يؤدى عمله بأمانة وشرف . وإذا كانت طبيعة العمل تقتضى أن يجلس واحد فى مكتب وأن يعمل الآخر فى ورشة فإن هذا لا يغير من الأمر شيئاً . والمهندسون يعملون فى الورش على حين يعمل الكتبة فى المكاتب ، دون أن يجرؤ أحد على القول بأن الأولين أقل من الثانين مكانة .

العقوبة ليست انتقاماً :

قد يضطر الرئيس إلى توقيع عقوبة على مرءوس . وعلى الرئيس فى هذه الحالة أن يبين لمرءوسه موجبات هذه العقوبة ، وأنه يوقعها كواجب لا كحق ، وكإصلاح لا كانتقام . وآية ذلك ألا يبدو عليه الغضب وهو يتخذ القرار .

ومن الناحية الأخرى على المرءوس وهو ينظر فى كراهية إلى الجزاء أن يكون منصفاً مع نفسه فيفكر فيما وقع فيه من خطأ .

والترقية ليست تفضّلاً :

ليس من حق الرئيس أن يشعر مرءوسه بأنه يتفضل عليه وهو يرقيه أو يكافئه ، بل أن يقرر فى صراحة أن هذا هو استحقاقه مادام قد وصل إليه بجده واجتهاده .

وعلى المرءوس أن يعقب بشكر رئيسه على تقديره ، ولكن فى اعتزاز بكرامته وبعد عن الزلفى .

وحدة الإدارة :

يخطئ من يظن أن الرياسة استعلاء . فالرئيس والمرءوس زميلان لا يعلو أولهما على الثاني وإن كانت وظيفته تحكم وظيفته . وتأسيساً على هذا يجب أن يستمد الرئيس احترامه من خبرته لا من سلطته . أما السلطة

فتبقى نائمة لا يوقظها إلا حين يقع من المرءوس انحراف .

ووحـدة الإدارة Unity of Command تجعل من حق المرءوس أن يختلف فى الرأى مع رئيسه ، فإذا تعذر الاتفاق كان من حق المرءوس أن يصعّد الخلاف إلى سلطة أعلى ، فإذا صدر قرارها كان من واجب الاثنين أن يحترماه احتراماً للنظام ، وإن بقى أحدهما غير مقتنع به دون أن تتأثر علاقته بزميله . بل إن عليه أن يدافع عن القرار الأخير أمام العاملين .

ثانياً : علاقتك بالعملاء

الاستقبال قبل الإرسال :

مفتاح الصداقة بينك وبين عميلك هو أن تحرص على استقبال آرائه قبل إرسال آرائك ، وأن تتحدث عن مكتبته وأعماله بدل أن تتحدث عن دار المعارف ، وأن تبحث مصلحته فى الشراء بدل أن تظهر مصلحتك فى البيع . إن العميل وظروفه واهتماماته ومشاكله يجب أن تكون مدار الحديث . أما دار المعارف فتأتى فى خدمة العميل .

وإذا بدا للعميل أن يتحدث عن ابنته الصغيرة ، أو عما يفضله فى طعامه ، أو عن آخر رحلة له فى الخارج فأقبل على حديثه فى هذه الموضوعات الشخصية ووجّه إليه بعض الاستفسارات والتعليقات لتظهر اهتمامك بالأمر دون أن يستطيل الحديث بالطبع فيضيع الهدف فى ثناياه .

مراحل الحديث :

أول شيء تجمعه قبل المقابلة هو أكبر قدر من المعلومات عن العميل . فإذا كان لا يعرف لغة أجنبية فحذار أن تلوك بين شدقيك بعض كلمات منها . وإذا عرفت أنه غير متزوج أو لم ينجب أطفالاً فابعد بحديثك عن الأسر والعيال . وإذا عرفت أنه متزوج من اثنتين أو مطلق فإياك أن تتعرض لموضوع فيه تسفيه لشيء من ذلك . وإذا عرفت أنه يدمن الشراب أو يلعب القمار فابعد عن التحدث فى هذه الموضوعات ، إنك بائع ولست واعظاً فالزم حدودك .

والشيء الثاني قبل المقابلة أن تبحث عن آخر أخبار العميل فإذا عرفت أنه عاد أخيراً من الحج أو العمرة ، أو أنه قد كسب قضية كبيرة ، أو أن ابنه نجح فى الامتحان فابدأ حديثك بتهنئته على هذا التوفيق . إن هذه التهنئة من المشهيات التى تقدمها على مائدة الحديث قبل الطبق الرئيسى .

وبعد أن تثير انتباهه على هذا النحو تقوده فى تلطف ودون طفرة إلى ماجئت من أجله ، فتقدم له من المعلومات ما يفيده ويثير اهتمامه . ولا شك أن مما يساعدك فى مهمتك أن يكون معك نسخة من الكتاب الذى تشير إليه ، أو المستند الذى يؤيد ما ترويه . حذار أن تسرف فى التفاصيل والأرقام أو أن تتعالم فى حديثك كما لو كنت محاضراً فإن من شأن هذا أن يصرف العميل عنك ، وأن يغريه بإنهاء المقابلة قبل إتمام الصفقة . إن أهم اعتبار فى إدراك النجاح هو خلق الانطباع المناسب قبل تكوين الاقتناع المطلوب.

ومتى أثرت انتباهه ثم أثرت اهتمامه بالسلعة بدأت المرحلة الثالثة وهى خلق رغبته فى الشراء . إن هذه المرحلة تقتضى الدخول فى تفاصيل الخصم الذى تمنحه الدار ، وفى تسهيلات الدفع ، ووسائل توصيل الكتب ، وحملات الإعلان للترويج ، ومعارض التنشيط للبيع . . . وإياك فى هذه المرحلة أن تتعرض بالنقد لأحد المنافسين فإن من شأن هذا أن يذكر العميل به ويحمله على إساءة الظن بك .

ومتى أبدى العميل استعداده للتعاقد طرقت الحديد وهو ساخن فقدمت العقد للإمضاء دون أن يبدو عليك التهلل لإتمام الصفقة فقد يشك العميل أنك غلبته فيها .

إن البائع الكفء كالسيارة الكبيرة تسير بسرعة مائة كيلو متر فى الساعة ، ولكن الراكب فيها لا يشعر أن سرعتها تزيد على ستين كيلو متراً . ولا تنس أن تشكر العميل فى النهاية ، وأن تعده بحسن الخدمة والسرعة فى تلبية الطلبات .

إذا لم تتم الصفقة :

إذا رفض العميل ما عرضته عليه فليس معنى هذا أن المقابلة لم تنجح . إن عليك أن تترك فى نفسه أثرا طيباً يؤتى أكله بعد حين . فاشكره على الفرصة التى أتاحها لك ، والوقت الذى أنفقه معك ، واستأذنه فى الانصراف لكى لا تثقل على وقته تاركاً له اسمك ورقم تليفونك كى يطلبك كلما احتاج إليك .

العميل على حق :

ليس معنى هذا القول أن العميل كذلك على الدوام . ولكن معناه أنه يجب أن يعامل على هذا الأساس . وينبنى على هذا أن حديثك معه يجب أن يسير على أساس التفاهم لا على أساس الاختلاف فقد يقدم لك سيجارة فلا ترفضها فى أول مرة إلا إذا كان تدخينها يسبب لك سعالاً أو ضرراً . إن معنى رفضها أنكما مختلفان من أول الأمر فهو يدخن وأنت لا تدخن . وإذا سألك عما تشرب فقل « قهوة » لكى لا تسبب له حرجاً إذا طلبت مشروباً آخر ولم يكن موجوداً . وإذا سألك عن نوعها فقل « مضبوط » حتى ينعكس على شخصك معنى الضبط بخلاف ما إذا قلت « سكر زيادة » فقد يحمل هذا معنى التطرف أو قلت « سادة » فقد يحمل هذا معنى الإغراق فى المكيفات . ومتى زادت الألفة بينكما بعد المقابلة الأولى كان لك أن تتصرف معه فى حرية تتناسب مع تطورعلاقتكما الشخصية .

ومما يتصل بهذا أن تنهج فى ردودك عليه منهج « نعم . . ولكن » أى أن تبدأ بالموافقة ، ثم تستدرك فتبدى رأيك الآخر . ومن الأفضل أن تتجنب الأسئلة التى تكون الإجابة عليها بالنفى فإن العميل متى بدأ يقول « لا » ركبه العناد فاستمر فى سياسة المعارضة . ابدأ بالمسلمات حتى تكون « نعم » هى رد الفعل الطبيعى ومن نقطة يوافق عليها إلى نقطة أخرى ثالثة تنتهى المقابلة بالتلاقى .

وإذا كان لابد من الاختلاف فلا تقل فى صراحة ، أنك تختلف معه فى الرأى ، وإنما اعتذر بأن رأيه ليس واضحاً فى ذهنك ، ثم وجه اليه بعض الاستفسارات لكى تقوده إلى جانبك دون أن يفطن إلى هدفك . ولكن إذا أردت أن تعدل عن رأى أبديته فيحسن أن تقول فى صراحة أنك أخطأت التقدير أو أنك لم تحسن التعبير .

أنواع العملاء

لكل عميل شخصيته . وطريقة التعامل معه يجب أن تنبثق من هذه الشخصية . ونجاحك فى كسب ثقته يتوقف على مدى استعدادك للملاءمة بين تصرفاتك وتصرفاته . .

إن من العملاء من يحب القهوة السادة ويعطف على من يفضلها . ومنهم من يحب الأهلاوى ولا يطيق الزملكاوى ، ومنهم المتدين الذى يحب من يحدثه فى الأحلام والجنة والنار . . إلخ فعليك أن تكون حصيفاً فى رعاية مشاعره . على أن بعض العملاء قد يكون فيه من الصفات اللصيقة به ما يحس معالجته فى الأسطر التالية :

العميل المتشكك :

هذا العميل كثير الشك . وقد يكون السبب أنه تعرض فى حياته لكثير من الخداع والغش . فيحسن البعد معه عن الإسراف فى المجاملات ، مع

تحرى الدقة والصدق فى سرد المعلومات وتقديم المستندات . ومثل هذا العميل يفضل عادة أن يرى على أن يسمع ، فيحسن أن تقدم له ما تعرضه بالكتابة ، وأن تدعوه لزيارة دار المعارف ، ومشاهدة آلاتها وتقليب الكتب فى معرض الدار ، ومراجعة الأسعار بنفسه فى الكتالوجات .

العميل المتعالى :

هذا العميل قد يراك أقل منه لأنك فى خدمته ، ولذلك فقد يعطيك نقوداً لتأتى له مثلا بعلبة سجاير ، فعليك أن تتذرع بالصبر وأن تنادى أحد السعاة العاملين عنده لتكلفه بإحضار هذه العلبة ، وقد يحدد لك موعداً ثم يتباطأ فى استقبالك ، فلا تستعجله ولكن قل لسكرتيره إن فى وسعك أن تنصرف إلى عمل آخر حتى ينتهى العميل من مشاغله ، وهكذا تتفادى الانتظار . لا تجرح كرامته ولا تفرط فى كرامتك ، ولباقتك هى التى تساعدك على التوفيق بين الاعتبارين .

العميل المغرور :

هذا العميل يؤمن بأنه يعرف أكثر منك فيما تحدثه عنه ، فهو واسع المعرفة والخبرة ، يعطى النصائح ولا يتلقاها . فلا تنافسه فى معلوماته بل تتلمذ عليه واسأله النصح والإرشاد . وإذا أبديت فكرة أعجبته فتنازل له عنها فى رفق باعتبارها من بنات أفكاره . وفيما بين ذلك ضع فى فمه الكلمات التى تريده أن ينطق بها لتفوز بالصفقة ، ثم أكد له فى نهاية الحديث أنك تعلمت كثيراً منه وعبر له عن شكرك وامتنانك .

العميل المتردد :

هذا العميل يُقبل حيناً ويُدبِر أحياناً . يوافق فى مقابلة ويرفض فى أخرى . وأحسن علاج ألا تقدم له تشكيلات كثيرة من الكتب حتى لا يتردد بينها ، وألا تعرض عليه بدائل كثيرة فى التعامل حتى لا يتوه فيها .

ثم إن هذا العميل يحتاج عادة إلى من يصنع له القرار ، فضع نفسك مكانه وقدم له حلا للبدائل التى فى ذهنه وعينك على قسمات وجهه فإن رأيته سعيداً بهذا الحل فقف عنده . وإن رأيته غير ذلك فقدم له حلا آخر . وهكذا حتى تأخذ بيده إلى الحل النهائى .

العميل المتصابى :

معظم الزميلات فى دار المعارف يفضلن العمل فى المكتب على العمل فى السوق لأنهن يخفن من مضايقة العملاء . وبالرغم من أن فى هذا الخوف كثيراً من الوهم فإننى أقدم لهن بعض التوصيات :

١ — ابعدى عن خاطرك أن المرأة هى الجنس الضعيف . ومتى وثقت فى نفسك حملت الرجل على احترامك .

٢ — لاتبالغى فى زينتك . فإن فى المبالغة دعوة ضمنية للمعاكسة .

٣ — لا تتحدثى عن جمالك أو عن أمر شخصى يخصك ، فإن فى هذا الحديث تشجيعاً للعميل على الدخول فيما لايعنيه من أمرك :

٤ — ومع ذلك فإذا لمحت فى حديثه خروجاً على الخط فتجاهلى

قصده واستمرى فى حديث البيع فإن فى هذا التجاهل مايفهمه أن « النمرة غلط » .

بائع المكتبة :

لايختلف بائع المكتبة عن مندوب البيع فى روح التعامل مع العميل . وإن كان يستحق كلمة خاصة . فبائع المكتبة أو البائعة لا يزور العملاء وإنما يستقبلهم . وقد اتخذت مكتباتنا لنفسها نظام العرض المفتوح ولذلك فقد يتجه العميل رأساً إلى الكتب المعروضة فيتفرج عليها ويقلب فيها ، وهنا لا يصح أن تحرجه بالسؤال المعتاد « هل أستطيع أن أساعدك ؟ » "Can I help you ?" فإن فى هذا استعجالا لا محل له . اتركه لنفسه حتى يستقر على شىء يعجبه إلا إذا سألك عن شىء فضع نفسك على الفور فى خدمته .

وهناك حالات نادرة يسمح العميل فيها لنفسه بأن يدس كتاباً فى حقيبته دون أن يدفع ثمنه . فإذا لاحظت ذلك فلا تحرجه واكتف بإرشاده إلى مكان الخزينة .

ولعل البنطلون من أنسب الملابس للبائعات فى المكتبة فإنه يمكنهن من صعود السلم لإحضار كتاب من الرفوف العليا .

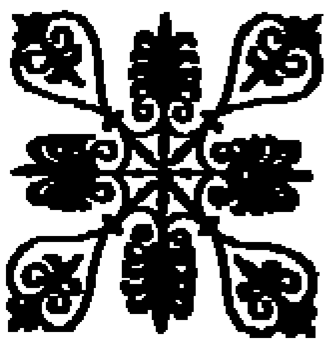
هدايا العملاء :

لاشك أن مما يوطد صلتك بالعميل أن تقدم له بعض الخدمات الشخصية كلما احتاج إليها وكانت فى مقدورك ، كحجز موعد مع طبيب أو ترشيح مدرس خصوصى لأحد أبنائه . أو توصيل صديق له بسيارتك . وقد تقدم له بعض الهدايا من مطبوعات الدار كالنتيجة الإسلامية أو نتيجة المعارف أو أجندة أو من غير المطبوعات كباقة من الزهور فى المناسبات أو هدية من الأراضى المقدسة عند عودتك من الحج .

ولكن هل تقبل من العميل هدية ؟ إذا كانت صغيرة يقصد بها المجاملة فلا شك أن رفضها يغضبه . ولكن إذا كانت كبيرة يقصد بها نقل قيمة مادية إليك بقصد الرشوة فما العمل ؟ إننى أرى ألا ترفضها كذلك ، بشرط أن تخطر الإدارة العليا فى الحال لتتولى شكر العميل نيابة عنك وبهذا تفهمه أنك لم تقبلها فى الظلام . .

سوء التواصل بين العاملين

في مؤسساتنا العربية



كتبت فى فصل سابق أن العالم العربي تنقصــه الإدارة قبــل أن تنقصه التكنية . وفى هذا الفصل أعالج فى شيء من التفصيل ناحية هامة من نواحى هذا التخلف الإدارى .

إن ركن الأركان فى أى تنظيم هو الوضوح ، وضوح الأهداف أمام لعاملين جميعاً . هو وقوف كل عامل على دوره فى المنشأة التى هو فيها . هو تعرفه بالضبط مدى حقه فى السلطة ومدى مسئوليته عن الخطأ . وأعنى بالحق ما يملك إبرامه من موضوعات دون الرجوع إلى سلطة أعلى ، كما أعنى بالمسئولية مايتحمله من مؤاخذة على مدى إهماله فى أداء واجبه ، لا على مدى ماترتب على هذا الإهمال من نتائج قد لا تتناسب مع مقدار الخطأ . لقد يخطئ العامل خطأ جسيماً ولكن السماء تخفف من آثاره ، وقد يخطئ خطأ طفيفاً ولكن سوء الحظ يرتّب عليه خسائر جسيمة .

والوضوح يقتضى أن تصل المعلومات أولاً فأولاً إلى المستويات الإدارية فى اتجاهات ثلاثة :

من أعلى إلى أدنى ، ومن أدنى إلى أعلى ، وفى اتجاه أفقى .

وإليك كلمة عن كل اتجاه :

الاتصال من أعلى إلى أدنى :

إن المقصود بهذا الاتصال هو إعلام الواقفين فى مواقع التنفيذ بالسياسات التى تقررت ، والبرامج والخطط التى وضعت ، والسلطات والمستويات الإدارية التى استحدثت . ولا بد أن تمر المعلومات فى طريقها المرسوم من أعلى الهرم التنظيمى مارة بكل المستويات دون أن تتخطى أحداً فى المستويات الوسطى أو الدنيا .

وهنا أذكر حادثاً لا يمكن أن يبرح ذاكرتى . كان فى مصر رجل أسترالى يبيع الترفيه للجنود الأمريكان أيام الحرب الأخيرة ، وكانت له قطعة أرض أمام مؤسسة صحفية كنت مديرها ، فأردت أن أشترى الأرض لها ، ولكنى رأيت أن أطمئن قبل كل شىء إلى موقف الرجل من مصلحة الضرائب ، وفى المصلحة وقفت على قصة صارخة من قصص التخلف فى التواصل الإدارى .

لقد نمى إلى مأمور الضرائب أن لدى الرجل مجموعتين من الدفاتر : واحدة منها لمصلحة الضرائب وهى مزورة ، والأخرى يحتفظ بها لنفسه وفيها أرباحه الحقيقية . فضبط المأمور المجموعة الثانية وأودعها المصلحة فى انتظار التقاضى .

وذهب الممول يوماً ليقابل مدير المصلحة ، ولكنه ظل ينتظر فى مكتب السكرتير حتى انصرف المدير وقد أوفت الساعة على الثالثة بعد الظهر ، وخرج الموظفون جميعاً من مكاتبهم ، فانصرف الممول شارداً

حزيناً لعجزه عن تسوية الخلاف ، ثم حانت منه التفاتة إلى أحد المكاتب الخالية ، فإذا هو يلمح دفاتره المضبوطة موضوعة فى دولاب خشبي مفتوح ! ونادى على الفور ساعياً كان يسير فى الدهليز فطلب إليه فى لهجة آمرة أن يحمل هذه الدفاتر إلى سيارته . وانصاع الرجل للأمر دون تردد اعتقاداً منه أن الآمر موظف كبير فى المصلحة . واتجه الممول بسيارته مسرعاً إلى جوف الصحراء فأحرق دفاتره .

وجاء يوم المحاكمة فوقف محامى مصلحة الضرائب يقول « أيها المستشارون . إن أمامكم الآن مجرماً خطيراً أرجو أن تحكموا عليه بالسجن لأنه يحتفظ بمجموعتين من الدفاتر . . » فلما انتهى من كلامه عقب محامى الممول قائلاً : « لو لم يكن الأستاذ المحامى زميلى لقلت إنه يختلق . حقًّا أن لدى موكلى مجموعتين من الدفاتر خوف الحريق ولكنهمامتطابقتان كل التطابق ، وأنا أطالب الزميل أن يقدم المجموعة التى لديه للمحكمة لتحيلها إلى خبير حسابي يتأكد من صحة قولى » .

وذهب المحامى إلى المصلحة فاكتشف الحقيقة الرهيبة . إن المجموعة غير موجودة ! وجاء يوم الجلسة الثانية ، فاتهم محامى الممول مصلحة الضرائب بأنها تعمدت إخفاء الدفاتر بعد ما تأكدت من مطابقتها للدفاتر الموجودة ، وطالب بالتعويض عن تأثيم الناس بالباطل .

ماهى عبرة هذا الحادث ؟ إن الموظفين فى المكتب لم يكونوا يعرفون قيمة الدفاتر وإلا لوضعوها بعيدة عن الأعين فى خزانة مقفلة . والساعى لم يكن يعرف موظفى الإدارة التى يعمل فيها وإلا لما انصاع لأوامر دعىٍّ من الخارج .

الاتصال من أدنى إلى أعلى :

المقصود بهذا الاتصال هو البيانات الصاعدة التى مهمتها إبلاغ الرؤساء بما تم وما لم يتم من أعمال ، بالمشكلات التى ظهرت فى التنفيذ . بالانحرافات التى لم تكن فى الحسبان . وأخيراً بالاقتراحات التى يتقدم بها العاملون .

وقد علمتنى التجربة أن البيانات الصاعدة تميل عادة إلى « الأخبار الطيبة » فتحمل أخبار النجاح وزيادة الإنتاج والتجويد فيه ، وتخفى أخبار المشاكل والخلافات القائمة بين العاملين ، أو تتخفف منها خوفاً من تأخير الترقية ، وحرصاً على أعصاب الرؤساء . ومن ذلك تعاون العاملين على إخفاء الأخطاء كلما زارهم مفتش خارجى لمراجعة الأعمال فى المنشأة .

وللوقوف على حقائق الأشياء يجب أن يكون الرئيس متاحاً لمرءوسيه . ولست بهذا أنادى بسياسة الباب المفتوح التى يتبعها بعض القادة الإداريين سعياً وراء الشعبية ، فقد ثبت أنها مضيعة للوقت حتى قال عنها المثل الإنجليزى : « الباب المفتوح دليل على العقل المغلق » .

"The open door means closed mind"

وإنما أقصد أن يزيل الرئيس من حوله جو الرهبة الذى يحيط به فيصبح قائداً محبوباً كما ذكرت فى مقال سابق .

ومن أبرز الأمثلة على ما قد يثور من شك فى المعلومات الصاعدة

إنني كنت عضواً فى إحدى اللجان التى اشتركت فى وضع الخطة الخمسية الأولى . وكانت المناقشة تدور حول مضاعفة الدخل فى عشر سنوات . فاتفقنا على البدء بالزراعة . وقيل لنا إن فلاناً حاصل على الدكتوراه فى الحشرات ، وفلاناً فى الرى ، وفلاناً فى الدورات الزراعية ، فدعوناهم جميعاً وسألناهم : هل نسير أفقياً فى الزراعة فنستصلح الصحراء ، أو نسير رأسياً فنحسن وسائل الاستزراع ؟ وجاء ردهم بالإجماع « أن الاتجاه الرأسى أفضل ، ولكن مكافحة الحشرات هى ما يجب أن نبدأ به . وهذه المكافحة تحتاج إلى كثرة التفتيش ، والتفتيش يحتاج إلى مزيد من السيارات » .

وأدرك مدير التخطيط قصدهم فسألهم فى سخرية :

« وأى السيارات أفضل فى مكافحة الحشرات : مرسيدس ٦٦ أو ٦٧ ؟ » .

التواصل الأفقى :

المنشأة تضم عادة إدارة فنية ، وإدارة حسابية ، وإدارة قانونية . . إلخ ، ولا بد أن يضرب الجميع على نوتة موسيقية واحدة . فلو تصورنا عازف الكمان يلعب على هواه ، وعازف العود يضرب على وتر يختاره ، وعازف البيانو لا يعترف بالاثنين ، لما كانت هناك موسيقى على الإطلاق . ويكفى للدلالة على فساد الاتصال الأفقى فى العالم العربي ما نشاهده من تشريح فى عواصمه . فإن الشوارع ترصف دون التأكد من أن أسلاك الهاتف ومواسير المجارى وخطوط الكهرباء ليست فى حاجة إلى تغيير أو إصلاح . والنتيجة أن مصلحة الهاتف أو المجارى أو الكهرباء كلما أرادت إصلاحاً

حفرت الشارع فاحتاجت مصلحة التنظيم إلى رصفه من جديد .

وقد اشترى أحد الفلاحين قطعة أرض من مصلحة الأملاك فى بلد عربي ودفع ثمنها وبدأ فى استغلالها فإذا برجال الرى يحررون له مخالفة بعد سنتين لأنه ظهر أن هذه الأرض من المنافع العامة ، وأنها فى مكان ترعة عمومية . ولو أن مصلحة الأملاك كانت تعرف هذه الحقيقة لما أقدمت على بيع الأرض .

وسائل التواصل ثلاث : هى الإيحاء والمشافهة والتحرير . وعلى قدر مايبدو فى هذا القول من بداهة فإن فيه ما يستحق التعليق .

الاتصال بالإيحاء :

الإيحاء انطباع ينتقل من تصرفات القائد الإدارى إلى نفوس العاملين معه . ولذلك فكلما أراد القائد أن يفرض اتجاهاً على معاونيه فعليه أن يبدأ بنفسه . إذا أرادهم أن يواظبوا على الحضور إلى العمل فى تمام الساعة الثامنة صباحاً فعليه أن يكون فى مكتبه فى هذه الساعة من كل صباح . وإذا كان كبار الموظفين يرون فى الإمضاء عند الحضور تصغيراً لشأنهم فإنهم يفعلون ذلك بارتياح حين يرون رئيسهم يمضى مثلهم . إنه بهذا الإمضاء يوحى بأن النظام سيد الجميع .

وإذا أرادهم ألا يسرفوا فى تأثيث مكاتبهم فعليه أن يبدأ بمكتبه فيجعله بسيطاً نظيفاً لا صالوناً من صالونات البيوت .

ومن الإيحاء أن مشروباً غازيًا فى القاهرة هاجمته إحدى الصحف

بوصفه محتوياً على دم خنزير ، فنزلت مبيعاته إلى الحضيض ، ولكن الإدارة ، تلك التى تصنع هذا المشروب ، لم تواجه هذا الهجوم ، وإنما لجأت فى صده إلى الإيحاء ، فقدمت لبوفيه المحكمة الشرعية صندوقاً من هذا المشروب بالمجان تحية للقضاة الذين كانوا مجتمعين لتحديد اليوم الذى يبدأ فيه رمضان ، وفى الصباح طالع الناس أخبار الصيام وقضاة الشرع يرفعون الزجاجات إلى أفواههم فى براءة وعليها اسم المشروب ، فأمن القراء بأن الحملة كاذبة .

ومن الإيحاء تثبيت العقائد الصالحة كأن نغرس فى نفوس الناس أن الوظيفة العليا لا تعنى أن شخص شاغلها أكرم ممن هم دونه . إن الملازم حين يرفع يده بالتحية للنقيب لا يمجده ، وإنما يعلن استعداده لتنفيذ أوامره .

ومن الإيحاء ألا يوقع الرئيس العقوبة بوصفها انتقاماً ، وإنما باعتبارها إجراء تفرضه المصلحة العامة . ولذلك لا يصح أن يصاحبها التشفى ، بل تكون مقرونة بالنصح .

وإذا سرق موظف فلا يصح أن يوصف بأنه لص ، وإنما يقال له « هذه سرقة » والفرق بين القولين واضح ، فالأول سب شخصى والثاني حكم على التصرف .

وهنا عادة جفوة بين العمال والمديرين ، لأن المديرين يمثلون فى نظرهم طغيان السلطة . ولا يزيل الإقناع هذه الجفوة وإنما يزيلها الانطباع . إن فى الرحلات والرياضة والمؤاكلة والاجتماعات المشتركة فى المناسبات

مايجمع الزملاء والرؤساء على مفهوم اجتماعى مشترك . وصحيفة المنشأة تلعب دوراً هاماً فى ذلك ، فهى تنشر أخبار أعياد الميلاد وعقد القران والترقيات والأسفار . . إلخ .

الاتصال بالمشافهة :

إن الحديث إنصات وإرسال ، والغريب أنه برغم أن الله جلّت قدرته خلق لنا أذنين ولساناً واحداً لنسمع ضعف مانتكلم ، فإن الناس يتعلمون الكلام فى سنتين ، وينفقون العمر كله فى تعلم الإنصات !

وأذكر بهذه المناسبة أننى حضرت جلسة البرلمان البريطاني التى أبيح فيها الشذوذ الجنسى . وقام أحد الأعضاء – وهو مصاب بالشذوذ – فقال إنه إذا كان يملك المقعد الذى يجلس عليه فإن من حقه أن يفعل به ما يشاء ، وإن الشذوذ الجنسى هو أحسن وسيلة لتحديد النسل . . واستمر فى حديثه المثير دون أن يقاطعه أحد من مخالفيه حتى انتهى . . ثم وقف ماكميلان – وكان رئيساً للوزراء – فبدأ ردّه بشكر العضو المحترم على معلوماته القيمة التى يعترف بأنه استفاد منها كثيراً ، ولكنه يختلف معه فى أنه استند إلى المنطق وحده وأهمل النظام العام ، وطالب الأعضاء فى نهاية رده بأن يصفقوا له كما صفقوا للعضو المحترم !

الإنصات عملية إيجابية مهمتها التعرف على ما يبديه المتكلم ، وعلى الحوافز التى دفعته إلى مايقول ، والشواهد على صحة قوله . أما الإرسال فهو عملية أسهل . إنه يبدأ عادة بالتعليق على حديث المتكلم ليكون

التعليق دليلاً على فهم ما قال . إن من يرسل عليه أن يكسب المستقبل كبشر وإلا كان كالمحب الولهان الذى يرسل خطابه الغرامى ثم لايلقيه فى صندوق البريد .

والمتحدث اللبق هو الذى يكون مستعداً دائماً لأن يتنازل فى رفق عن الفكرة النيرة للمخاطب كما لو كانت صادرة عنه ، وبذلك يتبناها هذا فيتحمس لها وهو المطلوب .

الاتصال بالتحرير :

تتميز الكتابة بأنها تحمل الكاتب على مزيد من التفكير فى إبراز الحقائق والأرقام . ذلك أنه يكتب وهو يعرف أن الورقة ستنفصل عنه وتتداول .

إن الموظف الذى يقرر شفوياً أن مشروعاً يغل دخلا قدره ثلاثون ألف جنيه يجده أقل من ذلك كثيراً حين يمسك قلمه . فإنه يفكر فيجد النفقات أكثر مما ظن أول الأمر ، ويفكر فيجد الإيرادات أقل مما قدَّر .

وأكثر ما تكون الكتابة فى التقارير ، وللتقارير أصول مرعية ، فهى تستند إلى الأرقام والنسب المئوية ، ولا تستند إلى الصفات وأفعل التفضيل ، فعند مقارنة مبيعات سنة بأخرى فلا بد من ذكر الفرق بالرقم والنسبة المئوية . لقد ذكر أحد أصحاب المدارس الحرة مرة أن نتيجته فى الشهادة الثانوية ١٠٠٪ ثم اتضح أن المتقدم من مدرسته تلميذ واحد نجح .

على أن الرقم وحده لا يكفى . فإذا قيل إن متوسط الأعمار فى مدرَّج

هو ٢١ سنة فالذى يتبادر إلى الأذهان أن التلاميذ شباب وقد يتبين بعد ذلك أن نصفهم من الشيوخ ونصفهم من الأطفال . ولذلك ورد فى علم الإحصاء ما يسمى بمعدل التشتت Deviation Rate .

ومن القواعد التى لا بد من اتباعها فى كتابة التقارير ، ألا ينتقد الكاتب نظاماً إلا إذا اقترح بديلاً عنه . فليس يكفى أن يورد عيوب النظام القائم وإنما يجب أن يبين طرق تلافيها .

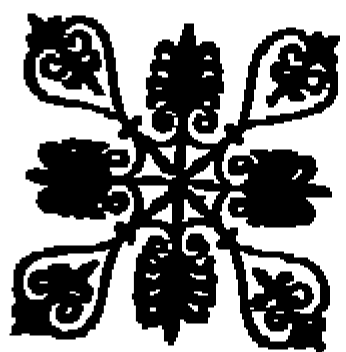
اتصالات أخرى :

يمكن أن يضاف إلى وسائل الاتصال الرئيسية الثلاث وسائل أخرى منها : الشكاوى والاستفتاءات والمؤتمرات واستدعاء الخبراء الاستشاريين . كما يصح أن يضاف إلى الاتصالات الداخلية اتصال المنشأة بجمهورها وبالسلطات المشرفة عليها ، ولكنْ هذا بحث طويل فى العلاقات العامة ليس هنا مكانه .

إن الاتصالات الناجحة تعمل فى الإدارة عمل الشرايين فى جسم الإنسان . ومهما يكن من أمر فلا يصح أن تقف العوائق دون تدفق البيانات . إن شستر برنارد صاحب المرجع الكلاسيكى فى وظائف القائد الإدارى يقول : « إن من أول مهام المدير الناجح أن يقيم نظاماً فعالاً للاتصالات » .

العروبة... ترابُط
والتقنية... تفكيك

فما العمل؟



كان العربى القديم فى عهد الرعى يحمل خيمته ويقود ناقته ومن خلفها غنمه إلى حيث يجد الماء. ولذلك قالوا: «المورد العذب كثير الزحام». وتضاءلت إلى حد كبير قيمة المكان فلم يكن الولاء له بقدر ما كان للمرعى أين يكون.

ولما حلت الزراعة محل الرعى فى مصر وسوريا والعراق استبدل الناس البيوت بالخيام ونشأت التجمعات فى القرى وتزايد الشعور بالانتماء للمكان، وقويت الروابط بين الأسر وتجمعت السلطة فى يد الدولة فى مجتمع النهر بعد أن كانت مشتتة فى مجتمع المطر، وظهرت الملكيات فى شكل مزارع خاصة وبيوت من الطوب والآجر.

ولما دخلت البلاد الزراعية عهد التصنيع زادت التجمعات فى المدن حتى أربي سكان القاهرة على سبعة ملايين وسكان الإسكندرية على مليونين وسكان دمشق وحلب وبغداد على مليون.

ثم دخلت السعودية والكويت وإمارات الخليج وليبيا والجزائر عصر البترول، فعاد أهلها إلى عصر التحرر. والتحرر الجديد قائم على التخفف من الارتباط بالأهل وبالمكان وبالسلع. وإليك البيان.

التحرر من الأهل:

إن نسبة العاملين فى الزراعة تتراجع لصالح الصناعة واستخراج البترول. وما أظن العاملين فى الأرض يزيدون الآن على الثلث. مهما بلغ

الاتجاه إلى التصنيع في مصر وسوريا ولبنان وغيرها فإن بلاد البترول تجرى فى مضمار الحضارة جرياً هيهات أن تلاحقها فيه البلاد الأخرى بزراعتها وصناعتها .

أهمية الطاقة :

ولكى نقدر الأهمية التى أصبحت لدول البترول يجب أن نعرف أن استهلاك العالم من الطاقة فى القرن الأخير يعادل نصف ما استهلكته البشرية منذ ولد المسيح ! وكنتيجة لارتفاع الدخل فإن المراهق فى بلاد البترول يجد نفسه اليوم مستمتعاً بأضعاف ما كان يستمتع به أبوه من السلع والخدمات . وعندما يصل المراهق إلى سن الثلاثين سيزيد التضاعف فى هذه السلع . وعندما يصل إلى الستين فقد يصل التضاعف إلى عشرين أو ثلاثين مرة. ومعنى هذا أن نمط الحياة عند هؤلاء المراهقين يتغير بسرعة جنونية من سنة إلى أخرى وهم يلهثون وراءه فيكون لاندفاعهم معقباته الخطيرة من الناحيتين النفسية والاجتماعية . وإذا لم يتكيفوا مع هذا التيار الجارف فقد يتعرضون للتمزق الذى تعرض له الهيبيون فى أوربا وأمريكا .

سرعة المواصلات :

إن الفرد الذى يركب الجمل فيسير بسرعة ستة كيلومترات فى الساعة أصبح يجرى بسرعة عشرين كيلومتراً فى عربة تجرها الجياد . ثم زادت

سرعته إلى مائة كيلومتر حين ركب القطار، وقفزت سرعته إلى أربعمائة ميل فى الساعة حين ركب الطائرة . واليوم تصل سرعة الطائرة الصاروخية إلى ٤٠٠٠ ميل فى الساعة وسرعة كبسولة الفضاء إلى ١٨,٠٠٠ ميل فى الساعة . فنى أى طريق نحن مسوقون ؟ لقد انتقل العربى من عصر الجمل إلى عصر النفاثة إلىعصر الصاروخ فى خمس سنوات فما تأثير ذلك على عروبته وتقاليده ومعتقداته ؟

نزح العقول :

وقد كانت سهولة السفر وسرعته عاملاً كبيراً ساعد على هجرة مئات الألوف من المدرسين والجامعيين والعمال من البلاد الزراعية حيث يتكاثر السكان ويقل الدخل إلى بلاد البترول حيث يفوق تزايد الدخل تزايد السكان . وهذه الهجرة تحد من وطنية العرب وتزيد من عروبتهم وهو نوع محمود من عدم الإغراق فى الانتماء . فالمصرى والسوداني والعراقى والسورى يقل تمسكهم بأوطانهم حين يجدون لأنفسهم أوطاناً أخرى . وحين يقودهم البحث عن عمل إلى أوطان ثالثة ورابعة فإن عروبتهم تعلو على مستوى أوطانهم وتخف صلتهم بأهليهم وأقربائهم وتشتد بزملائهم ومعارفهم فى الأوطان الجديدة . كما أنهم يتطبعون بطباع لم تكن لهم من قبل أن يهاجروا ، وهذه الطباع خليط مما رسب فى نفوسهم من سلوك الذين عايشوهم .

هجرة العرب :

ومن العرب من يسافرون إلى أوربا وأمريكا ليكملوا دراساتهم أو يتخصصوا فى فنونهم . فإذا راقتهم الحياة هناك حطوا رحالهم وتزوجوا من أجنبيات . وبمرور الوقت يقل تعلقهم بأقوامهم وتقتصر صلتهم بهم على تبادل الرسائل معهم فى المناسبات . أما أبناؤهم فهم ينشأون نشأة غربية ولا يتكلمون العربية ويتجنسون بجنسية البلد الذى ولدوا فيه فتنقطع صلتهم ببلدهم الأصيل .

إن هجرة العقول العربية من البلاد الزراعية إلى البلاد البترولية أمر ملحوظ ، وهجرتهم إلى أمريكا وغرب أوربا أمر محقق كلما لم يجدوا عند عودتهم من بعثاتهم إيقاعاً أسرع لحياتهم ، يلائم طريقتهم الجديدة فى العيش فالذين هاجروا مرة قد وهن فيهم الارتباط بالجماعة فأصبحوا أكثر قابلية للهجرة مرة أخرى .

إن التقدم الفادح فى المواصلات والاتصالات قد جمع أرجاء العالم فى مفهوم واحد ، فأصبح ارتباط الفرد بعمله مقدماً على ارتباطه بأهله . وتغلغل التكنولوجيا فى حياته جعل العلم منافساً لمعتقداته . وتقدم الحاسبات الإلكترونية جعل الأرقام تطغى على الروحانية فى نفسه .

التحرر من المكان :

أثر السيارة والطائرة :

المشاهد اليوم أن السيارة قد أصبحت من ضروريات الحياة فى كل بيت عربي . بل إن المراهق لايطيق أن يصل إلى سن الثامنة عشرة دون أن تكون له سيارته الخاصة . ومعنى ذلك أن « العز فى التُّنَقَل » كما يقولون . والذين ليس لديهم سيارات خاصة يستجيبون لدافع التنقل بواسطة الأوتوستوب .

إن ألوف السيارات تسد الطرق سداًّ فى الكويت والسعودية وبيروت والقاهرة فالفرد يرى فى تغيير المكان ترويحاً عن نفسه ، والأسرة تفضل قضاء عطلة الأسبوع بعيداً عن البيت ، ورجل الأعمال يهرب من الزحام فيسكن فى أطراف المدينة . ومن الأسر القادرة ما يكون لديها أكثر من سيارة ، بل إن منها ما لديه سيارة لكل فرد فيها . وقريباً ستصبح الطائرة الخاصة من ضرورات الحياة الحديثة .

ورحمة الله على من كنّ يسكنّ فى حى الأزهربالقاهرة فلا تجرؤإحداهن على شراء حذاء لنفسها لأن المفروض ألا تخرج من بيتها إلا إلى بيت زوجها ليلة الزفاف . لقد عاصرت فى حياتي رجلاً فى قريتى لم يركب القطار قط فى حياته فلما سألته عن ذلك قال إنه يلوخ من سرعته حين يراه يجرى أمامه فكيف إذا ركب فيه ! ولا يزال الصحفى الكبير محمد التابعى والموسيقار الفنان محمد عبد الوهاب يخافان من ركوب الطائرة لأنهما

لا يطيقان أن يكونا بين الأرض والسماء معلقين فى الجو .

ذلك ومؤلف الكتاب المشهور « صـدمـة المستقبـل Future Stock» يروى أن أحد المديرين فى نيويورك يستقل المصعد من الطابق التاسع والعشرين إلى الطابق الأرضى ثم يسير على قدميه عشر دقائق يصل بعدها إلى مطار وال ستريت للهيوكوبتر حيث تهبط به الطائرة بعد ثمانى دقائق فى مطار كيندى وهناك ينتقل إلى إحدى النفاثات حيث يتناول العشاء والطائرة تندفع به إلى مطار كولومبس فتصله بعد ساعة وعشر دقائق حيث يجد سيارة فى انتظاره فيستقلها إلى منزله ليصله بعد ثلاثين دقيقة وهكذا يقطع المدير هذه الرحلة الطويلة كل أسبوع ليقضى العطلة مع أسرته على بعد خمسمائة ميل من مقر عمله ويقطع فى الذهاب والإياب ٥٠,٠٠٠ ميل سنوياً ، وهكذا تقضى سرعة المواصلات على بعد المسافات فيقل تشبث الناس بالمكان . ولولا الطائرات لما تمكن رجال الأعمال فى جدة من التردد على الرياض . ولولا السيارات لما تمكن أهالى بيروت من مزاولة أعمالهم فى الصباح والعودة للجبل بعد الظهر .

التحرر من السلع :

إن علاقة العرب بالأشياء لا تدوم اليوم طويلا كما كانت فى الماضى . وإذا كان رب الأسرة يبنى لنفسه بيتاً كبيراً مستقلاً ينفق فيه حياته ، فإن أبناءه سيفضلون غداً أن يستأجروا لأنفسهم شققاً حديثة بها أثاث قليل وتكييف وموسيقى . وقد يغيرونها كلما أرادوا حتى لقد ينتهى بهم الأمر إلى

أن يعسكروا بدل أن يسكنوا ! .

وإذا كان العربى – كما قلنا – حريصاً على اقتناء سيارته فقد يفضل استجارها غداً . وفى الولايات المتحدة تستطيع أن تستأجر اليوم سيارتك فى أى مطار أو محطة سكة حديد أو فندق .

وإذا كانت الفتاة العربية تنفق اليوم على فستان زفافها مئات الجنيهات فإنها قد تتجه غداً إلى فستان من الورق كما تفعل الأمريكيات فتلبسه ليلة الزفاف ثم تتخلص منه . وما أقوله عن الفستان أقول مثله عن الأطباق والمناشف الورقية .

إن قداحات السجاير التى لايعاد ملؤها بالغاز وإنما تلقى بمجرد أن تفرغ شحنتها تلقى رواجاً كبيراً فى العالم العربى مما يدل على فعل الإعلان فى نشر الروح الاستبدالية بين العرب . إنهم يفضلون أن يرتبطوا بعدد متتابع من القداحات على أن يظلوا مدة طويلة مرتبطين بقداحة واحدة .

وريشة الكتابة القديمة حل محلها قلم الحبر ليساير الحرية فى التنقل ، ثم جاء بعده القلم الجاف وهو من الرخص بحيث يمكن رميه بعد أن يفرغ .

إن التقنية المتقدمة تجعل تكاليف التشغيل بالآلة أقل من تكاليف الإصلاح باليد ، ولذلك فإن الاتجاه الحديث هو إلى إنتاج سلع أقصر عمراً ولكنها فى الأجل الطويل أرخص من السلع المعدة للإصلاح .

وحتى السلع المعمرة أصبح الاتجاه فيها إلى أن تكون أقصر عمراً فالجيل الأول من الحاسبات الإلكترونية أقل كفاءة من الجيل الثاني والجيل

الثانى أقل كفاءة من الثالث . فالمطلوب اقتصادياً إذن هو إنتاج الكمبيوتر الذى لا يعيش أكثر من اللازم .

هذه الضغوط تشجع ثقافة التحرر من الأشياء . ولذلك يحق لنا أن نتوقع فى المستقبل القريب انتشار الإيجارية على حساب الملكية لأن الإيجارية تختزل علاقة العربى بالأشياء . وعلاقته تعكس حكمه على القيم .

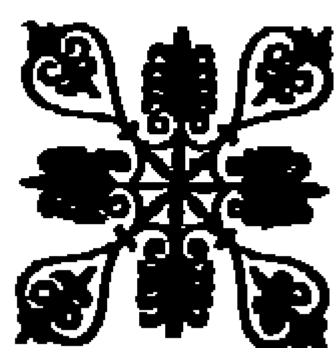
والخلاصة :

إن العربى يذيب عروبته الآن فى محلول من العالمية فإن التقدم المذهل فى المواصلات والأقمار الصناعية . وفى التقنية التى تباعد بين مستوى الأوطان ، وفى الثقافة التى ترفع لواءها فوق اتجاهات الناس فى جميع الأقطار . هذا التقدم تيار عالمى جارف لا بد أن يسير العرب فيه ومن شأنه أن يخفف من ارتباطهم بالأهل وبالمكان وبالسلع . وهذا التخفف يترك أثره فى مدى تمسكهم بتقاليدهم وعقائدهم .

فعلى المصلحين الدينيين والاجتماعيين أن ينهضوا من الآن لتفادى آثاره المستقبلة المدمرة .

لكي نربح المستقبل

تأليف: سيد مرعي



* هذا بحث صدر منذ شهور فى كتاب حاد العبارة كأنما اقتطعت كل جملة فيه بشاطور. ولست أعنى بالحدة أن فى عباراته صرامة أو شدة ، وإنما أعنى أن جمله قصيرة ولكنها تحمل شحنات كبيرة من المعنى فتضع الواقع بلحمه ودمه على مائدة التشريح .

انظر إليه يقول :

* إذا كان ثمن شراء السيارة فى نيويورك قد أصبح يحتاج إلى مرتب ثلاثة أشهر بدلا من شهرين فإن ثمن شراء رغيف الخبز فى أثيوبيا أصبح يحتاج إلى مرتب شهر بدلا من مرتب يوم .

* إذا كانت الأقلية فى عالمنا تتحدث عن أزمة ثروة . . فإن الأغلبية تعانى أصلاً من أزمة طعام .

* لقد أصبحنا نعيش فى عالمين . . عالم الفقراء والمتخلفين والجائعين وهم الأغلبية الكبرى . وعالم الأغنياء والشباع والمتقدمين . . . وهم الأقلية المطلقة .

* لقد دخلت حدة الأزمة العالمية إلى الدرجة التى أصبح علينا أن نفكر معها بأسلوب جديد : فإما أن نغرق جميعاً معاً . . وإما أن ننجو جميعاً معاً . والحل هو مشروع عربي للتنمية . . . نعلن فيه معاً . . الحرب العالمية الثالثة .

منهاج البحث :

لعلك – ياعزيزى القارئ – قد فهمت من هذه البرشامة مهمة الكتاب كله ، وكيف يسير ، إنه يعالج فى قسمه الأول مشكلة البلاد النامية ويعالج فى قسمه الثانى احتمالات الحل . ويعرض فى الفصل السادس من هذا القسم تجربة مشروع مارشال . ثم ينتهى فى الفصل السابع والأخير باقتراح المشروع الموازى وهو المشروع العربى للتنمية .

ومن الغلاف إلى الغلاف ينتقل قلم الكاتب – بل بالأحرى عدسته – من فصل إلى فصل فيتجه بالأرقام إلى عقل القارئ . ويتجه بالصور إلى قلبه ، ولكن الأرقام والصور – فيما يبدو – تتعانق بالرغم منه فتستدرج القارئ إلى أن يفكر أحياناً بقلبه ، وإلى أن يحس أحياناً أخرى بفكره ! ذلك أن سيد مرعى مهندس فهو لا يعرف من هذه الناحية إلا الرياضة والكيمياء ، وهو رئيس مجلس الشعب ففيه اتجاه إلى أن يتكلم باسم الشعوب ويدير الحوار لتلافى آلامها والاستجابة لآمالها . ولكن الكتاب مع ذلك يبقى حاد العبارة – كما قلت – لأن مهمته الرئيسية واضحة وهى أن يجرى عملية جراحية لعلاج العالم الفقير والعالم الغنى . وأنا أدعو القارئ معى إلى أن يدخل غرفة العمليات فإن فيها فصول الكتاب .

ماذا يجرى فى عالمنا ؟

إن الإجابة يمكن أن تكون فى روما هى : لقد أصبحت لدينا

٣٠٠ ألف سيارة فيات مخزونة من عام ١٩٧٤ لاتجد من يشتريها . فى حين أن الإجابة فى نيودلهى هى : أننا نواجه أزمة فى كل شىء ، بعد أن ارتفع سعر القمح ثلاث مرات ، وسعر السكر ١٦ مرة ، والأسمدة ٢٢ مرة !

إنهم فى العالم المتقدم يقولون : لقد أصبحت الدول المصدرة للبترول تحصل منا على سبعة ملايين دولار فى الساعة بحيث إنهم الآن يستطيعون أن يسددوا ثمن كل وارداتهم . وبعد هذا كله يظل الفائض لديهم هو ستين بليون دولار فى السنة ١١٥ ألف دولار فى الثانية .

إن الموضوع الساخن فى إيطاليا هو البطالة . وفى بريطانيا هو ارتفاع الأسعار . وفى أمريكا هو بارونات البترول – يقصدون مصدرى البترول – الذين أصبحوا يستطيعون الآن أن يشتروا كل سنة مجموع ثروات عائلة روكفلر الأمريكية ستين مرة . . أو يشتروا كل أسهم شركات التأمين فى بورصة لندن كل تسعة أشهر !

مرة أخرى ماذا يجرى فى عالمنا ؟

إن البعض يذكرنا بما جرى فى سنوات ١٩٢٩ / ١٩٣١ بسبب عدم السيطرة على التضخم والانهيار الفظيع فيقولون إن النقود وقتها لم تكن هى وحدها التى أصبحت بسعر التراب ولكن السياسيين أيضاً أصبحوا هم قبلها بسعر التراب أيضاً . فنتيجة لعجز السياسيين عن حل المشكلة ، ونتيجة لأن الموظفين وأصحاب المعاشات كانوا أول من طحنتهم أزمة

الغلاء ، ونتيجة لأن العمال فوجئوا بأنهم متعطلون فإن الباب مفتوح أمام أى مجنون لكى يقدم حلولا مجنونة . . وهكذا جاء هتلر إلى السلطة فى ألمانيا راكباً موجة الغلاء والتضخم والانهيار السياسى .

لقد أنفق العالم ٢٤٠ بليون دولار فى سنة ١٩٧٣ على تنمية استعداداته العسكرية وقواته المسلحة . وفى سنة ١٩٧٥ شهد نهاية حرب فيتنام بعد أن خسرت فيها الولايات المتحدة مائة وخمسين بليوناً من الدولارات و٥٦ ألف قتيل . والمطلوب الآن هو مواجهة جديدة ليست فى فيتنام هذه المرة ولكن فى جبهة هى بعرض العالم كله ، وبامتداد الفقر والتخلف حيثما كانا موجودين .

مشكلة التضخم :

يقول روبرت ماكنمارا فى خطابه أمام الاجتماع السنوى لصندوق النقد الدولى الذى عقد فى واشنطن فى أكتوبر عام ١٩٧٤ « إن دول ضحايا التضخم العالمى فى الأسعار سوف تكون هى الدول النامية الفقيرة . وإذا لم نتعاون جميعاً فى الحل فإن سكان هذه الدول – وعددهم يزيد على الألف مليون نسمة – سوف يتعرضون لخطر الموت جوعاً خلال السنوات العشر القادمة . . . لأن سقوط عملة واحدة رئيسية أو انهيار اقتصاد دولة واحدة كبرى سوف يجر الجميع إلى القاع » .

ففى الهند مثلاً سوف تمتص الزيادة فى أسعار البترول فى سنة ١٩٧٤ أكثر من ثمانمائة مليون دولار من مواردها ، وزيادة الأسعار العالمية للأسمدة

النيتروجية سوف تضيف خمسمائة مليون دولار أخرى . وزيادة أسعار الحبوب سوف تمتص مائة مليون دولار فتكون الهند فى النهاية أمام ١٤٠٠ مليون دولار عبئاً إضافياً بالنقد الأجنبي فى سنة واحدة !

وفى سيريلانكا شهدت سنة ١٩٧٤ زيادة فى واردات الحبوب تجاوزت مائة مليون دولار ، وزيادة فى أسعار الأسمدة تجاوزت أربعين مليون دولار ، وزيادة فى أسعار البترول بلغت مائة مليون دولار . ولكى تزداد الأمور سوءاً فإن هذا يحدث فى الوقت الذى تجمدت فيه الأسعار العالمية للشاى وهو المحصول الرئيسى الذى تصدره سيريلانكا .

تذبذب العملات :

ينقل المؤلف من الدكتور عبد المنعم القيسونى رئيس مجلس إدارة المصرف العربى الدولى قوله فى مارس عام ١٩٧٤ :

« ليس من الإنصاف أن ينسب تذبذب قيمة العملات الآن إلى تدفق الأموال العربية وانتقالها من جهة إلى أخرى ، فإن السبب الرئيسى فى نظرى هو أنه بعد الحرب العالمية الثانية وفى الخمسينات والستينات وضع العالم الغربى بصفة خاصة ثقته الكبيرة فى الدولار الأمريكى . لقد وثقوا فيه وأودعوا فيه معظم احتياطياتهم وكانت اليابان والدول النامية تفعل الشيء نفسه ، وكان الدولار الأمريكى محافظاً على قيمته برغم التدهور السريع فى الميزان الحسابى الأمريكى ، لأن الدول الأخرى كانت تقبل الدولارات التى تتدفق عليها نتيجة لهذا العجز. بل إن

الولايات المتحدة كانت تتبع فى بعض الأوقات سياسة أن تزيد من هذا العجز بزيادة استثماراتها فى أوربا وتشترى فيها أسهماً وسندات وأوراقاً مالية وصناعات ومشروعات كاملة بالدولارات الأمريكية نظراً لاستعداد الدول الأوربية لقبول هذه الدولارات ، أى أنه كان فى إمكانها أن تمول تقدمها الاقتصادى فى أوربا وتمول تغلغلها الاقتصادى فيها نتيجة لسبب بسيط وهو أن أوربا كانت على استعداد لقبول الدولارات بغير حدود دون تردد ، ولما بدأت أوربا تضيق بما يحدث وتتساءل وتعارض التغلغل الأمريكى فى اقتصادياتها أخذت ترفض الاحتفاظ بالدولار وبدأت فرنسا بصفة خاصة تبيع الدولار المحتفظ به فى ودائعها وتشترى الذهب بدلا منه . عندئذ بدأت الولايات المتحدة تشعر بأنها عاجزة عن مواجهة هذا التطور ، فأوقفت استبدال الذهب بالدولار . وكان نتيجة هذا الإيقاف أن أصبح سعر الدولار . فى الخارج ينخفض انخفاضاً كبيراً ونحن نشاهد الآن نتيجة هذا الانخفاض » .

دعهم يجوعون :

هذا الشعار رفعه الدكتور جاريت هارون أستاذ علم الأحياء بجامعة كاليفورنيا الأمريكية . وهو يفسره بأن بلاد العالم الغنية تعيش الآن داخل قارب نجاة مزدحم . أما باقى الدنيا فإنها تغرق فى بحر من الجوع . ولو سمح أصحاب قارب النجاة للآخرين بالتشبث بالقارب والصعود إليه فإن القارب سوف يغرق فى النهاية بكل من فيه .

ويقول الذين اعتنقوا هذا الشعار إن الولايات المتحدة الأمريكية وحدها تأكل ٣٥٪ من الغذاء المتاح فى العالم فى حين أن سكانها لايتجاوزون ستة فى المائة من سكان العالم . وما لم تقرر الولايات المتحدة أن تجعل المعونة مشروطة بالعمل على منع النمو السكانى فإن الذين تنقذ حياتهم الآن سوف يكون ثمنهم هو خسارة عدد أكبر من الأحياء فى الأجيال التالية .

ويقول الدكتور بادوك : إذا توقفنا جميعاً كأمريكيين عن أكل اللحوم فإننا نستطيع أن نساعد ثمانمائة مليون جائع . ولكن حينما نرى سكان العالم يتضخمون بنسبة تسعين مليوناً كل سنة فلا بد أن نتساءل ماذا سيحدث بعد تسع سنوات ؟

لقد تطرف الدكتور بواهر بلخ الأستاذ بجامعة ستانفورد ومؤلف كتاب « قنبلة السكان » فنصح بتخزين الطعام والمياه والملابس « لأن الجائعين فى هذه الأيام يملكون أسلحة ذرية » ولكن مستر روبرت ماكنمارا رئيس البنك الدولى رد على ذلك بقوله : « إن هذا التفكير خاطئ فنياً . . بمثل ماهو كريه ومنبوذ أخلاقياً . . » .

وللبترول أيضاً مشاكله :

إن البلاد النامية المصدرة للبترول تواجه بصفة أساسية ثلاث مشكلات هى :

أولا : تحقيق التنمية الاقتصادية فى مختلف المجالات .

ثانياً : العمل على منع انخفاض أسعار البترول بل العمل على رفعها على النحو الذى ترتفع به أسعار المواد الأخرى المصنعة .

ثالثاً : استثمار الفوائض البترولية والمحافظة عليها .

لقد عمدت الشركات الكبرى المستخرجة للبترول إلى إيجاد « نظام السعر المعلن » لتحسب على أساسه حصة البلاد المضيفة دون أن تلزم نفسها باطلاع حكومات هذه البلاد على حقيقة حساباتها . ومعنى ذلك أن أسعار البترول الخام أصبحت أسعاراً إدارية أكثر منها أسعاراً تنافسية تحكمها قوى السوق . ومن البديهى أن هذه الشركات الاحتكارية كانت تجد سندها القوى دائماً فى حكوماتها وهو ما يتضح مثلاً مما أعلنه وزير الخزانة الأمريكى فى منتصف سنة ١٩٧٢ من أن على الولايات المتحدة الأمريكية أن تكون أكثر صلابة فى معاملة البلاد المصدرة للبترول ، وأن تفهم هذه الحكومات أنها لاتتفاوض مع شركات بل مع الولايات المتحدة نفسها .

ومع ذلك ارتفعت أسعار النفط بالرغم من هذا التصريح وغيره من التصريحات العنيفة . فقد ارتفع سعر البرميل من ١,٢ دولار إلى ستة دولارات فى ١٦ أكتوبر عام ١٩٧٣ وإلى أكثر من ١١ دولاراً فى ديسمبر عام ١٩٧٣ .

ونتيجة لهذا الارتفاع بلغ دخل دول الأوبك من البترول فى سنة ١٩٧٤ — ١١٢ مليار دولار مقابل ٢٢,٧ مليار دولار فى سنة ١٩٧٣ وقد تكوَّن لدى هذه الدول فائض بلغ ٦٠ مليار دولار أى بواقع ١٦٤ مليون

دولاريومياً وبواقع ٦.٨ ملايين دولار فى كل ساعة .

وقد قالت مجلة الايكونومست إن دول الأوبك يمكنها أن تشترى كل الشركات المساهمة فى العالم خلال ١٥.٦ سنة بالسعر الحالى لأسهمها ، وشراء كل أسهم الشركات التى تتداول فى بورصة نيويورك خلال ٩.٢ سنوات . وشراء الذهب الموجود فى البنوك المركزية فى العالم خلال ٣.٢ سنوات بسعر الأوقية ١٧٠ دولاراً وشراء كل الاستثمارات الأمريكية الموجودة فى الخارج خلال ١.٨ سنة وشراء ثروة روكفلر فى ٦ أيام و ١٤ ٪ من أسهم شركة مرسيدس فى يومين .

وقد أنفقت المملكة العربية السعودية مليارى دولار على تسليح الجيش وقدمت ٥٠٠ مليون دولار للدول المواجهة من المنحة التى تعهدت بها فى مؤتمر الرباط وهى ٢,٣٥ مليار دولار ، وقدمت قروضاً للدول النامية غير العربية بلغت ١,٢ مليار دولار .

وتأتى إيران فى المرتبة الثانية فقد بلغت عوائدها البترولية ٢٠,٩ مليار دولار فى سنة ١٩٧٤ . ولقد بلغ متوسط نصيب الفرد من الدخل القومى فى الكويت ١٣ ألف دولار وفى قطر ١٤ ألف دولار وفى أبو ظبى ٢٤ ألف دولار .

وقد قدرت دول الأوبك مسئوليتها الأدبية عن الدول التى تأثرت بارتفاع أسعار البترول ، وهبطت إلى فئة جديدة تعرف « بالعالم الرابع » فأعطتها خصومات فى الأسعار وساعدتها فى تمويل مشاريعها فى التنمية بشروط سهلة .

تكتل فى الناحية الأخرى :

ومن الناحية الأخرى تكتلت الدول الصناعية الكبرى المستهلكة للبترول لتقف فى مواجهة منظمة الأوبك باسم وكالة الطاقة الدولية . وتضم هذه الوكالة دول السوق الأوربية المشتركة باستثناء فرنسا كما تضم الولايات المتحدة الأمريكية وكندا واليابان وسويسرا وأسبانيا وأستراليا ونيوزيلاندا والنرويج كمراقب . ويتمثل القصد من إقامة هذه الوكالة فيما يلى :

١ - خلق فائض مصطنع فى إنتاج البترول بغرض تخفيض سعره .

٢ - إرغام بعض دول الأوبك بسبب مشكلاتها المالية على تخفيض أسعارها .

٣ - تكوين احتياطى بترولى يكفى لتغطية الاستهلاك لمدة ٦٠ يوماً فى حالة الحظر .

٤ - تكوين صندوق برأس مال قدره ٢٥٠ مليار دولار لمساعدة الدول الأعضاء ، وذلك بتقديم القروض لمن تعاني عجزاً فى ميزان مدفوعاتها أو تتعرض لسحب مفاجئ من قبل الدول البترولية .

وقد ذهبت الولايات المتحدة الأمريكية إلى حد التهديد باستخدام القوة فى حالة وجود اختناق للاقتصاديات الغربية من قبل الدول البترولية ، ولا شك أن هذه المواجهة تقتضى من دول الأوبك :

أولا : مزيداً من التضامن ضد أى خطر يستهدف دولة من هذه

الدول وهو ماتقرر بالفعل فى مؤتمر قمة الأوبك فى الجزائر فى فبراير عام ١٩٧٥ .

ثانياً : برمجة إنتاج البترول لإحباط محاولة الضغط على الأسعار .

وحتى الدول المتقدمة لها مشاكلها :

مشاكل هذه الدول مشاكل حضارية فإذا نظرنا إلى الولايات المتحدة الأمريكية فإننا نجدها قد بلغت حداً رفيعاً من التقدم التكنولوجى وحققت تراكماً ضخماً من رأس المال والاستثمارات ومستوى عالياً من الإنفاق القومى . ولكنها تعانى من مشكلتين هما التضخم والبطالة . لقد واجه عدد كبير من الشركات أزمات شديدة فى تصريف منتجاتها فخفضت إنتاجها واستغنت عن كثير من عمالها . ويتشاءم بعض خبراء الاقتصاد فيتنبأون بأن البطالة قد تصل نسبتها قريباً إلى ٨٪ من مجموع القوى العاملة الأمريكية . وبذلك يكون هناك نحو سبعة ملايين ونصف مليون عاطل .

وعلى سبيل المثال فإن مبيعات السيارات قد انخفضت بمقدار ٢٣٪ فى عام ١٩٧٤ كما انخفض دخل هذه الصناعة بمقدار ٢٥٪ وقد ترتب على ذلك طرد ٤٠٪ من العمال .

وقد تزايد عبء الضرائب حتى تضاعف تسع مرات خلال ثلاثين سنة وبلغ ٣٧٪ من الدخل القومى فى عام ١٩٧٤ . وبعد أن كانت الولايات المتحدة مصدرة للبترول خلال الخمسينات أصبحت تستورد

نحو ٣٥,٣ مليار برميل وهو يمثل ثلث إمداداتها من البترول . ومؤدى هذا أنه لا بد للولايات المتحدة لكى تدفع مايقابل هذه الواردات من أن تنتج وتصدر ماقيمته ٢٠ ملياراً من السلع والخدمات . وما لم تنخفض أسعار البترول فإنها قد تضطر إلى تخفيض الكميات التى تستوردها منه أو تقوم بزيادة إنتاجها على حساب مخزونها .

أما عن البطالة فإن بلجيكا تعطى إعانات للمصانع التى تزيد حجم العمالة بخلق فرص جديدة للعمل بها ، وتقفل ألمانيا الغربية حدودها أمام العمالة التى تهاجر إليها من دول جنوب أوربا لإحداث التوازن بين القوى العاملة الموجودة وفرص العمل المتاحة حتى إن مئات الألوف من المهاجرين يواجهون مصاعب جمة بسبب خفض أجورهم وطردهم لإحلال المواطنين محلهم فيعودون إلى بلادهم ، ولكنهم يواجهون المصاعب نفسها بدرجة أكثر حدة وعمقاً .

وتعطى فرنسا إعانات لمصانع القطاع الخاص . وقد أعطت فعلاً مائتى مليون دولار لمصانع ستروين لتسد ديونها قبل أن تندمج مع شركة بيجو مع أن شركة ستروين تأتى فى المركز الثالث بين المنشآت الصناعية من حيث حجم البطالة بين عمالها .

وتقدر مجلة إيكونومست أن نسبة البطالة فى بريطانيا سترتفع فى سنة ١٩٧٦ إلى ثلاثة أمثال ماهى عليه الآن . وفى النمسا يصرف لكل عاطل ٣٨ دولاراً فى الأسبوع وهو مايقل كثيراً عن الحد الأدنى للأجور وهو ١٠٢ من الدولارات .

وقد بلغت نسبة البطالة فى تركيا ١٥ ٪ من القوى العاملة ومن المتوقع أن تتزايد بسبب عودة المهاجرين إليها وتحويلاتهم المالية كانت توازى حجم صادراتها فى سنة ١٩٧٤ .

والموقف فى إيطاليا بالغ الحرج حتى إنه إذا استمرت عودة المهاجرين أفواجاً إليها فستتعرض للانفجار . وفى أسبانيا بطالة . وفى البرتغال بطالة . وحتى اليابان بدأت البطالة تظهر فيها .

تجربة مشروع مارشال :

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية كانت جميع الدول الأوربية المتحالفة فى حالة اقتصادية سيئة وبدا واضحاً فى أوائل عام ١٩٤٧ أنها لن تنجو من الخراب إلا بمساعدة تأتى لها من الخارج .

وفى ٥ يوليو عام ١٩٤٧ ألقى جورج مارشال خطبته الشهيرة بجامعة هارفارد التى دعا فيها بلدان أوربا إلى العمل المشترك لتنمية نفسها اقتصادياً ومالياً وأعلن استعداد أمريكا لمساعدتها إذا وضعت برنامجاً للإنعاش على أسس أهمها :

١ - ألا تكون مساعدات أمريكا لها ارتجالية متناثرة ، بل يجب أن تكون هادفة لإيجاد علاج شامل وكامل .

٢ - التعاون مع أية حكومة تريد أن تعمل من أجل الإنشاء والتعمير . ومعارضة أية حكومة أو هيئة تسعى إلى عرقلة الإنشاء والتعمير .

٣ - على كل دولة أن تقدم بياناً بما تحتاج إليه وما تستطيع أمريكا

أن تفعله لمساعدتها .

٤ — أن تضع الولايات المتحدة مشروعاً مشتركاً بضم كل دول أوربا بمساعدة هذه الدول .

وهكذا لم يكن مشروع مارشال مجرد مسكّن وإنما كان برنامجاً طويل الأجل ، وقد تضمن الأساليب والإجراءات الآتية : .

(ا) زيادة إنتاج الدول المشتركة فيه عن طريق توفير الواردات اللازمة لها من معدات وسلع تموينية .

(ب) اتخاذ الإجراءات الداخلية بين الدول لإعادة الاستقرار المالى لها .

(ج) تنمية وتشجيع التعاون الاقتصادى الوثيق بين الدول المشتركة فيه وتقليل اعتمادها على التجارة الأمريكية .

وفى ١٢ أبريل عام ١٩٤٨ وافق مجلس الشيوخ الأمريكى على قانون التعاون الاقتصادى وخصص ٥,٥ مليارات دولار لهذا الغرض .

وفى ١٧ أبريل عام ١٩٤٨ اجتمع وزراء خارجية ١٦ دولة فى باريس وقرروا تكوين هيئة التعاون الاقتصادى الأوربى ، والترمت كل دولة بأن تضع برنامجاً مدته أربع سنوات للفترة من سنة ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٥١ والترمت منظمة التضامن الاقتصادى الأوربى بفحص وتنسيق المشروعات الداخلية فى البرامج مع مراقبة السياسة النقدية والمالية للدول الأعضاء .

وبعد انقضاء أجل المشروع زاد الإنتاج الأوربى زيادة ملحوظة فارتفع الإنتاج الصناعى بدول أوربا الغربية إلى ٤٠٪ فى عام ١٩٥١

عما كان عليه فى سنة ١٩٣٨ وزاد حجم التبادل التجارى بين دول أوربا الغربية بنسبة ٣٥٪ وزادت صادرات هذه الدول إلى العالم الخارجى بنسبة ١٠٪ .

المشروع العربى للتنمية :

إذا نظرنا إلى فكرة مشروع مارشال فإننا نرى أن الولايات المتحدة لم تقصد بها فائدة حلفائها فقط ، بل كانت تقصد أيضاً مصلحتها ، ويكفى أن حجم صادرات الولايات المتحدة بلغ فى سنة ١٩٤٧ حوالى ٢٠ مليار دولار مع أن حجم وارداتها لم يتجاوز ٨,٥ مليارات دولار مما يوجب عليها أن تمد يد العون لهذه الدول لتظل قادرة على التعامل معها .

وعلى غرار ما فعلت أمريكا فإنه يجب على الدول المصدرة للبترول تقديم المساعدات أو القروض إلى الدول المتخلفة فى إطار صندوق خاص للتنمية .

ويرى المؤلف أن يعمل الصندوق على تحقيق أغراضه بالوسائل الآتية :

(ا) خلق ميادين جديدة للاستثمار فى الدول الأعضاء من أجل تحقيق أقصى معدل للتنمية بها .

(ب) العمل على توجيه رؤوس الأموال إلى الاستثمار فى المشروعات التى تفيد منها الدول المشتركة .

(ج) إعداد الدراسات الشاملة عن المشروعات الإنمائية فى الدول

المشتركة فى الصندوق وتوفير الفرص اللازمة لتنفيذها .

(د) تقديم الخدمات الاستشارية وتقديم الخبراء اللازمين وتنظيم تبادلهم بين الدول الأعضاء .

(هـ) تنسيق وتمويل برامج المعونة الفنية التى تقدمها المنظمات العالمية ، بعد مراجعتها بواسطة مجموعة البنوك التى سيتم تمويل المشروعات من خلالها .

(و) تطويروسائل الإنتاج وتوفير إمكانياتها المادية والفنية وكذلك العمل على تنمية المهارات الفنية والإدارية .

ولضمان الأموال المستثمرة والمقترضة ينص المؤلف على أن تتم من خلال نحو ١٠٤ من البنوك العالمية الرئيسية تمثل الدول النامية والمتقدمة وهى معروفة على المستوى العالمى ومن خلال البنك الدولى بصفة مباشرة .

ثم للكاتب تعليق . .

لقد صدر هذا الكتاب كما صدر غيره من الكتب باللغة العربية عن دار نشر عربية . وفى رأيى أنه — لكى يحدث أثره المطلوب — يجب أن يترجم إلى الإنجليزية والفرنسية وأن ينشر على العالم الأوربى والأمريكى . فالموضوع ليس محلياً ولا عربياً فقط —كما يبدو لأول وهلة — وإنما هو يهم جمهرة المستثمرين من ناحية ، وجمهرة الدول النامية عربية وآسيوية وأفريقية من ناحية أخرى .

وحتى أكون صريحاً فى تعليقى فإنى أقولها كلمة لوجه الحق وهى أن

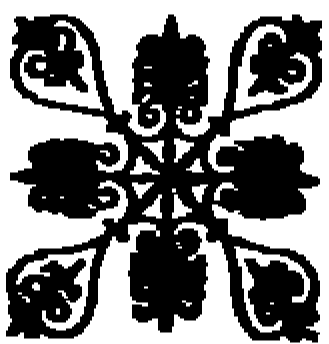
المستثمر العربي يتردد فى التعامل بأمواله مع أخيه العربى بطريق مباشر لأنه لايثق فى معلوماته التكنولوجية وإنما يثق فى وسيط أجنبي يأخذ الأموال من صاحب المال بشروط مجزية ويستثمرها عند من يحتاج إليها بعد دراسة متعمقة .

إن عقدة الخواجة « تمنع كثيرين من قول ما قلت ، ولكننى أرى مجالات الاستثمار فى حاجة إلى الأموال ، والأموال جاهزة ولكن المجالين فى حاجة إلى مأذون » والمأذون فى هذه المرة « خواجة » .

لقد أطلق سيد مرعى صرخته فى كتاب ، ولم تكن الصرخة هتافاً وإنما كانت أرقاماً وحقائق ومؤشرات ونتائج بطريق القياس ألم أقل لك من أول الأمر ياعزيزى القارئ إن الكتاب حاد العبارة ؟

التعاون الاقتصادى

بين الدول العربية



نحن الآن فى مستهل عام ١٩٧٦ ، وقد اشتدت قبضة الدول الأوربية على تجارتها الخارجية بعد السوق الأوربية المشتركة ، وغيَّرت أمريكا سياستها بعد تدهور الدولار ، فوضعت قيوداً كثيرة على حرية التجارة وحرية النقد . وأوربا وأمريكا واليابان ترسل وفوداً بعد وفود من رجال الأعمال ليتعرفوا على أذواق المستهلكين فى العالم العربي ، وعلى قدراتهم الشرائية ومقتضيات بيئاتهم وأجوائهم ومهنهم ، على حين يجلس العرب وراء انطباعات تراكمت بفعل السنين ، وخبرات تجمَّدت فأصبحت قيوداً على حرية التفكير .

لقد أصبح الأمر يقتضى من جانبنا موقفاً أكثر واقعية وأعمق أثراً لأسباب خمسة استجدت وهى :

١ - اتساع الفجوة بين معدلات النمو الحقيقية للإنتاج فى الدول الغربية والدول العربية نتيجة تطوير الأساليب .

٢ - اتجاه معدل التبادل التجارى لصالح الدول الأولى ، الدول الغربية ، إذ أن سلعها الإنتاجية مصنَّعة بالطبع ، وسلعها الاستهلاكية مصنَّعة بالكامل أو فى الأقل القليل نصف مصنَّعة .

٣ - زيادة قوة الاتحادات والتكتلات الاقتصادية بين الدول الأولى وتطوير أساليب التجارة الخارجية استيراداً وتصديراً ، من أسلوب التجارة الحرة ، إلى أسلوب الحماية والتوجيه ، مع تقييد حركة المدفوعات

الدولية بالرقابة على النقد ، ورفع أسعار الفائدة ، وعقد الاتفاقات الثنائية والمتعددة الأطراف ، ومنح التسهيلات الائتمانية .

٤ – اشتراط السداد بعملات معينة أو فى فترات زمنية محددة مما قد يجعله غير مناسب لإمكانيات الدول العربية خصوصاً وأن موازين مدفوعاتها قد تتسم بالعجز .

٥ – زيادة تحدى القوى الاستعمارية والعدو الصهيونى ورسمه لسياسات بعيدة المدى تستهدف القضاء على اقتصاديات الوطن العربي أو استنزافها .

العواطف والمصالح :

إن النوايا الطيبة ، والآمال العريضة ، والخطب الرنانة ، لم تعد تصلح لتحقيق التعاون بين الدول العربية فى مواجهة هذه العوامل المتقدمة ، فلا بد أن تحل المصالح فى البحث محل العواطف ، والأرقام محل الخطب والإمكانيات محل التمنيات . ولا بد أن يجلس الخبراء دائماً مع السياسيين .

إن من الظلم أن نطلب من دولة عربية أن تفضل إنتاج شقيقتها ولو كان أسوأ كثيراً فى النوع ، وأغلى كثيراً فى الثمن ، من سلع أوربا . ومن الخيال أن نطالب سوقاً مستهلكة بأن تنتظر الطعام من دولة عربية ولو كان لا يجد سبيله إلى ناقلته إلا بعد أشهر . ومن المبالغة أن نلوم بلداً عربيًا توقف عن تزويد بلد شقيق بالصادرات أو بالمال لأن الميزان التجارى بينهما تراكم فيه الأرصدة المدينة دون دفع .

إن بعض مصدرى المصاحف إلى شمال أفريقيا لا يعرفون حتى الآن أن القرّاء هناك متعودون على كتابة مختلفة للقرآن . ومنتجى السجاير قد يصدرونها دون إعلان عنها فى البلد المستورد جهلاً منهم بأن المدخن يستمد من صورتها الذهنية أضعاف ما يستمد من جودة تبغها . وصنّاع الأحذية يصدرون الفائض لديهم إلى الأسواق العربية ولو لم يكن مناسباً لها ، فهم قد يرسلونها برباط إلى بلاد حارّة يفضل أهلها الحذاء المكشوف « بالأستك » ليسهل خلعه عند الصلاة .

إن معظم الأسواق العربية مفتوح للسلع الأمريكية والأوربية واليابانية . وعلى السلع العربية أن تسمو إلى ما يقرب من مستوى سواها إذا أرادت الفوز بالمستهلكين فى هذه الأسواق .

اتفاقية الوحدة الاقتصادية :

لقد بذلت الجامعة العربية جهوداً متصلة حتى تم عقد اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية فى عام ١٩٦٤ ، وحتى عام ١٩٧٤ وحجم التبادل التجارى بين الدول العربية لم يزد خلال هذه السنوات العشر إلا قليلاً . فإذا قارنا هذه الزيادة الضئيلة بالزيادة الملحوظة فى حجم التجارة العالمية كان علينا أن نتوارى من الكسوف والخجل .

ذلك وما تزال دول أوربا — والغربية منها بوجه خاص — تحتل المكانة الأولى فى تجارتنا الخارجية : فأكثر من ٧٠٪ من صادراتنا وأكثر من ٦٠٪ من وارداتنا يتركز فى عشر دول على النحو التالى :

الدول المصدر إليها :

نسبة الصادرات إليها فى سنة ١٩٧٠ من إجمالى صادرات الدول العربية :

الدولة	
إيطاليا	١٥,٦٩
فرنسا	١٤,٣١
ألمانيا الغربية	٨,٠٢
المملكة المتحدة	٧,٦٢
اليابان	٦,٧٩
هولندا	٦,٢٠
الاتحاد السوفييتى	٤,٧٩
أسبانيا	٣,١٨
بلجيكا ولوكسمبرج	٢,٢٦
الولايات المتحدة	١,٧١

الإجمالى = ٧٠,٥٧ ٪

الدول المستورد منها :

نسبة المستورد منها فى سنة ١٩٧٠ إلى واردات الدول العربية :

الدولة	
فرنسا	١٣,٨٣
الولايات المتحدة	٩,١٢
المملكة المتحدة	٨,٣٩
ألمانيا الغربية	٨,٧٨
إيطاليا	٦,٦٩
اليابان	٥,٢١
الاتحاد السوفييتى	٥,٠٤
الهند	٢,٨٠
هولندا	٢,٤٧
سويسرا	٢,٤٢

الإجمالى = ٦٣.٧٥ ٪

ومعنى هذا أن أحسن دولتين فى التبادل التجارى مع العالم العربى هما إيطاليا وفرنسا .

نصيب العالم العربى
من تجارته الخارجية

أعدت الأمانة العامة لجامعة الدول العربية فى فبراير ١٩٧٣ بيانات إحصائية عن تجارة العالم العربي فى عام ١٩٧٠ ، أما سنوات ١٩٧١ و ١٩٧٢ و ١٩٧٣ فلا نعرف حتى الآن عن بياناتها شيئاً . وكيف نتصرف والبيانات هى روح التخطيط والتنفيذ والمتابعة وتقيم الأداء !

مهما يكن من شىء فإنه يتضح من أرقام سنة ١٩٧٠ أن صادرات الدول العربية كانت ٩٤٤٩ مليون دولار تمثل ٣,٤ ٪ من إجمالى قيمة الصادرات العالمية . وأن واردات الدول العربية ٧٧٨١ مليون دولار تمثل ٢,٦ ٪ من إجمالى واردات العالم . ومعنى هذا أن الدول العربية فى موقف ممتاز حيث تصدر أكثر مما تستورد فتحقق فائضاً فى ميزانها التجارى يعز على كثير من الدول المتقدمة .

ومع هذه النتيجة العامة فإن تبادل العالم العربى مع بعض الدول الأخرى يحقق لصالحه فائضاً ومع البعض الآخر عجزاً . ومن النوع الأول : إيطاليا وكوريا الجنوبية وهولندا وفرنسا واليابان وأسبانيا وألمانيا الغربية . ومن النوع الثاني : الولايات المتحدة وسويسرا والهند ورومانيا والصين الشعبية والسويد وأستراليا وإنجلترا .

والموقف يتحسن بصفة عامة لصالح الدول العربية . فقد كان متوسط

قيمة الصادرات العربية خلال الفترة من ١٩٦٥ إلى ١٩٦٨ ٣,١ ٪ من إجمالى الصادرات العالمية فأصبح ٣,٤ ٪ فى سنة ١٩٧٠ – كما قدمنا – ومع ذلك بقيت الواردات ٢.٦ ٪ كما كانت خلال الفترة الأولى . وستكون الصورة أكثر إشراقاً كلما تغيرت نوعية الصادرات من خامات إلى سلع نصف مصنّعة ، ثم من هذه إلى مصنّعة بالكامل . فما يزال البترول يمثل نحو ٧٠ ٪ من إجمالى الصادرات العربية . والقطن الخام نحو ٧ ٪ والأرز نحو ١ ٪ على حين انخفضت الصادرات العربية من غزل القطن ونسجه من ١.٥٩ ٪ فى عام ١٩٦٨ إلى ١,٥٣ ٪ فى عام ١٩٧٠ والسجاير من ٤٢,٠ ٪ إلى ٢٠,٠ ٪ .

وتدل إحصاءات الأمانة العامة على أن حجم التبادل التجارى بين الدول العربية كان ٦,٩ ٪ عام ١٩٦٩ فأصبح ٧,٦ ٪ فى عام ١٩٧٠ ولم يزد نصيب الدول العربية من إجمالى الصادرات العربية إلا من ٥,٦ ٪ فى سنة ١٩٦٩ إلى ٦,١ ٪ فى سنة ١٩٧٠ ، ولم يزد نصيبها من إجمالى الواردات العربية إلا من ٨,٦ ٪ فى عام ١٩٦٩ إلى ٩,٦ ٪ فى عام ١٩٧٠ .

ومما يستوقف النظر أن النسبة المئوية لصادرات الدول العربية إلى لبنان قد انخفضت من ١ ٪ فى سنة ١٩٦٩ إلى ٨٨, ٪ فى سنة ١٩٧٠ . وأن صادرات لبنان إليها قد ارتفعت فى الوقت نفسه من ٢,٤٤ ٪ إلى ٢,٧٥ ٪ . وكذلك زادت صادرات الكويت من ٥٢, ٪ إلى ٦١, ٪ ونقصت وارداته من ٧٠ ٪ إلى ٣٢, ٪ على حين زادت نسبة صادرات مصر من ٤٦, ٪ إلى ٥٠, ٪ وزادت وارداتها من ٩٦, ٪ إلى ١,٠٨ ٪ .

دلالة هذه الأرقام :

إن العالم العربى ينقسم اليوم أساساً إلى منطقتين كبيرتين كما قلت فى مقال سابق فى العربى إحداهما : زراعية تتألف من (مصر وسوريا والسودان وتونس والمغرب والأردن) .

والأخرى : بترولية وتضم (السعودية والكويت وبلاد الخليج والعراق وليبيا والجزائر) .

وهذا لا يمنع من وجود البترول فى المنطقة الزراعية او العكس ، ولكن الصفة الغالبة تبقى كما قدّمت .

وكثافة السكان فى البلاد الزراعية أكبر منها فى البلاد البترولية على عكس مستوى الدخل .

يترتب على هذا أن البلاد التى يرتفع فيها الدخل تزيد فيها التطلعات إلى الاستهلاك لتحقيق حياة أفضل واستخدام سلع أجود والاستمتاع بخدمات أحسن ، فتتجه إلى السلع والخدمات الأوربية والأمريكية واليابانية . والدول التى ينخفض فيها الدخل تزيد فيها التطلعات إلى التصنيع فتتجه إلى حيث تجد الآلات المنتجة وهذه غير موجودة فى العالم العربى .

ما العمل إذن ؟ إن العمل مرسوم فى اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية وهو :

١ – تحرير التجارة بين البلاد الأعضاء توطئة لإنشاء اتحاد جمركى بينها

٢ – حرية انتقال الأشخاص ورءوس الأموال .

٣ – حرية التملك والإيصاء والإرث .

٤ – توحيد أو تنسيق مختلف التشريعات الاقتصادية والاجتماعية اللازمة للتكامل الاقتصادى .

٥ – تنسيق الخطط الاقتصادية بما يكفل استثمار الموارد استثماراً أوفى ، وبما ينهض بالصناعة والزراعة وشئون المواصلات .

وقد اجتمع مجلس الوحدة فى شهر يوليو عام ١٩٧٣ فى القاهرة وأصدر توصيات منها :

١ – تنسيق الخطط الاقتصادية فى الدول الأعضاء والسير بها جنباً إلى جنب مع تحرير التجارة بينها .

٢ – تيسير العضوية بالسوق العربية المشتركة بحيث يقوم الأمين العام لمجلس الوحدة بوضع أسس متدرجة للانتساب لها .

٣ – تصفية الاستثناءات والقيود المتبقية والمفروضة على التبادل التجارى بين الدول الأعضاء .

٤ – دراسة إمكانيات إقامة اتحاد عربي للمدفوعات ، وتخصيص حصة متزايدة من النقد الحر فى كل دولة عربية للاستيراد من الدول الأعضاء .

وإننا لنتمنى أن توضع هذه القرارات موضع التنفيذ خلال السنوات القادمة التى نرجو أن تشهد انضمام النصف الآخر من الدول العربية إلى الاتفاقية أو فى القليل توقف المقاطعات الاقتصادية بين بعض الشقيقات .

البترول وسيلة التنمية :

يقدر المخزون من البترول خارج البلاد الشيوعية بنحو ٥٠٠ بليون برميل . ومن هذه الكمية ٣٠٠ بليون فى العالم العربى وحده ! ولكن هذه الحقيقة هى التى تدعو الشركات الأمريكية وغيرها إلى أن توجه ٩٥٪ من عمليات بحثها عن البترول إلى خارج الشرق الأوسط . وإنها الآن نشيطة فى أندونسيا وأستراليا والشواطئ الكندية والأمريكية وبحر الشمال ، ويقتصر عملها فى الشرق الأوسط على زيادة المستخرج من الآبار المكتشفة .

ذلك أن أمريكا بدأت تحس بنقص الطاقة عندها ، وهى لا تريد أن تعتمد اعتماداً كلياً فى تعويض النقص على الشرق الأوسط ، فلو ظل الحال على ما هو عليه الآن فالمقدَّر أن الولايات المتحدة ستحتاج فى سنة ١٩٨٠ إلى استيراد بين ثمانية ملايين وأحد عشر مليون برميل يومياً من الشرق الأوسط .

ويكفى أن تتوقف دولة من الدول العربية الكبرى المنتجة للبترول وهى السعودية وإيران والعراق واتحاد إمارات الخليج والكويت وليبيا عن تزويد أمريكا بالبترول لكى تسبب لها أزمة الطاقة ، ويكفى أن تتوقف دولتان لإحداث فزع فى الصناعة الأمريكية .

والمقدر أن إنتاج البترول فى العالم العربى سيصل فى سنة ١٩٧٥ إلى ما يلى : —

	الإنتاج بآلاف البراميل يومياً	الدخل ببلايين الدولارات سنوياً
السعودية	٨٥٠٠	٥,٤
الكويت	٣٥٠٠	٢,٢
العراق	١٩٠٠	١,٢
أبو ظبي	٢٣٠٠	١,٥
الإمارات الأخرى	١٨٠٠	١,٠
ليبيا	٢٢٠٠	٢,٠
الجزائر	١٢٠٠	١,١
	٢١٤٠٠	١٤,٤

هذا على أساس عدم ارتفاع السعر وخصوصاً بعد تدهور الدولار .

والمقدر أن الإنتاج سيصل فى سنة ١٩٨٠ إلى ما يلى :

	الإنتاج بآلاف البراميل يومياً	الدخل ببلايين الدولارات سنوياً
السعودية	٢٠,٠٠٠	٢٥,٦
الكويت	٤,٠٠٠	٥,٠
العراق	٥,٠٠٠	٦,٤
أبو ظبي	٤,٠٠٠	٥,٠
الإمارات الأخرى	٢,٠٠٠	٣,٢
ليبيا	٢,٠٠٠	٣.١
الجزائر	١,٥٠٠	٢,٣
	٣٨,٥٠٠	٥٠,٦

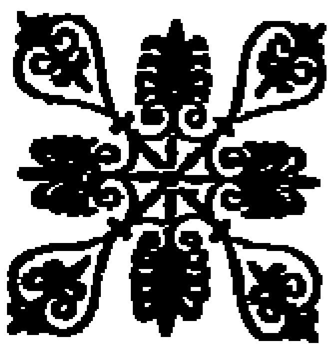
وهذا أيضاً على أساس أن منظمة (أوبيك) سوف لا تطالب برفع السعر كنتيجة لتخفيض سعر الدولار .

فإذا كان هذا هكذا فهلا فكرّت الدول المنتجة للبترول فى تخصيص جزء من دخلها للاستثمار فى العالم العربي ؟ هلا فكرّت فى إنشاء بنك عربي للتنمية ؟ وهلا فكرّت الدول الزراعية فى تقديم الضمانات الكفيلة بالحفاظ على رءوس الأموال العربية المستثمرة فيها وبإعطائها عائداً مجزياً ؟ —

كفى كلاماً . . ولنجعل التكامل الاقتصادى مبدأ تجارياً لا دعوة عاطفية .

في عصر الذرّة وغزو الفضاء

تتغلّب المعرفة على الخبرة ويصطدم المبدأ بالسّلوك



أول المعرفة الإدراك ، والإدراك يأتى من بوابات الحس . فإذا امتزج الحس بالتجربة أصبح معلومة . ومن المعلومات تتكون المعرفة .

المعرفة والثقافة :

الحواس تتلقى المعلومات فتكون المعرفة ، والمعلومات تتفاعل مع الملكات فتكون الثقافة .

إن من الفلاسفة من يعرف كثيراً من المعلومات ولذلك يقدر على تعليل كثير من الظواهر العلمية ، ولكن معلوماته تبقى فى استقلالها عنه طافية فوق ذهنه فلا تتفاعل معه .

ومن الأميين من لهم فضل كبير على البشرية مثل « محمد » صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من ساد فى قومه مثل عبد الحميد شومان (مؤسس البنك العربى ورئيس مجلس إدارته) ، ومنهم من حقق لنفسه خيراً كثيراً مثل بعض التجار .

إن المعرفة كم والثقافة كيف . ولا تصبح المعرفة ثقافة إلا بعد أن تتكيف مع استعدادات الشخص وظروف البيئة . فالمعرفة من أكبر أدوات الثقافة ، ولكنها ليست مرادفاً . ذو المعرفة جامع معلومات ، والمثقف متوازن العقل يجيد الحكم على الأشياء ، ويحسن استخلاص النتائج منها . إن عنده استعداداً ذهنياً لانتقاء أحسن الحلول من بين البدائل .

وانسياقاً وراء هذا المعنى أقول إن الفن ثقافة قبل أن يكون معرفة فالدكتور الحفنى كان عالماً موسيقياً ، ولكنه لم يكن موسيقياً مثل محمد عبد الوهاب . وبيكاسو وصلاح طاهر وبيار صادق لا يحكمون عقولهم فى رسم اللوحات قبل أن يحكموا أمزجتهم . والنحات الذى نحت تمثال (رياض الصلح) فى بيروت لم يخرجه على هذا النحو كنتيجة حتمية لبحث علمى ، وإنما أخرجه من وحى انفعال فنى طارئ . وعبد السلام شريف (مدير معهد التذوق الفنى بالقاهرة) انتقد زخرفة شارع الهرم وبرر انتقاده بأن القيشاني لا يستخدم إلا فى حمام أو عند شربتلى ، وهو اتجاه فنى وليس بحثاً علمياً .

الخلاصة أن الثقافة غير المعرفة . . وإن كان الفصل بينهما صعباً كما رأينا .

المعرفة والسلوك :

والمعرفة غير السلوك . فالمعرفة معلومات يغذى بعضها بعضاً . وهى مقدمات عقلية تؤدى إلى نتائج منطقية . أما السلوك فهو نزوع : قد يكبته العقل بعض الوقت أو يخفف منه ، ولكن النزوع يظل مستكناً فى اللاشعور يبحث عن فرصة للانطلاق . ومتى انطلق ترك للعقل أن يبرر تصرفه فيختلق له المسوغات لتصلح أسباباً .

إن السلوك هو الشجاعة أو الجبن . هو الكرم أو البخل . هو الرزانة أو الحمق . ولكن المعرفة هى التى تكتب النجاح للعالم فى معمله ، وللفيلسوف

فى بحثه ، ولعالم الفضاء فى إطلاق مركبته .

ومعظم القادة ينجحون بالسلوك أكثر مما ينجحون بالمعرفة ، فنابليون وهتلر وموسولينى وستالين ومصطفى كامل وسعد زغلول ورياض الصلح وجمال عبد الناصر لم يكونوا أعلم أقوامهم وإنما كانت شجاعتهم هى التى جعلت منهم قادة . ولعل عبد الخالق ثروت وإسماعيل صدقى وعلى ماهر كانوا أعلم من سعد زغلول ، ولكنه تفوق عليهم لأنه كان أكثر منهم وطنية وشجاعة .

على أن كلا من المعرفة والسلوك لا غنى له عن الآخر . فالمعرفة لا تستغنى عن السلوك ، لأنه هو الذى يصوبها نحو ما تريد ، وهو الذى يكفيها ليلائم بينها وبين أهدافها . وكذلك لا يستغنى السلوك عن المعرفة . فالسلوك من غيرها طيش ، بل هو انفعال حيوانى يصدر عن غريزة دون أن يأخذ جرعة من العقل تؤصله وتحدد مساره .

وإذا كانت المعرفة بطبيعتها موضوعية تقوم على قواعد ثابتة ، فإن السلوك ذاتى يتقلب بتقلب الظروف والملابسات .

إن المعرفة سكون والسلوك حركة . ولذلك لا تتغير المعرفة بتغير الأحداث . على حين تفرض الأحداث نفسها على السلوك . وهذا القول نفسه هو من قضايا المعرفة لأنه ينبثق من منطقها . وما دام كذلك فهو قابل للتأييد وللتنفيد ، وهذه القابلية تجعل المعرفة مرنة تحتكم إلى العقل ولا تستبد باتجاهها كالسلوك حين يصدر عن انفعال .

المعرفة والمعطيات :

إن المعطيات تصل إلى من يستقبلها عن طريق السمع أو البصر أو الشم أو الذوق أو اللمس أو عن طريق اثنين أو أكثر منها . وهى فى حاجة إلى الفهم لكى تتفاعل مع التجربة فتتحول إلى معرفة . وقديماً قال « الجاحظ » فى وصف إنسان غبي :

يسمع غير ما قيـــل
ويفهم غير مـا سمـع
ويكتب غير مـا فهم
ويقرأ غير مـا كتب

إن المعرفة الحقة تقتضى التدقيق فى استقبال المعطيات ، وتستلزم فحصها وتقليبها ومقارنة بعضها ببعض : القديم منها والجديد ، قبل ضمها إلى حصيلة المعارف التى هى رأس مال المفكر .

والإنسان الذى لا يشبع من المعرفة تزداد معارفه بمضى الزمن فتزداد مقدرته على استيعاب كل جديد لأن نسبة ذكائه المكتسب تتعاظم بتعاظم المعارف التى تكونه فيقل الوقت الضرورى لقراءة كتاب أو حل مشكلة ، وبذلك تتسع إحاطة الإنسان بالأشياء شيئاً فشيئاً فى متوالية هندسية .

وبما أن المعطيات تحتمل الصدق والكذب فإن على مستقبلها أن يستوثق من صدقها بالرجوع إلى مصدر آخر على الأقل لا علاقة له بالمصدر الذى تلقاها عنه . إن مرسل المعطيات يتأثر ببيئته ومزاجه ومصلحته دون

أن يشعر ، فهو فى حديثه أو كتابته موضوعياً بحتا . وأقصى ما ننتظره منه أن يتمتع بمرتبة عالية من التجرد .

ومن الناحية الأخرى قد لا أذهب بعيداً إذا قلت إن المعطيات لا تترك بالضرورة نفس المحتوى الذى أراده مرسلها ما دام مفهومها النهائى يتوقف على ثقافة من يستقبلها ، فهى قد تتطور فى معناها بمجرد أن تنتقل من شخص إلى شخص .

لقد قال علماء الإدارة : إن المدير لا يستطيع أن يعتمد اعتماداً كلياً على التقارير التى تصله من مرءوسيه لأنها تتلون بلون كل منهم شاء أو لم يشأ ، فعليه – لكى يسمع ويرى بنفسه – أن يتجول فى منشأته وأن يحتك بالعاملين وبالجمهور ليعرف « الواقع » .

ولكننا نعود فنقول إن المدير يترجم ما يسمعه وما يراه فى ضوء تجاربه الشخصية وهى غير محايدة ، فحكمه لا يمكن أن يكون مضبوطاً وهو يقيسه بمسطرة هذه التجارب .

وبالمثل لا يستطيع المرء أن يثق فى المنطق وحده ، فالمنطق صناعة تحق الحق وتبطله ، والعبرة فى النهاية بمهارة المنطيق . وكثيراً ما يستمع القاضى لوكيل النيابة فيقتنع بأن المتهم مجرم ، ثم يستمع للمحامى عنه فيقتنع بأن المتهم برىء ، وقد يحكم فى النهاية عن انطباع يستريح له ضميره لا عن معرفة تتفق مع الحقيقة .

بين العلم والخبرة :

تلقينا ونحن شباب أول درس من أستاذنا وهو أن مهمة الجامعة هى أن تعلمنا كيف نتعلم ، فنحن نتلقى العلم فيها ولكننا نحتاج فى تطبيقه إلى التجربة . وخرج الطبيب فوجد أنه يفتح الدمل فيمتلئ بعد ذلك بالصديد ، وخرج المهندس فوجد أنه يقيم الحائط فلا يلبث أن يميل وخرج التجارى فلم يدر إن كان الاعتماد الذى لا رجوع فيه يفتح بمفتاح أو ببرقية إلى بنك آخر .

لقد وجد الجميع أن ما قاله الأساتذة صحيح ، فقد قدم العلم لهم قواعد عامة تصح فى مجموع الحالات ولا تصح فى جميعها ، وعلى كل منهم أن يطور القاعدة ويطرقها فى ضوء تجاربه قبل أن يعملها لتلائم كل حالة بخصوصها .

وانطلاقاً من هذا المفهوم طورت المعاهد برامجها وأفسحت فى وقت الدراسة للمعمل وللورشة والمشرحة ، واشترطت مجامع المحاسبين أن يتدرب الطالب ثلاث سنوات عند أحد المحاسبين المجازين ، ومجامع الإعلان أن يتدرب فى إحدى وكالات الإعلان المعتمدة . . وهكذا . بل اتجهت بعض الجامعات اتجاهاً عملياً فظهرت فى أمريكا كلية الأعمال (Faculty of Business) وظهـرت فى مصر جامعة حلوان التطبيقية .

ثم تواضع الناس على التفرقة بين رجل القانون والمحامى ، وبين أستاذ الإدارة ورجل الأعمال ، وبين أستاذ التربية والمربي . يريدون بذلك

أن الأوائل علماء والآخرين ممارسون .

وإن أنس فلست أنسى بحثاً اجتماعياً قام به مركز علمى فى القاهرة فوجد أستاذاً كبيراً حاصلاً على الدكتوراه من أمريكا فى محاربة الشواذ طلق امرأته الأولى لأنه كان يعد رءوس الثوم فى المطبخ فوجد واحدة ناقصة . وطلق امرأته الثانية لأنه كان قد عاقب ابنته منها بالوقوف إلى جانب الحائط ثلاث ساعات مرفوعة اليدين وانصرف إلى عمله ثم تعمد الرجوع قبل انتهاء مدة العقوبة فوجد أمها قد أفرجت عنها بعد أن رأت إعياءها . ووجد المركز فى هذا البحث أن أحد أساتذة التربية قد فشل فشلا تاماً فى تربية أبنائه الثلاثة فأكبرهم رسب ثلاث مرات فى الشهادة الإعدادية ، والثانية مهتزة الشخصية ، والثالث ناجح لأنه كما قال ثائر على تعاليم والده .

والواقع أن العلم هو حصيلة خبرات كثيرة انصبت آخر الأمر فى قواعد ، ولذلك قالوا إن القاعدة الصحيحة هى التى تصح عند التطبيق (Good Theory is good Practice) ولـكن العلم يبقى مع ذلك فى برجه العاجى ما لم يتفاعل مع التجربة المتجددة ليصبح خبرة .

وهنا يجب التفرقة بين العلوم الطبيعية كالحساب ، والعلوم السلوكية كالاقتصاد ، فالأولى تقرر قواعد مضبوطة تقول : إننا إذا أدرنا آلة بسرعة كذا فى الساعة لمدة كذا ساعات فإنها تخرج لنا فى آخر الأمر كذا متراً من القماش . على حين تقرر الثانية اتجاهات تقريبية تقول : إننا إذا رفعنا ثمن السلعة أو الخدمة فإن من شأن الطلب عليها أن ينخفض . وتأسيساً على هذا تبدو الحاجة ملحة إلى العلم فى الحالة الأولى ، وتبدو

الحاجة ملحة إلى الخبرة فى الحالة الثانية لأن الضبط يستغنى بنفسه إلى حد كبير عن التجربة ، والتقريب لا يجد بداً فى سد نقصه من الاعتماد على بصيرة الخبرة .

لقد بقيت الخبرة مقدمة إذن على العلم ، حتى جاء عصر الذرة وغزو الفضاء وهو عصر لم يكن استمراراً لما سبقه من عصور ، وإنما أصبح حضارة مستقلة متقدمة ، أنشأها العلم ولم يكن للخبرة فيها نصيب كبير .

لقد انتقلت البشرية من عصر الطائرة إلى عصر الصاروخ فوصلت أخيراً إلى القمر ، وهكذا أصبح الوالد عاجزاً عن أن يتابع ابنه لينفعه بخبرته . ولذلك انعقد أخيراً مؤتمر للهيبيين فى إحدى العواصم الأوربية ، فأوصى الأبناء بأن يهتموا بتعليم آبائهم ليوجدوا جسراً من التفاهم بين الجيلين . وليس أدل من هذا على انتصار العلم على الخبرة .

بين المبدأ والسلوك :

ولما انتصر العلم بترتيب النتائج على المقدمات بدا على الناس عزوف عن التسليم بمبادئ الأخلاق إلا إذا كان لها مبرر واضح من المصلحة الفعلية ، فاصطدمت الأرقام بالغيبيات ، وتحدى الواقع الروحانيات ، وتصدى رجال الآخرة لرجال الدنيا . . . ولا تزال المعارك ناشبة بين الفريقين .

لم يعد الصدق عند الناس منجياً فى السياسة والأعمال . ولم تعد النظافة من الإيمان كواقعة منشئة ، وإنما أصبحت ماء نقياً ومنظفات صناعية . ولم يعد التناسل مباحاً كما كان ، وإنما أصبح خاضعاً لقوانين

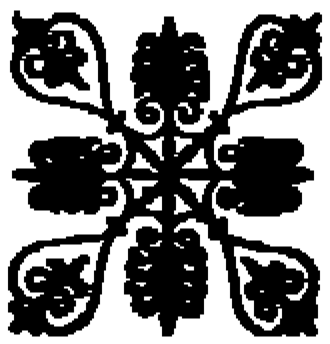
وضعية تنظمه فى كثير من الدول ، ثم تطور مفهوم الجريمة فعبر الشاعر العربى عن ذلك فى سخرية حين قال :

قتـل امرئ فى غابـة
جريمـــة لا تغتفـر
وقتـــل شعب آمـن
مسألـة فيهـا نظر !

وهكذا انقلبت المفاهيم بسرعة الصواريخ ، فتغلب العلم على الخبرة ، واصطدم المبدأ بالسلوك . وإذا كان غزو الفضاء يهدف إلى الخير فإن الذرة تهدد أمن العالم . والبشرية بين هذا وذاك مزدوجة الشخصية تقلب أنظارها بين واقعها على الأرض وأملها فى السماء عسى أن يكتب الله لها الهداية وهى تجرى فى هذه المظاهرة العلمية الصاخبة .

العلاقات العامة

هى علم الحياة



قد يبدو هذا العنوان غريباً لأول وهلة ولكنه صحيح .

إن العلاقات العامة ، علاقات ما بين الناس والناس ، تدس اليوم فى أعماقنا انطباعات لا نعرف مأتاها ولكننا نسلم بصحتها . حتى لأصبحت هى الأصل والعلوم السلوكية هى التطبيق .

إن العلاقات العامة بين المعلم والتلميذ تربية Education، وهى بين المنتج والمستهلك إعلان Advertising ، وهى بين البائع والمشترى أسلوب من أساليب البيع Salesmanship ، وهى بين الحاكم والشعب سياسة Politics ، وهى بين السفير والدولة التى يعمل فيها دبلوماسية Diplomacy، وهى بين الطبيب النفسانى ومرضاه علم نفس Psycholgy ، وهى بين الناس جميعاً آداب Etiquette

ولكن كليات التجارة فى الجامعات درجت على أن تحصر الكلام عن العلاقات العامة Public Relations فى إدارة الأعمال Business administration مع تطبيقها فى مجالين فسيحين .

أولهما : علاقة الإدارة بالعاملين فى المنشأة ، صناعية كانت أو تجارية أو غير ذلك .

ثانيهما : علاقة الإدارة بالعملاء .

وفى هذين المجالين نحصر كلامنا فى هذا المقال .

١ – علاقة الإدارة بالعاملين :

كان من أثر التضخم فى حجم المشروعات بعد الثورة الصناعية والميكنة أن استقلت الإدارة بنفسها عن رأس المال وحلت النظم الإدارية والحسابية والمالية محل الملاحظة الشخصية . واقتضت التجمعات الكبيرة للعاملين إيجاد تفاهم بينهم أساسه الرضى عن حالهم وعن معاملة المشرفين لهم ، فهم كمن يعزفون على آلات مختلفة ، ولكنهم لكى يرسلوا أنغاماً متناسقة ، لابد أن يعملوا على نوتة واحدة ، ولو سار كل منهم على هواه لأصبحت موسيقاهم نشازاً .

وبتعبير أوربي هم يتحركون فى حلبة للرقص . وعلى كل منهم أن يتحرك مع الموسيقى – وهى تمثل السياسة العامة – وأن يرعى الأصول فلا يدوس على أقدام الراقصين والراقصات فى الحلبة .

ولتحقيق هذا التفاهم لابد أن يفهم كل عامل سياسة المنشأة التى يعمل فيها . ومن حقه أن يعرف بالتحديد الهدف الذى من أجله يقوم بالعمل الذى يكلف به . ولكى ندرك أهمية هذه المعرفة نسوق مثلا يتكرر فى كل يوم : فلو سار أحدنا ليبلغ غاية محددة كقنطرة أو متحف أوحديقة فإن هذه الغاية تشده فيجد فى سيره حتى يصل إليها . أما إذا خرج على غير هدى ليمارس رياضة المشى فإن الملل يدركه بعد قليل ويشعر بالتعب .

ولا بد أن يقتنع العاملون بأن جهودهم مقدَّرة فإن فى نفوسهم مركباً اسمه « أنا Ego » ، وعلى المدير أن يحسب حسابه ليغدكل منهم نفسه مسئولاً

عن المنشأة . وتحقيقاً لذلك لا يصح أن يحتكر المدير فضل النجاح لنفسه ، وإنما يُرجع منه قسطاً كبيراً لمعاونيه .

وحبذا لو اقتنع العاملون بأن المدير يهتم شخصياً بمصالحهم ومشاكلهم ليقوم التعاطف (Sympathy) بينه وبينهم . ومن ذلك أن يعود مريضهم ويُعزى عن مصابهم ويهنئهم فى المناسبات السعيدة . وقد لا يكون هذا الاهتمام مقصوراً على أشخاص العاملين بل يتعداهم إلى بيوتهم فيسعى المدير - كلما وسعه ذلك - إلى مساعدة العامل على تهيئة مكان لابنته الصغيرة فى المدرسة ، ويقرضه إذا احتاج فى محنة . . .

وأخيراً لا بد من إحساس العاملين بأنهم يشاركون فى اتخاذ القرارات ، فإذا عقدت لجنة لبحث موضوع فإن رئيسها يكون آخر المتكلمين . إنه يدير الجلسة والحوار فيبدأ بأصغر الأعضاء مركزاً ، ثم بمن يكبره وهكذا . حتى إذا انتهى الجميع من إبداء آرائهم راح يلخصها ليبرهن على أنه استوعبها ، ثم يبدى ما يعن له من تعقيبات على كل موضوع بما لا يخل باحترام من تناوله ، وينتزع القرار بما دار فى الجلسة ثم يشكر الحاضرين قبل أن يعلن فضها .

وإنى أعتقد أن الذين يضحون بمصلحتهم الشخصية فى سبيل المصلحة العامة قلة من الناس ، فأكبر ما نطلبه منهم هو التوفيق بين المصلحتين . ومن هنا تنشأ الحاجة إلى الحوافز الإيجابية والحوافز السلبية - أى إلى الثواب والعقاب - لتغليب نوازع الخير على نوازع الشر . وعلى المدير أن يربط الحوافز بأرقام الإنتاج حتى لا تثير الحقد فى نفوس من يحرم منها وحتى تجىء عادلة

فلا تصدر عن مجرد رأى شخصى .

ومما يتصل بالحوافز القضاء على أسباب الشكوى . فقد ثبت من الاستقصاء أن ارتفاع الأجر ليس هو السبب الأول فى استقرار العاملين وولائهم ، وإنما هو ما يحصلون عليه فى أعمالهم من مكانة بين الناس Prestige إنى أذكر محرراً فى صحيفة قاهرية كبيرة عرضت عليه صحيفة أخرى منذ ثلاثين سنة أن يعمل فيها بضعفى مرتبه فرفض العرض وفضَّل البقاء فى مكانه .

الحزم غير العنف :

يخطئ كثير من المديرين حين يظنون أن مهمتهم « الضبط والربط » فهم يعملون على أن يعرفوا بالشدة ليهابهم العاملون . وفاتهم أن العنف يصدر عن ثورة الأعصاب لا عن صوت العقل . وهو يولد الخوف ولا ينشئ الاحترام . إن المدير الحازم لا يقول للعامل « أنت مهمل » وإنما يحكم على عمله بأن فيه إهمالاً . والمدير الحازم هو الذى يضطر إلى فصل عامل ، ومع ذلك يتمنى له التوفيق فى مستقبل حياته وهو يودعه . لقد قدَّم يوماً أحد العاملين إلى رئيسه طلباً بسلفة بحجة أن والدته قد توفيت ، وكان الرئيس يعرف أنها توفيت مرة قبل ذلك : فكتب على الطلب « لك عزائى مرَّة ثانية » وأعاده إليه وهكذا يعرف الرئيس الحازم هدفه فينطلق إليه . أما الرئيس العنيف فهو ينفس عن أعصابه ولا يفكر بعقله .

المبالغة فى العلاقات العامة :

يقرر علماء الإدارة أن الكفاية بدون علاقات عامة قد تصبح شراً مستطيراً إذا انحرفت عن خدمة المنشأة إلى مهاجمة المديرين . ولكن المبالغة فى العلاقات العامة قد تحيل المنشأة من مؤسسة إنتاجية إلى مؤسسة علاجية لعمالها . لقد ثبت أن الروح المعنوية المنخفضة بين العاملين تخفض الإنتاج ، ولكن ثبت أيضاً أن الإنتاج قد ينخفض برغم ارتفاع الروح المعنوية ، إذا كانت الآلات قديمة والمواد الأولية سيئة . فالحق وسط بين هذين الباطلين . وإذا كان من واجب المنشأة أن تعنى بالعاملين فيها ، فإن من واجبهم أن يتفانوا فى خدمتها .

المعلومات والتعليمات :

لقد أصبحت اللامركزية ضرورة إدارية بعد تضخم المشروعات ، وأصبح الترابط بين أجزاء المشروع أكثر ضرورة . ومن هنا ظهرت أهمية المعلومات والتعليمات . فالحصول على المعلومات الضرورية للعمل حق لكل عامل ، وله أن يستقيها من جميع الأقسام . أما التعليمات فليس من حق أحد أن يعطيها فى كل قسم إلا رئيسه .

والاقتراحات كالمعلومات حق لكل عامل . ولا يصح أن يضار عامل إذا جاء اقتراحه ساذجاً أو منقوصاً . أما إذا جاء نافعاً فمن الخير أن يُتبع بمكافأة مناسبة . إن مديراً كان يوماً يستشير مهندس الدار فى فرش

أرض الحاسب الإلكتروني بالمطاط فوافق المهندس على ذلك ، ولكن عامل النظافة كان موجوداً فعلق قائلاً : وماذا نفعل بالباب وهو « سيكوريت» قُصَّ محكماً ليمنع تسرب الهواء المكيف ، وتعلية الأرض تمنع فتحه وإقفاله ؟ هكذا تنبَّه العامل لما لم يتنبَّه له المهندس لأن الموضوع أدخل فى مهنته .

ولو شجعت الإدارة عمَّالها على أن يقترحوا لجاءتها آراء بنَّاءة ممن يمارسون الأعمال ولا يسمعون عنها .

٢ – علاقة الإدارة بالعملاء :

تحرص المنشآت على أن تبقى صورتها بين عملائها محبَّبة إلى نفوسهم بعيدة عن شبهة الاستغلال . ومن ذلك ما فعلته مؤسسة فورد الأمريكية حين أنشأت Ford Foundation للأعمال الخيرية ، وما فعلته مؤسسة روكفلر. ومن المنشآت ما يمنح الجوائز والكؤوس فى لعب الكرة ويقيم المستشفيات والمعاهد العلمية العامة . ومنها مثل « أرامكو» ما يصدر صحيفة جيدة الطبع والإخراج تشرح للشعب السعودى ماتؤديه له من خدمات .

وتتضح وظيفة العلاقات العامة من تعريف دائرة المعارف البريطانية بأنها « مظاهر النشاط المتصلة بتفسير وتحسين العلاقات القائمة بين منظمة أو فرد وبين الجمهور» ، كما تتضح من تعريف دائرة المعارف الأمريكية بأنها الفن الذي يقوم على التأثير والتعبير ، بشخص أو فكرة أو جماعة ،

من أجل أن يعترف بأنها تقوم لخدمة مصالح الجمهور وأنها تستفيد من وراء ذلك . فالعلاقات العامة كما تراها الدائرتان هي علاقات الجمهور .

والاتصال الناجح به يقتضي توافر العناصر الآتية :

١ – دراسة خصائص الجمهور الذي يراد الاتصال به .

٢ – تحديد نوع الانطباع الذي يراد نقله إلى نفوسهم .

٣ – اختيار الوسيلة التي يتم بها الاتصال .

٤ – اختيار المسئولين الذين يقومون بالاتصال . وإلى القارئ كلمة عن كل عنصر من هذه العناصر :

خصائص الجمهور :

بيئة الجمهور لها تأثير كبير على انفعالاته ، فالجو الحار يدعو إلى سرعة الغضب ، والجو البارد يدعو إلى الاتزان . وقديماً قالوا إن الإنجليزي كمنزله : دافئ من الداخل وبارد من الخارج .

والقبلية تدعو إلى التعاون كما في القرى . والطائفية تدعو إلى التنابذ مالم تنظمها العلاقات العامة كما في لبنان ، والمدنية تدعو للتباعد فلا يحيي الجار جاره مهما طال الجوار كما في كندا . والسلالة تخلق في كل جمهور استعداداً خاصاً . فالجنس الآري معروف بالاستعلاء ، والسكسوني بالمواظبة والاعتماد على النفس ، والزنجي بالتواكل ، والعربي بالقَدَرية .

والمستوى الحضاري المرتفع يتميز بالموضوعية وتقارب العقليات . وهو غير المستوى التكني .

ولعلنا نذكر فى هذا المقام كلمة برناردشو عن الأمريكان « أنهم قفزوا من عصر البربرية إلى عصر التكنية دون أن يمروا بعصر الحضارة » .

والمذهب السياسى له صلة بالعلاقات العامة ، فالاشتراكية من شأنها أن تذيب الفروق بين الطبقات فتوجد التقارب بينهم ، على حين يبقى الإقطاع على الفروق بين الطبقات .

ونوع الإنتاج يؤثر على العقلية فالبلاد الزراعية تتميز بالبطء على حين تتميز البلاد الصناعية بالدقة والروح العلمية .

ومستوى المعيشة مهم أيضاً ، فلا أثر للعلاقات العامة فى فقير لا يجد قوت يومه . وخير من التودد إلى مشاعره إعطاؤه رغيف عيش .

ونوع الحكم يؤثر فى نوع العلاقات العامة ، فمن شأن الحكم الديكتاتورى أن يدعو للانصياع والالتزام فى حين يدعو الحكم الديمقراطى إلى التحرر الفكرى .

والعاملون فى المنشآت الأجنبية يلاحظون مثل هذه الظروف حين يمثلون منشآتهم فى العالم العربى ، فهم يأكلون بأيديهم إذا وجدوا فى استخدام الشوكة والسكين استعلاء . وهم يعرفون أن الدعوة إذا لم تكن إلى غذاء أو عشاء فهى فى مصر والكويت إلى شاى ، وهى فى لبنان إلى كوكتيل . ويعرفون أن تقبيل أيدى السيدات إذا كان مستحباً فى باريس فهو كارثة فى العالم العربى .

إن كل مندوب يجمع المعلومات عن جمهوره ثم يخرج عما تعوّد ليتعامل معه فى حدود بيئته .

الانطباع المطلوب :

الانطباع المطلوب فى العلاقات العامة ينصب على نشاط المنشأة كله لا على سلعة من سلعها . إن المقصود منه ليس البيع المباشر وإنما هو خلق صورة لاشعورية فى صالح المنشآت تعمل فى صمت ولكنها تصبح فى النهاية بمثابة المدفعية الثقيلة إذا شبهنا مندوبى البيع بالمشاة وقد تصب صورتها فى شعار أو هتاف Slogan فتقول شركة للطيران عن نفسها إنها « أكثر شركات الطيران خبرة فى العالم » . وتقول شركة لمشروب خفيف « تحبها تحبك » ، وتقول مَدْرسة عن نفسها إنها « تربي العقل والجسم والخلق » .

إن من شركات السجائر والأقلام والساعات مايكتفى بتقديم نفسه فى الإعلانات فى جو من النجاح أو النزهة الخلوية الممتعة أو الألعاب الرياضة دون أن يتحدث عن مزاياها . مزايا الشركة .

ومن الشركات ما يقدم فى التليفزيون أو السينما برنامجاً غنائيًّا أو راقصاً ثم يكتفى بذكر اسمه كمقدم للبرنامج ليربطه بالمتعة التى تلقاها المشاهدون منه .

وسيلة الاتصال :

ولا بد أن تكون الوسيلة الإعلانية مناسبة للمنشأة وللجمهور ، فشركات نشر الكتب تناسبها الصحافة ، وشركات التمثيل والملاهى تناسبها

السينما . وجمهور الريف تناسبه الإذاعة . والأميون فى المدن يناسبهم التليفزيون . والأطباء والمهندسون تناسبهم الخطابات بالبريد . إن الملاءمة بين الوسيلة من جهة والشركة والجمهور من جهة أخرى أمر واجب الملاحظة .

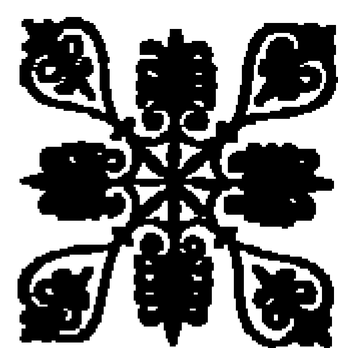
المسئولون عن التنفيذ :

هؤلاء هم رجال العلاقات العامة وهم يتميزون ببشاشة الوجه وحسن الخلق وحب الاختلاط وسعة الثقافة . إنهم رسل المنشأة فلا بد أن يكونوا عنواناً طيباً لها . والشركات الكبيرة تحجز لمندوبيها أماكن فى أفخم الفنادق حين يتجولون لترفع سمعتهم وتحمل الناس على احترامهم فتنطبع فى نفوسهم صورة كريمة Image عن منشآتهم .

أرأيت إذن أن الناس لايحكمون على الأشياء بحسب حقائقها ، وإنما يحكمون عليها بحسب ما يصلهم عن هذه الحقائق ؟ أرأيت أن الإنسان لا يسير بعقله فى هذه الدنيا بقدر ما يسير بنوازعه وانطباعاته ؟

بائعو التسهيلات المالية

في الدول النامية



« المعاملات الدولية فى حاجة إلى وسيلة للدفع ، ووسيلة الدفع الأولى هى الذهب ، لأن للذهب قيمة ذاتية فهو « مخزن للقيم » ، ولكن اقتناءه يحتاج إلى تحقق من الوزن والعيار ، ويكلف كثيراً فى النقل والحفظ والتأمين ، وإنتاجه لا يلاحق المطلوب فى دنيا التجارة الخارجية . فكان لا بد من البحث عن وسيلة أخرى .

وحيث إنه لا توجد سلطة دولية فوق سلطات الدول التى يتكون منها المجتمع الدولى ، فإنه لا توجد عملة دولية بالمعنى القانونى ، عملة يقبلها المتعاملون بالجبر لا بالاختيار .

وهذا بعكس الحال فى المعاملات الداخلية حيث تستمد ورقة البنكنوت وجودها من سلطات الدولة التى تصدرها أو تفوض البنك المركزى فيها فى إصدارها فيكون لها ما يسميه رجال القانون « قوة الإبراء » . وما دام الأمر كذلك فقد اتجه المتعاملون الدوليون إلى هذه العملات القوية السلطان المرادفة للذهب .

من الاسترلينى إلى الدولار :

وقد كانت لندن دائماً حتى الحرب العالمية الثانية هى السوق العالمية للذهب بسبب علاقتها الخاصة بجنوب أفريقيا ، وهى المنتج الأكبر لهذا المعدن الثمين . ثم اشتد الطلب عليه بعد هذه الحرب فارتفعت مبيعاته

إلى آلاف الأطنان فى اليوم الواحد . وفى مارس عام ١٩٦٨ اضطر رئيس وزراء بريطانيا إلى إيقاظ الملكة فى جوف الليل واستمضاها مرسوماً بإغلاق سوق الذهب .

ذلك أن الحرب العالمية الثانية كانت قد جاءت فدمرت المصانع والمزارع فى أوربا وفى اليابان ، ولكنها لم تصب الولايات المتحدة بسوء ، فزاد الإنتاج الأمريكى زيادة كبرى ، واستولى الأسطول الأمريكى على مكانة الأسطول البريطاني فى البحار ، ووصلت صادرات الولايات المتحدة فى سنة ١٩٤٨ إلى ٢٣,٧٪ من إجمالى الصادرات العالمية وهو ما يساوى صادرات الدول الرأسمالية مجتمعة ومن بينها بريطانيا ، فتدفق الذهب من سوق لندن إلى خزائن أمريكا حتى بلغ رصيدها منه ثلاثة أرباع الأرصدة فى العالم كله . وبذلك انتقلت الثقة من الاسترلينى إلى الدولار .

العصر الذهبي للدولار :

ودعماً للدولار فى أسواق العالم رأت واشنجتون أن تعادله بالذهب ، فأعلنت استعدادها لتحويل أية كمية منه بسعر ٣٥ دولاراً للأوقية . وأقنع هذا القرار من كان فى حاجة إلى مزيد من الاقتناع بأن الدولار الورقى هو مرادف الذهب . ثم اشتد الطلب عليه سداداً لما استوردته دول العالم من أمريكا من السلع الاستهلاكية والأسلحة أثناء الحرب ومن التجديدات فى العدد والآلات فى أعقابها فأصبح الدولار بحق عملة دولية .

وتشجيعاً من الولايات المتحدة لهذه الدول على مزيد من الشراء قدمت

لهم مشروع مارشال ومشروعات الإنعاش ، وبرامج المعونة العسكرية ، والنقطة الرابعة ، فنشأت عن هذه المعونات أرصدة دولارية ضخمة استخدمت بكثرة فى المدفوعات الدولية .

نحو عملات اخرى :

ولكن الأوضاع الاقتصادية استقرت فى الدول المنهزمة وهى ألمانيا وإيطاليا واليابان لأنها لم تتحمل شيئاً من النفقات العسكرية الباهظة ، فلم تعد تشكو نقصاً فى الدولارات . ومن الناحية الأخرى كانت رؤوس الأموال الأمريكية قد تدفقت بسخاء على حرب فيتنام ، وعلى أبحاث الفضاء ، وعلى المعونات تعطيها الولايات لأصدقائها من الدول ، فأدى هذا إلى تزعزع مركز الدولار ، وإلى تخلص الدول الكبرى من جزء كبير من أرصدتها الدولارية ، فاضطرت الولايات المتحدة إلى شراء الكميات المعروضة بسعر التعادل المقرر وهو ٣٥ دولاراً للأوقية ، وانخفض رصيدها الذهبي إلى حد كبير ، حتى لقد نشأت سوق حرة للذهب تباع الأوقية فيها بسعر ٣٦ دولاراً ثم بسعر ٣٧ و ٣٨ ، ومعنى هذا أن الدولار قد فقد مكانته الأولى كمرادف للذهب ، وأن الولايات المتحدة أصبحت عاجزة عن المحافظة على سعر التعادل .

وبدا فى الجو ضرورة تخفيض سعر الدولار ، ولكن أمريكا صعَّرت خدها ورفضت التخفيض ، ثم طالبت كبديل عنه برفع سعر المارك الألماني والين الياباني ، فكان لها ما أرادت . وانصرف الناس كثيراً عن الإسترليني

والدولار إلى المارك والفرنك السويسرى والينّ ، وإلى الفرنك الفرنسى والليرة الايطالية * .

وهكذا نرى أن الشرط الأول لاعتبار العملة دولية هو الثقة فى ثبات قيمتها ، على أن تكون للدولة واسعة التجارة ، ليسهل استخدامها فى سد الديون وإجراء المقاصّات .

نشوة الحاجة إلى باعة التسهيلات :

إن استقلال معظم الدول النامية أو المتنامية (المتخلفة) بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية قد خلق فيها طلباً قوياً على مواردها فى الخمسينات والستينات للإنفاق على المظاهر الحديثة للسيادة من جيش وبوليس ومحاكم وحكم محلى ، ولتحسين الخدمات الاجتماعية من طب وقائى وعلاج وتعليم وتأمين اجتماعى . ولم تكن مواردها كافية لمواجهة هذه الاحتياجات ، ولمواجهة متطلبات التنمية فى الوقت نفسه فاختلت موازينها واقتضى الأمر الاعتماد على القروض الخارجية فى سد العجز . ذلك لأن صادراتها مجتمعة لم تتجاوز فى سنة ١٩٦٥ ٣٧ ألف مليون دولار من إجمالى الصادرات العالمية فى هذه السنة وهو ١٨٦ ألف مليون دولار . واضطرت الدول النامية أو المتنامية (المتخلفة) إلى تقييد وارداتها خصوصاً من البلاد ذات العملات الصعبة ، فنشأت حاجتها إلى بائعى التسهيلات الذين يمولونها بهذه العملات ، ويقسطونها على سنوات نظير فوائد يتفق عليها مع اتخاذ اللازم

* مصير الدولار الأمريكى للدكتور إسماعيل صبرى عبد الله .

من احتياطات لمواجهة ما قد يتعرضون له من مخاطر عدم الدفع أو تأخيره .

واتجهت الدول النامية فى بعض الأحايين رأساً إلى الموردين ، فاشترطت فى السلع الرئيسية أن تقترن العروض المقدمة لها بتسهيلات فى الدفع لآجال معينة ، وأصبح طول المدة فى هذه التسهيلات مرجحاً للعروض حتى ولو كانت أسعارها أعلى من العروض الأخرى .

ثم تألفت منظمات حكومية ومصرفية لتقديم التسهيلات نذكر منها بنك التصدير والاستيراد الأمريكى وهيئة الكوفاس الفرنسية ، وهيئة هيرمس الألمانية ، وهيئة ضمان الصادرات البريطانية ، والاتحاد الدولى لشركات الأصباغ السويسرية .

البيوت المالية الغربية ودول الكتلة الشرقية :

تقوم البيوت المالية فى أوربا الغربية بالتعامل مع دول الكتلة الشرقية (روسيا وحلفائها) فى حساباتها الخاصة مع دول الاتفاقيات استيراداً وتصديراً عن طريق وسطاء متخصصين . ذلك أن دول الكتلة الشرقية قد لا تستورد لنفسها المحاصيل والمنسوجات وغيرها من الدول النامية ، وإنما تتعاقد عليها استقضاء لما لها من ديون عليها ، وانتظاراً لبيعها للدول الغربية نقداً أو بالعملات الحرة .

وبالمثل قد ترى إحدى دول الكتلة الشرقية أن تستجيب لحاجة إحدى الدول النامية ، فتصدر لها مادة رئيسية كالقمح أو الورق فى حدود الاتفاقية الحسابية بينهما مع أنه ليس عندها من هذه المادة ما يكفى

فتشترى ما تصدره من إحدى الدول الغربية وتدفع فى ذلك عمولة لإحدى البيوت الوسيطة .

وفى البيع والشراء علاوات معلاَّة تتأثر ارتفاعاً وهبوطاً بمدى حاجة الدول المشترية للسلعة ، ومدى حاجة الدولة البائعة للتخلص منها ، ومدى انتهاز الوسيط للفرصة المتاحة . وفيهما من التسهيلات والفوائد ما قد تفرضه طبيعة الصفقة .

البيوت المالية فى الكويت ولبنان :

وتخصصت بعض البيوت المالية فى بيروت والكويت فى بيع التسهيلات للعالم العربى . وتتوقف درجة إسهام البيت المالى فى ذلك على حجم الأموال المتاحة له ، وعلى سعر الفائدة الذى تدفعه البنوك المتعاونة معه على الأموال المودعة لديها .

إن البيت المالى الوسيط يقوم عند إبرام العمليات بتجميع الأموال من البنوك الصغيرة ومن ذوى اليسار السعوديين والكويتيين ومن بلاد الخليج العربى لتجنيب المورد الأمريكى أو الأوربى مخاطر التمويل نظير عمولة يتقاضاها منه أو من المشترى أو منهما معاً .

وقد يشترى أحد البنوك فى الكويت أو فى بيروت العملات الحرة من المسافرين إلى القاهرة بما يزيد على سعرها الرسمى بالعملة المصرية تشجيعاً للسياحة فى مصر ، مستنداً فى ذلك إلى اتفاق مع الحكومة المصرية يضمن له شيئاً من الربح .

وقد يستورد العراق أو السودان ما يحتاج إليه من مستلزمات التنمية عن طريق الكويت أو بيروت لأن ترتيبات الدفع متعاقد عليها مع أحد البيوت فى هذين البلدين .

لقد كانت المعاملات الخارجية للدول العربية تتم بين طرفين اثنين أحدهما بائع والآخر مشتر فأصبح كثير منها يتم بين أطراف ثلاثة ، والطرف الثالث غالباً فى بيروت أو فى الكويت .

ولكن التسهيلات ليست فى النهاية إلا مسكنات :

إن أعباء السداد استنزفت احتياطات الدول النامية ورفعت أسعار السلع والخدمات التى تشتريها بمعدلات قد تصل فى بعض الظروف إلى ٣٠٪ . وقد سعى معظمها إلى عمل ترتيبات جديدة لجدولة الديون ، وتطلب الأمر فى بعض الحالات إجراء سلسلة من عمليات الإنقاذ ولكنها جميعاً لا تعدو أن تكون مسكناً لا علاجاً .

إن كثيراً من الدول الفقيرة فى أفريقيا لم تبدأ فى الاقتراض مثل كينيا وأوغندا وتنزانيا والكاميرون وتوجو والكونغو . وكثيراً من الدول النامية عليها ديون كثيرة مثل الهند ومصر ونيجيريا وأندونيسيا وباكستان وأفغانستان ومالى وداهومى . وهذه الدول جميعاً مضطرة برغم فقرها إلى الادخار ، والادخار لا يكفى فلا بد من تحويل المدخرات إلى عملات أجنبية ، وهذا يعنى أن سوق العملات الدولية تزداد اتساعاً أمام بائعى التسهيلات .

وما الحل ؟ ؟ ؟

لا عاصم لهذه الدول إلا أن تزيد إنتاجها وتحدد نسلها ، فإن لم تفعل فهو الإفلاس ، وهو الرجوع إلى عصر الرعى والحياة فى الخيام . إن باعة التسهيلات سيتوقفون حتماً عن الإقراض ، وهم معذورون ما داموا لا يستردون أموالهم . وإلى القارئ قطوفاً من آخر ما نشره البنك الدولى للتعمير والتنمية فى سبتمبر عام ١٩٧٠ عن معدلات النمو فى الإنتاج فى منتصف عام ١٩٦٨ فى بلاد الشرق الأوسط .

World Bank Atlas, Population per Capita Produc .nd growth rates, Published 1970

البلد	عدد السكان بالألف	إنتاج الفرد بالدولارات	الزيادة فى السكان	الزيادة فى إنتاج الفرد
			٪	٪
مصر	٣١٦٩٣	١٧٠	٢,٥	١,٥
السودان	١٤٧٧٠	١٠٠	٢,٩	,٤
المغرب	١٤٥٨٠	١٩٠	٢,٩	,٤
الجزائر	١٢٩٤٣	٢٢٠	٢,٣	٣,٥
العراق	٨٦٣٤	٢٦٠	٢,٨	٢,٩
السعودية	٧١١٢	٣٦٠	١,٧	٧,٢
سوريا	٥٧٠١	٢١٠	٢,٨	٣.٥
اليمن	٥٤٤٠	٧٠	٢,١	٢,−
تونس	٤٦٦٠	٢٢٠	٢,٣	٢,٧
تشاد	٣٤٦٠	٦٠	١,٥	١;٥
إسرائيل	٢٧٤٥	١٣٦٠	٣;٣	٤,٧
لبنان	٢٥٨٠	٥٦٠	٢,٦	٢,٥٤
الأردن	٢١٠٣	٢٦٠	٢,٧	٤,٨
ليبيا	١٨٠٣	١٠٢٠	٣;٧	١٩,٤
الكويت	٥٤٠	٣٤٥٠	٨,٧	٣,٣
البحرين	٢٠٠	٣٩٠	٣,٧	٣,١
قطر	٨٠	٣٤٩٠	٧,٥	١,٨

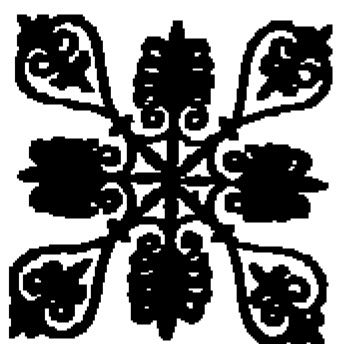
ويتضح من هذه الإحصائية أن البلاد التى يزيد معدل النمو فى إنتاجها عنه فى عدد سكانها بشكل محسوس هى الجزائر والسعودية وسوريا ـ وتونس وإسرائيل والأردن وليبيا .

أما مصر والسودان والمغرب والكويت وقطر فعليها أن تتدبر أمورها إلا إذا كانت أحوالها قد تحسنت فى السنوات الأربع الأخيرة .

إن الدول النامية ما تزال تضع اقتصادها فى خدمة السياسة ، على حين تضع الدول المتقدمة سياستها فى خدمة اقتصادها . وحتى تدرك الدول النامية أن الشعارات وحدها لا تقدم لها رغيف العيش ، ولا تنشئ لها مستشفى بل لا تحفظ لها كرامة . وأن أرقام الإنتاج هى التى تكتب لها العزة وتضمن لها القوة وتكفل لها الاحترام فى المجتمع الدولى . ما لم تدرك ذلك فستبقى ممدودة اليد إلى باعة التسهيلات وهم للأسف الشديد لا يمدون أيديهم إلا للدول المنتجة .

بين الدّول المتقدّمة والدّول المتخلفة

في مجال التعاون العالمي



سبق أن أذاعت وكالة رويتر تحقيقاً مثيراً عن الانفجار السكاني في الدول النامية تضمَّن حقائق بالغة الخطورة ، منها أن سكان العالم سيصلون إلى أكثر من سبعة آلاف مليون نسمة في سنة ٢٠٠٠ وهذا العدد ضعف العدد الحالي . وإذا كان سكان أفريقيا الآن ٣٦٥ مليون نسمة فإنهم سيصبحون في آخر هذا القرن ٦٥٠ مليوناً .

والإحصائية التي أذيعت عن زيادة السكان في مصر تثير القلق أيضاً ، فقد بلغ عدد السكان ٣٤ مليوناً أي بزيادة مليون في ١٥ شهراً بمعدل طفل كل ٤٠ ثانية !

وفي اليابان تم تحديد النسل بصورة مثالية فانخفض المعدل إلى ١,٧ في الألف ، على حين تم تعقيم ملايين الرجال في الهند بعد أن أغرتهم الحكومة بمنح كل منهم راديو ترانزستور مجاناً ، ومع ذلك فالزيادة السكانية لا تزال رهيبة جداً .

إن العلماء يريدون حلاً سريعاً يتألف من تعاطي حبوب منع الحمل ومن مساعدة الشعوب المتقدمة للشعوب النامية على رفع معدل التنمية فيها .

طريق التقدم :

كان هناك اعتقاد بأن الدول الفقيرة هي التي ليس لديها موارد طبيعية ، وبأن الدول الغنية هي التي لديها الخصب في أراضيها ، والمياه

فى أنهارها، والمعادن فى مناجمها . وكنا نتعلم فى المدارس أن الدولة لا يمكن أن تصبح صناعية إلا إذا كان فيها فحم وحديد .

ثم قامت اليابان من غير موارد طبيعية تقريباً ، ولكن بمادتين خطيرتين هما « الإرادة » و « التنظيم » لقد جعلت العالم كله مورداً لما تحتاج إليه من مواد أولية تختار أنسبها بأحسن الأسعار ، معتمدة فى ذلك على أسطول بحرى ضخم . وجعلت العالم كله مرة أخرى سوقاً كبيراً يشترى مصنوعاتها ، ثم زادت معدل التنمية عندها سنة بعد أخرى بالفرق بين أسعار الشراء وأسعار البيع حتى وصلت بهذا المعدل إلى ١١٪ وهو أعلى معدل اليوم فى العالم .

لقد كانت هذه الدولة منذ ثلاثين عاماً فقط من الدول المتخلفة ، فأصبحت اليوم فى مقدمة الدول المتقدمة !

صورة عن التخلف :

هناك شبه اتفاق عام على أن الدول التى يقل دخل الفرد فيها عن ٥٠٠ دولار فى العام تعد متخلفة ، أو بلغة العصر نامية أو متنامية . ويزيد عدد هذه الدول فى العالم على مائة دولة . ومعظم دول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية هى من هذه الدول . وبعضها ذو كثافة سكانية كبيرة كالهند التى يبلغ عدد سكانها حوالى ٥٠٠ مليون نسمة ، وبعضها فارغ مثل « جامبيا » التى يبلغ عدد سكانها ٣٠٠ ألف نسمة .

والعالم المتخلف يمثل ٦٦٪ من سكان العالم ، ولا ينتج إلا ١٢,٥٪

من جملة إنتاجه . على حين يمثل العالم المتقدم ٣٤٪ فقط من سكان العالم وينتج ٨٧,٥٪ من جملة إنتاجه !

لقد بدأت هذه المفارقة تظهر منذ مائتى سنة تقريباً حين بدأ النمو الصناعى يتصاعد فى إنجلترا بصورة سريعة . وفى القرن التاسع عشر امتد هذا النمو إلى أوربا وأمريكا الشمالية ، ثم إلى كندا وأستراليا واليابان ، مما أدى إلى مضاعفة الدخل سبع مرات خلال هذا القرن ، فحدثت تغيرات هائلة فى مستويات المعيشة . على أن بعض دول آسيا وأمريكا اللاتينية وأفريقيا حققت تقدماً اقتصادياً ملحوظاً فى الفترة ما بين ١٨٨٠ — ١٩١٣ نظراً للتوسع السريع فى التجارة العالمية ، وانتقال رؤوس الأموال التى كانت حرة خلال هذه الفترة . ثم جاء الركود النسبى فى التجارة العالمية بعد عام ١٩١٣ وأحدثت الحربان العالميتان تقلبات كثيرة جاء بعدها الكساد العظيم بين عامى ١٩٢٩ — ١٩٣١ .

وبعد الحرب العالمية الثانية حصلت ستون دولة جديدة على استقلالها السياسى فانفصلت باقتصادياتها مع قليل من رأس المال والخبرة ، وكثير من الجهل ، بالتعقيدات الصناعية والتجارية . وأدى التقدم التكنى إلى زيادة كبيرة فى معدل تقادم الآلات والمعدات التى تستوردها الدول المتخلفة من الدول المتقدمة ، ثم انكمشت أسواق التصدير فى وجه المواد الأولية التى تنتجها البلاد النامية نتيجة اكتشاف بدائل عنها من الألياف الصناعية الرخيصة . كل ذلك مع ارتفاع حاد فى معدل النمو السكانى وضيق فى إمكانيات العمالة والهجرة .

ومع ذلك فقد استطاعت الدول المتخلفة فى مجموعها أن ترفع إنتاجها من السلع والخدمات بنسبة ٤,٨٪ فى المتوسط سنوياً بين ١٩٥٠ و ١٩٦٧ ويعد هذا المعدل أسرع من المعدلات التى حققتها الدول المتقدمة فى سنواتها الأولى . إلا أن معدل النمو السكانى فى الدول المتخلفة قد أوقف معدل زيادة دخل الفرد عند ٢ أو ٢ ½ ٪ سنوياً . ولم تستطع الدول المتخلفة أن تدخل سوق المنافسة فى بيع السلع الرأسمالية نتيجة للقروض الهائلة المتوسطة الأجل والطويلة الأجل التى كانت تقدمها الدول المتقدمة للدول التى تشترى منها هذه السلع ، كما أن عجز الدول المتخلفة عن تدبير العملات الأجنبية لم يمكنها من إعطاء التسهيلات اللازمة للمشترين .

شركاء فى التنمية :

قبل أن تُسْلِم الستينات اقتصادياتها إلى السبعينات خفضت الدول المتقدمة معوناتها للدول النامية فكان لهذا الخفض أثره فى زيادة عجزها عن حل مشاكلها .

وطلب « روبرت ماكنمارا » رئيس البنك الدولى للإنشاء والتعمير من « ليستر بيرسون » رئيس وزراء كندا السابق أن يقوم بدراسة شاملة لما حققته المعونات السابقة فى التنمية خلال عشرين عاماً مضت عسى أن تكون هذه الدراسة نوراً يَهدى العالم إلى رسم سياسته الاقتصادية الواجبة فى السبعينات .

ولبى « بيرسون » هذا الطلب فضم إليه سبعة من فطاحل الاقتصاديين

من بريطانيا والبرازيل والولايات المتحدة وألمانيا الغربية وجاميكا وفرنسا واليابان وأربعة عشر خبيراً من خبراء التنمية فى الدول المتقدمة والمتخلفة على السواء وكوّن « اللجنة الدولية للتنمية » التى قامت باستقصاء ضخم فى أكثر من سبعين دولة من دول العالم وفى كثير من المؤسسات الخاصة . ثم قدّمت أخطر تقرير اقتصادى إلى البنك الدولى فى أكتوبر عام ١٩٦٩ ، أطلقت عليه هذا الاسم « شركاء فى التنميـــة » Partners in Development.

ويتضح من هذا التقرير أن المعونات ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية ثم بلغت فى عام ١٩٦١ ما يقرب من ٨ مليارات دولار أى نحو واحد فى المائة من إجمالى الناتج القومى للدول غير الشيوعية ذات الدخل المرتفع ، يضاف إليها عمليات تمويلية من الاتحاد السوفييتى والدول الشيوعية الأخرى . واستمرت هذه المعونات فى الزيادة حتى وصلت فى سنة ١٩٦٨ إلى ١٢,٨ مليار دولار. ثم بدأ يحوطها جو من عدم الثقة حين أخذت الدول المتقدمة تتأثر بتوقعات التنمية الفورية مع أن التنمية بطبيعتها تتطلب وقتاً طويلاً . وحين جعلت مساعداتها لخدمة صادراتها ولتحقيق امتيازات سياسية أوكسب ميزات استراتيجية .

هذا والدول المتخلفة مشغولة عن التنمية بمحاربة التمييز الاقتصادى ومواجهة مشاكل الريف والحضر ، وإقرار الحقوق المدنية سعياً وراء تحقيق العدالة الاجتماعية .

وفى النهاية اقتنعت الدول المتقدمة أن من واجبها الابتعاد عن الضغوط الاقتصادية والسياسية المباشرة لأن الثروة لا تخولها حق السيطرة على الحياة

القومية للدول المحتاجة . وتعلمت الدول المتخلفة أن الأمر فى النهاية مرهون بكفاءتها فى استخدام المساعدات ، وبالسياسة الاقتصادية والاجتماعية الشاملة التى تنتهجها ، كما تعلمت أن التنمية تأتى من الداخل ، وأن المساعدات الأجنبية لا تفيد إلا إذا كانت هناك إرادة قومية لإحداث التغييرات الأساسية التى تتطلبها التنمية .

متاعب الدول النامية :

فى الفترة ما بين ١٩٥٠ و ١٩٦٥ تضاعفت أعداد القبول بالمدارس فى البلاد النامية نحو ثلاث مرات ، وتحسنت ظروف الصحة العامة إلى حد كبير ، وتم التغلب على الأوبئة الرئيسية فانخفضت معدلات الوَفَيَات بسرعة تفوق نسبة انخفاضها فى البلاد الصناعية .

ولكن من بين كل مائة طفل دخلوا المدارس الابتدائية لم يصل منهم إلى السنة النهائية إلا ثلاثون .والذين تخرجوا فشلوا غالباً فى العثور على أعمال مناسبة . ولذلك لم يؤد التعلم رسالته فى التطوير الحديث .

وقد اعتمدت الدول المتخلفة على الحماية الجمركية فى تقليل وارداتها بدل أن تعتمد على التكنية فى تنمية صادراتها ، فانسحبت بذلك إلى حد كبير من التجارة العالمية . وتسببت هذه الحماية الجمركية فى الحد من التجارة فيما بين البلاد النامية نفسها خصوصاً فى غيبة ترتيبات الدفع الملائمة .

إن الموارد الخارجية لم تمول سوى ١٥ ٪ من الاستثمارات فى الدول المتخلفة ، والمساعدات الأجنبية التى وصلت إلى نحو ١٠ ٪ لم تؤد إلى

إنعاش النمو الاقتصادى لأنها كانت تعطى لأغراض أخرى غير التنمية . وكل ذلك فى مجموعه لم ينقل التكنية إلى البلاد المتخلفة ، ولم يعالج الاختناقات فى العملات الحرة اللازمة للاستيراد .

لماذا المساعدة ؟

لماذا يجب على الدول المتقدمة أن تساعد الدول المتخلفة خصوصاً إذا كانت الدول الأولى تعاني داخل حدودها مشكلات اجتماعية واقتصادية ؟ إن الجواب عن هذا السؤال ينبثق أولاً من حقيقة لم تعد خافية على أحد ، وهى أن المجتمع القومى يخلى مكانه قليلاً للمجتمع الدولى . فالاهتمام باحتياجات الأمم الأخرى هو تعبير عن اتجاه أساسى فى العصر الحديث . إن العالم اليوم أشبه بمدينة واحدة لأنه أصبح ينتمى إلى جماعية عالمية بعد تقدم الطيران وانتشار الإذاعة والتلفزيون .

إن الحرب التى تنشب فى أية دولة قد تمتد بسرعة فتشمل باقى الدول . والوباء فى إحدى البيئات قد ينتشر فى الكرة الأرضية كلها . ولعل الشباب يدرك أكثر من غيره وحدة التطور الإنساني ، ولذلك ينفعل بالأحداث الدولية ويؤمن بالتكافل ، لأن فقر الغالبية العظمى على سطح الأرض لا بد أن يؤدى إلى نتائج وخيمة لجميع من عليها .

إن ارتفاع معدل النمو إلى ٦٪ سنوياً فى الدول المتخلفة يحدث فيها تحولاً فى الموقف الاقتصادى إذ يستطيع — حتى مع حدوث نمو سكاني سريع — أن يضاعف دخل الفرد فيها أربع مرات فى نصف قرن — وسوف

يتمكن الكثير من الدول المتخلفة أن يصل إلى المستويات الحالية للمعيشة فى أوربا الغربية فى خلال قرن من الزمان ، ومعنى ذلك أن هذه الدول تصبح عميلات للدول المتقدمة تركب طائراتها وتشترى منتجاتها وتسافر للسياحة فيها . ومعناه أيضاً أن تجد من الأفضل أن تعرض اقتصادياتها للمنافسة الدولية ، وتعرض صناعاتها المحلية لقدر أكبر من هذه المنافسة بدل الركون إلى زيادة الحماية .

ولكن ارتفاع معدل النمو لا يكفى وحده لتحقيق الفائدة المنشودة فقد يرتفع الاستهلاك بنفس النسبة ، ولذلك لا بد من التعاون بين الدول التى تقدم المساعدات والدول التى تتلقاها فى وضع استراتيجيات التنمية .

التعاون بين الدول المتخلفة :

لقد كان تحرير التجارة بين الدول المتخلفة فى الماضى يتدرج تحت إطار إقليمى بحت . ولم يوجه الاهتمام الكافى إلى تحقيق التوسع التجارى بين القارات والأقاليم المختلفة مع أن هناك مقدرة على التوسع التجارى بين الدول المتخلفة فى القارات المختلفة أكبر منها فى التكتلات المحلية .

وعلى سبيل المثال فإن الهند والجمهورية العربية المتحدة ويوغوسلافيا عقدوا فى سنة ١٩٦٧ مشروعاً للتجارة التفضيلية ينص على تخفيضات فى التعريفات تصل إلى ٥٠٪ على قائمة مشتركة من المنتجات غير التقليدية ، وهذا المشروع مفتوح للدول المتخلفة الأخرى . وقد أظهرت عدة دول من جميع أجزاء العالم رغبتها فى الاشتراك فيه .

وفى السنة نفسها بدأت المفاوضات فى جنيف بين الدول المتخلفة تحت إشراف الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة لمنح امتيازات جمركية لتحقيق التنمية السريعة من خلال الاعتماد على النفس .

وقد حققت أمريكا اللاتينية النجاح الأكبر فى هذا المجال حيث تم فى عام ١٩٦١إنشاء السوق المشتركة لأمريكا الوسطى . وبحلول عام ١٩٦٦ كانت السوق قد حققت تحرير التجارة بصورة كاملة تقريباً فى مجال السلع الصناعية مع إنشاء هيكل تعريفات مشترك ضد الواردات الآتية من خارج المنطقة .

والآن ماذا نطلب من الدول المتقدمة ؟

لسنا نحن الذين نطلب من الدول المتقدمة أن تأخذ بيد الدول المتخلفة ، ولكن اللجنة الدولية للتنمية التى أشرت إليها فى مستهل هذا البحث هى التى قدمت هذه المقترحات :

١ — يتعين على الدول المتقدمة أن تلغى رسوم الاستيراد وضرائب الإنتاج على السلع الأولية التى لا تقوم بإنتاجها . وأما المنتجات الزراعية التى ترد من الدول المتخلفة وتنتج فى الوقت نفسه فى الدول الصناعية فيزاد المستورد منها قليلاً قليلاً مع مرور الوقت .

٢ — يجب أن يرتفع معدل النمو السنوى للناتج القومى فى الدول المتخلفة إلى ٦ ٪ على الأقل بدلاً من المتوسط الحالى وهو ٥ ٪ حتى تتمكن تدريجياً من رفع نسبة تكوين رأس المال فيها والمساهمة فى الاقتصاد العالمى

كشريكة تعتمد على نفسها .

٣ — على الدول المتقدمة أن تلتزم بتقديم مساعدات فى حدود ١ ٪ من مواردها على أن يتم ذلك بصورة كاملة عند حلول عام ١٩٧٥ .

٤ — لا بد من بحث التخفيف من ديون الدول المتخلفة ، فإن هذا التخفيف شكل مشروع من أشكال المساعدات .

٥ — إن ربط تقديم المساعدات بضرورة الشراء من الدول التى تقدمها يشوه مسار التجارة الدولية ويلغى إلى حد كبير أثر هذه المساعدات ، ولذلك يجب عقد اجتماع يضم الدول الأساسية التى تقدم المساعدات والدول التى تتلقاها للحد من العوائق الإجرائية التى من هذا القبيل وبيان وسائل التغلب عليها .

٦ — سجلت المعونات الفنية زيادة تربو على ١٠ ٪ (عشرة فى المائة) سنوياً خلال الستينات . ولكنها مع ذلك فشلت فى تكييف أهدافها وأساليبها طبقاً للمتطلبات الفعلية للدول المتخلفة وخصوصاً فى مجالى الزراعة والتعليم . ولذلك فلا بد من توفير فرص الحياة العملية الملائمة للعاملين في المعونات الفنية القومية والدولية .

٧ — على المنظمات الدولية أن تلعب دوراً كبيراً فى تدريب خبراء السكان وتنظيم الأسرة فى البلاد المتخلفة مع تنسيق البحوث الخاصة بالتكاثر الإنساني تحت إشراف منظمة الصحة العالمية وتمويلها بمعرفة البنك الدولى .

٨ — يجب أن تساعد الدول المتقدمة فى إنشاء مراكز دولية وإقليمية

للبحوث والتنمية فى المجالات ذات المنفعة العامة بمثل الزراعة الاستوائية والوسائل الإرشادية والتعليم وتخطيط المدن .

٩ – إن المستوى الحالى لعمليات التمويل فى هيئة التنمية الدولية يدور حول ٤٠٠ مليون دولار سنوياً والأمر يقتضى أن يصل هذا المبلغ إلى ١/٢ مليار دولار فى عام ١٩٧٥ .

١٠ – إن الحواجز التى تعترض النمو السريع للتجارة بين الدول المتخلفة معروفة تماماً . وفى أغلب الأحيان تكون تسهيلات النقل والمواصلات أقل جودة من تلك التى تربط الدول الفقيرة بالغنية . كما أن المؤسسات المالية وترتيبات المدفوعات وأجهزة التسويق توجه جميعاً للتجارة مع الدول الغنية وغالباً ما تكون متحيزة ضد التجارة مع الدول الفقيرة .

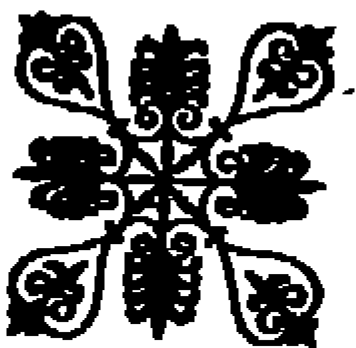
وأخيراً تقترح اللجنة الدولية للتنمية إنشاء مجمعات جديدة متعددة الأطراف تكون وظيفتها إجراء مراجعات سنوية للأداء الإنمائى فى الدول التى تتلقى المساعدات . كما يكون من وظيفتها مراجعة منح المساعدات والالتزامات المرتبطة بها من جانب الدول التى تقدمها . ولعل البنك الدولى وبنوك التنمية الإقليمية هى أولى الهيئات بقيادة المناقشات لتحقيق هذه الأهداف .

هل هذا ممكن ؟ إن الإنجليز يقولون : Too good to be true أى إنه أمل به من الخير الكثير ما يضعف الرجاء فى تحقيقه .

ونحن نقول « لا مستحيل فى العالم » .

وسائل الإعلام العربية

هل نجحت ...
فى توعية الجماهير، وإلى أى مدى ؟



* حين نتحدث عن الإعلام يتجه التفكير إلى وسائله الرئيسية الثلاث ، وهى الصحافة ، والإذاعة والتليفزيون . وإذا كانت الصحافة تأتى فى المقدمة فإن هذا صحيح فى معظم البلاد العربية والأوربية ، ولكنه غير صحيح فى أمريكا واليابان ولبنان حيث أصبح التليفزيون وسيلة الإعلام الأولى . وهو يأخذ طريقه الآن إلى أن يكون كذلك فى جميع بلاد الدنيا .

وإذا كانت الإذاعة تتميز بالسرعة وسعة التغطية ، كما تتميز بالعامل الشخصى ممثلاً فى حديث المذيع ، فإن الصحافة تتميز بالدقة فى التعبير والشرح ، وتبقى تحت تصرف القارئ دون أن تفرض نفسها عليه حتى تهيأ نفسه لقراءتها فى الوقت المناسب ، وللرجوع لأخبارها وموادها مرة ومرات كلما شاء . أما التليفزيون فيمتاز بالصورة والحركة إلى جانب العامل الشخصى ، كما أنه يتجه إلى السمع والبصر فى آن واحد .

وقد سئل أحد السياسيين « لو أعلنت الحرب العالمية الثالثة اليوم فأين نبحث عن الخبر ؟ » قال : « أفتح الراديو على الفور لأتأكد من الخبر ، ثم أفتح الصحيفة لأعرف قصة الخبر ، ثم أفتح التليفزيون لأعيش فى الخبر » .

معنى التوعية :

التوعية هى تعليم الجماهير وتربيتها . هى تعليم لأنها توسع مداركهم

وتزيد انفتاحهم على العالم . وهى تربية لأن هدفها فى النهاية هو أن تغير فى سلوكهم الإنساني .

وكما نقول إن المدرس الملقن ليس مربياً لأنه لا يؤثر فى سلوك تلاميذه ولا يتفاعل مع شخصياتهم ، فإننا نقول إن موجه الدعوة لا بد أن يتفاعل مع جمهوره ليؤثر فيهم . فإذا لم يحقق ذلك فهو ليس مرشداً ولا داعياً على الإطلاق . إن كل الفرق بين المربي والمرشد هو أن الأول يربي الأفراد والثانى يربي الجماعات ، ولكن الفكرة واحدة فى الحالتين .

طبقات النفس :

إن فى نفوس الجماهير ثلاث طبقات معروفة : أولاها على السطح وهى العقل الواعى وثانيتها فى الوسط وهى العقل الباطن ، وثالثتها فى الأعماق وهى اللاشعور . والعقل الواعى يتلقى الرسالة الإعلامية بالسمع والبصر فيعمل فيها منطقه ثم يقبلها أو يرفضها . أما العقل الباطن فإن القراءة أو السمع أو المشاهدة تؤثر فيه بالإيحاء Suggestion فتوقظ فيه ما هو مستكن وتحركه فتغير فى الشخص عادات الشراء والبيع والتدخين واستخدام خط معين للطيران والانحياز لمبدأ سياسى . . إلى آخر ذلك .

أما اللاشعور فهو بعيد عن مراكز الحس . إنه مستودع الغريزة والدين والوطنية . إنه النار تحت الرماد . هو الذى يجعلنا نحب ونكره . ثم يجىء عقلنا الواعى فيبرر ما أحببناه أو كرهناه .

هل من سبيل إذن إلى أن نؤثر فى اللاشعور ؟

بحث ميدانى :

فى سنة ١٩٦٦ أجرى بحث ميداني فى الجمهورية العربية المتحدة عن الصحف ، ظهر فيه أن أكثر الأبواب قراءة فى جريدة الأهرام هو « طرزان » ، يليه « أخبار الصباح » ، ثم « حظك اليوم » . وأقل الأبواب قراءة هو « دائرة المعارف » و « صفحة الرأى » .

وفى جريدة الأخبار كان أكثر الأبواب قراءة هو « أخبار الناس » . وكان ترتيب الأخبار العالمية ١٧ من حيث التصفح و ٢٣ من حيث القراءة بالتفصيل . ومع دلالة هذه النسب فى ذاتها فإن هناك مبدأ مقرراً فى الاستقصاءات الميدانية هو أن نسبة من يذكرون أنهم يستمعون للقرآن أو يقتنون دائرة المعارف البريطانية تعتبر حداً أقصى لأن من بينهم مدعين يقررون هذا تقرباً أو استعلاء أو إيثاراً للأمان . ونسبة من يقولون إنهم يقرءون المواد الجنسية أو يطالعون المجلات التافهة تعتبر حداً أدنى لأن كثيرين غيرهم يحجمون عن المصارحة .

وعلى هذا فإن الأبواب الخفيفة التى أسفر عنها الاستقصاء هى فى الحقيقة أكثر شيوعاً مما يبدو .

بحث آخر :

وفى سنة ١٩٦٩ قام الأستاذان بدراوى فهمى وعبد العزيز عبد الرحمن ببحث فى قرية المرازيق عن أفضل وسائل التنمية الثقافية للمجتمع الريفى

فأسفر البحث عن الملاحظات الآتية :

١ – إن بالقرية وعياً عاماً بالنواحى الصحية يتمثل فى استشارة الطبيب عند المرض ومعرفة أن مياه الترع والقنوات مصدر للعدوى بالبلهارسيا .

٢ – إن هناك إجماعاً على أن المرأة المتعلمة خير من غير المتعلمة .

٣ – كان الاتجاه القَدَرى واضحاً بين أفراد العيِّنة التى أجرى فيها الاختبار ، وكانت أهم صفات الزوجة بالترتيب هى التجويد فى شئون المنزل ، الطاعة ، ثم التدين .

٤ – قال نصف أفراد العينة إن تحديد النسل معارض للدين .

٥ – كان تردد أفراد العينة على القسم البيطرى لعلاج حيواناتهم ، يزيد على ترددهم على القسم الطبي لعلاج أنفسهم !

بحث أخير :

ومنذ بضعة أشهر اشترك كاتب هذا المقال فى مناقشة رسالة دكتوراه تقدم بها الأستاذ يوسف الحاروني عنوانها « دور وسائل الإعلام فى خلق النظرة العلمية بالجمهورية العربية المتحدة » ، وهو يقصد بالنظرة العلمية النظرة الموضوعية أو الاتجاه العقلانى نحو البيئة . وقد قسم الدارس بحثه إلى ثلاثة قطاعات هى :

أولاً : تحرير المواطن من المعتقدات الخرافية ومن الغيبية القَدَرية ومن تحكم العرف والتقاليد ومن نزعات التقديس .

ثانياً : انفتاحه نحو النور والمعرفة .

ثالثاً : ميله إلى غرس النواحى الإيجابية المنشئة للنظرة العلمية كاعتناق قانون العلة والمعلول ، وتمحيص الأدلة .

وقد أجرى البحث الميدانى فى قرية الصوامعة مركز أخميم بمحافظة سوهاج ، وقرية الروضة مركز فارسكور بمحافظة دمياط . ذلك أن القرية الأولى تمثل القرى المتأخرة : فهى فى حضن الجبل ، بعيدة عن الطريق الزراعى ، وأهلها فقراء ، ومستوى الأمية فيها مرتفع . أما القرية الثانية فهى قرية متقدمة مبانيها بالحجر الأحمر ، وفيها ميكانيكى وجمعية تعاونية ومياه جارية وكهرباء .

وقد أجرى الباحث استقصاءه الميدانى فى هاتين القريتين ليرى أثر الإعلام فى توعية الريفيين وأجراه أيضاً بين العمال فى شركة أسكو وشركة النصر للكوك والكيماويات . كما أجراه بين الطلاب فى الدراسات العليا فى مجالى الخدمة الاجتماعية والصحافة .

وكان الاستقصاء منصباً على أثر الراديو والصحف والسينما على أفراد معينين فكانت النتائج عن مستمعى الراديو كما يلى :

١ — الفرد العادى يستمع إلى الراديو ما بين ساعة وساعة ونصف فى اليوم تزيد إلى ثلاث ساعات فى المتوسط فى أيام الإجازات .

٢ — أن قمة الاستماع هى الساعة الثامنة والنصف مساء ، وهناك فترة استماع صباحية حول الساعة السابعة صباحاً .

٣ — أن الفترة ما بين الثامنة صباحاً والواحدة ظهراً تعتبر فترة خمود .

٤ – أن مجلة الإذاعة والتليفزيون لا تقوم بدور ملحوظ فى الإعلام بمواعيد البرامج وإنما يلجأ القراء لجرائدهم فى ذلك .

٥ – أن المستمعين بصفة عامة لا يرحبون بالبرامج الثقافية ولا يستمعون إليها بانتظام .

٦ – أن الأميين لا يستمعون بانتظام إلى دروس محو الأمية .

وكانت النتائج عن قراء الصحف كما يلى :

١ – أن ظاهرة القراءة للغير قد انقرضت إلى حد كبير .

٢ – أن القارئ الذى يفتقد جريدته المفضلة غالباً ما يستعين عنها بجريدة أخرى .

٣ – أن زمن قراءة الجريدة اليومية يبلغ فى المتوسط نحو ساعة .

وكانت النتائج عن مشاهدى السينما كما يلى :

١ – أن أهم العناصر فى تسويق الفيلم هى القصة الجيدة ، ويليها اسم الممثلة ثم الممثل . أما اسم المخرج واسم المؤلف فهما لا يسهمان كثيراً فى تسويق الفيلم .

٢ – أن النظرة العامة للأفلام العربية ليست طيبة .

وقد أراد الباحث أن يعرف مدى نجاح وسائل الإعلام فى التوعية فاختار لذلك ميادين ثلاثة :

أولها الإيمان بالخزعبلات :

وضع الباحث الأقوال الآتية باللغة العامية وطلب رأى المبحوثين فيها :

١ – فى يوم الجمعة ساعة نحس .

٢ – الطفل يولد ومعه رزقه .

٣ – بعض المشاكل الزوجية سببها السحر .

٤ – الأحجبة والبخور تمنع الضرر والحسد .

٥ – اصرف ما فى الجيب يأتك ما فى الغيب .

٦ – القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود .

٧ – النار لا تصيب مؤمناً .

٨ – قيراط بخت خير من فدان شطارة .

وثانيها النظرة إلى المرأة :

كانت الأسئلة عن المرأة كما يلى :

١ – هل توافق على تعليم البنت ؟

٢ – أيهما أفضل : الزوجة التى تلزم البيت ، أم التى تعمل ؟

٣ – ما هى فى نظرك أهم الشروط المطلوبة فى الزوجة بالترتيب ؟

٤ – ما رأيك فى قيام بعض الأزواج بالمساعدة فى الأعمال المنزلية ؟

٥ – لو كان لك بنت أو أخت قالت لك إنها تحب واحداً وإنهما اتفقا على الزواج – فماذا يكون رد الفعل عندك ؟

وثالثها النظرة الموضوعية :

١ – ما رأيك فى موضوع تحديد النسل ؟

٢ — أنت تبحث عن مسكن . وقد وجدت مكاناً مناسباً ولكن الناس يقولون إن فيه عفريتاً فهل تسكنه ؟

٣ — بقالان متجاوران فى شارع واحد . أحدهما ناجح والآخر فاشل — فهل تعتقد أن هناك أسباباً لذلك أو أن الأمر مجرد حظ ؟

٤ — لو حضرت مناقشة بين مسلم ومسيحى حول تعدد الزوجات فهل يهمك أن تسمع رأى من ليس من دينك ؟

نتيجة الاستقصاء :

لقد جاءت النتيجة مخيبة لكل رجاء سواء فى الصوامعة أو فى الروضة أو بين العمال والطلاب . فقد وافقت الأغلبية ممن يسمعون وممن لا يسمعون ، ممن يقرءون وممن لا يقرءون على صحة الخزعبلات . وقد ثبت أن الراديو والصحف والسينما لم تؤثر فى النظرة إلى المرأة ولا فى النظرة الموضوعية بل بقيت القيم الاجتماعية السائدة هى الأساس .

يقول الدكتور الحارونى : « لقد ثبت أن رسائل الإعلام تدعم أكثر مما تغير . فلو جاء الإعلام فى نفس الخط الذى يسير فيه السلوك فإنه يدعم هذا السلوك . أما إذا جاء مغايراً له فهو أضعف من أن يؤثر فيه » .

مناقشة هذه النتيجة :

هنا يثور سؤال : إذا صح ما يقوله الدكتور الحارونى فكيف انتشر الإسلام إذن ؟ إن الله تعالى يقول : « وأذِّن فى الناس بالحج » أى أعلن

لهم عنه . ومعنى هذا أن الإعلام كان من دعامات الإسلام . وليس من السهل أن نتصور أن الإسلام قد وصل إلى روسيا وأسبانيا بغير إعلام . إن الإعلام مثل الحجر الذى نلقيه فى اليم فإذا هو يثير موجة تحدث موجة أوسع ، وهذه تحدث موجة أكثر اتساعاً وهكذا .

ثم يثور سؤال آخر : كيف استفادت إسرائيل من وسائل الإعلام المتاحة لها فأثرت على الرأى العام العالمى تجاه العرب ؟ وكيف أدرك العرب أخيراً فعل الإعلام فأحسنوا استخدامه وظفروا بعطف الرأى العام على قضيتهم ؟

ونحن نعرف تمسك الكاثوليك فى إيطاليا بتحريم الطلاق برغم ما يرونه فى كل يوم من انفصال الأزواج عن أزواجهم ليعيشوا مع آخرين . ومع ذلك وبالرغم من احتجاج البابا فقد تمكنت وسائل الإعلام أخيراً من التأثير فى اتجاه أعضاء البرلمان وصدر القرار بإباحة مبدأ الطلاق .

وإذا كان الأمريكان الكاثوليك قد ملكوا مع غيرهم ناصية العلم ووصلوا إلى القمر ، فلا يزال منهم من يرى أن تحديد النسل حرام حتى إن لديه من الأبناء عشرة أو أكثر . ولكن وسائل الإعلام نفذت أخيراً إلى نفوسهم فجعلتهم يتحكمون فى النسل .

إن الوصول إلى المنطقة الثالثة فى نفس الإنسان – منطقة اللاشعور – أمر بالغ الصعوبة ولكنه غير مستحيل . وهذا يدعونى إلى أن أتعرض لحملة تحديد النسل فى مصر .

لقد لجأت الهيئات التى تشرف عليها إلى الصحف والتليفزيون ونسيت

خطباء المساجد ومشايخ الطرق الصوفية وهم ذوو النفوذ فى هذا المجال .

إن تحديد النسل مسألة دينية ترقد فى المنطقة الثالثة ، فإذا لم يوافق رجال الدين على إباحتها فهيهات أن تصل وسائل الإعلام إلى ما تريد منها . لقد كان الأفضل أن توزع خطبة معدة على خطباء المساجد وتوزع فتوى من أحد كبار شيوخ الأزهر على مشايخ الطرق . ذلك أجدى من كل هذه الإعلانات التى تطالعنا بها الصحف كل يوم .

والصحف مع ذلك ليست أحسن وسائل الإعلام فى موضوع تحديد النسل ، لأن قراءها أقل حاجة للتوعية ما داموا أكثر تعلماً من المستمعين للراديو مثلاً .

إن الصحف يميل معظمها بصفة عامة إلى مجاراة الرأى العام بدل قيادته طلباً للانتشار ، ولذلك تحترم بعض العادات فى رمضان وهى ضارة ، وتدعو إلى سياسة الباب المفتوح عند كبار الموظفين وهى غير عملية ، وتتحدث عن حقوق العاملين دون أن تتحدث عن واجباتهم .

وبعض الصحف تريد لكل جائع طعاماً ، ولكل ضال مسكناً ، ولكل عار كساء ، ولكنها لا تقول كيف ؟ إنها تريد أن تكون حبيبة إلى قلب القارئ فتعبر عن آماله العريضة ولكنها لا تأخذ بيده إلى تحقيق هذه الآمـــال .

وكما فشلت حملة تحديد النسل فشلت حملة مكافحة الأمية فى الراديو والتليفزيون . إن كاسترو واجه هذه المشكلة فى كوبا مواجهة واقعية فجند كل تلاميذ المدارس الثانوية والعالية وأساتذتها . وجد أن ٧٥ ٪ من

المواطنين أميون ، ٢٥٪ فقط هم المتعلمون فكلف كل متعلم أن يزيل الأمية عن ثلاثة فى بحر سنة واحدة ، وأصدر قانوناً ينص على أن المعلم الذى يرسب عنده واحد يغرم ، والذى يرسب عنده اثنان يحبس ، والذى يرسب عنده الثلاثة يسجن . أما التلاميذ فمن يتخلف عن الدروس يعاقب ، ومن يرسب فى الامتحان آخر السنة لا يوظف فى الحكومة أو فى القطاع العام . وحين كان وفد مصرى فى زيارة كوبا منذ عامين قال لهم كاسترو : « إنكم تقولون إن فى مصر ثلاثة أسباب للتخلف هى الفقر والجهل والمرض وأنا أقول لكم إنها جميعاً ترجع إلى سبب واحد هو الجهل . فالمتعلم يستطيع أن يتعاون مع الدولة ليعالج نفسه ، ويستطيع أن يتعاون معها ليرفع مستوى معيشته » .

ومعنى كلام كاسترو أن الحكومة فى بلد من الأميين محطة إذاعة بلا أجهزة استقبال . فالسبيل الأول للتوعية هو إزالة الأمية عن الناس ليستقبلوا ما يرسل إليهم من معلومات .

والخلاصة :

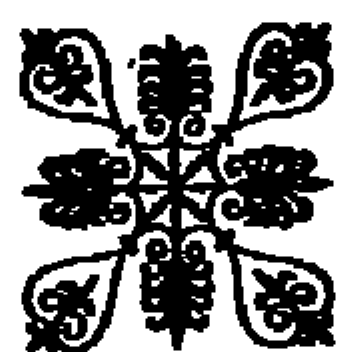
إننا نؤثر فى الغريزة بالتعويض والتسامى . ونربط التدين بالتسامح فنعمل بوحى القرآن « لكم دينكم ولى دين » ، ونردد القول المعروف « الدين لله والوطن للجميع » ونخفف من التطرف فى الوطنية بإقامة هيئة الأمم وتبادل السفراء وتنظيم البعثات وتقديم المعونات . ولكن اللاشعور لا يزال مع ذلك مستعصياً على وسائل الإعلام . إنه يزيد المعلومات ولكنه

محتاج إلى التفاعل الشخصى إذا أراد أن يغير السلوك .

إن وسائل الإعلام وحدها لا تكفى للتوعية فلا بد من القدوة الحسنة ، فالله سبحانه لم يكتف بالتوراة والإنجيل والقرآن فى التبشير باليهودية والمسيحية والإسلام ، وإنما أرسل مع الكتب السماوية رسله موسى وعيسى ومحمداً .

الإعلان

يخلق المنافع بالإيحاء



ما زلت أذكر مبادئ كان يريقها فى آذاننا أساتذتنا فى علم الاقتصاد السياسى لتستقر فى أذهاننا قواعد أبدية لا يؤثر فيها تغير الأيام . فانخفاض السعر يزيد الطلب على السلعة ، وارتفاع السعر يخفض الكمية المشتراة . . . قاعدة راسخة لا فكاك منها لأنها لا تمثل اتجاهاً ينبع من الإنسان ، وإنما ينبعث من مؤثرات خارجية لا سلطان للسلوك الإنسانى عليها .

كان أساتذتنا الأوائل يهتمون بدراسة سلوك الإنتاج والنقود والأجور ، كأنها كائنات حية تقرر وتستجيب ، ولا يهتمون بدراسة طبيعة النفس البشرية وظروف الاجتماع والحضارة ، كأن الإنفاق والادخار والاستثمار عمليات منفصلة عن طبيعة المستهلكين ، وليست انعكاساً لسلوكهم الإنسانى .

ثم درست الإعلان فوجدت أن رفع السعر قد يحيط علامة تجارية معينة من علامات السجائر أو الروائح العطرية أو الأقلام أو الساعات بجو من السمو فيزيد الإقبال عليها . ووجدت أن خفض السعر قد يدس فى الأفهام فكرة أن السلعة شعبية أو غير رائجة فيصرف الناس عنها .

لقد كان محور الاهتمام فى إدارة الأعمال هو المنتج ومشكلاته ، فلما زاد إنتاج السلع على طلبها انتقل الاهتمام إلى المستهلك ورغباته ، لأن المستهلك أصبح يلعب دوراً أكبر فى إنجاح المشروعات أو القضاء عليها . لقد أصبحت مهمة المنتج الأولى هى التعرف على رغبات المستهلك

وبحث العوامل التى تؤثر على سلوكه فتوحى إليه باتخاذ قرار الشراء . أصبح نجاح الإنتاج والتمويل والشراء والتخزين رهناً بقبول المستهلك ما تحقق له هذه الأنشطة من إشباع .

الاتجاهات السلوكية فى الاستهلاك :

كان الاتجاه الاقتصـادى (Economic approach) ينطلق من فكرة المنفعة وحدها .

فيسير وفقاً للفروض الآتية :

إن الشراء يجب أن يحقق للنقد أقصى منفعة ممكنة .

وإن المستهلك على علم بالسلع البديلة .

فقرار الشراء يتوقف على مدى التفاعل بين القوة الشرائية للمستهلك وسعر السلعة المعروضة .

ثم جاء المذهب الاقتصـادى النفسى (Psychoeconomic) فرفض أن يكون للمستهلك دافع واحد للشراء هو المنفعة ، ووضع بدلاً منه مبدأ تعدد الدوافع بل وتعارضها . وبناء على ذلك أصبح البحث الميدانى (Market Survey) ضرورياً للوقوف على اتجاهات المشترين فى المستقبل .

ثم جـاء المـذهب الاقتصـادى الاجتماعى (Socio-economic) فقرر أن البناء الاجتماعى هو الذى يحدد أنماط الاستهلاك . إن قادة المجتمع فى كل ميدان هم الذين يغرون المستهلكين بالتقليد فيثيرون تطلعاتهم إلى مستوى أعلى من المعيشة ، وإلى ما يتطلبه هذا المستوى من الإقبال على

السلع ذات السمعة الأحسن ، ولذلك ينبنى قرار الشراء على التفاعل بين عاملين هما رغبة الفرد فى الادخار ، ودرجة تعرضه للأفضل من السلع . وهناك يكون للمستوى الثقافى وتمكن العادات أثرهما فى نتيجة التفاعل .

أثر الإعلان فى تكوين الاتجاهات :

لما كان إنتاج السلع لاحقاً للطلب عليها كانت تنتج وفقاً لرغبات المستهلكين ، فلم تكن هناك حاجة إلى إعلان . ولكن الثورة الصناعية جاءت فقلبت هذا الوضع ، وجعلت الإنتاج سابقاً على الاستهلاك ، ثم زادت من عدد السلع النمطية المنتجة ، فاشتد التنافس بينها فى جذب انتباه المستهلكين . ولما تعددت الأصناف والمستويات أصبحت كل سلعة فى حاجة إلى تسمية نفسها بعلامة تجارية خاصة ، وإلى تقديم نفسها إلى المستهلك بهذا الاسم عن طريق الإعلان .

واتخذ الإعلان طريقه بالصحافة والإذاعة والتليفزيون والملصقات وبالبريد ، فأصبح يدخل على الناس مخادعهم حين يقرءون صحف الصباح ، ويزاملهم فى الطرقات حين يسيرون إلى السوق فيذكرهم بجملة وصورة على الملصقات ، حتى إذا وصلوا إلى المتاجر استقبلهم باللافتات عند المداخل وقبل اتخاذ القرار . فإذا عادوا فى المساء إلى بيوتهم خاطبهم من جديد عن طريق الإذاعة والتليفزيون .

والإعلان حين يقدم السلع الاستهلاكية لا يعنى كثيراً بخلق اقتناع ، وإنما يعنى بخلق انطباع . إنه يتجه إلى العقل بقدر ما يتجه إلى النوازع . ولا يستخدم المنطق بقدر ما يتوسل بالإيحاء (Suggestion) . والإيحاء

يعتمد على ربط السلعة بالجمال والسعادة والأمل وبحب البقاء وحب التملك والأمومة والاستعلاء . . . إلخ مما يخلق جواً محبوباً يرتبط بالسلعة فيوجد عنها صورة ذهنية تدفع المستهلك إلى شرائها .

الفرق بين المنطق والواقع :

يعتقد بعض الناس أن النتيجة حين تكون منطقية فإنها لا بد واقعة . وهم فى ذلك واهمون لأنهم يفترضون أن الناس منطقيون وهم ليسوا كذلك . إنهم عبيد غرائزهم وعاداتهم وبيئاتهم فاستجاباتهم لا تنبعث من عقولهم وحدهم ، وإنما تنبعث منها ومن هذه العوامل . إن يروا عارضاً أو اضطراباً فى الهضم قد يكون له تأثير خفى فى نفس المستهلك ، وقد يكون فى حالة من الحزن أو الفرح فتمتزج هذه الحالة النفسية برأيه وتكوّن عنده نزوعاً معيناً لم يكن يتكون لولاها .

لقد أشار الكاتب يوماً على صاحب مصنع للصابون النابلسى أن يجعل أطراف القطع مستديرة بعد أن كانت مدببة حتى لا تؤذى الأيدى عند الغسيل فنقصت المبيعات نقصاً مفاجئاً . وتبين بعد الاستقصاء أن المستهلكين رأوا فى تدوير الأطراف انتقاصاً من حجم الصابون مع أنه كان يباع بالوزن . . نتيجة غير منطقية ولكنها وقعت .

وكان فى حى قريب من الأزهر محل صغير للأحذية يتردد عليه الشيوخ فيتربعون على حشية من القطن ويقيسون المراكيب . وقد بدأ للكاتب أن يرفع المستوى فأشار على صاحب المحل أن يضيئه بالنيون ويزوده

بكنبة وحامل خشبي يستقبل أقدام المشترين فإذا الشيوخ يفرون من المحل !
وعاد الرجل إلى حشيته الأولى . . . نتيجة غير منطقية ولكنها وقعت .

إن المنطق من صنع صاحبه . وهو يتوقف على مدى تفكيره وقوة تعبيره . أما الواقع فهو صادق أبداً لأنه الحقيقة نفسها . والواقع إذا ترجم فى ظروف الشخص وأهدافه أصبح منطقيًّا كذلك .

الإعلان والإيحاء :

سئل المستهلكون يوماً فى أمريكا عن سبب تفضيلهم معجون أسنان معين فقرر ٦٠ ٪ منهم أنه مطهر . وهو سبب ظاهر البطلان لأنهم لا يستطيعون الحكم على مدى تطهيره لأسنانهم . لقد وضع الإعلان فى أفواههم هذا السبب فرددوه .

ودخل متخصص فى الإعلان على مدير عربي فوجده يدخن مع عدد من زملائه سيجارة محلية . وقدَّم له المدير علبة سجائره فازورَّ عنها وقدم له سيجارة من علبته الأمريكية ، وكانت نادرة فى السوق ، فأطفأ المجتمعون سجائرهم التى فى أيديهم وأقبلوا على السيجارة الجديدة واستمتعوا بها كما لم يستمتعوا بسيجارة أخرى . وقبل أن ينتهوا منها فاجأهم الأستاذ بقوله : « ما رأيكم فى أن السيجارة التى تدخنونها الآن هى نفس السيجارة التى قبلها ؟ » ونظر المدخنون فيما هو مكتوب عليها فوجدوا الاسم نفسه ! لقد كان الفرق الوحيد أن السيجارة المحلية قدمت لهم فى علبة أمريكية ! ومعنى هذا أنهم كانوا يدخنون صورة ذهنية انطبعت فى نفوسهم بفعل الإعلان .

لقد ذكر الأستاذ/ باكارد (Packard) فى كتابه المشهور « المغريات الداخلية » (Inner Persuaders) أن الـدكتور / ديتشر (Ditcher) صاحب (Color Research Bureau) يقــول إن الناس فى أمريكا يقبلون على شراء السيارات القوية لأن قوتها ترتبط فى نفوسهم بقوتهم الجسمية بل الجنسية - (Almost in a Sexual way) فلمــا انتشرت السيارة الصغيرة فيما بعد مثل « فيات » و « فولكس فاجن » سئل عن هذه الظاهرة الجديدة فقال إن النساء يستخدمنها ليصبحن مختلفــات (To be different) على عكس الرجل ، فإنه لا يحب الخروج على المتعارف المألوف فيما يلبس أو يركب . يضاف إلى هذا أن عقدة الذنب قد بدأت تظهر عند الرجال بسبب إنفاقهم على وقود كثير فى جر سيارات كبيرة دون مبرر . ومعنى ما يقوله الدكتور « ديتشر » أن استخدام السيارات لا يتوقف على حسن أدائها بقدر ما يتوقف على ما فى نفوس مشتريها من انفعالات .

وقد جاء فى هذا الكتاب أن محراثاً زراعيًّا لم يحز رواجاً فى أمريكا فى حين راج منافسه ، ولم يستطع المهندسون أن يجدوا فرقاً يذكر بينهما فى الكفاية أو الثمن فأحالوا الأمر على الدكتور « ديتشر » الذى قرر أن السبب يكمن فى الإعلان . فإن الحملة عن المحراث الفاشل تركز على قوته وتتجاهل مقدرة العامل عليه . على حين يركز المحراث الناجح على مقدرة العامل فى الاستفادة من المحراث . وتغيرت سياسة الإعلان فارتفعت المبيعات .

نقطة ماء تبلى الحجر :

إن الإعلان يعتمد على التكرار فى تكوين الرواسب النفسية . فكل إعلان يذكر بسابقه ، ويخلق التوقع للاحقه . وفى نهاية كل إعلان مضروب مشترك هو الشعار (Slogan) الذى يلخص الرسالة الإعلانية ويجعل من الإعلانات أفراداً فى أسرة واحدة : لكل منهم خصائصه ولكن بينهم جميعاً تشابهاً .

إن الناس أعداء ما جهلوا . والإعلان يبلى بالتكرار مقاومتهم للسلعة شيئاً فشيئاً كما تبلى نقطة الماء قطعة الحجر إذا نزلت فى نفس المكان باستمرار .

والإعلان يتفوق بالابتكار . فالابتكار يجذب الانتباه . وبمقدار الانتباه والإعجاب يكون الأثر . على أن الإعلان لا يصح أن يستأثر بإعجاب المستهلكين فيصبح غاية فى ذاته . إنه وسيلة لبيع السلعة ويجب أن يبقى هكذا وإلا أصبح لوحة جمالية تُمتع ولا تبيع .

إن مرهماً لإزالة النمش يبرز فى إعلاناته صورة امرأة مشوهة الوجه قبل استخدام المرهم ، وصورتها الجميلة بعد استخدامه . وإن نوعاً من أنواع الزبد الصناعى يبين فى الإعلان بعملية جمع وضرب مقدار ما ينفق فى الزبد الطبيعى ، ثم يشطب على العملية الحسابية ويبرز بعملية أخرى عن الزبد الصناعى رقماً أقل ، وهكذا يستخدم المعلن أنسب العوامل لحفز المستهلك على الشراء فى كل حالة بخصوصها .

الإعلان التعليمى :

إن كل ما ذكرته فيما تقدم خاص بالسلع الاستهلاكيــة (Consumer goods) أمـا السلع الإنتاجيــة (Capital goods) فالممول لا يشتريها إلا إذا اقتنع بجدواها ، إن المنفعة هى العنصر الفعال ، فالمشترى ليس مستعداً لشراء آلة للإنتاج إلا إذا عرف كل شىء عن ثمنها وطريقة تشغيلها وإصلاحها ونفقات صيانتها . . . إلخ . ولذلك ينجح البائع غالباً بالاتصال الشخصى أكثر مما ينجح بالإعلان على الورق والهواء . على أن الإعلان فى هذه الحالة لا يتجــه اتجاهاً إغرائيًّا (Persuasive) وإنمـا يتجـه اتجاهـاً تعليمياً (Educational) يخاطب العقــل . إن الإعلان يبــذر البــذور ، ثم يأتى البائع فيجنى الثمر .

الإعلان فى الدول الرأسمالية والاشتراكية :

الإعلان فى الدول الرأسمالية يزيد استهلاك السلع فيمكن المنتج من زيادة إنتاجه وتخفيض تكلفة الوحدة . والإعلان هو الذى يغطى معظم مصاريف الصحافة ، ويغطى كل مصاريف الشركات التليفزيونية فى أمريكا واليابان ولبنان . ومنذ قريب أقفلت مجلة (لايف) أبوابها لأن محطات التليفزيون قللت إعلاناتها . إن مخصصات الإعلان يدفعها المعلن ولا يدفعها المستهلك لأنها لا ترفع أسعار السلع وإنما تخفض منها بسبب ما يزيد من إنتاجها .

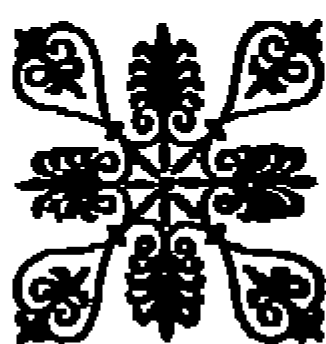
أما فى دول الاقتصاد الموجه فإن الإعلان تعريف . إنه يطلب مجندين أو عاملين ، وقد يتحدث عن نظام اقتصادى جديد أو عن انتخابات جديدة ، ولكنه لا يحرض على مزيد من الاستهلاك .

وإذن هل الإعلان مفيد ؟

نعم . فإذا كان التحرير فى الصحف هو أخبار السياسة والاجتماع فإن الإعلان فيها هو أخبار السلع والخدمات . وإذا كان الإعلان الاستهلاكى يعتمد فى التوجيه على الإيحاء فمن منا لا يعمل فى مناحى الحياة الأخرى بالإيحاء ؟ إننا نفكر فى ربع ما نفعله . وننصاع للإيحاء فى ثلاثة الأرباع الباقية .

التكامل الاقتصادي

والسوق العربية المشتركة



ما زلت أذكر يوماً حضرت فيه حفلاً اقتصادياً كبيراً فى نادى بنك مصر بالقاهرة منذ أكثر من عشرين عاماً قام فيه المرحوم الدكتور « منصور فهمى » داعياً إلى الوحدة العربية فقال : « إنها تتمثل فى وحدة السماء ، فى وحدة الغبراء ، فى وحدة اللغة والدين والتاريخ . . . »

ولم يكن مفروضاً أن أكون من بين المتحدثين فى الحفل ، ولكننى شعرت بدافع مفاجئ يلح علىّ فى أن أستأذن السيد / عبد المقصود أحمد ، رئيس مجلس إدارة بنك مصر وقتذاك – وكان رئيس الحفل – فى التعقيب على كلام الخطيب .

وقلت إن التوافق بين البلاد العربية لا شك أساس متين لقيام وحدة عربية ، ولكن بناء الوحدة فوق هذا الأساس لا يقاوم الرياح الهوج إذا كان من القش ، وصلابته تأتي من توافق المصالح قبل توافق العواطف . فكثيراً ما رأينا ولداً يتنكر لأبيه لأنه حرمه ميراثه ، وزوجاً يطلّق زوجته المحبوبة لأنها غير أمينة على ماله . وفى سورة التغابن : « يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكم فاحذروهم » . لقد كنا نقول : « تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها » ثم عرفنا أن هذا القول من قبيل التمنى ، وإن الطريق الصحيح لتحقيقه هو أن نجنبها الزلل بتوفير العيش الحلال لها . وكنا نقول : « النظافة من الإيمان » فوجدنا أن هذا الشعار لا يمكن تطبيقه

إلا بتوفير الصابون والماء الجارى . وقد كانت التجارة تتبع العَلَم (Trade Follows The Flag) فأصبحت السياسة فى خدمة الاقتصاد ، بل تغير شكل الاستعمار فأصبح استعماراً اقتصادياً بالسلع والأموال ، بعد أن كان احتلالاً بالحروب والجيوش .

وأذكر أننى سمعت « سعد زغلول » فى سنة ١٩٢٥ يقول فى بيت الأمة وهو يشكك فى إمكان قيام وحدة عربية : « إن كل بلد مشدود إلى مستعمر ، فكيف يستطيع أن يضع يده فى يد زميله ؟ » .

حشد الموارد العربية :

وقد رأينا أن اختلاف المصالح كثيراً ما باعد بين الدول العربية ، ودعا لتنازعها مع تركيا وإيران والباكستان مع أنها بلاد إسلامية ، على حين تجلى الود مع الهند واليونان وفرنسا وأسبانيا – وهى ليست كذلك – لأنها وقفت موقف التأييد من مصالح العرب .

يخلص من هذا أن على البلاد العربية أن تستمد ما يكون بينها من علاقات من وحى واقعها ، وأن تنظر أمامها بدل أن تتلفت خلفها ، وأن ترفع شعارات المستقبل قبل أن تردد أمجاد الماضى ، وأن تفصل فى تعاملها بين المذهب الدينى والمذهب السياسى والمصلحة الاقتصادية . إن حضارة العرب تنبعث أولاً من مستوى معيشتهم . وهذا المستوى لا يرتفع إلا بحشد الموارد العربية ، والحشد لا بد فيه من تحقيق التناسق والتكامل .

إن العالم العربى مؤلف من دويلات صغيرة . وهذا مظهر من مظاهر

الضعف لا القوة . بل هو نقص فى الحيوية السياسية والاقتصادية جميعاً . فلا بد من تقليل الشعارات التقليدية للسيادة ، لأنها وحدها لا تستطيع أن تحافظ على مضمون القوة والنفوذ . لم يعد يليق أن يفاخر المصرى أو الكويتى أو اللبناني بأنه مصرى أو كويتى أو لبنانى ، بل يجب أن يكون عربياً قبل كل شيء . وليست هذه دعوة إلى نبذ الوطنية المحلية ، ولكنها دعوة إلى تغليب العروبة عند التعامل .

إن فى العالم اليوم كتلة أمريكية ، وأخرى سوفييتية . وقد قامت كتلة ثالثة فى غرب أوربا هى السوق الأوربية المشتركة . وقامت سوق مشتركة فى أمريكا الوسطى ، ومنظمة تجارة حرة فى أمريكا اللاتينية . وها هى ذى دول أفريقيا تبحث فى إنشاء سوق مشتركة أو منطقة تجارة حرة ، كما تبحث الدول فى جنوب شرق آسيا فى عمل تكتلات مماثلة ، فلتكن لنا عبرة من سلوك سوانا .

ولكن كيف تتكامل الدول العربية ؟

إن العالم العربي ينقسم اليوم أساساً إلى منطقتين كبيرتين : إحداهما زراعية تتألف من : مصر وسوريا والسودان وتونس والمغرب والأردن واليمن ، والأخرى بترولية تتألف من : العراق والسعودية والكويت وبلاد الخليج وليبيا والجزائر . وهذا لا يمنع من وجود البترول فى المنطقة الزراعية ، ووجود الزراعة فى المنطقة البترولية ، ولكن الصفة الغالبة تبقى كما قدمت .

وكثافة السكان فى البلاد الزراعية أكبر منها فى البلاد البترولية ،

على عكس مستوى الدخل فإنه فى الأولى أقل منه فى الثانية . ويلاحظ أن الأراضى الخصبة القريبة من الأنهار أو التى تروى بماء الأمطار فى العراق وسوريا والسودان متسعة وغير مستغلة ، على حين يوجد ضيق فى الأرض وفائض فى الأيدى العاملة فى جمهورية مصر العربية .

ولذلك فلو أبيحت الهجرة بين البلاد العربية لأمكن أن ينتج العالم العربي من القمح والقطن والزهور والخضراوات والفواكه والماشية والطيور ما يكفى أهله ويفيض عنهم إلى الأسواق الأوربية . ومع انتعاش الزراعة ووفرة اللحوم تنتعش صناعات المعلبات والألبان والعطور .

ولو تعاونت البلاد العربية فى البترول لزاد دخلها منه زيادة كبرى . ويكفى لإبراز هذه الحقيقة أن منظمة الدول المصدرة للنفط « أوبيك » المكونة من : فنزويلا والجزائر وليبيا والعراق والكويت والسعودية وقطر وأبو ظبي وإيران وأندونيسيا بعد مؤتمرها الثانى والعشرين الذى عقد فى طهران فى الخامس من فبراير (شباط) الماضى ١٩٧١ قد حصلت من الشركات المحتكرة على نحو ٧ آلاف مليون دولار فى السنوات الخمس القادمة للدول المنتجة فى منطقة الخليج العربي . ولو تعاونت بلاد البترول لأنشأت أسطولاً من ناقلات البترول ، وأقامت كثيراً من مصانع الكيماويات البترولية بما تنتجه من صناعات كثيرة فرعية ، وما تعود به من دخل كبير . إن العرب حين يحصلون على عوائد عادلة لنفطهم ، ويصنعونه ، يستطيعون بشكل فعال تقوية جهودهم لحل مشكلة فلسطين ، وحين يسيطرون على مصير نفطهم يملكون سلاحاً يرهب أعداءهم وينفع أصدقاءهم .

ولو تعاونت البلاد العربية فى التسويق والتسويق الزراعى لأمكنها أن تفرج أزمة تسويق التفاح فى لبنان وسوريا ، وأزمة تسويق العنب فى الجزائر ، وأزمة تسويق البلح فى العراق ، ولأمكنها أن تحصل على الماشية من سوريا وليبيا والسودان ، وعلى القمح من تونس والجزائر والمغرب ، وعلى الفواكه والدواجن من لبنان .

عندنا . . وعندهم :

إن الفدان يغل فى الدنيمارك وهولندا من المحاصيل الزراعية ما يساوى ألف جنيه إسترليني فى العام ، وذلك لأن فى هذه البلاد من الجمعيات التعاونية المركزية ما يقوم بجمع المنتجات وتنظيمها وتصنيعها وتسويقها علباً وزجاجات ، فى حين يبيع العالم العربي مواده الأولية على حالها بالطن أو بالأمتار المكعبة فلا يحصل منها إلا على أقل القليل .

وقد اتجهت جمهورية مصر العربية إلى صناعات الحديد والمنسوجات والسيارات والأسلحة والأسمنت والسماد والورق والسكر والأدوية ، فى حين اتجهت بلاد شقيقة إلى الصناعات الخفيفة كالثلاجات ، والسخانات والخزف والصينى وتشكيل الألومنيوم . وبين الاتجاهين تكامل يمكن تنظيمه عن الماضى وتنسيقه للمستقبل كى ينفسح المجال أمام كل بلد عربى ليبلغ مرحلة الرشد فى مصنوعاته فيطاول مستواها فى البلاد المتقدمة .

هذا عن الإنتاج . أما عن الخدمات فإن من البلاد العربية ما تقدمت فيه السياحة والفندقة والطيران كلبنان وتونس . وما تقدمت فيه صناعة

النشر كجمهورية مصر العربية ولبنان والكويت . وما تقدم فيه التعليم والفقه كمصر ولبنان ، وما تطورت فيه قوانين الأحوال الشخصية كتونس ، وما استقرت فيه الأعمال المالية كالكويت . والتكامل يقضى بأن يعترف لكل ناحية من هذه النواحى بدولة « أم » تشرف على تنميتها فى الدول الأخرى .

وفى العالم العربى مناطق حرة يمكن الانتفاع بها فى التكامل التجارى هى بيروت وبورسعيد وعدن والكويت وطنجة ، ولو نظمت وترابطت لكان للعرب منها منافذ على تجارة العالم وأسطول بحرى موحد ، وآخر جوى يكونان مصدرين للدخل ، وأداتين لا بد منهما لإنعاش التجارة والسياحة ونقل البترول .

بقى التمويل . وهو ليس بعزيز على بلاد تودع مئات الملايين بل آلافها فى بنوك إنجلترا وسويسرا وغيرهما فى حين أن إمكانيات الاستثمار فى العالم العربى كثيرة . إن على الدول المحتاجة أن تقدم الضمانات اللازمة وعلى الدول الممولة أن تقدر مصلحتها فى التعامل مع أخواتها . وليس يكفى أن ننشئ بنكاً زراعياً وآخر صناعياً ، وشركة لإعادة التأمين وأخرى للطيران ، وإنما المهم أن تدعم هذه المنشآت بالأموال لتتمكن من مزاولة نشاطها على نطاق كبير .

قدوة حسنة :

إن السوق الأوربية كانت قدوة حسنة للعرب وإن كانت قد أضرت بصادراتهم الزراعية حتى لقد أنقصت ما تستورده منها بنحو ٢٥ ٪ . إن

هذه السوق بسكانها الذين يزيدون على ١٧٠ مليون نسمة وبمستواهم الحضارى المتقارب ، وتجاورهم فى المكان ، وتماثلهم فى النظم السياسية – وثرواتهم الصناعية والتجارية الهائلة – هذه السوق قد أصبح لها وزن كبير فى الاقتصاد العالمى زاد من قيمته أنها ربطت بعض الدول الأفريقية النامية معها ، فقد نصّت المواد من ١٣١ إلى ١٣٦ من ميثاقها على الإجراءات التى تؤدى إلى أن تنتسب للسوق الدول التى كانت فى الأصل تابعة لبلجيكا وفرنسا وهولندة .

وقد تكونت هذه السوق من ست دول هى : فرنسا وألمانيا الغربية وبلجيكا وإيطاليا وهولندة ولكسمبورج لتحقيق « التقدم المتناسق فى النشاط الاقتصادى مع التوسع المتوازن فى هذا النشاط ، فضلاً عن زيادة الاستقرار الاقتصادى وتحسين مستوى المعيشة ، وتوثيق الروابط بين الدول الأعضاء » .

وعلى الأعضاء أن يتقيدوا بالمبادئ الآتية :

١ – إزالة التعريفات الجمركية وحصص الصادرات والواردات بين الدول الأعضاء .

٢ – إقامة تعريفة جمركية وسياسة جمركية موحدة مع الدول الأخرى غير المنضمة إلى منظمة السوق .

٣ – إلغاء القيود والحواجز التى تحد من حرية انتقال الأفراد والخدمات ورءوس الأموال داخل حدود المنظمة .

٤ – رسم سياسة مشتركة للزراعة والمواصلات .

٥ – إقامة تنظيم اقتصادى لقيام المنافسة .

٦ – اتباع الإجراءات التى تعمل على تنسيق السياسات الداخلية ومعالجة الاختلالات فى موازين المدفوعات .

٧ – إزالة الاختلافات والتباين بين القوانين الداخلية فى الدول الأعضاء تيسيراً لعمل السوق .

٨ – إنشاء صندوق أوربي للخدمة الاجتماعية يهدف إلى تعليم وتدريب العمال العاطلين ورفع مستوى معيشتهم .

٩ – إنشاء بنك للاستثمارات الأوربية لتسهيل التوسع الاقتصادى .

١٠– ربط المناطق التابعة فيما وراء البحار مع منظمة السوق[١].

ولقد كانت السوق الأوربية منوالاً لتوقيع اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية فى سنة ١٩٦٤ من خمسة أعضاء هم : المملكة الأردنية الهاشمية والجمهورية العراقية والجمهورية العربية السورية والجمهورية العربية المتحدة ودولة الكويت . وسرعان ما انضم إلى الاتفاقية الجمهورية اليمنية وجمهورية السودان الديمقراطية فأصبح عدد الأعضاء سبعة ، والعضوية مفتوحة دائماً لباقى الدول الأعضاء فى جامعة الدول العربية .

---

(١) السوق الأوربية المشتركة تأليف وارين نيستروم وبيتر مالوف ترجمة الدكتور صلاح نامق .

أهداف السوق العربية المشتركة :

وتهدف هذه الاتفاقية إلى إيجاد سوق عربية مشتركة تكفل ما يلى :

١ — تحرير التجارة بين البلاد الأعضاء توطئة لإنشاء اتحاد جمركى بينها .

٢ — حرية انتقال الأشخاص ورءوس الأموال .

٣ — حرية التملك والإيصاء والإرث .

٤ — توحيد أو تنسيق مختلف التشريعات الاقتصادية والاجتماعية اللازمة للتكامل الاقتصادى .

٥ — تنسيق الخطط الاقتصادية بما يكفل استثمار الموارد استثماراً أوفى ، وبما ينهض بالصناعة والزراعة وشئون المواصلات .

وقد راعت الاتفاقية التدرج الواجب فجعلت تنفيذ الأهداف السابقة على مراحل عملية حتى يمكن امتصاص الآثار الاقتصادية لكل مرحلة قبل الانتقال إلى المرحلة التالية .

كما راعت الاتفاقية الظروف المحلية للدول الأعضاء ، فأباحت الاستثناء فى فترة انتقال يحددها مجلس الوحدة حماية لصناعة ناشئة ، أو ضماناً لحصيلة جمركية هامة ، أو حفاظاً على صالح اقتصادى أعلى .

إن هدف هذه الاتفاقية هو التنمية الاقتصادية للبلاد العربية على أساس من التكامل الاقتصادى ، ولذلك تبيح لعضوين أو أكثر أن يعقدوا اتفاقية تجارية بما يمثل مرحلة أقوى من المرحلة الجارية طبقاً لبرنامج مجلس الوحدة .

إنجازات الاتفاقية :

١ – قرر مجلس الوحدة تخفيض الرسوم الجمركية على السلع المحلية المنتجة فى البلاد الأعضاء ابتداء من سنة ١٩٦٥ بنسبة ٢٠ ٪ على السلع الزراعية والثروات الطبيعية والمعدنية والحيوانية ، وبنسبة ١٠ ٪ على السلع المصنوعة ، وذلك علاوة على التخفيضات التى وردت فى اتفاقية تسهيل التبادل التجارى المعقودة بين دول الجامعة العربية ، ثم زاد التخفيض على السلع الصناعية إلى ٢٠ ٪ ابتداء من سنة ١٩٦٩ وابتداء من هذه السنة أيضاً أعفيت السلع الزراعية والحيوانية والثروات الطبيعية والمعدنية إعفاء تاماً من الرسوم الجمركية . وابتداء من أول يناير سنة ١٩٧٠ تمتعت بعض السلع المصنوعة بالإعفاء الكامل وتمتعت السلع الصناعية الباقية بتخفيض جمركى قدره ٨٠ ٪ . وكان المفروض أن تلغى جميع الرسوم والقيود ابتداء من أول يناير سنة ١٩٧١ .

٢ – زاد حجم التجارة بين أعضاء المجلس فيما بين ١٩٦٥ وسنة ١٩٦٨ – وهى آخر سنة قدمت إحصاءاتها – بنسبة ٦٠ ٪ والإحصاءات الأولية لسنة ١٩٦٩ تشير إلى ازدياد هذه النسبة .

٣ – أقر مجلس الوحدة مبدأ المعاملة التفضيلية استيراداً وتصديراً بين الأعضاء ، ويعقد اجتماع دورى بين ممثلى المؤسسات التجارية والغرف التجارية لعقد الصفقات على ضوء الاحتياجات المتبادلة وفوائض التصدير .

٤ – وضع المجلس مشروعاً لاتحاد مدفوعات للمقاصة المتعددة

الأطراف وللإقراض المصرفى القصير الأجل . وقام محافظو البنوك المركزية بوضع القواعد والترتيبات اللازمة لقيام الاتحاد على أن يوكل إلى البنك المركزى الأردنى القيام بالأعمال الإدارية فى فترة الانتقال .

٥ – وافق المجلس على تطبيق مبدأ الدولة الأكثر رعاية على الاستثمارات العربية ، وقيام كل عضو بتسهيل انتقال رءوس الأموال العربية من بلد إلى آخر وفقاً لبرامج التنمية المقررة ، والعمل على تشجيع استثمار رأس المال العربى فى المشروعات الاقتصادية المشتركة ، ومعاملة الاستثمارات الوطنية مع كفالة البلد المستثمر ضد التأميم والمصادرة ونزع الملكية .

٦ – وافق المجلس على مشروع المؤسسة العربية لضمان الاستثمار الذى قدمه صندوق التنمية الكويتى والهدف منه هو التأمين ضد المخاطر غير التجارية تشجيعاً لانتقال رءوس الأموال بين الدول الأعضاء وحدد رأسمال المؤسسة بعشرة ملايين دينار كويتى .

٧ – أعطى المجلس أولوية للصناعات الرئيسية كالبتروكيماويات والغزل والنسيج والسكر والورق والجرارات والأدوية والنقل الجوى .

٨ – أقر المجلس بطاقة شخصية وعائلية موحدة لانتقال الأشخاص بين الدول الأعضاء ، إلا أن ظروف عدوان يونية عام ١٩٦٧ أجلت التنفيذ إلى أن تزول آثاره .

٩ – قرر المجلس إرساء علاقات تجارية واقتصادية مع التكتلات الأخرى كالسوق الأوربية المشتركة ومنظمة السوق الاقتصادى المتبادل (الكوميكون) ومع التكتلات النامية .

١٠– اعترفت الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة (الجات) بمجلس الوحدة ، فترتب على هذا الاعتراف إتاحة الفرصة للدول الأعضاء بالمجلس أن تنضم إلى عضوية الجات وتتمتع بالمزايا التى تمنحها[١].

ثم ماذا ؟

ثم إن الجامعة العربية تضم الآن من الهيئات الاستشارية مجلس التنمية الصناعية ومنظمة العلوم الإدارية ، ومنظمة العمل العربية ، ومنظمة الأغذية والزراعة ، ومنظمة الطيران المدنى ، وصندوق الإنماء العربي ، والاتحاد العربى للنقل الجوى ، ومعنى هذا أنها قطعت شوطاً كبيراً فى جعل التكامل الاقتصادى على أساس من البحث العلمى والتكنولوجى . فماذا ينقصها ؟ ينقصها أن نصف العالم العربى لم يشترك بعد فى اتفاقية الوحدة الاقتصادية . إن لبنان وولايات الخليج والسعودية وليبيا وتونس والجزائر والمغرب لا تزال كلها خارج الاتفاقية ، ومعنى ذلك أن الاتفاقية نصف ينتظر نصفه الآخر !

إن النصف الذى تتألف منه الاتفاقية بعضه ينتمى إلى النظام الملكى ، وبعضه إلى النظام الجمهورى ، ومنه دول يمينية وأخرى اشتراكية . وما ينطبق على هذا النصف ينطبق على النصف الآخر ، فليست السياسة إذن هى الحائل دون الاتفاق . ولا يبقى إلا أن تبذل محاولة جادة للتوفيق بين المصالح .

---

(١) تقرير عن مجلس الوحدة الاقتصادية العربية وإنجازاته مقدم من الأمانة العامة .

ألم أقل لك فى مستهل هذا البحث إن المصالح – أردنا أو لم نرد – هى التى تسير الأفراد والجماعات والدول ، وهى التى تعلن الحروب وتوقع الاتفاقيات ؟

التكامل مبدأ حسابى :

لبنان ومصر والأردن والسعودية تستورد القمح من أوربا وأمريكا على حين يفيض فى المغرب فيصدره إلى أوربا . إن المتوسط السنوى لإنتاج الوطن العربي من القمح يبلغ سبعة ملايين طن ، وهذا يعادل ٣٥٪ من الإنتاج العالمى فى حين لا يزيد سكان الوطن العربي على ٣٪ من مجموع سكان العالم !

ومصر تستطيع أن تمد الوطن العربى بحاجته من الأرز وهى لا تزيد على مليون طن فى السنة ، ولكن هذا الأرز يذهب إلى أوربا !

ومصر تستورد التبغ من أوربا وأمريكا مع أنه موجود فى الجزائر وسوريا والعراق ويمكن التوسع فى إنتاجه وتجويده هناك .

ثروات الوطن العربى :

والوطن العربي ينتج أكثر من خمسة ملايين طن من الكروم والحمضيات وما لا يقل عن ٨٥٪ من إنتاج العالم للتمور ، ومع ذلك فإن التفاح الأمريكى لا يزال فى الأسواق العربية ، والبلح المصنّع يأتى من إنجلترا ومن فرنسا !

وجمهورية مصر العربية فى مقدمة دول العالم المنتجة للقطن الطويل التيلة ، والصناعات المصرية لا تستوعب منه أكثر من ٣٠٪ ثم يذهب الباقى إلى أوربا . وتفكر جمهورية مصر العربية فى استيراد الأقطان القصيرة التيلة من الهند لإنتاج المنسوجات الشعبية مع أن هذه الأقطان موجودة فى سوريا .

وتستورد معظم الصناعات العربية أصوافها من الخارج مع أن الوطن العربى غنى بثروته الحيوانية .

وبلاد البترول يقدر احتياطها منه بنحو ٦٠٪ من احتياطى العالم ؛ ولكن إنتاجها منه لا يزيد على ربع الإنتاج العالمى ، ولا يستهلك العرب إلا ١٠٪ من هذا الربع ثم يذهب الباقى خاماً ليصنَّع فى غرب أوربا .

والوطن العربِى غنى بالحديد والمنجنيز والفوسفات ومع ذلك فإنه لا يُصَنَّع من هذه المعادن إلا أقل القليل ثم يصدر الباقى إلى أوربا .

وتنتج تونس والجزائر سنوياً نحو ١٢٠ ألف طن من الرصاص ولا تزال الصناعة العربية عاجزة عن تصنيعه .

مشاكل . . وحلول :

هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى فإن العراق محرومة من واجهة عريضة بحرية ، فليس لها إلا أن تسلك بتجارتها عبر سوريا ولبنان . وبترولها لا بد أن يتجه من أنابيب إلى بانياس بسورية وطرابلس بلبنان .

وسوريا تحاول توجيه تجارتها نحو ميناء اللاذقية وطرطوس ولكنها

لا تستغنى مع ذلك عن ميناء بيروت .

والأردن لا يملك منفذاً بحرياً إلا ميناء العقبة فمنافذها الطبيعية هى موانئ شرق البحر المتوسط .

والسعودية تعانى مشكلة نقل بترولها إلى الأسواق الخارجية ، فلا مفر من أن يمر ببلاد عربية أخرى سواء سلك الطريق البحرى أو دفع بالأنابيب .

ودولة الكويت فى حاجة إلى مورد مياه عذب وهو بجوارها فى العراق .

والسودان تضم ٤٠ مليوناً من الهكتارات القابلة للزراعة ، ولكنها تفتقر إلى الأيدى العاملة وهى موجودة على مقربة منها فى الشمال(١) .

إن فى الوطن العربى كثيراً من الرزق وقليلاً من التوفيق . كثيراً من التعاطف وقليلاً من التعاون . كثيراً من الشعارات وقليلاً من الأفعال . ولو تدبرت كل دولة عربية أمرها لوجدت التكامل مبدأً حسابياً قبل أن يكون مطلباً قومياً .

خبراؤنا من العرب المغتربين :

بقى أن فى الوطن العربى خبرات كثيرة . وله فى أوربا وأمريكا مئات الألوف من العرب الخبراء يسعدهم أن يمدوا أيديهم إلى أهلهم . لماذا لا نجرى لهم حصراً وننظم لهم رحلات سياحية يسترجعون فيها صلاتهم بذوى

---

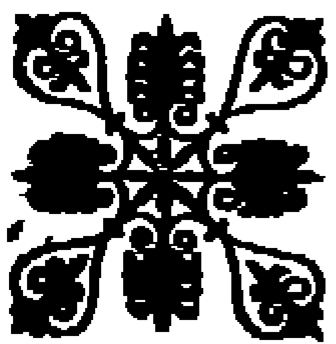
(١) الموارد الاقتصادية فى الوطن العربى للدكتور محمد صبحى عبد الحكيم وآخرين

قرباهم ؟ ولماذا لا نعين منهم مستشارين فنيين للحكومات العربية كل فى تخصصه ؟

إن العرب متكاملون فى الموارد والرجال ، ولكن الاستعمار وجههم سنوات طوالاً نحو التنافس لا نحو التكامل ، فسار الإنتاج فى خطوط متوازية غير مترابطة . وكان هذا الوطن جسد قطعت أوصاله ثم ألصقت بأجساد أخرى !

العالم العربي

في حاجة إلى التصنيع
والتصنيع في حاجة الى دراسة واسعة



* لم يعد العالم العربي فى مجموعه محتاجاً إلى رءوس الأموال بقدر حاجته إلى البحث العلمى Reseach . إن حاجته إلى التصنيع قد تدفعه فى مغامرات غير محسوبة إلى بناء مصانع كبيرة الكلفة وإن كانت غير قابلة للحياة . والقابلية للحياة Viability شرط ضرورى لقيام المصنع ، وإلا أصبح ما ينفق فى إنشائه هباء ، وما يبذل فى تشغيله عبئاً كبيراً .

لقد قامت فى أوربا وأمريكا من أجل ذلك ألوف من مكاتب بحث الجدوى Feasibility Study مهمتها أن تستقصى مدى توافر العناصر الضرورية لنجاح المشروع قبل قيامه . وفيما يلى أربع نواح فسيحة لا بد من استيفائها .

أولاً — سلامة الموقع :

إن مصانع الحديد والصلب فى السويد وفى الولايات المتحدة وغيرهما تقوم عادة عند سفوح الجبال التى تحتوى على ركام الحديد ، وبقرب البحار والمحيطات التى تعبرها السفن لنقل المنتجات . ومصانع الورق تقوم فى كندا وفنلندا والسويد والنرويج قريبة من الغابات أو متصلة بها عن طريق جداول مائية تطفو فوقها الأخشاب فى طريقها إلى الطواحين Mills ، ومنها إلى البحار ، فالأسواق . ومصانع الغزل والنسيج تقوم عادة وسط مزارع القطن ومراعى الغنم فى جو رطب ، يغنى عن التكييف ، وهو كثير

النفقة . ومصانع التعليب تقوم وسط المراعى وبقرب مصائد الأسماك أو مزارع الخضراوات والفواكه .

ويكفى لتجسيد أهمية الموقع أن نقول إن موقع قناة السويس بين البحر الأبيض والبحر الأحمر هو الذى أثار اهتمام العالم أجمع بافتتاحها يوم ٥ يونيو سنة ١٩٧٥ . ووقوع ميناء عدن على طريق البواخر إلى هذه القناة هو الذى يهيئ لها الانتعاش المرتقب . إن انتقال متجر من السالمية بالكويت إلى شارع فرعى قد ينتهى به إلى الإفلاس . ووقوع دكان للشطائر أمام إحدى دور السينما قد يكفى لإقبال الطاعمين عليه .

وأهم العوامل المؤثرة فى اختيار موقع المصنع هى قربه من المواد الأولية اللازمة ، وبخاصة إذا كانت ثقيلة الوزن ، وقربه من السوق إذا كانت منتجات المصنع لفئات معينة من الناس أو لمصانع أخرى . وقربه من مصدر العمال المحترفين والكهرباء والمياه مع مراعاة تكاليف الأرض وهى اليوم باهظة الثمن . ذلك أن تكاليف النقل لا يمكن تجاهلها عند دراسة الجدوى .

ثانياً — القدرة التنافسية :

قبل أن يضع المستثمر العربى أمواله فى مصنع ، لا بد أن يستوثق من قدرة هذا المصنع على التفوق على المصانع القائمة فى العالم العربى ، وأن يقدر المدة التى يبلغ بعدها سن الرشد ، فينافس المصانع النظيرة فى الخارج . وهنا تثور أسئلة مهمة منها :

١ – ما هى نقطة التعادل Break-even Point التى يتساوى عندها الإيراد بالمصروف ، وبعدها تتحقق الأرباح ؟

إن للمشروعات حجماً مثالياً لا بد أن تبلغه ، وإلا قصر الإنتاج عن تغطية النفقات الثابتة .

٢ – هل المواد الأولية الرئيسية إلى بقاء أو نفاد ؟ وهل الطلب على منتجات المصنع مهدد بالتوقف إذا ظهر بديل مرتقب مثل ما حدث لمصنع الجامكسان فى مصر وقد كان معداً لمكافحة دودة القطن ثم ظهر أن فعاليته فى ذلك توقفت بعد قليل ؟

٣ – إلى أى مدى يمكن الاستعانة بالخبرة الأجنبية عن طريق المشاركة أو الاستخدام ؟ وهل يمكن العمل تحت اسم معين مع الاستفادة من أسرار الصنعة مقابل نسبة معينة على رقم الإنتاج أو البيع ؟ إن للولايات المتحدة مصانع كثيرة فى أوربا وفى اليابان تنقل معها الخبرة وتستفيد فى عملية الصنع بالأيدى العاملة المتوافرة بالقرب من الأسواق .

٤ – كيف يتم التوسع فى المصنع ؟ رأسياً أو أفقياً ؟ أى هل نزيد وحدات الإنتاج من السلعة نفسها أو نضيف إليها سلعاً أخرى متصلة ؟

إن التوسع قد لا يكون مطلوباً فى جميع الأحوال ، وليس من الضرورى أن يلجأ مصنع للصلب إلى إقامة مصنع للحديد ، ومن أجل الحديد يقيم مصنعاً لفحم الكوك ، فالتخصص هو سمة العصر ، وقد يشترى مصنع للسيارات ما يلزمه من ساعات وأجهزة راديو من شركات متخصصة ، لأنها تكون من نوع جيد وبسعر معتدل . وقد يشترى مصنع للثلاجات

ما يلزمه من موتورات ، فيجد ذلك أيسر وأرخص .

٥ – ماذا ينتظر أن يكون عليه ربح المصنع ؟ وهل العائد منه يكافئ ما يستثمر فيه من الأموال ؟

إن الصناعة ليست للمفاخرة بل للمتاجرة ، إلا أن تكون للدولة مصلحة فى قيام صناعة لازمة للدفاع عن البلاد ، أو للعناية بالفقراء ، ففى مثل هذه الحالة يدخل فى دراسة الجدوى مقدار الإعانة التى تتعهد الدولة بتقديمها للمصنع .

ثالثاً — الملاءمة بين سوق السلعة وخواصها :

كيف تؤدى السلعة وظيفتها ؟

إن الغسالة الكهربائية قد يكون من اللازم وضع الماء ساخناً فيها ، وقد تقوم هى بتسخين الماء . والمكواة قد تصمم للكى فقط ، وقد يراعى فى تصميمها أن ترش الماء قبل الكى . والخلّاط قد يؤدى خدمات إضافية إذا ركبت فيه قطع جديدة .

وكيف تؤدى السلعة وظيفتها بكفاية ؟

إن فتاحة العلب يجب ألا تجرح اليد ، أو تسقط فتات الغطاء داخل محتوى العلبة أو الزجاجة . وموقد البوتاجاز يجب أن يكون ارتفاعه بحيث لا يضطر سيدة البيت إلى الانحناء عند استعماله . والأثاث يجب أن يكون بحجم يسمح بإدخاله إلى الحجرات من الأبواب فى يسر . والثلاجات وأجهزة التكييف يجب أن تكون صامتة فلا تؤذى الساكن بضجيجها . وهكذا.

وكم يكون عمر السلعة المصنعة ؟

إن العمر غير الجودة ، فطلقة الرصاص أو الصاروخ لا يتعدى عمرها الثواني ولكن هذا لا يعنى أن تصنع من مادة رديئة . ومستوى الجودة فى الأجزاء التى تتكون منها السلعة يجب أن يكون متوازناً بحيث تنتهى جميعاً فى أوقات متقاربة . ومما يطيل عمر السلعة أن تصنع من أجزاء نمطية يسهل استبدال غيرها بها عند الحاجة .

وأخيراً لا ننسى مظهر السلعة ، فمن السيارات ما يتفوق ميكانيكيًّا ولكنه لا يقف أمام سيارات أخرى تتميز بالكروم والشكل الانسيابى ، والمظهر الأنيق .

رابعاً — التقنية النوعية :

لقد كنا نتعلم — ونحن صغار — أن الصناعة لا تقوم فى بلد إلا إذا توافر فيه الفحم والحديد . وكنا ندرس فى علم الاقتصاد أن التجارة الخارجية مبعثها الوحيد هو اختلاف نفقات إنتاج السلع فى بلد عنه فى الآخر ، وإن مبعث هذا الاختلاف هو مدى توافر المواد الأولية والقوى المحركة ورخص الأيدى العاملة . . وأخيراً تغير كل شىء . فقد أصبحت اليابان من أغنى بلاد الدنيا وليس فى مناجمها فحم أو حديد ، وليس فى مزارعها قطن أو حبوب ، ولكنها أعدت لنفسها أسطولاً ضخماً من السفن يجلب لها ما تشاء من المواد الأولية بأسعار قليلة من أسواق العالم ، ثم يعيدها مصنعة بأسعار عالية إلى هذه الأسواق ، فيبقى لليابان فرق السعر وهو كبير . لقد برز

دور التكنولوجيا فى التجارة الخارجية ، وتراجع دور توافر المواد .

إن اليابان تبيع اليوم راديو الترانزستور ، وأجهزة التليفزيون ، وآلات التصوير ، والساعات ، لا بمقدار ما فيها من معدن ومطاط ، ولكن بمقدار ما فى تصميمها من علم وخبرة .

والولايات المتحدة تبيع اليوم أجهزة الكمبيوتر ، والطائرات النفاثة ، وأسلحة الدمار ، ومعدات الطهو والغسل والكى والتبريد ، لا بمقدار ما فى حديدها من جودة ومتانة ، ولكن بمقدار ما فى كهربائها وإلكتروناتها من جدة وفاعلية . بل إن مصانع القماش تتميز اليوم بما تستحدثه فيه من خصائص سهولة الغسل والتجفيف وعدم الانكماش .

التقنية فى الكويت ومصر :

ما دام هذا هكذا فإننى أتساءل ماذا يمنع الكويت – ولديها رأس المال – من أن تسرع باستقدام التكنولوجيا الحديثة ، فيكون لها من المصانع ما يدر عليها دخلاً لا يقل عن دخل البترول ؟ ذلك والبترول إلى نفاد ، على حين أن الصناعة إلى بقاء وتزايد . لقد نجحت الطباعة فى الكويت . ونجحت صناعات الرخام والتعليب والتجميع والصيد والفندقة ، فلماذا لا تنجح صناعات الأثاثات المعدنية والبلاستيك والخزف والصينى والمصنوعات الجلدية ، ثم تتلوها صناعات الساعات والراديو والتليفزيون والثلاجات والتكييف ، بل السفن والسيارات ؟

إن الجيل الجديد من الكويتيين الذين يتلقون العلم فى أوربا وأمريكا

قادرون على أن ينقلوا إلى الكويت أحدث ما وصلت إليه التقنية الصناعية . والتقنية هي اليوم – كما قدمت – حجر الزاوية فى كل تقدم .

وما أقوله عن الكويت أقول مثله عن السعودية وليبيا وإمارات الخليج والعراق وغيرها .

لقد قطعت مصر شوطاً بعيداً فى تصنيع نفسها . وقررت أخيراً أن تنفتح على الغرب وعلى الشرق جميعاً ، لأنها أدركت أن الآلات لا تنتج وحدها ، ومهما تقدمت العقول الإليكترونية فهى دائماً فى حاجة إلى عقول فوق الأكتاف ، ولذلك تسعى مصر إلى الاستعانة برءوس الأموال العربية وبالخبرة الأوربية والأمريكية ولن تجىء رءوس الأموال والخبرة إلا إذا اشتركتا فى الصناعة . أما الاقتراض وأما الاستخدام فهما وسيلتان ثبت إخفاقهما فى تحقيق ما عقد عليهما من آمال . ولا خوف من الاستعمار الاقتصادى ما دامت الدولة متنبهة إلى فرض سيادتها فى كل حالة بخصوصها .

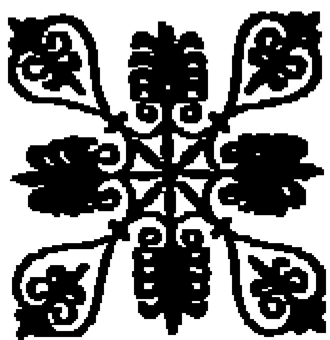
إن رءوس الأموال العربية نصف ، يحتاج إلى نصفه الآخر وهو الخبرة الغربية ، ومتى تلاقى النصفان انتقل العالم العربي من حالة التخلف التى يعانيها فى سنة ١٩٧٥ إلى عصر التصنيع فى سنة ٢٠٠٠ ، ولا شك أن هذا يتطلب خطة اقتصادية تضعها الجامعة العربية للربع الأخير من هذا القرن ، فتقوم بمسح شامل للإمكانات المادية والبشرية المتاحة فى كل بلد عربي ، وتحقق التكامل بين الأقطار العربية لتقوم

التجارة بينها . وبالتجارة يتحقق التفاعل ، فتتم الوحدة ، أو على الأقل الاتحاد .

ولا بد أن يسبق كل مشروع صناعى دراسة مستفيضة لمدى قابليته للحياة . أما الاكتفاء فى ذلك بالانطباعات والأماني فقد يصلح لتدبيج المقالات والخطب ، ولكنه لا يحقق ما يرجوه العالم العربي لنفسه فى القرن القادم من مكانه بين الأمم .

الإدارة والتعاون

مهما اختلفت النظم السياسية



. نحن نرى الدول تختلف فى نظمها السياسية ، وتلتقى فى الإدارة والتعاون . نراها تتباعد فى النظر ، ولكن نظرياتها تختلط عند التطبيق . فقد أجمعت الدول كلها على نبذ النظام الإقطاعى ، ثم انحاز بعضها إلى اليمين ، وانحاز بعضها إلى اليسار ، ثم تحرك الفريقان كل من موقعه نحو الآخر بدرجات متفاوتة .

– واليمين فى اختصار شديد – يؤمن بأن المال فى يد الفرد أكثر غلة منه فى يد الدولة لأن الدولة عنده تاجر سيئ Bad Trader فالمجتمع تتحقق مصلحته بشكل أحسن إذا بقيت الملكيات فى يد الأفراد مع فرض الضرائب على إيرادها بنسب متصاعدة لمصلحة الدولة . وأبرز الأمثلة لليمين الولايات المتحدة الأمريكية واليابان .

واليسار – فى اختصار شديد – يؤمن بأن الأفراد إذا تركت لهم ملكية العقار والمصنع فسيعملون لتحقيق الربح لا لتحقيق رفاهية المجتمع . وسيتحكمون فى العمال فيأخذون منهم أقصى الجهد بأقل الأجر . وأبرز الأمثلة لليسار الصين والاتحاد السوفييتى .

والاشتراكية تأتي بين بين . فتدعو إلى أن تكون مشروعات الإنتاج الكبرى فى يد الدولة ، ومشروعات الإنتاج والخدمات الصغرى فى يد الأفراد . وبذلك يشترك القطاع العام والقطاع الخاص فى خدمة المجتمع كل فى حدود ما يناسبه . وأبرز الأمثلة للاشتراكية مصر والعراق وسوريا والجزائر .

شركات اليمين واليسار :

إن إنجلترا وفرنسا وسويسرا من الدول اليمينية ومع ذلك فإن إنجلترا أممت صناعات الصلب والفحم والغاز وطرق المواصلات ومهنة الطب وقررت تقاعداً للمتعطلين من العاملين .

وفرنسا أممت البنوك وشركات التأمين وطرق المواصلات ، وهى تعطى إعانات الغلاء للأبناء الشرعيين وغير الشرعيين على السواء .

وسويسرا تعطى تقاعداً شهرياً لكل من يبلغ من سكانها الستين من عمره ، إذا كان قد مضى على إقامته فيها عشر سنين .

ومن الدول اليمينية مايهيئ لأبنائه التعليم والعلاج بالمجان ، ويقطع أهله أرض البناء وأرض الاستصلاح للزرع بمقابل يسير . ومنها ما يبنى المساكن الاقتصادية ويوزعها على العمال والفلاحين بأقساط طويلة الأجل وفوائد زهيدة القيمة . وكل هذه اتجاهات اشتراكية .

ومن الدول اليسارية كيوغوسلافيا ما يسمح لأفراده بتملك المساكن والمزارع الصغيرة . بل إن منها ما يجيز تملك المصانع بشرط ألا يزيد العاملون فيها على عدد محدود . ولو قارنا بين الصين والاتحاد السوفييتى وهما قطبا الشيوعية لوجدنا مفهومهما لها على غير اتفاق .

وقد اعتنقت دول عربية كمصر وسوريا والعراق والجزائر والسودان النظام الاشتراكى ، ولكنها تمسكت جميعاً بدينها الإسلامي وثقافتها العربية .

ولو استعرضنا الدول على اختلاف نظمها السياسية ، لوجدنا منها الناجح فى كل نظام . فمن اليمين مثلا الولايات المتحدة واليابان وألمانيا والسويد ، ومن اليسار الاتحاد السوفييتى والصين وألمانيا الشرقية وبولندا .

الإدارة عامل مشترك :

والذى نستنبطه من هذا الاستقراء أن النجاح يمكن أن يوجد فى ظل أى نظام سياسى ، فكل النظم تحض على الإنتاج ولا تتدخل إلا فى توزيع الفائض . ونجاح الإنتاج يتوقف على حظ الدولة من الإدارة العلمية الحديثة . والإدارة تتمثل فى العلاقة بين المدخلات Input والمخرجات Output. والمدخلات أربعة يطلق عليها رجال الإدارة 4m's وهى :

Men-materials-machines-money

أى رءوس الأموال والآلات والمواد والقوى البشرية .

ا.ت فهى الوحدات المنتجة . وقياس الكفاية يكون بقسمة

ال.اصر الأربعة للمدخلات .

ن السياسة لاتستطيع

ذا توافرت لديه عناصر

ما يحقق لكل مواطن

وهل التعاون مشترك أيضاً ؟

نعم فقد لجأت الرأسمالية إلى التعاون كوسيلة ملطفة لسوء توزيع الثروة والدخل والتطاحن بين الطبقات ، وقيام الأزمات الاقتصادية .

ولجأت الشيوعية إلى التعاون كوسيلة ملطفة لمبدأ الدكتاتورية المطلقة ، وانعدام الدافع الشخصى لزيادة الإنتاج ، والقضاء على المذاهب الروحية للأفراد.

ولجأت الاشتراكية إلى التعاون كنظام مكمل للتأميم فى القطاع الزراعى والقطاع المسكنى والصناعات الصغرى .

يؤيد ماتقدم أن التعاون ظهر فى إنجلترا على يد « وبرت اوين » (١٧٧١ — ١٨٥٨) حين أدخل الإصلاحات الآتية :

١ — قلل ساعات العمل من ١٩ ساعة إلى ١٠ ساعات .

٢ — رفع أجور العمال .

٣ — منع تشغيل النساء والأطفال دون العاشرة .

٤ — فتح مدارس لتعليم أطفال العمال .

٥ — أسكن العمال مساكن صحية .

٦ — وفر المواد الغذائية للعمال بأثمان معتدلة .

وقد اقترح إنشاء وحدات زراعية تتراوح كل منها بين ٦٠٠ و ١٨٠٠ فدان ، ويسكن كلا منها نحو ١٢٠٠ شخص « ينتج كل منهم حسب قدرته . ومكث يبشر برسالة التعاون حتى قيل إن الفضل فى الاشتراكية البريطانية يرجع إليه » .

ثم جاء أخيراً « برتراند رسل » فوصف الجمعية التعاونية بأنها وسيلة لقهر القوة السياسية المستغلة ، ووجد تعارضاً بين التعاون والشيوعية ، خصوصاً وأن أعضاء الجمعيات هم عادة من أصحاب الملكيات الصغيرة ، فهم لا يميلون إلى الثورات. ومعنى هذا أن الجمعية التعاونية فى رأيه ملكية فردية مشتركة تحت إشراف حكومى .

وفى فرنسا نادى « لويس بلان » Louis Blanc (١٨١١ — ١٨٢٢) بالمجتمع الاشتراكى وتبنى مبدأ « كل حسب مقدرته ولكل حسب حاجته » وأرسل (شارل فرييه Charles Fourier) إلى محمد على فى مصر خطاباً يقترح فيه إنشاء مجمعات تعاونية تكون أساساً للنظام الزراعى فى مصر .

وفى ألمانيا أنشأ (فردريك رايفايزن Fredrick Reffeisen — ١٨١٨) و (هيرمان شوتز Hermann Shcultz) بنوك التسليف لحماية صغار العمال والتجار من المرابين .

أما فى البلاد الشيوعية فقد صرح « كارل ماركس » (١٨١٨ — ١٨٨٣) فى كتابه (رأس المال) بأن التعاون تجربة كبرى تؤدى إلى إنتاج عصرى بدون إشراف رأسمالى ، وأوصى بإنشاء البنوك التعاونية الزراعية والجمعيات التعاونية الإنتاجية .

ورأى « لينين » أن الجمعية التعاونية عضو اشتراكى ووسيلة للإشراف على التجارة الداخلية . وذكر فى المؤتمر الاشتراكى بكوبنهاجن عام ١٩١٠ أن الجمعية التعاونية الاستهلاكية يمكن أن تساهم فى الكفاح الاقتصادى

للبروليتاريا بمساعدة العمال خلال فترات الإغلاق .

ومن قبل ذلك قرر المؤتمر الاشتراكى الألمانى بهانوفرعام ١٨٩٩ أن الجمعية التعاونية أداة للثورة الاشتراكية فى تجميع الأموال وفى تدريب العمال على إدارة الأعمال وعلى الإشراف على الشركات المؤممة .

لقد اتجه أصحاب المذهب الشيوعى إلى التخفيف من غلوائه فطعموه بالتعاون وعدلوا مبدأ (لويس بلان) ليصبح « من كل على قدر طاقته ولكل على قدر عمله » وأنشأوا المزارع الجماعية والمزارع الحكومية وخططوا الاستهلاك القومى بما يتفق مع الخطة الاقتصادية العامة .

وماذا فى الشرق الأوسط ؟

لقد دعا « عمر لطفى » فى مصر إلى التعاون ونجح فى تأسيس عدد من الجمعيات الزراعية المنزلية حين رأى تراكم الديون على أصحاب الأراضى الزراعية ووصول الفائدة التى يتقاضاها الأجانب إلى ٣٪ شهرياً أى ٣٦٪ فى السنة وإمعان المحاكم المختلطة فى تأمين حقوق الأجانب .

وبعد قيام الثورة فى سنة ١٩٥٢ أخذت الدولة على عاتقها النهوض بالحركة التعاونية ودعمها بمختلف الوسائل حتى زاد عدد الجمعيات الزراعية على ٨٠٠٠ وغير الزراعية على ألفين .

وفى إسرائيل تبرع « روتشيلد » بإنشاء سبع مستعمرات زراعية باسم (الكيبوتز Kibbutz) وكل مستعمرة تبلغ مساحتها نحو ألف فدان ،

تؤجر بعقود متوارثة لمدة ٤٩ عاماً قابلة للتجديد يعيش فيها حوالى خمسمائة شخص نصفهم من الزراعيين والنصف الآخر يشتغل بالصناعة والتجارة. أما الزراعيون فيستخدمون الآلات المخصصة لهم، ويقومون على تربية الماشية والدواجن. ولا يجوز لأى منهم أن تكون له أرض وماشية خاصة. على أن هناك نوعين آخرين من المستعمرات استجدا باسم (أفديم Ovdim) و (شيفوتى Shifute) وسمح فيهما بالملكية الخاصة، على أن تكون شركة فى رأس المال والإدارة والعمل وطرق الاستغلال، وعلى أن تكون الزراعات خاضعة للمنهج العام فى المستعمرة.

ومن إحصاء ظهر فى سنة ١٩٥٠ اتضح أن فى إسرائيل ٢٤٠ كيبوتزاً، و ١٥٨ أفديماً، و ١٥ شيفوتياً، ولا شك أن هذا العدد قد تضاعف فى العشرين سنة التى تلت ظهور هذا الإحصاء. أما تسويق المنتجات فهو فى يد منظمة واحدة قومية هى (تنوفا Tnuva).

ونذكر هذا عن أعدائنا، ومن أحق بالذكر من أعداء.

نحن والعالم :

إن البلاد العربية لا حق لها فى أن تعلق أخطاءها على نظمها السياسية فتكثر من التعديل والتبديل فى دساتيرها وقوانينها وبرامج جامعاتها على حين أن أغلب الخطأ فى التطبيق. إن قوانيننا على الورق من خير القوانين طرًّا، وبرامج الدراسة على الورق تعادل نظائرها فى أوربا وأمريكا. ولكن العيب فى التنفيذ والتنفيذ سنده الإدارة.

لقد كنا فى المدرسة ونحن صغار نحب اللغة العربية لأننا نحب مدرسها ونكرهها لأننا لا نحبه مع أن برنامج الدراسة واحد فى الحالتين وإنما طريقة نقل المعلومات إلى أفهام التلاميذ هى التى يتوقف عليها فى النهاية أن يتعلموا أولا يتعلموا .

إن القوانين حين توضع تبقى مجرد حبر على ورق حتى تجىء الإدارة فتحركها إلى عمل صالح أو سيئ . ونحن نعرف أن الدستور فى إنجلترا غير مكتوب ومع ذلك فإن هذا البلد أكثر البلاد استرشاداً بتقاليده الدستورية .

أما التعاون فهو السبيل إلى تكتيل الجهود وتقليل النفقات . إن ١ + ١ = ٢ ولكن ١ - ١ = صفراً ، فإذا سارت الجهود فى اتجاه واحد كانت إضافات ، وإن سارت فى اتجاهات متعارضة تحولت إلى هدم ، لأن كلا منها يبطل فعل الآخر . وقديماً قالوا : « تعارضا تساقطا » .

يقول الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى » ويقول الرسول الكريم : « الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » ولكن هل يكفى أن ينتشر التعاون كنظام فى البلاد العربية لكى يصلح كل شىء ؟ إن التعاون كنظام أقرته البلاد العربية ولكنها لم تأخذ به حتى الآن كعمل .

إن فى أمريكا جمعيات تعاونية لحلج القطن وكبسه وتخزينه وتسويقه ، وفيها جمعيات لتحسين تقاوى القطن وإنتاجها وتوزيعها ، وجمعيات لعصر زيت البذرة ، وجمعيات للقروض الزراعية ، وجمعيات للتأمين ضد الحريق .

وفى إنجلترا جمعيات لتربية الماشية والدواجن ، وجمعيات لتسويق البيض وأخرى للفواكه ، وثالثة للمنتجات اللبنية ، ورابعة لتسويق الماشية واللحوم والصوف ، وخامسة للخدمات الزراعية .

وفى فرنسا وإيطاليا وسويسرا والاتحاد السوفييتى وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية ويوغوسلافيا من البنيان التعاونى والإشراف الحكومى ولوائح الزراع الجماعية ومحطات الآلات والجرارات ما يغنينا عن البحث فى تنظيم الجمعيات والاتحادات التعاونية فى العالم العربى .

كل ماهو مطلوب منا أن ننقل الإدارة والتعاون عن هؤلاء فى الشرق والغرب فهل نحن فاعلون ؟

فهرس

الصفحة

رقم الإيداع	١٩٧٦/٣١٠٢
الترقيم الدولى ٤ – ٩ ٢٤ – ٦ ٢٤ – ٩٧٧	ISBN

١/٧٦/١٣٥ مطابع دار المعارف–١٩٧٦

